المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثامن والثمانين

٦ شوال سنة ١٣٥٤ — ١ يناير سنة ١٩٣٦

هذا العدد من المقتطف يختلف عن كل عدد صدر منذ ستين سنة الى يومنا هذا . فهو في موضوع واحد ، ولكاتب واحد

أما الموضوع فأبو الطيب المتنبي

وأما الكاتب فالاستاذ محمود محمد شاكر

وقد رأى محرر « المقتطف » في العناية بالاحتفال بانقضاء ألف سنة على وفاة المتنبي ، وفي طرافة المباحث التي انطوت عليها رسالة الاستاذ شاكر ، ما يسوغ له أن يجعل هذا العدد بمثابة كتاب يرفعه :

الى ابي الطيب المتنبي

أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

كنت في غلواء الشباب حين وقعت لي فيما كنا نتعلم من « المحفوظات العربية » أبيات للمتنبي حفظتها في غير عناء ، وجعلت أرددها بكثير من اللذة والحماسة ، لانها كانت تنطوي — فيما أظن الآن — على ذكر سجايا يتيه بها الشاب وتهز معاطفه ، إذ لايزال في مستهل الحياة ، يراها، أو يتصورها ممتدة أمامه : ميداناً رحباً ليس له فيه إلا الاقتحام والغزو والظفر . فكذلك كان مما حفظته — وكأنما طبعت في ذاكرتي بأحرف من نار :

ردي حياض الردى ، يانفس ، واتركي حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذرك على الارماح سائلة فلا دعيت ابن أم المجد والكرم

***

أين فضلي ، اذا قنعت من الدهر بعيش معجل التنكيد ؟
أبداً أقطع البلاد ، ونجمي في نحوس ، وهمتي في سعود

***

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

***

ولاتحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله

« لا يكلِّفُ الله نفْساً إلاّ وُسْعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربَّنَا لا تؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا ، رَبَّنَا ولا تحمل علينا إصراً كما حملتَهُ على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمِّلْنا ما لا طاقة لنَا به ، واعفُ عنَّا واغفر لنا وارحمنا »

« ربَّنَا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لَدُنْكَ رحمة إنَّك أنت الوَهَّاب »

وبعدُ ، . . . . فهذه كلمة منّي عن شاعر العربية ولسانها الحكيم

أبي الطيب المتنبي

وأنا أشكر لكل من أعانني — بعلمه أو قلبه أو عطفه — عونَه . وأخصّ بالشكر الفريق أمين فهد المعلوف ، والأستاذ محمد فريد نامق ، والأستاذ فؤاد صرّوف .

مصر الجديدة : شارع المنصورة ٢٢
أول شوال سنة ١٣٥٤
٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٥

محمود محمد شاكر

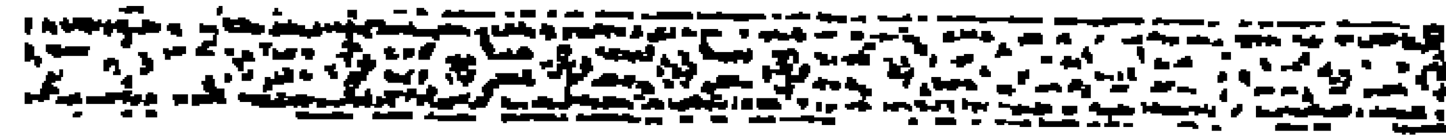

ذكرتُك بين ثنايا السُّطورِ،
وأضمرتُ قلبيَ بين الكَلِمْ
ولستُ أبوحُ بما قد كتمتُ،
ولو حزَّ في النَّفس حدُّ الألمْ
تُمزِّقني — ما حييتُ — المنى،
فأرقعُ ما مزَّقتْ بالظُّلَمْ
فكم كتمَ الليلُ مِنْ سِرِّنا؛
وفي الليل أسرارُ مَنْ قد كتمْ
تشابهَ — في كَتْمِ ما نستسرُّ —
سوادُ الدُّجى، وسوادُ القلمْ

محمود محمد شاكر

وتضريب أعناق الملوك ، وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجرُ
وتركك في الدنيا دويّا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشرُ

***

وعندما اراجع ديوان المتنبي الآن تمر بي أبيات من الشعر كأن رنينها إذ أقرؤها محمول اليّ من مغاور متغلغلة في جوف الماضي . واكثر هذه الابيات من شعر الغزل والنسيب الذي كان المتنبي يستهل به بعض قصائده . ولست أحفظ الآن من ذلك إلا نزراً يسيراً : لان رجولة المتنبي كانت هي التي تفتنني في صباي دون رقته ونسيبه ، وقد كنت اظن ان رجولته هذه يكون مردها في الغالب . الى خياله المتوثب وحده — الى ان قرأت احول هذا الجزء من المقتطف وتجاربه ، فاذا هي ، بحسب رأي الكاتب ، متصلة أوثق اتصال بأصله ونشأته وتربيته التي قامت عليها جدته . « أم امه » وحوادث عصره وحياته ، واذا أقوى شعره إعراب بليغ ، وبيان واضح عن ذلك كله

وكنت اطلب العلم في جامعة بيروت الامريكية فكان أستاذنا في الادب العربي (جبر ضومط) رحمة الله عليه . مولعا بدراسة المتنبي وتدريسه ، فقضينا معه سنتين نختلف من قصائد المتنبي ما يتخيره لنا منها ، ونمعن في حل أبياتها وإعراب ألفاظها ، ويمعن هو في تفسير معانيها وبيان ماتحمل في ثناياها من حكمة وفلسفة . وكان لا يفوته ان يلمح احياناً الى ان حياة المتنبي لعلى صلة وثيقة بعصره . وكان معظمنا لايعي من تاريخ الشرق العربي في ذلك العهد الا اليسير ، فمر بهذا التلميح غير آبه

واكبر الظن عندي الآن — وقد اطلعت على رسالة صديقي الاستاذ محمود محمد شاكر ، وما جلاه فيها من دقائق هذه الصلة — ان استاذنا كان قد حاول ان يجتلي بعض هذا الغامض ، فتبينت له اشياء لم ينشرها ، إما التزاماً للحذر العلمي قبل القطع برأي ، وإما مراعاة للاحوال السياسية

وعلى ذلك ظل المتنبي — على علو مقامه في الادب العربي ، ونصوع معانيه ، وسمو حكمته ، وكمال رجولته — تكتنفه في ذهني غمامات من الغموض ، على كثرة شراح ديوانه ومفسريه

ولكن مشاغل الحياة ، وانصراف أساتذتنا — عند طلبنا العلم — عن ترسيخنا في معرفة أصول تاريخنا الشرقي العربي صرفتني عن دراسة المتنبي. فكنت فيما تلا من عهد الدراسة لا أذكره الا عندما أسكن الى ساعة من الراحة ، فأخرج شرح اليازجي ، وأقرأ بعض قصائده المشهورة ، صادفاً عما قد تنطوي عليه احياناً من مغلق المعنى ، او مهجور اللفظ ، او معقد التركيب ، مكتفياً بما فيها من قوة ورجولة ، تكاد تحسهما — بعد انقضاء عشرة قرون — تتفجران من معاطف هذا العربي كالينبوع ، وتتطايران من عينيه كالشرر

فلما ذكر المذكرون بانقضاء ألف سنة على مصرع المتنبي في ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ (وقد كان مصرعه في ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤) قلت : هي فرصة فذة تتيح للمقتطف أن يشارك في إحياء ذكر عظيم من عظماء العرب ، ونابغة من نوابغ اللسان العربي ، كسنته في الاشتراك في إحياء ذكرى العظماء من علماء الفرنجة ، وفلاسفتهم ، وكتابهم ، وزعمائهم . ولكن الفرق فيما يجب على المقتطف في الحالين واضح :

فنحن حين نحتفل بذكر عظيم من عظماء الفرنجة نجتزىء بمجمل من سيرته وأثره ، لأن الغرض إنما هو التعريف بآثاره من الناحية الذهنية ، والاشادة بخلقه أو مثاله من الناحية الأدبية . ولكننا — اذ كان المتنبي من عباقرة شعرائنا — لا ينبغي لنا أن نجتزىء بمجمل أقوال الرواة والنقاد في حياته وشعره

فتحدثت في ذلك مع صديقي المحقق الاستاذ محمود محمد شاكر ورغبت اليه أن يكتب كلمة مسهبة بعض الأسهاب عن المتنبي. وأقر أني كنت مقتنعاً — عند ما ألقيت اليه هذا الاقتراح — أن الكلمة لن تزيد عن عشرين ، أو ثلاثين من صفحات المقتطف ، فوعدني ان يبذل ما لديه. ولكن البحث تشعب أمامه ، ومواطن الاستنباط والمقابلة تعددت ، فلم يرض — وقد وجد مجال القول ذا سعة — بالنهج المطروق . فبعد ان كتب عشرات من الصفحات مزقها ونبذها ، وعاد الى الكتابة على نهج آخر. فأصبح المقال عدداً كاملاً من المقتطف ، أو يزيد . وليس هذا العدد الكامل الا موجز سفر في المتنبي ينوي أن يجعله في أربعة مجلدات أو أكثر

ولا أخفي عن القارىء أني مغتبط بهذا كل الاغتباط . في هذه الرسالة — على ايجازها بالقياس

الى ما كان يجب ان تكون — دلائل على تبحّر الكاتب في تاريخ هذا العصر من حياة شرقنا العربي ، ومقدرته على تبين الاشارات الخفية في شعر المتنبي الى حوادث ذلك العصر ، وبراعة عجيبة في استنباط حالات الشاعر النفسية من أبيات شعره وربطها بحياته الخاصة ، والاحداث التي كانت في الامة العربية بوجه عام . وفي الغالب ان يكون عملٌ كهذا متعذراً اذا لم يوفق الكاتب الى دليل يهديه سواء السبيل في تيه الحوادث ومجاهل الآراء ، فضلاً عما يقتضيه من سعة نادرة في العلم ، وبراعة فذة في الاستنباط . وهذا الدليل الذي هداه هو رأي جديد في أصل المتنبي ونشأته . أشبه مايكون بالنظرية العلمية في ميدان العلوم الطبيعية :

فالحقائق في علوم الطبيعة هي خصوم النظريات . والبحث عن الحقائق بالمجهر والمطياف وغيرها من ادوات العلم عمل لاينقطع ولن ينقطع ما بقي الانسان على فطرته في حب الاستطلاع . ولا يخفى أن النظريات توضع لتفسير طائفة معروفة من الحقائق . فاذا انقضت عقود من السنين أو سنوات قلائل ، فالغالب أن تجيء هذه الحقائق الجديدة التي يكشف عنها بعد وضع النظرية مخالفة للنظرية في مجملها او لنواح منها ، فتعدل النظرية القديمة ، أو تطوى وتوضع نظرية جديدة . ويشترط في النظرية الجديدة أن تكون تفسيراً عامًّا متسقاً للحقائق الجديدة والقديمة معاً ، وأن يكون فيها من المرونة مايجعلها تحتمل تفسير الحقائق التي تستجد ، والتمهيد للكشف عن أمور مجهولة

فالاستاذ شاكر وضع هذا الرأي اولاً فيما قيل عن أصل المتنبي ووالده وذهابه الى الكوفة لزيارة جدته ، وامتناع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة في الروايات المنقولة على أساس هذا الرأي الجديد . ثم لما طبقه على نفسية المتنبي في شعره ، وحوادث حياته الاخرى ، وخاصة حديث نبوته الى ان اتصل بسيف الدولة ، تساوقت واتصل الاول منها بالآخر . واستقام كذلك فهمها على منوال يرتضيه العقل ، ويؤيده ماكان من حوادث العصر . ولا يبعد أن تكون هذه النظرية تمهيداً للكشف عن أشياء في حياة المتنبي وتاريخ عصره على منوال ماتولده النظريات في العلوم الطبيعية ، كما قدمنا . ولعلّ الاستاذ محمود يحقق كل هذا تحقيقاً مفصلاً في سفره المرتقب إن شاء الله

ولا يسعني في هذه السطور ان أفصّل القواعد التي بنى عليها الاستاذ شاكر رأيهُ ، فهي

كثيرة مفرقة في جميع الفصول،وهذا البحث الطريف في حياة المتنبي وأدبه ليس الاّ وليد تطبيقها فقد استطاع ان يكشف من شعر المتنبي عن دقائق حياته ، وينقض الروايات المنقولة الينا عن اصله ونشأته وتنبؤه وحبه ومصرعه ، ويصل بين حياة الرجل واحداث عصره . وبذلك اتسقت حياة المتنبي ، واتصل اولها بآخرها ، وقات الفجوات في تسلسلها ، واستقام فهمها على اساس معقول من الأدب والتاريخ

فالذي يقرأ هذا البحث ويعود الى مطالعة ديوان المتنبي : متدبّراً ، تتكشف امامه معاني شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وبتاريخ عصره من ناحية اخرى

فقد نقض الاستاذ شاكر الرواية المتداولة عن ان والد المتنبي كان سقاء بالكوفة ، ورسم صورة لحداثته في مدارس الاشراف العلويين فيها ، وبين صلة المتنبي بالعلويين من نشأته الى وقت مصرعه ، وتأثير ذلك في حياته وشعره وآرائه السياسية : ونفى ما اتهم به المتنبي من النبوة مستدلاً على صحة ما يذهب اليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دقائق الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبوة : واستطاع ان يصل الى السبب المعقول في تسمية ابي الطيب بالمتنبي

وقد درس حياته وهو في جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره : فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمتنبي ، وانهما كانا يعملان معاً على تحقيق الامل السياسي لردّ الحكومة الى العرب ، ونزعها من يد الاعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، وبيّن أثر هذه الصلة السياسية في شعر ابي الطيب الذي قاله لسيف الدولة

وأثبت في ما أثبته من تاريخ هذه الفترة ان ابا الطيب كان يحب « خولة » اخت سيف الدولة وما كان لهذا الحب من الاثر في سمو شعره ، وروعة بيانه

فؤاد صرّوف

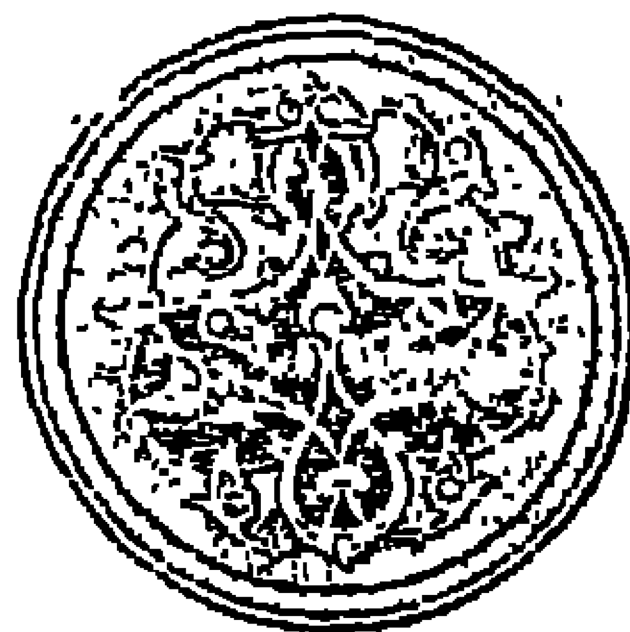

أنا ابنُ من بَعْضُه يفوقُ أبا الـ
بَاحثِ والنَّجْلُ بعضُ من نَجَلَهْ
وإنما يذكَرُ (الجُدُودَ) لَهُمْ
من نَفَرُوهُ وأنفدُوا حِيَلَهْ
إنّ الكِذابَ الّذي أُكَادُ به
أهوَنُ عِنْدِي من الذي نَقَلَهْ

« أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصَّمد الجعفيّ »
« أحمد بن الحسين بن مرّة بن عبد الجبّار الجعفيّ »
« أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصَّمد الجعفيّ »

هو ابو الطيب الملقَّبُ بالمتنبي . ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ بمحلة كانت بها تسمى كندة ، وكان ابوه الحسين سقاءً يستي الناس على جمل له بالكوفة ، وكان يلقّب بعَبْدان السقا

حدّث عليّ بن المحسّن التنوخيّ عن ابيه (المحسّن بن علي التنوخي) قال :

« اجتمعت بعد موت المتنبي بسنين مع القاضي ابي الحسين بن ام شيبان [1] الهاشمي وجرى ذكر المتنبي فقال : كنت اعرفُ اباه بالكوفة شيخاً يسمّى عبْدان يستقي على بعير له، وكان جعفيّا صحيح النسب »

وحدث التنوخي ايضاً عن ابيه قال :

« حدثني ابو الحسن محمد بن [2] يحيي العلوي الزيدي قال : كان المتنبي وهو صبيّ ينزل في جواري بالكوفة ، وكان يعرف ابوه بعبدان السقاء — يستي لنا ولاهل المحلة ... »

---

(١) هو علي بن محمد بن صالح بن علي ينتهي نسبه الى عبد الله بن عباس بن عبد المطلب مات بشارع دار الرقيق ببغداد في يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٤٢٠ ، ويعرف بابن ام شيبان

(٢) هو « محمد بن عمر بن يحيي » ينتهي نسبه الى زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم . كان من اهل الكوفة ثم سكن بغداد وكان المتقدم على الطالبيين في وقته والمتفرد في علو محله مع المال واليسار ، وكثرة الضياع والعقار . ولد سنة ٣١٥ وتوفى ببغداد في ١٠ ربيع الاول سنة ٣٩٠ ثم حمل بعد ذلك لسنة او اقل الى الكوفة فدفن بها

وقال ابو الحسن العلوي ايضاً من حديث التنوخي عنه : « كان عبدان والد المتنبي يذكر أنه جعفي وكانت جدة المتنبي همدانيةً صحيحة النسب لا اشكُّ فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات ... »

ثم قال التنوخي (علي بن المحسن) ، قال ابي :

« فاتفق مجيء المتنبي بعد سنين الى الاهواز منصرفاً من فارس فذكرته بأبي الحسن (يعني محمد بن يحيى العلوي الذي مرَّ آنفاً) فقال : ربّي وصديقي وجاري بالكوفة ، وأطراه ووصفه ...

وسألتُ المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به ، وقال : انا رجلٌ أخبط القبائل ، وأطوي البوادي وحدي ، ومتى انتسبتُ لم آمنْ ان يأخذني بعضُ العرب بطائلةٍ بينها وبين القبيلة التي أنتسبُ إليها . . وما دمتُ غير منتسبٍ إلى أحدٍ فأنا اسلم على جميعهم ويخافون لساني »

هذا ما ذهب اليه رواتنا ممن وقع الينا كلامُهم في نسب المتنبيّ يزيدُ بعضهم وينقص بعضٌ . . . وقبل ان نبدأ كلامنا عن نسبه ، نذكر لك طرفاً من امر (الكوفة) التي ولد بها أبو الطيب وفيها نشأ عسى ان تكون منه فائدةٌ فيما يستقبل من كلامنا

كان تمصير الكوفة وأول امرها — على ما ذهب اليه اكثر العلماء — في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما بين سنة ١٧ إلى سنة ١٩ من الهجرة ، وذلك ان المسلمين لما فرغوا من وقعة رستم بالقادسيّة وعصفوا بالفرس ثم انحدروا ، كان مما انزلهم فيه سعدُ بن ابي وقاص رضي الله عنه — مكانٌ من سواد العراقِ يقال له(سُوق حَكَمَة) فنُفِض المسلمون وجهدهم المرض ، فكتب سعدٌ إلى عمر بذلك فكتب اليه :

« إن العرب لا يصلحها من البلدانِ إلاَّ ما أصلحَ الشاةَ والبعير ، فعليك بالريف ، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً »

فلما ورد كتابُ عمر دلّ (ابْن بُقَيْلة — رجُلٌ من سواد العراق) سعداً على موضع الكوفة وكان يقال له (سُورَسْتان) ، فلما اقرَّ سعدٌ الرأي على اختيار الموضع أسهم بين المسلمين ، فأسهم لنزارٍ وأهل اليمن سهمين ، فمن خرج سَهْمه اولاً فله الجانب الشرقي (وهو خيرُهما) فخرج سهمُ اهل اليمن اولاً فصارت خططهم في الجانب الشرقي من الكوفة

ومما وردَ في صفتها وحسْنها ما يروى عن مالك بن دينار قال : كان علي رضي الله عنه إذا أشرف على الكوفة قال :

يا حَبَّذا مُقَامُنا بالكُوفَهْ أرضٌ سَوَاءٌ سهلةٌ معروفَهْ
تعرفُها جِمَالنا العَلُوفَهْ

وما قاله محمد بن عمير العطاردي في مجلس عبد الملك بن مروان

«الكوفة سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وحرها ، فهي مريئة مريعة . اذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور ، وإذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد[1] بورده وياسمينه وأترنجه . ماؤنا عذب وعيشنا خصب »

وهي كما ترى ارض ذات طيبة جميلة ، حببت الى كثير من المسلمين البقاء بها فآثروها على غيرها ، حتى كانت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، فاتخذها امير المؤمنين علي قاعدة امره ، واجتمع فيها اشياعه وغلبوا عليها ، فمن يومئذ والكوفة معقل من معاقل الشيعة والعلوية والزيدية الى يوم الناس هذا . يقول السيد محسن الامين الحسيني العاملي صاحب كتاب (اعيان الشيعة)[2] « ثم إن الكوفة ضعفت بعد انتقال الخلافة منها إلى بغداد ثم خربت. واليوم فيها كثير من العمران ، وجميع أهلها شيعة »

اما امر تخطيطها وعمرانها في القرن الاول والثاني أو في القرن الرابع الذي عاش فيه ابو الطيب ، فلا نكاد نجد بين ايدينا شيئاً مما روي يدلنا عليه ويقفنا عنده إلا ما روي عن بشر بن عبد الوهاب القرشي من أنه ذكر قدر الكوفة فكانت ستة عشر ميلاً وثلثي ميل ، وذكر ان فيها خمسين الف دار للعرب من ربيعة ومضر ، وأربعة وعشرين الف دار لسائر العرب ، (وستة آلاف دار لليمن) : وذلك في سنة ٣١٤ وما قبلها

وقد رمى الينا المتنبي طرفاً آخر من تخطيط الكوفة لعهد صباه إذ يقول وهو بالشام فيما مدح به (علي بن ابراهيم التنوخي)

أمنسيي السكون وحضرموتا (ووالدتي) وكندة والسبيعا

يقول الواحدي « هذه اماكن بالكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا ينزلون هذه المحال » . ولا شك ان (محلة كندة) التي ولد بها صاحبنا ابو الطيب كانت خطة من خطط الكوفة نزلها في الصدر الاول من نزل من بطون كندة فسميت بهم ، وان سائر الكوفة — او الجانب الشرقي منها على التحقيق — كان مقسماً مخططاً الى احياء كثيرة غير هذه التي ذكرها ابو الطيب في شعره . ولكن مما نعجب له ان بشر بن عبد الوهاب يقول أن دور اهل اليمن (جميعاً في كل احياء الجانب الشرقي) بالكوفة كانت في سنة ٣١٤ وما قبلها وعدتها (ستة آلاف دار) ، ويقول صاحب (إيضاح المشكل لشعر المتنبي) ابو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني ان (ابن النجار) حدثه ببغداد :

---

(١) السواد الريف (٢) هو كتاب جليل طبع الجزء الاول منه بدمشق في الاشهر الماضية وسيتم ان شاء الله في اثنى عشر جزءاً او يزيد .

« أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف (بكندة) بها ثلاثة آلاف بيت من بين رَوَّاءٍ ونساج » وذلك سنة ٣٠٣ ، فليت شعري أكان جل اهل اليمن النازلين بالجانب الشرقي من الكوفة — وهو خير جوانبها — ما بين سقاءٍ ونساج . هذا عجبٌ ان يكون ذلك كذلك ، إذا كان النساجون والسقاؤون وحدهم قد شغلوا من دور اهل اليمن بالكوفة ، ثم بمحلة كندة وحدها ، ثلاثة آلاف دار ، فكم شغل من بقي من اهل اليمن من اصحاب الصناعات ومن لفَّ لفهم من التجار وأصحاب الارضين ، ثم ما يبقى من حي اهل اليمن لرجالات اليمن واشرافها وفرسانها وعلمائها وشعرائها وأدبائها وهمْ كثر

فهذه المبالغة وجهٌ من وجوه إسقاط قول (ابن النجار) هذا ، وسترى ان المتنبي قد مُنِيَ في حياته وبعد موته بضروب من العداوات قد جعلت تاريخ الرجل مزلّة لا تثبت عليها قدم ولا يهتدي فيها إلاَّ بصيرٌ متثبتٌ . ولو نظرتَ إلى أقوال الاصفهاني صاحب (إيضاح المشكل) وما رواه في مقدمة كتابه رأيته ممن كان يتحامل على ابي الطيب ، ويذكره بالسوءِ في كل قوله ، وما اتى له بمحمدة إلاَّ واتبعها بمذمةٍ بالغة قارصة ، وهو قد ألف كتابه هذا لاصغر ابناء (عضد الدولة) — الذي مدحه المتنبي ، وكان آخر من مدح — بهاءِ الدولة خاشاذ بن عضد الدولة ، وكان التحاسد واقعاً بين ابناء عضد الدولة حتى إن المتنبي حين ذكر اخويه (وهما اكبر من بهاء الدولة) في مدح ابيهما قال ودعا لهما

فعاشا عيشةَ القمرين يحيا بضوئهما ولا يتحاسدان

فكأني بالمتنبي قد ادرك ذلك منهما ، وألمَّ بطرفٍ من تحاسدهما ، وقد خابت دعوة صاحبنا فإن شرفَ الدولة شيرزيل بن عضد الدولة حاربَ اخاه صمصام الدولة وظفر به بعد حروب وحبسه . فلعلَّ بهاء الدولة هذا كان ممن يحقد على المتنبي إذ لم يمدحه او يذكره في شعره (مع صغره إذ ذاك) ، فكتب الإصفهاني كتابه تقرباً وزلفى اليه . ومما يؤيد ذلك ان كتابَ الاصفهاني في نقد كلام ابن جني ، وهو صاحبُ المتنبي ومريده ومن الضَّالعين معه . وسيأتي طرف من غرائب ما ذكره الاصفهاني في ثنايا القولِ يؤيد رأينا في ان الرجل كان يلفق بالهوى الجائر ، وما كان يؤلف بالتاريخ [1]

(١) هذا طرف من القول ، وبقيت اطراف ترجع الى العداوة بين بني بويه وسيف الدولة ، وما جرت هذه من الخصومة بين أهل العصر ، والادباء خاصة ، وقد اشتدت المنافسة أخيراً بين بهاء الدولة وسيف الدولة وتورط الادباء فيها فكتبوا وألفوا يريدون بما الفوا التقرب الى واحد من الخصمين . وايضاً فان بني بويه كانوا يعرفون يقيناً أن المتنبي لم يكن خالص المدح لهم فقد شاب مدحه بالحسرة على لقائهم في بعض قصائده وما كان ذلك ليخفى عليهم . . . وهنالك كثير من القول أغفلناه هنا ، وربما اتى بعضه عرضاً في آخر ما نكتبه من مدح المتنبي بني بويه ان شاء الله

والآن وقد فرغنا من القول عن محلة كندة التي ولد بها المتنبي ، وما وقع في أمرها من المبالغة ننظر في نسب الرجل ، لترى كيف بالغوا ايضاً في الإساءة اليه ، وتحقير مولده ، والحط من أصله ونشأته لاغراض خافية قد أحاطت بصاحبنا ، أضرّت به في حياته وأفسدت تاريخه بعد وفاته . رأيت قبل في اول ما روينا لك من اقوال الرواة انهم أرادوا ان يثبتوا بما رووا ان الحسين والد المتنبي هو عبدان السقا كان يستي الماء على بعير له بالكوفة . وراوي القصة كلها هو عليّ بن المحسن التنوخي عن ابيه المحسن التنوخي ، ونحن نقدّم فنشك في رواية المحسن التنوخي لاسباب نذكر طرفاً منها هنا ثم يأتي بعد اسباب أخرى تثبت ما نقوله ان شاء الله

القاضي ابو علي المحسن بن علي التنوخي ولد سنة ٣٢٧ وتقلد القضاء سنة ٣٤٩ . فكان من اصحاب الوزير ابي محمد المهلبي ، وكان المتنبي حين دخل بغداد في طريقه إلى عضد الدولة بشيراز قد ترفع عن ان يمدح الوزير المهلبي ، فأغرى المهلبي به الشعراء وغيرهم كأبي علي الحاتمي صاحب الرسالة العجيبة المعروفة بالحاتمية ذكر فيها سرقات المتنبي ، وزعم انها قد وقعت كما قيدها بينه وبين المتنبي ، فلا عجب ان يكون المحسن التنوخي من اعداء ابي الطيب لصلاته الفريدة بالوزير فقد بلغ به ان كان من ندمائه ، ولا عجب ايضاً ان يسند التنوخي روايته (او كذبه) إلى بعض شيوخه فيفتضح . ذلك انه زعم كما قدمنا لك ان القاضي ابن ام شيبان حدثه فقال « كنت اعرف اباه بالكوفة شيخاً يقال له عبدان . . . الخ » والقاضي ابن ام شيبان وإن لم نعلم تاريخ مولده فان في ما اثبته البغدادي الخطيب من تاريخ وفاته مقنعاً وغنى

فوالد المتنبي — كما ذهب اليه كثير من المحدثين ، وكما تبين لنا من بعض الوجوه — قد مات والمتنبي صغير ، فإذا تجاوزنا وقلنا ان أباه مات وهو في الثانية والعشرين من سنه اي سنة ٣٢٥ او بعد ذلك بقليل فعجب ان يكون القاضي بن ام شيبان كان قد رآه إذ يقتضي ذلك ان يكون القاضي قد عمّر وحطم المائة فإنه قد مات سنة ٤٢٠ ، فلو انه رأى (عبدان السقا) وهو ابن عشر سنين لأنافت سنه على المائة ، ولو كان ذلك كذلك لما فات البغدادي ان يشير اليه فقد يكون هذا القاضي من اعلى شيوخ عصره إسناداً ، وعلو الإسناد عند المتقدمين امر لا ينصرف عن تقييده ، كما أن المعمرين من الرجال مذكورون حتى إنهم ليذكرون الرجال في كتبهم ، وما له من فضل الأطول عمره . فأنا مطمئن إلى ان هذه الكلمة موضوعة على لسان القاضي الفاضل الذي وصفه البغدادي فقال « كان صدوقاً »

هذا التنوخي يقول انه سأل المتنبي عن نسبه فما (اعترف له) به وكان إذ ذاك شاباً في السابعة والعشرين ، وكان المتنبي قد نيّف على[1] الخمسين ، فما نظنّ ان القاضي كان يجرؤ ان

(١) لقيه التنوخي بالاهواز منصرفاً من فارس من عند عضد الدولة قبيل وفاته سنة ٣٥٤

يسأل المتنبي عن ذلك ، لبُعْدِ ما بينهما ولتعالي المتنبي وترفُّعه حتى على الخلفاء والوزراء ، وأيضاً لما يعلم من صلة القاضي بالوزير المهلّبي وتحققه بخدمته (كما قال عن نفسه) فمن يترفع عن الوزير ابي محمد المهلبي وهو من هو في سياسة عصره ودسائسه ، لا يتبذل مع صاحبنا القاضي التنوخي. هذا ولئن كان قد سأل المتنبي حقاً كما يقول فما يكون جواب المتنبي عن ذلك هذا الكلام الملفق الضعيف الذي يَضَعُ من رأي صاحبه ويستفسد من عقله «انا رجل اطوي البوادي وحدي وأحيط القبائل .... » فلم يكن المتنبي ممن يطوي البوادي وحده اذ ذاك بعد ان سار اسمه مسير الشمس ما بين مشرقها ومغربها . والمتنبي الذي لم يخف ان يخرج غير محروسٍ يوم قُتل وقد اوعدوه ، وأرصدوا له وتحقق هوذلك لا يقول « ومتى انتسبت لم آمنْ ان يأخذني بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي انتسب اليها » وهل اذلُّ من قوله « وما دمتُ غير منتسبٍ الى إلى احدٍ فأنا اسلم على جميعهم ويخافون لساني » أهذا يقوله من اوعد الملوك وجاهرهم بالعداوة في عصر كانت تذهب فيه الارواح مع كلمات الوشاية والدسيس والمكر السيء ؟ . . كلاَّ يا ابا علي . . .

وقد بالغ صاحبنا التنوخي في روايته عن المتنبي حين سأله عن ابي الحسن محمد بن يحيى العلوي مما يدلُّ على انه كان يريد ان يولد كلاماً . فأطال فيما روى ليوهم السامع بطول قوله ان المتنبي حرّكته الذكرى فأفاض فقال عن ابي الحسن العلوي « تربي ... وصديقي ... وجاري بالكوفة . . وأطراه ووصفه » . ونسي التنوخي انه قد وضع فيما وضع كلمةً افسدت عليه ما اراد وهي قوله « تربي » وترْب الرجل ولِدته هو الذي وُلد معه والمتنبي وُلد سنة ٣٠٣ وأبو الحسن العلوي كما قدمنا ولد سنة ٣١٥ والرجل لا يقول للذي بينه وبينه ما يزيد على عشرة أعوام (تربي) فما ظنك بأبي الطيب

وأُخرى . . . فمن جهل هذا التنوخي بأساليبَ الوضع المتقنة — التي جرى عليها شيوخ الوضّاعين وأحكموا أمرها حتى خفيتْ على الحفيّ البصير من العلماء والادباء — أنه جمع بين النقائض في الكلام الواحد الذي يراد به إثبات ما لا يكون ، أو كَوْن ما لم يثبُتْ ، فمن ذلك أنه روى أن أبا الرجل كان سقاءً يستقي على بعير له ثم حدّث عن الرجل نفسه انه قال « متى انتسبت لم آمَنْ أن يأخذني بعض العرب بطائلةٍ بينها وبين القبيلة التي أنتسبُ اليها » . وهذا أمرٌ من الامر ، فإن العرب لذلك العهد كانت قد نسيت التِّرات القديمة ، وألقت بالسخائم المتوارثة وانصرفت إلى ما جدّ من الاحداث في دولتهم وفرّق شملهم وجعل بأسهم بينهم تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى ، حتى لعبت بهم الاعاجم فحطّمتهم الايام . فإذا كانت العرب قد نسيت ما قدُم أو ذكرته قليلاً قليلاً فما خوف المتنبي مما لا يخاف منهُ ؟ وما خوفهُ وهو آمنٌ في المدن بين

الكوفة وحلب وانطاكية ودمشق والفسطاط ؟ أو كان المتنبي وحده من أهل عصره هو الذي يخشى ذاك ؟ ألم يكن في عصره مثله ممن يطوي البوادي وحده؟ كلا ، وإن رجلاً قد سقطت بآبائه السواقط إلى السقاءة وغيرها من حقيرة المهن لا تبتغي عنده طائلة ، وإن بغيت فما يكون لمدركها عنده فخر . و(ابن السقاء هذا) ما عرض في شعره كله إلى قبيلة فهجاها أو عرّض بها أو لمزها بشيء ، حتى يخشى ظهور كيد يكاد به ، ولئن فعل لقالوا له كما قال الاول

وكن كيف شئت ، وقل ما تشا ء ، وأرعد يميناً وأبرق شمالا
نجا بك عرضك منجى الذبا ب حمته مقاذيره أن ينالا

وما عرض كعرض سقاء وابن سقاء ينجو به ناجٍ من طالب ثأرٍ أو مدرك ترة

وهلاّ أدرك هذا المترفع المتعالي على الملوك والأمراء — عنيت المتنبي — بنسبه رجلاً آخر غير هذا السقاء — الذي هو ابوه — فوقف عليه بنسبته!! ماكان يضير هذا الرجل — لو انه كان قد سئل عن نسبه كما يوهم التنوخي — أن يرتفع بنسبه شيئاً إلى رجلٍ من الناس معلوم غير منكور ولا محتقر ؟! إن الرواة قد اختلفوا — كما رأيت في صدر مقالنا — في اسم جده (أبي أبيه) ولم يجمعوا على شيء ، واخطأ بعضهم في اسم ابيه فسماه (محمداً) ، واقتصر جل شراح ديوانه من الاوائل ، ثم اكثر النسخ المخطوطة — على اسم أبيه وحسب ولم يزيدوا . فهذا دليل على أن الكتمان إنما كان كتماناً للنسبة كلها لا كتماناً إلى قبيلة بعينها يخشى من الانتساب اليها أن يلحقه من جرائها أذى في ترة او مكروهاً في ضغينة قديمة أو محدثة ، وأي ثأرٍ يكون للعرب والقبائل عند من كان سقاءً بالكوفة !

ثم إن التنوخي يروي هذا الخبر ، ويروي ايضاً انه كان جعفياً صحيح النسب . وما تصح نسبة سقاء إلى جعفي بن سعد العشيرة إلاّ أن يذكر نسبه متصلاً إلى جعفي ، لان سقاءً يدعي الانتساب إلى جعفي لا بدّ له من أن يقيم دعواه بالدليل والبرهان : وهما النسب المتصل المعروف غير المنكر ، ما من ذلك بُدّ ، ولو كان ذلك ، لوقع الينا نصٌّ واحدٌ يذكر فيه نسب المتنبي إلى رجل من جعفي لا يختلف في أمر نسبته . فما ظنك بمن اختلف في جده الادنى والذي بعده ولم يتجاوزوا ذلك إلى متفق عليه من عمود النسب ؟

أو لم يكن الذي حفز التنوخي ان يسأل المتنبي عن نسبه فأخفاه عنه ، ليحفزه ان يسأل ابن أم شيبان الهاشمي ، أو أبا الحسن العلوي ، كيف صحت نسبة الرجل إلى جعفي ، وخاصة بعد ان جحده المتنبي وكتم عنه ما عرفه غيره ؟ ولو كان فعل ، لكان نسب الرجل مشهوراً عندنا كما صارت مهنة أبيه مشهورة منقولة

وبعد ، ألم يكن بين العرب جميعاً من يعرف ان الرجل جعفي القبيلة غير (ابن أم شيبان

الهاشمي) و (أبي الحسن العلوي) و (أبي عليّ التنوخيّ) ؟ أوَقَدْ حرصوا ثلاثتُهم على أن لا يذيع نسب الرجل الى جعفيّ ؟ ولو كان ذلك ، فما الذي حملهم على هذا الحرْص ؟ والتنوخي نفسه لم يكن يعرف سبب حرص المتنبي على كتمان نسبه الاّ في السنة التي مات فيها (سنة ٣٥٤)! أكانوا ثلاثتهم لا يأمنون (أن يأخذ المتنبي بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي ينتسب اليها) ؟ وكذلك شهد الرجل (التنوخي) على نفسه في حديثه بالتخليط أو الوضع

ولا يفوتنّك أن المتنبيّ في أول أمره كان بأنطاكية واللاذقية وكان التنوخيون ينزلونهما من قديم ، وقد نبتت بين صاحبنا وبين رجال من تنوخ هنالك نابتةٌ من المودة ثم نمت وربتْ واهتزّت فمدحهم ورثاهم ودفع عنهم ورمى دونهم وأقامَ طويلاً بينهم مكرّماً ، وقد كان بين أصحاب أبي الطيب من التنوخيين وأبناء أعمامهم عداوة ، فلما مات محمد بن اسحق التنوخي ورثاهُ المتنبي جرى في انطاكية الخبر بأن أبناء عمه قد شمتوا بموته فاجأ هؤلاء الشامتون الى أبي الطيب يسألونه أن ينفي الشماتة عنهم فكان مما قال في ذلك

(أبناءَ عمٍّ) كل ذنبٍ لامرئٍ إلاّ (السّعاية) بينهم مغفورُ
طار الوشاةُ على صفاءِ ودادهم وكذا الذبابُ على الطعامِ يطيرُ

ثم عادوا فسألوه أن يزيد فكان مما قاله على لسانهم

رثى ابنَ ابينا غيرُ ذي رَحِمٍ له فباعدنا عنه . ونحن الاقاربُ
وعَرّضَ أنا شامتونَ بموته وإلاّ فزارت عارضيه القواضبُ
(أليس عجيباً أن بين بني أبٍ لنجلِ يهوديٍّ تدبُّ العقاربُ)

وهذه العداوة التي كانت بين التنوخيين مما يحجزنا عن الثقة بأقوال أحدٍ من تنوخ (كأبي علي التنوخي) ممن يذكرُ من أمر أبي الطيب شيئاً ، وعلينا أن لا نطمئن إلى قوله حتى تفطمَنا الحجة بأنه كان ممن لا يميلون الى هوًى ، ولا يُصغون أفئدتهم الى بِغضةٍ ، فما ظنك بأبي عليّ التنوخي وهو قد اجتمعت الدلائل — كما رأيتَ — على وهن روايته ، واختلاط حديثه ، وبيان هواه

وليس عجيباً ان يكون التنوخي ممن يحمل لابي الطيب في صدره شحناء لصلته المعروفة بأبناء عمومته ، فتحمله هذه الشحناء على وصف الرجل بكل نقيصة او النيْل منه بكل سبيل . واعلمْ ان عليًّا التنوخي (والد المحسّن هذا) كان ممن وُلدَ بأنطاكية وشبّ بها ثم رحل عنها ، فلعلـه رحل عن انطاكية لحدثٍ وقع بين اهله وبين اقاربهم ، وبقيتْ في صدره وصدر ابنائه حزازاتٌ موروثة وأحقاد لبني عمه هناك ، ولا عجبَ ، فقد كانت هذه الفترةُ من العصر العباسي مرْجلاً يغلي بالاحقاد بين الاخوة وبني الاعمام حتى قتل الرجل منهم اباه وعمه وأخاه ، وهتك

عرضه ، واستباح حرماته ، وخاصة من رَقِيَ درجات الامارة ، أو أدرك سبباً من السلطان كأصحابنا التنوخيين ، (وهم نسلُ ملوك تنوخ الاقدمين)

هذا ، ولو سلمنا للتنوخي رحمه الله بصحة روايته عن أبي الحسن العلوي ، وان الذي قالهُ عن المتنبي هو من لفظ أبي الحسن حقاً ليس بموضوع ولا مبتدع من عند نفسه — فعندنا في أقوال العلويين المعاصرين عن أبي الطيب سببٌ للتوقف دون التسليم لهم هكذا ، لا نجادل[1]...

ففي ديوان أبي الطيب معنىً من المعاني ، وإخالهُ سرًّا من الاسرار ، لعلهُ أن يكون يوماً مفتاحاً تنفتح له الابواب المغلقة في نسب الرجل ، ومعرفة أصله الذي يصله بنسب غير مجهول ولا موضوع ، فعلينا أن نستوفيَ هنا بعض الرأي الذي نذهب اليه ونقيّدهُ على مُتَمَكّث.

نشأ صاحبنا بالكوفة ، وهي إذ ذاك دارُ العلويين ، ومعقِل الائمة منهم والنابهين من رجالهم وشجعانهم. فكان حقيقاً بمثلهِ ممن ينالُ بالشعر ويؤمّلُ منه أن يمدحَ من تُرجى عنده الفواضل من كبار العلويين وأجوادهم ، وهم أهل بلده الذين في ظلهم نشأ ، وبين ربوعهم نما ، ومن علومهم[2] نهلَ واغترف ، واستقى وأفاضَ (على الناس من غيرهم) مما استقى وما اغترف

فعجباً لابي الطيب . أيما عجب ، أن لا يكون مدح من العلويين إلا رجلين ما امتدَّ به العمر بعد أن يمدح أبو الطيب في إحدى قصيدتيه ، وبينت الرواية في الاخرى سببَ ذلك المدح...

قال العكبري : وكان محمد بن عبيد الله — العلويُّ المعروف بالمشطّب — هذا الممدوح قد واقع نفراً من العرب بظاهر الكوفة ، وهو شابٌّ دون العشرين سنة فقتل منهم جماعة ، وجرح في وجهه فكسته الضربة حُسناً . . . . فهذا ما سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا »

فمدحه المتنبي بقصيدته[3] التي أولها

أهلاً بدارٍ سباكَ أغيدُها   أبعدُ ما بان عنكَ خُرَّدُها

فذكر فيها أن ناقته حماته الى (ابن عبيد الله) هذا الممدوح

---

(١) وقبل فلا تنس — ماكتبنا لك — أن العصر الذي كان أبو الطيب أحد رجاله ، كان من بين العصور العربية عصراً خبيث النفس ، فاسد الطوية ، قد طغت فيه الدسائس وامتلأت به الاهواء واستحرت الاحقاد بين الرجل وأخيه ، والوالد وبنيه ، والوحيد وعشيرته التي تؤويه ، وفصل هذا المعنى وخذ به واعرضه في اثناء كلامنا في كل موضع يمكن الاشارة ، ولا عند كل مفرق من القول يجب التعليق والتفصيل ، وما يجوز القارىء حيث يجوز الا بما يفطن اليه مما يغفل عنه غيره ويتجاوزه سواه

(٢) اشرنا ستري بعد ان المتنبي تعلم في كتاب للعلويين

(٣) الرأي عندنا أن المتنبي قال هذه القصيدة بعد مرجعه الى الكوفة من مقامه بالبادية سنة او اقل وقبل خروجه الى بادية كلب واللاذقية حيث سجن في دعوى النبوة — كما يزعمون ، وقد كانت سنه حين قالها على الارجح عندنا خمس عشرة سنة اي سنة ٣١٨ﻫ واعلم اننا انما نجتهد في تاريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبي —وقد وجدنا في ذلك المشقة وما فوقها— لنترجم للرجل على بينة وهدى وستجد فائدة ذلك في كثير مما يمر بك ان شاء الله

إلى فتىً يُصدرُ الرماحَ وقد أنهلها في القلوب مُوردُها
لهُ أيادٍ إليَّ (سالفةٌ) أعُدُّ منها ولا أعدِّدُها

ثم طفق يمدحه إلى أن قال

وكم وكم نعمةٍ مجلِّلةٍ ربَّيتها كان منك مولدُها
وكم وكم حاجةٍ سمحت بها أقرب مني إليَّ موعدُها
ومكرُمات مشت على قدم البــرِّ إلى منزلي تردِّدُها
أقرَّ جلدي بها عليَّ فلا أقدرُ حتى المات أجحدُها
فعُد بها لا عدمتُها أبداً خيرُ صلات الكريم أعوَدُها

والمتنبي كما ستعلم بعد كان — أول أمره وهو صبيٌّ — «يختلف الى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة» من العلويين فكأن (محمد بن عبيد الله العلوي) هذا كان من لِدَات أبي الطيب أو أسنانه[1] الذين كانوا معه في المكتب، وأخذت بينهما المودةُ ثمَّ، ولعلهُ كان يتفضل على المتنبي ويتعهدهُ ويكرمه فلذلك قال «لهُ أيادٍ اليَّ سالفةٌ». فأكدت هذه المودة القديمة سببَ المدح حين عاد من رحلته في البادية يتسقطُ اللغةُ وينتجع الرزق. وأرجح الظن أن المتنبي حين عاد الى الكوفة، عاد اليه صاحبه العلوي بالافضال والتعهد، فلما أصيب بالجراحة في حربه مدحه المتنبي لصداقته ومودته، ولما أسدى اليه من معروف، وما اتخذ عنده من صنائع

أما آخر الرجلين العلويين ممن مدح: فهو أبو القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي لم يمدحه المتنبي ابتداءً، كما مدح غيره. وفي ما نرويه لك من خبره عجب

كان الامير ابو محمد الحسن بن عبيد الله طغج وهو بالرملة لم يزل يراسل أبا الطيب وهو بطبرية سنة ٣٣٦، ويعزم عليه في القدوم عليه فلما كثر ذلك منه أجابه ومدحه وأقام عنده مُديدة، فلم يزل أبو محمد (الحسن بن عبيد الله بن طغج) — يسألُ ابا الطيب ان يخصَّ ابا القاسم (طاهراً) العلوي بقصيدة من شعره (وأنه قد اشتهى ذلك)!! وأبو الطيب يقول: «ما قصدتُ الاّ الامير (ولا امدح سواه)!!» فقال له ابو محمد: «عزمت عليكَ ان اسألكَ قصيدة تنظمُها فيَّ فاجعلها فيه» (تأملْ هذا) وضمن له عنده مئات من الدنانير، فأجاب

قال محمد بن القاسم الصوفيّ: «فسرتُ انا والمطاليّ برسالة طاهر الى ابي الطيب، فركب معنا حتى دخلنا عليه، وعنده جماعةٌ من الاشراف، فلما اقبل ابو الطيب نزل طاهرٌ عن سريره، والتقاه مسلماً عليه، ثم اخذ بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها: وجلس هو بين يديه. فتحدّث معه طويلاً ثم انشده ابو الطيب فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة»

---

(١) يقول فلان سن فلان اي مثله في سنه والجمع اسنان

قال علي بن القاسم الكاتب : « كنت حاضراً هذا المجلس ، فما رأيت ولا سمعت ان شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمديحه غير ابي الطيب ، فاني رأيت هذا الامير قد اجلسه في مجلسه . وجلس بين يديه . فأنشده

اعيدوا صباحي فهو عند الكواعب ... وردّوا رقادي فهو لحظ الحبائب [1]

وفي هذه القصيدة التي يمدح بها رجلاً علويًّا سامي القدر يقول

« كثيرُ حياة المرء - مثل قليلها - ... يزول : وباقي عمره مثل ذاهب
اليكَ . . . فاني لستُ ممن إذا اتقى ... عِضاضَ الافاعي نامَ فوق العقارب
اتاني وعيدُ (الادعياء) وانهم ... اعدوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جدّهم لحذرتهم ... فهل فيَّ وحدي قولهم غير كاذب
اليَّ لعمري قصد كلّ عجيبة ... كأني عجيبٌ في عيون العجائب
بأي بلادٍ لم اجرّ ذؤابتي ؟ ! ... وأيُّ مكان لم تطأه ركائبي ؟ ! »

ونفسُ الرجال في القصيدة يدلّ على انه كان قد لقي كيداً في سنته تلك من هؤلاء القوم الادعياء (وهم الذين يدعون الشرف بنسبتهم الى علي رضي الله عنه) . ويبين مما ورد في شعر ابي الطيب انه حين ازمع الرحيل من طبرية سنة ٣٣٦ ارصد له هؤلاء العلويون (الادعياء) قوماً من السودان عبيدهم في طريقه بكفر عاقب [2] ليقتلوه فلم يظفروا بما أمّلوا . واحفظ ذلك ابا الطيب . فلما دخل الرملة كان — على عادته كما سترى ذلك — ثائراً لا يفتأ يذكر ما يختلج في صدره لا يراعي ولا يحابي ولا يتهيّب ؛ ومن آثار هذه الحفيظة قوله في هذه القصيدة أيضاً

« إذا (علويّ) لم يكن مثل طاهر ... فما هو إلاّ حجّةٌ للنواصب » [3]

ثم أجرى هذا الامر مجرى المثل كعادته فقال

إذا لم تكن نفسُ النسيب كأصله ... فماذا الذي تُغني كرامُ المناصب!!
وما قربتْ أشباهُ قومٍ أباعدٍ ... ولا بَعُدتْ أشباهُ قومٍ أقاربِ

والبيت الاخير هو حجته في نفي العلوية عنهم وإثبات أنهم أدعياء لا يمتون إلى الشرف بسببٍ

---

(١) لا بد لنا هنا من التنبيه الى خطاء بليغ وقع فيه أحد كبار ادبائنا في كتابه عن المتنبي اذ زعم ان المتنبي قال هاتين القصيدتين (في ابن طغج والعلوي) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور ، والصحيح انه قالهما سنة ٣٣٦ وهو بالرملة ومن ثم في تلك السنة رحل الى انطاكية قاصداً أبا العشائر الحمداني الذي وصل اسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧ وسترى ذلك في موضعه من مقالنا . هذا على ان اسلوب الرجل في هاتين القصيدتين ونفسه في الشعر ، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة ، وذلك بين لمن تدبر ادنى تدبر

(٢) كفر عاقب : قرية على بحيرة طبرية من اعمال الاردن

(٣) النواصب هم الخوارج الذين نصبوا العداوة لامير المؤمنين علي كرم الله وجهه واحدهم ناصبي

ولاصلة . فلو كانوا علويين — لاجرم — لتشابهت الاخلاق في الكرم والسمو ، ولكانوا كهذا العلوي الذي يمدحه (طاهر بن الحسين)

ليس هذا فحسب ، فإن أبا الطيب يقول للامير أبي محمد ابن طغج في مدبحه

كريمٌ نفضتُ الناسَ لمّا بلغتُه كانهُمُ ما جفَّ من زاد قادمِ
وكاد سروري لا يفي بندامتي على تركِهِ في عُمرِيَ المتقادمِ
وفارقتُ شرَّ الارض أهلاً وتربةً بها (علويٌّ) جدُّه غير هاشمِ

(وشرُّ الارض) هي طبريّة التي كان بها قبل مقدمه إلى الرملة !

أو ما ترى بعد ان في تجنب المتنبي مدح العلويين ورجالهم وأئمتهم في أول امره وهو بالكوفة ، إلاّ واحداً كان رفيق صباه وأحد اسنانه ، ومن خير المفضلين عليه والمتعهدين له في محنته وفقره — ثم في طلب الامير منه ان يمدح طاهراً العلويّ فيمتنع ويستعصي عليه حتى يكثر عليه الامير ويقول « أنا اشتهي ذلك » فيقول أبو الطيب « ما قصدت الاّ الامير ولا أمدح سواه » فلا يزال به يحتال عليه حتى يستخرج من وعده — ثم في اكرام العلويّ له هذا الاكرام البالغ بنزوله له وإجلاسه في مرتبته وعلى سريره ، ولا يتورّع المتنبيّ إذ ذاك ان يذكر بعض العلويين بالمذمة والتعريض ونفي النسبة الكريمة عنهم — ألا ترى ان هنالك سرّاً من الحفيظة بينه وبين العلويين الذين نشأ بينهم وفي ديارهم ، ودرس في مكتبهم ، بين أولادهم .

هذا وسيأتي طرف من ذلك [١] بعد ، فترى ان أبا الطيب حين خرج في اول أمره باللاذقية كان الذي عذّبه وسجنه رجلٌ هاشميٌّ علويٌّ هو (ابن عليّ الهاشمي) وكان بكوتكين فجعل في عنق صاحبنا ورجليه خشبتين من الصفصاف فقال له :

زعمَ المقيم بكوتكين بأنه من آل هاشمِ بن عبد منافِ
فأجبته : مذ صرتَ من ابنائهم صارتْ قيودهم من الصفصافِ

يسخر منه ، ومما أخذه به

أفلو شككنا — من اجل هذا — في صحة ما يقوله العلويون عن أبي الطيب ، وتوقفنا دون الاخذ بأقوالهم في ترجمة الرجل — نكون قد اتينا امراً كبيراً لا يقرّنا احد عليه ؟ لا ادري

رأيت قبل ان الذي قال انّ والد المتنبي هو عبدان السقّا — انما هو أبو علي المحسّن التنوخيّ وهو من شيوخ العراق واصحاب الوزير المهلبيّ فزدْ على هذا ايضاً ان المتنبي حين دخل العراق بعد فراق كافور ، أعرض عن المهلبي ، ولم يمدحه ، ولم يبال به فأغرى به الشعراء وغيرهم من الكتاب والادباء . وكان شعراء العراق خاصة يخافون أن ينال أبو الطيب في العراق ما نال

(١) سيأتيك في خبر نبوته أيضاً بعد انهم زعموا ان أبا الطيب ادعى أنه علوي ... ثم عاد يدعي أنه علوي وسترى بطلان ذلك ان شاء الله وتأويله عندنا على الرأي والنظر لا الرواية

في الشام فيذهب بأرزاقهم من المدح ، ويعصف بذكرهم عند الملوك والامراء كما فعل بمن هم أعلى منهم طبقة من شعراء الشام كابي فراس الحمداني ، والسري والرفاء . وابن العباس النامي ، وأبي الفرج الببغاء وخلق كثير من الشعراء . وقد هجم على ابي الطيب ووقع في عرضه شعراء العراق حين اغراهم الوزير المهلبي به حتى قالوا فيه

أيُّ فضلٍ لشاعرٍ يطلب الفضـــلَ من الناس بكرةً وعشيّا
عاش حيناً يبيع بالكوفة المـا ء وحيناً يبيع ماء المحيّا

فزعموا انه هو هو الذي كان سقاءً لا أباه ، وهاج هذا القول الحسن بن لنكك شاعر البصرة وكان كما كان الخالديان (حاسداً له طاعناً عليه هاجياً إياه ، زاعماً ان أباه كان يسقي الماء بالكوفة) فقال ابن لنكك شماتةً حين رأى وقيعة شعراء بغداد في الرجل

قولوا لاهل زمانٍ لاخلاق لهمْ ضلوا عن الرُّشْدِ من جهلٍ به وعموا
اعطيتمُ المتنبيّ فوق منيتــه فزوّجوه برغم امهاتكمُ
لكن (بغداد) جاد الغيث ساكنها نعالهم في قفا السقاء تزدحم

وقال ايضاً

« متنبيكم ابن سقاءٍ كوفاني . . . .

فنضح — بعد ذلك — إناءُ ابن لنكك بما فيه

تذكُّر المتنبي بالسوء وزعمهم بأن أباه كان سقاءً من (مصنوعات) العراق بتدبير ات التي كان المهلبي (وزيراً) لها إذ ذاك على ما نرجح . فكم اتّجر صاحبنا المهلبي بالاكاذيب في ايام وزارته كما روت التواريخ عنه وعن ايام اصحابه . والاّ فكيف (يصحُّ في الاذهان) ان يقف ابن السقاء هذا المتنبيء كما زعموا في كل المواطن موقف المتعالي المتكبّر الذي لا يرى احداً فوقه ولا احداً مثله حتى سيف الدولة ابن حمدان وليّ نعمته ، وصاحبه ، ومكرمه على حين مساءةٍ من الزمن ؟! يا عجباً !! ألمْ يكن في مجلس سيف الدولة من يعرف ذلك يوم غضب عليه ، وترك الشعراء يقعون فيه ، ويتصدّى له ابو فراس وهو ينشد فيجبهه ويقطعه عن الانشاد . يقول المتنبي في هذا المجلس

سيعلمُ الجمع ممن ضمَّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدمُ
أنا الذي نظر الاعمى الى ادبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

فانظر كيف فضّل نفسه على من ضمّ مجلس سيف الدولة وفيهم سيف الدولة نفسه ، ولم يرد ابو فراس — وهو قريع المتنبي في الشعر وعدوُّه لمنزلته عند سيف الدولة — على ان قال له فيما قال : « ومن انت يادعي كندة » !! وفي قوله « دعيُّ كندة » نظر . فما نظنُّ الرجلَ ادّعى لكندة واصحابنا يزعمون انه كان يخفي نسبه ، وكان اولى بأبي فراس . واوقع في المتنبي

وأوضع له في تيهه وتعاليه على الامراء والملوك وكبار الشعراء كأبي فراس نفسه — ان يقول له إذ ذاك «من انت يا ابن سقاء كوفاني» .. لو انه كان علم ما علمه (التنوخي واصحابه وشعراء العراق وشاعر البصرة الحسن بن لنكك) الذين كانوا بالعراق على صلة (ببلاط) الوزير المهلبي وزير معز الدولة احمد بن بويه (الديلمي) عدوّ بني حمدان وفي رأسهم سيف الدولة (العدوي السربي)

أترى شعراء الشام الذين ذهب برزقهم وذكرهم، ولم يمنعهم من ذمه لهم في شعره، كانوا لا يتقصّون خبر الرجل وقد استفحل أمره بينهم فيعلمون انه كان (ابن سقاء) فيلمزونه بذلك ويستخفون به؛ أي يتبشرون به ويتنادرون عليه؟! وهذا ابن السقاء يتحداهم ويتحدى سيف الدولة نفسه، وأبو فراس قريبه وعدوه في المجلس إذ يقول

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا، وذان الشيب والهرم

أنهم ليطلبون له عيباً فيعجزهم الطلب ويكون متعالماً في العراق بعد أن الرجل ابن سقاء كان يسقي الناس على بعير له بالكوفة!!

اقرأ ديوان الرجل كله، تجده تياهاً يتسامى بنفسه على كل ممدوح، ويتعالى على كل اهل عصره، ولا يفتأ يوسع الشعراء من سخريته وهو قد قطع أرزاقهم، وألوى بهم وبذكرهم، وكلامه كلام الواثق الذي لا يدخله الشك؛ ولا يروعه الكذب، ولا يرده الافتراء؛ فلو كان في نسب الرجل (اذ ذاك) مطعن لطاعن، او في اصله تهمة لمتّهم لتردد في قوله تردد الحيران ولاجتنب الفخر حيث يكثر الحسد والهمهمة والتلفيق والدس عند الامراء ومن اليهم من رجال الدولة. ولو كان في نسب الرجل شيء، لسمعت عن كل موضع من فخره في شعره نادرة يتناقلها الادباء وغمزة قد غمزه بها انداده وأعداؤه من الشعراء. ألم يسمع هؤلاء إلى قوله في فخره

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجاني وغوث الطريد

فهذا من اكبر الفخر فما من قوم يفخر بهم (كل من نطق الضاد) غير أبناء علي رضي الله عنه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول يرثي جدته وقد ماتت بالكوفة، وكان صاحبنا إذ ذاك قريباً من الكوفة حيث نشأ وعرف

« وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما »

والعجب أن لا يصلنا عن هذا وغيره خبر واحد يطعن فيه الرجل بأنه ابن سقاء وما يكون لابن سقاء أن يقول مثل هذا، ويكون كل ما وصلنا من خبر أبيه إنما وصل في خبر دخوله بغداد في آخر عمره، ومن رجال بينهم وبين الوزير المهلبي آصرة مودة وتنادم، أو شعراء آسدهم هذا الوزير المهلبي وأغراهم بالرجل، حتى وقعوا في عرضه، وولغوا في شرف نسبه، وجودة قريضه وبيانه

فوَا أسَفا ألاّ أكِبَّ مقبّـلا
لرأسِـكِ والصدرَ اللّـذَا مُـلِئا حزمَا
وألاّ ألاقي روحَكِ الطيّبَ الذي
كأنَّ ذكيَّ المسْكِ كان له جِسما
ولو لم تكوني بنت أكرَمِ والدٍ
لكان أباكِ الضخْمَ كونُكِ لي أمّا

ها ، ولا غيرَهما ، . . . ابوه الذي كان سقاء — زعموا — يستي على بعير له بالكوفة ، وكان جعفيًّا صحيح النسبِ . . . وجدته ، وكانت همدانية صحيحة النسب (لا يُشكُّ فيها) ، وكانت من صالحاتِ النساء الكوفيات . ها ولا غيرها . . . اصله وفرعه ، وقديمه وحديثه ، وعشيرته وأهله . وعصبته وقومه ، والقائمون بأمره في اول حداثته لا عمٌ ولا خالٌ ! !

اما امهُ فقد جهدتُ ان اجدَ لها خبراً واحداً ، او ذكراً في كلام . فما وجدتُ ، اما ما زعم بعض الكتاب والادباء من انه اراد امهُ بقوله وهو في السجن وقد كتب به الى الوالي

يدي ايها الاميرُ الاريبُ لا لشيءٍ الاّ لاني غريبُ
او (لامٍّ) لها اذا ذكرتني — دم قلبٍ بدمع عينٍ يذوبُ

فليس عندنا بشيءٍ فانه كان يسمي جدّته (امه) وقد جاء ذلك في قصيدته التي رثاها بها فقال

ولو لم تكوني بنت اكرم والدٍ لكان اباكِ الضّخم كونكِ لي(امّا)

ومن قرأ قصيدته هذه وتدبرها وقع في قلبه اليقينُ انه لم تعطفه عاطفةٌ الى احدٍ من اهله (ولا نستثني اباه السقاء ! !) الاّ ان تكون هذه الجدّة الكريمة التي حملته صغيراً وثكلته شاباً ، بفراقه لها ، ثم ماتت به سروراً حين جاءها كتابه وهو متوجه الى العراق (ولم تمكنه دخول الكوفة على حالته تلك ! !) او كما قالوا . . . . وفي قصيدته هذه اشارة دقيقة بليغة مندرة ، يشير بها الى ان امه قد ماتتْ وهو صغيرٌ فكفلته جدته العجوز رحمها الله وذلك في قوله

« طابت لها حظًّا ففاتت وفاتني (وقد رضيتْ بي لو رضيتُ بها قِسما[1])

---

(١) القسم بالكسر النصيب ، وقد مضى الشراح من اصحابنا ولم ينظروا في قوله (لو رضيت) فعلى ان (لو) في هذا البيت انما تفيد الاسف والحسرة وهما وجه من وجوه التمني وللبيت موضع آخر من مقالنا هذا نتولى فيه شرحه ، فقد افسده الشراح

فتدبر الشطر الاخير فضل تدبر تجد المعنى الذي اردناه من ان امه ماتت وهو صغير فكان مما (قُسِم) لجدته ان تحضنه فرضيت بذلك رضى خالصاً وأحبته حبًّا عظيماً يقول في الدلالة عليه

« لكِ الله من مفجوعةٍ (بحبيبها قتيلةِ شوقٍ غيرِ مُلحِقِها وصما)

وفي تسميته جدته (امًّا) بعض الغنى في الحجة المرجحة لقولنا هذا

شهد التنوخي او ابو الحسن العلوي —او من تشاء— لجدّة المتنبي انها كانت من «صالحات النساء الكوفيات » ولعلّ هذا امرٌ لا ريب فيه – وان لم يكن قد وقع لنا الخبر بذلك – فانها هي التي تولت تنشئة المتنبي من صغره — ولقد تعلم وقد شهد له اكثر اهل عصره حتى أعداؤه — انه كان كما قال علي بن حمزة البصريّ (راوية المتنبي — كما سماه اهل المغرب)(١)

« بلوتُ من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة ، وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط» وقال ابن فورجه « لم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الاّ بخله وشرهه على المال »

وقد كان أثر جدته بيناً في اول شعره كما سترى ؛ وقد ذكر المتنبي خلقه في ابيات له منها قوله : وترى المروّة والفتوّة والابوّ ةَ فيَّ كلّ مليحةٍ ضرّاتها

هنّ الثلاثُ المانعاتي لذّتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

فلا شكّ أن أكثر ذلك من أثر جدّته، وزكاة نفسها ، وصلاح قلبها . وقد وصفها المتنبي لجمع ما شاء ودلّ عليها ، وأبلغ ، صادقاً فيما قال

فوا أسفا ألاّ أكبّ مقبّلاً لرأسِكِ والصدرَ اللذا مُلئا حزما

وألاّ ألاقي روحكِ الطيّبَ الذي كأنّ ذكيّ المسكِ كان له جسما

ويبدو انا ان هذه العجوز الحازمة التي بينت للمتنبي أمره ومهدت له طريقه ، كانت مع حزمها وهديها وبصيرتها ، رقيقة القلب تكاد تنخلع من نفسها اذا أعطت عواطفها قيادها ومع ذلك فقد كانت تحزم أمرها وتقسو على نفسها حتى يخيّل لمن لم يخبرها أنها لا تعطي المقادة لشيءٍ الاّ للعقل والتدبير المحكم ، وفي الذي رووْا من خبر وفاتها دليلٌ بيّنٌ على ذلك فانها كتبت تشكو الى ولدها وحفيدها شوقها ولوعتها وطول غيبته عنها فلما توجه الى العراق (من الشام) « ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك !! » انحدر الى بغداد وكتب اليها كتاباً يسألها موافاته ببغداد فلما أخذت كتابه (قبّلته وحمّت لوقتها وغلبها الفرح فقتلها) رحمة الله عليها .

وقد ورث المتنبي عنها هذا فقد كان مع ما يبدو من شدته وصولته ورجولته ، متهالكاً لا يستمسك فيما يمس عاطفته ويلمّ بقلبه ، وفي رثاء جدته بلاغٌ لك ان تدبرته ، وسترى ذلك ايضاً في آخر ما نكتبه عن أمره مع سيف الدولة، وعن أمره مع النساء او مع المرأة التي أحبها فهلكت وأهلكته

---

(١) كان من أئمة العربية ، مات في رمضان سنة ٣٧٥ بصقلية ، ولما دخل المتنبي بغداد كان بها علي بن حمزة فنزل المتنبي في داره ، وقرأ عليه شعره ، وقد تركنا بقية قوله في المتنبي لموضعه من المقال ان شاء الله .

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي . . .
وبهم فخر كل من نطق الضا
د وعوذ الجاني ، وغوث الطريد

***

وإني لمن قوم كأن نفوسهم
بها انف ان تسكن اللحم والعظما

ندع الآن امر جدته الى حينه — ان شاء الله — في كتابنا عن المتنبي ، ونبدأ برأي لم نجد له ما يؤيده من نصوص التاريخ ، ولكن . . . . . .

روى الاصفهاني ان المتنبي ، وهو ابن السقاء !! ، « اختلف الى كتاب فيه اولاد اشراف الكوفة ، فكان يتعلم دروس (العلوية) [1] شعراً ولغة واعراباً ، فنشأ في خير حاضرة »

ومعنى هذا : ان العلويين — وهم (الاشراف) — كما يتضح من هذا النص كانت لهم مكاتب خاصة يتلقى فيها اولادهم مبادىء العلوم ، ولاشك ان العلويين كانت — ولا تزال — لهم مدارس خاصة بهم تقوم اصولها في التعليم على اصل اعتقادهم ، وقد مر بي في قراءتي كثير من ذلك لا اذكر موضعه الآن وانما اذكر ان الشريف الرضي كانت له مدرسة سماها (دار العلم).
ونحن وإن كنا لا نعلم نظام هذه المدارس العلوية الا انه يتبادر الى الفهم ان هذه الكتاتيب والمدارس كان لا يدخلها الا ابناء العلويين ، ونص الاصفهاني يقول بذلك ، فدخول (احمد ابن عبدان السقاء) — الذي هو المتنبي — بين ابناء العلويين في كتاب لهم غريب عجيب، فيجب هنا ان نفهم من هذا الشاهد ان بين جدة المتنبي او بين العلويين سبباً موصولاً قوياً هو الذي شرح صدورهم وارتضاهم ان يدخلوا بين ابنائهم غلاماً كان ابوه سقاء في بلدهم

هذه واحدة من علاقة ابي الطيب وجدته بالعلويين ، ثم ان ابا الطيب فارق جدته ورحل لغير سبب معلوم الى البادية ثم عاد الى الكوفة شاعراً قوالاً ذا لسان فلم يمدح الا « محمد بن عبيد الله المشطب العلوي » — الذي قدمنا ذكره وذكر السبب في مدحه — ولم يمدح احداً من العلويين

(١) صواب هذه العبارة « وكان يتعلم دروس العلوية ، وحذق العربية شعراً ولغة واعراباً ».

قاطبة على كثرتهم ، وثرائهم وعلوّ مرتبتهم ، وخلوص عربيتهم [٢] في عصر اختلطت فيه الامور وصارت الشوكة الى الاعاجم

فلما خرج صاحبنا الى الشام ذكروا فيما ذكروا من (امر الفضول الذي نبز به يعنون النبوة) انه ادّعى العلوية مرتين — اي ادّعى انه علويّ صليبة وكان الذي قبض عليه هناك وعذبه وسجنه (ابن عليّ الهاشمي) العلوي ، وكان إذ ذاك باللاذقية سنة نيف وعشرين وثلاثمائة . واللاذقية يومئذ دار من ديار العلويين يربض فيها رؤوس من الدّعاة العلويين

ولما كان أبو الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ وأراد الخروج إلى الرملة أرصد له العلويون قوماً من عبيدهم السودان ليقتلوه ، ولكنه فاتهم بحياته ودهائه ؛ ودخل الرملة يمدح الامير أبا محمد الحسن بن عبد الله بن طغج فكان مما قال في قصيدته

وفارقت شرّ الارض أهلاً وتربةً بها (علويّ) جدّه غير هاشم

ثم كان ما روينا لك من امتناعه عن مدح العلوي (أبي القاسم طاهر بن الحسين) ولم يمدحه إلاّ بعد إلحاح الامير وتدنيه في السؤال منه وكان مما قاله أبو الطيب في هذا المدح

أتاني وعيد (الادعياء) وأنهم أعدّوا لي السودان في كفر عاقب
ولو صدقوا في جدّهم لحذرتهم فهل فيّ وحدي قولهم غير كاذب ؟

ثم استرع من ذلك أمثالا في النسب إلى العلوية المكرمة فقال

« إذا لم تكن نفس النسيب كأصله فماذا الذي تغني كرام المناصب
وما قربت أشباه قوم أباعد ولا بعدت أشباه قوم أقارب
إذا (علويّ) لم يكن مثل طاهر فما هو إلاّ حجّةٌ للنواصب »

فلما دعته جدته إلى العراق أن زورها قصدها ، والنصّ الذي ورد في ذلك هو هذا « فتوجه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة (على حالته تلك) فانحدر إلى بغداد وكانت جدته (قد يئست منه) فكتب اليها كتاباً يسألها المسيرَ اليه . . . » وهو نص غريب كما نرى وليت شعري يشعرك ما الذي أرادوا بقولهم (لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك) ، وهو قد أتاها قاصداً دخولها ، ورؤية جدته التي تحبه ويحبها . ويقطع صاحبنا الارض من أقصى الشام إلى أسفل العراق ودخول الكوفة همه ، ثم يمتنع من دخولها لغير سبب مذكور أو معقول . إذن فلا مناص من القول بأنه قد منع من دخول الكوفة وهذا هو الوجه الآخر لتأويل هذا النصّ الغريب

فإن صحّ أيضاً ما أسنده التنوخي (وذلك ما أوردناه في أول كلامنا) إلى أبي الحسن وابن أم شيبان (العلويين الكوفيين) . وان ذلك من كلامهما كثرت الادلة التي نوجه الحدس

(٢) والمتنبي كما تعلم كان من اكثر أهل عصره تمجيداً للعربية وتعصباً لها

والظن اي وجه يعنيه وذلك ان بين المتنبي والعلويين سبباً مجهولاً حملهم اول الى اكرامه بدخوله بين أبنائهم في كتابهم بالكوفة . ثم حملهم بعد على النية المعقودة للفتك به في الشام، ثم منعه من دخول الكوفة ليرى جدته العجوز التي ارسلت اليه تشكو شوقها وطول غيبته عنها . ويزيدك في هذا يقيناً وعليه اعتماداً رثاء المتنبي لجدته ففيه لطائف من الاشارة نكتفي بذكر البيتين منها هنا ثم نعود اليها بعد قليل . يقول المتنبي :

« تبيني (أخذت الثأر فيك من العدى) فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى »

ثم يقول :

« لئن لذ يوم (الشامتين) بيومها لقد ولدت مني لأنفهم رغما »

فقد أثبت ابو الطيب أن لجدته ثم له أعداء كان همه كله او اكثره ان يأخذ منهم (ثأرها) وثأره ، وان هؤلاء الاعداء قد شمتوا بموتها يوم ماتت ، فهذه الجدة الصالحة العجوز قد اتخذت لنفسها اعداء يرضون انفسهم بالشماتة ، وهؤلاء الاعداء — ولا بد — كانوا من الكوفة والارجح انهم كانوا من العلويين لما رأيت قبل من الصلة او العداوة الناشبة بينهم وبين ابي الطيب المتنبي

وأنا لا أرى بأساً من ترجيح الظن بأن المتنبي كان من ابناء العلويين فان هذا يفسر كل غموض في حياة الرجل ، وفيما روي عن نسبه من الملفقات ، وحسبي هنا ان أمر بك مراً على مواضع بينها لترى رأيك — وفقك الله — فيما اردنا من القول به فان رأيت حجتنا ساقطة فأسقطها ولا تؤاخذنا بما ظلمنا ، فان رجحت ما نقول به . . . فأن تدعو الناس لآبائهم أقسط عند الله

ووضع القضية عندنا هو هذا :

تزوج رجل من العلويين — ولا جرم ان يكون من كبارهم — بنت جدة المتنبي فحملت منه ووضعت احمد بن الحسين (وهذا الحسين غير عبدان السقاء) ، ولأمر ما أريد هذا الرجل على طلاق امرأته وفراقها ، وحمله العلويون على ذلك ، ففارقها وطلقها ، فرجعت الى أمها بجنينها او طفلها ، وحزنت حزناً اهلكها فاستلها الموت وذهب بها ، وبقي الطفل فكفلته جدته وتعهدته وقامت بأمره ، ودلته على الطريق بعد ان صرحت له بحقيقة امره ، وصحيح نسبته ، وكان من حزمها ان حذرت الفتى عواقب التصريح بأمر نسبه وأخذت عليه المواثيق والعهود ، بحبها له وحبه لها ، وأنه ان فعل كان في ذلك هلاكها وهلاكه فبقي على ذلك متململاً حتى كان من امره ما كان من ادعائه العلوية بالشام فقبض عليه فاضطر الى الاخلاد والتسليم وحرص على ان يطيع امر جدته بعد ان علم حزمها وصواب رأيها ، واخلاصها له المشورة ومحضها له النصيحة

وهذا الوضع لقضية المتنبي هو الذي يفسر لك طول تكتم المتنبي على نسبه واخفائه جهده من اصحاب الالسنة المتنقلة بين الرجال ، ويفسر ايضاً مخرج قصة (ابيه السقاء) وحرصهم على

حبكها ، والتقديم لها بلطيف القول ، وحسن العبارة كما رأيت في اول كلامنا (ارجع الى نقدنا لكلام التنوخي) ، ويأتيك بالدليل البين في امر دخوله كتاب اشراف العلويين بالكوفة وتعلمه دروس العلوية ويبين ايضاً عن السبب الذي من اجله سكت المتنبي عن مدح العلويين وعظائهم وأصحاب الجاه والسلطان منهم وهو بالكوفة ، ثم تأتيه على مدح ابي القاسم العلوي صاحب الامير ابن طغج حين كان بالرملة ، ثم ما كان قبل من ارصاد العلويين له عبيدهم لقتله بكفر عاقب وكفالة هذا فانا سنبني بقية كلامنا عن المتنبي من اول امره على هذا الاس او ما يقرب منه وبحسبك هنا ان نفسر لك بعض المعاني في رثاء جدته على هذا الاصل

« ورد على ابي الطيب كتاب من جدته لامه تشكو شوقها اليه وطول غيبته عنها ، فتوجه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك — فانحدر الى بغداد ، وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتاباً يسألها المسير اليه فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به ، وغلب الفرح على قلبها فقتلها »

وتأويل هذه العبارة كلها : — انه حين ورد عليه كتاب جدته ازمع الرحيل من الشام الى الكوفة ليلقى بها جدته فبلغ الخبر مشيخة العلويين فذهب بعضهم الى جدته . وأبان لها سوء رأيها ونهوها ان يكون لقاء ولدها من همها ، وأخبروها انهم قد اجمعوا رأيهم على منعه من دخول الكوفة بعد ما كان من امره وهو بالشام من اظهاره العلوية ، ورغبته في تحقيق نسبته الى العلويين . فلما فجئهم الخبر بورود صاحبهم (المتنبي) على طرف الكوفة خرجوا اليه وأنذروه ان يكون ذلك من ارادته بعد فضوله في الشام ، وأمروه بالانحدار الى بغداد ، ورجعوا الى جدته فآيسوها من لقائه بتاتا . فلما استقرت بالمتنبي بغداد وزاد شوقه الى جدته وبكى من خيفته عليها وحمله ذلك على الكتابة اليها — بعد ان لم يجد عن ذلك محيصاً في نفسه فكتب اليها كتاباً يسألها المسير اليه ببغداد ، ففرحت العجوز فرح اليائس من امر ثم اتته البشرى بالظفر من وجه آخر ، فاشتد ذلك عليها واستبدت العواطف المتاججة المتنازعة المتضادة بذلك البنيان المهدم الضعيف فانقض بعضه على بعض ، فماتت رحمة الله عليها وأثابها بما صبرت

فلما ماتت المسكينة ثارت نفس الرجل ثورة اليأس ، وخاف ان يستعلن للعلويين بالعداوة وهو ببغداد أن يقتلوه من أجل ذلك ، فأضمر ما في نفسه وأشار إلى هذه المعاني من طرف خفي . ويحسن ان نذكر هنا ان المتنبي خرج آخر مرة من الكوفة مرغماً على ذلك الخروج ، وهذا امر طبيعي إذا صح القول الذي نقول به ، فانظر الآن ماذا يقول الرجل في رثائه جدته

بكيت عليها خيفة في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما

وقدشرح الشراح هذا البيت وأداروا معانيه ولكنه بقي في شرحهم لا معنى له، كقولهم : وكنت ابكي

عليها في حياتها خوف فقدها . وفرقت الايام بيني وبينها فذاق كلانا ثكل (فقد) صاحبه قبل الموت»
فالعطف في الذي قالوا به « وفرقت الايام » لا معنى له هنا ولا فائدة منه . وتفسير البيت هو هذا
لما أيأسوها من لقائي ، وقد منعوني عن دخول الكوفة — علمت يقيناً أنها ستحمل
ثقلاً يهدّها فبكيت خيفة عليها من اثر الحزن فيها ، وما يبكيني أن لا ألقاها وكيف ابكي لذلك
(وقد ذاق كلانا ثكل صاحبه قديماً) بالفراق الذي حملنا عليه ! ولو كنت باكياً لبكيت
للفراق الذي كان بيننا بمنزلة الموت . فعدّتني هي قد مت ، وعددتها قد ماتت (وهذا تأويل
قوله . . وذاق كلانا . . . .) أي ثكلتني وثكلتها

ثم يقول بعد أبيات

طلبت لها حظًّا ففاتت وفاتني وقد رضيت بي — لو رضيت بها — قسما [1]
فأصبحت أستسقي الغمام لقبرها وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصمّا

ومعنى البيتين عندنا — كانت العجوز رضي الله عنها قد رغبت اليّ ان اكتم امر نسبتي العلوية الى ان يشاء الله ، ولكني خالفتها ، وآثرت فراقها لعلّي أصيب بعيداً عن الكوفة ما لم ادرك بها فخرجت اطلب لها (حظًّا) اي فضلاً وخيراً في رد شرف انتمائنا الى العلويين ، ولكن شاء ربك ان تفوتني بها الاحداث فتموت ، ويفوتني ايضاً بعد موتها ذلك الحظ لما أعلم من انها كانت هي السبب في امتناعهم عن الفتك بي ان حاولت امراً ، فواحسرتاه ! انا خالفتها وخرجت اطلب لها هذا الحظ وقد رضيت بي قسماً وحظًّا ونصيباً وجعلت ظفرها بي عدلاً لما فاتها من الحظ الذي كنت اطلبه لها ، فياليتني [2] رضيت بها كما رضيت بي وجعلتها عدلاً لما فاتني من هذا الحظ ، وعلى هذا الاصل يكون معنى البيت الثاني واضحاً بيناً فهو يقول : كنت اريد القتال والحرب لاشفي بالدم المهراق غليلها ، واردّ عليها حياتها في شرف نسبتنا الى العلوية فالآن وقد ماتت وفاتت لاحيلة لي الا ان اسأل الله ان يبرّد قبرها بما يدرّ عليها من ماء الغمام . ثم قوله :

«هبيني اخذت الثأر فيك من العدى فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمّى»
« لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لانفهم رغمًا »

وقد مضى بعض القول في هذين البيتين ، ولكن بقي ان نقول ان هؤلاء الاعداء والشامتين كانوا من اشراف الكوفة لما رأيت اولا اذ لا يعقل ان يكون غير ذلك ، لا يعقل مثلاً ان يكون أولئك الاعداء والشامتون من طبقة السقائين والنسّاجين ومن اليهم ، ولو كان ذلك كذلك لما

---

[1] تفسير البيت عند الشراح هو هذا : وربما كنت أطلب لها حظاً من الرزق ففاتتني هي وفاتني هذا الحظ وقد كنت راضياً ان أكون قسماً لها من الدنيا وتكون قسماً لي (والقسم النصيب) وقد كنت أستسقي من الرياح ان تسقيني دم الاعداء فلما ماتت تركت الحرب حزناً عليها وصرت أطلب من السحاب ان يسقي قبرها . . . قلنا : انظر هذا التفسير ، واقرأ تفسيرنا

[2] اعلم ان (لو) في بيت المتنبي معناها التمني والاسف والحسرة

حفل المتنبي بذكرهم ولا التعريض بهم وان يجمل نفسه رغماً لانوفهم . وهو من هو في الكبرياء والتسامي والغلوّ في الترفع والعظمة

وعلى عادته اتى في القصيدة باشارة عجيبة ، هي من باب التفات القلب الى ما يلجّ فيه من الرأي المضمر . . . يقول

فوا أسفا الاّ اكبّ مقبّلاً لرأسك والصدر اللذا مُلئا حزما
والاّ ألاقي روحك الطيب الذي كأن ذكيّ المسك كان له جسما

ثم استيقظت في قلبه تلك الثورة العجيبة التي اصبحت طابع شعر الرجل كله ، فانتقل من معاني الحنان والرقة الى معاني القسوة والعتو فقال

ولو لم تكوني بنت اكرم والدٍ لكان اباك الضخم كونك لي اما
لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لانفهم رغما

ذكرته روح جدته بالثأر القديم الذي نسيه في قوله قبل ذلك « هبيني اخذت الثأر فيك من العدى » فصرخ صرخته هذه فكأني به يقول : ابعدوك ونفوك ، فما يضير نفيهم روحاً طيباً ، ونفساً زكية ! ! ولا تأسَي ولا تحزني ، فانك قد ولدتني ، وكفاك شرفاً ان تكوني لي أمًّا ، فاني مُرغم انوفهم وحاملهم على خطة الخسف حتى يمطوا المقادة وهم صاغرون فعلى هذا فسر قوله

واني لمن قوم كأنّ نفوسهم بها انفٌ ان تسكن اللحم والعظما
كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعةٌ لا تعزّني ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلما

وقوله :

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كلّ من نطق الضا دَ وعوذ الجاني وغوث الطريدِ

والفخر من نطق الضاد هم ابناء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله ايضاً

ولكنني مستنصر بذبابه (١) ومرتكبٌ في كل حال به الغشما
وجاعله يومَ اللقاء تحيتي والاّ فلست (السيد البطل القَرِمَا)

ثم فسر على هذا الاصل قوله ايضاً وقد جعل قومٍ يستعظمون ما اتى به في رثاء جدته

يستعظمون أُبَيّاتاً نأمت (٢) بها لاتحسدن على ان ينأم الاسدا
لو ان ثمّ قلوباً يعقلون بها انساهم الذعر مما تحتها الحسدا

(١) يعني سيفه (وذبابه) حده (٢) النئيم زئير الاسد

وتدبر قوله (لا تحسدَنَّ) ! ! ولو كان غير المتنبي — هذا الموتور صاحب الثأر عند هؤلاء القوم — لقال (لا تعجبنّ) او ما يقرب من ذلك

ونحن لو شئنا ان ننقل لك هنا ونفسر كل شيء يدل من قريب أو بعيد على ما نذهب اليه ، لكلفنا ذلك أن نشرح لك اكثر ديوان المتنبي ولكن بقيت أشياء ننبّه اليها — لو أنت قرأتَ ديوان الرجل لوقعت على كثيرات من أمثالها وذلك كقوله بعد وفاة جدّته ومرجعه إلى الشام

سأطلب (حقّي) بالقنا ومشايخٍ   كأنهم من طول ما التثموا مُرْدُ

فقوله (حقّي) لا يقع هذا الموقع من شعر إلاّ من أحد رجلين رجل دعيّ طويل الباع واللسان في الدعوى والكذب ، أو رجل صادق لا يكذب على نفسه ولا على الناس ، وليس المتنبي بأولها ، إذن فقد كان له حقّ يطلبه بالحرب وهو الذي سماه (حظًا في رثاء جدته ، وإنما خفف الحق في الرثاء وجعله (حظًا) لما أشرنا اليه من قبل . ومثل هذا قوله لكافور

فارمِ بي حيث شئتَ منّي فإني   أسدُ القلبِ آدميُّ الرواءِ
وفؤادي من (الملوكِ) وإن كا   نَ لساني يُرى من الشعراءِ

فلا عجب بعد في فخر المتنبي وتعاليه وتعاظمه ، فكلّ مفسّر بيّنٌ واضح العلّة والمعنى على هذا الاصل ، وكان عجباً عاجباً عند الناس أن تبلغ الحماقة بابن سقاء أن يفخر مثل هذا الفخر ويتعاظم على الملوك مثل هذا التعاظم ، وذهبوا في تأويل ذلك مذاهبهم ولعلّ هذا — ان شاء الله هو المذهب الحق

أَذاقني زمني بلوَى شرقتُ بها
لو ذاقها لبكى — ما عاش — وانتحبا
وان عمرتُ جعلتِ الحربَ والدةً
والسمهريّ أخاً والمشرفيّ أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً
حتى كأنّ لهُ في قتله أربا
فالموت أعذرُ لي ، والصبرُ أجملُ بي ،
والبرُّ أوسعُ ، والدنيا لمن غلبا

ماتت أمّ (أحمد بن الحسين) أبي الطيب المتنبي — فيما زعمنا — فوقع الى جدته واختارته وآثرته على حظها من الدنيا فكفلته . وألقت كل ذات قلبها وكبدها في تعهده ورعايته ، ثم في تربيته وتنشئته : ثم في النصيحة له وتطريق وعر الدنيا عند قدميه . ومنحته في ذلك حنان الام الفاقد على ولدها اليتيم المعلم ، وكانت العجوز كما وصفوها « من صلحاء النساء الكوفيات » ، وكما وصفها حبيبها ولدها ثم حفيدها « حازمة ، طيبة الروح ، زكية النفس » غير أنثى العقل

وكانت امرأةً موتورةً كما ذهبنا اليه فيما مضى بك ، لا تزال تجدُ في قلبها الامر الذي يقول لها : « ها أنا ذا . . . . فلا يلفتنكِ حنانكِ عن الجدّ في تدبير العزم وادارة الرأي على وجوهه في طلب الثأر الذي لكِ في أعدائك المنزليك بشر منزلةٍ ما ترضاها نفسٌ كنفسك في الطيب والزكاة» . وأطاعت العجوز أمرها بالانتصاف لنفسها ولحفيدها ، ولا حيلة لها الا تنشئة الصغير على غرارٍ فذّ يكفل لها إدراك ما تروم ، وكذلك فعلت . فكان المتنبي في الزمن ثم في الشعراء خاصةً شخصيةً عجيبة ، اذا أخذتها من يمين التوت بك الى شمال ، وان ذهبت تطلبها من وجه راغت من وجوه ، واستبهم أمرهُ على الناس باستبهام الغرض الذي رمى اليه هذا الانسان . وكان كما قال ابن رشيق « ملأ الدنيا وشغل الناس » . . .

لا ندري كيف تمّ الرأي بينها وبين العلويين أن «يختلف — الفتى أحمد — الى كتّابٍ فيه أولاد أشراف الكوفة» كما نقل الاصفهاني ، ولعلهم أرادوا بذلك أن يرضوا العجوز ، ويخففوا عنها ثقل همومها ، ويحملوها على المطاوعة لهم خشية أن تفجأهم بما لا يحبون من اظهار ما أرادوا

كتمانه وإخفاءه . دخل الفتى الكتاب، وقد قال التنوخي في حديثه الذي أسنده الى أبي الحسن العلوي — يعني المتنبي — « ونشأ وهو محب للعلم والادب فطلبه » ، ولا شك أن جدته الحازمة الصالحة كانت من ورائهم تستحثه على طلب العلم وتستفزه الى ذلك ليتم لها — ان شاء الله — ما تؤمل من الفرح بنبوغه وتفوقه على لداته وأسنانه من العلويين ، ويستطيع بعد أن يدرك لها « مجداً » ويطلب لنفسه « حقاً » هضم ؛ ومنع من دونه حتى ألقي في أسوأ مجهلة وشر منزلة : خفاء من النسب ، وقلة من المال وبعد عن مساعي المجد . وقد وجدت العجوز أرضاً صالحة بطبيعتها لما تريد من أمر بنيها فتأدب الفتى بالعلم الذي كان يتلقاه في كتاب أولاد أشراف الكوفة واجتهد في ذلك ، وبرع وفاق أصحابه وأخذته جدته بأخلاق صالحة طيبة ، وحاسبته وحرصت على استطلاع خبره كله وألقت في قلبه وفكره وخياله طلب المجد بالعلم ، ثم زينت له الفتوة وعلو النفس وبعد الهمة ، وعظم المطلب ، وأدبته بالصدق والامانة وكتمان السر ، وعلمته من حياتها ودهائها وحذرها ، سعة الحيلة ، وخفاء الدهاء ، وتقديم الحذر ؛ وبعد أن أدرك الفتى من الفكر ما يسر لها ما تريد أن تبوح له به ، طفقت تدير له السر من هنا ومن هنا ، وتأخذ نفسها بالحذر والتكتم والاحتراس من ثورة الفتى إذا هي فجأته بما تريد . حتى بلغت ما أرادت . وهذه المعاني كلها دائرة في حياة المتنبي وشعره دوران الدم في عروقه فإذا أنت قرأت ديوانه من أوله إلى آخره فلن يفوتك أن تراها جمياً او ترى بعضها ماثلاً غير خفي في كل موضع من شعره

ويؤيد قولنا هذا : أن الغلام — وهو صغير بالمكتب — كانت له وفرة من الشعر تسيل على أذنيه ، وكانت حسنة جميلة فقال له بعض أصحابه من الفتيان (العلويين) يا أحمد « ما أحسن هذه الوفرة » فكان جوابه أعجب جواب من صبي في مكتب

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة يعلها من كل وافي السبال [1]

فظن ما شئت بغلام في مثل سنه لا يزال في أول طلبه للعلم يقول مثل هذا القول . ويحسن أن نطيل القول قليلاً في هذين البيتين ففيهما أصول كثيرة من حياة الرجل ونفسيته فيما بعد

فالاصل الاول هو هذا الالتفات الشعري الجميل من المعنى المحدود بغرض قائله إلى المعنى المترامي بخيال سامعه ، فإن اصحابه كانوا يعجبونه من حسن وفرته واسترسالها ولينها ، فتجاوز صاحبنا هذا بخياله من الصورة الحاضرة إلى الصورة التي يريد أن يراها شعثاء غبراء يوم ينشر

(١) « الضفر » الخصلة المضفورة من الشعر كالغديرة ، وقوله « معتقل صعدة » اي حامل رمحه الى الحرب « ويعلها » يسقيها من الدم مرة بعد مرة « والوافي السبال » هو الطويل اللحية

مضفورها يوم القتال بين الغبار الثائر والدم المهراق وهذا إثباتٌ للاصل الشعري القائم في نفسه
والاصل الثاني ، هو الرجولة والفتوَّة ، وبعد الهمّة ، وعظم المطلب وانصرافه عن سفساف الامور الى معاليها ، لا يعبأ بلذة لاتجدي خيراً ، ولا تؤتي ثمراً ، وانما يجد لذّته فيما يأتيه بما يريد ولو كان فيه فيه شقاؤه وجهده ، وقد شرح صاحبنا هذا المعنى النفسيّ في شعره بعد فقال :

« سبحان خالقِ نفسي كيف لذّتها فيما النفوس تراه غاية الألم
الدهرُ يعجب من حَمْلي نوائبه وصبر نفسي على احداثه الحُطُم »

وهذا اصل رجولته وفتوته وقوته النفسية التي ظهرت واستعلنت في كل شعره حتى صار بها فذًّا أوحد
والاصل الثالث : هو الثورة الدائمة ، فأنت تراه من صغره هكذا لا يريد الاّ القتال والدّم
والرابع : ان هذين البيتين من صغير كقائلهما يضمران وراءهما معنى آخر غير هذه المعاني وهو انه منشأٌ على طلب الثأر من عدوٍّ فهو لا يزال ينقلُ الصورة من وضع الى وضع آخر يُرضي ما يدور في نفسه من المعاني المحددة بطفولته وما غذيت به من الآراء والاخلاق . وان شئت فتدبّر السرّ العجيب في قوله « يعلُّها » اي يسقيها الدم مرّة بعد مرّة لا يكتفي بواحدة ، وتعجّب من قوة الاصل الشعريّ في هذا الغلام ، ومن طغيان الحِقد والثأر على قلبه الصغير
والخامس : هو بيانه الخفيُّ عن عدوّه الذي يريد ان يحاربه وقد صرّح بذلك في قوله « كلّ وافي السّبال » ، فانظر من اراد هذا الصغير بهذه الصيغة ، أتراه عنى كل كبير السن ذي لحية طويلة ؟ أترى ذلك ! ! كلاّ فالبين البين انه اراد قوماً باعيانهم كنى عنهم بهذه الصيغة ؟ ومن هؤلاء الذين يريدهم بهذه الصفة ؟ أليس المعقول ان هذا الصغير انما يتجه خياله الى اقرب الناس اليه في بلده ، ثم إلى الذين اوحت اليه جدته بأن بينها وبينهم سخيمة من العداوة ؟ ومن يكون هؤلاء من اهل بلده الاّ مشيخة العلويين[1] الذين انزلوا الهوان به وبجدته فيما ذهبنا اليه من الرأي فيما مضى
والسادس : ان هذه الثورة التي تلبست به واخذت عليه مذاهبه في حياته انما هي من اثر جدته اذ باحت له بسرها والقت اليه بمكنون صدرها ، وذلك لان الفتى الصغير لا يكادُ يدرك هذه المعاني كلها ، ويسيغها حتى تظهر هكذا مسهلة على لسانه الاّ ان يكون قد أُخِذَ بها ، وهيء لها ، وأعطيَ من نفس غيره قوة تخرجه من طبيعة الطفولة ، الى عادة الرجولة والفتوة
ولولا ان صاحبنا ابا الطيب قد « اسقط من شعره[2] الكثير ، وبقي ما تداوله الناس »

---

(١) وهذان البيتان من الادلة على ما ذهبنا اليه في قضيته مع العلويين في الذي سر بك ولم نذكرها هناك لتفادي الاطالة

(٢) هذا القول يغلب على شعر صباه ولا شك ، ولاشك ايضا ان بعض شعره في فتوته وكهولته قد سقط او اسقط ولكنه قليل جداً لا يكاد ينفع شيئاً

كما حدثنا ابو القاسم الاصفهاني عن ابي الفتح بن جني لوجدنا فيما اسقطه كثيراً من امثال هذا القول الذي يدلُّ على نفسية الصبي التي كبرت معه وكانت هي (المتنبي) الشاعر الفرد الذي لا يكاد يخفى شعره على اقل الناس بصراً بالشعر

وأبياتٌ اخرى قالها وهو بالمكتب ايضاً

الى ايِّ حينٍ انت في زي محرم؟(١) وحتى متى في شقوةٍ ؟ والى كم !!
وإلاّ تمتْ تحتَ السيوفِ مكرماً تمُتْ وتقاسِ الذل غير مكرَّمِ
فثِبْ واثقاً بالله وثبةَ ماجد يرى الموتَ في الهيجاء جنى النحل في الفمِ

وهي وان كانت مما قال في صغره إلاّ انها امثل من الابيات الاولى في الدلالة على المعاني التي ذكرناها والاصول التي استنبطناها فتدبرها على ما قدمنا لك تجد الشاعر الكبير في الشاعر الصغير الاّ في موضعٍ واحدٍ قل في شعره بعد الكبر وذلك هو تقديم الثقة بالله ، على الثقة بسيفه ونفسه ; وهذا الموضع ولا شك من اثر جدته التي كانت « من صلحاء النساء الكوفيات » وهو يؤيد رأينا في ان العجوز كانت تمنحه نفسها وتمحضه نصحها وتربيه على ما ارادت ، لم تكتف ان تركنَ في تأديبه وتثقيفه الى المكتب او الى الزمن واحداثه ، وهو المعلم الاكبر والاستاذ البارع

هذا ، وما نشك في ان الفتى كان وهو بالمكتب اكثر اصحابه تحصيلاً للعلم واقبالاً عليه وانصرافاً اليه ، وذلك لما ذكروا من قوةِ ذاكرته التي كادت تكون احدى الخوارق ، ثم لما اخذته به جدته من الادب والرأي ، وما زينت له من طلب المجد ، ثم ما تهيأ في نفس الصغير من اصل طبيعته التي تسرع به الى السموّ . ولهذا كان الفتى محسَّداً بين اترابه منظوراً اليه بعين. فالحسد الصغير الذي مُني به وهو في المكتب ، وما يموج في صدره من حقد وثورة — وبغض لمن اريد له ان يشنأهم ويبغضهم — كل ذلك كان هو الاصل فيما تعجب منه المتعجبون من كثرة ذكر هذا الشاعر للحسد والحساد والوشاية والوشاة وما الى ذلك مما يلم به ، وقد المَّ صاحبنا بهذا الذي اردناه في قوله وهو بأنطاكية فيما بعد

ابدو فيسجدُ مَنْ بالسوء يذكرني فلا اعاتبه صفحاً وإهوانا
(وهكذا كنتُ في اهلي وفي وطني) ان النفيس غريب حيثما كانا
(محسَّدُ الفضل مكذوبٌ على إثري) ألقى الكميَّ ويلقاني اذا حانا

فهو من يوم كان في وطنه الكوفة الى سنة ٣٢١ حين رحل الى الشام كان يلقى العنت من

(١) (زي محرم) كناية عن فقره لقلة ثيابه التي تستره ، والمحرم من الحاج لا يلبس الا ازارين غير مخيطين

الحسد والحساد ، وما تكذبوا به من اباطيلهم ، وما القوا عليه من عيوبهم ، فلما استمر مريره وبرع وفاق الشعراء ، وأكل ارزاقهم الى رزقه — اجاب عليه الحساد والوشاة ، فدسوا له وأذاقوه من بأسهم ، فبقي الى آخر عمره يذكر ذلك في شعره ، ويتخيله في صغير امره وكبيره

قلنا ان الفتى كان احذق اسنانه وأسرعهم الى التحصيل ، وأحفظهم للعلم ، وظاهر شعره الذي قاله في اول امره وصباه ، انه لم يقصر درسه على « دروس العلوية وحذق العربية شعراً ولغة واعراباً » بل كان كما كان الى يوم وفاته متتبعاً للكتب يقرؤها ويحققها ويحفظها ، من كتب الشعر والادب والدين والفلسفة والكلام وغيرها من علوم عصره وسنأتي على طرفٍ من شعره في سياق الدليل على ذلك . وقد روى بعض الرواة — هو صاحبنا الاصفهاني — ان المتنبي وقع في صغره الى واحدٍ يكنى ابا الفضل بالكوفة فهوّسه وأضله كما ضلَّ » هكذا قالوا

ولا شكَّ ان ابا الطيب قد لقي هذا الرجل وهو بالمكتب لم يبرحه بعد . والقصيدة التي في ديوانه ، والتي قدموا لها بقولهم « وقال وهو بالمكتب يمدح انساناً ، وأراد ان يستكشفه عن مذهبه » هي في ذكر هذا الرجل الذي ذكره الرواة ، وأولها

« كفى – اراني – ويكِ لومكِ ألوما   همٌّ اقام على فؤادٍ أنجما »

ويقول فيها وقد ذكر اسم الرجل

« كصفات اوحدنا (ابي الفضل) الذي   بهرت فانطق واصفيه وأفحما »

ومن قرأ القصيدة كلها القاها كلها ، فما فيها بيتٌ واحدٌ من الشعر ، ولفظها وكلامها ومعانيها غثٌّ كله ، وما ندري ما الذي جعل ابا الطيب يحرص على ابقائها في ديوانه ، وقد اسقط الكثير من شعر صباه على ما ذكر تلميذه ابن جني ؟ وقد أعجم صاحبنا القصيدة كلها وأتى فيها بكل ساقطةٍ من الفلسفة وما اليها ، وبالغ حين مدح الرجل بما ينقل الكلام من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، حتى أخلَّ ذلك بعربيتها إخلالاً بيّناً لم يقع مثله في ساقط شعره وسفسافه .

والظنُّ عندنا أنه لقي أبا الفضل هذا ، وكان يدّعي الفلسفة ، ويتبجّح بذكرها ، ويظنُّ بنفسه العلم بها ، ويعرض نفسه لقراءة درس فيها ، وكان في ذلك أضحوكة يعجب منها ويتفكه بها ، وكانت صورته في ذلك كله تستقصي الضحك وتستخرجه ، فقال له أبو الطيب هذه القصيدة تندُّراً به وعبثاً وسخرية . ولا حاجة بنا إلى تفصيل ذلك بذكر الابيات التي تدلُّ على ما أردناه فإن قليلاً من التدبر — فيما جمع فيها أبو الطيب من السخف والمضحكات والمناقضات والمبالغات — دليلٌ كافٍ وافٍ . ويبيّن إذن أن المتنبي ما أثبت هذه القصيدة في ديوانه إلاَّ لأنه كان يذكر بها شخصية كانت تستخرج من قلبه الحزن أقصى الضحك ، وغاية الاستغراب

والعجب للاصفهاني صاحب « إيضاح المشكل » الذي مرَّ في اول كلامنا ذكره — أن

يزعم أن معتوهاً كأبي الفضل هذا النكرة قد هوّس أبا الطيب وأضلّه كما ضلّ ، فمن كان في بديهة المتنبي ، وذكائه وتوقده لا يلعب به رجلٌ مغمور غير مذكور كهذا الذي ذكروه . وظاهر أمر الاصفهاني أو منْ قال له ذلك ، أنه وقع اليه خبر أبي الطيب وتمدره بأبي الفضل، هذا الدعيْ على الفلسفة ، فقلب الخبر من معنى الهزل إلى معنى الجدّ ونسب إلى المتنبي الاخذ عنه ، والاقتداء بسخفه وهذيانه . فلولا جاءوا بشيخ مذكور من شيوخ الفلسفة وادّعوْا ذلك فيما ادّعوْا على الرجل ! !

ونحن لا ننفي عن أبي الطيب التأثّر بالفلسفة وغيرها مما يداخلها أو تداخله على مذهب الاوائل ، وكيف يكون ذلك ؟ والدنيا يومئذٍ موجٌ متلاطمٌ بالجدل والخصام ، والعلماء يومئذٍ كثيرون ، وأصحاب المذاهب الغريبة متوافرون ، وأصحاب الجدل مغرمون بإقامة الشبهة وردّها بالحجة والبرهان العقلي ، والكتب المختلفة كثيرة لم تذهبْ بعد ، وهي كتبٌ نشأ منها بعد علم الكلام الذي اختلطت به الفلسفة وصارت اصلاً من اصوله ، والمساجد لذلك العهد كانت عامرة بالصخب الذي لا يجدي ولا ينفع في اصول الدين وعقائده . فلسنا نشك بعد ان هذا الفتى المتوقد - الذي قال عنه كثير ممن رأوه انه كان واسع العلم والمعرفة -- قد اختلط وسمع وبحث ونظر وجادل واخذ بأطراف مما سمع وقرأ وحفظ ، حتى بان ذلك في شعره الاول بياناً لا خفاء فيه . وقلّ بعد ان استحكمت قوته وغلب عليه الاصل الشعري الذي استولى على اكثر موهبته وقدرته . ونسوق اليك هنا طرفاً من ذلك فيه غنى ان شاء الله . يقول

« وضاقت الارض حتى كان هاربهم اذا رأى (غير شيء) ظنه رجلا »

يريد « لا شيء » فأبدل ، وهذه من ألفاظ المتكلمة ، والخيال خيالهم

« يترشفن من فمي رشفات هن فيه (حلاوة التوحيد) »

وهذا من ألفاظ المتصوفة

كتمت حبّك حتى منك تكرمة ثم استوى فيه اسراري واعلاني

كانه زاد حتى فاض عن جسدي فصار سقمي به في(جسم كتماني)

والبيت الثاني ، واللفظ الاخير خاصة دليل على تأثره بالمعاني الفلسفية والصوفية وهذه هي التي اخرجت له هذا الخيال السخيف — وقوله

فتىً الف جزءٍ رأيه في زمانه اقلُّ جزيءٍ بعضه الرأي أجمع

فهذه قسمة حسابية !! والجزء والجزيء من الفاظ المتكلمين والفلاسفة ، وقلما يأتي احدها في الشعر مستحسناً وقوله

فصيح متى ينطق تجد كل لفظةٍ (اصول البراعات التي تتفرّع) .

وهذا مدح فلسفي ليس بشعر، وانظر الى جمعه البراعة وهي من الغرائب التي تلدها الفلسفة وقوله

لما وجدت دواء دائي عندها هانت عليَّ (صفات جالينوسا)
بشرٌ (تصور غاية) في آيةٍ تنفي الظنون (وتفسد التقييسا)

فقوله (صفات جالينوسا) يريد ما يصفه جالينوس للامراض من الدواء، وهو دليل على نظره في كتب الطب، ثم قوله (تصور غاية) من اساليب المتفلسفة، وقوله «تفسد التقييسا» يريد «تفسد القياس» وهو مما يرد في كتب الكلام. ومن تتبع سائر شعره في صباه، وجد فيه آثاراً كثيرة تدل على ما قرأ ابو الطيب، وما سمع من كتب الفقه والحديث والتفسير والجدل والمنطق والملل والنحل والتاريخ وسير الاوائل والانبياء الماضين وغير ذلك مما كان من علوم اهل عصره، وقد احاط بكثير من ذلك واستوعبه ونظر فيه نظر المتفكر المتدبر، ولولا ذلك لما ولع بذكره في شعره، ولما دار على لسانه على غير ارادة منه فيما نظن

وقد كان في هذا القسم من شعره يلجأ الى الاساليب الفلسفية في استخراج المعاني وتوليدها وكان يكثر من التقسيم الفلسفي، والتوجيه المنطقي وغيره من الوان كلام المتفلسفة والمتكلمة والمتزندقة ايضاً حتى فسدت معاني شعره، فلذلك كان أكثر ما تجد من ساقطه ومرذوله—مما عابه عليه النقاد، وخاصه به المتعصبون عليه —هو من هذا القسم الذي قاله في صباه الى اطراف سنة ٣٢٨ على وجه التقريب لا التحقيق

***

وهذا العهدُ من حياة المتنبي لم تردْ عنه روايةٌ موثقة مستفيضة، وانما عملنا فيه الاستنباط من قليل شعره الذي قيل في صباه، واستخراج الاصول النفسية منه، ثم مسيرها بعد وتدرجها معه حتى بلغت مبلغها في كبير شعره الذي «ملأ الدنيا وشغل الناس»

عندنا ان المتنبي بقي في المكتب الى سنة ٣١٧ تقريباً وكانت سنه اربعة عشر، ولكنه كان بتوقده وذكائه في درجة من أناف على العشرين، وقد ذكر التنوخيّ انه قال الشعر صبيًّا، وذكر غيره انه كان آيةً في الذكاء والفطنة، وقال غيرهما انه من دهاة عصر. — اي كان كذلك فيما بعد — وكان مما ورثه عن جدته هذا الاحساس المرهف الدقيق الذي يهتزُّ في قوته وكبريائه لا في ضعفه وذله. واجتماع الذكاء والحس المرهف هما آلة كلّ شاعرٍ، وقد ظفر المتنبي من كليهما بنصيب الاسد المصور، ولذلك كان شعره اروع شعر في العربية وكثير غيرها، وكان محبباً الى اهل عصره متداولاً سائراً بينهم لانه كان يأخذها من شعور الناس وآلامهم واحداثهم ويبني بما يأخذ بيوت شعره، وروائع بلاغاته

وهب الله هذا الذكيَّ المرهف الحسّ جدةً حازمة كانت — فيما ذهبنا اليه — توقد في

قلبه نيران الثورة ، وتؤرثها بالحقد على قوم بعينهم ، وتدربه على كرائم الخلق كالصدق والامانة والوفاء وحب المجد والتطلع إلى العلياء ، والجرأة المستنفرة التي لا تتهيب ، يحدّ منها الحذر الذي لا يتهاون ، والدهاء الذي لا يتورط في موارد التلاف . وشرع الفتى يطلب العلم ويستزيد منه ويشتد في الطلب مصمماً معتزماً أمراً في نفسه أن يبلغه أو يهلك دونه ، ثم انفتحت لعينيه الدنيا برذائلها وفضائلها وحكمتها وترهاتها ، وجدها وهزلها ، فاضطربت نفسه وطفقت تتلمس الاشياء هنا وثم لتستقر على ما ترضى به وتأنس اليه

وكانت الكوفة — التي نشأ بها وشب وترعرع وتفتى — لذلك العهد ، بلداً من بلاد الإسلام قد رمتها القرامطة بجيوشها مرات وفعلت بأهلها الافاعيل ، وكانت الدولة العربية في شغل عن الكوفة بانقسامها شيعاً يأكل بعضهم بعضاً ، وظهرت شوكة الاعاجم وكانوا أصحاب حيلة ودهاء فأوقعوا بين المسلمين ، وبين عرب البادية حتى صارت الدولة العربية المترامية الاطراف في ثورة دائمة لا تفتر ، ولا تنقطع الحروب في ناحية إلا اتقدت نيرانها في أخرى. وانقسمت دويلات ، ولم يبق للخليفة إلا الاسم الكريم يحمله مرغماً ويضعه مرغماً لا إرادة له. ولا شك أن إحساس أبي الطيب قد ألم بذلك كله وفصله ونقده ، وعرف الداء الذي كمن في بدن العربية واستل قوتها وقتل روحها ، فازداد إلى ثورته ثورة وإلى حقده حقداً

وكانت أخلاق الامة قد اتضعت وفشلت بما تداخلها من أخلاط الامم الذين لا أصل لهم يرجعون اليه ، ولا خلق عندهم يستذمون به ، وفسدت العامة من أهل المدن فساداً كبيراً ، واضطربت في أيدي الناس حبال الاخلاق ، وصاروا لا يقيسون الناس إلا بمقياس الظاهر ، ولا يزنونهم إلا بميزان المال . فبطلت موازين الرجال التي يوزنون بها من العقل والحكمة والعلم والرجولة وكرم العنصر . فكان نظر الفتى إلى هذا مما ألقى الحطب على النار التي في صدره ، فبغضت اليه سفاسف الاخلاق وتملق بمعاليها ، وزين في قلبه أن يكون هو الثائر الذي يرد هؤلاء الاهمال والهمج إلى مرد ، ويأوي بهم إلى مأوى ، ويقوم عليهم قيام الراعي حتى يخلصوا من الشر ، ويستمسكوا بالعروة الوثقى ، ويفيئوا إلى الخلق الكريم الذي لا يبخس الناس حقهم ، ولا يظلمهم ، ولا يدنسهم ، بل يعدل بينهم بالقسط ويرفعهم عن الدنية ، ويجعلهم قوة مستحكمة ترد عدوان العادي وبغي الباغي ، ليصلوا بذلك الى المجد والسلطان

اصطدم هذا الخيال الذي اراد ان يحققه بحقيقة ما هو فيه من الفقر والخفاء ، والبعد عن مساعي المجد ، وامتناع نفسه عن اعطاء الطاعة للاخلاق التي كان يصل بها اهل ذلك العصر إلى ما يريدون من المكر السيء والدسيس وما اليهما من حيل الخبيثين. وقد روى الرواة ان ابا الطيب قال:

« اذكر وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد ، فأخذت بجانب منديلي خمسة دراهم

وخرجت امشي في اسواق بغداد ، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة ، فاستحسنتها ، ونويت ان اشتريها بالدراهم التي معي ، فتقدمت اليه وقلت :

— بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ ؟

فقال بغير اكتراث : — اذهب فليس هذا من اكالك ، . . . فتماسكت معه وقلت

— يا هذا ، دع ما يغيظ ، واقصد الثمن

فقال — : ثمنها عشرة دراهم

فاشدة ما جبهني به ، ما استطعت ان اخاطبه في المساومة . فوقفت حائراً ، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ... واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً الى داره ، فوثب اليه صاحب البطيخ من الدكان ، ودعا له وقال :

— يا مولاي ! هذا بطيخ باكور ، باجازتك احمله الى البيت ؟

فقال الشيخ : — ويحك ! بكم هذا ؟

قال : — بخمسة دراهم ...

قال : — بل بدرهمين ...

فباعه الخمسة بدرهمين وحملها الى داره ، وعاد الى دكانه مسروراً بما فعل

فقلت له : — يا هذا ! ما رأيت اعجب من جهلك ؟ استمت عليَّ في هذا البطيخ ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، وكنت قد اعطيتك في ثمنه خمسة دراهم ، فبعته بدرهمين محمولاً ! !

فقال : — اسكت . هذا يملك مائة الف دينار

قال المتنبي : فعلمت ان الناس لا يكرمون احداً اكرامهم من يعتقدون انه يملك مائة الف دينار وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون إن أبا الطيب قد ملك مائة الف دينار »

فبهذا وأمثاله من أعمال الحياة لذلك العهد اصطدم قلبُ الفتى ، فاستقرَّ على ان يجدَ لما يريده مخرجاً ، غير العلم والعقل والنصيحة والاخذ باللين والملاطفة ، وازداد بذلك للناس احتقاراً ولاعمالهم بغضاً ، وحقر العظماء الذين لا يعظمون في أعين الناس إلاّ بالمال ، وجعل يديرُ الرأي حتى خلصَ إلى العزم — أن يطلُبَ المال، لا ليجمعه ويفرح به ، ولكن لينال به ما يريدُ مما ينطوي عليه قلبه من حقدٍ على قوم ٍوما يدور فيه من معاني الاصلاح ، وما يبغي من إيقاظ الهمّة العربيّة للاستيلاء على السلطان المضيّع ، والمجد المفقود

ومع هذا — . . . كان الذكاء ، والثورة ، والنّظر ، والتجربة والاختلاطُ بالناس واختبار أخلاقهم ، وتعجُّبُه من فساد أقيستهم ، وبطلان مذاهبهم ، ثم اعتماده في نفسه على الثقة بها ، واعتداده بمقدرته ، واستسقاطه لمن يحيط به من رجال الدولة الذين لم يصلوا إلى الحكم أو

السلطان أو القضاء إلاّ بالسُّوء والقبيح ، ثم طبيعتُه الشاعرة المرهفة التي (تلتقط صور) الاشياء ثم تنزع منها الاخيلة الشعرية ، والحِكم البالغة . . كلُّ ذلك أسرع بالفتى إلى ضرب من القول السّاخِر الذي لم ترَ العربيّة مثله في شعر شاعر . إلاّ أن سخريته التي انفرد بها لم تكن بعد في كبره إلاّ ضرباً من الحكمة والعبرة التي لا يفطن اليها إلاّ أفذاذ العقول ، ثم يدلّون عليها بالايجاز العجيب فلا يبالغون في تصويرها بل يفضون لها اللفظ الذي يخرجها مخرج الحكمة ويزيدها روعة في السِّحر . وسنتعرّض لتفصيل ذلك بعد — وقد حفظ لنا المتنبي ضرباً من سخريته في صغره تدلُّ على ما استحكم في شعره بعد وصار في شاعريته طبيعةً متأصّلة مستحكمة

مرَّ المتنبي برجلين قد قتلا جرذاً ، وأبرزاه يعجّبان الناس من كبره فقال

« لقد أصبح الجرَذ المستغيرُ أسيرَ المنايا صريع العطبْ
رماهُ الكنانيُّ والعامريُّ وتلاّهُ للوَجْهِ فعل العربْ
كلا الرّجلين اتّلى قتلَهُ ، . . . فأيّكما غلّ حرَّ السّلَبْ
وايّكما كان من خلفِهِ ؟ فإن به عضّةً في الذَّنَبْ »

قتل الرجلان — الكنانيُّ والعامريُّ — هذا الفأر الكبير ، فأخرجاه ليعجّبا الناس من كبره — وهذا سخفٌ منهما إذ شغلا نفسيهما بعبث لا معنى لمثله عند المتنبي الذي يريد في نفسه قتل الملوك — فمن هنا قال « الجرذ المستغير » الذي قد اغار عليهم كما تغير الجيوش ، ثم لما فرغ من جمله كذلك ذكر ان هذا الفأر قد وقع في (اسر المنايا) كما يقع العدو في الاسر حين رماه — الكناني والعامريّ — بالسهم كما يرمى العدو ، وبذلك يسخر من رجلين يجمعان قابيهما على قتل ، ثم لا يكون المقتول الا فأراً : ثم لا يكتفي صاحبنا بهذا بل يقول انهما اخذا يصارعانه كما يصارع العربي منهما بعد تدينا ثابه بالقوة حتى يكبه على وجهه مقتولا . وذلك قوله « تلاّه للوجه فعل العرب » : ثم يقول بعد كلاكما تولّى قتله — وذلك لكبر الفأر وشدته — ولكن من منكما الذي سرق حرّ ثيابه وجيد سلاحه كما يسرق السارق في الحرب من اسلاب القتلى ويخفيها عن اصحابه من المقاتلة . ثم يعود فيقول ، انكما كنتما تصارعانه بعد ان رميتماه بسهميكما وكان أحدكما من خلفه فمن منكما الذي كان من ورائه ليحتال على صرعه ، وقد عرفت حيلته في صرع هذا الفأر العظيم فانه عضه في ذنبه ، وهذه العضة بينة ثمّ . وأنتَ اذا عدت فقرأت الابيات على ما تكلفنا شرحه رأيت بلاغة الرجل في السخرية ودقته في اختيار اللفظ ، وايجاز الصورة التي يريد ان يتفكه لك بها . وهذا الضرب من الكلام من اكثر ضروب الكلام دوراناً في شعر المتنبي حتى بلغ من دقته في وضعه ، ونفوذه في معرفته واتقانه ، انه كان يقول القول في المدح وهو ابلغ الهجاء ، كما فعل بكثير من ممدوحيه — حاشا سيف الدولة — وفي اولهم كافور الاسود الخصيّ

وكانت هذه السخرية هي المنفذ لآلام ابي الطيب ، وما يضيق به صدره من الاحقاد والآراء ، ولعله كان في أصل طبيعته قريب الميل الى المرح والطرب في وقار — ولولا ما كلّف نفسه من المشقة للسيادة والمجد ، لكان من ابرع الناس نكتة بليغة ، واكثرهم نادرة عالية . يدلك على هذا ان ابا الطيب كان قد نادم في حياته كثيراً من الامراء وكانوا يحبونه ، ولا يصلح للمنادمة رجل متزمت بارد الطبع ثقيل الظل ، طويل الصمت جهم الوجه ، كاشر . ومما قاله « معاذ اللاذقي » لابي الطيب سنة ٣٢١ : « والله انك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير » ومعنى هذا ان ابا الطيب كان ظريفاً خفيف الروح محبباً الى النفس مع وقار وتؤدة . ومن تدبر سخريته في شعره كله وجد فيها هذا المعنى ، الا أنه لم يكن يهزل هزل السخفاء

كان هذا الفتى يمشي في نواحي الكوفة بآلامه واحقاده وفقره ، ويتنقل في حوانيت الوراقين يقرؤ ما يقع بين يديه من الكتب ، ويختلف الى مجالس الائمة يستمع العربية والفقه والجدل ، وينظر متعجباً الى الحوادث التي تقع بين ظهراني قومه ، ويتسمع لما ترد به الانباء من اخبار الدولة المترامية الاطراف ، يضحكه ما يقع من الاحداث العجيبة التي ترفع وتضع ما بين عشية وضحاها ، ويكون فيما يرتفع الى الذروة اقوام — من العجب ان يصلوا الى كسب الرزق ، ثم هم يرتفعون فيما يرتفع بهم الى إمرة الامراء ، ومشيخة الكتابة ، وسياسة الدولة ، والقضاء بين الناس . فلا عجب بعد ان يكون هذا الفتى الثائر الذي يشهد آثار الاحداث في امته ، كثير العجب مما يرى وما يسمع ، قليل الحفل بهذه الاصنام التي رفعها الحوادث وتضعها ، عظيم العجب بنفسه وما أوتي من فطنة وذكاء وعلم ولسان قوّال لم ينل بها الا الفقر والمسكنة والحرمان

لم الليالي التي اخنت على جدتي برقة الحال ، واعذرني ولا تلم
أرى اناساً ، ومحصولي على غنم وذكر جود ، ومحصولي على الكلم

وقد بقي في الكوفة على ذلك — فيما نرى — الى اطراف سنة ٣١٧ ثم خرج الى البادية القريبة ، بادية الجزيرة المفضية الى نجد وفيها قبائل من كلب ، فالتقى بهم واخذ يتنقل بينهم ، ليسمع ما بقي من العربية المبرأة على ألسنة هؤلاء القوم الذين قلّت بينهم الاعاجم ، ولم يظفر هناك بطائل الا ما مرن عليه من مشقة السفر واكتساب الصديق ، واختبار الخلق ثم عاد الى بلدته بالكوفة يشاركها آلامها وشقاءها واحقادها ، ينال من فضل بعض اصحابه متعففاً — كمحمد بن عبيد الله العلوي الذي مرّ آنفاً — ولعلّ العلويين الذين نكبوا جدته كانوا يفضلون عليها ليتقوا بذلك احداثها أن حدثتها نفسها بشيء وبقي المتنبي هناك بالكوفة منقطعاً عن مدح احد من العلويين او غيرهم من رجال الكوفة وعظمائها . وقد جاء في حديث المتنبي الذي ذكرناه انه انحدر مرّة من الكوفة الى بغداد وما نشك ان مخرجه هذا الى بغداد كان فيما بين سنة ٣١٩

الى اوائل سنة ٣٢٠ . ودخل صاحبنا بغداد يرى العجب العاجب من الاحداث التي كانت تقع بها ، وشغب الجند على الخلفاء ، وظهور الموالي من العجم والديلم والترك على مواليهم من الامراء والخلفاء ، وقضاءهم في شؤون الدولة ، وتصريفهم سياسة الأمة على الشهوات المتنازعة ، والاهواء المتصارعة ، لا يرتدعون ولا يرعوون . فعف كذلك عن مدح احد من هؤلاء الامراء والخلفاء واباء ان يتكسب بشعره من هؤلاء المحقرين لديه ، ورضي بالفقر واستمسك به ، وبدأت تندفع الدوافع في صدره المملوء احقاداً مؤرثة ، وثارات لم ترو بعد من الدم . فعج صدره بالنار المضطرمة التي لا تهدأ ، تؤرثها افكاره ونظراته التي لا تفتر ولا تكل . ففي سنة ٣٢٠ اعتزم الخروج من الكوفة ، وان ابت جدته عليه ذلك ؛ لما كانت تخشى من تدفعه الى موارد التالف بما يجمل في صدره . — وعقد قلبه على احداث حدث لعله ان يصيب من ورائه ما يبتغي وما يؤمل ، ويدرك به في قوم ثأراً ، ويشفي به صدر جدته وصدره . ولعل هذه الابيات التي نرويها لك كانت آخر ما قاله بالكوفة مما وصل الينا وما لم يصل من شعره ولعله عنى بالخطاب فيها جدته — قال:

محبي قيامي ما لذلكمُ النصلِ   بريئاً من الجرحى ، سليماً من القتلِ
ارى من فرندي قطعة من فرنده   وجودة ضرب الهام في جودة الصقلِ
وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي   ارتك احمرار الموت في مَدْرَج النملِ
أمط عنك تشبيهي بما وكأنه   (فما احدٌ فوقي ولا احدٌ مثلي)
وذرني واياه وطرفي وذابلي   نكن واحداً يلقى الورى وانظرن فعلي

وقوله « محبي قيامي » يعني ثورته وظهوره وخروجه ، وما نظن احداً كان يحب ذلك منه غير جدته ، مع خوفها عليه وخشيتها ان يصيبه مكروه ممن يتربص به من العلويين فيما — ذهبنا اليه — وفي الابيات اثر بين من ثورة الصبا وغروره ، ولكنها تدل دلالة بينة على عزيمة هذا الفتى الابي الذي يريد ان يدرك ثأراً ، ويحدث امراً

ولم يمض الا قليل بعد ذلك حتى خرج الفتى من الكوفة واتخذ طريقه — على ما وقع عندنا من الرأي — من الكوفة الى بغداد ، ثم خرج لوقته متخذاً طريقه في ديار ربيعة بين النهرين الى نصيبين ورأس عين وحران ومنبج ، وطفق ينتقل بين القبائل في جوف البوادي حتى انقضى به المسير الى الشام في سنة ٣٢١ فنزل بدمشق وأعمالها وما يدانيها (اعني بعلبك ، وطرابلس وحمص) ثم كره الارض التي نزلها ثم صعد سنته الى منبج وحلب واللاذقية وانطاكية ومدح بها من مدح ثم اعتقل بحمص ، لما قالوا به من ادعائه العلوية ثم النبوة ثم العلوية ثم استتيب وأشهد عليه بالكذب فيما ادعى ثم تاب وأُطلق . هذا موجز رحلته الاولى بالشام وتفصيلها غير ميسر بعد لغموضها ونقصها . ولهذه الرحلة عندنا تفسير آخر سنعرضه بعد

سيصحب النّصلَ مني مثلُ مضربه
وينجلي خبري عن صِمَّة الصِّمَمِ .
لقد تصبّرتُ حتى لاتَ مصطَبرٍ
فالآن اقحمُ حتى لاتَ مُقتَحَمِ .
ميعادُ كلّ رقيق الشفرتين غـداً
ومن عصى من ملوك العرب والعجم .
فان اجابوا ، فما قصدي بها لهمُ ،
وان تولّوا ، فما ارضى لها بهم .

النبوّة في حياة المتنبي هي ابرز الحوادث التي عرف بها الرجل ثم نُبِزَ بها بَعدُ . وقد اختلف الناس في امرها اختلافاً كبيراً ، فعلينا هنا ان نذكر لك اول ذي بدءٍ رواية الرواة في امر نبوته ، تامة كما رووها ثم نعقبها برأينا الذي ارتضيناه ، وقضينا به ، وقد جاءت الرواية بها عن التنوخي الذي مرّ ذكره في اول كلامنا عن نسب المتنبي ، وجاءت اخرى عن ابي عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي الذي قال انه لقي المتنبي باللاذقية وبايعه بالنبوة ، واخذ بيعته لاهله ايضاً !! كما سترى

روى التنوخيّ (علي بن المحسّن) عن ابيه المحسّن التنوخيّ عن القاضي ابي الحسن بن ام شيبان الهاشمي الكوفيّ قال :

١ — « وقد كان المتنبي لما خرج الى كلبٍ وأقام فيهم ادّعى انه علويٌّ حسنيٌّ ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعي انه علويٌّ الى ان أُشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين ، وحبس دهراً طويلاً واشرف على القتل ، ثم استتيب ، واشهد عليه بالتوبة واطلق »

٢ — وحدّث التنوخي ايضاً عن ابيه المحسن قال : حدثني ابو علي بن ابي حامد قال :
«سمعت خلقاً بحلب يحكون — وابو الطيب المتنبي بها اذ ذاك — انه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها الى ان خرج اليه لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله واسره ، وشرّد من كان اجتمع اليه من كلبٍ وكلابٍ وغيرهما من قبائل العرب ، وحبسه في السجن حبساً طويلاً ، فاعتل وكاد ان يتلف حتى سئل في امره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة اشهد عليه فيها ببطلان

ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام ، وانه تائب منه ولا يعاود مثله واطاقه »(١) . . . .

ثم هذا حديث معاذ اللاذقي ننقله على طوله

٣ — « قدم ابو الطيب اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلاثمائة ، وهو لا عذار له ، وله وفرة الى شحمتي اذنيه ، فاكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته . فلما تمكن الانس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته ، واقتباساً من ادبه قلت :

والله انك لشابٌ خطير ، تصلح لمنادمة ملك كبير

فقال : ويحك ! ! اتدري ما تقول ؟ انا نبيٌ مرسل

فظننت أنه يهزل ، ثم تذكرت أني لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته

فقلت له : ماتقول ؟ فقال : — انا نبي مرسَلٌ فقلت : الى من مرسل ؟ فقال : الى هذه الأمة الضالة المضلة . قلت : تفعل ماذا ؟ قال : أملأ الدنيا عدلا كما ملئتْ جوراً قلت : بماذا ؟ قال : بادرار الارزاق والثواب العاجل لمن اطاع وأتى ، وضرب الرقاب لمن عصا وأبى ، فقلت له : ان هذا امرٌ عظيمٌ اخاف عليك منه وعذلته على ذلك ، فقال بديهة

ابن عبد الاله ، معاذَ ، إني خفيٌ عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم مطلبي ، وأني اخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحِمام ؟
ولو برز الزمان إليّ شخصاً لخضّب شعر مفرقه حسامي
وما بلغتْ مشيئتها الليالي ولا سارتْ وفي يدها زمامي
اذا امتلأتْ عيون الخيل مني فويلٌ في التيقظ والمنام

فقلت ذكرت أنك نبي مرسَلٌ الى هذه الأمة ، أفيوحى إليك ؟ قال : نعم ! قلت : فاتل عليَّ شيئاً مما أُوحي اليك . فأتاني بكلام ما مرّ بسمعيّ احسن منه . فقلت : وكم أوحي اليك من هذا ؟ فقال : مئة عبرة واربع عشرة عبرة . قلت : وكم العبرة ؟ فأتاني بمقدار اكبر من الآي في كتاب الله تعالى . قلت : في كم مدة أُوحي اليك ؟ قال : جملة واحدة . قلت : اسمع في هذه العبرات ان لك طاعة في السماء ، فما هي ؟ قال : احبس المدرار ، لقطع ارزاق العُصاة والفجار ، قلت أتحبس في السماء مطرها ؟ قال : إي والذى فطرها ! اما هي معجزة ؟ قلت : بلى والله ! قال : فإن حبستُ المطر عن مكان تنظر اليه ، ولا تشك فيه ، هل تؤمن بي ، وتصدقني على ما أوتيت من ربي ؟ قلت : إي والله . قال : سأفعل ، ولا تسألني عن شيء بعدها ، حتى آتيك بهذه المعجزة ، ولا تظهر شيئاً من هذا الامر حتى يظهر ، وانتظر ما وعدته من غير ان

(١) لهذا الحديث تتمة فيما ذكر قرآن ابي الطيب وغير ذلك سنعرض له فيما بعد

تسأله . ثم قال لي – بعد ايام – : أَتحبُّ ان تنظر المعجزة التي جرى ذكرها ؟ قلت : إي والله فقال لي: اذا ارسلت اليك هذا العبد فاركب معه اليّ ولا تتأخر، ولا تخرج معك احداً. قلت : نعم

فلما كان بعد ايامٍ تغيّمت السماء في يومٍ من ايام الشتاء ، واذا عبده قد اقبل فقال : يقول لك مولاي : اركب للموعد فبادرتُ الى الركوب معه ، وقلت : اين ركب مولاك ؟ قال : الى الصحراء . واشتد وقع المطر فقال : بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاي ، فإنه ينتظرنا بأعلى تلٍّ لا يصيبه فيه مطر . قلت : وكيف عمل ؟ قال : اقبل الى السماء أوّل ما بدا السحاب الاسود ، وهو يتكلم بما لا افهم ثم اخذ السوط فدار به في موضع ستنظر اليه ... واذا هو على تل بعيد عن البلد نصف فرسخ ، فأتيت اليه ، فإذا هو على التل لم يصبه من ذلك المطر شيء ، وقد خضت في الماء الى ركبة الفرس ، والمطر في اشدّ ما يكون . ونظرتُ الى نحو مئتي ذراعٍ في مثلها من ذلك التل ما فيه قطرة مطر . فسلمت عليه فردّ عليّ السّلام . فقلت : ابسط يدك . اشهد انك رسول الله . فبسط يده فبايعته بيعة الاقرار بنبوته ثم قال

ايُّ محلّ ارتقي ايُّ عظيمٍ اتّقي
وكلّ ما خلق اللّـــــه وما لم يخلقِ
محتقرٌ في همّتي كشعرةٍ في مفرقي

واخذت بيعته لاهلي . ثم صحّ بعد ذلك ان البيعة عمّت كل مدينة الشام . وذلك بأصغر حيلةٍ تعلّمها من بعض العرب وهي « صدحة المطر » يصرفه بها عن ايّ مكانٍ احبّ بعد ان يحوي عصاً وينفث في الصدحة التي لهم

قال ابو عبد الله : وقد رأيت كثيراً منهم بالسكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتخاطونه ، حتى ان احدهم يصدح عن غنمه وابله وعن القرية فلا يصيبها شيء من المطر، وهو ضربٌ من السّحر . وسألت المتنبي بعد ذلك : هل دخلت السُّكون ؟ قال : نعم ! أَما سمعت قولي

ملِيثُ القطر اعطشُها ربوعَـا والاّ فاسقها السمّ النقيعا
أمنسيّ السكون وحضرموتاً ووالدتي وكندة والسبيعا

فقلت من ثم استفاد ما جوزه على طغام اهل الشام . . . . (وانت منهم يا ابا عبد الله اذن)

ثم قال ابو عبد الله هذا : ومما كان يتخرق به في البادية ، انه كان مشّاءً قويّـاً على السير يسير سيراً لا غاية بعده ، وكان عارفاً بالفلوات ، ومواقع المياه ، ومحالّ العرب بها . وكان يسير من حلّةٍ الى حلّةٍ بالبادية ، وبينهما مسيرة اربعة ايام ، فيأتي ماءً فيغسل وجهه ويديه ورجليه ، ثم يأتي اهل هذه الحلّة فيخبرهم ما حدث في تلك الحلّة التي فارقها ويوهم ان

الارض تطوى له . وسئل في تلك الايام عن النبي صلى الله عليه وسلم: فقال : اخبر بنبوتي حيث قال: « لا نبي بعدي » وأنا اسمي في السماء (لا)

ولما اشتهر امره ، وشاع ذكره ، وخرج بأرض (سَلَمْيَةَ) من عمل حمص في بني عديّ (وظهر منه ما خيف عاقبته) (١) قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها (كوتكين) وأمر النجار ان يجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف فقال المتنبي :

زعم المقيم بكوتكين بأنه . من آل هاشم بن عبد مناف
فأجبته مذ صرت من ابنائهم صارت قيودهم من الصفصاف

انتهى حديث معاذ بن اسماعيل اللاذقي (ابي عبد الله الصدّيق) الذي كان اول من صدّق بنبوة ابي الطيب وآمن به وأخذ بيعته لاهله ! !

وما دمنا قد اطلنا بذكر هذا الحديث فلا بأس عليك ان شاء الله ـ ان بعانا لك ما رواه ابو العلاء المعري ايضاً قال .

« وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه انه لما حصل في بني عديّ وحاول ان يخرج فيهم قالوا ـ وقد تبينوا دعواه : ها هنا ناقة صعبة . فان قدرت على ركوبها أقررنا انك مرسل ، وانه مضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة وتنكرت برهة . ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة ، وانه ورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم

وحدث ايضاً انه كان في ديوان اللاذقية ، وان بعض الكتّاب انقلبت على يده سكين الاقلام فجرحته جرحاً مفرطاً . وأن ابا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته . وقال للمجروح : لا تحلها في يومك ، وعد له اياماً وليالي ، وان ذلك الكاتب قبل منه فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون في ابي الطيب اعظم اعتقاد ويقولون : (هو كمحيي الاموات)

وحدّث رجل كان ابو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقيه او في غيرها من السواحل : انه اراد الانتقال من موضع الى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل . ولقيهما كلب الحّ عليهما في النباح ، ثم انصرف . فقال ابو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل الفى الامر على ما ذكر . . ولا يمتنع ان يكون اعد له شيئاً من المطاعم مسموماً ، وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل . . . والخبز يبق سمّ الكلاب »

هذا حديث نبوته ونبوءاته ومعجزاته عند اكثر الرواة ، اما قرآنه فقد اجمعوا انه لم يبق

(١) في بعض الكتب هذه الزيادة

الاّ ما نرويه لك قال ابو علي بن ابي حامد — الذي مرّ آنفاً — :

وكان (يعني ابا الطيب) قد تلا على البوادي كلاماً ذكر انه قرآنٌ انزل عليه ؛ وكانوا يحكون له سوراً كثيرةً ، نسخت منها سورة ضاعت ، وبقي أولها في حفظي وهي :

«والنجم السيّار ،والفلك الدوّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، امض على سننك، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع زيغ من الحد في دينه (الدين) وضل عن سبيله (السبيل) » قال : وهي طويلة لم يبق منها في حفظي غير هذا

وأنا لا أحبُّ ان اتجاوز هذه النصوص إلى ما سواها ، إلاّ وقد نظرت فيها وبصَّرت القارىء بالتوائها وضعفها ووهنها ، وبأتيه ما استنبطناهُ وقد وقر في نفسه ردُّ هذه المقالة التي نبز بها أبو الطيب ، وبذلك يقوم ردّنا مقام البيّنة على ما أردناهُ — أصبنا أو أخطأنا

لن نعودَ تارة أخرى إلى ما قدّمنا من ذكر التنوخي ثم روايته عن أبي الحسن العلوي وابن أم شيبان الهاشميّ ،ففي أول كلامنا تجدُ بعض الادلّة على وهن رواية التنوخي، واستسقاطنا إياها ، ولا غنى لك عن العوْدة إلى تذكّره عند هذا الحديث عن نبوّة المتنبي .

بيّنا لك فيما مرّ ما بين أبي الطيب وبين العلويين، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأرٌ قديمٌ هو الذي أراد أن يدركه فيهم ، وينال «حقّـه» منهم . ورجح عندنا الاستنباط ان يكون أبو الطيب « علويًّا » منكوباً في نسبه وشرفه وجاهه ، وأنه كان يريد ان يظهر نسبته إلى العلويين ولكن عارضته دون ما أراد أهوالٌ وأحداثٌ . فإذا جمعت هذا الرأي هنا ونظرت في النص الذي وقع الينا من التنوخي عن ابن أم شيبان الهاشمي —وهو علوي كبير— ملكك التثبت وغلب عليك فيما روى فإنه لم ينس أن يذكر لنا فيما قال — لو صدق التنوخي في روايته عنه — أن أبا الطيب ادعى العلوية مرتين

أما حديث معاذ بن اسماعيل اللاذقي فنقد سنده لا يتيسر لنا لان صاحبنا هذا اللاذقي مجهولٌ لم نقع له على ذكر ، ولكن مما لاشك فيه أن اللاذقية التي نسب اليها كانت لوقت أبي الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومحطّاً لكثير من كبار الدُّعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة في التاريخ العربي كله . فلا بأس من ان نجعل هذا ذكراً مذكوراً وانت تتبصر في اصل الرواية ، على وهنها وتضاربها وتهالك معانيها التي يفسد بعضها بعضاً كما سترى بعد

فالحديث الاول وهو حديث ابن ام شيبان الهاشمي عجيبٌ لا يفرغ من العجب من اختصاره وتداخله فهو رتّب امر ظهور المتنبي على درجات ثلاث الاولى ادعاؤه العلوية ، والثانية النبوة ، والثالثة العلوية ايضاً . فاما ان يدّعي العلوية، ثم يعود فيدّعي النبوة فهو قول لا بأس به ، ولكن العجب انه بعد هذا عقب على النبوة بلفظ التعقيب (ثم) فقال « **ثم عاد يدعي أنه علوي** » .

فالذي يدّعي النبوة ويبايع بها كما يقول اللاذقي الصدّيق ! ! — لا يعقب على هـذه الدعوى بالعلوية . فادعاء الرجل النبوة ثم انحطاطه منها إلى العلوية إكذاب لنفسه، واقرارٌ منه بالمخرقة على الناس والعبث بهم. ولا يكون ادعى النبوة ثم ينحطّ منها الاّ بعد قتالٍ يرغم فيه على التسليم، ولاشك انه ان كان فعل بصاحبنا ذلك ، لحُبس لوقته قبل ان يتمكن من القيام بالدعوة الى نفسه مرة اخرى بين بني كاب فيدعي العلوية . ثم لو انه كان متطافاً ، ورجع عن النبوة الى ادعاء العلوية ؛ لكان ذلك كافياً في تكذيبه وتحقيره عند من سلموا له بما ادعى من علويته بدءًا ، ونبوته بعد . فهذا وجه في ابطال هذا النص

أما حديث ابي علي بن أبي حامد — ولم نعرف الرجل — فهو حديث محكم لا يقع فيه هذا الإعتراض الذي قدمناه إذ اقتصر صاحبه على ذكر النبوة وحدها ، وما يأتيه التوهين الاّ من قبل غرابته عما جرت عليه الاحكام في شأن من يدعون النبوة ، فيقول ابو علي ان لؤلؤاً امير حمص «استتابه ؛ وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام» اما ان يستتيبه ويشهد عليه انه تائب فهذا لا بأس به وهو الحكم مع المتنبئين ، واما ان يكتب وثيقة عليه ببطلان نبوته فهذا امر لامعنى له ، لان الوثيقة انما تكتب فيما يخاف من قبله معاودة الدعوى ؛ فتكون اقراراً مكتوباً مشهوداً عليه بالبطلان من المدعي نفسه كدعوى الملكية في العروض، ودعوى العلوية « مثلاً » في النسب، فتكون الوثيقة حجة عليه اذا عاد ليُحَاجَّ الناس فيما ادعاه بعد الاقرار بالكذب في الدعوى الاولى ، اما النبوة فالامر فيها على غير ذلك فان الرجل اذا ادعى النبوة ثم استتيب واشهد على نفسه بالكذب فيما ادعى ، ثم رجع بعد ذلك يدعيها مرة اخرى لم يكن يُنظر حتى يحاج الناس فيما يدّعي، ويقول لهم انكم لم تأخذوا عليّ وثيقة مكتوبة مشهوداً عليّ فيها بالكذب ، وانما يكون جزاؤه القتل من غير إنظار ولا استتابة

فهذه الوثيقة التي ذكرها ابو علي — ان صح امرها — انما تكون قد اخذت عليه في دعوى العلوية لادعوى النبوة .. فأنت ترى ان نص ابن ام شيبان فيه ذكر العلوية مرتين ، وان ذكر النبوة يكاد يكون مقحماً فيه ، وترى ان نص ابي علي بن ابي حامد يرجح دعوى العلوية لادعوى النبوة ؛ فاذا قرنت هذا الى ما تمادينا في ذكره عن نسب المتنبي وما اتينا به من الحجة في ترجيح نسبته الى العلويين ؛ لم تبعد عن الحكم بأن هذه الروايات انما يراد بها العلوية لا النبوة

اما ثالث الاحاديث ـ وهو حديث ابو عبد الله الصدّيق ! ! معاذ بن اسماعيل اللاذقي ـ فعجب كله وبطلانه بيّن للمتدبر ، ولولا ان كثيراً ممن كتب عن المتنبي مرّ به ولم يعرض له ، لتركناك تحكم بوضعه من سياقه ومدرجه دون ان نأخذ انفسنا بنقده . وأنت اذا تدبرت الحوار

الذي زعمه ابو عبد الله هذا بينه وبين ابي الطيب ، لم تشك ساعة في ان الرجل كان يضع هذا الـكلام وضعاً ولا يرويه رواية . والعجب له !! -- قد اتهم نفسه في مواضع من كلامه بقلة العقل وعمى البصيرة ، وسرعة التهور في التسليم

فهذا المسمى معاذاً كان ولا شك رجلاً مسلماً مدركاً يملك من العقل مقداراً يكفي — على الاقل — في الانصات له اذا حدَّث ، والاّ لبطل حديثه هذا من غير محاولة منا في ابطاله ... فان كان كذلك او اقل من ذلك قليلاً ، فما نظنه كان يصبر على الرجل حين ادعى النبوة كل هذا الصبر ، فيتمادى في الحوار معه ثم يصف كلام فتى في السابعة عشر انه (ما مرَّ بسمعه احسن منه)، فهذه امّا ان تكون كلمة جاهل او كلمة وضاع يريد ان ينتقص من الرجل، فهو يجيء لا تتقاصه بامتداحه وتعظيمه . ثم كيف يعقل ان رجلاً مسلماً كان في عصر المتنبي ، ثم في مدينة كاللاذقية ويدل كلامه على بعض العلم ، يصدّق دعوى حبس المطر ويعدُّها معجزة ، فضلاً عن تصديقه النبوة بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم ! وأعجب من ذلك في الوضع البين انه يدّعي هذا المسمى معاذاً انه اقر بنبوة المتنبي ثم بايعه لما رأى معجزة حبس المطر وأنه اخذ البيعة لاهله ايضاً على الايمان به ، فأيُّ رجلٍ مسلمٍ غير جاهلٍ ولا مفتون في ذلك العصر يتهور في الـكفر بغير معجزة ولا بينة ، ومن عجيب سهو هذا اللاذقي في الوضع انه قال بعد ذلك توًّا « يريد معجزة حبس المطر » « وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب » . فلو انه كان قد اتقن وضعه لزعم انه بقي على بيعة المتنبي والإقرار له بالرسالة الى ان رأى — بعد زمان — او سمع واستيقن ان الذي فعله المتنبي وزعمه معجزة له ، امرٌ مشهور عند بعض العرب يتعاطونه اذا كرَبهم المطر ثم يصف كما وصف انه « صدحة المطر » يصرفونها به عن اي مكان يحبون بعد ان يحوون بعصا وينفثون في الصدحة التي لهم . . . . . الخ فكفر بنبوة المتنبي لذلك وتاب ورجع الى الاسلام . ثم من ضعف وضع هذا اللاذقي انه زعم انه كان قد رأى كثيراً من اهل السكون وحضرموت يفعلون صدحة المطر ولا يتعاظمونها ، فسأل المتنبي : هل دخلت السكون ، قال : نعم ! وما دام اللاذقي هذا كان قد عرف هذه الصدحة ، فـكيف آمن بنبوة صاحبه ولا دليل له على نبوته غيرها ، وهي مشهورة في اليمن معروفة معمول بها كما يقول

وأعجب من هذا انه يدعي ان دعوة المتنبي قد عمت كل مدينة بالشام وبويع له بها ، كيف يكون هذا ؟ والشام اذ ذاك منزل من منازل أئمة الدين والعلم ، وكان اكثر اهلها لا يتخلفون عن صلاة ، ولا يزال بين ظهرانيهم عالمٌ يقرأ في مجالسه ، او واعظ يعظ في حلقته ، او خطيب يخطب من منبره ، ثم يؤمنون بدعوى رجل لا تؤيده معجزة بيانية ، ولا خارقة كونية ، وان زعمنا ان اللاذقي قد آمن بالمتنبي لصدحة المطر ، افتؤمن له كل مدينة بالشام وتبايعه لهذه الضلالة

او هذه الاكذوبة التي لا تعقل . ليكن اللاذقي رجلاً لا عقل له ، أفيكون اهل الشام كلهم هذا الرجل ؟ !

ويقول اللاذقي للمتنبي يخوفه مما يقول به من النبوة «ان هذا امرٌ عظيم اخاف عليك منه» فيجيبه المتنبي بشعر لا ذكر للنبوة فيه ، وانما هو شعر رجل مقاتل يريد الحرب : لا نبي يريد ان يؤمن الناس به ، ثم ان الذي قاله في الشعر يدل على غير ذلك فانه قال

ذكرت جسيمَ مطلبي ، واني اخاطر فيه بالمهج الجسام

وليست النبوة مطلباً يطلب ويخاطر فيه بالنفس والنفيس ، انما النبوة امر من الله لمن اوحي اليه ان يصدع بما يؤمر به ، فيكون عمله هداية الناس باللين او بالشدة كما يشاء الله ، فلا يكون ذلك مطلباً للنبي يريد ان يناله ، بل يكون امراً يجب ان يطيعه ويعمل به ، وكذلك الابيات التي انشدها

أي محل أرتقي اي عظيم أتقي

فالقول فيها قريب من هذا . اما البيتان الاخيران فهما الدليل على تلفيق الرجل فالبيت الاول هذا «مُلِثُّ القطر» اول قصيدة للمتنبي ، والبيت الثاني في آخر القصيدة ، ولا رابط بين البيتين حتى ينشدها المتنبي معاً في الاستدلال على دخول السكون أو حضرموت، وكان يكفيه البيت الثاني في الاستدلال لما أراد . ثم ان المتنبي بغير شك لم يدخل اليمن في حياته كلها من يوم ولد إلى يوم مات. أما الذي ذكر في الابيات فهو كما قدمنا لك أسماء خطط لاهل اليمن بالكوفة التي ولد بها أبو الطيب

وأيضاً فإن هذه القصيدة التي منها هذان البيتان في مدح علي بن ابراهيم التنوخي وكان مدحه سنة ٣٢٣ بعد خروجه من السجن أو بعد رجوعه عن الكوفة إلى الشام سنة ٣٢٦ على ما حققناه (١) وهذا الذي ذكره اللاذقي في حديثه كان سنة ٣٢١ قبل أن يقبض عليه . فهذه كلها أدلة بينة على وضع القصة وتلفيقها ، وانها وضعت على الارجح بعد وفاة المتنبي

ومن اكاذيب هذه الرواية أيضاً دعواهم أن المتنبي كان عارفاً بالفلوات ، ومواقع المياه ، ومحال العرب بها، فذلك لا يتيسر إلاّ لمن ولد بهذه البلاد ونشأ بها ، والمتنبي دخل البلاد في السنة التي يروي فيها اللاذقي هذا الحديث وحبس في السنة نفسها ، فما كان له ان يعرف مجاهل البادية ومواقع مياهها ومحال اهلها كما زعم في قليل من الوقت . فانظر الآن ما تقول في هؤلاء الوضاعين !

أما معجزات المتنبي فلا نتكلم فيها لان بطلانها بين وفسادها مكشوف ، ولقد علمت بهذه

(١) الرأي هو هذا الاخير كما سترى بعد في موضعه ، ولا يصح عندنا غيره

الاحاديث التي رويناها لك انهم كانوا يريدون أن يتهموا الرجل بما هو منه براء ، فأولى أن تكون المعجزات التي رواها أبوا العلاء ضرباً من الكيد له وتأييداً لاتهامهم الرجل بدعوى النبوة

أما قرآنه فهو كما ترى ليس بقرآن ، وانما هو « ضربٌ من الهذيان » ، والعجب أن يبايع له اللاذقي ولا يحفظ من قرآنه شيئاً ثم يصفه فيقول « ما مرَّ بسمعي أحسن منه » ثم الاعجب أن تم بيعته كل مدينة بالشام كما قال ، ولا يبقى من قرآنه إلاّ هذه الحماقة الصغيرة التي رووها ، يزعم أبو علي بن أبي حامد أنها بقيت في حفظه

ولا ندري لماذا أصيب المتنبي بهذا العجب ! ! ففي مسألة نسبه ، كانت نسبته الى جعفي التي كان يخفيها خوفاً لا يعرفها الاّ التنوخي وابن ام شيبان ، وابو الحسن العلوي ، وقرآنه لايحفظه الا ابو علي بن ابي حامد واللاذقي ثم لا يحفظان معاً منه الاّ قطعة بعينها مع ان اللاذقي قد ذكر تعدادها مئة عبرة وأربع عشرة عبرة ، واتفقا معاً على حفظ هذه القطعة ونسيان ما بقي من هذا العدد

وبعد فان احداً لا يشك في ان الرجل (أبي الطيب) كان قد سجن لامر ما ، ولكن حرص هؤلاء الذين روينا اقوالهم على ان يجعلوا حبسه من أجل النبوة يجعلنا نرى انهم جعلوا مسألة النبوة غطاءً يسترون به حقيقة ما قام من اجله ابو الطيب فقبض عليه . ويبيّنُ على مذهبنا في نسب المتنبي ان الرجل حبس من اجل دعوى العلوية التي ذكرها الرجل الطيب ابن ام شيبان واقحم عليها النبوة ليجعل دعواه في علويته كذباً ، فان الذي يدعي النبوة لا يتورع عن ادعاء العلوية ، ثم ان هذا الرأي من ابن ام شيبان — ان صح عنه — يزيدنا يقيناً بان الرجل كان يعرف من امر نسب المتنبي شيئاً ويريد ان يخفيه وأن لا يظهر عليه احداً من الناس

ومسألة القبض على المتنبي لها عندنا سياقٌ تاريخيٌّ آخر استنبطناه ، ولكن يحسن بك ان تهيء في نفسك مرة اخرى ما قلنا به من نسبة المتنبي الى العلوية ، وما افضنا فيه من القول في عدة مواضع ليسهل عليك ان تعيننا على تحقيق ترجمة الرجل . هذا ونحن والقارىء في هذا الموضوع سواء ، فمن تبين له وجه او توجه له رأي ، فليكتب لنا به مشكوراً

دعوتُكَ لما براني البلاءُ
وأوهنَ رجليّ ثِقل الحديدِ
وقد كان مشيهُما في النعالِ
فقد صارَ مشيهُما في القيودِ
وكنتُ من الناسِ في محفِلٍ
فها أنا في محفِلٍ من قرودِ
فلا تسمَعنَّ من الكاشحين
ولا تعبأنَّ (بعجل اليهُودِ)
وكن فارقاً بين دَعوَى (اردتَ)
ودَعْوى (فعلتَ) بشأوٍ بعيدِ

قلنا ان المتنبي في اواخر سنة ٣٢٠ اعتزم الخروج من الكوفة ، وأنه عقد قلبه على احداث حدث لعله ان يصيب من ورائه ما يبتغي وما يؤمل ، ويدرك به ثأراً في قوم ، ليشفي به صدر جدته وصدره ، ثم انفذ عزمه في الرحلة عن الكوفة الى بغداد ومن ثمَّ اتخذ طريقه مصعداً الى ديار ربيعة بين النهرين الى الموصل ونصيبين ورأس العين وانحدر بعد الى الشام فقبض عليه هناك

وكان مرور المتنبي برأس عين في اوائل سنة ٣٢١ على الارجح وفي تلك السنة حدث حادث كان من جرائه ان قتل ابو الاغر بن سعيد بن حمدان (ابن عم سيف الدولة) ، وذلك ان بني ثعلبة اجتمعوا الى بني اسد القاصدين الى ارض الموصل ومن معهم من طيء فصاروا يداً واحدة على بني مالك ومن معهم من تغلب (وهم قوم بني حمدان) ، وقرب بعضهم من بعض للحرب. فركب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان (اخو سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان) في اهله ورجاله ومعه ابو الاغر بن سعيد بن حمدان للصلح بينهم ، فتكلم ابو الاغر فطعنه رجل من حزب بني ثعلبة فقتله ، فحمل عليهم ناصر الدولة ومن معه فانهزموا ، وقتل منهم وملكت بيوتهم ، وأخذوا حريمهم وأموالهم ، ونجوا على ظهور خيلهم . وتبعهم ناصر الدولة الى الحديثة (بقرب الموصل) فلما وصلوا اليها لقيهم يأنس غلام مؤنس وقد ولي الموصل وهو مصعد اليها ، فانضم اليه

بنو ثعلبة وبنو اسد وعادوا الى ديار ربيعة . وانقطع عند هذا التاريخ الذي بين ايدينا في كتب التاريخ ولكن بعض رواة ديوان المتنبي او شراحه يقولون ان المتنبي مرّ برأس عين في سنة احدى وعشرين وثلاثمائة وقد اوقع سيف الدولة بمسرو بن حابس من بني اسد ، وبني ضبة وبني رياح من بني تميم فمدحه بقصيدته التي اولها

ذكر الصبا ومراتع الآرام   جلبت حِمامي قبل يوم حِمامي

وذكر ماكان من امر سيف الدولة مع هؤلاء الذين ذكرناهم من قبائل العرب النازلين في ارض الموصل وما جاورها ، فبين « ان لقاء سيف الدولة لهؤلاء الخارجين من بني اسد وبني ضبة وبني رياح كان على أثر قتلهم ابن عمه (ابا الاغر بن سعيد بن حمدان) ، وان مدح المتنبي سيف الدولة قد احفظ عليه بني اسد وبني ضبة حتى كان من امرهم بعد معه ماكان — على ما نذهب اليه — من انهم قتلوه بالعراق كما سيأتي بعد

ويقول رواة الديوان أن أبا الطيّب لم ينشد سيف الدولة هذه القصيدة ، ولا اظن ان ذلك يكون دليلاً على انه لم يلقَ سيف الدولة في سنته تلك ، بل الارجح عندنا انه لقيه وحدّثه ، واتصل بينهما الودّ قليلاً قليلاً ، وفي القصيدة ابيات تدلُّ على ان سيف الدولة (وكان صغيراً في مثل سن المتنبي) افضل عليه بعض الافضال واكرمه واحبه . والعجب ان تكون هذه القصيدة وهي من اول قصائده في حياته[1] تدل على حبّ بليغ لسيف الدولة ، يقرب من حبه له بعد . والذي تدل عليه مدائحه التي استفاضت بعد اتصاله به في سنة ٣٣٧ كقوله مثلاً

وتعذّر الاحرار صيّر ظهرها[2]   إلاّ إليك عليّ ظهر حرامِ
(أنت الغريبة) في زمانٍ أهلُه   ولدت مكارمهم لغير تمامِ
أكثرتَ من بذل النوال ولم تزلْ   علماً على الإفضال والإنعامِ
صغّرت كلّ كبيرة ، وكبرت عنْ   لكأنّه ، وعددتَ سنّ غلامِ
ورفلت في حلل الثناء ، وانما   عدم الثناء نهاية الاعدامِ
عيب عليك ترى بسيفٍ في الوغى ،   ما يصنعُ الصمصامُ بالصمصامِ ؟
ان كان مثلك كان او هو كائنٌ   فبرئت حينئذٍ من الاسلامِ

وهذا غلوٌّ عجيبٌ ... وانت اذا رجعت إلى مدائح المتنبي الى ان اتصل بسيف الدولة في سنة ٣٣٧ لم تجد دلالة الحب والتعظيم بادية في مثل هذه المعاني ، وغيرها مما لم نذكره من القصيدة . ولعل المتنبي كان قد رأى من سيف الدولة في ذلك العهد مثلاً من امثلة المروءة والفتوة التي كان

(١) كانت سن المتنبي اذ ذاك ١٨ سنة   (٢) يعني ظهر ناقته

يفقدها في رجال عصره ، وانت ترى ان المتنبي في شعره كما بيّنّا لك اول كلامنا -- كان يرى الرُّجولة والفتوَّة المثل الاعلى الذي يعلّق به طرفه . وذلك لما انطوى عليه قلبه من حب المجد وطلب الثأر، ولما في نفسه من الثورة على زمنه واهله، ومن ظلموه وارادوا به شرّاً وذلاً ومهانة

وعجيب ايضاً ان لا يمدح المتنبي واحداً من الخلفاء وابنائهم وهم بالعراق ، ولا احداً من كبار العراقيين من الامراء ثم يعمد الى مدح بني حمدان وحدهم ، ولم تكن شوكتهم بعد قد بلغت مبلغ غيرهم من الامراء ، فذلك دليل على انه لم يمدحهم للعطاء وحده ، بل مدحهم لامر آخر لا نكادُ نتبيَّن إلاّ أطرافاً منهُ ، ولعلّ بني حمدان كانوا يعرفون من أمر المتنبي شيئاً ، وكانوا يصلون جدّته في حال نكبتها ، فلذلك ذكر المتنبي أبويْ سيف الدولة في القصيدة وطلب لقبريهما السقيا ، وقد كان له مندوحة عن ذكرها ، وذلك قوله

صلَّى الإلهُ عليك غير مودّعٍ وسقى ثرى أبويك صوبَ غمامِ

وفي مدحه لبني حمدان أو سيف الدولة وإخوته وأبويه على التحقيق ما يرجّح ذلك

قومٌ تفرّست المنايا فيكمُ فرأت لكم في الحرب صبر كرام

تالله ما علمَ امرؤٌ لولاكمُ كيف السخاءُ ، وكيف ضرب الهام

وعندنا أن هذه القصيدة قد أنبتتْ في صدر سيف الدولة محبّة هذا الفتى العربيّ الطموح الثائر الذي لا يستقرُّ ، وكأن توافقهما في السنّ [1] والفتوّة قد جمع بين قلبيهما ، ولولا ما كان في صدر المتنبي من الاماني التي لا تهدأُ ولا تفتر ، لبقي معه ، ولولا ما كان فيه سيف الدولة من مثل ذلك ، ومن أهبته إلى حرب بني أسد وبني ضبّة ، لعزم على صاحبه في الرُّفقة في الحلّ والترحال ، ولكن أراد الله شيئاً فكان . . . .

وخرج المتنبي من أرض بني حمدان ، ومن جوار سيف الدولة خاصةً إلى عزيمته بالشام . وبدأت الحوادثُ تأخذُه أخذاً حتى رمتْ به في سجنه ، ولم يكن المتنبي لذلك العهد مغموراً مجهولاً كما يذهبُ اليه أكثر الكتاب ، بل كانت قصائدُهُ قبل مدخله إلى الشام قد أنبتت عليه عُيُون الدولة العباسية وجواسيسها ، وأطراف العلويين الذين هضموهُ وظلموهُ ، ونظرات العلويين الفاطميين أيضاً، وكانت دعوة الفاطمية قد نفذتْ في بلدان العربيّة في تكتّمها واستتارها ، مع قوّتها وحصافة القائمين بالدعوة اليها ، وماكان لهم من المذاهب في التدخل في شؤون السياسة تدخُّلاً حكيماً سريّاً ، يترفقون لهُ ليصلوا إلى ضرب الخلافة العباسية والقضاء عليها ، وإقامة الخلافة العلوية الفاطمية

وكان الذي أمسك العيون على المتنبي فيما نذهب اليه ، أنه قبل ان يأتي سيف الدولة في المرة

(١) ولد المتنبي سنة ٣٠٣ وولد سيف الدولة في تلك السنة

الاولى سنة ٣٢١ وكان في طريقه بأرض العراق قال من الشعر ما وقع إلى هؤلاء ، فاستفتهم اليه فمن ذلك ما روى من أن أبا سعيد المجيمري عذله على تركه لقاء الملوك وامتداحهم فقال له

أبا سعيدٍ جنّب العتابا فربَّ رأي أخطأ الصوابا
فإنهم قد أكثروا الحجّابا واستوقفوا لردّنا البوّابا
وإن حدَّ الصارم القرضابا والذابلاتِ السُّمر والعرابا
ترفعُ فيما بيننا الحجابا

فمثل هذا القول لا يذهبُ باطلاً عند أصحاب الامر في الدولة ، ومن يضعون عيونهم على سياسة العصر ودسائسه ، وقد كان عصراً مملوءاً بكل عجيب من الدعوات الخفية ، والثورات السرية التي لا يخطئها مطلع على تاريخ تلك الفترة من العصر العباسي . ويبيّن من شعر المتنبي الذي وقع في ترتيبنا لديوانه في هذه الفترة أنه حين دخل العراق لقي بعض الكيد على أثر ما عُرف عنه من الثورة القائمة في صدره ، ودليل ذلك قوله

رماني خساسُ الناس من صائب استه وآخر قطنٌ من يديه الجنادلُ
ومن جاهلٍ بي، وهو يجهلُ جهلَهُ، ويجهلُ علمي أنه بي جاهلُ
ويجهل أني — مالك الارض — معسرٌ وأني — على ظهر السماكين — راجلُ

ولم يكتف صاحبنا بذلك بل خرج الى ذكر نفسه وصفتها ، وعرَّض بما يضمر من الخروج ابتغاءً لما يؤمّل من الثأر أولاً وما سمّاه (المجد والعلى) تالياً . فقال

يحقّر عندي همتي كلَّ مطلبٍ ويقصرُ في عيني المدى المتطاولُ
وما زلت طوداً لا تزول مناكبي الى أن بدت (للضيمِ) فيَّ زلازلُ

. . . .

يخيّلُ لي أن البلاء مسامعي وأني فيها ما تقول العواذلُ
ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى تساوَ المحايي عنده والمقاتلُ
(ألا ليست الحاجات الاّ نفوسكم وليس لنا الاّ السيوف وسائل)
(شثائة عيشي أن تَغِثَّ كرامتي وليس بغثّ أن تغثَّ المآكلُ)

ولا يلفتنّك ما نحن فيه عن أن تعود الى ما ذهبنا اليه في أمر نسبه ونكبته الاولى وهو صغير ، لتعلمَ سر القول في قوله (الى أن بدت للضيم فيَّ زلازل) فهو يردُّك الى ذكر المشكلة القائمة في نفسه والتي وصفناها لك على ما وفّقنا اليه ، إذ أنه بهذا الشطر قد ضمن لك معنى ما نريد من أنه كان مغلوباً على أمره، محكوماً عليه بأمر كله ظلم وضيم فلما بلغ مبلغاً ، زلزله هذا الضيم وقد حاول من صدره مخرجاً على انه كان — كما وصف نفسه — رابط الجأش ثابت النفس

ثبوت الجبل على ما يعمل تحته من العوامل البركانية التي تبتغي مخرجاً بالانفجار

دَعْ ذا — ونعود الى شعره في الفترة التي نحن فيها من تاريخه ، فكان مما قاله في العراق ايضاً قصيدته التي اولها « ضيف ألمّ برأسي غير محتشم » وننقل اليك طرفاً منها لتتدبّره على ما رسمنا يقول

ليس التعلّل بالآمال من أربي ولا القناعة بالاقلال من شيمي
ولا أظنّ بنات الدهر تتركني حتى تسدّ عليها طُرْقَها هممي

. . . .

سيصحبُ النصلَ مني مثلُ مضربه وينجلي خبري عن صمّة الصمم
لقد تصبرتُ حتى لاتَ مصطبرٍ (فالآن أقحم حتى لات مقتحمِ)
لأتركنّ وجوه الخيل ساهمةً والحرب اقوم من ساق على قدمِ
بكلّ منصلتٍ ما زال منتظري (حتى أدلت له من دولة الخدمِ)
تنسي البلاد بروق الجوّ بارقتي وتكتفي بالدم الجاري عن الديمِ
ردي حياض الرّدى يانفس واتركي حياض خوف الرّدى للشاء والنّعمِ
(ان لم أذرك على الارماح سائلةً فلا دعيت ابن ام المجد والكرمِ)
(أيملك الملك — والاسياف ظامئة والطير جائعة — لحم على وضمِ) (١)
من لو رآني ماءً مات من ظمإٍ ولو عرضت له في النوم لم ينمِ
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً (ومن عصى من ملوك العرْب والعجمِ)
فان اجابوا فما قصدي بها لهمُ وان تولّوا فما ارضى لها بهمِ

فهذا الذي اثبتنا لك من شعره في القصيدتين ، وما صرح به فيهما عن آماله وآرائه ، وعن رأيه في الدولة العباسية التي ملك زمامها العجم والديلم والترك ممن كانوا من خدم الخلفاء ، وعن رأيه في الخليفة الضعيف الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً ثم يُعَدّ في نظر شعبه ملكاً تملّكاً تعطى له المقادة ، وتصرف اليه الطاعة بالاذعان والتسليم ، وما يتجلى في كلماته من ارادة التغلّب والثورة على الدولة عربها وعجمها ، كلّ ذلك ولا شكّ جاب على صاحبنا على صغره اهتمام القائمين بأمر الدولة من الولاة والدعاة من العرب والعجم والترك والديلم ، وأصحابِ الدعوة العلوية والدعوة الفاطمية

(١) (لحم على وضم) جملة يكنى بها عن الضعيف الذي لا ناصر له كالمرأة التي لا حامي لها ، وهذه الكناية فاعل قوله (ايملك الملك) ، والبيت الثاني بدل من قوله «لحم على وضم»

فلما كان اتصاله ببني حمدان في سنة ٣٢١ ومدحه لهم — دون غيرهم من الولاة والامراء أمثالهم ، والمنافسين لهم والحاقدين عليهم ، والمريدين الإيقاع بهم لما عرفوا به من الصراحة من الحكم ، والدهاء في السياسة ، والعصبيّة للعربيّة الصريحة ، وبغضهم لحكام الاعاجم الذين كانوا هم أصحاب الامر والنهي في الدولة كلها — ازداد اهتمام هؤلاء بالفتى العربي (المتنبي) وردّوا أنظارهم اليه ، وأدركوا أن هذا الثائر الشاعر النابغ سيكون له شأن أي شأن لو ترك غير مراقب ولا مأخوذ عليه السبيل التي يبغي ، والامر الذي يهدّد به ، فأجمعوا على الإيقاع به حتى لا يستفحل أمره ، ويتّسع عليهم الخرق من قبله فلا يملك له الراقع مرقعة

ورحل صاحبنا من (رأس عين) حيث مدح سيف الدولة متخذاً طريقه إلى الشام ماراً بحران ثم منبج ثم أنطاكية واللاذقية وحماة وحمص وبعلبك ، وتردّد بين هذه المدن حتى قبض عليه . وكانت هذه البلاد نفسها منازل من منازل الدّعاة العلويين الذين كانوا أصحاب سياسة ودهاء في دعوتهم إلى قلب الخلافة العباسية ، وإقامة الخلافة العلوية الخالصة ، وكانت الاعاجم في الشرق ، والموالي الذين بلغوا غاية السلطان في خدمة الخلافة العباسية يداً مع العلويين على الدولة العباسية ، وكانت هذه البلاد أيضاً مجالاً للدّعاة الفاطميين أصحاب الجيوش والسلطان بالمغرب ، وكان هؤلاء الدعاة يسعون جهد السّعي لضمّ العلويين اليهم واستمالة الولاة على اختلافهم إلى مناصرتهم لتتمّ لهم دخول الشام دون معارضة بعد فتح مصر — وكانوا يعدّون له العدّة — ثم يقفوا وجهاً لوجه حيال الدولة العباسية بالعراق ، وكان قد تمّ لهم أمر عظيم في ما وراء دجلة والفرات ، وبذلك تسقط الدولة العباسية ، وتقوم على انقاضها الدولة العلوية الفاطمية

وكأني بالمتنبي في طريقه يظهر في القبائل والمدن أمر نسبه ، ويذيع بينهم أنه علويّ الاصل شريف النّسب ، محتالاً لذلك بالدهاء ، مجتهداً في اتخاذ العضد قبل أن يعلن أمره إعلاناً صريحاً لئلاّ يواقعه العلويّون وينزلوا به كيدهم الذي يكيدون له . دار دورته في البلاد التي ذكرناها وأمره الى علو لما عرف من فصاحته وبلاغته ، وحسن سمته ، وجمال هديه ، وتوقد ذكائه ، وما يمتاز به من حسن المعاشرة ، ولطيف المنادمة مع سعة العلم ، ودقة الفهم له ، وكان في القبائل البادية اظهر امراً ، وأشد عضداً ، حتى كان آخر امره ببني عدي وبني كلب ، ففشا ذكره بينهم ، وبايعوه على العون له ، في الدعوة الى رد الحكومة الى العرب دون الاعاجم . وكان ظهوره في بني عدي هو الذي جلب عليه السجن والشقاء

ذلك أن بني عدي [1] هم قوم بني حمدان ، فكان ظهوره هناك ، ولقاؤه قبل ذلك سيف

(١) هم بنو عدي بن اسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن (تغلب) ، وينتهي الى عدي هذا نسب بني حمدان

الدولة ومدحه بني حمدان عامة — سبباً في تيقظ ولاة (محمد بن طغج الاخشيد) وكان على دمشق ، ولم يكن ظهر امره بمصر بعد ، وكانت بين بني حمدان والاخشيديين الاتراك المتعصبين للدولة العباسية ، عداوة جانبها المنافسة ، وكان سيف الدولة مخصوصاً بها وحده دون بني حمدان لما ظهر من قوته على صغر سنه ، وحبه في توسيع سلطان بني حمدان حتى يضم الشام وما يتبعها الى ولايته وولاية اخوته . فلا بد اذن للاخشيديين من مراقبة هذا الذي مدح بني حمدان ، وأحدث حدثاً في القبائل التي كانت لهم موالية ، خشية ان يكون موفداً من قبل سيف الدولة للقضاء على مطامع الاخشيديين في الاستيلاء على الشام ومصر

وأيضاً ، فان دعاة الفاطميين الذين كانوا بالشام نظروا الى ذلك ، وخافوا ان يكون موفداً من قبل سيف الدولة وبني حمدان ، وكان بنو حمدان قد استعصوا على الدعوة الفاطمية مع انهم كانوا من شيعة العلويين ، وامتناع بني حمدان على الدعوة الفاطمية كان هو السبب في مناصرتهم للخليفة العباسي وتحققهم بخدمته لما يعرفون من ان دعوة الفاطميين كانت قد ضمت اليها اكثر ولاة الاعاجم الذين كانوا يحكمون بلاد الخلافة ما وراء الفرات وفي العراق نفسه . وكان هذا هو السبب ايضاً في العداوة المتقدة بين بني بويه وبني حمدان فيما بعد وخاصة سيف الدولة ، فان بني بويه كانوا علويين فاطميين

فاجتمعت على المتنبي عيون الفاطميين ، وعيون العلويين ، وعيون الدولة القائمة في الشام فلما ظهر في بني عدي ارسلوا في القبض عليه ، فطاردوه من بلد الى بلد ، وكان يستخفي منهم ، حتى وقع اخيراً في يد (ابن علي الهاشمي العلوي) في قرية يقال لها كوتكين[1] ، فقبض عليه وأمر النجار بأن يجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف فقال له المتنبي بيتين قد ذكرناها آنفاً وبقي المتنبي في السجن من اواخر سنة ٣٢١ او اوائل سنة ٣٢٢ الى سنة ٣٢٣ ثم اطلق

وكان المتنبي في اول امره مستخفاً بالسجن ، لما يأمل من بلوغ خبره الى سيف الدولة ، فان بني عدي قوم سيف الدولة — كما يتوهم — لن يتركوه في ايدي هؤلاء الا ان يحملوا خبره الى بني حمدان فيخف بنو حمدان لنيتهم في دخول الشام . ولكن نية بني حمدان تأخرت طويلاً فان سيف الدولة لم يهدد اطراف الشام بعساكره الا بعد ذلك بزمن طويل

ومما يدل على استخفافه بالسجن في اول امره ما رووا من ان ابا دلف بن كنداج — سجانه — اهدى اليه هدية وهو معتقل بحمص ، وكان قد بلغه انه ثلبه عند الوالي الذي اعتقله ، فكتب اليه

أهونْ بطولِ الثواء والتلفِ والسجنِ والقيدِ يا أبا دلفِ
(غير اختيارٍ قبلتُ برك بي) والجوع يرضي الاسود بالجيفِ

---

(١) لعلها كانت قريبة من (سلمية) وهي قرية من أعمال حمص

كن ايها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصة لم يكن الدر ساكن الصدف

وفي هذه الابيات تقف كبرياؤه كما هي لم يأخذ منها عذاب السجن وشقاؤه شيئاً . حتى انه ليقول للذي يبره في سجنه (غير اختيار قبلت برك) ، ولو لا ما انا فيه من العذاب لرددت عليك هديتك غير حافل بك ولا بها . ثم ينزع المثل على عادته (والجوع يرضي الاسود بالجيف) وهي سخرية حديدة مؤلمة

فلما طال عليه الامد في السجن لجأ الى الحيلة في الخروج منه ، فكتب الى ابن طغج يستعطفه ويفند ما رمي به من ارادة الخروج على السلطان فكان مما كتب

بيدي ايها الامير الاريب لا لشيء الا لاني غريب
او لام لها اذا ذكرتني دم قلب بدمع عين يذوب
(ان اكن قبل ان رأيتك اخطأ ت فاني على يديك اتوب
عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب)

الا ان سعي الفاطميين والعلويين في ابقائه في السجن ، وما اشرنا اليه من خوف والي الشام من الحدث الذي احدثه ان يكون من قبل بني حمدان — لم يصغ اليه سمع الامير فبقي في سجنه الى سنة ٣٢٣ . وقد رويت له القصيدة التي كانت السبب في اطلاقه وفيها اشارة إلى كل هذا الذي ذكرنا لك ويحسن هنا ان نلم لك ببعضها لتتبين ما أرخنا لك من التاريخ

يقول المتنبي يصف الامير

ولو لم أخف غير اعدائه عليه لبشرته بالخلود
رمى (حلباً) بنواصي الخيول وسمر يرقن دماً في الصعيد
وبيض مسافرة ما يقمن لا في الرقاب ولا في الغمود
يقدن الفناء غداة اللقاء إلى كل جيش كثير العديد
فولى بأشياعه (الخرشني) كشاء احس بزأر الاسود
فمن كالامير بن بنت الامير او من كآبائه في الجدود

والذي تنبهنا له هنا انه ذكر في هذه القصيدة (حلباً) و(الخرشني) وقد عنينا بالبحث عن الحادثة التاريخية التي نستطيع بها ان نعين السنة التي قيلت فيها ، ثم وفقنا الله الى تفسير ذلك بالاستنباط . ففي جمادي الآخرة سنة ٣٢٢ سار الدمستق (قرقاش) في خمسين الفاً من الروم فنازل ملطية[1] وحصرها مدة طويلة حتى هلك اكثر اهلها بالجوع ثم فتحها وهدم سورها وقصورها

(١) بلدة مذكورة مشهورة في ديار ربيعه على حدود بلاد الروم في ذلك العهد

وضرب خيمتين على احداها صليب ، وقال : من اراد النصرانية انحاز الى خيمة الصليب ليرد عليه اهله وماله ، ومن اراد الاسلام انحاز الى الخيمة الاخرى وله الامان على نفسه ، ويبلغه مأمنه ، فانحاز اكثر المسلمين الى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في اهليهم واموالهم ، وسيّر مع الباقين بطريقاً يبلغهم مأمنهم، وفتحها بالامان . ثم ملكوا (سميساط) وخربوا الاعمال واكثروا القتل وفعلوا الافاعيل الشنيعة (وصار اكثر البلاد في ايديهم) ، وسكت المؤرخون....وظاهر أن والي الشام وهو اذ ذاك محمد بن طغج الاخشيد لم يكن ليصبر على ذلك ، فلما امتد الدمستق بجيوشه وقصد حلب، خرج اليه هو او بعض من انفذه لقتاله فردّه عن التوغّل وانقلب الدمستق هارباً ولم يدخلها . وقد جعلنا هذه الحادثة تاريخ القصيدة لانها توافق ما اثبتنا من تاريخ المتنبي ، ثم لما ذكر من امر حلب ، ثم لذكر هذا الخرشني . والخرشني ، هو ملك الروم لانهم ينسبون ملوك الروم الى جبل ببلادهم يقال (خرشنه) ، وتكون هذه القصيدة لذلك مما كتبه ابو الطيب الى محمد ابن طغج الاخشيد التركي في اواخر سنة ٣٢٢ او اوائل سنة ٣٢٣

واما قول المتنبي في هذه القصيدة يخاطب ابن طغج

وقيل عدوتُ على العالمين بين ولادي وبين القُعودِ
فمالكَ تقبَلُ زورَ الكلامِ وقدرُ الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعنَّ من الكاشحين ولا تعبأن (بعجل اليهود)
وكنْ فارقاً بين دعوى(أردت) ودعوى (فعلت) بشأوٍ بعيدِ

فقد ذكر في البيت الاول أنه وهو رضيع لم تتم لهُ القوّة على الاستمساك في قعدته ـ كان قد اتّهم بالخروج على السلطان ، وهذا لم يحدث ولا شكّ ، وإنما هو إشارة لما كتبنا عنه في نسبه من النكبة التي حلّت به وبجدته من نفي النسب العلوي الشريف عنه ، ومراقبة العلويين لجدته خوف أن يبدرَ منها ما لا يحبون ، فجعل صاحبنا تلك المراقبة لنفسه — إذ لم يفعلوا بها ذلك إلاّ من أجل نسبته هو إلى العلويين . والبيت الثاني استثارةٌ لابن طغج إذ كان من أعداء العلويين في غير علانية ، وكان من أنصار العباسية فهو يقول لهُ : مالي أراك تقبل فيّ قول أعدائك وأعداء مواليك العباسيين ، وكان أولى بك أن تزن أقوالهم بما تزنهم به (فقدر الشهادة قدر الشهودِ)، فلا تسمع لهؤلاء الذين يضمرون العداوة(الكاشحين) . ثم وصل كلامهُ عن العلويين بذكر العلويين الفاطميين فقال (ولا تعبأنّ بعجْل[1] اليهود) ، وعجل اليهود كنايةٌ عن أحد دعاة الفاطميين الذين كانوا هناك بالشام . وتأويل ذلك أنّ العباسيين وكثيراً غيرهم حتى من العلويين أنفسهم

(١) قد حار الشراح في تفسير الكلمة ، وتلبوها على وجوه كثيرة لا تصح ، وهذا هو الوجه عندنا وهو الصواب ان شاء الله

(كبني حمدان) كانوا لا يعترفون بنسبة الفاطميين ويزعمون أن جدهم كان يهودياً، وأسلم ليدخل على الاسلام فاسد العقائد نكاية. وآيدهم على ذلك أن الدعوة الفاطمية كانت دعوة سرية لها أصول خاصة ودرجات مرتبة، من درجة التلمذة إلى درجة داعي الدعاة، ولكل درجة من الدرجات تمام خاص، ومرتبة معروفة مقيدة. فقول المتنبي (عجل اليهود) إشارة إلى ذلك

ولا أنس هنا أن أعود بالقارئ إلى بيت من أبيات مضت في ذكر التنوخي وهو قول المتنبي يذكر التنوخيين

« أليس عجيباً أن بين بني أب لنجل يهودي تدب العقارب »

وقد تبين لنا بعد البحث في تواريخ العلويين أن بعض الدعاة الفاطميين كان قد دخل اللاذقية (وهي من منازل تنوخ) وأدخل قسماً من التنوخيين في الدعوة الفاطمية وبذلك افترق التنوخيون فرقتين، فرقة العلويين او الشيعة وفرقة الفاطميين، وهذه الاخيرة هي التي خرج منها الدروز وهم تنوخيون. وفريق الدروز يتهمون من قديم بعبادة (العجل)، وقد نفى ذلك كثير من الباحثين والله اعلم بحقيقة امرهم؛ ولعل هذا هو السر في قول ابي الطيب (عجل اليهود) يشير بذلك الى الفاطميين، وفي قوله (نجل يهودي) يريد داعي الفاطميين الذي قسم التنوخيين، وضرب الاخوة بعضهم ببعض. وأما قوله:

وكن فارقاً بين دعوى (اردت) ودعوى (فعلت) بشأو بعيد

فهو عندنا من الادلة في ان الامر الذي قبض على المتنبي من اجله لم يكن النبوة، وانما هو الخروج على السلطان؛ وأنت اذا قابلت الدعويين « دعوى (اردت)، ودعوى (فعلت) » على معنى النبوة لم يتم لك تساوق المعاني على ذلك، وتم لك في معنى الخروج على السلطان هذا التساوق، إذ ان ارادة الخروج شيء، والفعل الذي يسمى به الرجل (خارجاً) شيء آخر ...

والظاهر عندنا ان السبب في اطلاق المتنبي من السجن لم يكن هذه القصيدة وحدها، بل السبب البالغ في هذا الرضى عنه فيما نرجح ان بعض التنوخيين العلويين (غير الفاطميين) كانوا قد سعوا عند ابن طغج لاطلاق المتنبي، وذلك لصلتهم ببني حمدان واتفاقهم معهم في المذهب (العلوية)، وأظهروا لابن طغج موالاتهم فرضي منهم بهذا وأكرمهم باطلاقه [1]، ولكن العلويين الكوفيين سعوا من ناحية اخرى لدى الوالي ان لا يطلقه فأرضاهم بأن يأخذ عليه وثيقة تثبت بطلان دعواه في النسبة الى الشجرة العلوية الشريفة المكرمة. والذي حملنا على ان

(١) ولا بأس أيضاً في ان نذكر ان (بني عدي) وهم قوم سيف الدولة النازلين بأرض الشام، كان لهم شأن في ذلك، وارضاهم ابن طغج لما يخشى من انتقاضهم عليه اذا لم يبذل لهم الرضى في رجل قبض عليه عامله في ارضهم وكان في جوارهم

نظن ذلك من امر التنوخيين ان المتنبي بعد خروجه من السجن مدح التنوخيين وأخلص لهم ونزل عندهم ثم رجع الى الكوفة وبقي بها مدة ، فلما عاد في سنة ٣٢٦ رجع اليهم وبقي عندهم ومدحهم ايضاً وأجاد في مدحه لهم اجادة بينة ظاهرة ، وقد كان هذا الفتى وفياً ألوفاً كما وصف نفسه وكان يأسره الاحسان ويغلبه على امره كثيراً ، وقد ظهر هذا الخلق في روعة المثل الذي ضربه يوماً ما فيا بعد وهو قوله « ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا »

***

وقد اكثر الكتاب من الاستشهاد بحادث حبس المتنبي وما كان منه فيه ، وزعموا انه كان متكبراً احمق الرأي ضعيف الارادة ، فدعته كبرياؤه أول اول الى الاستخفاف بالسجن ، ثم رجع فذلّ وانقاد واستخذى في قصيدته الاخيرة ، وليس هـذا لنا برأي ، فان الابيات البائية التي ذكرناها لا تدلّ على ضعف وانما كان كما روينا لك مرهف الحسّ شاعر النّفس ، فلما بلغ جدته خبر حبسه كتبتْ اليه ، وذكرته بما فعل وهو بدار غربة ، وعذلته على ما كان منه وشكت اليه ألمها ، وكشفت له عن ذي قلبها ، فرقّ وبكى وكتب الابيات الاربعة على اثر ذلك وطبع عليها قلبه وحنانه ورقته ، لا ضعفه واستخذاءهُ ، ويكفي في الدلالة على بطلان رأيهم انه جعل البيت الرابع مهاجمةً لجميع من ادّعى عليه واراد حبسه ، وهجاءً بالغاً لهم . وليس هذا من الحكمة ، ان كان ممن يستخذي ويضعف . وذلك حيث يقول :

« عائب عابني لديك ، ومنه   خلقت في ذوي العيوب العيوب »

ثم لما كتب قصيدته الاخرى الدالية ذكر ابياتاً يزعمون انها تدلّ على مذهبهم في ثلب الرجل وهي قوله

أمالكِ رقي ومن شأنه   هبات اللجين وعتق العبيدِ
دعوتك عند انقطاع الرجاء   والموت مني كحبل الوريدِ
دعوتك لما براني البلاء   وأوهن رجليّ ثقل الحديدِ
وقد كان مشيهما في النعال   فقد صار مشيهما في القيودِ

ونحن لا نرى في هذه الابيات شيئاً لانه انما اراد — كما قلنا — ان يترفق لغرضه بالحيلة ، حتى يخلص من السجن ، اذ وجد ان لا جدوى عليه من الصبر على السجن الذي يضيع الامل في تحقيق ما يريد من الانتقام من هؤلاء الذين فعلوا به ما فعلوا . والذي يدلّ على انه لا يقسو في الصفات هذه القسوة التي ابرزها المتنبي في ابياته بعد — إذ وصف من كانوا معه في السجن متهكماً ساخراً على عادته فقال

وكنت من الناس في محفلٍ   فها انا في محفلٍ من قرود

ثم يخاطب ابن طغج مخاطبة النّد فيسأله على وجه التقريع واللوم فيقول « فمالك تقبل زور الكلام ؟ » ثم ينهاه ناصحاً ومحذراً فيقول « فلا تسمعن من الكاشحين » ثم يأمره على وجه التعليم والتنبيه بقوله « وكن فارقاً » فهذا مذهب تعليميّ في الامر ، ينطوي على تبصير الامير — الذي يزعمونه يذلّ له — بوجه الصواب من الرأي في التفريق بين الدعويين ، وتذكير له بانه اخطأ خطأً كبيراً بتركه التحقق من اصل الدعوى التي اقيمت عليه وتطبيقها على ما كان منه حقيقةً ، ولو كان ذلك لبطل عند الامير ما يدّعون عليه ، وهذا كما ترى فيه معنى التجهيل للامير . ولا نظنّ ابن طغج كان يخطىء إدراك هذا البيان البين في شعر المتنبيّ ، ومع ذلك فقد أعفاه من هفوة اللسان وأطلقه اكراماً للتنوخيين فيما ذهبنا اليه ، وما كان من مدحه له في القصيدة مدحاً لم يظفرْ بمثله من شاعرٍ مثل المتنبي الشاعر البليغ العربيّ الشريف

فهذا كما ترى سياقٌ تاريخيٌّ لا بأس به — إن رأيت ذلك — في أمر القبض على أبي الطيب ولا ذكر فيه للنبوّة ، ولا يمكن أن يكون قبض عليه لهذا الهراء الذي يزعمون ، وستعلم بعد أن الخالع حدثنا عن أبي الحسين الناشىء الشاعر أنه قال : « كنت بالكوفة في سنة ٣٢٥ وأنا أملي شعري في المسجد الجامع بها ، والناس يكتبونه عني ، وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم وهو بعد لم يعرف ولم يلقّب بالمتنبي . . . . » . وهذا دليلٌ على أن القبضَ عليه في سنة ٣٢١ لم يكن للنبوة إذ لو كان ذلك كذلك ، لتعالمه الناس بالكوفة التي نشأ بها ، ولأشار إلى ذلك الناشىء ؛ وكلام الناشىء يدلُّ على أن ذلك لقبٌ نبز به الرجل، ولم يكن بسبب هذه النكبة التي أصيب بها في سنة ٣٢١ ، أو الحدث الذي أحدثه في تلك السنة

وهناك سياقٌ آخر للتدليل على بطلان هذا الافتراء الذي رمي به الرجل ، نستنبطه من الاسلوب الشعريّ أولاً ، ومن الحالات النفسية القائمة في شعره ثانياً ، ومن الاصول التاريخية في أمر المتنبئين في ذلك العهد أخيراً ، ورأينا أن نضمر ذلك ولا نطيل به حتى نظهره في كتابنا — إن شاء الله — عن المتنبي ، وبالله التوفيق (١)

أما هذا النبزُ الذي نبز به أبو الطيب وعرف به إلى اليوم، فليس مرجعُه إلى هذا الخروج الذي كان منه في بني عدي ، فقبض عليه ، وألقي في السجن من جرائه ، بل له عندنا مساقٌ آخر هو أقرب إلى الصدق وأولى بالاعتبار

---

(١) اعلم اننا تركنا أيضا في هذا الحديث عن رحلته وحبسه ما قال من شعر في مدح رجالٍ لقيهم في طريقه للبلاد التي نزلها ، اذ ليس يضر هنا اغفال ذلك حتى حين ، ولئن فعلنا لم يكن ليتسع هذا العدد من المقتطف لما نريد وما نؤمل من استيفاء ترجمة الرجل على الوجه الذي نرتضيه ، ونقر عينا به

كان أبو الطيب من أول أمره متورعاً في خلقه لا يخرج من حدود الوقار ، متزمتاً لا يلين للشهوات ولا يلقي اليها مقاده ، مترفعاً عن سفاسف الاخلاق ، متمسكاً بمعاليها . آخذاً نفسه بالجد الذي لا يفتر ، وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها ، « فما كذب ولا زنا ولا لاط » ولا أتى أمراً منكراً يؤخذ عليه ، أو يزن به ، واستمر على ذلك حياته كلها ، وخالف الادباء والشعراء من أهل عصره ، فما شرب الخمر ولا حمل وزرها ، ولولا اضطراره فيما نرى لما حضر مجالسها ، وكان منصرفاً إلى العلم قارئاً له ومحققاً لدقائقه ، طويل النظر والتدبر فيما يمر به من أحداث الزمان كثير الاهتمام بأمر الامة التي هو منها ، لا يفوته مغمز ينتقده او خلق يستسقطه ، وكان اهل العصر على خلاف له في ذلك وخاصة من انتسب الى الادب ، واعتزى الى الشعر : فكان الادباء والشعراء أهل شراب ومعاقرة ولهو وهزل وباطل ، لا يفرغون الى الجد الا بمقدار ، ولا يتورعون عن دنية الا مكرهين على الورع . فلا عجب إذا عده اهل صناعته من الادباء والشعراء غريباً بينهم

وكان المتنبي في اول شعره يكثر من ذكر الانبياء ويردد اسماءهم ويشبه نفسه بهم ، ويقيس اخلاق ممدوحيه الى اخلاقهم فمن ذلك قوله في نفسه

ما مقامي بأرض نخلة الا (كمقام المسيح بين اليهود)

وقوله في القصيدة نفسها

ان أكن معجباً فعجب عجيب (لم يجد فوق نفسه من مزيد)
أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة — تداركها اللـــه (غريب كصالح في ثمود)[1]

وقوله

« أنا الذي بين الاله به الـ أقدار والمرء حيثما جعله »

فشبه نفسه بالانبياء والرسل الذي ارسلهم الله ليكونوا شهداء على الناس

وقوله في رثاء التنوخي (محمد بن اسحق)

وكأنما (عيسى بن مريم) ذكره وكأن (عازر) شخصه المقبور

وكان ايضاً كثير الانذار للملوك والامراء بعذاب بئيس سيأتيهم من قبله كقوله

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فان اجابوا فما قصدي بهـا لهم وان تولوا فما ارضى لها بهم

(١) يروي ابن جني أن المتنبي قال : لقبت بالمتنبي بهذا البيت

فهذه امثلة مما تأثر في شعره من هذه المعاني ، وأنت إذا نفضت ديوانه وجدت في معانيه المعاني التي تنبئ بالغيب كقوله في بدر بن عمار

لو كان علمك بالاله مقسماً في الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لفظك فيهم ما انزل الـــفرقان والتوراة والانجيلا

ولا نطيل بذكر الشواهد في ذلك فهذا امرٌ متعالم مشهور

وعندنا ان ابا الطيب لما عاد من الكوفه سنة ٣٣٦ واتصل سببه ببدر بن عمار ولزمه ، وعلا عنده ، واصاب كرامة لم يصب مثلها من قبل ، تناوشه الشعراء إذ خافوه على ارزاقهم ، وطفقوا يتفصون الرجل ويطلبون له العيوب ، واغراهم بذلك ما وجدوا من ترفعه عن مجالس لهوهم ، وانصرافه عن الهزل الذي يكونون فيه ، وظنوا به الكبْر ، فاخذوا يذكرون شعره ويتنادرون به ، فلما وقعوا على كثرة دوران اسماء الانبياء في هذا الشعر ، وتشبيهه نفسه بهم ، وما هو فيه من التعفف والتورع : أرادوا له لقباً ينبزونه به ، فلقبوه (المتنبي) يريدون المتشبه بالانبياء ، واخذوا يذكرونه بهذا الاسم . ويتداولونه بينهم . ثم استفاضت شهرته به لمَّا اتَّصل بأبي العشائر سنة ٣٣٦ وصار لا يذكر الا به

وقد رأيت قبل ان القبض عليه كان سنة ٣٢٢ وان الناشيء قال ان ابا الطيب كان يحضر مجلسه سنة ٣٢٥ بالكوفة « وهو بعد لم يعرف ، ولم يلقب بالمتنبي » فتلقيبه بالمتنبي كان بعد سنة ٣٢٥ ولا شكّ كما رأيت . وبذلك ينتفي ان يكون قد حبس من أجل دعوى النبوة . فلما علا امر المتنبي وظهر ، وخشي من خشي من العلويين ومن اليهم احدثوا من هذا النّبز (المتنبي) — الذي قصد به التشبه بالانبياء في الخلق ، والوعيد والانذار ، وتشبيه نفسه بهم في شعره — قصةً مخترعة عن نبوة زعموا ان الرجل ادعاها ، واعانهم على صوغها ما كان من امر حبسه حين اراد اظهار نسبته الى الشجرة العلوية المكرمة . فكانت هذه القصص التي نقضناها واظهرنا بطلانها

أَبَني أبينا ، نحن أهل منازلٍ
أبداً غُرابُ البينِ فيها ينعقُ
نبكي على الدنيا وما من معشرٍ
جمعتهم الدُّنيا فلم يتفرقوا
والمرءُ يأمل ، والحياةُ شهيةٌ .
والشيبُ أوقرُ ، والشبيبةُ أنزقُ
ولقد بكيتُ على الشباب ، ولِمَّتي
مسودَّةٌ ، ولماء وجهيَ رونقُ

خرج ابو الطيب رحمه الله من سجنه وشقائه وعذابه مستمر النفس ، مكتهل القلب . فقد جرب احداث الزمان ، وما ابتلي به من النكبات التي عرقته في سجنه ، وما كيد به من اعدائه ، فانطوى على ما به غير جازع ولا شاكٍ ولا مستسلم ، وابتسم للدنيا وهو يضمر الغيظ عليها « ولكنه غيظ الاسير القد[1] » ، وكان يعمل في نفسه بما قال بعد

هوّن على بصرٍ ما شقَّ منظره فإنما يَقَظاتُ العين كالحُلُمِ
ولا تَشَكَّ الى خلق فتشمتَه شكوى الجريح الى الغربان والرخمِ
وكن على حذر للناس تستره ولا يغرُّك منه ثغر مبتسمِ

وإن صحَّ ما رأيناه في ترتيب شعره . وما قلنا به من ان التنوخيين كانوا قد سعوا لدى ابن طغج في اطلاقه من سجنه ، فقد خرج صاحبنا من السجن ولحق بالتنوخيين باللاذقية وأقام عندهم وفي جوارهم ، وكانت صلته وثيقة بأبناء اسحق التنوخي (محمد والحسين) فلما مات محمد رثاه ، وقد قدمنا طرفاً من ذكر ما ورد في رثائه لهذا الرجل . وبين في شعره الذي رثاه به ما كان يضمر له من الحب ، وما يفي له به من حسن صنيعه عنده . وأخلص بعد موت (محمد) الوفاء والمودةَ لاخيه (الحسين بن اسحق) ، ولكن صاحبنا لم يسلم هناك من الاعداء — اعدائه من العلويين والفاطميين والعباسيين فقد قصد بعض شعرائهم قصيدة في هجاء الحسين بن اسحق ونحلها ابا الطيب ، فكتب الحسين الى أبي الطيب يعاتبه ، فرد عليه جواب كتابه بأبيات يقول فيها ، يعاتبه على تصديقه ما بلغه

(١) هو للمتنبي وأوله « وغيظ على الايام كالنار في الحشا » . والقد : القيد من الجلد

تطيع الحاسدين وأنت مرءٌ جعلت فداءه — وهمُ فدائي
وهاجي نفسه من لا يـميّز كلامي من كلامهم الهراء
وإن من العجائب أن تراني فتعدل بي اقل من الهباء
وتنكر موتهم وأنا سهيلٌ طلعت بموت اولاد الزناء

ونحن نرى ان المتنبي اقام قليلاً في جوار الحسين ثم وافاه كتابٌ من جدته ، وقد كان بلغها خبر انطلاقه من السجن ، تبثه شوقها ، وتشكو له بثها وحزنها وتعزم عليه في الرحلة اليها ، وتذكر له ما كان من امرها مع العلويين بالكوفة ، وانها ارضتهم ، واخذت على نفسها العهد ان يقلع ولدها عما تهوّر فيه من اراده اظهار نسبه ، وبينت له مغبّة ما ينوي من ذلك ، ووعظته بما اصابه من قبل في سجنه ، واحرجته في الحضور اليها ، فلم يجد قلب أبي الطيب بداً من الطاعة ، وكتم عزمه عن الحسين بن اسحق التنوخي ، ولكن عزمه لم يخف على صاحبه ، فأراده على المكث ، فأبدى ابو الطيب رأيه بالموافقة وأضمر الخلاف والرحلة عن اللاذقية الى الكوفة . . . وقد اشار الى ذلك في مدحه اذ يقول معرضاً بعزيمة البقاء ليصرف التنوخي عن ان يعوقه

لك الخير، غيري رام من غيرك الغنى ، وغيري بغير (اللاذقية) لاحقُ
هي الغرض الاقصى ، ورؤيتك المنى ، ومنزلك الدنيا ، وأنت الخلائقُ

واتخذ صاحبنا الليل جملاً — كما قالوا — وانحدر الى الكوفة ، وقد امتلأت نفسه بأحقاده وآلامه وآماله . وسار من بادية الى مدينة ، ومن مدينة الى بادية ، ينظر الى الفتن التي مزقت امته وأبلت جدتها ، وما داخلها من الانحلال والتفكك ، وما اصاب اخلاقها من السقوط والتسفل ، وما فعلت الدعوات السرية في نقض مجدها ، وتفريق كلمتها حتى فشلوا وذهبت ريحهم

وكانت هذه الفترة من حياة الرجل ، فترة نظر وبصر وتجربة ، وأوان تردُّد لا يدري ما هو فاعل ولا ما الله فاعل به . فقد رمى بنفسه الى الكوفة على غير مرضاةٍ لجدته لارغبةً منها في دخولها ، واخذته الوساوس فيما يراد به هناك بعد الذي كان منه بالشام من ارادته اظهار نسبته العلوية . وكان الثأر يغالبه على ترك النية والعودة إلى الشام، لولا ما يخاف على جدته من سوء فعله. فدخل الكوفة بهمه واحقاده وآلامه سنة ٣٢٣ أو في اواخرها على الارجح ، فلما استقرَّ بها رأى وراث جدته ان ثورته ليست مما يجدي عليه شيئاً ثمَّ ، فانصرف الى مجالس الكوفة ومساجدها يشغل بطلب العلم نفسه عما يساورها ويهزُّ منها ، وكان لانصرافه هذا وإقباله على شيوخ الادب والدين والفلسفة وغيرها من علوم العصر اثراً كبيراً في تهذيب نهجه الشعريّ ، واستجمَّ بهدأة العلم قوة اخرى على الثورة والتقلقل بدت في شعره بعد مخرجه من الكوفة

رائعة مدوّية كانما انفجرت في لسانه انفجار البركان في زلازل الارض

وكان المتنبي لسنته تلك (سنة ٣٢٣) عزباً لا يأوي الى سكن من النساء ، ولعلَّ جدَّته رأت ان تهدىء منه قليلاً بالزواج فزوّجته على غير رغبةٍ منه قريباً من سنة ٣٢٥ قبل خروجه من الكوفة ، وذلك لان المتنبي بعد مرجعه إلى الشام سنة ٣٢٦ ذكر لاول مرَّة في شعره (الابوّة) . فما عرفناه من خلق أبي الطيب أنه كان إذا نزل بهِ أمرٌ أو جدَّ في حياته جديد فسرعان ما يتلجلج ذلك في صدره ولا يستقرُّ حتى يشير اليه من شعرهِ ، لكثرة ما تلد الحوادث في شاعرية هذا الرجل من المعاني والآراء ...قال أبو الطيب في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد ابن عمران قريباً من سنة ٣٣٢ يذكر المرأة

وترى — المروّةَ والفتوةَ والابوّ ةَ فيَّ — كلُّ مليحةٍ ضرّاتها
هنّ الثلاث المانعاتي لذّتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

ولعلّ ولدهُ هذا الذي ذكره في قوله (الابوة) هو (محسّدٌ) الذي ورد ذكره في خبرٍ مرويٍّ وهو بواسط سنة ٣٥٤ وفيه أنه أجاز شعراً أُنشد ، وورد ذكره أيضاً في مقتل المتنبي وأنه قتل معه . فلو فرضنا أنه قتل وهو في الثلاثين من عمره أو أقل لكان هذا التاريخ الذي حدّدناه لزواج المتنبي هو أقرب إلى الصواب إن شاء الله

وقد كان قرب المتنبي من جدّته الحازمة في الكوفة ، وتزوّده من العلم هناك ، مما ملأه حكمة جديدة بدأت تستعلن في شعره الذي قاله بعد . هذا على انه — مقامَه بالكوفة — لم يمدح أحداً ولم يتعرض بشعره لمعروف ولا لمنكر، على كثرة الاحداث التي كانت في تلك السنوات ، وعلى شدة ما لقي من العنت وهو بين أظهر أعدائه أو أصحاب ثأره ، ولكنه كان متململاً من مقامه ، مضطرباً في عيشه . وكان أثر هذا التململ والاضطراب في نفسه المستحصدة القادرة على الكتمان والاتزان في بعض الاحايين — أن طفق يولّد هذا الشاعر معاني نفسهِ ويختار لها ألفاظها وينتقي عباراتها ، مدقّقاً ممحصاً مفتّشاً عن الكلام الموجز الذي يستطيع أن يضمر فيه ما يجيش في صدره ، ويعتلج في نفسه ، حتى استوى على طريقةٍ ممتدة من الاصول الشعرية التي بيناها في أول كلامنا إلى الغاية التي كان يرمي اليها ، ولذلك اختلف نهجه في الشعر الذي قاله بعد مخرجه من الكوفة عن نهجه الاول اختلافاً بيّناً، ولكنه لم ينقطع من الاستمداد من الاصل الاول الذي هو الطبيعة القائمة في النفس، والتي لا تتغير في أصلها وإن تغيرت في الصورة والصَّوغ ومذهب البلاغة والافصاح

هذا وما من شكّ في أن الرواية عن هذه الفترة من حياة الرجل لم تأتنا بحديث يعلم به من امر ابي الطيب كثير ولا قليل . الاّ ما حدثناك به من انه كان يحضر مجالس الناشىء بالمسجد الجامع

بالكوفة سنة ٣٢٥ ليسمع منه شعره ويكتبه مع الكاتبين وكان لم يعرف بعد ولم يلقب بالمتنبي . الاَّ ان صاحبنا في رثاء جدته سنة ٣٣٥ قد افصح عن السبب في فراقه الكوفة في هذه المرة بعض الافصاح ، وعرّض باشياء كانت وقعت له هناك . يقول[1]

ولو لم تكوني بنت اكرم والدٍ لكان أباكِ الضخمَ كونُكِ لي امَّا
لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدتْ مني لانفهمُ رغما
(تغرّبَ لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الاَّ لخالقه حكما)
(ولا سالكاً الاَّ فؤاد عجاجةٍ ولا واجداً الاَّ لمكرمةٍ طعما)
(يقولون لي: ما أنت في كل بلدة!! وما تبتغي ؟ما أبتغي جلَّ أن يُسمَى)
كأن بنيهم عالمون بأنني[2] جلوبٌ اليهم من معادنه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجدّ والفهما
(ولكنني مستنصرٌ بذُبابه ومرتكبٌ في كل حالٍ به الغشما)
(وجاعله يوم اللقاء تحيتي وإلاَّ فلست السيد البطل القرْما)
إذا فلَّ عزمي عن مدًى خوف بعده فأبعد شيءٍ ممكنٌ لم يجد عزما
(وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما)
(كذا أنا يادنيا إذا شئت فاذهبي ويانفس زيدي في كرائهها قُدْما)
(فلا عبرت بي ساعةٌ لا تعزّني ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلما)

قد بينا لك أولاً أن أبا الطيب بقوله لجدته في القصيدة « هبيني أخذت الثأر فيك من العدى » وقوله : « لئن لذ يوم الشامتين بيومها » — إنما أراد (بالعدى) و (الشامتين) العلويين الذين أخفوا عنه نسبه — فيما ذهبنا اليه — ومنعوه الانتماء للدوحة العلوية المباركة ، فإذا تقرر عندك هذا وارتضيته ، وجدت أن قوله بعد ذلك

(تغرّب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الاَّ لخالقه حكما)

يدلُّ على ان هؤلاء العدى والشامتين بجدّته ، والذين منعوه من دخول الكوفة حين قصدها قبل وفاة جدته سنة ٣٣٥ — كانوا في تلك السنة التي فارق فيها الكوفة (٣٢٥) أو أوائل سنة ٣٢٦ قد أرادوه على خطّة خسف فأبى ابو الطيب ان يركبها ، وشمخ بنفسه ان يذلّ لاحد

(١) قد آثرنا ان ننقل لك الابيات جميعاً في نظمها لتقرأها متدبراً فن نفس الشاعر وشعره ، الذي استنبطنا منه ما اردناه هنا ، وفي نسبه هناك ، ما يتخذ دليلاً على صحة ما نقول به

(٢) قوله (كأن بنيهم) دليل على أنه أراد قوماً باعيانهم ، ولولا ذلك لقال (كأن بنيها) برجع الضمير الى الدنيا يعني الناس جميعاً كما قال بعد (كذا أنا يا دنيا) وهذا أسلوب من اساليب ابي الطيب في الاشارة الى اغراضه التي في نفسه والتي لا يريد التصريح بها ، وانما يجعلها اشارة لمن يريد افهامهم غرضه

من الناس ، او ان يقبل له حكماً يريد ان يجريه عليه وفيه المذلّة والهوان وإهدار الكرامة ، واسقاط الفتوّة والمروءة ، وآثر ان يخرج عن الكوفة مراغماً لهم . مفضلاً آلام الغربة على الهوان في الوطن

وبيّن من الشعر انهم كانوا يستضعفونه ، ويسفهون رأيه في ركوب الفلوات ، وتنقله بين البلدان بقولهم «ما انت في كل بلدة؟ » وقولهم « ما تبتغي؟ » بما تريد من فراق الكوفة ، تذرع الارض من بلد الى بلد . فكان جوابه ان ما يبتغيه اجل من ان يسميه لهم ، ثم استدرك على ذلك فزعم انهم انما يسألونه ويلحون عليه في استخراج ذات نفسه ومضمرها خوفهم منه . وانهم يعلمون أنه سيأتيهم بالذّبح الذي يترك صغارهم ايتاماً ونساءهم ثكالى . وقد ابلغ في انذاره لهم بعد كما ترى في الابيات ، ورهّبهم بما يكون منه ، ودكّرهم بقومه ومحتدهم وحريتهم وقلة مبالاتهم بالمهالك طبيعة قائمة فيهم حتى ان نفوسهم لتكاد تكره البقاء في ابدانهم لما فيهم من الحرية والشرف

ثم افصح المتنبي عن الذي ارادوه به في قوله

فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تُعزني ولا صحبتي مهجةٌ تقبل الظُلْما

فكأن الذي كان منهم كان وضعاً من عزة نفسه ومهانة لها ، وانهم كانوا يريدون ان ينزلوا به ظلماً بيّناً لا يقرّ عليه حرٌّ ، وعندنا انهم ارادوا ان يرضوه برضيخة من المال تكون عليهم كالجزية له يأخذها منهم كلما حال الحول ، على ان يبقى بالكوفة ، ويرضى بما يريدون منه غير مخالف لهم ولا مظهر لهم عداوة ، وان شاء ان يمدحهم بشعره فعل ، وله عليهم ان يعطوه في مديحه لهم مثل الذي يحبى به من غيرهم اذا مدحه ، وكبر على أبي الطيب ان يرشى بالمال حتى يسكت عنهم ، ويقرّ على ظلمهم له وضيمهم اياه ، وفي الارض سعة ومراد لمن شاء ان يكون عزيزاً مكرّماً

وخرج صاحبنا من الكوفة قاصداً الشام مرّة اخرى ، ونزل على عليّ بن ابراهيم التنوخي

واحتمال الأذى — ورؤية جانيـ
ـه — غذاء تَضْوَى به الاجسامُ
ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ
رُبَّ عيش أخفُّ منه الحِمام
من يَهُنْ يسهل الهوان عليه
ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ
أقراراً ألذُّ فوق شرارٍ؟!
ومَراماً أبغي وظلمي يُرامُ؟!

كان شعر ابي الطيب في اول امره كما حدثناك قد اختلط بألفاظ لا تستقر في الشعر، وقعت اليه من ألفاظ المتكلمين والمتفاسفة وأصحاب المنطق وأهل الجدل في الملل والنحل وغير ذلك، وكان اسلوبه يجري على طريقة هؤلاء في التوجيه والتقسيم؛ ثم في توليد المعاني الشعرية على طريقة اهل العصر في توليد معاني الجدل واللجاج لارادة الفلج في الخصومة لا تقرير الحق في القضاء والحكومة، وأتاه ذلك من قوة حافظته وكثرة دوران هذه العلوم في فكره، واشتغاله بالنظر فيها نظر المحقق المفكر، الا ان تفكيره لم يكن محضاً لهذه العلوم، بل كان في عقله الذي يفكر به؛ فكر الشاعر الذي يتسع بالعلوم ويمد بينها وبين طبيعته الشعرية اسباباً من الخيال. ولما عاد الى الكوفة سنة ٣٢٣ وهي مقر كثير من أئمة العلم والادب والشعر. ولزم مجالسهم سنتين او أشفَّ قليلاً، عملت هذه المجالس في تهذيب علمه الذي وقع عليه في الصغر، وعملتْ طبيعته الشعرية في هذه العلوم عملها، وكان له من الفراغ ما يكفيه للتفكير والاتساع في النظر والترجيح والتعديل بين علمه وبين طبيعته، ثم كان له من توقد ذهنه، واشتمال قوى نفسه الملتهبة بأحقادها وآلامها، ما يحمله على استخراج روائع المعاني التي توافق همه وألمه، وتوليد الآيات البيانية التي تتصل بما في قلبه وفكره، واجتباء العبارة التي تكون في ايجازها بمنزلة الرمز لما يدور في نفسه في المعاني المطولة

والآن وقد رجع صاحبنا الى الشام في جوار علي بن ابراهيم التنوخي سنة ٣٢٦ كان اول ما قال هذا الشعرُ الذي اوجزنا لك في صفته، دالا على مذهبه الجديد، وعلى تدرُّج حالته النفسية تدرجاً متوالياً متفاسحاً... يقول

أفكر في معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادي
(زعيم للقنا الخطي عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي)
(الى كم ذا التخلف والتواني ! وكم هذا التمادي في التمادي ! !)
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد ! !
وما ماضي الشباب بمسترد ولا يوم يمر بمستعاد
متى لحظت بياض الشيب عيني فقد وجدته منها في السواد
متى ما ازددت من بعد التناهي فقد وقع انتقاصي في ازديادي

ثم يقول . . . بعد

(وما الغضب الطريف وإن تقوّى بمنتصف من الكرم التلاد)
(فلا تغررك ألسنة موالٍ تقلبهن أفئدة أعادي)
(وكن كالموت لا يرثي لباكٍ بكى منه ، ويروى وهو صادي)
فإن الجرح ينفر(١) بعد حين إذا كان البناء على فساد
وإن الماء يجري من جماد وإن النار تخرج من زناد

. . . .

(أشرت أبا الحسين بمدح قوم نزلت بهم فسرت بغير زاد)
وظنوني مدحتهم قديماً وأنت بما مدحتهم مرادي
(وإني عنك بعد غد لغاد وقلبي عن فنائك غير غاد)
محبك حيثما اتجهت ركابي وضيفك حيث كنت من البلاد

كان شعر صاحبنا في هذا الباب من القول — الى ما قبل هذه التعهدات شعراً قريباً لم تستخرجه فكرة عليمة مستوعبة لاحداث الزمن ، ولا نظرة مجربة نافذة في ضمير أخلاق الناس، ولم يكن يزيد على الدلالة على ما في نفس الفتى من السمو ، وما في قلبه من كرم العنصر ، وما تبدي طبيعته الفتية من أصول الرجولة المستحكمة في طبعه وغريزته ، وما يملأ صدره من أسباب الحقد وطلب الثأر ، وما يكشف عن نيته في إحداث حدث عظيم يجلب فيه على أعدائه بخيله وسيوفه حتى يديل لها من (دولة الخدم) الذين ملكوا على الناس أمرهم، وصرفوهم في أهوائهم ، فذلك قوله في صباه . . . . (٢)

(١) نفر الجرح بالنون (كمنع) اذا انفجر وسال منه الدم يقال جرح نغار على المبالغة . وفي رواية (ينفر) بالفاء يراد بها يتورم . والذي اثبتناه أجود معنى

(٢) تعمدنا بجمع هذا الشعر هنا ان تنظر فيه بما يغنينا عن الاطالة في تفصيل الفروق بينه وبين شعره الذي قاله بعد خروجه من الكوفة سنة ٣٢٦

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح أذهب للغيـظ، وأشفى لغل صدر الحقود
فاطلب العز في لظى، ودع الذل ولو كان في جنان الخلود
يقتل العاجز الجبان وقد يعجـز عن قطع بخنق المولود
ويوقى الفتى المِخَشّ وقد خوّ ض في ماء لبّة الصنديد

وقوله

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى تساوَ المحايي عنده والمقاتلُ
ألا ليست الحاجات الا نفوسكم وليس لنا الا السيوف وسائل
فما وردت روح امرىء روحه له ولا صدرت عن باخل وهو باخل
غثاثة عيشي ان تغث كرامتي وليس بغث ان تغث المآكل

وقوله

ليس التعلل بالآمال من أربي ولا القناعة بالاقلال من شيمي
ولا اظن بنات الدهر تتركني حتى تسد عليها طرقها هممي
لم الليالي التي أخنت على جدتي برقة الحال، واعذرني ولا تلم
أرى أناساً، ومحصولي على غنم، وذكر جود، ومحصولي على الكلم
ورب مال فقيراً من مروءته لم يثر منها كما اثرى من العدم

الى آخر القصيدة. وقد مضت منها ابيات

فتدبر النهجين في الشعر فضل تدبر تجد ما رسمنا لك واضحاً بيّناً، وتر أثر هذه الرحلة الى الكوفة على ما بينا لك آنفاً مستعاناً غير خاف. فقد بدأ صاحبنا يفكّر بما اكتسب من تجربة وما أفاد من علم، ويدس ما ألم به من الاحداث في شعره منتزعاً للمثل، وضارباً ببلاغته في مفصل الحكمة، ونافذاً بألفاظه في مضمر اخلاق الناس حتى يكشف لك عنها الغطاء. فانظر اين قوله اولاً «اری اناساً ومحصولي على غنم ..» من قوله بعد

فلا تغررك ألسنة موالٍ تقلبهن أفئدة أعادي

فان الموضع الذي اخذ منه المعنيين واحد، ولكنه كان في الاول غسيلاً محصوراً غير شامل، وكان في الآخر منهما حكيماً شاملاً متراميًا نافذاً الى اصل طبيعة الكذب في هؤلاء الناس ممتدة من ضمائرهم الى ألسنتهم، والسر كل السر في نسبة تحريك اللسان الذي يظهر المودة والولاء

الى الفؤاد الذي يضمر البغي والعدوان والكذب والنفاق (١)

هذا، وقد بدأ ايضاً يصف في شعره ما وصلت اليه الامة العربية، اذ ملكتها الموالي من الترك والديلم وغيرهم ممن كانوا اول امرهم بمنزلة العبيد، وذلك مما استفاده في رحلته الى الكوفة، ومارآه في بلاد العربية. ولم يخل هذا مما يدور في نفسه، وما وقع له من المصائب والمكايد والحسد... يقول وهو يمدح علي بن ابراهيم التنوخي ايضا حين نزل به سنة ٣٢٦ او كان ذلك في اول سنة ٣٢٧

(وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم)
(بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم)
يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم
اني وإن لمت حاسديّ فما انكر أني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم له على كل هامة قدم
يهابه أبسأ الرجال به وتتقي حد سيفه البهم
(كفانيَ الذمَّ انني رجل اكرم مال ملكته الكرم)
يجنى الغنى للئام — لو عقلوا - ما ليس يجنى عليهم العدم
(هم لأموالهم ولسن لهم والعار يبقى، والجرح يلتئم)

ثم قوله في سنة ٣٢٧ في مدح المغيث بن علي بن بشر العجلي

أذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

الابيات .... وقوله له ايضاً

فؤاد ما تسليه المدام (وعمر مثل ما تهب اللئام)
(ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام)
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
(أرانب، غير انهم ملوك، مفتحة عيونهم، نيام)
(بأجسام يحر القتل فيها وما أقرانها الا الطعام)

وأبياتاً اخرى ....

وكانت حكمة المتنبي وبلاغته في هذه الفترة آتية من قبل نظره في امر نفسه ودخيلتها وخاصتها، وما يحيط بها وما يؤثر فيها، ويثير من كوامنها وعواطفها، وثبتت فكرته على ذلك. وطفق يقلب الامور والاحداث في الدنيا كلها على امتداد نفسه واتساع قلبه وهمته، فانفجر بين جنبيه ينبوع الكلام المتدفق، وفيه من قوته ورجولته، ومن بيانه وفصاحته، ومن ثأره وعداوته، ومن تهكمه

(١) سيكون تفسير هذه الاسرار البيانية واستخلاص حالته النفسية منها في كتابنا عن المتنبي ان شاء الله ووفق

وسخريته . وخرج مديحه ايضاً عن نهجه الاول ، فصار أدق وأبلغ في أداء المعاني ، وتصوير الفكرة باللفظ المقارب ، وانقلب من مديح معروف مقلد ضعيف الى مديح لا يراد به الممدوح خاصة ، وانما يريد به أفكاره هو فيمن يحق له أن يمدحهم ، فوقع في كلامه المبالغة . والمبالغة في شعر أبي الطيب ليست كالمبالغة في شعر غيره من الشعراء ، فهو اذا ذكر الممدوح وبالغ في صفته إنما يعطي الشعر حق نفسه من أفكاره في عظمة الرجال الذين تمدحهم في زمنه ، وكان يود أن يمدحهم بهذا الشعر ويحفظ لهم فيه صورةً حيَّةً باللفظ الناطق البليغ

فأنت ترى أن نبوغ المتنبي إنما بدأ يتجلى ويتكشف حين أرغمته همامه نفسه على استيعاب ما يحس به من العواطف المتباعدة والمتقاربة ، فكانت دراسة قلبه — ومعرفة دقائق ما يحزُّ فيه من الآلام ثم المعاني التي تتولد من هذه الآلام — أصلاً من الاصول العظيمة في نبوغه ، ثم في طبع شعره بطابع لا يخفى على ناظر او متأمل ، ثم في هديه الى أن الشعر لا يكون شعراً الاّ حين يروى من معاني القلب ويستقي منها . ولهذا كانت إجادة المتنبي بالغةً أقصى غاياتها في شعره الذي قاله في تصوير رجال الحرب ، أو في رسم صور الحرب ، أو فيما كشف به عن ضميره الذي كان لجومة الوغى بغبارها ودمائها وقتلاها ، وقعقعة سلاحها ، وتداوي أصواتها ، والتماع أسنتها وحرابها . واستمر نبوغه أو أكثره على هذا الباب حتى كان اتصاله بسيف الدولة ، فبدأت هناك في قلبه معانٍ أُخرى [1] تماسحت بها نفسه ورحبت فامتدت بلاغته وانبسط نبوغه على الحياة كلها فأحدثها ثم أعطى حكمةً باقية وبياناً خالداً ، . . على أن هذه الحكمة وهذا البيان لم ينقطع استمدادها من نفسه . وما رزىء به في حياته ، وما اصابه من أحداثٍ وأهوال . ولو تدبرت لوجدت لكل حكمة في شعره اصلاً تاريخيًّا في قلب هذا الشاعر الذي لم يكن قلبه ينسى شيئاً أو يفاته . وكأني به — وهو يقول البيت السائر والمثل الشرود — كانت تتراءى تحت عينيه ، ويدوّي في مسمعه كل ما مر به مما أثر فيه ، فيقول البيت وفي كل لفظة منه سببٌ ممدود إلى ذكرى يذكرها او فكرة يتخيلها . . . . . وانضرب لك مثلاً قريباً نوجزه وعليك بسطه ، ففي الابيات التي وضعناها على رأس هذه الكلمة يقول . . .

« واحتمال الاذى — ورؤيةُ جانيـــهِ — غذاءٌ تضوَى به الأجسامُ »

فأين نجد الاصل التاريخي في هذا البيت؟ اصل المعنى الذي اراده الشاعر هو في قوله «واحتمال الاذى غذاء تضوى به الاجسام » ، ولو كان غير المتنبي لوقف عند هذا فهو تمام وكفاية ، ولكن المتنبي الذي (لم يكن قلبه ينسى شيئاً او يفاته)، والذي (كانت تتراءى تحت عينيه، ويدوّي في مسمعه كل ما مرّ به مما أثر فيه)، والذي كان قد احتمل اذًى كثيراً من أهل وطنه بالكوفة كما

(١) هي معاني المرأة التي احبها ! !

سرٌ بك ، والذي كان رجع الى الكوفة ، وحمل نفسه على معاشرة من آذوه وهضموه حقه ، وأقام بينهم مرغماً براغم في كل خطرة بعينه وبخياله — زاد في المعنى وتممه ، واثبت فيه قلبه وعواطفه بقوله «ورؤية جانبه» فهذه الجملة المعطوفة المعترضة هي توقيع المتنبي على البيت . وهناك سر آخر في تسميته (احتمال الاذى) غذاءً ليس هذا موضع تفصيله[1] ، وعلى هذا فقس بقية شعره وحكمته

وبعد . فقد شغلنا هذا عن تحرير القول في رحلاته ومدخله الشام ... وقد روينا لك في اول هذا الباب ان المتنبي نزل الشام على علي بن ابراهيم التنوخي ، وأنشدناك ابياتاً من قصيدته التي مدحه بها وفيها يقول

(أشرت أبا الحسين بمدح قوم ... نزلت بهم فسرت بغير زاد)

وقد اختلفوا في قوله (أشرت) أهي من الاشارة عليه بمدحهم فتكون (أشَرْتَ) . او من الأشَرَ وهو الفرح والطرب فتكون (أشِرتُ) بإسناد الفرح الى نفسه . والرواية الاولى عندنا أرجح . والظاهر ان المتنبي لما قَدِم على عليّ هذا باللاذقية أشار عليه بأن ينحدر الى (طبرية) ليمدح رجلا — لعله من العلويين او اشياعهم — فمدحه مرغماً ولم يظفر منه بطائل ، فعاد الى عليّ من فوره وأنشده هذه القصيدة ، ثم قصيدة اخرى وصرح فيها بذكر بحيرة طبرية ، وما لقي هناك من الادعياء (وهم الذين يدعون النسب الى علي رضوان الله عليه)... فيقول لعليّ ... (والبحيرة التي يذكرها هي بحيرة طبرية المشهورة)

لولاك لم اترك البحيرةَ ، والـ ... غور دفيء ، وماؤها شبم
والموج مثل الفحول مزبدة ... .

. . . .

فهي كماويَّة مطوَّقة ... جُرِّدَ عنها غشاؤها الأُدُمْ
يشينها جريها على بلدٍ ... تشينه (الادعياء) و(القزَم)
أبا الحسين استمع فمدحكم ... بالفعل — قبل الكلام — منتظم

ووصف البحيرة وصفاً رائعاً لم يدع لها عيباً الا عيبها انها تجري على ارضٍ تطؤها اقدام هؤلاء الادعياء من العلويين واللئام ممن ذكرهم في قوله (القزَم) . ولو رجعت قليلاً الى ما كنا حدثناك من إرصاد العلويين له بكفر عاقب (وهي بقرب طبرية) في سنة ٣٣٦ بعد ذلك ، وجدت ان الذين قصدهم بقوله « اشرت أبا الحسين بمدح قوم » هم من العلويين ايضاً ، ولعلهم هم الذين

---

[1] (١) اذا قرأت المتنبي على هذا الاصل لم تجد الشاعر الذي يذكره الناس ملء الافواه ، بل تجد شاعراً فذًّا لم يرزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . وسنفرد في كتابنا باباً كبيراً لبيان هذا الاصل في شعر المتنبي ، وتفسير اكثر شعره على هذا المذهب

انتهزوا الفرصة حين نزل عندهم ليقتلوه ففاتهم برحلته الى الرملة في جوار ابي محمد بن طغج

وهذا الكيد الذي لقيه ببحيرة طبرية في سنة ٣٢٦ ، وما قاساه من مدح الذين اشار عليه بمدحهم عليّ بن ابراهيم ، زلزل نفس الشاعر وهزه هزة رابية قذفت بحممه الشعرية البركانية التي رويناها لك اولاً . ونجد فيه اثر ذلك بيناً كقوله

اني وان لمت حاسدي فما انكر اني عقوبة لهمُ
وكيف لا يحسد امرؤٌ علم (له على كل هامة قدمُ)

وبيّنٌ ان علي بن ابراهيم لم يكن يطلب من شاعر ان يمدحه ويقول في مدحه له يصف نفسه بأن له « على كل هامة قدم » الا ان يعلم ما دفع الشاعر الى اخراج هذا القول . وقد تحمل هذا عليّ لابي الطيب إذ كان هو الذي اشار عليه بمدح عدو من اعدائه، وزيّن له الرحلة اليه . وهو يعلم ما في نفس ابي الطيب لنوم هذا الممدوح او هؤلاء الممدوحين . وبقي ابو الطيب قليلاً في جوار علي التنوخي ومدحه ثم قال له في مدحه يودعه ويذكر نيته في الفراق

واني عنك (بعد غد لغاد) وقلبي عن فنائك غير غادِ
محبك حيثما اتجهت ركابي وضيفك حيث كنت (من البلاد)

وخرج من اللاذقية قاصداً حلب ولكنه لم يبق بها طويلاً بل قصد قصْدَ انطاكية حين نزلها المغيث بن علي بن بشر العجلي فمدحه وذلك حيث يقول له

لما اقمت (بأنطاكية) اختلفت اليّ بالخبر الركبان في حلبَا
فسرت نحوك لا الوي على أحد أحثُّ راحلتيَّ الفقر والادبَا
أذاقني زمني بلوى شرقت بها . . . .

وكان ما لقيه ابو الطيب بطبرية لا يزال يهد منه ، ويعتلج في قلبه وصدره ، فكان شعره في هذه الفترة شعر الثائر المفكر المتأمل ، وقد كشف عن ذلك في قوله مثلاً

فالموت أعذر لي ، والصبر أجمل بي ، والبر أوسع ، والدنيا لمن غلبَا

وفي قوله (والبرُّ أوسع) سرٌّ تقلقله بين بلاد كثيرة في فترةٍ وجيزة ، فانه كان يريد أن ينال نيلاً عظيماً بكثرة التجوال . حتى اذا ما جمع ما يريد استطاع ان يفعل ما قال وما أنذر بقوله « والدنيا لمن غلبا »...وكانت قصيدته الثانية في مدح المغيث بن بشر أروع من الاولى، وأكثر إفصاحاً عن نفسية الشاعر في تلك الفترة ، فانه كان قد هدأ واستجمَّ من وعثاء السفر ، ووجد الوقت كافياً ، والقول ذا سعةٍ ، فقال كاشفاً عن ضميره ، ومصرّحاً بآرائه في الابيات التي ذكرناها وأولها

فؤادٌ ما تسلّيه المدامُ (وعمرٌ مثل ما تهبُ اللئامُ)

وفي هذه القصيدة (غير الابيات التي مرت آنفاً) إشاراتٌ عجيبةٌ الى ما في نفسه كقوله في المغيث

تلذُّ له المروءة وهي تؤذي ومن بعشق يلذُّ له الغرامُ

فقوله (وهي تؤذي) هو توقيع المتنبي على البيت كما ذكرنا ، إذ كان الرجل لا يرى في عصره مروءة الا وقد احتوشتها اللئام بالسوء من القول والفعل ، ويخص نفسه بذلك إذ كان هو صاحب المروءة التي لقي بها وبفعلها أذى كثيراً من أعدائه والحاسديه والناظرين اليه وكقوله أيضاً

وقبض نواله شرفٌ وعزٌ (وقبض نوال بعض القوم ذامُ)

فهو يغرق بهذا الشطر الاخير من أرادوا أن ينيلوه نيلا فعفّ وأبى ، وآثر الفقر على أن يقبل من نوالهم شيئاً كما مرَّ بك فيما فرضناه في مسألة دخوله الكوفة في الباب السابق

ثم رحل المغيث عن أنطاكية لتوّه فانه لم يكن من اهلها -- كما قال --

وليست من مواطنه ولكن يمر بها كما مرَّ الغمامُ

فالتفت أبو الطيب فلم يجد من يمدحه الا القاضي ابا الفرج احمد بن الحسين المالكي ثم عليّ ابن منصور الحاجب وعمر بن سليمان الشرابيّ -- وهو يومئذ يتولى الفداء بين الروم والعرب -- وليس في مدحه لهم شيء يذكر مما يدل على أن الرجل كان قد ملّ فهو يقول ليكتسب ما يقوته ويفوت أهله ثم ضاق بهم ذرعاً ، وضاق ذرعاً بما يكاد به ، فعزم الرحلة إلى حمص ولبنان فمر في طريقه بالفراديس من أرض قنسرين وهي التي فيها (حمص) فسمع زئير الاسد فقال

أجارك يا أسدَ الفراديس مكرمُ ؟ فتسكن نفسي ، أم مُهانٌ فمسلمُ)
(ورائي وقدامي عداةٌ كثيرةٌ أحاذر من لصٍّ، ومنك ، ومنهمُ
(فهل لك في حلفي على ما أريده فاني بأسباب المعيشة أعلمُ)
إذاً لأتاكِ الرزقَ من كلّ وجهةٍ وأثريتِ مما تغنمين وأغنمُ

وفي خطاب ابي الطيب للاسد في هذه الابيات يتجلى كل ضميره ، وما فيه من آثار العداوة ، وما فيه من المطالب والاماني ، وهي تدل دلالة بينة على ان الرجل كان قد ملّ من مدحهم ، وأراد ان يجد منفذاً ينفذ منه الى تحقيق آماله وآرابه في إدراك ثأره من عداته ، واصلاح ما أفسد الحكم القائم في البلاد العربية ، وكان يودُّ ان يلتقي الرجل الذي يعينه ويستعين به على أغراضه ويكشف له عن ضمير نفسه . فكان مدحه هو المقدمة للاتصال والاختبار ان يجد عند احد ما يؤمل ، فمدح في طريقه الانطاكي عبد الرحمن بن المبارك ، ولكنه لم يجد لديه شيئاً ، فقصد الى لبنان في جوار الكاتب ابي علي هرون بن عبد العزيز الاوراجي وبقي عنده ومدحه مدحاً عظيماً ولكن الرجل لم يكن عند ظن ابي الطيب ، فأقام عنده يستجمّ من مشقة السفر في ربى لبنان ، يصطاد ويطرد ويغترف من ينبوع الجمال الذي أنبطه الله في تلك البلاد

ومهمهٍ جُبْتُه على قدمي
تعجز عنه العرامس الذلُلُ
بصارمي مرتدٍ ، بمخبرِ ر بي
مجتزئ ، بالظلام مشتملُ
إذا صديقٌ نكرتُ جانبه
لم تعيني في فراقه الحيلُ
في سعة الخافقين مضطربٌ
وفي بلادٍ من أختها بدَلُ

كان لهذا الاضطراب والملل الذي استشعره أبو الطيب في رحلاته في البلاد التي أوجزنا لك رسمها، اثر كبير في قلبه الموجع المتأمل . وكانت ايام الهدوء والراحة التي اهتبلها من غفلة الزمن قد جددت معاني قلبه ، ورمت في فؤاده بالحطب الذي يوقد به ناره ؛ فلما مل الاوراجي ولم يجد منه شيئاً ولا عزماً ؛ وكان ابو الحسين بدر بن عمار بن اسماعيل الاسدي قد صعد الى طبرية من قبل ابي بكر محمد بن رائق ليتولى حربها اي قيادة جيشها وحمايتها في سنة ٣٢٨ — وكان ابو الحسين فيما نظن عربياً ماضياً كالسيف ، حلو الشمائل سمحاً ، قريب المذهب من ابي الطيب في بغضاء العجم . لما انزلوه بالدولة من التفرقة والتمزيق — قصده ابو الطيب فرحاً كأنما وجد فيه ما أراد من الفكرة والسطوة والسلطان والقوة ، والرجولة الفذة التي ابدع ابو الطيب في صفتها بعد حين اعجب بها وفتن . وكانت اول قصيدة مدح بها تدل على ما ادرك ابا الطيب من الفرح والنشوة ، وانتظار الفرج على يديه

أحلماً نرى ، أم زماناً جديدا أم الخلق في شخص حيٍّ أُعيدا ؟!
تجلى لنا فأضأنا به كأنا نجومٌ لقين سعودا

فقد جمع ابو الطيب في هذين البيتين كل عاطفة ينبض بها قلبه ، وما استثارها من الفرح بهذا العربي الذي

تعرف في عينه حقائقه كأنه بالذكاء مكتحلُ
(أُشفق عند اتقاد فكرته — عليه منها — أخاف يشتعلُ)

وبقي المتنبي في جوار بدر وفي مجالسه (وفي عرينه) من أواخر سنة ٣٢٨ الى اوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا على التحقيق، وكأنه كان قد أحب الرجل حبًّا عظيماً لما يرى من مروءته وفتوته ورجولته . والظاهر ان بدراً قد وجد في نفسه لابي الطيب مثل ما وجد له ، فأعان ذلك الشاعرَ على ان يتفسح ويجيد ويبدع ، فان مدائحه لبدر تكاد تكون في الطبقة الثانية من جيد شعره، وفيها ابيات في الطبقة الاولى من الشعر العربي كله . وقد بدأ نهجه ايضاً يتغير ويتميز بالأمثال والآيات . ولا عجب ، فقد مارس الرجل الحياة بشاعريته ، وتلقف من الدنيا عبرها وحكمها ، وسمع منها وحفظ عنها ؛ وأعمل فيها ذهنه المتوقد ؛ وأرسلها إلى قلبه ليفتنها بناره ، وليصوغها في بيانه الذي وصفناه أولاً، ثم زين بها كلامه . ولم يكن طوال هذه السنين يدع استيعاب الكتب والآراء ونقدها ، والتبصر في أعقابها واطرافها. وأيضاً فانه كان قد بدأ يستحكم بفعل طبيعة الحياة البشرية فقد شارف الثلاثين، وامتلأ شبابه بقوته وفتوته ورجولته، وعبّ قلبه بآلامه وأحقاده وآماله التي كان يجاهد فيها ويسعى لها ليحققها . وأيضاً فإن الأمل في إدراك الطلب ، وبلوغ الامنية والظفر بها ، وقرب تحقق الفلج على الخصوم : مما يشعل القلب ويزيد النفس مضاءً ونفاذاً . وقد كان له ذلك كله في جوار صاحبه وحبيبه بدر بن عمار الاسدي العربي الذكي الفؤاد. فاتخذ أبو الطيب سبيله في الشعر عجبا ، واستقام على طريقته ، ومضى على غلوائه ، ورمى الدنيا بعينيْ نسرٍ كاسرٍ يتلو فريسته أن تفرَّ منه ، وزاده علوًّا ما وجد من حماية بدر له في طبرية موطن أعدائه كما حدثناك ، وأورى زناده مالقي من عداوة بعض الشعراء له ، وما سعى به الوشاة المفسدون لدى بدر بن عمار ليقلبوا عليه قلبه . ومثل أبي الطيب اذا أريد به الشرُّ انتفض انتفاضة الاسد اذا رامه عدوٌّ ، وفي انتفاضته تتقذّف قوته كلها على لسانه البليغ المبين ، وذلك لقوة أعصابه ، وشدة توترها ، وسرعة تأثرها مع ذلك

وفي جوار بدر بن عمار الاسديّ بدأت عصبية أبي الطيب للعرب والعربية تسفر عن وجهٍ ، وتجلو عن نفس الشاعر ظلماتٍ قد ضربت عليها حجابها ، وهيأت شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العدوي العربيّ هازمِ الروم ، وقامع الدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق . وبذلك كله كانت هذه الفترة من ترتيب الزمن في تكوين الشاعر الاكبر تطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذ الذي استودعه الله في قلب هذا الشاعر وفكره وأدبه وقوته وحقده وثأره والعصر الذي عاش بين اهله متأسّى بمعاشرتهم . . . او كما قال في آخر عمره يعني نفسه

وقتٌ يضيع ، وعمرٌ ... ليت مدته في غير أُمته من سالف الأُممِ ! !
أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرَّهم ... وأتيناه على الهرمِ ! !

وقوله يعني أهل عصره

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرَّغامُ
ودهرٌ ناسه ناسٌ صغارٌ وان كانت لهم جثث ضخامُ

أحب ابو الطيب بدرَ بن عمار، واحبه بدرٌ وا كرمه ورفعه اليه وعزّره، ونصره على اعدائه من العلويين او اشياعهم بطبرية وما جاورها ، ووجد كلاهما في صاحبه ماجاً يأوي اليه ، فقد كان ابو الطيب مهضوماً مطارداً . وكان قلبه ممتلئاً من آثار الظلم التي اوقعها جبابرة العصر بالعرب ، وكان فكره متتبعاً لدهاء دهاة السياسة الذي كانوا يعملون على قلب الدولة او تمزيق شملها بالشعوبية العجمية البغيضة المبغّضة اليه ، وكان يرمي ببصره فلا يجد العربيّ الذي يأوي اليه ، فان وجده فبينه وبينه أهوال . فلما وجد بدراً، ووجد في قلبه وفكره مثل الذي في قلبه وفكره ، توقّد الرجل الشاعر توقد النار المستعرة قد وجدت طعامها من الحطب

وبدأ يصف بدراً العربيّ الشجاع المحارب ، ويصف الحرب ، ويصف كل قوة او مثلاً من قوة، ويبدع في ذلك كله مستمداً من قلبه الجريء ، وخياله المتسامي الى أشراف السلطان والغلبة، حتى خرجت مدائحه في بدر آية في دقّة التصوير ، وسموّ المعنى، وشرف الغاية... يقول في صفة بدر

(هانَ على قلبه الزمان ، فما يَبين فيه غمٌّ ولا جذل)
يكاد من طاعة الحِمام له ، يقتل من ما دنا له الأجلُ
يكاد من صحة العزيمة ، ما يفعل قبل الفعال ينفعلُ
(تعرف في عينه حقائقه كأنه بالذكاء مكتحلُ)
(أُشفق — عند اتقاد فكرته — عليه منها ، أخاف يشتعلُ)
(أغرُّ — أعداؤه اذا سلموا بالهرب — استكبروا الذي فعلوا)
يقبلهم وجهَ كلّ سابحةٍ أربعها — قبل طرفها — تصلُ

. . . .

والطعن شزر، والارض واجفةٌ كانما في فؤادها وَهَلُ
قد صبغت خدّها الدماءُ كما يصبغ خدَّ الخريدة الخجلُ

. . . .

(يا بدرُ ، يا بحرُ ، يا غمامةُ ، يا ليثَ الشرى، يا حمامُ ، يا رجلُ
ان البنانَ الذي تقلّبه عندك ، في كل موضع مثلُ
(انك من معشر اذا وهبوا ما دون أعمارهم فقد بخلوا)
(قلوبهم ، في مضاء ما امتشقوا ، قاماتهم ، في تمام ما اعتقلوا)

(مثلك يا بدر لا يكون ، ولا تصلح ـ الا لمثلك ـ الدول)

ومن تدبر هذا النهج في المديح ، ورجع الى مدائحه الاولى ، ولم يخل فكره مما ذكرناه في اول هذا الباب ؛ وجد في هذا الشعر عاطفة الشاعر الذي عطفته على بدر ، وعرف ان هذا الشعر ليس مديحاً كالذي تلوكه الالسنة ، وينقده نقاد عصرنا هذا ؛ بل هو تصوير الرجولة وابرازها في ألفاظها الحية . وتفصيل مميزاتها عند الشاعر ؛ ووجد ايضاً صدقاً في ذلك كله ليس لشعر، ولا لشعر ابي الطيب نفسه فيما سبق من مدائحه . وهذا موضع للتدبُّر والتأمُّل ، فتدبّره وتأمله[1] ... وتأمل قوله « يا بدر، يا بحر . . . » فقد ناداه باسمه ثم بصفة صفة من بعض صفاته. فلما امد في الصفات الى كل غاية ، ووجد انها مما لا يفرغ منه ، ضمن كل المعاني التي في نفسه من صفة بدر في لفظ واحد هو قوله « يا رجل » فقد كانت كل صفات صاحبه هي الرجولة ، تحتها كل كريمة من معاني النفس من مروءة وهمة وشجاعة وسماحة وسناء

وكان المتنبي — في عشرته لابن عمار — قد بدأ يفسح في شعره مجالاً لاحساسه القويّ بالجمال القويّ المشبوب ، معبّراً عنه بالعبارة المرسلة من قلبه القوي المشبوب ؛ فكانت قصيدته في وصف الاسد والمقابلة بينه وبين بدر وأسديّته وقوته رائعة قليلة المثل ، مفردة من بين الشعر العالي ، اجتمعت له فيها الحكمة السهلة ، والبيان المشرق النديّ ، والخيال الجامع المقدّر المبدع ، والاختيار الصافي للصفات البارزة التي تجعلك تقرأ صفة ما يصف وكأنك تراه ماثلاً بين عينيك . ولا بأس من ان نورد لك بعض ذلك على سبيل المثل هنا ، اذ كانت هذه الطريقة الشعرية قد بدأت عند الرجل ثم استحكمت فيه حتى بلغت اقصى غاياتها من شعره الذي قاله في سيف الدولة بعدُ

قالوا . . . خرج بدر بن عمار الى اسد فهرب الاسد منه ، وكان قد خرج قبله الى اسد آخر - كان يقطع طريق السابلة ، ويلحق بهم اذى كثيراً — فهاجه عن بقرة افترسها بعد ان شبع وثقل ؛ فوثب الى كفل فرسه فأعجله عن استلال سيفه ، فبادره بالسوط يضربه حتى مرّغه في التراب ... فقال

أمعفّرَ الليث الهزَبْر بسوطه ! لمن ادّخرتَ الصارمَ المصقولاَ ؟
وقعتْ على الأردنّ منه بليّةٌ ، نُضِدتْ بها هام الرفاق تلولاَ
وردٌ ، اذا ورد البحيرة شارباً ، ورد الفرات زئيرُه والنيلاَ
(متخضّب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلاَ)

---

(١) ليس فيما بقي لدينا من (المقتطف) سعة حتى نشرح هذا ، فنسأل القارىء ان يعيننا بذكائه وفطنته وأدبه ، فان غمض عليه شيء ، فليراسلنا بعنواننا ، ليتسنى لنا أن نوفي أبا الطيب حقه في كتابنا ان شاء الله ونرضي القارىء بما يريد وبالله التوفيق

(ما قوبلت عيناه الاّ ظنّتا ... تحت الدجى نار الفريق حلولاَ)
(في وحدة الرهبان ، الاّ انه ... لا يعرف التحريم والتحليلا)
(يطأ الثرى مترفقاً ، من تيهه ، ... فكأنه آسٍ يجسُّ عليلاَ)
(ويردُّ عُفرته الى يافوخه ... حتى تصير لرأسه إكليلاَ)
(وتظنه مما يزمجر ، نفسهُ ... عنها — لشدة غيظه — مشغولاَ)
(قصرت مخافته الخطى ، فكأنما ... ركب الكميُّ جواده مشكولاَ)
(ألقى فريسته ، وبربر دونها ، ... وقربت قرباً خاله تطفيلاَ)
فتشابه الخلقان — في اقدامه — ... وتخالفا في بذلك المأكولاَ
(أسد يرى عضويه فيك كليهما : ... مَتْناً أزلَّ ، وساعداً مفتولاَ)

. . . .

(ما زال يجمع نفسه في زوره ... حتى حسبت العرض منه الطولاَ)
(ويدقُّ بالصدر الحجارَ ، كأنه ... يبغي الى ما في الحضيض سبيلا)
وكأنه غرَّته عينٌ ، فادَّنى ، ... لا يبصر الخطب الجليل جليلاَ
(أنف الكريم من الدنيَّة تاركٌ ... في عينه العدد الكثير قليلاَ)
(والعار مضاضٌ ، وليس بخائفٍ ... من حتفه ، من خاف مما قيلاَ)
(سبق التقاءكهُ بوثبة هاجمٍ ... لو لم تصادمه لجازك ميلاَ)
خذلته قوته ، وقد كافحته ... فاستنصر التسليم والتجديلاَ
قبضت منيته يديه وعنقه ... فكأنما صادفته مغلولاَ
سمع ابن عمته به ، وبحاله ، ... فنجا يهرول أمس منك مهولاَ
(وأمرُّ مما فر منه فراره ... وكقتله ان لا يموت قتيلاَ)
(تلفُ الذي اتخذ الجراءة خلَّةً ... وعظ الذي اتخذ الفرار خليلاَ)

فهذا شعر لو ذهبت أبينه وأفصله وأجلوه لما أعانتني (الوريقات) ولا وسعتني ، وفيما رسمته في طريق كلامي عن شاعرية الرجل كفايةٌ لو تدبرت . وقد أثبتنا لك كثيراً من القصيدة اللامية السالفة، ثم هذه في وصف الاسد، لان هاتين القصيدتين هما (نقطة الانقلاب) — كما يقولون — في شاعرية ابي الطيب من النهج الاول الى النهج الثاني الذي لزمه وسار في دربه ، وتميز به . ففي هاتين تجد ابا الطيب فتىً وكهلاً وشيخاً . ولو قستهما الى ما يأتي بعد من شعره لوجدت أن الرجل قد بدأ يستمر مريره بدءاً من هذه السنوات التي أقامها عند بدر بن عمار من سنة ٣٢٨ ، وفيهما أيضاً الاصول النفسية والشعرية والبيانية التي مددنا لك اطرافاً منها في ثنيات القول

ولا بدّ هنا من الاشارة الى موضع يكثر وروده في شعر ابي الطيب ، ذلك ان الرجل لاستحكام أصل الرجولة والمروءة والفتوة في نفسه غير مدّعٍ ولا متمثل . كان اذا رأى ما يخالف الرجولة ويحطّ منها ، اهتزّت نفسه واشمأزّ ، وأبدى ازدراءه واحتقاره ، فهو يحب من عدوه أن يستمسك بعروة الرجولة في اللقاء والهزيمة والنصر كما يحب ذلك من نفسه . . . فحين فرّ الاسد الثاني الذي ذكره من بدر بن عمار بعد هزيمة (ابن عمته)، استدعى ذلك احتقار أبي الطيب له ، فثارت رجولته كلها لهذا الفرار القبيح من اسدٍ هو الاسد ، فضمن شعره هذا المعنى من الازدراء والسخرية به حيث يقول

« سمع (ابن عمته) به وبحاله فنجا يهرْول أمس منك مهولا »
« وأمــرُّ مما فرَّ منه فراره وكقتله أن لا يموت قتيلا »

فمن ألوان السخرية والتهكم والازدراء لهذا الاسد الجبان ، انه حين وصف فراره جعله (هرولة)، والهرولة حالةٌ بين المشي والعدو، فهو من خوفه واضطرابه ترك المشي وأراد العدو، ولكن منعه الهلعُ ان يعدو فاصْطكّ فصار عدوه للفرار بنفسه لا هو من العدو ولا هو من المشي . ثم أبدى في البيت الثاني كل احتقاره له بقوله « وكقتله أن لا يموت قتيلا » فما يحسن بأسدٍ أن يفرّ وانما هما خطّتان : إما صبرٌ وظفرٌ وإما إقدامٌ وحتفٌ . فبذلك يثبت الاسد أنه أسدٌ لا خروفاً ولا نعامةً

ولنضرب لك مثلاً آخر في ذلك . ففي سنة ٣٤٢ أوقع سيف الدولة بالروم في موقعة (بطن هنريط) وكان الدمستق وولده يحاربان ، فجرح الدمستق ، وأصيب ولده في مقتل أشفى به على الموت ، وفرّ الدُّمستق تاركاً ولده في يد الموت،فلم يفت أبا الطيب حين ذكر هذه الموقعة أن يشير إلى هذه الحادثة ، وأن يدلّ على ازدرائه واحتقاره لهذا الدمستق الذليل الجبان الذي خلّف مهجته وولده للموت،فكان مما قال

لعلكَ يوماً يا دمستق عائدٌ فكم هاربٍ مما إليه يؤولُ
(نجوتَ باحدى مهجتك جريحة وخلّفت احدى مهجتيك تسيلُ)
(أتُسلم للخطيّة ابنك هارباً ؟ ! ويسكن في الدنيا اليك خليلُ) !!
(بوجهك ما أنساكه من مرشّةٍ نصيرك منها رنّةٌ وعويلُ)

وهذه الابيات غاية في الدلالة على استحكام الرجولة في طبع ابي الطيب ، وانه كان يؤذيه ويثيره ان لا يجد في الرجال صفة الرجولة — من اقدام وصبر ومروءة وشهامة وما الى ذلك من كريم الصفات، ولو كانْ اولئك الرجال من اعدائه . وأعد قراءة البيت الثالث فكأنك بأبي الطيب ينشده متعجباً مزدرياً ثم يبصق على صورة هذا الجبان الدمستق

ثم رجعنا الى ما كنا فيه : وجد ابو الطيب في بدر بن عمار (الرَّجلَ)، فاستقرَّ وهدأ حيناً وملأ نفسه من خلال القوة والفتوة والمروءة التي تحقق بها بدر. ولكن وقع في هدوئه واستقراره واقع هزهُ ونقضه ؛ وذلك انه وهو بطبرية — التي كان بها العلويون من اعدائه ، والذين ذكرهم فيما قدمناه لك في قوله في صفة البحيرة — بحيرة طبرية

« يشينها جريُها على بلدٍ تشينه (الادعياء) و(القزمُ) »

لم يفتأ يجد من عداوتهم له كيداً كثيراً . سعوا به لدى بدر بن عمار ، واغروا به الشعراء ليبطشوه بألسنتهم ؛ وكان هنالك رجل ممتّعٌ باحدى عينيه (أعور) يدعى ابن كرَّوس ، وكان قد اتصل ببدر ؛ وكان من أشد أعدائه عليه ؛ ولذلك قصده بالذكر من بينهم . ونحن وان لم نكن نعرف شيئاً عن هذا (الممتع) ابن كروس الا انه يخيل لنا انه كان من صنائع العلويين او الفاطميين ؛ صحب بدراً كالعين عليه ؛ ثم ليجعله ينحاز اليهم ان استطاع الى ذلك سبيلا — على عادتهم مع الامراء وغيرهم تمهيداً لقلب الخلافة من العباسية الى العلوية او الفاطمية

فلما كان ذلك ، دخل على فرح ابي الطيب ما ردَّه الى قلقه واضطرابه وغمومه وهمومه ، فعاد يذكر أحزانه ؛ ويقلب الرأي في الفراق اذ لم يجد عند بدر عضداً ينصرهُ نصرة المحب لحبيبه ، فيقول

كأن الحزن مشغوفٌ بقلبي فساعة هجرها يجد الوصالاَ
كذا الدنيا—على من كان قبلي— صروفٌ لم يدمن عليه حالاَ
(أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ تيقَّن عنه صاحبه انتقالاَ)
(ألفتُ ترحُّلي ، وجعلت أرضي قتودي والغريريَّ الجلالاَ)
(فما حاولت في أرض مقاماً ولا أزمعت عن أرض زوالاَ)
(على قلق كأن الريح تحتي أوجّهها جنوباً او شمالا)

ثم يقول بعد أبياتٍ يذكر مالقي من أعدائه من الشعراء

فيا ابن الطاعنين بكلّ لدنٍ . . . .
ويا ابن الضاربين — بكلّ عضبٍ من العرب — الاسافلَ والقِلالاَ
أرى المتشاعرين غرُوا بذمّي ، ومن ذا يحمد الداءَ العضالاَ ؟!
ومن يكُ ذافمٍ مرٍّ مريضٍ يجد مرًّا به الماءَ الزلالاَ
وقالوا : هل يبلّغك الثريَّا ؟ فقلت : نعم ، اذا شئتُ استفالاَ

فهو بهذه الابيات يعرض عليه ما يلاقي من الكيد ، ويستعديه بالبيت الاخير على نصرته على أعدائه . ولا ندري ما الذي كان يكادُ به ابو الطيب ، ولكن نظنّ انهم كانوا يتغامزون به وبشعره وما فيه من الغلوّ والطموح وما يرد في أثنائه من الوعيد للطغاة والملوك والاعداء ، والانذار لهم أن يصيبهم من قبله كلُّ مكروهٍ . والحقيقة ، ان هـذه المعاني في شعر ابي الطيب مما يستجلب التنبه لها ، والوقوف عندها ، فليس في العربية كلها شاعرٌ قد كثر ذلك في شعره كما كثر في شعر ابي الطيب ، بل أنت تقلّب دواوين الشعراء جميعاً فلا تكاد تجد فيها هذه المعاني في الانذار والوعيد والتربّص ، وخاصة في المديح الذي يراد به عطف القلوب لاستخراج مكنونها ، وإلانة الايدي لقبض نوالها . وهذه المعاني مما يعكس على الشعراء مرادهم إن راموه وتعاطوه في اشعارهم . أما ابو الطيب فقد جعلها عمود شعره غير مبالٍ ولا حافلٍ . فمن هذه الظاهرة في شعره — نعني اعتماده في كثير منه على الانذار والوعيد — بدأ اعداؤه في جوار بدر يسمونه (المتنبي) ويغيظونه بذلك ، ويعنون أنه يتشبه بالانبياء اذ كان عمود نبوّتهم هو الانذار والوعيد أيضاً وهو قد جعل بنيان شعره على هذين ، ولعلّ هذا هو المراد بقوله « أرى المتشاعرين غروا (بذمي) » فهذا ذمه عندهم كما ترى

واشتدّ هذا الكيد على ابي الطيب حتى حمله على فراقِ بدر إذ (نكر جانبه) حين لم يجد عنده كل ما أراد ، ووجده يسمع للوشاة ويصغيهم أُذنه . وكان آخر ما لقي ابو الطيب من ذلك حين سار بدرٌ الى الساحل (ساحل طبرية) حين أضيف عمله إلى عمله بطبرية ، وكان ابو الطيب قد تخلّف عن المسير معه ، فانتهز ذلك الاعور ابن كروّس فكتب إلى بدرٍ يقول له « إن أبا الطيب إنما تخلّف عنك رغبةً بنفسه عن المسير معك » . وبلغ ذلك أبا الطيب فثارت نفسه وعزم الرحيل والفراق ، ولكنه أجل ذلك حتى يعود بدرٌ ليعرف ما عنده ، والظاهر أن بدراً كان قد حمل في نفسه شيئاً من آثار هذه السعايات . فلما عاد الى طبرية ولقيه أبو الطيب فطن لما يدور في نفس بدر ، وخاف ان يخذله فاعتمد الرحلة وطي الارض ، ولذلك كانت آخر قصيدة مقصّدة مدح بها بدراً بيّنة الدلالة على اضطراب نفسه وقلقه وعزمه هذا فهو يقول فيها

« أنكرت طارقة الحوادث مرة ثم اعترفت لها فصارت ديدنا)

وقطعتُ في الدنيا الفلا ، وركائبي فيها ، ووقتيَّ الضحى والموهنا

وظهر فيها ايضاً خوفه ان يسلمه بدر الى اعدائه ، فيرصدوا له ويفتكوا به على غرة ، فصرح لبدر بذلك حيث يقول يذكر امر تخافه عنه ، ثم مخاوفه ، ثم ينذره

فطن الفؤاد لما أتيتُ الى النوى ولما تركتُ مخافة ان تفطنا

اضحى فراقك لي عليه عقوبة ليس الذي قاسيت منه هينّا
فاغفر فدًى لك واحبني من بعدها لتخصّني بعطية منها (أنا)
(وانه المشير عليك فيَّ بضلة فالحر ممتحن بأولاد الزنا)
(وإذا الفتى طرح الكلام معرضاً في مجلس أخذ الكلامَ اللذْ عنى)
(ومكايد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بئس المقتنى)
لعنت مقارنة اللئيم، فإنها ضيف يجر من الندامة ضيفنا
(غضب الحسود إذا لقيتك راضياً رزءٌ أخف عليَّ من أن يوزنا)

ثم بقي مع بدر وهو يضمر في نفسه فراقه، فكان يتتبع مرضاته في كثير مما لا يرضى به حتى شرب الخمر في منادمته، ليصرف بدراً عما كان في نفسه قليلاً حتى تعرض له الساعة المواتية للفراق . فلما اتت الساعة بادر واحتمل اهله ونفسه وخرج الى دمشق وقصد عملاً من اعمالها يقال له (حمى جرش) كان به أبو الحسين علي بن احمد المري الخراساني، وكانت بينهما مودة وهما بطبرية ؛ فلجأ اليه، واحتمى بحماه، وذلك في سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا التحقيق

لا أقتري بلداً الاّ على غَرَرٍ
ولا أمرُّ بخلق غير مُضطغِنِ
ولا أعاشرُ من أملاكهم ملكاً
إلاّ أحق بضرب الرأس من وثنِ
مدحتُ قوماً ... وان عشنا نظمتُ لهم
قصائداً من إناث الخيل والحُصُنِ
فلا أحاربُ مدفوعاً إلى جُدُرٍ ،
ولا أصالح مغروراً على دَخَنِ

انتصر (ابن كروّس) الاعور على أبي الطيب ، وأفسد عليه بدر بن عمار . ويبين انّ دهاء أبي الطيب وحياته أعانته على اجتناب الخطر الذي كان له رصداً في طبرية ، والذي كاد يدركه مرة اخرى بعد في سنة ٣٣٦ حين أرصد له العلويون ليقتلوه ففاتهم الى الرملة ، وهذا مما يرجّح عندنا أن (ابن كروّس) كان من شيعة العلويين او من انفسهم او من دعاة الفاطمية

وكان ابو الطيب — كما قدمنا لك — وهو عند بدر قد بدأ يطمئنّ ثم هاجه هذا الاعور ابن كروّس فانطلق الى غايته في نفسه من الحقد والثورة والاقتحام ولكنه كتم ذلك . فلما نزل بعلي بن احمد المرّي كانت قصيدته اعلاناً للحرب مرّة اخرى ، وزلزلة وقعت في قلبه فأخرجت قديمه من الاحقاد والتِرات والآمال والآراء ، واستمر ينتفض ويقذف بركانه بحممه إلى ان كان اتصاله بأبي العشائر في اواخر سنة ٣٣٦ . وكان شعره — في هذه الاغراض ثم في هذه الفترة — نظرات متطايرة كالشرر تحت ظلام الليل ، وهي مع ذلك حكيمة تقع في المفصل ولا تخطيء ، إذ كان الرجل قد تحنّك واستحكم واستمرّ في الشعر على طريقته ، مما وجد من الهدأة في جوار بدر ثم ما وجد من الكيد بعد . ولم يتصل بعد بدر بأمير ينادمه بل كان يتنقل من مكان إلى مكان ثائراً مغضباً ، وعداً منذراً مرعداً ، يريد ويبغي ، ويؤمل وينتظر ، ويمل ويسأم ، ويحنق ثم ينفجر

فانظر الآن الى هذا الشعر الذي قاله لعلي بن احمد المري بعد ان تردّ النظر مرةً اخرى إلى ما كتبناه في الفصل الثامن . . . . يقول

(لا افتخارٌ الاّ لمن لا يضامُ   مُدْرِكٌ أو محاربٌ لا ينامُ)
(ليس عزماً ما مرّض المرء فيه   ليس همّاً ما عاق عند الظلامُ)

واحتمال الاذى — ورؤية جانيـــه —غذاء تَضوَى به الاجسامُ
ذلّ من يغبطُ الذليلَ بعيشٍ ربَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
كلُّ حلمٍ أتى بغير اقتدارٍ حجةٌ لاجئٌ اليها اللئامُ
من يَهُنْ يسهلِ الهوان عليهِ ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ
(ضاقَ ذرعاً بأن أضيق به ذرْ عاً زماني ، واستكرمتني الكرام
(واقفاً تحت أخمَصَيْ قدر نفسي واقفاً تحت أخمصيَّ الانامُ)
(أقراراً أَلَذُّ فوق شرارٍ ! ! ومراماً أبغي وظلمي يُرامُ !!)
(دون أن يشرق الحجاز ونجد والعراقان—بالقنا—والشام !)

فهذه أبياتٌ قد اجتمعت فيها نفس المتنبي كلها بحكمها وتجربتها وعلومها وقوتها ورجولتها وثورتها وانتقاضها وزلازلها ، وآمالها وأحقادها ووعيدها وإنذارها،وصدقها وعواطفها المتسعّرة التي يأكل بعضها بعضاً ، وفيها (توقيع المتنبي) على كلّ بيتٍ . فلا تحسبنَّ شاعراً يستطيع أن يأتي بمثلها أو يسرق معانيها الاّ أن يستطيع ان يسرق نفس أبي الطيب وقلبهُ جملةً من بين جنبيه ، أو الاّ ان يكون قد مُهّد له في نفسه وفي صدقه وفي آلامه وآماله وغير ذلك ما تيسّر لابي الطيب

وألقى أبو الطيب هذه (القنابل) الحكيمة في حمى جرش ثم أدركته مكايد الاعور ابن كروّس أو العلويين فعجّل بالرحيل غير مختار له، فقال يودّع صاحبه المرّي ويعتذر له ، وقد أبان في الابيات كل الإبانة

(لا تنكرنّ رحيلي عنك في عجلٍ فإنني لرحيلي غيرُ مختارِ)
(وربما فارق الانسان مهجته يوم الوغى ـ غير قالٍ ـ خشية العارِ)
(وقد مُنيتُ بحسَّادٍ أحاربهم ، فاجعل نداك ـ عليهم بعضَ أنصاري)

ثم انطلق من حمى جرش يتقحّم البوادي عجلاً يفور فوران القدر على نارها المتضرّمة ، وتسعَّرت الدنيا في عينيه ، وتلذعت الافكار الناريّة بين جنبيه ، فخرج شعره كمعمعةِ الحريق ونقيضه وزفيره وفرقعته ، كما سترى . ومن شدة ما لقي أبو الطيب من كيد هذا الاعور ابن كروّس كان — على عادته — يتخيَّله كلما تلفّت في مسيره واقتحامه ظلمات البادية . وقد حفظ لنا أبو الطيب في شعره — على عادته ايضاً — صورة ناطقةً من إحساسهِ وعواطفه وهو يطوي البادية طيًّا عجلا فقال (١)

(١) لقد اكثرنا من نقل شعر ابي الطيب اذ كان السياق الآن يقتضي ذلك ، ولئلا نقطع القارىء بالرجوع الى الديوان ، ثم لنختصر القول من ناحية اخرى ، فعلى القارىء — كما كتبنا على انفسنا — ان يستنبط ويستخرج المعاني على الاصول التي درجنا عليها في كتابنا . هذا والتدبر والتأمل أصل الاصول في العلم والاستنباط . . . .

ركبت مشمّراً قدمي اليها وكلّ عُذافرٍ قلق الضّفورِ
(أواناً في بيوت البدو رحلي وآونةً على قتد البعيرِ)
(أعرّض للرّماح الصم نحري وأنصب حرّ وجهي للهجير)
(وأسري في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمرٍ منيرِ)

وهذان البيتان فيهما من رجولة أبي الطيب وتفخيمه وعنائه وتدفّعه واستهانته بالشدائد في سبيل آرائه وآماله ما فيهما، ففسّرها لنفسك؛ واعلم ان هذا الرجل شاعرٌ مبينٌ، وابنه في لسانه، وعواطفه في بيانه

(فقال في حاجةٍ لم أقض منها — على شغفي بها — شروى نقيرِ
(ونفس لا تجيب الى خسيس، وعينٍ لا تُدار على نظيرِ)
(وكف لا تنازع — من أتاني ينازعني — سوى شرفي وخيري)
(وقلة ناصر — !! جوزيت عني — بشر منك — يا شرالدهورِ!)
(عدوّي كلِ شيءٍ فيك حتى لخلت الاكمَ موغرة الصدورِ)
(فلو اني حسدتُ على نفيس لجدت به لذي الجد العثورِ)
(ولكني حُسدت على حياتي؛ وما خير الحياة بلا سرورِ؟)
فيابن كروّس، يا نصف أعمى: وإن تفخر، فيا نصف البصيرِ
(تعادينا لأنّا غير لكن، وتبغضنا لأنا غير عورِ)
فلو كنت امرءاً يهجى هجونا ولكن... ضاق فتر عن مسيرِ

وإمّا تدبرت الابيات، فستجدنّ ان نفسه الكريمة الابيّة الانوفة المستكفة قد أريد بها الشر والاذى فاهتزت، وتدافعت هزاتها في أعصابه كلها، فأثبتها على لسانه المبين في هذه الالفاظ المتقصفة بأصواتها ومعانيها وألوانها البيانية في التدفع والالتفات والانتقال، ثم في البغض للدنيا وازدرائها، ثم في السخرية والتهكم والاحتقار لهذا الاعور الذي هاجه عن عشه في جوار ابن عمار

وأراد الله خيراً بشاعرية هذا اللسان القوّال العربي المبين، إذ رماه بابن كروّس بعد هدأة واستجمام. فلما طوى البادية على ما وصفنا يقصد قصد انطاكية، فدخلها في سنة ٣٣٤ وكان بها أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن محمد الخصيبي، وكان ينوب عن ابيه في مجلس القضاء بأنطاكية وكان داهية من دهاة عصره فيما نرى، فقصده أبو الطيب بمدحه، وجعل أولُ القصيدة يدلُّ على ما وصفنا لك من تسعُّر الدنيا في عينيه وبين جنبيه، وكانت معاني مدحه من هذا الباب ايضاً. وقد تضمنت الابيات التي سننقلها لك آراءه في الجيل الذي كان يتقلب بين رجاله، وازدراءه للرجال الذين قصدهم فلم يلف عندهم خيراً يعينه على حاجته التي قال فيها فيما مضى من الابيات

(فقل في حاجة لم أقض منها . . . .) ، ثم وصف رحلته بين اهل البادية ، وما كان يحذره في ارضهم خوف الطالب أن يهتدي اليه فيدركه فيفتك به ، ثم يثور ويتمزع في أعنة نفسه فينذر ويوعد . . . . وبذلك تعرف ان نفسه كانت على غايتها متوترة مستوفزة ثائرة . ثم يأتيه كتاب جدته فيقصد العراق ، فيمنعه اعداؤه من العلويين الذين ارادوا به السوء من دخول الكوفة التي بها جدته ، فيجاب ذلك عليه الهم والالم[1] ، فتموت جدته فيهيج ويتلذع ويئن ويبكي ، ثم تدركه رجولته فترد عليه قوة مضاعفة فيبدع وينفرد بقصيدة من اجزل الشعر وأرصنه ، ومن اكثر شعره خاصة دلالة على ما في نفسه ، وما اصابه في حياته من مولده الى يومه هذا سنة ٣٣٥ يقول أبو الطيب

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن (يخلو من الهم أخلاهم من الفطن)
(وانما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سُقمٍ على بدن)
(حولي بكل مكان منهم (خِلَقٌ) تخطي اذا جئت في استفهامها بمن ؟)

وهذا بيت يهجو بألفاظه قبل ان يهجو بمعانيه ، ويدل على ما في نفس الرجل من الآلام ، وما لقي من اهل عصره من الكيد والمكر ، وما كانوا عليه من الخسة واللؤم ، والشطر الثاني من البيت التالي صفة صادقة لعصره كما تجدها في التاريخ ، وقد اشرنا الى صفة هذا العصر فيما مر بك

(لا أقتري بلداً الا على غرر ولا أمر بخلق غير مضطغن)
(ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً الا أحق بضرب الرأس من وثن)
اني لاعذرهم مما أعنفهم حتى أعنف نفسي فيهم ، وأني
(فقر الجهول بلا عقل ، الى أدب فقر الحمار بلا رأس ، الى رسن)
(ومدقعين بسبروت صحبتهم عارين من حلل ، كاسين من درن)
خُرّاب بادية ، غرثى بطونهم ، مَكْنُ الضباب لهم زادٌ بلا ثمن
(يستخبرون فلا أعطيهم خبري وما يطيش لهم سهم من الظنن)
وخلة في جليس أتقيه بها كيما يرى أننا مثلان في الوهن

وهذا البيت مما يدل على دهاء ابي الطيب وسعة حيلته ، ودقته في الحذر اذا أُحيط به ، وخاف ان يظفر به عدوه

وكلمة في طريق خفت أعربها فيهتدى لي ، فلم أقدر على اللحن

(١) قد استشهدنا بأبيات كثيرة من قصيدته في رثاء جدته فيما مضى في نسبه وغيره ، وذلك لما ترى من انها كانت تحمل نفس أبي الطيب كلها صريحا ورغوتها

(قد هوّن الصبرُ عندي كل نازلة ولَيّن العزمُ حدّ المركب الخشنِ)
(كم مخلص وعلى في خوض مهلكة وقتلة قرنت بالذم في الجبن)
(لا يعجبنّ مضيماً حسن بزّته وهل تروق دفيناً جودة الكفن)
(لله حال أرجيها ، وتخلفني وأقتضي كونها دهري ويمطلني)

ولا يفوتنك هنا ان ابا الطيب في هذه الفترة قد اشار الى مطلب له بهذا البيت في هذه القصيدة ومن قبل ما أشار اليه في القصيدة التي قبلها بقوله « ففل في حاجة لم أقض منها . . . . » ونحن نقف عند هذا البيت لتجعله منك على ذكر حتى يأتي تأويله فيما يستقبل

(مدحت قوماً، وإن عشنا نظمت لهم قصائداً من إناث الخيل والحصُن)
تحت العجاج – قوافيها مضمَّرة – إذا تُنوشدن لم يدخلن في أذن
(فلا أحارب مدفوعاً إلى جدر ، ولا أصالح مغروراً على دخن)
(مخيّم الجمع بالبيداء يصهره حرّ الهواجر في صمّ من الفتن)

ويتبين من نفس أبي الطيب في الشعر أنه قد تطلق واستنّ في عدوه إلى غايته ماضياً لا يلوي على شيء ، وأن لسانه قد انذلق بمعاني قلبه ، فهو مبين في شعره وإشارته ، غير غافل بما سوف يلقاه من الكيد فيما بعد ولولا أن الرجل كان ركابيّ الطبع يخمد ثم يفور ويفرغ ثم يتماسك لما كان من اثر كيد ابن كروّس له ، ماترى في كلامه من التدفق والتدافع الذي تراه فيما روينا لك من الشعر . ويحسن بك وأنت تقرأ هذا أن تتبع ما رسمنا لك في التيقظ لإشارة الرجل . وأن يكون منك على ذكر أن الرجل كان حين يفور ويقول . تتراءى لعينيه ويدوّي في مسمعيه كل ما سمعه أومرّ به ، فهو يوجز لك ما في نفسه صبيراً في أبياته وكلماته

وقد استمرّ أبو الطيب على حالته التي نصفُ ، حتى اتصل بأبي العشائر فكان شعره في هذه الفترة آراءً ونظرات كلها مستنبط من ينابيع نفسه ، وذلك لما قلنا به من أن الاصل في نبوغ المتنبي هو (استيعابه ما يحسّ به من العواطف ، ودراسة قلبه ومعرفة ما يجز فيه من الآلام ، والمعاني التي تتولد من هذه الآلام ، ثم اهتداؤه إلى أن الشعر لا يكون شعراً الا حين يروى من معاني القلب ويستقي منها) . . . وبينا الرجل كذلك ، إذ جاءه كتاب جدّته تسأله المسير اليها وتشكو شوقها اليه ، وطول غيبته عنها ، فلما قصد الكوفة التي هي بها وشارفها حيل بينه وبين دخولها ، ورؤية جدته المسكينة --- على ما مضى في تأويل هذه الواقعة --- فلما ماتت رحمها الله ثارت نفسه ، وقذف بكل مكنونها من الآلام التي لقيها ، والحوادث التي فعلت فيه فعلها ، وكاد يصرّح بما لقي من كيد العلويين له في مسألة نسبه على ما فسرناه ، وما قصد به من الحسد والوشاية . ويكفي ان نشير هنا إلى بيت واحد من قصيدته في رثاء جدته لتعلم أين بلغ الالم من

قلب أبي الطيب حتى مزّقه ، والبيت لايحتاج إلى شرحٍ أو تفصيل ، وفي تدبره او تأمّل لفظه غنًى ، إذ كان حسرةً محبوسةً في ألفاظ ، وكمداً مكفوفاً وراء كلماتٍ . يقول

(عرفت الليالي قبل ما صنعتْ بنا ، فلما دهتني لم تزدني بها علما)
منافعها : ما ضرَّ في نفع غيرها ، تغذّى وتروى : ان تجوع وان تظمأ

واجتمع على ابي الطيب ما في قلبه من الالم ، وما فجأه من موت جدته فتنزّت نفسه بقوتها حيناً . واستسلمتْ بحكمتها وفلسفتها احياناً — وهو فيها حكيم بليغ — فهو بعد ان ثار ما ثار بمثل قوله في رثاء جدته

كذا أنا يا دنيا اذا شئتِ فاذهبي ويا نفس زيدي في كرائهها قُدُمَا
فلا عبرت بي ساعةٌ لا تعزّني ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلمَا

وانطلق من بغداد — حيث كان حين ماتت جدته — قاصداً أنطاكية بالشام ، يقول في القاضي أبي الفضل احمد بن عبدالله بن الحسن الانطاكي

لِنعمَ ولَذٌ — فللأمور أواخرٌ أبداً ، إذا كانت لهن اوائلُ
ما دمتَ من أرب الحسان ، فانما رَوْقُ الشباب عليك ظلٌّ زائلُ
للهو آونةٌ تمرّ كأنها قُبَلٌ يزوّدها حبيبٌ راحلُ
جمح الزمان ، فلا لذيذٌ خالصٌ مما يشوب ، ولا سرور كاملُ

ومثل هذا الرأي قليل عند ابي الطيب ، بل هو ليس من عادته ، ولا مما يواتيه طبعه على معاطاته والعمل به . وانما أتاه من انه كان قد اشتدَّ في ثورته الى الغاية حتى بلغ اقصى ماتحتمله نفسه من العنت والمشقة ، ثم اصابته فترة تعقب ذلك لا بد منها ، فاستخرجت حكمته هذا المعنى وهو يحمل من اليأس والتعب والنصب ما ترى في مثل قوله « روق الشباب عليك ظلٌّ زائلُ » وقوله : « جمح الزمان . . . . » فهذا كلام اليائس المستسلم ، اذا قاله من كان مثل أبي الطيب في تدفّعه وتقحمه وثورته ، وهو أشبه بالاستجمام من التعب والشقوة والنصب. هذا على ان الحالة التي كانت متلبسة به ، لم تفارقه كل المفارقة بل كان فيه اعقاب منها ، فلما قصد المعاني التي يقصدها على طبعه وغريزته ، والتي تكون بالفاظها كالقنبلة في حديدها ، خرجت منه ألطف تعبيراً واقل تفجراً منها في غيرها .. فيقول لهذا القاضي

لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا بيتاً ، ولكني الهِزَبْر الباسلُ
ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابلُ
(واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كاملُ)
من لي بفهم أهيل عصر يدعي أن يحسُب الهنديَّ فيهم باقلُ

وكذلك ، ولكنه اقوى قليلا ، ما اتى به بعد في قصيدته لاخي هذا القاضي (ابي سهل سعيد بن عبد الله بن الحسن الانطاكي) إذ يقول في صفة نفسه

إذا قدمتُ على الاهوال شيعني قلبٌ ، اذا شئت ان اسلاكم خانـا
(أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا أعاتبه صفحاً وإهوانـا)
(وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ان النفيس غريبٌ حيثما كانـا)
(محسَّد الفضل مكذوب على أثري ألقى الكميّ ، ويلقاني اذا حانـا)
لا أشرئب الى ما لم يفت طمعاً ولا أبيت على ما فات حسرانـا
ولا أُسرُّ بما غيري الحميد به ولو حملتَ اليَّ الدهر ملآنـا

وفي هذه الابيات يلتفت — على عادته — الى الايام التي مضت له بالكوفة ، وما لقي هناك في خبر موت جدته ، فيذكرها فيثبتها في شعره . والالتفات في شعر المتنبي من معنى الى معنى ، هو الذي تستطيع ان تستخرج به اسرار الرجل كلها ، اذ كان على ما وصفنا لك يستوعب ما ندور بفابه من الخواطر والاحساس والآلام ويستخرج منها معاني شعره . فالتفاته هنا بعد رجوعه من الكوفة -- دليل على ما كان قد لقي هناك من الكيد ، وهذه الصفات التي وصف بها نفسه هي ايضاً من اثر ما لقي هناك

ولم يلبث صاحبنا ان ثابت اليه قوته ، فنفضت عن نفسه أسباب اليأس والخشوع ، وألجأته الى طريقته الشعرية التي تميز بها وانفرد ، وهي طريقة طبيعته الثائرة المستوفزة المتأهبة للقتال والنضال . ولكنه حين بدأ يعود الى المذهب الذي جرى عليه — كما رأيت فيما مضى — كان لا يزال متثائباً كالمستيقظ من سبات عميق قد فتره . . . فذلك قوله بعد ذلك وهو بأنطاكية ايضاً حين مدح ابا ايوب احمد بن عمران

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ثبتَ الجنان كأنني لم آتها
ومقانب بمقانب غادرتها أقوات وحش كنّ من أقواتها
أقبلتها غرر الجياد ، كأنما أيدي بني عمران في جبهاتها

فذكره الماضي وما كان فيه من المغامرة والتقحم والقتال والكفاح ، أشبه بقصة من يقص عليك حُلماً كان رآه في نومه . فهو لا ينظر الى المستقبل كعادته ، ولا ينذر ولا يوعد ، ولا يصف ما سيكون منه بعدُ ، كما رأيت في شعره الذي سبق هذه الفترة التي اصابته . ويؤيد هذا ان حكمته كانت تجري هذا المجرى من كلام الاحلام — وكذلك كان مدحه — فهو يقول في حكمته في هذه القصيدة

في الناس أمثلةٌ تدور ، حياتها كمماتها ومماتها كحياتها

فالمتنبي لو كان في غير حالته تلك لاخذ هذا المعنى ورماه اليك متفجراً مدوّياً ، ولوجدت كل كلمةٍ منه ملأى بما نفسه من الازدراءِ للناس، والاستهانة بهم ، ولا بدع في السخرية والتهكم على عادته حين يتناول أمثال هذه المعاني ، كقوله فيما مرّ بك

حولي بكل مكانٍ منهم (خلقٌ) تُخطي إذا جئتَ في استفهامها بمن ؟

وكانت أيامه تلك هي آخرة الفتور الذي حدّ من طماحه وجماحه، ثم انبرى كأشد ما كان ، وقد اجتمعت نفسه وتضامّ شتاتها : وعادت اليه افكاره كلها فهو يمثل منها في شعره تمثيلاً بيّناً ، ولا يضمر الاّ ماكان لا بدّ له من اضماره وهو منطلقٌ في الحديث عن نفسه ومايجول في صدره ، فلما قدم على عليّ بن احمد بن عامر الانطاكيّ يمدحه قذف في وجهه بهذه الابيات

أطاعن خيلاً من فوارسها الدّهر وحيداً ،وما قولي كذا ومعي الصبر ؟

فهذه صورة مما كانت عليه نفسه قبل ما ذكرناه ثم انتقاله بعد الى طبيعته القوية كما سترى . فهو حين ذكرانه يقاتل الدهر ، ذكر انه يقاتله وحيداً لا ناصر له ولاعضد فلما جرى ذلك في ضميره ، أبت عليه كبرياؤه أن يضعف في القتال لتوحّده وانفراده وقلة ناصره ، فاستدرك على هذا المعنى الذي خطر له فلام نفسه ان يخطر لها هذا الخاطر — وهو نذير الضعف والاستسلام والخضوع — فقال : « وما قولي هذا القول المستضعف الذليل ، ومعي أقوى ناصر ، وأشدّ عضد وهو هذا الصبر الذي أقاتل به ، وهو عندي بمثابة الانصار والاشياع » ثم تفجر بعد ذلك

وأشجع مني كل يومٍ سلامتي وما ثبتت الاّ وفي نفسها أمرُ

تمرّست بالآفات حتى تركتها تقول : أمات الموت،أم ذعر الذعرُ ؟

وأقدمت إقدام الأتيّ ، كأن لي سوى مهجتي، أو كان لي عندها وترُ

ذر النفسَ تأخذ وسعها قبل بينها ، فمفترقٌ جاران دارهما العمرُ

وهذا كله تعليقٌ على الشطر الاول من البيت الاول ، وجدالٌ قائمٌ بين الفترة التي كانت قد أصابته وما علق به من آثارها ، وما أنبطت في نفسه من المعاني والآراء — وبين الطبيعة التي تقوم عليها شخصيته وتتميز بها نفسه ، وهي طبيعةُ القوة والتقحّم ، وما تفجر هذه الطبيعة في نفسه من معاني الاقدام ، وما تولد له من الآراء والاحكام . فلذلك كانت الابيات التي تليها هي انتصار طبيعته القوية المشبوبة الفتية ، وكانت الآراء التي تضمنتها هي الاراء التي كثر ورودها في شعره ، اجتمعت فيها آراؤه في المجد الذي يصبو اليه ، وما يجب ان يأخذ نفسه به لادراكه، واحكامه على أهل عصره، واستسقاطه لهم، وخاصة ملوكهم وأمرائهم الذين قاربهم فلم يجد فيهم خيراً بل وجدهم خذلاناً لمن استنصرهم ، وخبًّا وخداعاً لمن استنصحهم ، فقال في ذلك في أعقاب الابيات التي رويناها

ولا تحسبنَّ المجد زقًّا وقينةً ... فما المجد الاَّ السيفُ والفتكةُ البكرُ
(وتضريب أعناق الملوك، وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجر)
(وتركك في الدنيا دويًّا ، كأنما ... تداول سمعَ المرء أنمُلهُ العشرُ)
اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص ... على هبة ، فالفضل فيمن له الشكرُ
(ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر، فالذي فعل — الفقر)
(عليَّ لاهل الجور كلُّ طمرَّةٍ ... عليها غلامٌ ملءُ حيزومه غمرُ)
يدير بأطراف الرماح عليهم ... كؤوس المنايا حيث لا تشتهي الخمرُ
وكم من جبال جبت تشهد أنني الـ ... ـجبال ، وبحرٍ شاهدٍ أنني البحرُ

. . . .

(وجنّبني قربَ السلاطين مقتُها ... وما يقتضيني من جماجمها النسرُ)
(واني رأيت الضرَّ أحسنَ منظراً ... وأهون من مرأى صغير به كِبرُ)(١)

واخذ المتنبي بعد ذلك يشتدُّ في نفسه ويقوى على اثر ما اصابه من الفتور ؛ واخذ يستعرض حياته كلها ويستخرج ما فيها ، وآراءه ويختار منها ، ويصوغها في شعره؛ وكل ذلك مما يبنيه على ما مر به من احداث الزمن ، فانه حين رحل عن انطاكية قاصداً دمشق نزل في طريقه على علي بن محمد بن سيار بن مُكرَم التميمي فكان مما ورد في شعره له قوله

وما سكني سوى قتل الاعادي ... فهل من زورة تشفي القلوبا ! !
تظلُّ الطير منها في حديثٍ ... تردُّ به الصراصر والنعيبا

ثم يستذكر ما لقي من الحساد كابن كروّس وغيره ممن آذوه وهو بطبرية وانطاكية وغيرها فيقول حين ذكر الليل

أقلّب فيه أجفاني كأني ... أعُدُّ به على الدهر الذنوبا
(وما ليل بأطول من نهارٍ ... يظلُّ بلحظ حسّادي مَشوبا)
(وما موت بأبغض من حياةٍ ... أرى لهمُ معي فيها نصيبا)
(عرفت نوائب الحدَثان حتى ... لو انتسبت لكنت لها نقيبا)

ثم يزيد على ذلك إذ يذكر آرابه في الحياة وما كان منه في مسعاه للمجد وطلبه ، وما كان خرج في إدراكه من الثأر والمطالبة (بحقه) المهضوم في انتسابه للعلوية كما مرَّ بك، ثم ما مرّ به

(١) نظن ان القارىء ليس في حاجة بعد الى الوقوف به عند كل مفصل للقول ، ففي ما تقدمناه من النهج كفاية له ، وحسبه ان يطمئن عند كل بيت اطمئنان المستغرق في التدبر ، فتنفجر في نفسه المعاني ، وبذلك يرى حقيقة الرجل ممثلة مجسمة في الفاظه وابياته. وان نعرف المتنبي الا ان نفعل ما نريك من الرأي

من الاحداث، ومن لقي من الناس الذين استدعوا احتقاره لهم وازدراءه إياهم ، وهو مع ذلك مضطرٌ لمعاناة عشرتهم ومصادقتهم ، ثم يذكر موت جدته بالكوفة ، وأثر ذلك في نفسه وهي التي يحبها حبّ الوفاء والإخلاص والبنوة وذلك إذ يقول

أقلُّ فعالي بلهَ أكثرُه مجدُ وذا الجِدُّ فيه نلتُ أو لم أنل جِدُّ
(سأطلب حقّي بالقنا ومشايخٍ كأنهم من طولِ ما التثموا مُردُ)

. . . .

(أذمُّ إلى هذا الزمانِ أهيلَه ، فأعلمُهم فدمٌ ، وأحزمهم وغدُ)
(وأكرمهم كلبٌ ،وأبصرهم عمٍ ، وأسهدهم فهدٌ ، وأشجعهم قردُ)
ومن نكد الدنيا على الحر ، أن يرى عدوًّا له ، ما من صداقته بدُّ
بقلبي ، وإن لم أروَ منها ، ملالةٌ وبي عن غوانيها، وإن وصلت، صدُّ

فهذه كما ترى كلمات كلها منتزعٌ مما كان في حياته لذلك العهد ، وما اصابه من الرزايا ، وما أدركه من الإخفاق في المطالب ، وما أورثه ذلك من الحسرة والمرارة وألم الحرمان . ولما كان ذلك كله مما أصابه إنما أصابه — على ما ذهبنا اليه أولاً — في طريقه وهو يسعى لادراك ثأره عند العلويين الذين ظلموه وظلموا جدّته وانزلوها بشرّ منزلةٍ ، وكانت جدّته قد ماتت قبيل ذلك الوقت بقليلٍ ، وكان أثر موتها لا يزال يحزُّ في نفسه ، التفت قلبه إلى تلك الحبيبة التي فارقته ، وانتقل من هذه المعاني التي تراها في الابيات السابقة الى ذكرى جدّته فقال

خليليَّ دون الناسِ حزنٌ وعبرةٌ على فقدِ من أحببتُ ما لهما فقدُ
تلجُّ دموعي بالجفونِ كأنما جفوني—لعينيْ كلّ باكيةٍ— خدُّ

ثم تلبّث صاحبنا بعد هذين البيتين وهو يكتبهما ، وتأمل أحزانه وآلامه ، ورأى أن البكاء والنحيب مما لا يجمل به ، وكيف يبكي ويعول وهو من هو في الصبر والجلد وتحمل النكباتِ غير جازعٍ ولا متململ ، وقد لقي بصبره — في سبيل جدته وفي سبيل نفسه — كلّ نائبة، وطوى الارض موكلاً بذرعها غير حافلٍ ، وقاسى من الحسد ما قاسى ، وأصابه من عداوة الناس له ما أصابه ، فاغتابوه وآذوه . فاستدرك صاحبنا على بكائه على جدته بقوله بعدُ يصف نفسه وما كان منه وما كان من اعدائه

واني لتغنيني من الماء نُغبةٌ وأصبر عنه مثلما تصبر الرُّبْدُ
وأمضي كما يمضي السنان لطيتي وأطوى كما تطوى المجلجة العقدُ
وأكبر نفسي عن جزاءٍ بغيبة وكلُّ اغتياب جهد من لا له جهدُ
وأرحم أقواماً من العيّ والغبى وأعذر في بغضي لانهم ضدُّ

وعلى ما وصفنا لك من حالته ، وما يلج في صدره ويعتلج في نفسه ، انحدر الى دمشق ولم يقم بها الا قليلا ، وقصد طبرية وذلك في سنة ٣٣٦، ولعل ابن كروس كان قد غادرها إذ ذاك والظاهر ان ابا الطيب انما دخلها في جوار بعض اصحابه ، ومن كانوا يكرمونه من اهل الفضل والنبل ، واطمأن قليلا بها ثم هاجت العلوية عليه مرة اخرى ، وأثبتوا عليه عداوتهم ، وأرادوا ان يكيدوا له كيداً ليخلصوا منه ومن افعاله ، ونحسب ان ابا الطيب كانت له في البلاد التي دخلها شيعة تشاركه الرأي وتتعصب لمذهبه في السياسة ، وتزيد في تعصبها لشعره وأدبه ، فكان ذلك سبباً في اثارة الفتن في كثير من البلاد التي دخلها . . .

وأنت ، فلا تظنن ان مثل ابي الطيب كان اذا دخل بلداً دخله صامتاً مخيط الشفتين ، لا يفتحهما الا حين ينشد قصيدته في (المديح) في مجلس من يمدحه ، ثم ينصرف الى داره منزوياً في ركن من اركانه ، حتى يأذن له شيطان شعره بقصيدة اخرى وهكذا وهلم جرًّا . كلا ، فإنا لا نشك في ان أبا الطيب ـ ذلك الظريف المجلس ، الحاضر البديهة ، الحلو النادرة ، الاديب النفس ، صاحب الرأي في السياسة ، وطالب الحكمة أنى كانت ، والثائر على حكام عصره ، والمزدري لاهل زمانه ، والذي تتبين في شعره مواضع التجربة الطويلة ، والخبرة النافذة ، والتمرس بالاخلاق عاليها وسفسافها ، والذي كان شعره قطعة من احساسه وطبيعته ، وما يمسها مما يدور حولها او يدانيها من احساس الناس وطبائعهم ، والذي كان شعره ينم على تلك الطبيعة البركانية المتفجرة ، والتي لا تهدأ الا ريثما ترتد اليها قوتها القاصفة العاصفة الناسفة ، والذي لم تكن هذه الظاهرة في شعره دعوى او باطلا او ظاهراً لا باطن له — اذ لو كان ذلك كذلك لوقع فيها التخالف على تطاول السنين، ولنقصت وضعفت بضعف الاسباب الجالبة لها والذي كان ذا لسان وبيان ، وكان جدلا حاذق اللسان أبي النفس ، لا يهاب ان يصارح وان يكشف عن ضميره على شدة ما لقي من الكيد والمكر والتربص والرصد ، ثم كان (الرجل) الشاعر الفرد من أهل عصره الذي كشف عن سيئات العصر ، وصور رذائله كلها في كثير من شعره ، والذي كان قريباً من الامراء ، أثيراً عند كثير ممن لقيهم — نقول : إنا لا نشك — ولا تشكن انت — في ان ابا الطيب ، قد أثار كثيراً من الجدل في الادب والسياسة ، وتمرس بالناس وتمرسوا به وأخذ وأعطى ، وناقش وجادل ، وذهب مذهباً في تناول الآراء والافعال والاحداث التي وقعت في الدولة العربية ، وبين رأيه فيها في مجالس أصحابه، وتناقلت الالسنة ما كان يقول ، ووجد حساده من تكشفه وصراحته مطعناً ومقتلا يطعنون فيه ، وظفر الوشاة بغذاء قلوبهم ، وزاد ألسنتهم مما كان الرجل يكاشف به من الرأي ، وما يبديه من النظرات والافكار، فسعوا به الى اعدائه ، والذين كانوا يضمرون له السوء من

اصحاب السلطان ، او من كانوا يعادون أبا الطيب لاسباب خفيت عن السعاة والوشاة ، وان لم يخف عنهم ان هؤلاء كانوا ممن لا يحاولون الى بقائه بينهم ، أو يتربصون ان يظفروا به قبل ان يفوتهم بحذره ودهائه

فبيّن ان ابا الطيب دخل طبرية — على حالته تلك التي نصف — مراغماً للعلويين ، ثم لمن كانوا يكيدون له قبلُ على عهد بدر بن عمار ، والذي كان يتولّى كبر ما يأتون به الاعور ابن كروس كما مرّ بك . وكان في هذه الايام التي بقيها بطبرية حذراً متوجساً يترقب ، وكان بالرملة إذ ذاك (سنة ٣٣٦) الامير ابو محمد (الحسن بن عبيد الله بن طغج) فلما أتاه الخبر بأن ابا الطيب نازل بطبرية طمع في مديح أبي الطيب ، وودّ لو نزل عليه ، واقام عنده مكرّماً ، فلم يزل يراسله ان يتحمل اليه وينزل عنده ، فاضمر ابو الطيب الرحلة اليه ، وكان الخبر قد بلغ العلويين أن (أبا محمد بن طغج) راسله وعزم عليه في الرحلة اليه ، فألفوها نهزةً معترضة أن يفتكوا به ، وتوهموا الطريق التي سيركبها ابو الطيب — ولا بدّ — في رحلته ، فأصدروا له جماعة من عبيدهم السودان بقرية بالقرب من طبرية يقال لها (كفر عاقب) ، وامروهم ان لا يفاتوا الرجل الاّ جثة دامية . والظاهر ان أبا الطيب كان قد جرى في خاطره انهم فاعلو مثل ذلك ، فخالف الطريق التي درج السابلة على ركوبها ما بين طبرية والرّملة ، فلما فات الرصد ، بلغه ما كانوا قد عزموا عليه ، وما كانوا قد أرصدوا له . فربتْ نفسه ، وزفر زفرته من هذا الكيد الملاحقه بكل طريق ، وثارت في صدره الزّوبعة التي كانت تثور فيه كلما ابتلي ببلاءٍ من العداوة ، او أُصيب بمصيبة من الكيد والمكر السيء . فلما دخل الرملة ليمدح الامير أبا محمد ابن طغج كان يفور ويغلي ويتقلقل ويتفجّرُ ، فلم يأخذ نفسه بآداب المديح والزيارةِ المبتدأةِ ، ورمى في وجه ممدوحه بقنابلهِ قبل أن يلج الى مديحه فقال

فمالي وللدنيا ، طِلابي نجومُها ، ومسعايَ منها في شدوقِ الأراقمِ
من الحلم أن تستعمل الجهلَ دونه ، إذا اتّسعتْ في الحلم طرْقُ المظالمِ
وأن تردَ الماءَ الذي شطرُه دمٌ فتسْقَى ، إذا لم يسْقَ من لم يزاحمِ
ومن عرف الأيام — معرفتي بها وبالناس — روّى رمحه غير راحمِ
فليس بمرحومٍ إذا ظفِروا به ، ولا في الرّدى الجاري عليهم بآثمِ

ثم التفت الى نفسه (يمدحها) فقال

(إذا صلْتُ لم أترك مَصالاً لفاتك وإن قلت لم أترك مقالاً لعالمِ

وقد قدمنا لك في أثناءِ القولِ ان أبا الطيب كان إذا نزل به نازلٌ مما يكربُه من الغمّ والهمّ اشتدّ به ذلك وأخذ عليه نفسه ، فينصرف فكره كلّه الى التدبر فيما مضى عليه من الرزايا ، وما

أجاب عليه من العداة وعداواتهم . ولا نزال يحدّق ببصره في هذه الحالة ، مستوعباً كل إحساس في نفسه وكل ما مرّ به وأصاب منه ، حتى تتفجّر في قلبه ونفسه ينابيع البيان فينبع الحكمة من قلبه ولها أصولٌ تاريخية ضاربة فيه . فإذا تدبرت الابيات السالفة وجدت فيها تاريخ قلبه وتاريخ مصائبه كلها على ما سمعناه في حديثنا . ثم ان أبا الطيب لما كربه أمر العلويين الذين أرصدوا له بكفر عاقبٍ ، ارتد الى الحالة التي وصفنا ، فلم يزل يدور ذلك في فكره بين قلبه ولسانه فلم يقدر أن يمتنع عن ذكره في شعره الذي قاله لابي محمد خاصة ، ثم في شعره الذي قاله بعد لطاهر العلوي كما سترى . فما قال لابي محمد يذكر هذا الكيد الذي كيد به في طبرية

كريمٌ لفظتُ الناس لما بلغته كأنهم ما جفّ من زاد قادم
وكاد سروري لا يفي بندامتي على تركه في عمريَ المتقادم
(وفارقت شرّ الارض أهلاً وتربةً بها علويٌّ جدّه غير هاشم)

والظاهر أنه كانت ، بين الامير ابن طغج وهذا العلويّ الذي كاد هو وشيعته لابي الطيب في مخرجه من طبرية ، عداوة قائمة . وأن هذا الكيد كان لسببين : الاول ، ما كان بين العلويين وبين ابي الطيب كما قدمنا ، والآخر ، هذه العداوة بين رأس العلويين بطبرية وهذا الامير الذي خرج أبو الطيب من طبرية قاصداً له مادحاً إياه ، فلذلك قال أبو الطيب فيما يلي ما انشدناه

بلا الله حساد الامير بحلمه ، وأجلسه منهم مكان العمائم
فإن لهم في سرعة الموت راحة ، وإن لهم في العيش حزّ الغلاصم

هذا وقد بقي أبو الطيب في جوار الامير ابي محمد بالرملة مكرماً ، يصحبه الامير في رحلاته ويحضره مجالسه ، ويرافقه في زياراته ، ويفضل عليه كل الافضال ، حتى أرضى ذلك القلب الذي كان بغض الاعاجم فيه طبيعة ثانية قائمة لا تفتر . وكان من اصحاب هذا الامير رجل من شيوخ العلويين بالرملة ، وأبناء شيوخهم ، وكانت له ولاهله ايادٍ كثيرة عند بني طغج ، فلم يفت الامير ابا محمد ما في مدح ابي الطيب له ، وهو لم يمدح رجلاً جليلاً كصاحبه هذا (ابي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي) ، فرغب الى ابي الطيب ان يمدحه وكان من ابي الطيب ما كان في امتناعه على ما مر بك ، فلما اجاب الامير الى مدحه مرغماً ، حاملا على نفسه — إذ كان قلبه لا يرضى ابداً عن هؤلاء العلويين الذين آذوه ، والذين لقي من كيدهم بالامس القريب ما لقي ، من إرصادهم لقتله — قال قصيدته يمدحه ولكنه قدم قبل مدحه هذه الابيات وفيها ما فيها من لمز قوم من العلويين ، لعلهم ان تكون بينهم وبين طاهر قرابة دانية ؟

يخوفني دون الذي أمرتْ به ولم تدر ان العارَ شرُّ العواقب
(ولا بد من يوم أغرّ محجّلٍ يطول استماعي بعده للنوادب)

يهون على مثلي اذا رام حاجة وقوعُ العوالي دونها والقواضبِ
كثير حياة المرء — مثل قليلها يزول — وباقي عيشه مثل ذاهبِ
إليكِ ، فاني لست ممن اذا اتقى عِضاض الافاعي نام فوق العقاربِ
(أتاني وعيد الادعياء وأنهم أعدّوا ليَ السودان في كفر عاقبِ)
ولو صدقوا في جَدّهم لحذرتهم فهل فيّ وحدي قولهم غير كاذبِ

ثم التفت الى نفسه (يمدحها) كما مر بك في قصيدة الامير ابن طغج فقال فيما يلي ذلك

إليّ — لعمري — قصد كل عجيبة كأني عجيب في عيون العجائبِ
بأي بلاد لم أجرَّ ذؤابتي ؟ ! وأي مكان لم تطأه ركائبي ؟ !

وقد مضى ذكر هذه القصيدة وأبيات اخرى منها اكتفينا بما مضى منها عن الاعادة . على أن هناك أشياء أخرى ، كان اولى بنا التوسع في تفصيلها ولكننا أجلناها الى موضعها من كتابنا وبالله التوفيق

ثم عزم ابو الطيب الرحلة من الرملة الى جوار ابي العشائر الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوي ، فخرج من الرملة في سنة ٣٣٦ يريد أنطاكية ، ولم يحدث له حادث الا ما كان من امر اسحق بن كيغلغ في طلبه منه ان يمدحه فهجاه بقصيدته المشهورة التي اولها

لهوى النفوس سريرة لا تعلمُ عرضاً نظرت وخلت أنّيَ أسلمَ

فلما بلغت ابن كيغلغ اراد قتل أبي الطيب وكان إذ ذاك بطرابلس — فخرج منها فأتبعه ابن كيغلغ خيلاً ورجلاً فأعجزهم صاحبنا بالهرب الى بعلبك ثم الى دمشق ثم خرج من هناك الى انطاكية فوافى أبا العشائر وكان مما قال لهذا الاعور ابن كيغلغ

أرسلت تسألني المديح سفاهةً صفراءُ أضيق منك ، ماذا أزعمُ ؟
وأرغت ما (لابي العشائر) خالصاً انَّ الثناءَ لمن يزار فينعمُ
ولمن أقمتَ على الهوان ببابه تدنو فيوجأ أخدعاك وتُنهمُ

ثم طفق يمدح أبا العشائر الى ان قال

والوجه أزهر ، والفؤاد مشيعٌ ، والرمح أسمر ، والحسام مصممُ
(أفعال من تلد الكرام كريمةٌ وفعال من تلد الاعاجم أعجمُ)

فكأنَّ أبا الطيب كان قد ملّ الاعاجم واستنقصهم ، وفيهم الامير ابو محمد بن طغج الذي كان قد نزل عنده بالرملة ومدحه ، ونال من فواضله

أأصبرُ عنك ، لم تبخل بشيءٍ ؟
ولم تقبلْ عليَّ كلامَ واشِ ؟
وما وُجِد اشتياقٌ كاشتياقي
ولا عُرِف انكماشٌ كانكماشي
فسرتُ اليك في طلب المعالي ،
وسار سوايَ في طلب المعاشِ .

أردنا في الباب السالف ان ندلك على نفس أبي الطيب ، وما تميزت به عن شعراءِ العربية جميعاً ، وما انطوت عليه من القوة والرجولة ، وما كان يزلزلها من الثورة التي لا تزال تهزُّه من قرارة قلبه . فتنطلق زلازلها من قلبه إلى لسانه ، فيثبت لسانه في شعره عدد هزَّات الزلزلة وقوتها . ولذلك نقلنا اليك طائفةً من شعره على التوالي في ترتيبها الزمني حتى هذا العهد الذي بدأ حين اتصل بأبي العشائر ، فدخل مدخلاً غير الاول ، وذهب في الشعر مذهباً عجباً وتحولت معاني نفسه من غرضٍ بعينه الى غرض آخر غير مفارقٍ للاول ، بل منه استمدَّ ، وعليه بنى

خرج أبو الطيب من الرملة بقلبه وبنفسه وبآرائه قاصداً أنطاكية التي كانت في يد بني حمدان العرب التغلبيّين ، وكان على امرها — من قبل سيف الدولة — أبو العشائر الحمدانيّ الشاعر المبدع ، والمحارب الباسل ، والعربي الخالص الحب للعرب والعربية ، الشديد العداوة للروم والترك والديلم الذين توالت غاراتهم على الدولة العربية بالجيوش تارةً ، وبالدسائس والمكايد والتمزيق تارة أخرى . وكان المتنبي قد عرف بني حمدان من قبل ، وعرف منهم خاصة سيف الدولة [1] الذي كان الآن سنة ٣٣٦ صاحب الشام ، والمستولي على أمرها ، والمنتزعها من يد بني طغج الاخشيديين الاتراك

دخل أبو الطيب أنطاكية ليلقى العربَ والعربية في مجلس بني حمدان ، وقد رمى دَبْر أذنه وتحت قدمه، الاعاجمَ وما مدحهم به . وأراد ان ينقل شعره من تكلُّف المديح الى التطلُّق والاسترسال في مدح من شمّ من رأيه ، ومن يجد فيهم مرضاة نفسه وآماله ، ولئن كان قبل قد مدح القوم العلوج ليستخرج منهم بعض أموالهم التي غابوا الأمة العربية عليها ، وليكون على

(١) قد مضى ذلك في سنة ٣٢١ ، وقد تكلمنا هناك بما فيه الكفاية ان شاء الله — انظر من ص ٥٣ الى ٥٥

مغربة عن بكرهم ودسهم ، وعلى علم بما يضمرون لأمته من الشر الغالب على قلوبهم وعقولهم، فهو الآن قد وجد قوته وأهله وعشيرته ، فليأتهم بكل غريبة من العول ، وليجدد ذكرهم في شعره ، وليهدأ قليلاً مما كان فيه من الثورة ، ليستطيع أن يحزم رأيه وتدبيره مع هؤلاء القوم — على أن يعيدوا مجد العربية ، (ويديلوا من دولة الخدم) الذين غلبوا على سياسة الأمة ، ورموا بها في موارد الهلاك والفشل ، فهذا سر قوله لابي العشائر في قصيدة مدحه بها . والتي نقلنا أبياتاً منها في راس هذا الباب

قسرت اليك في (طلب المعالي)   وسار سواي في (طلب المعاش)

فهو إنما قدم على بني حمدان لما ذكرنا لك لا للتكسب بالشعر ؛ وأكل الخبز من قوافيه ومعانيه

رأيت قبل أن المتنبي كان إذا مدح بدأ بنفسه فذكرها ومجدها وعظمها، ثم يبدي آراءه في الدنيا ، ويكشف عن الثورة القائمة في ضميره وقلبه ، ثم ينذر ويوعد ويهدد . فلما بدأ اتصاله ببني حمدان . ترك هذا المنهج ، وادخر قوته كلها لامر غير هذا الامر ، وأسبغ على بني حمدان ما كان يسبغ من قبل على نفسه من ثياب المجد ، فهو يصفهم كما كان يصف نفسه ، ويعلو بهم الى غاية السمو في القوة والسلطان والسماحة والمروءة وعظم المطالب . ولم يك يذكر نفسه الا حين يحرجه الوشاة والساعون بالشر بينه وبينهم

فلما اتصل ابو الطيب بأبي العشائر ، ونال منه مكانه ، وأدرك عنده طلباته ، بدأت وشاية الوشاة بانطاكية تعمل أفاعيلها مرة اخرى ، ومدت الفتن أعناقها من قبل شيعة العلويين والفاطميين والاخشيديين والعباسيين — على ما نذهب اليه — . وشعر ابو الطيب بما هنالك فدل أبا العشائر عليه بلطيف القول غير مصرح فقال

فيا بحر البحور ولا أوري   ويا ملك الملوك ، ولا أحاشي
كأنك ناظر في كل قلب   فما يخفى عليك محل غاش ؟
أأصبر عنك لم تبخل بشيء ؟   ولم تقبل علي كلام واش ؟

. . . . . .

فما خاشيك للتكذيب راج   ولا راجيك للتخييب خاش
أرى الناس الظلام ، وأنت نور   وإني منهم لاليك عاش
(بليت بهم بلاء الورد يلقى   أنوفاً ، هن أولى بالخشاش)

والظاهر ان ابا العشائر كان قد أصم اذنيه عن سعاية السعاة والوشاة والحساد : وما كانوا يريدون من تقليب قلبه عليه كما فعلوا بقلب بدر بن عمار . فلما لم يأذن لهم ابو العشائر اول اول ، زادوا في التشهير بالرجل : واجتلاب الاكاذيب في ذمه ونقيصته ، والتعريض به وبأدبه ،

ويذكرون ما كان في شعره من الثورة والانذار والوعيد وذم الناس ، وفخره على من مدحه ، وسوء أدبه في مديحه إذ يقدّم مدح نفسه . ثم يزيد فيمدحها بما لم يمدح ممدوحه بمثله أوما يقاربه، ووقع اليهم ما كان ينبز به لدى بدر بن عمار من تسميته بالمتنبي [1] . فزادوا عليه ووضعوا من عند أنفسهم القصص في تطويل الحكاية . وتعظيم امرها. وبدا العلويون ايضاً يعرضون بمسألة نسبه ليحرجوه ان يصرح بنسبته العلوية ، فلا يجدون عند ذلك حرجاً من ان يأخذوه كما اخذوه اول مرة ، ثم يلقوا به في غيابة السجن بضع سنين . فلما بلغوا هذا المبلغ وضاق بهم ابو الطيب لم يجد بدّا من العودة الى طريقته الاولى حين يحرج ، فكان مما قال في ذلك كله قبل ان يلج الى مديح ابي العشائر

(أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث، والنجل بعض من نجله)
(وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه ، وأنفدوا حيله)
فخراً لعضب أروح مشتمله وسمهريّ أروح معتقله
وليفخر الفخر اذ غدوت به مرتدياً خيره ومنتعله
أنا الذي بيّن الإله به الـ أقدار ، والمرء حيثما جعله
جوهرة ، تفرح الشراف بها ، وغصة ، لا تسيغها السفله
(إن الكذاب الذي أكاد به أهون عندي من الذي نقله)
فلا مبال ، ولا مداج ، ولا وا ن ، ولا عاجز، ولا تكله
ودارع سفته فخرّ لقىً في الملتقى والعجاج والعجله
وسامع رعته بقافية يحار فيها المنقح القوله
(وربما أشهد الطعام معي من لا يساوي الخبز الذي أكله)
(ويظهر الجهل بي وأعرفه ، والدرّ درّ برغم من جهله)

ومن صدق الرجل في محبته لابي العشائر خاصة وبني حمدان كافة ، فعل ما لم يفعله من قبل ، فاستدرك على ما ذكر به نفسه من التعظيم والتبجيل فقال

مستحيياً من أبي العشائر أن أسحب في غير أرضه حلله

(١) قد مضى رأينا في هذه التسمية ، وانها كانت لما كثر في شعره من الانذار والوعيد

وقد اشار ابو الطيب في هذه القصيدة الى انهم زادوا على ما ذكرنا من الكيد انهم كانوا قد أكثروا القول لدى أبي العشائر ، وزعموا انه انما كان يمدحه للتكسُّب والنيل من فواضل ماله ، وتكذّبوا عليه بكل نقيصة تفسد عليه قلب أبي العشائر ... فقال

ما لِيَ لا أمدح الحسين ، ولا أبذل مثل الودّ الذي بذلهْ ؟
أأخْفتِ العين عنده أثراً ! أم بلغ الكَيْذ بَان ما أملهْ ؟

ولكن أبا العشائر كان قد عرف فيما نظنُّ سرّ الكيد الذي يكاد به ابو الطيب ، ولعلّ سيف الدولة ايضاً كان قد بلغه مقدمُ أبي الطيب على أبي العشائر فكتب اليه ان يحرص على الرجل ، ولا يسمع فيه لمتنقص ولا ذامّ ولا متكذّب ، لما يعلم من سرّ الرجل الذي انطوى عليه في أمر نسبته العلوية كما قدّمنا . فلذلك لم يجد الوشاة أذناً صاغية ولا سميعة ، فانصرفوا برغمهم ونال أبو الطيب الكرامة والعزة في جوار أبي العشائر ، وهدأ واستقر قراره ، واطمأن قلبه ، منتظراً مقدم سيف الدولة الى انطاكية في مسيره في نواحي البلاد التي استولى عليها بالشام . وفي هذه الفترة من الطمأنينة والسكينة والكرامة لدى أبي العشائر استجمّ الرجل لقوته ، وادّخر لسيف الدولة ذخائر قلبه وكرائم فؤاده

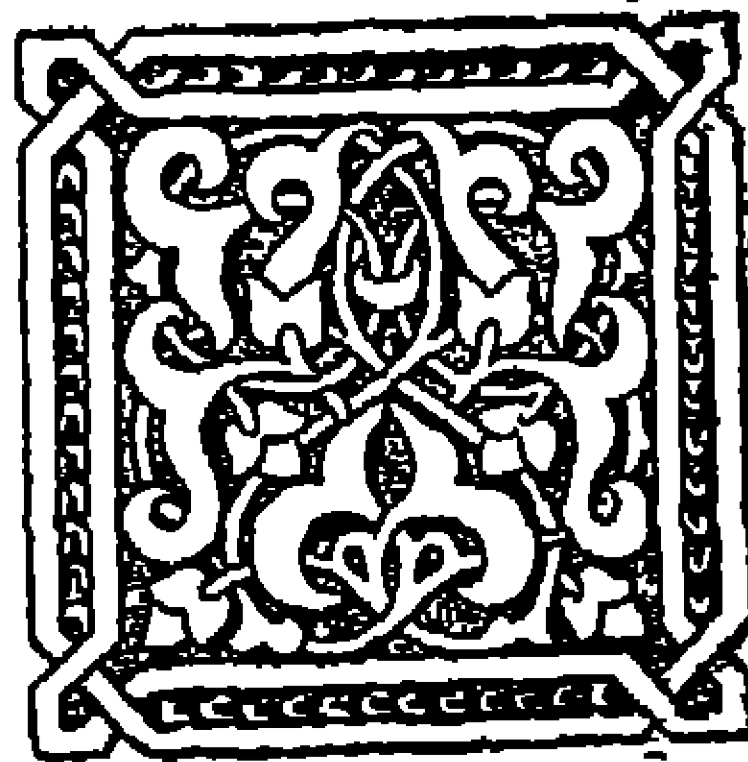

وعندي لك الشُّرُدُ السائرا
ت ، لا يختصصن من الارض دارا
قواف — إذا سرن عن مِقوَلي —
وثبن الجبال ، وخضن البحارا
ولي فيك ما لم يقل قائلٌ ،
وما لم يسر قمر حيث سارا
سما بك همّي فوق الهموم ،
فلستُ أعُدُّ يساراً يسارا
ومن كنت بحراً له ، يا عليُّ ،
لم يقبل الدُّرَّ الاَّ كبارا

في سنة ٣٣٧ كان سيف الدولة (أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان العدوي التغلبي) قد استولى على أكثر الشام ، ووقف للرُّوم يردُّ غاراتهم على أطراف بلاده ؛ ويوقع بهم إيقاعاً شديداً . وغلبت مقدرته الحربية كلّ من كان في عصره من القوّاد ورؤوس الفتن التي عملت في انتكاس الدوله العربية وهلاكها : وكان يؤمل له ان يتسع ملكه اتساعاً عظيماً لولا ما كان من الاحداث العظيمة . ثم ما كان في الدولة من دسائس الاعاجم التي فرقت القلوب ، فلم تدع أمة من الناس الاّ دخلت بينهم فمزقتهم شرّ ممزّق : وجعلت بعضهم على بعض حرباً وفساداً. وأيضاً ما كان من دعوة العلويين لقلب الخلافة التي بالعراق من عباسية سنية الى علوية شيعية ، وأيضاً ما كان من الدعوة السرية الجارفة التي كان يقوم بها دعاة الفاطميين . وكانت هذه اشدّ البلايا التي ابتلي بها العالم العربي كله ، إذ أدخلت فيه ما ليس من طبيعته ؛وقذفت به في ظلماء نهارها من ليلها ، وكان دعاتها قد تفرقوا في كل مكانٍ من سلطان الدولة العباسية : ليوقعوا بين الامراء، وليحوزوا الى دعوتهم فئة غالبة تعينهم على ما يريدون وما يؤملون من إقامة الخلافة الفاطمية ممتدّة من المغرب الاقصى الى ما وراء خراسان

وكان بنو حمدان من شيعة العلويين ، ومن المتحققين بخدمة الدعوة العلوية الاّ انهم كانوا عرباً يدعون الى العلوية للعربية . لما وجدوا من غلبة الاعاجم على الدولة العباسية ، ولكنهم حين

رأوا ما دخل بين العلويين من فساد الاعاجم ومن الدعوة الفاطمية الجارفة ؛ وكانوا لا يقرّون هذه الدعوة ولا يسلمون لاصحابها بالنسبة الفاطمية المكرّمة -- رجعوا فانحازوا الى الدولة العباسية ينصرونها وينصرون الخليفة (النائم) على كرسي الخلافة . هذا ، مع اكرامهم للعلويين وتعظيمهم لهم . وقد أبدى بنو حمدان من الدهاء ، وسعة الحيلة ، وحسن السياسة والتدبير في التوفيق بين عقائدهم العلوية وسياستهم العباسية ، ما لا قبل لاحد من أهل ذلك العصر في الإتيان بمثله أو القيام على أقلّ منه . وقد أثبت بنو حمدان بسياستهم تلك أنهم كانوا يريدون إنقاذ العرب والاسلام من الفتن الباغية التي فعلت افاعيلها لجهدهم في تضييع السلطان العربي ، وانتقال الشوكة والعزة الى الحكم العجمي الشعوبي الفاسد الطوية ، الباغي بكيده الإيقاع بالعرب ودينهم ولسانهم

وكان سيف الدولة خاصة من بين بني حمدان اكثرهم دهاءً واوسعهم حيلة ، وأشدّهم حبًّا للعرب ودينهم ، واكثرهم سعياً في ردّ الحكومة والسلطان الى العرب ، واعظمهم همة في مساعي المجد لنفسه ولقومه ، واكرمهم خلقاً آسراً . وكان من بينهم محبًّا للادب ، قائماً على خدمته وكان بطبيعته شاعراً حلو اللسان خفيف الروح بيانيّ الفكر . وكان مبغضاً للاعاجم ولسانهم الذي ارادوا ان يغلبوا به على فارس وغيرها كما فعل بنو بويه

والظاهر ان سيف الدولة كان قد عزم في نفسه ان ينال بهمته غاية الغايات في ضم اشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظل حكومته . وكان اول ما انفذ من ذلك ان زاحم بمناكبه الاخشيديين في الشام حتى ازاحهم عن اكثرها وردهم الى الرملة ، واستأثر دونهم باكثر البلاد الشامية ، حتى هلع منه الاخشيد ، فتزلّف اليه بان زوجه ابنة اخيه ، ولم يجد ذلك كثيراً ولا قليلاً في اطفاء نار العداوة المستعرة بين الدم العربي والدم الاعجمي الغريب . واستمرّ سيف الدولة في طلب التوسع والغلبة ، ولولا ما لقي من حروب الروم ، وما اجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم لكان تمّ له ما اراد ، فان حروب الروم قد استهلكت كل قوته ، فلم يجد متسعاً لنيته في توطيد حكمه في الشام ، حتى اذا استجمع أداته واستوفز بقوته ، مال على العراق فرد امر الحكم الى نصابه في يد واحدة لا تضطرب ولا ترجف . وذلك لما كان يرى من تقسم الامر في بلاد الخلافة وضياع السلطان بين الموالي ، وما جرّ ذلك من المذابح المتوالية في كل مدينة من المدن العظيمة ، ومن الفتن المتتابعة في كل ناحية من النواحي . ونحن نظن ان السبب في كثرة غزوات الروم — في عهد سيف الدولة -- لبلاد الشام واطرافها ، ان الذين كانوا يفتنون الناس ببغداد من الاعاجم والروم والترك والديلم لينالوا ما يريدون — علموا بأمر سيف الدولة وما اعتزم من الميل عليهم ميلة راية ، فأوعزوا الى ملك الروم ان يقاتله ، واوقعوا في قلبه ان سيف الدولة انما يريد أن يزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، فتم لهم بذلك ما ارادوا من صرف سيف

الدولة عن غزوهم وتمزيقهم ، واحتلال ارضهم ، وانتزاع السلطان من ايديهم . وكان سيف الدولة على علم بما يبيتون له من المكر ، فكان ينازل الروم ويواقعهم ، ويمدّ انتصاره وهزيمة الروم انتصاراً لدعوته العربية وهزيمة للاعاجم اصحاب هذا المكر ومن وقع في حبائلهم من العرب الذين لهم سلطان في سلطان هؤلاء . ولذلك كان وقع انتصاره في العراق وما وراء دجلة كوقع الصاعقة على رؤوس رؤوس الفتنة ، والذين تولوا كبر هذا المكر السيء والكيد الخفي .

وأجدّت هذه الوقائع — التي انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم — عداوة أصحاب السلطان من الاعاجم لدولة بني حمدان فطفقوا يعملون على تفريق شمل من اجتمع الى سيف الدولة وآزره ونصره ممن كان بالموصل والشام وغيرها ، وبذلوا في مسعاتهم أموالاً ... ولولا ما كان عليه سيف الدولة من الكرم والسخاء وبسط اليد للعافين والمريدين طبيعة مركبة في اصل خلقه ، لأعيوه ، ولأخرجوا من سلطانه أكثر من دان له ورضى به وبحكمه ، ولأعانهم على ذلك ما يرون من المظالم التي ارتكبها سيف الدولة مدة حكمه وسلطانه

هذا . . . . . . وقد كان أبو الطيب — حين دخل أنطاكية قاصداً أبا العشائر في سنة ٣٣٦ عالماً بأمر سيف الدولة ، مدركاً المكايد السياسية التي أحاطت بالرجل ، خبيراً بحقيقة ما استطاع سيف الدولة بأعبائه من إيقاظ الهمم العربية ، مستيقناً من أن غرض سيف الدولة فيما فعل إنما هو ضرب الضربة القاضية على الفتن التي أوهت قوة الدولة العربية وفتّت في عضدها ، وأن الرجل كان قد اتخذ لامره أحكم سياسة وأروعها وأحسنها وأدقها وأبلغها في الوصول الى الغرض المطلوب . وكان أبو الطيب نفسه ، يرمي بكل نفسه الى هذا الغرض الذي يسدّد اليه سيف الدولة ، فكان اتفاقهما في الغرض سبباً لاتصالهما وتوافقهما وتفاهمهما ، وما كان بينهما من المودة والحبّ والكرامة .

وأخرى أن أبا الطيب — كما وصفناه لك أولاً — كان يرمى ببصره الى (الرجل) ، الرجل الذي يجتمع في رجولته صفات الخير كلها ، وصفات الكمال بأسرها ، كما كان يراها قلبه ويحلم بها فؤاده وأوهامه . والرجل في أحلام أبي الطيب هو صورة مثّلها له ضميره ، من أحقاده وآلامه وثوراته . فهو الرجل الضرب الشجاع المستبسل الذي لا يهاب ولا يفتر ، بل يتقحّم ولا يزداد على البلاء الا مضاء وعزيمة ، وهو الرجل النافذ ببصره وبصيرته إلى اعقاب الامور لا يغبى ولا يغفل ولا ينام ، وهو الرجل الحارب الذي لا ينام ، ولا يصبر على ضيم ولا يقرّ على ظلم ، وهو الرجل الفتى العربي الذي داخل سياسة عصره فعرف أسرارها ، واتخذ لنفسه مدخلاً ومخرجاً فيها ، وأعمل فكره في إنقاذ أمته ، وجاهد في سبيل ذلك بقلبه وفكره ولسانه ويده . وكانت هذه الصّورة في دم أبي الطيب تدور فيه دوران الدم ، فاذا وجد (الرجل) حنّ اليه كأشدّ ما تجد من حنين الدم إلى الدم ، وأخلص له ، وبذل له ذات نفسه وضمير قلبه ، فتراه لا يمجّد نفسه في شعره الذي يمدح به (الرجل) ،

بل يبذل كل كريمة من الصفات لهذا الممدوح مضرباً عن ذكر ثورته ، تاركاً وعيده وانذاره وتهديده الا ان يخرج كما حدثناك قبل. وقد رأيت فيما مضى ان هذا قد وقع من ابي الطيب حين لقي بدر بن عمار الاسدي ، وهو الفتى العربي (الرجل). وهذه الظاهـرة الغريبة في شعر ابي الطيب تدل على انه ما كان يبغي بقوله اكتساب المال وادخاره للعيش ومرافق الحياة ، بل كان يريد ان يحقق آماله التي يسعى اليها في رد السلطان لقومه العرب الامجاد . ولهذا نجد الرجل لم يقر سنوات في جوار احد الا في جوار هذين العربيين (بدر بن عمار ، وسيف الدولة) ، وذلك لما كان يرى منهما من الجهاد في سبيل الغرض الذي انطوت عليه جوانحه . وكان سريع الفراق لمن مدح غيرهما ، إما لانه لم يجد عندهم عزماً إذا كانوا من العرب ، وإما لانه انما مدح بشعره للإجازة والمال الذي هو ملاك كل عمل إذا كانوا من غير العرب . فهذا موضع قوله في شعره لابي العشائر الحمداني

فسرت اليك في (طلب المعالي) وسار سواي في (طلب المعاش)

قالوا .... « كان أبو العشائر والي انطاكية من قبل سيف الدولة : فلما قدم سيف الدولة الى انطاكية ، قدم المتنبي اليه ، وأثنى عنده عليه ، وعرفه منزلته من الشعر والادب ، وذلك في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة : فاشترط المتنبي على سيف الدولة -- اول اتصاله به -- أنه -- إذا انشده مديحه -- لا ينشده الا وهو قاعد : وأنه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه : فنسب الى الجنون . ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلع الى ما يرد منه : فلما انشده قصيدته الاولى التي اولها « وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه » ، حسن موقعها عنده فقربه ، وأجازه الجوائز السنية ، ومالت نفسه اليه وأحبه ، فسلمه الى الروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة »

ونحن لا نسلم بكل ما ورد في هذا النص ولا نثق به إذ كان مروياً من غير ثقة مأمون معروف ، وانما هو مما يتداوله الادباء على علاته دون نقد او تجريح ، ويحسن بنا ان نحدثك عن نقده قليلاً ، فان في النقد بركة وخيراً ليست لشيء من الكلام

فأول ذلك ، ان هذا اللقاء في سنة ٣٣٧ بين سيف الدولة وأبي الطيب لم يكن اول لقاء ، ولم يكن اول تعارف بينهما ، فقد حدثناك قبل انه لقي سيف الدولة وأحبه ، وأحبه سيف الدولة في سنة ٣٢١ حين مدحه المتنبي بعد مخرجه من الكوفة متوجهاً الى الشام ، وكان لقاؤهما برأس عين من ارض الموصل الذي كان يدين لبني حمدان بالطاعة إذ ذاك . ولا شك ان سيف الدولة ، وكان إذ ذاك صغيراً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، قد فرح بمدح ابي الطيب له ، وأبقى ذلك أثراً في نفسه يجعله يتتبع شعر هذا الفتى العربي ومصيره . فهو كما ترى كان على معرفة به وبأدبه وشعره ومنزلته من الشعر والادب ، هذا فضلاً عما استنبطاه هناك من العلاقة بين بني حمدان وأبي الطيب

وجدنه ، وانهم كانوا يفضلون عابها ويكرمونها ، وأنهم كانوا على علم بما اصابها من نكبتها في ابنتها وحفيدها

واخرى ، . ان النص يقول إن أبا العشائر قدّم المتنبي الى سيف الدولة « وعرفه منزلته من الشعر والادب » وهذا عجيب من امر سيف الدولة الاديب الشاعر السياسي المطلع على كل ما كان في البلاد العربية ، المتتبع لكل حدث في السياسة والادب ، عجيبٌ أن لا يكون قد وصل اليه طرف من شعر ابي الطيب يعرف منه منزلته في الشعر والادب ، فيأتي ابو العشائر فيعرفه تلك المنزلة ! !

وثالثة : أن النص يقول ان سيف الدولة قد دخل تحت شروط المتنبي حين اشترط عليه انه لا ينشده الاّ وهو قاعد ، وأنه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه . ونحن لا ندري لماذا يدخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، ولا نعرف لماذا اشترط أبو الطيب هذه الشروط .... إذا كان قد جاءه على غير معرفةٍ متصلة بينهما ، وكان قد جاءه مستميحاً طالباً رفده وماله وفواضله . وهلاَّ أجل ذلك الى اجله ، فيمدحه وينشده حتى اذا حسن موقعه عنده ، اشترط عليه ما يريد ، فيتقي بذلك سوء الرد ، وينال بالاذن له بما يشترط رفعة تكبت حساده ، وتغيظ عداه ، ويكون فعله هذا ادل على حسن سياسته ، وسعة حيلته ، ويكون اشبه بتدبير أبي الطيب كما مر بك في مواضع من كلامنا ! !

والرابعة : ان في النص كلمة يراد بها الغض من ابي الطيب وتحقيره ونسبته الى الجفاء والعاظة والجلافة ، إذ زعم واضعها ان سيف الدولة سلم أبا الطيب « الى الروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة » . فقد كان أبو الطيب قبل اتصاله بسيف الدولة فارساً محارباً ولا شك ، وكان قد اتصل بكثير من اصحاب السلطان وأصحاب الفروسية والطراد والمثاقفة ، وقد مرّ بك انه كان قد دخل لبنان وشارك في الطراد والصيد ، وكذلك حين كان في جوار بدر ابن عمار وغيره ممن مدح ، ولا نظن ان أبا الطيب كان قد طوى هذه السنين كلها بالشام ، مع ما كان فيه من العجب بقوته وفروسيته وذكر ذلك في شعره ، ثم لم يأخذ نفسه بتعلم ذلك او المشاركة فيه — مع أنها كانت من الانتشار والذيوع بمكان لا يجهل

فهذه الرواية — كما ترى لا تصلح ان تكون سياقاً للقاء ابي الطيب سيف الدولة . واعلم ان اكثر ما يروى في ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، انما كان من الاحاديث التي تتناقلها مجالس الادباء ، ولا يراد بها التحقيق ولا ينظر فيها الى صدق الرواية وسياق التاريخ وما الى ذلك ، بل ان كثيراً مما يروى في تراجم رجالنا كان مما يراد به مضغ الكلام في مجالس الامراء او في سامر الادباء . — هذا على انها ربما حملت فيما تحمل اشياء لولا ورودها في هذه

النصوص لافتقدنا من حلقات التاريخ حلقات لا ينتظم امره الاّ بها ولا يستمر الاّ عليها . فلمثل هذا كان لا بد لنا من النظر في النصوص وتمييزها ، ورد بعضها والاخذ ببعض ، حتى لا تنقطع بنا السبل في الترجمة لهؤلاء الاعلام . فلا يغرنك هذا اذا قرأت ما نكتب ، او اردت انت ان تقرأ او تكتب

والسياق التاريخي عندنا للقاء أبي الطيب سيف الدولة هو ما ترى :

نزل ابو الطيب ضيفاً على أبي العشائر ، يمدحه ويخبره ويروز ما عنده من الهمة ، وما في هذه الهمة من المطالب ، وما في مطالبه من الموافقة لما في ضميره من الآراء والاحكام . وكان يريد بذلك ان يكون على كثب ومقربة من بني حمدان (الذين منهم أبو العشائر) ، ليحقق في نفسه ماعرف عنهم من خبر ، وليرى رأيه في البقاء معهم أو مفارقتهم ضارباً في الارض على ما كان عليه من قبل حتى يأذن الله له ، ويأتيه بالمواتي الموافق الذي يستطيع ان يهب له قلبه وحبه ، ورأيه وحكمته وتجربته وخبرته ، وآراءه في السياسة الدولية التي كان جاهداً في معرفة خفياتها ومضمراتها طول حياته . وكان يخصّ بارادته هذه سيف الدولة وهو عَلَمُ بني حمدان اذ ذاك ، والمستولي على الأمد من رجال عصره، والذي عهد فيه ابو الطيب حين رآه في سنة ٣٢١ رجولة متحفزة للوثبة، وسمع من اخباره ما يكاد يحقق نبوءته في ظفره وفلجه على خصومه وخصوم أبي الطيب نفسه

وبقي أبو الطيب سنة في ظل أبي العشائر ، وكان فتىً من فتيان بني حمدان ، قد جمع أداة الفتوة ولم يستكملها ، وكان اديباً مقتدراً مولعاً بالادب ، مبجلا للادباء عاطفاً عليهم معيناً لهم ، وكان شاعراً تقع له الدرة الجميلة في شعره ، والنادرة البديعة، غير متعمد ولا جاهد . وأحب ابو الطيب صاحبه أبا العشائر ، واحبه ابو العشائر واكرمه واحتفى عليه من كرمه ولينه وحنانه ، وقد حفظ له ابو الطيب هذه اليد التي له عنده ؛ حتى انه لما غضب عليه بعد — لامر سيأتي ذكره فيما يستقبل من كلامنا — وارسل الى ابي الطيب بعض غلمانه ليوقعوا به وهو بظاهر حلب ورماه احدهم بسهم اخطأه ، وقال له وهو يرميه : خذه ، وانا غلام ابي العشائر — لم يحفظ ذلك أبا الطيب على أبي العشائر ، ولم يستدع هذا العزم على قتله هجاءه أبا العشائر ، بل قال ..

ومنتسب عندي الى من احبُّه وللنَّبل حولي من يديه حفيف
(فهيَّج من شوقي —وما من مذلَّة حننت — ولكن الكريمَ ألوفُ)
وكل وداد لا يدوم على الاذى —دوام ودادي للحسين—ضعيف
(فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن ألوفُ)
ونفسي له — نفسي الفداء لنفسه — ولكنّ بعض المالكينّ عنيف
(فان كان يبغي قتلها —يك قاتلاً بكفيه— فالقتل الشريف شريفُ)

وهذه الحادثة وما كان من أبي الطيب فيها، وما قال من الابيات السالفة دليل قاطع على ان الرجل كان إذا أحبّ وأخاص الحبّ لم يحوّله شيءٌ عن حبّه، وأن هجاءه الذي كان منه لبعض من مدحهم، إنما كان منه لانه لم يكن يضمر لهم حبًّا ألبتّة، بل كثيراً ماكان يخفي بين جنبيه احتقارهم وازدراءهم، ولولا الضرورة لما مدحهم ولا قصدهم ولا وقف بأبوابهم. وهي أيضاً دليلٌ على ما قطعنا به — في موضعٍ من كلامنا — من أن أبا الطيب كان ودوداً ألوفاً، كريم الخلق، وفيًّا لمن وفى له وأحبّه وباذله الودّ. وقد صدق صاحبنا إذ وصف نفسه يوماً ما فقال

خلقتُ ألوفاً، لو رجعتُ إلى الصّبا لفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلب باكيا

وهذا موضعٌ من أخلاق أبي الطيب ونفسيته ينبغي الوقوف عنده وتدبره، إذ كان كثيراً ما يعترض به المعترضون حين يذكرون أخلاقه، حتى أنهم من اضطرابهم في فهم أخلاق الرجل ونفسيته رموه هو بالاضطراب والملل في الصداقة والودّ، وليس الامر على ما ظنوا، بل هو كما ترى في كلامنا هذا. ورحم الله أبا الطيب، فقد حمل من نكد الدنيا في حياته وبعد موته ما لَقي من أرزاء

هذا . . . . ، وقد لقي أبو الطيب وهو في جوار أبي العشائر — كما حدثناك في الباب السابق — كيداً كثيراً، وتقوّل عليه المتقوّلون ما شاؤوا، وآذوه وكثّروا عليه الوشاية والسعاية [illegible] ، وكان ما زعموه من [illegible] به إذ نبزوه باللقب الذي عرف به بعد وهو (المتنبي). ولم يكن كل ذلك مما يرد أبا الطيب عن غايته التي قصد من أجلها أبا العشائر فبقي صابراً حتى كانت سنة ٣٣٧

ففي جمادى الاولى من هذه السنة قدم سيف الدولة — من حربه مع الروم وظفره بحصن برزويه — إلى أنطاكية التي كان بها أبو العشائر وأبو الطيب، فاستقبله أبو العشائر، وأبلغه ما كان من مقدم أبي الطيب عليه، وإكرامه له، ووصف له ما حَسُن عنده من خلق أبي الطيب، وما وجد فيه من الفتوّة والمروءة، وما أعجب به من حسن عشرته، وجميل أدبه في المنادمة والمسامرة، وما عليه أبو الطيب من الطبيعة الثائرة الجبّارة، وما انطوى عليه قلبه من محبّة العرب وبغض الاعاجم، وما سمعه من آرائه في سياسة الأمة، وما ابتليت به من البلاء الاعجميّ والفتن الآكلة رطب الحياة العربية ويابسها، وذكر له شعره الذي مدحه به . . . . . فذكر سيف الدولة ذلك الفتى العربي الصبوح الوجه الحسن السَّمت صاحب الوفرة المسترسلة التي تسيل الى شحمتَيْ أذنيه، ذكر ذلك الذي أنشده مديحه في سنة ٣٢١ وهو يتدفق بفصاحته وبيانه، ويتقالع بقوته وشدّته وحماسته وحدّة شبابه، ذكر سيف الدولة تلك الشخصية الطاغية بسحرها وجمالها

وجلالها ، والتي لا تدع للنسيان في الذاكرة يداً ماحية أو مفسدة . . . وقد كان أبو الطيب كما وصفوه « رجلاً يملأ العين . . . . قوياً بديناً خايفاً شخيصاً، عادي الخلق ، قوي الاساطين ، وثيق الاركان ، جيد الفصوص ، فيه جفاء وخشونة » . ذكره سيف الدولة واستيقظت في قلبه المحبة النائمة في غوره ، وتجمعت له اخباره التي كان قد سمعها عنه من سنة ٣٢١ إلى هذه السنة . فتقدم الى ابي العشائر ان يستدعيه لساعته ، شاكراً له حسن وفادة الرجل واكرامه له

وكذلك لاقى العربي الثائر الشاعر الفذ ، العربي الفاتح الغازي المجاهد الفذ ، على شوق وحنين . وحن الدم الى الدم ، وعلقت النفس بالنفس ، وتعانقت القلوب في ساعة من غفلات الدهر — اخرجت كلا الرجلين عن طوره . وكان هذا اللقاء الثاني فاتحة مجد ابي الطيب وخلود ذكر سيف الدولة في شعره وبيانه

وفي هذا اللقاء التاريخي الذي انتفضت فيه القلوب ، ورمت بأسرارها وأشواقها ، ثارت نفس الرجل البابغ ، واجتمعت لها كل حوادثها وما مر بها من الاهوال ، في مجلس امير العرب الفاتح المجاهد الظافر ، وتقاذفت المعاني من قلبه الى لسانه ، ووقفت محبوسة في هذه الابيات التي ضمها الشاعر الى قصيدته بعد في مدح اميره وامير قومه [1]

ساكنت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه

مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه

(فأبصرت بدراً لا يرى البدر مثله وخاطبت بحراً لا يرى العبر عائمه)

ثم قال البيت الذي تنازعته كل عواطف قلبه ، ونوازع فؤاده ، وآراء فكره ، وفصيح بيانه

(غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف ، والشعر تهذي طماطمه)

وكان ذلك بدء المجد الخالد الذي بقي للعرب في صفة امير فذ من امرائهم ، رد به القدر عادية الروم عن بلد من بلادهم ، لا يزال معقلاً للعرب والعربية الى يوم الناس هذا ... ألا وهو الشام الذي يضم فلذة اكباد الفاتحين من المهاجرين والانصار ، ومن سبقهم اليها في الجاهلية من الغرانيق الصباح من بني غسان ، وكان ذلك ايضاً بدء المجد الخالد للسان العربي ، والفكر العربي الصريح في ديوان شاعر فذ من شعراء العربية ، لم يرزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . . . . ألا وهو أبو الطيب المتنبي واحد الشعراء الذي جاء (فملأ الدنيا وشغل الناس)

ولا بد لنا من الوقوف قليلاً عند هذا الموضع من الكلام ، وندع صفة ما نحن فيه من لقاء الاسدين العربيين الفاتحين . زعمنا لك فيما مضى أن تلك الابيات الاربعة كانت مما ثار في قلب أبي الطيب في هذا المجلس الاول ، قبل أن يحتفل بيانه لقصيدته الاولى التي أنشدها سيف الدولة في .

(١) انشد ابو الطيب هذه القصيدة في مجلس آخر غير هذا المجلس الذي وصفناه لك

تلك السنة وهذا موضع تدبر وبصر، لانحبُّ أن ندعه قبل أن نسوق اليك من أخباره طرفاً حتى تنهج لنفسك نهجاً مقارباً يعينك على استخراج أسرار أبي الطيب، واستنباط ما كان يلجُّ في نفسه من العواطف... بلى، وهو عندنا قانونٌ من قوانين شعر أبي الطيب ونفسه تستطيع به أن تعرف خفيات ما في شعره من ضمائره ومبهماته. هذا، وسنكشف لك عنه فيما يستقبل كشفاً مبيناً إن شاء الله[1]

كان أبو الطيب على ما وصفنا لك من قوة النفس، وحدّة الطبيعة، مرهف الحسّ، سريع التأثر، تنطلق عواطفه كلها في ساعة من ساعات حياته، فلا تلبث أن تستثير كل قوّة فيه، وتجتمع كلُّ قواه حين ذلك ماضية من قلبه الى لسانه لتثبت عليه عدد هزات الزلزلة التي وقعت في قلبه ونفسه، ويفزع لسانه إلى بيانه ليبين عنه ما يبغي من الإبانة، فيحتفل بيانه كله في أبياتٍ قليلة تكون هي أول القصيدة عند أبي الطيب، ثم يدخرها صاحبنا لأجلها وموضعها، فيثبتها في مكانٍ من شعره. وكثيراً ما تقع هذه الابيات في موضعٍ لا تتساوق فيه معاني الكلام على قاعدة مطّردةٍ من حقّ المعنى وتتابُعه، فلذلك تبقى هذه الابيات التي تحمل في ألفاظها هزات نفسه واقعةً بين كلامين، ولا تكون هي صلةً بينهما، بل تكون كالفارق الفاصل. وهذا هو ما نسميه في شعر أبي الطيب موضع (الانتقال). ومن مواضع الانتقال هذه تستطيع أن تستنبط الحالة النفسيّة التي كان عليها الرجل. فإذا تبصّرت فيها، واستخرجت معانيها، وفصّلت كلامها وألفاظها، وفسّرته على الاصول الشعرية والنفسيّة النائمة في شعر أبي الطيب ونفسه كما قدّمناها لك — استطعت أن تتلمّس في ظلام التاريخ الحلقات التي ينبغي لك أن تصل بعضها ببعضٍ، فيسري التيّار بينها فتضيء لك، فتنكشف المعاني في شعر الرجل، وتتبيّن المواضع الغامضة المظلمة من حياته.... وهذه هي الطريقة التي اتبعناها فيما كتبنا مما مضى بك، وقد تحققنا صدقها، وإسعادها في المشكلات التي وفقنا إلى تفسيرها أو نقدها أو تمييزها

ويجمل بنا هنا أن نعود بك الى الابيات التي ذكرناها، ونبيّن ذلك فيها..... ولسألك أن تعذرنا اذا قصّرنا، وأن تسدّدنا إذا أخطأنا، وأن تصبر على ما نستطرد فيه من الكلام بصبرٍ لا يفتُّ منه الملل، فلا حكم لملول ولا متترّع

يقول أبو الطيب قبل الابيات التي رويناها لك يصف سيف الدولة

له عسكرَا خيلٍ وطيرٍ، اذا رمى بها عسكراً لم يبق الا جماجمُهْ
أجلّتها — من كل طاغٍ — ثيابه ومَوطئها — من كل باغٍ — ملاغمُهْ

. . . .

---

(١) انظر لذلك الباب الثالث عشر من حديثنا عن المرأة التي صنعت لأبي الطيب حكمته، وأيدت بيانه ببيانها النسوي البليغ

سحابٌ من العقبان يزحفُ تحتها سحابٌ إذا استسقت سقتها صوارمهْ

ثم (ينتقل) أبو الطيب من ذكر الحرب ، وصفته جيوش سيف الدولة ، وما كانت تأتي به من اهوال الحرب ، وما يكون منها في ساحة الوغى فيقول غير متخلص الى غرضه — على ما يريد علماء البلاغة !! من حسن التخلص فيقول يصف نفسه وما لاقى هو من الاهوال والمهالك

سلكت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيداتٍ قوائمه

الابيات الاربعة التي آخرها

مخضبتُ له لما رأيتُ صفاتهِ بلا واصفٍ ، والشعر تهذى طماطمهْ

ثم (ينتقل) بعد هذا البيت انتقالاً آخر فيقول يذكر نفسه ورحلته

وكنت اذا يممت ارضاً بعيدةً سريت فكنت السرّ والليل كاتمهْ

ثم (ينتقل) ايضاً بعده فيذكر سيف الدولة . . . فيقول

لقد سل سيفَ الدولة المجدُ معلماً فلا المجد مخفيه ، ولا الضرب ثالمهْ

فلهذه الانتقالات المتتالية وقفنا عند الابيات الاربعة التي قدمناها ، وتبصرنا فيها وفي معانيها ، وفي دلالات ألفاظها واحدة واحدة ، ورددنا البصر الى مقدم أبي الطيب الى انطاكية في جوار ابي العشائر سنة ٣٣٦ ، ثم مقدم سيف الدولة اليها في سنة ٣٣٧ ، ثم في اللقاء الذي رووا خبره على علاته ، ونفضنا الابيات ومعانيها وتلمسنا الحلقات في ظلام التاريخ والترجمة ، فوصفنا لك اللقاء الذي كان في تلك السنة بين ابي الطيب وسيف الدولة ، ونحن ننظر بعين لا تحسر الى ما قدّمنا من التاريخ في صدر هذا الباب ، وما عرفنا من خلق ابي الطيب وآرائه واغراضه وآماله ، وما وقفنا عليه من خلق سيف الدولة وآرائه واغراضه وآماله ، ثم حكمنا كما رأيت انها كانت اول ما قال ابو الطيب من قصيدته تلك وأتممنا الرأي على ذلك ، واعتمدناه وسرنا على بركة الله . فانظر ماذا ترى [1]

ثم نعود الى ما كنا فيه . . . . . . لقي ابو الطيب سيف الدولة ، وخرج من مجلس امير العرب ، وهو يقول كما قال اولاً في بعض من مدح بأنطاكية

مفدّى بآباء الرجال ، سميذعاً هو الكرم المد الذي ما له جزرُ

وما زلت حتى قادني الشوق نحوه يسايرني في كل ركب له ذكرُ

واستكبر الاخبار قبل لقائه فلما التقينا ، صغّر الخبرَ الخُبرُ

(١) اعلم اننا اذا أردنا ان نقفك عند لفظ لفظ من الابيات ، ونكتب لك الرأي كله مقيداً ، لطوينا بذلك ورق من هذا الحديث ، ولكان ذلك قاطعاً لنا عن اتمام هذا العدد من المقتطف . فلا بد لك اذن من النظر ، ثم النظر ، ولعلك بالغ بقوتك ما لم نبلغه بضعفنا وفقنا الله واياك

واحتفلت نفس الشاعر الثائر النابغ لهذا اللقاء ، ونسي نفسه وما كان يذكرها به من القوة والفتوة ، وما كان طول عمره يصفها به من صفات الرجولة والكمال ، ووجد آماله في آمال سيف الدولة ، وآراءه في آرائه ، وعواطفه في عواطفه ، فألقى في مديح (الرجل) كل نفسه وآرائه وأفكاره وعواطفه وألغى ذكر نفسه ، ورمى بين يدي سيف الدولة الدرة الاولى في تاج بني حمدان مشرقة متلألئة تسطع وتتضوأ . وفي هذه القصيدة الاولى التي اولها « وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه » رجعت الى ابي الطيب قوة التصوير والتمثيل فرسم صورة سيف الدولة كأحسن ما تأتي من بنان مصور صَنَع لبقٍ مبدع ، ووصف المجلس الذي كان فيه سيف الدولة كأنك تراه . وذلك انه دخل عليه وقد جلس في فازة (١) من الديباج عليها صورة ملك الروم ، وصور رياضٍ بدوحها وطيرها ووحشها وحيوانها . فكان مما قال في صفة تلك الفازة والاسد المقعي في ذراها

وأحسن من ماء الشبيبة كله	حيا بارقٍ في (فازة) أنا شائمه
عليها رياض لم تحُكْها سحابة	وأغصان دوحٍ لم تغنِّ حمائمه
وفوق حواشي كل ثوب موجَّهٍ	من الدرّ ، سمط لم يثقّبه ناظمه
ترى حيوان البر مصطلحاً به	يحارب ضدٌّ ضدَّه ويسالمه
إذا ضربته الريح ماج ، كأنه	تجول مذاكيه ، وتدأى ضراغمه (٢)
وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة	لأبلج ، لا تيجان إلاّ عمائمه
تقبل أفواه الملوك بساطه	ويكبر عنها كمه وبراجمه (٣)
قياماً لمن يشفي من الداء كيُّه	ومَنْ بين أذني كل قرم مواسمه
قبائعها تحت المرافق هيبةً	وأنفذ مما في الجفون عزائمه (٤)
له عسكرا خيل وزجل اذا رمى	بها عسكراً لم يبق إلاّ جماجمه
أجلّتها من كل طاغٍ ثيابه	وموطئها من كلّ باغٍ ملاغمه
(فقد ملّ ضوء الصبح مما تغيره	وملّ سواد الليل مما تزاحمه)
(وملّ القنا مما تدقّ صدوره	وملّ حديد الهند مما تلاطمه)

. . . .

(١) الفازة : المظلة تقوم على عمود في وسطها . وهي اشبه بما يتخذه الناس في يومنا هذا على شواطىء البحار

(٢) يصف الخيل (وهي المذاكي) والاسود وهي تختل صيدها من الظباء النافرة

(٣) البراجم : مفاصل الاصابع

(٤) القبائع : ما يكون على قوائم السيوف من الحلي ، يعني السيوف المحلاة بالذهب والفضة

لقد سلَّ سيفَ الدولة المجدُ معلماً — فلا المجدُ مخفيهِ ، ولا الضربُ ثالمهْ
على عاتق الملكِ الاغرِّ نجادُه — وفي يدِ جبَّار السموات قائمهْ
تحاربه الاعداءُ ، وهي عبيدُه ، — وتدَّخرُ الاموالَ ، وهي غنائمهْ
ويستكبرون الدهرَ والدهرُ دونه ، — ويستعظمون الموت، والموت خادمهْ
وإن الذي سمَّى عليًّا لمنصفٌ — وإن الذي سمَّاه سيفاً لظالمهْ
وما كلُّ سيفٍ يقطع الهامَ حدُّه — وتقطع لزباتِ الزمان مكارمهْ

فاقرأ ثم اقرأ ثم تدبر ثم عُد إلى النهج الذي أشرنا اليه في الحديث عن بدر بن عمار ، ووصفه الأسد هناك ، وقارن بين ما ترى هنا وما ترى ثمَّ تجد التقارب بيّناً واضحاً ، والنفس الشعري البالغ العظيم ممتدًّا من زمان بدر إلى هذا الزمان غير منقطع . وتدبر هذه الابيات الاخيرة وما وسمها به أبو الطيب من ميسمه الذي يتلذع بنار قلبه ، والذي صار علامةً بيّنةً في كل شعره الذي قاله في سيف الدولة بعد هذا . وفي الذي قدَّمنا ذكره وما أشرنا اليه كفاية للبصير المتدبر

وبقي سيف الدولة بأنطاكية أشهراً من سنته تلك ، وأبو الطيب الى جواره وفي مجلسه ، وبين أصحابه وفي ركابه . واستصفاه سيف الدولة ومنحه بشره وقربه . وامتدَّ الحديث بينهما في بعض الخلوات عن شؤون الدولة وما وقع فيها ، وما ادركها من الضعف والوهن ، وما كان لوقته من أسباب ذلك . ورأى سيف الدولة ان محدّثه رجل داهيةٌ بصيرٌ محنَّك قد نجَّذته الحوادث ، وله رأيٌ ومعرفةٌ وأسرارٌ قد استجدَّها بعد اللقاء الاول في سنة ٣٢١ ، فضلاً عما كان يعرفه — فيما زعمنا — من نكبته الاولى في نسبه من قبل العلويين أصحاب الامير بالكوفة ، فزاده قرباً وكرامةً ومحبَّةً ، لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، وكان ذلك عجباً في أنطاكية وغيرها ، لما عرف من صرامة سيف الدولة وتحرزه وتشدُّده حتى على الكثير من أهله . فانظر إذا أردت الى ما كان بين سيف الدولة وأبي فراس الحمداني ، فإن القرابة والرحم لم تنفع أبا فراس في القرب من سيف الدولة — مع أنه كان متحققاً بخدمته ، ذاهباً في طاعته ومرضيته ، حامياً لحقيقته ، مفدّياً له في حروبه وغزواته بنفسه ودمه ، ممجّداً له في شعره ، مخلّداً ذكر غزواته وحروبه — كلّ هذا لم يقرّب أبا فراس من سيف الدولة قرب أبي الطيب منه ، مع تقدُّمهما في الشعر والادب ، ومع ان أبا فراس كان اولى بالتقديم والتكريم من أبي الطيب لحسن بلائه في الحرب وقدم عشرته لسيف الدولة ، وسبقه في تمجيده وتخليد ذكره وذكر حروبه . فلذلك نقول لك ان تقديم سيف الدولة أبا الطيب على سائر شعرائه المستظلين بظله ، والمبتدرين في طاعته وخدمته ، لم يكن من اجل الشعر وحده وحسب بل للذي بلاه سيف الدولة من آراء ابي الطيب وافكاره وعواطفه في الامور السياسية التي كان يسعى في تحقيقها وإتمامها والقيام عليها بسيفه وخيله ورجله ، ورجاله

المحنكين من ذوي الدهاء والخبرة والمعرفة والعلم . وقد قدمنا ذكر مطالب سيف الدولة في اول هذا الباب (١)

ثم عزم سيف الدولة الرحيل عن انطاكية الى حلب مقر حكمه ، ولكن ابا الطيب لم يستطع ان يصحبه في رحيله هذا ، فعزم عليه سيف الدولة ان يلحقه بحلب . وعندنا ان الذي عاق أبا الطيب عن صحبة سيف الدولة في هذا الرحيل امرٌ يخصهُ هو، وليست له فيه ارادة . وقد قلّبنا الراي في شعر المتنبي في تلك الفترة وما بعدها بقليل ، وتدبرنا كلام الرجل على الاصول التي قدمنا لك منها اطرافاً في كلامنا ، وظفرنا باشياء دلتنا على ان هذا الامر الذي عاقه كان مما يقطع في قلبه ويوجعه في عواطفه . وتبين لنا ان هذا الامر هو مرض زوجته والظاهر انها كانت حاملاً ثم جاءها المخاض فأعضلت وعسرت ولادتها ثم رمت ذا بطنها وماتت ، وكان مرضها ذلك في حملها وما تركت له وراء ظهرها -- ولعله مات بعد اشهر قبل ان يستمسك — هو الذي منع ابا الطيب ان يصحب سيف الدولة يوم رحيله من انطاكية

وتأويل ذلك ، ان ابا الطيب كان ولا شك عازماً على رفقة سيف الدولة ولولا ما فجئه مما لا حيلة له في رده لفعل . فانه حين أزمع سيف الدولة الرحيل عن انطاكية قال له أبو الطيب

نحن من ضايقَ الزمان له فيـــك ، وخانتـــه قربك الايامُ

وقال ايضا في يوم رحيله وقد كثر المطر وكاد يعوقه عن عزمته

رويدك أيها الملك الجليلُ تأنَّ ، وعُدَّه ممـا تنيلُ
وجودَك بالمقَام ولو قليلاً فما فيما تجود به قليلُ
لأكْبِتَ حاسداً وأرى عدوًّا كأنهما وداعك والرحيلُ

فهو في البيت الاول يذكر ما يبتليه به الدهر من العوائق، وما يضايقه به من الارزاء التي تحول بينه وبين ما يروم من صحبة سيف الدولة والقرب منه ، وقد خصَّ نفسه بذلك اذ يقول « نحن من ضايق الزمان له فيك » . ولا نظنُّ أن قد كان إذ ذاك ما يمنع أبا الطيب من الرُّفقة إلاّ ما يخرج عن إرادته ، ويقع بينه وبين عزمه . فلما كاد المطر يعوق سيف الدولة، بان الفرح في كلام أبي الطيب مقروناً بالحسرة لما يعلم من أن ذلك لن يقطع فيما أبرم من عزمه ، فسأله أن يبقى قليلاً بأنطاكية ، وتعلّل له بعلّته التي ذكرها . وكان أبو الطيب إذ ذاك متأثراً بالحالة التي عليها امرأته ، فوقع في بيتٍ من قصيدته الاخيرة التي ذكرنا أولها ما يدُل على ما في نفس الرجل من آثار ما كان فيه من الكرب على عادته التي أسلفنا بيانها في مواضع فقال لسيف الدولة

---

(١) سوف تجد بقية الحديث بعد قليل في هذا الباب ، فاجعله منك على ذكر

فلو جاز الخلودُ خلدْتَ فرداً (ولـكن ليس للدنيا خليلُ)

فهذا الحزْنُ الغالب على الشطر الاخير ، والتمثُّل في كلامه ، وفي عبارته عن المعنى الذي أرادهُ حين استدرك بقوله « ولـكن » ، بعد ما كان من فرحه وطربه وتدفـق نفسه بالآمال ، واستبشاره بلقاء سيف الدولة ، والذي كشفت عنه قصيدته الاولى « وفاؤكما كالربع أشجاهُ طاسمه » على ما مضى في كلامنا -- يدُل على أن الرجل كان قد أدركه ما أحزَنه وغمّ قلبه ، وردّ عليه فرح نفسه غمّاً وحسرةً وتشاؤماً من الدنيا ، وما يكون فيها من بلايا الدّهر بالفراق والموت . وهذا بيّنٌ كما ترى

وانتقل أبو الطيب -- بعد موت امرأته بقليل -- من أنطاكية إلى حلب ، ثم ماتت والدة سيف الدولة فقال له في عزائه قصيدته المشهورة ، وأوّلها من دموع أبي الطيب التي كان يبكي بها ، وقد جاء فيها

نصيبكَ في حياتك من حبيبٍ نصيبك في منامكَ من خيالِ [١]
رماني الدّهرُ بالارْزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبـالِ
فصرْتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسَّرتِ النصالُ على النصالِ
وهان فما أبالي بالرزايـا (لاني ما انتفعتُ بأن أبالي)

. . . .

(يدفّن بعضنا بعضاً وتمشي أواخرنا على هام الاوالي)

وهذا الحديث عن نفسه ومصائبها ورزاياها ، وما فيه من الحزْن الغالب على عقله وعواطفه بعد الذي كان من أفراحه ، دليلٌ على ما قدمنا من أن الرجل كان قد أصيب وابتلي ببلاءٍ آلمه وحزّ في قلبه ، لا يزال يدفعهُ إلى القولِ الباكي الحزين . ثم يستمرُّ على ذلك في شعره مدّةً ، فإنه في هذه السنة نفسها (سنة ٣٣٧) قال وهو يمدح سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان من أسر الخارجي

تفكُّ العناةَ ، وتُغني العفاةَ ، وتغفـرُ للمـذنبِ الجـاهلِ
فهنّـأك النصرَ معطيـكهُ وأرضاه سعيُك في الآجلِ

يعني سيف الدولة -- وكان حق الشعر ان يقف به أبو الطيب عند هذه الدعوة الصالحة بالظفر الذي كان ، والعمل الصالح فيما يستقبل . ولـكن نفس الرجل كانت مضطربة متأثرة ، قد غلبها الحزن . وغمّتها الدنيا (التي ليس لها خليل) بما جابت عليها من ارزاء ومصائب ، فانتقل على عادته غير متخلص ولا حافل (بالمناسبة ومقتضى الحال) فقال في عقب البيتين

(فذي الدارُ أخون من مُومِسٍ وأخدع من كِفَّـة الحابلِ)
تفانى الرجالُ على حبها وما يحصلون على طائلِ

فأنت ترى ان هذه المعاني التي قيدناها لك ، آخذ بعضها برقاب بعض ، على طراز لا يختلف من الحزن والكرب . هذا ، وقد كان سيف الدولة سأل ابا الطيب بعد ذلك ان يسير معه الى الموصل لما ازمع هو المسير الى نصرة اخيه ناصر الدولة ، فاعتذر له ابو الطيب عن المسير معه بقوله

كن حيث شئت فما تحول تنوفة دون اللقاء ، ولا يشط مزار
(إن الذي خلفت خلفي ضائع ما لي على قلقي إليه خيار)
(واذا صحبت فكل ماء مشرب لولا العيال – وكل أرض دار)
إذن الامير بأن أعود اليهم صلة تسير بذكرها الاخبار

فلو ان امرأته كانت إذ ذاك باقية لم تمت ، لما عز على ابي الطيب ان يفارق عياله في رفقته وصحبته . ويبين من قوله (إن الذي خلفت خلفي ضائع) انه يعني صغيراً من ولده لا يطمئن قلبه اذا فارقه مضيعاً ليس له من يعوله او يكلؤه ويرعاه ، وأتم ذلك المعنى بقوله « مالي على قلقي اليه خيار » . وفي الابيات جميعها حنان الأبوة ماثل بيّن لا خفاء فيه . . . وحسبك هذا من كلامنا ، فاذا رجعت الى الديوان فتدبر قصائده بعد ذلك ، ففيها من مثل هذا كثير . ولا يفوتك ان تذكر ما قدمناه من دقة احساس هذا الرجل ، وسرعة تأثره ، وظهور هذا التأثر في شعره اذا كربه أمر يغمه أو يثيره أو يهيج كبرياءه . وما يكون من جراء ذلك في شعره من الانتقال من معنى الى معنى غير عابئ (بحسن التخلص ومقتضى الحال) ، ولا تنس ان تقرأ هذه الابيات الثلاثة في موضعها من الديوان متدبراً متبصراً ؛ وهي قوله

أبكي لموتانا ، على غير رغبة تفوت من الدنيا ، ولا موهب جزل
إذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقنت ان الموت ضرب من القتل
(وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة، وان يشتاق فيه الى النسل)

اجتمع على أبي الطيب كما ترى في اول صحبته لسيف الدولة أفراح قلبه بلقاء امير العرب الذي أحبه وأمل فيه الخير والبركة والنصر لآرائه وافكاره وسياسته ؛ وأحزان قلبه بفقد امرأته ثم صغيره الذي جدد له ما بقلبه من احداث الزمن ومصائبه من الآلام . فكان تنازع الفرح والحزن في تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة سبباً في استخراج كوامنها ومضمراتها وذخائرها . واخذ ابو الطيب يروز ما عنده من العواطف والافكار ، ويتأمل ما تجدد في قلبه من المعاني التي ولدتها الافراح والآلام ، ويستوعب ما في ضميره من الاحداث القديمة التي تركت وسمها فيه ، ويرمي ببصره الى ما يستقبله في ظل سيف الدولة ، وينظر فيما وجد عند الامير من العطف عليه والاكرام له ، وتقديمه على القدماء من اصحابه وشعرائه ورجاله ، وشغلته الايام بما يتجدد فيها

مما يخصه ومالا يخصه ، وحوته المجالس مجالس العلم والادب والشعر والسياسة ،واحاطت به الدنيا كلها مهيأة كانما أُعدّت له ، ليأخذ منها ما شاء ويدع ما شاء ، ... فكان هذا كله ترفّقاً من القدر لصنع هذه الشاعرية الفذّة وتربيتها وتغذيتها وتنشئتها على غرارٍ فذٍ ، يكون به ابو الطيب شاعر العرب والعربية الذي(ملأ الدنيا وشغل الناس)

وكان تنازع الفرح والحزن في تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة حدًّا لها من غلوائها ، وصرفاً لها عن الفكر في الكبرياء ، الى الكبرياء في الفكر ، فاصبح ابو الطيب ينظر في الحياة نظرة التدبر والتمحيص، يقلب الرأي، ويَعبر الفكرة ، ويقيس الاشباه والنظائر ، ويردُّ الامور الى اصولها ومنازعها ، وينتزع جوهر المعاني من بين اعراضها ، لا يأتلي في ذلك جهداً ولا يقصّر . فمن هنا تواردت عليه المعاني ، واتخذت لها بين قلبه وفكره منزلاً ومقرًّا ، فاذا قصد إلى الشعر واحتفل له بيانه وروافد هذا البيان من الحوافز والدوافع والعواطف ، ابتدرت هذه المعاني من منازلها بين قلبه وفكره الى منازلها بين اياته وقصائده . وهذا هو احد الاسرار العظيمة في بيان هذا الشاعر العظيم

وتلألأ مجد سيف الدولة في شعر ابي الطيب فقربه وزاده عطاءً واقطاعاً، واسبغ عليه نعمة لم يكن ابو الطيب ينتظر مثلها أو يؤمله ، فوقع ذلك من نفسه موقع الامنية التي تحققت من نفس اليائس الذي ضجر بامانيه وقد استيقنت نفسه انها لن تحقق ، وكان هذا ايضاً — مع الحزن والفرح اللذين يتنازعان في نفسه — عوناً على صنع شاعرية الرجل وصقلها وجلائها ،لتكون المرآة التي تتراءي فيها حقائق الحياة وفلسفتها وحكمتها وبيانها وما لها وما عليها

ولم يكن سيف الدولة يجهل ما سيكون من هذا الرجل اول ما لقيه ، بل يقيننا أنه كان قد انكشفت له نفسية أبي الطيب فأخذها من حيث ينبغي أن تؤخذ ، وعرف أن هذا الذي مدحه بأنطاكية سيكون مخلّد ذكره، وحافظ أخباره وصفاته في شعره ، وليس مثل سيف الدولة من يغفل عن ذلك أو يتجاوزه بصرهُ . فقد كان سيف الدولة أديباً شاعراً قد اجتمعت له من أداة الأدب والشعر أداة كاملةٌ متقنة ، وكان بصيراً بنقد الشعر ، نافذاً في إدراك أسرار البيان وأيضاً . . . فقد كان ما عليه سيف الدولة مما ذكرنا ، من أكبر العوامل في شعر أبي الطيب ، فإنه كان يعرف يقيناً بصر صاحبه سيف الدولة بالادب والشعر ، فحمله ذلك على الإجادة والتبصّر ، وتقليب المعاني واختيارها ، واصطفاء أثوابها من الالفاظ واجتبائها ، وكان ذلك من أبي الطيب لما في نفسه من الكبرياء والعظمة ، إذ لو لم يفعل ذلك لعلا عليه في نظر سيف الدولة أحدٌ غيره من الشعراء أو لسواه به ، وصاحبنا هذا لا يرضى بأن يسبقه الى سيف الدولة غيرهُ من الشعراء ، فهل يرضى بالمساواة ؟ . . . كلاّ ، وكذلك فاقَ أبو الطيب كل من سبقه أو جاءَ

بعدهُ من شعراءِ العربية ، فقد اجتمع له من الدوافع وغيرها ما لم يجتمع لأحدٍ منهم

وبعد أيضاً ، فقد كان من العواملِ في هذا النبوغ الفذّ الذي استعلن في أبي الطيب ، ما أصاب من الاستقرار والاطمئنان في جوارِ سيف الدولة ، وما تيسّر له من الرّزق الذي لم يكلّفه همّاً ولا كرباً ، بعد أن كان لا يمضغ لقمةً من عيشه الاّ ومعها نكدها وهمّها وشقاؤها وأيضاً . . . . فقد علمت قبل أن هذا الرجل كان من صغره محبّاً للعلم والادب ، لا يدع استيعاب ما يقع اليه من الكتب في كل فنّ وعلمٍ ففي جوار سيف الدولة ، تيسّر له من ذلك ما لم يكن يتيسّر ، فقد كان مايتاً بمالهِ الذي أفادهُ ، يشتري ما يشاء ويستنسخ ما يرغب فيه ، وما كان سيف الدولة ليمنعه أن يستفيد مما اجتمع عنده من نوادر الكتب والمؤلفاتِ قديمها وحديثها ، فأخذ أبو الطيب يقطع أيامه بالتزوّد من كل علمٍ ، والاستزادة في كل فنٍّ ، وقد وهبه الله ذاكرة واعية ، وفهماً نافذاً ، وقدرة على النقد والتمييز ، ونفساً شاعرة تأخذ من ذخائرها ما تشاء ، وتنفضْ عنه ما يعلق به ، وتجلوه جلوة العروس في ثياب عرسها . وكذلك اتفق لابي الطيب في هذا العهد كل ما يعينه على النبوغ والسّبق

قلنا قبل أن سيف الدولة قد قرّب أبا الطيب وزاده كرامة ومحبّة لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير مع ما عرف عن سيف الدولة من تحرّزه وتشدده حتى على الكثيرين من أهله ، وضربنا المثل بأبي فراس الحمداني وهو من هو في قربه من سيف الدولة لقرابته ورحمه ، وثقته بخدمته ، والذهاب في طاعته ومرضيته ، وتمجيده في شعره ، وتخليد ذكر وقائعه وحروبه ببلاغته وبيانه ، وأشرنا الى ان السياسة كانت أيضاً مما قرّب أبا الطيب وأدناه من مجلس سيف الدولة وسامره وخلوته . ولعلّ هذا الامر الاخير — مع ما قدمناذكرهُ من أحوال سيف الدولة ، وأبي الطيب وما فيه من النبوغ والدهاء . . . هو الذي جعل لابي الطيب عند سيف الدولة منزلةً لا تدانيها منزلة أحدٍ من أقاربه أو أهله أو شعرائه الذين كانوا ببابه ، وقد قالوا إنه لم يجتمع بباب أحدٍ من الامراء مثل ما اجتمع بباب سيف الدولةمن الشعراءِ والادباءِ

وقد تتبعنا ديوان أبي الطيب كلهُ لنظفر بالدليل على أن سيف الدولة كان قد استصفى أبا الطيب واتخذ منه أخاً يمنحه ودّه ويكشف له عن سرّه ، ويحدّثه بآماله في السياسة والحكم فوقعنا على أشياء من ذلك لا بأس من ذكرها والتدليل عليها ، على ما درجنا عليه في كلامنا من استنباط المعاني وردّ بعضها الى بعض — هذا على كثرة ما يتصل بهذا من أحوال أبي الطيب وسيف الدولة ، مما لا نستطيع أن نجمعه لك في فصل واحد ، ولذلك سنكتب ما نكتب ، وعلى القارىء أن لا ينسى ما مضى من القول فيضعه في موضعه ليزيد ما أمامه قوةً وبياناً ، وأن يستأنيَ لما يستقبل فيحله محلهُ ليرتبط الاول بالآخر ، وينكشف له ما يغمض عليه أو يستبهم مما نحن فيه

كان أبو الطيب كما رأيت أولاً رجلاً ثائراً بما في نفسه غير راضٍ عن الحكم القائم في البلاد العربية وقد ذكر ذلك في كثير من شعره الذي مضى بك ، وهدّد الامراء والملوك والسلاطين بما سوف يفعله بهم، وما يأتيهم به من القتل والفتك ، وخص بالذكر والحقد والوعيد الاعاجمَ الذين كانوا قد استولوا على مقاليد السلطان والحكم ، ولم يفتأ يذكر ذلك من أول أمره الى ان اتصل ببدر بن عمارٍ ، وكان — كما قلنا قبل — يؤمل ان يجد في بدر بن عمار (الرجلَ) الذي يستعين به على آماله وآرائه ، ويحقق بعونه له ، ما كان يدور في نفسه من المطامع السياسية — من رد الحكومة الى العرب دون الاعاجم ، وكذلك هدأ حين اتصاله ببدر ولم يكثر من ذكر وعيده وانذاره وآرائه ، وفسرنا هذا هناك . فلما كان اتصاله بسيف الدولة على ما وصفنا في هذا الفصل من توافق الرجلين في المذهب السياسي ، والرأي الذي يريانه لانقاذ العرب من عادية الاعاجم وغيرهم ممن يكيدون بالفتنة لامتها ، هدأ أبو الطيب هدأته تلك، وانصرف بيانه الى تمجيد صاحبه كما فعل حين كان في جوار بدرٍ . وقد ألممنا بحالة أبي الطيب النفسية وفسرناها، وبيّنا ان ذلك عادة له اذا لاقى العربي المحارب الفاتح الذي يؤمل في وجهه النصر والظفر وتحقيق الآمال التي تسمو بهمته الى غزو الامة، وانقاذها من البلاء الذي حل بها وأوهاها وفرق شملها . وجمعنا الى ذلك ما كان من تقريب سيف الدولة أبا الطيب اليه ، واصطفائه بمودته دون سائر الشعراء ، وجميع اهله وقرابته ، والمتصلين به من اصحاب الفكر والرأي والدهاء . وقد مضى بك ايضاً ان ابا الطيب كان قد ذكر — حين قدم الى انطاكية على ابي العشائر — انه لم يأته مستميحاً ولا طالب رفد وعطاءٍ ، بل اشار الى مراده ومبتغاه الذي من اجله قصد انطاكية فقال

قسرت اليك في (طلب المعالي) وسار سواي في (طلب المعاش)

وتبينا من شعر ابي الطيب في المدة التي سلخها في ظل سيف الدولة من سنة ٣٣٧ه الى سنة ٣٤٦ انه كان يقول الشعر في سيف الدولة — ممجداً له ورافعاً من ذكره وذكر غزواته وحروبه — وقد تآزرت عوامل نفسه كلها على منحه التجويد والابداع في ذلك . وتفسير ذلك عندنا ان هذا الرجل الثائر حين لاقى سيف الدولة الفاتح ، وجه كل ما كان في قلبه من القوة التي دفعته الى مدح نفسه وذكرها والافصاح عن آرائها وآمالها ، الى مدح هذا الرجل (سيف الدولة) ووصفه ووصف حروبه وغزواته ، فصارت القوة التي كانت بينة في شعره الاول الى هذا الشعر، فكان وحده هو أبدع ما أتى به وما أخرجه من البيان . وكان صورة اخرى من شعره الاول الاّ انها اقوى وأتم وأمثل في التجويد والتصوير

ثم فارق ابو الطيب سيف الدولة ، وهو لا يزال ثابتاً على محبته والاخلاص له ، وكان سيف الدولة لا يزال مستقصياً لاخباره في كل بلد ينزله ، متتبعاً لشعره الذي يقوله لكل من مدحه

من بعده ، وكان ايضاً لا يزال يهدي اليه من هداياه مع انه فارقه ومدح غيره — بعد إكرامه له اكراماً لم يلق مثله ابو الطيب قبل اتصاله به او بعد فراقه له ، وكان ايضاً يكاتبه ويتلقى منه بعض كتبه — وهذا دليل على ان المحبة التي كانت بين الرجلين لم تكن محبة امير لشاعره وحسب بل كانت صداقة لا يقطع فيها حدث من احداث الزمان ، او سعي بالنميمة من سعي الوشاة والمتقولين

هذا . . . وقد رووا ان سيف الدولة أنفذ الى ابي الطيب — وهو بالكوفة سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر — هدية مع أحد أقاربه ، فكتب اليه قصيدة أهداها اليه كما أهدى ، فكان مما ورد في هذه القصيدة ، يخاطب سيف الدولة

أنت طول الحياة للروم غاز فمتى (الوعدُ) ان يكون القفولُ
وسوى الروم خاف ظهرك رومٌ فعلى أيِّ جانبيك تميلُ
قعد الناس كلهم عن مساعيـــك وقامت بها القنا والنصولُ
ما الذي عنـــده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشَّمولُ(١)
لست أرضى بأن تكون جواداً وزماني بأن أراك بخيلُ
نغَّص البعد عنك قرب العطايا مرتعي مخصب وجسمي هزيل

. . . . .

ما أبالي — اذا اتّقتك الليالي — من دهته حبولها والخبولُ

وقد ذكرنا قبل ان سيف الدولة كان قد عزم في نفسه ان ينال بهمته غاية الغايات في ضمّ أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظلّ حكومته ، وكان أول ما أتم من ذلك ان زحم الاخشيديين بمناكبه حتى أزاحهم عن اكثر البلاد الشامية وردهم الى الرملة ، واراد ان يوطد سياسته وحكمه بالشام حتى اذا أعدّ العدّة ، واستجمع الاداة ، تحفز بقوته كلها على العراق فمال عليه ميلة راية ، ليزيل عنه سلطان الموالي الذين استولوا على سلطة الخلافة . وكان هؤلاء الموالي ، او اكثرهم ممن استقل بالدويلات ، من شيعة العلويين الذين اطاعوا داعية الفاطميين ، وكان سيف الدولة لا يقرّ بحكم الفاطميين ولا يرضى عنهم ، ولذلك نصر الخلافة العباسية مع انه علويّ المذهب . كانت هذه هي سياسة سيف الدولة ، وكانت هذه هي ارادته ، ليجمع شمل العرب ويرد الحكم الى اليد التي لا تضطرب ، والى الفكر الذي لا يُحاحله من مكانه كيد الكائدين للعربية من اصحاب الفتن والدسائس ..... فجاء ابو الطيب يقول في هذه الابيات

أنت طول الحياة للروم غاز فمتى (الوعد) ان يكون القفولُ
وسوى الرُّوم خاف ظهرك رومٌ فعلى اي جانبيك تميلُ

(١) هي الخمر

في البيت الاول يصرح بأن سيف الدولة كان قد وعده ان يقفل من غزو الروم الذين يهددون اطراف الشام ، ويعدّ العدّة لغزوِ غيره ، فإن قوله (الوعد) معرَّفاً دليل على تخصيص وعدٍ بعينه ، ولا يكون كذلك الاّ ان يكون وعداً وعده سيف الدولة أبا الطيب لتحقيق ما يريدان من ردّ الحكومة الى العربِ ، وذلك بأن يغزو سيف الدولة العراق و (يميل عليه) ويزيل عنه سلطان الموالي والاعاجم ، ولذلك سأل أبو الطيب سيف الدولة في البيت الثاني فقال (فعلى اي جانبيك تميل) . وقد جعل القائمين بالحكم ، والمستولين على السلطان في العراق — روماً ، لما أشرنا اليه قبل من ان هؤلاء لما وقفوا على عزيمة سيف الدولة في إزالتهم عن العراق ، أوعزوا الى ملك الروم أن يقاتله اذ أوقعوا في قلبه وفكره بمكرهم ودهائهم أن سيف الدولة الذي كان يمدّ سلطانه على الشام يوماً بعد يوم ، انما يريد بذلك أن يزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده وبذلك يتم لهم ما يريدون من صرف سيف الدولة عن حربهم ، وانصرافه الى حرب الروم ، ويكون ذلك استهلاكاً لقوته . حتى اذا ما أراد أن يميلَ عليهم يكون قد فقد صفوة المحاربين معه في قتال الرُّوم ، فلا يصيب إذ ذاك في حربهم وقتالهم ظفراً ولا نصراً . وهذا التعبير من أبي الطيب دليلٌ على أنه كان يعرف سرّ هذا الامر كما يعرفه سيف الدولة ، ثم إن أبا الطيب أخذ يهوّن على سيف الدولة أمر غزو العراقِ ، ويغريه بالإقدام على ما وعده من الفتح ، إذ وصفه ووصف أهل العراق فقال

ما الذي عندهُ تدار المنايا كالذي عنده تدارُ الشّمولُ

فهو بهذا يغريه بهم إذ كانوا قوماً أهل سكر وعربدةٍ ، لا أهل حرب وقتال كسيف الدولة الذي لم يكن يفرغ من غزوةٍ ويقفل منها حتى يبادر إلى أُخرى يصيب فيها النّصر والظّفر ، او التجربة في القتال والمران على ذكر الحرب وخدعتها . وهذا الذي كان من (الوعد) بين سيف الدولة وأبي الطيب كان هو السبب في ان أبا الطيب حين دخل العراق في تلك السنة لم يعبأ بأحدٍ من السلاطين والحكام وأولي الامر من الوزراء ، واستكبر عن جميعهم فلم يمدح منهم أحداً ، بل راغمهم حتى كان ما كان من أمر الوزير المهلبي وغيره ، وعداوتهم له ، وإغرائهم الشعراء بالوقوع في عرضه وشرفه ونسبه ، وتحريضهم الادباء على معاندته ومجادلته للنضّ منه والإزراء عليه — كما مرَّ بك في أوائل كلامنا .

وفي ذي الحجة من سنة ٣٥٣ كتب سيف الدولة إلى أبي الطيب كتاباً (بخطه) يسأله المسير اليه فأجابه أبو الطيب بقصيدة أنفذها اليه أولها

فهمتُ الكتابَ، أبرَّ الكتبْ فسمعاً لأمرِ أمير العربْ
وطوعاً له ، وابتهاجاً بهِ ، وإن قصَّر الفعل عما وجبْ

فإذا كان هذا الكتاب — كما وردت الرواية — قاصراً على رغبة سيف الدولة الى أبي الطيب في أن يلحق به، ويكون في جواره، فيكون قول أبي الطيب (فهمتُ الكتاب) من أسخف القول وأرذله وأحطه وأسقطه، ويكون سقوطاً قد أصاب عقل هذا النابغة. أيقول أبو الطيب أنه فهم كتاب سيف الدولة (الذي كتبه له بخطه) يسأله أن يسير الى الشام؟ وما في هذا الطلب مما يحتاج الى الفهم؟ وما فيه مما تقتضي الاجابة عنه أن يخبره بأنه قد فهمه؟ أيكون هذا أو يُعقل!! والبيّن أن سيف الدولة كتب الى أبي الطيب — بعد القصيدة التي مرّ ذكرها والتي أغراه فيها بغزو العراق وفتحه — كتاباً يشرح له فيه الامر — غير مصرح بشيء —، ويذكر العوائق التي تعوقه دون غرضهما، ويبيّن له ما هو فيه من الكرب والضيق وأنه لولا ذلك لما تأخر عن عزيمته، ولوفى لابي الطيب بالذي وعده من فتح العراق. ولهذا لم يأتمن سيف الدولة أحداً على هذا الكتاب الذي كتبه الى أبي الطيب، فكتبه اليه بخطه حيطةً وحذراً أن يشيع ما ورد فيه. وقد أراد سيف الدولة في كتابه هذا ان يزيد ابا الطيب بياناً ولكنه لم يستطع خشية الاحداث التي لا يملك صرفها، من وقوع هذا الكتاب في يد عدو من اعدائه، ولذلك طلب من ابي الطيب ان يقدم عليه بالشام فيخلو به، ويشرح له الامر في غير كناية ولا تعريض. ولكن ابا الطيب كان قد فهم ما وراء كنايات سيف الدولة وإشاراته الخفية: فكتب اليه

«فهمتُ الكتابَ: أبرَّ الكتبْ فسمعاً لأمرِ أميرِ العربْ»

فهذا الذي أفضنا فيه دليل كله على أنه كانت بين سيف الدولة وأبي الطيب اسرارٌ سياسية تخصّ أغراضهما وآمالها في اعادة المجد العربي، وإزالة الحكام الطاغين من الموالي؛ وقمع الفتن التي قام بها العلويون والفاطميون في البلاد وهم لا يقدرون مغبّاتها وعواقبها، ولا يزنون أمرها إذ يتخذها أعداء العرب والاسلام ذرائع لقضاء مآربهم في تمزيق الامة؛ وتفريق شملها، وإضاعة مجدها وسلطانها، ليقيموا على انقاضها ما تسوّله لهم أحقادهم وضغائنهم من الأوهام والأحلام

لعينيكِ ، ما يلقى الفؤاد ، وما لقي
وللحب : ما لم يبق مني ، وما بقي
وأحلى الهوى ، ما شكَّ في الوصل ربُّه
وفي الهجر ، فهو الدهرَ يرجو ويتّقي
سَقَى الله أيام الصبا ما يسرُّها
ويفعل فعل البابليّ المعتّقِ
إذا ما لبستَ الدهر مستمتعاً به
تخرّقتَ ، والملبوس لم يتخرّق

قد رأيت قبل ان الحوافز التي اجتمعت على أبي الطيب من[1] اول امره الى عهد اتصاله بسيف الدولة ، انما كانت ترفُّقاً من القدر وتطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذّ الذي صار به صاحبنا شاعر العرب ولسان العربية الذي استحكم في عصره ، وضرب بحكمته على من كان قبله ، ومن أتى بعده . وقد ذكرنا من أداة نبوغه واسبابه ما تيسَّر لنا جمعه في هذه الكلمة ، إذ كانت الاشياء مرهونة بأوقاتها من المعاني ومنازلها من الكلام

ورأيت ان اتصاله بسيف الدولة نقل قلب الرجل من منزلة الى أخرى ، نقله من منزلة الاحساس الشخصي المتوحد ، الى منزلة الاحساس الشخصيّ المتولج في الاجتماع المزاحم في سياسته ، المؤمل في سيف الدولة ردّ السلطان الى العرب والعربية ، بعد الغلبة والظفر وتحقيق الامانيّ . وكان هذا سبباً في انتفاض قلب (الرجل الشاعر) بالفرح المستولي عليه والغالب على عواطفه ، ثم كان ايضاً ما استنبطناه مما سبب في هذا القلب اسباباً للالم والحزن والانين والبكاء والحسرة ، فصار التنازع في هذا القلب بين الفرحة الغالبة والحسرة المتمكنة سبباً في استخراج مكنونات هذا القلب ، وتوليد المعاني الجديدة من الصراع الهائل الذي كان فيه . وبذلك خرج أبو الطيب عن طوره الاول المحدود بحده الى الطور الثاني المتفاسح المترامي الى كل غايات الحياة وأسبابها وما يكون فيها وما يكون منها

---

(١) كان حق هذا الباب ان يسبقه — في ترتيبنا — باب آخر ، نذكر فيه ما تميز به شعر ابي الطيب و نفصل فيه اسلوبه كله على تدريج لا يتفاوت . ولكن منعنا من ذلك ضيق الوقت

وكان هذا الرجل الشاعر انما يعتمد في توليد معاني شعره على استيعاب ما بنفسه من الافراح والآلام ، ما تقادم منها وما جدّ ، ثم الاستغراق في تأمل هذه الذخائر التي في نفسه وردّ بعضها الى بعض، وربط الغائب منها بالشاهد ، وعطف الاول منها على الآخر ، كانما كانت تتراءى لعينيه حوادث قلبه وحوادث دهره ، وتتردّد في سمعه اصوات قلبه موصولة باصوات الناس وكلامهم ما قلّ منه وما عظم . وهذا الاستغراق في تأمل ما بنفسه هو احد الاسرار العظيمة في تصور شاعريته ، وتسويتها وتنشئتها وتغذيتها وتنميتها الى الغاية التي هي عليها في شعره

وقد بينا قبل ان من أداة هذا الشاعر العظيم ما أودعه الله فيه من الحس المرهف ، وما وهبه من العاطفة الملتهبة المتوقدة التي لا يخبو لها ضرام ، وراثةً كانت ذلك من جدته أو فطرةً فطره الله عليها غير موروثة . وكان هذا الرجل في أول أمره مطالباً بثأر قد نشيء عليه ، وأُخذ به من صغره ، حتى شغل فكره وعمله ، وتدفّق في بنيانه كما تدفق الدّم ، وصار أصلاً من الاصول التي قامت عليها كل حالته النفسية — على ما ذكرناه أولاً ، وتدرجنا في بيانه إلى عهد اتصاله بسيف الدولة — وكان قد بلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة ، وهي السنّ التي تستحكم فيها الاصول ، وتستقرّ المذاهب ، ويقف الرجل عندها لا يملك في تبديل أمره حولاً ولا قوّةً الاّ أن يشاء الله ، وخاصةً من كان مثل المتنبي قد عركته الايام من صغره ونحامات عليه ورمتْ به في تسورها حتى استوى على صورة بعينها ، واستمرّ مريرهُ على ما فيه من القوة المستحصدة ، والمدّة الدائبة الفورة والنزاع ، لا تستقرّ ولا تهدأ ولا تطمئنّ

هذا ، . . . وقد استوقفنا ونحن نتتبّع شعر الرجل على طريقتنا ومذهبنا ، الفرق الكبير الكائن بين شعره الاول وشعره الذي قاله في حضرة سيف الدولة ، وتدبرنا الاسباب على ما بيّنّاه قبل ، فلم يستو عندنا أن يكون ذلك من أجل ما ذكرناه قبل وحسب ، فعدنا نجدّد الرأي لذلك ، ونقرأ ما بين كلمات الرجل من المعاني ، ونستنبط من روائع حكمه وبلاغته ما يهدينا الى السبب الاكبر في هذا التجويد الفذّ الذي غاب به الرجل على شعراء العربية ، فاستروحنا في شعر الرجل نفحةً من نفحات المرأة التي تكون من وراء القلب وتصنع للشاعر المبدع بيانه ، وتتخذ من فنها النسويّ مادّةً تهيّئها لفنّ صاحبها وعبقريته ونبوغه . فأتممنا الامر على ذلك ورجعنا الى شعر ابي الطيب وما وقفنا عليه من أسرار نفسه ، وتمثلنا المرأة بينهما وهي دائبة تصنع له بيانه وتهيء له فنه فاستوى الامر على ذلك ، وطلبنا الدليل فدلنا على المرأة التي سكنتْ قلب أبي الطيب — وهو في ظل سيف الدولة — وجعلته حكيم الشعراء ، وشاعر الحكماء

كان صاحب الحكمة أبو الطيب يصنع حكمته بالتدبر في معرفة نفسه ، واستبطان أسرارها وإدراكها ، فلما جاءته المرأة ، وأرادت كبرياءه على الخضوع لها والتصرّف بأمرها ، وقعت نفس

هذه المرأة بأسرارها وأحداثها بين نظرات أبي الطيب النافذة المتولّجة إلى ماوراء الواقع والحسّ الملموس ، وبين نفسه بأحداثها واسرارها وما انطوت عليه وما تجلّلت به . ولما كانت نفس المرأة المحبوبة هي تمام نفس الرجل المحبّ وتكملتها،كانت دراسة الحكيم المحب لنفسه المكملة التامة بالمرأة المحبوبة ، انما هي دراسة للكون كله ، فان العاشق لا يرى الدنيا باسرارها الاّ بعيني من يعشق ، وهي على ذلك الدنيا المترامية ، بعدان كانت قبل عشقه محصورة في دائرتها من نفسه الناقصة غير التامة . والحب القويُّ النافذ الذي يتملك حواس المحب ويغلب عليها ، هو بطبيعته امتداد بهذه الحواس الى غايات بعيدة لم تكن تصل اليها قبل غلبته على القلب والنفس والفكر . فلهذا حين احبّ ابو الطيبُ — الرجل الثائر المتكبر الشاعر الحكيم البياني الفكر واللسان — كان امتداد نفسه وترامها الى غايات بعينها من الرجولة والثورة والكبرياء والحكمة والفكر ، ولم يستطع ان يكون — بعد ان غلب الحب قلبه وتفاسح به — شاعراً غزلاً رقيق البيان . وهذا هو السرُّ عندنا في ضعف مادة الغزل عند أبي الطيب ، وقوة مادة الحكمة وما اليها مما هو من طبيعته المتأصلة فيه على ما فصلناه في اثناء كلامنا . وليس يصح عندنا ان لا يكون ابو الطيب عاشقاً صبًّا متدلهاً ما لم نجدْ في شعره غزلاً ولا أنيناً وحنيناً وبكاءً

والآن ، وبعد هذه المقدمة ، نعين لك المرأة التي احبها ابو الطيب على ما يتفق لنا [1]، إذ كان ترتيب هذا الموضع من الكلام مما يستدعي النظر في اكثر شعر ابي الطيب وتفليه على المذهب الذي اتخذناه ، فيخرج الامر من حده ولا تتسع له هذه الورقات

لما ماتت اخت سيف الدولة الصغرى وقف ابو الطيب يعزيه ويرثيها ويسليه ببقاء أخته الكبرى وذلك في يوم الاربعاء للنصف من شهر رمضان سنة ٣٤٤ فانشده قصيدته التي اولها

ان يكن صبرُ ذي الرزيئة فضلاَ   تكن الأفضل الأعزّ الأجلاَّ

وطفق يمدح سيف الدولة بمناقبه مما يصلح لهذا الموضع من العزاء الى ان قال

أين ذي الرّقة التي لك في الحر   ب اذا استُكره الحديدُ وصلاَّ ؟
أين خلّفتها غداة لقيت الـ   رومَ والهامُ بالصوارم تُفلَى
(قاسمتك المنون شخصين جوراً   جعل القسم نفسه فيه عدلاَ)
(فاذا قستَ ما أخذْن بما غا   دَرْن سرّى عن الفؤاد وسلّى)
(وتيقّنت أنّ حظك أوفى   وتبيَّنت أن جدّك أعلى)

فابو الطيب يطلب من سيف الدولة ان يقيس اخته الصغرى التي ماتت الى اخته الكبرى التي بقيت

(١) اعلم انا كنا نؤمل أن نكتب هذا الباب في خمسين وجهاً من المقتطف أو اكثر ولكن حالت دون ذلك أحوال

له فاذا فعل ذلك كان سلوى له وتسرية للهم عن قلبه . ولا ندري كيف يتفق لشاعر يرثي امرأة ماتت ان يذكر اخرى — وتكون اختها — ويعزي اخاها بهذا العزاء العريب ؟ ثم يزيد فيقول له انك اذا فعلت ذلك الذي دللتك عليه، « تيقنت » ان حظك في بقاء هذه الكبرى أوفى من حظ الموت في أخذ الصغرى ، وكيف يتيمن ابو الطيب سيف الدولة من حسن حظه ببقاء الكبرى إلاّ اذا كان هو على يقين من ذلك ؟ وكيف يكون على يقين من ذلك إلاّ وهو يعرفها معرفة تفضي به الى هذا اليقين ؟

ثم مضى ابوالطيب في القصيدة كلها يمدح سيف الدولة ولم يتعرض لهذه الفتاة أخته الصغرى إلاّ في موضع آخر إذ يقول

خطبة للحمام ليس لها ردّ   وإن كانت المسماة ثكلاَ
واذا لم تجد من الناس كفئاً   ذات خدر أرادت الموت بعلاَ

فالعجب ان يكون ذلك عزاء — فإن ابا الطيب قد قدم الكبرى في المنزلة ، فكان اولى اذن ان يموت الكبرى إذ هي ولا شك عند ابي الطيب — افضل من هذه الصغرى التي لم تجد من الناس كفئاً يكون لها زوجاً ، فاختارت الموت بعلاً لها . وهذا التناقض يدلنا على ان الرجل كانت قد اقترنت في عينه صورة الكبرى بصورة الصغرى فاضطرب قوله ولم يمض على سنن ونهج، وذلك لاضطراب نفسه الذي اظهر ما في قلبه وكشف عنه في تدفقه حين ذكر هذه الكبرى فقال فيها البيتين « فاذا قست . . . . الخ »

فلما ماتت الكبرى هذه التي ذكرها هنا — وهي خولة اخت سيف الدولة — في سنة ٣٥٢ اي بعد ذلك بسنوات ثمان ، وكان ابو الطيب بالكوفة فورد عليه خبرها كتب الى سيف الدولة قصيدة فيها (٤٤) بيتاً ، منها واحد وثلاثون في ذكر خولة هذه ، وستة ابيات في ذكر الدنيا ونكدها، ولم يذكر سيف الدولة الاّ في سبعة ابيات منها . هذا مع ان القصيدة التي رثى بها الصغرى ، لم يذكر فيها الصغرى مفردة الاّ في بيتين هما « خطبة للحمام . . . » ، وذكر الكبرى ومعها الصغرى في ثلاثة ابيات هي « قاسمتك المنون . . . » ، وجعل بقية القصيدة وعدتها (٤٢) بيتاً في مدح سيف الدولة الاّ قليلاً في الحكمة والحياة

وكان الفرق بين القصيدتين بيناً واضحاً لا خفاء فيه ، وكانت الثانية في رثاء خولة عاطفة قد اخذها الحزن وغلبها البكاء . . . يقول ابو الطيب

يا أختَ خيرِ أخٍ ، يا بنت خير أبٍ   كنايةً بهما عن أشرفِ النسبِ
أُجلُّ قدركِ أن تُسمَّي مُؤَبَّنةً   ومن يصفكِ فقد سمّاكِ للعربِ
(لا يملكُ الطّربُ المحزون منطقهُ   ودمعهُ ، وهما في قبضة الطربِ)

غدرت يا موت ، كم أفنيت من عدد ... بمن أصبت ! وكم أسكتّ من لجب !
وكم صحبت أخاها في منازلة ! ... وكم سألت فلم يبخل ولم تخب !
(طوى الجزيرة حتى جاءني خبر ... فزعت فيه بآمالي الى الكذب)
(حتى اذا لم يدع لي صدقه أملاً ، ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي)
تعثرت بك في الافواه ألسنها ، ... والبرد في الطرق والاقلام في الكتب
كأن خولة لم تملأ مواكبها ... ديار بكر ، ولم تخلع ، ولم تهب
(ولم ترد حياة بعد تولية ... ولم تغث داعياً بالويل والحرب)
(أرى العراق طويل الليل مذ نعيت ... فكيف ليل فتى الفتيان في حلب ؟)
(يظن أن فؤادي غير ملتهب ! ... وأن دمع جفوني غير منسكب !)
(بلى ، وحرمة من كانت مراعية ... لحرمة المجد والقصاد والادب)
(ومن مضت غير موروث خلائقها ... وإن مضت يدها موروثة النشب)
(وهمها في العلى والمجد ناشئة ... وهم أترابها في اللهو واللعب)
(يعلمن حين تحيا حسن مبسمها ... وليس يعلم الا الله بالشنب)

. . . .

(وان تكن خلقت أنثى ، فقد خلقت ... كريمة ، غير أنثى العقل والحسب)

. . . .

(فليت طالعة الشمسين غائبة ... وليت غائبة الشمسين لم تغب)
(وليت عين التي آب النهار بها ... فداء عين التي زالت ولم تؤب)

. . . .

(ولا ذكرت جميلاً من صنائعها ... إلا بكيت ، ولا ود بلا سبب)
(قد كان كل حجاب دون رؤيتها ، ... فما قنعت لها يا أرض بالحجب !)
ولا رأيت عيون الانس تدركها ... فهل حسدت عليها أعين الشهب ؟)
(وهل سمعت سلاماً لي ألم بها ... فقد أطلت ، وما سلمت من كثب)
(وكيف يبلغ موتانا التي دفنت ... وقد يقصر عن أحيائنا الغيب)

. . . .

(قد كان قاسمك الشخصين دهرهما ... وعاش درهما المفدي بالذهب)
(وعاد في طلب المتروك تاركه ... إنا لنغفل ، والايام في الطلب)
ما كان أقصر وقتاً كان بينهما ... كأنه الوقت بين الورد والقرب

ولست تخطيء فيما ترى ما تضمنته هذه الابيات من القصيدة من العاطفة التي علقته على هذه التي رثيها ، وما يتوهّج في ألفاظها من نيران قلبه ، ولست تخطيء أنين الرجل وحنينه وبكاءه . ولا بدّ لنا هنا من بعض القول في أبيات منها نشرح به أمر أبي الطيب على وجهه

قد ذكرنا قبل ان الانتقال من معنى الى معنى في شعر ابي الطيب ، هو الموضع الذي ينبغي لنا الوقوف عنده وتمييزه والتبصّر في أوائله واواخره ، إذ كان الانتقال في شعره هو الذي يعينك على الكشف عن اسرار قلبه ونفسه وحياته . فإذا شئت الآن فانظر الى انتقاله من قوله في مخاطبة الموت « وكم صحبت اخاها في منازلةٍ ! » الى ذكر ما أفزعه وكربه ؛ وهزّ نفسه وحزّ فيها إذ يقول

« طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ »
« حتى إذا لم يدع لي صدقُه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي »

والرأي عندنا ان هذين البيتين هما اول ما قال ابو الطيب من القصيدة حين بلغه خبر موت خولة وهو بالكوفة ففزع قلبه ، واضطرب أمره وانتشرت عليه عواطفه . ففي البيتين أثر قلبه الفزع المضطرب ، وعليها وسمٌ من لوعته وحُرْقته

وقد غلب أبا الطيب بيانه في هذين البيتين فصرّح فيهما بكل ما يضمر لخولة من الحبّ . انظر كيف جعل الخبر يطوي الجزيرة كلّها يقصدهُ وحدهُ دون غيره ، وقد خصّص ذلك بقوله «حتى جاءني» وفي هذا من غلبة الحبّ على قلب أبي الطيب ما جعله يرى أن هذا الخبر بموتها — الذي سمعه وهو بالعراق — وكان قد علمهُ الناس ولا شك — لم يقطع أرضَ الجزيرة الاّ ليبلغهُ هو ، والحبُّ دائماً يخصّ ويضيق بمثل ذلك ، ولا يرى فيه الشّركة ، ولو تساوى الناس جميعاً في المشاركة فيه أو العلم به . ثم إن أبا الطيب نسب الفزَع الذي لحقَه الى آماله ، إذ كانت آماله كلها في الحياة بعد حبّه لخولة متعلّقةً بها وبحياتها ، فلما جاءه الخبر بموتها فزعتْ آمالهُ هذه أملاً أملا إلى الشكّ في الامر الواقع وطلب الحيلة في رده وتكذيبه عسى ان تجد لها متعلقاً تستمسك به ، فلما اخفقت الآمال أملاً أملاً وقطّعها الخبر الذي سمعه بالصدق واليقين ، سقطت نفس الرجل ولم تستمسك على رجولتها وقوّتها وغرقتْ في دمعها حتى شرقت به . وهذه حالة في الحبّ القويّ العنيف الذي يستولي على القلب ، ولا يجعل للحياة بآمالها معنىً اذا فقد من يحب او ساءه من امره ما يسوءه . فهذا من ابي الطيب دليل على ان كلامه هذا ليس كلام شاعر يرثي أخت صديقه وأميره ، وانما هو كلام قلب محبّ مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجعته المنية فيه

ومثل ذلك في الدلالة على ما أصاب قلب ابي الطيب من الفجيعة التي تخصه بموت خولة قوله

« أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلب ؟ »

« يظنُّ أن فؤادي غير ملتهبٍ وأن دمع جفوني غير منسكب »

فليس يطول الليل على شاعر من اجل اخت اميره، وانما يطول عليه من أجل حبيبته التي فاته بها الموت . ثم زاد ابو الطيب في الدلالة بقوله ان سيف الدولة يظن ان فؤاده غير ملتهب، وأن دمعه غير منسكب، وما لسيف الدولة ولهذا؟ أيحبُّ سيف الدولة ان يلتهب قلبه وينسكب دمعه من اجل اخته، أو يسوءه اذا لم يكن ذلك كذلك ؟

هذا ولا نشكُّ نحن — من قبل ما جمعناه عندنا من الدلائل في هذا الامر المتعلق بحب أبي الطيب وخولة اخت سيف الدولة — في ان سيف الدولة كان على علم بما كان بينهما من المحبة الغالبة على امرهما، وانه كان قد وعد ابا الطيب عدة لم يفِ له بها في ان يزوّجه اخته هذه، وكان ذلك سرًّا بينهما اتصل بابي فراس الحمدانيّ ، فكان سبباً في العداوة البائنة بين الرجلين . ولولا علم سيف الدولة بذلك لما استباح أبو الطيب لنفسه ان يكتب هذه القصيدة الى سيف الدولة على كثرة الاشارات فيها الى امره وامر خولة والحب الذي بينهما : فمن ذلك غير ما ذكرناه مما يدلُّ على الحب الذي بينهما دلالة واضحة لا تخفى على مثل سيف الدوله قوله

« ومن مضت غير موروث خلائقها وان مضت يدها موروثة النّشب »

الابيات الثلاثة . فقد ذكر ابو الطيب اخلاق خولة ، ثم ذكر ما كانت عليه من علوّ النفس والهمة منذ نشأتها، ثم ذكر ابتسامها ؛ وهذه كافية في الدلالة على معرفته خولة معرفةً صحيحة عن خبرة ولقاءٍ . وايضاً قوله

« ولا ذكرْتُ جميلاً من صنائعها إلاّ بكيتُ ولا ودّ بلا سبب »

وهذا دليلٌ على ما كانت تسبغ عليه خولةُ من صنائعها وفواضلها مما يستجاب له البكاء حين يذكرها ؛ وما نظنّ ان صنائع خولة عنده كانت تبلغ مبلغ صنائع سيف الدولة . ولكن حب أبي الطيب هو الذي جعل صنائعها من قلبه بهذه المنزلة . ثم تدبر قوله « ولا ودّ بلا سبب » ، وفي رواية أخرى « بلا ودٍّ ولا سبب » وكأن هذه الرواية يراد بها نفيُ أمرٍ بعينه ، كان الوشاة يكثرون القول فيه عند سيف الدولة مع علمه بالامر الذي بينهما، من ان صنائع خولة التي كانت تتخذها عند أبي الطيب لم تكن من أجل هذا الوُدّ ، وإنما كانت من كرم نفسها وطيب عنْصُرها . ويكون المقصود بهذه الرواية غير سيف الدولة ممن كان يتزيَّد في القول ويتكذّب عليه بما هو منه براءٌ . ولينفيَ التُّهم بذلك عن هذه التي كان يحبُّها ويمنحها قلبه

واذا شئت الزيادة فاقرأ قوله

فليتَ طالعة الشمسين غائبةٌ . . . .

وتدبر البيتين وما فيهما من العاطفة . . . واقرأ

وهل سمعت سلاماً لي ألمَّ بها . . . .

ثم انظر الى هذا الالتفات الى الماضي الذي جعلناه من المذهب في الكشف عن أسرار أبي الطيب إذ ذكر ما كان منه حين رثى أخت سيف الدولة الصغرى — من ذكر خولة هذه وذلك إذ يقول

قاسمتْك المنونُ شخصين جوراً . . . .

فعاد يقول في هذه

«فدكان قاسمك الشخصين دهرها وعاش دُرُّهما المفديُّ بالذهب»

«وعاد في طلب المتروك تاركُهُ، إنا لنغفُل، والايام في الطلب»

وتدبر الصلة بين هذا وذاك، والحسرة المتميّزة في قوله «إنا لنغفل . . . . . .»، و«ما كان أقصر وقتاً كان بينهما» . . .

وندع هذا الآن ونتنقّل بك في مواضع من الديوان على غير ترتيبٍ، لترى أثر هذا الحبّ في شعر أبي الطيب وفي حياته، وما أصابه وهو في ظلّ سيف الدولة من جراء هذا الحبّ. وكان حق هذا الموضع من هذا الباب أن نتتبَّع لك حياة أبي الطيب سنةً سنةً، ونكشف لك عن تدرُّج هذا الحبّ في شعره وقصائده حتى ننتهي الى الغاية ولكن . . . . وقف المتنبي في مجلس سيف الدولة ينشده قصيدته التي اولها

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وقد زعموا ان سبب هذه القصيدة كان على ما قالوا . . . . «جرى له خطاب مع قوم متشاعرين وظن الحيف عليه والتحامل» الى غير ذلك. وقد اتى المتنبي في هذه القصيدة بكل عجيبة من القول في الكبرياء والحب لسيف الدولة والوعيد له كقوله

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خيرُ من تسعى به قدمُ

. . . .

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرمُ

وقوله في حب سيف الدولة

يا من يعز علينا ان نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

وقوله في انذاره

لئن تركنَ ضُمَيراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندمُ

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم فالراحلون همُ

قالوا فلما انصرف ابو الطيب من مجلس سيف الدولة وقف له رجالةٌ في طريقه ليغتالوه، فلما رآهم ابو الطيب ورأى السلاح تحت ثيابهم، سل سيفه وجاءهم حتى اخترقهم فلم يقدموا عليه،

ونمى ذلك الى ابي العشائر فأرسل عشرة من خاصته فوقفوا بباب سيف الدولة ، وجاء رسوله الى ابي الطيب، فسار اليهم حتى قرب منهم، فضرب احدهم يده الى عنان فرسه ، فسل ابو الطيب سيفه ، فوثب الرجل امامه ، وتقدمت فرسه الخيل ، وعبرت قنطرة كانت بين يديه ، واجترّهم الى الصحراء ، فأصاب احدهم نحر فرسه بسهم فانتزع ابو الطيب السهم ورمى به ، واستقلت الفرس وتباعد بهم ليقطعهم عن مدد كان لهم ، ثم كر عليهم ، بعد ان فنى النشّاب . . . . . فلما يئسوا منه قال له احدهم في آخر الليلة نحن غلمان ابي العشائر فقال قصيدته التي مضت «ومنتسبٍ عندي الى من أحبّه » . ثم عاد ابو الطيب الى المدينة مستخفياً فأقام عند صديق له والمراسلة بينه وبين سيف الدولة ، وسيف الدولة ينكر ان يكون قد فعل به ذلك او امر به.....

وكان ذلك في سنة ٣٤١ فلما رضي عنه سيف الدولة قال له قصيدة أولها

اجاب دمعي وما الداعي سوى طلل وظل يسفح بين العذر والعذل
ظللتُ بين أُصيحابي أكفكفهُ وظلَّ يسفح بين العذْرِ والعذَلِ
أشكو النوى ولهم من عبْرتي عجبٌ كذاك كنت وما أشكو سوى الكلَلِ

ثم انتقل من هذا المعنى الى معنىً غيره فقال

وما صبابةُ مشتاقٍ على أملٍ من اللقاء كمشتاقٍ بلا أملِ

وكأنه بهذا الانتقال يهوّن على سيف الدولة الامرَ ويذكر له أن هذا الحب الذي بينه وبين خولة كائن على غير املٍ . وأنه لا يطمع في ان يظفر بادراك امله من الزواج بها . ثم يدلل على ذلك بما كان من الحادثة التي كاد يقتل فيها ، والتي تولى امرها ابو العشائر (وهو من قوم خولة) ، ويذكر لسيف الدولة ان اهل خولة لن يدعوه ان يكون بينه وبينها صلة كما بلغه الوشاة فانتقل من معنى البيت الى قوله

«متى تزر قوم من تهوى زيارتها لا يتحفوك بغير البيض والاسل »

وهذه صفة ما لقي ابو الطيب في ذلك اليوم الذي رويناه لك ، فانظر الى هذا الانتقال الذي يدل دلالة واضحة على ما في ضمير الرجل ، وما كان من سبب تلك الحادثة التي كادت تودي بحياته، ثم انظر الترفق في قوله « لا يتحفوك بغير البيض والاسل » وذلك لما بينه وبين ابي العشائر من المودة والحب ، فهو يجعل اداة القتل (تحفة) ، وقد قال لابي العشائر في هذه الحادثة نفسها ابياتاً تدل على حبه له ، وتقرب اليك بيان هذا المعنى ، وقد مضى ذكرها، ويقول له في آخرها

« فان كان يبغي قتلها ، يك قاتلا بكفّيه ، فالقتل الشريف شريف »

وفي تلك السنة نفسها (٣٤١) يقول ابو الطيب ما نقلناه في رأس هذا الباب

« لعينيك ، ما يلقى الفؤاد وما لقى وللحب، ما لم يبق مني وما بقى »

فعلى ما نذهب اليه من شدة تأثير الحوادث في ابي الطيب ونفسه ، واستخراجه معاني شعره من تلك الحوادث ، ولهجه دائماً على ذكر الحوادث القريبة ، نجد في هذه القصائد ما يشير الى هذه الواقعة وما لقي فيها من الكيد . والظاهر أن هذه الجفوة التي كانت في سنة ٣٤١ امتدت الى اوائل سنة ٣٤٢ ، وكان من جرائها ان انقطع ابو الطيب مدة عن مدح سيف الدولة فاستبطأه وتنكر له . فركب سيف الدولة يوماً في رجاله ، وقدم عليه ابو الطيب راكباً مهره ، فلما سلم عليه ازورّ عنه وأعرض فقال ابو الطيب

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا
تركتني اليوم في خجلة أموت مراراً واحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحيياً وأزجر في الخيل مهري سرارا
واعلم أني إذا ما اعتذرت إليك ، أراد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرا ت ، ان كان ذلك مني اختيارا

ثم يذكر له العلة في ذلك الانقطاع عن مدحه فيقول

(ولكن حمى الشعر — الا القليل — همّ حمى النوم الا غرارا)
(وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا)
(فلا تلزمني ذنوب الزمان الي أساء ، وإياي ضارا)

وهذا الهم الذي يسقم الجسم ويضرم ناراً في القلب . ولا يملك له الانسان رداً ، لا يكون الا هذا الحب العنيف الذي تنقطع دونه الآمال ، ولا يكون هذا الهم الا ذلك ، فان ابا الطيب كان متمتعاً بكل شيء في ظل سيف الدولة فقد كان صاحب اقطاع ومال كثير قد أسبغه عليه سيف الدولة

وحسبك هذا من شعره وهو في جوار سيف الدولة ، ثم انظر الى أثر هذا الحب في شعره بعد فراق سيف الدولة ، فانه أدلّ وأبلغ في الكشف عن سرّ قلبه . ولا بأس في ان نسرد لك ذلك على ما وقع في ترتيب ديوانه

فمن آثار هذا الحب في شعر ابي الطيب ، ما وقع في القصيدة الاولى التي أنشدها كافوراً في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ حين قدم عليه بالفسطاط . وقد رأيت قبل أننا لم نتعرض لعاطفة ابي الطيب في شعره الى ان اتصل بسيف الدولة ، فاذا انت عدت الى شعره في ذلك العهد الاول لم تجد فيه الا قسوة وشدة وعنفاً ليس لشعر ، وقلما لان الرجل او ترقق الا متكلفاً للغزل . وكان قد فارق قبل سيف الدولة رجالاً احبهم وصحبهم وباذلهم مكنون صدره من الود ، ولم يظهر في شيء من شعره بعد فراقهم اثر لهذا الفراق الا قليلاً قليلا . ولكنه حين فارق سيف الدولة

ودخل مصر ظهرت في شعره رقة لا عهد له بها ، ولا تكون العلة في هذه الرقة التي ظهرت فيه بعد ان جاوز الاربعين ، واستحكم واستمر مريره ،واستوت طبيعته على طريقة من القوة والتشدد والاستمساك — من أجل فراقه سيف الدولة وحسب ، فان ذلك الفراق بين (الرجلين) لا يعمل في تغيير الطبيعة المتأصّلة كل هذا العمل . وليس لشيء من العمل في تغيير الطبائع وتبديلها مثل ما للحبّ في القدرة على ذلك . وكان أبو الطيب حين فارق سيف الدولة ، يتلفت قلبه الى تلك التي خلّفها من ورائه ، وخلّف عندها قلبه وعواطفه ، فأثار ذلك في قلبه ذكرى وآلاماً ، جعلت الدنيا تضيق بها نفسه وتضجَر منها، فكان أول ما لقي كافوراً لقيه بالبيت الذي عدَّه الادباء والنُّقاد من سوءِ أدب المتنبي ومن جفائه وغلظته ، وليس الامر على ذلك ، فان الرجل لم يكن جافياً ولا غليظاً ولا سيء الادب،ولا ضعيف البيان ، ولكنه كان كما حدثناك مرهف الحس ، تغلبه العاطفة على أمره فلا يملك لبيانه تصريفاً ، وتصرّف عاطفته هذا البيان كما شاءت والعاطفة لا تعرف أميراً ولا كبيراً ، ولا تفرق بين لقاءِ الملوك ولقاءِ الصعاليك ، فلذلك رمى في وجه كافور بهذا

كَفَى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا وحَسْبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا
تمنيتَها لما تمنَّيتَ أن ترى صديقاً فأعيا أو عدوًّا مداجيا

ثم يمضي ابو الطيب على طريقته حتى يرقّ رقّةً ، لو انت قلبت ديوانه كله لم تجد لها شبيهاً ولا مثيلاً ، وذلك قوله في خطاب قلبه ، ذلك القلب الذي حطم فيه فراق خولة، وهد بنيان رجولته وقوته

(حببتك قلبي،قبل حبك من نأى،[1] وقد كان غدّاراً ، فكن أنتَ وافيا)
(وأعلم أن البين يُشكيك بعده ، فلست فؤادي إن رأيتك شاكيا)
(فإن دموع العين غُدْرٌ بربّها إذا كنَّ إثر الغادرين جواريا)
اذا الجود لم يرزق خلاصاً من الاذى فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا
وللنفس أخلاق تدل على الفتى أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا
(أقِلّ اشتياقاً أيها القلب ، ربما رأيتك تُصفي الود من ليس صافيا)
(خُلِقتُ ألوفاً،لو رجعتُ إلى الصبى لفارقت شيبي موجع القلب باكيا)

فاقرأ الابيات وتدبرها ، وانظر في خطابه قلبه — على غير عادته — خطاباً رقيقاً متنهداً ذا زفرات ، وانظر اضطراب امره بين قلبه وفكره ، وبين عاطفته ورجولته ، يقول لقلبه : « لست فؤادي ان رأيتك شاكيا » ثم يعود فيقول « خلقت ألوفاً . . . . » فليس في الابيات حبه لسيف الدولة وحسب بل فيه نفحات من لوعة الحب الذي يستولى على القلب : حب المرأة التي

(١) يريد بهذه الكناية (سيف الدولة)

يهجرها الرجل وهو يعلم يقيناً انه لا يهجرها وإنما يهاجر قلبه الذي بين جنبيه ويعانده ويراغمه . هذا وقد ظهر نفس هذا الاثر في كثير من شعر المتنبي ، ظهر في حكمته ظهوراً بيناً وذلك كقوله

ليت الحوادث باعتني الذي أخذتْ ... مني ، بحلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلم بمانعةٍ ... قد يوجد الحلم في الشبان والشيبِ

وهذا القول ليس من مذهب المتنبي في كلامه الاول الى فراقه سيف الدولة ، ومثل ذلك قوله

أودُّ من الايام ما لا توده ... وأشكو اليها (بيننا) وهي جنده
(يباعدن حِبّا يجتمعن ووصله ... فكيف بحِب يجتمعن وصده !؟)
(أبى خُلقُ الدنيا حبيباً تديمه ... فما طلبي منها حبيباً ترده)

ثم تلفت المتنبي الى ما كان من فراقه خولة ومهاجرتها مراغماً لقلبه ، متكلفاً الصبر والجلد فقال في عقب ذلك

(وأسرع مفعول فعلت ، تغيراً ... تكلف شيء في طباعك ضده)

وكان ابو الطيب يظن ان في الفراق ما ينسيه خولة ويمحو من قلبه آثارها ، وقد فارق ، وعلم ان ذلك لن يكون ، وان ما كان من اندفاعه ومراغمته عند اول الفراق إنما كان أمراً يخالف طبيعة حبه التي وصفها في شعره قبل وهو عند سيف الدولة بقوله

إلامَ طماعيةُ العاذلِ ... ولا رأي في الحب للعاقلِ
(يُراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقلِ)

هذا .... واذا انت اخذت في دراسة شعره في المدح والحكمة في هذه الفترة ، وجدت آثار هذا الحب الذي انقطعت منه آمال اللقاء والنظر والابتسامة والتلطف ، وما رمى في قلب ابي الطيب من الكمد والحسرة والاسف والحنين ، فأصبح كلامه وبيانه من تلك العواطف اليائسة التي انطوى عليها قلبه ، واضطرب بها ضميره وفكره [1] ، وبذلك تميز شعره في هذا العهد عن شعره فيما سبقه وتباين عنه تبايناً عظيما

ويقول ابو الطيب يذكر فراقه سيف الدولة ومقدمه على كافور

فراقٌ . . . ، ومن فارقتُ غير مذمَّمِ ... وأَمٌّ . . . ، ومن يممتُ خير ميمَّمِ
وما منزل اللذّات عندي بمنزل ... إذا لم أُبجَّلْ عنده وأُكرَّمِ
سجيَّةُ نفس لا تزال مُليحة ... من الضَّيمِ ، مرميًّا بها كلّ مَخرَمِ
(رحلتُ ... فكم باكٍ بأجفانِ شادنٍ ... عليَّ ! ! وكم باكٍ بأجفانِ ضيغمِ ! !) [2]

(١) سيكون بيان ذلك تفصيلا في بيت بيت وقصيدة قصيدة في موضعه من كتابنا عن ابي الطيب ، ونعتذر عن ذلك هنا ، لما ترى من تشعب الموضوع وسعته ، وما يقتضي من الوقت

(٢) الشادن ولد الغزال ، نريد به المرأة الغريرة الحسناء ، والضيغم الاسد

(وما ربّةُ القُرطِ المليحِ مكانُه ، بأجزعَ من ربّ الحسام المصمّمِ)
(فلو كان ما بي من حبيبٍ مقنّعٍ عَذرتُ ، ولكن من حبيبٍ معمَّمِ)
(رمى،واتّقى رميي،ومن دون ما اتّقى، هوًى كاسرٌ كفّي ، وقوسي، وأسهمي)

فهو بالبيت الاول قد عين من أراد بهذه القصيدة . فالذي فارقه هو سيف الدولة، والذي قصدهُ وعمه هو كافور وعلى ذلك اتفق الشراح جميعاً ، فلما أتى البيت الرابع قال « رحلت » يعني رحلته عن حلب، ثم ذكر بعده ما كان من جراء هذا الفراق وأبان عن الذي كان سبباً فيه، وقابل في ذلك بين اثنين رجل وامرأة . فذكر باكية تبكي على فراقه بعيني غزال ، وباكياً يبكي بعيني أسد . وجازعة لفراقه زينتها قرطها الذي في أذنها ، وجازعاً زينته حسامه ، وقد اتفق الشراح ايضاً — ولا شك فيما قصده ابو الطيب — على انه قصد سيف الدولة بقوله « ضيغم » وقوله « رب الحسام المصمم » . والمقابلة بين سيف الدولة وهذه المرأة دليل على صلتها بسيف الدولة وأبي الطيب ، ومعرفة سيف الدولة بهذه الصلة : ولا نشك بعد ما رأيت انه عنى بالباكية الجازعة لفراقه « خولة » اخت سيف الدولة ، ثم قال بعد « فلو كان ما بي من حبيب مقنع عذرتُ » وصبرت على ما يصيبني منه لحبي اياه ، والاذى من المرأة المحبوبة ينزل من قلب المحب منزلة الرضا، فهو لا يحمل على فراق ولا بين . ولكن الذي حملني على الفراق كون هذا الاذى انما اصابني « من حبيب معمم » هو سيف الدولة . ثم صرح في البيت الاخير مبيناً عن هواه فقال ان سيف الدولة رماه بسهمه (يريد الاذى الذي اصابه منه) ، واتقى بدرعه ان يرميه ابو الطيب بسهم مثله، وهذا الاتقاء من سيف الدولة عمل لا محل له ، إذ كان يعلم يقيناً ان أبا الطيب لن يرميه جزاءً له كما رماه ، لما في قلبه من حب خولة اخته وهواها الذي يحبس يده ويكسر كفه، ويحطم قوسه ، ويدق سهامه

هذا . . . وقد رووا ان ابا الطيب اتصل به وهو بمصر ان قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب فقال قصيدة يذكر ذلك ولم ينشدها كافوراً ، وكان مما جاء في أولها قوله

بمَ التعلل...؟! لا أهلٌ،ولا وطنُ، ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكنُ
أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ!!
لا تلقَ دهرك إلاّ غير مكترثٍ ما دام يصحب فيه روحَك البدنُ
فما يُديم سرورٌ ما سُررتَ به ولا يَردُّ عليك الفائتَ الحزنُ
(مما أضرَّ بأهل العشق أنهم هَوُوا وما عرفوا الدنيا،وما فطنوا)
(تفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسنُ)
تحمّلوا . . . حملتكم كلُّ ناجيةٍ، فكلُّ بينٍ عليّ اليومَ مؤتمنُ

(ما في هوادجكم من مهجتي عوضٌ   إن متُّ شوقاً، ولا فيها لها ثمنُ)
يا من نعيت على بعدٍ بمجلسهِ   كلٌّ بما زعم الناعون مرتهنُ
كم قد قُتِلتُ، وكم قد متُّ عندكم!!   ثم انتفضت فزال القبر والكفنُ

وفي هذه الابيات عندنا قول كثير نوجزه ونمدُّ منه أطرافاً نتفادى الإطالة ...، ففي الابيات الاولى تأخذ عينك أثر الاحزان التي كانت في قلب الرجل متمثلة مصورةً في شعره. وتدبر عبارته عن آلامه بقوله « بم التعلل » ...!! وهذا السكون الذي يعقب استفهامه وتعجبه، فهو بيان في غير لفظ، ثم يعود الى القول فيقول « لا أهلٌ ولا وطن، ولا نديم، ولا كأس ولا سكنٌ » . فقد كان بمصر وليس بها أحد يسكن اليه الاّ ولده محمّد، وهو مهاجرٌ لا وطن له، وهو بمصر غريب لا صديق له ولا نديم، وقد سئمت نفسه كل شيءٍ حتى الكأس من الخمر لا تسليه ولا تحرّكه، ثم تمم ذلك بلوعة قلبه إذ فقد سكنه وحبيبه الذي يسكن اليه ويأوي. ثم مضى يتمعل في المعنى حتى انتقل من تجلده تارة ومن احزانه اخرى الى الداءِ الذي يسلُّ قلبه ويسقمه فقال منتقلاً على عادته التي بيّناها قبل

مما أضرَّ بأهل العشق أنهمُ   هوُوا، وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

وهو بيان عن نفسه وما يحزُّ فيها من آلام (خولة)، وما لقيه بعدها من الاضطراب بين رجولته التي تأبى ان تخضع أو تضعف، وبين عواطفه التي تأبى الاّ ان تخشع لخولة، وتتعبد بذكرها وهواها وآلام حبها. وكان من جراء هذا الاضطراب أن أنكر (الرجل) قلبه، وقسا عليه وتعنّف به، وذم له هذه التي قد تولّه بها، وهي التي أضرت به وأشقته وعذبته. سفهاً وجهلاً منه اذ اراد ما لا يكون، ولا تأتي به الاقدار، ولا ترضى به التقاليد الاجتماعية في هذه الدنيا، كما ذكر في البيت الماضي، فقال في عقب ذلك معانداً ومراغماً لما في قلبه

« تفنى عيونهم دمعاً، وأنفسهم   في إثر كل قبيحٍ وجهه حسنُ »

يرحمك الله يا أبا الطيب . . . ثم انطلق يعاند قلبه، ويذمُّ له خولة، ولا ذنب لها الاّ ما تكلفه هو بالفراق، وإرادة نسيانها، « وتأبى الطباع على الناقل » أن يكون ذلك. ثم انظر خطابه بعد لسيف الدولة بقوله

يا من نعيتُ على بُعدٍ بمجلسه   كلٌّ بما زعم الناعون مرتهن

وربّك إني لأخال أبا الطيب قد قال هذا البيت وهو يبكي، فإن في الشطر الاخير عبرات من دمعه لا تزال تجول فيه وتترقرق. فكلُّ ذلك آثارٌ بيّنةٌ على انتقال طبيعة أبي الطيب من تكبرها وعتوّها وتزمّتها الى حالةٍ نفسية طارئة قد نفذت فيه آلامها وأهواؤها. فهو يعاني منها ما يعاني، ويضطرب لها ويهتزُّ ويتلذع، حتى كان شعره بعد فراق سيف الدولة كثير الشكوى،

مخالطاً بالحزن والحسرة والألم، وقد تنبه الى ذلك أبو الطيب نفسه فقال في قصيدة من مدائحه لكافور

لحى الله ذي الدنيا مناخاً لراكب ! فكل بعيد الهمّ فيها معذّب
(ألا ليتَ شعري ، هل أقول قصيدة فلا أشتكي فيها ولا أتعتّب ؟ !)
(وبي ما يذودُ الشعرَ عني أقلّه ولكنّ قلبي ، يا ابنة القوم ، قلّب)

وهذا الذي به مما يذود عنه الشعر ويمنعه من أن يقوله ، هو الذي ذكره أولاً فيما تقدم

ولكن حَمى الشعرَ — إلاّ القليل — همٌّ حَمى النومَ إلاّ غرارا
وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمتُ في القلب نارا

وهو حب (خولة) الذي ملأ قلبَ الرجل وأخذه وتفرّد به دون فكره وإرادته

. . . . . . فلما ماتت خولة رحمها الله في سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر ، تغيرت طبيعة أبي الطيب واسودت الدنيا في عينه ، وامتلأ قلبه حزناً ، وتقطعت نفسه عليها حسرات ، فكان شعره بعد من هذه المادة ، وأول ذلك ما كان من شعره في القصيدة التي رثاها بها اذ يقول لسيف الدولة

فلا تنلكَ الليالي ! ! إن أيديها إذا ضربنَ كسرن النّبع بالغرَب
ولا يُعِنَّ عدوًّا أنت قاهره فانهنّ يصدن الصقر بالخرَب
(وإن سررن بمحبوب فجعن به وقد أتينك في الحالين بالعجب)
(وربما احتسب الانسان غايتها وفاجأته بأمر غير محتسب)
وما قضى أحدٌ منها لبانته ولا انتهى أرب الاّ الى أرب
تخالف الناس حتى لا اتّفاق لهم الاّ على شجَب ، والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمةً وقيل تشرك جسمَ المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

وأعد قراءة الابيات الثلاثة الاخيرة وتدبر نفس ابي الطيب فيها ، فهو يكاد ينقطع ويسقط من العجز والتعب والفكر في الذي أصابه بموت حبيبته خولة . فاذا اردت ان تعرف تمام حالة ابي الطيب هذه ، وامتداد فكره فيها فاقرأ قصيدته التي قالها حين توفيت عمة عضد الدولة بن بويه في سنة ٣٥٤ والتي يقول فيها

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه ! !

. . . .

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه

وبقي كثير من الاشارات الى هذا الذي في قلبه ، طويناه حتى يأتي أجله ، والله المستعان

يا رجاءَ العيون في كلِّ أرضٍ
لم يكن ـ غير أن أراك ـ رجائي
ولقد أفنتِ المفاوزُ خيلي ،
قبل أن نلتقي ، وزادي ومائي
فارمِ بي حيث شئت مني ، فإني
أسدُ القلب آدميُّ الرُّواء
وفؤادي من الملوك ، وان كا
ن لساني يُرَى من الشعراء

قد ذكر الرُّواة في موضع القول من فراق أبي الطيب حضرة سيف الدولة أسباباً موجبة لهذا الفراق ، كالذي يروون من انه كان بحضرة سيف الدولة، وفي المجلس أبوالطيب اللغوي، وابن خالويه النحوي ، وجرت مسئلة في اللغة بين ابي الطيب اللغوي وابن خالويه ، فتكلم أبو الطيب المتنبي ، وضعف قول ابن خالويه ، فأخرج ابن خالويه (من كمه مفتاحاً من حديد) يشير به إلى المتنبي ، فقال له المتنبي : ويحك ! اسكت ، فانك أعجميٌّ ، وأصلك خوزيٌّ ، فمالك والعربية ! فضرب ابن خالويه وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه . فغضب المتنبي من ذلك ولاسيا إذ لم ينتصرْ له سيف الدولة ، قولاً ولا فعلاً ، فكان ذلك أحد اسباب مفارقته لسيف الدولة . وكالذي يروون من كيد أبي فراس له عند سيف الدولة بمثل قوله له: « إن هذا المتشدق (يعني المتنبي) كثير الإدلال عليك ، وانت تعطيه كل سنةٍ ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد. ويمكن ان تفرق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه » فأعرض عن أبي الطيب لذلك

فهذه الروايات وغيرها — كما حدثناك قبل[1]— هي من الاحاديث التي تناقلها مجالس الادباء ، ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها الى صدق الرواية وسياق التاريخ وما الى ذلك، ولكننا نستفيد منها على علاتها ، ونأخذ منها وندع ، ولا نطيل القول هنا بنقدها وتجريحها ، فلذلك أجله وموضعه ان شاء الله

(١) ص ١١١

والرأي عندنا ان فراق أبي الطيب لسيف الدولة مشكلة معقدة يطول تفسيرها وتبيانها على وجه معقول لا يتناقض ولا يختلف. ومختصره ان هذا الفراق كان لاسباب قد اقتضاها حب أبي الطيب خولة أخت سيف الدولة، وبقي أبو الطيب في جوار صاحبه وحبيبته يتلذع بآلام قلبه وفكره تسعة أعوام مجرّمة، وهو على عدة من سيف الدولة ان يحقق آمال فكره السياسية، وأماني قلبه وعواطفه بزواج خولة، ثم أدركه اليأس وظن أن في الفراق راحة له ونسياناً، وهو ما أشار إليه في قوله -- على ما فسرناه به[1]

« وأسرع مفعول فعلت تغيراً تكلف شيء في طباعك ضده »

وقد حمله على ذلك ما كان يلقاه من الكيد والسعاية من قبل (قوم) خولة، كأبي فراس وأبي العشائر وغيرهما، وما فعلوه من تحريض الادباء عليه كابن خالويه، واغراء الشعراء بغيظه ومنافسته والنيل منه حتى ضاق بهم فاستعدى عليهم سيف الدولة بمثل قوله

أزلْ حسد الحسّاد عني بكبْتهم فأنت الذي صيرتهم لي حُسّدَا
(إذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم ضربت بسيف يقطع الهام مغمداَ)
(وما أنا الاّ سمهريّ حملته فزيّن معروضاً وراع مسدَّدَا)
وما الدهر الاّ من رواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمّراً وغنى به من لا يغني مغرّدَا
(أجزني اذا أنْشدْت شعراً، فانما بشعري أتاك المادحون مردَّدَا)
(ودع كل صوت غير صوتي، فانني أنا الطائر المحكيُّ والآخر الصدى)

وقوله أيضاً في ذلك

أفي كل يوم تحت ضِبْني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

. . . .

وقد بين في هذه الابيات ايضاً عن وشايات وسعايات كان يكاد بها لدى سيف الدولة من الطعن في نسبه، والتشهير به في خلقه وضميره

أنا السابق الهادي الى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مَقول
(وما لكلام الناس فيما يريبني أصول، ولا للقائليه أصولُ)
أعادَى على ما يوجب الحبَّ للفتى وأهدأ والافكار فيَّ تجولُ
سوى وجع الحساد داوِ. فانه إذا حلّ في قلب فليس يحولُ

(١) انظر ص ١٣٩

ولا تطمعنْ من حاسد في مودة وإن كنت تبديها له وتنيل
وإنا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم أعراضٌ لنا وعقول)

وقد كان يتولى امر هذا الكيد كله ابو فراس الحمداني . وعندنا ان المنافسة في الشعر لم تكن هي السبب . وإنما كانت (خولة) السبب الاكبر الذي جلب عليه كيد أبي فراس ، ثم أبي العشائر — مع أنه هو الذي قدمه الى سيف الدولة وقرّبه اليه على ما يقولون . وقد بلغ من ذلك أن أغرى أبو العشائر غلمانه بقتله ، وقد رأيت قبل أن أبا الطيب على ذلك لم ينقص حبه لأبي العشائر ولا ضعف . وهذا لأنّ الامر لم يكن منافسة في شعر او غيره . وانما كان غيرة من أبي العشائر على بعض حُرَمه ، وأبو الطيب كما حدثناك في موضع كان يضع (الرجولة) وتوابعها في المنزلة الاولى ، ويحب من عدوه أن يستمسك بعروتها ، فلذلك لم يحقد على أبي العشائر حين أخذته الغيرة على حرَمه ، بل ازداد تعطفاً عليه وتلطفاً له ، على تكبره وتعاليه وعتوّه ، حتى قال له

(ونفسي له — نفسي الفداءُ لنفسه — ولكن بعض المالكين عنيف)
فان كان يبغي قتلها ، يكُ قاتلاً بكفَّيه ، فالقتل الشريف شريف

وبهذا يصبح لفراق أبي الطيب لسيف الدولة معنىً يُعقل ويعتمد عليه ويعتدُّ به ، ثم تتسق حالته النفسية الظاهرة في شعره ، وتتساوق معاني ديوانه متدرجة على أساس من نفسه وآلامها وآمالها وأشواقها ، وما أصابها من الكيد والعدوان ، وما منيتْ به من حرقة الحب ، ولوعة الحرمان

خرج أبو الطيب من حلب حيث كان سيف الدولة قاصداً دمشق ، وقد احتال لذلك حتى تم له الفراق قبل ان تدركه مكايد أبي فراسٍ وأصحابه وذلك في اواسط سنة ٣٤٦ . وكان يحمل بين جنبيه قلباً ممزقاً قد اعتورته السهام او كما قال

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فصرت اذا أصابتني سهامٌ تكسرت النصال على النصالِ
وهان . . . فما أبالي بالرزايا لأني ما انتفعت بأن أُبالي

فهو قد أصيب في آماله السياسية ، وأُصيب في هوى قلبه ، وأصيب في محبة سيف الدولة ، وما كان يضمر له من الاخلاص والتوقير والودّ ، فانطوى على ما به ، محزوناً ضجراً ملولاً ، يتبرّم بالدنيا ويضيق بها وبأهلها ذرعاً . فلما وافى دمشق ودخلها ، كان بها رجل يهوديٌّ من قبل كافور ، كان أبو الطيب يستثقل ظله على قلبه ، وكان قد لقيه قبل في سنة ٣٢٧ حين نزل على صاحبه أبي

علي (هرون بن عبد العزيز الاوراجي) الكاتب ، فسوّلت نفسُ هذا اليهودي لارادته ورغبته ان يحمل ابا الطيب على ان يمدحه بعد ان مدح أمير الامراء سيف الدولة ، وتقذّر ابو الطيب هذا اليهودي وغثيت به نفسه ، فسكّنها بالاعراض عنه وازدرائه والتهاون به ، فغضب اليهودي (ابن ملك) غضبة يهودية ، حتى اذا ما كان من كافور ما كان ، من مكاتبته في طلب ابي الطيب ان يقدم عليه ، فعلها ابن ملك ، وكتب الى كافور ان ابا الطيب قال : « لا أقصد العبد ، وان دخلت مصر فما قصدي الا ابن سيّده » . ثم ضاقت دمشق بأبي الطيب ، فخرج منها يريد صاحبه الامير ابا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة الذي مدحه في سنة ٣٣٦ كما قدمنا ، فاستقبله وانزله منزلاً كريماً وحمل اليه الهدايا النفيسة ، وخلع عليه الخلع الفاخرة ، وحمله على فرس بموكب ثقيل ، وقلده سيفاً محلًّى ، جزاءً لما كان مدحه به اولاً ووفاءً بالصحبة . فكان كافور يقول إذ ذاك لاصحابه « أترونه يبلغ الرملة ولا يأتينا ! ! » . وبلغ ذلك ابا الطيب ، وأن كافوراً يجد عليه في نفسه ، أن يقصد عماله (كابن طغج) ولا يقصده ، وأتت ابن طغج كتب كافور في طلب ابي الطيب ، وكان ابن طغج فيما نرى رجلاً بصيراً داهية مترفقاً حلو اللسان مطاع الرغبة ، فأخذ يراود ابا الطيب ، وأبو الطيب يتعسر عليه ويضيق بطلبه ، لما تحمل نفسه من الضجر والتبرم ، وبعد لأْيٍ ما ظفر به الامير ابن طغج وحمله على المسير الى كافور . فلما قدم عليه امر له بمنزل ووكل به جماعة ، واظهر التهمة له ، وطالبه بمدحه فلم يمدحه ، فخلع عليه الخلع حتى أحرجه بكرمه ، فلم يجد ابو الطيب الذي يقول

« ومن وجد الاحسان قيداً تقيّدا »

بدُّا من ان يحمل نفسه على مدح هذا الأسود الخصي ، علّه يصيب عنده ما فاته عند غيره من الفحول البيض . وعزى نفسه بذلك ، ولكنها أبت عليه ان تكون خالصة لكافور ، فرمت في وجه كافور بأبياتها لا أبيات ابي الطيب

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت ان ترى صديقاً فأعيا ، او عدوًّا مداجيا

واستقبال كافور بهذين البيتين هجاء دونه كل هجاء فيه اقذاع وفحش وسخرية وتهكم . وبقي ابو الطيب بعد ذلك بمصر يحتال لامره ، ولا يزال ينفث في كل شعر ذات صدره من الآلام والآمال ، وألقى على شعره ظلاً من الحزن والفجيعة والحسرة واليأس . ولكنه كان مع ذلك يجتهد في ان يظفر من كافور بولاية من الولايات يقوم عليها ليجرب نفسه بعد ان أخفق في عقد آماله على غيره . وكان أبو الطيب حين خرج من حلب ، خرج ومعه الخالديان (أبو عثمان سعيد بن هاشم وأخاه محمد) . وكانا يريدانه على أن يصحبهما الى العراق ، فيمدح الوزير أبا محمد المهلبيّ ،

فأبى عليهما وخالفهما ، فذلك حيث يقول أبو الطيب بذكر ما كان من أمره وأمرهما ، ويعرّض بحاجة نفسه لكافور

وفي النفس حاجاتٌ وفيك فطانةٌ سكوتي بيانٌ عندها وخطابُ
وما أنا بالباغي عن الحبّ رشوةً ، ضعيفٌ هوى يبغى عليه ثوابُ
(وما شئت إلاّ أن أدلّ عواذلي على أن رأيي في هواك صوابُ)
(وأعلم قوماً خالفوني ، فشرّقوا وغرّبت ، أني قد ظفرت وخابوا)[1]

. . . .

(إذا نلت منك الودّ ، فالمال هيّنٌ ، وكلّ الذي فوق التراب ترابُ)
وما كنت — لولا أنت — إلاّ مهاجراً له كلّ يوم بلدةٌ وصحابُ)

ولم يكن أبو الطيب يؤمّل من كافور ماله أو عطاياه أو هداياه ، فقد كان غنيًّا بما أعطاه سيف الدولة أو ما ادخره من عطائه وإقطاعه الذي كان له بالشام ،[2] بل كان يريد أن يلي بعض بلاد الصعيد ، أو صيداء كما ذكروا ، وذلك ليحقق ما استطاع آماله السياسية التي تترامى الى غاياتها التي قدمناها قبل . وقد زعموا أن كافوراً قال له حين ذكر حاجته : « أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين ، سمت نفسك إلى النبوة ، فان أصبت ولايةً وصار لك أتباعٌ فمن يطيقك » . وهذا من كلام الرواة وحسب . . . . والذي نراه رأياً أن كافوراً كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لا يضمر له حبًّا ولا كرامة ، بل كان يزدريه في نفسه ، وحسبه ما لطمه به في أول لقائه كما مرّ بك ، وحسبه ما كان يذكر في مدحه له من الحنين الى سيف الدولة وندمه على فراقه كقوله

أرى لي بقربي منك عيناً قريرة وإن كان قرباً بالبعاد يشابُ

وأبين تعريضاً وأبلغ إفصاحاً عن حقارة هذا الأسود في نفس أبي الطيب ما يقول له في اول مديحه

أغالبُ فيك الشوقَ ، والشوقُ أغلبُ وأعجبُ من ذا الهجرِ ، والوصلُ أعجبُ

والضمير في قوله (فيك) يرجع الى سيف الدولة ، ويريد بالهجر مفارقته سيف الدولة ، وبالوصل مقدمه على كافور ، ثم يزيد فيقول بعد

أما (تغلط) الأيام فيّ بأن أرى (بغيضاً) تُنائي ، أو (حبيباً) تُقرّبُ
ولله سيري ، ما أقلّ تئيّةً عشيةَ شرقيّ الحدالى وغرّبُ
عشية أحفى الناس بي (من جفوته) وأهدى (الطريقين) التي أتجنبُ

(١) يعني بالتشريق ذهاب صاحبيه الى العراق قاصدين المهلبي ، والتغريب مقدمه هو على مصر ليمدح كافورا
(٢) يذكرون أن سيف الدولة تقدم الى (ديوان البر) باخراج الحال فيما وصل به أبو الطيب المتنبي فخرجت بخمسة وثلاثين ألف دينار في مدة (اربع سنين)

فانظر الى نفس ابي الطيب في شعره ، ودقة بيانه بقوله (أما تغلط الايام) وهذا التصريح الذي وضعناه بين الاقواس يريد به سيف الدولة وكافوراً ، أفتظنُّ ان هذا كان مما يخفى على (الاستاذ) كافور ، وكان من علماء عصره وأدبائهم . وهل كان يخفى على كافور ماسخر أبو الطيب به في شعره من ذكر سواده والتعريض به ، وجعله من مادة مدحه له ، والاتيان في ذلك بكل غريبة ونادرة ، مما يدل على تمكن الاصول البيانية في لسان أبي الطيب وقلبه . انظر الى قوله وهو يهنئ كافوراً ببناء الدار التي أقامها بإزاء الجامع الاعلى على البركة

نزلتْ إذ نزلتَها الدَّار في أحسـن منها ، من السَّنى والسناءِ

وهذا لا بأس به ، ولكن تدبر التهكم العجيب في هذه الابيات ، وذكر المستحيلات التي لا تقع ولا تكون ولا تُتَوهم إذ جعله (شمساً منيرة) ولكنها سوداء .... !!

تفضح الشمسَ — كلما ذرَّتِ الشمـسُ — بشمس منيرة (سوداءِ)

إن في ثوبك — الذي المجد فيه — لضياءً يزري بكلِّ ضياءِ

وهذا الضياء هو سواده

إنما (الجلد) ملبسٌ ، وابيضاض النَّفس خير من ابيضاض القباءِ(١)

كرمٌ في شجاعةٍ ، وذكاءٌ في بهاءٍ ، وقدرةٌ في وفاءِ

من لبيض الملوك أن تبدل اللونَ (بلون الاستاذ ، والسحناءِ)

ثم يجعله بعد ذلك (رجاء العيون في كل ارض) ، وذلك لانه عجيبة من عجائب الدهر . وتدبر كل شعر الرجل في مدح كافور تجد أمثال ذلك بيّناً دالاً على نفسه ، وتنبهْ لالفاظ الرجل فانها هي التي كان يطوي تحتها معاني تهكمه بكافور كقوله « يا رجاء العيون » ، وتنبهْ إلى قلبه المعاني ، ولفها عن وجوهها كقوله مثلاً

وما كنتَ ممن أدرك الملك بالمنى ولكن بأيام أشبن النواصيا

(عداك تراها في البلاد مساعياً وأنت تراها في السماء مراقيا)

وهذا البيت الاخير تعريض بسقوط همة كافور ، وليس بمدح . وكان حق المعنى ان يكون

(عداك تراها في السماء مراقياً وأنت تراها في البلاد مساعيا)

وذلك أن الاعداء يستعظمون ما كان من تملكه البلاد ، ويعدونه أمراً عظيماً كالرقيِّ إلى السماء — وذلك لحسدهم وعداوتهم التي تربو في صدورهم فترمي في الواقع بالوهم فيتعاظم في العيون — ولكن كافوراً لبعد همته ، لا يراها أمراً عظيماً بل هي مساعٍ في الارض لا جهد فيها إلا كجهد

---

(١) تدبر قوله (الجلد) فهوهنا من أقبح الهجاء باللفظ قبل المعنى ، وكذلك قوله « لون الاستاذ والسحناء »

المشي . . . فهذا هو المعنى الذي قلبه ابو الطيب ببيانه القوي ، ليعرضه مدحاً . وهو ذمٌ بليغٌ وهجاءٌ نافذ

فكان كافور يجيد فهم ذلك وينفذ الى اسراره ، ويبصّر به إن لم يكن قد ادركه ، فقد كان ابو الطيب وهو بمصر ماقي بالرزايا ، مقصوداً بالعداوة من اقوام بعينهم كانوا يمهدون للدعوة الفاطمية ، وكانوا على صلة بكافور وثيقة ، يبدون له المحبة والاخلاص ، وهم يعملون على إهلاكه. وكان كافور يتقي ذلك بدهائه وحياته وخبرته السياسية فكان يهادي المعز لدين الله الفاطمي صاحب المغرب ويظهر ميله اليه ، وهو مع ذلك يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء . وايضاً ماكان من عداوة الوزير أبي الفضل ابن حنزابه (جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات)، وكان عالماً فاضلاً له درس يلقيه وهو في وزارته، وكان المتنبي لم يمدحه ولا عبأ به فلذلك عاداه ، وكاد له كيداً بالغاً حتى ان المتنبي ذكره بعد خروجه من مصر فقال

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحكٌ كالبكا
بها (نبطيٌّ) من أهل السواد يدرّس أنساب أهل الفلا

والنبطي هو هذا الوزير ، وكان عالماً بالانساب قائماً عليها ، ألف كتباً في أسماء الرجال والانساب ، وقصدته العلماء لذلك. كالحافظ المحدث ابي الحسن الدارقطني، قدم عليه من العراق واقام عنده

وأقام ابو الطيب بمصر على كره الى ان ورد ابو شجاع فاتك غلام الاخشيد (محمد ابن طغج) من الفيوم فاميه المتنبي بالميدان على رقبة من كافور . وكان فاتك عند مقدمه قد أهدى إليه هدايا قيمتها الف دينار فانشده قصيدته التي اولها

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم تسعد الحالُ

وقال له فيها يذكر ماكان منه

(وما شكرت لان المال فرّحني سيان عندي إكثار وإقلال)
لكن رأيت قبيحاً أن يجاد لنا وأننا بقضاء الحق بخّالُ
اطلَّفت رأيك في برّي وتكرمتي، إن الكريم على العلياء يحتالُ
وقد أطال ثنائي طول لابسهِ إن الثناءَ على التّنبال تنبالُ

يشير بالتنبال الى كافور ، . . . ثم يزفر المتنبي زفرته من جوف قلبه

لولا المشقة ساد الناس كلّهم ، . . الجود يفقر ؛ والإقدام قتّالُ
وانما يبلغ الانسان طاقته . . . ، ما كلّ ماشية بالرحل شملالُ
إنا لفي زمنٍ ترْك القبيح بــه من أكثر الناس إحسانٌ وإجمالُ

ذكر الفتى عمره الثاني . . ، وحاجته ما قاته . . ، وفضول العيش أشغال

وكذلك كان أبو الطيب قد يئس من بقائه في مصر ، وبرم بالمال وأصحاب المال ، وعزم على الرحلة من مصر ، فأعدّ له العدة ، واعتمد على الهرب بحيلته ودهائه قبل أن يدركه كافور الذي أرصد حوله الرقباء وبثّ عليه العيون . وانتهز هذا الداهية الخبير البصير الفرصة في العيد يوم عرفة من سنة ٣٥٠ هـ — وكان رسم كافور أن يستقبل العيد بيوم (هو يوم الوقفة الآن) ، وتعدّ فيه الخلع والحملانات والهدايا وأنواع المبارّ لرابطة جنده ، ورواتب جيشه ، وصبيحة العيد تفرّق وثاني اليوم يذكر له من قبل ، ومن ردّ واستزاد — فاهتبل المتنبي غفلة كافور واشتغاله بالعيد ، ودفن رماحه برًّا ، وسار ليلته ، وحمل بغاله وجماله ، وهو لا يألو سيراً وسرى . وقطع في هذه الليلة مسافة أيام حتى وقع في تيه بني إسرائيل ، الى أن جازه على الحلل والاحياء والمفاوز المجاهيل ، والمناهل الاواجن . . . . فلما بلغ كافوراً الخبر بذل في طلبه ذخائر الرغائب ، وكتب الى عمّاله في سائر أعماله ولكن . . . . يقول المتنبي

فربّتما شفيت غليل صدري بسيرٍ أو قناةٍ أو حسامِ
وضاقت خطّةٌ فخلصت منها خلاص الخمر من نسج الفِدامِ

فلما أنخنا ، ركزنا الرما
ح بين مكارمنا والعلى
وبتنا نقبّل أسيافنا
ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ، ومن بالعراق ،
ومن بالعواصم — أنّي الفتى
وأني وفيت ، وأني أبيت ،
وأني عتوت على من عتا
وما كلّ من قال قولاً وفى ،
ولا كلّ من سيم خسفاً أبى

خرج أبو الطيب من مصر ، وقد اجتواها ، وبغّضت اليه هذه الحياة الفاسدة التي بها وبغيرها من البلاد العربية ، والتي وصفها في قصيدته حين مرض بالحمى وهو بمصر فقال . . . .

(ولما صار ودّ الناس خبًّا   جزيت على ابتسامٍ بابتسامِ)
(وصرت أشك فيمن أصطفيه   لعلمي أنه بعض الأنامِ)
يحبّ العاقلون على التصافي ،   وحبّ الجاهلين على الوسامِ
(وآنف من أخي لأبي وأمي   إذا ما لم أجده من الكرامِ)
أرى الاجداد تغلبها كثيراً   على الاولاد أخلاق اللئامِ

وتنازعت قلب ابي الطيب كل اسباب همه ويأسه ، همّ الحب ويأسه من اللقاء ، وهمّ السياسة ويأسه من إدراك المطالب وتحقيق الآمال ، واثبت كل ذلك في قصيدته التي قالها يوم خروجه من مصر ، فتدبرها وفصّلها على ما رسمنا فيما مضى . . . . يقول

عيدٌ بأية حالٍ عدت يا عيدُ   بما مضى أم لامر فيك تجديدُ
أما (الاحبة) فالبيداء دونهم   (فايت دونك بيداً دونها بيد)

. . . .

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي   شيئاً تتيّمه عينٌ ولا جيدُ

يا ساقييَّ ! أخمرٌ في كؤوسكما أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيدُ ؟ !
أصخرة أنا ؟ ! مالي لا تحركني هذي المدام ، ولا هذي الاغاريدُ !
إذا أردت كميت اللون صافية وجدتها ، و(حبيب النفس) مفقودُ
ماذا لقيت من الدنيا !!... وأعجبه أني - بما أنا شاكٍ منه - محسودُ
أمسيت أروح مثرٍ خازناً ويداً ،.. أنا الغنيُّ ،.. وأموالي المواعيد

ثم يخلص ابو الطيب الى ذمّ مصر وأهلها ، ووصفهم بالكذب والمماطلة ، وما كان من ولاية كافور الاسود الخصيّ عليها ، وماكان يجري من المكر فيها وفي سياستها ثم يهجو كافوراً بأفحش الهجاء ، ثم يذكر همّ نفسه وفراق سيف الدولة وذلك قوله

اولى اللئام كويفيرٌ بمعذرةٍ في كل لؤمٍ ، وبعض العذرِ تفنيدُ
وذاك ، أن (الفحول البيض) عاجزة عن الجميل ، فكيف (الخصية السود) !!

ونحن نقدّم العذر لابي الطيب فيما ذمّ به مصر ، وما ذكر من أخلاقها ، فقد كان الرجل منكوباً في نفسه وآماله ، وقلبه وهواه ، وزاده القوم كيداً ، وأثبت عليه هذا الاسود كافورٌ عداوةً باغية ، وهو الذي أقدمه على مصر بطلبه ، وقد أعذر ابو الطيب بمدحه إياه أيّاً كان ، بعد أن كان في جوار امير العرب سيف الدولة . هذا . . . وليس يمنعنا من شهادة الحق — ولو على أنفسنا — ما يأتي به بعض الناس من الغضب الباغي (للقومية) ، وقد ذكر ابو الطيب عيوباً لا تزال متأصلة في مصر ، ولا خير في الغضب من ذكرها ، بل الخير كل الخير في معرفتها والتنبّه لها والعمل على إصلاحها . والحقيقة التي لا تجحد ان أبا الطيب قد نفذ ببصيرته الى ماكان يسلّ مصر ويقتلها من الخلق الفاسد ، وقد كشف عنه في قصائده التي قالها في هجاء كافور ومدح فاتك ورثاءه . وليس ابو الطيب وحده هو الذي عرف ذلك وأدركه بل قد عرف ذلك كثيرٌ من أهل عصره ، وإذا أنت قرأت التاريخ الذي بين أيدينا ، وقفت على ذلك وعلمت ان الرجل كان بصيراً نافذاً الى ضمائر الناس يجلوها ويكشف عنها . ولا بأس هنا من ان نذكر لك أبياتاً قد قالها القاضي التنوخي الكبير حين قدم هو أيضاً مصر وخرج منها كارهاً يقول

تركنا أرض مصرٍ لكلّ فدمٍ له باعٌ يقصّر عن ذراعِ
نفوسٌ لا تليق بها المعالي وأخلاقٌ تضيق عن المساعي
أقمت بها . . .، ومن محن الليالي مقامُ الأسد في كهف الضّباعِ
أقول : وقد نأوا ، بعداً وسحقاً لشرّ الخلقِ في شر البقاعِ
وكم خلفت من كرمٍ مهين بعرصتها ، ومن عرض مضاعِ
وأجسامٍ مسمّنةٍ شباعٍ وأحسابٍ مضمّرةٍ جياعِ

ونقص في أكابرها حضيض ٍ وجهل في أصاغرها مشاع ِ
لقد نامت سريرتكم وكانت فضيحتكم فناعا للقناع ِ
جعلتم ذنبنا أنا سمعنا .. وما الآذان إلا للسماع ِ

وهذا ليس مما يغضب منه ، فإن في التاريخ من امثال ذلك مالا يدفع . وقد كانت في مصر لذلك العهد، وفي غير مصر، اخلاق فاسدة هي التي عصفت بالعنصر العربي وأضاعته بين ذئاب الأعاجم وغيرهم حتى صرنا إلى ما نحن فيه الآن . فهذا الغضب التاريخي لا محل له ولا وجه ، الا القصور في معرفة التاريخ . هذا .... وليس بمنكر أن تكون هناك فضائل أخرى تلطف هذه العيوب وتخفف منها فتنسى في جانبها ، وتخفى صورتها في ظلها

. . . سار ابو الطيب يطوي الفلوات بماله ورجاله ورماحه وخيله ، هارباً من كافور وما أتبعه من الطلاب ، وقطع في سيره الفلاة ما بين مصر وطورسيناء خائفاً يترقب ، وتراءت له ايامه كلها بأهوالها وغفلاتها ، وحسناتها وسيئاتها ، واضطربت نفسه وعلت امواجها ، وأدركته رجولته وفتوته ، حين لفحته هبات الهجير وقد نصب لها حر وجهه ، وتنسم من سمائمها التي اعتادها في اول ايامه قبل أن يستنيم الى بعض الدعة ، ويركن الى غفلات الراحة ، وكذلك غاب ماكان به من اليأس والضجر ، ومد ذراعيه يستمسك بالحياة ، يبغي الظفر وتحقيق الامل . ومن هنا قال في قصيدته التي ذكر فيها رحلته عند وروده الى الكوفة . . . . يصف النوق التي نجا على ظهرها

ولكنهن (حبال الحياة) ، و (كيد العداة) ، و (ميدَ الأذى)
ضربت بها التيه ضرب القما ر ، إما لهذا وإما لذا
إذا فزعت قدمتها الجياد ، وبيض السيوف ، وسمر القنا

. . . .

وقلنا لها اين ارض العراق فقالت — ونحن بتربان — : ها

ولم يكن ابو الطيب في مخرجه هذا يريد مكاناً بعينه يقصده ، بل كان متردداً بين ان يقصد المدينة ويقيم بها، او يقطع في رحلته الفلاة الى نجد ، او ينحدر الى العراق . ولعله كان يتلقف الاخبار وهو في طريقه حتى يرى رأيه في قصده ، ويتقي شر الكيد الذي كان يكاد به طول عمره من جراء السياسة ، ومن أجل تقحمه على أصحاب الدسائس متهاوناً بهم ، والظاهر (١)

(١) قد حاولنا أن نهتدي في ظلام التاريخ الى وجه من الرأي فلا نقرر الآن شيئاً . فإن ذلك يقتضي التنقيب في تاريخ العلويين خاصة في ذلك العهد ، وما كان لهم وما كان منهم . والكتب التي بين أيدينا من التاريخ ناقصة ، ومفرقة . فإذا تم لنا شيء من السند التاريخي فحينئذ نقدم على القطع برأي من أمر مدخله الكوفة . هذا على أن في أيدينا أشياء ولكنها لا تكفي في الدلالة على الوجه الصحيح

من شعر ابي الطيب انه لامر ما اعتمد الرحلة الى الكوفة ودخولها . وقد رأيت قبل في خبر موت جدته أنه حين أراد دخول الكوفة ليراها ، منعه العلويون — فيما ذهبنا اليه — وحملوه على مفارقة جوارها الى بغداد ، فكان من جراء ذلك ما استعلن — في قصيدته التي رثى بها جدته — من الحدة والتهور والثورة . والتعريض بما أريد به من الظلم والضيم ، فكان مما قال

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني (لأنفهم رغما)
تغرّب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الاّ لخالقه حكمَا
ولكنني مستنصرٌ بذبابهِ ومرتكبٌ في كل حال به الغشما
وجاعله يوم اللقاء تحيّتي وإلاّ فلست (السيد البطل القرْما)
(إذا فلّ عزمي عن مدى خوف بعده فأبعد شيء ممكن لم يجد عزما)
وإني لمن قوم كأنّ نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما
(كذا أنا يادنيا ، إذا شئت فاذهبي ، ويانفسُ زيدي في كرائهها قدْما)
(فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تُعزني ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلما)

وقد قلنا ثم انه أراد بالشامتين الذين كان لانوفهم (رغما) — العلويين ، وانه أنذر وأوعد وهدد يريدهم بذلك ، لما أنزلوهُ به من الكيد له حتى خفيت نسبته إلى الشجرة العلوية المباركة . ولم يزل أبو الطيب يسرّ ذلك في نفسه ، وهو في كل مرة يلقي من العلويين كيداً كثيراً ، كما رأيت من إرصادهم لقتله بكفر عاقب

فالآن ، يتمكن أبو الطيب — بعد استمرار عزيمته ست عشرة سنة (من سنة ٣٣٥ إلى سنة ٣٥١) — من دخول الكوفة ، بعد أن حيل بينه وبينها في موت جدّته ، وقد لقي في هذه السنوات من المصائب والأرْزاء ما فتّ حيناً في عضده ، وما رمى في قلبه بالعزم والقوة حيناً آخر . يدخلُ الكوفة وقد رغمت أنوف من منعوهُ عن دخولها أولا ، ومن فارق الكوفة وتغرّب غير قابل لما أرادوهُ عليه من ظلمهم له . . . فيقول

فلمَّا أنخنا ركزنا الرما ح ، بين (مكارمنا) والعُلى

فانظر إلى قوله (مكارمنا والعلى) ، أتكونُ (مكارمه والعلى) هذه هي السِّقاءة وما إليها؟ إذ تكذّبَ عليه القوم فزعموا أن أباهُ كان (سقاء بالكوفة على بعير له) . والعجب أن يذكُرَ أبو الطيب هذه المكارم والعلى وهو مقيم بالكوفة ، التي كان بها من يعرفه من لداته الذين كان معهم في المكتب وهو صغير . إن يكن ما زعموا . . فتبًّا (لابن السقاء) هذا من شيخ لا يستحي من الله ولا من الناس ! ! هذا ، وفي الأبيات التي تلي هذا البيت نفحةٌ من نفحات الصدْق ، وصورة من قوة العزيمة ، وكَرَم العنصر ، وعزة نفسٍ تميّز في ألفاظها ، لا يقبل لكذّاب ولا دعيّ

بأن يجعلها تتراءى في كلامه واضحة بيّنة سمحة مستبانة . . . . يقول

وبتنا نقبّل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ، ومن بالعراق ، ومن بالعواصم ، أني الفتى
(وأني وفيت ، وأني أبيت ، وأني عتوت على من عتا)
(وما كل من قال قولاً وفى ولا كلّ من سيم خسفاً أبى)
(ومن يك قلب كقلبي له يشقّ إلى العزّ قلب التوى)
(ولا بدّ للقلب من آلة ورأي يصدّع صمّ الصفا)
وكل طريق أتاه الفتى على قدر الرجل فيه الخطى

وفي قوله « وأني وفيت » البيتان اشارات بينة إلى ما مضى في كلامنا عن نسبه وغيره ، لا نطيل باعادتها هنا مرّة أخرى . وكذلك أرغم أبو الطيب أنوف أعدائه جميعاً ، وأراهم أن عزمه لا يزال ماضياً متفتحاً لا يردّ على بعد الشقة وتطاول الايام ، وانه قرب اليه ما كانوا يباعدونه عنه بتهكمهم وسخريتهم به إذ قالوا « ما أنت في كل بلدة ! ، وما تبتغي؟ » . . وقد صدق إذ قال

إذا فلّ عزمي عن مدى خوفُ بعده فأبعد شيء ، ممكن لم يجد عزما

لم يرد في خبر أبي الطيب ومدخله الكوفة في شهر ربيع الاول من سنة ٣٥١ شيء يمكن ان يتوجه به التاريخ في هذه الفترة الى وجه بعينه . والذي في رواية الرواة انه توجّه بعدها الى مدينة السلام (بغداد) ولكن من قبل رحلته حدث بالكوفة حدثٌ حضره المتنبي . وذلك ان رجلاً خارجيّاً كان قد ثار بالكوفة، وكان من بني كلاب، واجتمعت اليه فئة من المقاتلة الخوارج فانتهض اليهم أبو الفوارس دلّير بن لشكروز ، وانصرف هذا الخارجيّ قبل وصول دلّير إلى الكوفة فمدحه ابو الطيب ، وأنشده وهو في الميدان ، فحمله على فرس بمركب ذهب . ولسنا نعرف سبباً لمدح ابي الطيب هذا الرجل (دلّير) ، ولم يرد في كتب التاريخ التي بأيدينا ذكر هذا الحادث ، ولا ذكر الخارجي الذي ثار بالكوفة في سنته تلك . وهذا مما يجعلنا نأخذ الحذر في القطع برأي ، والظاهر أن لهذا الرجل (دلير) علاقة بالمشاكل العلوية التي كانت لذلك العهد بالكوفة . وانه كان ممن يميلون الى الجانب الذي فيه سيف الدولة وأبو الطيب ، فان نفس أبي الطيب كما رأيت كانت نفس الرجل المنتصر الظافر الذي خرج من هوج العواصف سالماً غالباً كما مرّ بك في قوله

فلما أنخنا ركزنا الرما حَ بين مكارمنا والعلى

أقام ابو الطيب بالكوفة أشهراً ثم خرج من سنته تلك الى بغداد فنزل على صاحب له هو علي بن حمزة البصري(١) ، وأقام عنده في داره . ويبيّن من نزول أبي الطيب على هذا الفتى دون سواه من رجال الدولة في ذلك العهد ، أنه قصد بذلك ان يبدي بفعله ازدراءه لهم ، واستهانته بهم . ولعله كان مما أراد ايضاً ان يكون على مقربة من سياسة الدولة ، ليخبر الرجال الذين كانوا يوقدون نار الفتنة إذ ذاك ، وليروز ما عندهم . وهذا يبيّن مما قدمناه قبل (٢) من المراسلة التي كانت بينه وبين سيف الدولة . ويبيّن ايضاً انه كان متعالماً عند أهل السياسة في ذلك العهد ان أبا الطيب كان مَقْدمه من أجل ذلك ، فقد ذكر الحاتمي (صاحب الرسالة الحاتمية) ان معز الدولة بن بويه الديلمي (ساءه ان يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوّه) يعني سيف الدولة . ثم ان أبا الطيب لم يقف أمره عند ذلك بل قد رغب اليه جماعة من أصحاب الوزير المهلبي أن يمدح الوزير ، فأبى عليهم ابو الطيب وجبهم بأسوأ الرد . وكان السبب في سوء ردّهم ان أبا الطيب كما علمت لم يكن يرضى أبداً عن هؤلاء الاعاجم الذين مزّقوا الدولة العربية وتقاسموها بينهم -- ونعني منهم هنا بني بويه — وكان المهلبي وزير معز الدولة ، وكان مشايعاً لهم في كثير ، وعلى أن مشايعة الوزير المهلبي لبني بويه كانت -- فيما نرى— ارتفاقاً للرزق فإن أبا الطيب لم يعبأ به ، بل أغضى عنه تهاوناً وازدراء . فأحفظ ذلك الوزير المهلبي فأسد عليه الادباء والشعراء وأغراهم به ليغيظوه ويكيدوا له ، ويغلظوا له القول في مجلسه . فكان ما رأيت قبل من هجائهم إياه وزعمهم أن أباه كان سقاءً بالكوفة كما ورد في الشعر الذي قدمناه في أول الابواب . ولا يفوتنك هنا ان تعلم أن التنوخي الذي روى قصة نسبه كان بالعراق لذلك العهد ، وايضاً ان ابن أم شيبان الهاشمي ، وأبا الحسن العلوي كانا كذلك ببغداد . وقد رأيت في الباب الاول كلامنا عن هؤلاء وما ادّعوه من أن أباه كان سقاءً ، فاجتماع هؤلاء ببغداد ، ومقدم أبي الطيب عليها من أجل السياسة ، وهو عدوّ بني بويه ، إذ كان من اصحاب سيف الدولة ، ورجلاً من الذين اتخذهم لسره وآرائه السياسية ، ثم ما كان من امتناعه عن مدح الخليفة العباسي ، ومعز الدولة الديلمي (العلوي الفاطمي) المذهب ، وازدرائه لوزير معز الدولة (أبي محمد المهلبي) ، ثم ما كان من عداوة الشعراء والأدباء له باغراء المهلبي وغيره ، نقول : إن هذا كله مما يجعلك تستيقن فسادَ الروايات التي يرويها الرواة عن أمر المتنبي وحياته ، وخاصّةً ما كان ظاهرَ التحامل ، بيّن الضغينة.... عفا الله عنهم ! ! لقد رموا الرجل بكل نقيصة ، ووضعوا لكل ما كان يتمدح به في شعره قصّةً تخالف ذلك : رأوا المتنبي يتمدح بالكرم ويمدح عليه فوضعوا القصص في بخله وشراهته على المال ، ورأوه يمجّد الرجولة والشجاعة ويصف بهما نفسه ، فوضعوا

(١) انظر التعليق في ص ٢٤ (٢) من ص ١٢٥ — ١٢٧

الأكاذيب في حكايات جُبْنه وخوره .... إلى غير ذلك من الأحاديث التي لا تصلح لتحقيق ولا ترجمة

وبقي أبو الطيّب ببغداد مستهيناً بكل كيد وحقد ، وأخذ يقرأ ديوانه على بعض أصحابه بدار علي بن حمزة البصريّ . ثم فرغ من أمره ورجع إلى الكوفة في اواسط سنة ٣٥٢ وبقي بها ، ولم يقل شعراً بلغنا ، إلى أن بدأت سنة ٣٥٤ فارتحل إلى بغداد وكان الوزير المهلبيّ قد مات

والظاهر من أمر أبي الطيب أنه حين بلغه وهو بالكوفة في سنة ٣٥٢ موت خولة أخت سيف الدولة ، تمزقت أحلامه ولم يبق له قاب بمدّه بالقوة والتدفع والثورة ، كالذي كان له من قبل ، واستيأس من أمره إلا قليلا . فلما جاءه كتاب سيف الدولة في ذي الحجة من سنة ٣٥٣ يذكر العوائق التي تمنعه عن فتح العراق ، ويبيّن له ما هو فيه من الكرب والضيق والعسر على ما قدمنا في شرح قوله [١]

« فهمتُ الكتابَ ، أبرّ الكتب فسمعاً لأمر أمير العرب »

أحيط بأبي الطيّب ، وأسلمت نفسه قيادها لأحزان قلبه . فلم يحمل نفسه على الرحلة إلى سيف الدولة لئلا يذكره المكان وأهله ، بمكان قلبه والساكنيه . أعني خولة ، فأراد أن يُنسى همّه بقصد أرض غير الشام التي يتلفّت قلبه إليها في حنين وأنين وبكاء

وكان أبو الفضل بن العميد [٢] وهو بالريّ يخرج كل عام خرجتين إلى أرّجان فبلغه مقدم المتنبي إلى بغداد فراسله ، وعزم عليه في الحضور إليه بأرّجان . وقد زعموا ان ابن العميد (كان يسمع بأخبار ابي الطيب — وكيفية اشتهاره في الاقطار ، وترفعه عن مدح الوزراء ، فسمع انه خرج من مدينة السلام متوجهاً الى بلاد فارس ، وكان يخاف ان لا يمدحه ، ويعامله معاملة المهلبي — فينكره من ذكره ، ويعرض عن سماع شعره) . والصحيح من هذا ان ابن العميد كان يخاف ان لا يعبأ به المتنبي فراسله وأسبغ عليه من فواضله . قضى ابو الطيب في سيره من بغداد الى أرجان يصحبه تلميذه علي بن حمزة البصري . قال عليّ هذا : « فلما أشرف عليها (أبو الطيب) وجدها (يعني أرّجان) ضيقة البقعة والدور والمساكن . فضرب بيده على صدره وقال : تركتُ ملوك الارض وهم يتعبّدون بي ، وقصدتُ ربَّ هذه المدرة ..؟! فما يكون منه!! ثم وقف بظاهر المدينة وأرسل غلاماً له على راحلته إلى ابن العميد فدخل عليه وقال : مولاي أبو الطيب المتنبي خارج البلد — وكان وقت القيلولة ، وهو مضطجع في دسته — فثار من

---

(١) ص ١٢٧ (٢) هو محمد بن الحسين بن محمد الكاتب وزير ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي ، وكان عالماً أديباً فصيحاً ذا بيان ، وكان من أئمة الترسل ، وقد سمي بالجاحظ الثاني ، وكان من دهاة السياسة وتدبير الممالك

مضجعه ، واستثبته ، ثم أمر حاجبه باستقباله ، فركب واستركب من لقيه في الطريق ، ففصل عن البلد بجمعٍ كثير فتلقّوه وقضوا حقّه وأدخلوه البلد . فدخل على ابي الفضل فقام له من الدست قياماً مستوياً ، وطرح له كرسي عليه مخدة ديباج ، وقال أبو الفضل : كنت مشتاقاً اليك يا أبا الطيب ... » وكان دخول أبي الطيب أرّجان ولقاؤه ابن العميد في شهر صفر سنة ٣٥٤

كان ابن العميد من رجال عصره في السياسة وتدبير الملك ، ومن شيوخهم في العلم والفلسفة وما اليهما ، ومن أفذاذ البلغاء والادباء ، وكان أمةً وحده . فلا عجب أن يحتفل له بيانُ ابي الطيب احتفالاً عظيماً في اول اللقاء فيمدحه بقصيدته المشهورة « بادِ هواكَ صبرت أم لم تصبرا » والتي يقول فيها يصف ابن العميد

من مُبلِغُ الاعرابِ أني بعدها جالستُ رِسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدّياً متحضّرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما ردّ الإلهُ نفوسهم والاعصرا

وأكرمه ابن العميد واحتفل له ، فبقي عنده المتنبي شهرين او أشفّ قليلاً . وكان المتنبي ، وهو في جوار ابن العميد ، لا يزال يعاوده همّ قلبه ويغلبه اضطراب نفسه ، فكان ذلك في شعره ، ولكنه كان يتماسك على الضعف ، ولا يعطي المقادة إلاّ مقهوراً . وقد وقع ذلك في قصيدته التي مدح بها ابن العميد ، وفطن ابن العميد الى هذا الاضطراب . رووا أنه لما أنشده

بادِ هواكَ ، صبرتَ أم لم تصبرا وبكاكَ إن لم يجرِ دمعك أو جرى
كم غرّ صبرُكَ وابتسامُك صاحباً لما رآك .. وفي الحشا ما لا يُرى !!

فقال له ابن العميد : يا أبا الطيب ، أتقول « بادِ هواك » ثم تقول بعده « كم غرّ صبرك » ؟ ما أسرع ما نقضت ما ابتدأت به !! فكان جواب ابي الطيب : « تلك حالٌ ، وهذه حالٌ » وهذا هو ما نقول به ... فان ابا الطيب كان يذكر خولة احياناً فلا يخفي هوى ، ولا يردُّ دمعاً ، وتنطلق عواطفه من عقال رجولته ، فاذا ما ارتدّت اليه قوّته وارادته ، ردّ ذلك رجولته وأبدى الصّبر ، واظهر الابتسام والرضى . وهذه حالةٌ من أحوال الحب الطاغي المسيطر ذي السلطان والغلبة . وظهورها في شعر ابي الطيب في بيتين متعاقبين ينقض معنى أحدهما معنى الآخر كما قال ابن العميد — دليلٌ على ان الرجل كان أخيذاً في أسر الهوى لا يملك نفسه ، ولا يجدُ في تناقض معاني البيتين شيئاً . وذلك لان هذا التناقض الذي نراه في معاني شعره يكون عنده اتساقاً في معاني عواطفه وحبه ، وتعبيراً بليغاً صادقاً عن إحساسه وضميره وحاجة نفسه .. فهذا قوله : « تلك حال ، وهذه حال »

وانظرْ ... فان الرجل حين ودع ابن العميد قال

ومن لي بيوم مثل يوم كرهته قربت به عند الوداع من البعد
(وألا يخص الفقد شيئاً ، . . لانني فقدت ، فلم أفقد دموعي ولا وجدي)
تمن يلذ المستهام بذكره وان كان لا يغني فتيلاً ولا يجدي
وغيظ على الايام ، كالنار في الحشا، ولكنه غيظ الاسير على القد

وهذه الاشارة التي في البيت الثاني بقوله (لانني فقدت ..) هي الى صاحبته خولة التي ماتت في سنة ٣٥٢ . فلم ينسها بل بقي مضطرباً مغلوباً على امره لا يستطيع الصبر تارة فتغلبه دموعه، ويتحامل أخرى بصبره فينطوي على وجده ولوعته، . . . والنار التي في حشاه

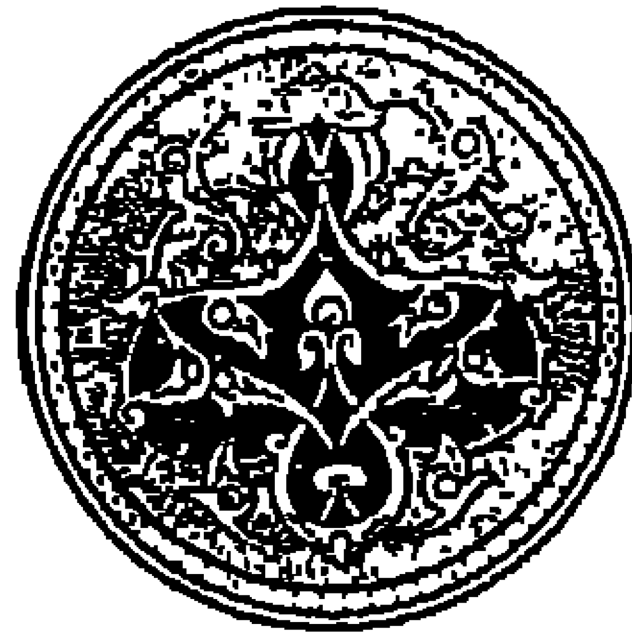

مغاني الشِّعبِ طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكنّ الفتى العربيّ فيها
غريبُ الوجهِ واليدِ واللّسانِ
ملاعبُ جِنّةٍ ، لو سار فيها
سليمانٌ لسار بترجمانِ
إذا غنّى الحَمامُ الوُرْقُ فيها
أجابته أغانيُّ القيانِ
ومن بالشِّعب أحوجُ من حَمامٍ
— إذا غنّى وناح — إلى البيانِ
وقد يتقارب الوصفانِ جِدّاً
وموْصوفاهما متباعدانِ .

ورد على أبي الطيب — وهو عند ابن العميد — كتابٌ من عضد الدولة بشيراز يستزيره ويطلب منه المسير اليه ، ولم تكن لأبي الطيب رغبةٌ تحملُه ، فلم يخفّ إلى استدعائه . فكلمه ابن العميد في ذلك فقال له : مالي وللديلم ؟ فقال له : عضد الدولة أفضل مني ، ويصلك بأضعاف ما وصلتُك به . فقال ابو الطيب : اني مـلـقـى من هؤلاءِ الملوك ، أقصد الواحد بعد الواحد وأملّكهم شيئاً يبقى بقاءَ النيّرين ، ويعطونني عرضاً فانياً .... ولي ضجراتٌ واختيارات ، فيعوقونني عن مرادي ، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه !! فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث ، فورد الجوابُ بأنه يملّكُ مراده في المقامِ والظّعن . فسار المتنبي من أرّجان ، فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز ، إستقبله عضد الدولة بأبي عمر الصبّاغ ، فلما تلاقيا وتسايرا ، استنشدهُ . فقال المتنبي : الناس يتناشدون ، فاسمعه . فاخبرهُ أبو عمر انه رسم له ذلك من المجلس العالي . ثم دخل البلد فأنزل داراً مفروشة . وأنشد أبا عمر قصيدته التي قالها في الكوفة والتي قال فيها

فلما أنخْنا ركزنا الرّما حَ بين مكارمنا والعُلى

وبتنا نقبّل أسيافنا ونمسحها من دماءِ العدى
لتعلم مصر ، ومن بالعراق ، ومن بالعواصم ،.. أنّـي الفتى
(وأنّـي وفيتُ ، وأني أبيتُ ، وأني عتوتُ على من عتَـا)

فرجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ،وأنشده هذه الابيات فقال عضد الدولة : هوّناً .... يتهدّدنا المتنبي ! !

ويبـِّن مما روينا لك أن أبا الطيب كان لا يزال يحقر الأعاجم ويبغضهم لما أصابوا بهِ قومه من البلاء . وكان استعصاؤه على ابن العميد وجداله معه في الرحلة الى عضد الدولة ، من أجل مذهبه السياسيّ ، ومن أجل ان هؤلاء ، بني بويه ، كانوا اعداء صاحبه سيف الدولة ، ومن أجل أنهم كانوا من شيعة العلويين الفاطميين الذي لا يرضى عنهم ابو الطيب ولا سيف الدولة ، ومن أجل أنه يعلَم أن مديحه فيهم سيبقى لهم ذكراً خالداً في شعره ، وهمْ له أعداء . ولكنّ الرجل — كما علمت قبل — كان مضطرباً قد داخله اليأس واستبدَّ به ، فسار وهو يقول

وأيًّا شئتِ يا طرقي فكوني أذاةً ، أو نجاةً ، أو هلاكا

فلما دخل شيراز واستقبله أبو عمر الصباغ ، واستنشده كأنه يختبر شعره ، لم يصبر المتنبيّ فرماه بقوله : الناس يتناشدون ، فاسمعه . إذ كان شعرهُ قد سارَ مسير النيرين الشمس والقمر ، فلما عرف أن ذلك الطلب بأمر من عضد الدولة ، غضب لنفسه ولعربيته ولشعره ، فاختار من قصائده قصيدة فيها ذكر ظفره بمراده ، وفخره على الخصوم من الملوك والأمراء ، وهجاء كافور الذي كان عنده قبل أن ينزل على عضد الدولة لتكون هذه القصيدة تهديداً ووعيداً وإنذاراً ، ومقابلة لاساءة عضد الدولة بأساءة مثلها . ولذلك لما سمع عضد الدولة

« وأني وفيت ، وأني أبيتُ ، وأني عتوتُ على من عتَـا »

عرفَ مرادَ المتنبي فقال : هوناً . . . . يتهددنا المتنبي ! !

ويبـِّن أن هذا اللقاء الأوّل ، وضع بين أبي الطيّب وعضد الدولة أسباب الحذر والاحتراس ، فكان أحدهما يتملق الآخر خوف البغي والعدوان . ولاشكّ أن عضد الدولة كان يعلم من أمر هذا الداهية السياسي أبي الطيّب كثيراً ، وكان يرصد عليه العيون والرقباء .... على أن أمر أبي الطيّب كان بيّناً فأنه حين حضر سماط عضد الدولة بعد أيام من مقدمه عليه أنشده قصيدته التي أولها

مغاني الشّعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

ولـكنّ الفـتى العـربيّ فيهـا غريب الوجه واليد واللسانِ
ملاعبُ جنّةٍ، لو سـار فيها سليمانٌ لسـار بترجمانِ

فهذا هجاءٌ بيّنٌ لارض فارس وأهلها . فقد زعم أن سليمان عليه السلام — الذي عُلِّم منطق الجنّ والطير والحشرات والبهائم — لو دخل أرضهم لاحتاج إلى ترجمان، فأخرجهم بذلك من منزلة من ذكرنا وجعلهم دونهم . وأنّه — من هوانهم على الله ، وقلّتهم في الارض — لم يعلم الله سليمان لسانهم ، وليس يخفى هذا على عضد الدولة . ولم يكتف ابو الطيب بذلك بل أتبع هذا قوله بعد

إذا غنى الحمامُ الورقُ فيها أجابتْـه أغانيُّ القيانِ
ومن بالشعب ، أحوج من حمام — اذا غنى وناح — إلى البيانِ

فتم المعنى وأبان مقصده من الابيات الاولى، إذ جعلهم أقل منزلة من الطير في البيان والافصاح. ولم يكتف ايضاً بهذا بل اراد ان يعلم عضد الدولة ، ان هذه البلاد ليست مكانه الذي يرتاح اليه ، وليست بالارض التي يحرص عليه اويحرص عليها ، وانه غريبٌ عنهم ، وان مدحه لهم ليس شيئاً ، وانه عربيٌّ ليس بأعجمي يميل اليهم او يكون له شأنٌ بينهم، فقال

ولـكنّ (الفتى العربيّ فيها (غريب الوجه واليد واللسان)

فكل ما قال أبو الطيب في مدح هذا الديلمي (عضد الدولة) ليس من قلبه ولا من نفسه . وشعره بين الدلالة على ان الرجل كان يقول متكلفاً بعد ان أُحرج بمقدمه عليه . وقد فطن عضد الدولة الى كل هذا — فقد كان اديباً شاعراً جيد القريحة — وقال :

« إن المتنبي كان جيّد شعره بالغرب » (يعني غرب فارس) ويشير بذلك إلى عدوه سيف الدولة خاصة. وبلغت المتنبي مقالة عضد الدولة فقال : « الشعر على قدر البقاع » ... وهذا تصريح بليغ، ولاشك أن عضد الدولة أخبر بقول المتنبي هذا

ولم يكن كل ذلك مما يمنع هذا الملك المدبر عضد الدولة الديلمي -- الذي وصل بدهائه وسياسته وحسن تدبيره أن كان أول من خوطب بالملك في الاسلام وأول من خطب لهُ على المنابر بعد الخليفة — من ان يكسوَ ابا الطيب من نعمته ، ويغرقه بنداه وكرمه . فانهم يروون أنه حين أنشده « مغاني الشعب ... » حمل اليه من انواع الطيب في الاردية والامنان، من بين الكافور والعنبر والمسك والعود ، وقاد اليه فرسه الملقب بالمجروح — وكان قد اشتري له بخمسين ألف شاة — وبدرةً دراهمها عدلية، ورداءً حشوه ديباجٌ روميٌّ مُفصل، وعمامةً قوّمت بخمسمائة دينار، ونصلاً هنديًّا مرصع النجاد والجفن بالذهب

هذا ... وقد كان الجمال الطبيعي — الذي مسح الله به بلاد فارس — مما اراح نفس أبي الطيب.

وأزاح همها قليلاً، فكان شعره الذي مدح به عضد الدولة مقارباً ليس فيه اضطراب بين، أو أثر ظاهر من داء قلبه. إلا في أبيات قلائل. ولم يظهر في شعره ذلك ، لأن مدة إقامته هناك كانت قليلة، فانه بقي بشيراز على الأرجح من أواخر ربيع الثاني إلى أول شعبان من سنة ٣٥٤

ولكن ظهر هم أبي الطيب واستعان ، وعادت إليه ذكرى خولة وموتها ، وذكر آماله ومغامرته وجرأته حين توفيت عمة عضد الدولة فرثاها بقصيدة ليس فيها شيء إلا هذه الأبيات

لا بد للانسان من ضجعة لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه وما أذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى . . ، فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه !!
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هي من كسبه !!
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه !!
لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه
لم ير قرن الشمس في شرقه فشكت الأنفس في غربه
يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سربه
وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

ففي هذه أثر بين لتفكر ابي الطيب في الموت، بعد الذي لقي من فقد خولة . كما بيناه في مواضع

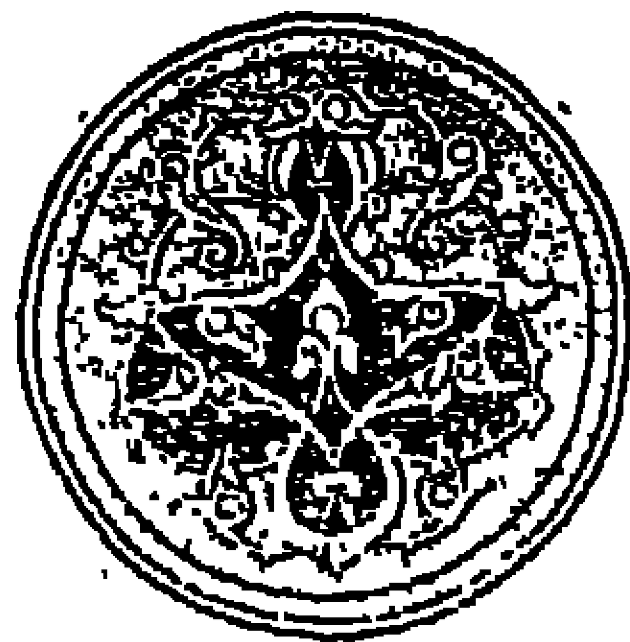

لا بدَّ للانسان من ضَجعةٍ
لا تقلب المُضجَعَ عن جنبهِ
نحن بنو الموتى ، فما بالُنا
نعافُ ما لا بدَّ من شربهِ ! !
يموتُ راعي الضأن في جهلهِ
ميتة جالينوس في طبّهِ
وربما زاد على عمرهِ
وزاد في الأمن على سِربهِ
وغاية المُفرطِ في سلمهِ
كغاية المُفْرطِ في حربهِ
فلا قضى حاجته طالبٌ
فؤاده يخفق من رعبهِ

أشرنا قبل إلى أن الرجلين (أبا الطيب وعضد الدولة) كانا يتخادعان ، وانهما كانا في الباطن عدوّين لا يأمن احدهما جانب صاحبه ولا غدْرته، ولا سوء المنقلب . ويبين لك عن هذا ان أبا الطيب مع إكرام عضد الدولة له — كما رأيت — لم يستطع القرار بأرض فارس اكثر من ثلاثة أشهر ، ولولا ما أشرنا اليه لاستطابَ أبو الطيب المكان الذي وجد فيه غاية الاكرام، والمال الكثير المبذول ، والعطايا السابغة الكريمة . وهو مع ذلك دليل على ان أبا الطيب ليس من الطمع والحرص على المال بالمنزلة التي يذكرونه بها ، ويتابعهم عليها كثير من الذين نصبوا أنفسهم للكتابة عن الرجل والترجمة له من المحدثين . . . . . .

وقضية هذه العداوة بين أبي الطيب وبني بويه الديلميين قضيةٌ معقدة طويلةٌ ، ولها في التاريخ الاسلامي والعربي أسباب ممتدة . ونحن نختصرها هنا ونجملها في وجهين قريبين :

فالاول منهما : ما عرف عن أبي الطيب من بغضاء الاعاجم على ما فصلناه في مواضع
والآخر: هو المسألة السياسية المتصلة بالخلافة العباسية، والدعوة العلوية ، والدعوة الفاطمية...

وهذه هي أكبر مشا كل التاريخ الاسلامي، وخاصة في هذا العصر الذي كان المتنبي أحد رجاله الافذاذ.

كان العلويون يريدون اخراج سلطان الخلافة من يد العباسيين الى أيديهم ، وقد تمكنوا بالدعوة التي قام بها الدعاة العلويون ان يحزموا أمرهم ، ويجمعوا اليهم رؤوس الدولة فيكونون من شيعتهم ، وكان من شيعة العلويين — ممن نذكرهم هنا — بنو بويه الديلميون ، و بنو حمدان العرب التغلبيون ، ثم غلبت على بني بويه الدعوة الفاطمية فصاروا من العاملين عليها في المشرق واستعصى على هذه الدعوة بنو حمدان . وكانت سياسة بني بويه علوية أعجمية ، وكانت سياسة بني حمدان علوية عربية. فاشتعلت البغضاء بينهما، ثم زاد العداوة وضرّاها وضرّمها ما كان من استجابة بني بويه للدعوة الفاطمية ، واستعصاء بني حمدان عليها ، ومناوأتهم إياها في الشام والموصل . وكان بنو بويه يعلمون أن بني حمدان قد أدركوا خفايا السياسة الديلمية الاعجمية المظاهرة للدعوة الفاطمية ، وانهم يعملون على نقضها . وكان دليل ذلك عندهم مناصرة بني حمدان للخلافة العباسية، مع انهم من رؤوس شيعة العلويين مذهباً وعملاً ، وقد علم بنو بويه ان هذه المناصرة انما يراد بها إزاحة بني بويه عن مواضعهم من العراق وإبعادهم عن مقر الخلافة

فلما كان ما كان من أمر سيف الدولة وظهور سلطانه بالشام ، ووقوفهم على نيته في اتخاذ العُدة واستجلاب المَدَد ، وتهيئة أمره لفتح العراق — على ما ذكرناه — استحرّت العداوة بين هؤلاء وهؤلاء ، وخاصة سيف الدولة ، وهو رأس بني حمدان ، وأصلبهم عوداً ، وأشدهم مِراساً ، وأقدرهم رأياً ، وأحزمهم دهاءً ، وأبعدهم نظراً ، وأمضاهم عزيمةً وهمًّا . وكان من آثار ذلك ما أشرنا اليه قبل في سبب حروب الروم وسيف الدولة

وكان أبو الطيب كما علمت من المقربين لدى سيف الدولة ، ولم يكن بنو بويه ليخطئوا معرفة الرجل ومذهبه في السياسة ، وان هذا المذهب هو مذهب سيف الدولة ، فلذلك حذره عضد الدولة على ما رأيت، وبقي له (عدوًّا مداجياً). وقد كان ابو الطيب – فيما ذهبنا اليه – علويًّا منكوباً في نسبه ، فليس بمستنكر ان يراد به — من قِبل العلويين — ما أُريد به من قبل وهو بطبرية سنة ٣٣٦ حين أرصد له العلويين عبيدهم السودان ليقتلوه . فيكون من ذلك ان يسعى هؤلاء العلويون لدى عضد الدولة في ايذاء الرجل والنيل منه . وأيضاً ما كان الدعاة الفاطميون يريدونه به لما يعلمون من أمره أولاً ، وإنكاره نسبهم ، وقوله إنهم من نسل اليهود كما قدمنا [1] في خبر نبوته إذ قال

« فلا تسمعنّ من الكاشحين ولا تعبأنّ (بعجل اليهود) »

يريد (بعجل اليهود) احد الدعاة الفاطميين. ولعلّ الذي جعل الفاطميين يكيدون له، سعاية

(١) ص ٦١

الاسود الخصي كافور ، فانه كان قد بذل أموالاً في طلب المتنبي حين خرجه من مصر قبل هجائه له، فلا عجب أن يبذل أكثر من ذلك بعد ان يبلغه ادنجاء المقطع المفزع ، ومافيه من السخرية والتمثيل به كقوله

(وأسود .. مشتره نصفه) يقال له : أنت بدر الدجى

وأبلغ من ذلك تحريضه أهل مصر على قتله والفتك به كقوله

ألا فتى يورد الهندي هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم
فانه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم
ما أقدر الله أن يخزي خليقته ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

وقد كان كافور — كما قدمنا — على صلة بالفاطميين والعباسيين معاً، ويخادعهم ويداجيهم معاً، فليس بعيداً أن يكون هو الذي حمل الفاطميين الذين بالعراق على الارصاد لأبي الطيب ، وأن يكون بذل مالاً كثيراً للانتقام منه

والظاهر أن عضد الدولة كان قد علم بكل ذلك الذي يكاد به أبو الطيب، ففضل أن يرفع يده عن دمه ، فأغرى بعض أتباعه بأن يوقع في نفس أبي الطيب شيئاً من الخوف والرعب، فيخف أبو الطيب للرحلة عن شيراز ، ويبتعد عن دياره ليلاقي حتفه في مكان آخر . ولذلك (استأذنه المتنبي في المسير عن شيراز ليقضي حوائج في نفسه ثم يعود إليه) . وكان هذا من أبي الطيب ضرباً من ضروب دهائه ومخادعته ، ولما عزم الرحلة ، كان من دهاء عضد الدولة أن زاده كرامة ليوقع في نفسه أنه مصدقه فأمر أن تخلع عليه الخلع الخاصة . وتعاد صلته بالمال الكثير . ويقيننا أن أبا الطيب حين وجد ذلك — من إكرام عضد الدولة له — وكان قد بلغه طرف من أخبار الكيد الذي يكاد به ، عرف ما يريده عضد الدولة ، وما يراد به، ولذلك أشار في آخر قصيدة مدحه بها — وهو مفارق له في أول شعبان سنة ٣٥٤ — إشارات كثيرة ، منها قوله

ومن يظن نثر الحب جوداً وينصب تحت ما نثر الشباكا

وهذا المثل هو مثل لما تراه قبل من أمر عضد الدولة . ثم انظر إلى يأس أبي الطيب وقد علم أنه قد أحيط به ، وأنه مقتول لا محالة . . . إذ يقول

« وأياً شئت يا طرقي ، فكوني أذاة أو نجاة أو هلاكا »

. . . .

« وما أنا غير سهم في هواء ، يعود ، ولم يجد فيه امتساكا »

فلما فصل أبو الطيب من شيراز ووصل إلى دير العاقول — وهي ضيعة بالعراق — اجتمعت عليه

بنو أسد وبنو ضبّة ، فقتلوه وقتلوا غلمانه وقتلوا ولده محسداً . وقد قدمنا لك (١) أن سيف الدولة كان قد أوقع بعمرو بن حابس من بني أسد ، وبني ضبّة ، وبني رياح من بني تميم ، وذلك في سنة ٣٢١ ، وقد هجاهم أبو الطيب في مدحه لسيف الدولة في تلك السنة . وكان ذلك المدح وهذا الهجاء سبباً في أن أحفظ عليه هؤلاء القوم من بني أسد وبني ضبة . . . قال أبو الطيب لسيف الدولة

مهلاً ألا لله ما صنع القنا في «عمرو حابٍ» و«ضبّة» الاغنامِ

يريد عمرو بن حابس من بني أسد

لما تحكمت الاسنّة فيهمُ جارتْ ، وهنَّ يجرن في الاحكامِ
فتركتهم خلل البيوت كأنما غضبتْ رؤوسهم على الاجسامِ
أحجار ناسٍ فوق أرضٍ من دمٍ ونجومُ بيضٍ في سماء قتامِ
وذراعُ كلّ أبي فلانٍ كنيةً حالتْ ، فصاحبُها أبو الايتامِ

واعلم أن بني أسد وبني ضبة هؤلاء كانوا من شيعة العلويين ، والظاهرُ أنهم كانوا قد انحازوا الى الاعاجم مخدوعين ، وصاروا بعدُ من شيعة بني بويه الفاطميين . وليس يبعدُ أن يكون كافور هو الذي أمدهم بالمال ليقتلوا الرجل ، وتوسط له في ذلك أصحابُهُ من أهل العراق العباسيين أو الفاطميين !

هذا هو مختصر القول في مقتل أبي الطيب في ٢٧ رمضان من سنة ٣٥٤ . أما ما يروونه من السخف في حكاية مقتله بسبب القصيدة (٢) التي أولها

ما أنصف القوم ضبهْ وأمّهُ الطرطبّهْ
وإنما قاتُ ما قاتُ رحمةً لا محبّهْ

الى آخر الفحش القبيح الذي ورد بها ، فلنا في نقده ونقضه وجوه لا نطيل القول بها هنا ، ولها موضعها إن شاء الله من كتابنا . وأيضاً فقد ورد أن سبب قتله « أنه لما ورد على عضد الدولة ومدحه ، وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراسٍ مسرجة محلاة بالذهب ، ثم دسّ له من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال أبو الطيب : « إن سيف الدولة كان يعطي طبعاً وعضد الدولة يعطي تطبُّعاً » . فبلّغ ذلك اليه ، فغضب . فلما انصرف من أرضه جهّز اليه قوماً من بني ضبّة فقتلوه — بعد أن قاتل قتالاً شديداً ثم انهزم ، فقال له غلامه أين قولك

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاسُ والقلم

(١) ص ٥٤ (٢) هذه القصيدة عندنا باطلة النسبة لأبي الطيب

فقال : قتلتني قتلك الله ، ثم قاتل حتى قتـل . . . . » فمثل هذه الرواية لها تأويل وسياق فيما قدمناه لك

ورحم الله أبا الطيب إذ يقول :

سُبقنا الى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جيئةٍ وذُهوبِ
تملّكها الآتي تملّكَ سالبٍ وفارقها الماضي فراق سليبِ

وانت يا ابا الطيب

فدتك نفوس الحاسدين فإنّها معذّبةٌ في حضرةٍ ومغيبِ
وفي تعبٍ من يحسد الشّمس ضوءها ويجهدُ أن يأتي لها بضريبِ

٣ شوال سنة ١٣٥٤
٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٥

محمود محمد شاكر

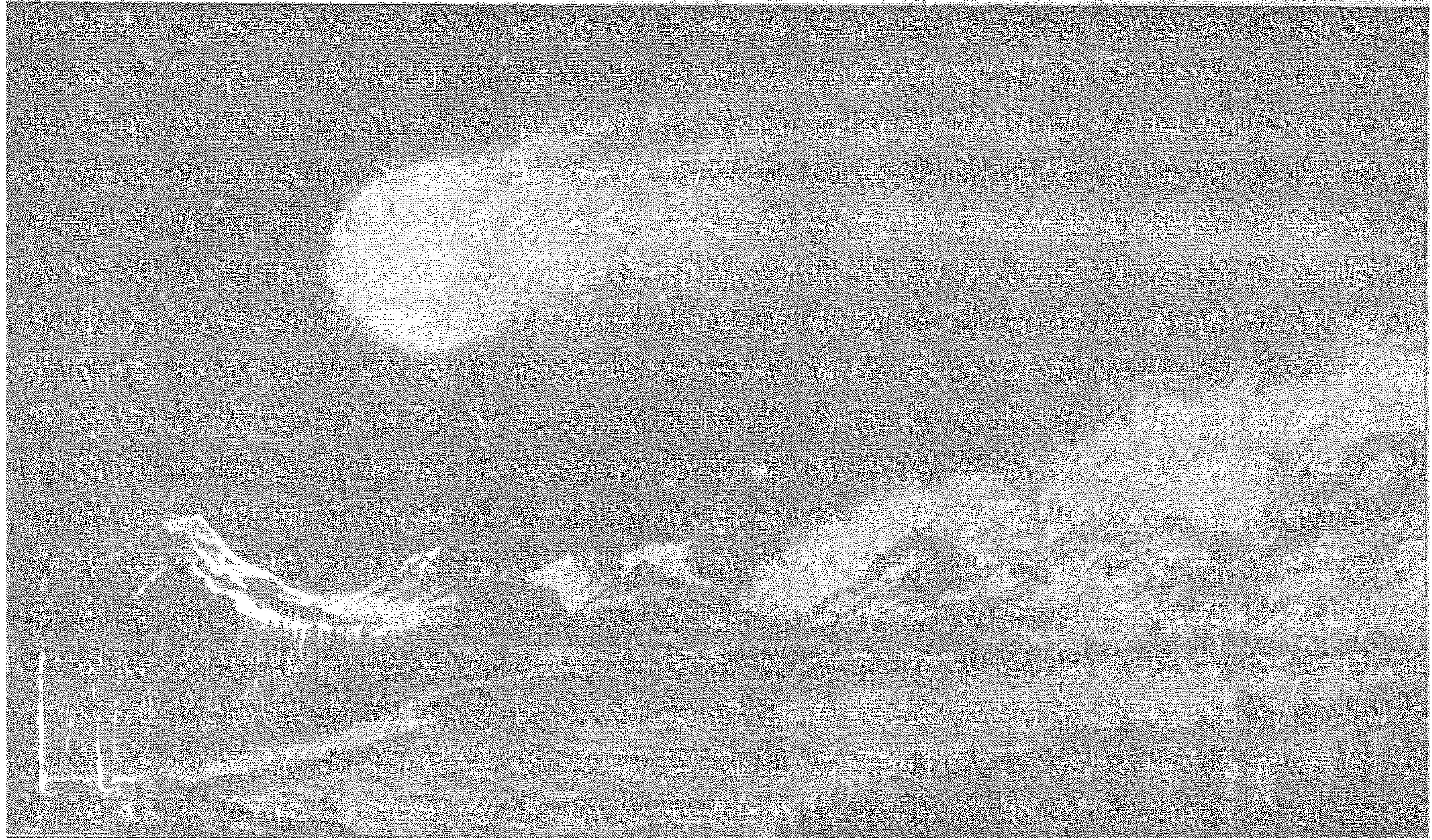

كارثة كونية

القى السر جيمز جينز العالم الانكليزي محاضرة فلكية قال فيها ان القمر آخذ في الاقتراب من الارض وانهُ بعد نحو خمسين الف مليون سنة يدخل في « منطقة الخطر » فيؤثر فيهِ فعل جاذبيتها فيفتتهُ فيقع نثارهُ على الارض كما ترى في هذه الصورة الخيالية

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثامن والثمانين

١ فبراير سنة ١٩٣٦ ‏ ‏ ٨ ذي القعدة سنة ١٣٥٤

التوسع بالفتح

لا فائدة منه ولا حاجة اليه

قد يستغرب بعض القرّاءِ ان نجعل فاتحة المقتطف مقالاً اقرب الى السياسة منهُ الى العلم وهو مخالف في الغالب لما درجنا عليهِ حتى الآن . ولكن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، التي نشأت عن ارتقاءِ العلم ، وتطبيقه الصناعي ، تمسُّ العمران الحالي في صميمهِ ، وتقلق بال الناس في الشرق والغرب ، ولذلك لسنا نقدّم لقرائنا عذراً عن جعل مقالنا الافتتاحي في هذا الصدد . فالمشكلة الدولية التي نشأت من النزاع الايطالي الحبشي ، والخلاف بين ايطاليا وجامعة الامم ، قد اثارت موضوعات اقتصادية اجتماعية لا يسعنا ان نتجاهلها ، وان نمضي مطمئنين ، اننا في تجاهلنا ايّاها ، نجاري اتجاه العصر ونفهم روحهُ

ففي خلال الشهور الستة التي انقضت على استفحال المشكلة الايطالية الحبشية ، لم يشترك في بحثها وزير من الوزراءِ او كاتب من الكتّاب ، الاَّ واشار في ما قال او كتب الى حاجة ايطاليا الى التوسُّع . فالايطاليون يقولون ان حاجتهم الى التوسع ، تحملهم على شهر الحرب لاضافة اراضٍ جديدة الى ممتلكاتهم ، على الرغم من العهود المقطوعة في المعاهدات القائمة . والبريطانيون يقولون ان حاجة ايطاليا الى التوسُّع حاجة طبيعية شرعية ، ولكنها لا تسوّغ انتهاك المعاهدات

والجوءَ الى الحرب . ولكن الذي لم يقلهُ احد ، او قاله افراد فذهبت اقوالهم صرخة في واد ، هو ان التوسع بالفتح لا فائدة منهُ ولا حاجة اليهِ ، ولا صلة بينهُ وبين روح العصر . بل لم نطّلع ، الاّ اخيراً ، على بسط وافٍ ، لهذه الحاجة الطبيعية الشرعية — الحاجة الى التوسع — وذلك في مقالٍ نشرتهُ مجلة هاربرز الاميركية للكاتب « تانائيل فيفر » وعليه الاعتماد في الصفحات التالية

كان القول بـ « الحاجة الى التوسع » شعار السياسة الدولية في الجيلين الماضيين . باسمه أفقرت الدول الكبيرة نفسها، لكي تكون شاكية السلاح . وعلى مذبحهِ سُحقت الدول الضعيفة وأبيدت الاقوام والقبائل البدائية . وفي سبيل تحقيقهِ قتل الوف الالوف من الشبان في الحروب الكبيرة ، وها هي ذي اوربا الآن وكأنها تسعى الى حتفها بظلفها

ولكن ما هي الحاجة الى التوسع ؟ ما المقصود منها بالضبط ؟ هل تحتاج دولة من الدول الى التوسع حقيقة؟ وفي اي الاحوال تحتاج اليهِ ؟ واذا اجتمعت لها هذه الاحوال فالى مَ تحتاج ؟

لنسلّم جدلاً ان بعض البلدان لا تستطيع ان تقيم أود سكانها لكثرتهم . وهذا هو في الغالب ما يقصد بعبارة «ازدحام السكان» . ولكن هذه العبارة تكاد تكون لامعنى لها ، في عصرٍ يتجمع فيه الناس في المدن ، ويعتمدون في انتاجهم على الآلات . ولا يمكن لبلاد ، يقوم اجتماعها واقتصادها على الآلة ، ان تضيق بسكانها بحصر المعنى . فالعامل الفاصل ، ليس عدد السكان ، بل مصادر الثروة

يقول بعضهم انهُ اذا تحوّلت بلاد الى الصناعة ، عجزت عن تغذية سكّانها . وهذا قول فيهِ رأيان . ولكن لنسلم بانه قول صحيح . فماذا تفعل حينئذٍ ؟ الجواب الظاهر عن هذا السؤال هو التوسُّع . ولكن كيف تتوسَّع ؟ اذا جرّدنا لفظ « التوسع » من ملابساته العسكرية والسياسية والصحفية ، تبيّن لنا ، ان توسُّع امة من الامم لا يمكن ان يتمّ الاّ باحدى طرقٍ ثلاثٍ : اما ان تغزو بلداناً قليلة السكان فيهاجر اليها من سكان الامة الغازية ، ما يفيض منهم فيها . واما ان تفتح بلاداً لم تبلغ شأواً بعيداً من التقدُّم ، فتجعلها سوقاً لمنتجاتها . واما ان تستعمر بلداناً غنيةً بمصادر الثروة الطبيعية والمواد الخام اللازمة للصناعة . وليس للدولة التي تبغي التوسع طريقاً رابعة اليهِ . فاحداها او جميعها معاً هو كل ما يقصد « بحق التوسع »

***

لننظر الآن في الطريق الاولى ، أي مهاجرة سكان البلاد المزدحمة ، الى بلاد قليلة السكان . إن المثل الذي تضربه لنا ايطاليا في هذا الصدد من ابلغ ما يكون . فقد انقضت خمسون سنة ، وايطاليا تبذل طاقتها أو ما هو فوق طاقتها، لتفوز بامبراطورية استعمارية ، رغبةً في تخفيف ضغط

السكان في ايطاليا ، على ما قيل . فقد اشتركت مع الدول الاخرى ، بعد سنة ١٨٨٠ في السعي الى الفوز بمستعمرات في افريقية . وحاربت في الحبشة ، في اواخر القرن الماضي ،وفي طرابلس الغرب في أوائل هذا القرن ، ولما عجزت عن الاتفاق مع فرنسا وانكلترا ، على اقتسام افريقية انتظمت في نظام المحالفات الاوربية التي افضت الى الحرب الكبرى ، فلما نشبت الحرب ،كان من سخرية الاقدار : ان انقلبت ايطاليا من فريق الى فريق ، في سبيل هذا الغرض كذلك

فلما كانت سنة ١٩١٤ ، ونشبت الحرب الكبرى ،كان عدد الايطاليين في مستعمرات ايطاليا الافريقية ، نحو ثمانية آلاف ايطالي . ولو اخذت بقعة صغيرة من احد احياء نيويورك لوجدت فيها حينئذٍ ما يزيد على ثمانية آلاف من الايطاليين . بل ان عدد الايطاليين في ولاية نيويورك وحدها ، كان يبلغ حينئذ اربعمائة الف ايطالي او يزيدون . وانني اقول ، وأنا واثق كل الثقة ، انه اذا تمّ لايطاليا في اول سنة ١٩٣٦ اخضاع الحبشة بأسرها ، ووافق ذلك الغاء قيود المهاجرة الى اميركا ، لبلغ عدد الذين يهاجرون الى اميركا قبل سنة ١٩٣٧ خمسمائة ايطالي ازاء كل ايطالي يسافر لاستعمار الحبشة . أو خذ مثلاً آخر . ان الرغبة في انشاء امبراطورية استعمارية ، والفوز بمكان في الشمس او تحتها ، حملا المانيا على تحدي سيادة بريطانيا البحرية في مفتتح القرن العشرين ، وكذلك اصبحت مسألة نشوب الحرب الكبرى ، مسألة وقت يطول او يقصر ، لا اكثر ولا اقل . فلما كانت سنة ١٩١٤ ونشبت الحرب الكبرى التي كانت شهوة الاستعمار من بواعثها الاولى ، كان في جميع المستعمرات الالمانية في افريقيا — وتبلغ مساحتها ٩٠٠ الف ميل مربع — ٢٢ الف الماني . وفي جميع المستعمرات الالمانية في اماكن اخرى نحو الفي الماني ، مع ان عدد الالمان بين الشارعين ٨٠ و ٩٠ في مدينة نيويورك يزيد على ذلك وعددهم في ولاية نيويورك يزيد على ٦٠٠ الف . ولو فتح باب المهاجرة غداً الى اميركا ، ووافق ذلك استعادة المانيا لجميع مستعمراتها القديمة وأضافت اليها بلداناً مساحتها مليون ميل مربع ، لبلغ عدد المهاجرين الى اميركا مائة الماني ازاء كل الماني يذهب الى المستعمرات

ثم هناك مثل ثالث يضرب في هذا الصدد . وهو ازدحام السكان في اليابان وحاجتها الى التوسع لكي تخفف الضغط عن بلاد لا يسعها ان تقيم اود سكانها

فقد ظفرت اليابان من روسيا سنة ١٩٠٥ بجنوب منشوريا ووفّت ثمن هذا الربح بحياة ثلاثمائة الف من جنودها . وها هي ذي الآن في تلافيف مغامرة اخرى ، قد تجرها الى حرب مع روسيا السوفيتية او اميركا او معهما كليهما ، وغرضها ان تملك الصين او ان تشرف عليها اشراف المالك على ملكه . ويقول اليابانيون انه مضت سنون وسكان اليابان يزيدون من ٦٠٠ الف نسمة الى مليون نسمة كل سنة . ولكن في سنة ١٩٣٠ ، أي بعد انقضاء ربع قرن على ظفر

اليابان بجنوب منشوريا ، بلغ عدد اليابانيين الذين استعمروا أو استقرُّوا هناك مائتي الف نسمة ، أي نحو ثلثي الذين قتلوا في الحرب الروسية اليابانية ، أو نحو ثلث الزيادة السنوية في سكان اليابان . وعلى الرغم من القيود الثقيلة التي تقيد مهاجرة اليابانيين الى أميركا ، بلغ عدد اليابانيين في ولاية كاليفورنيا وحدها سنة ١٩٣٠ مائة وخمسين الف ياباني . ومع ذلك يقال ان من أهم البواعث على حملة اليابان الى منشوريا سنة ١٩٣١ كان السعي الى تخفيف ضغط السكان في اليابان !

فحجة الاستعمار ، على أنه وسيلة لتخفيف الضغط عن البلدان المزدحمة بالسكان لا تستقيم . انها لا تصلح الاَّ للكتابات في الصحف التي غرضها إلهاب الشهوات الوطنية ، والدعاية لتأليف الجيوش الكبيرة وإعداد الاساطيل القوية . فالاحصاءات تدلُّ على أنه اذا هاجر سكان بلادٍ ما، فانهم في الغالب لا يهاجرون الى مستعمرات بلادهم ، بل الى بلادٍ مأهولة ، ولو اضطرُّوا الى التخلي عن رعويتهم الاصلية ، وهم يفعلون ذلك لان معظم البلدان التي تتألف منها الامبراطوريات الاستعمارية لا تصلح لسكنى السلالات البيض . فبلدان أفريقية وآسيا ، غير المزدحمة بالسكان ، كالصين والهند ، لا توافي سكنى البيض واستقرارهم فيها ، من حيث الاقليم والمناخ . والراجح انهُ يندر بين الايطاليين من يرغب او يستطيع أن يتحمل اقليم شواطىء أفريقية الشرقية . ومن سخرية الاقدار ، أن البيض الذين يرفضون او على الاقل يرغبون عن الذهاب الى هذه البلدان للاستقرار فيها ، يرسلون اليها قسراً للموت في غزوها . فالبلدان التي تعتقد انها شديدة الازدحام بالسكان ، تستطيع ان تفوز بكثير من هذه المستعمرات ، من دون ان يخفَّ ضغط السكان فيها

يضاف الى هذا ان معظم البلدان التي تشكو من ازدحام سكانها ، هي في الغالب التي تدعو الى زيادة النسل ، وتجيز الوالدين الذين يكثر ولدهم ، فاذا تمَّ لها ذلك، مالت الى الاعتداء والغزو مسوِّغةً عملها بكثرة السكان

***

اما غزو البلدان لجعلها اسواقاً لمصنوعات البلاد الغازية ، فلهُ في تسويغه اقوال ، هي على ضعفها ، أقوم مما يقال في تسويغ الفتح بحجة التخفيف من ازدحام السكان . وقد كان في الماضي ، اقوى باعثاً على التوسع الامبراطوري من « ضغط السكان » واصاب نصيباً اوفر من النجاح . فقد احرزت بهِ بريطانيا ، في القرن التاسع عشر ، سيادتها العالمية ، او هكذا يقال . ولكن هل احرزت بريطانيا سيادتها ، لان الشمس لا تغيب عن ممتلكاتها ، او لانها سبقت سائر البلدان الى ميدان الصناعة الآلية ؟ هذه مسألة ، فيها ما يقال . والغالب ان يسلّم الناس بالشق الاول من هذا القول وان يتغاضوا على الثاني ، مع ان الثاني في الراجح اقرب الى الصواب

فالعلاقة بين السيادة التجارية والاقتصادية من ناحية ، والتوسع الامبراطوري من ناحية

اخرى ، كانت في الراجح ، علاقة اتفاق ، لا علاقة مسبّبٍ وسبب . فبريطانيا ، كان لا بدّ لها ان تفوز بقصب السبق في ميادين التجارة والاقتصاد ، في القرن التاسع عشر ، ولو لم يكن لها مستعمرات . فانها كانت تفوق جميع الامم الاخرى ، في وسائل الانتاج الصناعي ، وبراعة الاساليب التجارية ، وسَبْقها الى جمع الثروة ، مما جعل عاصمتها مركز العالم المالي ، والحاكمة فيه بأمرها

فدراسة تاريخ بريطانيا قد يسفر عن القول بأن امتلاك المستعمرات اقصر السبل الى انشاء اجتماع صناعي ، ولكنهُ لا يفيد امة بعينها . وصحة هذاالقول — اذا صحّ — مقتصرة ، على كل حال ،على القرن التاسع عشر فقط

فلنفرض الآن ، ان امة تسعى الى التوسع بغزو بلاد اخرى ، او لضمها من دون حرب ، لكي تجعلها سوقاً لمصنوعاتها . ولتكن بريطانيا مثلاً واقعيًّا على ذلك . فلسنا نعرف امبراطورية اكثر اتساعاً واشدّ رسوخاً واغنى مستعمرات من الامبراطورية البريطانية . فالهند بمثابة مستعمرة بريطانية ، وهي بلاد مساحتها مليون ميل مربع ، وسكانها ٣٥٠ مليون نسمة . هل ثمة سوق في العالم ، للمصنوعات البريطانية ، او لمصنوعات اية امة صناعية مستعمرة ، افضل من هذه السوق ؟ ولكن اليابان آخذة في غزو السوق الهندية ضدّ انكلترا . ثم ان شبه جزيرة ملايا من الممتلكات البريطانية . ومع ذلك فاليابانيون أرسخ قدماً في سوقها من الانكليز

ان احدى الثمار التي جنتها بريطانيا من الحرب الكبرى ، كانت انتزاع المستعمرات الالمانية الافريقية من المانيا ، وتحقيق حلمها القديم بانشاء طريق من القاهرة الى الكاب يمرُّ في بلدان بريطانية او تحت اشراف بريطانيا . وها هي ذي المستعمرات الالمانية سابقاً قد اصبحت بريطانية. فماذا كانت النتيجة ؟ ان تسعاً وتسعين في المائة من الحرير الصناعي الذي تستوردهُ تنجنيقا يأتيها من اليابان . ولقاء كل ذراع من المنسوجات البريطانية التي تستوردها كينيا ، تستورد ست أذرع من المنسوجات اليابانية . ولا يخفى ان اساس عظمة بريطانيا التجارية في القرن التاسع عشر قام على تجارة المنسوجات مع الهند . ولكن في سنة ١٩٣٣ فاقت صادرات اليابان الى الهند من المنسوجات صادرات بريطانيا اليها . فعلى الرغم من سبق بريطانيا الى الهند، ووسائلها المالية فيها ، والحواجز الجمركية التي انشئت لصدّ تيّار المنسوجات اليابانية ، نرى اليابان قد فازت في ميدان المنافسة

ولا يعيينا العثور على امثلة اخرى ، من هذا القبيل في تاريخ البلدان المستعمرة الاخرى اذا تجشمنا مؤونة البحث . فجاوى وصومطرا من ممتلكات هولندا . ولكن مقدار تجارة اليابان فيهما تفوق مقدار تجارة هولندا فيهما . وقد تفوز ايطاليا باخضاع الحبشة ، ولكن اليابان في الراجح — او المانيا او الولايات المتحدة — ستفوز باكبر نصيب من تجارتها

واذا شئنا الايجاز قلنا ان امتلاك المستعمرات ، عاد لا يكفي ضماناً للتفوق التجاري فيها للامة المستعمرة . فالتجارة في هذا العصر لا تتبع العَلَم . كانت تتبعهُ من خمسين سنة . ولكن الحال تغيَّرت الآن . فالسيادة السياسية في القرن العشرين ،قد تكون من قبيل الترف النفسي ،والدليل على المجد القومي ، ولكنها لا تخلق عملاً للعمال المتعطلين ولا تملأ البطون الطاوية . حتى الحواجز الجمركية . والسيطرة على الاعتمادات المالية ، وتدبير العملة المتداولة ، ليست العوامل الفاصلة ، في النجاح التجاري . فالروبية الهندية ، مرتبطة بالجنيه الاسترليني ، ولكنها تستعمل في توفية ثمن ما يستورد من اليابان

ان العوامل التي تسيطر على ميدان المنافسة في التجارة الدولية كثيرة ومعقّدة . وحصّة الاسد ، لا بدَّ ان تكون من نصيب المنتج الكفؤ ، اصفر كان ام ابيض ، في اليابان انتج ام في منشستر . والكفاءة في هذا الموضوع تعني ، المقدرة على عرض بضائع تساوي بضائع الغير جودة وتقلُّ عنها ثمناً ، وفي احوال تمكن التجار من سهولة التعامل. ولما كان مجموع هذه العوامل، يوافق اليابان لقربها من اسواق الشرق ، تراها وقد فازت على التجارة البريطانية فيها ، حالة ان القوانين والاحكام توضع وتنفذ باسم التاج البريطاني

فالعهد الذي كان فيه التوسع الامبراطوري سلاحاً اقتصاديًّا قد انقضى ، وقد تكون هناك وسائل اخرى ، للفوز بالاسواق ، والسيطرة عليها ، ولكن الاستعمار ليس احداها حتماً

***

بقي التوسع للفوز بمصادر المواد الخام التي لا ندحة عنها للبلدان الصناعية . وقد تكون اقامة الحجة ، ، على تأييد هذه النزعة اسهل مما تقدم

فاحتكار الحديد والفحم والنفط والذهب والنحاس والمطاط والقصدير في منطقة ما ، باعث قوي للتوسع القومي ، لان هذه المواد ، وغيرها من المواد الخام لا ندحة عنها للانتاج الصناعي. فامتلاك مستعمرة ما ، يمنح المالك حق التقدم ، على غيره في استغلال مصادر ثروتها الطبيعية ، فيجني ربحاً من هذا الاستغلال . ولكن هذا الربح هو كل ما يجنى . فامتلاك المستعمرة واستغلال مواردها، لا يجديان في حلّ المشكلة الاقتصادية الاساسية التي تعانيها البلاد المستعمِرة. انهما لا يمهدان السبيل الى تغذية شعب ، لا يستطيع ان يقيم اوده في مسقط رأسه . ان امتلاك المستعمرات يمنح المستعمرة حق التقدم ، لا حق الاحتكار . لانه قلما يتاح لدولة من الدول ان تحتكر صنفاً من المواد الخام، وان تتصرف به تصرف المحتكر الطامع ، الا وتثير عليها بلداناً اخرى فترد على صنيعها بمثله. فهذه تحتكر المطاط، وتتصرف به تصرف المحتكر الطامع ، فترد عليها اخرى

باحتكار النيكل وتجزيها عن عملها بمثله . وليس ثمة دولة واحدة في العالم ، الاّ وتحتاج الى مادة او اكثر ، من المواد التي مواردها في بلاد اخرى . فحاجتها الى هذه المواد ، موطن الضعف فيها ، ولا بدّ لها من ان تأخذ وتعطي . وهذا ما وقع فعلاً في تجارة المطاط ، فبريطانيا تكاد تكون مسيطرة على تجارته محتكرة له ، ولكنها اضطرت ان تتفق مع الاميركيين . يقابل هذا ان اميركا لا تنتج في بلادها مطاطاً ما ، ولكن صناعة السيارات فيها اكبر صناعة من نوعها في العالم ، والولايات المتحدة الاميركية اكبر مستهلك للمطاط في العالم . وكون الزرّاع البريطانيين في الشرق الاقصى ، مسيطرين على انتاج المطاط في مستعمراتهم لا يحول دون فوز الاميركيين بما يريدون

فامتلاك موارد المواد الخام اللازمة للصناعة ، ذو شأن كبير ، ولكنهُ لا يكفي . بل انهُ لا يفيد او قلما يفيد ، الاّ اذا كان مصحوباً في البلاد المتملكة بنظام اقتصادي صناعي دقيق ، وبمنافذ للمصنوعات في الاسواق العالمية . واذا كانت بلاد ما تملك هذا النظام الاقتصادي ، فان شراء المواد الخام لا يعسر عليها ولو لم يكن لها مستعمرات . وقلما نجد مادة من المواد الخام محصورة في بلاد واحدة ، ولذلك تقرَّر اسعار هذه المواد في السوق العالمية ، وفقاً لعوامل العرض والطلب . فالسيطرة على موارد المواد الخام ، لا تجعل دولة صناعية ما مستقلّة من هذا القبيل ، الاّ اذا ملكت كلَّ ما تحتاج اليهِ في بلادها او في مستعمراتها . وقلَّ بين الدول دولة تملك كلَّ ما تحتاج اليهِ داخل حدودها الاصلية ، حتى ولا روسيا والولايات المتحدة الاميركية على ما نعلم . اما اذا شاءت ان يكون كلُّ ما تحتاج اليهِ في مستعمراتها ، فيجب عليها حينئذٍ ان تملك جميع مستعمرات الارض . وهذا متعذر لشدّة المنافسة بين الدول الكبيرة

***

فالمستعمرات التي يمكن ان تفوز بها ايطاليا والمانيا لا تجديهما نفعاً كبيراً . اما اليابان فحالتها خاصة ، لانها في اكتساحها الصين تكتسح قارة ، لا تملك مستعمرة . ومع ذلك لا بدَّ من تقييد هذا القول ببضعة قيود . فالثمن الذي قد تدفعهُ اليابان في محاربة الصين ، او في محاربة بعض الدول الاخرى قبل استئثارها الصين ، قد يكون أفدح من الثمن الطبيعي التي كان عليها ان تدفعهُ لو اشترت المواد الخام من الصين ، بالاساليب التجارية السويّة . والواقع ، ان طريق الشراء ، هي في آخر الامر ، اهدى الطرق وارخصها الى المواد الخام التي تطلبها دولة صناعية . فالفتح الاستعماري ، فادح النفقة ، ووسيلة غير امينة لما تثيره من الاحقاد والحزازات وما تؤلبهُ على الدول الغازية من الامم والحكومات

الحق والحسن

لعبد الرحمن شكري

في هذه القصيدة تساؤل عن الحسن في الطبيعة والفنون والاحياء، هل هو يلهي المرء عن ازالة نقائص الحياة واختلال نظمها وأوزار النفس من اجل انه يجعل الحياة كما هي مقبولة لذيذة فتفتر همم الناس ورغبتهم في اصلاحها ام انه يعين على استئناف الجهاد في سبيل صلاح الحياة وانه لولاه لانتفت اسباب الحياة فلا رغبة في اصلاح ولا رضاء بخير ولا بحال من احوالها . لا مراء ان للحسن هذين الأثرين وصلاح الحياة في ان يأخذ الناس بأسباب الاثر الثاني كي يعين الحسن على استئناف الجهاد في سبيل اصلاح الحياة وان يخلص الناس من الأثر الاول قدر المستطاع كي لا يكون الحسن كالمخدرات في الحياة فيلهى المرء بالحياة عن الحياة المنشودة في المثل الاعلا ، الناظم ا

عصيت الحسن من هم ونحس ... ينيخ على الورى في الطارقات

وقلت الحق خير منه عقبي ... وأولى بالنفوس الساميات

وقلت أيا رواء الزهر بعداً ... ويا سحر العيون الساحرات

ويا مُلَحَ الخمائل لا تكوني ... حبائل قانصات آخذات

ويا شمس اخبي ضوءا صبيحاً ... يغازل حسنه حسن النبات

أليس الناس في عنتٍ وشرّ ... سلي الايتام والمترملات

سلي أهل الشقاء وما دهاهم ... وهل طابت لهم خُدعُ الحياة

رمى بالنسل للآفات طرًّا نشاوى لذة لا الواجبات
وقالوا النسل فرض اي فرض جديرٌ بالنفوس المؤمنات
ديار النحس كالجنات حسناً لدى العشاق فيها والهـواة
ورنقٍ في مناقع آسنات ألذ مع الغرام من الفرات
وحيث ترى نعيم الحسن داءً ترى فقد النفوس الآبيات
وهل ترجوه لاستصلاح أمرٍ صريع عقار حسن الفاتنات
فان الحسن يلهي المرء عما يحاول من صلاح الحادثات
ولولا سلوة للحسن عيفت حياة في حضيض الهاويات

***

فقال الحسن هل انا غير سلوى تعين على كفاح النائبات
أنا الأمل الذي لولاه كانت حياة المرء شرٌّ من ممات
أنا الحق الذي تبغي جداه وتنشد كونه في الكائنات
أنا المثل الأجل إليَّ مرقى خُطَا الراقين من ماضٍ وآت
أنا الحادي الذي يحدو نفوساً فتطرب طربة المستوفزات
أنا الصبر الذي يودي بنحس ويُسعد في الهموم المضنيات
أنا الحب الذي لولاه كانت وجوه الكون أشبه بالرفات

***

فلما أنْ تَبَدَّى منه سحر أضاء بنوره وجه الحياة
ولما ان تبدى منه سحر أعاد النفس في مثل السبات
خشعت وما ملكت قياد نفسي وقلت الحق حسن لو يؤاتي
وإن لم يَزْوِ نفس المرء عما يحاول من صلاح الحادثات

الغاز الحربي الكامل

صناعته وخواصه واستعماله

لضابط حربي كيماوي

— في مجلة السينتفك اميركان —

في جدول المواد السامة التي يعرفها الكيماوي مئات من المركبات ، ولكن ما يصلح منها للاستعمال في الحرب ، يعد على اصابع اليدين . إلاّ انّ السواد من الناس بوجه عام يستنكرون هذا القول ، لان الراسخ في اذهانهم مما تنشره بعض الصحف ، غير العلمية ، ان في محفوظات الوزارات الحربية المختلفة ، وصفات منوعة ، لغازات وسوائل فتّاكة ، يخرجها القواد عند ما يستشعرون دنو الحرب ، ويركبونها في المصانع ليستعملوها في الميدان

ولكن السواد على خطإٍ في اعتقادهم هذا إذ ليس بالامر اليسير ، اضافة مادة كيمائية جديدة الى المواد الصالحة للاستعمال في الحرب . وليست الصعوبة في ذلك ايجاد المواد ، بل اجتماع جميع الصفات والخواص التي تجعلها صالحة للحرب . فالمادة الكيمائية الحربية يجب الاّ تكون سامة فقط ، او مهيجة للاغشية ، إذا كانت منتشرة انتشاراً يسيراً في الهواء . بل يجب ان تتصف بخواص كيمائية وطبيعية معينة ، وان تكون مما يسهل صنعه ونقله وتقل نفقته

فالبحث عن مادة كيمائية تجمع هذه المزايا عمل كبير . والعثور عليها يكاد يكون متعذراً . فالمادة الكيمائية الحربية المثلى لم توجد بعد ، وقد لا توجد مطلقاً

في السنوات الاربع التي انقضت بين اول هجوم استعملت فيه الغازات الحربية سنة ١٩١٥ وسنة ١٩١٩ عندما عادت معامل البحث العلمي الحربي الى حالتها في ابان السلام ، بحث العلماء في ٣٠٠٠ مادة كيمائية بغية التثبت من صلاحها للاستعمال في الحرب او عدمه . فظهر ان ثلاثين مادة منها فقط تصلح لذلك ، وان عشر مواد او خمس عشرة مادة فقط يمكن استعمالها استعمالاً واسع النطاق . وقد كان العلماء الذين اقبلوا على هذه الناحية من البحث ، من اكبر علماء الكيمياء في العالم . وكانت الرغبة في انتصار الامم التي ينتمون اليها تحثهم وتدفعهم الى الابداع .

ولم تتوقف مباحثهم عند عقد الهدنة وابرام معاهدات السلام ، بل مضوا فيها ، وعلى الرغم مما اشارت اليه الصحف من استنباط الغاز الحربي الكامل ، ليس ثمة ما يدل على ان هذا القول له ما يؤيده . وقد دل البحث في هذه الاقوال ، ان الغازات التي اشارت اليها الصحف ، كانت مما تناوله البحث قبلاً ، فاهمل ، لانه لا يتصف بالصفات والخواص الاساسية التي يجب ان تتوافر في كل مادة كيمائية حربية

وقبل ان نصف للقارىء ما يجب ان تمتاز به المواد الكيمائية الحربية ، لا بدّ من كلمة نقولها في طبيعة الغاز الحربي

فأولاً من الخطاءِ تسمية هذه الطائفة من المواد « بالغازات السامة » والاكتفاء بذلك فمعظم المواد الكيمائية المستعملة في الحرب ، سوائل او جوامد في حالتها السوية . وهي تبث في الهواء بوسائل مختلفة . يوضع بعضها في قنابل تنفجر فتنشر الجامد او السائل قطيرات دقيقة في الهواء . وبعض الجوامد منها ، يصعّد بالحرارة فينتشر بخاراً لطيفاً ، وبعضها يحمل في الطائرات ثم يلقى منها فيقع فوق الارض في قطيرات او ضباب لطيف . واغلب هـذه المواد التي تلقى من الطائرات سوائل ، وانما يمكن ذرّ الجوامد المسحوقة بالطريقة نفسها . اما ما كان طيّاراً منها ، فيوضع في الغالب في انابيب او اسطوانات ، تخرج منها عند فتح صمام خاص فتكون من ابخرتها غيوم تحملها الريح . وسواء دعوناهذه المواد جميعاً بالغازات السامة او الغازات الحربية او المواد الكيمائية الحربية ، فهي جميعاً مواد تؤثر بتفاعلها الطبيعي السويّ تأثيراً ضارًّا في الجسم ، وتحدث حجاباً كثيفاً من الدخان ، او حريقاً يدمر مواد الحرب خاصةً

ومن الواضح انه اذا وجب البحث عن مادة كيمائية للاستعمال في الحرب ، وجب ان تكون مفيدة من الناحية العسكرية . بل ويجب ان تؤدي هذه الفائدة العسكرية ، على وجهٍ اوفى مما تؤديه مادة اخرى معروفة أو سلاح آخر متداول . ولذلك تقسم المواد الكيمائية الحربية الى اقسام على أساس فائدتها العسكرية . فقد يستعمل بعضها للفتك بالاعداء ، او لعرقلة اعمالهم ، او لحجب الجيش الذي يستعملها عن عدوه ، او لاحداث حرائق ولكن هذا التقسيم ليس فاصلاً . لان بعضها قد يستعمل لتحقيق اكثر من غرض واحد من هذه الاغراض . فالمواد التي تستعمل للفتك بالاعداء ، غرضها احداث الوفاة في من تصيبه او شلّه وتحتيم نقله الى المستشفى . والمواد التي تستعمل للعرقلة غرضها اضعاف الجيش بالزامه ان يلبس الكمامات الواقية . والمواد المستعملة للحجب ، غرضها الحيلولة دون تمكّن العدوّ من مراقبة حركات خصمه واحكام القاء القنابل عليه . والقسم الاخير يستعمل لتدمير الذخيرة ومؤونة الحرب بوجه عام

وهناك تقسيم آخر للمواد الكيمائية الحربية اساسه فعلها الفسيولوجي في الجسم . فمهيجات

الرئة تؤثر في جهاز التنفس والفوسجين اهمُّها واشدُّها فعلاً . ومهيجات الجلد تؤثر في الجلد وتنشئ فيه نفاطات وأهمها غاز الخردل ، بل انها تؤثر في اغشية العين وفي جهاز التنفس كذلك. وهناك الغازات المدرّة للدمع تهيج العين وتضعف البصر واهمها غاز « الكلورو اسيتوفينون » . وهناك مهيجات أغشية الانف فتحدث العطاس الشديد والدوار والضعف الذهني . واهمها غاز « الداينفنيل كاورو آرسين » . وأخيراً نجد المواد التي تسمّ الاعصاب وتشلُّها وأهمها غاز الايدروسيانيك فهو يؤثر تأثيراً مباشراً في الجهاز العصبي ويليه غاز اول اكسيد الكربون فانه يؤثر في الدم ويحول بينه وبين نقل الاكسجين الى نسج الجسم

الاَّ ان البحث لم يسفر حتى الآن عن وسيلة عملية تمكن الجيوش من استعمال الغاز الذي يسمّ الجهاز العصبي ، او يؤثر في الدم . نعم ان غاز اول اكسيد الكربون الذي يتولد عند انفجار القنابل الشديدة التفرقع يفتك بكثيرين ولكننا لا نستطيع ان نحسب هؤلاء القتلى صرعى الحرب الكيمائية

ويختلف الغاز الحربي عن القنابل في ان القنابل تنطلق في خطوط مستقيمة فاذا اصابت احداً في خط مسيرها قتلته والاَّ فانها تضيع سدًى حالة ان الغاز الحربي ينتشر في الهواء ويتغلغل احياناً في المنخفضات فيمتدُّ فعله فوق مساحات كبيرة من الارض

والغازات أنواع من حيث استمرار فعلها بعد انطلاقها من اسطواناتها . فالغاز الذي يتبدّد فعله بعد بقائه في الجوّ عشر دقائق عند ما تكون سرعة الريح عادية ، يقال انه غاز غير مستمرّ الفعل Non-persistent والغاز الذي يستمرُّ فعله بضع ساعات بعد انطلاقه يعرف باسم الغاز المستمر الفعل Persistent . فغاز الفوسجين مثال على النوع الاول لانه عند انطلاقه يتبخر ويتبدّد مع الرياح . أما غاز الخردل فغاز مستمرٌّ فيبقى فعله بعد انطلاقه ساعات أو اياماً . فهذه الصفة من الصفات التي يحسب لها حساب كبير عند البحث عن مادة كيمائية حربية

يتضح مما تقدم ان البحث عن الغاز الحربي الامثل محدود باعتبارات عسكرية وفسيولوجية وطبيعية وكيمائية . ثم يضاف الى هذا الاعتبارات الاقتصادية ، لانه من العبث استنباط غاز يكلف صنعه نفقة كبيرة ترهق الدولة التي تصنعه وتستعمله . وإذن فلا بدَّ من البحث عن غاز وسط ، يجمع كلّ ما يمكن جمعه في الغاز الحربيّ من الصفات اللازمة ، لان الغاز الحربيّ الامثل متعذر فعلاً . ولكن ذلك لا يمنع ان نبيّن الصفات التي يجب ان يتصف بها هذا الغاز ليكون هدفاً يتطلع اليه الكيماوي العسكري

***

في المقام الاول يجب ان يكون هذا الغاز فعّالاً اذا وجدت مقادير قليلة منه منتشرة في مقادير

كبيرة من الهواء . والمقادير القليلة هنا تعني وجود اجزاءٍ يسيرة من الغاز الحربي في ملايين الاجزاءمن الهواءِ . لانه اذا كان الغاز غير فعّال عند ما توجد منه هذه « المقادير الصغيرة » في الهواء فهو لا يصلح من الوجهة العسكرية . اذ لا يخفى ان عدد الاسطوانات المحتوية على الغاز التي يمكن نقلها الى صفوف الجيش الامامية ، محدود ، فالارطال القليلة التي تطلق منها يجب ان تكون فعّالة في تحقيق الغرض العسكري منها وهو الفتك بالعدو او عرقلة اعماله

ويرى الدكتور رودلف هانسليان الثقة الالماني في موضوع الحرب الكيمائية ان الفوسجين يحدث تهيجاً شديداً في اعضاءِ التنفس والعيون اذا وجد منهُ ٤ اجزاءٍ من مائة جزءٍ من الاوقية (٤ .ر من الاوقية) في الف قدم مكعبة من الهواءِ ، اي اذا وجد منهُ جزءٌ في مائه جزءٍ من الهواءِ ($\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$) . بل اذا وجد منهُ في الهوءِ مقادير اقل من المقادير المتقدمة ، واستنشقهُ الانسان بضع دقائق متوالية ، فقد يفضي استنشاقهُ الى تسمّمٍ مميت

اما الغاز المدرّ للدمع فيفعل فعلهُ اذاكانت مقاديرهُ في الهواءِ اقلّ مما تقدم . ويقول الدكتور هانسليان ان وجود ثلاثةاجزاءٍ من عشرة آلاف جزءٍمن الاوقية (٣ . . . ر) في الف قدم مكعّبة من الهواءِ كاف لتهييج اغشية العين واستدرار دموعها ، ومن هذه الغازات مركّب يدعى (برومبنز لسيانيد) يؤثر في العين تأثيراً اليماً جدًّا بعد التعرّض لهُ ثلاث دقائق ولو كان المقدار المنتشر منهُ في الهواءِ ٨ . . . ر من الاوقية في ١٠٠٠ قدم مكعبة من الهـواءِ . ولتقريب هذا المعنى الى القارىء ، نقول تصوَّر انك اخذت اوقية (Ounce) من هذا الغاز وقسمتها الى عشرة آلاف جزءٍ ثم اخذت ثمانية اجزاءٍ منها ووضعتها في صندوق من الهواءِ طولهُ عشر اقدام وعلوهُ عشر اقدام وعمقهُ عشر اقدام (اي غرفة متوسطة) ووقفت فيه ثلاث دقائق فقط فعندئذٍ تشعر في عينيك بألمٍ لا يطاق . وهذا النوع من الغاز لا يميت ، ولـكن انتشارهُ يضطرُّ الجندي الى لبس كمامته الواقية في الحال ، ولبسها يعرقل عملهُ ويضعف كفاءَته العسكرية فاذا كانت الخطة العسكرية تقتضي عرقلة اعمال العدو وتأخيرها فقنبلة واحدة من هذا الغاز تكفي . وقد ادركت بعض الامم قيمة هذا الفعل من الناحية العسكرية ، وهي تضع الخطط الآن لبثّ قليل من هذا الغاز في كل قنبلة متفجرة تطلق

وغاز الخردل كذلك فتّـاك شديد الفتك . فالجرعة القاتلة منهُ تختلف من ٦ . . ر الى ٢ ر من الاوقية في الف قدم مكعبة من الهواءِ.وذلك يتوقف على مدّة تعرض المرء لاستنشاقهِ.ولـكن وجود جزءٍ من الغاز في اربعة عشر مليون جزءٍ من الهواء يكفي لتهييج اغشية العين . ويمكن استرواحهُ اذا وجد جزءٌ منهُ في عشرة ملايين جزءٍ من الهواءِ . ومع ذلك احترق جلد بعض الذين جلسوا على ارض لصقت بها آثار من هذا الغاز من دون ان تشمَّ رائحتها ، اي ان مقدارهُ

كان اقل من جزءٍ في عشرة ملايين جزءٍ من الهواء الملاصق للارض

ولا بدَّ من الاشارة في هذا المقام الى ان مقدار تركيز الغاز في الهواء عامل واحد في قياس فعل الغاز ، وان العامل الثاني هو مدى التعرض لهُ

***

والصفة الثانية التي يجب ان يتصف بها الغاز الحربيّ الامثل ، صعوبة الوقاية منهُ اي انهُ يجب ان يخترق الوسائل التي يستعملها العدوّ للوقاية منهُ او اضعاف فعلها على الاقل. فلا يخفى ان جميع الدول قد صنعت وسائل متقنة للوقاية من الغازات الحربية . فاذا كان الغاز الحربيُّ عاجزاً عن التغلب عليها فقد كلَّ قيمتهِ الاّ اذا اطلق على العدوّ على غرّة منهُ اي عند ما يكون الجنود غير لابسين الكمامات الواقية . وهذا غير كبير الاحتمال لان الجنود يمرَّنون تمريناً دقيقاً على استعمال الكمامات بسرعة . نعم ان استعمال الكمامات يعرقل الجنديَّ المكمَّم ، ولكن ذلك ليس كل ما يبغى من استعمال الغازات الحربية

فالغاز الحربيُّ الامثل لا يكتفى فيهِ بحمل جنود الاعداء على التكمُّم ، بل يجب ان يؤثر في اجزاء الجسم المختلفة اي يجب ان يهيج الاغشية في الرئتين والعينين والانف والجلد لان تغطية الجسم كلهِ من الرأس الى اخمص القدم ليس بالامر السهل . وغاز الخردل يتصف من هذه الناحية بهذه الصفات . فالوقاية منهُ تقتضي ان يرتدي الجندي رداءً مصنوعاً من قماش لا يخترقهُ الغاز ،وهذا الرداء اذا غطى الجسم تغطية تامةً أرهق لبسهُ الجندي وجعل القتال وهو مرتديه متعذراً اكثر من بضع دقائق

واذا كان الغاز الامثل لا يؤثر في جميع اجزاء الجسم فيجب ان يكون مما يخترق الكمامات. ولكي يتصف بهذه الصفة يجب ان يكون غازاً لا يتفاعل مع غيره من المواد ولا تمتصهُ المواد التي توضع في الكمامات للوقاية من الغاز ، ولا يحجبهُ ذلك الجزء من الكمامات المعروف بالمصفاة والغرض منها منع الدقائق الجامدة والسائلة من الوصول الى جهاز التنفس

فالكلور وهو من اشدِّ الغازات فتكاً ، لا يصلح من هذا القبيل لانهُ شديد التفاعل مع غيره من المواد ، فالوقاية منهُ من اسهل ما يكون . ان قطعة من القماش مغموسة بالصودا اذا وضعت على الانف تمنعهُ من الوصول الى الرئتين . ويقابل هذا غاز يعرف باسم الكلورو بكرين ، وهو من الغازات التي يصعب جدًّا الوقاية منها

والصفة الثالثة التي يجب ان يتصف بها الغاز الحربيّ هي سهولة صنعهِ . فقد يفوز الكيماوي بصنع غاز متصفٍ بجميع الصفات الكيمائية والفسيولوجية في المعمل ، ولكن اذا كان صنعهُ صعباً

او يقتضي نفقة كبيرة فلا فائدة منه . فقد قلنا ان قليلاً من الغاز الحربي الكامل يجب ان يكون كافياً للفتك بجندي من جنود العدو او شله عن العمل ، ولكن الخطط العسكرية ، قد تقتضي احياناً استعمال طن منه للتأكد من وصول هذا القليل الى العدو

فقد وصف اصحاب الخيال من الكتاب بضع طائرات مجهزة بقنابل من الغاز في مكنتها ان تطير فوق مدن كبيرة فتبيد الحياة منها بما تلقيه عليها من الجو . وهذا غلو لا مكان له من الحقيقة . نعم ان طائرة تستطيع ان تحمل من الغاز الفتاك ما يكفي لابادة سكان مدينة آهلة ، ولكن هذا لا يتحقق إلا اذا وصل كل جزيء من جزيئات هذا الغاز الى سكان تلك المدينة فالاصل في فعل الغاز وصوله الى من اطلق عليهم . وهذا قد يقتضي اطلاق مقادير كبيرة منه قبل الفوز بما يرام

واذن كائناً فعل الغاز ما كان ، فلا بدّ من تجهيز مقادير كبيرة منه . وكون العالم يستطيع ان يجهز بضع اوقيات منه في معمل البحث لا يعني ان المهندس الكيماوي يستطيع ان يصنع منه الوفاً من الاطنان . فالانتقال من الانتاج العلمي الى الانتاج العملي التجاري ، عملٌ قلما يكون سهلاً . ويقال ان الانكليز عرفوا غاز الخردل قبل الالمان وأدركوا فائدته الحربية ولكنهم عجزوا عن صنعه صنعاً تجاريًّا ، فسبقهم الالمان الى ذلك واستعملوه اولاً

ثم ان الغاز الحربي الكامل يجب ان يكون رخيصاً . وهذا الشرط ينطبق بوجه عام على جميع الذخائر الحربية . فاذا كانت المتفجرات او المواد الكيمائية غالية الثمن وجب البحث عن غيرها مما هو ارخص منها ليحل محلها ، فالمال عصب الحرب ، او هو احد اعصابه الرئيسية وقد تسخو الحكومات عند اشتداد الازمة حيث كانت تحرص ، ولكن الانفاق له حدود ، لا تستطيع اية حكومة ان تتعداها . فاذا كان لدى حكومتين مادتان حربيتان قريبة احداهما من الاخرى في الفعل ، وكانت اقلهما فعلاً ارخصهما ثمناً ، فالغالب ان الحكومة تؤثر الرخيصة على الغالية . فغازنا الحربي الكامل لا يكون كبير القيمة إذا كان غالياً . لانّ قتل العدو مسألة قروش وملاليم !

***

والصفة الرابعة التي يجب ان يتصف بها الغاز الحربي الكامل هي ان يكون صنعه ممكناً من مواد خام تكثر في البلاد التي يصنع فيها ، فلا تحتاج في صنعه الى استيراد مواد من الخارج قد ينقطع ورودها في اثناء الحرب . بل يجب ان تكون هذه المواد الخام ، مما لا يكثر الطلب عليه في صناعة الذخيرة الحربية بوجهٍ عام ، لئلاّ تفضي كثرة الطلب الى غلائها فغلاء الغاز الحربي

الذي يصنع منها . فانكلترا مثلاً صعب عليها بعض الشيء في خلال الحرب الحصول على عنصر البروم لصناعة الغاز المدر للدموع لذلك استنبط رجالها مركباً آخر يدخل اليود في تركيبه وهو المركب المعروف باسم « اثيل ايودراسيتات » . ولكن بعد الحرب استنبطت وسائل جديدة لاستخراج عنصر البروم من ماء البحر

ويجب ان يكون نقلهُ سهلاً . فمشكلة النقل في اثناء الحرب مشكلة كبيرة وكلُّ ما يعتورها ويجعل النقل صعباً يضيف الى متاعب القوّاد . بل يجب كذلك ان يكون نقله غير محفوف بالخطر . فكل مادةٍ يصعب حصرها في انابيب او اسطوانات اوتأكل الاسطوانات التي توضع فيها بتفاعلها الكيمائي معها ، غير مرغوب فيها بوجهٍ عام . فمادة « البرومبنزلسيانيد» تأكل الصلب والحديد وتفقد فعلها الفسيولوجي ، ولذلك يتعذر وضعها في القنابل او الاسطوانات العادية كغاز الخردل ، بل يجب ان توضع في اسطوانات منزجاجات او اسطوانات معدنية مطلية من الداخل بالميناء . وهذه امور تضيف الى نفقة صنع الغاز ، وتزيد ثقل الادوات التي تحتويه

ويجب ان يكون مستقر التركيب اذ لا فائدة من غاز تصنعهُ وتضعهُ في اسطوانات ثم اذا انقضت عليهِ ايام او اسابيع تحلل الى مواد لا تضر احداً اذا اطلقت عليهِ. ولا يخفى ان كل جيش من الجيوش ، يحتاج الى العتاد الحربيّ عند بدءِ الحرب ، اي ان عدتهُ من المواد الحربية الكيمائية ، يجب ان تكون مجهّزة قبل بدءِ الحرب . فاذا كانت من المواد غيرالمستقرة التركيب، كان لا فائدة منها على الاطلاق ، وكان كل مال ينفق على صنعها واعدادها مالاً مضاعاً . وافضل مثل على ذلك « سيانيد الايدروجين » . فهو يتصف بصفات تجعلهُ غازاً حربيًّا فعَّالاً ولكنه غير مستقر للتركيب. وغاز الخردل يفوقهُ في هذه الناحية ، فان كاتب هذه السطور رأى اسطوانات ملئت بغاز الخردل سنة ١٩١٩ وفتحت من عهد قريب فاذا الغاز الذي فيها لم يطرأ على تركيبه تغيير ما

واخيراً يجب ان يكون الغاز الحربي الكامل مما يصعب تبينهُ اي يجب ان يكون لا لون لهُ ولا رائحة ولا طعم . ولا اعرف الاَّ غازاً واحداً متصفاً بهذه الصفات وهو غاز اول اكسيد الكربون . ولكن هذا الغاز لا يتصف بجميع الصفات الاخرى. وغاز الخردل يفوقهُ من هذه الناحية كذلك كما يفوق معظم الغازات الحربية من نواحٍ اخرى. فغاز الخردل في حالته البخارية لا لون لهُ ، ومع انه قوي الرائحة ، الاَّ انه بعد استنشاقه دقيقة من الزمان يشلُّ عصب الشمّ

***

وعلى ذلك يرى القارئ ان بلوغ الكمال في الغاز الحربيّ متعذر تعذره في سائر اعمال الحياة ونواحيها، ولكن غاز الخردل هو اقرب الغازات التي امتحنت الى الكمال على ما يعلم

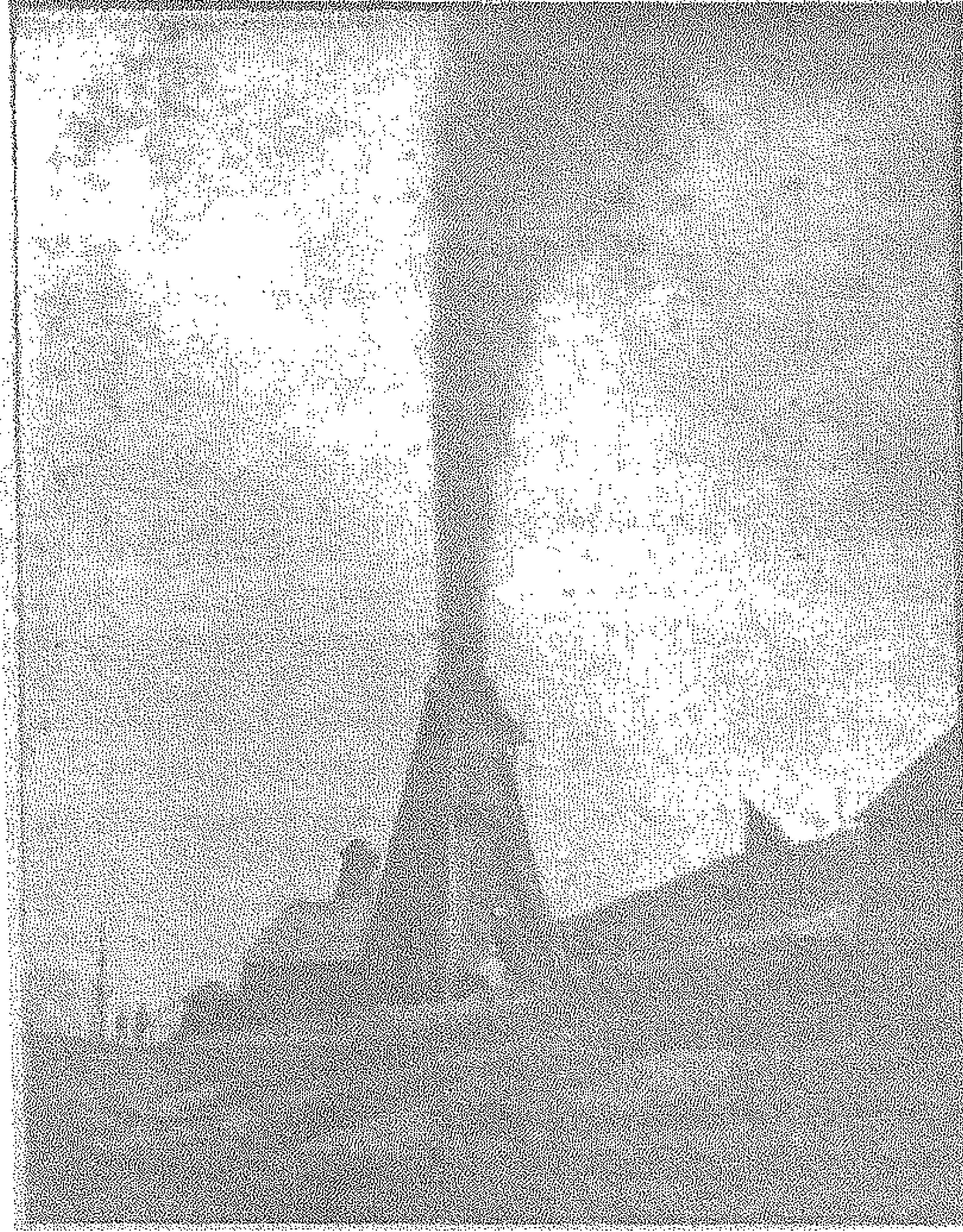

صورة بئر من النفط وقد انطلق النفط منها بقوة عظيمة

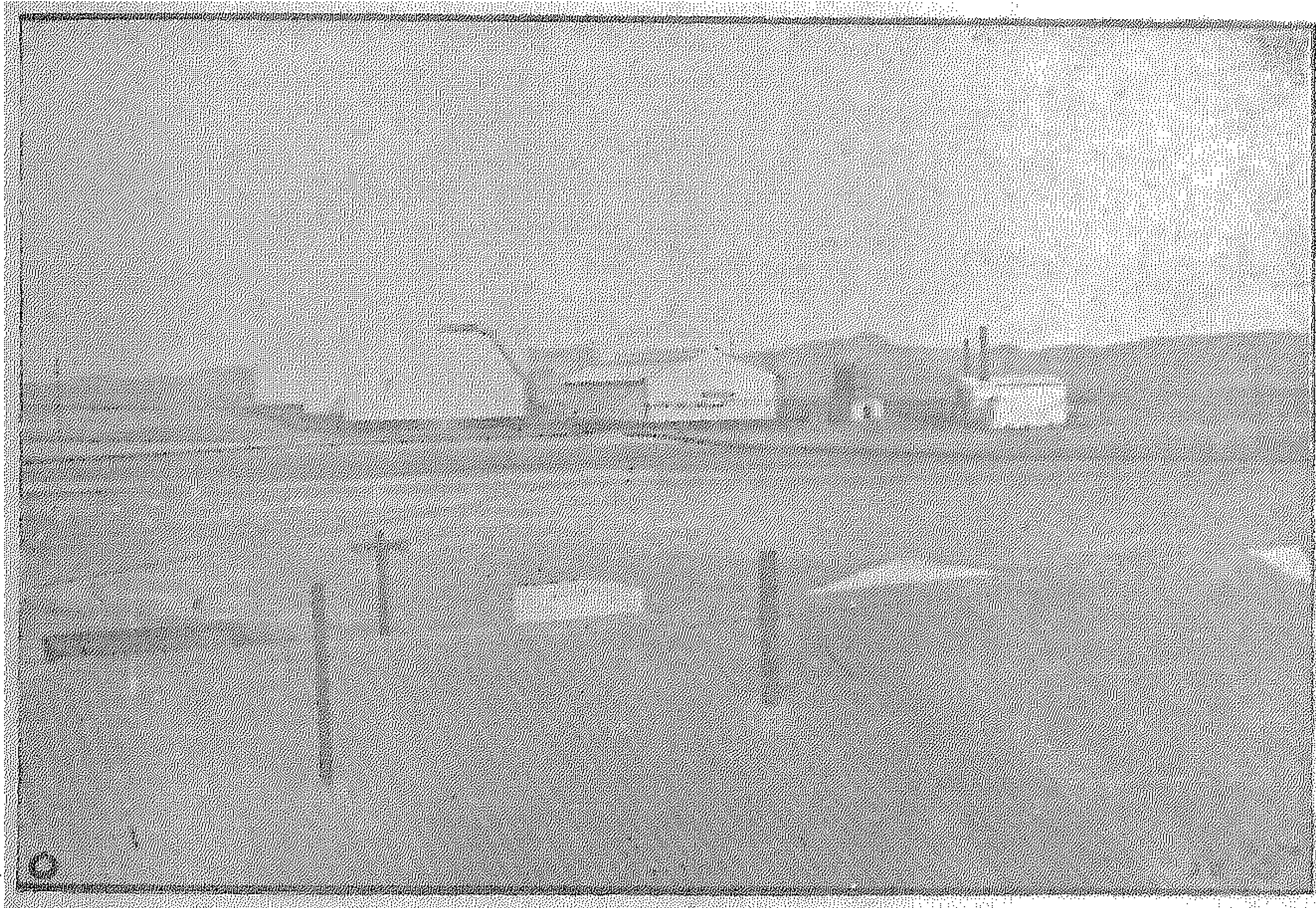

صورة المحطة العمومية بميناء الغردقة وفيها تظهر الصهاريج الخازنة والمضخات
التي تشحن ناقلات البترول

البترول والحضارة

بين الطبيعة والاستنباط

لحبيب اسكندر
ناظر القسم الثانوي بجامعة القاهرة الاميركية

البترول كلمة لاتينية مركبة من كلمتين معناها زيت الصخر وسمي كذلك لانه سائل كالزيت ينبع من بين بعض الصخور . وهو وان كان معروفاً قبل مطلع التاريخ عند قدماء المصريين والصينيين واليابانيين وهنود امريكا الاصليين الاّ ان استخدامه في غايات نفعية راجع الى العصور الحديثة . فصناعة تكرير البترول ظهرت في عالم الوجود اولاً في باكو سنة ١٨٢٥ أي منذ ١١٠ سنين . وصناعة البترول في الولايات المتحدة التي تقدر رؤوس اموالها بنحو ٩٠٠٠ مليون ريال (اي نحو ٢٠٠٠ مليون جنيه) بدأت سنة ١٨٥٩ اي منذ ٦٧ سنة لا غير . ثم ان زيت القطر المصري استكشف سنة ١٨٨٦ ولم يبدأ العمل في استخراجه الاّ بعد عام سنة ١٩١٣

ومع حداثة هذه المادة في العالم الصناعي فقد تبوأت مقاماً سامياً قد لا يباريها فيه الاّ الحديد وأصبحت من الحاجات الضرورية التي لا غنى للانسانية عنها والتي تزداد الحاجة اليها يوماً بعد يوم . وذلك لاستخدام مستخلصاتها في جميع الاجهزة الحديثة ولولاها لشلت حركة السيارات والطائرات ووقف دولاب كثير من الآلات والقاطرات والسفن التجارية والحربية. وبصرف النظر عن استخدامها في الوجوه السابقة المدونة فقد وجد فيها الكيماويون أرضاً خصبة للبحوث العلمية ولتركيب مواد كثيرة نافعة كالكحولات ومشتقاتها والكاوتشوك الصناعي وغيرها من المواد التي تختلف في طبائعها عن البترول والتي نستحضرها من مصادر اخرى

﴿ استكشاف مناطق البترول وإستخراجه من الارض ﴾ : ليس من السهل الاستدلال على مناطق البترول لان دور تكوينه غير مفهوم وفيه مجال واسع لتضارب الآراء ثم لانه سائل لا يستقر في مكان تكوينه كالفحم بل يميل إلى الهجرة . فيوجد أحياناً فوق طبقات جيولوجية حديثة وأحياناً فوق طبقات قديمة جدًّا . كذلك يوجد احياناً في تلال تكسوها الغابات كما في بنسلفانيا بامريكا . وأحياناً في صحارى قاحلة كما في ساحات كليفورنيا ومصر

ويصحب البترول غالباً ماء ملح وغازات قابلة للالتهاب تحت ضغط شديد وهما من أهم العوامل التي تساعد على صعود الزيت إلى سطح الارض . وقد توجد احدى هذه المواد الثلاث من دون الاخرى فقد يخرج ماء ملح فقط أو غاز فقط عند ما يتوقعون خروج الزيت

لذلك يعاني رواد البترول مشقة عظيمة في سبيل كشف مناطق الزيت وحفر الآبار وتحطيم صخورها وازالتها بالآلات البخارية ويتكلفون نفقات طائلة . وبعد ذلك لا يعثرون على شيء من الزيت . فالعمل فيه أشبه شيء بالمقامرة . ففي مصر مثلاً حصلت جماعات مختلفة من الحكومة على ١٥٠ رخصة للبحث عن البترول في مناطق مختلفة وكان نصيبها من النجاح قليلاً بدليل ترك أصحاب الرخص في أغلب الحالات جهات امتيازهم. وقد قدرت الاموال التي صرفت في البحث عن زيت البترول بغير جدوى قبل الحرب بثلاثة أرباع المليون من الجنيهات . وقيمة هذا المبلغ في ذلك الوقت ثلاثة أو أربعة أمثال قيمتها في الوقت الحاضر

وعند ما يراد حفر آبار البترول يقام اولاً برج من الخشب متسع القاعدة يسمى Derrick وفي نظري ان أحسن ترجمة لها المشنقة لانها سميت باسم جلاد في اوائل القرن السابع عشر كان يسمى (Derrick) . يبلغ ارتفاع البرج ٧٠ قدماً ومساحة قاعدته ٢٠ قدماً مربعة ومساحة قمته ٤ أقدام مربعة ثم يركبون على قمته عجلة او بكرة يمر عليها حبل مربوط بمثاقب من الفولاذ يختلف شكلها باختلاف نوع الصخر ثم يتصل طرفه الثاني بمحرك بخاري لرفع المثاقب وخفضها في انبوبة حديدية متينة في الارض . ثم ترفع المثاقب وتخفض مرات متتالية لتثقيب الصخور كما يشاهد في بعض العمارات وبعد ذلك تزال الصخور المفتتة بمضخات خاصة . وتختلف اعماق الحفر في ساحات البترول المختلفة . ففي مصر يتفاوت العمق بين ٢٨٠٠ الى ٢٠٠٠ قدم وهم الآن يستخرجون هذا المعدن النفيس في امريكا من اعماق تفوق ٤٠٠٠ قدم ويقال ان هناك بئراً في ساحات Athens من اعمال California تخرج زيتاً من عمق ٧٣٠٠ قدماً (١ $\frac{1}{2}$ ميل) وهي مسافة لا يستهان بها إذ كانت تحت الارض وناهيك ما يكلف حفرها الناس من مال وتعب . وقد يزدهر العمل في بعض الساحات فيحفر فيها عدد كبير من الآبار وتظهر هذه الابراج بشكل غريب يستوقف النظر

* * *

وتكثر ساحات البترول في امريكا وفي روسيا حول سواحل بحر قزوين وفي جاليسيا ورومانيا والمجر وبلاد العجم والعراق وفي مصر حول سواحل البحر الاحمر في ساحات جمسا والغردقة . وقد حفرت في ساحة جمسا ٢٢ بئراً نجح منها ست ونضب منها ثلاثٌ . واما ساحات الغردقة فأهم من ساحات جمسا واوسع نطاقاً واكثر انتاجاً فقد حفرت فيها ٤٦ بئراً حتى شهر اكتوبر سنة ١٩٢٦ ويبلغ مقدار ما تنتجه ساحات مصر ٦٥٠ طناً في اليوم . ويقدر البترول المستخرج من

منطقة الغردقة بنحو ١¾ مليون من الاطنان في ١٣ عاماً. وفي منطقة جمسا ١٨٢٫٠٠٠ طن واعظم مقدار من البترول استخرج في سنة واحدة هو ١٨٠٫٠٠٠ طن . والتزام استخراج الزيت في هاتين الساحتين معقود للشركة المصرية الانجليزية لمناطق البترول وهي الشركة الوحيدة التي نجحت في اعمالها وامكنها الاستفادة من استغلال المساحات المؤجرة لها . ولا تزال التجارب قائمة بقرب سواحل البحر الاحمر ومناطق سينا . ولم تتحقق نتائجها بعد . ويقرر الخبيرون أن السواحل المصرية تحتوي كثيراً من آبار البترول الغزيرة . وقد بلغت المساحة المخصصة لاعمال البحث عن البترول في سنة ١٩٢٢ نحو ٦٦٠ كيلو متر مربعاً والمساحة المؤجرة لاستخراجه ١٤ كيلو متراً مربعاً

﴿ انفجار ينابيع البترول ﴾ أشرنا في كلامنا السابق الى ان الطبقات الارضية او مناطق البترول مشبعة بغازات مضغوطة وقد يحدث عند حفر بعض الصخور ان ينفجر ينبوع الزيت بقوة ضغط الغاز ويندفع منه الزيت بقوة عظيمة . فقد حدث مرة في سنة ١٨٨٢ أن انفجر ينبوع بترول في ساحات باكو وفار منه الزيت والرمل بقوة هائلة وزئير مخيف سمع على بعد بضعة أميال من مكان البئر . وانخلع من جراء هذا الانفجار سقف البرج وتصدعت جوانبه وكان ارتفاع النافورة الزيتية ٣٠٠ قدم ثم طغى الزيت على الارض المجاورة فحوَّلها بركاً وغطى الرمل المقذوف جميع الابنية والحوانيت المجاورة . وقد قدّر متوسط ما أخرجه هذا البركان الزيتي الثائر بمليوني جالون من الزيت يوميًّا . وبدأ الانفجار في أول سبتمبر وفي منتصف نوفمبر كان لا يزال متدفقاً بمعدل ٢٤٠ الف جالون في اليوم . ويقال ان هذه البئر كانت ملكاً لشركة أرمنية صغيرة لم يكن لها ملك حول البئر لعمل صهاريج لحفظ الزيت ولذلك طغى الزيت على الاملاك المجاورة ولم يستفد أصحاب البئر شيئاً .

ولقد حدث شيء من هذا في مصر فقد انفجر ينبوع بئر من آبار جمسا سنة ١٩١٤ فخرج منها في اليوم الاول ٤٠٠ طن طفحت الى البحر الاحمر وطغت على ما جاورها من التلال وأودت قوتها بحياة عامل ولم يفلح أي سعي في التغلب على تيارها الجارف

﴿ البترول الخام ﴾ : سائل يشمئز منه الناظر يطفو فوق سطح الماء لا يصلح للاستعمال في المصابيح للزوجته وتلوثه بمواد غريبة. ويستعمل أحياناً وقوداً في القاطرات والسفن وهو يختلف كثيراً من حيث خواصه الطبيعية والكيمائية . فبينما تجد بعض الزيوت ثقيلاً أسود اللون لزجاً إذا بعضها سائل خفيف ذو لون أصفر باهت ويحتوي على نسب مختلفة من البنزين والكيروسين والمواد الثقيلة . وليس هذا الاختلاف قاصراً على الزيوت في بلاد مختلفة بل كثيراً ما يلاحظ في الزيوت المستخرجة من جهات متقاربة من بلد واحد بل وفي آبار تستمد زيتها من نبع واحد . وقد يختلف نوع الزيت الذي يستخرج من بئر واحدة باختلاف العمق . اما زيت جمسا فصنفه جيد وثقله

النوعي خفيف . وهو يحتوي على ٢٠ ./٠ من البنزين ويعدل أجود أنواع البترول في العالم .
ومن آبار الغردقة ما تنتج الآن زيوتاً تختلف بعض الشيء عما كانت تنتجه من بضع سنين

ومن الوجهة الكيمائية يعد البترول مزيجاً من مركبات كيمائية عديدة كلها مركبة من عنصري الايدروجين والكربون واسمها في الكيمياء «ايدروكربونات» منها السائل ومنها الغاز ومنها الصلب ومنها المشبع وغير المشبع . ويخالط هذه المركبات مقادير قليلة من مركبات الكبريت والازوت والاكسجين ويلوثه ماء وملح ومواد أرضية

تقسم أنواع البترول الى ثلاثة أنواع رئيسية وهي : —

(١) بترول قاعدته البرفين — وهو البترول الذي يحتوي على قليل من الاسفلت وكثير من مركبات الكربون والايدروجين التابعة لسلسلة البارفين والتي قانونها الكيماوي $C_n H_{2n+2}$ والتي تكوّن المواد المعروفة بشمع البرافين والزيوت التي من هذا النوع أثمن أنواع البترول من وجوه كثيرة

(٢) بترول قاعدته Napthene وهو الذي يترك بقية ثقيلة من الاسفلت — القار — وتكثر في هذه الزيوت الايدروجينات المكربنة التابعة لسلسلة Napthene التي قانونها الكيماوي $C_n H_n$

(٣) بترول قاعدته خليط من القاعدتين السابقتين

﴿ تقطير البترول وتكريره ﴾ : قلنا ان البترول الخام عند استخراجه من آباره لا يصلح للاستعمال وهو في حالته الطبيعية بل لا بد من تعريضه لسلسلة من عمليات التقطير والتكرير لكي يمكن تجزئته الى المواد البترولية المعروفة مثل : البنزين والكيروسين وغيرها

وتشيّد مصانع التكرير غالباً بالقرب من السواحل بعيداً عن ساحات الآبار . وينقل الزيت الخام بمضخات في انابيب ممتدة من فوهات الآبار الى خزانات فرعية لخزانات اساسية ثمَّ الى الخزان العام القريب من مصنع التكرير ويبلغ مجموع اطوال هذه الانابيب في بعض الجهات مئات الاميال . ففي ساحات مصر يبلغ طول الانابيب الممتدة ١٥٠ كيلو متراً . وفي الولايات المتحدة يبلغ مجموعها في جميع الساحات نحو ١٠٠٫٠٠٠ ميل يمر فيها بالضغط ١٠٠٫٠٠٠ برميل يوميًّا

ويكرر البترول غالباً بالتقطير المجزىء في اسطوانات كبيرة من الحديد سعة الواحدة منها تفاوت بين ٥٠٫٠٠٠ الى ٦٠٫٠٠٠ جالون ثم يمرُّ البخار الخارج في انابيب التكثيف المعرضة للماء البارد . وتستقبل السوائل التي تنفصل عند درجات الحرارة المختلفة في مستودعات منفصلة ثم تنقى اولاً بالحامض الكبريتيك ثم بالصودا الكاوية والماء

وهاك اسماء الاجزاء الرئيسية لتقطير البترول في درجات الحرارة المختلفة

(١) بين درجتي ٤٠ م و ٧٠ م يخرج منه سائل شديد التطاير يسمى اثير البترول يستخدم

مخدراً في العمليات الجراحية وذلك بتبريد السطح المراد اجراء العملية الجراحية فيه

(٢) بين درجتي ٧٠ م و ٩٠ م يخرج الجازولين

« « ٨٠ م و ١٢٠ م يخرج البنزين

والجازولين والبنزين سائلان عديما اللون يستخدمان وقوداً لمحركات السيارات والطائرات ثم يستعملان في تنظيف الملابس واذابة كثير من المواد التي لاتذوب في الماء كالصمغ والزيوت والكاوتشوك

(٣) بين درجتي ١٢٠ م و ١٥٠ م يخرج سائل يسمى زيت النفط او زيت التنظيف الذي يستعمل في التنظيف ثم يقوم مقام زيت التربنتينا في عمل الورنيش

(٤) بين درجتي ١٥٠ م و ٣٠٠ م يجهز زيت الكيروسين وهو زيت الاحراق المعروف بالجاز وفائدته معروفة للخاص والعام

(٥) والاجزاء التي تجمع فوق درجة ٣٠٠م يحضر منها زيوت الوقود وزيوت التشحيم والفازلين (الذي يستعمل في حفظ الحديد من الصدإ وعمل المراهم الطبية) وشمع البرافين الذي يصنع منه بعض انواع الشمع العادي

(٦) ويبقى بعد ذلك مادة فحمية كالقار تستخدم في فرش الطرق وعمل الاسفلت

اما مصنع التقطير في السويس فيكتفي فقط بتحضير البنزين والكيروسين واما ما يبقى بعد ذلك فيباع باسم المازوت او زيت الوقود ويبلغ مجموع ما تكرّره الشركة في السويس ١٠٠٠ طن في اليوم نصفها ٥٠٠ طن من المازوت وربعها ٢٥٠ طناً من الكيروسين والربع الآخر ٢٥٠ طن من البنزين وفي الولايات المتحدة نحو ٢٦٧ مصنعاً لتكرير البترول تقطر يومياً نحو مليون برميل من البترول

كان الكيروسين فيما مضى أهم مستخرجات البترول الكثيرة الطلب وكانت الجهود تبذل للاكثار منه . اما اليوم فقد اصبح البنزين او الجازولين مطلوباً اكثر منه لازدياد عدد السيارات لذلك دعت الحاجة الى الاكثار من إنتاجه وابتكار طرق لتحويل المواد البترولية الثقيلة الى بنزين . ولقد توصل الكيماويون الى هذه الغاية وتمكنوا بعملية تسمى « تجزئة الزيت » Cracking of oils من تحويل المواد البترولية الثقيلة الى مواد اخف . وتتلخص عملية التجزئة هذه في رفع درجة الحرارة للمادة التي تحت التكرير الى درجة اعلى من المطلوب عادة مع زيادة الضغط على السائل فينتج من ذلك حل جزيئات المواد الثقيلة الى غيرها اخف منها . ولقد افادت هذه العملية صناعة البترول فوائد اقتصادية عظيمة فيها الآن يحصلون على جازولين يعادل ٣٣٠/٠ من الزيت ويؤملون بعد عشر سنوات او نحو ذلك أن تزيد هذه النسبة حتى تصل الى ٧٥ ٪ بفضل ما يدخلونه على عملية التجزئة من ضروب التحسين والاتقان

﴿ البترول والبحوث العملية الحديثة ﴾ ان ما يجعل للبترول مقاماً كيمائيًّا علميًّا هو أنه مزيج من عدد عظيم من الايدروكربونات منها الغازات الذائبة والسوائل الخفيفة والثقيلة والاجسام الصلبة — ومنتجات التقطير التي أشرنا اليها ما هي الاَّ خامات مركب كل منها من مواد كثيرة ممتزج بعضها ببعض . فهو أشبه شيء بقطران الفحم الحجري من حيث كثرة ما فيه من المواد . ويؤمل العلماء أن اليوم الذي يصير فيه البترول كالقطران مصدراً لصناعات كيمائية بات قريباً لاهتمام الحكومات والافراد بتشجيع تجاربه العلميـة . فقد تبرع روكفلر الامريكي « وشركة انتجة الزيت العمومية » بنصف مليون ريال لترقية الابحاث العلمية الصرفة المختصة بالبترول في امريكا. والفت جمعيات واقيمت مؤتمرات خاصة لدرس هذا الموضوع من جميع الوجوه العلمية والجيولوجية والكيمائية — وتمكنوا من صناعة كثير من انواع الكحول من البترول ومن الكحولات يستطيع الكيماوي تحضير عدد كبير من الحوامض والمركبات المختلفة . ثم من منتجات البترول توصلوا الى عمل مواد مارنة كالمطاط تستعمل بدل الكاوتشوك الطبيعي. ولقد أتيح لهم تحويل معظم البترول الى ايدروكربونات غير مشبعة واضافة عناصر أخرى كالكلور والاكسجين اليها والحصول على كثير من المواد النافعة بعضها معروف وبعضها لم يعرف من قبل

وبالاختصار يتوقع العلماء مستقبلاً باهراً للبترول في ترقية الصناعات الكيمائية ونشر وسائل المدنية وانزال أثمان كثير من كماليات المعيشة وزيادة رفاهية الانسان . ولكي تدرك ما يرجى لهذه الابحاث العلمية نترجم لكم ما قالهُ في هذا الصدد المستر Morris رئيس الجمعية الكيمائية الاميركية في اكتوبر سنة ١٩٢٦ في عبارة شعرية لا تخلو من التسلية قال :—

« هل لي أن أطمع في عفو القارىء اذا سبح فكري في بحر الخيال وأنا أتأمل في مستقبل البترول كمصدر للكمالات الحيوية

« ليتصوَّر القارىء نفسه في عصر يوم عليل النسيم جوه صافي الاديم فقرَّ رأيه على أن يخرج للنزهة في سيارة يجوب الخلوات . فيفحص مستودع سيارته فاذ به غير مملوء وليس به الاَّ القليل من السائل الذي يستمد منه الوقود ولكنه سيكفي حتماً بفضل الضغط ونوع الوقود الذي يكفي الجالون الواحد منه السير لاميال طويلة . ثم يرجع ببصره كرَّة الى الزيت الذي تشحم به أجزاء العربة فيجدهُ وافياً بالمرام على أنه لم يلتفت الى تغييره منذ أشهر . ثم ينظر نظرة أخرى الى طلاء السيارة ولمعان أدهانها فلا خدش فيها فهي مرنة ومتماسكة الى الحد المطلوب والاصل في كل ما ذكر البترول . ثم ينظر الى اطارات العجلات وكيف ان مطاطها لا تظهر عليها آثار البلى والقدم بالرغم من انها قطعت مسافات طويلة . الاَّ ان أصلها البترول . ثم يتكيء بيده على مقاعد العربة وقد صنعت من الجلد الصناعي فاذ هو مرن ناعم أملس قابل للَّيّ والطيّ مقاوم للحرارة

والشمس وكثرة الاستعمال والاصل فيه البترول . ثم يدير وجهه يمنة ويسرة وأمامه والى الوراء وينظر خلال منافذ العربة الشفافة وموانع الهواء التي تحلت بكل ميزات الزجاج وبرزت عليه في أنها لا تتشقق ولا تتكسر . والاصل فيها البترول . ثم ينظر في اللوحة المركبة عليها آلات التسجيل وكيف ان مرآها أشبه شيء بمصقول الابنوس . والاصل فيها البترول

«وهبه قد رأى شحماً على أجزاء سيارته فكشطه بيده فعلق بها وأراد أن يزيل اللوثة عنها فلا خير لهُ من ذلك الصابون العجيب الذي يحضر من البترول

« وبعد يمتطي سيارته ويلقي عصا التسيار الى واد كمنعرج اللوى فيرى الفعلة وهم مجدون في توسيعه وفي حاجة الى مفرقعات يقتلعون بها عاتي الصخور . فلا يسعفهم الا مستخرجات البترول

«ثم اذ هو في طريقه يرى مصنعاً قائماً به معدات تحضير النوشادر الضرورية لتسميد الارض والسماد قوام خصبها والايدروجين اللازم لتلك الصناعة الحيوية . الاصل فيه البترول

«واذا طالت به النزهة واحسَّ بوعثاء السير وشعر بالحاجة الى مرطب فيقف عند مخزن ادوية او عطار فيطلب شراباً منعشاً فيه طعم الفاكهة ونكهة ألذ الثمار فيعطى شراباً مزاجه بترول . واخيراً يسترسل في المنعشات فيطلب مثلوجاً به قشدة يجدها لذيذة حلوة ناعمة ملساء اصلها البترول

«ثم يفكر قليلاً كما يفكر الكيماوي فيما كشف او ركب حديثاً من العقاقير التي يحسن ان يلجأ اليها كل من كان مستقبلاً لازمة مجهدة لجسمه او عقله او من كان متعباً من ارق فبات ليله مسهداً واصبح في أشدّ الحاجة الى منوّم او من تملكه داء السكر — وقانا الله شره — فاحتاج الى دواء يصد به هجمة ذلك الداء . او رام مطهراً خفيفاً يناسب المطالب المنزلية — او احب ان يزيل بقعة دهنية من نسيج دقيق رقيق لا يحتمل شديد الدلك والتنظيف او رغب في ملين داخلي . او بالاجمال طلب المعونة من وجوهها الكثيرة التي يلجأ فيها في عصرنا الراقي المتمدين الى مخزن الادوية . فانه مهما توجه او دار واقع لا محالة على ما الاصل فيه البترول

«حتى اذا ما قضى لبانته عاد فوثب في سيارته الجميلة فوطئت قدماه ما قد غطى به ارضها من مادة متينة تقاوم وطأ الاقدام مهما اشتدَّ رأى البترول مبعث تلك المتانة

« وبعد كل ذلك يرى الوقت قد حان الى تناول لفافة من التبغ (الدخان) يستطيب طعمها لأن تبغها قد احتوى القدر المناسب من الرطوبة بفضل ما اودع منه من مادة تمتص ما يحتاج اليه التبغ من الماء بالقدر المعلوم واصل تلك المادة البترول . ثم قد يمر بمستشفى فيدور بخلده ما هنالك من مخدرات يستعين بها الاطباء في عملياتهم فلا تترك في المرضى الآثار الوبيلة التي يتركها الكلوروفورم او الاثير ، الاصل فيها البترول

«وقد يمضي اليوم كله على ما قدمنا وانت يحاصرك من جميع جهاتك كما رأيت صاحبنا البترول»

﴿ اصل البترول ﴾ : يهتم الكيماوي كثيراً بالبحث عن اصل المواد ونشؤها وكيفية تكوينها في الطبيعة وفي هذا البحث فوائد جمة من الوجهتين العلمية والصناعية لانه ينير الطريق امام المشتغلين بالعلوم ويساعد على كشف مصادر جديدة وطرق نافعة في الحياة العملية . فالفحم الحجري الذي نستخرج منه كل عام نحو ١٥٠٠ مليون طن أصله نباتات كانت تعيش في الازمنة الجولوجية القديمة . ثم سقطت وتراكمت عليها طبقات ارضية وتعرضت لضغط وحرارة عظيمين مدة آلاف من السنين فحصل فيها تحلل كيماني انتهى بها الى المادة المعروفة بالفحم الحجري. وجميع العلماء تقريباً مجمعون على هذا الرأي

أما البترول الذي نستخرج منه سنوياً نحو ٧٢ مليون طن فلا اجماع على اصله ونشوئه فقد اختلفت في تعليل تكوينه الآراء . فمن العلماء من يقول إن اصل البترول مواد معدنية ومن قائل أن اصله مواد عضوية

فيقول بعض انصار المذهب الاول ان اصل زيت البترول وجود مركبات الكربون والفلزات — كربورات الفلزات — مثل كربور الحديد والمنجنيز في بطن الارض على درجة عالية من الحرارة. ثم حدث ان طرأت على القشرة الارضية في بعض الجهات تغيرات سببها تقلصها فتسرب الماء الى هذه المركبات السابقة وتفاعلت معها تفاعلاً كيمائياً ونتجت كربورات الايدروجين التي تكاثفت واختلط بعضها ببعضها منتجة البترول . ومن انصار هذا المذهب منديلف العالم الروسي واضع الترتيب الدوري للعناصر . وحجته في ذلك وجود الزيت في بعض طبقات أرضية تابعة لعصور يتعذر علينا فرض تجمع مواد عضوية فيها تكفي لتكوين زيت البترول

وهنالك رأي آخر لعالم كيماوي مشهور وهو المسيو Sabatier صاحب طريقة تصلب الزيوت بالايدروجين الذي نال من اجلها جائزة نوبل المشهورة . يفرض هذا العالم وجود فلزات قلوية كالصوديوم والبوتاسيوم ثم كربورات هذا الفلزات في بطن الارض ولما تسرب الماء الى هذه الفلزات وكربوراتها تفاعلت معه وانتجت الاولى ايدروجين والثانية استلين اختلطا أحدها بالآخر وبمساعدة بعض فلزات اخرى مثل النيكل والكوبلت والحديد الموجودة طبعاً في باطن الارض اتحد الايدروجين والاستلين اتحاداً كيمائياً وكوّنا البترول الذي هو مخلوط من الايدروجينات المكبرنة

هذا وانصار المذهب العضوي يقولون ان اصل البترول من مواد حيوانية ونباتية تجمعت في الازمنة الجيولوجية الغابرة ثم تعفنت وتحللت وحصل فيها ما حصل للنبات عند تكوين الفحم الحجري وحدث بعد ذلك أن ارتفعت درجة الحرارة فخرج من هذه المواد البترول والغازات المختلطة به. والذي يعزز رأيهم هذا تمكنهم اخيراً من عمل سائل كالبترول الخام من فعل الحرارة

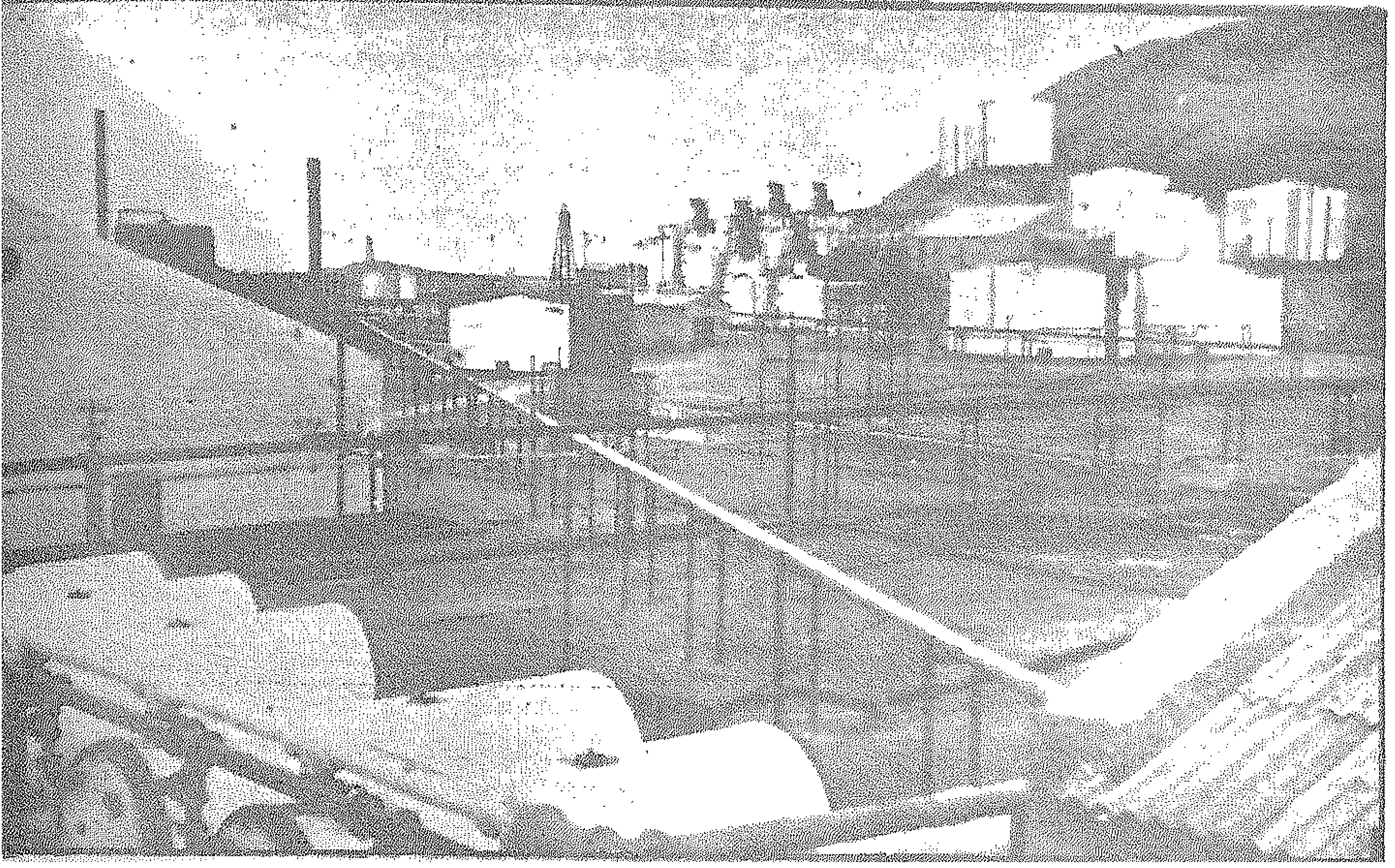

منظر عام لاجهزة فصل المياه عن البترول في الغردقة وفيها يستعمل
التيار الكهربائي العالي الضغط

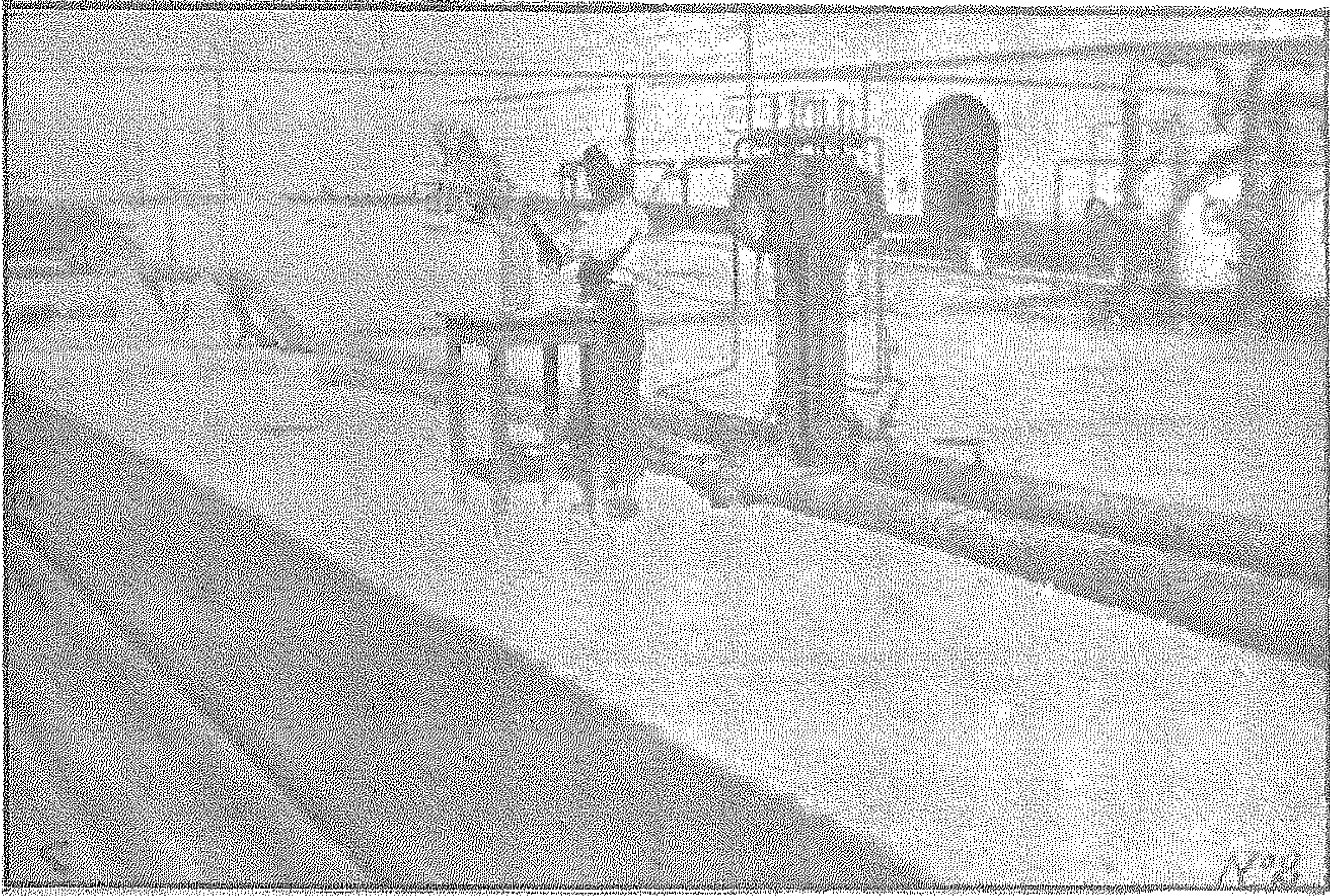

شاب مصري في الغردقة يقيس الكثافة النوعية للغاز الذي يستخرج الجازولين منهُ
ويستعمل بعد ذلك وقوداً

في الفحم الحجري . ومن احدث الآراء في نشوء البترول الرأي الآتي : —

عند درس فعل اشعة الراديوم الكيمائي وجدوا ان الاشعة الفا تحول غاز البرك (الميثان) الى مخلوط من المركبات يشبه البترول الخام . فهذا حدا بالبعض الى الظن ان اصل البترول مواد عضوية تحولت اولاً الى غاز البرك ثم تحول هذا المركب الى البترول بفضل الاشعة الفا المنطلقة من المواد المشعة في الصخور. والذي يعزّز هذا الرأي وجود الهليوم في كثير من الصخور

﴿البترول كمصدر من مصادر القوة﴾ : ان مكانة البترول في الوقت الحاضر تكاد تنحصر في توليد القوة والطاقة عند استخدامه كوقود سائلي . فان ٢٢ ./. من القوة التي يسخرها العالم المتمدن مشتق من البترول و ١٧ ./. منها مشتق من الفحم الحجري واكثر ما تستخدم المواد البترولية في تسيير حركة النقل بالسيارات والسفن والطائرات. واقل واحدة منها تستنفد مقادير هائلة منه

خذ السيارات مثلاً التي تسير بالبنزين . فقد دل الاحصاء الحديث ان عدد السيارات في العالم في اول يناير سنة ١٩٢٦ يعادل ٢٤٥٨٩٢٤٩ منها ١٩٩٥٤٣٤٧ في الولايات المتحدة فقط أي ٨٠ ./. من سيارات العالم ويليها بريطانيا العظمى ٨١٥٩٥٧ ثم فرنسا ٧٣٥٠٠٠ ثم كندا ٧١٥٩٦٢ ثم المانيا ٣٢٣٠٠٠

ونسبة الاشخاص للسيارة الواحدة في الممالك الكثيرة السيارات كالآتي : —

الولايات المتحدة	٦	فرنسا	٥٣
كندا	١٣	بريطانيا	٥٥
نيوزيلاند	١٤	المانيا	١٥٠
استراليا	٢٠	مصر	٨٥٠

وهذه النسبة ستنقص طبعاً بمر الايام اي أن عدد السيارات سيزيد بتقدم الحضارة ويقول الثقاة ان عدد السيارات في سنة ١٩٥٠ سيصير ٤٥ مليوناً اي بزيادة ٥٠ ./. لكل ٥ سنوات وهذا يتطلب ١٣٣ر١٩ مليون جالون من الجازولين

ويقدر ما استنفد من الجازولين (البنزين) سنة ١٩٢٥ (٩١٦٥ مليون جالون)

والسؤال الطبيعي الذي يدور في خلد كثير من الناس والذي يهم الكثير من الدول هو : هل يوجد في الارض مقادير من الوقود تكفي حاجات العالم المتزايدة ؟ . . يتفق كثير من العلماء على أن مقادير الفحم الموجودة تكفي الوفاً عديدة من السنين . اما موقفهم آزاء البترول فيختلف عن موقفهم آزاء زميله الفحم اختلافاً عظيماً . من السهل على العلماء الطبيعيين تعيين مناطق الفحم وتحديدها وتقدير سمكها ومعرفة مقدار ما فيها كما انه لا خوف على الفحم اذا ترك مكانه لحاجة المستقبل بخلاف ذلك البترول فكما ذكرنا انه من الصعب العثور عليه وتحديد مناطقه ومعرفة

مقداره . ثم اذا عثرنا عليه في منطقة ما لا يمكن تركه لحاجة المستقبل لانه بطبعه نزاع الى الهجرة فربما يهرب ولا نعثر عليه ويتكهن البعض أن موارد البترول ستنضب بعد مدة تختلف من عشر سنوات الى ٧٥ سنة وهذا لا شك أجل قصير لمادة من افيد المواد اللازمة للحضارة . لذلك يتحتم بذل الجهود من الآن للاستعاضة عنه بمصادر اخرى صناعية والا شلت يوماً ما حركة النقل من جراء قلة البنزين وزيوت الوقود اللازمة لحركات السيارات والسفن والطيارات

هذه اكبر مشكلة اقتصادية يواجهها العلماء الكيماويون محاولين حلها فترى بعضهم يبحث هل يمكن اختراع وقود سائل من خامات نباتية لتحل محل البترول — واول مااتجهت انظار هؤلاء الى الكحول والزيوت النباتية — وقد ثبت بعد البحث والتحري أن الكحول يصلح للاستعمال بعد خلطه ببعض السوائل كالبترول او البنزين نفسه إلاّ انهم لم يصلوا الى طريقة اقتصادية تجاري الزيوت البترولية والامل قوي في الوصول الى حل مرضٍ .وان مصر لتغتبط غاية الاغتباط اذا نجحت هذه الطريقة لان خامات الكحول متوافرة في بلادنا الزراعية بمقادير وافرة في قصب السكر وغيره

هناك مصدر آخر لاستحضار البترول يمكن ان يلجأ اليه عند الحاجة هو الطفلة الزيتية وهو نوع من الطبقات الارضية ، بتقطيرها كما نستقطر الفحم نحصل على سائل هو نوع من البترول

هذا وقد ولى بعض الكيمائيين وجوههم شطر الفحم الحجري لتحويل هذا الوقود الصلب المتوافر الى وقود سائل يسد مسد البترول .وليست هذه أول مرة اتجهت فيها انظار الكيماويين الى تحويل الوقود من حالة الى حالة . فقد حوّلوا قبلاً الفحم الى وقود غازي وهو غاز الفحم المستعمل في كثير من المدن للاضاءة والتسخين . والآن تتطلب الحضارة منهم تحويل الفحم الحجري الى سائل يقوم مقام البترول وزيوت الوقود المعرضة للنفاد

وقد اهتدى الكيماويون في اوربا وامريكا الى اربعة طرق مختلفة لتحويل الفحم الى بترول وسنتكلم على اثنتين منها لضيق الوقت

ولقد قدر الخبيرون من اهل العلم أن طبقات الطفلة الزيتية تعادل ٣٩٤ مليون طن في الولايات المتحدة واذا استخرج ما فيها انتجت ١٣٥ مليون برميلاً من زيت الطفلة على معدل جالون لكل طن الا انها تكلف كثيراً

***

﴿طريقة برجيوس Bergius Process﴾ وجد برجيوس الالماني ان نسبة الكربون (ك) الى الايدروجين (يد) في الفحم = ١٨ : ١ ونسبة ك : يد في الزيت البترولي = ٨ : ١ فلتحويل الفحم الى زيت يجب زيادة الايدروجين

وتلخص هذه العملية في ان يسحق الفحم سحقاً ناعماً جداً ويوضع في زيت ما . ثم يعالج بعد ذلك بغاز الايدروجين المضغوط في درجة ٤٥٠ م من الحرارة فيتحول جل الفحم الى زيت . بهذه الطريقة يمكن برجيوس من تحويل جميع انواع الفحم الى زيت وأقام لذلك مصنعاً في المانيا والزيت المجهز بهذه الطريقة يحتوي على : —

٣٠ ./. من الجازولين لتسيير السيارات

٣٠ ./. من المازوت لتحريك ماكينات ديزل

ويقول برجيوس ان ما ينتجه هذان الصنفان سيكون مليون برميل سنوياً من منتجات البترول المختلفة و ٣٠ ./. من الزيوت الثقيلة المستعملة في التسخين ولتشحيم الآلات والتي يمكن بعملية التجزئة التي ذكرناها من تحويل معظمها الى جازولين

وهذه العملية لم تثبت بعد على اسس تجارية رابحة ولكنها تتقدم بخطى واسعة نحو هذه الغاية . ويقال ان هذا العالم الالماني ظلّ سنين طويلة يبحث ويجرب حتى توصل الى هذه الطريقة تشد ازره شركة كبيرة يبلغ ما أنفقته على اتعابه وابحاثه ١½ مليون من الجنيهات ولا تستعظمنّ ذلك على الامة الالمانية فقد سبق وساعدت احدى الشركات الالمانية Bayer الكيماوي بمبلغ مليوني جنيه حتى كشف طريقة عمل النيلة الصناعية وأخيراً تكللت اعمالها بالنجاح واحتكرت هذه الصناعة وجنت منها الملايين العديدة من الجنيهات

***

طريقة فيشر (Fischer's Process): — هذه طريقة اخرى المانية اخترعها عالم الماني يدعى Franz Fischer وهي تختلف في طبيعتها عن السابقة وأن اتحدت معها في الغاية ألا وهي تحويل الفحم الى بترول — وتتلخص هذه الطريقة في تحويل الفحم الحجري اولاً الى غاز مائي بتسخينه وامرار بخار الماء عليه ثم تحويل الغاز المائي الى بترول بامراره على اكاسيد بعض الفلزات كالكوبلت والحديد والكروم التي تعمل عمل العوامل الوسيطة فتساعد على تحويل الغاز الى بترول من غير ان يصيبها تغيير كيمائي

هذه العملية كسابقتها بها يمكن تحويل الفحم الى زيوت وقود الاّ انها تكلف كثيراً

هذا ولا ينكر أحد اهمية تحويل الفحم الى زيت بطريقة اقتصادية ناجحة من الوجهتين الاقتصادية والسياسية . فقد قيل حقّاً ان البترول هو النقطة الحساسة في السياسة الدولية في الوقت الحاضر ومستقبل السلام معقود على حل هذه العقدة . واذا كانت الحال كذلك كان تحويل الفحم الى زيت بالطرق الكيمائية أفيد للعالم من مؤتمرات السلام ومؤتمرات نزع السلاح والمعاهدات الدولية التي تنتهي في آخر الامر الى احاديث خرافية او قصاصات ورق

بورجيه وكبلنغ

فن بورجيه

—

فلسفة كبلنغ

فن بورجيه

مات منذ بضعة أيام الكاتب الفرنسي پول بورجيه فانطفأت بموته شخصية تكاد تنفرد بطابعها بين رجال الادب الفرنسي المعاصر. فقد كان بورجيه بين الكتاب الاحياء أحد أولئك النفر القليلين الذين بحكم حياتهم الادبية المديدة قد عاصروا الجيل الحاضر والجيل الذي قبله. ذلك أن بورجيه الذي ولد عام ١٨٥٢ قد أخرج للناس اول كتاب له وهو في الحادية والعشرين من عمره أي منذ ثلاثة وستين عاماً. فتاريخ الادب قد ذكر اسمه بين كتّاب القرن التاسع عشر الذي قضى فيه ما يقرب من خمسين عاماً من حياته قبل أن يذكره المؤرخون الحديثون في عداد الكتّاب المعاصرين. وكما كان بورجيه بحكم شيخوخته الادبية ليس أديباً معاصراً فقط، كذلك كان بحكم تفكيره مفكراً لا يعيش في العصر الذي نعيش فيه. لقد ظل بورجيه حتى موته يحيي بأفكاره في شبه عزلة. يستمد لها الوحي والالهام من كتب القرون الغابرة. ظل حتى موته يؤمن بالملكية المطلقة وسلطة رجال الدين ويدعو إلى العودة اليهما في شعب جرت مبادىء الديموقراطية في دمه وروحه .... من ها تين الناحيتين يختلف بورجيه عن ذلك العدد الزاخر من الكتّاب المعاصرين الذين ترعرعوا في ظلال العصر الجديد فنهم من احتفظ في آدابه بفكرة (الفن للفن) وبقي بعيداً عن محيط الحياة الصاخب. ومنهم — وهم الغالبية — من أبت شدة احساسه وقوة شخصيته أن يعيش الى النهاية على هامش الحياة. فنزل الى معتركها. ولما زلزلت آذانه صرخات الصرعى وأوجاع المتألمين في مجتمع يعج بالنقائص تردد الصدى في فنه الخالد واذا القلم بين يديه كالمعول يهدم به الطالح ويبني الصالح

على ان بورچيه كان يتفق والكتاب المعاصرين — بل كان في طليعتهم — من حيث اقامة فنه القصصي على أساس علمي محض . فقصصه جميعاً تدور حول تحليل العواطف الانسانية المتضاربة وغرائزها الاولى وخصوصاً الغريزة الجنسية وهو في فنه دقيق الملاحظة ، عظيم القدرة على التعمق في خفايا النفس مما قلّ ان نجد له نظيراً . ولعلّ هذا هو السبب في أن القارىء الذي لم يرزق طول الاناة والصبر على قراءة القصص التحليلية لا يلبث ان يشعر بالملل والسأم . لان إنتاج بورچيه القصصي رغم غزارته ما هو الاّ وصف وتحليل حالات متنوعة من النفس البشرية

بدت ظاهرة التحليل النفسي الطاغية على فن بورچيه في أول اعماله الادبية حين بدأ حياته الكتابية بنشر مجموعة شعرية سماها (على شاطىء البحر) Au bord de la mer (١٨٧٣) ثم اتبعها بأخرى عنوانها (الحياة القلقة) La vie inquiète (١٨٧٤) ففي كلتا هاتين المجموعتين وما تبعهما حاول بورچيه أن يظهر ما وراء ذلك الطلاء الاجتماعي الذي يستر طبيعتنا الاولى من نزعات جياشة ورغبات لاتخمد فأصاب في محاولته نصيباً وافراً من التوفيق . على أن الشعر وما فيه من تكلف وتقييد لم يكن يتفق وأديباً من نوع بورچيه ، يسعى لتمزيق الحجب التي كست بها المدنيةُ الشخصيةَ الانسانية ، يحاول أن يتغلغل الى ما وراء الصدور . يكشف النيّات والاحساسات الغامضة الملتوية . ثم يعمد الى تحليلها والوقوف على مبعث وجودها . إن هذه الموهبة لهي اكثر صلة بطبيعة (الناقد) ومهمة (القصصي) . لذا سار بول بورچيه في هذين الاتجاهين . وبلغ فيهما شأواً عظيماً

ففيما يتعلق بالناحية النقدية من فنه فقد بدأها بورچيه بكتابة دراسات عن كتّاب القرن التاسع عشر وهو القرن الذي عاش فيه النصف الثاني بأكمله . وكان من بين هؤلاء الكتّاب الذين تأثر بهم بودلير وستندال وتين . ولا تزال هذه الدراسات حجة ومرجعاً في تحليل من كتب عنهم . أما فيما يتعلق بفن بورچيه القصصي فقد بدأه بعد زيارته لانجلترا عام ١٨٨٤ بقصة (الذي لا يُصلَح) L'Irréparable (١٨٨٤) وهي اولى قصصه القصيرة التي كتب منها العدد الوافر . أما قصصه الطويلة فقد بدأها بقصة (لغز قاس) Cruelle Enigme (١٨٨٥) وتلتها (جريمة حب) Un Crime d'amour (١٨٨٦) ثم (أندريه كورنليس) André Cornélis (١٨٨٧) ثم (أوهام) Mensonges (١٨٨٧)

لم يكن بورچيه الى ذلك الوقت قد بلغ بعد الشهرة التي أعدها له القدر حتى ظهرت قصته (التابع) Le disciple (١٨٨٩) ثم تلتها (المرحلة) L'Etape (١٩٠٢) ثم (طلاق) Un divorce (١٩٠٤) وعندئذٍ ذاع اسمه ذيوعاً كبيراً وكثر تحدث الاندية الادبية والنقّاد به . ولقد كان الباعث على ذلك أمران : الاول عمق التحليل الذي اثبت نبوغ بورچيه كعالم نفسي إلى جانب براعته

كقصاص : والثاني أن في هذه القصص الثلاث اوضح بورجيه آراءه الاجتماعية والسياسية بصراحة لا لبس فيها ولا مواربة بعد أن كانت تجول في صدره — من دون ان تجلى تماماً — مدى عشرين عاماً

***

ومما لا شك فيه أن الآراء الاجتماعية والسياسية التي يؤمن بها مفكر من المفكرين أو كاتب من الكتاب إنما هي قبل كل شيء آخر وحي نفسيته الخاصة التي تولد معه وتجري مع دمه . فمن الناس من يولد وفي طبيعته ميل غريزي الى الاستبداد ونزوع الى الظلم والسيطرة على الضعفاء . بينما يولد آخرون واسعي الصدر محبين للمساواة ، تسود أحكامهم عاطفة العدل . أما أثر البيئات وضروب الثقافة فيقع في المرتبة الثانية من قوة التأثير ولا يمكن أن يطغى طغياناً كاملاً على الطبيعة الانسانية. واذا كان لهذا الاثر من قوة ظاهرة فعالة فهو حين يكون موافقاً لطبيعة الشخص وميوله الغريزية فعندئذٍ يسوقها الى الامام ويعينها على المضي في طريقها حتى النهاية

كانت نزعة بول بورجيه الرجعية تبدو منذ اوائل أعماله إذ كان فنه قاصراً على وصف الطبقة الارستقراطية والاعتزاز بها والدفاع عنها . وقد يكون السبب الذي منعه من ان يدعو لافكاره جهاراً في أدبه هو فهمه لطبيعة شعبه الفرنسي الذي يقدس مبادىء الحرية والمساواة . على أن هنالك سبباً آخر كان يحول بينه وبين تسخير فنه لبث فكرته السياسية . ذلك انه كان هناك ما يشبه التقليد بين الكتاب الفرنسيين خلال القرن التاسع عشر وهو أن يكونوا في فنهم بعيدين عن التأثر بالمشكلات الاجتماعية والسياسية فكان لكل منهم رأيه الخاص من دون أن يكون لذلك الرأي أثر ظاهر في أدبه الذي بقي فناً خالصاً . على أنه في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حدثت في فرنسا حوادث سياسية مخزية كفضيحة بنما ومأساة دريفوس زعزعت عند عدد من الكتاب الثقة في النظام الجمهوري وجعلت مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى التي هي أساس هذا النظام موضعاً للمناقشة والتفنيد . على أن الغالبية العظمى من الكتاب بقيت مؤمنة بقيمة النظام الجمهوري وفائدته مرددة أن ما حدث ما هو إلا طوارىء عارضة، وان إصلاحها يسير . ولا يمكن مطلقاً أن تكون سبباً في قلب نظام قام على تضحيات مئات الألوف من الفرنسيين . ولقد كان الكتاب الساخطون على النظام الجمهوري في إثر الفضائح السياسية فريقين متناقضين كل منهما يطلب نظاماً اجتماعياً يختلف كل الاختلاف عن النظام الذي يطالبه الفريق الآخر ويرى فيه الصلاح والقضاء على الفوضى القائمة . فالفريق الأول كان يرى في النظام الاشتراكي خير ضمان من عبث العابثين وكان زعماء هذا الفريق أناتول فرانس وجان جوريس ورومان رولان . اما الفريق الثاني فكان يطالب رجعية تعود بفرنسا إلى ما قبل الثورة الكبرى أي إلى حكم الملوك المطلقين

ورجال الدين . وزعماء هذا الفريق پول بورچيه وموريس باريس وشارل موراس . ومنذ ذلك الوقت جعل كل من الفريقين فنه ميداناً للدعوة لعقيدته فخرج ادبهم من أن يكون فناً للفن إلى معالجة مشكلات المجتمع ومحاولة إصلاحه بالطريقة التي يراها كل فريق منهما

ولقد كان هذا الذي حدث نقطة تحوُّلٍ هامة في طابع الآداب الفرنسية فيما بعد . فقد ساعدت نكبة الحرب الكبرى وما سببته من أزمات اقتصادية لا نهاية لها وبؤس جاثم على صدور ملايين البشر على ازدياد أنصار الفريق الأول — فريق فرنس وچوريس وورولان — ازدياداً عظيماً نلمسه الآن في أعمال أعاظم الكتّاب الفرنسيين من شيوخ وشبان . بينما وقف الفريق الثاني وعلى رأسه بورچيه عند نقطة ابتدائه . لم ينله أقل تقدم . بل ازداد ضعفاً بابتعاد الحوادث التي سببت هذه الرجعية وعلى ضوء الحقائق الملموسة

في كل من القصص الثلاث (التابع) و (المرحلة) و (طلاق) نرى بورچيه يتمسك بأمرين يدعو لهما ويعدد ما يراه فيهما من فضائل : الامر الاول نظام الحكم الملكي القديم . والامر الثاني التقاليد الدينية قبل ان يدخلها الاصلاح والتطور . فبينما نراه في قصة (التابع) يوغل في امتداح الطبقات الارستقراطية ويعتبر التصويت العام خطراً قومياً . نراه أيضاً في قصة (المرحلة) يحاول أن يثبت ان هناك حدوداً لا يجب أن تتعداها الطبقات الفقيرة وأن (المرحلة) التي تفصل بين هذه الطبقات والطبقات الارستقراطية لا يمكن ان تعبرها الطبقة الاولى دفعةً واحدة

وقد جعل بورچيه بطل قصة (المرحلة) — ويدعى فكتور فيران — أحد أساتذة الجامعة المشهورين في فهم الفلسفة الكاثوليكية . وهو حين يصفه لنا يقول (إنه ليس تقليدياً في الدين فحسب بل في السياسة أيضاً . وهو لا يتكلم عن الثورة الا ليذكر العقائد الجامدة الفاسدة في ثورة ٨٩) فإذا سمعنا الاستاذ فيران نفسه يتكلم رأيناه يعلن ان (جميع القوانين التي نعيش في ظلها منذ مائة عام هي قوانين الغرور والكبرياء) ثم حين يقف فيران في صف أعداء دريفوس — وهم كما نعرف قليلون بالقياس الى انصاره — لا يتردد پول بورچيه في ان ينسب ذلك إلى (عبقريته الوضاءة الرزينة) ويدعم ذلك بتأييد آرائه فيقول (إن فرنسا تغرق نفسها في نظام برلماني عظيم التطرف . نظام يقوده أفراد انتُخبوا بواسطة التصويت العام . وبعبارة أخرى تقوده أغلبية من المشعوذين أرسلتهم أغلبية من الجهلاء)

وفي قصة (طلاق) نرى بورچيه يقف فكرتها على الدعوة للكنيسة الكاثوليكية . وفيها يعتبر أن الطلاق مهما كان سببه جالب للكوارث والنكبات

***

من ذلك نرى أن فن بورچيه تقليدي محض . ينكر كل تطور في السياسة والدين أتتجته

الافكار الديمقراطية الحديثة . والحق أن طغيان هذه النزعة الرجعية الجامدة على فنه منذ ظهور قصة (التابع) قد أساء اليه إساءة ليست يسيرة . وخصوصاً الى الناحية القصصية منه

لقد كان بورجيه أديباً ومفكراً . ونحن الآن بموته لم نفقد فيه ذلك المفكر الممتاز الذي كانت تُسْعَد قَدعايه وعلى نظرائه الآمال لأنه يمثل روح العصر الحاضر كما كانت الحال مع معاصره أناتول فرانس مثلاً . ذلك أن الأفكار التي كانت تطبع أدب بول بورجيه لا تمت الى الفلسفة الاجتماعية الجديدة بصلة . وهي لذلك لم تكن هزيلة في فرنسا فحسب بل في العالم المتمدن أجمع . والانسانية التي تسير كل يوم إلى الامام خطوة جديدة ليست في حاجة الى الافكار التي تعود بها الى الوراء قروناً . . . انما الذي فقدناه حقاً بموت بورجيه هو بورجيه الاديب . بورجيه الناقد وبورجيه القصصي الذي كان بدقة وصفه وعمق تحليله من اعظم كتّاب فرنسا في تاريخها الحديث

مصر علي كامل

فلسفة كبلنغ

وبعيد وفاة بورجيه فقدت الآداب العالمية بوجه عام والادب الانكليزي بوجه خاص رديرد كبلنغ ففقدت بهِ الامبراطورية البريطانية لسانها البليغ والادب القصصي قصّاصاً بارعاً وملفّق خرافات طالما ادخلت النشوة على نفوس الصغار الذين قرأوها . واذا كان التحوّل الذي يصيب الحضارة من شأنهِ ان يفضي الى اهمال النزعة الامبراطورية في ادب كبلنغ فان براعتهِ في تلفيق هذه الخرافات ستخلد ما زال في الدنيا صغار يقرأون اللغة الانكليزية

كان كبلنغ ملكاً من ملوك الكلام المنظوم والمنثور ينشئ القصص الطويلة ، (اشهر قصصهِ قصه كِمْ Kim) والاقاصيص وينظم القصائد ، فيقرؤهُ الوف الالوف من الناس الذين يقرأون الانكليزية في مشارق الارض ومغاربها . يقرأونهُ مختارين مسرورين دهشين ، لا لبلاغة خاصة في اقوالهِ تجري مجرى الاساليب المدرسية البليغة في الادب الانكليزي ، بل لانهُ يقول لهم ما يودّون سماعهُ ، ويصف لهم طبائع الناس واحوال الزمان والمكان وصفاً ينطبق على الحقيقة او على ما يحسبهُ السواد من الناس حقيقةً . فانهُ كان يقول لهم في مستهلّ حياتهِ الادبية ، ان البيض ارباب الشعوب الصفر والسود فعليهم ان يتسلطوا عليها ويعتنوا بها كما يتسلط الله على عبادهِ ويعتني بهم ، وان الكون لا ينتظم بالحرية والاباحة ، بل بالقانون والنظام والطاعة . واي ملك لا يرضيهِ هذا القول ، واي متسلط لا يودُّ نشر هذه المبادئ

فقد قال في قصيدة عنوانها « حمل الرجل الابيض » : — احملوا حمل الرجل الابيض

ردیرد کپلنغ
Rudyard Kipling

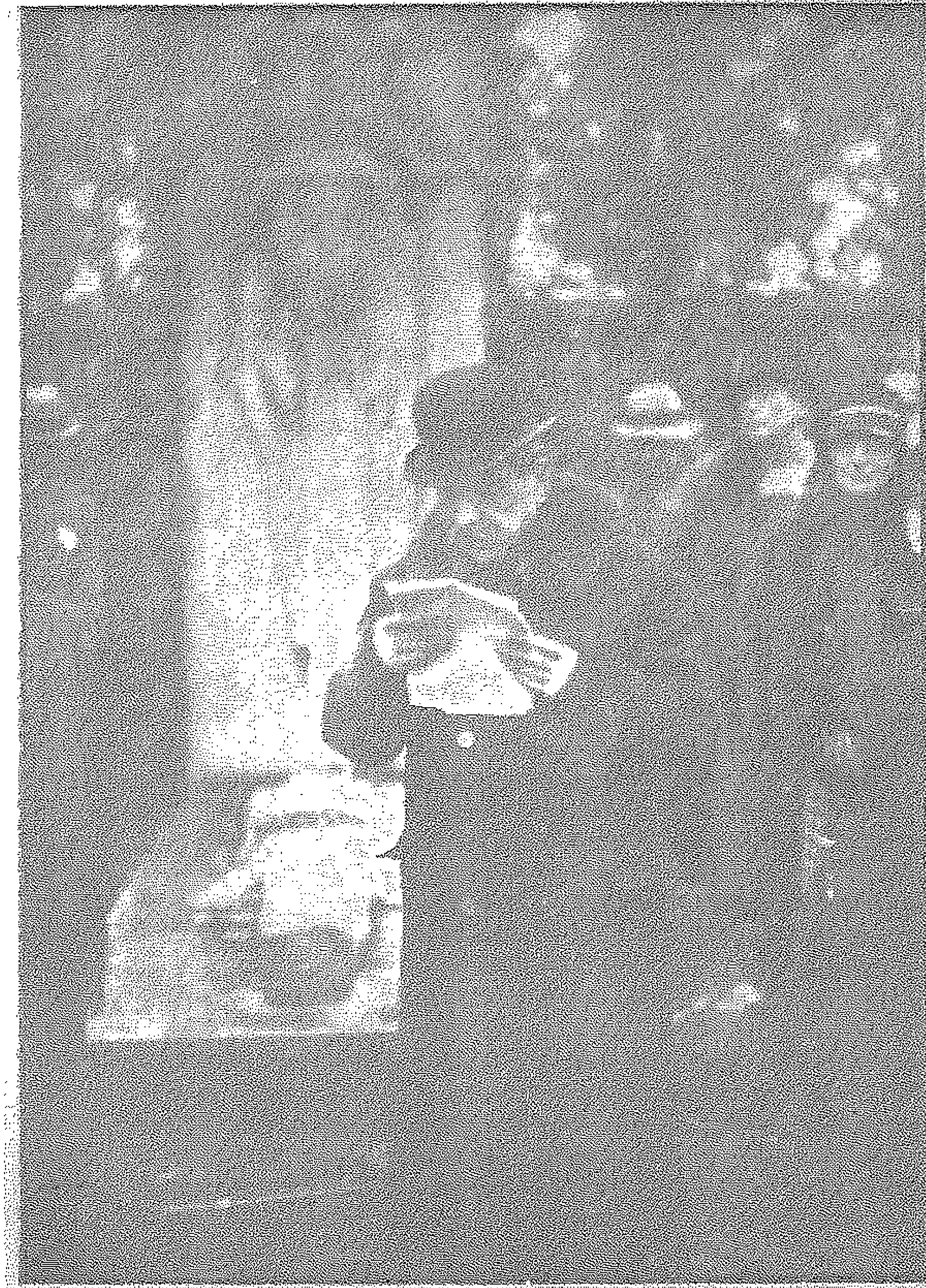

پول بورجيه
Paul Bourget

آخر صورتين لهما قبيل وفاتهما من مجموعة جريدة الاهرام الغراء

وأضرموا حروب السلام الطاحنة . اشبعوا فم الجوع وضعوا حدًّا للامراض . فاذا اقتربتم من محجتكم اغمدوا سيف القناعة والجهل لئلاً يقضي على ما امّلتموه

«احملوا حمل الرجل الابيض . ولا ترضوا بما هو دون ذلك . ولا تملّوا عملكم وتحاولوا ستره بستار الحرية . إذ بكل ما ترومونه أو تهمسون به او تعملونه او تهملون عمله ، ستضعكم هذه الشعوب الصامتة ، انتم وربكم في ميزان الحكم »

وقد سددت سهام النقد اللاذع الى هذه القصيدة ، فقال احدهم فيها انها قصيدة رياء وعارضها بقصيدة اجراها على لسان السود مخاطباً البيض ، وجعل آيتها التذمر والتبرم بفتح البلدان التي يقطنها السود واباحتها للسموم والخمور وغيرها من ملابسات المدنية الحديثةالتي تهبط بالنفوس الى الدرك الاسفل ، على نحو ما مثلت هذه الاوزار في شريط « الاشباح البيض » . ولا ريب عندنا في انه لو نظم كبلنغ او غير كبلنغ مثل هذه القصيدة الآن ، لاهملت كل الاهمال . فالحال قد تغيرت ، وأصبحت الصورة السائدة لعلاقة البلدان الحاكمة بالبلدان المحكومة ، علاقة تعاون بين الاخ الاكبر والاخ الاصغر ، لا علاقة السيد بالمسود . وإذا كانت هذه الصورة لم تتضح كل الاتضاح بعد ، فلانَّ نفراً من الحكام ، لا يزال متأثراً بتلك الصورة الباهرة الالوان ، التي رسمها كبلنغ وتغنى بها

***

كان كبلنغ يخاطب الشعوب المتكلمة باللغة الانكليزية بوجهٍ خاص ، والشعوب البيض بوجهٍ عام نثراً ونظماً ، غير متوخٍ غريب الالفاظ ومهجور التراكيب ، حتى ولا اساليب الكتابة الكلاسيكية بل كان يعمد الى اللغة المحكية المتعارفة . فكان اذا ادخل في قصةٍ من قصصه كنّاساً انطقه بما ينطق الكنّاسون واذا ادخل فيها بحريًّا انطقه بما ينطق البحّارة . بل ان طائفة من اشهر قصائده كتبها بلغة الجنود في الثكنات وهي التي اسمها (Barrack Room Ballads) . وقد أبدع كل الابداع في وصف نفسيتهم فيها . وكانت كثرة الحوار في قصصه واقاصيصه ، وبراعتهُ فيه ، مما يقتضي هذا الضرب من الكتابة ، ليسبغ على القصة او الاقصوصة ظلال الحقيقة . وكذلك يشعر القارىء وهو يقرأ كتابات كبلنغ كأنه يرى هؤلاء الناس ويسمع كلامهم الذي يتكلمون به عادة ولا يقرأ في حوارهِ كلمة يستغرب صدورها منهم . وهذه الصفة تجعل ترجمة كتاباته متعذرة اوصعبة كل الصعوبة على الاقل . وكان يتصف بذاكرة قال بعض اخدانه فيها انها « ذاكرة مصوّرة » اي ان المشاهد كانت ترتسم في ذهنه بحذافيرها ، فاذا وصف مدينة في اميركا ، او قرية في بلاد الهند ، او غابة من الغابات الملتفة في المناطق الاستوائية ، او سفينة في عرض البحر ، حسبته مصوّراً يصوّر لك ما يريد وصفهُ بألوانهِ الطبيعية وينفخ فيه نسمة الحياة

كان ينظر الى العالم نظرة الرجل العملي فيقبلهُ كما هو بما فيهِ من مساوي وحسنات وحقائق واوهام تتقاذف الانسان في تيارها المصطخب وتبتلعهُ في غالب الاحيان . ومن العبث في رأيهِ ان يحاول الانسان تغيير المجرى الذي تجري فيهِ صروف الاقدار . فهو من هذه الناحية شبيه بهاردي . ولكنهُ على طرف نقيض منهُ في ان كبلنغ يأخذ الارض كلها مسرحاً لابطال رواياتهِ وبطلاتها ومصدراً لاشعة فكرهِ وخيالهِ في حين ان هاردي يقنع بان يدرس منطقة ضيقة من مناطق الريف الانكليزي فيصف دقائقها ويخلص منها إلى النتيجة نفسها. وكبلنغ يرى انهُ اذا كان في امكان انسان من الناس ان يزيد الثروة الانسانية برأيٍ او مذهبٍ او استنباط وحاول ان يفعل ذلك في غير الزمن المعدّ لهُ ذهب عملهُ ادراج الرياح . لذلك رسم في كتابهِ « دبتس وكردتس » Debits and Credits صورة كاهن من كهنة العصور الوسطى حطّم مكرسكوبهُ لانهُ جاءَ قبل أوانهِ . وقصَّ في كتابهِ « ريوردز آند فاريز » Rewards and Fairies حكاية بحّار في عصر الملكة اليصابات تخلّى عن فكر خطر لهُ وهو انشاء سفن مدرعة بالحديد لان زمن المدرّعات لم يكن قد جاءَ بعد . ولكن الانسان يجب ألاَّ يتبرَّم . لذلك ينطق احد ابطالهِ بقول مأثور : « حقي ! انا لن أذهب باكياً حقي امام هذا او امام ذاك كأني لا استطيع ان اطالب بحقوقي . حقوقي ! بحق الله العظيم انا رجل ! » . وقولهُ على لسان احد ابطالهِ من رجال العمل في الهند : « شكراً للربّ ، ليكن المصير ما كان . فانني كافحت مع رجال »

فهذه السمة التي يتسم بها ابطال كبلنغ ، هذه الشخصية الانوفة المترفعة الممتنعة في حصنها، هي اساس الارستقراطية التي يعدّها اهم العناصر في « لعبة الحياة »

وقد وقف قصيدتهُ المشهورة « اذا » على وصف الصفات التي يجب ان يتصف بها الرجل الرجل ، واليك بعضاً مما جاءَ فيها : « اذا كنت قادراً ان تحتفظ برباطة جأشك حين يضطرب كل من حولك . اذا كنت تثق بنفسك حين يرتاب فيك الناس . اذا كنت قادراً ان تحلم وألاَّ تكون عبداً للاحلام . وان تفكر من غير ان تجعل الافكار غايتك . اذا كنت تستطيع ان تواجه الفوز والاخفاق وتعامل ذينك الدجالين على السواء . اذا كنت تستطيع ان تجمع كلَّ ما كسبتهُ وتغامر بهِ مستعدًّا ان تخسرهُ وتبدأ من جديد من غير ان تبس بكلمة واحدة عن خسارتك . اذا كنت قادراً ان تماشي الجماهير من غير ان تتخلى عن فضيلتك . وان تمشي مع الملوك من غير ان تفقد اتصالك بالجمهور . اذا كنت تستطيع ان تملأ كل دقيقة لا تغتفر ستين ثانية من الدأب . فالملوك والارباب والحظ والنصر خدم لك طائعون والارض لك وكل ما فيها . وما هو اكثر من ذلك . كنت رجلاً يا ابني »

فالارستقراطي في رأيهِ مهما يكن جنسهُ او عقيدتهُ رجل كامل . فهيدن الفلاح

ارستقراطي صميم وهو يبسم بسمته التي تنمُّ على معرفة وازدراء حين يرى الملاك يتغيرون من رومان ونورمان وسكسون والارض ثابتة لا تحول . هذا وغيره من ابطال كبلنغ ارستقراطيون في رأيه لانهم لا يعنون بأشخاصهم قدر عنايتهم بالمبادىء التي تمثلها اشخاصهم ، لانهم اسياد كرام يقبلون على لعبة الحياة وملء افواههم الابتسام، لا يطلبون عون احد فيها ولا ينتظرون جزاء احد حين تكلل اعمالهم بالفوز. بل في النادر ما تقع على بطل من أبطال كبلنغ يتحدث او يباهي بما فعل . «فالانسان يجب ان يتألم اولاً ثم يجب ان يتعلم عمله ثم يجب ان يتعوّد تلك الكرامة التي تجلبها المعرفة » : هكذا يقول كبلنغ

وكبلنغ ليس رجلاً يتعلق بأهداب المذهب المحدود والعقيدة الخاصة . فهو القائل اذا خلا الانسان في محراب الليل اصبحت كل العقائد في نظره سواء . انه لا يجلّ مذهباً الا بقدر ما يخلق ذلك المذهب في صدور معتنقيه من الفضائل التي يجلها ويعليها . وهو يقول«ان الايمان الذي يحمل الانسان على التعلق به ولو خسر نفسه لهو الايمان الجدير بالاعتناق »

ورأيه في المسيحية ليس مما يعلي شأنها لانه يزعم انها لم تنزل من عقول المسيحيين «الخوف من النهاية » وان العالم الغربي يتمسك بالخوف من الموت اكثر من تمسكه بالرجاء من الحياة ! ولكنه يعطف على عقيدة كل انسان اذ يرى ان لا بدّ في هذه الحياة من رادع او وازع لذلك تراه يكتب في وصف هيكل من هياكل برما « كن عطوفاً حين يصلي الوثني لبوذا في كاماكورا»

وهذا يعود بنا الى ما قدمنا عليه الكلام في مفتتح هذا المقال من علاقة كبلنغ بالامبراطورية البريطانية . لاننا حين نذكر دين كبلنغ نذكر دين الامبراطورية البريطانية اذ يتعذر فصل كبلنغ الشاعر والمؤلف عن الامبراطورية البريطانية . وقد قال فيه روبرت غريفس « ان كبلنغ هو الناحية الادبية من الامبراطورية » . فكأن رسالته في الحياة كانت ربط اجزائها برابط متين من الاخاء . كذلك لا نستطيع الا ان نقول ان مشهد الامبراطورية بهره ببلدانها المترامية الاطراف في كل انحاء المعمور واساطيلها الضخمة البحرية والتجارية تربط هذه الاجزاء بروابط المصلحة والثقافة . إلاّ ان رأيه في الامبراطورية ونظره اليها ليس نظر رجل سياسي كلّ همه ان يرى بقعة حمراء جديدة في خريطة العالم . ولكن بريطانيا في نظره الآهة يجلها ويعتبرها كرجل متفنن لانها تحتم على اتباعها ان يتصفوا بصفات العمل والصبر وانكار الذات والامانة والكرامة التي يطلبها هو في الرجل الارستقراطي ويضفيها على اعظم ابطاله في رواياته واشعاره

***

لذلك يدعو الى تأييد الامبراطورية ليس لان بناءها عمل عظيم بل لانها اداة فعّالة في حشد قوى الانسان لمغالبة الكون وترسيخ قدمه في فضائه

عجينة تحقيق

الشخصية

النيجاقـُل او المولاج

لعوض جندي

تشرفت يوم الجمعة ٢٠ ديسمبرسنة ١٩٣٥ بزيارة الطبيب النطاسي «محمد عماره» الاستاذ المساعد للطب الشرعي في كلية الطب الملكية المصرية ، وغيرها من معاهدنا العلمية ، وذلك في دارهِ العامرة تجاه مستشفى الدكتور پاپايوانو في الدقي بالجيزة . واتفق ان كان بيدي حينئذٍ جزءٌ من مجلة «الميكانيكا العامة الامريكية » ، التي اعتدت قراءتها . وما لمحها في يدي ، حتى قال « لعلَّ هذه المجلة تحوي شيئاً ذا علاقة بالطب الشرعي ، اذ اذكر اني قرأت فيها ذات مرة خبراً خطيراً وهو : — « يعتقد بعض الباحثين في المانيا أن شبكيتي عيني القتيل ترتسم عليهما صورة قاتلهِ »

فدفعت المجلة اليه ليفحصها . فما لبث أن اطلع على فهرسها حتى ألفاه يحوي بحثاً قويماً خاصًّا بتحقيق الشخصية مما يعنى بهِ حضرته فقرأه . وما فرغ منه حتى سألني . . الا تعرف النيجاقل ؟؟ فقلت : أجل . وقد قرأت عنها في شهر ابريل من سنة ١٩٣٠ وذلك في مجلة العلم العام الامريكية ثم كتبت فيها وقتئذٍ نبذة ، نشرتها مصورة ، احدى المجلات العلمية

والنيجاقل Negacolle هو العجينة الغروية التي تستعمل لالتقاط آثار المجرمين وتحقيق شخصية المجهولين من الموتى والقتلى . وسألته ما رأيك يا استاذ في تلك العجينة الحديثة ؟؟ فقال : —

« كنت في فيينا منذ خمس سنين فسمعت خبرها ، وقرأت تفصيلات منافعها ، فلم يسعني الاَّ ان كتبت الى مخترعها فبعث اليَّ بمقادير منها استعملتها في تحقيق الشخصية ، فنجحت . وهأنذا استعملها في كلية الطب » ثم فتح خزانة كتبهِ وتناول منها صندوقاً من الورق المقوَّى فأخرج منه نموذجاً من النيجاقـُل وأرانيهِ فاذا به كتلة أشبه بشمع عسل النحل الاصفر واخذ يشرح لي طريقة استعمالها . ثم عرض عليَّ تمثال كفٍّ بشرية متختمة ، مصنوعة من النيجاقـُل ، فرأيتها وفق الاصل البشري تماماً ، فشكرت له رائع بيانه ، وجم أدبهِ وحسن استقباله لزائريه واصغائه

لملاحظاتهم، ووعدته بالكتابة في هذا الموضوع في المقتطف، حامل قبس العلم والمعرفة في الاقطار الشرقية لقراء العربية منذ ستين سنة . فأقول :

تتقنع اللصوص بوجوه مستعارة، ستراً لقسماتهم، واخفاءً لشخصياتهم، فيفرون من شراك العدالة، ويهربون من غيابات السجون، وعلى النقيض من ذلك، غدت الوجوه المستعارة، المتباينة الانواع، وسيلة من وسائل تحقيق شخصيات الجناة، وذريعة من ذرائع اداناتهم . ومما يذكر في هذا الصدد الوقائع الآتي بيانها : —

سطا لص من عهد قريب على دار في ولاية ميسوري من اعمال ولايات امريكا المتحدة، باذلاً جهد استطاعته في اجتناب ترك أية بصمة من اصابع يديه في اي مكان او على اي اثاث، لئلا تنم عليه فتوقعه في قبضة العدالة . بيدانه نسي بصمات قدميه فلم يكترث لها، فكان ذلك النسيان، الذي لم يكن في الحسبان، سبب اثبات جرمه، وزجه في السجن . ذلك ان الخبر نمى الى المحققين فخفوا الى مكان السرقة، باحثين عن اي أثر من آثارها، فلم يهتدوا الى شيءٍ ذي بال، في تلك الدار غير انهم عثروا، في فنائها بالتربة اللينة على بصمة كعب ونعل حذائي السارق فاستدلوا بهما عليه وانزلوا به العقاب الواجب

ولو وجد المحققون دليلاً كهذا منذ بضع سنين، لما كانوا يستفيدون منه الفائدة التي يستفيدونها الآن، اذ كان مستحيلاً عليهم الاحتفاظ به، اما في هذا الحين فقد تغيرت الحال باختراع العجينة التي تلتقط بصمات الأصابع والاقدام بل كل أثر من الأثار حتى الشعر، وفقاً لأصله

وحدث في تلك السرقة أن التقطت بصمة نعل الحذاء وكعبه ثم حفظت في اضبارة التحقيق وسرعان ما ضاع ذلك الأثر من الارض واستمر التحقيق والبحث والقبض على الاشخاص المشتبه فيهم فكانوا ينكرون تهمة السرقة المعزوة اليهم . فلم يرَ المحققون محيصاً عن فحص احذيتهم حتى عثروا على نعلٍ لأحدهم فتبين انها مطابقة من كل الوجوه للبصمة التي التقطتها العجينة من الطين فووجه المتهم بتلك البينة فلم يسعه الاّ الاعتراف بالسرقة

وعثر الشرطة في غابة بضواحي فينّا على جثة شاب قتيل، زرقاء اللون، منتفخة الاوداج، انتفاخاً يعادل ضعفي حجمها الطبيعي، وشرحوا الجثة فظهر لهم ان القتيل مات موتاً اسود (مخنوقاً) . وشاهدوا بصمات اصابع القتلة، جلية على حلق القتيل . فنقلوا الجثة الى معرض الجثث المجهولة حتى يتعرفها اعضاء أسرته . وعندئذ عمد الشرطة الى التليفون حيث خاطبوا احد المختصين بتحقيق الجنايات، فوافاهم رجل طويل القامة، عريض المنكبين، ملتحٍ، اذ دخل ذلك المعرض وعاين الجثة ثم شرع في عمله بكل هدوءٍ وسكينة فأخرج من كيسٍ كان معه، حقّاً محتوياً على مادة كأنها لحم نيّء مفروم فسخنها ثم بردها حتى صارت لينة فالصقها بخفة على وجه

الميت وعنقه ، وجاء بمحقنة واسعة الفوهة فملأها من تلك المادة ورشها على رأس القتيل وعنقه وقضى في عمله هذا نصف ساعة ثم أمر بدفن الجثة في عصر ذلك اليوم نفسه

وفي صباح اليوم التالي وصل الى مقر الشرطة تمثال نصفي للقتيل ، آية في الاتمان فلم يمض اسبوع واحد حتى تمكن اهل القتيل من تحقق شخصيته عند رؤية ذلك التمثال النصفي . وبعد بضعة ايام أتيح لضباط الشرطة القبض على الجاني ، متوسلين الى بغيتهم ببصمات اصابعه التي تم عليه . فكانت تلك التجربة الناجحة ، الاولى من نوعها ، في حسر اللثام عن الجرائم وتحقيق شخصيات القاتل والمقتول بتلك العجينة التي اخترعها الدكتور الفونس پولر Dr. Alphonse Poller استاذ علم التشريح في فينا . ثم جعل شرطة الحاضرة النمسوية يستخدمون تلك الطريقة بدلاً من طريقة « برتيّون » لتحقيق الشخصية ببصمات الاصابع

وقد سماها نيجاقل وهي صالحة لصنع تماثيل الاحياء والاموات . وهي مادة لا يزال مخترعها محتفظاً بسر تركيبها . ويتاح لصقها بعد تطريتها بالتسخين على اجسام الاحياء والموتى بسهولة ولذلك اصبح معرض صور المجرمين في مدينة فينا متحفاً حقيقيًّا مملوءاً بتماثيل دقيقة الصنع لكثير من المجرمين والاشرار . وقد تسنى ايقاع عدة مجرمين في حبائل الشرطة بتلك النماذج . والنيجاقل تفضل من كل الوجوه ، الطين الخزفي والمصيص وغيرهما من المواد المستعملة لصنع النماذج لان تلك العجائن تتطلب عملاً طويلاً متعباً قد ينجم عنه سد مسام جسم الشخص المزمع صوغ نموذج لوجهه فيختنق ، بينما نستطيع بالنيجاقل صنع نموذج طبق الاصل في نصف ساعة . ولا يخفى ان تمثال الميت قد يدل على شبه تقريبي له . ومن المستحيل ان يوضح فيه الشعر والقذال (مؤخر العنق) كما يجب . اما النيجاقل فليونته الشديدة تسهل صوغ شبه متقن للشخص المراد تشبيهه حتى شعره ، واحدة فواحدة ، وكل خط من اسارير وجهه او كفه حتى اصغرها . واذا صبغت كل منها بالمداد نشأت عنها بصمات مضبوطة . وقد صنعت من النيجاقل نماذج للعصافير فتبين فيها تجزيع كل ريشة من ريشها . فاذا شاء المرء عمل شبه من النيجاقل لرأس انسان حيٍّ ، اجلسه على كرسي تجاه مرآة ثم جاء بالنيجاقل الذي يكون قد طبخها قبيل ذلك وبردها حتى تصبح فاترة . فيتناولها من وعائها ويأخذ في فرك الرأس بها : مواصلاً ذلك ، حتى يتكون من السائل الكثيف ، الذي يشبه العسل الاسود ، على رأس الشخص المدلوك به ، طبقة ثخانتها نصف عقدة (بوصة) على ان يبدأ الصانع عمله من تحت الذقن ويتدرج منها الى ما فوقها فلا ينقضي ربع ساعة حتى يجف ذلك المثال ويتصلب فيتسنى حينئذ رفعه عن الجسم الاصلي مرة واحدة. وهذا ما يسمى بالصورة السلبية التي تملأ فيما بعد بالمادة الراتينجية ذات اللون المرغوب . اما القذال فيؤخذ شبهه مطابقاً لاصله على النمط السابق ، بينما يؤخذ نموذج الآذان كل واحدة على حدتها . ثم تصب فيها

بعد في قالب واحد مؤلف من شقين . وقد بلغ من شدة مرونة النيجاقل انه يستطاع مط نموذج الاذن الذي يصاغ منها ، بالايدي ، كما يمط القفاز الصغير . أما أمُّ الرأس ، فيستعمل لرش النيجاقل عليها محقنة واسعة الفم كما سبق القول . وهذه من شأنها ألاَّ تهيج الشعر ولا تؤثر فيه الاّ تأثيراً طفيفاً لا يعدو انبساطه قليلاً عند رفع النموذج الصلب عنه

ويصاغ النموذج الكامل للكف بدسها في وعاء مملوء بالنيجاقل المحلولة ثم ابقائها فيه حتى تتجمد النيجاقل حولها . فاذا سحبت اليد من الوعاء بعناية ، تركت فيه قالباً معدًّا لصوغ يد مثلها . اما اذا اريد صوغ نموذج لظهر اليد ، فتوضع النيجاقل فوق ظهر اليد وهي مبسوطة على مائدة حتى تتجمد فتنزع مرة واحدة . ومما يجدر ذكره ان القاتل النمسوي المشار اليه لما قبض عليه تمكن الدكتور بوللر Poller من صوغ مثالين رائعين لراحتي كفيه وظهريهما

واذا اريد صوغ صورة ايجابية، يملأ القالب اما بجصيص ، واما بمادة جديدة تسمى (هومينيت) وهي المادة الراتينجية السابق ذكرها وهذه من مستحدثات الدكتور بوللر ايضاً . وهي ذات الوان شتّى ويتسنى استعمال نماذج النيجاقل مرة ثانية او إسالتها لتصنع منها امثلة جديدة . وقد ثبت من استعمال النيجاقل انها نافعة لاغراض كثيرة عدا صنع امثلة الوجوه او بصماتها

ومما يروى في هذا الصدد ان جماعة من اللصوص سطت على متجر من متاجر مدينة فينا . وبينما كان رجالها يعالجون فتح خزانة حديدية باغتهم مباغت فولوا أدبارهم فلم يسع الشرطة وقتئذٍ الاّ الاستعانة بالدكتور بوللر لصنع مثال من النيجاقل لباب الخزانة ظهرت فيه صورة طبق الاصل لبصمات اصابع اولئك اللصوص فلم تمض ايام قليلة حتى وقعوا في شرك الشرطة

واليك حادثاً آخر وهو : — وقعت عدة سرقات في مدينة من اعمال ولاية ايلينوى وكان اللصوص في كل سرقة منها يستعينون بعتلة ، على فتح نوافذ البيوت ، فعاين المحققون مواضع الفتح ولقطوا صور الآثار التي تركتها العتلة في اماكن عديدة . وفتشت مساكن المتهمين فوجدت عند أحدهم عتلة تحتوي على علامات كالثابتة في العجينات فثبتت التهمة عليه ثبوتاً حاسماً فاعترف بجرمه من فوره

وسرقت طائفة من السيارات في مدينة اخرى في احدى الولايات الوسطى الغربية ، وعمد سارقوها الى طمس معالم الارقام الرسمية المثبتة عليها وذلك ببردها بالمبارد وأبدلوها بارقام مزورة فتمكن الشرطة من استعادة بعضها ولكنهم لم يستطيعوا ادراك ، هل كان السارقون عصابة واحدة أو عصابات . فصنعت قوالب للارقام من النيجاقُلْ فثبت ان مجموعة الآلات التي استعملت في بصم الارقام على السيارات جميعها واحدة فقط

وسرقت دارٌ من دور الريف وترك السارق ، عند هربه ، آثار قدميه في الوحل ، فالتقطت آثار حذائه بالنيجاقل ثم عرضت القوالب على الجيران . فما اطلع عليها احدهم حتى تذكر انه كان عنده

اجير ينتعل حذاءً ذا نعلٍ وكعب من الصمغ المرن ، يشبهان القوالب كل الشبه، فقبض عليه ولكنه اصرَّ على انكار التهمة حتى فتش بيته فوجد فيه حذاء يشبه القالب تماماً . ومما تقدم يتضح جليًا كيف يستخدم المحقق العلمي للجنايات قوالب النيجاقلْ والاوجه المستعارة المصنوعة منه للحصول على البينات التي تحل معضلات الجنايات وتساعد على تحقيق شخصيات مقترفيها

وان طريقة عجينة النيجاقل لمن اضبط الوسائل التي أقرها العلم لالتقاط صور الاشياء الحية وغير الحية وفق أصولها ، من أدق الاشياء ، مثل باطن انبوب البندقية الى اكبرها ، مثل بصمة اطار عجلة سيارة مغروزة في التراب . وذلك بمثابة قوالب لا تتلاشى تصنع توًّا بنفقات زهيدة

ويتسنى بالنيجاقل صنع وجوه مستعارة لوجوه الاحياء والاموات على السواء. وتكون الوجوه المستعارة التي تصاغ بتلك الطريقة مضبوطة بحيث تحتوي على الاسارير الاصلية والعلامات البدنية الدقيقة. ومن الميسور اذا مست الحاجة، عمل عشرات من التماثيل نقلاً عن القالب الاصلي واستعمال الوجوه المستعارة في اشغال الشرطة في حل معضلات الجرائم ، أقل منها في الاستدلال على شخصيات المجهولين. ومثال ذلك انه إذا اصيب امروءٌ بطارىء من الطوارىء فتوفى على الاثر ثم التقطت صورة وجهه بالنيجاقلْ ، قبيل دفنه ، فان هذه الصورة العجينية تبقى ردحاً من الزمن بعد دفن الجثة ، كوسيلة من الوسائل المفيدة التي تدل على شخصية المصاب المتوفى عند اللزوم . اذ تكون تمثالاً حقيقيًّا للحياه يفوق الصور الفوتغرافية. وكذلك اذا اصيبت يد أو ساق فطبعت صورتها على النيجاقلْ واحتفظ بها فانها تظل دليلاً قاطعاً عند التقاضي، يوضح للمحققين مبلغ الاصابة عند وقوعها لصاحبها. والنيجاقل لا تضر الجلد ولا الشعر فضلاً عن سهولة نزعها عند برودتها لانها لا تلتصق بشيءٍ منهما لانكماشها عند برودتها . وبقليل من التمرين يتسنى حفر فتحتي العينين وتلوينهما ، هما والشعر بلونيهما الطبيعيين. وكذلك صبغ البشرة والشفتين لكي تجعل الصورة طبق الاصل البشري تماماً . ولذلك كان صنع القوالب الخاصة بالاشياء غير الحية اسهل كثيراً من صنع قوالب وجوه الاحياء . ويستعمل لتلك الغاية مادة لتجميد التراب قبل صنع قوالب بصمات لأطر عجلات السيارات وما شاكلها من الادوات التي تغرز فيه او في الوحل

وللنيجاقل الآن منافع جمة في غير دوائر الجنايات وتحقيق الشخصية اذ تستعمل بنجاح في طب الاسنان والجراحة والحيولوجيا وعلوم النبات والآثار والزراعة، وفي صوغ النماذج التي تلزم متاحف الآثار ، لان كثيراً من الناس يؤثرون احراز وجوه مستعارة ملائمة للاصول على غيرها من الصور التي تمثل ملامح الوجوه فقط . لان نموذج الوجه او الرأس الذي يصنع بعجينة النيجاقلْ تتبين فيه الصفات القابلة للتلاشي مثل نسيج الجلد وقسمات الوجه وتدل على الطول والعرض والثخانة . وهذه كلها أشياء يتعذر على الرسام والحفار رسمها ونقشها [1]

(١) عرضت على الاستاذ عمارة فأقرها للنشر في المقتطف وشجعني على موالاة الكتابة في هذا الموضوع

فلسفة التاريخ

ومكانتها في فهم الانسانية

لحنا خباز

إن درس الطبيعة ، على جلالة قدره ، وارتباطه بمصالح البشر الاقتصادية والاجتماعية ، هو درس ناقص اذا لم يكمله درس التاريخ . ذلك ان درس الطبيعة دون درس التاريخ ليس الاّ شذرات مبعثرة لا ترابط بين اجزائها ولا غاية تنتهي اليها

والانسان بحسب افلاطون عالم مصغّر « Microcosm » او كون صغير ، فدرس الانسان يوضح معنى الكون ، وأما درس الكون فلا يوضح معنى الانسان . لذا كانت فلسفة التاريخ اكمل الدروس البشرية وأوفرها لذةً ، وأشدها تأثيراً في تنوير العقل ، وارتياحه الى الحقيقة الجميلة التي تهواها النفوس . وهي — اي الحقيقة — غاية النفس ، تجوع اليها جوع العين الى النور ، والاذن الى الصوت ، والقلب الى الحب . فمن لم يطلع على فلسفة التاريخ كانت ثقافته ناقصة مهما يحرز من العلوم والاختبارات

والانسان والطبيعة قرينان ، بل هو ابن الطبيعة ولبابها ، ورسم جوهرها ، وتاجها . فدرس الانسان درساً كاملاً ، هو كناية عن درس الكون بأجمعه . لذا كان قول الحكيم سقراط « إعرف نفسك » من جوامع الحكم . فالقضايا المختصة بالمجموع الانساني ، كالافعال والجهود والسياسات والعادات والشرائع والفنون والفلسفات ، هي أشياء حقيقية كالاجرام السموية والمظاهر الجوية والالفة الكيمية والاشعاع والجاذبية ونحو ذلك من الموضوعات الطبيعية

إن الميل لاستخراج اسمى الصور بواسطة ادناها هو هو في الانسان كما في الطبيعة . والمنهج القويم في درس هذا الكون هو الابتداء بالانسان . والتدرج منه الى الطبيعة . لان الاعلى يشتمل على الادنى ويفسره . واذا صحّ ان تاريخ الانسان هو استمرار الخليقة لزم عن ذلك ان القوة المبدعة لا تزال عاملة ، وان تلك القوة ، وعلاقاتها بصور الخليقة الراقية ، يمكن درسها في تاريخ الانسان بأوفر سهولة وأتم وضوح من درسها في ميدان الطبيعة . فالقوة المتصرفة في الطبيعة

هي العقل ، والعاملة في الانسان هي الارادة . من هنا تتكشف لنا الفكرة المركزية في فلسفة شوبنهور : الكون ارادة وتصوُّر : يعني ان القوة التي هي الكون بأجمعه تتجلى في كل الاوساط الآلية وغير الآلية مجلى واحد مختلف الاسم والصبغة ، ففي المواد الآلية وغير الآلية تبدو لنا « جاذبية ملاصقة » ، و « ألفة كيمية » . وفي الاحياء استمساك بالبقاء ، وفي الانسان ارادة وتصوُّر . فهي عروس واحدة تغير اثوابها في هذه الحالات الاربع

وتتجلى لنا هذه الفكرة في فلسفة سبنسر المركبة ، التي قضى اربعة وثلاثين عاماً في تأليفها . بدأ بها بالطبيعة والنواميس الحاكمة فيها . ثم تدرَّج منها الى الحياة — بيولوجيا — وأبان ان تلك النواميس هي نفسها عاملة في الاحياء عملها في الجوامد ، مع تنوُّع الصبغة . ثم ارتقى من ذلك الى علوم النفس — سيكولوجيا — فأوضح فعل الناموس ذاته هنا كما هو هنالك . وانتهى بالاجتماع — سسيولوجيا — فكان الناموس — او القوة — خيطاً ذهبيًّا يحوك شبكة متسلسلة ذات مراتب متفاوتة هي المادة والآلية والحياة والنفس والاجتماع

وفي فلسفة سبنسر نفسها قاعدة عامة هي : تطبيق الحي على الوسط الذي يعيش فيه . وذلك التطبيق او الملاءَمة هو العامل في توليد الانواع . وبعبارة اوضح اقول ان اول حوافز الانسان لدرس الطبيعة كان جعل المحيط ملائماً لشؤون الاحياء . اعني ان الانسان ملزم طبعاً بدرس الطبيعة واستكناه نواميسها ليتمكن بذلك من تحصيل قوته الذي يأكله والمنزل الذي يسكنه . وكان على الانسان ان يدرس احوال النهر الذي يفيض في جوار مأواه ليتقي اضرار الفيضان ، وان يدرس طبيعة الشمس التي ترسل اشعتها على جسمه الآلي من علٍ ، وان يدرس القمر والنجوم ليهتدي في سراه . فلم تكن ثمة ندحة عن هجس الانسان في هذه الموضوعات . ماذا تعني ؟ : ومن اين هي ؟ : وما هي ماهيته هو كانسان ؟ : ولماذا كان في وسط هذا المشهد قصير الاجل ؟ : وماذا سبقه ؟ : وماذا سيليه ؟

فكانت الاجوبة والتفاسير التي جمعها الانسان هنا وهناك ، الكتلات التي ألفت النظم العلمية والفلسفية والدينية وتبين الانسان في ختام البحث المستفيض انه هو — الانسان — اهم موضوعات البحث العقلية واوسعها مجالاً . وانه وهو في الرحم جنيناً كان عالماً واسع النطاق ولا ذرَّة فيه دون تاريخ ، ولا جزيئة بلا وصف واسم . بعد ذلك ولد الانسان في اسرة ، في مدينة او قرية ، في دولة او جمهورية ، في حقبة من الدهر ، فتحتَّم عليه ان يدرس اسرته ووطنه وعصره ، وما ارتبط بذلك من موضوعات البحث كالاجناس البشرية واللغات المنوَّعة من فردية المقاطع ومتعدّدة المقاطع . قد بلغت امته مرتبة معينة في المشهد الانساني ، فما هي نسبتها الى اخواتها الامم الأُخرى وما مقامها في المجموع ، اقتصاديًّا وعلميًّا وخلقيًّا وعسكريًّا واجتماعيًّا ، وما هو ماضي تلك الامة ، وكيف توصلت الى موقفها الحالي ، وماذا يتوقَّع منها في المستقبل ؟

وكما ان الفرد الواحد من الاحياء لا يموت لمجرّد موت — او انحلال — الخلية الواحدة في نسيجه الخلوي، هكذا الجنس البشري لا يموت بموت؛ الفرد الواحد من الناس كائنة ما كانت منزلته ومقامه

ان فلسفة التاريخ تصوّر لنا الوحدة والنظام فماذا تعني هذه الوحدة ؟ وما معنى هذا النظام ؟

الجواب عن الاول، ان تلك الوحدة تعني وحدة الاصل والعلة، وحدة الطبيعة، وحدة الروح او الذهن، تتجلّى تلك الوحدة في جميع الافراد، وفي جميع العقول. فترى العقول كافة تخضع لحكم الناموس الواحد في الطبيعة وفي الرياضة. وتبادل التفاهم مبني على تلك الوحدة ولولاها انعدم الاجتماع وانعدمت العلوم والاشتراع. على ان تلك الوحدة لا تتناول الصفات الثانوية او العرضيّات كاللون والاقليم. وهي تميل الى كونها وحدة في اقتسام المنافع، وتحمّل الالتزام، والاشتراك في ناموس المتانة الاجتماعية او التماسك الاجتماعي. فالمرء صغير بذاته قويّ بقومه، وذلك الناموس — ناموس المتانة الاجتماعية — يجعل خير الفرد خير الجماعة. ولا اعرف اسماً اجدر بتلك الوحدة من كلمة « انسانية ». فهو اسم يشتمل على المعنى الجنسي والاخلاقي في الفرد وفي المجموع لانه يعرب عن الحقيقة الذاتيّة، والفعل المباشر الذي به تتصف الافراد في مجموعها

يتبع ذلك ما تدعوه وحدة « الغاية » التي تجعل تقدم الانسان اجتماعيًّا عبارة عن تحقيق الذهن والترابط في الحالات الاجتماعية والصبغات التي ابتدعها الانسان في اوضاعه النفسية والاخلاقية والفنّيّة والدينية، تلك الصبغات التي بها هو « انسان ». واذا درسنا عادات الانسان ونظمه ولغاته ودياناته وفنونه وآدابه ومسارحه ودرجات مدنيته بدا لنا درساً ظاهريًّا بعيد الآفاق، ورأينا ان تلك الاشياء تعرب عن تباينات شتى في شتى الامم وشتى العصور والاماكن، مع ذلك هي تعرب عن وحدة عقلية ناشئة عن ارتباطها بالعقل الذي هو مصدرها. واذا تعقلناها ألفيناها تسعى الى وحدة في طبيعة العلة الفاعلة، التي ابرزتها. وانها مطاوعة لشرائع كائن، ومتأثرة بعوامل خارجية، وبحكم ذلك الكائن وهذه العوامل جرى الانسان في كل عصر وفي كل مصر على نظم العائلة وتأليف العشيرة، وعلى ضم العشائر بعضها الى بعض لتكوين الامة، ومجموع الامم تؤلف الانسانية او النوع الانساني مجلى الوحدة في كل الدنيا

فلم تنشأ الشرائع والنظم الاجتماعية في كل امة بحكم الصدفة والعرض، كلاّ، انما نشوء تلك النظم المتماثلة يسفر عن وحدة الاصل الفاعل في كل هذه الاوساط. ومع ان تنوعها يعلي تباين احوالها، فاتفاقها يبدي وحدة اصلها. كذلك الصناعة والفن، وهي جهود اختيارية، نشأت عن عمل الذهن متأثرة بالوسط الجغرافي. قس على ذلك التجارة والمال والاحوال الاقتصادية، فانها كلها راجعة الى نواميس الاصل الواحد وتأثيراته

ومن هذا القبيل آداب اللغة. فهي واحدة في اصلها، متنوّعة الصبغة والاعراض الثانوية

فتؤلّف هنا اقاصيص خاماً ، وهنالك اشعاراً عامية ، وهنالك خمريات وروائيات ومُلَحاً ونكاتٍ ومعلقات وخطباً رائعة فتانة، على انها في كل تلك الصيَغ تعبّر عن حال القوم الروحية والديانة اهمما يعرب عن حال الامة الداخلية فهي مقياس تمدنهم وضابط مصيرهم . وكما ان الماء لا يرتفع عن مستوى مصدره كذلك الامة لا يمكنها ان ترتفع عن مستوى ديانتها والافراد الانسانيون كالخلايا الفسيولوجية، متعاونة ، متبادلة المنافع ، متصرفة في تراث السلف ، مورثة جهودها للخلف ، فحياة الانسانية واحدة ، وخيراتها ملك مشترك للعموم . واذا كانت الوحدة عسيرة فالتشعب أعسر . لان العواصف ، وتنازع القوى الطبيعية ، لا شيء اذا هي قيست بثورة العواطف الانسانية ومنازعات الارادة وتضارب المصالح والاهواء . ومتى كانت الذات مركزاً فلا ندحة عن التصادم بين الافراد والجماعات . وان حروب الامم الهمجية عمل لطيف ، الاثر صغير ، بالقياس الى حروب الامم التي بلغت منزلة عالية من الثقافة والعلوم ، وبلغت ارقى ذرى المدنية والاختراعات العصرية

في وسط هذه الفوضى نلمح آثار النظام . واذا لم يكن هنالك من ناموس ونظام في التاريخ فليس في حياة الانسان الاَّ الصدفة العمياء . واذا انعدم الناموس في الانسان افيمكن تصوُّر وجوده في الطبيعة ؟ واذا تصوَّرنا نفوذ الناموس في طبقات الكون الدنيا دون العليا فأي كمال أو رسوخ يمكن ان يكون في الكون ؟ فان العقل المضطرب لا يمكن استقراره في طبيعة متكاملة النظام ، وافتراض نواميس طبيعية لا تتخلّف في عقل غير مرتبط بنظام هو امر غير معقول كافتراض حروف هجائية معينة في آداب لغة غير منظمة ولا مفهومة

لذا كان من رغبات المفكرين ان ينشدوا الناموس والنظام في التاريخ كما تجلى لهم في الطبيعة واستجلاء ذلك الناموس هو فلسفة التاريخ . على ان بحثهم هنا هو ابطأ ، وأملهم بالفوز هنا أقل منه هناك . لانه لا يسع الانسان ان يتصوَّر كوناً تسوده المشيئة الالهية والعقل فيه فوضى. وبدون ذلك الرابط تكون التواريخ حوادث مبعثرة من دون ناموس ولا مصير ولذا وجب الايمان بالناموس في التاريخ كما في الطبيعة حوله . وهذه الفكرة تؤدي بنا الى علوم الكلام فتجعل مجرى الكون خاضعاً لمشيئة الله . فالحرية تسود السماء والضرورة والقــدر الاعمى الارض . هذه هي قاعدة لاهوت اوغسطينوس واكويناس وفلسفة سبينوزا وليبنتز

ولكن فكرة النظام ، وهي ضرورية في كلا الوسطين ، الطبيعة والتاريخ ، تراها مع ذلك جلية في هذه ، غامضة في ذاك . ففي الطبيعة قوَّة ثابتة لا تتخلّف ولا تكلّ . اما في التاريخ فالعلة الفاعلة هي ارادة متقلبة متعارضة . فالنواميس التي تسود التاريخ هي عقلية لا طبيعية ، اقناعية لا ارغامية . وهي في التاريخ نوعان ، جاذبة ودافعة ، وما يبدو لنا من التذبذب في حياة الدول ليس الاّ ايماناً تحوَّل الى حقيقة في بعض الارادات والعقول . وذلك يوضح لنا ان النظام في التاريخ عقليّ

لا ماديّ . وعليه فحركة النظام في التاريخ هي تقدّم . وهي كناية عن جهد العقل لتحقيق ذاتيته ، وامتلاكه الحرية من صولة المادة ، وبالتالي تحرّره من القيود الطبيعية والسياسية والاجتماعية ، تلك القيود التي تؤخر ارتقاءه او تعارضه

ان تصورنا النظام في التاريخ يقتضي تصوُّر علته ، وعلته هي العقل او الذهن اوالفكر ، تلك القوة المنبثة في الطبيعة ، واللابسة ثوب الشخصية في الانسان

الانسان مطية النظام ، فيعيش في النظام وبه يلوذ . وليست العقلية المذخورة في الطبيعة هي العامل الوحيد في الانسان . بل ان هنالك عاملاً آخر فيه هو الهيئة الاجتماعية . ولا يكون الانسان انساناً دون هيئة ونظام . وكلما تقادم عهد الجنس ازداد نفوذ السلف في الخلف . ولا يعيش الجنس بمعزل عن اصله ومصدره . فبأي منهج ، وبأي عامل ، بلغ تصور النظام حياة الانسان ، اولاً في العشائر البدوية ، ثم في القوميات ، وأخيراً في صورة دولية — عامة — ؟ وكيف تغلب التقدم الجنسي على ما في صدر الانسان من النفسانية ؟

الجواب : — إن في تيّار الهيئة الاجتماعية ميلاً الى خلق النظام ، واستبدال الغيرية من النفسانية . لان انتظام الهيئة ، وحرية حركاتها لتبلغ ارقى ذراها يستلزم الافلات من قيود الاستئثار الفردي فتتمكن الهيئة من توزيع المنافع على الافراد . وجهود الهيئة انما هي محاولات لادراك افضل حالات النظام الضامن الانصاف في ذلك التوزيع . فالاجتماع خلق الغيرية . والغيرية آخر ملجأ يلوذ به الانسان لضمان كيانه وسعادته

وفي نفس الانسان غريزة حب البقاء . وحب البقاء يستلزم العدول عن العوامل الوحشية في النفس لانها تتحوّل مع ارتقاء الانسان الى عوامل انقراض وفناء . فالانسان لكي يبقى ، مضطرٌ ان يعدل عن الحروب . لان الانسانية تحتمل الحروب وشن الغارات في اطوار طفولتها وصبوتها . اما في حال ارتقائها ورشادها ، وبلوغها ارقى ذرى العلوم والاختراع فيتعذّر عليها احتمال الحروب . فترى امامها احد مسلكين لا ثالث لهما اما السلم او الفناء . والسيادة العظمى في الهيئة الراقية للمثل الاعلى Ideal والتصورات المتصلة بتلك النزعة العالية هي افعل العوامل في تدرّج الانسان في معارج الارتقاء

فالنزاهة ، واحترام المصلحة العامة والتضحية بالمصلحة الفردية في سبيل المصلحة العامة ، تلك الكمالات الروحية ، هي غاية مسير الطبيعة في الانسان ، وفيها تحقيق احلام المفكرين والشعراء من عهد افلاطون حتى الساعة . وانكار ذلك علينا هو خلل ادّى الى حصوله النقص الملابس الانسانية والعقلية الفردية في عهد طفولتها ، وستمرّ الدهور وعشرات القرون ، قبلما يتمكن الانسان من بلوغ المنزلة السامية التي تسعى الانسانية الى بلوغها . تلك الغاية السامية هي اثر الله في الطبيعة واثره تعالى في الانسان ، وفي الاجتماع

النباتات المصرية

القديمة : الفواكه

للدكتور حسن كمال

﴿حدائق الفاكهة﴾ كانت المعابد المصرية القديمة الملحقة بالمقابر وكذا قصور العظماء تحوي في أغلب الاحيان تكاعيب العنب (الكرم) . اما الفلاحون فكثيراً ما زرعوا الكرم بالقرب من منازلهم وفي حقولهم ليستريحوا في ظله من عناء العمل وقت الظهيرة . ومما يشير الى شدة عناية القوم بالفواكه ما ورد في خطاب لناظر زراعة سجّل به محصول حديقة الفاكهة التابعة لمعبد رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م .) من ان اشجاره الملكية انجبت ١٠٠٠٠ قفة من فاكهة الرمان و١٠٠٠٠ قفة من العنب . وجاء في موضع آخر انه تمكن من استخراج ما مقداره ٣٢٥ لتراً من النبيذ و٢٥٠٠ لتراً من عصير الرمان و ٢٥٠٠ لتراً من شراب يقال له موت (قرطاس انسطاسي ٤—٦ و٧) وجاء بقرطاس هريس (١٩ ب ١٣ — ٢) ذكر لمقدار ١٥٥٠٠ قطفة من الرمان للمائدة و١٢٤٠ شوال من الرمان لاغراض اخرى و ٣١٠ آنية من الزيتون . وجاء بقرطاس هريس ايضاً (١٥ ب ٣) ذكر لتعداد ١٣٥٢ مكيالاً كبيراً من الزيتون يغلب انها جمعت لاستخراج الزيت . هذه المقادير العظيمة دليل كاف على عناية القوم بانماء اشجار الفاكهة

وتلاحظ على الآثار التي يرجع تاريخها الى ما قبل حكم رمسيس الثاني (١٢٩٢ —١٢٢٥ ق . م) رسوم لسلال مملوءة عنباً (مقبرة نختي—دبفنز ٢٢—٢٥) . وورد بمقابر سقارة اسرة خامسة (٢٥٦٠ — ٢٤٢٠ ق . م .) ذكر لاشجار الجميز والبلح والدوم والتين وغير ذلك

ويستنتج من رسوم الحدائق المصرية القديمة انها مقسمة الى عدة اقسام تفصلها عن بعضها مماشي مظللة بالاشجار وتروى بواسطة قناة صغيرة متصلة بالنيل . وللحدائق صروح جميلة المنظر وبالقرب من المدخل تشاهد عادة حجرات البواب والمستخدمين والسلاملك . تلي ذلك تكاعيب العنب (الكرم) ثم عدة حجرات او اكشاك للاستراحة . وحول التكاعيب تزرع عادة صفوف من النخيل

والدوم . وكثيراً ما يزرع هذان الاخيران حول الحديقة من داخل السور ايضاً . وتوجد حياض المياه في وسط الحديقة او في جوانبها . وكثيراً ما يتمكن الباحث من تمييز شجر الرمان والتين من بين اشجار الفاكهة بالشكل الواضح لكلٍّ منهما . اما تكاعيب العنب (الكرم) فكانت مقامة على اعمدة خشبية منتظمة التركيب بشكل شوارع او مماشي غاية في الاناقة وسلامة الذوق

***

﴿ العنب ﴾ ويقال له باللاتينية (Vitis Vinifera) وبالانكليزية (Vine) كان يزرع في مصر منذ اقدم العصور التاريخية . فاستعمل القوم رسم تكعيبة العنب حرفاً في الخط الهيروغليفي العتيق . قال ديودورس الصقلي (ج ١ — ٢ — ٨) ان ازوريس هو الذي عمّم زراعة العنب بالارض وعلّم الناس صناعة النبيذ. لذلك اعتبره القوم اله الكروم ورمزوا له بغصن العنب . قال فلوطرخس (رواية ازوريس وازيس ٩) ان المصريين اعتبروا النبيذ ممثلاً لدم الاعداء الذين قهرتهم آلهتهم وهذا هو السبب الذي حمل اليونانيين في اواخر التاريخ المصري القديم على تشبيه (ازوريس) بمعبودهم (باخوس) وجعل القوم ايضاً يرسمون (ازوريس) جالساً تحت تكعيبة العنب[١]. ولنفس السبب ايضاً تعزى عادة تقديم العنب لازوريس [٢] . ووصف الاستاذ بابيه (Baillet) تمثالاً لازوريس يمثله عارياً لابساً قلنسوة طويلة مدببة على رأسه مائلة نوعاً الى الوراء ومطوقاً صدره بكوفية وحاملاً سلة على ظهره شبيهة بالمستعملة في جني العنب وواضعاً احد اصابعه في فمه ومتكئاً بيده الاخرى على مقدار كبير من العنب يعلوه صلٌّ ملكي رافعاً رأسه ويعلو رأسه قرص الشمس وفسّر ذلك الاستاذ (بابيه) بان هذا التمثال يمثل ازوريس إله الموتى في مملكته الزراعية ومنسوباً اليه فيها زراعة العنب

وجاء في مجلة المعهد المصري العلمي (١٨٨٤ سلسلة ٢ رقم ٥ ص ٢٣ رقم ١٨) ان الزبيب (المعروف في بلاد الشام بالعرَق) الذي عثر عليه في احدى المقابر المصرية القديمة هو من النوع الاسود الكبير الحجم واستدلَّ من تباين احجام بذور هذه الفاكهة على انها من انواع متعددة على الارجح . وعثر على كثير من اوراق العنب بالمقابر المصرية طبقتها الداخلية تعلوها شعور بيضاء دقيقة (مجلة المعهد المصري ١٨٨٥ سلسلة ٢ ص ٢٦٩) مما يميزها من انواع العنب التي تزرع الآن

والمعروف ان العنب من الفصيلة الكرمية (Vitaceae) التي تشمل الآن اربعين نوعاً اقدمها النوع المصري القديم المعروف باسم (Vitis Vinifera) واليه ينتمي نوع العنب المعروف باسم (Silvestris) المنتشر على سواحل البحر الابيض المتوسط والواصل حتى بلاد القوقاز شرقاً والمانيا شمالاً والمعتبر الآن اصل العنب الحديث

(١) Budge, By Nile & Tigris I p 336 pl. (٢) Bibl. Egyp. t XVI p 3.

وورد عن اليونان انهم صنعوا النبيذ بكثرة في عهد (هوميروس) فاستدلَّ بذلك على كثرة زراعة العنب هناك وقتئذٍ . ولا بدَّ ان تكون زراعة العنب وصلت ايطاليا من عهد بعيد ايضاً . والغريب ان العنب المصري القديم هو المزروع أيضاً ببلاد امريكا بولاية كاليفورنيا وذلك بكثرة ويقال للعنب بالمصرية القديمة (ياررت)

* * *

٢ — ﴿ الرمان ﴾ ويقال له باللاتينية (Punica Granatum) وبالانكليزية (Pomegranate) اقدم رسم لشجرة الرمان على الآثار المصرية هو الوارد بمقبرة في تل العمارنة من عهد اخناطون (١٣٧٥ — ١٣٥٨ ق . م .) (پتري تل العمارنة ل ٣٢) . واورد الدكتور أونجر Unger رسوماً لهذا النبات مأخوذة من مقابر طيبة . قال پلينوس (١٣ — ٣٤) ان رمان صاموس يمتاز عن رمان مصر بان اوراق احدها حمر واوراق ثانيهما بيض . ويستدل على كثرة زراعة الرمان بمصر من العبارة الواردة بقرطاس انسطاسي (٤—٦ — ٧) ومضمونها ان ما جمع من الرمان من احدى الحدائق وقتئذٍ بلغ عشرة آلاف قفة . وقد عثر الاثريون على كثير من فاكهة الرمان من تلك العصور . ودور تحف اوربا تحوي ثمار هذا النبات (فلورنسا رقم ٣٦٠٨ وبرلين رقم ٤٤٩ ولندن رقم ٥٣٦٧ وليدن رقم ٢ — ٣ و٦ الخ)

واكل القوم الرمان كفاكهة وصنعوا منه شراباً سمَّوه (شيدو) (لورية نبات مصر القديمة ص ٧٨) وذكروه دائماً مع النبيذ . قال المرحوم كمال باشا ان محصول بستان رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق . م .) كان يشتمل على عنب ورمان وثلاثة انواع من الشراب هي النبيذ العذب (اي عصير العنب) والنبيذ المعتاد وشراب الرمان

ووردت وصفة طبية لمستحلب مصنوع من جذور الرمان واخرى من قشر الرمان قصد طرد الديدان المعوية . فقد جاء بقرطاس ايبرس (ل ١٦ س ١٥ و١٨) ان قشر ثمرة الرمان اذا مزج بالماء وعُصر وروّق وشُرب دفعة واحدة طرد الديدان المعوية . ولا يزال هذا العلاج مستعملاً في الطب الحديث مع بعض التعديل

واول من ذكر الرمان عند اليونان هو ديوسقوريديس (١ — ١٥٣) . وفي عام ١٨٠٧ ادخل بيوكانان (Buchanan) استعمال قشر الرمان في الطب الاوربي

والمعروف عن هذا النبات انه قديم جدًّا . وقد ورد ذكره بالتوراة . واسمه عند الرومان (Malum punicum) مما يشير الى انهم عرفوه من قرطاجنة (Carthage) كما رواه پلنيوس ومن هنا نشأت الفكرة بان الموطن الاصلي لهذا النبات شمال افريقيا

قال المرحوم كمال باشا (لآلىء درية ص ٣٠ و ٣١) ان الرمان ليس مصري الأصل وان اسمه بالمصرية القديمة هو (إنهمان وإرمان) — والى الاسم الاخير يرجع لفظ رمان—والغالب انه من بلاد فارس . قال لوريه : والهيكسوس هم الذين ادخلوه مصر حينما ادخلوا اليها الخيل من آسيا وذلك في العصر (١٧٠٠ — ١٥٠٠ ق . م .) لان اقدم رسم للرمان هو الوارد في عهد اخناطون (١٣٧٥ — ١٣٥٨ ق . م .)

***

٣ — ﴿ الجميز والتين ﴾ اما الجميز فيقال له باللاتينية (Ficus Sycamorus) وبالانكليزية (Sycamore) وكان مقدساً عند قدماء المصريين (هرم اوناس س ٥٥٥ وتتي ٣١٦) وخصوصاً في القسمين الخامس والسابع من الوجه البحري . وحيث كانت شجرة الجميز من اقدم الاشجار المصرية واشهرها جُعل اسمها (نهي) علماً على مصر فسميت مصر (نهي) ايضاً وكثيراً ما رسم القوم شجرة الجميز والمعبودات (نوث) و (حاتحور) و(نايت) خارجة منها . وورد عن الكاتب (آني) انه لما توفي كان يستظل في الآخرة تحت شجرة الجميز (Rec. de Mon. I p.30) وزعم القوم ان ازوريس دفن في تابوت من خشب الجميز (Rec. de traw. III 55)

من ذلك يتضح ان الجميز مصري الاصل . ووجد من ثمره مقدار جاف في المقابر وسلال مملوءة بثمره وورقه في توابيت الموتى . وكان يصنع من خشبه التوابيت والاثاث والتماثيل . وكثيراً ما تشاهد اشجاره مرسومة على جدر المقابر . وفي بني حسن — اسرة ١٢ (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م .) رسوم يستدل منها على كيفية جني ثماره . حيث تشاهد شجرة جميز كبيرة خالية من الاوراق بين افرعها ثلاثة من القردة تجني ثمرها وتلقي به على الارض فيلتقطه رجل في سلال معه . وتأكل البعض بيدها الاخرى

وكثيراً ما ورد الجميز في وصفات الادراج البردية الطبية بخصوص مرض المعدة والامعاء وجميع متاحف اوربا تحوي بعضاً من الجميز المجفف من العهد الفرعوني . محفوظة جيداً

***

﴿ واما التين ﴾ فيقال له باللاتينية (Ficus Carica) وبالانكليزية (Figs) ورد مرسوماً على موائد الموتى ضمن القرابين واستعمله القوم في الطب (لوريه نبات مصر القديمة ص ٤٧)وصنعوا منه نبيذاً (ماريت — مصطبة ص ١٨٠)

والتين والجميز من فصيلة واحدة اسمها باللاتينية Ficus ووجد شوينفورت بالمقابر المصرية التين المعتاد

والتين عدة اسماء بالمصرية القديمة منها (تون) وهو أصل لفظ تين على الارجح — كمال باشا (لآ لىء درية ص ٣٠٠)

***

﴿ ٤ — البلح ﴾ ويقال له بالانكليزية (date) وجدت منه قدماً انواع عديدة بوادي النيل (تيوفراستوس تاريخ النبات ٤٢٢ — ٨ و ٩ و بلينوس تاريخ طبيعي ١٣ — ٩) وورد رسم النخيل في عدة مقابر مصرية قديمة (روز الليني ج ٢ ل ٦٩) والنخيل المصري القديم يعرف في اللاتينية باسم (Phoenix dactylifera) وبالانكليزية (date palm) وعثر (دي مورجان) على نوى البلح بعصر من العهد الحجري [1] وميّزه (شوينفورت) و (بتري) على الآثار [2] قال استرابون (١٧ — ٨١٨) ان اجود انواع البلح هو المزروع بالاقصر

وصنع المصريون اعمدة معبدي ساحورا [3] وإدفو بهيئة النخيل. وزيّن القوم حدائقهم بهذا النبات البديع (قرطاس هاريس ل ٢٧ س ٢) كما وجد مرسوماً على صحيفة قبر (Stela) بدار تحف القاهرة [4] وأكل المصريون البلح غضًّا (قرطاس هاريس ٢١ — ب) ومجففاً (هاريس ٤٤ — ١ — ٩) ومسكّراً في عسل النحل وعجوةً (هاريس ٢٧ — ١ — ٥) وصنعوا كما صنع اهل العراق منه نبيذاً هو اصل مشروب العرقي. قال المرحوم كمال باشا (بغية الطالبين ص ٣٤٣) ان المصريين صنعوا منه ايضاً عسلاً سموهُ (أني — نت . بنر)

***

ووصف القوم البلح في قراطيسهم الطبّية كمليّن (ايبرس ٧ — ٧) وكمدرّ للبول (ايبرس ٤٨ — ٢٢) واخذ ذلك عنهم بلينوس حيث اشار باستعمال هذه الفاكهة في امراض المثانة والمعدة والامعاء (تاريخ طبيعي ٢٣ — ٥١) وصنع القوم من الياف النخيل الحبال. واسطول الملك ساحورا (٢٥٥٠ ق . م .) كان يستعمل حبالاً لسفنه طول الواحد منها ثلاثمائة ذراع (قرطاس تورينو ١٠١ ـ ١ ـ ١ و ٩) مصنوعة من الياف النخيل « غاية في المتانة » على حدّ تعبيرهم . (قرطاس تورينو ١ ـ ٤) . واستعمل ايضاً للغسيل (ديميخن ٤) حيث ورد فيه العبارة الآتية « تغسل درن رأسه وتنظف رجليه بليف النخل » واتخذوا منه مماسح لنظافة الاشياء الصلبة . اما اسم الليف بالمصرية القديمة فهو (شو)

---

(١) Recherches .vol II pl 69 (٢) مجلة المعهد العلمي المصري سلسلة ٢ سنة ١٨٨٢ ج ٣ ل ٧٤ وسنة ١٨٨٤ ص ٢٠٨ (٣) بور خارت — مقبرة ساحورا ج ٢ ص ٥١٦ (٤) ماسبرو تاريخ الشعوب الشرقية ج ٢ ص ٥١٦

واما جريد النخل (rami palmarum) فاستعملوه في صناعة العصي والاقفاص والكراسي الخفيفة واسمه بالمصرية القديمة (باعيت)

واما الخوص فصنعوا منه الحصر والسلال ونعال الموتى . لانهم اعتقدوا ان الميت لا بدّ وان يكون سعى لمعصية في دنياه فدنّست باطن رجليه فلا ينبغي ان يطأ بها الدار الآخرة الا اذا لبس نعالاً او سلخ جلدها . ومن ثمّ كان وجود النعال مع الموتى كثيراً في المقابر (كمال باشا ـ بغية الطالبين ص ٣٦٠)

ويقال للبلح بالمصرية القديمة (بنر) وللنخيل (إم)

وانتشر النخيل من قديم الزمان في المناطق الممتدة من الهند شرقاً الى جزائر الخالدات غرباً لكنه لم يصل الى جنوب اوربا الا اخيراً . ولما كان ثمارها لا تنضج بتلك الجهات انحصرت فائدتها عند هؤلاء القوم في استعمال جريدها في (عيد السعف) المسيحي . بعد ذلك نقلها الاسبانيون الى امريكا حيث تزرع الآن في جنوب الولايات المتحدة والمكسيك

***

٥ — ﴿ الدوم ﴾ ويقال له باللاتينية (Hyphene thebaica) وبالانكليزية (Dom-palmtree)

وجد ثمره بكثرة في المقابر المصرية القديمة مثل كاهون بالفيوم لان القوم كانوا يقدمونه قرباناً لموتاهم ويأكلونه هشاً وحشفاً ومعجوناً . قال استرابون وكانوا يصنعون من ورقه حصراً . ويوجد بمتحف (فلورنسا) زوج نعال مسجل تحت رقم ٢٧٠٣ مصنوع من خوص الدوم . وكانوا يتخذون من جذوعه عمداً طويلة يحلّون بها معابدهم ويرسمونه كثيراً على آثارهم بجوار النخيل لانه من الاشجار التي كانوا يزينون بها بساتينهم . قال (ماريت) وكان الدوم مقدّساً عندهم ويعلو علوّاً بليغاً بدليل العبارة الواردة بقرطاس ساليير (رقم ١ لوحة ٨ س ٤) وتعريبها «ايتها الدومة الشاهقة البالغة ستين ذراعاً المحملة بالنقل ذي النوى التي تحوي داخلها الماء » . وورد ذكر الدوم بقرطاس ايبرس اثنين وثلاثين مرة ضمن ادوية متنوعة التركيب

اما اسمه بالمصرية القديمة فهو (ما ما)

***

٦—﴿ التوت ﴾ ويقال له باللاتينية (morus) وبالانكليزية (mulberry). قال(شوينفورت) ان التوت الابيض أصلي في مصر اما الاسود فكان نادراً لعدم غرسه فيها . ومع ندورته فان (فلندرس بتري) وجد بعضاً منه في مقابر هوارة . قال (لوريه) والظاهر ان هذين النوعين اصليان في مصر وان المصريين يسمون الابيض بالمصري والاسود بالشامي (كمال باشا لىء دريةص٩٧)

٧ — ﴿ السّدر ﴾ (نبق) ويقال له باللاتينية (zizyphus spina christi) وبالانكليزية (jujubes) . ويقال لثمره النبق . وجد هذا الاخير في المقابر المصرية القديمة بكثرة ونقل منها الى متاحف اوروبا . ووجد (ماسپرو) في الجبلين بعضاً من النبق وارسلها الى الاستاذ «شوينفورت» لبحثها « مجلة المعهد المصري ١٨٨٥ سلسلة ٦ ص ٢٦٠ » . وعثر فلندرس پتري على نبق بمقبرة كاهون كان مقدماً قرباناً للموتى . وصنع القوم منه خبزاً . ودخل النبق ضمن ست عشرة وصفة طبية بقرطاس « ايبرس ». واتخذ القوم من خشبه مقابض للمراوح . وكانت ببلاد النوبة بلدة تسمى « بي نبس » أي مدينة النبق فلعله كان كثيراً فيها

ويقال للنبق بالمصرية القديمة « نبس »

***

٨ — ﴿ البطيخ ﴾ اسمه باللاتينية (Citrullus Vulgaris) ورد مرسوماً بكثرة على الآثار وملوّناً بالاخضر . كذلك الشمام ورد على الآثار ملوّناً بالاصفر . وكان قدماء المصريين يزرعونه بكثرة واورد الاستاذ (اونجر) « نباتات مصرية قديمة شكل ٣٠ و٣١ و٣٢ » رسوماً لهذا النبات. ووجد في تابوت الكاهن « نبسني » ورق البطيخ كاسياً للموميا « مجلة المعهد العلمي المصري ١٨٨٢ سلسلة ٢ ج ٣ ص ٧٣ » . وعثر على بزوره في مقبرة مصرية قديمة . ومنه ايضاً في متحف برلين . واسمه بالمصرية القديمة « بدّوكا » وهو اصل لفظ « بطيخ »

وهذا النبات من الفصيلة القرعية المعروفة باسم (Cucumis melo) وبالانكليزية (melon) أو (Musk melon) اما البطيخ ففرع من هذه الفصيلة ويعرف بالانكليزية باسم (water melon) او قاوون الماء وبالفرنسية (pastèque) وبلغة جالينوس « القثاء النضيج » . والغالب ان افريقيا هي موطن البطيخ الاصلي لانه معروف في مصر من اقدم الازمنة . وكان معروفاً قبل الميلاد ببلاد آسيا وجنوب اوروبا

***

٩ — ﴿ فواكه دخيلة ﴾ ادخل المصريون في مصر كثيراً من اشجار الفاكهة من الاقطار المجاورة وزرعوها فيه بنجاح (برستد نصوص مصرية قديمة ـ ٢ ـ ٤٥٠) . ولا تزال جذور شجر المرّ موجودة بحديقة معبد الدير البحري بالاقصر . وهذه الاشجار استحضرت من بلاد الصومال في مواعين كبيرة . وفي المدة بين الاسرة ١٨ (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م .) الى الاسرة ٢٦ « ٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م . » . دخلت مصر الاشجار الآتية « لوريه — نبات مصر القديمة ٨٢ و٨٣ و٨٤ و١٠١ » :— اللوز . المواح . الليمون . الجوز . البندق . الخوخ . الكمثرى . التفاح وعلى ذلك فكل هذه الفواكه الاخيرة اجنبية الاصل

احوال المعلمين

واحكام المعلمين والمتعلمين

لاحمد فؤاد الاهوانى

هو عنوان لكتاب في التربية مخطوط ، وجدته في مكتبة باريس الاهلية . ولعلك أدركت من العنوان أنه كتاب قديم ، فقد كان القدماء يغرمون بسجع العنوان . والنسخة المخطوطة قديمة، وتاريخ خطها يرجع الى سنة ٧٠٦ للهجرة ، ويقع المخطوط في سبع وتسعين ورقة من الحجم المتوسط وفي كل صفحة حول الثلاثة عشر سطراً ، ويغلب على الخط ان يكون مصرياً

والعنوان السالف هو الذي ذكر في فهرس المخطوطات لمكتبة باريس الاهلية ، وفي النبذة القصيرة التي كتبت في الفهرس ذكر اسم المؤلف على هـذا النحو « ابو الحسن علي بن محمد القابسي » . أما الاسم الصحيح للكتاب وهو المكتوب على ظاهر النسخة فهو « الفضيلة لاحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين » . أما اسم المؤلف الذي ورد بالنسخة فهو «ابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي الفقيه القيرواني » وذكره ابن خلكان في الجزء الاول من وفيات الاعيان فقال هو« ابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المعروف بابن القابسي» ويترجم له صاحب « شذرات الذهب ، في أخبار من ذهب » فقال « أبو الحسن القابسي علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني الفقيه شيخ المالكية أخذ عن ابن مسرور الدباغ وفي الرحلة عن حمزة الكناني وطائفة ، وصنف تصانيف فائقة في الاصول والفروع ، وكان مع تقدمه في العلوم حافظاً صالحاً تقياً ورعاً حافظاً للحديث وعلله منقطع القرين وكان ضريراً وفياً»

***

والقابسي نسبة الى قابس ، والقابس ، بفتح القاف ، وبعد الالف باء موحدة مكسورة ثم سين مهملة مدينة بافريقية بالقرب من المهدية . ولما فتحها الامير تميم بن المعز قال بن محمد خطيب سوسة قصيدة طويلة أولها :

ضحك الزمان وقدكان يدعى عابسا لما فتحت بجد عزمك قابسا
أنكحتها عذراء ما أصدقتها الاّ قناً وبواتراً وفوارسا
الله يعلم ما جنيت ثمارها الاّ وكان ابوك قبلك غارسا
من كان بالسمر العوالي خاطباً أضحت له بيض الحصون عرائسا

وكانت ولادته في يوم الاثنين لست مضين من رجب سنة أربع وعشرين وثلثمائة ، وعاش طويلاً حتى طعن في السن وسئم الحياة ، حتى انه كان كثيراً ما ينشد قول زهير بن ابي سلمى المزني

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا إبالك يسأم

قال ابن خلكان « كان إماماً في علم الحديث ومتونه وأسانيده وجميع ما يتعلق به ، وكان للناس فيه اعتقاد كثير ، وصنف في الحديث كتاب الملخص جمع فيه ما اتصل إسناده من حديث مالك بن أنس رضي الله عنه في كتاب الموطأ رواية ابي عبدالله عبد الرحمن بن القاسم المصري وهو على صغر حجمه جيد في بابه . . . . وتوفى ليلة الاربعاء وقت العصر بالقيروان ، وبات عند قبره من الناس خلق كثير ، وضربت الاخبية ، واقبل الشعراء بالمراثي ، رحمه الله تعالى » وكانت وفاته في عام ٤٠٣ من الهجرة

***

فالقابسي من علماء الصدر الخامس للهجرة ، وكتابه هذا يعد من أقدم الكتب العربية في التربية . ولتأليف هذا الكتاب قصة ، ذلك أن أبا الحسن كان محدثاً فقيهاً لا شأن له بالتربية ، فما الذي حدا به أن يضع مصنفاً في التعليم ؟ الحقيقة أن مركز القابسي كعالم في الدين والفقه وحجة في الاسلام كان باعثاً للناس أن يتقدموا اليه يسألونه في أمور الدين ، وكان يفتي ويقضي بكتاب الله وسنّة الرسول ، ومن هذه الأسئلة ما تقدم به أحد الناس ، فوجدها كلها أو أغلبها تتصل بناحية واحدة عن التربية والتعليم ، فجمعها في كتاب واحد ، وضع له ذلك العنوان السالف . ولذلك يجري الكتاب على هيئة أسئلة يجيب عنها ابو الحسن

وإذا كان العرب قد كتبوا في التربية ، فإنك قلما تجد كتاباً خاصًّا مفصلاً يعالج هذا الموضوع ، بل أغلب ما كتب فصول متناثرة خلال المؤلفات ، كالفصل الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته وكما ذكر الغزالي في الاحياء . وقد تعرض المؤلف هنا لمسائل تمد مما يشغل أذهان المفكرين في هذا العصر ، وقضى فيها بآراء طريفة ، فقد تكلم عن التعليم الالزامي ، وتعليم المرأة ، وأجر المعلم ، وعقاب التلميذ ، والفصول المدرسية ، ومناهج التعليم وغير ذلك من

المشاكل المعقدة التي لا يزال يدور حولها البحث حتى الآن ، وسأعرض رأيه في مسألتين : تعليم البنت ، وعقاب وتأديب التلاميذ

***

« . . . وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم فهو حسن ومن مصالحها ، فأما أن تعلم الترسل والشعر وما أشبهه فهو مخوفٌ عليها . وإنما تعلم ما يرجى لها صلاحه ، ويؤمن عليها من فتنته ، وسلامتها من تعلم الخط أنجا لها . ولما أذن النبي صلى الله عليه وسلم للنساء في شهود العيد أمرهنَّ أن يخرجنَ العواتق ذات الخدور ، أو العواتق وذوات الخدور ، وأمر الحائض أن تعتزلْ ، فصلى الناس وقال يشهدْن الخير ودعوة المسلمين ، فعلى مثل هذا تبتل في تعليمهنَّ الخير الذي يؤمن عليهنَّ فيه وما خيف عليهنَّ منه ، فصرفه عنهنَّ أفضل لهنَّ ، وأوجب على متولي أمرهنَّ . فافهم ما بينت لك ، واستهدي الله يهدي ، وكفى به هادياً ونصيراً

واعلم أن الله جلَّ وعزَّ قد أخذ على المؤمنات فيما عليهنَّ كما أخذ على المؤمنين فيما عليهم . وذلك في قوله جلَّ وعزَّ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً الآية . وقوله والمؤمنون والمؤمنات الآية ، وجمعهما في حسن الجزاء في غير آية من كتابه . وفي قوله تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات الآية . وأمر أزواج نبيه عليه السلام أن يعين ما سمعنَ منه صلى الله عليه وسلم فقال واذكرنَ ما يتلى في بيوتكنَّ من آيات الله والحكمة . فكيف لا يعلمنَ الخير وما يعين عليه ، ويصرف عنهنَّ القائم عليهنَّ ما يحذر عليهنَّ منه ؟ إذ هو الراعي فيهنَّ ، والمسئول عنهنَّ ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

***

أما ما ذكره في بيان سياسة معلم الصبيان وقيامه عليهم وعدله فيهم ورفقه بهم ، فهو ما يأتي :—

« . . . . ومن حسن رعايته لهم أن يكون بهم رفيقاً ، فانه قد جاء عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهمَّ من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فيه فارفقْ به . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الرفق في الامر كله وإنما يرحم الله من عباده الرحماء . قال ابو الحسن فقولك هل يستحب للمعلم التشديد على الصبيان او ترى ان يرفق بهم ولا يكون عبوساً ، لأن الاطفال كما علمت تدخل في هذه الوصية المتقدمة ولكن إذا أحسن المعلم القيام وعنى بالرعية ، وضع الأمور مواضعها ، لأنه هو المأخوذ بأدبهم والناظر في زجرهم عما لا يصلح لهم ، والقائم باكراههم على مثل منافعهم ، فهو يسوسُهم في كل

ذلك بما ينفعهم ، ولا يخرجهم ذلك من حسن رفقه بهم ، ولا من رحمته إياهم ، فانما هو لهم عوض من آبائهم . فكونه عبوساً إبداً من الغضاضة المقوتة ، وليستأنس الصبيان بها فيجترئوا عليه ولكنه اذا استعملها عند استئهالهم الأدب ، صارت دلالة على وقوع الأدب بهم فلم يأنسوا إليها فيكون فيها اذا استعملت أدباً لهم في بعض الأحايين دون الضرب ، وفي بعض الأحايين يوقع الضرب معها بقدر الاستئهال الواجب في ذلك الجرم . ولكن لاينبغي له ألاّ يتبسط بهم تبسط الاستئناس في غير تقشّص موحش في كل الأحايين ، ولا يضاحك أحداً منهم على حال ، ولا يبتسم في وجهه ، وإن أرضاه وأرجاه على ما يحب . ولكنه لا يغضب عليه فيوحشه اذا كان محسناً . واذا استأهل الضرب فاعلم ان الضرب من واحدة الى ثلاث فليستعمل اجتهاده لئلا يزيد في رتبة فوق استئهالها . وهذا هو ادبه اذا فرط فتثاقل عن الاقبال على المعلم ، فتباطأ في حفظه ، وكثر الخطأ في حزبه ، او في كتاب لوحه ، من نقص حروفه ، وسوء تهجيه ، وقبح شكله ، وغلطه في نقطه ، فنبه مرة بعد مرة ، فأكثر التفاضل ، ولم يُغْنِ فيه العذل والتقريع بالكلام الذي فيه التواعد ، من غير شتم ، ولا سب لعرضٍ ، كقول من لا يعرف لأطفال المؤمنين حقًا فيقول : ياماسخ ياقرد ، فلا يفعل هذا ولا ما كان مثله في القبح ، فان فلتت له واحدةفليستغفر الله منها ، ولينتهي عن معاودتها . وانما تجري الالفاظ القبيحة من لسان التي لتمكن الغضب من نفسه ، وليس هذا مكان الغضب ، وقد نهى الرسول عليه السلام أن يقضي القاضي وهو غضبان . وأمر عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه بضرب انسان ، فلما اقيم للضرب قال : اتركوه . فقيل له في ذلك فقال : وجدت في نفسي عليه غضباً فكرهت ان اضربه وانا غضبان

***

قال ابو الحسن كذا ينبغي لمعلم الصبيان أن يراعي منهم حتى يخلص أدبهم لمنافعهم ، وليس لمعلمهم في ذلك شفاء من غضبه ، ولا شيء يريح قلبه من غيظه ، فان ذلك إن أصابه فانما ضرب اولاد المسلمين لراحة نفسه وهذا ليس من العدل ، فان اكتسب الصبي جرماً من أذى ولعب وهروب من الكتّاب وإدمان البطالة ، فينبغي للمعلم ان يستشير اباه ، او وصيه ان كان يتيماً ، ويعلمه بجرمه ، اذا كان يستأهل من الأدب فوق الثلاث ، فتكون الزيادة على ما يوجبه التقصير في التعليم عن إذنٍ من القائم بأمر هذا الصبي . ثم يزاد على الثلاث ما بينه وبين العشر إذا كان الصبي يطيق ذلك . وصفة الضرب هو ما يؤلم ولا يتعدى الألم الى التأثير المشنع أو الوهن المضر . وربما كان من صبيان المعلم من يناهز الاحلام ، ويكون سيء الرعة ، غليظ الخلق ، لا يريعه وقوع عشرِ ضرباتٍ عليه ، ويرى للزيادة عليه مكاناً وفيه محتمل مأمونٌ ، فلا بأس إن شاء الله من الزيادة على العشر ضربات ، والله يعلم المفسد من المصلح

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ٧ —

شجر الجُمَّيْز

ويقال له (الجُمَّيْزَى) بالالف المقصورة وسماه البعض (تين فرعون) ولعلَّ في هذه التسمية اشارة الى قدمه

تشبه شجرته شجرة التين وبالشق يسيل منه لبن كثير تصل شجرته الى حجم عظيم وترتفع من ٨ امتار الى ٢٥ وتنتشر فروعها الى ١٢٠ قدماً وجذعها قصير عادة ويبلغ طول محيط الجذع الى ١٥ متراً . وورق الشجرة متبادل مستديم يسقط القديم منها حين يأتي الفصل بالاوراق الجديدة . ورقته ثخينة شبه اذينية اهليلجية كاملة الحافة تقريباً تكاد تكون ملساء برّاقة من وجهها العلوي ذات عنق يتخلل قاعدتها ثلاثة عروق يتراوح طول الورقة بين ٥ — ١٢ سنتيمتراً والجميز يثمر في السنة من ثلاث الى اربع مرات وثماره لا تنبت في اطراف الفروع اصلاً بل توجد في عناقيد على اغصان عديمة الاوراق ناشئة من الجذع نفسه او من فروعه الغليظة والثمرة الواحدة عبارة عن تخت النورة تشبه التين البري طولها ٢ ½ سنتيمتراً وعليها بعض شعيرات ضئيلة ملساء وبذورها اصغر من بذور التين ولا تنضج الثمرة بنفسها بل لا بدَّ ان تشرط (تختَّن) من قمتها بمخلب من صفيح او حديد وذلك ليسمح للهواء بتجفيف سطحها الداخلي الذي يكون ممتلئاً عادة بعصارة ناشئة عن وجود بويضات حشرة ضئيلة جدًّا تسمى (سايكوفاجا كراسيبيس) (Sycophaga crassipes) تتطرق الى ثمار الجميز للتوالد فيها

اسمه العلمي (Ficus Sycomorus, L.) (فيقوس سيقوموروس) وفصيلته التوتية (Moraceae) (موراسية) وبالانجليزية (The Sycomore—Figtree) وبالفرنسية (Sycomore)

ويعتبر بعض النباتيين موطنه الاصلي بلاد النوبة ونقل قديماً الى الحبشة ومصر وفلسطين والشام ولا يزال شائعاً في شمال افريقية والسودان وبعض النباتيين يقول ان موطنه اليمن

ويزرع بكثرة على حافات الطرق في مصر للظل وبقرب المياه الجارية في اغلب انحاء السودان ويعمر طويلاً ولا ينسى القارىء قدم شجرة الجميز بالمطرية التي تسند اليها اسطورة استظلال السيدة مريم العذراء بها مع طفلها عيسى عليهما السلام

وخشب الجميز مشتهر بعدم تأثره بالفساد في الطبقات الارضية وشدة الاحتمال للرطوبة والمقاومة الزمنية ولذلك كان قدماء المصريين يتخذون توابيت الموتى منه ولا يزال المصريون يصنعون منه (الخنازير) المعروفة التي توضع في قيعان السواقي والآبار ويبنى عليها ويصنعون منه السواقي والتوابيت (دواليب الري) ويدخل في صناعة السفن . وقد استعمله العرب في اقامة العمارات قيل إن افاريز جامع ابن طولون من خشب الجميز وكان قديماً يتخذ منه قواعد ترتكز عليها المدافع وتصنع منه بالسودان ادوات منزلية واوان كالقصاع وغيرها

شجر الكاد الهندي

ويقال له بالسنسكريتية (خديرا) (Khadira) ضرب من السنط معروف في الهند . شجرته دائمة الاخضرار ترتفع من ٦ امتار الى ١٢ . أوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة ١٠ ازواج من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ٤٠ زوجاً الى ٥٠ من وريقات زغبية غير ريشية في صورة خطوط . وللشجرة شوك منبسط معقوف . وأزهارها مجتمعة في سنابل اسطوانية في الواحدة منها زهرة الى ثلاث

اسمه العلمي (Acacia Catechu, W.) (آقاسيا قاتيشو) وفصيلته السنطية او المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Medicinal Acacia; Catechu Tree) وبالفرنسية (Acacie du Cachou) ذائع في غابات الهند وبورما وجزائر الهند الشرقية والغربية وشرق إفريقية مشهور بصلابة خشبه وشدة مقاومته ولذا يتخذ في مواطنه المذكورة دعامات (خوازيق) في الارض ويدخل خاصة في صناعة الطواحين ويحصل من قلبه على الخلاصة المعروفة في التجارة بالكاد الهندي (Catechu) التي كان يظن بعضهم خطأً عند دخولها اوربا لأول مرة أنها طين ياباني (Terra Japonica) والحقيقة انها مادة نباتية كما ذكر . وطريقة حصولهم عليها في الهند هي أن يقطع ذلك القلب الى قطع صغيرة ثم توضع في قدر من الفخار غير المطلي ضيق الفوّهة ويصب عليها ماء حتى يطمرها ثم تغلى حتى يتبخر ماؤها الى نصفه وبعدئذٍ ينقل المغلى بلا تصفية الى وعاء آخر من الفخار عريض القاع ويغلى ثانية حتى يتبقى ثلثه ويترك يوماً حتى يبرد ثم يوضع معرّضاً لحرارة الشمس حتى يتبخر ماؤه مع تحريكه مراراً كل يوم ومتى نقص حجمه كثيراً فصار ثخيناً متماسكاً نشر على حصير او قماش سبق ان ذرّ عليه رماد من حريق روث الماشية ثم يقطع الى قطع مكعبة الشكل بواسطة خيط ثم تنشر القطع في الشمس وتقلب من وجهيها حتى يكمل

جفافها وتصير صالحة للتجارة . والكاد المجهز بهذه الطريقة اسود اللون وهو المفضل استعماله في الطب كقابض من الباطن مضاداً للديسنطاريا والاسهال وللنزيف البطني والرحمي والسيلان المخاطي ومقوياً لقناة الهضم ولقروح الفم والحلق ومزيلاً لنتن الفم ويدخل في عقاقير متنوعة

ويحصل من القلف على كاد آخر (Cutch) افتح لوناً يستعمل في الدباغة جاء في بعض المراجع ان ثمن الطن منه اذا كان نقياً يبلغ ٢٥ جنيهاً تقريباً وان الطن الواحد منه يحصل عليه من اربعة اطنان من قلف الشجر

الكَاكَمُوت(١)

ضربٌ من السنط معروف في السودان بهذا الاسم ينمو في الارض الرطبة عادةً وشجرته صغيرة الحجم او متوسطته تشبه شجرة الكاد الهندي وقلف جذعها قاتم ذو شقوق . اوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة من ١٠ — ٣٠ زوجاً من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ٣٠ — ٥٠ زوجاً من وريقات غير ريشية . وشوكها عريض القواعد بالغ التقوس . أما أزهارها فمجتمعة في سنابل صفر فاتحة . وثمارها عبارة عن قرون قشرية الملمس تكون سمرا عند النضج طول الواحد منها من ٧ سنتيمترات الى ١٠

اسمه العلمي (Acacia Suma, Kurz.) (آقاسيا صوما) وفصيلته كالسابق . وهو ذائع في اكثر مديريات السودان وفي الهند مشهور بصلابة خشبه القاتم اللون ويستعمل في الابنية وفي صنع المحاريث والآلات الزراعية وغيرها

السَّمُر

نوع من السنط يسمى بهذا الاسم في السودان ويسمونه في صحراء ليبيا (السَّيال) و (الطَّلْح) شجرته صغيرة يكاد يكون اعلاها منبسطاً . اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من زوجين الى خمسة من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ٨ ازواج الى ١٢ من وريقات غير ريشية مستطيلة ضيقة . واشواكها قصار مستقيمة او متقوسة قليلاً . ورؤوسها الزهرية كرية الشكل يضرب لونها الى البياض . وثمارها قرون ملتوية

اسمه العلمي (Acacia tortilis, Hayne.) (أقاسيا طورطيليس) وفصيلته كالسابق

وهو ذائع في مصر وشمال السودان وبلاد النوبة والحبشة وشمال صحراء ليبيا الى تونس وخشبه جيد متوسط الصلابة والثقل يستعمله اهالي منطقة السودان بالبحر الاحمر لصنع ضلوع الزوارق وبكرات رفع الاثقال وفي الحصول على الكتل الخشبية

(١) هذا الشجر والانواع السنة التاليه له اعتمدنا في اسمائها ووصفها على ما جاء عنها في كتاب (برون وماسي) عن نباتات السودان وكتاب (موشلر) عن نباتات مصر

الكُوْك

نوع من السنط معروف بهذا الاسم في السودان شجرته كبيرة الحجم جدًّا ذات قلف ابيض يضرب الى السمرة اورافها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل منها من ٧ ازواج الى ١٤ من الوريقات الريشية في كل واحدة منها من ٢٠ زوجاً الى ٣٠ من وريقات غير ريشية . وشوكها ابيض مستقيم طول الواحدة منه ٣½ سنتيمتراً تقريباً . ورؤوسها الزهرية كرية الشكل بيض اللون عرض الواحدة منها سنتيمتران تقريباً . وثمرتها خضراء ثخينة منبسطة ومتقوسة قليلاً قد يبلغ طولها ١٥ سنتيمتراً وعرضها سنتيمتران

اسمه العلمي (Acacia Verugera, Schwfth.) (أقاسيا ويروجيرا) وفصيلته كالسابق وهو ذائع في كسلا بالسودان وخشبه ابيض لا يتحمل ويحصل منه على صمغ

السَّيَال

نوع من السنط معروف بهذا الاسم في السودان ويسمونه في مصر (السَّمُر) شجرته كبيرة اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من ٤ ازواج الى ١٠ من الوريقات الريشية في كل واحدة منها من ٧ ازواج الى ١٥ من الوريقات غير الريشية الصغيرة جدًّا. وشوكها عبارة عن اذينات مستقيمة رفيعة ورؤوسها الزهرية كرية الشكل بيض اللون ضاربة الى الخضرة وثمارها قرون ملتوية التواء حلزونيًّا تسميها عرب السودان (العَلَف) ولعلَّ هذه التسمية من انها تصلح علفاً للماشية هناك

اسمه العلمي (Acacia spirocarpa, Hochst.) (أقاسيا سپيروقارپا) وفصيلته كالسابق وهو ذائع في مصر وفي اكثر بلاد السودان والنوبة والحبشة وشمال اليمن (الاحقاف) واهل السودان يحصلون من قلف الجذع الداخلي على الياف متينة يستعملونها في بعض حاجاتهم

الحَرَاز

نوع من السنط معروف شجره كبير لون قلف فروعه يضرب الى البياض واوراقه من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من ٤ ازواج الى ٦ من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ٧ الى ١٧ زوجاً من الوريقات غير الريشية المستطيلة واشواكه قصار مستقيمة وأزهاره بيض ذكية الرائحة مجتمعة في سنابل في آباط الاوراق وهذه السنابل توجد فرادى اوازواجاً وثمرته عبارة عن قرن مستطيل منبسط متقوس يتراوح طوله بين ٤ سنتيمترات و١٥ وعرضه بين ١ و٢ تسميه عرب السودان (خَرُّومَة) او (خُرْمَة) وهو شبيه بثمرة الخرنوب الاَّ انه مرّ الطعم

اسمه العلمي (Acacia Albida, Del.) (أقاسيا البيدا) وفصيلته كالسابق وبالفرنسية (Arbre Blanc)

يزرع احياناً في مصر وهو ذائع في اكثر بلاد السودان وبلاد النوبة والحبشة والسنغال ايضاً وخشبه ابيض يستعمل في بناء الزوارق . اما ثماره فمن جيد العلف للماشية

السَّلَم

نوع من السنط شجيرته ذات قلف اسمر رقيق اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من زوج الى زوجين من الوريقات الريشية وفي كل واحدة منها من ٨ ازواج الى ١٠ من الوريقات غير الريشية المستطيلة واشواكها دقاق مستقيمة او متقوسة . اما رؤوسها الزهرية فكريّة الشكل صفر تضرب الى اللون الذهبي وثمارها عبارة عن قرون ضيقة مستطيلة الواحد منها في صورة المنجل طوله ½ ٨ سنتيمترات وبه اشباه فواصل تفصل الحبة عن الاخرى

اسمه العلمي (Acacia Ehrenbergiana, Hayne.) (آقاسيا إهرنبرجيانا) وفصيلته كالسابق وهو ذائع في مصر وفي شمال السودان في البقاع الجدباء منه عادةً وفي بلاد النوبة والحبشة وشمال اليمن (الاحقاف) ويحصل منه على نوع من الصمغ

الطَّلْح

سنط منه نوعان اولهما احمر يقال له (السَّيَال) في مصر شجرته صغيرة الحجم او متوسطته ذات قلف احمر اللون يضرب الى السمرة . اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة منه ١١ زوجاً الى ١٢ من الوريقات الريشية وفي كل واحدة من هذه من ١٨ زوجاً الى ٢٢ من الوريقات غير الريشية . وشوكها ابيض مستقيم طول واحدته ٣ سنتيمترات تقريباً . ورؤوسها الزهرية كرية صفر قطر الواحدة منها ½ ٢ سنتيمتراً . وثمرها قرون متقوسة طول الواحد منها ٧ سنتيمترات تقريباً

اسمه العلمي (Acacia Seyal, Del.) (أقاسيا سيال) وفيصلته كالسابق وبالانجليزية (Shittah tree of Scripture) وبالفرنسية (Arbre a'gomme)

وهو ذائع في مصر وبلاد النوبة والسودان والحبشة والسنغال وشمال اليمن (الاحقاف) وخشبه ابيض ولكنه قليل التحمل وعرضة لفتك الحشرات ويحصل من الشجر على نوع جيد من الصمغ العربي اقل رتبة من صمغ الهشاب واهل السودان يستعملون القلف في الدباغة ويحصلون من قلف الجذع الداخلي على الياف يستعملونها في بعض حاجاتهم ونساؤه يتبخرنَ بدخان الخشب المحترق . وثانيهما ابيض يقال له (الصُّفار) بالسودان شجرته كثيرة الشبه بالسابق الاّ ان قلفها ابيض وقواعد شوكها منتفخة

اسمه العلمي (A. Seyal, Del. var. Fistula, Schwft.) (أقاسياسيال—فستولا) وهو ذائع في جهات السودان الرطبة وينتفع به كالطلح الاحمر

أبدع طرق الشام

وأروعها : بين انطاكية واللاذقية

لوصفي زكريا

طوّح بي السفر مرة ثانية في اواخر ربيع العام الماضي الى انطاكية عاصمة شمالي الشام وعروس مدنها في العصور الاولى المتوسطة . وقد كنت وصفت بالتفصيل في كتابي «جولة اثرية في بعض البلاد الشامية» [1] تاريخ هذه المدينة الجميلة في تلك العصور وما بعدها ، واطريت مجدها الغابر وحالها الحاضر ، وتغنيت بنضرة سهولها وخضرة حزونها وغناء رياضها ووفرة مياه عاصيها وكثرة اثمارها ... الخ ، لهذا لم اجد فيها هذه المرة ما يستحق الاضافة سوى ذكر بعض قطع الفسيفساء المصورة التي عثرت عليها اخيراً بعثة أثرية موفدة من جامعة برنستون الاميركية في بساتين قرية الحربية . وفي هذه القطع طرف نادرة من التصوير الملون بالاصباغ الزاهية ، وجلها يمثل وقائع الاساطير اليونانية كالنساء المحاربات « الآمازون » وآلهة البحر والخمر والحب وغيرها . وتكاد الصور تتحرك وتنطق امام انظار المتفرج المشدوه بحسنها ودقة صنعها . وسيكون مستقر هذه القطع الفريدة المثال في متحف انطاكية الذي لا يزال العمل في بنائه قائماً

وحدثتني نفسي الولوعة بالاسفار ومشاهدة المناظر والآثار ان ابدل الطريق التي جئت فيها من دمشق ماراً بحمص وحماة وحلب بالطريق الحديثة الذاهبة من انطاكية الى اللاذقية — وطولها ١١٥ كيلو متراً — ، وقد كنت سمعت انها ابدع طرق الشام واروعها لكثرة مشاهدها الطبيعية ومشارفها المرتفعة وحراجها الملتفة وشعوبها المتباينة ، فسلكتها للمرة الاولى وسرحت بصري برؤية مباهجها واستقصاء كوائنها الطبيعية وشؤونها الاجتماعية والعمرانية والاثرية ، فحققت الخبر بالخبر ، وها انا ذا واصف ما رأيت وما استقصيت على النحو الذي درجت عليه في وصف امثال هذه الطريق في كتابي المذكور آنفاً

---

(١) في هذا الكتاب وصف طبغرافي تاريخي اثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة من شمالي الاسكندرونة الى ابواب دمشق ، وهو يحتوي على ٤٢١ صفحة و٢٥ رسماً

لم تكن طريق انطاكية -- اللاذقية في السنين الخوالي ، مسلوكة الا ممن كان قادراً على اقتحام عادية قطاعها او جفوة سكانها او وعوثة حراجها ومنعرجاتها . ومن الغريب ان احداً من اسلافنا مؤرخي العرب القدماء وجغرافييهم لم يذكر هذه الطريق ، حتى ولا ياقوت ولا القلقشندي ولا ابو الفداء ولا شيخ الربوة المعدودون اكثر من كتب في جغرافية بلاد الشام في العصور المتوسطة . وقد كدت احكم بان احداً من اولئك الاسلاف لم يمر بهذه الطريق او لم يسمع باسم الجبال والبلاد والشعوب التي فيها ، لولا ان ادركني الادريسي في آخر البحث . فقد وجدته في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» يذكر في جملة البلدان الممتدة في ساحل الشام الشمالي اسم حصن الهربادة وانه يبعد عن اللاذقية ١٨ ميلاً وعن السويدية ١٥ ميلاً ، فاضطررت الى ان اعدل عن حكمي ، ولاسيما بعد ان رأيت العالم التركي كاتب چلبي ينقل عبارة الادريسي هذه في جغرافيته المسماة « جهان نما » المطبوعة في الاستانة سنة ١١٤٥ هـ ، و المستشرق الفرنسي دوسّو ايضاً في كتابه المسمى « الطبغرافية التاريخية لبلاد الشام» (١) ويحكم هذا المستشرق بالاستناد على الابعاد الواردة في عبارة الادريسي بان حصن الهربادة ينبغي ان يكون في موضع قرية الاردو الكائنة في سفح الجبل الاقرع ، وسنأتي على ذكرها

وانتهى حكمي بعد الى التأكد من ان اولئك الاسلاف لم يفتهم التجوال او البحث في اي بقعة من بقاع الشام ناهيك غيره من اقطار المعمور التي كانت معروفة في عهدهم وانه اذا لم نعثر على بعض ما رووه في كتبهم التي وصلت الينا لا يبعد ان يكون بين ملايين الكتب التي خلفوها وضاعت قبل ان نراها ما قد يحتوي على ضالتها. فقد كانوا رحمهم الله مشغوفين بالسياحة والسفر ، ولوعين بتدوين كل مشاهدة وخبر ، على نقيض اخلافهم ابناء الجيل الحاضر . فقد اخنى على معظمنا الكسل وحب المكوث والانقباع ، فقلّ فينا من يسوح او يسافر ، على الرغم من كثرة الوسائل وسهولتها في عهدنا ومن نشط وسافر منا قلما يحفل بالبحث والكتابة عن الاماكن التي يزورها كما كان يعمل اولئك الاسلاف من قبل ، وكما يعمل الآن الغربيون الذين يعنون كثيراً بتدوين ما يرونه ويسمعونه لاسيما اذا كان فيه ابحاث قيمة واخبار طريفة

وقد وجدت ناشريْ كتاب « دليل الشرق » الفرنسي المطبوع سنة ١٨٨٢ (٢) عند ذكرهما هذه الطريق واطرائهما روعتها وعظمة مشاهدها يقولان انها غير مأمونة ويوصيان السياح الافرنج اذا عوّلوا على اجتيازها ان يعدوا لها ما يكفي من السلاح والرجال. وكان السياح يقضون فيها على الرواحل ٢٢— ٢٦ ساعة . قيل ان فريقاً من جيش ابراهيم باشا المصري اجتازها كما

---

(١) Topographie historique de Syrie antique et médieal par Dussaud

(٢) Itinéraire de l'Orient, par Chauvet el Isambert, Paris, 1882

كانت تجتازها من قبل جيوش الصليبيين في غدوها ورواحها من اللاذقية الى انطاكية ولعلها كانت في تلك الازمان احسن حالاً مما بلغته قبل تعبيدها الاخير . ولم تعبّد هذه الطريق وتجعل صالحة لسير السيارات الاّ منذ سنوات اربع بعد ان كسرت صخورها ووسعت منافذها وذللت صعابها وبدل خوفها بالامن وقد انتهت الآن اعمال التعبيد على احسن حال في قسمها العائد الى حكومة انطاكية بينما هي لا تزال قائمة في قسمها العائد الى حكومة اللاذقية يشتغل فيه مئات من الجنود الشاميين المستخدمين في جيش الاحتلال الفرنسي ، ذلك لان قيادة هذا الجيش تعنى بفتح هذه الطريق وأمثالها لمكانتها الحربية

وصف الطريق — يخرج السائح من غربي انطاكية ويجتاز بقعة بهجة خضراء على يمينها وادي العاصي وعلى يسارها اعضاد جبل القصير المشرفة على انطاكيــة . وكلما سار ينحرف نحو الجنوب ويرتفع بالتدريج نحو تلك الاعضاد ويجتاز عدة جسور شيدت فوق اودية صغيرة تهبط نحو العاصي . وفي الكيلومتر السادس يلمح على يسار الطريق اطلال قناة الامبراطور طريانوس التي كانت تأخذ المــاء من دفنة الى انطــاكية . ثم يدخل بين كروم التوت والبساتين الملتفة الاشجار المختلفة الثمار التي تحمل في كل صباح الى انطاكية وحلب وأخصها الاكيدنيا(١) والبرتقال وقد انتشرت بينها دور واكواخ كثيرة . وهنا يلمح السائح على يمينه كسور اعمدة اثرية وبقايا من الرصيف القديم الممتد من دفنة الى انطاكية وهكذا الى ان يصل في الكيلو متر ٩٫٥ الى متنزه الحربية — واسمه القديم دفنة — وهو لا يزال كما كان قبلاً لاهل انطاكية . منبع ماء الشرب ومنتجع روّاد القصف والنزهة ، ويزيد عما قبل أنه الآن مصدر نور الكهرباء ايضاً

والحربية في يومنا قرية اهلها عرب نصيرية دورها منتشرة بين الكروم والبساتين التي وصفناها ومكان النزهة المنشود يدعى « بيت الماء » يعلو عن سطح البحر ٣١٥ متراً ويقع غربي الطريق في اعلى وادٍ سحيق يهبط اليه في شعب ذي التواء خلال دقيقتين او ثلاث وهو مؤلف من مدارج عريضة تتوالى من رأس المنحدر ، فيه ظل ظليل وجوّ بليل وماء رائق عذب نمير . وللماء ينابيع عديدة تتفجر من شقوق الصخور الصمّ تتساقط من فوق الى تحت بين الحشائش المائية والاعشاب المتعرشة واشجار الدلب الوارفة فتحدث عدة شلالات خرارة ذات ارغاء وازباد رائعين ، يدير اكبرها ارحاء طاحونتين او ثلاث مبني بعضها فوق بعض في اسفل المتنزه . وعند الينبوع الاعلى خزان يدفع الى انطاكية بماء الشرب ونور الكهرباء ، وقد بني بالاسمنت منذ بضع سنوات . وثمة آكام تحيط بالوادي السحيق المذكور الذي لا يرى قعره وهو يمتد نحو الغرب ويأخذ مياه تلك الشلالات الغزيرة الى نهر العاصي

(١) هو زعرور اليابان Neflier du Zapon المعروف في الشام بالاكيدنيا او المشمش الهندي وفي مصر بالبشملة

هذا وللشلالات وسقطاتها وللرغوات المتجمعة والقطرات المتناثرة فوقها مناظر خلاَّبة وللخرخرة والزمجرة الداويتين منها اصداء مطربة تأخذ بمجامع القلوب وقد أحدثوا هنا مقهى وضع اصحابه كراسي وموائد بين الينابيع وتحت الاشجار والمظلات التفت حولها عشاق الصهباء وراغبو التملي بمحاسن الطبيعة من نساء ورجال بلاد الشام الشمالية وغيرها اخص بالذكر الحلبيين المحرومين من الظل الوارف والماء الدافق . وقد انتبذ كل جمع منهم ناحية وبسط موائد الطعام او الشراب او احتضن آلات العزف والطرب او اشرع نارجيلته في الماء ينفخ ويبعث دخانها الى الهواء او اضطجع واستغرق يمتع نفسه ببهجة هذا المكان ونداوته ، يكاد لا يرى فيها بعضهم بعضاً ولا يسمعه مهما بدل الوتيرة ورفع العقيرة لاختلاف اماكن الجلوس في ارتفاعها وانخفاضها ولشدة ارغاء الشلالات وازبادها

وقد حملت هذه المشاهد الخلابة والمياه الخرارة القليلة المثال فيما مضى اليونانيين والرومانيين في عهد ازدهار انطاكية على تجميل « دفنه » وما حولها بالهياكل والملاعب والقصور والفنادق والحمامات ودور الملذات حتى غدت ابهج وأفتن مكان في العالم القديم كله للمرح والحبور وارتشاف كؤوس الفجور . فما من معبود وثني كأريس وفنوس وديانا وجوبيتر الاّ واقيمت له فيها الهياكل وما من قيصر او عظيم يوناني او روماني الاّ وشاد لاسمه فيها بناء من تلك المباني واقام عند قدومه اليها اعظم الاستقبالات وعند مكوثه افخم الاعياد واجمل الحفلات . حتى ان افذوكيا زوجة ثيودوسيوس الثاني وكليوبطرة ملكة مصر عشيقة انطونيو وجوليا ابنة اوغسطوس وغيرهنَّ من القيصرات والاميرات جئن وقضين فيها اياماً في رغد العيش وهناء الطيش

اما الآن وبعد ان اخنت عوادي الزمان على انطاكية وضواحيها ومنها مصانع دفنه ومقاصفها فلم يبق من عظمة هذا المكان السالفة سوى روائعه الطبيعية «ماء وظل وأزهار واشجار» وسوى بضعة كسور أعمدة وبقايا اسس جدران مبعثرة بين الحدائق التي عثر في ارضها على قطع الفسيفساء المذكورة آنفاً ، وناهيك بكمال هذه القطع وجمال صنعها اللذين اشرت اليهما في فاتحة مقالي دليلاً على شأن دفنة ورقيها الزائدين . ولولا انتشار السيارات في السنين الاخيرة وتسهيلها السفر والاتصال لظلّت دفنة مهجورةً منسيةً لا يعلم بأمرها الاّ بعض الانطاكيين وقليل من سياح الافرنج الذين قرأوا عنها وجاؤا يتلمسوا مجدها الداثر وجدها العاثر

وقد شيد احد اثرياء قرية الحربية منذ عهد قريب فوق شلالات الماء وفي بقعة مشرفة على اروع المناظر فندقاً عصريًّا مستوفياً شروط الراحة لمن يشاء ان يقضي زمناً في هذا المكان البهج السهل المنال

وجعلت الحربية قاعدة ناحية تتبعها تسع عشرة قرية جميع سكانها عرب نصيرية منها الجرداقية

والدرسونية والدرعوزية والدرويشية والدوير ودير الماشطة وعين الجاموس وعين السمك وغيرها وهؤلاء النصيرية يؤلفون اكثرية السكان في وادي العاصي الممتدة بين انطاكية والسويدية على البحر المتوسط ، وتمتاز ضياعهم بوجود القباب البيض التي تعلو الاماكن المرتفعة وتحت كل قبة مزار لاحد مشائخهم او اعزتهم يحجون اليه في اوقات معينة . ونصيرية هذه الانحاء على ما يظن نزحوا في احقاب متوالية من مواطنهم الاصلية في جبال اللاذقية فاختلط هنا بعضهم ببعض ولم يعد لهم عصبيات خاصة وانتماء الى قبائل معروفة كما هي الحال في مواطنهم المذكورة . ومهنة هؤلاء الفلاحة والبستنة وتربية الماشية ودود الحرير الذي دالت دولته ، وقلَّ من امتلك منهم ارضاً واسعة بل جلهم اجراء وشركاء لدى « الآغوات » و « البكوات » الترك الانطاكيين

والنصيرية ذوو عقائد وعادات وازياء خاصة يضيق نطاق بحثنا عن الخوض فيها . يقطنون في انحاء كيليكية « من بلاد الترك » والاسكندرونة وانطاكية وفي جبال اللاذقية واوعار حماة وحمص وسهولها الشرقية وفي بعض قرى الجولان جنوبي دمشق . وقد عطفت عليهم الدولة الفرنسية بعد دخولها وأسمتهم « علويين » وجعلت لبعض نبهائهم مناصب ووظائف في حكومتي الاسكندرونة واللاذقية وملحقاتهما ، وجندت كثيراً من شبانهم في جيشها الشرقي المرابط في بلاد الشام . لكن سوادهم الاعظم ما برح على غاية من الجهل المطبق والفقر المدقع والانقياد الاعمى لكبرائهم ذوي الزعامة الزمنية ومشائخهم ذوي السيادة الروحية الذين دأبهم استثمار غفلة اتباعهم بضروب الخدمات والاتاوات ما منهم من يعرف حسن القيادة والارشاد والهداية او يفكر بذلك

***

رجع الى الطريق ! تصعد السيارة بعد قرية الحربية نحو مرتفعات جبل القُصَير ، تاركةً على يسارها وادي دفنة ، ولا تزال تلهث وتصعد عقبات حتى تبلغ ناحية جبلية تدعى « ناحية القصير الفوقاني » تمييزاً لها عن ناحيتين في شرقيها اسماها القصير الوسطاني والقصير التحتاني ، والاولى التي نجتازها تختلف عن جارتيها بانها تركمانية وتينك عربيتان ، وبانها اكثر منها علوًّا واتقى وابرد هواءً ، صخورها كلسية بيض او دكن تتخللها في بعض الاماكن احجار من النوع المعروف بسباط اسلندة [١] ومقذوفات بركانية . وهي في جملتها ذات نجود خالية من الحراج ، قليلة الخصب ، قليلة القرى ، يكثر فيها نبات البلان وحيوان الصيد ولا سيما الارنب والحجل ، وغالب سكانها تركمان سنية لا يزالون على الفطرة ، جلهم لا يعرف العربية التي لا تعود تسمعها بعد مغادرة الحربية حتى تصل الى سواحل اللاذقية

---

(١) Spath d'Islande ضرب من الاحجار الكلسية المتبلورة

وفي هذه الناحية الجبلية في الكيلو متر ١٣ شعب [1] في الجبل يتجه نحو الشرق الى حصن القصير احد معاقل انطاكية في عهد الصايبيين . وفي الكيلو متر ١٩ شرقي الطريق ايضاً قرية اسمها طرفندو اهلها نصيرية فيها شيخ يحترف شفاء المرضى وازالة عقر النساء والتأليف بين المحبين وثمة قرية اخرى اسمها جندالية اهلها اسماعيلية المذهب من عبّاد آغا خان الزعيم الهندي المعروف في انخم الاندية وميادين سباق الخيل في فرنسا وانكلترة ببذخه وترفه ، وهم يعيشون عيشة اشتراكية تحت قيادة شيخ لهم . وفي الكيلومتر ٢٣ على بعد كيلومترين عن يسار الطريق وتحته قرية كبيرة اسمها شيخ كوى « قرية الشيخ » تعد من امهات قرى جبل القصير ، واقعة في منخفض واسع احاطت به صخور حمرٌ او دكنٌ ، اهلها تركمان سنية ، عددهم نحو ١٥٠٠ ، اكتظت بيوتها حول مسجد له مأذنة وبعضها مسقوف بالآجر الاحمر ، وينسب اسم هذه القرية الى الشيخ احمد القصيري الخلوتي الكردي الاصل الذي يعدونه من الاولياء ويزعمون انه لما جاء من بلاد العراق الى هذه الانحاء في القرن العاشر الهجري او قبله جاء محمولاً على بساط الريح ، وضريح هذا الشيخ مقصود بالزيارة ولأعقابه في هذه الديار ثروة ووجاهة طائلتان احتجنوهما بالمشيخة . وقد جعلت قرية الشيخ قاعدة ناحية قصير الفوقاني التي من قراها او قجيلر وصوفيلر وشمرجق وغيرها

***

وبعد مسير قليل في نجود جردٍ تتدرج بالارتفاع تصل السيارة في الكيلو متر ٢٦٫٥ الى علو ١٠٠٠ متر وهو المنتهى في جبل القصير . فيشاهد السائح هنا منظراً رائعاً يشرف في الشمال على سهل العمق وبحيرة انطاكية والجبل الاحمر وجبل الكرد ، وفي الشرق على الجبل الاعلى وما في جبل القصير نفسه من الاودية والهضاب المتموجة [2] الدكن.

ثم تبدأ الطريق بالانحدار، فتجتاز في الكيلومتر ٣٤ هضبةً مستطيلةً ذات تربة حمراء، جوها بارد قارس حتى في الصيف ، فيها رامة [3] صغيرة تجف في الصيف تدعى الرامة الحمراء . وفي الكيلومتر ٣٨ على يسار الطريق وعلى بعد خمسين متراً كهوف ومدافن اثرية . وفي الكيلومتر ٤١ تنتهي نجود القصير فتشرع الطريق بالمرور بين منحدري جبل القصير والجبل الاقرع وتبدأ اشجار الصنوبر ذات المنظر النضر والاريج العطر بالظهور رويداً رويداً « لها تتمة »

(١) الشعب بكسر الشين وسكون العين الطريق في الجبل

(٢) عنيت بالمتموجة تلك التي يتوالى فيها الارتفاع والانخفاض كامواج البحر ، وذلك مقابل كلمة Ondulé الفرنسية (٣) الرامة مستنقع يجتمع فيه الماء ثم يجف

الاذاعة اللاسلكية

والثقافة العامة

مشروع المعارف الجديد

القضاء على العزلة

لا يختلف اثنان في ان جانباً كبيراً مما يصيب المجتمع الانساني ، من التحوّل ، يرتدّ الى ارتقاء اساليب المواصلات والمخاطبات . فلما استنبط التلغراف والتلفون ومُدّ السلك البحري بين اوربا واميركا ، صارت الحوادث العالمية ذات شأن في نظر الفلاح الاميركي ، المنعزل عن العالم . ولقد قال لورد برِيْس ، مؤرخ « الدولة الرومانية المقدّسة » و« الديمقراطية الاميركية » انهُ لولا التقدم السريع في المخاطبات الكهربائية لما انفجرت مراجل الحرب الكبرى بمثل هذه السرعة وهذا العنف. وفي هذا تأييد لقول الفيلسوف الاميركي جون ديوي : « يصح القول بان الاجتماع البشري يقوم على المخاطبات والمواصلات » . ويؤخذ من جداول مصلحة الاحصاءِ الاميركية انه كان في الولايات المتحدة في اول ابريل سنة ١٩٣٠ اثنا عشر مليوناً ونصف مليون من اجهزة الالتقاط اللاسلكي . ما معنى هذا العدد الضخم ؟ الق نظرة على خريطة البلاد . هنا وهناك مئات والوف من الحقول والاودية فيها بيوت منعزلة عن العالم لا يصلها بهِ سلك تلغرافي ولا تلفوني . ولكن رئيس الجمهورية في نظر سكانها ، ليس الآن تجريداً لسلطة الامة كما كان ، بل اصبح رجلاً يسمعون صوته بالجهاز اللاسلكي اللاقط . والاميرال برد الرائد القطبي ، يجلس في خيمة على الجمد يكتنفه دامس الظلام القطبي ، ويصغي الى موسيقى تحملها الامواج من نيويورك

ان الاذاعة اللاسلكية ، قد قضت على عهد الوحدة والعزلة ، سواء في الحقل النائي او في عرض البحر او على مفاوز الجليد القطبي

غاندي يتكلم في لندن فيصغي اليه العالم . وروايات الاوپرا تذاع من سلزبرغ بالنمسا فتسمع في فيافي الولايات الزراعية في اميركا . وموسيقى الجاز تذاع من اميركا فيرقصون على توقيعها في اوربا . لقد انكمشت الكرة الارضية فاصبح الالمان والكنديون والارجنتينيون والنرويجيون واليابانيون بفضل اللاسلكي جيراناً ، واصبح الناس من مختلف الملل والنحل وكأنهم امة واحدة

وقد حدثنا مزارع كبير مثقف من مزارعي القطر المصري ، ان ماتمَّ في مصر بفضل الاذاعة اللاسلكية لا يختلف عمّا تمَّ في الاقطار الاخرى . ففي سهول القطر المصري مئات من القرى ، معزولة عن العالم ، لبعدها عن اقرب مركز اليها عشرات الكيلو مترات ، فاصبحت الآن متصلة بالعاصمة ، بجهاز لاسلكي اشتراه عمدة القرية، فيجتمع حوله الفلاحون يصغون الى مايذاع من محطة الاذاعة في القاهرة من آيات الذكر الحكيم والاغاني والقطع الموسيقية والاحاديث على اختلافها

هذا الاسلوب الجديد من اساليب المخاطبات لا بدَّ أن يكون فعّالاً في التربية العامة باذاعة حقائق العلوم المختلفة، وبوجه خاص ما كان عمليًّا منها، مما يفيد الفلاح والصانع والوالدة، أو مما يحفز عقل الطالب ويشوّقه إلى طلب التوسُّع في العلوم. وقد أحسنت وزارة المعارف العمومية كل الاحسان ، بارشاد وزيرها الهمام سعادة نجيب الهلالي بك ، اذ وجَّهت عنايتها الى هذه الناحية من فائدة الاذاعة اللاسلكية، فوضعت برنامجاً عامًّا لاذاعة محاضرات في الثقافة العامة ، توجَّه خاصة إلى الطلاَّب والطالبات، يستمعون اليها في ساعات فراغهم ، فيكون خلوها من القيود التي تقيد بها الدروس المفروضة عليهم في المعاهد، واتصافها بصفة التشويق التي يجب أن تتصف بها كل إذاعة لاسلكية، مما يغريهم بالسماع . ولربَّ كلمة واحدة أو عبارة واحدة تقع في ذهن الطالب فتكون كالبذرة الحية ، تقع في أرض خصبة ، فتنتش وتنمو وتؤتي ثمرها

وقد خيّل الينا ونحن نصغي إلى سعادة وزير المعارف ،وهو يلقي خطبة الافتتاح لهذا البرنامج الميمون (١٢ يناير ١٩٣٦) أن أرواح جميع المخترعين الذين أفضت مخترعاتهم إلى اتقان الاذاعة اللاسلكية ، على ما نعهدها في هذا العصر ، كانت تطلُّ عليه من سماء الخلود ، مغتبطة أشدَّ الاغتباط ، أن الجهود التي بذلوها في البحث والكشف والاستنباط تستعمل في هذا السبيل المفيد

ولا ريب في ان وزارة المعارف قد أعدّت في برنامجها ما يتيح لطلاّبها وطالباتها فرصة الاستماع لكبار المدرسين والمربّين في موضوعات تتصل بنواحي حياتهم المختلفة . فالميزة التي تمتاز بها الاذاعة اللاسلكية على سائر وسائل التعليم والتربية ، انها تتيح للسّماع أين كانوا أن يصغوا إلى الافذاذ وهم نوادر في كل فن، حالة أن طلب العلم عليهم ، لا يتاح في الغالب إلاّ لافراد قلائل منهم

فالنبوغ قبل استنباط اساليب الاذاعة اللاسلكية واتقانها كان محصوراً ، فأصبح ملكاً مشاعاً للامة الواحدة بل للانسانية قاطبة . فقد كان المولع بالموسيقى ، يقضي حياتهُ وهو تائق الى

سماع احد كبار الموسيقيين ، ولا يفوز الاّ بتلميذ له او تلميذ تلميذ ، فأصبحنا الآن ولا يكثر علينا ان نرى احد هؤلاء بيننا لسهولة المواصلات ، بل ليسهل علينا ان نسمع معظمهم كلَّ ليلة يوقعون او يعزفون او يغنون وليس بيننا وبينهم الاّ هذه الصلة اللطيفة ، صلة الامواج اللاسلكية . وقد شهد كاتب هذه السطور من اسابيع اسرة مثقفة تنصرف عن تناول العشاء لتبقى في بهو الاستقبال منصتة الى حفلة موسيقية ، يعزف فيها العبقري « يهودي منوهين » عازف « الكمان » المشهور ، في احدى مدن اوربا وما يصحُّ على الموسيقي يصحُّ على سائر مطالب الثقافة العامة

خطبة الوزير

«اولادي الاعزاء من طلاب وطالبات : باسم الله الكريم افتتح موسم الاذاعة اللاسلكية المدرسية محيياً معاهد العلم نظارها ومدرسيها وطلاّبها راجياً ان يتحقق لكم يا اولادي ما نؤمله من الخير في هذا المشروع الذي قصدنا منه توسيع ثقافتكم وتوجيهكم الى حسن الانتفاع بوقت فراغكم وامدادكم بالمعلومات والاخبار الطريفة التي تنير امامكم سبيل الحياة وتصلكم بالعقل الانساني في صورته الكاملة . ومن دواعي غبطتي العظيمة ان يحدّثكم في كل اسبوع فريق من اساتذتكم عما جادت به قرائح المفكرين قديماً وحديثاً في تكوين الحياة الفكرية العامة

«لقد اصبحت الاذاعة اللاسلكية مدرسة كبرى للعقل والتربية، مدرسة فسيحة المدى ليست في مكان وهي في كل مكان ، حرة من جميع جهاتها لا يحدها حد ولا يطوف بها سور ، مدرسة تتجلى منها على الناشئين روح الفضائل القومية وخلاصة الآراء العلمية فتنشر عليهم شعاعاً من ضيائها ولمعة من بهائها

«ثم اصبحت الاذاعة ركناً من اركان كل نهضة تعليمية فهي معززة ومكملة للدروس المعتادة تلك الدروس التي تتقيد بقيود المناهج وتلتزم الحد الادنى للثقافة اما هي فانها لا تعرف حدوداً ولا تخضع لقيود فالمقصود الاول من الاذاعة هو تحرير الدروس من حدود المناهج وفتح السدود القائمة بين المدرسة والحياة فهي نوافذ تطلون منها على العالم وما فيه من علم وخبرة وآداب فترون كيف يتجلى العلم في العمل وتحكم الروابط المنشودة بين المدرسة ومجرى الحياة العامة . وهي كذلك نوافذ يطل عليكم منها مئات الاساتذة الذين لا يتاح لكم بغير هذه الوسيلة الفريدة ان تغترفوا من مناهلهم

« ولا شك ان تنويع الوسائل في التعليم واختلاف المدرسين الذين يحاضرونكم سيشعركم بسرور عظيم لدى تلقي المعلومات التي يبعثون بها اليكم على متن الاثير

«على ان في هذه الاذاعة المدرسية معنىً سامياً فانكم تشعرون الآن — وفي كل وقت

تجتمعون فيه لسماع مثل هذه الاذاعة — ان جميع طلبة القطر قد اجتمعت قلوبهم واتجهت نفوسهم نحو غاية واحدة . فانتم تتلاقون جميعاً تلاقياً قلبيـاً . وتولون وجهكم شطر القبلة العلمية. وكأن موجات الاثير إذ تتحرك تطيف بقلوب فتيان مصر وفتياتها تثبت معنى التعاون العلمي والثقافي بأجلى صوره

« ويقيني ان حياتكم المدرسية وما بها من نشاط علمي يشرف عليه حضرات اساتذتكم الى جانب ما تقوم به هذه الاذاعة من تهذيب وتثقيف سيكون خير هاد للجيل المصري الناشىء الى اقوم سبل الحياة . فلتتخذوا من هذا وذاك مرشداً لما ينبغي ان تتجه اليه مدارستكم ومطالعاتكم فان ميدان العلم فسيح ولا بدّ للنجاح فيه من الاعتماد على الجهد الشخصي في البحث والاطلاع

«اولادي الاعزاء : أنتم ذخيرة الوطن لمستقبله وموضع عنايته في حاضره والصلة القوية بينه وبين ماضيه . وان قلبي ليجيش بأطيب الاماني نحو نابتة البلاد التي ندخرها لاعزاز الوطن بما تتحلى به من خلق نبيل وعقل راجح ورجولة كاملة »

الثقافة وفن الاذاعة

عند ما يذكر الراديو على انه وسيلة فعالة من وسائل التثقيف العام تطير قلوب المعلمين والمربين والمثقفين وترقص فرحاً . ذلك انهم يتصورون ان اصواتهم التي كانت تنحصر قبلاً في دائرة ضيقة مؤلفة من بضعة طلاب او بضع عشرات في غرف التدريس او بضع مئات في ردهة المحاضرات، وقد اتسع نطاقها حتى تبلغ الالوف وعشرات الالوف بل ومئات الالوف من الناس قابعين في بيوتهم مستعدين لقبول الحكم التي تتناثر من افواه المتكلمين محمولة على متن الاثير

ولكن المستر جون ارسكين يرى ان هذه الصورة الاخاذة التي يتصورها المثقفون لا تزال بعيدة التحقيق . لان الاذاعة بالراديو لا بدّ ان تكون مرانة قبل ان تصبح فرصة سانحة للتثقيف ورفع المستوى الفكري والثقافي في نفوس السامعين . فاتساع نطاق السامعين واختلاف العناصر التي يتألفون منها والتفاوت بين مراتبهم الفكرية والفنية اشبه شيء بالتحدي الموجّه الى القائمين على تدبير شؤون الاذاعة اللاسلكية والى المثقفين الذين يرون فيها الوسيلة المرجوة لتحقيق حلمهم الذهبي

الاذاعة بالراديو فن ، والمذيع اما ان يكون على جانب وافٍ من حذق هذا الفن او هو لا بدّ مخفق في مهمته . فالاذاعة بالراديو تتطلب من المذيع نبرات خاصة في القول وتركيباً خاصّاً في العبارة أما فيما عدا ذلك فهو فن خاضع لقواعد الجمال العامة التي تخضع لها الفنون جميعاً

وانا لنستطيع اذا شئنا ان نجعل علم الجمال (استتيك) علماً معقداً خالياً من شعلة الحياة

ولكن الذي يهمنا من امره في هذا الصدد هو امران : الاول كيف نقنع الجمهور بأن يقبل على الفنان وهو الخطيب او المحدّث اللاسلكي في هذه الحالة. والثاني : ان نقنع هذا الجمهور بأن لا يوصد دون الخطيب اذنه اللاسلكية

أما البواعث على اقباله فقد تكون كثيرة متعددة ولكن احتفاظنا بانتباهه وباقباله لا يمكن ان يحقق الاّ اذا احسّ ان ما يصغي اليه له قيمة في نظره

والتربية فن كذلك . أما البواعث التي تحمل طوائف الشبان والشابات على الاقبال على المدارس فخليط من البواعث الاجتماعية والاقتصادية والرياضية . ولكن هذه البواعث لا تدفع احداً الى الاقبال على سماع محاضرة او حديث او رحلة تذاع بالراديو . فالاصغاء الى ما يذاع لا يتيح للسامع ان يتعرف بأناس يتوق الى معرفتهم . والراجح انه لا يساعده في اعداده لعمل معين كالدراسة في المدارس الفنية والصناعية . فالسامع لا يدير آلته اللاسلكية الاّ اذا كان الموضوع المذاع يهمه ، والمتكلم يجيد التكلم فيه ، فهماً لعناصره والقاءً لعباراته . فاذا كان الموضوع لا يهم السامع ، او اذا كان المتكلم، لا يعرف كيف يملك ألباب سامعيه فليس في العالم فن ، يستطيع ان يخرج فيه السماع من حضرة المتكلم مثل فن الاذاعة بالراديو . اذ ما عليهم حينئذٍ الاّ ان يقفلوا دونه هذه الآلة السحرية ، بدورة يسيرة في مفتاحها

هذه الاحوال والقواعد ، تجعل البقاء في ميدان الاذاعة اللاسلكية ، للاصلح حتماً ولن يبقى الاّ الاذاعة التي تعد وتذيع برامج ، للهو والتسلية والتثقيف ، تحمل السامع على الظن بانها تلهيه او تسليه او تثقفه ، اي تحمله على الظن بأنه يجني من السماع شيئاً له قيمة معنوية في حياته

وليس في امكاننا ان نقول ان كل هذا يمكن تحقيقه ، بنقلنا الاصوات من حجر التدريس الى بوق المذياع. ولا في امكاننا ان نقول ان السمَّاع يقبلون على سماع ما يذاع ، كما يقبل الطلاب على حجر الدراسة مرغمين على ذلك ، لان سمّاع الراديو لا يقبلون الاّ اذا همهم الامر او لذّ لهم . اننا لا نستطيع ان نرغمهم . ثم انه ليس في امكاننا ان نقول ان سمّاع الراديو يقبلون على السماع كما يقبل الطلاّب على الاصغاء للمحاضرات رغبة في انهاء سني الدراسة والحصول على اللقب او الرتبة العلمية التي تميزهم في مجتمعهم أو تفتح لهم ابواب العمل في معاهد ومنشآت معينة

ان المدرسين بوجهٍ عام قد تعوّدوا الفوز بجماهير من الشبان والشابات يصغون لمحاضراتهم ، اما بفرض الحضور عليهم قانوناً، او بتزيين الفائدة الاقتصادية التي يجنونها من الحضور والحصول على رتبة اكاديمية معينة . ولكننا لا نستطيع ان نعمد الى هذه الاساليب في حمل الجماهير على الاقبال على سماع ما يذاع بالراديو . فاذا كان في ما نذيعه، فائدة تجنى او تسلية تسري عن النفس وتشيع في جوانبها معاني السرور والغبطة ، فالتثقيف بالراديو بالغ ولا ريب النجاح المقدر له. واذا لم يكن في

ما نذيعه ، هذه الفائدة أو تلك التسلية ، فالسامع لا بدَّ موصد دوننا اذنه اللاسلكية . وعند ذلك تصبح الدقائق اوالساعات التي تعين لاذاعة الثقافة العامة دقائق وساعات ، من الصمت الرهيب يخيم على طول البلاد وعرضها ، ولو كان الجو حافلاً بالحكم والدرر

اذا تقرر هذا حق لنا ان نلتفت الى موضوع آخر وهوان الفائدة العظمى التي تجنى من خدمة الراديو الثقافية يجنيها أولئك القاطنون في مناطق لا يتاح لهم فيها من أسباب الثقافة ما يتاح لابناء المدن الكبيرة المشهورة بانها مراكز للعلم . فلا سبيل لهم الى سماع عشرات المحاضرات في مختلف الموضوعات ولا الى حضور المدارس والمعاهد لتلقي العلم على أربابه ولا الى زيارة المتاحف والمعارض في ساعات الفراغ واذن يجب ان نقيم لمطالب هؤلاء القوم وزناً عند التفكير في اعداد برنامج للاذاعة اللاسلكية غرضه التثقيف العام

ولكن ما هي مطالبهم ؟ هذا أمرٌ يتعذر عليك الحكم فيه وأنت جالس في مكتب مدير الاذاعة أو في حجرة رئيس التحرير مع انك في كليهما تستطيع أن تقول أقوالاً عامة في الموضوع.وليس ثمت سبيل الى معرفتها — على ما ثبت بالاختبار في اميركا — الاَّ باعداد الاسئلة بحكمة ودراية توجه اليهم على الراديو وبحثّهم على موافاة الادارة العامة بمطالبهم . عند ذلك تؤخذ ردودهم وتفرز وتبوّب ومنها يستطيع أولو الامر أن يتبينوا الطريق العام الذي عليهم أن يسلكوه فاذا هم لم يفعلوا ذلك ، خسروا هؤلاء السّماع

والامر الثاني الذي يجب أن نشير اليه ، هو ان التثقيف بالراديو قد لا يتفق — وهو في الغالب لا يتفق — مع النظريات التعليمية العامة التي يجري عليها المعلمّون في معاهد العلم . فنحن في معاهد العلم نقسم المعرفة ونبوّبها علوماً وفروعاً ، ونجعل موضوع الدرس في الفرق المختلفة في ساعة معينة هذا المذهب في تاريخ دولة من الدول او تلك النظرية في أصل حيوان من الحيوانات وهلمَّ جرًّا . ولكن الحياة قلما تقسم المعرفة هذا التقسيم وقد يسألنا في أحد الايام رجل سؤالاً يتناول بضعة علوم أو بضعة فروع مختصة من علم واحد . ففي فرق التدريس قد نجيب عما يخصنا من السؤال ونحيل السائل على سائر المختصين في فروعه المختلفة ولكننا لا نستطيع ان نفعل ذلك بالراديو بل يجب علينا أن نجيب اجابة عامة شاملة تنطوي على روح السؤال نفسه

خذ مثلاً على ذلك : قد يقابل طالب في جامعة أو في كلية أستاذ الاقتصاد ويقول له يا أستاذ : أن موضوع القاعدة الذهبية للنقد يحيرني . لماذا خرجت عنها أميركا وعندها أكثر من نصف ذهب العالم؟ وما صلة المحكمة العليا بقرار اقتصادي ؟ ولماذا نقدنا نحن متصل بنقد أمة أخرى وما الفائدة الذي نجنيها من ذلك ؟ وغير ذلك من وجوه مسألة تبدي فيها الصحف وتعيد كل يوم في أنبائها البرقية وتعليقاتها . وقد يكون الاستاذ مستعجلاً لا فراغ عنده ليلقي

محاضرة في الموضوع فيقول للطالب أصبر حتى نصف السنة المقبل ففصل الاقتصاد سوف يتوفر على دراسة هذا الموضوع . ولكن اذا كان هذا الاستاذ يلقي أحاديث اقتصادية بالراديو ، وكان جمهور سماعه يبغي أن يفهم هذا الموضوع لما لهُ من الصلة الحيوية بأعماله — بسعر أقطانه وثمن طعامه ولباسه - اذا كان الجمهور يبغي ذلك فلا ندحة للاستاذ من تلبية الطلب ، وفي أول فرصة ، لانه اذا جتمع الفصل في المرة التالية ، ولم يفعل لم يجد في المرة التي تليها الا ّ نفسه والآلة وأمواج الاثير . وعلى ذلك لن يكون التثقيف بالراديو منافساً للتثقيف في المعاهد . ولكن مما لا ريب فيه انه يقتضي هنا أن نبتدع أساليب جديدة لنعليم المتقدمين في السن وتثقيفهم ، تختلف عن أساليب الفصول في المدارس

واذن فالتثقيف بالراديو يجب أن يكون نوعاً ، من الاجابة الموجزة السهلة المشوّقة عن الاسئلة التي تهم الجمهور أو التي يوجهها الجمهور إلى المتكلمين .ولا بد في هذا الصدد من أن نعيد أن الاجابة يجب ان تكون موجزة . ويجب أن تكون سهلة . ويجب أن تكون مشوّقة

هذه الصفات الثلاث التي يجب أن تتصف بها احاديث الراديو المتجهة الى التثقيف العام ، هي الصعيد العام الذي تلتقي فيه أذهان كثرة السماع ويجب أن تراعى كل المراعاة

فالايجاز يحول دون تطرق السآمة والضجر الى النفس يبعثهما فيها التطويل والتبسط والاستطراد . والسهولة في إيراد المعاني تكفل فهم ما يقال عند أكبر عدد من المستمعين. والتشويق يجمع بين الاثنين فيقيها من الملل ويستحثها على المثابرة إذا عرض لها في خلال القسم الاول من الحديث ما لم يفهم على حقه

فذكر الاشياء العلمية مثلاً له اسلوبان ، الاسلوب الكلاسيكي يبدأ فيه بذكر تاريخ الموضوع وتطور نظرياته . والاسلوب المشوّق ، يبدأ فيه بذكر بعض نواح تسترعي الانتباه لما فيها من غرائب أو امور غير مألوفة. والمحدث اللاسلكي البارع يستطيع أن ينفذ من ذلك إلى تقرير ما يريد تقريره بعد ان يفوز باصغاء سمّاعه وعنايتهم . ومن ابدع الاساليب في هذه الناحية ، سرد سير موجزة للاعلام على ان تكون السير اشبه بالقصص تروى ويبين ما فيها من عناصر الرواية وتضمين الحوادث اهم ما يقال عن آثار الرجل وفعاله ومنها كذلك طريقة السؤال والجواب ولها اصول وقواعد

وانا لا ندري لماذا لا تعنى ادارة الاذاعة عندنا بناحية السير خاصة . وفي كل يوم نرى في الصحف ذكر علماء وروّاد وقواد وسياسيين في حياة كل منهم ما يستوقف النظر من كفاح مع الفقر وغلبة على الصعاب وتمسك بالمبادىء وحنكة في الملمات وعزم وحزم وحكمة في الازمات . اي حائل يحول دون ذلك ؟ ولعلّ المشرفين على برنامج الاذاعة المدرسية في وزارة المعارف يوجهون عناية خاصة الى هذه الناحية من الموضوع

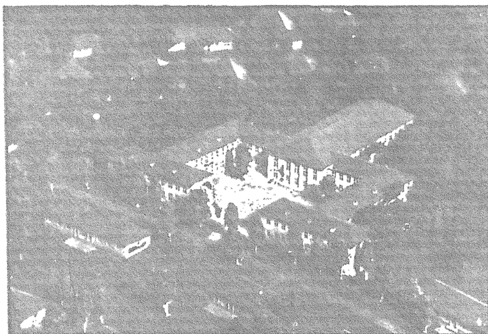

«الدار المشتركة» التي اعدت للاجتماعات الصغيرة التي يعقدها ممثلو الامم المختلفة في الالعاب الاولمبية

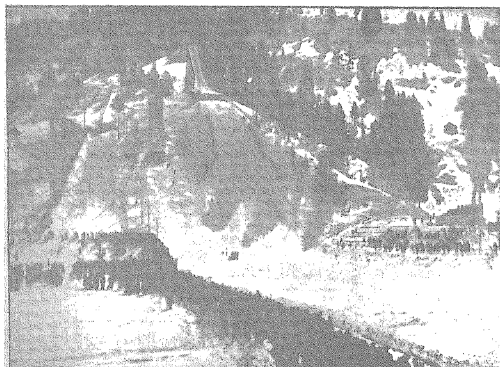

المكان الخاص الذي اعد لمباريات الانزلاق على الثلج

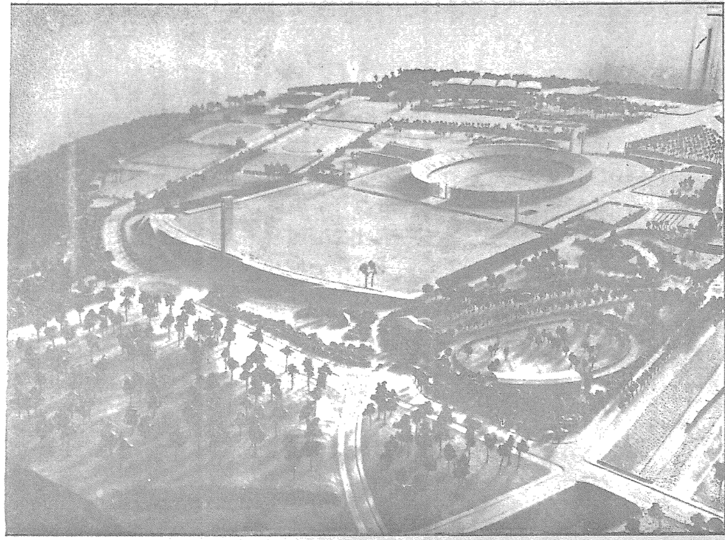

الملعب الفخم الذي أُعدّ للالعاب الاولمبية القادمة في برلين

الالعاب الاولمبية

لسنة ١٩٣٦

في جبال باڤاريا وبرلين

ان من المعلوم ان الالعاب الاولمبية تجري كل اربع سنوات في عاصمة من العواصم. والغاية من تلك الالعاب قسمان قسم رياضي محض نظراً الى تجلي المهارة الجسمانية ومنافسة ليوث الرياضة للحصول على البطولة العالمية، وقسم معنوي نظراً الى ائتلاف الامم لحظة كل اربع سنوات في مظاهرة فنية لا يشوبها كيد ولا لؤم. وستقع الالعاب الاولمبية المقبلة في المانية لجانب منها من ٦ الى ١٦ فبراير سنة ١٩٣٦ والآخر عادي من ٢ الى ١٦ اغسطس من السنة عينها. وتجري الالعاب الشتوية في قرية من قرى جبال باڤارية تدعى «جارميش بارتنكرشه Garmisch-Partenkirche وفي هذه الالعاب الاخيرة الانزلاق والقفز والرقص الى غيرها مما يتعلق بالرياضة على الثلج والجمد. واما الالعاب العادية وفيها العدو والقفز والمصارعة والمبارزة والملاكمة والملاحة وكرة القدم وغيرها فستجري في ضيعة مجاورة لبرلين

وعناية الحكومة الالمانية بهذه الالعاب المقبلة شديدة جداً. فقد أمر الزعيم هتلر ان يقام في سبيلها على مقربة من برلين ميدان واسع يصلح ان يكون فيما بعد مسرحاً للرياضة الالمانية، وان تبنى عنده قرية تامة الوضع ينزل بها المشتركون في الالعاب اذ فيها دور ومستشفيات وحمامات وحدائق. واما الالعاب الشتوية فقد اعدت الحكومة الالمانية فيها ميدانين احدهما للانزلاق والقفز والآخر للرقص وما اليه وهذا الاخير صناعي غير طبيعي. وسينزل المشتركون في هذه الالعاب القرية المذكورة وهي «جارميش» ولا تدخر لجنة الالعاب وسعاً في الاستعداد الى ذلك

ومما يعنى به القائمون بشؤون تلك الالعاب ان تكون الميادين آية في الفن والاتقان وفي نيتهم ان يخرجوا شيئاً لا يجد احد مثله الا عند اليونان الاقدمين اصحاب الاولمب. وقد اشار الزعيم هتلر الى تلك النية في احدى خطبه الاخيرة، ويقال انه لا يقعد عن مراقبة العمل

ومما يذكر ان اللجنة المتقدم ذكرها تخرج مجلة شهرية في عدة لغات اوربية تقف الجمهور على

سير العدّة وتبحث في شؤون الرياضة على وجهٍ عام والالعاب الاولمبية على وجهٍ خاص . وقد نشرت هذه اللجنة كتاباً ضخماً مزيناً بالصور الطريفة يتناول الموضوع نفسه

ومن المستظرف ان وزارة الدعاية الالمانية انشأت متحفاً لتلك الالعاب نقالاً يجول في ربوع المانية وهو متحف مضموم في ست سيارات ضخمة وفيه آثار الالعاب الاولمبية جميعها مع رسوم الميادين التي اقيمت لاجلها في اثينة وباريس ولندن ولوس انجلس وغيرها وصور الابطال الفائزين. من ملحقات هذا المتحف الغريب آلة للصور المتحركة تبرز للناظرين مجرى مُعدّات الحكومة الالمانية للالعاب الآتية

ولنمهل هنا لحظة لنتحدث قليلاً عن الرياضة في المانية لهذا الزمان ورجوعنا في حديثنا الى الخطبة التي القاها مدير الالعاب الرياضية شهر مارس ١٩٣٥ في برلين في حفل من الصحافيين الاجانب

ترى الحكومة الهتلرية أن الرياضة في ايامنا هذه تقوم مقام الفروسية التي كانت شائعة في القرون الوسطى ، وكما ان الفرسان الجرمانيين في ذلك العهد ضربوا بسهم وافر في نواحي الفروسية فكذلك ينبغي للجرمانيين الحاليين ان يدلوا على مهارة شديدة وميل الى القوة لا يعرف الونى . فالقوة جمال الرجل والضعف مدعاة لفساده وسقوط همته وذله . اضف الى هذا أن الرياضة تورث حب الحرية وهل بعد الحرية مأرب للانسان . كل هذا علاوة على ما يترتب على الرياضة من تهذيب النفس بين اعتماد عليها وسعي لها وتضافر الجماعة والمرح البريء واللهو الصالح

تلك آراء اخذ بها الالمان من بعد الحرب توًّا وقد بلغ بهم الأمر ان بزّوا سواهم في بعض ضروب الرياضة وتفننوا فيها تفنناً عجيباً ونظن اعجب ما اتوا به الرقص الايقاعي المشهور عنهم، ذلك الرقص الذي شاع حتى انه ولج المدارس في امريكة واوربة

هذا وكان الالمان أشربوا حب الرياضة ومن الشواهد على ذلك ان الالماني اذا غادر المدينة صيفاً للترويح عن النفس لا يلتمس الراحة بل لا ينفك يسير على قدميه طول نهاره او يتسلق الجبال أو ينصرف الى الملاحة . وما اسعده لو استطاع ان ينطلق شتاء الى الجبال المثلجة فيقفز هنالك وينزلق ما شاء الله أن يفعل ومما يلاحظه المقيم بالمانية ان الامهات لا يصاحبن اولادهنّ في غدواتهنّ وروحاتهنّ بل يبعثنهنّ الى رياض الاطفال يمارسن الالعاب الرياضية على اختلاف الوانها

بتلك الاستعدادات المعنوية والادبية تنظم الحكومة الالمانية الالعاب الاولمبية، فعسى أن تفلح وان تبلغ المدى لاننا نعد تلك الالعاب مدعاة للتفاهم بين الامم وسبيلاً لتآلفها ولو لحظة من الزمان . فقد والله سئمت الانفس الروح السائدة الآن في أندية العالم ، روح البطش والنضال . وكم تود النفس الصافية ان تعد بعراك سليم محمود العواقب يشف عن اجلال الناس بعضهم لبعض وميل كلهم الى التآلف وحسن التفاهم

موقعة نافارين البحرية

٢٩ ربيع اول سنة ١٢٤٣هـ ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧م

للدكتور علي مظهر

— ٢ —

بدء المعركة

اقلعت الاساطيل المصرية والعثمانية في اوائل اغسطس سنة ١٨٢٧ بقيادة امير البحر محرم بك فاما الاسطول المصري فكان مكوناً من ثماني عشرة سفينة حربية والعثماني من ست عشرة سفينة واربع سفن تونسية وجزائرية وست حراقات واربعين مركباً لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ جندي. وكان امير البحر التركي هو جنكل اوغلي طاهر باشا وقد عزل خسرو باشا من البحرية لخلاف وقع بينه وبين ابرهيم باشا . وتعين عزت باشا مكانه وكان ذلك خلال الحركات العسكرية البرية والبحرية التي انتهت باسترداد بلاد موره . ووصلت السفن العثمانية الى ميناء نافارين في ١٨ شوال سنة ١٢٤٢ هـ وكانت مؤلفة من ٣٧ سفينة على رواية سرهنك باشا (جـ ٢ ص ٢٤٠) والاسطول المصري كان ١٦ سفينة بقيادة امير البحر محرم بك بعدئذ واصبحت السفن التركية والمصرية والتونسية والجزائرية ٥٢ سفينة كلها بميناء نافارين بقيادة ابرهيم باشا وكان عدد مدافعها ١٥٨٨ مدفعاً وكان عدد سفن الدول المتحالفة الاخرى ٢٦ سفينة كبيرة تحمل ١٢٦٦ مدفعاً

على انه يجدر بنا ان نشير الى بحث لسمو الامير العلامة الجليل عمر طوسون عن عهد محمد علي ذكر فيه ان سفن مصر الحربية التي اشتركت في حرب موره كانت اربعاً وثلاثين قطعة غير سفن النقل التي بلغت اربعاً واربعين وذكر انه لم يعد منها غير ثمان وثلاثين قطعة منها احدى وعشرون سفينة نقل وسبع عشرة سفينة حربية ما بين فرقاطة وقرويت وابريق

وهذه المعلومات منقولة من كتاب وضعه سموه يسمى (صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي) ولعل سموه يعجل بنشره خدمة للتاريخ

وتولى ابرهيم باشا القيادة العامة لكل القوات البرية والبحرية. واستعد لمهاجمة جزيرة (هيدرا) بحراً وشمال (موره) براً . واتخذت اساطيل الدول المتحدة مكانها بين جزيرتي (هيدرا) و (نزميا) وتجسس قائد الاساطيل المتحدة امير البحر كودرنجتون عن اخبار السفن العثمانية والمصرية لمنعهما من الوصول الى سواحل اليونان وانزال الامدادات الى البر . ولكن تلك السفن المشار اليها كانت قد وصلت الى ثغر (نافارين) من دون ان تشعر بها سفن الاساطيل المتحدة . فتم لها ما ارادت من دخول الى الميناء وانزال الرجال والمؤن والذخائر . ويجدر بنا ان نشير الى ما كان يبدو من تباين كبير وفرق واضح بين السفن المصرية والسفن العثمانية فكانت الاولى احسن نظاماً وترتيباً واجود اسلحة . وكانت تبدو السفن المصرية في حالة جيدة جداً بشهادة من رآها ومنهم الكابتن فيلوز احد ضباط الاسطول الانجليزي عند ما كان يستطلع اخبار اساطيل اعدائه (عبد الرحمن بك الرافعي في عصر محمد علي ص ٢١٦)

وكان وصول الاسطول الانجليزي امام نافارين يوم ١٢ سبتمبر والفرنسي يوم ٢١ منه والروسي في اوائل اكتوبر

وارسل كودرنجتون الى ابرهيم باشا رسولاً يوم ١٩ سبتمبر ١٨٢٧ يبلغه ما تمَّ عليه رأي الحلفاء في لندن من وقف القتال في البر والبحر. وقال له ان اساطيلهم جاءت لمنع وصول السفن الحربية والامدادات البرية الى اليونان وجزرها . وقابل امير البحر (ريني) الفرنسي عند حضوره لمياه اليونان ابرهيم باشا . وكرر على مسامعه مطالب الحلفاء ثم رجع فقابله هو ومعه كودرنجتون من قبيل الارهاب والتهديد ليعود باسطوله ورجاله الى الاسكندرية . وقابل البطل ابرهيم باشا التهديد بما عهد فيه من رباطة جأش وثبات . وقال لهما في جوابه انه سيرسل الى والده بمصر وإلى الباب العالي (حكومة تركيا باستنبول حينئذٍ) لاخذ رأيهما وتلقي التعليمات منهما. وانه يتعهد ببقاء الاسطول في نافارين الى وصول تلك الاوامر والتعليمات

ويؤثر عن ابرهيم باشا قوله لامير البحر الفرنسي وهو يحادثه (انكم تطلبون مني وقف كل حركات القتال بينما تتركون الارwام يفعلون ما شاءوا . وهذا ليس من الانصاف في شيء) . وقد كان ما قاله هو الواقع . ولو أنه سار الى جزيرة (هيدرا) لكان القضاء المبرم والاخير في ذلك على آخر معقل لثوار اليونان . ولكن الحلفاء كانت تأبى ذلك . فبينما كانت الهدنة الوقتية معقودة بين ابراهيم باشا والاساطيل المتحدة كان اليونانيون يقومون بحركات عدائية في خليج كورنثوس. وازمعوا مهاجمة (باتراس) شمالي مورة بمساعدة الحلفاء الذين تطوعوا لخدمتهم بأساطيلهم وقواتهم مع ان الجيش المصري كان يحتل تلك المناطق . ولم تفد بلاغات ابراهيم باشا التي ارسلها الى قائد الاساطيل المتحدة عن ذلك : فرأى ابراهيم باشا ان يمد (باتراس) . وسار اليها بحراً في بعض

السفن البحرية . فثارت ثائرة الحلفاء وعدوا ذلك منافياً للهدنة مع ان ابراهيم باشا تعهد بعدم مهاجمة جزيرة (هيدرا) فقط . ولم يكن هناك ما يمنعه من انجاد الجنود المصرية المعسكرة في (مورة) وان يدفع عنها اذى قوم يريدون بها شراً بمعاونة حلفائهم المتطوعين لخدمتهم ولا نالتهم استقلالهم . وارسل كودرنجتون سفنه فتعقبت السفن المصرية ولحقت بها تجاه رأس (باپاس) شمالي مورة وهددتها بالحرب اذا لم ترجع فاضطرت الى العودة الى نافارين

واوصى محمد علي ابنه ابراهيم بعدم التحرش بأساطيل الحلفاء لانه كان متأكداً من قواتها. واوصاه في خطاب اليه بعدم الاصطدام مع الدول خوفاً على الاسطول المصري . واخبره بأنه سيرسل اليه تعليماته النهائية اذا جاءه الرد من الباب العالي . فرأى ابراهيم باشا ان ينفذ وصية ابيه اليه . والتزم في نافارين خطة الدفاع سيما وقد كان يعلم ما كانت عليه الاساطيل المتحدة من القوة لما اتصفت به من نظام وما كان لسفنها من قوة سلاح ومدافع شديدة الفتك بعيدة المرمى وما كان لامرائها وضباطها من مرانة على ركوب البحر وكفاءة وعلم . ولم يقنع الحلفاء بخطة الدفاع بل رأت انجلترا القضاء على الاسطول المصري والعثماني . واوعزت بذلك الى الحلفاء لان انجلترا كانت تخشى زيادة قوة الاسطول المصري يوماً عن يوم . وهي كانت تبغي دوام السيادة على البحر الابيض المتوسط . فلتنتهز الفرصة السانحة لاضعاف مصر في نكبتها في اسطولها الناشىء ولتحول دون قوة مصر البحرية والبرية ايضاً

وزحف ابراهيم باشا بقوة من جنده داخل مورة لانجاد الحاميات المصرية التي شاغبها الثوار . ولكنه اوصى امير البحر محرم بك قائد الاسطول المصري وامير البحر طاهر باشا قائد الاسطول التركي العثماني بعدم التحرش بأساطيل الدول وان يلتزما المودة والمجاملة . ولكن قواد الاساطيل المتحدة المتحالفة ارسلوا اليه انذاراً بعد مبارحته نافارين لانه في زعمهم نقض الهدنة وأنه وحده يتحمل عواقب ذلك العمل الخطيرة وحمل رسولهم الانذار الى نافارين قبل يوم الموقعة بيومين . ولما لم يجد الرسول ابراهيم باشا عاد برسالة التهديد الى كودرنجتون فاجتمع قواد الاساطيل . واتفقوا على ادخال اساطيلهم الى ميناء نافارين بقصد التهديد والتظاهر

***

وكانت سفن مصر والسفن العثمانية داخل الميناء في ثلاثة صفوف متوازية تقريباً كل صف في شكل نصف دائرة يمتد طرفاها من نافارين الجديدة الواقعة على يمين البوغاز الى جزيرة اسفاختريا التي تحجب عن الميناء امواج البحر . وكانت السفن الكبيرة والفرقاطات في الصف الاول . ويليها سفن الكورفيت ثم سفن الابريق وغيرها بعدها في الصف الثالث

وكانت بنافارين استحكامات لتحمي مدخل الميناء كما وضعت بطاريات من المدافع في طرف

جزيرة اسفاخترِيا مع مساعدة سفن خفيفة من الحراقات . وهي المراكب التي تشعل فيها النيران فتندفع وسط سفن الاعداء لتحرقها بنارها

وفي يوم ١٧ اكتوبر سنة ١٨٢٧ ارسل امير البحر ريني الفرنسي يدعو فيه الضباط الفرنسيين الذين استخدمهم محمد علي لتنظيم بحريته لكي ينسحبوا من الاسطول المصري حتى لا يحاربوا فرنسيين مثلهم فلبوا الدعوة واستأذنوا قائد الاسطول المصري محرم بك فأذن لهم . وتركوا الاسطول الذي كانوا فيه يوم ١٨ اكتوبر اعني يوم التهديد من قواد السفن المتحالفة . وفي ذلك عبرة لمن يريد ان يعتبر وان لا يعتمد في المهمات الا على اهل البلاد مع الانتفاع بمعارف الاجانب واستخدامهم الى حد معقول محدود

وجمع امير البحر الانجليزي قباطين الحلفاء صباح يوم التهديد على ظهر سفينته (آسيا) ليصدر اليهم التعليمات فيما يجب عمله اذا بدأ القتال . ويظهر انهم كانوا يريدون تنفيذ خطة الغدر بالاساطيل المصرية والعثمانية في ذلك اليوم لولا الريح التي لم تساعدهم يومها على دخول البوغاز وتنفيذ مؤامرتهم فانتظروا الى ثاني يوم فان سفن الاساطيل المتحالفة المتحدة استعدت في الساعة العاشرة للتأهب وبدأت سفينة (آسيا) المقلة لامير البحر الانجليزي عند الظهر تتجه على سَمْت من الخليج تحيط بها بقية الاسطول الانجليزي وفي اثره الاسطول الفرنسي والروسي

وفي منتصف الساعة الثانية بعد الظهر اصدر قائدهم الاكبر امره بالتأهب للقتال وعند تمام الثانية بعد الظهر اقتحمت البوغاز . فأرسل محرم بك رسولاً الى سفينة امير البحر الانجليزي يطلب منه ان يمنع سفن الدول المتحدة المتحالفة على الشر من الرسو في ناڤارين فردّ كودرنجتون على الرسول رداً جافاً . وقال بأنه لم يأت ليتلقى الاوامر بل ليمليها . وظهرت عندئذ ما ينتوه من شرٍّ وعدوان واضحاً جلياً

واصطفت سفن الحلفاء على شكل نصف دائرة تقريباً امام الاسطول المصري والعثماني . واقتربت معظم السفن حتى اصبحت امام السفن المصرية والعثمانية وجهاً لوجه . وصار بعضها على مرمى المسدس منها . وهذا مما يظهر نية الحلفاء واضحة وقد برح الخفاء

ووقفت البارجة الانجليزية دارتموث على رأس الصف لتعطيل عمل الحراقات المصرية الراسية في مدخل الميناء . وطلب قبطانها الى احدى هذه الحراقات ان يغادرها بحارتها وجنودها او ان تنسحب من مواقعها . وذهب رسول الانجليز في قارب مسلح الى السفينة المصرية متحدياً للقتال . ويقول بعض مؤرخي الحلفاء يومئذٍ ان رصاصة اطلقت من السفينة المصرية فأصابت جندياً من الحلفاء فكان القتال . وسواء صحّ ذلك ام لم يصح فان اساطيل الدول المتحدة جاءت تتحدى وجاءت لتنفيذ خطة معينة وهي القضاء على الاساطيل المصرية والعثمانية غيلةً وغدراً .

صورة تقريبية لمعركة نافارين البحرية
السفن المصرية والعثمانية يرمز اليها هنا بخطوط
وسفن الحلفاء يرمز اليها بنقط

ولاسيما اذا عرفنا ان سفن الحلفاء على قلتها كانت ارجح . فقد كان لديهم عشر بوارج كبيرة مقابل ثلاث عند المصريين والاتراك وكانت سفن الحلفاء المتحدين اشد بأساً واقوى سلاحاً واكثر استعداداً وارقى قيادة من سفن اعدائهم لحداثة عهد المصريين وقتئذٍ بركوب البحار . ولو انهم ابدوا من ضروب البسالة والاقدام والقيام بواجبهم ما يشكرون عليه . ولم يسلموا بأية سفينة من سفنهم ولكنهم كانوا داخل الميناء في مكان ضيق لا يسهل عليهم فيه الحركة

وبدأ اطلاق النيران من اساطيل الدول المتحدة على الاساطيل المصرية والعثمانية ، في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر.واستمرّ القتال الى الخامسة تقريباً . وتجاوبت النيران والاساطيل الضرب . وعلا الدخان . وكان المنظر رهيباً من اشتعال النيران في المراكب وغرق هذه السفن في المياه وفتك الانسان بأخيه الانسان . واستمر القتال الى الخامسة مساء تقريباً . وكانت النهاية محزنة . فقد غرق كثير من السفن المصرية والعثمانية . ونسف بعضها . وجنح ما بقي منها الى الشاطىء . ولم يسلمها بحارتها للاعداء فأحرقوها وبلغ عدد قتلى المصريين والعثمانيين ثلاثة آلاف وخسر الحلفاء ١٤٠ قتيلاً و٣٠٠جريح (عبد الرحمن بك الرافعي في عصر محمد علي ص ٢٢٤)

كل ذلك يحدث من دون سابقة اعلان حرب من جانب الحلفاء فكانت نية الغدر مبيتة.ونفذت يوم ٢٩ ربيع اول سنة ١٢٤٣ هـ (يوافق ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٢٧ م)

ودليل الغدر ان ابرهيم باشا وهو القائد للحملة على موره البرية والبحرية لم يشاهد موقعة نافارين . ولو انه توقع ذلك لما ترك الميدان بل لشهده كما كانت عادته في وقائعه اذ كان يشترك فيها . وكان ابرهيم مع جيشه الذاهب في داخلية بلاد موره لمعونة الحاميات المصرية التي يشن الثوار عليها الغارات . ولما بلغته نتائج الموقعة البحرية وما حلّ باسطوله ورجاله عاد الى نافارين . وشهد آثارها وكان حزنه شديداً . ثم انه امر باعداد بعض السفن الناجية وعوّم بعض السفن الغارقة وارسلها الى الاسكندرية . ولزم جانب الدفاع واخلى مدن موره . وامتنع بمعظم جنوده في ثغري (كورون)و(مودون) حتى يأتيه امر ابيه (عبد الرحمن بك في عصر محمد علي ص٢٢٥)

واتصل قناصل الدول المتحدة بمحمد علي في مصر .وافهموه بان يسحب جيوشه وقوته من موره . وكتبوا معه اتفاقاً محرراً غاية ذي الحجة سنة ١٢٤٣ هـ (يوافق٣ اغسطس سنة١٨٢٨م) فارسل صورته الى ابنه ابرهيم باشا . فلما قرأها اغتاظ منها جداً لأنها اضاعت عليه ثمرة جهاده واتعابه سدًى . وقد هددت الدول بتجريد قوات لاخلاء بلاد اليونان من القوات العثمانية والمصرية . وتكفلت انجلترا بالاعمال البحرية وتعهدت فرنسا بارسال جيش قوامه ٢٤٠٠٠ مقاتل (سرهنك باشا في حقائق الاخبار ج. ٢ ص٢٤٠) . بل ان عبد الرحمن بك الرافعي في كتابه القيم في عصر محمد علي يشير الى ان فرنسا ارسلت الى بلاد اليونان جيشاً مؤلفاً من ١٨٠٠٠ جندي

بقيادة الجنرال ميزون لاجلاء المصريين والترك عنها (ص ٢٢٥) . ونقل سرهنك باشا شروط الاتفاق عن مجموعة المعاهدات في كتابه حقائق الاخبار(ج٢ ص ٢٤٠).ونحن ننقلها عنه وهي:—

١ — يتعهد والي مصر باعادة جميع الاسرى من يونان وغيرهم

٢ — يتعهد امير البحر الانجليزي باعادة جميع الاسرى المصريين وخلافهم مع السفن التي اخذها في الحرب

٣ — تخلي الجيوش المصرية شبه جزيرة موره في أسرع وقت وينقلها والي مصر بسفنه الى الاسكندرية

٤ — ان تكون السفن المصرية في حالة ذهابها وإيابها مخفورة بسفن فرنسا وانكلترة

٥ — لا يجبر اليونان المقيمون بمصر على تركها ما داموا غير مكرهين على الاقامة فيها وكذلك من يريد العودة مع المصريين باختياره لا يمنع من ذلك

٦ — يجوز لابراهيم باشا ان يترك في مورة عدداً من العساكر لا يزيد عن ١٢٠٠ نفر للمحافظة على متون وفرون ونافارين وبتراس وكستيل اما باقي النقط الاخرى فلا بدَّ من الجلاء عنها بدون امهال

ويقول الرافعي بك عن الشرط الاول على (تحرير من بيع من اليونانيين في مصر ما يأتي:— ويذكر المستر باركر قنصل انجلترا في مصر وقتئذٍ ان عدد هؤلاء الاسرى ٥٥٠٠ وزعوا على بيوت الكبراء في الاسكندرية والقاهرة . ولما ابرم هذا الاتفاق لم يقبل منهم العتق سوى اربعمائة واما الباقون ففضلوا البقاء في مصر (عصر محمد علي ص ٢٢٦) . ونحن نعرف ان كثيراً منهم امتزجوا في الدم المصري بالتزاوج . ومن ذريتهم بعض الرجال والسيدات المعروفين بمصر اليوم ونجد ذكر البعض منهم سيدات ورجالاً في الاوراق التي حفظت انسابهم كالوقفيات وغيرها

واصدر ابرهيم باشا أوامره باخلاء المدن اليونانية والسير الى الثغور . وأقلعت بالجند السفن إلى مصر في اكتوبر سنة ١٨٢٨ . وعاد الجيش وقد فقد ثلاثين الفاً من الجنود والبحارة من قوة الحملة التي بلغت اثنين وأربعين الفاً . وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥ الف جنيه وفقد معظم الاسطول المصري فكانت الخسارة فادحة ، ولم تنل مصر من حربها هذه فائدة مادية ما سوى ضم جزيرة كريت اليها . فقد عهد السلطان محمود إلى محمد علي بولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته في حرب موره وهذا مع ما أبداه الجيش المصري من البسالة والاقدام في تلك الحروب فكانت مرانة طيبة له في خوض المعارك عدا ما اصبح لمصر من منزلة سياسية ممتازة لها شبه استقلال فعلي عن تركيا اما بلاد اليونان فقد استقلت بذلك استقلالاً تامًّا وحافظت عليه الى اليوم

(لها تتمة)

سَيرُ الزَّمانِ

تحول المشهد الأوربي

واتجاهات سياسة الدول الاوربية

روسيا والمدنية الحديثة

لابرهيم ابرهيم يوسف

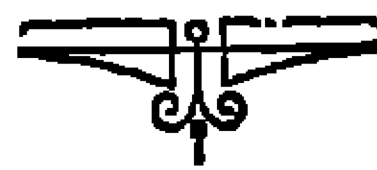

تحول المشهد الاوربي

واتجاهات سياسة الدول الاوربية (١)

بريطانيا وفرنسا وروسيا وايطاليا

في يوم ١١ سبتمبر من السنة الماضية القى السر صموئيل هور خطبة في جنيف كانت في رأي فريق كبير من الناس اعظم خطبة القيت فيها. فقد حدّد في فقراتها الاركان التي تقوم عليها سياسة فعّالة لجامعة الامم. نعم ان جنيف تعوّدت الخطب الطنّانة، ولكنها أصغت الى هذه الخطبة واستجابت فكان ذلك باعثاً على دهشة المتشائمين. واصبحت الجامعة بعدها قوة تستطيع ان تدفع التاريخ في وجهة معيّنة. وكذلك تحوّل ما كان في السابق من العبارات المثالية، عملاً فعّالاً فهل يستمر الى الغد؟

ان الردّ على هذا السؤال يتوقف على تفاعل القوى التي تعين خطط الامم الكبرى. وخطط الامم الكبرى، صُوَر مركّبة، تلتقي فيها المثل العليا التي ينشدها الشعب، وخطط السياسة الداخلية، واحوالها الاقتصادية. فاذا شئنا ان نفهم شيئاً عن القوى التي تحدّد الاتجاه الحالي للسياسة العالمية، وبواعثها ومقتضياتها، وجب علينا ان نحلّل تحليلاً دقيقاً الحالة الداخلية، في الامم او طوائف الامم التي تشترك في هذا الاتجاه. فالمسألة ليست مسألة نزاع بسيط، بين الاثرة والايثار، او بين المكر والاخلاص، او بين النزوع الى البسطة وحب السلام، فهي ليست شيئاً من هذه الاشياء وحده، ولكنها جميع هذه الاشياء معاً

بريطانيا

اعترف السر صموئيل هور في خطبته بجنيف، بالاخطاء التي ارتكبتها حكومة بريطانيا او الشعب البريطاني في الماضي اسوةً بسائر الحكومات والشعوب. ولا يعرف احد الاخطاء الخاصة التي ارادها الوزير البريطاني الاّ الوزير نفسه. ولكن من المؤكد ان خطة بريطانيا بوجهٍ عام انقلبت انقلاباً تامّاً في اوائل يونيو سنة ١٩٣٥. ففي ذلك الشهر تغيّرت الوزارة البريطانية، فخلف المستر بلدوين المستر مكدونلد في رآسة الوزراء، والسر صموئيل هور السر جون سيمون في وزارة الخارجية، وفيليب كنليف لستر لورد لندندري في وزارة الطيران. فظنّ بعض الناس

---

(١) هذا مقال لغوستاف ستولبر Stopler مؤسس ومحرر « دويتش فولكسفرت » وعضو الريخستاغ سابقاً ومؤلف كتب اقتصادية مختلفة في شؤون اوربا، نشرته مجلة الشؤون الخارجية الاميركية في عدد يناير ١٩٣٦، وقد نقلناه هنا على انه عرض لاحوال اوربا غير مقيدين بآرائه

ان التغيير لا يعدو كونه تغييراً في الرجال وحجتهم ان المستر بولدوين كان ، وهو زعيم المحافظين ، زعيم الحكومة لما كان مكدونلد رئيسها وان هور نفسه كان عضواً في الوزارة القومية منذ انشائها. ولكن هذا التغيير كان في الواقع تغييراً في اتجاه سياسة بريطانيا

وما انقضت ثلاثة اسابيع على اعادة تأليف الوزارة القومية ، حتى اذيعت نتائج «استفتاء السلام» الذي بدأته العصبة الانكليزية لجامعة الامم برآسة ڤيكونت روبرت سسل في شهر يناير السابق. وكانت الاسئلة التي وجّهت الى الشعب البريطاني ، تدور حول موقف بريطانيا من جامعة الامم ونزع السلاح والعقوبات. هل يجب على بريطانيا ان تبقى عضواً في الجامعة ؟ وهل يوافق صاحب الردّ على نقص عام شامل في التسلح بالاتفاق الدولي ؟ وهل يوافق على الغاء تام للطائرات الحربية البحرية بالاتفاق الدولي ؟ وهل يجب ان تبقى صناعة الاسلحة صناعة يقوم بها افراد وشركات او يجب ان تصبح ملكاً للدولة ؟ واذا هاجمت دولة ما دولة اخرى فهل يجب على الدول الاخرى ارغامها على التراجع بوسائل اقتصادية غير عسكرية او بوسائل عسكرية اذا اقتضى الامر ذلك ؟

وقد كان عدد الذين اشتركوا في الردّ على هذه الاسئلة ٠٠٠ر٦٢٨ر١١ من الانكليز كان منهم عشرة ملايين في جانب العقوبات الاقتصادية و ٠٠٠ر٨٠٠ر٦ في جانب العقوبات الاقتصادية والحربية اذا اقتضى الامر

عجز العالم خارج انكلترا عن ادراك قيمة هذا الاستفتاء ، عجزه عن ادراك خطر التغيير الوزاري . بل اننا اليوم لا نستطيع ان نعلم اي الحادثين كان اعظم خطراً . ولكن القدر جاء بالتغيير الوزاري موافقاً لنتيجة الاستفتاء . فقد ظهر في السنوات الاخيرة انزواء مكدونلد عن الجامعة وصحبهُ عطفهُ على موسوليني . ولكن بولدوين لم يكن مسيَّراً في سياسته بمثل هذا الشعور الشخصي . ثم ان السر جون سيمون كان رجلاً دقيقاً بارعاً التحليل ، ولكنهُ كان لا يستجيب لنداء العاطفة . وعلى كلٍّ كان ضعف ايمانه بالجامعة مما لا يتفق والنزعة السلمية في الشعب البريطاني ، على ما اكدتها نتائج « استفتاء السلام »

ولكن العامل الفاصل كان الرأي العام البريطاني نفسهُ . نعم ان هذا الرأي العام ، النزّاع الى السلام في بريطانيا ، كان متأثراً بدعاية قوية نظّمها دعاة السلام البريطانيون . . ولكن دعاة السلام في بريطانيا ، ليسوا من المهووسين ، بل من رجال السياسة الذين يقدرون حقائق السياسة حق قدرها . فالنزعة السلمية البريطانية نزعة واقعية ، تمتدُّ اصولها الى النواحي الدينية والانسانية في الخلق البريطاني . فهي ليست ، على ما يرى بعضهم ، ستاراً « للامبرياليسيّة البريطانية » . ان عشرة الملايين من الانكليز ، الذين وافقوا على وجوب تأييد بريطانيا للجامعة

وتعزيز السلامة الاجماعية وتنفيذ نظام العقوبات ، يعنون ما يقولون . فانهم مصممون على تحمّل نتائج الامبراطورية البريطانية ، كما يطلبونها من كل دولة تنتهك عهد الجامعة اليوم او غداً . بل انهم مستعدون للتخلي عن الهند والمستعمرات البريطانية لتدخل في نظام الانتداب الذي وضعتهُ جامعة الامم

وليس يهمنا ان نعلم هل هؤلاء الملايين العشرة يمثلون اكثرية الشعب البريطاني ، او لا ، لانهم على كل حال يمثلون اكثرية العناصر الفعّالة في توجيه سياسة بريطانيا ، وهذا كلُّ ما يهمُّ في هذا الصدد . وقد اثبت الانتخاب البريطاني ، الذي تمَّ في ١٤ نوفمبر الماضي ان النزاع السياسي بين الاحزاب البريطانية ، يدور في الغالب على الفوز بأكثرية مليون او اكثر قليلاً من الناخبين. فالاكثرية التي نالتها حكومة المستر بولدون لا تزيد على مليون ونصف مليون من الناخبين ، على مجموع الذين اقترعوا في جانب خصومها . فمليون من الناخبين يميل الى هذه الناحية او الى تلك ، يعني في بريطانيا ، تغيير الحكومة او انقلاب النظام القائم. فاذا اعتبرت هذا وعلمت ان « استفتاء السلام » أسفر عن اجماع عشرة ملايين من الناخبين الانكليز على تأييد جامعة الامم تأييداً فعّالاً ادركت ، لماذا اصغت الحكومة البريطانية الى صوت الشعب الصريح

فهل يسع الحكومة ان تتجاهل كلَّ هذا وقد تمّت الانتخابات وفازت بالاكثرية المطلوبة؟ هل يسعها ان تخدع الناخبين ؟ كلّ من يعرف شيئاً عن تاريخ انكلترا الحديث ، يعتقد ان هذا غير مستطاع . فانكلترا هي الدولة الكبيرة الوحيدة ، التي فيها رأي عام مستقلّ عن الاحزاب السياسية والصحافة ، ويؤثر تأثيراً قوياً متواصلاً في سياسة الحكومة . فكل حكومة تسير سيراً مناقضاً لاتجاه الرأي العام البريطاني ، لا تلبث حتى تضطرّ الى حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة ، كانت اكثريتها ما كانت . والحكم الفاصل في الانتخابات الجديدة هو هذه الملايين التي تعين اتجاه التاريخ البريطاني

وكان القدر اراد ، ان تجيء هذه المحنة تبتلي دعاة السلام الانكليز في الحين الذي جاءت فيه ، فحملت دعاة النزعة الامبريالستية على التعاون مع دعاة السلام او الانضمام اليهم . فاننا ان احد عشر مليوناً من الانكليز اعربوا في يونيو الماضي عن رأيهم في وجوب وضع خطة لتعزيز جامعة الامم وتأييد هذه الخطة من ناحية انكلترا . ولكن هؤلاء ليسوا الامة البريطانية كلها . بل هناك ملايين من الانكليز ينظرون الى جامعة الامم بكثير من الريبة . ملايين اجمعت ، على اختلاف النوازع والبواعث ، على الاعجاب بموسوليني . ولكن موسوليني نفسهُ فرّق شملهم ، لا لانهُ هدّد مصادر النيل الازرق وخط المواصلات الى الهند واستراليا ، لان هذا كلهُ كان مضمَّناً في سياسته الحبشية ، ومع ذلك لم ير مكدونلد ولاسيمون باعثاً يدفعهما الى ذكر الحبشة

عند اجتماعهما بهِ في ستريزا في ابريل الماضي . ولكن بعض ملاحظات موسوليني ، التي ذاعت عن طريق الدوائر الدبلوماسية في هيئة لندن الاجتماعية ، وبعض المقالات الموحى بها في صحف ايطاليا ، اثارت قلقاً واضطراباً في صدور المعجبين بموسوليني من الانكليز ، ومن هذه الاقوال قولهم « ان البحر المتوسط بحرنا » وان الاسطول البريطاني اصبح لا يقام له وزن ، وهذا شيءٌ لا تسلّم بهِ الكرامة البريطانية ولو كان صحيحاً . وفي هذا الصدد اخطأ موسوليني التقدير ، لانهُ وحّد الصفوف في انكلترا بعد اختلاف وتنافر

والخلاصة ان انكلترا الآن تجري على خطة تعزيز الجامعة وتأييدها لاسباب ثلاثة . فاولاً : لان الامة الانكليزية تنزع الى السلم ومنع الحرب . وثانياً : لانها تخشى ان يعقب انحلال الجامعة فوضى عامّة في اوربا . وثالثاً : لان عمل الجامعة اذا اصاب النجاح يعني حماية مصالح بريطانيا عندما تهدّد حماية اجماعية . نعم ان هذه العوامل الثلاثة ، ليس احدها مفصولاً فصلاً واضحاً عن الآخر . فالنزعة المثالية الى السلام ، والمصلحة الامبراطورية ، وخطط الاحزاب الانكليزية ، تندمج بعضها في بعض ولكن تيّار الرأي العام ، الناشيء عنها ، متجه في اتجاهٍ واحدٍ لا شكَّ فيهِ

فرنسا

ولا يمكن ان يقال كل هذا عن فرنسا . فالمسيو لافال القى خطبته العظيمة في جنيف ، غداة خطبة هور . فظهر فيها ، وهذا كان قصده ، بمظهر المتفق مع هور على كل شيء . ولكن النزعة السلمية في فرنسا ، وحالة فرنسا المادية ، تختلفان عما هما في انكلترا من كل وجهٍ . كانت وزارة لافال ضعيفة منذ تأليفها ، بقدر ما كانت وزارة بولدون قوية . وإذا كانت بريطانيا شاعرة الآن بقوتها ، فان فرنسا شاعرة بضعفها . وهذا الشعور بالضعف ، هو في الغالب سبب الانقسام الذي يسم حياة فرنسا العامة لا نتيجة لهُ

ففرنسا ، لم تبلغ من الناحية الذهنية ، الى المقام العظيم الذي احرزته سنة ١٩١٩ بل انها في السنوات ، التي بدت فيها قوتها في الذروة ، لم تفقد ما يعبر عنه علماء النفس « بشعور النقص » بالقياس الى المانيا المغلوبة . وهذا جعل سياستها الخارجية متقلبة . ومن هنا نشأ عنادها ، وعجزها عن اتباع خطة المسالمة ، والتسليم بأشياء في حينها ، وهي صفات القوي يحس بقوته

ففرنسا هي التي ابدعت فكرة السلامة الاجماعية ، وجعلتها هدف سياستها الخارجية . ولكنها عند ما ابدعت هذه الفكرة ، كانت دائماً تفكر في سلامتها من المانيا ، وسلامتها من المانيا يعني المحافظة على النظام الاوربي الذي وضع سنة ١٩١٩ اي ابقاء المانيا مكبوتة . فشعور

فرنسا بالضعف كان بالقياس الى ما رأته في هذا النظام الاوربي من الصدوع ، وقد بلغ ذعرها غايته في سنة ١٩٣٣ عندما تقلد هتلر ازمة السلطان على المانيا

هذا الاحساس ، يؤثر في نزعات سياسة فرنسا الخارجية وأساليبها . نعم ان فرنسا امة نزاعة الى السلام . ولكن هذه النزعة تشطر الامة بدلاً من ان توحد صفوفها . فدعاة السلام في فرنسا ، ليسوا من المحافظين (بالمعنى الفلسفي لا السياسي الحزبي) بل من المتطرفين . والدعاية السلمية في فرنسا ، تسير في الغالب جنباً الى جنب مع الدعاية الشيوعية . ولذلك ينظر اليها المحافظون نظرهم الى قرحة تضعف القوة الوطنية واذن فهي في نظرهم عمل غير وطني

ولذلك يغلب الظن ان الهوة بين اليمين واليسار في فرنسا ، ليست مما يسهل ردمهُ . ويقول بعض الكتاب الاجانب في فرنسا ، ان حالة فرنسا الآن تتسم بما كانت تتسم به حالة المانيا سنة ١٩٣٢ اي قبيل عهد هتلر . فالبلاد مقسومة معسكرين متقابلين ، والبلاد شاكية السلاح ، ولا يعلم احد ما يكون مدى سلطة الحكومة ، اذا شرع الناس في استعمال سلاحهم

ثم ان كلاً من هذين المعسكرين ينظر الى الآخر بعين الريبة ، ولكلٍّ منهما آراء في جميع المسائل الحيوية تختلف اختلافاً بيّناً عن آراء الفريق الآخر . فالانتعاش الاقتصادي في بريطانيا ، قد ازال من السياسة البريطانية ، ما كانت تتصف بهِ من المنافسة الحزبية العنيفة ، قبل منتصف سنة ١٩٣١ ، حالة ان سوء الحالة الاقتصادية في فرنسا قد زاد هذه المرارة وغذّاها . وما يخشى الآن هو ان يفضي ذلك الى انفجار . ثم ان الانتعاش الاقتصادي في بريطانيا مكّن الحكومة من موازنة الميزانية وخفض بعض الضرائب ، واعادة ما كان قد اقتطع من نفقات الاعانة الاجتماعية . اما حكومة فرنسا فتعمد الآن الى القيود المالية ، وهذا مما يجعل الحالة في فرنسا شبيهة بحالة المانيا في عهد برونتغ سنة ١٩٣٢ من النواحي السياسية والاقتصادية معاً ، وسياسة القيود مقضيٌّ عليها بالخيبة في فرنسا ، كما قضي عليها في المانيا

ان مشكلة المسيو لافال عسرة على الحلّ . (استقالت وزارتهُ ونحن ننقل هذه السطور ولكن المشكلة التي واجهها هو يواجهها خلفاؤهُ الى ان تصلح الحال اذا كان اصلاحها ممكناً) ولكنهُ مضطر الى سلوك الخطة التي يسلكها . فهو ليس حرًّا . ان الانقسام في صفوف الامة ، ممثّل كذلك في صفوف وزارتهِ . وسياسة الاتفاق بالمساومة التي يسعى الى فرضها في جنيف في النزاع الايطالي الحبشي ، هي السياسة التي يحتّم عليها اتباعها في سياسة بلادهِ الداخلية بين الاحزاب المتنافرة . ففي ناحية ترى المحافظين الفرنسيين وممثليهم يقيمون وزناً كبيراً لصداقتهم الجديدة مع ايطاليا ، وفي ناحية اخرى ترى ممثلي اليسار يهدّدون باسقاط الوزارة اذا رفض لافال ان يؤيد بريطانيا في جنيف . ولا ريب في ان هريو وبونيه وماندل يستقيلون في نفس اليوم الذي يظهر

لهم فيه ان لافال منحاز ضدَّ انكلترا . ولكن ليس بين ساسة فرنسا رجل يرغب في ذلك الآن . لان كلَّ وزارة تخلف وزارةً من الوسط ، لا بدَّ ان تكون متأثرة بقوة الشيوعيين ويرجح بعضهم ان الانتخابات الفرنسية القادمة سوف تسفر عن نقص ممثلي الراديكاليين الاشتراكيين والاشتراكيين وزيادة في ممثلي الشيوعيين . وعندئذٍ ، على الاكثر ، لا بدَّ من الفصل في ازمة فرنسا الداخلية اذا لم تضطرّ فرنسا الى ذلك ، عند اخراج الفرنك عن قاعدة الذهب فيفضي ذلك الى تغيّر مشهد الحياة العامة في فرنسا . ولكن لافال لا يستطيع ان يفعل ذلك الآن. ولا يبعد ان يكون تعين وزارة من احزاب الميسرة ، واخراج الفرنك عن قاعدة الذهب ايذاناً بنشوب حرب اهلية

هذا هو الشبح المخيف ، الذي يتعين على زعماء فرنسا ان يسيروا دفة سياستها الخارجية في ظلّه القاتم

وليست الحالة الداخلية وحدها باعث لافال على التردُّد . بل هناك مخاوف حربية كذلك . ان الكابوس الذي يقاق نوم كثيرين من الفرنسيين ، هو كابوس حلف عسكري بين المانيا وايطاليا قد يندفع اليه موسوليني يأساً وقنوطاً : وماذا تفيد جميع الاساطيل البريطانية ضدَّ هجوم على فرنسا من الجيوش الالمانية والايطالية مُشتركةً ؟ عندئذٍ يتحتم على فرنسا أن تواجه هذا الهجوم وحدها . فمحالفتها مع روسيا ، لا تجدي كثيراً ، ودول الاتفاق الصغير ، لا بدَّ ان تكون مشغولة بمشكلاتها الخاصة. ولو كانت انكلترا قوية في البرّ، كما هي قوية في البحر لما ترددت الامة الفرنسية في الاختيار دقيقة واحدة . ولكن بعد ان أصبحت المانيا شاكية السلاح ، اضحت فرنسا تشعر بوجوب البحث عن عون حربيّ .فوجدت ذلك في موسوليني ، واقتنعت به ، حتى شجر الخلاف الحبشي ، فوقفت فرنسا محيرة بين لندن وروما

على مفترق الطرق

فاوربا الآن واقفة على مفترق الطرق . وتطور الاحوال يقتضي اتخاذ قرار ينطوي على اي طريق تختار . ان معظم الدول الاوربية ، ليس من فريق الدول الكبيرة . بل من الدول الصغيرة والمتوسطة . فالبلدان السكندينافية وهولندا وسويسرا ، والدول التي قامت على انقاض امبراطورية النمسا والمجر ، ودول البلقان ودول بحر البلطيق ، اخذت تحس ، بعد قيام موسوليني وهتلر ، بضعفها . وجميعها ترى في جامعه الامم ملاذها الوحيد والاخير . وجميعها ما (عدا دولة او دولتين) مغتبطة ان تتبع زعامة بريطانيا في سعيها الى تحويل الجامعة إلى أداة لحفظ السلام ولحماية اعضائها من الاعتداء عليها . وليس بينها من تهمّهُ الحبشة ، او توازن القوى في البحر المتوسط او البحر الأحمر . ولكنهنّ جميعاً ينظرنَ الى تدخل الجامعة في مشكلة الحبشة ، على

انهُ تمثيل ، لما يمكن ان يطلب منها في نطاق اوسع جدًّا في اوربا غداً . وانهن ليرجونَ انهُ اذا نجح هذا التمثيل فلن يجرؤ احد بعدئذٍ ان يرفع الستار عن الرواية نفسها ، ويعتقدنَ انهُ اذا نجحت الجامعة أنشأت بذلك سابقة يجعل عملها في المستقبل ، اسهل واسرع واشد فعلاً . وهذا يفسر السرعة التي لبت بها خمسون دولة دعوة جنيف مما كان باعثاً على الدهشة ، حتى في جنيف نفسها

روسيا

ان الخوف من المانيا ، وهي دولة كبيرة خارج نطاق الجامعة وماضية في التسلّح على قدم وساق ، هو العامل المسيطر على موقف روسيا . فالدعوة الى السلام ، لبواعث انسانية ، بعيدة عن الذهن البولشفي ، بعدهُ عن الذهن المتشبع بنزعة موسوليني القومية المكتسحة. ثم ان الجامعة في نظر روسيا ، أداة اكثر منها عقيدة . فالعوامل التي توجّه سياسة روسيا الخارجية ليست الرغبة في اقامة النظام الاوربي ، على اسس تجعلهُ احسن مما هو ، لان ذلك في رأيها لا يتمّ الاّ بانتصار الشيوعية . ولا هي الرغبة في تحريم الحرب كأداة للسياسة الدولية ، لان حرب الطبقات في رأيها هي صفة لا يمكن ان تفصل عن النظام الرأسمالي

بل هناك ثلاثة اعتبارات رئيسية ، دفعت روسيا الى وقوفها موقف المؤيد للجامعة وخطة فرض العقوبات . فقد انقضت ايام « رابالو » عند ما اتفقت روسيا والمانيا بحكم انهما الدولتان المنبذوتان من مجامع الدول الغربية . وروسيا الآن تحسُّ ان المانيا تهدّدها في الغرب . واليابان تهدّدها في الشرق . ولها ما يحملها على هذا الشعور . ففي جميع الخطب والتصريحات التي القاها الهر هتلر معرباً عن تمسكه باهداب السلام ، لم يهمل الاعراب عن بغضهِ وعدائهِ لروسيا. وهذا العداء هو العنصر الحيوي في الاشتراكية الوطنية الذي تحاك حولهُ جميع خططها الخارجية . وقد زاد في رأي الروس ، خطر المانيا على روسيا منذ تفاهمت المانيا وبولونيا. فالسوفيت يحتاجون الى حماية حدودهم الغربية ، وهم يسعون الى الفوز بهذه الحماية في جنيف لان المحالفة العسكرية مع فرنسا والاتفاق الصغير ، لا يمكن ان تصبح فعّالةً الاّ عن طريق جنيف . ثم ان روسيا تعلم حقّ العلم ان المحالفة الروسية الفرنسية ، غير مرغوبٍ فيها بوجهِ الاجمال في فرنسا المنقسمة الى فريقين فريق نزعتهُ شيوعية وفريق معادٍ له نزعةٌ فاشستية . واذن فالحاجة عظيمة الى الجامعة لتكون صلة الاتصال ، حيث تتفق حاجة فرنسا الى ضمان سلامتها مع حاجة روسيا الى حماية حدودها الغربية

الاّ ان هناك عاملين آخرين ، كلاًّ منهما يكفي ليحمل روسيا على انتهاج هذا النهج في جنيف. فالفاشستية ستصاب في الحبشة بضربتها القاضية في رأي الروس. واذا تحطمت قوة موسوليني على صخرة

الجامعة ، فالسائد ان مصير قوة هتلر لا يختلف كثيراً عن مصير قوة موسوليني . وهذا الباعث هو أحد البواعث التي تحرك احزاب الميسرة في فرنسا وانكلترا ولكنهُ ليس الباعث السائد على توجيه سياستهما. واخيراً ان سياسة روسيا الخارجية متجهة خاصة الى نقطتين : الشرق الاسيوي والشرق الاوربي . كلاهما مضطرب حافل بالخطر . بل أن المشكلة الحبشية تكاد تكون صغيرة من الصغائر ازاء اعتداء اليابان على البرّ الاسيوي . وليس بين دول اوربا الا دولة واحدة غير روسيا يهمها تطوّر الحوادث في الشرق الاقصى وهي انكلترا. فضغط النزعة الامبريالستية الفاشستية في اوربا وتطوّر حوادث الشرق الاقصى ، يجعلان مصالح انكلترا وروسيا متفقة في الشرق والغرب معاً . وهذا اتجاه لا يمكن ان نبالغ في تقدير تأثيره في المستقبل

ايطاليا

واخيراً ايطاليا . فسياستها هي اللغز الوحيد ، في رواية معقدة ولكنها مفهومة الفصول والمغازي . قد يفوز المؤرخون في المستقبل بالكشف عما يطلبهُ موسوليني حقيقة في حملته الحبشية ، ولكن التفسيرات الرسمية ليست الاّ امتهاناً للذكاء الانساني

الاّ ان ضغط الحوادث الذي حمل الدكتاتورية الايطالية على ان تفعل ما فعلت ، كتاب مفتوح. فقد انقضت سنوات وموسوليني ينادي بأن سنة ١٩٣٥ ستشهد تأسيس الامبراطورية الرومانية الجديدة . وقد وُجّهت جميع الاستعدادات العسكرية في ايطاليا ، توجيهاً خاصًّا على هذا الاساس. بل ان قسم الدعاية اعدَّ الرأي العام الايطالي ، لهذه السنة الفاصلة في تاريخ ايطاليا الحديث . فمن يحاول ان يبحث عن البواعث الاقتصادية وراء كل هذا يخطىء ، كما يخطىء كل من يحاول ان يفسّر النزعة القومية تفسيراً اقتصاديًّا . والحبشة من الوجهة الاقتصادية ، لا تجدي ايطاليا فائدة ما (انظر مقالنا الافتتاحي) ولا يزال الرأي في مصادر ثروة الحبشة الطبيعية، وهل تصلح للاستغلال ، رأياً منقسماً . واذا فرضنا ان ايطاليا اكتسحت الحبشة فهي تحتاج حينئذٍ الى الاموال الاجنبية لاستغلال مصادر ثروتها الطبيعية ، وما يجنى من فائدة هذا الاستغلال لا يكفي لتوفية نفقات الحرب . ولو اكتفى موسوليني بالتغلغل في الحبشة تغلغلاً اقتصاديًّا سلميًّا ، لفاز في الغالب بمساعدة بريطانيا المالية . ولكنهُ لم يبحث عن منافذ اقتصادية بل عن انتصارات عسكرية . انهُ لم يطلب المال بل القوة . وهذا ألّب الامم عليه

ولا تستطيع الشعوب الانكلوسكسونية ان تفهم هذا الاّ اذا فهمت القوى الداخلية التي تتفاعل في عالم فاشستي". ان الفاشستية نشأت اولاً على انها حركة شباب . فشباب ايطاليا خرج من من خنادق الحرب خائب الامل مرير النفس ، فوجد حكومة ليس في يدها شيء تقدمهُ لهُ .

فقلب هذا النظام ووضع ممثليهِ في مناصب الحكم . وقد انقضت الآن ثلاث عشرة سنة ، ونشأ جيل جديد من الشبان . هذا الجيل تمرّن منذ كان في السادسة من العمر ، عن طريق الفرق الفاشستية المختلفة ، على خدمة الحزب ، فأنشأت فيهِ هذه المرانة مطالب . والحزب الذي يمرّن اعضاءه على خدمتهِ يجب ان يكافئهم مكافأة طيبة . اي انهُ عليهِ تبعة نحوهم . ولكن الحزب عاجز عن ذلك ، فليس في الدولة مناصب لجميع افراد هذا النشء الجديد ، لان القابضين على زمام الحكم من الفوج الاول لا يزالون شباناً او كهولا اقرب الى الشباب . والنشء الجديد لم يتمرّن من الناحية الذهنية على عمل خاص ، وهذا خطر كبير يدركهُ موسوليني حق الادراك لانهُ استغلّ ازمة من هذا القبيل للقبض على مقاليد الحكم . واذن فيجب عليهِ ان يفتح لهؤلاء الشبان باب المغامرة ، وينشيء لهم مناصب يشغلونها ، كانت النفقة ما كانت

والظاهر انه قدر ان النفقة تكون اقل كثيراً مما هي . وقد كان خطأه الكبير في حكمه على ما يكون موقف بريطانيا . فانهُ لم يحسب حساباً لبريطانيا تقاومهُ مقاومة فعّالة ، وليس خطأهُ هذا ناشئاً عن عدم فهمهِ لمصالح بريطانيا ، بل لانهُ ظنّ ان بريطانيا اضعف مما هي حقيقةً . فبحكم نزعتهِ الدكتاتورية الفاشستية حسب ان الدمقراطية البريطانية ضعيفة . واعتماداً على اتساع نطاق الدعاية السلمية في بريطانيا خيّل اليهِ ان بريطانيا لن تحارب بحالٍ من الاحوال . وقد عزّز هذا الرأي في نفسه موقف مكدونلد وسيمون . فانهما على الرغم من استعداده العسكري لم يوجها اليهِ تحذيراً قويًّا الاّ في الصيف (١٩٣٥) . فايطاليا وقعت الآن في المأزق ، والدكتاتوريات من اضعف الحكومات لانهُ لا يسعها ان تتراجع ولا ان تعترف بخطإٍ ، بل يجب عليها ان تحاول السير الى الامام على الطريق التي اختارتها

هنا موطن الخطر في اوربا ، كائنة ما كانت النتائج التي يسفر عنها تطبيق العقوبات الذي شرع فيهِ في ١٨ نوفمبر الماضي ، او الحملة العسكرية الايطالية في الحبشة . فموقف ايطاليا لا يرجى، الاّ اذا اتفق موسوليني مع الجامعة ، اي مع انكلترا . اما كيف يمكن الوصول الى هذا الاتفاق ، ومتى ، فعند علاّم الغيوب الآن . ولكنني على كل حال ارجّح انهُ لا يمكن الوصول الى هذا الاتفاق باشتراك بريطانيا وفرنسا وايطاليا في اقتسام اسلاب الحبشة . فانكلترا تعلم انها بذلك تهدم الجامعة ، وليس عند موسوليني عوض منها

ليس من غرض هذا المقال تصوير ما قد ينجم عن خيبة ايطاليا ولكنني ارى ان اعظم النتائج لا يظهر في افريقيا او البحر المتوسط بل في اوربا الوسطى . فالنمسا الآن ، كما كانت من ٢٥٠ سنة ، مفتاح الحالة الاوربية ، لان خط توسع المانيا ، يتقاطع هناك مع الخط الواصل بين فرنسا والاتفاق الصغير ، ويلمس النظام الذي حاولت ايطاليا ان تنشئهُ في حوض الدانوب .

روسيا والمدنية الحديثة

بقلم ابراهيم ابراهيم يوسف

يرحب بعض المفكرين بتعليل تهافت أقطاب الأدب والاجتماع والاقتصاد وغيرهم على دراسة روسيا الحديثة بمجرد الشغف بكل جديد . ولكن هذه المظنة ليست سوى ذرة من شتات الدوافع التي حدت بهؤلاء وهؤلاء للوقوف على كنه تطور التفكير الروسي الحديث لمعرفة مداه وأثره في المجتمع البشري لكي يتخذوا عدتهم ازاءه ، إذ أن عبء التبعة التي يحملها أقطاب الثقافة اليوم أمام الجيل الحاضر والاجيال المقبلة أصبحت أعظم مما فرض على سابقيهم من علماء وأدباء

وليس من خلاف بين حملة ثقافة هذا العصر ، مهما تفاوت اتجاههم الفكري ، في ان المدنية كانت وما زالت خاضعة لسنة الارتقاء ، كما يخضع لها الانسان سواء بسواء . ذلك لان المدنية من صنع الانسان بالذات . والواقع ان المدنية دائماً ابداً في فوران يتجلى في الصراع بين الناس والطبيعة ، وفي الكفاح بين فئة منهم والبقية . ولاشك في ان هذا الصراع يقوى جملة ويشتد كلما ازدادت الثقافة التحررية انتشاراً وازداد العمل بها حتى يشمل اكبر عدد ممكن من الناس . كذلك ينتهي هذا الكفاح حالما يتحقق وجود مجتمع تزول فيه الفوارق الموضوعة بين الناس ، ولا يكون فيه بقاء لمستغِل او مستغَل ، وفيه تتوطد المساواة بين الانسان واخيه الانسان

ولقد سار الانسان بالمدنية اشواطاً حتى بلغ بها عهداً اصطلحوا على تسميته بالمدنية الغربية . غير أننا حينما نتبين أعماق الاشياء نجد اننا نعيش في حقبة من تاريخ البشرية نشهد فيه صراعاً ظاهراً بين مدنيتين : المدنية الغربية العتيقة والمدنية الروسية الحديثة . ولسنا في حاجة الى ذكر ان المدنية الغربية تعبر عن شعور الملأ (السادة) وحدهم ، كما تشف عن نظرتهم الى مختلف الامور خلال حياتهم الخاصة . وهم في الواقع واضعو أسس هذه المدنية وان كان غيرهم ساهم في البناء . والامر على العكس في « مدنية الناس » ، المدنية التي تسعى الى تحقيقها روسيا اليوم . ومهمة هذه المدنية القدرة على التعبير عن شعور واحساس الناس كافة ، وعلى اثبات نظرتهم الجديدة الى الحياة ولهذا تتولى أولاً الكفاح الثقافي لتهذيب الناس اطلاقاً دون تفرقة ، حتى اذا ما تهيأت في كل مكان احوال تلائم حياة الانسان المتحرر الفكر ، تمَّ تشييد مدنية شاملة يساهم في أسسها وبنائها كل شخص بقسطه . ولا تبغي هذه المدنية الجديدة ، حتى ولا من الناحية الفنية المحضة ، تصوير وتسجيل كفاح يدور بين الناس كما كان يظن . كلا ! بل غايتها من الوجهة الفنية التعبير عن تاريخ الانسان العامل (لا الخامل) ، وعن تاريخ الصراع بين الناس والطبيعة ، وعن تاريخ كفاحهم ضد الاستبداد (راجع كتاب صور ونشرات لمؤلفه كارل رادك

(Karl Radek : Portraits & Pamphlets) اما غايتها من الوجهة العامة فضمان حياة مجتمع تسوده الحرية الحقة والديموقراطية الصحيحة والسلام العام، توصلاً الى إسعاد الجميع من دون أي تفرقة. ومن ذلك نرى ان المدنيات التي تعاقبت على البشرية وانتهت بالمدنية الغربية لم تكن سوى «مدنية الفرد»

اما تلك التي يتمخض عنها الجيل الحاضر فهي «مدنية الجماعة» . ولقد تنبأ بكل ذلك «كارل ماركس» في كتابه «رأس المال» ، اذ قال : «لقد كانت الافكار السائدة في كل زمن هي افكار الطبقة السائدة وحدها . وبدلاً من المجتمع الرأسمالي القديم وما فيه من طبقات ونزاع بين الطبقات سيحل اتحاد يكون فيه النماء الحر لكل فرد أساس النماء الحر للجميع» .

ولما كان اظهر طابع للمدنية الفردية هي الانانية التي قضت باذلال المجموع للفرد ، فانهُ يحسن بنا ان نذكر رأي العلامة فرويد في الاجرام والانانية حيث يقول في (Dostoevski and Parricide by Siegmund Freud) «يجب ان يتوافر شرطان اساسيان للاجرام : اولها الانانية المطلقة ، وثانيهما نزعة الاهلاك والابادة . وكلاهما مرتبط احدهما بالآخر . ويرجع السبب في نشأة الاجرام الى انعدام التقدير العاطفي الصادق لاشياء انسانية صرفة» . وعندما نطبق هذا الرأي على المدنية الغربية ذات الطابع الاناني يظهر لنا بجلاء انها مدنية متسمة بالإجرام في صميمها ومجموعها

﴿الفارق بين الثقافتين الاوربية والروسية﴾ لهذا ادرك حملة ثقافة هذا العصر بأنهُ لا سبيل الى اصلاح المجتمع البشري بالوسائل والادوات المادية والمعنوية التي تقدمها لنا المدنية الفردية . بل لا بدَّ من انتهاج سبل اخرى لمدنية على النقيض من هذه — تلك هي المدنية التجمعية وفي العمل التجمعي للمدنية التجمعية يتسع المجال لظهور الشخصية ، بل ولظهور أكبر عدد ممكن من الشخصيات . وتعتبر العمل التجمعي اول شرط اساسي للحياة . ويذهب «إنجلز» الى حد آخر من المنطق في كتابه (Dialects of Nature by Engels) فيؤكد بأنهُ «لنا ان نقول ، ونكون في قولنا صادقين ، بأن العمل هو الذي خلق الانسان» وهنا يسأل كثيرون : ولكن ما هو العمل ؟ ولا يشفي الغليل سوى ايضاح كارل ماركس في كتابه رأس المال اذ يقول بأن «العمل هو في الاعتبار الاول تآزر بين الانسان والطبيعة ، وفيه يبدأ الانسان بتنظيم وتذليل التنازع المادي القائم بينهُ وبين الطبيعة وفق منهجه . وهو حين تدب الحركة في يديه ورجليه ورأسه ، وهي قوى بدنه الطبيعية يواجه الطبيعة كقوة من قواها فيعمل لتشكيل نتاج الطبيعة وفق حاجاته. ثم هو في عمله هذا الذي يتناول عالمه الخارجي بالتغيير، انما يعمل في الوقت ذاته على تغيير طبيعة نفسه» . غير ان الانسان ليس لهُ ان يصارع الطبيعة بمفرده بل عليه ان يصارعها ضمن مجتمع خاص التشكيل وبواسطته (راجع كارل ماركس Critique of Political Economie وما كان هذا العمل

التجمعي لينتج ثماره دانية حتى تعم الثقافة بين الناس ، اذ ان الثقافة أولى اسس مدنية الجماعة . وهي في ذلك على نقيض من المدنية الغربية التي يقول فيها احد اعلامها « برتران رسل » Bertrand Russell في احدى محاضراته بأنها « قائمة على اسس اخرى غير العلوم » . ويعني بذلك انها اسست على الغزو والفتح الذي قامت بهِ اوربا الغربية في قسم كبير من العالم . ويزيد « هولدين » ايضاح ذلك في (J. B. S. Haldane : The Scientific Point of View) اذ يقول بأن « المدنية الاوربية قائمة على عدم التجانس ، اذ ان اساسها المادي علمي ، اما اساسها الثقافي فيرجع الى عهد ما قبل العلوم . وحالة العالم اليوم تدل دلالة واضحة على ان محاولة قوية ستظهر في القريب العاجل لايجاد هذا التجانس » . ويتنبأ « هولدين » بأن مصير الطابع الخاص لثقافتنا سيكون نفس مصير الحضارات الغابرة » ثم نجده يؤكد لنا في بحثه The Place of Science in Western Civilisation بأن مستقبل المدنية لايتوقف الى حد كبير على الاكتشافات والاختراعات العلمية فقط ، بل يتوقف كذلك على الآراء العلمية والنظرة العلمية التي تشمل مناحي الحياة »

﴿الازمة في المدنية الاوربية﴾ ومجرد عثور هؤلاء العلماء وأمثالهم من حملة المدنية على مواطن الضعف منها في الأسس يدل دلالة لا شك فيها على أن المدنية الغربية في أزمة لا سبيل الى علاجها . «ولعلَّ الأزمات التي تنتاب المدنية في كافة مظاهرها هي أشبه ما تكون بالجبال التي تتصدع أثر زلزال عنيف ، فيتيسر لعلماء الجيولوجيا دراسة تاريخ التطورات الارضية بشكل أدق وأتم من أي وقت آخر ».وكذلك الحال في هذا العصر ، إذ يتكشف للمفكرين منا في كل يوم وجهٌ من وجوه فساد المدنية الغربية . وها نحن نجد أن الازمات قد اجترفت العالم الغربي من جميع نواحيه . فقد تفشت الازمة السياسية في مواطن المدنية الغربية ، وذلك لان قانون ابتلاع القوي للضعيف مازال دستوراً معمولاً به . وما زالت الحرب هي السلاح الاول والاخير لحل المشاكل . ونرى خلال ذلك الملايين من النساء والاطفال والعجزة مهددين بالجوع والفقر وعدم الانتاج، بينما تهدر أرواح عائليهم في ميدان القتال . وهم في ذلك مستسلمين لنظام ثبت لمفكريهم فساده . وإلى جانبي هذا نجد الأزمة الاقتصادية قد تفاقمت فعم ضررها واشتد هولها ، ولا تزال تتوغل وتقسو كلما تقدم الزمن . ولا وزر على أحد في ذلك ، بل الذنب يقع على سوء النظام الاقتصادي الذي سمحت مدنيتنا الغربية بهِ ، فأباحت لعدد من الافراد أن تتكدس لديهم الاموال في حين أن المجاميع تفتقر اليها . فكان عدم التجانس هذا سبباً في الارتباك الذي مني بهِ العالم ، ففضل أن تقدم الحنطة للنيران بدلاً من أن تمتلىء بها البطون الجائعة . كما فضل أن تبتلع الأمواج أكداس البن عوضاً عن أن تنشط بهِ الأعصاب المتراخية . ويكفي ذلك الفساد الذي انتجته الأزمة الاقتصادية واخطره العطلة ، وذلك الذي انتجته الأزمة السياسية واشده

الاذلال لخلق أزمة اجتماعية تجرف المجتمع الى الحضيض. وقد ظهرت دلائلها في تفكك الاسرة وتخاذلها وتخاذل الاسرة وتقوض أركانها نذير بتخاذل المجتمع وتقوض أركانه . وما كان ذلك ليكون لو لم يكن النظام الاجتماعي الذي أيدته مدنيتنا الغربية فاسداً من اساسه . وليس أدل على فساد هذا النظام من تطرق الازمة إلى الثقافة . واروع وصمة يوصم بها هذا العصر الذهبي للمدنية الغربية هي أن الثقافة الحقيقية لا أثر لها يذكر في المجتمع إلاّ لدى فئات قلائل . وحتى هؤلاء كثيراً ما تتغلب عليهم الانانية فاذا هم أعداء للثقافة ذاتها ، إذا ما خرجت عن دائرتهم . فاقتصارها عليهم ومعاداتهم لها اذا ما افلتت إلى غيرهم لدليل على أزمة ثقافية بلغت طور الانتحار. ذلك الطور الذي دفع بأغلبية المثقفين الى الماديات وانصرافهم اليها دون الروحانيات (تكثر المراجع لهذا الفصل لاعلام الثقافة منهم Spengler, Childe, Joad, Davies وغيرهم

﴿ الاتجاه الخفي في المدنية الغربية ﴾ ويحق القول بأن هؤلاء الاعلام الذين أبانوا عن مفاسد المدنية الغربية انما كانوا في عملهم شبه ثائرين على ناحية من نواحي الاستسلام لنظام تؤيده الانانية والاثرة في جميع اشكالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . على ان الواقعيين يرون ان التطورات التي لازمت المجتمع منذ عشرات السنين كان يتخللها نزعات ترمي الى مثل عليا لا تطيقها مدنيتنا الفردية . ويقول كارل ماركس في كتابه رأس المال « ان النظام الرأسمالي نفسه يعمل في غير وعي على تهيئة الطريق للاشتراكية ، وذلك بوضع المئات والالوف من العمال في مصنع واحد يعملون فيه بطريقة تجمعية » وليس غريباً ان يلتقي ماركس في رأيه هذا تأييداً من « أسفالداشبنجلر» فقد ذكر الاخير في كتاب «سقوط الغرب» ما نصه : «نحن جميعاً اشتراكيون علمنا بذلك او جهلناه ، رضينا بهِ او لم نرضَ . وحتى مقاومة الاشتراكية تحمل طابع الاشتراكية . والرجل الفدري يتقبل الحياة كما هي ، ولكن الاشتراكي يريد تنظيم الحياة وتعديلها شكلاً ومعدناً ليملأ ها من نفس روحهِ . والقدري يساير. اما الاشتراكي فيأمر . ويود الاشتراكي لو ان جميع العالم يتسم بطابعه وتفكيره». ويذهب كارل رادك الى ان التغلغل في مدنيتنا الغربية نحو العمل التجمعي أبعدغوراً من كل هذا ، اذ يقول: «ان العلاّمة الاوربي حين يعمل في مختبره المنعزل عن العالم او يدرس منفرداً في مكتبهِ لا يفكر كثيراً في الحقيقة الثابتة وهي انهُ يعمل ويدرس بوسائل وادوات قدمها لهمن سبقه ، بل هو يسير في بحثه وتفكيره وفق أسس أنجزها له المجتمع جملة . وان الافكار التي تزيد الثروة العلمية هي نتاج خلق تجمعي تعاونت فيه الاجيال السابقة . واكثر الناس نسياناً لهذه الحقائق هم اولئك الكتاب الذين يزعمون بأنهم يكتبون بمحض وحيهم ويهزون اكتافهم استهتاراً حينما يسمعون بفكرة « الثقافة التجمعية » . ولكن لا سبيل الى الرقي والتقدم نحو مستوى علمي أرفع بغير ثقافة تجمعية»

﴿ مدنية المستقبل ﴾ ان جاز لنا ان نستخلص كلمة جامعة لكل ما تقدم بحثه فلعلها لا تكون سوى « ان المدنية الغربية لم تعد تلائم روح العصر الذي نعيش فيهِ » . ولا عجب ان أحس الناس بذلك وعبروا عنهُ بالعمل لا بالقول . فها هي الثقة بالمدنية الغربية تنتزع من النفوس ويتلاشى شيئاً فشيئاً الايمان بحيويتها ومقدرتها على خدمة الانسانية . ويعتقد المفكرون في صدق رأي أشپنجلر القائل بانهُ « لا القوانين التي يقدمها لنا المشرعون ، ولا الاحكام التي تصدرها المحاكم ، ولا القرارات التي تسجلها الحكومات ، ولا البلاغات التي تنشرها الوزارات ، ولا النشرات التي تذيعها الهيئات بمانعة أو مؤخرة ولو ساعة واحدة سقوط مدنية ما ، ان المدنيات تنهار من الداخل » . ولستُ اعرف معبراً عن مشكلة الانسانية اصدق من ذلك الفلاح الروسي المجهول حينما قال لماكسيم جوركي Maxim Gorki بعد ان استمع له مشيداً بذكر مزايا الآلات وحاثاً اياهُ على الاخذ بها في الزراعة وغيرها : « نحن نعلم كيف نسبح في الجو كالطيور ونغوص في البحر كالاسماك ، ولكننا لم نعرف بعد كيف نعيش على الارض » . ولعلَّ اسمى ما في هذه الجملة الصدق الذي اوحى بهِ عمق التفكير السليم وهذا الصدق ولا شيءَ سواه هو سرُّ « المدنية التجمعية » . ولن يكون الناس صادقين حتى يكونوا انسانيين منزهين بكل ما في معنى الانسانية من نبل . واول هذه المعاني التفاني في خدمة المجموع . ولهذا تعتمد المدنية التجمعية على جهود الناس مجتمعة لا جهود الافراد متفرقة . وفي ذلك يقول ماركس في كتابهِ رأس المال « ان العمل الموحد هو اول شرط لتحرر العمال . وهو اي العمل الموحد يلاشي استغلال الفرد للفرد كما يلاشي استغلال الشعب للشعب الآخر . وكلما قامت المنازعات بين طبقات الشعب الواحد كان في ذلك استنامته بين الشعوب المختلفة » . وبديهي ان لا يتم هذا العمل التجمعي الموحد حتى يتناول التنظيم المحكم كل مناحي الحياة . ولهذا كان من أهم الخطوات « تنظيم العلوم وتنسيقها حتى تتجه جميعاً نحو غرض واحد هو خدمة المجتمع لينتفع بها الى اقصى حد مستطاع » . ولقد عد ذلك ثورة في العلوم جاءت عقب الثورات الصناعية والزراعية والاجتماعية . ويرى امثال البحاثة « هولدين » ان المدنية التجمعية لاشك سالكة طريقها . فهو يقول في بحثه « وجهة النظر العلمية » انهُ لمن الخبل في الرأي ان يظن بان الاسباب التي ادت الى ثورة في الصناعة والزراعة والحرب والطب لا تأتي بنفس النتيجة حالما تتطرق الى العائلة او الامة او الجنس البشري اطلاقاً »

ويحضرني في ختام هذا البحث كلمة الفيلسوف « هيجل » Hegel وهي « اننا عرفنا من التاريخ أن الانسان لم يتعلم ولم يتعظ بالتاريخ » ولو أن « هيجل » كان اليوم حيًّا لرأى أن الناس قد تعلموا من التاريخ واتعظوا بهِ . وها قد جاء دور عملهم فوضعوا اسس مدنية مستقبلة ليس فيها أخطاء المدنيات السابقة

حديقة المقتطف

الطريمان

لوو منغ فو

نقلها أمين الريحاني

حلم افلاطون

لڤولتير

نقلها اسماعيل مظهر

موعد

للشاعر الفرنسي سوللي برودوم

نقلها خليل هنداوي

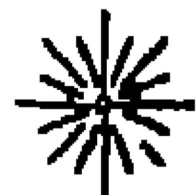

المستر جون نيتل

John Knittel

مؤلف رواية « الدكتور ابراهيم » وهي قصة مصرية ننشر منها فصلاً نفيساً في عدد المقتطف القادم (اول مارس ١٩٣٦)

الطريقان

لوو منغ فو

هذه القصيدة هي للشاعر الصيني وو منغ فو Wu Ming Fu وقد وصلت الى الغرب في حلة انكليزية ، واستمرت في السياحة عائدة الى الشرق فوصلت الى الفريكة بلبنان ، فألبستها حلة عربية لا أغالي بجودة صنعها انما الروح محفوظة ، ومن محاسنها الحكمة والذوق السليم في شيء من التصوف . على ان كل قصيدة هي معرضة في التنقل للتغير . وبودي لو ان أحد المستشرقين يعيد هذه القصيدة من العربية الى لغة وطنها الاول ، ويقابلها بالاصل الصيني ، ليظهر ما قد يكون أصابها من خير او شر في التجوال

امين الريحاني

ما الفضاء ، وما الزمان ؟
هما الطريقان ، للروح المتجسدة في الانسان ،
تسير فيهما ما جَدَّ الجديدان.
ولا يخامرنَّ قلبك اننا واصلون في السير الى المنتهى من الزمان والفضاء .
إنما نحن سائرون ، وللسير البقاء ،
وليومنا ومكاننا منه حيِّز الاستواء .
فمهما تقدم من الزمان ، فلامزيد في الآجل ولا نقصان .
إنَّ الساعة التي نحن فيها لَـحَـدُّ الاتصاف ،
وان شطري الابدية وراءنا وامامنا على الدوام .
ومهما أمعنا في رِحاب الفضاء ، فليس يُرجى انتهاء .
ان المكان الذي فيه الحياة ، هو النقطة المركزية من الكائنات .
نَعِمَت السكنى اذن في هذه الساعة وهذا المكان .
ليهدأ البال منك ، ولِيَطمئن الجنان .
فأينما أقمنا عمود البيت ، هناك وسط الفضاء ، وهناك قلب الزمان .
كذلك كان ، وكذلك يكون ، في هذه الحياة ، وفي كل آتيةٍ بعدها .
هي سنة الاكوان ، وفيها تتمثل الحكمة والحنان ، رأفةً بالانسان ،
فتشربه الروعة الخفيَّة ، وتقيه هول اللانهاية والابديَّة .

عن فولتير

حلم أفلاطون

كان افلاطون، على غرار غيره من الناس الذين اتوا من بعده ، من كبار الحالمين، حتى لقد حلم ذات يوم ان النوع البشري كان شِقًّا واحداً ، ولِمَا اقترف من آثام، عوقب بان شطر شقين : شِق الذكر ، وشق الأنثى

كذلك حاول أن يبرهن أن العوالم الكاملة لن تكون اكثر من خمسة، بدليل انهُ لا يوجد الاَّ خمسة اشكال هندسية منتظمة . ولاشك في أن جمهوريته التي صورها ، ليست الاَّ حُلْماً من تلك الاحلام التي كانت تساوره . ناهيك بانهُ حلم أن اليقظة تنشأ عن النوم ، وان النوم ينشأ عن اليقظة ، وان الشخص الذي ينظر في الشمس حال كسوفها ، ولا ينظر بعد ذلك في جرة ماء ، يفقد قوة إبصاره . ذلك بان الاحلام كانت رائجة السوق في تلك الايام

***

واليك قصة حلم من أحلامه الرائعة ، لا تخلو من لذة وفائدة

فقد رأى فيما يرى النائم ان «ديمرجوس»، المهندس الابدي الاعظم، بعد أن ملأ فراغ الكون بعدد عظيم من الكرات لا عَدَّ يحصيه ، حاول ان يمتحن معرفة العباقرة الذين شهدوا أعماله . فأعطى كلاًّ منهم قطعة من الصلصال ليجبل منها شكلاً يتصوره ، شأن فدياس أو زيوكسيز اذ كان يعطي احدها تلميذاً من تلاميذه حجراً ليبدع منهُ تمثالاً ، أو لوحاً يخلق فيهِ صورة . هـذا اذا جاز لنا ان نقيس الاعمال العلوية ، على الأعمال السفلية

فخرج من نصيب أحدهم ويدعى « ديموجورجون » مقدار من الطين اللازم والثرى المتطاير ، هو الآن كرة الارض ، فبعد ان جبلها افرغها في الصورة التي تلابسها الآن ، ظن انهُ اخرج قطعة من الفن لا تبارى . ومضى مزهوًّا حتى لقد

زُيِّنَ لهُ أنهُ هزم « الحسد » وقهره ، وتخيل انهُ سوف ينال اسمى التشاريف ، ويخص بأعظم التكاريم، حتى من العباقرة أقرانه : غير ان دهشته كانت عظيمة لـمَّا قوبل بعد ان ظهر بينهم لاول مرة بعد اتمام عمله العظيم ، بهزة كتف او غمزة احتقار او همس غير مستبان المعنى

***

وكان من زملائه زميل هجاء ذرب اللسان فجابهه قائلاً :

« لا شك في انك انجزت اعمالاً عظيمةً باهرة منها انك قسمت عالمك الذي جبات قسمين ؟ ومن أجل أن تجعل اتصال أحدهما بالآخر متعذراً ، فصلت بينهما بمقادير مروّعة من المياه جعلت نصف الكرة بمعزل عن نصفها الآخر . ومنها ان اهل كرتك لا شك يستحجرون برداً في زمهرير قطبيك ، ويشوون شيًّا في رمضاء خطك الاستوائي . ومن بعد نظرك وسمو فكرك ، انك صنعت صحاري شاسعة الارجاء قد يموت كل من يحاول اجتيازها جوعاً وعطشاً . ولا انتقاد لي على ابقارك وغنمك وديوكك ودجاجاتك . ولكني لن أغفر لك فكرتك في جبل الحيات والعناكب . ولا اعتراض لي على أبصالك وخرشوفك ، فانها من الاشياء التي بلغت منتهى الجودة ولكني لم ادرك السبب الذي حملك على ان تنثر من فوق الارض ، ذلك العدد العظيم من النباتات السَّامة ما لم تكن قد رميت الى تسميم أهلها جملة او اقساطاً . وأنشأت فوق ذلك ، اذا لم اكن مخطئاً ، اكثر من ثلاثين جنساً من القردة والسعادين ، وعدداً اعظم من اجناس الكلاب ، واقتصرت على أربع سلالات بشرية أو خمس ، ولا أنكر أنك أضفيت على هذه السلالات شرف الاختصاص بصفة « العقل » ولكني أرى انك أضفيت عليهم من تلك الصفة قدراً جعلها سخرية وهزءًا ، لان الفارق بين ما أضفيت عليهم منها ، وبين الخرق والجنون ، لا يكاد يُرَى . ويخيل اليَّ فوق ذلك انك لم تهتم بشأن هذا المخلوق الثنائي الرجلين ، فقد تركته ضعيف السلاح قليل العدة في الدفاع والهجوم . بل جعلته عرضة للكثير من الارتباكات الغريبة والادواء العصية . في حين انك لم تهيئه الاَّ بعدد قليل من صنوف الدواء . أضف

الى هذا انك كوَّنتهُ مزوَّداً بعدد عظيم من الشهوات الجامحة ، ولم تبث فيه إلاَّ قدراً ضئيلاً جدًّا من الحكمة والتبصر فعجز عن كبتها وقمعها . والمحقق انك لم ترم الى إبقاء عدد عظيم من افراد هذا المخلوق دفعة واحدة ، وفي وقت واحد ، من فوق الارض . ففي حين انك لم تقدر الأخطار الماحقة التي عرضته لها ، نظمت حالات الدنيا بحيث ترميه كل يوم ، وعلى مدار السنين ، بكوارث عظمى ، كداء الجدري الذي يحمل إلى القبور عُشْرَ عدد هذا الحيوان كل عام ، بيد أن الادواء الاخرى تنضب معين الحياة من تسعة الاعشار الاخرى

ويلوح لي أنك لم تكتف بذلك . فنظمت الأمور بحيث فرضت على نصف العدد الذي يبقى منه بعد ذلك ، أن ينفقوا أعمارهم بين جدران المحاكم ، ان لم يشغل كل منهم نفسه بحزّ رقبة أخيه »

«والآن نقرُّ بدون ريب أنهم مدينون لك ديناً لا يَعْدِلُهُ الشكران الأبدي ولا يسعنا إلاَّ ان نعترف بانك اتممت عملاً معدوم النظير ، فاقِدَ المثال » . . . .

***

فَعَلَت وجه « ديمو جورجون » حمرة الخجل عند سماع هذا المديح ، غير انه على الرغم من علمه بانه في عمله نقصاً من الناحيتين الادبية والطبيعية ، مضى يؤكد ان فيه من الخير اكثر مما فيه من الشر — ثم قال :

« إن من الهين ان يجد الانسان خطأً في عمل غيره ايها الاخوان . ولكن.... أترون انه من السهل الهين خلق حيوان خص بالعقل وحرية الاختيار ، لا يسيء استعمال حريته احياناً ؟ اتظنون انه من البسائط خلق تسعة آلاف او عشرة آلاف صنف من النباتات المختلفة ، من غير ان يكون بعضها سامًّا او فيه صفات رديئة ؟ أم يخيل اليكم ان من المستطاع ان يجيل عبقريٌّ كرة اصلها من ماء ورمل وطين ، من غير ان يكون فيها بحار وصحاري » ؟

« أما أنت ايها الزميل المستهزيء بعملي ، فأظن انك فرغت من جبل المشترى فلننظر اذن في الغرض الذي من اجله صنعت تلك المناطق العظيمة التي تطوقه ،

ولياليه الطويلة المملة ، وأقماره الصغيرة التي خيل اليك انها كافية لان تطرد حالك ظلامه . لننظر في عوالمك التي جبلت ، لنرى هل استطعت ان تجعل اهلها آمنين من الامراض ، محصنين من النقائص »

ومضى العبقري يفحص عن حالات المشترى . ولم يكد يفعل حتى تعالت الضحكات موجهة الى عمل من كان يهزأ به من قبل . ولم يفلت العبقري الذي جبل زحل عن ان يناله مثل ما نال صاحبيه ، بل انه قد خص بنصيب غير قليل من السخرية ، وقدر كبير من الامتهان . وكان نصيب اخوانه جابلي المريخ وعطارد والزهرة على الاخص مقذعاً مؤلماً

***

في هذا الشأن كتبت مجلدات ضخام ، ونشرت رسائل شتيتة . وراج سوق القول والكلام ، فكم من كلمات جامعة أُثرت ، وكم من اقوال حكيمة قيلت . وكثر التراشق بسهام القول واتخذت السخرية سلاحاً للانتصار في معركة الكلام . ومضت المعركة القلمية متسعرة اللظى مشبوبة النيران زماناً بين الاحزاب المختلفة ، ولم يصمت المتنابذون الاَّ بعد ان تدخل « ديمرجوس » الابدي في الامر ، فأذعنوا صامتين يستمعون الى كلماته الآتية : « ان في اعمالكم لأوجهاً من الخير والشر معاً ، لانكم ان كنتم قد خصصتم بقدر كبير من قوة الفهم ، فانكم لم تخصوا بالقدرة على بلوغ الكمال . وان ما صنعتم من نظام لن يُعَمّر اكثر من مائة مليون من السنين ، تكونون في خلالها قد حزتم قدراً اكبر من المعرفة ، وقسطاً اعظم من الفهم ، فتبرزون اعمالاً اتقن وأبقى . وانا وحدي القادر على خلق اشياء كاملة خالدة »

***

هذه هي الحكمة التي كان يلقنها أفلاطون تلاميذه . فلما فرغ من كلامه صاح أحدهم قائلاً :

« هنا اخذتك اليقظة ، وفارقك الحلم اللذيذ »

[نقلها اسماعيل مظهر]

موعد

للشاعر الفرنسي « سوللي پرودوم »

يعد « سوللي برودوم » بحق الشاعر الفرنسي رأس المدرسة البرناسية التي تؤمن بالفن للفن وتفهم الجمال للجمال ، ولكن « سوللي برودوم » شاعر لم يقو فنه على قتل عاطفته ، ولم يقدر عقله على قتل فنه . فهو مزيج من تلك العاطفة الهادئة وذلك الفن الجميل والغاية العميقة لانه استطاع ان يؤلف بين الفلسفة والشعر تأليفاً هادئاً لا تطغى عليه اضطراب العاطفة ولا ثورة الاحساس ومقطوعة « موعد » المقتبسة من ديوانه « الحنان الضائع » تمثل فنه ومذهب هذه المدرسة في فهم الجمال والفن والتعبير عنهما
(خ . ه)

في هذا الموطن النائي حيث نثوي الآن وحدنا ،
ما احلى الذهول عن الناس مهما كانوا دانين منا !
اذا اردنا ان ننعم الساعة الهاربة ونتذوق لذاتها ،
فلا نعدو وراء سعادة ذات صخب ولجب ،
لنتناج بخفوت ، ولنحذر من ان تفر من ايدينا بكلمة او بنفس او بحركة ،
ولنمسك بها ان تضيع لحظة واحدة لانها سعادة سماوية .

اذا اردنا ان نتذوق شهدها ونصون عهدها
فليلق أحدنا الثاني دون ان نهمس شيئاً .
ولننشد هذه الراحة البريئة التي ينعم بها ساكنو هذه اللحود الداثرة ،
ذوو العيون الناظرة ، الذين همدت اجسادهم صامتة بعيدة عن ارواحها الطائرة .
يصل بيننا رابطة اسمى من روابط الارض .
ولنهجع بعدئذٍ مثل هؤلاء الهاجعين ، نضم جنباً الى جنب ، وقلباً الى قلب .

لاننا لا يضرم جوانحنا حب غض ملتهب تخمد ناره وشيكاً ،
وقلبانا غنيان لا يفتقران الى قُبَـل تزيدهما ائتلافاً .

لا تقسمي لي بأنني أحبك !
ولا تقصي عليَّ كيف نشأ هذا الحب ودرج ؟
لنذق سعادته ولنرشف هناءته بغير عهود ولا اقسام .
ولنهل — فيما ترويه علينا دموعنا الصامتة — ذلك الحنـان الذي يجعل من الشقاء الهـاً .

في هذه السكينة الدائمة تغفي الرغبات اللذيذة ،
والنفس تشرد حالمة بالحب كما تحلم بالموت .
وكأنما دنت نهاية الوجود ، .
وكأن الوجود يسقط سقوطاً خفيفاً عميقاً ثم يشمله الظلام
وأثقاله المضنية تخف بالفرار المطلق من كل شيء ،
والذاكرة الطافحة تفرغ وتمّحي كذوب الثلج ،
والحياة الملتهبة المكتئبة يخيل الينا انها تفنى ويبيد كل شيء حولنا ،
ولا يبقى قائماً الاّ الحب . . . الحب وحده .

لنطلب الحب بسلام ،
فالليل لا يزال مدلهمًا ونور المصباح ضئيل يُحتضر ،
ألا تظنين اننا دخلنا القبر ؟
لنهو في اعماق البحار القاتمة ،
ولنتفان بين ظلماتها المتراكمة .

نحن الآن معاً تحت التراب ،
ألسنا تحته من زمن قديم ؟
فلنسمع في الاعالي التراب الذي يهتز تحت وطء الاقدام !
ولننظر في الآفاق تلك الاسراب السود ، وقد جذب الشمال بأزمّتها ،
تلك ليالي الماضي تمر لا يحصيها حساب .
ولننظر في الاجواء ، تلك الرفوف البيض ذاهبة بصفاوة ايامنا الغابرة من غير اياب .

ولكن — في خارج هذا المحيط الذي نتحمل شدته وقسوته —
ما اجمل هذه اليقظة التي يتوثب بها قلبانا !
أنا لا ادري ما هو الحادث الذي اعمى عيوننا ،
ولا ادرك عمر اندهالنا في هذه السماوات ،
فان حوادث الحياة الماضية قد ذهبت بذاكرتي الى الابد ،
ولكنني اذكر — والذكرى بعيدة — انني كنت احبك .

ألا أيٌّ منهم هيأ لنا هذا المضجع ؟
وأي قران ضم يدي الى يدك ضمّاً ازليًّا ؟

ولكن ما همنا يا محبوبتي ؟
فلنرقد طي اكفاننا الرقيقة ،
لنرقد للخلود السعيد وحدنا

[نقلها خليل هنداوي]

الأطعمة التي نأكلها

ولماذا نأكلها

في الاقوال المأثورة في اللغات الاعجمية قول مشهور مؤداه « قل لي ماذا تأكل وأنا اقول لك من أنت » . وقد عمد احد الكتاب العلميين والمحدثين الى هذا القول وعدّله وفقاً لاتجاهات البحث العلمي الحديث في الغذاء فقال : « قل لي ماذا تأكل وأنا اقول لك ما عمرك »

بل ان هذا الكاتب يذهب الى ان عمر الانسان يمكن تقسيمه الى فترات كل فترة لها غذاء خاص . فالفترة الاولى عند ما يكون الانسان وليداً يقتصر الغذاء على اللبن الحليب . والثانية على الخبز واللبن . والثالثة على اللبن والبيض والاسبانخ . وهكذا كلما تقدم الانسان في السن زادت المواد الغذائية التي يتناولها من لحوم وخضراوات وحلويات على اختلاف اصنافها . ثم اذا درج الى الشيخوخة عاد في غذائه الى بساطة الغذاء الذي يتناوله الطفل فيعتمد على البيض المسلوق سلقاً خفيفاً والخبز المحمر واللبن

لمحة تاريخية

والواقع ان ما نعرفه عن الاغذية المختلفة وفوائدها قد تطور تطوراً عظيماً بتأثير التجارب المختلفة التي قام بها الباحثون في كيمياء الاطعمة وتأثيرها الغذائي

فالطبيب اليوناني ابقراط الملقب بابي الطب — كما يلقب هيرودتوس بابي التاريخ — عاش ما بين السنة ٤٦٠ و٣٧٠ قبل التاريخ الميلادي وكان يعتقد أن هناك ضروباً مختلفة من الاغذية. ولكن المادة الغذائية فيها جميعاً انما هي واحدة . وظلّ هذا الاعتقاد سائداً حتى مطلع القرن التاسع عشر . ففي سنة ١٨١٣ كان العالم الفسيولوجي الفرنسي ريشران لا يزال متمسكاً بنفس هذا الرأي . وبعده بعشرين سنة اي سنة ١٨٣٣ اي من نحو مائة سنة فقط نشر العالم بومون كتابه عن « الهضم » وأشار فيه الى القيمة الغذائية في الاطعمة المختلفة باسم واحد مبهم يمكن ترجمته بلفظ « الغذاء »

وبعده بسنة واحدة فقط قام العالم الانكليزي الطبيب وليم بروت وقال ان في الاطعمة المختلفة ثلاث مواد اساسية مغذية وأن تناولها جميعاً ضروري لا ندحة عنه للتغذية التامة . واطلق على هذه المواد ثلاثة اسماء لاتينية معناها الزلاليات كبياض البيض والدهنيات مثل الزيوت والادهان المختلفة والسكريات او النشويات

وجاء بعده العالم الكيماوي الالماني جوستوس فون ليبغ فبين ان الادهان والمواد النشوية او السكرية تستعمل في الجسم لتوليد الحرارة والطاقة حالة ان المواد الزلالية او البروتينية كما تعرف في بعض الاحيان يستعملها الجسم لبناء النسج المختلفة

مواد التغذية الاساسية

فلما ارتقى علم الكيمياء بوّبت الاطعمة المختلفة وفقاً لما تحتوي عليه من هذه المواد الغذائية الثلاث . ولكن البحث والتجربة اثبتا انه في الامكان ان تصنع غذاء من مواد دهنية وزلالية ونشوية فيجهز الجسم بما يحتاج اليه من الطاقة اي الحرارة والمواد اللازمة لبناء النسج ومع ذلك يبقى هذا الغذاء غير واف . اي يظل ناقصاً شيئاً او اشياء اساسية لم يعرف اولاً ما هو او ما هي

فاستنبطت لذلك طريقة جديدة للبحث في الطعام وما يجب ان يتوافر فيه لكي يكون غذاء كافياً للجسم . وهذه الطريقة هي طريقة تجربة التجارب بالحيوانات وفي مقدمة هذه الحيوانات الجرذان والفئران والارانب والارانب الهندية او ما يعرف بخنازير الهند

هذه الطريقة الجديدة من البحث اثبتت او افضت الى مكتشفات ثلاثة على جانب كبير من الخطر

كان علماء الكيمياء وعلماء التغذية قبل استعمال هذه الطريقة يعتقدون ان المواد الزلالية او البروتينية لها قيمة غذائية واحدة لا تختلف باختلاف مصدر المادة الزلالية وسواء اكان مصدرها من النبات ام من الحيوان

الحاجة الى احماض معينة

ولكن البحث اثبت ان بعض المواد الزلالية يفوق البعض الآخر في قيمته الغذائية ثم ظهر ان المواد الزلالية التي تتوافر فيها القيمة الغذائية تحتوي على مركبات تعرف باسم الاحماض الامينية Amino-Acids وان هذه الاحماض هي الفعالة في بناء نسج الجسم . وان المواد الزلالية التي لا قيمة كبيرة لها من ناحية التغذية لا تحتوي على هذه الاحماض او هي تحتوي على مقدار صغير منها

فالتطبيق العملي الاول لهذا الاكتشاف هو ان بروتينات الحيوان اعلى قيمة غذائية من بروتينات النبات وان الام الحكيمة ترتب غذاء صغارها على وجه يمكنهم من الحصول على هذه الاحماض الامينية اللازمة لبناء العضل مثلاً وغيره من نسج الجسم . وهذا مستطاع باضافة الخضروات واللبن والبيض واللحم الى الاطعمة التي تولد الحرارة كالخبز والزبدة

الحاجة الى املاح معينة

وكان الاكتشاف الثاني الذي نشأ من تجربة تجارب التغذية بالحيوانات ، خاصًا بما يحتاج اليه الجسم من الاملاح المعدنية

كان العلماء يعلمون بوجه عام ان الجسم النامي ، حتى وجسم المتقدم في العمر يحتاج الى املاح معدنية ، ليبني عظاماً قوية ودماً كامل التركيب وغيرهما من نسج الجسم المختلفة وتحفظها في حالة سليمة . ولكنهم كانوا يحسون ان الانسان لا يحتاج الى توجيه العناية الى هذه الناحية بوجهٍ خاص ، وان الطبيعة تجهزنا بهذه الاملاح في الاطعمة العادية التي نأكلها اذا كانت تحتوي هذه الاطعمة على العناصر والمواد الاساسية وهي النشويات والادهان والزلاليات

ولكن تجربة التجارب بالحيوانات اثبتت ان بعض الاطعمة التي نعتمد عليها اعتماداً يوميًّا في غذائنا تعوزها املاح معدنية اي املاح غير عضوية

وهذا النوع من البحث افضى كذلك الى زيادة ما نعرفه عن حاجة الجسم الى مقادير يسيرة جدًّا من العناصر مثل الكلسيوم (الجير) والفصفور والمغنزيوم والصوديوم والحديد والكلور بل مما بعث على الدهشة والاستغراب ان يكون الجسم في حاجة الى مقادير يسيرة جدًّا من عناصر اخرى مثل النحاس واليود والمنغنيس والزنك ليبقى في حالة صحية

ومما ظهر مثلاً ان حاجة الجسم الى النحاس انما هي لكي يستعمل النحاس في تمثيل الحديد الذي يتناوله ليبني منه كريات الدم الاحمر

ولا يبعد ان يثبت بعد موالاة البحث ان لكل عنصر من هذه العناصر وظيفة خاصة في بناء جزء من اجزاء الجسم ولو كانت المقادير التي نحتاج اليها من كل منها يسيرة جدًّا

اللبن غذاء كامل

ولا يصلح ان نمر بموضوع العناصر والاملاح من دون ان نقول ان اللبن مع احتوائه على المادة الزلالية (البروتينية) والدهنية يحتوي كذلك على مزيج عجيب من العناصر والاملاح المعدنية وهذه تجعله افضل غذاء واحد تمدنا به الطبيعة . فمنه يأخذ الجسم معظم ما يحتاج اليه من الكلسيوم (الجير) مثلاً . والنباتات المورقة تجهزنا بما نحتاج اليه من الحديد . فشرب اللبن وأكل الخضروات المورقة كافيان في الحالات العادية لتجهيز الجسم بما يحتاج اليه من هذا القبيل

صحة الاطفال

رعب الاطفال في اثناء الليل

من المشكلات الكبيرة التي يقف غالباً الوالدون امامها حائرين قلقين من دون ان يعرفوا لها سبباً هو عدم انقطاع الطفل احياناً عن البكاء والعويل في اثناء الليل . لكن ذلك يعد ثانويًّا اذا قوبل بعوارض الذعر الشديد الذي يفاجيء الاطفال ليلاً في اثناء النوم ويقض مضجعهم ويحرم جفونهم لذة الكرى ويكون سبباً لصراخهم وعويلهم . وعوارض الذعر هذه يبتديء ظهورها من نهاية الفطام حتى السنة السابعة او الثامنة فيأخذ الولد عادة بعدها يقاوم بقدر طاقته ، واذا اعترته في هذه السن تخيلات او احلام تستفز جهازه العصبي الصغير وتثير احساسه بالخوف الشديد فلا تؤثر فيه حينئذٍ ذلك التأثير

فاذا جنّ الليل ومضت ساعتان الى ثلاث ساعات على نوم الولد ينهض من فراشه مضطرباً وجلاً فيجلس او يجثو فيه على ركبتيه . او يقف في خارج سريره ويمد ذراعيه كما لو كان يستجير او يطلب المساعدة من احدهم ثم يصرخ صراخ المحصور المتضايق محاولاً ان يدفع شيئاً امامه . فقد يخيل اليه وقتئذٍ ان ما يراه هو حيوان ضار او هرّة او كلب اوذئب او رجل او امرأة أو لص . ومن الاولاد من يلتفت ذات اليمين وذات اليسار في فراشه باكياً منتحباً ثم يقف ويحدق في نقطة معينة في فضاء الغرفة وهو ممتقع شاحب اللون والعرق يتصبب احياناً من جبينه . وفي هذه الحالة لايعرف الذين حوله من الخوف والرعب ولا شيء ينجح من عبارات اللين والملاطفة لتسكينه أو تسكين روعه . وقد لوحظ ان الولد في باديء الامر لا ينبس ببنت شفة بل يصرخ صراخاً مبهماً لا يلبث ان تعقبه كلمات متقطعة ذات صلة بالوهم الذي استولى على ذهنه في اثناء النوم . وقد تدوم هذه الحالة من بضع دقائق الى نصف ساعة حتى اذا انيرت غرفته وانهضه والده من فراشه ثاب اليه هدؤه وسكونه

ومما هو جدير بالملاحظة عدم استيقاظ الولد تماماً من سباته لانه يكون كالثمل او كفاقد شعوره . ولذا تراه يعود حينئذٍ الى فراشه وسنة الكرى مستولية عليه . وفي اغلب الحالات يستمر في نومه هذا حتى الصباح . لكن يحدث في حالات اخرى ان تعود اليه عوارض الخوف بعد ساعة او ساعتين من الليلة نفسها لكنها تكون في هذه المرة اخف وطأة من المرة الاولى ومع ذلك فالولد غالباً لايفيق ولايذكر شيئاً مما حدث في اثناء الليل . وقد تتكرر هذه الحالة

ليالي كثيرة متتابعة في الساعة نفسها تقريباً من كل ليلة او كل ليلتين او ثلاث ليالٍ في ثمانية ايام الى خمسة عشر يوماً . والذي لا بدّ من ذكره هنا هو ان عوارض الخوف هذه لا تظهر في أثناء النوم نهاراً

اسباب الحالة

يحدث الخوف احياناً عند الاطفال الضعاف وفي احيان اخرى عند ذوي المزاج العصبي او المتولدين من اصل عصبي وذوي الاستعداد لداء الصرع . كذلك عند المصابين بخلل في الهضم ناشىء عن سوء التغذية مثلاً والقبض والاسهال المتناوبين والاهمال في اتباع قواعد الصحة والنظافة او التسمم الغذائي والافراط في شرب السوائل القوية أو المهيجة او من فعل بعض الادوية لكن هذا لا يمنع ان نجد في بعض الاحيان عند فحص الولد شيئاً يسبب ذلك في ماضيه الشخصي والوراثي

والعامل الاكبر الذي يظهر انه السبب المباشر في حدوث عوارض الخوف ليلاً عند الاطفال هو الاضطرابات الهضمية وتمدد المعدة الناتج عن الافراط في تناول الطعام ولا سيما الافراط في شرب اللبن . فيكفي في هذه الحالة تدبير اوقات الطعام وتنظيم مقاديره للولد لازالة اسباب خوفه واعادة سكونه ونومه اليه

ويجب الاّ ننسى في هذه العجالة كسبب مهم ايضاً لخوف الولد التهاب اللوزتين واورامهما ووجود الطفيليات المعوية كالديدان الدبوسية والحبليل حتى والدودة الوحيدة . فبزوال هذه الاسباب يعود الى الولد هدوؤه وراحته

علاج الحالة

جميع الاعتبارات المتقدمة يجب أن تكون نصب عيوننا متى أردنا ان نبحث عن السبب الذي يقلق الولد ويخيفه . ومن الضروري قبل كل شيء ملاحظة حالة الجهاز الهضمي وتنظيم قانون شديد لمواعيد وجبات أكل الولد ومنعه من جميع المشروبات الكحولية كشراب الاثمار والجعة وغيرهما. كذلك المشروبات المهيجة كالشاي والقهوة. ثم يقتضي تنقيص مقدار الماء المعطى له في أثناء الطعام لان الافراط في شرب الماء من العوامل المساعدة جداً على رعب الاولاد ليلاً . وما يقال عن الماء يقال عن اللبن الحليب . وكثير من الاباء والامهات يسيئون إلى اولادهم باعطائهم كؤوساً كبيرة من الحليب عند العشاء او قبل أن يذهبوا ليلاً إلى فراشهم فيثقلوا على معدتهم ويلحقوا بهم ضرراً بالغاً من دون أن يشعروا

ولا يفوتنا ايضاً ذكر مقدار الاطعمة الجامدة التي يأكلها الولد خصوصاً في العشاء . فان كثيرين من الاولاد يتركون وشأنهم فيفرطون ويأكلون فوق الشبع فيقتضي تجنب جميع الاسباب المساعدة على تهيج جهازهم العصبي . كما أنه يستحسن تنويم الولد باكراً وتحاشي كل ما من شأنه تكدير خاطره او تهييج اعصابه قبل نومه ومنعه خصوصاً من مطالعة الكتب والروايات التي تحتوي على مناظر ورسوم مخيفة وكذلك حضور السينما والسهر الطويل وسماع الوقائع

***

أما غرفة الولد فيجب أن تكون تهويتها جيدة بحيث لا تزيد درجة حرارتها على ٢٠ بمقياس سنتغراد وقبيل النوم قليلاً يعطى الولد فنجاناً من منقوع اوراق شجر البرتقال او الزيزفون وعند الحاجة يضع نقط من حشيشة الهر أو بالاحرى قرصاً واحداً من حشيشة الهر وحشيشة الدينار معاً رذلك قبل الطعام بساعة واحدة . وقرصاً آخر ساعة بعده . واذا لم تكف هذه الوسائط فيمكن اعطاء البرومور . وعلى كل حال يجب الوقوف على رأي الطبيب من اول الامر والعمل بارشاداته

الدكتور عبده رزق

تغير أخلاق الناس

بالحقن او بوصفة كيمائية

مركز الشهوات والعواطف في الجسم

نلخص المقالة التالية لطبيب انكليزي قال :

اذاع طبيب مشهور ان مركز الشهوات في الجسم هو ما يسمى « داينسيفالون » وسأبسطه لك قليلاً هنا

قبلما يولد الانسان بثمانية اشهر يكون الجهاز العصبي انبوبة من النسيج العصبي مسدودة من الطرفين . وكلما نما الجنين ينبت من احد طرفي الانبوبة ثلاثة رؤوس مدببة يتألف منها الدماغ فيما بعد بأجزائه الثلاثة المقدم والمتوسط والمؤخر ويتألف من بقية الانبوبة الحبل الشوكي

ولكل من هذه الاجزاء وظيفة فأهم وظائف مؤخر الدماغ التحكم في القلب والمعدة والرئتين ووظيفة الاوسط التحكم في حاستي البصر والسمع

واما مقدم الدماغ وهو اهم اجزائهفي زاويتيه الاماميتين برعومان فارغان يتفرعان كشجرة

حتى يفوقا في حجمهما سائر الدماغ مجتمعاً . ووظيفتهما التفكير والتحكم في العضلات . وفي مؤخرها الداينسيفالون المذكور آنفاً وهو مركز الشهوات والعواطف كما تقدم القول

عرف ذلك السر ولتر لنجدون براون الذي استعفى اخيراً من منصب استاذ الطبيعيات في جامعة كمبردج . فقد قص في محاضرة اخيرة في جامعة لندن قصة بنت عمرها عشر سنوات كانت ذات مزاج غريب منذ ولادتها ووجه غرابته انها لم تكن تظهر في اعمالها شيئاً من السرور او الخوف او الانفعال اي انها كانت فاقدة لهذه العواطف . ثم مرضت واشتد بها الخطر فلما عرفت انها مائتة قالت بلا خوف ولا مبالاة « شيء لا بدَّ منه »

وشرحت جثتها بعد موتها فوجد دمل في « الداينسيفالون » . وهذا الدمل او الخراج هو سبب فقدها للعواطف المذكورة. ووجد مثل هذا المرض في هذا الموضع من الدماغ من اشخاص كانوا عرضة للغضب احياناً وللخوف اخرى وللاندفاع الى البكاء في آونة غيرها

فاذا عرفنا كيف يتحكم هذا العضو الصغير في العواطف فقد يساعدنا ذلك على تكييف المزاج الانساني والحيلولة دون الجنون وضعف القوى العصبية

والظاهر انهم اهتدوا الى شيء مثل هذا في الغدة النخمية المتصلة بالعضو المذكور . فهذه الغدة صغيرة جدًّا لا تزيد ثقلها على نصف قمحة ولكن مباحث الباحثين فيها تدل على انها مفتاح مجموعة مهمة من الغدد الموزعة في الجسم معروفة باسم الاندوكرين او الغدد الصم

ولهذه الغدة فعلان في تلك الغدد الواحد التهييج والثاني للتخفيف . ففي البغضاء او الاعتداء تهيج الغدد الكلوية (الادرينالية) التي فوق الكليتين

وفي الخوف تهيج الغدة الدرقية التي مركزها في العنق وفي الحب تهيج وتتفاعل الغدد الصم جميعها

ولطالما خطر للعلماء امكان تغيير الامزجة والاخلاق بتغيير عمل هذه الغدد وقوتها وتحدثوا عن مجيء الزمان الذي يمكن فيه تغيير اخلاق انسان ما بحقنة بالمادة الكيمائية الفعالة التي في هذه الغدد فيصبح في الامكان تغيير الاخلاق بوصفة طبية

***

ونحن نعلم ان هناك عقاقير تزيل الخوف والهم بفعلها في العضو المذكور ولكن لها لسوء الحظ تأثيراً آخر ضارًّا . وليس ببعيد ان تتمكن يوماً من تحضير حبوب نصفها لشديدي الخوف والهم . او من عمل عملية جراحية لهم اذا لم تنفعهم الحبوب . ولعل ازالة الخوف والتغلب على الهم يكونان مؤذنين بارتقاء الانسان الى درجة السوبرمان اذا كان ذلك مما قدر له

كلمة في ذات الرئة

بقلم طبيب في الدايلي اكسبرس

وقف الملك امام قبر الجندي المجهول يوم عيد الهدنة سنة ١٩٢٨ وبقي بعد تلك الوقفة ثلاثة اشهر بين الحياة والموت . ووقف الاميرال اللورد جليكو على قبر الجندي المجهول يوم عيد الهدنة سنة ١٩٣٥ فمات بعدتلك الوقفة بعشرة ايام وكانت وفاته بذات الرئة (النومونيا)

فلماذا ادى الوقوف دقائق معدودات في يوم بارد على قبر الجندي المجهول الى الخطر في الحالة الاولى والى الموت في الثانية . وقد عرف عن الملك انه وقف ساعات للصيد في ايام لا يقل بردها عن يوم عيد الهدنة وبملابس اخف مما لبس في عيد الهدنة ولم يصب بأذى . وكم وقفة وقفها اللورد جليكو على ظهر بوارجه والبحر عجاج متلاطم الامواج والريح صرصر عاتية فلم ينله اقل ضرر

يذهب بعض الاطباء ان ثوران العواطف في امرىء يجعله اكثر استهدافاً للمرض من اي سبب آخر واحد وأضعف مما يكون عادة لمقاومة جراثيم المرض وهذا هو فعل العواطف جميعاً لا الحزن وحده .فالرجل ذو الهمّ والغلام المذعور اكثر قبولاً للمرض مما يكونان عادة اي عند خلوهما من الهم او الخوف

ومن رأي بعض الاطباء والمعاصرين ان الناس يصابون بالزكام عند خروجهم من السينما لا لانهم يخرجون من ردهة دافئة الى هواء بارد — فالناس يخرجون من الحار الى البارد كل يوم ولكن لان عواطفهم تكون ثائرة من افعال عصابة لصوص على شاشة السينما او مايرون من الجرائم ترتكب امام اعينهم ومن المخاطر والاهوال فتضعف مقاومتهم الطبيعية

ومن حقائق الفسيولوجيا الحديثة ان العواطف توقع الخلل والاضطراب في وظائف الجسم وعملها . ونحن نعلم ان الغضب يملأ الدم بالادرينالين المفرز من غدده

السبب ظاهر : ذلك انه اذا كانت عواطفك ثائرة فان رد الفعل الطبيعي في جسمك يسرع عمله فيزيد احتراق الاكسجين فيه فترتفع حرارتك ويسرع تنفسك ويزداد خفقان قلبك وضغط دمك . فيمتقع لونك لتخفيف ضغط الدم ويحمر وجهك محاولة تخفيض الحرارة . ويبطل افراز الغدد التي في فمك فيجف لسانك وتتسع حدقتا عينيك وتترطب كفاك

وحالما يهمد ثوران العواطف يرتخي الجسم ليستعيد ما استنفد من الطاقة ويبطىء عمل جميع الوظائف بعد إسراعها . وفي هذه الحالة من بطء رد الفعل يبيت الجسم اكثر استهدافاً للعدوى

مما يكون عادة . وقد تكون فيه جراثيم كامنة لم تستطع ايذاءه قبل الثوران فتقوى على الايذاء بعده ويصاب الجسم بمرض ما . وأخطر الامراض في هذه الاحوال على بعض الاشخاص ذات الرئة التي ترفع النبض من ٧٢ الى ١٥٠ او ٢٠٠ في الدقيقة والحرارة الى ١٠٤ او ١٠٥ سنتغراد او فوقها قليلاً . ويصاب المريض بالهذيان ويخف نفسه ويسرع

ويقدر في بريطانيا ان كل ١ في ١١ يموت بذات الرئة وهي تصيب الشيوخ والكهول والصغار على السواء ذكوراً واناثاً

ومعظم فتك هذا المرض في الخريف والشتاء ولكنه يصيب الناس كذلك في الربيع والصيف والذين قلوبهم ضعيفة معرضون لها فاذا أصيبوا بها صعب شفاؤهم منها . ويقول الاطباء انها تتعب القلب في ازمتها اكثر مما يتعبه التجذيف في سباق القوارب والتجذيف اكثر الالعاب الرياضية الحديثة ارهاقاً للجسم .وقد وصف لعلاجها وسائل كثيرة وقسمت جراثيمها اربعة اقسام واعد مصل لكل منها ولكن المصل لم يفد الاَّ في الاضعف

ومن سنتين اكتشف الدكتور آفري — وهو انكليزي يعمل في معهد روكفلر باميركا — اكتشافاً عظيماً .فقد وجد ان للجراثيم غشاء يقيها مؤلفاً من مادة سكرية وهذا الغشاء يمنحها مناعة من كل دواء ما عدا الادوية القوية التي لا يحتمل الجسم حقنها . وعليه جرب تجارب لازالة ذلك الغشاء الواقي للجراثيم بحقن الجسم بمواد مضادة للسلولوس قاعدة السكر فاستحضر مركباً من التربة النباتية المعروفة باسم (بيت بوج Peat-bog) فوجدها فعالة في علاج المرض

وهناك علاج أحدث من هذا اكتشفه طبيبان من لندن وهما فرايزر وواش من المدرسة الطبية التابعة لمستشفى سنت ماري وقوام هذا العلاج حقن من محلول الزيت وماء الصابون . وقد أفاد كثيراً

ولا بد ان يجيء يوم تخلو فيه بعض اجزاء العالم من ذات الرئة كما خلت من الطاعون والكوليرا . ولا تزال ذات الرئة اليوم خطراً على الحياة بل من أعظم اخطارها . وقد عرف عنها انها ليست من الامراض التي تصيب طبقة معينة من الناس لانها تصيب الغني والفقير على السواء فقد راح ضحيتها ادجار وُلِيس (الكاتب الروائي والقصصي المشهور) والرئيس هاردنج (الرئيس الاميركي الذي جاء قبل هوفر) ويموت بها اصحاب الملايين من الاميركيين كثيراً والفقراء في منازلهم الحقيرة

ولكن يقال عن ذات الرئة انها على كونها خطراً كبيراً على الحياة ليست بالخطر الذي يخشى منه فهي مرض يشفى ويمكن الوقاية منه . فالرجل الذي يعيش عيشة منتظمة اقل استهدافاً لها من الذين فقدوا النظام في اكلهم وشربهم ونومهم ورياضتهم . وفي جميع الامراض تعد قوة المقاومة العدوى ٩٠ في المئة من المعركة

باب الأخبار العلمية

هل يستطيع العلم ان ينقذ الحضارة ؟

رأي للعلامة الدكتور كارل

الدكتور كارل اشهر من ان يعرف . فهو احد نائلي جائزة نوبل الطبية . ومن الاعمدة التي قام عليها البحث الطبي في معهد روكفلر . وصاحب التجربة المشهورة التي حفظ فيها قطعة من نسيج قلب الفرخ (الكتكوت) سبع عشرة سنة او نحو ذلك حية في زجاجة . والآراء التالية مقتطفة من كتابه الجديد «تجديد الانسان»

يقلب الانسان طرفه في نواحي الحضارة الحديثة فيرى رجالاً في مكنتهم ان يصنعوا آلات عجيبة في دقة تركيبها واحكام عملها . وآخرين يبضعون القلب البشري ثم يخيطون الجرح او يعيدون الى الكفيف بصره او يغذون الطفل المقرقم فينمو او يجدون علاجاً لمائة داء وداء فيسأل : أليس في وسع هؤلاء ومن كان على غرارهم ان يبتكروا علاجاً أو انواعاً من العلاج لادواء الحضارة ؟

اما الدكتور كارل فيرى ان ذلك في وسعهم لو لم تعترض سبيلهم عقبتان

فالعقبة الاولى انهُ يتعذر على اي انسان ان يتوفر في خلال سني حياته على جميع فروع المعرفة الانسانية توفراً يمكنه من حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي تعانيها الحضارة . وهو لذلك يقترح ان ينشأ معهد خاص وينظم فيه اذكى الشبان الذين في الخامسة والعشرين من العمر الآن واكثرهم ألمعية ويتركوا خمساً وعشرين سنة يتوفرون في خلالها على دراسة كل ما يستطيع العلم ان يقوله في الانسان . وعليهم ان يعيشوا عيشة زهد وتقشف كنسّاك العصور القديمة فلا « جولف » ولا « بردج » ولا « سينما » ولا « راديو » ولا حفلات اجتماعية ومآدب . .

فاذا بلغوا الخمسين من العمر كان في امكانهم ان يرسموا للعالم الطرق التي عليه ان يسلكها ليجتنب الحروب والازمات المالية والتعطيل عن العمل وما الى ذلك من الشرور الاجتماعية

خطأ قديم

اما العقبة الثانية فهي ان معارفنا العلمية في الزمن الحاضر غير وافية . فنحن نعلم شيئاً

كثيراً عن الشموس والمجرات والذرات وشيئاً غير قليل عن العظام والعضلات والفيتامينات . في وسعنا ان تقي انفسنا من ادواء وامراض مختلفة وان نصنع آلات ومحركات قوية للنقل والانتقال والرفع والخفض . ولكننا عاجزون عن الملاءمة بين نفوسنا والعالم الميكانيكي الذي خلقناه ولذلك يتعذر علينا ان نعيش في سلام وفي رغد فيه . والباعث على ذلك خطأ قديم

ولعلَّ القارئ يذكر غاليليو . ذلك العالم الايطالي العظيم الذي قام في القرن السابع عشر فكان اول عالم طبيعي مجرب في العصر الحديث. ان آثاره في الرياضة والطبيعة والفلك لا تحصى ومعظمها في المقام الاول في تاريخ العلم

ومما فعله غليليو انهُ فرق بين خواص الاجسام الاولية كالابعاد والوزن وهي مما يسهل قياسه والخواص الثانوية كاللون والرائحة وهي مما لا يقاس . فغليليو فرق بين الكم والنوع وعني بالاول فأفرغه في قالب رياضي فأرتقى العلم المبني عليه وكانت انتصاراته الباهرة

إلاّ ان اتباع غاليليو ارتكبوا خطأً فاحشاً حين حصروا همهم في « الكم » وأهملوا « النوع » . فحماستهم في سبيل الوزن والقياس حوّلت الانسان الى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء

هذا الخطأ يجب اصلاحه قبل ان يتمكن العالم من انقاذ الحضارة لان في الانسان شيئاً اكثر من الطبيعة والكيمياء ونواميسهما

يقول الدكتور كارل « ان الصفات التي لا تقاس في الانسان اهم منها الصفات التي تقاس» وهو يقول كذلك « ان وجود الفكر في الانسان في نفس المقام كمعرفة التوازن الكيمائي الطبيعي في مصل الدم »

المادة والروح

ثم هنالك خطأ آخر نشأ عن مباحث الفيلسوف الفرنسي ديكارت مع ان ديكارت نفسه لا يحمل تبعته . فالاشياء المادية بعد كتاباته فصلت عن الاشياء الروحية . فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق مما لا يمكن تفسيره . وغدا بناء الجسم وطريقة قيامه بوظائفه المختلفة في نظرهم اشد ثبوتاً من الفكر والنشوة والحزن والجمال . وفي التعليق على هذه يقول الدكتور كارل عبارته المأثورة : —

« هذا الخطأ حوّل الحضارة الى الطريق التي افضت الى انتصار العلم وانحطاط الانسان»

فنقذو العالم الذين يريدهم الدكتور كارل يجب ان يتوفروا على دراسة الانسان من ناحيتيه الكمية والنوعية معاً . وعليهم في المقام الاول ان يدرسوا العقل الانساني وهو المجهول العظيم الذي شرع علماء النفس في العهد الاخير يرودونه بأساليبهم المختلفة

ويرى الدكتور كارل ان تقدم العلم في كل ما له صلة بالغذاء والرياضة البدنية والصحة وشفاء الامراض والوقاية منها — كل هذا قد تمّ على حساب النمو العقلي . وهذا في رأيه هو التفسير المعقول لما نراه في حضارتنا . فنحن

لا نرى اننا مع ما بلغناه من ارتقاء في جميع هذه النواحي لا نزال عاجزين عن فض وجوه الخلاف من دون الالتجاء الى الحرب ، وعن توزيع الطعام وغيره من الحاجات المادية الاولية توزيعاً عادلاً على الناس ، وعن منع خطف الاطفال والجرائم على اختلافها

الدين والتصوف

ولا يريد الدكتور كارل ان يحصر درس العقل في اساليب التفكير وامتحانات الذكاء بل يريده ان يمتد حتى يشمل كل ما له صلة بالدين والتصوف وعلم الجمال والظاهرات الروحانية .وهو يعتقد ان الظاهرات الروحانية ظاهرات صحيحة على ندرتها وانها جديرة بدراسة العلماء ولكن يجب ان لا تترك لهواة هذا البحث ولو كانوا من اكبر العلماء فالخروج من ميدان الاختصاص محفوف بالمزالق ولو كان الخارج من طبقة نيوتن وكروكس ولودج

وعنده ان اجدر الناس بامتحان هذه الظاهرات ودراستها هم العلماء الذين حذقوا الطب السريري (الاكلينيكي) وتعمقوا في معرفة الجسم الانساني وافعاله الفسيولوجية والعصبية وغيرها من الظاهرات الخلقية والنفسية التي لها أساس فسيولوجي او تشريحي او ما كان من هذا القبيل

وأمله ان يعمد هؤلاء الى اساليب الفسيولوجيا والطبيعة للبحث في التخاطب عن بعد (التلبثة) وما اليها من الظاهرات النفسانية

غذاء للعقل

ومما يعرض له الدكتور كارل في كتابه موضوع الغذاء . فهو يقول ان معرفتنا في ميدان الغذاء لا تزال محدودة قاصرة . فنحن لا نعلم الاَّ يسيراً ما هو تأثير المركبات الكيمائية التي يحتوي عليها غذاؤنا في افعال الجسم العقلية والفسيولوجية . وذلك لان التجارب في هذه الناحية لم تجرب مدة كافية في الناس لتعرف نتائجها على وجه واف

ولا يبعد في رأيه ان تسفر هذه التجارب متى تمت عن حقائق جديدة من شأنها ان تعلمنا ان غذاء الحكام والمبدعين يجب ان يختلف عن غذاء العمال والموظفين العاديين في المعامل والمكاتب . فالسلالة البشرية في رأيه لا يمكن ان ترتقي اذا اكتفينا بتغذية الاطفال والمراهقين باللبن والقشدة والفيتامين

وقد يكون من الخير في رأيه ان نبحث عن مركبات ومواد جديدة لا يكون الغرض منها زيادة حجم الجسم ووزنه بل اذكاء القوة العقلية ونشاطها

مقام النساء

والراجح ان زعيمات الحركة النسائية لن يرضينَ بالمقام الذي يعينهُ الدكتور كارل لهنَّ . فهو يقول بوجوب عودتهنَّ الى البيت ولكن قوله هذا تختلف نزعته عن نزعة الحاكمين بأمرهم الذين يقولون بما يماثله.فهو يبحث في الموضوع

كالم يرى ان المرأة والرجل غير متماثلين وغير متساويين

فالمرأة اهم من الرجل في حفظ النوع ومقامها أعلى من مقامهِ في ترقية الحضارة. فعليها ان تقنع بهذا العمل العظيم بدلاً من ان تسعى الى تقايد الرجل ومنافسته. وهذا افضل للجنس ولها

« والواقع — يقول الدكتور كارل — ان بين المرأة والرجل فروقاً اساسية. فكل خلية من خلايا جسمها مطبوعة بطابع جنسها. وعلى ذلك يجب ان تمارس في تعليم الفريقين وتهذيبهما وسائل واساليب تتفق مع خصائصهما الطبيعية. فبين الجنسين فروق لا معدى عنها ومن الواجب ان يعمل لهذه الفروق اهم حساب في بناء الحضارة الجديد »

*

العسل وتضميد الجروح

كان العسل يستعمل في القرون الوسطى في تضميد الجروح بل ان استعماله هذا كان شائعاً في عهد الامبراطورية الرومانيـة وقد اشار المؤرخ الكبير بلينيوس الى انهم كانوا يستعملون في عهده مرهماً مركباً من العسل ونوع من دهن السمك لمعالجة الجروح. ولا يبعد ان دهن السمك هذا كان « زيت السمك » الذي يشرب الآن متقى لما يحتوي عليهِ من الفيتامين المانع للكساح

وقد جاء في رسالة العلم الاسبوعية ان اطباء مستشفى الصليب الاحمر في مدينة همبرج عنوا في الستة الاشهر الاخيرة بتجربة التجارب المحكمة في هذا الوجه من فائدة العسل فثبت لهم ان له تأثيراً بليغاً في تنظيف الجروح حتى الجروح الملوثة. ولكن ثبت لهم كذلك انهُ مع تنظيفهِ للجرح لا يؤثر تأثيراً يذكر في تعجيل اندمالها. ولما كان زيت السمك يساعد على تعجيل الاندمال فقد مزج هذا الزيت بالعسل فكان لهم مرهم ينظف الجروح ويعجل في شفائها

وعلى ذلك نكون من هذه الناحية قد عدنا بعد طواف طويل الى ما كان يعلمهُ الناس بالاختبار والتجربة العملية في عهد بلينيوس اي في اوائل العهد المسيحي

ولكن كيف يفعل العسل هـذا الفعل العجيب؟ هل يحدث تخمراً يقتل الجراثيم؟ واي عنصر من العناصر الداخلة في تركيبه يفعل هذا الفعل؟ هل هو سكره او املاحه المعدنية او احماضه النباتية أو ما فيه من الكحول او مواد التخمير؟ هذا ما لم يعن بهِ المجربون الالمان بعد. ولكن لا بد ان تتجه اليه عنايتهم فيجربون التجارب المحكمة لمعرفة تأثير كل من هذه المواد على حدة في حالات مختلفة

*

الميكروبات في اعالي الهواء

اعلن الدكتور ووكر احد اطباء جامعة جونز هبكنز الاميركية ان الهواء على ارتفاع يختلف من ٢٠ الف قدم فوق سطح البحر الى ٢٨ الف قدم خال من الجراثيم

وليس الدكتور ووكر اول من عني بهذا

البحث . فقد سبقه اليه طائفة من البحاث كالا ستاذ بروكتر احد علماء معهد ماستشوستس التكنولوجي والمستر ماير احد علماء وزارة الزراعة الاميركية والكولونل لندبرغ. ولكن اعلى ما وصل اليه هؤلاء الباحثون في بحثهم ٢٠٦٠٠ قدم فوق سطح البحر . الاّ ان الدكتور ووكر حلق في تجربته الاخيرة بطائرة من قاذفات القنابل في الجيش الاميركي الى علو ٢٨ الف قدم وجاس هو في حجرة الجندي الذي يطلق المدفع الرشاش وفي جدار هذه الحجرة شقّ كان العالم يمد منه يده الى الخارج وهو حامل بها لوحاً مطليًّا بغشاء من مادة تصلح لنمو الجراثيم . وقد فعل ذلك باثني عشر لوحاً دلت التجارب ان لوحين منها فقط يحتويان على مكروبات . وهو يعتقد ان مصدر هذه المكروبات يداه وملابسه . ولذلك يرى ان التجربة ليست حاسمة ولا بد من تجربتها ثانية

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد ان حرارة الهواء خارج الطائرة كانت تحت درجة الجمد قليلاً وكانت الطائرة سائرة بسرعة ١٥٠ ميلاً في الساعة . وكان العالم يبقي كل لوح من الواحه معرضاً مدى نصف دقيقة . وقد تهرأت اصابعه من البرد

*

مدينة ترتفع وتنخفض

مدينة بتسبرج من اشهر مدن اميركا الصناعية وهي مشهورة بوجه خاص بكل ما يتعلق بصناعة الحديد والفحم . إلا أنها ترتفع وتنخفض كل يوم من ١٣ بوصة (أكثر من قدم قليلاً) إلى ٢٣ بوصة (أقل من قدمين قليلاً) كل يوم بفعل جذب القمر

يعلم القراء أنَّ دوران الكرة الارضية على محورها كل اربع وعشرين ساعة يعرض كل بقعة على سطحها لجذب القمر . وهذا التأثير يظهر أعظمه في غلاف الكرة المائي فيرتفع وينخفض وهذا هو المد والجزر . والمد والجزر اظهر ما يكونان في مصاب الانهر الضيقة الطويلة وعلى بعض الشواطىء

وقد سبق لنا فكتبنا في « المقتطف » قبلاً ان بعض العلماء المعنيين بدرس جذب القمر لسطح الارض اثبتوا ان تأثيره في جذب قشرة الارض اليابسة يقرب شواطىء أوربا إلى شواطىء اميركا بضع اقدام

والآن اطلعنا على بحث للعالم الاميركي الدكتور بول فوت خلاصته ان قياس جذب القمر لقشرة الارض مدة طويلة اثبت له ان الارض التي تقوم عليها مدينة بتسبرج الاميركية ترتفع وتنخفض كل يوم من نحو قدم الى نحو قدمين

*

سرعة الطيران في الطبقة الطخرورية

قد لا تصدق ايها القاريء اذا قلنا لك انك ستسمع قريباً عن طائرات للركاب تطير بسرعة ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ميل في الساعة فتستطيع ان تدور حول الارض في نحو يومين ونصف يوم

ولكن هذا القول محتمل كل الاحتمال. واحتماله مبني على ما هو معروف في دوائر الطيران العالمية. فالعلم يقتضي والتجربة قد أيدت ما يقوله العلم، ان الطيران على علو ٣٠ الف قدم او ٣٥ الف قدم فوق سطح الارض تزيد سرعة الطائرة زيادة كبيرة لاسباب متعددة أهمها لطافة الهواء وقلة مقاومته وعدم هبوب رياح عكسية تعيق تقدم الطائرة وتزيد ما تنفقه من الوقود. وقد أثبت ولي بوست — الذي قتل من عهد قريب هو وول روجرز — ذلك اذ حلق بالطائرة «وني ماي» الى علو ٣٥ الف قدم وطار من شاطيء اميركا الغربي الى شيكاغو بسرعة ٣٥٠ ميلاً في الساعة. فقطع المسافة بين سان فرنسسكو وشيكاغو في ٧ ساعات على ما نذكر. وهي لا تقطع عادة في اقل من ١٥ساعة

ولكن الطائرة التي تطير على هذا الارتفاع يجب ان تكون متصفة بصفات خاصة في بناء محركها وحجرة الركاب، تقتضيها طبيعة الجو. وهذه الشؤون هي موضوع عناية المهندسين الآن وقد لا يطول الانتظار قبل الفوز بهذا الطراز من الطائرات

*

ملاريا القردة والشلل العام

يعلم قراء «المقتطف» ان الطبيب النمسوي المشهور فاجنر يورج اكتشف من سنوات طريقة لمعالجة الشلل العام الناشيء من الاصابة بالزهري وهي معالجة الداء بداء آخر على حد ما قال المتنبي: اذا استشفيت من داء بداء. والداء الذي استعمله الدكتور فاجنر يورج لمعالجة هذا الضرب من الشلل كان داء الملاريا وقد منح جزاء على هذا الاكتشاف جائزة نوبل الطبية

فالمصاب بهذا الضرب من الشلل يحقن بطفيليات الملاريا فيصاب بقشعريرتها وحماها والظاهر ان حماها العالية تشوي جراثيم الداء العياء المتأصل في جسم المصاب فيشفى المصاب من دائه الاصلي ثم يعالج للشفاء من الملاريا بالاساليب المعروفة اي الكينا وما اليها

ولكن الملاريا ليست بأصنافها المختلفة مما تحمد عقباه دائماً ثم انه من اشق الامور على مركز طبي حفظ البعوض الملوث بالملاريا لاستعماله في نقل الملاريا الى مصاب بهذا الشلل عند ما تقتضي الحاجة ذلك وبوجه خاص اذا كان هذا المركز الطبي في بلاد ليس فيها ملاريا او بعيدة عن بلاد فيها ملاريا

وقد قرأنا الآن ان الدكتور فان روين من اطباء جامعة ادنبره والدكتور بيل في بيمارستان مدلوثيان وبيبلز قد وصفا في المجلة الطبية البريطانية استعمالها ملاريا القردة في معالجة الشلل العام الناشيء عن الزهري

وهذا النوع من العلاج يمتاز على العلاج بالملاريا البشرية من نواح مختلفة اهمها امكان حفظ القردة في حالة عدوى مدة ستة اشهر وقصر مدة الحضانة وخفة الاصابة وسهولة علاجها بالكينا

البنزين من الفحم

ان عمل تحويل الفحم الى بترول وبنزين ليس عملاً صعباً او متعذراً من حيث المبدأ. فجميع اصناف الوقود مركبة من كربون وايدروجين. ولكن نسبة الايدروجين في البترول اعلى منها في الفحم ثم ان الفحم يحتوي على مقدار من الاكسجين اكبر من مقدار الاكسجين الذي في البترول. اضف الى الفحم مقداراً جديداً مناسباً من الايدروجين واضبط مقدار الاكسجين الذي فيه ولك بترول ينسكب في حوض

ولكن التطبيق صعب. والواقع ان العلامة برجيوس الالماني الذي ابتدع الطريقة العملية لذلك قضى سنين من البحث والدأب قبل أن يتوصل إليها سنة ١٩١٤ فلما كانت سنة ١٩٢٨ كان برجيوس يصنع ٣٠٠ الف برميل من البنزين كل سنة. ومما لا يرتاب فيه الباحثون انه لا تنقضي سنة ١٩٣٦ حتى تكون بريطانيا والمانيا تصنعان نحو ٤٠٠ مليون غالون من البنزين بمعالجة الفحم والفحم الاخضر وقطران الفحم الحجري بالاساليب الكيمائية. وأنه لا تنقضي سنة ١٩٤٠ حتى تكون المانيا قد اصبحت في غنى تام عن مصادر البنزين الاجنبية

ان الطبيعة سلخت ملايين من السنين في صنع البترول ولكن الالمان والانكليز يختصرون العصور الجيولوجية في بضع دقائق. الاّ ان هذا النجاح يقتضي منهم ثمناً فادحاً من المال والطاقة. فهم يحتاجون الى درجات عالية جدًّا من الحرارة ودرجات عالية من الضغط كذلك ليحملوا الفحم على الاتحاد بقليل من الايدروجين والاكسجين حتى يتحول الى بنزين. وانفقت معامل الصناعات الكيمائية الامبراطورية حتى الآن مليون جنيه للتغلب على بعض الصعاب الفنية الصناعية مع انهم كانوا يعرفون اساليب برجيوس الالماني. اما ما انفقه برجيوس قبل تحقيق مطالبه اولاً فلا سبيل الى معرفته الآن

وقد انشأت الصناعات الكيماوية الامبراطورية مصانع في بلنهام — افتتحت من نحو بضعة أشهر — لصنع البنزين من الفحم (البيتومين) وكان القصد اولاً صنع ١٠٠ الف طن في السنة من البنزين ثم زيد هذا المقدار الى ١٥٠ الف طن ولا ريب في ان نجاح هذه الصناعة سيكون له تأثير طيب في انعاش صناعة تعدين الفحم التي ضعفت بسد الاسواق في وجهها وبفعل الازمة العالمية

اما مراتب العمل فهي كما يلي: المرتبة الاولى تنظيف الفحم بازالة الرماد ثم طحنه ممزوجاً ببترول فيصبح معجوناً اسود يدفع في حوض تحت ضغط ٢٥٠ جوًّا حيث يتحد بالايدروجين. ولا بد في هذا من حرارة عالية جدًّا ويتحول المعجون الى سائل عند درجة ٤٥٠ سنتغراد من الحرارة

هذا السائل هو نوع من الزيت الوسخ الطيار. ثم يلي ذلك تكريره الى ثلاثة اصناف من الزيت احدها ثقيل والثاني متوسط والثالث بنزين. فيزال البنزين ويعاد علاج الزيت الثقيل فيتحول الى زيت متوسط وبنزين. فيزال البنزين. ثم يجمع مقدارا الزيت المتوسط ويعالجان كما تقدم حتى «تحلب البقرة تماماً»

مكتبة المقتطف

لبنان في عهد الامراء الشهابيين

وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب « الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان » للامير حيدر احمد الشهابي عني بطبعه وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه الدكتور اسد رستم احد اساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية وفؤاد افرام البستاني استاذ الاداب العربية في كلية القديس يوسف

كان الدكتور فان ديك الكبير في اوائل عمره يقيم في عيتات وهي قرية لآل تلحوق بين شملان من سوق الغرب فركب يوماً فرسهُ وسار الى قرية اخرى فلقيه صديق وقال له « الى اين يا حكيم » قال الى القرية الفلانية لكي افتح فيها مدرستين قال ألا تكفي مدرسة واحدة فلماذا مدرستان. ولعل السائل كان من المشايخ آل تلحوق وكان بينه وبينهم مساجلات لطيفة . فاجاب الدكتور فان ديك بقوله اني في الحقيقة ذاهب لانشاء مدرسة واحدة فمتى علم الآباء اليسوعيون بذلك اسرعوا وانشأوا مدرسة اخرى. قلت وقد كان التنافس كبيراً بين الآباء اليسوعيين والمرسلين الاميركيين هؤلاء من الكنيسة الانجيلية وأولئك من الكنيسة الكاثوليكية فاذا انشأ الاميركان مدرسة اسرع الآباء اليسوعيون وانشأوا مدرسة اخرى. اما الآن فيقوم استاذان كبيران احدهما من الجامعة الاميركية والآخر من جامعة الآباء اليسوعيين ويتفقان ويتعاونان على اصدار هذا الاثر النفيس ولو سمعنا ذلك في الماضي لما صدقناه اي لو سمعنا ان الدكتور كرنيليوس فان ديك الانجيلي والاب لويس شيخو الكاثوليكي اتفقا على تأليف كتاب في الجدل الكنائسي مثلاً لقلنا ان القائل قد اضاع رشده أيتفق فان ديك وشيخو هذا مستحيل

اما الآن فقد جمع المؤلفان الفاضلان بين المتناظرين وآلفا بين الضدين احدهما من الجامعة الاميركية والآخر من جامعة الآباء اليسوعيين فنشرا كتاباً واحداً وطبعاه في مطبعة واحدة هي المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين وهي والمطبعة الاميركية في نظري خير المطابع العربية بلا منازع فعسى يأتي يوم تكون فيه الاديان والمذاهب واحدة في نظر العقلاء فقد كان اهل لبنان لا ينظرون قبلاً الى الدين او المذهب بل الى ما يسمونه الغرض او الميل السياسي فيقولون مثلاً فلان قيسي او يمني من اي دين او مذهب كان وقد كان امراء لبنان ومقدموه ومشايخه وعامته اما مسلمون او مسلمون شيعيون او دروز او مسيحيون لا فرق بينهم الاَّ في الغرض او المذهب السياسي فلما دخل في امورهم رجال الدين ومعظمهم من مرسلي الاجانب انقلبت الحال ولا محل للبحث هنا في اسباب تنصر الامراء الشهابيين المسلمين والامراء اللمعيين الدروز وليتهم لم يفعلوا ولو كان ذلك لما كانت الحرب الاهلية ولما دخل اجنبيٌّ الى لبنان وسورية وفلسطين

وليحذر اهل لبنان من الدسائس فهم اهل وطن واحد فلو دخل فيهم الطاعون مثلاً كان عرضة للاصابة به جميع الناس على السواء

ثم ان في اول الكتاب مقدمة جاء فيها نبذة عن المؤلف وترجمة حياته وفيها تمحيص دقيق لما ورد عنه في المؤلفات العربية وقد انصف الناشران في ما ذكراه عنه إيما انصاف ولا سيما في ماجاء في كتاب الساق على الساق ولا يخفى ان الامير حيدر كان مسيحيًّا مارونيًّا وكان متمسكاً بدينه . وهناك مسألة قلما انتبه لها أحد وهي ان الامير حيدر كان كريماً أي جنتلمان كما بينت في تفسير هذه الكلمة في جزء ماضٍ من المقتطف فتنصره لم يجعله يكتبها سريانية بل بقي كريماً فيه دم الشهابيين كما يستدل من عبارة قالها في اول الكتاب وهي حقيقة لا ريب فيها قال في الصفحة الاولى ما يأتي : ذكر ما حدث إلى الفرنساوية من الانشقاق والنفاق والخصام وخروجهم إلى الديار المصرية وما تم لهم بتلك الامصار بنوع الاختصار . والحمد لله العلي الجبار الذي اراح منهم هذه الديار . انتهى فكيف يقول ذلك ماروني قات يقولهُ اذا كان شهابيًّا ويقولها غير الشهابي

مصر الجديدة امين المعلوف

من بعيد

للدكتور طه حسين — ٣١١ ص . من القطع الصغير

«هذه فصول متفرقة لا يكاد يجمع بينها الا انها كتبت من بعيد . كتبت من بعيد في المكان وكتبت من بعيد في الزمان ايضاً » — بتلك الجملة يستهل المؤلف مقدمته شارحاً عنوان كتابه باسطاً السبب الذي من اجله اعاد طبع مقالات كان قد نشرها من قبل في الصحف السيّارة

ومهما يكن من امر فان مراجعة تلك الفصول لمتعة للقارىء بل للقارىء الذي يحب ان يستفيد من طريق العبث. فما لا شك فيهِ ان الدكتور طه حسين عرف كيف ينشىء اسلوباً يملك عليك عقلك ويغذيه في آن ، أسلوباً اذا مشى انطلق وعدا ولو بما اكره القلم على الجريان اسلوباً خفيف المواقع تضطرد فيهِ المترادفات والاعتراضات في رشاقة ، اسلوباً بليغ لا يكلفك عناء على اختيار الالفاظ فيه . اذاً هذي فصول تضم وصف رحلات وبسط علم وخواطر سانح ودراسات في الادب وآراء في الفلسفة . وليست هذي الفصول بمنسقة ولا منسجمة الاَّ ان الاسلوب الواحد يجمع بينها وروح المؤلف المطردة تؤلف بين اجزائها

ولنشر الى فصلين منها. اما الأول ففصل « الادب والادباء » وما نظنه الاّ دخل في تاريخ الادب العربي الحديث اذ يتناول فيه الدكتور طه حسين قصة الخصومة القائمة بين انصار القديم وانصار الجديد تلك الخصومة التي قمنا لها وقعدنا لعشر سنين خلت . واما الفصل الثاني فعنوانه « بين العلم والدين » وهو بحث لم يكد احد يجرؤ على القدوم عليهِ والفصل فيه . فمثل هذين الفصلين يدلان على مكانة الدكتور طه حسين في التفكير ايام نهضتنا هذه ويسجلان اسمه تسجيلاً

تطور الاساليب النثرية في الادب العربي

الجزء الاول — تأليف انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الامريكية — ٤٤٨ صفحة من قطع المقتطف — طبع مطبعة سركيس في بيروت

الاستاذ انيس المقدسي علم من اعلام الرأي في الادب العربي ، اخرج منذ ثلاثة اعوام كتابه «أمراء الشعر العربي في العصر العباسي » فكان كتاب عامه ، وها هو يخرج في هذه السنة كتابه النفيس« تطور الاساليب النثرية في الادب العربي » فاذا الكتاب الجديد كتاب عامه

وهو يتناول في هذا الكتاب النثر العربي وخصائصه الفنية منذ بزوغ الاسلام الى النهضة الاخيرة ويتخلله دراسات تحليلية لنخبة من امراء الاقلام وعرض كثير من نصوصهم الانشائية . وقد تعمد المؤلف عدم التعرض للنثر الجاهلي إلاّ ما توصل الى تحقيقه عرضاً في اثناء البحث وما ذلك إلاّ لان المواد النثرية التي بين يديه من العصر الجاهلي لا تسوّغ له تناول ذلك بطريقة علمية . على انه يستدل على قدم النثر المطلق بما ورد في القرآن الكريم من اشارات الى التقدم التجاري الذي بلغته قريش في الجاهلية ، وهذا التقدم لا بد له من استعمال الكتابة وقد ورد في القرآن ما يشير اليها مما لا يدع مجالاً للشك في استعمالها كما ان روايات المؤرخين تزكي ذلك فلقد ظهرت الدعوة الاسلامية وفي قريش كتّاب وللنبي كتّاب

ولقد تناول المؤلف البحث في النثر عند ظهور الاسلام فوجّه نظره شطر الرسائل النبوية التي بعث بها النبي الى الزعماء يدعوهم فيها الى الاسلام ، وذكر المزايا التي يلاحظها فيها من ايجاز وبساطة ومن اوضاع خاصة قلما يعثر عليها في غير هذه الرسائل ومن تتابع العبارات في كثير منها بعطف او غير عطف من دون تكلف التعادل بينها او صحة التقسيم

ثم التفت المؤلف الى ناحية الاسلوب القرآني فتكلم عن ظواهر بلاغته مقتصراً على اربعة انواع منها هي : الاحتباك ودقة الاشارة ، وحسن الايقاع ، وروعة الانتقال ، وجمال التمثيل ثم ختمه بالرد على المستشرق (نولدكه) الذي يرى في قصص القرآن وجوه ضعف منها النقص في التسلسل اي ان القصة لا تروى في طريقة خبرية منظمة بل يعتريها التقطيع والتشويش حتى يصعب فهمها على من لم يطلع عليها في مصدر آخر . ومنها تكرير بعض الالفاظ او العبارات وكثرة الانتقال في سياق الكلام من صيغة الى صيغة او حال الى حال زاعماً ان كل عالم أوربي يقرأ الكتاب بروح الانصاف يرى رأيه . فيقول الاستاذ المقدسي : —

« ومن الانصاف هنا ان نقول ان نولدكه لم يصب كبد الحقيقة فيما ذهب اليه من نقد الاسلوب القرآني . اذ لا يجوز مقابلة هذا الاسلوب بأسلوب القصة في التوراة لاختلاف الغرض فيهما ففي التوراة عدا اسفار الانبياء والأمثال والأناشيد الروحية حوادث تاريخية منظمة تجري فيها

الاخبار مجراها الواضح العادي. اما القرآن فحملات روحية خطابية لا يقصدبها تسلسل الخبر ، ولكن تستخدم فيها القصة تذكيراً او تهويلاً . ولذلك ترد مراراً بحسب ما يقتضيه الكلام وكثيراً ما تروى على سبيل الاشارة والتلميح — والنسق الخطابي يقتضي التكرير كما هو معروف. وأما الالتفات فهو ضرب من ضروب البلاغة يصعب ادراك كنهه على غير ابناء اللغة الواقفين على اسرارها

ثم انتقل الى الكلام عن الحديث ومقامه في تاريخ النثر حتى ينتهي من بحثه الى مزاياه العامة وهي تتفق مع ما في الرسائل النبوية من مزايا

ثم يجيء دور الامثال القديمة ولغتها وبعد ان يعرض لها يرى أنها من قبيل الكلام المخطوط الشديد الايجاز يكثر فيها الحذف وتتصف عموماً بمتانة السبك وجودة التقسيم مع الميل إلى النسق الانشائي العالي من تقديم القيود على المقيدات والمسند على المسند إليه . ومع أنها ليست إلاّ فقرات قصيرة يصعب الحكم بها على النسق الانشائي في ذلك العهد فاننا نتعرف بها ما بلغته العربية منذ العهد النبوي أو ما قبله من التطوُّر في بناء الجمل وتركيب الألفاظ ويمكن استخدامها للحكم على ما نقل لنا من آثار ذلك العهد البعيد

ثم يعقد فصلاً نفيساً على المزايا الانشائية العامة في عصر الفتوح الذي يصف طابعه الانشائي الخاص بطابع « البساطة المحكمة » وينتهي من ذلك بعد دراسة نصوص مختلفة من نثر ذلك العصر إلى أن النثر المرسل منذ انبثاق الاسلام الى عهد عبد الحميد الكاتب لم يطرأ عليه تغير يذكر فأقوال النبي والصحابة وخطب الامويين ورسائلهم جميعها مرتبطة بمزايا لغوية متشابهة ومطبوعة بطابع انشائي عام ، من ايجاز وبُعد اشارة وبساطة في التركيب وعدم تبسط في المعاني . أما السجع أو الازدواج فكان محصوراً في بعض مجالس الوعّاظ والقصاصين

ثم يعطينا أمثلة مختلفة مختارة من الخطب السياسية والادارية ومن الرسائل والعهود والوصايا ومن العظات الأخلاقية ثم يبتدىء في الكلام عن الاسلوب المتوازن أو المزدوج غير المسجّع وهو السائد في النثر الادبي منذ عهد عبد الحميد حتى عهد ابن العميد أي من اوائل القرن الهجري الثاني إلى القرن الرابع ويتناول البحث فيه النثر في أواخر العهد الاموي وصدر العهد العباسي ثم يتناول بالدراسات المطولة عبد الحميد الكاتب ورسائله واسلوبه والجاحظ ونظرياته وأسلوبه ثم ينتقل الى عرض امثلة من الاسلوب المتوازن بعد عهد الجاحظ ومنها يظهر أن السجع على تعاظم شأنه وسيادته في القرن الرابع الهجري لم يقض على الازدواج غير المسجع بل تجاريا معاً في حلقات الأدب حتى إلى ما بعد ذلك القرن كما ترى في يتيمة الثعالبي

ثم يعقد المؤلف الفصل الاخير على الاسلوب المسجع دارساً فيه بتوسع خصائصه ومواطنه ثم الرسائل الديوانية مع استعراض لرجالات الانشاء الديواني كابن العميد والصابي والقاضي

الفاضل وإبن الخطيب محللاً أدب كل منهم منتهياً إلى حكم خاص فيه استقصاء واتزان حتى نصل إلى الرسائل الادبية فنجده يعرض للرسائل المشهورة بالنظر فيها وفي أغراضها معقباً على ذلك بما بلغته هذه الرسائل في بدء نهضتنا الاخيرة ثم يختم هذا الفصل بالكلام عن المقامات وبطليها الهمذاني والحريري محللاً مزايا كل منهما تحليلاً دقيقاً

حسن كامل الصيرفي

اربعة كتب عن الحبشة
والحرب بينها وبين ايطاليا

كان نشوب الحرب بين ايطاليا والحبشة حافزاً لغير واحد من الكتاب المصريين الى تأليف كتب للتعريف بالبلاد الحبشية وتاريخها وعلاقتها قديماً وحديثاً بمصر والاسلام والعرب والكنيسة القبطية ثم تدخل ايطاليا في الحبشة لخمسين سنة خلت واسباب الحرب الحاضرة وعمل الدول لمنعها . وكتب التاريخ العربية القديمة مليئة بالكلام عن الحبشة ولكنه كلام مبعثر مختلط بغيره من اخبار الامم المختلفة . فالرجوع اليه واستقصاؤه في مظانه ليس من الامور الهينة على خلاف ما في الكتب الافرنجية الموضوعة عن الحبشة من ترتيب واحكام وفهارس تسهل على الكاتب الوصول الى المباحث التي يرغب فيها خاصة كانت او عامة. والكاتب العربي في المسألة الحبشية لا بدَّ له من الرجوع الى المصدرين الغربي والعربي . وفي الاثنين ما يقتضي جهداً . ووقتاً وبين يدينا اربعة كتب عن الحبشة ادركنا من تقليب صفحاتها عناية كتابها بالبحث والسرعة في التحرير اذ اراد كلٌّ منهم ان يسبق زميله تلبية لطلب جماعة الناشرين ورغبة القراء والمطالعين

المسألة الحبشية من التاريخ القديم إلى عام ١٩٣٥

١٨٠ صفحة كبيرة . ثمنه ١٠ قروش . يطلب من المؤلف

الّفه الاستاذ عبد الله حسين المحامي أمام محاكم الاستئناف والمحرر بالاهرام وصاحب الجريدة القضائية والادارة والبوليس القضائي

اجمل المؤلف الكلام عن سكان الحبشة وأرضها وطقسها واللغات الحبشية والمرأة الحبشية وممالك الحبشة وملوكها والامبراطور هيلاسلاسي والجندية الحبشية والقضاء والنقود والاسلام والنصرانية في الحبشة وتجارة الرقيق وعلاقات مصر بالحبشة في أيام سعيد باشا . وهذه الفصول مختصرة وجيزة ومنها ما لا يتجاوز الصفحتين. ثم بسط الكلام في المعاهدات الدولية بشأن الحبشة وتأثير الحرب العظمى في الحبشة وانضمام الحبشة إلى الجامعة والاتفاق الايطالي الانكليزي سنة ١٩٠٥ والمعاهدة الايطالية الحبشية سنة ١٩٢٨ والاتفاق الحبشي الفرنسي سنة ١٩٣٥ . واسباب الحرب الحاضرة ومقدمتها وموقف الدول وجمعية الامم من المتحاربين فهو جدير بالراغبين في دراسة الموضوع من الوجهتين الحربية والسياسية بعد الالمام بتاريخ البلاد وجغرافيتها وعاداتها

بين الاسد الافريقي والنمر الايطالي

في ١٤٠ صفحة كبيرة — ثمنه عشرة قروش — ويطلب من مكتبة المعارف بالفجالة

عني بوضعه وتأليفه الاستاذ محمد لطفي جمعه المحامي ، وصاحب المؤلفات الكثيرة في المسائل الشرقية . وتولت طبعه ونشره مطبعة المعارف طبعاً أنيقاً على ورق صقيل

وقد رجع المؤلف في بحثه الى عشرين مؤلفاً سرد اسماءها في آخر الكتاب ، ليعود اليها من اراد زيادة البحث والاستقصاء. ويمتاز كتاب الاستاذ لطفي جمعه بتناسق الفصول والعناية بالبحث والتحليل والقصد في الكلام . ففيه مقدمة وتسعة عشر فصلاً يدرك القارىء منها علاقة الحبشة بمصر والاسلام قديماً وحديثاً، وطموح مصر الى فتوح افريقيا ،وعلاقة مصر بالحبشة وايطاليا ، وعصبة الامم والمشكلة الحبشية ، ومن موقعة قرع الى موقعة عدوة ، والنظام الفاشي وغيرها

الحبشة او اثيوبيا في منقلب من تاريخها

٢٤٠ صفحة متوسطة . ثمنه ١٠ قروش . ويباع في مكتبات القاهرة

تأليف الاستاذ الشيخ بولس مسعد ، المعروف بمباحثه المتعددة في شؤون تركيا وسوريا ولبنان . وقد تولت طبعه المطبعة العصرية مزيناً بعدد كبير من الصور

قال المؤلف في المقدمة : « الحبشة امة شرقية جديرة بأن تتدبر امرها ونعتبر بما تفيدنا سيرها وننظر الى ما تهيء لها الاقدار في هذا المنقلب الخطير من تاريخها الذي نرجو ان يكون فاتحة عصر جديد حافل بمجالي الخير والاقبال . وقد مهّد للكلام عن الحرب الحاضرة بفصول عن جغرافية الحبشة وزراعتها وحاصلاتها ومواصلاتها وسكانها وطوائفها وعاداتها واديانها وعلاقتها بمصر خاصة والدول عامة وما اسفر عنهُ تنافس انجلترا وفرنسا وايطاليا فيها من النتائج ويختلف عن عمّا سبق بوفرة مباحثه الجغرافية والتاريخية وزيادتها فيه على النظر في الحرب الحاضرة ومقدماتها

الاسلام في الحبشة

١١٠ صفحات كبيرة . ثمنه خمسة قروش. ويطلب من المؤلف بالمطرية والمكتبات في القاهرة

الفه الاستاذ يوسف احمد ، المفتش السابق في مصلحة الآثار العربية وعنوان الكتاب يدل على الغرض الذي قصده المؤلف وهو التعريف بحالة الاسلام في الحبشة منذ هاجر اليها المسلمون في صدر الاسلام هرباً من اذى المشركين وما لاقوه من حفاوة النجاشي بهم . ثم يتناول الاسلام في الحبشة من بعد الهجرة . وانتشار الاسلام في الحبشة . واول دولة اسلامية في الحبشة.والاسلام والحبشة في القرن الثامن . وضعف السلطنة الاسلامية . والمذاهب الاسلامية في الحبشة . ونشاط المسلمين الطبيعي في الحبشة الخ الخ . وهذا البحث الخاص ، لم يعن كاتب عربي بجمعه وترتيبه قبل الاستاذ يوسف احمد ، فيسّر للقارىء العربي الاطلاع في ساعات على ما لا يمكنه مراجعته في الكتب القديمة في سنة

توفيق حبيب

العراق في دوري الاحتلال والانتداب

يعد الاستاذ عبد الرزاق الحسني بحق من انشط الكتاب العراقيين ومن اغزرهم مادة ومن اكثرهم توفيقاً في اختيار الموضوعات التي يعالجها فقد تم له في خلال السنوات الاخيرة اخراج سلسلة كتب نفيسة نافعة آخرها كتاب « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » فقد جمع فيه اخبار النهضة العراقية ونحوها من ابتداء الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ حتى يومنا هذا

ويتألف هذا السفر الثمين من جزئين بين يدينا الجزء الاول منه وقد طبع طبعاً متقناً في مطبعة العرفان بصيدا على ورق جيد وعدد صفحاته ٣٢٠ صفحة بالقطع المتوسط

وهذا الجزء مقسم الى ستة اقسام فالاول خاص بالحرب التركية الانكليزية في العراق. والثاني عن الثورات الموضعية. والثالث عن الثورة العراقية الكبرى. والرابع عن الحكومة المؤقتة. والخامس عن مشاكل العراق الخارجية وصلاته بايران وتركيا ونجد والحجاز. والسادس عن مشاكل العراق الداخلية ، وقد كتب كله بأسلوب جزل طلي ، جذاب ويزيد في خطورة شأن هذا الكتاب ما ضمه بين دفتيه من وثائق تاريخية ثمينة عني المؤلف الفاضل بجمعها واثباتها في مواضعها ، وكذلك في الكتاب ثلاث خرائط مع عدد كبير من الرسوم للزعماء الوطنيين ورجال السياسة الذين ورد ذكرهم وللحوادث نفسها

ولقد كتب الاستاذ امين سعيد مقدمة هذا الكتاب فوصف جهود المؤلف النافعة وأطراها ومما قاله « ان قراء العربية سيقابلون على اختلاف الوانهم كتاب الاستاذ الحسني الجديد بالاعجاب والتقدير شأنهم في كل ما يكتبه ويحبره لتعزيز النهضة القومية وخدمة العلم والادب ، فهو مما لا يستغنى عنه باحث ولا كاتب ، ولا مؤرخ ، ولا سياسي ، بل ولا عربي فنحن في اشد الحاجة الى دراسة تاريخ نهضتنا القومية والاحاطة به وتتبعه في ادواره ومراحله ، والوقوف على دقائقه وتفاصيله فاذا كان هنالك ما يفيدنا ، اخذنا به وسرنا عليه ، واذا كان هنالك ما يضر اهملناه او نبذناه وسلكنا سبيلاً آخر ، يهدينا الى الصراط المستقيم صراط خدمة العرب وايقاظهم ونشر ما انطوى من آثارهم ومفاخرهم ، واحياء دولتهم واعلاء كلمتهم الخ »

وبعد فكتاب « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » درة من الدرر الغوالي وفتح جديد في تاريخ العرب السياسي ، فنهنىء مؤلفه الفاضل بما ادركه من نجاح راجين له ان يوفق في اصدار جزئه الثاني كما وعد ونتمنى لجزئيه السابق واللاحق «ومقدماً» الرواج والانتشار

ويطلب الجزءان من المكتبة العصرية ببغداد ومن المكاتب الشهيرة في العراق وثمنه ٢٥ قرشاً صاغاً

***

فهرس الجزء الثاني من المجلد الثامن والثمانين

June—December 1935

يونيو الى دسمبر سنة ١٩٣٥

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

المجلد السابع والثمانون

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : FUAD SARRUF

VOL. LXXXVII

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد السابع والثمانين

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

م

٣٥ القاموس المصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ المدرسي « عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الآراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٨ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ماقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في امريكا (للاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري
٥ خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام العذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ، اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ، اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروحة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٥ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)

مجلدات المقتطف

المقتطف مجلة تقرأها اليوم وترجع اليها في المستقبل — ولا ادلّ على ذلك من مطالعة مجلداتها السابقة

كل مجلد تاريخ وافٍ للسنة التي صدر فيها. فيه وصف المستنبطات التي استنبطت والمكتشفات التي اكتشفت واشهر حوادث التاريخ وسير اعظم الرجال وآراء اكبر العلماء — وكل ذلك بكلام بليغ قريب التناول وصور كثيرة وتحقيق وتمحيص اشتهر بهما المقتطف مع مقالات كثيرة في مواضيع شتى علمية وادبية وفلسفية

فاذا كنت ممن يعنون بالنهضة الشرقية الحديثة — اذا اردت ان تطلع على ارتقاء الحضارة الغربية في الثمانية والخمسين السنة الماضية — اذا اردت تاريخاً وافياً لسير العمران منذ اكثر من نصف قرن الى الآن

فيجب الاّ تخلو مكتبتك من مجلدات المقتطف وهي تباع مفردة او مجموعة واثمانها ترسل لمن يطلبها

الى محبي المطالعة

طلب الينا كثيرون من قراء المقتطف ان نتساهل معهم في بيع سنوات المقتطف القديمة فنزولا على ارادتهم قررت ادارة المقتطف بيع بعض سنوات المقتطف القديمة بثمن ٢٥ قرشاً يضاف اليها اجرة البريد و «السنة عشرة اعداد»

فمن يرغب في اقتناء بعض هذه السنوات فليرسل طلبه مصحوباً بالقيمة

ادارة المقتطف بمصر

الشوقيات

الجزء الثالث لامير الشعراء المغفور له

احمد شوقي بك

صدر الجزء الثالث من ديوان الشوقيات مطبوعاً طبعاً متقناً من حجم المقتطف صفحاته ٢٠٢

وثمنهُ ٨ قروش صاغ

ويطلب من مكتبة النهضة المصرية لاصحابها حسن محمد واخوته

١٥ شارع المدابغ بمصر امام جريدة الاهرام

عبده الحمولي

راجع مقال خليل مطران في « الموسيقى العربية وعبده الحمولي »
وهو فصل نفيس من كتاب الموسيقى الشرقية والغناء العربي الذي
صنّفه قسطندي رزق

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثامن والثمانين

١ مارس سنة ١٩٣٦ ٧ ذي الحجة سنة ١٣٥٤

العلم يجاري الطبيعة

في توليد عناصر مشعة

تباري الراديوم

الراديوم اشهر عنصر في طائفة من المواد الكيمائية تعرف بالعناصر المشعة ، وصفتها التي تميز بها عن سائر العناصر ، هي اطلاقها انواعاً من الاشعة ، اطلاقاً ذاتياً ناجماً عن انحلال ذرّاتها . وقد ثبت بالتجربة والامتحان ، ان بعض الاشعاعات التي تنطلق منها ، وبوجهٍ خاص ما يعرف بأشعة غمَّا ، لهُ تأثير مفيد في معالجة السرطان

الاّ ان هذه العناصر المشعّة نادرة في الطبيعة ، ولذلك نجدها غالية الثمن ، حتى ان الغرام الواحد من عنصر الراديوم ، يزيد ثمنهُ الآن على عشرة آلاف جنيه ، وقد كان قبل عقدين من السنين يبلغ ثلاثين الفاً او نحو ذلك . ولذلك يصحُّ القول، بان الكشف الحديث ، عن تحويل بعض العناصر غير المشعّة ، الى مواد مشعّة، تقدُّم عظيم الشأن في علم الطبيعة ، وقد يكون، بل لا يبعد ان يكون ، نفحة جليلة اخرى ، من نفحات العلم النظري لعلوم الطب العملية

هذا الكشف الجديد ، الذي اثبت ان الانسان يستطيع ان يحوّل بعض العناصر غير المشعة الى عناصر مشعة باساليب صناعية ، نتيجة النشاط العجيب ، الذي بدا في علم الطبيعة التجريبيّ ،

ودار حول نواة الذرّة ، في الغالب ، في السنوات الخمس الاخيرة . فقد اذيعت الانباء الاولى عن هذا الكشف في ١٥ يناير سنة ١٩٣٤ في رسالة للسيدة ايرن كوري جوليو (كريمة مدام كوري مكتشفة الراديوم) وزوجها الاستاذ جوليو ، وقد نالا جائزة نوبل الكيمائية عن سنة ١٩٣٥ جزاء لهما على هذا الكشف العظيم

ومنذ ما اذاع هذان العالمان نتائج مباحثهما الاولى في هذا الموضوع ، أكبَّت عليهِ طائفة كبيرة من البحّاث في مختلف البلدان ، فتوسعت فيهِ ، وايدت بتجاربها الحقائق التي كشفها الباحثان المتقدمان . وفي مقدمة الذين تناولوا هذا البحث ، واضافوا اليهِ ، اللورد رذرفورد واعوانه في جامعة كمبردج ، والاستاذ انريكو فرمي في جامعة روما ، والاستاذ ارنست لورنس في جامعة كاليفورنيا الاميركية وغيرهم . ولكي يسهل على القارىء قدر قيمة هذه المكتشفات الحديثة حق قدرها ، لا بدَّ لنا من تلخيص ما كان يعرف عن تركيب الذرة في العشرين السنة الاخيرة ونحوها

فالذرة كانت في بدءِ هذه الحقبة ، وفي خلالها ، تحسب مؤلفةً من جزءٍ مركزي كثيف ثقيل الوزن يعرف بالنواة ، تحيط بهِ ، وحدة او اكثر من الكهربائية السالبة تعرف باسم الكهارب (الالكترونات) . فالنواة تحمل شحنة كهربائية موجبة او اكثر تعدّل بها فعل الشحنات السالبة التي تحيط بها ، وكذلك تصبح الذرة متعادلة الكهربائية او محايدة

وكانت العناصر المختلفة ، تختلف بحسب هذا الرأي ، في عدد الكهارب التي حول نوى الذرّات . واطلق على عدد الكهارب حول النواة اسم «العدد الذري» . واسندت خواص العنصر الكيمائية الى عدد الكهارب ، . ورتبت العناصر من اخفها الايدروجين ، الى اثقلها الاورانيوم ، وفقاً لتسلسل الارقام من واحد الى اثنين وتسعين (١ — ٩٢) وكان رقم كل عنصر يدل على عدد الكهارب التي حول النواة في ذرتهِ . فالذرّة الثقيلة هي التي نجدها في العناصر المشعة كالاورانيوم (٩٢) ولكنها عناصر نادرة على كل حال . حالة ان العناصر التي كان لها اكبر شأن في بحث الذرّة وتركيب نواتها كانت من العناصر الخفيفة الوزن ، لسبب سنبينهُ

والى القارىء جدولاً بالعناصر الستة عشر الاولى وامام كلّ منها رقم يدل على عدد الكهارب التي تحيط بنواتها اي على عددها الذري

ايدروجين	١	فلور	٩
هليوم	٢	نيون	١٠
ليثيوم	٣	صوديوم	١١
بريليوم	٤	مغنيزيوم	١٢
بورون	٥	الومنيوم	١٣
كربون	٦	سليكون	١٤
نتروجين	٧	فصفور	١٥
اكسجين	٨	كبريت	١٦

يتضح للقارىء الملم الماماً بسيطاً بتركيب الاشياء التي تحيط بهِ، ان هذه العناصر كثيرة الوجود، في الهواء الذي نتنفس والماء الذي نشرب والخشب الذي نصنع منهُ كراسينا ومكاتبنا والورق الذي نكتب عليهِ ونطبع صحفنا وكتبنا والحجر الذي نبني منهُ بيوتنا

وهكذا تبيَّن للعلماءِ ان بين الكهارب التي حول نواة الذرة، وخواص العنصر الكيمائية، صلة وثيقة . الاَّ ان ذرّات العنصر الواحد قد تختلف وزناً او كتلة . فكيف يفسَّر ذلك ؟

ان كتل الذرّات في عنصر واحد قلّما تختلف اختلافاً كبيراً، بل ان اختلافها على كل حال لا يؤثر تأثيراً عظيماً، في تصرّفها الكيمائي . ولذلك لا يهمّ الكيماوي، من الوجهة العملية ان يميّز بين الذرّات المختلفة وزناً في عنصر واحد، لان الاختلاف غير كبير، ولانهُ لا يؤثر كثيراً في الخواص الكيمائية

الاَّ ان الاختلاف في الكتلة، في ذرّات عنصر واحد، يعني اختلافاً في بناءِ النواة . ولذلك يمكن ان نحسب النظائر المختلفة موادّ مختلفة لا مادّة واحدة (النظائر ترجمة لفظ Isotopes وبهِ يراد طائفة من ذرّات عنصرٍ ما تختلف كتلةً عن طائفة اخرى من ذرّات العنصر نفسهِ) ولعلَّ أشهر مثالٍ على ان اختلاف الكتلة يؤثر تأثيراً ظاهراً في تصرف الذرّة وخواصها الكيمائية عنصر الايدروجين . فمعظم ذرّات الايدروجين كتلتها ١ ولكن هناك ذرّات ايدروجين كتلتها ٢ وهي نادرة . اي ان ذرّة من نظير الايدروجين النادر تزن ضعفي ذرّة من الايدروجين المألوف . ولما تناول العلماء دراسة هذا النظير، تبيّن لهم انّ لهُ خواصَّ كيمائية تختلف عن خواص الايدروجين المألوف . لذلك اطلقوا عليهِ اسماً خاصًّا بهِ فدعاهُ علماء اميركا « دوتيريوم »

Deuterium ودعاهُ علماء انكلترا «دبلوجين» Diplogen . وقد كان مكتشف هذا النظير الاستاذ هارولد يوري ، احد علماء جامعة كولومبيا الاميركي ، فنال جائزة نوبل الكيمائية عن سنة ١٩٣٤ وكان لاكتشافهِ ، مقام خطير ، في المباحث الكيمائية ، وفي المباحث الطبيعية كذلك الخاصة بطبيعة نواة الذرّة

كان معظم التقدم في طبيعة الذرّات ، محصوراً حتى مطلع سنة ١٩٣١ في دراسة الكهارب حول النواة ، بل ان البحث في هذه الكهارب ، حال دون اي تقدُّم يذكر في فهم طبيعة النواة وتركيبها . ولما كانت المسائل المتعلقة ببناء الذرة معقدة كلّ التعقيد ، فقد كان من حسن الطالع ، إمكان قسمتها الى قسمين ، احدهما يدور حول طبيعة الكهارب ، والآخر حول طبيعة النواة . ومع ان العلماء جمعوا حقائق كثيرة عن طبيعة النواة ، في خلال السنين التي تلت الكشف عن الراديوم ، الاَّ اننا نستطيع ان نقول ، ان البحث الحديث في دراستها ، بدأ حقيقة سنة ١٩٢٨. في تلك السنة وحواليها ، حاولت جماعتان من علماء اميركا تطبيق قواعد الميكانيكيات الموجية على ذرّات العناصر المشعّة لتفسير انحلالها وانطلاق دقائق الفا منها وهذه الدقائق كما يعلم القارىء نوى ذرّات الهليوم. وكانت الجماعة الاولى مؤلفةً من الاستاذ غرني والاستاذ كوندون Condon — وعنهُ ننقل هذا المقال وقد نشرهُ في مجلة السينتفك اميركا عدد يناير سنة ١٩٣٦ — في جامعة برنستن . وكان على رأس الجماعة الثانية الاستاذ جامو G. Gamow الذي قام ببحثهِ مستقلاً عن الجماعة الاولى . فقد اثبت هؤلاء الباحثون ، انهُ اسهل على الدقائق الصغيرة ، ان تخترق نوى الذرّات مما كان يظنُّ

وكان للنجاح الذي اصابته هذه المباحث النظرية في تفسير بعض ظاهرات الاشعاع الطبيعي فائدة كبيرة ، لانها بيَّنت ان إحداث تغيير في تركيب النوى باطلاق دقائق مكهربة عالية الضغط الكهربائي عليها ، ايسر مما كان يظنّ . فقد كان الرأي حتى ظهور هذه المباحث ، ان الدقائق التي تطلق على نوى الذرات ، يجب ان تطاق عليها بطاقة عدة ملايين من الفولطات ، فاثبتت هذه المباحث ، ان اطلاقها بطاقة أقلّ من ذلك كثيراً ، كافٍ لاحداث التغيير المنتظر في بناء النوى

وشرع العلماء بعد ذلك في برنامج واسع النطاق ، آيته اطلاق دقائق مكهربة بكهربائية عالية الضغط على نوى العناصر وقد ظلت هذه الطريقةُ الوسيلةَ المقدّمة على غيرها في دراسة النواة. وعمادها

استحداث تيار من الايونات ، من الايدروجين او الدوتيريوم مثلاً . والايونات هي ذرّات وقد فقدت كهرباً أو اكثر من كهاربها التي تحيط بالنواة . فتصبح الذرّة بعد انفصال كهرب او اكثر عنها، وهي مكهربة كهربائية موجبة . فاذا أُطلقت هذه الايونات في مجال كهربائي عالي الضغط ، جذبتها القوى الكهربائية السابقة جذباً عنيفاً ، فتكتسب سرعة عظيمة اي تكتسب زخماً Momentum وطاقة Energy وكذلك يتحول تيار الايونات، الى تيار من الدقائق المكهربة العظيمة الطاقة ، فتوجه الى لوح ، من المادة التي ترام دراستها

فماذا يحدث حينئذ ؟

من المعروف عند علماء الطبيعة ، ان قطر النواة ، لا يزيد $\frac{1}{10000}$ جزء من قطر الذرة . ولما كانت الذرات التي تتألف منها مادة اللوح الذي توجه اليه الايونات صغيرة جدًّا ، فمن العبث ان يحاول الباحث ان يوجه تيار ايوناته الى ذرة بعينها ، دع عنك نواةً بعينها . وعليه فمن الواضح ان طائفة كبيرة من مقذوفات هذا التيار تصطدم بمادة اللوح ، وتخترقها من دون ان تقرب قرباً كبيراً من احدى نوى الذرات . هذه المقذوفات تختلط عند اختراقها لمادة اللوح ، بكهارب الذرات — وكهربائيتها سالبة كما تعلم — فتبطل كهربائية الكهارب كهربائيةَ المقذوفات الموجبة ، فتفقد المقذوفات زخمها وطاقتها وتستقرُّ . وكذلك تستقر معظم هذه المقذوفات من دون ان تمس احدى نوى الذرّات في اللوح الذي وجّهت اليهِ او تقرب منها

على انهُ من حظ بعض الايونات ، او هذه المقذوفات المكهربة ان يكون توجيهها الى النوى اسدَّ وأحكم ، فتقترب منها ، ولكنها في اقترابها تجد قوة تبعدها عن النواة ، وهي قوة التدافع بين دقيقتين مكهربتين كهربة واحدة . فالايون كما بيَّنا موجب الكهربائية وكذلك نواة الذرة ، فالميل عند اقتراب الاول الى الثانية ، هو ميل الى التدافع . فيحرّف مسار المقذوفة حول النواة . فبعد أن تكون المقذوفة سائرة بزخمٍ عظيم في خط مستقيم تنحرف وتسير في خطٍّ منحنٍ . الاَّ ان هذا الانحراف يقل كثيراً ، بازدياد طاقة المقذوفات وسرعتها اي انه كلما زادت الطاقة الكهربائية التي تقذف المقذوفات، يقل انحرافها بفعل الدفع الكهربائي. ثم ان الانحراف الناشىء عن الدفع الكهربائي ، اقل في العناصر التي ارقامها الذرية صغيرة منهُ في العناصر التي ارقامها الذرية كبيرة . وهذه الحقيقة تفسر لنا ، ما عجبنا له عند القراءة عن هذه

المباحث ، وهو ان البحث يكاد يكون محصوراً ، او هو حقيقة محصور في الليثيوم والبريليوم والبورون والالومنيوم وغيرها من العناصر التي ارقامها الذرية صغيرة (راجع الجدول في هذا المقال)

بعد التغلب على جميع هذه العوائق ، تصل بضع مقذوفات من ملايين المقذوفات الى النواة وتصدمها . اما ما يكون من أثر هذا الاصطدام فهو موضوع البحث . والمقدر ، ان مقذوفة واحدة من عشر ملايين مقذوفة ، او مائة مليون مقذوفة ، تصيب نواة واحدة ، اي ان احتمال اصابة الهدف تختلف من (١ : ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠) الى (١ : ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠)

وتختلف الاساليب المستعملة في توليد الطاقة الكهربائية العظيمة لاطلاق المقذوفات باختلاف المعاهد . ففي بعضها تستعمل تيارات كهربائية عالية الضغط من رتبة مليون ڤولط او اكثر ، فتمكن العلماء من الحصول على مقذوفات سريعة عظيمة الطاقة يستطيعون توجيهها الى نوى الذرات ، على نحو ما كان اللورد رذرفورد يوجه دقائق الفا المنطلقة من الراديوم من نحو عشرين سنة . اي ان رذرفورد كان يعتمد على مقذوفات تنطلق من تلقاء نفسها من العناصر المشعة وأما علماء اليوم فيصنعون قذائفهم غير معتمدين على الطبيعة

ومن هذه الاساليب اسلوب بارع ابتدعهُ الاستاذ لورنس احد علماء جامعة كاليفورنيا فانهُ اخذ تيارات من نوى الايدروجين الثقيل ، واطلقها في حقل كهربائي ، بطاقة عشرة آلاف ڤولط فقط ، ولكنهُ استنبط طريقة طريفة لاسراعها accelerate في هذا الحقل ، حتى اذا بلغت منتهى الاسراع الممكن كانت طاقتها من رتبة مليوني ڤولط مع ان الطاقة الاساسية التي دفعتها كان ضغطها عشرة آلاف ڤولط فقط . فاذا صارت طاقتها مليوني ڤولط وجهت الى لوح من الالومنيوم او الصوديوم او اي مادة يراد البحث فيها

هذا هو ملخص الطريقة بوجهٍ عامٍ فما هي النتائج ؟

اسفرت التجارب في خلال السنوات الاربع الاخيرة ، عن تحويل العناصر باحداث تغيير في تركيب نواها ، في طائفة من معامل البحث العلمي في اوربا واميركا . ويصحب هذا التحوُّل في معظم الاحيان ، انطلاق مقادير كبيرة من الطاقة بتحوُّل المادة الى طاقة الحركة . وهذا التحوُّل من المادة الى الطاقة هو ما تنبَّأ بهِ اينشتين سنة ١٩٠٥ ولكن ليس ثمة امل ما الآن ، في استعمال هذا الفعل الطبيعي مصدراً لتوليد الطاقة من المادة . نعم ان كلَّ مقذوفة تصدم النواة ، تولِّد طاقة

عظيمة ، بالقياس الى طاقة حركتها ، ولكن اذا قيست هذه الطاقة المولَّدة بمجموع الطاقة التي تنفق في اطلاق جميع المقذوفات التي لا تصيب نواةً على الاطلاق ، وجدنا اننا من الخاسرين . يضاف الى هذا اننا الآن لا نستطيع ان ناجم الطاقة الناشئة عن اصطدام المقذوفة بالنواة ، لنستعملها في ما يفيد

الاَّ ان بعض التحوُّل في نوى الذرّات يتمُّ ببطء اي ان الذرّات التي تصطدم بالمقذوفات تبقى تشعُّ الطاقة اشعاعاً بطيئاً اي انها تتصرف كأنها ذرّة عنصر مشعّ كالراديوم مثلاً . واول مثال اكتشف من هذا القبيل اكتشفتهُ مدام ايرين كوري جوليو ، كريمة مدام كوري ، وزوجها الاستاذ جوليو . فانهما اطلقا المقذوفات على عدّة عناصر ، منها عنصر الالومنيوم . وكانت مقذوفاتهما نوى عنصر الهليوم منطلقةً بطاقة عظيمة ، فأصبح الالومنيوم بذلك عنصراً مشعًّا . نعم إن التجارب السابقة كانت قد اثبتت ان اطلاق مقذوفات من هذا القبيل على الالومنيوم تفضي الى اشعاعات مختلفة تنطلق من الالومنيوم . ولكن الظاهرة الجديدة التي اكتشفها جوليو وزوجتهُ كانت ان الاشعاع استمرَّ بضع دقائق بعد وقف اطلاق المقذوفات . فتبيَّن لدى البحث ان الالومنيوم كان يطلق كهارب موجبة (بوزيترونات) . والبوزيترونات تشبه الكهارب المألوفة ، الاَّ ان شحنتها الكهربائية موجبة بدلاً من ان تكون سالبة

فلما فحص الهليوم المشع بأساليب البحث الكيمائي والطبيعي المعروفة ظهر ان ما حدث للالومنيوم كان كما يلي : انهُ عند اطلاق نواة الهليوم على الالومنيوم ، تصيب احدى نوى الهليوم المنطلقة نواة الالومنيوم فتندمج الواحدة في الاخرى ، ويطلق منها على اثر الاندماج نوترون . والنترونات كما لا يخفى على قراء المقتطف هي دقائق ليس لها شحنة كهربائية وكتلتها مثل كتلة نواة الايدروجين اي (١) وقد اكتشفها الاستاذ شدوك الانكليزي سنة ١٩٣٢ . اذاً عند ما تصطدم نواة الهليوم بنواة الالومنيوم تضاف شحنة نواة الهليوم الى شحنة نواة الالومنيوم فيصبح عدد الشحنات على نواة الالومنيوم ١٥ اي يتحوَّل الالومنيوم الى فصفور . وعدد الشحنات الموجبة على النواة في ذرّة الفصفور ١٥ كما ترى في الجدول. ثم عند بحث هذه الذرّة الجديدة من الفصفور يثبت انهُ فصفور لا عهد للعلم بهِ من قبل واذن فهي ذرّة غير مستقرَّة لذلك تميل الى الانحلال في بضع دقائق بعد تكوينها ، فتطلق بوزيتروناً والبوزيترون شحنة موجبة واحدة من

الكهربائية فتبقى نواة الذرّة الجديدة وشحنها ١٤ وهي شحنة نواة السلكون . هذه النواة مستقرَّة وعندها يقف كل تحوُّل . فالالومنيوم تحوَّل باطلاق هذه المقذوفات عليهِ الى فصفور غير مستقرّ فالى سلكون

هذا مثال من امثلة عديدة تناولها البحث بعد ما اكتشف الاستاذ جوليو وزوجتهُ هذه الظاهرة وقد استعمل بعض الباحثين نوى الايدروجين المألوف والايدروجين الثقيل (الدوتيريوم) ومن العناصر التي اطلقت عليها نوى الدوتيريوم عنصر الصوديوم . وزعيم هذه التجربة الاستاذ لورنس الاميركي بجامعة كاليفورنيا

فماذا يحدث في هذه الحالة ؟ تجتذب نواة ذرّة الصوديوم نواة الدوتيريوم التي تصيبها ، فتندمج الاثنتان ، وينطلق بروتون اي نواة ذرّة الايدروجين المألوف . اي ان دقيقة وزنها نصف وزن نواة الدوتيريوم تنطلق على اثر الاندماج ويبقى النصف الآخر في نواة الصوديوم . فيزيد وزن نواة الصوديوم واحداً عما كان. ولكن شحنتهُ الكهربائية تبقى على ما هي اي انهُ يبقى صوديوماً . هذه النوى من الصوديوم التي يحدث لها ما تقدم مشعّة وتبقى تشعُّ مدة اطول من مدة اشعاع الالومنيوم الذي اطلقت عليهِ نوى الهليوم . ويمتاز الصوديوم المشعّ على الالومنيوم المشعّ في انهُ يطلق اشعة غمًّا وهي عظيمة الطاقة من قبيل الاشعة السينية . ولا يخفى ان لاشعة غمًّا فعلاً في معالجة بعض النواحي السرطانية ، ولذلك اتجهت الانظار في جامعة الاستاذ لورنس الى امكان استعمال هذه الاشعة المنطلقة من الصوديوم المشع في علاج السرطان بدلاً من الراديوم او جنباً الى جنب معهُ

ويعلم القراء ان الراديوم يفقد نصف فعلهِ بعد انقضاء ١٦٠٠ سنة عليهِ ولكن الصوديوم المشع الذي اصبح مشعًّا بفعل الانسان ، يفقد نصف فعلهِ في ١٥ ساعة وثلاثة ارباعهِ في ٣٠ ساعة وسبعة اثمانهِ في ٤٥ ساعة وهكذا . لذلك لما رحل الاستاذ لورنس من كاليفورنيا الى شرق الولايات المتحدة الاميركية ، ليحاضر ، في هذا الصنف من المواد المشعة ، تمكن زملاؤهُ في كاليفورنيا من اعداد صوديوم مشعّ وارساله إليهِ بالطيارة فعرضه على جمهور العلماء الذي استمعوا لهُ

الموسيقى العربية

وعبده الحمولي

لخليل مطران

(١)

مات عبده فمات فن وزال آخر شعاع من عصر توارت شمسه في ظلمة الأبد . فقد كان اسماعيل شمساً في سماء مصر . وكان كل ذي شأن من معاصريه ككوكب يستمد منهُ نوره . فلما أفلت لحقت بها تلك الانوار يتلو بعضها بعضاً الى ان تمّ الزوال بوفاة صدّاح تلك العظمة الشمّاء وغرّيد ذلك الملك العظيم

وكثيراً ما كان عبده يبكي لحناً من الحان ذلك العهد فيمثله لنا من خلال مدامعه الجارية ونغماته الشجية كأنهُ زينة مُنارة بألوف المصابيح حافلة الجماهير الفرحين الطروبين . وكأن مصر دار ذلك العرس تضحك بالانوار لمستقبلها العابس . وكأن الامير أمير الزمان يومهِ وغده . وكأن الوفود من عرب ومن عجم اعوان دولة تشاد . وانما كانوا هدَمَة امل رفيع العماد . وكان « عبده » منهُ على اريكته بشير السعادة الخالدة في ذلك الاستقلال الزائل . فاذا فرغ من انشاد صوته ورجعنا الى انفسنا نظرنا حولنا فرأينا دولة اليوم ورجال هذا الزمن . ولم يثبت لدينا من حقيقة ذلك الحلم الرائع إلاّ ذلك المغني المنتحب على حالٍ حالت . ونعمةٍ زالت . ودولة دالت

ولقد كان في مصر قبل انقضاء هذه الأشهر الاخيرة مغنيان هما « عبده » « وعثمان » فاليوم نحن ولا مهنيء في الفرح . ولا معزي في الترح . الاّ ما كان من قبيل رجع الصدى الذي يتردد حيناً بعد هتاف الهاتف

كان عبده مبتكراً يخلق اللحن خلقاً من حاضر ما يوحى بهِ اليهِ فيحيّر بهِ المهرَة ويطرب السامعين ما يشاء التطريب بالنغمة والاعجاب بقدرة مبتدعها . وربما كسر القيد ونقض القاعدة

وندَّ عن المألوف . فطار وحلق . وقد بكم العود ، وعيَّ القانون ، وأنصت الناي . مطلقاً صوته يمرح في سماء التطريب . فمن وثبة النسر الى انحدار السيل . الى خطف البرق . الى تغريد القمري الى نوح الحمامة . الى انين الجدول. كل هذا والصوت عال منخفض . جهوري خافت . رنان مرتجف . مشبع ضئيل . والنغمات تجتمع اصولاً وتتفرق فروعاً . وتنثني وتنفرد وتتدانى وتتباعد وتتواصل وتتفاصل مفضية بعضها الى بعض متسلسلة على مقتضى سلامة الذوق والمهارة الفنية منتهية الى القرار

وكان « عثمان » مؤلفاً بارعاً في ترتيب الالحان . بصيراً بأخذ النغمات من مواضعها وجمعها على نسق مستحب . كافاً بصناعته جادًّا في اتقانها إرادة ان يستعيض عنهُ طلاوة الصوت بحسن الاسلوب ولطف السياق . ولهذا كان لايغني منفرداً . ولا يطلق صوته إلاَّ على اجنحة الآلات. فاذا لحّن اغنية واسمعها الناس لأول مرة خرجت متقنة صحيحة الوضع رائعة للسمع . ولكن يبدو عليها اثر اعنات الفكر ويُشتم منها ريح الشمع المذاب في السهر على تخريج اجزائها . وتوجيه ضروبها . والملاءمة بين رناتها ومعانيها . على ان هذا لا ينفي ان « عثمان » كان ضريب « عبده » وانهُ أثبت بنتيجة عمله ان لحسن التأليف مكاناً بجانب الابتكار وان للاجتهاد منزلة قد تعادل منزلة الاختراع . بل ان المجتهد قد يكون ذا فضل على المخترع بما يهيئهُ لهُ من مواد الابتداع . ومن الحق ان يُقال ان « عثمان » كان في اخريات هذه السنين واضع معظم الالحان فيأخذها « عبده » عنهُ ويكسوها من الحلل والحليّ ما تشاء بديهته الخاصة بهِ فبيناهي سوقة حسان اذا هي ماكات بتيجان . وبينا هي اشخاص ترمقها عيون المعجبين ، اذا هي ارواح تتنسمها قلوب المحبين

وعلى هذا كان « عثمان » يجدد للناس روح « عبده » و « عبده » يسمع الناس علم « عثمان » فهما العاملان المتكاملان احدهما بالآخر على ما بينهما من تحاسد وتباغض وتباعد

هذه صفة « عبده » مغنياً وتلك منزلته التي لم يدانه فيها من ارباب فن الموسيقى الاّ « عثمان »

أما اخلاقه فكانت اخلاق كرام الناس وبها شرّف قدر مهنته التي كانت الى عهده تعد من المهن الوضيعة . فقد كان انيس المحضر . كارهاً للغيبة راغباً في مجالس الظرفاء المتأدبين ، محدثاً ذكيًّا لا تفوته شاردة ولا واردة من طرف الكلام جوَّاداً جود الامراء متلطفاً وديعاً كأنهُ ابداً في حضرتهم وفيًّا لاصدقائه لا يضن عليهم بما فيهِ نفع لهم ورضى . مجاملاً لذوي فنّهِ محسناً اليهم لا يبغض منهم إلاَّ من ركب الدنايا واخلّ بما يسميهِ شرف الحرفة

ولو كتب الله لهُ فسحة في الاجل لعاش عيشة مقيدة بنظام. ولكنهُ كان مطلق هوى النفس كما هو شأن النوابغ ولا شك في ان نعم الله الكثيرة قد حسبت عليهِ رحمهُ الله رحمةً واسعة

(٢)

اما وقد اشرنا بما يقتضيه المقام من الايجاز الى منزلتي « عبده » و « عثمان » فيجمل بنا

تعميماً لفائدة هذا المقال ان نتكلم على فن الغناء العربي كما هو الآن ونبحث فيما اذا كان ينبغي ان يبقى كما استخلفنا عليه هذان الفقيدان او ان يعدَّل ويكيَّف بحيث يصبح أتم تأثيراً في النفوس وأصلح لأن يشربها ما هي في حاجة اليه من الخلال الشريفة والفضائل

فالموسيقى فيما اشتهر من تعريفها انما هي تأليف اصوات تحدث طرباً في قلوب السامعين . والطرب قد يكون سروراً وقد يكون شجواً ومعناه في الحقيقة الانفعال الذي تولده الانغام في النفس ايًّا كان

ومن اوصاف الموسيقى انها في بناء الاصوات كفن العمارة في تشييد الابنية وتأليف اجزائها والمناسبة بين رسومها ونقوشها وتقاطيعها وتحلياتها يسميه الافرنج بموسيقى البناء على ان اساسها التناسب كما هو أساس كل فن نفيس وهذا التناسب في الموسيقى يعرف اصطلاحاً بالايقاع،والايقاع قديم قدم الموسيقى غير ان المغنين من العرب حصروه في نغمة نغمة مما يعنون . فكان في حقيقته مفضياً الى الملل بخلاف الافرنج فانهم استخدموه وسيلة للتنقل من نغمة الى نغمة ولاعطاء كل نغمة جميع الرنات التي يتم بها طربها الناجم عنها بذاتها اوباجتماعها مع سائر الانغام التي يتألف منها الصوت

ولا غرو ان يكون مغنّونا على مثل هذا الجهل الذي ابقى الموسيقى العربية على حالها الفطرية فان شعراءنا — الا بعضهم —وكتّابنا عدا القليل منهم— لا يزالون الى الآن ارقاء الجناس ، وعبيد مراعاة النظير ، وخدمة السجع ، وذبّاحي المعاني الجليلة وناسخي الحقائق ، وماسخي الصور الجميلة في الطبيعة ، وجاحدي وجدانات النفس وانفعالات الحس ليقتدوا بأمة هم تركوا عاداتها واخلاقها ، وهجروا خيامها وصحاريها وأنكروا ملبسها ومأكلها ومشربها ، ولم يحتفظوا بشيء من خلالها ومزاياها . ولم يستبقوا منها الا النسبة اليها . فلا هم يحسنون تقليد ادبائها ولا هم ينتزعون من لغتها لهم لغة خاصة فصيحة ذات اساليب ومصطلحات وألفاظ تمكنهم من التعبير عما يخالج ضمائرهم ويخامر نفوسهم بما ينطبق على الواقع ويكون صدى حقيقيًّا لما يشعرون به

كتب اعرابي في صدر منظومة له « قفا نبكِ » فلم يستهل واحد منهم منظومة بعد ذلك الا وهو واقف باكٍ . ونظم آخر ابياتاً كثيرة بروي واحد سميت قصيدة فتبعه في ذلك كل ناطق بالضاد من صحراء الجاهلية الاولى العريقة في الهمجية الى ساحة المعرض العام بباريس في أجمع زمان لاسباب الحضارة وكل كتب القصيدة على ذلك النمط . وذكر احد ظرفائهم ان الارجوزة حمار الشعر فلم يروا عقب ذلك ارجوزة الا ولها اربع قوائم تمشي عليها . وهكذا هم يتقيدون بسلاسل التقليد . وكتّاب اللغات الاجنبية يذهبون كل مذهب في اختراع التراكيب وابتداع الاساليب التي يظهر معها كل خفي ويتجسم كل روحاني ، وتتمثل كل صورة ، ويصور كل شعور

فهم ابناء عصرهم ونحن ابناء العصور الخالية . وهم يحيون بما ينظرونه ويحسونه . ونحن نحيا بما ننقله حتى في التصور والحس

ومعلوم ان الموسيقى شقيقة للادب مطبوعة على غراره فكيف كان الادب تكون الموسيقى . وهي الآن منحطة في الشرق لانه منحط وانحطاطهما على قدر . فكلاهما يجب نقده وتنقيحه واخراجه الى ما تقضي به الحاجة الماسة . والاّ فأي مصلح للامة يكون اقوى في البيان ؟ وأي بيان يكون اشد وقعاً في النفس من الذي توصله اليها النغمة وتمزجه بها مزجاً ؟

على ان الاصلاح الذي نبتغيه ميسور اذ يكفينا ان نبدأ بتطبيق الموسيقى العربية على الموسيقى التركية تطبيقاً تدريجيًّا الى ان يألفها الذوق ، وتوضع لها قواعد ، ورسم علامات ، ويغنى الدور الواحد بنسبة واحدة وألفاظ واحدة في المنتديات وفي البيوت وفي الاسواق . فاذا وصلنا الى هذه الدرجة انسقنا بحكم السير الطبيعي الى ما هو اعلى فأعلى . وهكذا فعل الاتراك . اذ اخذوا عن الاروام الذين غناؤهم اقرب الى الغناء الشرقي . فأصبحوا الآن ينشدون في ملاعبهم اجل الروايات الموسيقية الاجنبية بألفاظ تركية وقد لا يمضي زمن حتى ينشىء بعضهم رواية موسيقية متقنة فيبلغون بها الغاية

وكان المرحوم « عبده » قد شرع في نقل شيء عن الموسيقى التركية . ومنها أخذ الاهات الطويلة التي يصاعده فيها جمهور المغنين وهي احسن ما في غنائنا الآن . غير انه لم يتسنَّ له معين على احداث الرموز التي هي اساس علم الموسيقى والتي بغيرها لا تكون الانغام الا فوضى . واذكر اني شكوت اليه يوماً هذا القصور وقلت له . ان الرموز الموسيقية موضوعة منذ نيف وخمسة آلاف سنة . وانها اول ما رسمت في الهند وفي الصين . فمن المخجل ان تكون مصر سيدة الموسيقى في الشرق الآن ولا يستطاع اثبات لحن من الحانها على صحيفة يعلم منها اخواتنا القاصون او ابناؤنا الآتون اي فن كان فننا في التلحين وما كان «عبده» وكيف كان اسلوبه ؟ وهل كان جديراً بالمحل الذي احل فيه من اكرام الناس ؟ فأجابني : انه كان يود ذلك وانه سعى ما سعى للوصول اليه فلم يفز بطائل . وانه لم يجد واحداً في القطر يستطيع ان يعرفه معنى لحن من الالحان الاجنبية تركية كانت اوغير تركية . وان كل ماحصله من مغنى الاتراك وأدخله في المغنى العربي كان سماعيًّا اجتهاديًّا رائده فيه موافقة الذوق المألوف ، ومراعاة الاصطلاح المعروف

لا جرمَ ان عملاً كهذا ليس مما يقوم به فرد اوعى صدره ما اوعى من المعارف الموسيقية المختلفة . وبلغت ثروته ما بلغت من السعة . وانما هو عمل شركة او جمعية تستقدم اساتذة من الاستانة لتخريج جمهور من ذوي الفطرة الموسيقية والاصوات الحسنة على مبادىء هذا الفن . وتعليمهم حقيقة مقصده وشرف غرضه ، وتدريبهم على التأليف فيه كل بما يوحي اليه علمه وعقله

وترشده اليهِ ملكته كما يفعل ذلك الذين يدربون على الانشاء ، ونتائج مثل هذا التدريس أبين من ان اطيل الكلام عليها فحسبي الاشارة

اما اذا بقيت الموسيقى على ما هي عليهِ الآن فانها بلا ريب تلذنا ولكنها تمثلنا ابداً باخلاق الرعاة الفوضى وان كنا في أزياء المدنيين الحضريين لان هذه الاصوات الأنفية ، وهذه الأنات المرَضية ، وهذه النفثات الصدرية لا تصدر عن بأس وحزم ولا تدل على شرف وعلم

(٣)

بقي ان نصف كيف ينبغي ان تكون الموسيقى العربية ليحسن تصورها الذين يروعهم من الموسيقى الافرنجية دوي الطبل وقعقعة النحاس وطنطنة المثلثات الحديدية ، وخوار المعازف المعدنية ، الى ما يماثل ذلك مما يختلط على ذهن جاهله ويسوء وقعه في نفسه لعدم ادراك معناه . وانما الموسيقى في اصطلاح الغربيين فن كالكتابة او الرسم سوى انها تمثل لنا بالصوت ما يمثله لنا الانشاء بالالفاظ التي تستثير في مخيلتنا تصور مقصوداتها وما يمثله الرسم بالصور التي تنطبق على مرئياتنا

وبديهيٌّ ان كلاً من هذه الفنون لا يرينا مما يماثله إلاَّ جانباً ويدع لنا الجانب الآخر نتممهُ بما نتخيله أو نعلمه أو نشعر بهِ ، فالكاتب اذا حدَّث عن عاصفة مثلاً وصف لنا شمساً محمرة كالجمرة في كبد السماء يحيط بها قتام يغتالها الى ان تنطفىء فيشمل الظلام ويكون مهيباً . ونشر سحائب سود كثيفة ترسل في الجو رعوداً مالئة الدوى ثم صادعة ، وبروقاً ملطفة اللمعان ثم ساطعة ، واطلق ريحاً هجوميًّا عاصفة تمر على البلد الموصوف فتهدم واهية مبانيه وتذري رماده وتجتث أشجاره العاتية وتصفع وجوه زجاجه بالبرد وتجري بطرقه سيولاً فاذا ابلغ السهول منتهاه وصف لنا في خلال هذه الروائع كلها طفلاً يتيماً هائماً على وجههِ وقد لجأت الناس الى مساكنها جزعاً، وقد اطمأنت الاطفال بين ايدي آبائها وامهاتها في مآمنها وانما يقف ذلك الطفل الصغير في ذلك الموقف الرهيب ليحرك في قلبنا وتر حنان ورفق خلال خفقان الهلع وثورة الدهشة فمن قرأ هذا الوصف رأى تكلح الشمس وافولها وانتشار السحائب السود ولمع الوميض المتتالي وتقلع الاشجار . وتقوض الجدران على التوالي وسمع زئير الرعد القاصف وهدير السيل الجارف . وركض الزمهرير العاصف وركوع البناء الواقف . ورأى في اثناء هذا الحادث الجلل دهشة ذلك اليتيم الخائف وسمع خفقان قلبهِ الصغير الواجف كأن ما قيل حاضر بين يديهِ وكأنهُ منهُ على كثب ينظره بعينيهِ ويسمعهُ باذنيهِ مع انهُ في الحقيقة لم يرَ ولم يسمع من ذلك شيئاً . فالكاتب رمزَ لهُ بما ينبّه عنده هذه التصورات الشتى ويجمعها على الشكل الذي أحبهُ فتم لهُ ما أراد على قدر مهارتهِ

وللالفاظ في بلاغ قصده رنة لا تنكر . وللتراكيب امتزاج بالنفس لا يجحد . ولاصوات الحروف لعب بالدماغ والقلب لا ريب فيهِ . ولكن كل هذا ليس الاَّ من المتممات . فاذا قدرنا بعد

هذا ان رساماً تولى تصوير هذا المشهد فغاية ما استطيعهُ تمثيل قدّة كالهلال في الشمس الحمراء في جهة الافق . وتكديس طبقات من الغيوم القاتمة في صدر السماء . وتحدير سموط كنسيج المنوال من المطر الغزير . واقامة أمواج من الزبد في الطرق السائلة بالوحل والماء تلاطم من الحجارة اشباه انياب العجوز الفلجاء، وامالة حائط وصرع شجرة وتقصف اخرى ، وتكسر زجاج ، ووقفة طفل بالي الاطمار في موقف الحيرة والجزع بعينين مجلاوين وقد سالت منهما دمعتان . ولكن الرسام يرقب هذه الاجزاء ويحكم وضع كل معنى مقصود في اللون الذي يلونه حتى انك لتسمع الرعد وانت تنظر البرق وتحس الدمار وانت ترى آثاره وتشعر بخفقان قلب الطفل وانت ترى الانفعال البادي على وجههِ والدمعتين المتسلسلتين من مقلتيه

وصفوة القول أن الكتابة فن منبه للتصور والحس رمزاً . وان الرسم فن منبه لهما نظراً . فكان والحالة هذه لا بد من فن متمم لهذين الفنين لينبه التصور والحس سمعاً . وهذا ما بنيت عليهِ الموسيقى منذ بضع مئات من السنين في اوربا على اعتبار انها فن نفيس مثلهما قابل لتأدية المعاني التي يؤديانها . وقد وصلت الآن في تلك البلاد الى هذه الغاية . واصبحت عاملاً من اكبر عوامل تقدمها العجيب

فلنصف الآن كيف نتخيل تمثيل الموسيقى للمشهد الذي ذكرناه آنفاً وان لم نكن ممن لهم رأي في هذا الفن . هنا اسأل الصديق الذي يقرأ هذه السطور ان يتخيل انهُ اجاب دعوتي وصحبني الى دار غناء لأريه بسمع أذنيه ما نظره في الرسم بعينيهِ . فنحنُ الآن اذن جالسان في تلك الدار على كرسيين متجاورين . وهذه امامنا مجالس الضاربين والعازفين

انظر ايها الصديق أن عدد هؤلاءِ نحو المئة امام كل منهم دفتر فيهِ رموز الاصوات التي ينبغي ان يحدثها في الاوقات المعينة له : وهذا كل ما عليهِ . وعلى الاستاذ الذي فوق المنصة ان ينتبه لعامة الترتيب ويمنع الشذوذ . اجمع حواسك الآن واصغِ بكليتك فقد أشار الاستاذ بان يبدأوا

ماذا تمثل لك هذه السحابة من النغمات التي تخرج من الاوتار مضطربة سريعة مبتدئة من القرار ؟ أليس هذا أول تهد الريح المنذرة بالهجوم ؟ أو ليس فيها ما يشعر ببرد الزمهرير ؟ أتسمع كيف ترتقي صاعدة متدافعة كانها علت فوق الارض ذاهبة في الجو كلما جازت شوطاً زادت قوة واتساعاً الى ان تتخيلها بلغت السحاب ؟ هذا تنبيه يسمو بالفكر على مثل البساط الروحاني ليوصله الى الافق الأعلى ويشهده حادثاً جليلاً فقد دنت الغيوم من الشمس فاغرة فاها . وانضمت اصوات المعازف النحاسية الى نغمات الاوتار وعلت الصيحة الى منتهاها . حتى اذا غال السحاب الضاري جانباً من الشمس وادماها بانيابه صكت الصنوج هذه الصكة الفجائية المنكرة التي ختمت بها حكاية الحال . فكأن الشمس قد انشقت كالقطعة المحمية من النحاس الرنان . وكأنها انشطرت شطرين

وتوارت بالحجاب . وبعد هذا تأمل كيف تراجعت اصوات تلك الصيحة هابطة تدريجاً الى أن انقطع خوار المعازف ، واستمات رنات الاوتار تنحدر كرش المطر في اول انهماره

الى هذا المقام انتهت الانذارات

انظر كيف اخذ جمهور النغمات يخرج من عامة الآلات متموجاً تموجاً ثقيلا كأول تحرك البحر ليهيج. أتسمع انسكاب الوبل الشديد وتدفق الميازيب وعصفات الريح الطويلة التي تبدأ مثل ارنان النادبة وتنتهي مثل غمغمة الأسد الجائع الذي جاس يأكل فريسته ؟ أتسمع قرع الحجارة تحت السيول ؟ أتسمع تقصف الاشجار المتكسرة ؟ أتسمع وقع الصخور وتهدم الجدران يشمل كل ذلك دوي الرعد الذي يحدثه الطبل ويفرّعهُ الصدى الى عدة رعود صغيرة متتالية يحدثها الطبلان الصغيران تحت النقر السريع المتتابع . أليس لكل صوت من أصوات هذه العاصفة ما يحاكيه إما في آلة او في جمع صوتي آلتين على ترتيب معلوم ؟ ألم ترتسم البرق خلال غضب الرعد ورسم الشجرة الواقعة خلال تقصفها وهي تتكسر على متانتها بها ؟ أو لم ترَ نواصي السيول واعرافها البيض خلال وكفها وتهدُّرها وصعودها وتحدُّرها ؟ . هذا منتهى ما يكون هول العاصفة

اسمع الآن كيف أخذت هذه العناصر الجمة تتناوب مراوحاً بين بعضها والبعض . السر في ذلك من جهة ان يستبقى في النفوس شعور باستمرار العاصفة وقد تراخت قليلاً بعد الشدة كما هو شأن العواصف ومن جهة اخرى التمهيد لاسماع الناس أنة ذلك اليتيم في حيرته وخوفه . هذه أنة اليتيم تنطلق من أوتار ذلك العود الضخم القائم كالامير بين الآلات كأنهُ سرير داود بين اسرة الملوك في زمانه. أتشعر بما فيها من لذة وحنان ؟ ألست مدركاً من نفسك انها زفير طفل حزين؟ أما في هذه الآونة عثرات اشبه بعثرات قدم الطفل المتحير في خفتها وعدم انتظامها ؟ ولكن هنا انقطعت النغمة اللطيفة وعاد الانذار بالهول . سيستأنف جميع ما سمعتهُ من الصيحات والجلبة غير انهُ ملطف كأنهُ مسموع عن بعد ومن وراء حجاب كثيف . ولِمَ هذا ؟ لأن ما يستأنف ليس اصوات العاصفة بالذات بل صداها في دماغ ذلك اليتيم المروع الضعيف

هذا بيان واحد من الف من الامور التي تصلح لها الموسيقى ويكون موقعها من النفوس بها كموقعها من النفوس بالرسم والكتابة . ومن المعاني ما يكون تأثيره بالموسيقى أشد وامتن ، على ان لكل من هذه الفنون مزيته التي لا تجحد في تنشيط العزم وازالة الملل . فان المرء بسمعهِ وبصره لا بأحدهما

فالى هذه الغاية الشريفة من اصلاح فن الموسيقى ينبغي ان تتجه الرغائب العامة في مصر فان « عبده » كان خير مغنٍ لزمانهِ وعهده عهد صبابة ورخاء . اما نحن فان اردنا النهضة من الحطة التي نحن فيها فينبغي لنا مغنٍ ينهض عزائمنا الخائرة ويرفع أبصارنا الى السماء

المقامة الكبكجية

تصنيف

مستغفر الحريري والهمذاني

أمين الريحاني

حدثتني العُثَّة قالت :

كنت في مكتبة المدينة، اتغلغل في الكتب الثمينة ، فعثرت على سفرٍ من الاسفار ، مغلّفٍ بالغبار هو « بلوغ الادب ، في الضحك والطرب » . وقد كنت في غمٍّ وا كتئاب ، فاستبشرت بذلك الكتاب ، ورحت امنّي النفس بالكنز المكنون ، في الفكاهة والمجون ، وانا اقول لها : كفاكِ الكدح في الورق المصقول ، من مؤلفات كبار العقول . هذا كتاب في الضحك فابشري ، ولا تستصغريه ولا تستكبري ، فالضحك من نِعمِ الحياة ، لسائر المخلوقات ، حتى للعُثّ والمكروبات

ثم زيّنت حنجرتي ، وشحذت ناقرتي ، ودخلت الكتاب ، من اول الابواب ، فنقرت منهُ بضع صفحات ، في الاصول والغايات ، وكنت كمن ينشد ابا الصنّاجة في جنازة . فخرجت مسرعاً الى العراء استنشق نقي الهواء

بعد ذلك استشعرت الامل ، وعدت الى العمل ، فدخلت الكتاب العويص المعاني ، من الباب الوسطاني ، وشرعت اقرم فيهِ ، قَرْمَ الشريه بل قرمَ الفقيه ، فنفذت من خلال غباره الى حواشي اسراره ، وتعثرت هناك بمدَرِهِ وحجاره، بل سقطت بين فصلَيه ، كمن أُغمي عليهِ ، فبادرتْ اليَّ الشقيقات ، بالمراوح والمنعشات ، فأنقذتني من شر النكبات

ثم شعرت بنشاط تجدد ، وعزم تسدد ، فهجمت هجمات متوالية ، على بروج العلم العالية ، بل طفقت احفر تحت اساسها ، نكايةً بحبرها وقرطاسها ، فهدرتْ وهي تهبط عليَّ ، فصحت : اليَّ اليَّ ! ان في هذه الابراج جنّاً يجلجلون ، ويضحكون ويقهقهون

وهناك بين الردم رأيت سراجاً ضئيل النور ، وسمعت صوتاً كصوت الناعور ، فاذا بجنّي من افزام الجن ، يتمطى ويئن ، بدا صغيراً وغدا في لحظةٍ كبيراً خطيرا . وجههُ كالسنكسار (١) المفتوح ، والاحرف فيهِ كالقروح ، متنهُ صغير الحد ، وهامشهُ بياض يمتد ، وفي رأسَيْ الصفحتين عينان مستطيلتان ، هما العنوان . وفي اسفلهما تتزاحم وتلتف الحواشي ، كالشعر في لحية النجاشي . ومن وسطه تبرز الاقلام ، كأنها السهام . يداه محبرتان ، وساقاه محدلتان طويلتان ، تحتهما رجلان مستديرتان ، كأنهما دولابان . فكان يدرج في مشيهِ كالدولاب ، وكلما تكلم سقط من فمهِ الكتاب تلو الكتاب

وقف هذا المخلوق العجيب في نور السراج الكئيب ، ثم صاح بي ، وهو يدرج من صوبي : كفاكِ فضولاً وافتراء ، يا ابنة الصوف والفِراء !

فتشجعت وقلت : احسنت احسنت ، ومن انت ؟

فقال ، وهو ينفخ كريح الشمال : انا كَبْكَجُ رب الكتابة والكاتب ، وحامي الكتب والمكاتب . احميها للطالب والسالك ، واحفظها من المهالك ، ومن غوائل امثالك ، ولكني رأيتكِ للعلم طالبة ، وبالتفقّه راغبة ، فجئت اعينك لبلوغ الادب ، في علم الضحك والطرب . فاعلمي ، وُقيت شر العَيون ، ان الذين لا يضحكون ، في ما يكتبون ، هم للزمان ، البواصر والآذان . فلا عجب اذا كان العلماء ، للضحك اعداء . فان حياة الانسان ، لأَشجان كلها واحزان . فهل يضحك المنكوب والمحزون ، وهل في التطريب ما يطرب المظلوم والمغبون ؟ أَوَلم يقل الفيلسوف الشهير ، مشرّح السنانير ، ان الضحك دليل على ضعف العقل والتفكير ؟ أوَلم يقل العالم بترهات الانام ، الاستاذ ابو كلام : كلما تغلغلت في اسرار الحياة ، بعدت عن الضحك والمضحكات ؟ أو لم يقل احد الاختصاصيين ، بالجنون والمجانين . . . .

(١) كتاب ضخم كبير في تراجم الصالحين واعمالهم يقرأ في الكنائس

قالت العُثّة : وبين كان كَبْكَجُ يخطب خطبتهُ ، ويعزز بالادلة حجتهُ ، احسست بشيء يضغط عليَّ، عند مِذْرَوَي ، فانسللت من حضرة ذلك الغول ، وانا اقول : ما اثقل العلماء ، وما ابلد الحكماء ، اولئك الذين لا يرون في الحياة ، غير الدود والحيّات . فقد نشدت في العلوم ، ما يكشف الغموم . فاذا بالسفر الجليل ، كالحمل الثقيل ، على قلب العليل

فقلت ، وما أطلت : أفلا يضحكك من لا يضحكون ، وهم في خرائب الضحك ينقبون ؟ أوَلا ترين النكتة في النقاب ، الكثير الاثقاب ؟

فغمغمت تلك الوادعة ، وقالت متواضعة : مثل هذا التفكير . هو دون عقلي الصغير . ولكني مضيت في الامر ، انشد في الكتب الصنّاجةَ والزمر . فلقيت الكتاب ، الذي يضحك حتى البوم في الغاب ، ويطرب حتى الغراب . والغريب في عنوانه ، انهُ لا ينبيء بشيء من بيانه ، وهذيانه ، هو « فصل الخطاب ، في علم الاكتئاب » . واني اشهد بكبكج الدميم ، انهُ كتاب كريم ، يلقيك في بحرٍ من الحبور ، ويرفعك الى سماء الطرب والسرور ، فينسيك كل هم، ويجدد فيك حتى البشرة والدم

ولقد طربت بآياته ، في اول صفحةٍ من صفحاته ، وفيها ان الاكتئاب ، هو رأس الاسباب، في بلاء الشيوخ والشباب . وفي غيرها الحديث الشريف ، والقول الطريف . فقد رُوي عمن كان مثال الورع والوداعة : « روّحوا القلوب ساعةً بعد ساعة » . وقال ابن اسحق لمن تترّحوا ، وبوزر الوقار رزحوا : « لقد طرب الصالحون وفرحوا » . وفي الصفحة الاخيرة ، هذه الدرّة الصغيرة : « الوجه العبوس ، بدهن الضبّ مغموس »

بعد هذا الخطاب ، عادت العُثّة الى الكتاب ، تقضم في صفحاته ، وتتلمظ بطيباته ، وهي تحسب الحياة كل الحياة ، ساعةً من اللذات . وبين هي في ذلك النعيم ، ظهر كَبْكَجُ الظلّيم، فصاح بها قائلاً : اتحتقريني ، وتفرين من ظل عرنيني ! ألاَ ومن برى الاقلام ، وركّب الالفاظ والكلام ، سأسحقنّك سحق الكراويه ، يا ابنة الطنافس الغاويه !

ثم تناول بطرفي الباهم والسبّابه ، كتاب الغم والكآبه ، ونفخ فيه نفخةً صفرت ودوت ، فطارت العُثّة وهوت ، فنظر اليها وهي امامه ، ثم درج عليها وفي فمه ابتسامه ، وتوارى وهو يقول : من عاش قليلاً ، كمن عاش طويلاً . وفي بواكر اللذات ، تُحمَد النهايات

الفريكة — لبنان

الحركات الاستقلالية

في مصر القديمة

للدكتور حسن كمال

لا يخفى ان تاريخ مصر القديم يضم حوادث اربعة آلاف سنة أي منذ ابتداء ظهور الحضارة على سواحل البحر الابيض المتوسط لما كان العالم عائشاً في ظلمات الجهل والوحشية ولعلّ أهم ما يستوقف نظر الباحث في هذا الموضوع ما انتاب البلاد من غزو الاجانب واختلاطهم بالمصريين وتأثير ذلك في الاذهان والاخلاق الوطنية

وكان القطر في مبدىء مدنيته منقسماً الى عدة امارات صغيرة مستقلة اخذت تلتئم تدريجاً حتى تكوّن منها مملكتان عظيمتان احداها بالوجه القبلي والاخرى بالوجه البحري . وامتازت المملكة الاخيرة بسرعة تقدمها في الحضارة . ومنذ عام ٤٢٤١ قبل الميلاد لقبت مصر «بأرض القطرين» نسبة الى جزئيها البحري والقبلي . وحوالي عام ٣٤٠٠ ق . م. انضم هذان الوجهان تحت سلطة الملك مينا فكان هذا الملك اول من حكم ارض مصر مجتمعة واول ملوك الاسرة الاولى المصرية . واعتبر المؤرخون عهد مينا هذا حدًّا فاصلاً في تاريخ مصر القديم اذ قسّموهُ الى قسمين . القسم الاول ويرجع تاريخه الى ما قبل الأسر والقسم الثاني ويعرف بحكم الاسر. وقد اثبتت لنا المباحث والحفائر الاثرية ان زمن حكم الاسر جاء نتيجة مباشرة لرقيّ وتقدم تدريجي في حضارة الزمن السابق

والفضل في رقي الحكم المصري مدة حكم الاسر الاولى التي تقدر بحوالي اربعة قرون يرجع الى ضمّ سائر جهاته تحت حكم الملك مينا وسلالته الذين اتخذوا مقرّهم في بادىء الامر مدينة طيبة بالقرب من العرابة المدفونة . ثم انتقلوا بعد ذلك الى منف . وفي هذه المدينة ارتقت حضارة البلاد وزاد عمرانها وقوى نفوذها فسمّى الاثريون هذا العهد « المملكة القديمة » . وفي هذا العهد تجلّت حكومة البلاد وادارتها الداخلية بأجلى مظاهر الكمال . واخذ النفوذ المصري يمتد الى ما وراء حدود المملكة

ولما تولت الاسرة السادسة الحكم سنة ٢٦٢٥ ق . م ساست القطر حتى عام ٢٤٧٥ ق . م وفي عهدها اخذ يدبّ في نفوس حكام الاقسام شعور الاستقلال والكبرياء . وكانوا قد احتفظوا بمراكزهم الادارية لأسرهم منذ زمن الاسرة الخامسة . بهذه الطريقة مهّد هؤلاء الحكام الطريق لتجزئة القطر المصري الى امارات مستقلة صغيرة وشلّ نفوذ السلطة المركزية بالبلاد.

هكذا تمكن حكام الاقاليم المصرية من اسقاط بيتهم الفرعوني المالك في اواخر حكم الاسرة السادسة حوالي سنة ٢٤٠٠ ق.م .. ومن دواعي الاسف اننا لم نهتد الى كيفية تطوّر تلك الامور وغاية ما وصل الينا عن ذلك العصر قائمة باسماء ملكية اعتبر (مانيتو) اصحابها ملوك الاسرتين السابعة والثامنة المنفيتين .وقال انهم حكموا مدة لا تزيد عن ثلاثين سنة.اما الاشخاص المسؤولون عن هذا الانقلاب العظيم فلم نهتد اليهم للآن . لكننا نظن انهم كانوا معادين للملوك المملكة القديمة . لأنهم نهبوا المعابد وخرّبوا الهياكل والمقابر والنقوش والرسوم البديعة بنظام وتدبير . وحطموا التماثيل الجرانيتية الجميلة والصوّانية وألقوا بعضها في الآبار . لذلك لا يبعد ان كان ذلك العصر عهد فوضى وخراب عجز فيه ملوكه وامراؤه عن تشييد مقابر او آثار لهم نستدل منها على حوادث زمنهم

لكن المعروف ان مثل هذا الانقلاب الفجائي لا يحصل عادة الاَّ من غزو اجنبي عن طريق الدلتا غالباً . وهذا الغزو سبّب تقهقر حكام منف العظيمة الى (اهناس) الحقيرة . قال الاستاذ(بتري) ولعلَّ الملك (خيان) الذى جاء عنهُ انهُ حكم القطر طرًّا مثل الهيكسوس كان احد الملوك الاجانب الذين غزوا القطر وابادوا سلطانه بعد حكم الاسرة السادسة . وقد نسب بعض الاثريين هذا الملك الى عهد الهيكسوس . لكن (بتري) عارض في ذلك واعتبره اسيويًّا غزا مصر عن طريق تل بسطة (قرب الزقازيق) وحكم في الوقت نفسه شمال جزيرة العرب والعراق ومصر بدليل تمثال الاسد الذي وجد بالعراق واسم ذلك الملك العظيم منقوش عليه.زد على ذلك ان القاب هذا الملك مثل « امير الجبال » و « ضام الاقاليم » تشير ايضاً بطريق غير مباشر الى بدويته واتساع ملكه

ووصلت الينا رواية لا يبعد انها من تلك الازمنة جاء فيها ان ساحراً يدعى (ابوور) انذر فرعون مصر بحصول اضطرابات وقحط في المملكة يصير فيها الغني فقيراً والفقير غنيًّا . ثم يغزو البلاد قوم اجانب فينقلب النظام رأساً على عقب . وبعد ما سرد الساحر كثيراً من هذه الاخبار المحزنة قال انهُ سيأتي بعد ذلك رسول « يطفىء نار ذلك اللهيب فيمدحه الخلق ويعتبرونهُ راعيهم لسلامة قلبه . ويبقى هذا الرسول يلم شعث الضال من قومه فيلتف الناس حوله ويعضدونه بكل قواهم لينجيهم من بلائهم ومصائبهم . . . . فيدفع الضرر بذراعيه بقوة ..... »

والظاهر ان طرد الاجانب من مصر وقتئذ ورد النظام الى القطر وارجاع السكينة والطمأنينة اليه انما يرجع الى امارة إهناس الواقعة جنوبي الفيوم وهي مركز عبادة حوريس منذ مبدأ عهد الاسر . واول من ارتقى عرش مصر من هؤلاء الاهناسيين هو (إخثويس) واليه ينسب حب الانتقام والجبروت والغلظة اكثر مما تنسب الى سواه. وجاء في نقوش اسيوط ان حالة القطر المصري كانت وقتئذ سيئة وان ملوك اهناس قاوموا ذلك السوء وحاولوا ازالته . فكان «كل موظف يدير عمله كالمعتاد بلا مشاجرة ولا مطاحنة ... وبطل قتل الطفل جوار امه وسفك دم الرجل قرب زوجه ووقف فعل السوء .... وضرر الرجل لبيته » . وجاء بعبرة اخرى « اذا جنّ الليل مدحني كل من نام في الطريق لانهُ اصبح آمناً كالذي يقطن داره . ذلك لان فزع الأئمة من جنودي كان حامياً له في وحدته »

هذه هي اقدم رواية لغزو الاجانب لمصر واضمحلالها ثم تفوقها عليهم وطردها اياهم واسترداد استقلالها سالماً بالتالي

بعد ذلك اخذت شمس طيبة تبزغ تدريجاً لاول مرة في افق التاريخ فأخذ حكامها ينافسون ملوك اهناس ودار بين الطرفين نزاع انتهى بفوز طيبة وانتقال مقاليد الحكم الى حكام الصعيد وتولت بعد ذلك الاسرة الثانية عشرة الحكم وساست الامارات الصغيرة بالحلم والدهاء فتقدم القطر كثيراً ولبست البلاد ثوب التمدين والنعيم لمدة تنيف على مائتي سنة تقريباً اي من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ١٧٨٨ ق . م ويعرف هذا العصر عند الأثريين « بعصر الآداب » لانها بلغت فيه اعظم شأوها . فالشعر والنثر بلغا اقصى درجاتهما من حيث المتانة والجودة كما ان الحفر والعمارة تقدما بدرجة مدهشة

وفي سنة ١٧٨٨ ق . م . سقطت الاسرة الثانية عشرة واشتعلت في البلاد نار ثورة داخلية انتهت بانقسامها وتفرّق كلمتها وتطاحن امرائها على العرش . بعد ذلك استولى على البلاد قوم من مملكة اسيوية شاسعة سماهم (مانيتو) هيكسوس حكموا القطر المصري مدة قرن تقريباً واتخذوا في اثنائه مدينة (أواريس) أو (هوارة) الواقعة شرقي الدلتا مركزاً لهم . وذلك حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد . اما (هوارة) فأصلها بالمصرية القديمة — حا أوار — ومنها اشتقت اواريس و هوارة (راجع تاريخ الشرق الادنى للاستاذ المرحوم هول Hall ص ٢١٧)

وليس من الصعب معرفة موطن امبراطورية الهيكسوس وأصلهم وأخلاقهم . اذ الغالب ان رواية (مانيتو) ان هؤلاء القوم فينيقيون صحيحة . والثابت ان اهالي بلاد العرب كثيراً ما هاجروا الى سوريا . ولذلك لايبعد ان هذين القطرين اتحدا بعد مجهودات حربية تحت ادارة حاكم قوي وكوّنا مملكة واحدة . ويرى الاستاذ (كنج King) ان اصل الهيكسوس من بلاد

العرب هاجروا الى الشمال اثر عوامل داخلية ومن هناك غزوا مصر . وقد حدثت بعد ذلك هجرات شمالية مماثلة لهذه بدأت من تلك الاصقاع وانتهت بغزو (بابل) وتأسيس المملكة الارامية وانتشار الاسلام . ومما يعزّز ذلك تلقيب المصريين للهيكسوس بلقب (عاءو) — ويعني اصحاب العصاة الملتوية — وهو اللقب الذي اطلقوه غالباً على عرب الصحراء (راجع تاريخ بابل للاستاذ كنج ص ١١٩)

واتضح لنا من الآثار ان السوريين الذين أتوا الى القطر المصري أيام الاسرة الثانية عشرة كانوا متمدينين راقين . كما ان حروب الفراعنة في سوريا بعد طرد الهيكسوس من مصر اثبتت وجود حضارة عظيمة هناك . والظاهر ان انهيار صرح امبراطورية الهيكسوس العظيمة ترك بعض تأثيراته في أهالي فلسطين وسوريا استمرت عدة اجيال بعد بسط النفوذ المصري عليها

من ذلك يتضح ان امبراطورية الهيكسوس سامية الاصل . وقد عثر على جُعَل لفرعون من عهد الهيكسوس عليه اسم (يعقوب حر) — اي (يعقوب آل) اشارة الى احتمال تبوء احد رؤساء بني اسرائيل الملك في تلك العصور الغامضة . وهذا الامر يتفق مع احتمال دخول بني اسرائيل مصر وقتئذٍ . واذا صحّ هذا الاستنتاج كان عبرانيو مصر عرباً تابعين لامبراطورية الهيكسوس . ولا يبعد أن يكون وجود هؤلاء العرب بمصر سبباً في تلقيب تلك الامبراطورية « بدولة الرعاة » . ولا يبعد ايضاً ان تكون نظرية (يوسيفوس) القائلة بأن بني اسرائيل قوم من الهيكسوس فيها شيء من الحقيقة وان لم تكن هناك ادلّة على صحة ذلك

اما كلمة « هيكسوس » فأصلها بالهيرغليفية (حكاو خاسوت) واللفظ الاخير لا يبعد انهُ كان يلفظ في عهد المملكة الحديثة (١٥٥٠ — ٧١٢ ق . م .) (شاسو) . وعلى ذلك فيكون اسم الهيكسوس بالمصرية القديمة في العهد المذكور (حكاو شاسو) ومعناه حكام البلاد الاجنبية . وهي صفة اطلقها المصريون على الاجانب من عهد الاسرة السادسة (٢٤٢٠ — ٢٢٧٠ ق . م.) حتى العهد اليوناني (٣٣٢ ق . م .) وعلى ذلك فلفظ هيكسوس هو في الاصل (حكاو شاسو)

ويستدل من رواية (مانيتو) والنصوص القديمة ان الهيكسوس فرضوا الجزية على انحاء القطر المصري كله . وقد عثرنا على بعض آثار للهيكسوس جهة جبلين باقليم الشلال الاول ولذلك لا يبعد ان دخول الهيكسوس الى مصر كان تدريجاً أشبه شيء بهجرة غير مصحوبة بحروب او منازعات . لكن (مانيتو) اخبرنا انهم لما دخلوا مصر استولوا على منف (جوار سقارة) وانهم اتخذوا هوارة — اواريس — جوار بور سعيد — قاعدة لملكهم بمصر لقربها لآسيا . وكان ملك الهيكسوس وقتئذٍ يدعى (خِينْزِر) وقد ولّى وزيره المدعو (إنخو) حاكماً على مصر يدير امورها وينظم معابدها والغالب ان حكم الهيكسوس لم تزد مدته على مائة وخمسين سنة في

مصر (١٧٠٠ — ١٥٥٠ ق . م .) وبديهي ان معظم ملوك مصر المعاصرين لهيكسوس كانوا بمثابة ولاة تحت حكمهم

وقد اثار حكم الهيكسوس في المصريين شعور البغض لهم حتى طردوهم وتخلصوا منهم والمعروف عن هؤلاء القوم انهم ادخلوا الخيل الى القطر المصري لاول مرّة ودرّبوا المصريين على الحروب العظيمة ، وعليهِ فالمصريون مدينون لهم بكثير من ارشاداتهم النفيسة وتعاليمهم القيمة مهما عظم مقدار الخسارة والتلف والضيق الذي حلّ بالبلاد في عصرهم

***

اما كيفية طرد الهيكسوس فتتلخص في ان مصر كانت مقسّمة وقت حكمهم الى عدة اقسام تحت ادارة « ملوك مصر » على ما رواه مانيتو . وان كل ملك من هؤلاءِ كان منفرداً ومستقلاً بادارة اقليمهِ تحت اشراف الهيكسوس . ولا يخفى ان مثل هذه الحالة اضعفت نفوذ المصريين كثيراً امام عدوّهم الاجنبي . لكن ملوك طيبة وبعض حكام اقسام مصر اتحدوا بعد ذلك وجمعوا كلمتهم وشبوا حرباً على العدو وربما كان ابرز هؤلاءِ الملوك هو المدعو (سكننرع الثالث) (١٦٠٠ ق . م .) وقد عثر المرحوم كمال باشا على مومياهُ ضمن كنوز الدير البحري الكبرى وهي الآن محفوظة بالمقبرة الفرعونية بالقاهرة وقد وجدت بهذه المومياء جروح شنيعة مميتة بالرأس أثر نضال ونزاع قبل الوفاة رجح انهُ حصل وقت حرب المصريين مع الهيكسوس . ولو امكن عمل قائمة شرف عالية لمن ضحوا بأنفسهم في سبيل بلادهم لأتى هذا الملك في اولها . لانهُ ناضل بنفسه بين جنوده بل وتقدمهم حتى تمكن العدوّ من اصابته في رأسهِ فهشّم جمجمته في خمسة مواضع (راجع كتاب المومياءات الملكية للاستاذ اليوت سميث ١ — ٣) . وتعدّد الاصابة دليل على شدة عناد هذا القائد وقوة ايمانه بواجبه نحو وطنه

ولما توفي هذا الملك تبوّأ كرسي الملك بعده ابنهُ (كاموس) الذي امضى ينفّذ خطط سلفه لانقاذ وطنه من براثن العدوّ . وبهذه الطريقة وضع لنا اسلافنا انموذجاً نقتدي بهِ يتلخص في اتّمام العمل الوطني الشريف كلٌّ بحسب قدرته . لانهُ ما لم يدرك كله لا يترك جله . بهذه الطريقة جاء دور (كاموس) بطل الكفاح ومثال القائد من حيث النشاط والامانة والاخلاص . فأتى بأعمالٍ جليلة تكسف اعمال (جان دارك) و (جورج واشنطون) وغيرهما . لكنها للاسف مجهولة بين من يجب عليهم الالمام بها . كان من حظ (كاموس) ان تمكن من كسر شوكة الهيكسوس لاول مرّة وشلّ نفوذهم بالوجه القبلي . فأثبت بذلك لأهل وطنه امكان قهر العدوّ والتغلّب عليهِ . بل وطرده من الوطن . حصل ذلك شمال مدينة الاشمونين بمصر الوسطى وكان الهيكسوس وقتئذٍ تحت قيادة القائد (تتي) (راجع مجلة العاديات المصرية جـ ٥ ص ٣٩)

واهم مرجع تاريخي لاعمال هذا الملك العظيم هو النص الوارد على لوحة كارنارفون رقم ١ التي اكتشفت بطيبة (لوقصر) عام ١٩٠٨ ميلادية والتي يرجع تاريخها الى حوالي عام ٥٠ بعد حكم (كاموس) المذكور فقد جاء بهذا اللوح ان الملك (كاموس) خاطب مجلس اعيان مملكته في السنة الثالثة من حكمه قائلاً ضمن خطبة طويلة :—

« انظروا الى العدو لقد وصل الى الاشمونين ومنع كل انسان من الراحة لانه استعبدهم وأذلهم اذلالاً . لقد اخذت على نفسي مناضلته حتى ابقر بطنه لان امنيتي هي تحرير مصر وسحق الاسيويين » . وورد بعد ذلك على لسان جلالته « لقد ركبت السفن النيلية يتقدمني فيها جيشي المتأجج حمية . . . . وأرسلت جواسيسي لاتمكن من سحق العدو . . . . وأمضيت اليوم في مدينة (نفروسي) — وهي مدينة قديمة تقع شمال الاشمونين بضعة اميال — اناضل (تتي) ابن (أبو فيس) ولم اتركه يفلت مني . هكذا رددت العدو الذي استولى على مصر .... وأمضيت الليلة في سفينتي وقلبي جذل . فلما طلع الفجر انقضضتُ عليه كالنسر . فما وافت ساعة تعطير الفم (اي ميعاد الافطار) حتى كان النصر مكتوباً لي . فهدمت جدرانه وفتكتُ برجاله واضطرت زوجته الى الهرب نحو ساحل النهر . وكانت جيوشي كالاسود . . . . . ها ! لقد اخذ اقليم (نفروسي) يسقط في ايدينا . . . . . »

***

الى هنا انتهت عبارة لوحة كارنارفون فلم نتمكن من معرفة مدى تقدم قوات (كاموس) وهل هي تابعت سيرها حتى (منف) او ارجأت الاستيلاء على هذه المدينة الى وقت آخر . وعلى كل حال فكاموس هو اول فرعون نفذ ارادته بالقوة وقتئذٍ . ولا تزال جثة هذا الملك العظيم محفوظة بمقبرة الفراعنة بالقاهرة ومعها مصاغه وأسلحته الحربية

ولحكمة ارادها الله توفي (كاموس) قبل اتمام عمله الذي تهيأ له اعظم تهيء وبذر بذوره بين اضلاع ابنه (احمس) اول ملوك الاسرة الثامنة عشرة على قول مانيتو . تولى احمس العرش عام ١٥٨٠ ق . م . تقريباً وكان حكمه اولاً محصوراً في الوجه القبلي بقسم طيبة . وبعد ما اثبت لاهالي اسوان عزمه على مراعاة حسن الجوار كأجداده ولى وجهه نحو الهيكسوس . ولم تصل الينا نصوص احمس الاول عن ذلك الكفاح . وكل ما اهتدينا اليه في هذا الصدد هو تلك النقوش الواردة على جدر قبر ضابط مصري من جهة الكاب كان موالياً لملوك طيبة واشترك معهم في مهاجمة الهيكسوس . وهذا الضابط يقال له (احمس) ووالدته تدعى (إبانا) ووالده (بابا) هذا كان موظفاً في حكومة (سكننرع (الثالث) السابقة الذكر

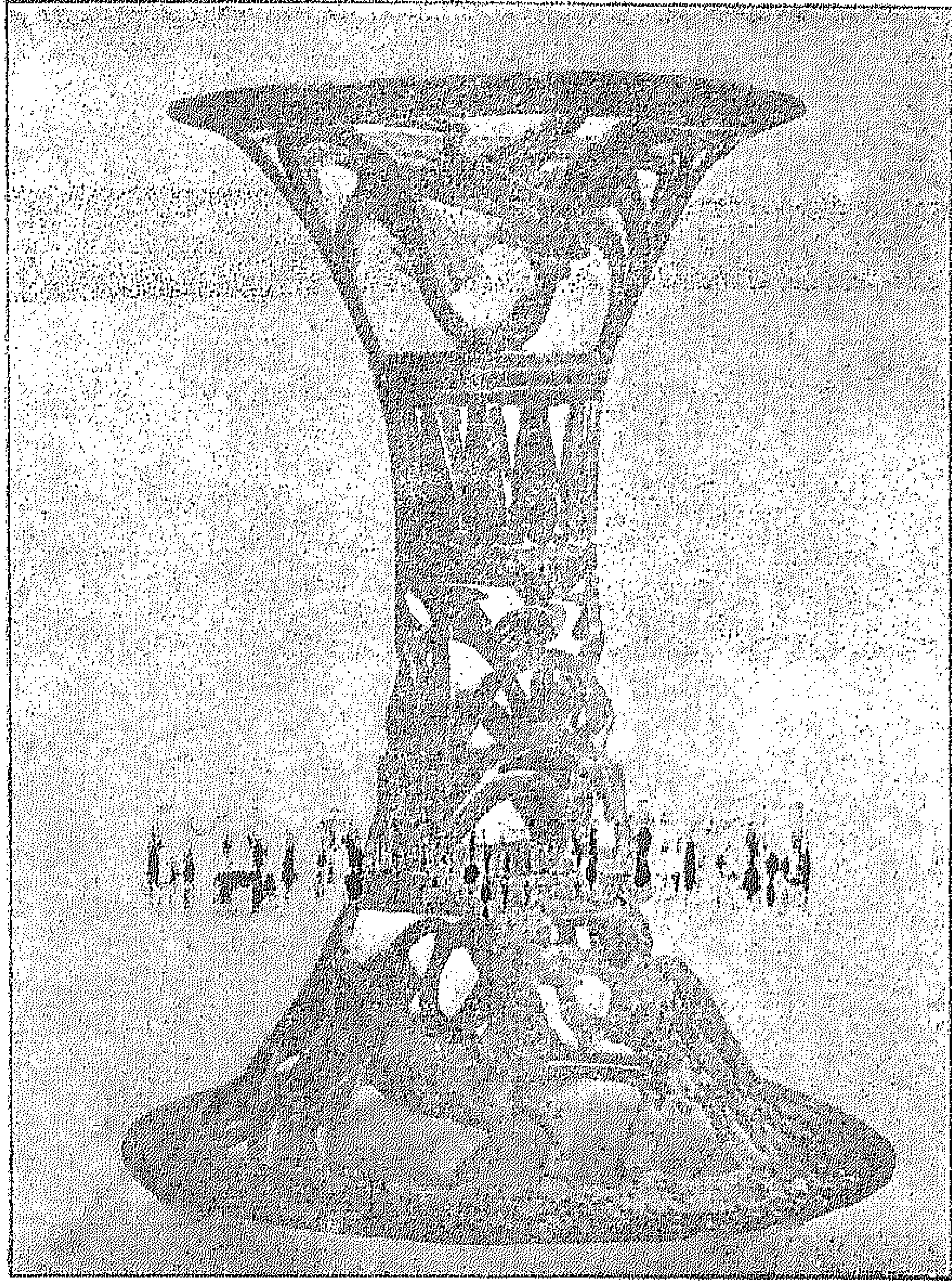

(كأس من بروز وزجاج وجدت في انيبا ويرجع الى ١٤٠٠ ق . م)

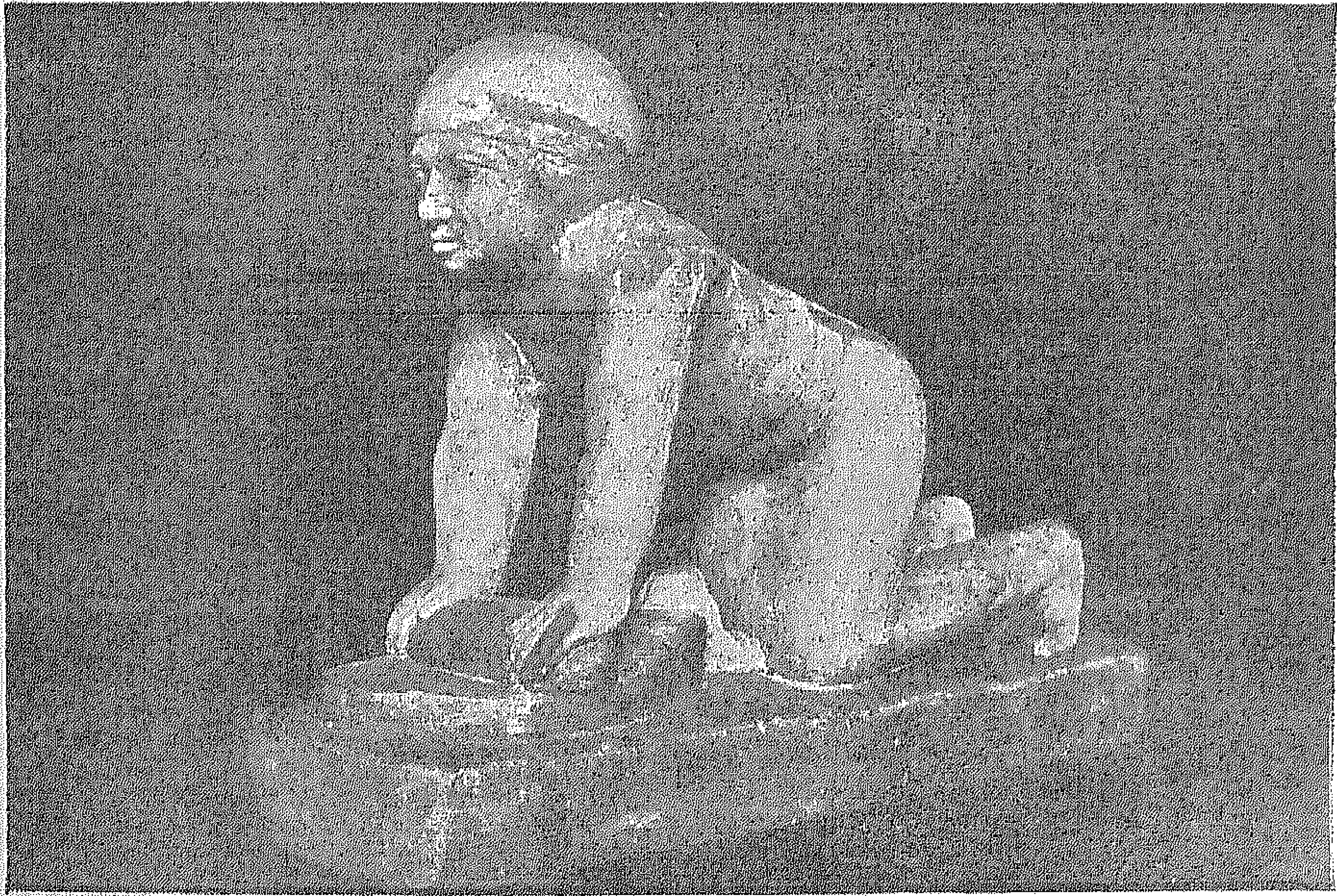

(تمثال امرأة تسحق القمح من كاس وجد في الجيزة سنة ٢٥٠٠ ق . م)

[تكرم بهذه الصور الدكتور بشر فارس
وقد اقتناها عند زيارته مدينة ليبسيك]

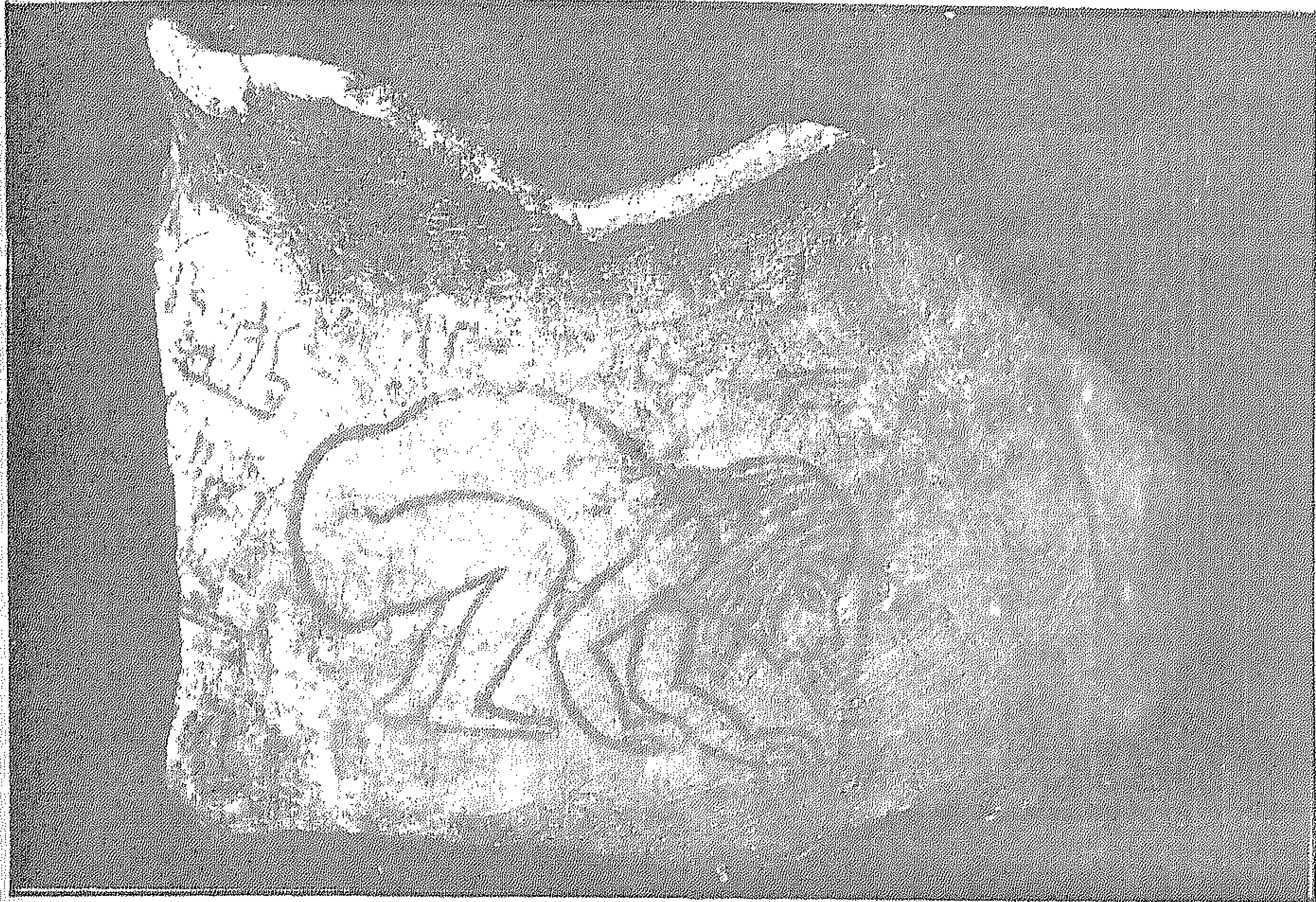

(رسم على قطعة نخار يمثل فتاة عند تنور يرجع الى ١٢٠٠ ق . م)

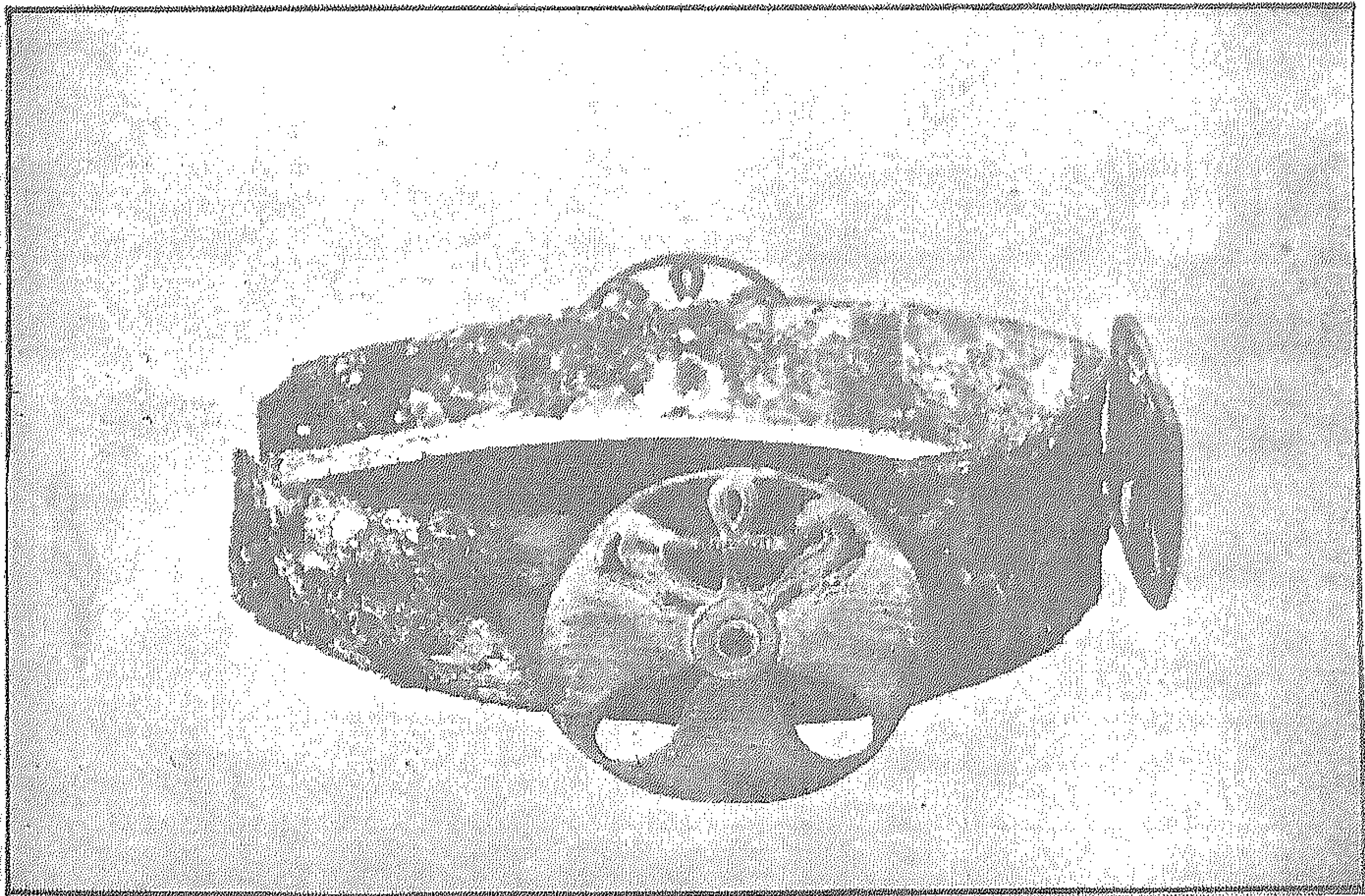

(تاج من نحاس مزين بورد من خشب وجد في الجيزه ورجع الى ٢٦٠٠ ق . م)

واليك ترجمة ما قاله احمس بن ابانا عن سيرته ايام الملك احمس الاول : —

« قضيت ايام شبابي في مدينة الكاب وكان ابي ضابطاً في جيش جلالة ملك القطرين البحري والقبلي سكننرع المرحوم . وكان يسمى (بابا) وهو ابن (روينت) . ولما توفي وظفت مكانه في سفينة تسمى (القربان) وذلك ايام الملك احمس الاول . وكنت اذ ذاك شاباً لم اتزوج فلما تزوجت وصارت لي اسرة نقلت الى الاسطول الشمالي لما شوهد فيَّ من الشجاعة والاقدام » . من هذا يتضح انه نقل من اسطول الكاب وارسل شمالاً لمحاربة الهيكسوس . وبعد ان صار ضابطاً بحريًّا انتظم ضابطاً بريًّا في حرس الملك الخاص . وقد اشار الى ذلك بقوله « وكنت اتبع الملك في سيره حينما اقلته عجلته ولما حاصر الملك مدينة (اواريس) اظهرت لهُ بسالة وأنا أحارب على قدميّ فعينني جلالتهُ في السفينة المسماة (ضوء منف) . ثم حارب جلالة الملك في مياه ترعة (بزدكو) جهة (اواريس) وقد حاربت وقتئذٍ بيدي فأحضرت يداً مقطوعة من رجال العدو برهاناً على شجاعتي واقدامي . فبلغ ذلك الخبر رسول الملك فأنعم عليَّ جلالة الملك بعد ذلك بنشان الشجاعة الذهبي . ولما قامت الحرب مرة ثانية في هذا المكان دخلت النزاع وحاربت بيدي وأحضرت يداً أخرى (من أسير) فأنعم عليَّ جلالة الملك مرة ثانية بالنشان الذهبي لشجاعتي . في ذلك الوقت العصيب قامت ثورة عظيمة في اقسام مصر جنوب الكاب تطلبت ذهاب الملك أحمس الاول شخصيًّا مع (أحمس) ابن (ابانا) لقمعها . وقد اخبرنا عن ذلك احمس ابن أبانا بقولهِ « لحضر الملك وحارب قسم مصر جنوب هذه المدينة (الكاب) واسرت حينئذٍ رجلاً حيًّا نزلت بهِ إلى البحر قابضاً عليهِ كأنني سائر في طريق المدينة وعبرت بهِ النيل فعلم بذلك رسول الملك فأنعم عليّ جلالتهُ بمكافأة ذهبية مضاعفة ولما خمدت الثورة رجع الملك مصحوباً بأحمس بن أبانا الى اواريس . قال أحمس المذكور ما ترجمتهُ « فسقطت أواريس في قبضة جلالة الملك . وهناك اسرت رجلاً وثلاث نسوة فكان المجموع أربعة وهبهم لي جلالة الملك عبيداً » وكان ذلك عام ١٥٨٢ ق . م . وهو أقدم عيد استقلال معروف في تاريخ الامم

***

قال أحمس ابن ابانا بعد ما ذكر سقوط أواريس « ثم حاصر جلالة ملك مصر مدينة شاروهن (شرحان) — بجنوب فلسطين — لمدة ثلاث سنوات واستولى عليها » ويعتبر هذا أول حصار طويل معروف من نوعه في التاريخ . هكذا تتبع الملك أحمس الأول عدوه بعد خروجه من مصر حتى قذفهُ في فينيقيا حيث لم تقم لهُ قائمة بعد

وقد كان حكم الهيكسوس وطردهم من مصر عظة كبيرة للمصريين افهمتهم لاول وهلة معنى الاستعمار وسياسة البطش . فأنشأوا جيشاً عظيماً منظماً استعملوا فيه العجلات الحربية مستعينين على جرّها بالخيل التي جلبها الهيكسوس الى القطر المصري وقت غزوتهم لهُ . فتحولت مصر بذلك الى امبراطورية حربية . شأن كل امة تتحد كلمتها . وتلمّ شعثها وتتولى تحرير نفسها بيديها

***

ويجدر بنا في هذا المقام ان نذكر فضل السيدة المصرية في هذه الحركة العظيمة الوطنية ومقدار كفاحها وعظم تأثيرها النفساني في حكام مصر وقتئذٍ . اذ لا يبعد مطلقاً ان تكون القوى المعنوية بين المصريين وقتئذٍ راجعة الى تشجيع الجنس النسائي . ومثل هذا المجهود المزدوج كثيراً ما يشاهد في مواقف الدول الاستقلالية مهما تباينت عناصرها . لكن في مصر وقت طرد الهيكسوس كانت الزعامة النسوية في قبضة الملكة (آحوتب) زوجة (سكننرع الثالث) الذي مات شهيد الوطن في حومة الوغى كما ألمعنا سابقاً وقد رزق منها (كاموس) و (اهمس الاول) و (نفرتاري) فلما توفي الزوج قام الابن الاكبر بدوره . ولا يبعد مطلقاً ان يكون ذلك تحت تأثير والدته حبًّا في القصاص من اجل دم الوالد . ثم اتى دور (اهمس الاول) الذي تزوج بأخته (نفرتاري) الشهيرة والتي كان لها شأن كبير في الحركة الوطنية حتى عبدها قومها على حد سواء مع زوجها . وقد عثر على تابوتها بالدير البحري

ولا بدّ ان الملكة (آحوتب) عمّرت فوق المائة سنة . وكان في امكانها ان تتولى الحكم بنفسها . لكنها تركته لاولادها ليكافحوا في سبيل بلادهم كفاح الابطال وهي من ورائهم تشد ازرهم وتراقب احوال مملكتهم الداخلية . فيالها من والدة حكيمة رشيدة

لقد شهدت الملكة (آحوتب) كل حركة الاستقلال من اولها الى آخرها ورأت بعينيها انتقال مصر من الحضيض الى العلياء ومن الذلّ والعبودية الى السؤدد والجبروت وهكذا كتب لها المولى ان تفتح عينيها اولاً على بلدها وهو في حالة الهوان وأن تغمضهما آخراً ووطنها حرٌ باسطٌ سلطانه على ممالك آسيا والسودان بفضل مجهودها ومجهود زوجها وأولادها . فأنعم بهذه العائلة وأكرم بشهامة رجالها ونسائها

ولما توفيت هذه الملكة حنطت جثتها بكل احترام ووضعت في تابوت ذهبي خاص ومعها حليّها والهدايا التي قدمت لها في حياتها من زوجها واولادها . وكان هذا المصاغ معتبراً اخر ما عثر عليه من الآثار الى عهد قريب ويتكوّن من أساور وخواتم ومروحة ذهبية ومرآة من البرنز ذات اليد الابنوسية وغير ذلك

بين الحقيقة والخيال

لراجي الراعي

— أنتَ من أنت وما أنت أيها الخيال

— وأنتِ من أنت وما أنت أيتها الحقيقة

— أنا الحقيقة وكفى

— وأنا الخيال وكفى

— أنا المعلوم المحدَّد الملموس ولي اتباعي

— وأنا المجهول الذي لا حدَّ له ولا تطاله يد ولي اتباعي

— أنا كلمة الله في خليقته

— وأنا خليقته في رأسه قبل ان أخرجها منهُ فأراها النور

— أنا الجوع والشبع والظمأ والماء والرداء

— ليس في ذلك ما يدعو الى الفخر والمباهاة

— أنا جسد المرأة ووصالها

— وأنا جمالها وسرّها وفتنتها وقلبها وسحرها ووحيها . . . انا ما تراهُ فيها ولا يؤخذ منها

— أنا الأبجدية والأرقام

— هي قيودك أيتها العبدة ، أما أنا فلا حدَّ لي ولا قيدَ يقيّدني

— أنا الراقد وسريره

— وأنا الحلم ووثبتهُ

— أنا الحياة والموت

— وأنا وراءهما النعيم والجحيم

— أنا الكأس وخمرتها

— وأنا السكرة والعربدة

— أنا المنطق والجبر والهندسة واللاهوت

— وأنا الشعر

— أنا سقراط وأفلاطون واقليدس

— وأنا هوميرس وفرجيل ودانتي وملتن

— أنا اليقين

— وأنا الشك

— أنا العقل الجميل

— وأنا الجنون الجميل

— أنا الحجر الذي تراه بارزاً في البناء

— ولكن البنّاء اخذه من مقالعي فبناؤه لم يقم في الارض الاّ بعد ان تخيّله

— أنا الحكمة والعدل والفضيلة والبطولة والشرف والإباء والكرامة والمجد

— هي كلمات انتزعتها من قلبي وقمت تنادين انها لك . . . هي كلمات طنّانة رنّانة قذفت بها ارحامي فجاءت على صورتي ومثالي خيالاً لا حدَّ لهُ ولا تعريف

— أنا الكنيسة والصلاة

— وانا لهب العقيدة

— أنا العصفور وجناحه وغصنه وصيّاده

— وأنا لونه وتغريده

— أنا قلم الكاتب ومداده

— وأنا وحيه والهامه

— أنا نصف التاريخ

— وأنا نصفه الآخر

— أنا القناعة

— وأنا الطموح

— أنا الصخرة الراسخة التي لا تتزعزع

— وأنا الموجة الهائجة التي لا تستريح

— أنا الحقيقة

— وأنا الخيال

— أنا الانسانية

— وأنا الروحانية

— أنا قمر الليل

— وأنا اشباحه

— أنا العود ووتره

— وأنا أنّته . . .

— وظلّ الخيال والحقيقة ينقران على هذا الوتر ليلة كاملة ...

— وطلع الفجر وهما يتجادلان ويستشيطان غضباً ويتنازعان السيادة . . وأنا اتفرج عليهما واسمع لحديثهما العالي

— وأشرقت الشمس فأقبلت عليها أسألها أن تقول كلمتها فأعرف مَنْ من الاثنين أؤثره على الآخر : الحقيقة أو الخيال..

— فأطرقت الشمس برأسها قليلاً ثم التفتت اليّ وقالت :

— أنظر الى وجهي وأشعّتي : أنا النار والنور، وهكذا أنت فنارك خيالك ونورك حقيقتك فكن للشمس المشرقة فيك ولا تعجب لشطريك اللذين يتنازعان السيادة في رأسك فكل منهما عظيمٌ في دائرته وقويٌّ بنفسه

تركة التاريخ

في نفوس الشعوب الضعيفة

لعبد الرحمن شكري

تختلف الاخلاق باختلاف الامم الى حدٍّ كبير وليس معنى هذا ان امة تخلو افرادها من صفة حميدة او ذميمة فكل الصفات حميدها او ذميمها في كل نفس وفي كل امة وانما تختلف مقادير تمكن الصفات من النفوس. والحكم على اخلاق نفسٍ او امة انما يكون بحسب ما فيها من الصفة سواء كانت حميدة او ذميمة فاذا كانت الصفة ضعيفة لم تكن مما توسم او توصم بهِ واذا كانت شديدة كانت من خصائصها. والتاريخ هو مجموع العوامل التي أثرت في نفوس الافراد والامم من عوامل جغرافية واجتماعية وغيرها وهو يدلنا على ما تتصف بهِ النفوس وما يغلب عليها من الخصال وما لا يغلب عليها. فعند دراسة التاريخ لا بدَّ من دراسة مؤثرات الجغرافية البشرية اذ لكل بيئة خصال واخلاق مرجعها الى طبيعتها فترى البدو على خصال غير خصال الحضر وترى سكان الجبال موسومين بخصال يرجع اثرها الى طبيعة ارضهم ومناخهم وحاصلاتهم. فالشجاعة والكرم والجد والصدق والثبات واضدادها يمكن ردها الى البيئات التي تنبت فيها كما ينبت النبات ويمكن تمييز البيئات تنشأ فيها . ويستطاع معرفة مدى اثر البيئة في حياة القوم الاجتماعية ثم ان حياة القوم الاجتماعية هي مجموعة مؤثرات منها ما يزيد او ينقص من أثر المؤثرات الجغرافية. وقد ينتقل قوم من مكان الى مكان مغاير للاول فتختلف صفاتهم النفسية بمرور الازمان او قد يختلف بعضها وضوحاً وشدة وثباتاً او ضعفاً وانحلالاً وقد تغلب على نفوس القوم صفات من مكانهم الجديد وهي قد كانت أقل وضوحاً في مكانهم القديم وقد يكتسبون في مكانهم الجديد انواعاً اخرى من الصفات والقوانين والشرائع وأنظمة الحكم لها آثار في الحياة الاجتماعية بعيدة المدى طويلة العمر باقية على التاريخ فتنمي في النفوس صفات القوّة او صفات الضعف وهي وليدة المؤثرات الجغرافية الى حدٍّ كبير اذ تختلف النظم والشرائع والقوانين كاختلاف البيئات الجغرافية ولكن اختلاط تلك البيئات واتصال شعوبها يؤديان الى انتقال القوانين والنظم من مكان الى مكان على مرور الازمان الاَّ ان انتقالها أسرع من انتقال الاخـلاق والصفات من النفوس. فالنظم والقوانين تنتقل بالهجرة او الغزو او المصاهرة أو

التعلم او المحاكاة . وقد تترك المؤثرات الاجتماعية أثرها حتى بعد زوالها فتبقى الآثار أجيالاً في بعض الاحايين وقد يزول بعضها ويبقى البعض أو قد تبقى كلها معدَّلة محوَّرة

واذا نظرت الى شعب درج في عصور التاريخ المختلفة على العزة والمنعة والمقدرة وجدت فيه صفات تختلف عن صفات الشعب الذي درج في عصور التاريخ على ضد تلك الحالات . وقد تتبدل عزَّة الشعب الاول وتزول فتبقى فيهِ صفات العزَّة عهداً طويلاً وقد تتبدل حالة الشعب الثاني وتزول ذلته كما تزول شرائعه القديمة فتبقى فيهِ صفات نشأت من العصور القديمة فتظهر في نفوس آحاده صفات وضيعة حتى ولو ظهر الشعب بمظهر العزة والنهوض . لان الحكم يكون بالصفات المتأصلة في النفوس وبمظاهرها في حياة الناس ويكون الحكم على مثل هـذا الشعب لا محالة برد هذه الصفات الى مسبباتها القديمة . ولا مناص من ذلك ولا يمكنه ان يخفيها عن احد او ان يرغم احـداً على القـول بذهابهـا الاَّ اذا استطاع ان يتخلص منهـا وصحت عزيمتـه على ذلك واتخذ العدة للنجاة منها . اما ادعاء العزة والظهور بمظهرها والغضب من وصف ما ظهر منهُ مما يحسب انهُ قد خفي فلا يزيده الاَّ تمادياً في صفاته القديمة واعتزازاً بها وهو يحسب ان انكارها خلاص منها كما يحسب الـكاذب ان انكار كذبه يجعلهُ صادقاً في حين تكون صفاته القديمة كالطابع او الختم لا مفرَّ لهُ منهُ. وكل ما يمكن ان يقال فيهِ انهُ شعب تبدلت احواله فظنَّ انهُ قد تخلص من آثارها او هو يغالط نفسه من العجز ويحسب ان في مغالطة النفس تخلصاً منها لعجزه عن الاخذ باسباب التخلص . وحسبانه هذا قد يكون اما من الجهل بشؤون الحياة والعالم والتاريخ وأما لانهُ يعتز بمخلفات وضيعة يمقتها في الظاهر ولـكنهُ يعتز بها لانها صارت نفسه ومن الذي لا يعتز بنفسهِ ولا يطليها بطلاء العزة ولا يتخذ من صفات الذلة قوةً وعضداً وهي قوة وعضد كما سنوضح الاَّ انها قوة تمنع الضعيف من الفناء ولـكنها لا تنهض بهِ .فخصال الذلة انما نشأت كي تقي الذليل من شرّ سطوات القوي ولـكنها لم تنشأ كي تنهض بهِ الى مرتبة الثاني . وهذه الخصال هي الحسد والمكر والـكذب والخداع والتعاون على الدسّ والغيبة والنميمة والرياء والبذاءة والقسوة والنفاق والغش.وسنوضح لماذا نشأت هذه الصفات في الاذلاَّء كي تقيهم سطوات المقتدر واذا اجتمع في وسط من الاوساط أثر هذه الصفات التاريخي وأثرها الناشيء من ضرورتها بسبب ازدحام السكان وما يكون بسبب ازدحام السكان من التقاتل على الرزق كانت هذه الخصال في أشد حالاتها وأرذل درجاتها وأحط مميزاتها وظواهرها وقد نشأت هذه الخصال من سنة الاستعاضة في الطبيعة وهي سنة عامة في الطبيعة التي تعوض على المرء صفة بدل التي يفقدها فاذا فقد القدرة عوضته هذه الصفات كي يدرأ بها القدرة ويحمي نفسه .وانما مثلها مثل الجراثيم التي تنشأ في الجسم كي تحارب الجراثيم الاخرى الساطية عليهِ التي تريد ان تغتاله . والطبيعة تعوض الحيوان عما يفقده فالاعمى يعوض عن بصره خيالاً واحساساً لما حوله وكذلك النفوس المستضعفة تعوض على مرور الزمن من

المكر والكذب والحسد والنفاق والبذاءة ما تصول بهِ اذا صالت وما تدرأ بهِ القدرة وهذه صفات مشاهدة في الشعوب الضعيفة التي تعاني أثر العصور القديمة وقد ينتهي أجل الذلة التي سببت هذه الخصال فلا تزول بزوالها لان هذه الصفات تكون قد أصبحت طباعاً موروثة جيلاً بعد جيل وقد تكون مقطوعة الصلة بالضرورة التي دعت اليها في أوساط الاذلاء عند ما كانت هذه الصفات قائمة مقام القدرة

أما القدرة نفسها فتشاهد مصحوبة بضد هذه الصفات لان المقتدر في غنى عنها فالاذل في حاجة الى الكذب كي يخفي بهِ عيوبه وكي يحط بهِ من قدر منافسيه في الحياة . اما المقتدر ففي قدرته حماية تسهل عليهِ الاعتراف بالخطأ اذا أخطأ وفيها أنفة تأبى الا ان تنافس الاجادة بالاجادة وتأبى الا ان تناضل القوة بالقوة لا بالكذب والمكر والدس والغيبة والنميمة والحسد واللؤم وغيرها من الصفات التي يلجأ اليها العاجز بحكم نفسهِ او بحكم ماضيهِ وماضي قومهِ اوحاضره . فهذا لا حياة لهُ الاَّ بان يناضل بأمثال هذه الصفات وهذا أمرٌ بديهيٌّ .ولاشك ان هذه الصفات هي درع العاجز وسلاحه في معترك الحياة وتكون عوضاً له من القدرة . وسنة الاستعاضة هذه في الطبيعة ليست مشاهدة في حياة الانسان فحسب بل في حياة الحيوان والنبات ايضاً وقد تنتهي الذلة التي سببتها فتبقى صفاتها وهذا هو ما يضال الباحث اذ يرى عند غير الذليل كذباً وحسداً ومكراً وخداعاً ونميمةً وغيبةً وقسوةً وغشًّا فيراها عند العزيز وعند المقتدر او عند من يظهر بمظاهر العزة والقدرة فيضل عن سبب نشأتها وعن حقيقة استفحالها في نفوس الاذلاء وظهورها فيهم اكثر من ظهورها في نفوس الاعزة المقتدرين وتستفيض كتب القصص والتاريخ التي تدل على استفحال هذه الصفات في نفوس الارقَّاء ايام كان الرق شائعاً . فالكذب والغيبة والنميمة والدسائس صفات نقرأ لها نوادر كثيرة في حياة الارقَّاء وقد شوهدت غلبتها في الامم الذليلة بحكم ماضيها او حاضرها وفي الاوساط التي تعتريها الذلة بسبب التقاتل على الحياة الناشيء من كثرة السكان وازدحامهم .وشوهدت اضداد هذه الصفات في اضداد هذه البيئات واذا انتقل انسان من بيئة ماضيها اعتراه الذلة إلى بيئة أعز أحسَّ أن آحاد البيئة الاعز أسرع إلى تصديق محدثهم من آحاد البيئة الاذل لان الرجل في الثانية تعود أن يكذب وأن يسمع الكذب فهو لا يسرع إلى تصديق محدثه إلاَّ لهوى في النفس او اذا ادعى التصديق وهو مكذّب . ومن أجل ذلك يدعي الرجل في البيئة الاذل أنه أذكى من الرجل في البيئة الاخرى لانه يفطن إلى خداع المخادع ويسيء الظن بالقول والعمل حتى ولو كانا صالحين . بينما قد ينخدع الرجل في البيئة الاعز لانه لا يفترض الكذب في الناس قدر افتراض الاول وهذا هو السبب الذي جعل آحاد البيئة التي تذيع فيها صفات الذلة يدَّعون الذكاء النادر لانهم وقد يدَّعون القدرة والعزة لان الكذب والحسد والنميمة والغيبة والمكر تقوّم القدرة في حياة العاجز بحسب سنة الاستعاضة في الطبيعة التي وصفناها.

وقديماً قال مؤلف الخرافة القديمة عن آلهة الخرافات (عبثاً تحاول الآلهة ان تتغلب على قوة الجهل

والغباء) فجعل للجهل والغباء قوة وكانه قد فطن الى سنة الاستعاضة الطبيعية التي وصفناها

وما يصدق في حياة الانسان يصدق في حياة الحيوان أيضاً لان الحاجة واحدة فالثعلب اضعف من الاسد وهو ايضاً أكثر مكراً ودهاء وكذباً. وبذاءة اللسان انما نشأت في أول الامر لتحمي الضعيف من سطوات القوي وتشمل البذاءة اللعنات المخيفة والدعوات المفزعة وهجر القول وكلها اشياء قد يتجنبها المقتدر ويزهد في ان يناضلها وهو لا يزهد في ان يناضل القدرة بالقدرة. ويعرف ذلك الاذل فيحتمي بها. ولا تزال البذاءة أقرب إلى ألسنة الاذلاء والارقاء وذوي العاهات. والمرأة اذا فقدت حياءها كانت أبرع في الشتائم من الرجل واسرع اليها منه. ثم تدرّج الناس إلى استخدام البذاءة في غير ذلة خصوصاً في الاوساط التي يشتد فيها التناحر على المعاش او على الظهور في الحياة ولكنها في اولها ناشئة من سنة الاستعاضة الطبيعية واجتماع هذه الصفات كلها واستفحالها في شعب قد يحرمه السعي لتمكين اضدادها من صفات القوة في نفسه اعتزازاً بصفات الذلة لما قد يظهر فيها من الذكاء الرخيص كما اوضحنا ولانها استعيض بها عن القدرة فظنّ انها قدرة وقوة وعلى قدر تمادي المجتمع في صفات الذلة هذه يكون بعده عن مراقي الرقي والنهوض مهما فاخر بالنهوض لان صفاته هي صفات التخاذل والاثرة والغش التي تحبط الاعمال العامة وتمنع من الثقة المتبادلة بين آحاده. ولا يفطن القوم الى ان صفات الذلة هذه وان كانت قد حالت بينهم وبين الفناء لا تصلح للنهوض فهي أداة بقاء لا أداة ارتقاء وهي إذا التبست عليه واختلطت بأضدادها كانت كما يختلط الامر على الانسان فلا يميز بين الوقاحة الناشئة من فقدان الحياء وبين الشجاعة المصحوبة بالحياء والاولى من صفات الاذلاء بالرغم من مظاهرها وهي اشد ما تكون في الرقيق اذا تحكم وفي المرأة اذا بذلت فاذا تدبرنا كل هذه الامور علمنا ان تركة التاريخ في النفوس كثيراً ما تكون تركة مثقلة بالديون

اذا نظرنا في تاريخ مصر القديمة ونقوشها التي تصف اخلاقها رأينا النقوش في اواخر الامبراطورية الحديثة تصف صفات الضعف التي ذكرناها وتندد بها وتلوم عليها واذا راجعنا تاريخ الدولة البيزنطية الاغريقية الرومانية رأينا فرقاً كبيراً بين الرومان في اول نشأتهم عند ما كانت صفات القوة النفسية ظاهرة موصوفة مأثورة عنهم مذكورة في كتب تاريخهم وبين الرومان والاغريق في اواخر عهدهم عند ما صاروا الى صفات الضعف النفسي من مكر وكذب وكيد وتحاسد وتخاذل وتنابذ وغيبة ونميمة وغش ونعني ان هذه الصفات صارت أوضح اثراً في حياتهم وتاريخهم وقد كانت ولا شك موجودة من قديم الزمن شأنها في كل زمن ومكان ولكنها نمت وكان نموها كي تكون كدرع يتقي بها الضعيف القوي شأن نموها دائماً في النظم الفاسدة والاوساط المختلة. على ان نمو هذه الصفات وتكاثرها كان له اثر كبير في زوال هذه الامم وفنائها فهذه الصفات المنحطة هي أداة بقاء الى حدٍّ ما ولكنها اذا تكاثرت أضعفت جسم الامة وأدت الى زوالها

كوندياك وديدرو

وأثرهما في فن التربية(١)

لحسن كامل

﴿ فلاسفة القرن الثامن عشر ﴾ تقدم فن التربية في القرن الثامن عشر تقدماً كبيراً. ويرجع أغلب الفضل في ذلك الى مجهودات فلاسفة هذا القرن . ويلاحظ الباحث ان التربية لم تبق بعد القرن السابع عشر موضع اهتمام رجال التعليم فحسب بل اصبحت الشغل الشاغل لكبار المفكرين الذين أخذوا في دراسة مسائلها العويصة . وتوسع بعضهم في هذه الدراسة حتى وصل الى حد التعمق . ويكفي ان نعرف أنهم ناقشوا كل ما عرض له روسو من مسائل التربية لكي يتبين لنا أنهم لم يتركوا ناحية من نواحيها الهامة الاّ ودرسوها دراسة وافية . وسنرى أن هذه الدراسات — على الرغم مما فيها من اخطاء — قد اظهرت للناس حقائق كانوا يجهلونها حتى ذلك العهد

كوندياك

﴿ كوندياك (١٧١٥ — ١٧٨٠) ﴾ كان كوندياك عالماً نفسانيًّا ماهراً نافس لوك الانكليزي في ميدان الفلسفة . ولكنهُ لم يصل الى ما وصل اليهِ هذا الاخير من المنزلة في عالم التربية . ومع ذلك فان لهُ كتاباً نفيساً عنوانه دراسات Cours d'études يحتوي على ثلاثة عشر مجلداً جمع بين دفتيه دروسه في تربية تلميذه فرديناند حفيد لويس الخامس عشر

﴿ تغلب روحه الفلسفية ﴾ من الخير أن تسود روح الفلسفة نظريات فن التربية . ولو كان كوندياك قد اقتصر على تطبيق الرأي القائل بان فن التربية هو مجموعة قواعد مستنتجة من علم النفس لتجنب ما وجه اليهِ من نقد مرّ . ولكنهُ راح يحشر في التربية مبادىء فلسفية بحتة لا تتفق — على الرغم من صحتها النظرية — مع فن تربية الرجال فيقول مثلاً « ان طريقتي في التربية

---

(١) الجانب الاول من فصل في « فلاسفة القرن الثامن عشر وأثرهم في تطور فن التربية » لحسن كامل مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة العقبة الثانوية الاميرية . والجانب الثاني يشتمل على بحث في هلفيتيوس وكنت

لا تشبه في شيء اساليب التعليم المتبعة . ولكنها تتلخص في ضرورة أن يمر الطفل بما مرّ به العلماء ورجال الفن ». وبمعنى آخر يجب أن يلاقي الطفل ما لاقاه التقدم الانساني من بطء وتخبط وان يفعل ما فعلته الشعوب من قبل !..

ولا ريب في أن ثمة قسطاً من الصحة في خطإ كوندياك . فالعلوم والفنون بدأت بملاحظات خاصة . ثم ارتفعت بعد ذلك الى مستوى المبادىء العامة . ولسنا نعارض في ضرورة انتهاج هذه الخطة بنفسها في التربية . فمن الخير أن نبدأ بان نقدم للطفل وقائع خاصة ثم نقوده — خطوة خطوة من ملاحظة الى اخرى -- الى القانون الذي يهيمن على هذه الوقائع ويلخصها. ولكن هناك بون شاسع بين طريقة الاستنباط التجريبية هذه وبين مبالغات كوندياك. فليس من المعقول بتاتاً أن نلغي تماماً طريقة العرض التركيبية (la méthode synthétique d'expotision) تلك الطريقة التي تتلخص في ضرورة الاستفادة من تجارب القرون الغابرة لتعليم الحقائق الثابتة مرة واحدة ومن الخرق أن نحاول إرغام الطفل على أن يبدأ بمفرده عمل القرون مرة ثانية

وأعجب من هذا أن هواجس كوندياك الفلسفية جعلته يتوهم إمكان اعداد الطفل للتحليل النفساني منذ بدء دراسته فهو يقول : « يجب أن يعرف الطفل منذ البدء ما له من مواهب . وأن نشعره بالحاجة الى إستخدامها » أي ان أول ما يجب أن يفكر فيه الطفل هو التحليل النفسي ومعنى هذا أن كوندياك لا يريدنا أن نعمل على ان يكون الطفل يقظاً بل يريد أن نبدأ بافهامه ما هي اليقظة !

والخطأ في هذا ظاهر . اذ كيف نفكر في أن نجعل من الطفل عالماً نفسانيًّا صغيراً وان تكون دراسة علم النفس الخطوة الاولى في التربية . أن هذا العلم «هو اكثر العلوم دقة وأصلحها لختام مختلف الدراسات وتتويجها » ؟...

﴿ ضرورة التباحث مع الطفل ﴾ كان روسو قد انتقد فكرة لوك في وجوب « ان نتباحث مع الطفل وان نعمل على أن يستخدم عقله » . فاراد كوندياك أن يرفع من شأن هذه الفكرة ويعيد ثقة الناس بصحتها فقال . « اني اعتقد أن ملكة استخدام العقل تنمو بنمو الحواس. وعلى ذلك فكما أننا نستطيع أن نستخدم حواسنا منذ الطفولة فاننا نستطيع استخدام عقولنا ايضاً منذ هذه السن »

وأساس خطإ كوندياك في هذه الفكرة أنه لا يعترف للملكات الفكرية بطابع خاص بل يقول بان مصدرها جميعاً الحواس . وعلى ذلك فهو لا يفرق بين الاحساس المجرد وبين عملية استخدام العقل . وليس هناك بين المفكرين من وافق كوندياك على قوله « بان موهبة الطفل في الفهم لا تقل عن موهبة الرجل الكامل » وكل ما هنالك ان للطفل منطقاً غريزيًّا يساعده على إمكان البدء في استعمال عقله . ولكن هذا الاستعمال الطفلي لا يمكن أن يطبق الاَّ على ما ألفه الطفل من

الاشياء المحسوسة الملموسة . ومن الخطأ ان نحاول توجيهه الى إستخدام عقله في تمييز الاشياء العامة المجردة أو الحكم عليها

﴿ دروس مبدئية ﴾ ونحن نلخص هنا التعاليم الاولى التي يعطيها كوندياك لتلميذه تحت عنوان « دروس مبدئية » وعناصرها هي : ١ً : طبيعة الافكار : ٢ً : عمليات النفس : ٣ً : العادات : ٤ً : التمييز بين الروح والجسد : ٥ً معرفة الاله

يعجب كل رجال التربيه كيف فكر كوندياك في وضع هذه النظريات الفلسفية العالية في متناول طفل في السابعة من عمره لما يدرس بعد قواعد النحو والصرف في لغته !.. ومهما اكد لنا كوندياك صحة رأيه فليس من شك في ان خير ما يعرض على الطفل في هذه السن هو بعض الخرافات النافعة وبعض الاقاصيص التاريخية اذا امكن . ويدعي كوندياك انهُ بعد ان علم تلميذه كيف يدرس الطفولة ويفكر في خواصها وجد انها قد تكون أسهل ما يمكن ان يدرسه الطفل من الموضوعات واكثرها اثارة لحب الاستطلاع عنده !! . . .

﴿ فن التفكير ﴾ فاذا نضج عقل الطفل بفضل ما درسهُ من تحليل نفساني وآراء عامة في التقدم البشري أصبح في نظر كوندياك صالحاً لان يدخل مدرسة عادية يسير فيها بحسب نظام الدراسة العادي. وهنا نجد لكوندياك بعض الآراء المقبولة . فقد كتب يقول مثلاً : «ان دراسة قواعد النحو والصرف مجهدة اكثر منها نافعة اذا لقنت للطفل منذ نعومة أظفاره » . ولعلَّ من أغرب الغرائب أن يكون هذا هو رأي كوندياك في قواعد النحو والصرف وهو الذي يعتقد ان دراسة نظريات علم النفس في متناول الاطفال ! . . .

ويريد كوندياك ان يبدأ تلميذه بقراءة الشعر (الفرنسي طبعاً) ويفضل المؤلفين المسرحيين وخاصة راسين ويقول في ذلك « ان على الطفل أن يجيد معرفة اللغة اولاً ولا بأس من أن يدرس القواعد المجردة بعد ذلك » . وقد كتب كوندياك نفسه مؤلفاً في قواعد النحو والصرف عنوانه « فن الكلام » . ونصح تلميذه بقراءة ثلاثة من كتبه الاخرى وهي « فن الكتابة او البلاغة » و « فن استخدام العقل او المنطق » وأخيراً « فن التفكير » . وقد اصبحت هذه المؤلفات قديمة على الرغم من ان فيها فصولاً ممتعة للغاية وقد عني كوندياك في كتابتها بتنسيق الافكار اكثر من عنايته بتنميق الاسلوب

﴿ اجزاء اخرى من كتاب « دراسات » ﴾ . يظهر ان غرض كوندياك الوحيد هوَ ان يجعل من تلميذه رجلاً مفكراً . وعلى ذلك فهو لا يريد ان يبدأ تلميذه دراسة اللغة اللاتينية الاَّ بعد ان يتكوَّن ذكاؤه بحيث لا يجد في هذه الدراسة الاَّ صعوبة واحدة هي صعوبة حفظ الكلمات . وكوندياك لا يستسيغ كثيراً اللغات القديمة . ولا يرى ان لمعرفتها شأناً جوهريًّا .

وهو يريد استبعاد اللغة اليونانية تماماً . ولكنه يعلّق شأناً عظيماً على الدراسات التاريخية ويقول في هذا الصدد عن تلميذه حفيد لويس الخامس عشر : « بعد ان عرف الامير كيف يفكر اصبح غرضه الاساسي الالمام بالتاريخ »

﴿ التفكير الشخصي ﴾ عرف كونديلك مكانة التفكير الشخصي ومهامهُ .فوضع كفاءة الحكم على الامور فوق قوة الذاكرة . وقد يكون فيما سنذكره من كلام كونديلك ما يرفع من قيمته كمربٍّ بعد ما وجهناهُ اليه من نقد كثير

يقول كونديلك : قد يكون للتربية التي يقصد بها تثقيف الذاكرة نتائج باهرة . ولكن هذه النتائج لا تدوم الاّ مدة الطفولة . وكل من لم يحفظ الاّ عن ظهر قلب جاهل . ومن لم يتعلم كيف يفكر لا يعد متعلماً او هو نصف متعلم وهذا اقبح بكثير » . ويقول ايضاً : « لا تكون المعلومات نافعة الاّ اذا كانت ثمرة من ثمرات التفكير . ونحن نعرف الاشياء التي نستطيع ان نذكرها عند الحاجة معرفة اتمّ من تلك التي لا نستطيع ان نذكرها اذا اردنا . وعلى ذلك فلا يكفي ان نزوّد الطفل بالمعلومات بل يجب ان نتركه يبحث وينقب بنفسه ليعلّم نفسه بنفسه . وان مسئلة ارشاد الطفل لهي اهم المسائل . فاذا كان ارشادنا له منتظماً تكوّنت عنده آراء صحيحة وتمكن من فهم نتائجها وعلاقة بعضها ببعض »

ويخرج كونديلك من كل ذلك بأن تربية الرجل نفسهُ بنفسه افضل كثيراً من تربية الغير له

﴿ نقده للاسراف في التعبد ﴾ وقد كتب كونديلك صفحات رائعة ضمنها نصائحه لتلميذه الامير محذراً اياه من الاسراف في التعبد . ونحن نكتفي بأن نذكر منها هذه الكلمات : «مولاي حذار من الاسراف في التعبد . فان من شأن التدين الاعمى ان يصرفك عما يجب عليك القيام بهِ من الفروض الدينية . واياك ان تصلي دائماً لمجرد ان الصلاة واجبة . واعلم ان القساوسة سيمتدحون ترددكَ على الكنائس لتنتهي بأن تحل محلهم ويحلّوا محلك »

ديدرو

﴿ ديدرو (١٧١٣—١٧٨٤) ﴾ مؤلفات ديدرو خيالية اباحية في بعض الاحيان . وقد يدهش من لم يقرأ له الاّ هذا النوع من المؤلفات ان يرى اسمه بين اسماء المربين . ولكن هذه الدهشة لا تلبث ان تزول اذا ذكرنا ان ديدرو كان كثير التنقل في ابحاثه يحب ان يجدد مواضعها . فبينما تجد له دراسات دسمة مجهدة . تجد له ايضاً دراسات اخرى سهلة مسلية

﴿ مؤلفاته في التربية ﴾ وعلى اي حال فليس هناك محل للريب . فقد اهتمّ ديدرو بمسائل التربية فعلاً ووضع كتابين فيها اولها في عام ١٧٦٣ وعنوانه « تفنيد كتاب هلفيتيوس عن

الانسان » وثانيهما في عام ١٧٦٦ وعنوانه « برنامج الجامعة » وهو الكتاب الذي وضعه تلبية لطلب كاترين الثانية وضمنه برنامجاً كاملاً للتعليم

﴿ صفاته كمربٍّ ﴾ لم يكن لديدرو الشخصية الطبيعية التي تسمح له بأن يكون مربياً كاملاً ولكن رجاحة عقله وميزاته الاخرى الطبيعي منها والمكتسب جعلته محلاً لثقة كاترين الثانية تلك الثقة التي ظهرت في تكليفه وضع برنامج لتنظيم تعليم الشعب الروسي

وديدرو الى جانب ذلك مفكر عالم متمكن في شتى العلوم . وقد عرف بشغفه العظيم بالآداب وظهر هذا الشغف في اشتراكه في اعمال « الموسوعة » الفرنسية . كما انه كان شديد التعلق بشكسبير وبالنظم الحديث ولكنه كان في الوقت نفسه شديد الميل الى الآداب القديمة النموذجية حتى لقد قيل ان قراءة اغاني هوميروس كانت في نظره كترتيل الصلوات في نظر القساوسة

﴿ ضرورة التعليم ﴾ ويمتاز ديدرو عن معظم معاصريه وعن روسو نفسه بعقيدته الراسخة في اثر التعليم من الوجهة الخلقية فهو يقول : « ان التعليم يرقق الاخلاق ويساعد الانسان على فهم واجبه فهماً صحيحاً . وهو يقضي على الرذائل او يخفيها » . ويستنتج ديدرو من ذلك ان التعليم ضروري للجميع لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير . ونادى ديدرو بضرورة فتح ابواب المدارس لجميع الاطفال على ان يتعلموا فيها القراءة والكتابة والحساب وتعاليم الدين المتعلقة بالاخلاق والسياسة بل انه طالب بأن يكون التعليم اجبارياً ومجانياً بحيث « يجد الطفل في مدرسته خبزاً لتغذيته بجانب ما يجده من كتب لتعليمه »

﴿ فكرة التعليم العام ﴾ وكان رأي ديدرو ان يعهد للدولة في ادارة شؤون التعليم . ويقول ان هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يصبح بها نظام التعليم مستنداً الى اساس قوي متين . وكان مثله الاعلى ان يترأس الجامعة رجل من رجال الدولة يعهد اليه في شؤون التعليم العام بأسرها على ان يهيمن بنفسه على الامتحانات ويعين نظار المدارس ويفصل الطلبة والاساتذة والمدرسين

﴿ نقد معاهد العلم الفرنسية ﴾ وكانت المدارس الثانوية تسمى اذ ذاك كليات الفنون . وقد وجه ديدرو اكبر قسط من اهتمامه الى نقد الطرق المتبعة فيها . واليك شيئاً من هذا النقد : « لا يزال رجال التعليم يدرسون في كلية الفنون ما يسمونه الآداب الجميلة وليست هذه الآداب الا لغتين ميتتين لا ينتفع بدراستهما الا عدد قليل من الافراد . والاغرب من هذا أنهما تدرّسان ستة أو سبعة أعوام من دون أن يصل الطالب إلى اتقان إحداهما . ويدرسون أيضاً البلاغة وهي فن الكلام قبل تدريس فن التفكير أي أنهم يحاولون تعليم التلاميذ طرق تنميق العبارة قبل أن يفكروا في تزويدهم بالآراء الصحيحة . ولا يزالون يدرسون المنطق ويرغمون الطلبة على أن يحشوا رؤوسهم بدقائق فن أرسطو ونظريته في الاستنتاج التي لا فائدة منها بتاتاً . ولا يزالون يدرسون

الاخلاق . ولا أعرف بالضبط ما يقولونهُ للطلبة عنها . ولكنني أعرف أنهم لا يقولون كلمة واحدة عن ملكات القلب والعقل وصفاتهما . ويدرسون أيضاً ما يسمونهُ علم ما وراء الطبيعة فيثيرون بذلك في رؤوس الطلبة مسائل تحوطها الاشواك ولا تؤدي دراستها إلاَّ إلى التشكك والتعصب . ويدرسون علم الطبيعة فيعثرون جهودهم في مناقشات عن المادة . يدرسون كل ذلك ولكنهم لا يقولون كلمة عن التاريخ الطبيعي ولا عن الكيمياء ولا يذكرون إلاَّ بضع كلمات عن علم وظائف الاعضاء وتجارب الاجيال السالفة والجغرافيا

***

﴿ الاصلاحات التي يقترحها ديدرو ﴾ وبعد أن وجه ديدرو كل هذه الانتقادات الى التعليم في أيامه أخذ يشرح مايقترحه هو من أصلاحات . فجاء بعضها معقولاً والبعض الآخر خاطئاً

كان لديدرو رأي — أخذه عنهُ فيما بعد أوجست كونت والمدرسة الواقعية — وهو أنهُ يجب أن نربط العلوم ونرتبها بحيث يكون كل علم قائماً على أساس ما سبقه من العلوم ويسهل في الوقت نفسه دراسة العلم الذي يعقبه على أن يكون رائدنا في هذا الترتيب فائدة كل علم بالقياس الى الآخر. ولقد وزع ديدرو الدراسات المدرسية على أساس هذه الفكرة وهو يقول أن ترتيب العلوم من وجهة التربية يختلف عن ترتيبها المنطقي . وذلك لان الاتصال الطبيعي لعلم من العلوم بالعلوم الاخرى يعين له مكاناً خاصًّا يختلف عن المكان الذي يجب ان يشغله للفائدة التعليمية التي تعود من وجوده في هذا المكان

ولكن ديدرو ينسى أنهُ في توزيع الدراسات لا يجب الأخذ بمبدأ الفائدة التعليمية فحسب بل المهم أن نرتب العلوم بحيث تتفق وتقدم سن الطفل ونمو استعداده الذهني

﴿ تفضيل ديدرو للعلوم ﴾ وعلى الرغم من أن شغف ديدرو بالعلوم لم يكن اكبر من شغفه بالآداب الاَّ أنهُ لم يعط للتربية الأدبية ما أعطاه للتربية العلمية من الشأن . وقد أخذ بهذا المبدأ بعده كوندوريسيه وأوجست كونت . وديدرو يفضل العلوم الى حد أنه يخصص الخمسة الاعوام الاولى للدراسة في كلية الفنون لتعلم الرياضيات والميكانيا وعلم الفلك والطبيعة والكيمياء . ويترك ثلاثة الاعوام الباقية لدراسة النحو والصرف واللغات القديمة

ويقول أحد علماء التربية أن خطأ ديدرو في هذا الرأي لا يقتصر على أنه غض كثيراً من قدر الآداب وانتقص من قيمتها بل انهُ وزع الدراسات العلمية نفسها توزيعاً خاطئاً فوضع الرياضيات قبل الطبيعة واعتبر دراسة الجبر اسهل من تعلم القراءة . وانه من الخطل ان نجهد انتباه الطفل بارغامه على دراسة مسائل عديدة مبهمة مجردة تاركين بذلك حواسه من دون عمل . وأن نرجىء الى ما بعد ذلك دراسة التاريخ الطبيعي والطبيعة العملية وهي الدراسات التي توافق

الاطفال باعتراف ديدرو نفسه فهو يقول عنها أنها تمرين مستمر لحواس النظر والشم والذوق كما أنها تمرين نافع للذاكرة

ولا يكفي لاغتفار خطأ ديدرو أن نعرف أنه يتكلم عن طلبة كلية الفنون وهم طلبة في سن الثانية عشر إذ أنه لا ريب في أن عقل الطالب في هذه السن ليس من النضوج بحيث يستطيع أن ينصرف تماماً ستة أعوام أو سبعة لدراسة استنتاجات العلوم الرياضية الباردة

﴿ رأيه في ماهية الآداب ﴾ وموقف ديدرو من الآداب القديمة مدهش حقاً فبينما تراه يرجيء دراسة هذه الآداب إلى سن التاسعة عشرة او العشرين ولا يخصص لها في هذه السن إلاَّ عاماً واحداً نجده يتكلم عن القدماء وخاصة عن هوميروس في حماسة شديدة غريبة فيقول مثلاً « ان هوميروس استاذ عظيم أدين له بكل ما لي من قيمة ان كان لي قيمة . وان دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية هي السبيل الى اكتساب سلامة الذوق »

فكيف نفسر هذا التناقض الغريب في موقف ديدرو ؟ هناك من المؤلفين من يقول بأن ديدرو كان يعتقد ان الآداب الجميلة لا تصلح الاَّ لتكوين الخطباء والشعراء وانها لا تصلح لانماء ملكات الفكر . ولما كانت هذه الدراسات نوعاً من الزخرف فهي لا توافق الاَّ اقلية صغيرة من الطلاب ولا يمكن لهذا السبب أن تسبق دراسات الغرض منها التربية العامة للناس جميعاً ويقول آخرون ان ديدرو كان يجهل ان هاتين اللغتين اداة عجيبة للتمرين العقلي وانهما اضمن الوسائل واكثرها سهولة لاكتساب صفات الدقة والوضوح وصحة الحكم وهي صفات لازمة لكل اعمال الحياة

***

﴿ رأي مارمونتيل ﴾ ويظهر ان ديدرو كان يعتقد أن دراسة اللغات هي مجرد استذكار مجموعة من الكلمات وانها لذلك لا تصلح الاَّ لتمرين الذاكرة وتقويتها ولكن مارمونتيل وهو أحد معاصري ديدرو الذين لم يصلوا الى مرتبته في النبوغ وجه الى رأيه هذا نقداً مرًّا وكان اصوب منهُ في الحكم على فائدة دراسة اللغات عند الصغر . فقد قال :

ان عملية انتقاء الكلمات واستعمالها ، تلك العملية التي نقوم بها اثناء النقل من لغة الى أخرى ليست تمريناً مفيداً للذاكرة فحسب وإنما هي عملية تقتضي تحليل الافكار . وان دراسة اللغات هي دراسة لفن تمييز الفروق الضئيلة بين الافكار وتجزئة هذه الافكار لفهم دقائقها والعلاقة بينها وان حفظ كلمات جديدة من لغة اجنبية ليصحبه دائماً اكتساب آراء جديدة ولذلك فانني اعتقد أن تلاميذ السنين الاولى الذين يدرسون اللغتين اليونانية واللاتينية يتعلمون في نفس الوقت مبادىء في الفلسفة أعظم ثروة واكثر اتساعاً وفائدة مما يتصوَّر الانسان

سياحة
الى باطن النجوم

لفخري معلوف
دائرة العلوم الطبيعية بجامعة بيروت الاميركية

قد يعجب القارىء الكريم، اذا لم يكن ملمًّا بعلم الفلك، من نصّ هذا الموضوع. وكأني به يقول، ما عسى هذا الكاتب ان يحدّثنا عن داخل النجوم، أتراه يطلق لخياله العنان فيطلع علينا بملحمة شعرية تصف لنا ما في بواطن الاجرام من اهوال، طمعاً في ان يحل من الخلود محلّ ملتن او دانتي او المعرّي. والاَّ فكيف له ان يزعم الحصانة العلمية في مثل هذا البحث وهو يتناول بقعة من الكون هي اقصى ما يكون عن عالم الحس والادراك المباشر

مهلاً ايها القارىء العزيز، فقد تقتنع قبل ان نأتي على آخر المقال، بان هذا الموضوع ليس بغريب عن عالم البحوث العلمية في محاولة اصحابها استجلاء غوامض الكون. وسترى فيه عمل الخيال في فرض ما يمكن ان يكون عليه باطن النجوم، ثم ترى عمل الفكر الاستنتاجي في تتبع ما يجب ان ينتج حتماً فيما لو صحت النظريات ومتابعة هذا الاستنتاج الى ان يتصل بعالم الحس والادراك المباشر، وكذلك نرى النظرية التي كانت من قبل مختبئة تحت حجب لا تخترق، ماثلة امام محكمة الاختبار، المحكمة التي لا يقر العلم سواها

***

﴿ كيف ندرس النجوم ﴾ كانا يعلم ان نور الشمس عند ما ينكسر في منشور زجاجي، ينحلّ الى ألوان قوس قزح. وسبب ذلك هو ان النور الابيض مزيج من ألوان مختلفة. واختلاف الالوان معناه اختلاف موجات النور التي تحدث تلك الالوان. ولما كانت زاوية الانكسار تتوقف على طول موجة النور المنكسر. فالالوان المختلفة تنكسر على زوايا مختلفة فيقع أطولها، وهو الاحمر، على جانب وأقصرها، وهو البنفسجي على الجانب الآخر، وتتدرّج بقية الالوان بينهما. وقد اصطلح العلماء على تسمية مجموعة هذه الالوان بالطيف

على انا لو فحصنا طيف الشمس فحصاً دقيقاً لوجدناه غير مستمر كما يبدو لاوّل وهلة ،وانما تقطعهُ خطوط سود دلالة على ان هنالك موجات ذوات أطوال معينة لم يمكنها ان تتخلص من جو الشمس اذ امتصّتها بعض المواد التي هناك . فكل خط اسود معناه موجة مفقودة وكل موجة مفقودة دلالة على مادة معينة موجودة في فلك الشمس . ولما كان من الامور اليسيرة في المختبر معرفة الموجات التي يمتصها كل عنصر ،تمكن العلماء من تعيين العناصر التي يتألف منها جو الشمس بواسطة الخطوط السود في طيفها . وكذلك تمكنوا من تعيين المواد الموجودة في اجواء النجوم بدرس اطيافها

لا يكفي ان تبوح هذه الاطياف بسرّ المواد التي تتألف منها اجواء النجوم ولكنها تفشي لنا اسراراً اخرى لا تقل عنها شأناً : من ذلك انها تخبرنا عن شدة الحرارة في سطوح هذه الاجرام . واليك كيفية ذلك : اذا أحمينا قطعة من الحديد على النار ارتفعت حرارتها حتى تصل الى درجة الاشعاع . اذ ذاك نرى نوراً احمر منبثقاً من الحديدة فاذا مضينا في احمائها رأينا ذلك النور يميل الى الابيض فالى الازرق . هذه التجربة البسيطة ترينا ان هناك علاقة بين حرارة الاجسام وبين لون النور المنبثق منها ، ولذلك يتمكن مراقب القبة الزرقاء بالعين المجرّدة من التمييز بين النجوم من حيث الحرارة ، فكلما مالت النجمة الى الاحمرار كانت اقرب الى البرودة وكلما مالت الى الزرقة دلّ ذلك على شدة حرارتها . على اننا لو اردنا ان نجري هذه التجربة بدقة لحللنا النور المنبثق من الحديدة الى طيفهِ ولوجدناه يقتصر في بادىء الامر على الاحمر فقط ثم كلما ارتفعت الحرارة اتسع الطيف وظهرت فيهِ الموجات الصغيرة بالتتابع . فدرس الطيف اذن يمكننا من تحديد درجة الحرارة في الجسم المشع

ترى اذن ايها القارىء الكريم كيف ان هذه الاشعاعات الضئيلة التي يحملها لنا الاثير من الاجرام القصية تحمل رسالات بينة لقوم يعقلون . ولقد اصبح تحليل الاطياف ودرسها (Spectroscopy) علماً قائماً بذاته

اطلت الشرح قليلاً في هذه المسألة على الرغم من كونها لا تتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع البحث وما ذلك الاّ على امل ان أفوز بثقة المطالع بالابحاث الفلكية فلا يحسبها كما يفعل الكثيرون مجرّد تخيلات وافتراضات . بل يرى كيف انها تقوم على اختبارات حسية لا تدع مجالاً فسيحاً للريب . على ان الرجوع بكل المسائل الى جذورها كما فعلت بهذه يجعل من مقالتنا كتاباً جسيماً . ولذلك سأقتصر في اغلب الاحيان على ذكر النتائج رأساً

لا أخالك تعجب بعد الآن اذا اخبرتك ان عالِم الفلك يمكنهُ ان يعيّن حرارة اي نجم تراه بدقة يعجز عنها الطبيب في تعيين حرارة عليله . ولو اتسع امامي المجال لأقنعتك ايضاً انهُ بواسطة

نظرية نيوتن في الجاذبية تمكّن العلماء من تعيين اثقال عدد كبير من النجوم بدقة يعجز عنها ميزان العطار . ثم انهُ بمعرفة مقدار الطاقة المنبثقة من النجم مع معرفة الحرارة على سطحه يمكن تعيين حجم ذلك النجم . وبمعرفة الحجم والثقل لجرم واحد يتعيّن معدّل كثافة المادة في ذلك الجرم

***

﴿ ماذا نعرف عن النجوم ﴾ يعتقد العلماء ان النجوم تتألف من ذات العناصر التي تتألف منها الشمس . على ان النظام الذري الذي هو اساس اختلاف العناصر المعروفة على الارض ، لا يثبت في ظروف الضغط والحرارة في باطن النجوم ، بل ان الذرّة تتفكك الى اجزائها فتستقل كل واحدة منها بحركتها . وهذا يعرف بفعل التأيُّن (Ionization) وقد كان من نتيجة ذلك ان العناصر الثقيلة لا تظهر في النجوم الحارة ولكنها تبدأ بالظهور المتتابع كلما مال النجم الى البرودة . فلو اقتطعنا قطعة من اي نجم كان وتركناها تبرد حتى تصل الى حرارة الارض لكان لنا منها مواد لا تختلف عن عناصر الارض في شيء

ولقد ادّى درس خصائص النجوم من مثل اثقالها وحراراتها وكثافاتها الى نتائج لا تخلو من غرابة كما انها تبعث على التفكير في ما عسى ان تكون اسبابها . من ذلك ان هذه الخصائص لا تتصل بالنجوم الاّ في آماد معيّنة ولتبيان وجه الغرابة في ذلك لا بدَّ لنا من مثال يقربها من مدركاتنا المألوفة . لو سألناك عن مدى احجام الحجارة لما رأيت لسؤالنا معنى . وذلك لان الحجارة ذات احجام لا ضابط لها نعرفهُ لتناهيها في الكبر او الصغر . فيمكننا ان نجد حجراً ، او على الاقل نتخيّله ، من اي حجم كان . اما لو كان غير ذلك اي لو ان الحجارة لا تكون الاّ بحجم لا يصغر البندقة ولا يكبر البرتقالة لكان هنالك مجال للسؤال عن سبب هذا الانحصار ولكنا نبحث عنهُ في نواميس الطبيعة . على ان هذا الحظ ان فاتنا في الحجارة فهو لم يفتنا في امر النجوم فانها ذوات آماد معيّنة لا تتعدّاها من حيث الثقل والحجم وشدّة الحرارة وشدّة اللمعان

ثم ان العلماء اكتشفوا علاقات بين هذه الخصائص مما يدل على النواميس الصريحة التي تقيد النجمة في تطوّرها وتحفز بالباحث الى استجلاء تلك النواميس . واليك مثلاً على ما نعني بهذه العلاقات . انا نعلم ان هنالك نجوماً عديدة حرارة سطحها حوالي ٥٠٠٠ درجة مئوية (سنتغراد) ونعلم ايضاً ان هنالك نجوماً عديدة لها عشرة اضعاف قطر الشمس ولكننا لا نعرف نجمة واحدة لها هاتان الخاصتان معاً . مثل هذه الموافقات لا يمكن ان تنسب الى الصدف وانما هي من المعالم التي تهدينا الى حقيقة النجوم وطريقة تكوينها

ثم ان هنالك احداثاً غريبة نعرفها في عالم النجوم . من ذلك نجوم ذات لمعان متغيّر يتضاءل نورها ثم يتزايد وهي تسير في تغيّرها على نمط واحد وفي مدّة ثابتة لا تتغيّر مما يدعو العالم المفكّر

الى السؤال عن سبب قلق هذه النجوم واذا توفـق الى الجواب عاد يسأل عن سبب ثبات النجوم الاخرى وعدم تغيّرها . وهناك نجوم اخرى تكون الواحدة منها في باديء امرها ضئيلة غاية في الضآلة تكاد لا تدرك بأعظم المراقب واذا بها تتحوّل فجأة الى نجمة من اشد نجوم السماء لمعاناً فكأن انفجاراً هائلاً حدث فيها وتبعه انهمار غير عادي من الطاقة المحرَّرة . هذا ايضاً من الاحداث الفلكية التي تنتظر حلاً في نظريَّات العلماء عن تكوّن باطن النجوم

عساك تدرك الآن ايها القاريء العزيز، بعد انعام النظر في ما مضى ان بحثنا في تكوّن بواطن النجوم ليس من نوع التخيّلات الشعريّة التي لا تدحض ولا تؤيد، بل ان نظريّة يمكنها ان تعلل لنا سبب اختيار النجوم للآماد المحدودة التي تختص بها من حيث الثقل والحجم وشدّة الحرارة وشدّة اللمعان ، وتظهر لنا علاقات هذه الخصائص بعضها ببعض منطبقة على ما نعرفهُ عنها بالمشاهدة ، وتطلعنا على اسباب الاحداث التي تعرض للنجمة في بعض اطوارها — اقول ان مثل هذه النظريّة لا يمكن ان تكون خلواً من بعض انوار الحقيقة

***

﴿ نظرية ان النجوم كتل غازية ﴾ يقدّر العلماء وزن الشعاع الذي يترك سطح الشمس (والشمس احدى النجوم العاديّة) في الثانية الواحدة بأربعة ملايين من الاطنان، هذا المقدار الهائل من الطاقة يفلت من سطح الشمس وينطلق في الفضاء موجات كهرطيسية بسرعة ثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية . على ان هذه الاشعاعات لا تتكوّن على وجه الشمس كما يبدو لاوّل وهلة ولكنها تولّد اوّلاً في الاعماق السحيقة ولا بدَّ لها قبل تحرّرها النهائي من صرف بضع مئات من السنين في عراك مستمر مع جزيئات المادة التي تكوّن جسم النجمة . فبينا نراها منطلقة في اتجاه معيَّن اذا بها تصطدم بذرّة من ذرّات المادة تمتصها وتسيرها ثم يحدث ما يجعلها تنفلت ثانية من قيد هذه الذرة لتسير الى مغامرة ثانية . مثل هذا التصادم قد يحدث لها الف مرة في $\frac{1}{(10)^{10}}$ من الثانية ويستمر مدة لا تقل عن بضع مئات من السنين ولا ينتهي الاّ بأن تصل هذه الموجة صدفة الى سطح الشمس فتنطلق بسلام الى اللانهاية ما لم تقع في قبضة جرم آخر كالارض مثلاً وهذا نادر جدًّا

واذا ذكرنا ان موجات النور وما شاكلها من الامواج الكهرطيسية ، تحدث ضغطاً في جهة اتجاهها وان هذا الضغط ، وان يكن زهيداً بالقياس الى مقادير الشعاع الضئيلة التي نضطر الى قياسه بها عند سطح الارض فانه متى بلغ تلك المقادير الهائلة في النجوم كما ذكرنا يصبح ذا

شأن لا يستهان به ، بل انه بحسب نظرية ادنغتن Eddington من العوامل الرئيسية في تكوّن النجوم على ما هي عليه

في مقدمة الذين بحثوا امر تكوّن النجوم الفلكي الشهير لاين (Lane) الذي نشر بحثه سنة ١٨٧٠ فقد عالج لاين النجمة على انها كتلة غازية ولكن في زمانه لم يكن يعرف نجوم لها كثافة تتلاءم مع الكثافات التي نعرفها للغازات . فمعدل كثافة الشمس مثلاً ١٫٤ غرام للسنتمتر المكعب اي اكثر من كثافة الماء بأربعين في المائة. ولذلك نظر العلماء الى ابحاث لاين على انها ذات شأن نظري ولكنها لا تنطبق على الواقع . غير انه بعد زمن لاين اكتشفت نجوم ذات كثافات غازية بل ان منها ما تبلغ به اللطافة الى حد هو اقرب الى الفراغ المطلق من اي فراغ يمكن احداثه على سطح الارض . مثل هذه الاكتشافات شجعت الباحثين الحديثين على درس الكتل الغازية ثقةً منهم ان مثل هذا الدرس ان لم ينطبق على جميع النجوم فهو ولا شك منطبق على بعضها

نساير أدنغتن في تفكيره . فهو يفرض كتلة غازية كروية الشكل ويأخذ طبقة كروية من هذه الكتلة على بعد معين من مركزها . في النجوم العادية ذوات الاحجام الثابتة تظل هذه الطبقة على حالها دون تقلص او تمدد مما يدل على ان القوى المختلفة التي تعمل عليها انما هي في توازن . ما هي تلك القوى ؟ هنالك اولاً قوة الجذب المركزية التي لو تركت لتعمل وحدها لاحدثت تقلص الكتلة وبدّدت كيانها . وهنالك قوة الدفع الناتجة عن مجرى الاشعة وهي اشبه شيء بريح عاصفة في قلب النجمة . وهي لو تركت لتعمل وحدها لنثرت النجمة في الفضاء اللامتناهي ولبدّدت كيانها كذلك . وهناك اخيراً قوة الضغط الغازية في داخل النجمة وهذه ايضاً لو تركت لتعمل وحدها لادت بالنجمة الى الانتشار اللامتناهي . اذن فالنجمة الغازية ليست غير توازن بين هذه القوى

وضع ادنغتن المعادلات التي تمثل توازن هذه القوى وتابع نتائجها الرياضية فأدت به الى ناموس يربط شدة لمعان النجمة بكتلتها او بمقدار المادة المتجمعة فيها . وقد عزّز الاختبار نتيجة هذه المعادلات فان النجوم اللطيفة وجدت مؤيدة لهذه العلاقة بين الكتلة وشدة اللمعان

وقد احبّ ادنغتن ان يختبر مقدار شذوذ النجوم ذوات الكثافات العظيمة عن هذا الناموس الغازي (العلاقة بين الكتلة وشدة اللمعان) فكانت النتيجة المدهشة ، وذلك ان كل النجوم العادية كائنة كثافاتها ما كانت لا تحيد عن ذلك الناموس . ما عسى هذا ان يعني ؟ أيمكن ان تكون النجوم ذوات الكثافات المعدنية غازية في تصرفاتها ؟ هذا ما سنتناوله في مقال تال ان شاء الله

خيري

الشاعر والفنان

لحليم متري

أدركه الموت منذ أسابيع في لبنان رحمة الله عليه

لم يستطع أن يغالب الموت وان يظفر من الحياة بالشفاء . بل استبطأه الموت حيناً ، يوم اعتزم الرحيل الى لبنان ، فترك مصر معتلاً ليأخذ حظه من الصحة والنشاط . فاذا استقرّ هناك عاد اليه هذا الشبح المخيف متقدماً نحوه رويداً رويداً ، منتهزاً فرصة كهذه الفرص التي ينتهزها الماكرون . فاذا ألحت عليه العلة وضعف الامل في الشفاء ، فقد جثم الموت على فريسته وعاد كأنهُ لم يشعر أحداً بسوءٍ ولم يختطف من المصريين شاعر الفرنسية الموهوب وفنان الموسيقى البارع الذي عرفتهُ فرنسا ومجدتهُ قبل أن يذيع اسمهُ في وادي النيل

أردت أن أدعوه كما أحب وكما كان يفرض اسمهُ على أصحابهِ من الادباء والفنانين فرضاً . كان رحمهُ الله قوي النفس والشعور ذكي القلب في عينيهِ هذا البريق الذي يدل على عبقرية الفنان. اذا تأملتهُ تصورت شباباً زاخراً بالحياة مليئاً بالقوة . واذا ما جلست اليهِ لمحت وجهاً يفيض احساساً بالوجود واستقصاءً لمكنوناته وانك لتحكم عليهِ للنظرة الاولى بانهُ شاعر او فنان وانهُ لابدّ وان يمت للادب بصلة . يتحدث اليك في رفق ولين . تحس حديثه عذباً حلواً فيهِ هذه الجوانب التي تحبب للسامع الاسترسال والتعمق والرقة والتي كانت تتيح للشاعر ألواناً متباينة من الآراء والخواطر

نشأ الشاعر خيري في جوّ اريستوقراطي من هذه الاجواء المشبعة بالتقاليد فظلّ طيلة حياتهِ محافظاً شديد الحرص على التقاليد الاجتماعية . على انهُ في نزعاتهِ العامة كان يكره هذا النوع من المحافظة . وكان يمج هذا الضرب من الاريستوقراطية . كانت هذه المحافظة تنتسب اليهِ ويشاءُ هو ألاّ ينتسب اليها. كان اذن ديموقراطياً بل حرّاً الى أقصى حدود الحرية. لم تجنِ الاريستوقراطية

على حياته فتفسدها . وانما كانت الاريستوقراطية عوناً للشاعر على هذه العزلة التي يجنح اليها بعض الشعراء والأدباء

نشأ خيري إذاً في هذا الجو فأرسله ذووه في حداثته الى المدارس الفرنسية فشب وهو مولع باللغة الفرنسية والأدب الفرنسي . وكان يقبل الى هذه المجالس الأدبية التي كانت تعقد في دار أبيه . وهناك تعرّف بالشاعر المصري المجيد « اسمعيل صبري » الذي كان يتبادل واياه أحاديث الأدب والشعر . ثم تشوّق الى معرفة أديب الفرنسية المصري وشاعرها الامير « حيدر فاضل » وكثيراً ما دعاه الأمير الى قصره ، فتوطدت بينهما هذه المعرفة التي قامت على الأدب . وهكذا بدأ شاعرنا — خيري — في شبابه الأول يدرس شؤون الأدب ويستوعب حياة الشعراء والأعلام ويغشى المجتمعات الأدبية التي تضم طوائف مختلفة من الناس ليشهدوا كل ما يُطرق فيها من موضوعات الأدب والفن . حتى اذا قدّر له أن يسافر الى باريس قبل الحرب تعرّف بجمهرة الأدباء والشعراء والصحفيين وعاش هناك فترة طويلة نشر في أثنائها كثيراً من نفثات يراعته وانتاج عبقريته شعراً فرنسيًّا عليه هذه المسحة الشرقية الوضاءة بل هذا الطابع المصري القوي . وكان يختلف الى صالونات الأدب والشعر في باريس ينهض بمقارعة أنداده من الشعراء والكتّاب حتى تبينوا هذا الأسلوب « الكلاسيكي » في شعره . وكانت له جماعة كبيرة في يوم من الأيام تتحدث عنه وتشيد بأدبه وكانوا يعنون ببحث خواص شعره وتحديد أسلوبه . فنهم من كان ينقده ومنهم من كان يعجب به . ثم عاد الى مصر بعد ان أصدرت له بعض دور النشر طائفة من دواوينه . فتقبلتها الأوساط الأدبية بالنقد والتقريظ . على أن « خيري » كان من هؤلاء الشعراء الذين تتخطى شاعريتهم أفق مداركهم . فتراهم يصيبون من المعاني الرفيعة ما يقصر عنها جهد الشعراء المفكرين . كان لا يتعمل الشعر ولا يصنعه ولكنه فيض من الشعر الفرنسي يفاض عليه في أسلوب جذاب وفكر موهوب . ولقد كانت تعتلج الصور الرائعة في نفسه، فيخرجها في المعنى العالي واللفظ المختار . فما كانت له اللغة الفرنسية بالشيء الشامس . ولقد ظفر الشعر من « خيري » بهذه المناحي النفسية العميقة التي يحملها عقل الشاعر ونفسه معاً والتي يعرض فيها الشاعر انحاء من التفكير العميق في أبلغ صورة للعاطفة المتقدة . لم يفهم الشاعر من شعره الا هذا التوافق المعنوي في امتزاج عقله بعاطفته . لم ينكر العقل ولم ينكر العاطفة وانما كان العقل في شعره قويًّا فغمض . وكانت العاطفة في شعره قوية جياشة فلم تستدق كما استدق العقل على القارىء وانما استقلت العاطفة بالوضوح . ولقد كان هذا وحده حديث النقاد اذ لم يتفهموا معنى لهذا الغموض . ولم يتعرفوا وجوهه وانما هو بعض ما استوى للشاعر من قوة في الاخراج وابتداع في المعاني . وكثيراً ما تقدم اليه أقطاب من أدباء الفرنسية يسألونه فيمَ هذا النوع من الابهام فكان يُرسل فيهم من بلاغته

ووفرة محصوله ما دعاهم الى الاعتراف بهذا الانتاج الشعري المعنوي وما يضمره من بلاغة رفيعة. ولقد انعقدت بلاغة « خيري » بتمصي ما أوثر في شعره من نسج متلاحم ولفظ منتقى . وجماع القول في هذه الناحية ان شعره يتميز بالتجويد اللفظي يحمّله العقل أخيلة رائعة عميقة المعنى وهذه الشاعرية المصرية الصميمة حفلت بضروب من شدة الفطنة وصفاء الذهن ورهافة الحِس ودقة الذوق

ولقد غلب على شعره هذه الناحية الحزينة الصامتة التي يجلوها الظلام ويكسفها الصباح. . . ولعلك تستطيع ان تلمس هذا الحزن اذا قرأت قطعاً أو ابياتاً من قطع في ديوانه . ولأدُلّك على روعة هذه القطعة التي يقف فيها عند القبور فيطيل الوقوف والتي اسماها « صفصافتي » حيث يستجمع من طبيعة هذه الشجرة درساً بليغاً في فلسفة الأبدية وجلال الفناء . . . وفيها يقول « أما انت اينها الصفصافة الساكنة الكئيبة . المنعزلة البعيدة عن مباهج الحياة المنزوية في ركن الوحدة . فلا يطرق اذنيك سوى تنهدات وأنات اولئك الاحياء الباقين . وزفراتهم المؤلمة المتساقطة من اعماق نفوسهم المتفجرة وهذا النشيد المميت الذي سيودي بك يحيي بحزن اغصانك المنتحبة الباكية فكأنها بهذا التدلي الأبدي تتقبل الآلام المنبعثة من قلوب الاحياء المنفطرة . يا صفصافة دموعنا . يا صديقة متوسدي الثرى قد يكون انحناؤك على اجداث الموتى فوق زهور الراحلين . ذات الاكمام الثلجية . حناناً منك ورأفة فتميلين لتسكبي على تلك الارض الغامرة . شآبيب السلوى . وتفيضي عليها حنانك ورحمتك » . او قطعته الخالدة العظيمة « الانفعالات النفسانية » او قصيدته المتفردة « الأرواح العائدة » التي يقول فيها « ايتها الروح الحائرة . يا روح الأم المتبخر عطفاً . السعيد بهذا العطف . ليسهر في بكائه على ابنه العزيز بغمره بالحب الاموي القوي . الذي لن ينتهي الى حد . انك الروح المحب الذي يعذّبهُ ابداً . ذلك العطف الذي تتساقط اوراقه في قلب تقي لا يعتريه ندم ولا وخز ضمير . أجل ان الارواح تمسُّنا في جوف الليل الهادىء . ولكن في نهارنا الذي يملأهُ النسيان الجنوني الكثير الصخب تتطاير في أغلب الاحيان أعز ذكرى لها . تطاير الرماد تذروه الرياح . فتعفو آثارها متغلغلة في طيات القدر المحتوم » .ولعل هذا الأثر النفسي في شعر « خيري » يرجع الى فقده أمه فكانت صدمة القدر لشعوره باعثاً للألم الممض . نعم ان جمالاً روحيًّا كان فيما مضى يتوج الكائنات قد ذهب الى حيث لا يعود وأحس الشاعر نكراً من الدهر . وتقلباً من الزمن . . . كان عصر الصبا صباحاً عليه الندى نظماً ونثراً فلما جاء الهجير جف الندى وغاض الصباح » . أليست الطبيعة خيالاً .... بل أليس الوجود فناء . تمثل الشاعر امه لذة روحية طواها الدهر واصبحت نصيبهُ منها الذكرى يودعها اشعاره وخلجات نفسه . وكان يكثر من حديث الحزن والألم . بل كان يتخيل احزان الناس واحزانه ويجد لذة وصبراً في هذا .ولقد يقف عند الشعراء البائسين الذين لم يصيبوا حظًّا

خبری

من لذة أومتعة فيقرأ فيهم صفحة من كتاب الحياة الزاخر بالألم والحافل بالرهبة. بل يقرأ فيهم اثرهذا الألم . بل انهُ ليقرأ في حياتهم هذا المعنى العظيم ألا وهو ان المجد يشيد هيكلهُ على القبر ويرفع ناره من رفات الفحول .. ولعلي أرى «خيري» يتحدث بلسان « شلي » القائل« علمتنا الاحزان نظم القصيد فأهدينا للناس في نغمات الشعر ما تلقيناه على ضربات الألم والشقاء »

ظل خيري في مصر الى ان وضعت الحرب اوزارها فتركها الى باريس حيث الجمال والادب والموسيقى وهنالك قابل الشاعر بعض اصحابه من الادباء. وهنالك بدأ شيئاً جديداً من هذه الحياة العقلية الممتعة واستأنف نشاطه الادبي فكان لا يفتر عن وضع شعره وكان يؤم الصالونات الادبية التي حرم منها الادب طوال الحرب حيث تعالج فيها قضايا الادب والفلسفة والفن حيناً وشؤون السياسة احياناً. وقد عرفهُ صالون «ڤالنتين دوسان بوا » وصالون «البرنسيس دي نواي » وغيرهما . وقد كانت هذه الصالونات محطاً لرواد الادب والعلم واصحاب الفنون يقلبون فيه وجوه الرأي ويتباحثون فيما بينهم هذه الابحاث الطويلة المنتجة عن حياتهم العقلية والاجتماعية . وكان الادب في عرف طائفة منهم عرضاً يتكيف ويتكوَّن طوعاً لعقلية الكاتب ومدى ثقافته وشعوره بالحياة . وكان الفن ايضاً عند طائفة منهم عرضاً يتكيف ويتكوَّن بطبيعة ما وهب الفنان من ذوق واحساس والهام . ولقد كان الجدل ينشأ عن هذه النظرات التي يراها الادباء وعن هذه المناحي من الاستنتاجات والعوامل الفكرية المتباينة التي تتناول حظاً غير قليل من تفكيرهم ووقتهم . ثم يذيع هؤلاء الادباء او المفكرون نتائج ابحاثهم في الصحف والمجلات وتنتشر هذه البحوث الضافية هنا وهناك وتزداد الحياة العقلية نشاطاً وانتاجاً واستمرت الحال على هذا النحو الى ان ظهر في باريس عقب الحرب هيئات ادبية ناشئة يتزعمها طائفة من كتّاب الشباب وبعض زعماء الرأي الادبي كما كان يتزعم الشعر ايضاً بعض قادته من الذين اغرم بهم وبادبهم الشباب وفي طليعة هؤلاء القادة الكاتب الشاعر العظيم « پول ڤاليري »

كان ادب هذا الشباب وضعاً جديداً في الحياة الاجتماعية من حيث هي. وقد قام هذا الوضع على ما تخلف عن الحرب من عصف بالاخلاق والتقاليد. فهم الادب والحياة على انهما شر محض وان الفساد الاجتماعي اخص ما يمتاز به الخلق . وفهم الادب والحياة على انهما عناء يراد به السخرية . ليس هنالك مثل اعلى كما يقولون لان النقص الخلقي والنفسي يشرفان على كل شيء وسيخرج الناس من هذه الحياة كما دخلوها لا سبيل لهم في اصلاح ولاسبيل لهم في تدبير لانهم قد لا يستطيعون اصلاحاً او تدبيراً . وانما هي الحياة التي تملك الاصلاح والتدبير معاً . فليطمئن الناس اذن الى هذا الفساد الشامل وليتكافوا الحياة على هذا النحو وليتدبروا شؤونهم على هذا الوجه فقد آن للمجتمع ان يعلم بالحقيقة الواقعة في ان اخلاق الجيل السابق وآدابه وسياسته لم

تنتج الاّ حرباً وبيلة ولم تؤد الاّ الى شر كبير فما شأننا إذن بالتقاليد والاخلاق ؟

وما شأننا إذن بهذه النظريات الخلقية التي نتمثلها في المُثـل نتحوها ونسير عليها . فلندع هذا . ! ولتكن لنا هذه الرغبة الملحة في الاستمتاع بالحياة . ففد وجب على الانسان المفكر أن يسخر من الظروف لان الظروف تسخر منهُ . وقد وجب على الانسان المفكر ان يتخذ المادة عنواناً لحياته الاجتماعية بل يتخذها سبيلا لحياته بوجهٍ عام . كان هذا بعض ما غمر أدب الشباب وبعض ما استولى على نفوسهم من شعور . ولعلّ هذا النوع من المنطق في تفهم الاجتماع كان شديداً غاية الشدة وكان مسرفاً الاسراف كله . كان ثورة فكرية عامة تناولت الأدب وتخطته الى شؤون الحياة بوجهٍ عام . لم تكن هذه النزعة في فرنسا فقط انما كانت تجتاح العالم الفكري في أوربا على الاطلاق . ولقد كان الأدب التمثيلي لساناً من هذه الالسن التي تنطق بهذه النزعة الجديدة . فوضع المؤلفون قصصاً تمثيلية ان كان قد حوى هذه المناحي العديدة في الرأي ومظاهر التفكير وتطور الاجتماع مما لم تألفه النفس وقد لا يقره العقل على انهُ حوى جمالاً فنيًّا رائعاً لا سبيل الى انكاره ولا سبيل الى جحده فقد صوّر المؤلفون الحياة صوراً غاية في النكر والسخرية . بل كانوا يصوّرون الحياة صوراً ثائرة على الدين والخلق ترمى الى الالحاد والاباحية . وان قامت على التحليل النفسي كقصص « ليتورمان » المؤلف الشاب . ولقد اعتمد الادب المسرحي فيما اعتمد ايضاً على طائفة من الاسرار الخطيرة التي كانت من العوامل الهامة في اثارة الحرب واستمرارها والتي استدل بها بعض الأدباء على اخلاق العظماء ممن كانوا يسيطرون على الحياة الاجتماعية والسياسية للأمم والشعوب وكان المسرح يصور للناس ما كان يسود هذه الاخلاق من دسائس ومساوىء اجتماعية منكرة وما كان يجهله الناس عن عظمائهم من مهازل

كانت الحياة استنتاجاً لهذا البعث الجديد من التفكير وكانت الحياة وسيلة صالحة لتطور الحياة العقلية ان خيراً وان شرًّا . وكانت الحياة مثاراً لعبث النقاد وتهكمهم وكانت الآراء الادبية الحديثة موضوعاً يشغل الناس في حياتهم العامة كما كانت الحرب تشغلهم ايضاً . وقد كانت هذه الحرب التي اساءت الناس في ابنائهم واموالهم شرًّا لا خير فيه فانها لم تترك قديماً صالحاً ولم تؤد الى جديد ممتع وانما كانت سبباً مباشراً لطفرة في التفكير العقلي والاجتماعي ولثورة ما كان احوج الناس بعدها . واخيراً اتخذت الحياة في ادب الشباب على أنها أسلوب لا بدَّ منهُ في سبيل اللذة والمتعة والاستخفاف بالخلق

ظهر هذا كله في أدب الشباب الذين كتبوا في اعقاب الحرب الكبرى . والذين احتالوا الى نشر آرائهم بصور سريعة خاطفة لم يكن للناس بها عهد مما أدى الى ثورة فكرية في الأدب والحياة والاجتماع ، ومما أحدث هذا النضال القوي بين أدباء الجيل القديم وأدباء الشباب . أما الذين

هيمنوا على الحياة الأدبية قبل الحرب فطائفة من أعلام الأدب والشعر وأصحاب الاجتماع ممن يقيمون للحياة والأدب وللاجتماع والفن ألواناً من الرأي مستقرة ثابتة . يفهمون الحرب على أنها ظاهرة طارئة عاجلة لا تؤدي بهم الى تغير ايمانهم في حياتهم العقلية أو حياتهم العامة . وكانوا لهذا يسخرون من هذا التفكير الحديث الذي يصدر عن أدباء الشباب . وكانوا يعبثون بهذا الادب في صالوناتهم الأدبية وعلى صفحات الكتب الخاصة والجرائد . غير ان الشعر تمثل أسباباً جديدة وأخيلة جديدة ووسائل مستحدثة .كان يقرها شاعرنا حيناً وينكرها أحياناً . فقد كان يقر الشعر الدراسي القوي الذي يصوّر الحياة الواقعة أو هذا الشعر الخيالي العاطفي .كان يقر الشعر الطبيعي . وكان ينكر على « بول ڤاليرى » بعض قصائده التي تصدر عن عقله والتي لا أثر لنفسه فيها الا قليلاً .كان صاحبنا ينكر « المادية » التي تطبع الشعر والتي تجعل هذا الفن العالي جسماً من غير روح .كان اذاً يتخذ صور الحياة الطبيعية مقياساً لأدبه ونقده في الحياة . ولقد وفق « خيري » الى نقد هذا الادب الحديث فنشر طائفة من الابحاث النقدية في أمهات الصحف الفرنسية يصوّر فيها الادب كما هو لا كما ارادته هذه الطائفة من أدباء الشباب والادب الشعري بوجه خاص . فكان هذا باعثاً له على التقدير . وكانت هذه المقالات باعثاً أيضاً لطائفة من الكتاب والأدباء على تبيان الادب الرفيع الرائع وما زال النزاع قائماً بين أصحاب القديم وأصحاب الجديد حتى أحدثت الحياة آثارها وانتهى الشباب وأدب الشباب من هذه النزعات التي لم تكن تخلو من اسراف والتي لم تكن تخلو من تهوّر. والتي لم يكن لها بد من استقرار وهدوء . على ان شاعرنا لم يكن ليغمط حظ بعض كتّاب الشباب وشعرائهم من الانتاج القوي الحي الذي انتهى به أدبهم أخيراً . فقد أعجب بهذا الأدب اعجاباً لا حدّ له ولقد أطرى الشباب كثيراً بل أتيح له أن يقصد الى طوائف كثيرة منهم يحضر اجتماعاتهم ويتنقل واياهم الى هذه الابحاث العقليـة المنتجـة . وكانوا يمجدون فيه هذا الروح الوثاب الذي عماده البحث والاطلاع والذي سبيله التدقيق والتحقيق

وقد قام الشاعر بجمع « ديوانه » فأكملت نشره بعض المكاتب في باريس . واحدث ظهوره أثراً بعيداً في نفوس الشعراء والفنانين لما تناول شعره كثيراً من الابحاث المصرية الأثرية الخالدة وهو كمصري يستشعر الروح المصرية النبيلة كان مسوقاً بهذا الالهام الابدي الى استجماع الصور والأخيلة التي عبرت بأجلى بيان عن عظمة المصريين والتي صورتهم كأنبل شعب عرف الحضارة الاولى . . .

والآن اذ أتصور « خيري » الناثر أرى رجلاً آخر يختلف اختلافاً بيناً عن « خيري » الشاعر . فهو في نثره يجنح الى المنطق والحكمة يتزود بهما في استنتاجاته ومقاييسه . لا ترى في

أسلوبه النثري الاّ هذا الحديث المرتب والاّ هذا التحليل المقرون بالتفكير والانسجام . قرأت له آخر موضوعاته النثرية عن الشاعر الموسيقار الخالد « ريشارد ڤاجنر » فتصورته كاتباً غني العقل . خصب القلب . حازم النفس لايخلو تفكيره واستنتاجه من هذه الرشاقة التي تتميز بها نفسية الشاعر . وقد يكون « خيري » في نثره مقلاً . لم تكن الابحاث العامة لتظفر منهُ بموضوع من الموضوعات الاّ في جهد وعسر والاّ في الحاح وضيق . لانهُ اعتاد إخراج انتاجه بالشعر أو ما يشبه الشعر بل اعتاد ان يتحدث عن هذه الخواطر النفسية التي يعالجها الباحث او الفنان.فيسرها الى اصحابه ولا يعنى بتدوينها الاّ اذا التمس القلم عوناً له على ذلك . والاّ اذا رغب في إثبات ما يرتاح اليه عقله ونفسه .على انهُ كان يتروى البحث ولا يتعجل الحديث . يكثر من التفكير ولا ينحو نحو السرعة بل هو الكاتب المجلى الذي يظفر باعجاب نفسه قبل ان يظفر باعجاب الناس . ولعله كان يكتب لرغبة نفسه قبل ان يكتب شيئاً للناس . والناس ما برحوا يقصدون بالاعجاب لا من يفعل ما يقصد بل من يبلغ غاية الاحسان فيما يحسنه الكثيرون !! ولقد كان يعرض شاعرنا الى شيءٍ من تحليل النفس وتفسير القوى العقلية في طبيعة من يتحدث عنهُ . فيتناول الحديث اطرافاً بعيدة من عمق البحث وقوة الاستنتاج . وكان يرجع ظروف الحياة والمقابلات التي تعرض للانسان والحوادث وتعليلات وجودها الى نشأة الانسان الاجتماعية والى هذه العلاقة المحتمة بين تفكير الشخص ومناهجه العملي في حياته بوجه عام.وهذا ماكان له ابلغ التأثير في أسلوب « خيري » النثري . ولعلَّ هذا ما يدعو الى قيمة ما كان يذيعهُ خيري من آثار أدبية

***

الفنان

أحب أن ألتمس هذا المعنى العميق الذي يعرض لهُ الشاعر العالمي «شلي» عن الادب لارفعهُ خالصاً الى الفن . فقد قال : « ان الادب تسجيل أقوى ماينتجهُ العقل في أسعد لحظات النفس »

والواقع اذا كان الادب تسجيل العقل فالفن وحده تسجيل العاطفة والروح . وكل ما في مكنة الفنان نفسه أن ينتج بدعة فنية . حتى لكأنما قد تناولت يد خفية عظيمة كف الفنان فدفعتها بريشتها او منفاشها أو أية أداة أخرى الى ابتكار فذ أو معنى جديد . فلن يكون الفن خالصاً اذا لم يُعنَ بالابتكار والانشاء لا بالتقليد أو الاحتذاء . والفن في طبيعته سرٌّ من أعمق أسرار الحياة بل هو سر في الطبيعة نفسها وان كان ملموساً للرائي في ثناياها . لانهُ فكرة عن الجمال أو الحقيقة. بل فكرة الطبيعة عن نفسها !! فالعالم تحيط بهِ ألوان كثيرة من الجمال ولكن الفنان وحده هو الذي يؤتى البصر الصافي لاكتناه المعاني والصور . وهو صاحب الذوق الرفيع في فصل

الشيء من بين أنواعه المماثلة له . وانتزاع المظهر الواحد من بين مظاهر الجمال المنوعة التي نقف عندها مأخوذين حائرين . وعلى قدر تغلغل نفس الفنان في أعماق الفكرة التي يجتليها يكون مبلغ القدرة من الافتتان وحد الاعجاز . وهذا ما كان يفهمهُ « خيري » من الفن . فقد عاش « خيري » للفن . بل كان الفن عنده فرح الحياة الصادق بل مطلبها الا كبر . بل كان الفن عنده ايماناً يؤمن بهِ . وكان من أصحاب النظرية القائلة « الفن للحياة » وكان شديد الكلفة بتوجيه الفن واطلاقه في الحياة . لانهُ غذاء الشعور والمثل الأعلى للعاطفة الجميلة . لم يصرفهُ شعره عن هذه الحياة الفنية التي كان يحياها بل التي كان يفني فيها حواسه وعواطفه . بل حببت اليهِ هذه الحياة « الموسيقى » . على أنها أبلغ المعاني الصامتة في إثارة المشاعر الانسانية . وطفق « خيري » يدرس الموسيقى درساً مفصلاً ويدرس ألحانها ومقطعاتها وأصولها . ثم أخذ في درس أعلام الموسيقيين والمؤلفين الملحنين . يتتبعهم في مناحي إنتاجهم الى ان ظفر بخلاصة وافرة ومحصول كبير في هذا الفن

فكان ملمًّا بما يقال عن الموسيقى وبما يتحدث بهِ الفنانون عنها . وكان يُكثر من زيارة المسارح الصاخبة بالحياة الموسيقية في باريس بل كان يؤم هذه المهرجانات التي تقام تحية لكبار الموسيقيين حيث تُوقعُ فيها اعمالهم الموسيقية . كان (خيري) من هذه الفئة المعروفة لاعلام الفنانين في الموسيقى أشاد بهِ غير واحد منهم بل تحدث عنهُ الموسيقار الكبير « استرافنسكي » في بعض أحاديثه الفنية التي كان يلقيها في صالون (سان يوان) بباريس . قال عنهُ انهُ (الشاعر المصري الذي يعرف حقاً معنى الموسيقى . والذي يفهم الموسيقى على انها اعمق الفنون اتصالاً بالنفس الانسانية) . كان خيري بارعاً البراعة كلها في التوقيع على (البيانو) وقد كان يجتمع الكثيرون من اصدقائه ليستمعوا اليهِ بل لينصتوا الى هذه الانامل التي تجمع فن (بتهوفن) الرفيع ملقياً اليهم ببعض « سيمفونياته » الخالدة . كان اذا وصل للتاسعة منها بدأ هذا الجلال الفني ظاهراً متمثلاً روعة التوقيع مرتفعاً بالنفوس الى سماء العبقرية والخلود . ولقد اقبل « خيري » على فن « ڤاجنر » إقبالاً لا حدّ لهُ . لانهُ التمس في « ڤاجنر » هذه المذاهب الموسيقية المتعددة التي تتحدث الى العقل والقلب معاً والتي تجعل من الموسيقى فلسفة واقعة تحيط بألوان من العاطفة والتفكير تتحدث عن الحياة والاشخاص وتتحدث الى اصحاب التفكير في قوة التفكير والى اصحاب المنطق في دقة المنطق. بل تتحدث الى هؤلاء جميعاً حديثاً ملؤه الروعة والافتتان . هذا الحديث الذي لم يصل الى مثله شاعر موسيقار « كڤاجنر » بل لم يتسنَّ لفنان ان يذهب في الفن الموسيقي هذه المذاهب العقلية المحكمة التي تملي على العقل الانساني والعاطفة الانسانية جماع التفكير وبواعث الاهتمام والاعجاب

قضى « خيري » سنوات طويلة يدرس فن « ڤاجنر » الموسيقى حتى استطاع أن يهيء عن « ڤاجنر » دراسة مستفيضة ألمّ فيها بما يجب ان تفهم عن حياة هذا الرجل العظيم . ولن ينسى من ظفر بسماع محاضرته في « معهد الموسيقى الملكي » في مصر منذ عامين كيف عالج « خيري » « ڤاجنر » وكيف تناوله كشاعر من هؤلاء الشعراء الذين لا زمهم البؤس وتنكرت لهم الحياة . وتناوله كفنان من هؤلاء الفنانين الذين سخر منهم صغار العقول وسفهاء الاحلام . حتى انهُ لم يستطع امامهم البقاء يوم ان سقطت «رينزي» وكان مقدراً لها النجاح . ولكن « ڤاجنر » تقدم الطريق ولم يتعثر . وقدّر له النجاح بعد ان اصطلحت عليه هموم الحياة . واوصلته هذه السليقة الدفاعة الى عالم الطبيعة بل استطاع بالطبيعة نفسها ان ينفذ الى عالم الفراغ فيثير فيها الهواتف الروحية التي تفيض بها أوپراته . ولقد احتوت هذه الاوپرات مناظر الاطياف والارواح وتمثلت في شخوصها معاني البلاغة الشعرية العميقة التي تم احاديثها التمثيلية الرائعة . ولقد اكسبت موهبة « ڤاجنر » الفنية اعماله مسحة الجمال الذي تمثل فيه عبقريته الشاذة . ولعل ما يقوى على تمثيل هذه العبقرية هذه الموسيقى التي تتمشى بانسجام مع الحديث والحركات والمناظر

***

أخذ « خيري » في محاضرته الممتعة عن « ڤاجنر » يتحدث عن هذا واكثر من هذا بل اخذ يتحدث عن الموسيقى من حيث هي كما فهمها « ڤاجنر » وافتنّ « خيري » في هذا الحديث الجامع حتى اخذ على المستمعين شعورهم وظفر منهم بالاعجاب . فاذا اختتم محاضراته تلك بدأت فرقة للموسيقى من برلين اعدتها الحكومة الالمانية بوساطة نشأت باشا وزير مصر المفوض في ان تعزف قطعاً من روائع فنه يحملها الاثير الى مصر والى حيث يجلس المستمعون في المعهد . ولقد سجلت الحكومة الالمانية الى الشاعر « خيري » اعجابها بهذا المجهود الذي صرفه في سبيل عظيم من شعرائها وفنانيها وعدتهُ من بواعث الاعتراف بالثقافة العامة المتبادلة بين الامم

اما عن الموسيقى المصرية فقد كان « خيري » يرثي لها أبلغ الرثاء لانها لا تستند الى معنى من المعاني أو حقيقة من حقائق الفن . هي في رأيه تقليد للغرب في موسيقاه الحديثة بصبغة شرقية . ولقد رأى ان يتحدث في هذا الى أصحاب هذا الفن بل الى وزارة المعارف نفسها . ليحفزهم للبحث عن ايجاد «فن واقعي» للموسيقى المصرية . وكانت له انتقادات فنية خاصة «بالمقام» وغير « المقام » من شؤون هذا البحث . أحب إذن ان تلغى هذه الانغام التي لا تصلح لجونا الاجتماعي أو تقتضيه نزعاتنا الحديثة في تفهم روحنا المصري الاجتماعي . ولقد كانت هذه الثورة الفكرية تزداد في نفسه وتقوى كلما جمعتهُ المجالس بأهل الفن من هواة الموسيقى المثقفين

زخرت حياة « خيري » على وجه عام بهذا المزاج الرقيق الذي شغف بالفن من حيث هو . ولعل خيري كان له رأي خاص بهذه الفنون التي يعالجها بعض المصريين النابهين من تصوير ونحت وموسيقى وتمثيل . فقد كان يهتم بأصحابها اهتماماً كبيراً . يصرف من وقته وماله في هذا السبيل ما يعرفه الخاصة من اصدقائه . وكان جريئاً في استنهاض اصحاب السلطة في ان تهيء لبعض الفنانين المصريين جواً من الحياة العملية لائقاً بهم . وان تنظر وزارة المعارف لهذه الفنون وللفنانين نظرة ملؤها العون والجهد حتى يأخذ جيلنا المصري الناشيء حاجته من اسباب الثقافة الفنية

ولقد كان آخر خدماته الفنية لاصدقائه من الفنانين ان يحمل بنفسه لوحات ناجي الفنية المصغرة ليطوف بها على الصحف والمجلات لتنشرها. فيرى الجمهور المصري انتاج فنانيه من الهواة ولقد أعجب بفن ناجي اعجاباً لا حدَّ له . متبيناً فيه الهام الفن المصري القديم الزاخرة به التماثيل والصور الأثرية في سمته العصرية الفتانة . على ان اساس هذا الاعجاب ان « خيري » قد ألهمه هذا الروح نفسه الخيال المعزول الذي جاد بقصائده الخالدة عن الحياة المصرية القديمة . فاحتوت غير قليل من الابهام الذي تجده في شعره والذي كان نوعاً يتميز به فنه من جمال وسبك ولعل هذا نفسه ما دعا الى الاعتراف بعبقريته بل الذي دعا جماعة «فرانس اوربان» الى ان تقيم في باريس حفلاً عظيماً لشاعر شرقي جليل هو « خيري »

***

ولقد كان «خيري» يعاني في سنيه الاخيرة عسراً ماديًّا لم يعهده من قبل فكان هذا بعض ما أودى بمزاج الشاعر . فكان لا يخرج للناس الاَّ بعض القصائد القصيرة والاَّ هذه القصيدة التي كان رفعها تحيةً لجلالة الملك في عيد ميلاده

***

ذهب خيري اذن في هذه الحفرة التي احتفرتها له الابدية . ونحن انما نودع روحاً يرف الآن على اصدقائه العديدين بعد ان كان يجتمع بهم ويتحدث اليهم . بل نودع شاعراً مصريًّا اخلص للادب والفن الاخلاص كله وكان من هؤلاء الشعراء الذين غادروا الحياة ولم يتمتعوا بها وكان وجودهم خاطر لم يمر على أهل الجيل وان كان يعد آية وبدعة . ولقد شاءت الحياة ان يكون للادب في كل العصور ضحايا وللشعر مكدودون . ولعلي لا اتجاوز الواقع اذا كانت نهاية خيري ابلغ صورة لهذا الوضع في الوجود الفاني

موقعة نافارين البحرية

٢٩ ربيع اول سنة ١٢٤٣ هـ ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧م

للدكتور علي مظهر

— ٣ —

يجمل بنا ان لا نغفل ذكر محرم بك امير البحر للاسطول المصري وقائد الاسطول في تلك الاثناء . فنقول أنه من « قوله » أصلاً بلد محمد علي وكثير من الاسر المصرية اليوم . واتخذ مصر وطناً ثانياً له . فاستخدمه محمد علي في كثير من مهام الحكومة

وزوجه بابنته تفيده هانم لحسن سيرته وحميد خصاله . ولكن الوفاة عاجلتها فماتت بعد زمن قصير . وكان محمد علي قد عينه محافظاً على الاسكندرية فأحسن ادارتها وعهد اليه برآسة ادارة البحرية الاولى . وجعله قائداً للاسطول في حرب اليونان من سنة ١٢٣٦ الى ١٢٤٣ . ولما عاد ابرهيم باشا الى مصر بقي في منصبه محافظاً للاسكندرية الى يوم وفاته في ١٢ محرم سنة ١٢٦٤ هـ . فأسف عليه الناس وكان محباً لفعل الخير . وأعتق الكثير من جواريه ومماليكه وأغدق عليهم الاحسانات الجزيلة وشيد لهم المنازل العديدة لسكناهم (سرهنك باشا جـ ٢ ص ٢٤١) . ولعله هو وأمثاله هم من الذين حببوا للاروام سكنى مصر بعد تخييرهم في الرجوع الى بلادهم كما نص على ذلك اتفاق الحرب اليونانية الذي ذكرناه آنفاً

ونرى أن نذكر ما كتبه المرحوم الشيخ بيرم التونسي في كتابه صفوة الاعتبار اذ يقول :

انه في أيام جورج الرابع ملك انجلترا وقع الغدر في أسطول الدولة العثمانية من أسطول انجلترا المترأس على أساطيل الدول في تظاهرهم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان بالاستقلال . فمن غير اعلان الحرب لها تخللت الاساطيل من بين اسطولها المركب من سفنها وسفن مصر وطرابلس وتونس والجزائر وهم على اطمئنان السلم والامن وأطلقت عليهم النيران دفعة واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدر وشناعة لا تمحى ومعرة لا تزول على خصوص الانجليز لانهم هم الذين بيدهم امرة

جميع الاساطيل الدولية .وعندما سمعت الندوة الانجليزية (مجلس النواب) بفظاعة الواقعة هاجوا وماجوا وطلبوا محاكمة رئيس الاساطيل . وحكم عليه مجلس حربي بالقتل مع دفاع وزير البحر عنه بكل ما امكن من الاعتذار وتلفيق دعوى بأن احدى السفن العثمانية اطلقت النار عليهم فلم يجدِ كل ذلك شيئاً . وعند ما تحقق الرئيس الحكم عليه بالقتل أسرَّ الى وزير البحر بأن التذكرة التي بخطه في الامر باحراق الاسطول العثماني قد نسي ان يحرقها معه مثل ما امر . وحينئذ تحوَّل المجلس الى جلسة سرية ثم اطلق الرئيس . اه

ويذكر بعض المؤرخين الاوربيين بان التعليمات التي اعطيت للسير كودرنجتون كانت تحظر عليهِ اي عمل عدائي مع العثمانيين ونحن لا نرى صدق تلك الرواية فان نية تدمير الاساطيل المصرية والعثمانية كانت متوافرة . ولا عبرة بما جاهر بهِ المنصفون من اهل اوربا من فظاعة هذا الامر ومخالفته للقوانين المتبعة وانهُ خيانة وغدر . ولا عبرة كذلك بما نقله بعض الكتّاب والمؤرخين من اوربا من ان التعليمات التي اعطيت للسير كودرنجتون كانت تحظر عليهِ اي عمل عدائي . فانهُ من غير المعقول أن يأتي ذلك القائد البحري ما يخالف اوامر حكومتهِ بل كان هناك اتفاق سابق بين الحكومات الثلاث فرنسا والروسيا وانجلترا على تلك المذبحة كما وصفها امبراطور النمسا في ذلك الحين وما قاله جورج الرابع ملك انجلترا نفسه عنها بانها حادثة مشئومة . ومن ذر الرماد في العيون تلك الرواية التمثيلية التي قام بها الاحرار في انجلترا وتشنيع ضد امير البحر كودرنجتون وانهم اعتبروا عمله وحشيًّا لا شرف فيهِ ولا فخار . فاضطرت الحكومة الانجليزية أن تعلن عدم موافقتها على عمل كودرنجتون . ولكنها لم تعلن عدم موافقتها على هذا العمل الفظيع الوحشي الاّ بعد حدوثه . وهي رواية هزلية لا يصدقها الاّ سذج العقول . ولقد ذكر مصطفى باشا كامل رحمهُ الله في كتابه المسألة الشرقية وأشار الى تلك المذبحة فيما نقله مسيو (الفريد لمينز) في مؤلفهِ عن استقلال اليونان من المستندات الرسمية التي لا تزال محفوظة في وزارة البحرية الفرنسية . فمنها تتبين ان حكومات فرنسا وروسيا وانجلترا كانت متفقة من قبل على كل ما اتاهُ قواد اساطيلها. وقد قال امير البحر كودرنجتون لما علم بعدم موافقة حكومته على مذبحة نافارين : — « ان الوزراء يضحون بي للاحتفاظ بمناصبهم »

ويقدر المؤرخون عدد الذين ماتوا من بحارة مصر في هذه المذبحة الشهيرة المعروفة بموقعة نافارين البحرية بستة آلاف بحري استشهدوا في اثناء مفاجأة اساطيل الدول المتحدة لاسطول مصر واسطول تركيا وسط الضباب بدون سابق انذار بينما كانت الهدنة معقودة بين الطرفين

وفي عدد جريدة الاخبار الصادر بالقاهرة في مساء الخميس ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦ — ٢٠ اكتوبر ١٩٢٧ وهي التي كان يرأس تحريرها امين بك الرافعي رحمهُ الله مقالة افتتاحية بعنوان :(معركة

ناڤارين البحرية بعد مرور مائة عام) وفي هذه المقالة كلام طويل على تلك المعركة . ونحن ننقل عنها باختصار ما اشارت اليه عن كنوز ناڤارين وهل نستخرج البوارج الغارقة مما نقله عن جريدة الطان الفرنسية في احد اعدادها التي اصدرتها قبل تلك الذكرى المئوية واحتفال حكومة اثينا بها ايامئذٍ قالت الطان : « . . . . والفضل في ذلك (استخراج البوارج الغارقة) لما ابدى المهندس الشاب م . ا . كريتوى الفرنسي من همة واقدام لاستخراج المدرعات التركية والمصرية من اعماق خليج بيلوس المغرقة منذ مائة عام بما رمتها به اساطيل فرنسا وانجلترا وروسيا معاً من قنابلها المردية . ومما نعجب له ان قد اتفق ان الشركة صاحبة الامتياز القائمة بهذا الاستخراج هي برؤوس اموالها ووسائلها انجليزية وفرنسيه وروسية ويونانية . والبحث عن كنوز ناڤارين كالبحث عن كنوز الارمادا مسألة طال عليها الزمن وتقادم بها العهد . فلطالما تألفت شركات وجعلت تختلب عقول من عساهم يساهمون فيها بما تعرض على مخيلاتهم من غنائم جسام تخرجها لهم من اغوار اللجج ولكن طرأت طوارىء وحالت امور دون تحقيق هذه الاماني . أترى تطوي هذه المياه في اجوافها كنوزاً من الاموال ام هي منها جوفاء خالية ؟ ذلك على بعد شهور أو بعد سنين . فان العمل شاق عسير ويستغرق الزمن الكبير . ولكن آن ان ينكشف المطوي ويعلم . ثم قال بعد كلام لا نرى له محلاً لذكره هنا :

« اذ يجوز لنا افتراض ان الاتراك والمصريين اذ بوغتوا وحاق بهم ما كانوا يستبعدون لم يجدوا من الوقت ما يمكنهم من نقل ما بين ايديهم من كنوز مما غنموه او جاءهم من سبل اخرى ؟ (ايظن الكاتب ان ببلاد اليونان الفقيرة ولاسيما في ذلك الوقت كانت توجد كنوز ! ؟ هذا والله غريب في التفكير أو نقص في المعرفة) . فان سفينة قائد الاسطول التركي طاهر باشا هوت كما هوت معها في بطون الماء ثلاث عشرة دراعة وخمس سفن وسفن القتال وعشرون اخرى من سفائن الاسطول وما بقي في آخر المعركة من الخمس والسبعين سفينة التي يتألف منها الاسطول التركي سوى خمس عشرة سفينة صغيرة وبارجة واحدة . وتعادلت كفة الخسائر في الاسطول المصري مع مثلها في الاسطول التركي

***

ألعلَّ البارجة الناجية قد حملت في مطاويها كنوز الحرب الى مصر ؟ ذلك ممكن . ولكنهُ يكاد يكون غير معقول . ذلك اننا نشك في ان النفوس في هول هذه الساعات تملك من رباطة الجأش ومن الوسائل ما يمكنها من حمل ما تشتهي الانفس حمله من هذه النفائس والكنوز

والذي نريد ان نعرفه هل كانت سفن المصريين والاتراك تحمل هذه الكنوز حقاً . اما

المستر پرس كروس ستاندينج فرأيه في مقال لهُ نشرته مجلة (كنتمبورري ريڤيو) هو انهُ لم يكن فيها من ذلك شيء. اما الرواية الشائعة المأثورة فترى على النقيض من ذلك ان كنوز ابراهيم في القتال جاوزت المليار مما يعدل عملتنا الحاضرة (يقصد مايار فرنك فرنسي)

ولقد كثر استشهاد المستشهدين في اقامة حجتهم على صحة تلك الكنوز بمذكرات احد ضباط السفينة سيرين المدعو راؤول دي رامون ونشرتها (الاسيتا) في ١٦ اغسطس سنة ١٩٠٣ فقد كان هذا الضابط من المقاتلين في هذه المعركة. وبعث بعد ذلك بست وعشرين سنة الى الاستانة (استنبول) في مهمة وكانت في صحبته امرأته وهي من بنات اليونان كان قد أنقذها من مذابح الاتراك. ولقد قامت بينها وبين عديلة هانم ارملة امير البحر محرم بك المصري صلاة ود. فجاء احمد بن عديلة هانم احد جنود حرس السلطان الخاص ذات مساء الى الضابط الفرنسي واطلعه على بضعة اسانيد. كتب احدها قبل معركة ناڤارين بثلاثة ايام وفيه ذكر ما ملك يومئذٍ من اموال امراء البحر في الاسطول التركي وقد اصاب محرم عشرين كيساً وعشرة آلاف من الدوقات الذهبية (ما يقرب من خمسة آلاف جنيه) فبلغ بذلك ما تملك يمينه خمسين كيساً وثلاثين الفاً من الذهب

وفي مستند آخر يرجع الى سليمان بك (باشا فيما بعد وهو الكولونيل سيف الفرنسي الاصل) بيان حرره ابراهيم باشا نفسه بخسائره في ناڤارين البالغة ١٢٠ مليون فرنك (من عملة ذلك الزمن). وكان في السفن الاخرى المغرقة في كل منها عدل ذلك المبلغ

وجعل احمد يبسط امام راؤل دي رامون تصميماً للمعركة ويشير الى الموضع الذي كانت فيه سفينة ابراهيم باشا الاميرالية (هنا مكان العشرين ومائة مليون فرنك ذهب) ثم انصرف لوجهه من حيث أتى ولم يره من بعدها احد) اه

***

والمعقول ان تلك الشركة او الشركات التي تبحث عن كنوز ناڤارين انما تبحث عن كنوزها الخشبية. فقد كان من تلك السفن سفن مبنية من خشب البلوط وغيره مما يستحيل الى نوع صلب شديد جداً. وهو مرغوب فيه لصنع الاثاث الفاخر وفي اعمال اخرى تستلزم ذلك النوع من الخشب الذي لبث اكثر من قرن من الزمان — في الماء الملح. ويقال أن مقدار ذلك الخشب الثمين العتيق لا يقل عن عشرين الف متر مكعب ويقال ان احد الصناع الانجليز عرض على الشركة ابتياع كل ما تستخرجه من ذلك الخشب. اما بقايا المدافع التي تزن من الفين الى اربعة آلاف طن وغير ذلك من اشياء فلسنا ندري عنها شيئاً ولا عن قيمتها ولكن يسأل عن ذلك الخبراء في المعادن والكيمياء

نوابغ العرب في الرياضيات

بهاء الدين الآملي

صاحب كتاب الخلاصة

قدري حافظ طوقان

على الرغم مما كانت عليه الدول العربية والاسلامية في مختلف الاقطار من الضعف ، وعلى الرغم مما اصابها من الانحلال ومما حلَّ بها من المصائب وما احاطها من المتاعب التي تحول دون تقدم العلوم ودون ازدهار الفنون ، اقول على الرغم من كل ذلك فقد ظهر في بعض الحواضر من وجَّه بعضاً من عنايته الى العلوم وتشجيع المشتغلين بها . ومن هؤلاء الذين ظهروا في القرن السادس عشر للميلاد وبرزوا في العلوم الرياضية بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد الآملي

وقد اختلف المؤرخون في البلدة التي وُلد فيها فبعضهم يقول انهُ وُلِد في بعلبك وآخرون في آمل الواقعة في شمال ايران . ومن المؤلفين من قال انهُ ولد في بلدة آمل الخراسانية الواقعة على الضفة اليسرى لنهر جيحون

اما القول بأنهُ وُلد في بعلبك فبعيد عن الصواب بل وهو خطأ محض ، وارجح ان قولهم هذا يرجع الى الخلط بين جبل عامل في سوريا وبين آمل ، وقد يكون هذا الخلط هو الذي جعلهم يقولون بولده في بعلبك ، وقد يكون ايضاً هو الذي جعل بعض العلماء يسمونه « بهاء الدين العاملي » . ونجد في بعض الكتب ان الآملي ينتسب الى قبيلة همدان اليمنية وان نسبه ينتهي بالحارث وهذا ما جعل البعض يلقبه بالحارث الهمداني ، ولكن الروايات تكاد تؤيد القول بأنهُ وُلد في آمل الايرانية الكائنة على طريق مازندران . وكانت ولادته في منتصف القرن السادس عشر للميلاد ثم احضره والده الى العجم حيث اخذ العلم عن كبار علماء زمانه وقد آثر حياة الفاقة والفقر على حياة الغنى والترف يدلنا على ذلك المناصب التي عرضها عليه اولو الأمر ولعلَّ اكثر ما امتاز به الآملي رغبته الشديدة في السياحة وزيارة الاقطار المختلفة ، وقد بقي في سياحته

ثلاثين سنة زار خلالها مصر والجزيرة العربية وسوريا والحجاز حيث ادّى فريضة الحج . وبعد ذلك عاد الى اصفهان ، ويقال انهُ عند ما علم الشاه عباس حاكم الدولة الصفوية بعودة الآملي الى اصفهان ذهب بنفسه اليها واحاطه بالاكرام والتجلة وعرض عليهِ منصب رآسة العلماء ، ومع انهُ لم يقبل هذا المنصب فقد بقي صاحب المقام الاول عند الشاه الى ان وافاه اجله في اصفهان في القرن السابع عشر للميلاد ودفن في طوس بجوار الامام رضا

***

اشتهر صاحب الترجمة بما ترك من الآثار في التفسير والآداب فله فيها تآليف قيمة . اما آثاره في الرياضيات والفلك فقد بقيت زمناً طويلاً مرجعاً لكثيرين من علماء المشرق كما انها كانت منبعاً يستقي منهُ طلاَّب المدارس والجامعات . فمن اشهر مؤلفاته رسالة الهلالية ، وكتاب تشريح الافلاك والرسالة الاسطرلابية وكتاب خلاصة الحساب . وقد اشتهر هذا الكتاب الاخير كثيراً وانتشر انتشاراً واسعاً في الاقطار بين العلماء والطلاب ، ولا يزال مستعملاً الى الآن في مدارس بعض المدن الايرانية ، ولقد تمكنا من الحصول على نسخة من هذا الكتاب اخذناها عن مخطوطة عثرنا عليها في المكتبة الخالدية في القدس. ويقول عنهُ كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون : « خلاصة في الحساب لبهاء الدين محمد بن محمد بن حسين وهو من علماء الدولة الصفوية. وهو على مقدمة وعشرة ابواب . . . » ونجد في الخلاصة ان المؤلف استعمل الارقام الهندية التي نستعملها نحن اليوم الاَّ انهُ استعمل للصفر الشكل الذي نستعمله للرقم خمسة ، وللخمسة شكلاً يخالف الشكل الذي نعرفه الآن . ولهذا الكتاب مقدمة تبدأ هكذا : « نحمدك يا من لا يحيط بجميع نعمه عدد ولا ينتهي تضاعف قسمه الى احد . . . » اما ابوابه فعشرة يبحث الباب الاول منها في حساب الصحاح وهو على ستة فصول : الفصل الاول في الجمع والثاني في التصنيف والثالث في التفريق (اي الطرح) والرابع في الضرب والخامس في القسمة والسادس في استخراج الجذر ويبحث الباب الثاني في الكسور وهو يحتوي على مقدمات ثلاث وفصول ستة فالمقدمات تتناول الكسور واصولاتها الاولية ومعنى مخرج الكسر وكيفية ايجاد مخارج عدة كسور (اي كيفية ايجاد المضاعف المشترك الاصغر لمقامات عدة كسور) وتتناول ايضاً التجنيس والرفع ، والمعنى المقصود من التجنيس « جعل الصحيح كسوراً من جنس كسر معين والعمل فيهِ اذا كان مع الصحيح كسر ان تضرب الصحيح في مخرج الكسر وتزيد عليهِ صورة الكسر . . . » ومن الرفع « جعل الكسور صحيحاً فاذا كان معنا كسر عدده اكثر من مخرجه قسمناه على مخرجه فالخارج صحيح والباقي كسر من ذلك المخرج . . »

ويأتي عند شرح كل من هذه البحوث بأمثلة تزيل من غموض الموضوع وتزيد في وضوحه. اما الفصول الستة فتبحث في جمع الكسور، وتضعيفها، وتصنيفها، وتفريقها وضربها وقسمتها واستخراج جذورها ثم تحويل الكسر من مخرج الى مخرج . . .

***

ويجد القارىء في الباب الثالث والرابع والخامس بحوثاً في استخراج المجهولات وقد استعمل المؤلف ثلاث طرق احداها طريقة الاربعة المتناسبة وهذه الطريقة يعرفها كل من لهُ المام بالرياضيات الابتدائية، والطريقة الثانية تعرف بحساب الخطأين هي غيرمستعملة في الكتب الحديثة مع انها كانت شائعة الاستعمال عند العرب في القرون الوسطى . والطريقة الثالثة وهي التي في الباب الخامس « في استخراج المجهولات بالعمل بالعكس وقد يسمى بالتحليل، والتعاكس وهو العمل بعكس ما اعطاه السائل فان ضعف فنصف وان زاد فأنقص، او ضرب فأقسم، او جذر فربع او عكس فأعكس مبتدأً من آخر السؤال ليخرج الجواب . . . »

ويحتوي الباب السادس على مقدمة وثلاثة فصول، فالمقدمة تبحث في المساحة وفي بعض تعاريف اولية عن السطوح والاجسام، والفصل الاول في مساحة السطوح المستقيمة الاضلاع كالمثلث والمربع والمستطيل والمعين والاشكال الرباعية والمسدس والمثمن والاشكال المستقيمة الاضلاع الاخرى . ويتناول الفصل الثاني والثالث طرقاً لايجاد مساحة الدائرة والسطوح المنحنية الاخرى كالاسطوانة والمخروط التام والمخروط الناقص والكرة . . .

***

ويحتوي الباب السابع على ثلاثة فصول تبحث « فيما يتبع المساحات من وزن الارض لاجراء القنوات ومعرفة ارتفاع المرتفعات وعروض الانهار واعماق الآبار .. » ولهذه الاعمال والطرق براهين يقول عنها انهُ اوضحها وبيّنها في كتابه الكبير المسمى « بجبر الحساب » وان بعضاً منها مبتكر وطريف لم يُسبق اليهِ اورده في تعليقاته على فارسية الاسطرلاب . ويستعمل بهاء الدين طرقاً اخرى غير التي ذكرها لاستخراج المجهولات وهنا يقبل على موضوع الجبر والمقابلة وهذا ما نجده في الباب الثامن المتكون من فصلين . احدهما في معنى المجهول (اي $س$) والمال (اي $س^٢$) والكعب (اي $س^٣$) ومال مال (اي $س^٤$) ومال كعب (اي $س^٥$) وكعب كعب (اي $س^٦$) . . . وهكذا . . . وجزء الشيء (اي $\frac{١}{س}$) وجزء المال (اي $\frac{١}{س^٢}$) وجزء الكعب (اي $\frac{١}{س^٣}$) . . . . الخ وفي كيفية ضرب هذه بعضها في بعض وقسمتها بعضها على بعض .

والفصل الثاني في المسائل الجبرية الست وهي عبارة عن اوضاع مختلفة للمعادلات وكيفية ايجاد المجهول منها اي حلها ، ولولا الخوف من الاطالة لاتينا على امثلة من ذلك . ويجدر بنا ان لانترك هذا الباب من دون الاشارة الى تعريف الآملي لكلمتي جبر ومقابلة في تفسيرها تين الكلمتين يقول: انهُ عند حل مسألة من المسائل بطريقة الجبر والمقابلة تفرض المجهول شيئاً (اي س بالمعنى الجبري الحديث) « وتستعمل ما يتضمنهُ السؤال سالكاً على ذلك المنوال لينتهي الى المعادلة والطرف ذو الاستثناء يكمل ويزاد مثل ذلك على الآخر وهو الجبر . والاجناس المتجانسة المتساوية في الطرفين تسقط منها وهو المقابلة . . ثم المعادلة . . »

ويقول العلامة سمث في كتابهِ تاريخ الرياضيات في الصفحة ٣٨٨ من الجزء الثاني عن هذا التفسير انهُ اوضح تفسير لكلمتي جبر ومقابلة

***

قد لا يكون في بحوث الابواب والفصول التي مرت شيء مبتكر اوجديد فقد سبقهُ اليها كثيرون من علماء العرب والمسلمين فهو لم يكن في ذلك الاَّ آخذاً او ناقلاً على الرغم من وجود بعض طرق لم يُسبق اليها

ومن الحق ان نذكر انهُ قدم هذه البحوث والموضوعات في طرق واضحة جلية تسهل فهمها (فهم البحوث والموضوعات) وتناولها . وهذه هي ميزة بهاء الدين على غيره فقد استطاع ان يضع بحوث الحساب والمساحة والجبر التي يرى فيها اكثر الناس غموضاً وصعوبة في قالب سهل جذاب وفي اسلوب سلس بدَّد شيئاً من غموض الموضوع وازال شيئاً من صعوبتهِ

ونأتي الآن الى الباب التاسع فنجد فيهِ كما يقول المؤلف : « قواعد شريفة وفوائد لطيفة لا بدَّ للحاسب منها ولا غناء له عنها » وقد اقتصر في هذا الباب على اثنتيْ عشرة قاعدة وفائدة يدعي انها كلها من مبتكراته وانه لم يسبقه احد اليها ، ولكن على ما ارجح ان في ادعائهِ هذا بعض المبالغة اذ اكثرية هذه القواعد كانت معروفة عند الذين سبقوه وهو لم يكن في وضعها كلها مبتكراً فقد تكون الطرق التي اتى بها مغايرة لطرق من تقدمهُ من العلماء العرب والمسلمين ولكنهُ في بعضها مبتكر وقد استعمل لها طرقاً طريفة فيها بعض الابداع وفيها شيء من المهارة والمقدرة تدل على عمق في التفكير . وبعد ذكر هذه القواعد وكيفية تطبيقها يأتي الى : « مسائل متفرقة بطرق مختلفة » فيضعها في باب خاص هو الباب العاشر ويقول ان القصد من هذا الباب « شحذ ذهن الطالب وتمرينه على استخراج المطلب » ونراه يستعمل في حلول بعض هذه المسائل طرقاً جبرية وفي البعض الآخر طرقاً حسابية يجد فيها الطالب ما يشحذ ذهنه ويقوى فيهِ ملكة التفكير

والآن نحن امام « الخاتمة » يستهلها المؤلف هكذا « قد وقع للحكماء الراسخين في هذا الفن مسائل صرفوا في حلها افكارهم ووجهوا الى استخراجها انظارهم وتوصلوا الى كشف نقابها بكل حيلة وتوسلوا الى رفع حجابها بكل وسيلة فما استطاعوا اليها سبيلاً وما وجدوا عليها مرشداً او دليلاً فهي باقية على عدم الانحلال من قديم الزمان مستصعبة على سائر الاذهان الى هذا الآن . . . »

ولقد اورد من هذه المسائل التي اعجزت علماء الرياضة وانهكت قوى المحاسبين سبعاً اتى بها على سبيل المثال . ثم يخرج من بعد ذكرها الى مدح رسالته هذه وقد سماها « بالجوهرة العزيزة » ويقول ان فيها : « من نفائس عرائس قوانين الحساب ما لم يجتمع الى الآن في رسالة ولا في كتاب . . » ويقول عنها ايضاً على القارىء ان يعرف قيمتها ويعطيها حقها من الانصاف والتقدير وان يحول بينها وبين من لا يعرف مزاياها « وان لا يزفّها الاّ الى حريص لان كثيراً من مطالبها حري بالصيانة والكتمان حقيق بالاستتارة عن اكثر هذا الزمان ، فاحفظ وصيتي اليك فالله حفيظ عليك . . » وليس في مدح بهاء الدين رسالته اي عجب فلقد كانت العادة عند مؤلفي زمانه والذين سبقوه ان يمتدحوا رسائلهم ومؤلفاتهم وان يسرفوا في ذلك ونظرة الى كتب الاقدمين في اللغة والادب والتاريخ وبقية العلوم تؤيد رأينا وتحققهُ

ولكتاب الخلاصة شروح عديدة عرفنا منها شرحاً لشخص اسمه رمضان ، ولم يكن هذا الشرح معتبراً عند العلماء بل لم يكن له ميزة او صفة خاصة وقدظهر في زمن السلطان محمد خان بن السلطان ابرهيم . وهناك ايضاً شرح لعبد الرحيم بن ابي بكر المرعشلي احد علماء الدولة العثمانية، ويمتاز شرحه على غيره بالامثلة المتعددة التي توضح كثيراً من المبادىء الصعبة والقوانين العويصة وفي هذا الشرح يتجلى للقارىء سعة اطلاع الشارح ووقوفه على العلوم الرياضية وهذا هو الذي ميزه على غيره (من الشروح) وهذا هو الذي جعله منهلاً لكثيرين من العلماء . وقد طبع كتاب الخلاصة في كلكتا في سنة (١٨١٢) وفي برلين سنة ١٨٤٣ ، وقد ترجمه الى الافرنسية الاستاذ مار Marre في سنة ١٨٦٤

***

ويظهر ان بهاء الدين بدأ في تأليف كتابه المسمى (بجبر الحساب) ولكنهُ لم ينجزه فقد مات قبل الفراغ منهُ ، وفيه تفصيل لبراهين من النظريات الهندسية وقوانين المساحات والحجوم وبعض المبادىء الحسابية ، وأدخل فيه ايضاً طرقاً جديدة لحل مسائل مختلفة صعبة تشحذ الذهن وتمرّنهُ على حل الاعمال المعقدة الملتوية

نابلس — فلسطين

اليزيدية [1]

عقائدهم وتقاليدهم

لقيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

اليزيدية طائفة تنتمي كثرتها الى الجنس الكردي وقد امتزجت بالشعوب السامية في سوريا والعراق وبالشعب الأرمني في اسيا الصغرى . وتشتق تسمية هذه الطائفة على ما اجمع عليه علماء التاريخ من كلمة « إيزد » الفارسية الاصل ومعناها خليق بالعبادة وهي تطلق على الملائكة التي تتوسط بين الله والبشر وفي اعتقاد اليزيد انهم من اتباع تلك الملائكة

ولهم ديانة خاصة تكوّنت عناصرها من مزيج سائر ديانات الشرق الأدنى ونبي هذه الديانة هو شيخ متصوّف يدعى الشيخ عادي عاش في جبال الموصل بين القرنين الخامس والسادس للهجرة بيد ان منشأه وسيرته الحقيقية وتاريخ ديانته يحيط بها الغموض وتغشيها الاوهام والخرافات لفقد مراجع تاريخية جديرة بالاعتبار ولتشدد اليزيد في صون اسرار ديانتهم وما يتعلق بها

على ان اتباع هذه الديانة كانوا منتشرين فيما مضى من اقاصي بلاد العجم والعراق حتى البلاد السورية وكانوا يقطنون على الاخص في سامرة وشرقاط [2] وفي ضواحي حلب والشام وفي قرى اورفه وحران وسعره ونصيبين وبيره جيك وعينتاب حتى وفي نواحي فزان وان كان لهم الوف من القرى . اما اليوم فقد تضاءل عددهم كثيراً بسبب الاضطهادات الدينية والمظالم المريعة التي حلّت بهم على عهد الحكومة العثمانية فلم يبق منهم غير ما يقرب من خمسين الفاً وكادوا ينحصرون في

(١) عني الدكتور قسطنطين زريق استاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية بنشر كتاب عنوانه «اليزيدية قديماً وحديثاً » ضمنه سيرة احد امراء اليزيد المعاصرين يرويها صاحب السيرة نفسه وقد صدرها الدكتور زريق بمقدمة شائقة محافظاً على ايراد نصوص السيرة بلغة واضعها العامية فجاء كتابه سفراً قيما اقتبسنا منه مقالنا هذا . فنوجه نظر من يحب التوسع في موضوع بحثنا الى هذا الكتاب الذي يطلب من المطبعة الاميركية في بيروت (٢) قرب آبار النفط العراقية

سهول قضاء الشيخان وجبل سنجار حول لواء الموصل اذا ما استثنينا نفراً ما زال يقطن في بلاد العجم وفي البلاد الأرمنية الواقعة على حدود تركيا وروسيا وفي جبال كليس وعينتاب وديار بكر وماردين التركية

اما مركز زعامتهم فهو في قرية باعدري من قضاء الشيخان الواقع في الشمال الشرقي من الموصل حيث مزار نبيهم الشيخ عادي وقاعدة اميرهم الميرميران

﴿ احوالهم العامة ﴾ يتكلم اليزيد الكردية باهجات مختلفة والتركية في اسيا الصغرى والعربية في سوريا والعراق ويقدسون لغتهم الجنسية معتقدين ان الله قد كلَّم آدم واوحى بوصاياه لموسى بالكردية

وهم رجال اشداء ، طوال القامة ، اقوياء البنية ، سود العيون ، حمر الوجوه بلحى مسترسلة يتحلون بمزايا حسنة منها صدق القول ونزاهة الاخلاق والجد في العمل وحب الحرية والاستقلال ويعرفون بالعفة وطهارة العيش ويعاقبون الزنى اشد العقاب ويجلّون كبارهم اجلالاً بالغاً ، يشتغلون بزراعة الارض وتربية المواشي وكثير منهم ما زال في طور البداوة يؤلفون قبائل رحّالة تدعى « الكوجر » ونظامهم الاجتماعي ما برح في الدور القبيلي . فكل قبيلة منهم تقسم الى بطون واتخاذ برأسها شيوخ يدبرون امرها وينقسمون بمجموعهم الى طبقات معينة تفصل بينها حدود واضحة . فمنهم العوام ومنهم الروحانيون الذين ينتظمون في فرق مختلفة وهم شديدو التحفظ على تقسيمهم الاجتماعي والديني لاعتباره العامل الذي يضمن سلامة جنسيتهم ونظام مذهبهم فلا يُسمح مثلاً لاحد افراد طبقة ما ان يتزوج من غيرها ولا ان يرتقي الى ما هو اعلى منها والويل لمن فعل فبالحجارة يُرجم وبالسوط يجلد وشر ميتة يموت

يترأس جماعة اليزيد شيخان احدهما زمني من نسب آل يزيد يلقب الميرميران بمعنى امير الامراء يقطن في قرية باعدرى كما تقدم بنا القول ويدبر امور طائفته المدنية ويمثلها امام العالم الخارجي . والآخر روحاني يمثل السلطة الروحية العليا وهو المرجع الاعظم لكل ما يتعلق بالدين والعقائد اليزيدية يساعده في مهمته هذه جماعة من الروحانيين ينتظمون في خمس فرق مختلفة لكل منهم لباس خاص واعمال دينية معينة

الشيخ اعلاهم رتبةً وهو مكلف إسترضاء الانبياء
والپير كاهن يختص بامور الصوم والافطار
والفقير يعلّم اولاد الفقراء طقوس الديانة ويخدم قبر الشيخ عادي
والقوال يدق بالدفوف والشبابات ويتلو مدائح الله والملائكة
والكوجك يلقن الاموات ويكفنهم ويفسّر الرؤى والاحلام

﴿ عقائدهم الدينية ﴾ الشائع عن الديانة اليزيدية انها عبادة الشيطان بيد ان من يقف على عقائدها الصحيحة يجد نفسهُ امام ديانة الهية ولكنها لا تخلو من بعض معتقدات طريفة وقد تشربت نواتها من عناصر وثنية قديمة وايرانية زردشتية ويهودية ونسيطرية وصوفية وصابئية وشامانية

وهي تقوم على الايمان بوجود اله خالق كبير يعاونهُ في ادارة الكون سبعة ملائكة انبثقوا من نوره وسمُّوا عزرائيل ودردائيل وميخائيل واسرافيل وزوزائيل وشمخائيل ونورائيل وقد ابدع كل من هؤلاء جزءًا من هذه الدنيا حتى صارت كاملة فاختار الله عندئذٍ الملك الاعظم عزرائيل لمهمةٍ خطيرة ما عتم ان تمرّد فيها على اوامره سبحانهُ وتعالى فعوقب على خطيئتهِ وندم وبكى دموعاً اطفأت نار جهنم فغفر لهُ الله خطيئتهُ واعاده الى مركزه الرفيع وولاهُ امر الخليقة وادارة الكون . واليزيد يعظمون هذا الملك الذي يلقبونهُ ايضاً بالملك طأووس ويضرعون اليـهِ باعتباره مدبّر الكون وراعي شؤونهِ ويلتمسون منهُ كل حاجاتهم عن يد نبيهم الشيخ عادي فيكون اذاً ثالوثهم المقدس مكوناً من الله والملك طأووس والشيخ عادي . وهم يدعون ان اصول ديانتهم التالية موحاة اليهم من الملائكة والاولياء ولكنهم في الواقع يمارسون الصوم وتقديم الضحايا في بعض اعياد سيأتي الكلام عليها اقتباساً من الاسلام ويأخذون العماد والنصيحة والعشاء الرباني وتحليل شرب الخمر عن النساطرة وتحريم بعض الاطعمة عن اليهود والسجود عن الوثنيين وتفسير الرؤى والرقص في الصلاة عن الشامانية ويؤمنون بالحلول والتقمص اخذاً عن الصابئية ولهم اعتقاد قويم بوجود اخٍ لكل يزيدي في الآخرة على مثال الملاك الحارس ، يتحتّم عليهِ مرضاته وتكريمه ، ويبالغون في كتمان العقيدة على مثال الصوفية ويعتبرون الصلاة بالسر خير ما يكون ولا يحددون لها الفرائض مدعين ان كتبهم في قلوبهم وان الملك طأووس يرشد احباءهُ من دون كتاب ويهديهم غيباً وتكون تعاليمه في كل حين موافقة للظروف وملائمة لتطور الايام . على ان لهم كتابين مقدسين « الجلوه » و « مصحفارش » ومعنى هذا الاخير بالكردية الكتاب الاسود . وهذان الكتابان يتضمنان اصول ديانتهم المتقدمة الذكر وصلواتهم واناشيدهم وتهاليلهم واعيادهم وطقوسهم واساطيرهم المقدسة نقتطف منها بعض الشيء بقدر ما يسمح لنا المجال

***

﴿ اساطيرهم المقدسة ﴾ عندهم اسطورة التكوين ان الله صنع مركباً وسار عليه في جوانب البحار وخلق من ذاتهِ درةً وحكم عليها اربعين الف سنة ثم غضب عليها ورماها فتكوّنت الجبال من غضبه ومن دخانها صارت السموات وصعد الله الى السموات وجمدها وركزها بغير أعمدة

اما اسطورة بدء الخليقة فهي على مثال ما ورد في التوراة عن جبل آدم من تراب الارض ولكنها تختلف عنها من حيث ان صانع الانسان الاول كان الملك طأووس فانهُ بعد ما جبل آدم من تراب

وماء ونار وهواء نفخ في اذنيه فانتصب على رجليهِ وأسكنهُ الجنة مدة اربعين سنة وخلق له من تحت ابطه الشمال حواء وجعلها معهُ ولكن الله تعالى امر باخراجهما من الفردوس فعلمهما الملك طأووس الاشغال البشرية كلها وأطعمهما من شجرة الحنطة ونفخ في بطنهما والقاهما على الارض وكانا بلا مخرج فتضايقا فأرسل لهما طيراً اسمه القلاَّج نقرهما وهما نيام ففتح لهما مخرجاً واستراحا فلما استيقظا من غيبوبتهما تنازعا على نسبة النسل وقررا ان يلقي كل منهما شهوته في جرة ويختمها. فبعد انقضاء تسعة اشهر فتح آدم جرتّه فطلع بها ولدان ذكر وأنثى سماها شيت وهورية فأرضعهما مدة سنتين من ثدييه وتناسلت منهما الامة اليزيدية . اما جرة حواء ففسد مضمونها. وبعد هذا عرف آدم امرأته حواء فولدت جنينين نعام ذكراً وأنثى سماها قايين وهليونه تناسلت منهما سائر طوائف هذا العالم

ويروون ايضاً قصة الطوفان على شبه ما وردت في اسفارنا المقدسة ويعتقدون ان سفينة نوح استقرت بعد الطوفان على جبل سنجار

***

﴿ اعيادهم وطقوسهم ﴾ كان اليزيد يقدسون يوم الاربعاء ويعطلون فيه عن العمل الاَّ انهم حوّلوا ذلك منذ حين الى يوم الجمعة مجاراةً للاسلام ولهم ما عدا ذلك اعياد دينية وشعبية تفوق برونقها وطابعها القبيلي الخاص بهجة اعياد سائر الشعوب المتحضرة . في طليعة هذه الاعياد رأس السنة ويسمى بالكردي «سرصالي» . يصادف هذا العيد عندهم يوم اول نيسان (ابريل) بالحساب الشرقي. ففي نصف ليلة هذا العيد ترتدي النساء افخر ما لديها من الالبسة وتتزين بالحلى وترقص مع الرجال على انغام التراتيل الكردية إعتقاداً منهنَّ ان الملائكة ستأتي في تلك الساعة وتسوم الناس هذه العبادة

ثم تتلو كل ايام نيسان اعياد حافلة يحرم فيها الزواج اجلالاً للانبياء الذين تزوجوا في شهر الورود ويمنع خلاله البناء ضنًّا بالحلة الخضراء والازهار الجميلة التي تزدان بها الارض ويطوف الشبان والصبايا في البراري والحقول ويجمعون الورود طاقات جميلة يكللون بها ابواب البيوت ويتحتم على كل بيت ان يضحي في اول اربعاء من هذا الشهر بقراً وغنماً او دجاجاً بحسب طاقته وان يضعها في قدور مطبوخة على قبور موتاه صدقة عن نفسها . ثم تحتفل الطائفة اليزيدية احتفالاً شائقاً بعيد «بيراندة» اي عيد ولادة ملكهم يزيد الواقع في ١ كانون الاول (دسمبر) فيفرحون به ويشربون الخمر ويولمون ولائم فاخرة تدوم حتى الصباح

وفي اليوم العاشر من شهر ايلول (سبتمبر) يحج جميع اليزيد الى قبر الشيخ عادي في قرية باعدري ليحيوا عيد الجماعية وهذا العيد هو عبارة عن سلسلة احتفالات تجري حول تخت الملك يزيد . فتتزايد كل القبائل في نصب هذا التخت ويخلع امير الشيخان عباءة مزركشة على اغا العشيرة

الذي ترسو المزايدة عليه فيُنصب التخت المذكور بين اطلاق الرصاص والاهازيج ونقر الدفوف والتشبيب . ويذبحون ثوراً مقدساً ويطبخونه فكل من يتوصل الى الفوز بلقمة منه ينال مرامه ولا يغادرون قبر نبيهم ما لم يقدموا له احسن الهدايا التي في وسعهم ان يجودوا بها . ولهم اعياد أخرى ثانوية منها عيد القربان تذكار تقدمة ابراهيم ابنه اسحق للرب . ففي هذا العيد يتسلقون جبلاً عالياً متسابقين الى مكان معين يجمعون منه الاخشاب ويحملونها هدية الى مطابخ الامير ويتحتم على كل يزيدي ان يذبح ذبيحة في هذا اليوم. ويعيدون في اول خميس من شهر شباط (فبراير) عيد الخضر الياس ويحتفلون قبل عيد رمضان بيومين بتذكار خلاص احد اوليائهم من السجن ويخصصون اليوم العاشر من شهر كانون الاول (دسمبر) لعيد الاموات. فيزورون فيه موتاهم ويكرمون ذكراهم ويمتثلون لامر الله بالصوم والصدقة والخير فيصومون اربعين يوماً في السنة منها في شهر كانون الثاني (يناير) ومنها في شهر تموز (يوليو) ولا يتأخرون عن تقديم الصدقات لفقراء الملك طأووس

***

يعتقد اليزيد ان كلاً من الملائكة السبعة صنع له سنجقاً على الارض جمعها سليمان الحكيم لديه ثم صارت بعد موته الى يد ملوك اليزيد وهذه السناجق مصنوعة على اشكال نحاسية وحديدية تعلوها صورة طأووس وهي محفوظة عند امير الشيخان مع طلاسم اخرى موروثة عن بعض معابد قديمة كتماثيل حيات وعقارب وغيرها من تعاويذ يزعمون ان الملك طأووس ينتحل اشكالها ليخرج خفية من الجنة ويهبط على الارض وهم يجلون السناجق والطلاسم المذكورة ويطوف بها كهنتهم في بعض مواسم السنة على قراهم كافة بطقوس واحتفالات هي غاية في الغرابة ويجري التطواف المذكور ثلاث مرات في السنة على المنوال الآتي فيستقبلها المؤمنون بحماسة فائقة ويقدمون لها التبرعات التي يعود اكثرها للامير

يعمّد القوالون السناجق المذكورة عند اخراجها من مخابئها بماء السماق ويأخذون مع كل منها حملاً مجبولاً على اشكال العفص من تراب الشيخ عادي لتوزيعها على اهالي القرى التي يأمّونها على سبيل البركة

وعندما يقتربون من قرية يزيدية يوفدون امامهم منادياً يحض الناس على استقبال صورة الملائكة فيخرج جميع السكان بحلل بيض نظيفة وأرجل حافية مسبحين مهللين مقدمين البخور والعطور والنساء يمشين امام السناجق مزغردات فرحاً . وما يكاد الموكب يحط رحاله في الساحة العامة من القرية المقصودة حتي يأخذ اكابر تلك القرية بالمزايدة للحصول على شرف ادخال السنجق تحت سقف بيوتهم . وينصب له صاحب اليد الطولى منصة عالية في صدر مسكنه يعمّد عليها الطأووس بكل تبجيل واحترام ويشعل حوله السرج ويجلس القوّالون عن يمينه

وشماله ويشرعون في ضرب الدفوف ونفخ المزمار فيتدفق الناس من كل حدب وصوب للتبرك والزيارة ويدورون جماعات حول الطاووس سبع دورات بخضوع وخشوع واضعين ايديهم على صدورهم رمزاً الى تكفيرهم عن خطاياهم ثم يسجدون ويقبلون الطاووس ويقدمون لهُ الهدايا والنذور التي نووا بها في قلوبهم من مال ومأكول فيقرأ القوالون صلاةً على رؤوسهم تغفر بها خطاياهم كافةً وفي الليل يغسلون الطاووس بماء السماق ويدهنونه بالزيت ثم يملأُون جرةً معدنية خاصة بالماء المذكور ويعطون منها لكل مؤمن لغسل باطنهِ وظاهره

***

﴿ بعض تقاليدهم وعاداتهم ﴾ نخصّ بالذكر من تقاليدهم وعاداتهم الكثيرة اهمها واشدها بروزاً . كانوا فيما مضى يحرّمون تعلم القراءة والكتابة على العوام ويحصرونه في أسرة واحدة تقطن في قرية بعشيقة غير انهم بدأُوا يتسامحون في ذلك مؤخراً واخذ اولاد امرائهم يفدون الى كليات بيروت

اما فيما يتعلق بسائر تقاليدهم فما زالوا يتمسكون بها تمسكاً قويًّا ومنها انَّ الروحانيين لا يمرّون موسى على وجوههم تيمناً باقبال الخير والعوام لا يرتدون الثياب الزرق ولا ذات الطوق المفتوح .ولا يقضون الحاجة في المستراح ولا يبصقون علناً ولا يلبسون السروال قعوداً ولا يتبوّلون وقوفاً . فهذه كلها محرمة كما حُرّم عليهم التلفّظ باسم الشيطان وبكل لفظ يشبهه اكراماً للملك طاووس وفيما يخص المأكولات فقد نهوا عن اكل لحوم الخنزير والديك والغزال والسمك وعن الخس والملفوف (الكرنب) والقرع والباميا من انواع الخضروات وعن الشرب من كوز وهم يتجنبون اكل فضلة غريب وعندهم لكل من هذه المحرّمات اسباب يطول بنا شرحها

***

﴿ أفراحهم وحفلات زواجهم ﴾ بقي علينا وصف حفلات اعراسهم وطريقة زواجهم ونظامه يشترط ان يكون في كل عرس طبل يقرع وزمر يدوي شهادة على حدوث الزواج الذي يتم باحضار رغيف خبز من بيت الامراء او شيخ القرية وقسمته بين العروسين كناموس للخطبة وعقد النكاح وفي اواخر العرس يعلن وقوع النكاح بطلقات نارية وبشهادة أُخرى مقنعة نمسك عن ذكرها فيرفضّ المدعوون وتنتهي الحفلة ويتحتّم على كل شاب ان يتزوج من طبقته مراعاةً للتقاليد الاّ الامير فله ان يختار عروسه من اية طبقة احب وشاء. والزواج يكون مسموحاً بهِ من سن الاثنتي عشرة حتى الثمانين ويسوغ لليزيدي الزواج بالواحدة تلو الاخرى حتى السادسة ولكنهُ يحرّم عليهِ أن يجمع بين اثنتين بغير رضى الاولى. واذا رزق اولاداً من اولى نسائه لا يسمح

لهُ بأن يتزوج مع وجودها من امرأة اخرى . اما الفتاة فلا ترث ابيها وتباع كسلعةٍ واذا امتنعت عن الزواج المختار لها وجب عليها ان تفي لأبيها حقه فضةً او شيئاً من خدمتها وتعب ايديها . واذا اختطف احد امرأة غيره يترتب عليهِ ان يعوض لهُ عنها بامرأته او بأمه او بأخته او ارضائه بمالٍ واذا تغيب رجل عن زوجتهِ حولاً كاملاً تحرم عليهِ ولا يُعطى غيرها. ويحرّم ايضاً على اليزيدي ان يتزوج من امرأة اخيه او من امرأة عمه او من امرأة خاله او من اختين من امٍّ واب

والموت عندهم ليس بالمرحلة الاخيرة من هذه الدنيا بل هو على اعتقادهم سبات يعودون بعده الى هذه الحياة مراراً فاذا كان الرجل شريراً تتقمّص روحه في جسم حيوان تكفيراً عن سيئاتها واذا كان صالحاً عاد الى مرتبة ارقى من مراتب طائفتهم حتى يبلغ درجة الكمال . فعند حدوث وفاة احدهم يضعون في كفه حفنةً من تراب الشيخ عادي ويمسحونه بهِ قبل دفنه ويقرّبون اطعمة عن روحه وتسهر الكواعِك على قبره فيتراءى لها في الليل ما حلّ بروحه

***

ويجدر بنا ان نختم مقالنا بوصايا الملك طأووس المنزلة بكتاب «جلوة» المقدّس التي تتجلى فيها عظمته وسطوته وجبروته : يقول الملك طأووس : —

« المال مالي والبشر عيالي . أنا أفقر وأنا أثري أنا أسعد وأنا أشقي

« لا أحب من يدعوني باطلاً ومن ينكرني أمام الناس أنكره في السماء . أنا أحب من يحبني من اعماق نفسه

« ومن يكرمني ارضى عنهُ وأتجاوز عن سيئاته وأقبل منهُ سجية كرمه عوضاً عن الصوم والصلوات

« أنا أعاقب في عوالم الآخرة من يخالف شرائعي على الارض . ومن لا يشك فيَّ ويدعوني دائماً أحضر عنده في ساعة الضيق والحاجة . أهدي غياً احبائي وأتباعي . ايّاكم أن تذكروا صفاتي أمام الاجانب فتخطون

« لانكم لا تعلمون ما يفعلون . من لا يحسد منكم ولا يزني ولا يكفر ولا يعمل مثل المراطقة أسامحهُ يوم القيامة وارجو من الرب ان يغفر لهُ ويدخله الجنة »

***

واليزيد على اعتقاد يقين بأنهم سيجدون يوم القيامة الشيخ عادي واقفاً بانتظارهم على باب الجنة فيحملهم جميعاً في طبق على رأسه ويعبر بهم بوابة الفردوس آمنين مطمئنين بلا حساب ولا دينونة ولا عقاب

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الدمياطي

— ٨ —

البَلَسَان

محركة ويقال له (البَشَام) هو شجر البلسم المكي المشهور بتضوّع رائحته البلسمية وبانهُ من الاشجار التي تقوم عليها ثروة بلاد العرب

شجرته صغيرة غير شائكة ترتفع ١٥ قدماً . أوراقها ريشية مركبة الواحدة منها تتركب من ثلاث وريقات الى خمس عديمة الاعناق كاملة الحافة او متموّجة قليلاً وهذه الاوراق منثورة الوضع على الاغصان بلا نظام او مجتمعة في طوائف وأزهارها صغيرة مجتمعة في طوائف كذلك

اسمهُ العلمي (Commiphora Opobalsamum, Engler) (قوميفورا اوپوبالساموم) او (Balsamodendron Opobalsamum; Kunth) (بالساموندرون اوپوبالساموم) او (Balsamodendron Gileadense; Kunth) (بالساموندرون جيليادنس) او (Amyris Opobalsamum) (اميريس اوپوبالساموم) وفصيلته البخورية (Burseraceae) (بورسراسية) وبالانجليزية (Balmof Gilead Tree; Mekka—or Gilead -Balsam Tree) وبالفرنسية (Balsamier, ou Baumier de la Mecque) موطنهُ بلاد العرب والحبشة وهو ذائع فيهما الآن معروف في مكة كثيراً وفي بعض جهات الهند والسودان وبلاد النوبة . وقيل إنهُ كان يغرس في مدينة عين شمس بمصر الى العصر الذي وفد فيه على مصر عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب الافادة والاعتبار وأن آخر شجرة منهُ زالت في اوائل القرن السابع عشر

والمنتفع بهِ منهُ سائل راتنجي عطري شبيه بالصمغ يحصل عليهِ بالشق فيرتشح من الشجرة ويسمى (البلسم المكّي) (Mokka Balsam) او (دهن البلسان) وهو البلسم الحقيقي اوسلطان

البلاسم واغلاها ثمناً فقد كان يباع على عهد الرومان بضعف وزنه من الفضة ويدخل في بعض الادوية

والمعروف بالتواتر عند العرب أن بِلْقيس ملكة سبأ ادخلت هذا الشجر الى بيت المقدس في قصتها المعروفة مع سيدنا سليمان عليه السلام وقيل إن كلمة بلسم مشتقة من (بَعْل — شِمِن) العبرية ومعناها (الزيت الملكي)

أما ثمر هذا الشجر فيعرف في العطارة (بحب الباسان) (Carpobalsamum) (قاربوبالساموم) ويقال إن تعاطيه مذهب شديد للارياح المعدية وهاضم للطعام . وخشبهُ يسمى (قسيلوبالساموم) (Xylobalsamum) يتطبب بهِ العرب والهنود وغيرهما ولا يزالان يتجر بهما في بلاد الهند

نبات الكَرْكَديه

او (القِرْقَدِيب) معروف في مصر والسودان ويقال له ايضاً (القَرْقَدِي) و (القِرْقِن) شجيرته تزرع سنويًّا او تكون معمرة بريًّا فيبلغ ارتفاعها سبع اقدام . وفروعها واوراقها واثمارها حمراء قانية جميلة . ورقها كاملة الحافة او قليلة الفصوص . وثمرتها عبارة عن حق بيضي الشكل منته بسن

اسمه العلمي (Hibiscus Sabdariffa, L.) (هيبسقوس سابداريفا) وفصيلته الخبازية (Malvaceae) (ملفاسية)

وبالانجليزية (Jamaica or Red Sorrel; Rozelle Hemp; Indian Hibiscus)

وبالفرنسية (Ketmie acide; Oseille de Guinée) وموطنه الاول جزائر الهند الغربية والآن يزرع في معظم البلدان الحارة وينبت بريًّا في السودان الجنوبي

ينتفع بكؤوس ازهاره اللحمية الكبيرة التي تبقى بعد سقوط تويجات الازهار وتغلظ وتصير عصارية وهي حول الثمار الحقية . وهذه الكؤوس مزّة يصنع منها نوع من المربى الفالوذجي الجيد . وتستعمله العامة كالشاي . ويصنع من الثمار الفجة شراب لذيذ منعش او تدخل في انواع المخللات . وفي بعض الاحيان تستعمل الاوراق الصغيرة الغضة المزّة كنوع من الخضر تطهى

وثمّ في إفريقية الاستوائية صنف من هذا الكركديه اسمه العلمي (H. S. var. altissima) (هيبسقوس سابداريفا التسّيما) يحصل من قلف سوقه على ألياف ناعمة الملمس متينة تشبه ألياف ذلك النوع من الملوخية الذي يزرع في الهند للحصول منهُ على (الجوت) (Jute) الذي يصنع منهُ هناك نوع من الحبال والاكياس والغرائر الكثيرة الاستعمال في مصر في الاقطان وغيرها

الفُتْنَة

نوع من السنط وتسمى بالشام (القَرَظ) و (العَنبرَ)

وهي شجيرة شائكة تكون صغيرة الى متر ونصف طولاً وكبيرة الى ثلاثة امتار فأكثر اوراقها ريشية مركبة مضاعفة في الورقة من ٤ ازواج الى ٨ من الوريقات الريشية وفي كل من هذه الوريقات من ١٢ زوجاً الى ٢٠ من وريقات غير ريشية . شوكها مستقيم . وأزهارها مكتظة في رؤوس كرية صفراء ذكية الرائحة . وثمارها قرون ممتلئة تطول من ٥ سنتيمترات الى ٧

اسمها العلمي (Acacia Farnesiana, Willd.) (آقاسيا فارنسيانا) وفصيلتها السنطية او المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية)

وبالانجليزية (Sponge Tree; Dioscoride's small acacia; Sweet scented acacia)

وبالفرنسية (Acacie odorant; Cassie jaune; Cassie) مواطنها جزائر الفيليبين وجنوب الولايات المتحدة ونيجيريا والشاطىء الذهبي والكنغو وشمال افريقية وجنوب اوربا ومصر والسودان والشام وغيرها . وتزرع بالريڤيرا والشام لزيتها العطري الذي يحصل عليه بتقطير الأزهار ويدخل في الروائح العطرية وتزرع للزينة وعلى السياج لجمال أزهارها وطيب رائحتها

الكِتْر

نوع من السنط معروف في السودان بهذا الاسم شجرته ذات اوراق من النوع الريشي المركب الثنائي الازدواج في كل وريقة ريشية زوج واحد من الوريقات غير الريشية البيضية الاهليلجية او المستديرة . وشوكها قصير متقوس . وأزهارها بيض مجتمعة في سنابل إبطية كالحصل . وثمرتها قرن منبسط طوله ٥ سنتيمترات

اسمهُ العلمي (Acacia Mellifera, Benth.) (آقاسيا ملّيفرا) وفصيلته السنطية او المستحية

وهو ذائع في السودان وادخل الى مصر في القرن الماضي . وفي السودان يحصل من قلف شجره الداخلي على ألياف تنسج منها اكياس لملئها بالصمغ ويقال ان النحل ترغب زهره كغذاء

العُوْط

نوع من السنط معروف بهذا الاسم بالسودان ويقال لهُ (العُوْد) ايضاً

شجيرته تشبه المخروط المقلوب اوراقها من النوع الريشي المركب المضاعف في كل ورقة من ٣ ازواج الى ١٢ من الوريقات الريشية في كل واحدة منها من ٦ ازواج الى ١٥ من الوريقات غير الريشية الاهليلجية الصغيرة وشوكها صغير متقوّس قليلاً طول الواحدة منهُ سنتيمتر

تقريباً . وأزهارها مجتمعة في رؤوس كرية توجد في آباط الاوراق . وثمرتها قرن يقرب لونه الى الصفرة رفيع الطرفين طوله من ٥ سنتيمترات الى ٧

اسمهُ العلمي (Acacia Nubica, Benth.) (آقاسيا نوبيقا) وفصيلته السنطية او المستحية

وهو ذائع في اكثر بلاد السودان ويستعمل قلف شجره في الدباغة ويحصل من قلف الجذع الداخلي على ألياف جيدة يستعملونها هناك في بعض حاجاتهم

نبات الشّشْم الاسود

المعروف (بحَبّ السودان) و (حبّ العين) و (حبّات العين)

نبات سنوي معتدل الساق يرتفع من ٣٠ سنتيمتراً الى ٦٠ يكسوه وبر قصير خشن ذو غدد اوراقه صغيرة من النوع الريشي المركب في الواحدة منها اربعة ازواج من الوريقات البيضية الشكل. ثمراته قرون مزغّبة طول الواحد منها ٢½ سنتيمترات الى ٥ وعرضه نصف سنتيمتر تقريباً

اسمهُ العلمي (Cassia Absus, L.) (قاسيا آبسوس) وهو من جنس السَّنَى وفي رأي الاستاذ ألبينوس (Alpinus) ان كلمة Absus مأخوذة من اسم نهر في فلسطين . وفصيلته السنائية (Caesalpiniaceae) (سزالبينياسية) وبالانجليزية (Flour-Leaved Cassia) وبالفرنسية (Absuscassie)

وحب السودان معروف في الهند والسودان وبذوره تستعمل فيهما بعد سحقها كالأثمد للعين ويشتفى بها في الارماد المزمنة . وفي السودان تداوى بها السَّعْفَة (Ringworm) وتسمى البذور بالفارسية (جشميزك) او (تشميزج) ومعربها (جَشْميزَجْ)

نبات القهوة السوداء

ضرب من السَّنَى يسمونه في بلاد البنغال بالهند (كلكشندا) (Kalkashanda)

عشب سنوي شبه شجيري يرتفع الى خمسة اقدام . اوراقه من النوع الريشي المركب في الواحدة منها اربعة ازواج او خمسة من الوريقات الضيقة الحادة القمة . أزهاره صفراء وثمراته قرون في صورة الخطوط

اسمهُ العلمي (Cassia occidentalis, L.) (قاسيا اقسيدنتالس) وفصيلته السنائية ايضاً وبالانجليزية (occidental cassia) معروف في الهند الصينية والبنغال وجنوب الهند وبورما وجزائر الانتيل والسينغال والسودان ينمو بريًّا فيها . والمستعمل منهُ في الطب الاوراق والجذور والبذور فالاوراق المسحوقة تدمل بها الجروح الحديثة والجذور تدر البول والبذور تداوى بها السَّعْفة ويستعمل منقوع الاوراق مضادًّا للحميات الصفراوية كما تستعمل البذور المحمسة المطحونة عوضاً عن قهوة البن العادية وهذا سبب التسمية بنبات القهوة

أبدع طرق الشام

وأروعها : بين انطاكية واللاذقية

لوصفي زكريا

—٢—

في الكيلو متر ٤٧٫٥ على يمين الطريق مكان اسمه « يايلا » ومعناه بالتركية المرتع ، يعلو نحو ٧٤٠ متراً عن سطح البحر ، وهو جميل المنظر جيد الهواء ، فيه عين ثرة يتدفق منها ماء عذب بارد ، واشجار دلب عظيمة باسقة وبناء كبير مستطيل اتخذوه مقهًى يرتاده ابناء السبيل الذين يجذبهم حسن المكان فيستريحون فيه برهة . وهنا يتمتع السائح بمنظر الجبل الاقرع واسمه القديم Cassius الشامخ بذورته المخروطية الشبيهة بفوهة البراكين الى علو ١٧٥٩ متراً ، وتحته جبل آخر يناوحه الى علو قليل يدعونه هناطوران داغ ومعناه الجبل الواقف وكان اسمه القديم Anti-Cassius

يقف هذا الطود الاشم في ساحل الشام الشمالي كالمنار المرفوع يشاهده ارباب السفن في البحر والقوافل في البر من مئات الاميال ، وهو كما يظهر من اسمه اقرع اي عار عن الحراج ادكن اللون يغشاه الضباب في اغلب الاحيان . وقد كرّمه الفينيقيون واتخذه اليونان والرومان رمزاً لعبادة المشتري ، وصعد اليه القيصر ادريانوس وانتظر هزيع الليل الاخير ليشاهد اقبال النهار في الشرق وادبار الليل في الغرب في آن واحد ، وقدم القيصر يوليانوس فيه قرابين للشمس المشرقة ، ولا يزال النصيرية فيما قيل ينحون هذا المنحى

لم يتح لي الصعود الى ذروته ، لكنني علمت ان الواصل اليها يسرّح بصره في مشاهد غاية في الروعة والامتداد . فكأن خارطة شمالي الشام المفصلة تتكشف امامه بألوانها وخطوطها ومرتفعاتها ومنخفضاتها ومراكز مدنها وقراها . ففي الغرب البحر المتوسط ترغي وتزبد امواجه عند حضيض هذا الجبل ويزهو بزرقته وسعته الممتدتين إلى الافق الممعن في البعد وتظهر فيه البواخر صغيرة كالزوارق ؛ وثمة جزيرة قبرص ترى بجلاء كسلحفاة سابحة مدت رقبتها الطويلة تحاول لثم الساحل الشامي ، وفي الشمال عن بعد في انحاء كيليكية من بلاد الترك سلسلة جبال طوروس المكللة بالثلوج

في الشتاء والربيع ، وعن كثب داخل حدود الشام الحالية سلسلة جبال آمانوس « اللكام » ثم سهل العمق الافيح وبحيرة انطاكية الزرقاء ووادي العاصي النضر وسواحل الاسكندرونة والسويدية المرعة وجبل سمعان الذي فيه دير القديس سمعان العمودي؛ وفي الشرق الجبال الوضيعة الممتدة من وادي العاصي إلى غربي حلب وجنوبها كجبل القصير والجبل الاعلى وجبل باريشا وجبل الزاوية وجبل الكرد الشمالي (١) وجبل سمعان الشرقي (٢) وجبل الاعص ، وفي الجنوب جبال الباير والبسيط والاكراد الداخلة في حدود اللاذقية والمغشية بالحراج الغبياء التي سيأتي ذكرها ثم سواحل اللاذقية وجبال النصيرية وقمم لبنان الشمالي المكللة بالثلوج في معظم ايام السنة

وبعد منتزه يايلا تنحدر الطريق نحو بقعة منخفضة محاطة بالجبال في وسطها في الكيلومتر ٥٢ قرية كبيرة اسمها (اردو) ومعناه بالتركية الجيش والمعسكر ، لان أهل هذه القرية وعددهم ٧٥٠ تركمان من اصول ومناشيء مختلفة ، وما خلا عدد ضئيل من النصارى ، وهي حسنة الدور بعضها مسقوف بالآجر الاحمر ، جددت بعد الخراب الذي اصابها عقب الاحتلال الفرنسي بتهمة اشتراك اهلها بالثورات التي حصلت ضد ذلك الاحتلال في سنتي ١٣٣٩ و ١٣٤٠ هـ . وعلو الاردو عن سطح البحر ٤٨٠ متراً وفيها مسجد واحد ومدرسة للحكومة ومخفر لجنود الدرك ومركز للبرق والبريد والهاتف . وقد تقدم في فاتحة مقالنا ان الادريسي ذكر في كتابه « نزهة المشتاق » وجود حصن في هذه الانحاء اسمه حصن المربادة وان المستشرق الفرنسي دوسسو ظنّ ان قرية الاردو مبنية في مكان هذا الحصن لاقتراب الابعاد التي ذكرها الادريسي عليها . هذا وقد جعلت الاردو قاعدة ناحية تتبعها قرى اكزجي وبلانكوز وسوروثمة وشاقشاق وصونقور وطمطم وقشلاق وغيرها الشبيهة اسماؤها بقرى الاناضول

وفي غربي ناحية الاردو التركمانية ناحية اخرى ارمنية قاعدتها كَسَبْ ، تصل اليها السيارة في لحب (٣) طوله ١٢ كيلو متراً . وكسب قرية كبيرة جميلة عدد سكانها ٢٥٠٠ ذات بيوت منتثرة بعضها مسقوف بالاجر الاحمر تشبه عن بعد قرى جبل لبنان ، لانها بنيت في السفح الجنوبي لجبل الاقرع على علو ١٠٥٠ متراً عن سطح البحر وفي بقعة زاهية بالحراج الملتفة ، ولذلك يقصدها فريق من نصارى اللاذقية للاصطياف وفيها عدة مدارس ودير عظيم للآباء

(١) في شمال الشام جبلان ينسبان الى الكرد او الاكراد احدهما يتبع حلب ويؤلف قضاء خاصاً قاعدته بليدة عفرين المستحدثة واهله اكراد اقحاح لا يعرفون العربية . وثانيهما يتبع اللاذقية ويؤلف ناحية واهله اكراد اتوا منذ عدة قرون وتأثروا بالبيئة العربية ولم يعد لهم من الكردية الا الاسم

(٢) في شمالي الشام جبلان ينسبان الى القديس سمعان العمودي احدهما غربي حلب على بعد ٤٠ كيلومتراً وثانيهما غربي انطاكية وقرب السويدية والبحر على بعد ٢٥ كيلو متراً . وفي كليهما دير عظيم خراب باسم القديس المذكور . ولعل الثاني هو الاصح في الانتساب وقد ذكر ياقوت في معجمه هذا الدير الثاني وأخطأ بقوله يصعد منه الى جبل اللكام وصحيحه ان يقول الى الجبل الاقرع (٣) عنيت باللحب الطريق غير المعبدة الصالحة لسير السيارات في الفصول الحسنة فحسب واستعملها مقابل كلمة Piste الفرنسية كما ان الطريق المعبدة مقابل كلمة Chauss

الفرنسيسكانيين الذين يهتمون بكثلكة هؤلاء الارمن . وقد جعلت كسب قاعدة ناحية تتبعها قرى الارمن المجاورة وهي ايكيز اولوف وقره طوران وكوركنه ومرسلك

وأرمن الجبل الاقرع كأرمن جبل موسى الممتد غربي انطاكية عريقون في قدمهم وسكناهم في هذه الانحاء ، وربما كان ذلك منذ القرن الاول الميلادي على عهد احد ملوكهم ديكران الذي حكم انطاكية زمناً يسيراً ثم ازاله الرومانيون وبقي قومه في الاماكن التي اقطعها لهم . وهم هنا ما برحوا محتفظين بلغتهم وتقاليدهم الخاصة ، لكنهم في المذهب منقسمون الى نحل شتى : غريغوريين وبروتستانت وكاثوليك

وهؤلاء الارمن كأبناء جلدتهم في كيليكية كانوا في زمن غارات البيزنطيين والصليبيين والتتار على البلاد الشامية الاسلامية يرشدونهم الى المسالك والعورات التي كانوا مطلعين عليها بحكم المجاورة والاتصال ويقدمون لهم ارباب الصناعات الحربية التي كانوا بارعين بها كبناة القلاع والحصون وعارفي قواعد حصارها والدفاع عنها والنقابين والنفاطين ورماة المنجنيق وغيرهم من مستعملي آلات الهدم والحرق . وما برح الجيش الفرنسي في بلاد الشام يجمع من متطوعتهم عدداً وفيراً خدموه اكبر خدمة في اطفاء ثورة الحلبيين في سني ١٣٣٩ و١٣٤٠ وثورة الدمشقيين في سنة ١٣٤٤ هـ

بعد مغادرة قرية الاردو تبدأ بداعة هذه الطريق وروعتها — اللتان جعلناهما عنوان مقالنا — بالظهور في اجلى مباهجها . اذ ان الطريق بعد الاردو تجتاز جسراً طوله ثلاثون متراً فوق نهر القرشية احد روافد النهر الكبير الشمالي ، ثم تتغلغل وتتعمج بين حراج الصنوبر الملتفة التي تتيه بنضرتها ورشاقة سوقها وشذا اريجها ولا تزال في انحدار متوالٍ تعوجُ تارة وتستقيم اخرى بين تلك الحراج حتى تصل في الكيلومتر ٦١٫٥ الى الحد الفاصل بين حكومتي انطاكية واللاذقية حيث العلو ٤١٠ امتار ثم تعود الى الصعود تدريجيًّا في ناحية الباير التركمانية ذات الجبال والحراج والمنعرجات والثنايا [١] الرهيبة المتوالية ، منها في الكيلو متر ٦٢ ثنية تنسب الى قرية دوز آغاج القريبة منها . واخرى في الكيلو متر ٦٤ تنسب الى قيزيل داغ «الجبل الاحمر» علوها ٨٠٠ متر وفيها منظر جميل يشرف على الجبل الاقرع واعضاده — الشرقية . وهكذا الى ان تصل في الكيلومتر ٦٦ الى ثنية «عين الحرامية» التي ينكشف فيها البحر المتوسط وحيث العلو ٦٢٩ متراً

هنا في عين الحرامية صفحة لا تمل ، ورؤية لا تحتوي ها بيت القصيد في هذه الطريق التي قلنا انها ابدع طرق الشام واروعها . ففي الغرب البحر المتوسط يمعن في التبسط والابتعاد حتى يلامس السماء الصافية ، ويشتد هذا البحر في زرقته النيلية او يجعلها خفيفة فضيةً بحسب ساعات النهار . وثمة شطوط — وبينك وبينها نحو عشرة كيلومترات — تظهر شقراء ملطخة بقطع بيضاء ربما

(١) الثنية كل عقبة مسلوكه محصورة في الجبال وجمعها ثنايا ويقابلها في الفرنسية col

انت زبد الامواج المتكسرة عند اقدامها . وعلى مقربة من تلك الشطوط جبل متواضع في علوه وضخامته اسمهُ صير تلان داغ اي جبل الضبع زحف نحو البحر واحدث فيهِ رأساً يعرف الآن برأس البسيط وقديماً بـ Cap posidum على يمينهِ خليج صغير لايواء السفن يدعوه الملاّحون جوف البسيط

وبينك وبين تلك الشطوط حراج وسيعة ملتفة كأنها لجة سندسية تبسطت فوق الهضاب والسفوح وغشت على الاودية والمشارف وحجبت المضائق والمعاطف واخفت تحت ظلالها مزارع وضيعات ذات دور منتثرة ، منها دير عظيم للفرنسيسكانيين ، وفي ساعة الطفول تنعكس اشعة الشمس على قشور الصنوبر الحمراء الملساء فتظهرها كالجمار الملتهبة

وفي الشمال الجبل الاقرع واعضادهُ المترامية على اقدامه ، تظهر في جملتها وعثاء المنظر ، دكناء اللون متمعجة الشعاب ، كثيرة المخارم والفجاج ، اكتست حتى منتصف علوها بالبلاّن والبربريس واشباهها من الانجم الشائكة ، ثم رفعت قمماً من علو ١٢٠٠ الى ١٧٥٩ متراً ، جرداء يكسوها الضباب الخالد وتحيط بها ذكريات التمجيد والتكريم . وفي الشرق جبال الباير المغشاة بالحراج الغبياء العذراء[1] ذات المنظر السندسي النضر والاريج الراتينجي العطر الذين يأخذان بمجامع القلوب

اما العين « عين الحرامية » التي تبدل خوفها القديم امناً ووحشتها انساً فهي في اسفل الطريق المعبدة ذات ماء عذب بارد ، عمل لها حوضان تظللها اشجار الصنوبر الباسقة . ونداوة هذا المكان وفتنته وفوحان اريجه الراتينجي ونضرته تجعله صالحاً لبناء فندق للاصطياف او مصح للمصدورين الذين يجدون فيهِ كل اسباب الهناء والشفاء

وثمة شعب طوله نحو كيلو مترين ونصف او اقل يأخذك تحت مخرفة[2] جميلة بين الحراج الغبياء العذراء الى حصّاة اي ساحة عارية بين اشجار وارفة[3] تحسبها قطعةً فرزت من مجاهل افريقية الاستوائية وغاباتها الرهيبة التي كنا نقرأ عنها ثم نشاهدها في دور السينما . هذه الساحة التي ليس لها اسم ولا يعرفها بعد الاّ القليل انفسحت بين تلك الحراج الملتفة ونمت حولها اشجار عظيمة دهرية من البلوط والزان والدلب وغيرها ، ثم ربت بين هذه الاشجار دوالي العنب البري وعرائش الملعى والعمشق وغيرها من النباتات المتسلقة والمتهدلة ، وامتدت من شجرة الى اخرى واحاطت بسوقها واشتبكت حتى صارت كقبب السرادق او الصواوين الخشبية . وهناك عين جارية تتدفق تحت دلبة عظيمة تزيد في طراوة هذه الساحة ورونقها يخر ماؤها كالشلال وينحدر نحو واد لا يقترب منهُ لالتفاف نباتات السرخس والطحاب والعليق وغيرها ، ناهيك السراطين التي لا تعد ولا تحصى . وتحاول اشعة الشمس ان تخترق هذه الاشجار والانجم الملتفة والعرائش المشتبكة فلا تجد الى ذلك سبيلاً . لا جرم ، ان عين الحرامية

---

(١) الغبياء هي الحراج ذات الشجر الملتف والعذراء التي لم تمسسها يد حاطب بعد

(٢) المخرفة الطريق بين الاشجار ويقابلها في الفرنسية allée (٣) يقابلها في الفرنسية كلمة clairière

ومشاهدها وينابيعها وحراجها وشذا اريجها وساحتها الظليلة البليلة هي من اجمل اماكن النزهة والعزلة واجذلها في شمالي الشام يجدر بحكومة اللاذقية ان تعنى بها وتقيها هي والحراج — المجاورة لها من فؤوس الحطابين وعبث المخربين ريثما تقوم ببناء مصيف او مقصف صالحين لارتياد محبي التمتع بمثل هذه المحاسن الطبيعية وراغبي الشفاء من الامراض الصدرية

وعلى ذكر هذه الحراج اقول انها من اجل ما رأيت في بلاد الشام سعةً وكثافةً وحسناً تبلغ مساحتها فيما قيل نحو عشرة آلاف هكتار . والجنس السائد فيها هو الصنوبر المعروف بالحلبي يليه الزان والقطب والسنديان والزمزريق والبطم والزعرور البري والاجاص البري، وفي الاودية الرطبة الدلب ، وثمة بعض الانجم والاعشاب النافعة اخصها السماق ونبات البيرتر الطبي

على انني لحظت في كثير من الاسف ان صنوبر هذه الحراج قد نشبت في كثير من اشجاره مخالب حشرة يغلب على ظني انها البومبيكس الاحتفالية Bombyx processionnaire التي تعد من افتك اعداء حراج الصنوبر . فهي هنا نسجت على اغصانه شباكها الشبيهة بالعنكبوت فغيرت بهجته وصوحت نضرته ، وشرع هذا الكثير المصاب بالجفاف والانقصاف . ولا ادري ان كانت « دائرة الزراعة والحراج » في حكومة اللاذقية على علم بهذا الداء الفتاك وعلى عزم الاهتمام بمعالجته قبل تفاقم شروره وانقراض آخر تراث من هذه الثروة الطبيعية التي لا تعوض بقرون كما انقرض امثالها من معظم جبال الشام بحكم نقص التفكير وسوء التدبير

هذا وكما تمتاز هذه البقعة الجبلية بحراجها الجميلة تمتاز ايضاً بوجود انواع من الحجر الاخضر المعروف بالسماقي وكذا انواع من الاحجار ذات الالواح والطبقات كالاردواز والپورفير والشيست والكلس . وقيل ان استخراج الحديد في جهات البسيط ممكن واقليم هذه البقعة رغم قلة ارتفاعه عن سطح البحر يعد صالحاً للاصطياف لدوام الرياح البحرية العليلة

اما التركمان القاطنون في هذه البقعة وفي ناحيتي الاردو والقصير الفوقاني — وقد تكرر ذكرهم مراراً — ومثلهم القاطنون في غربي الشام ووسطه وجنوبه ففرقهم عن الترك كفرق الاعراب عن العرب ، هؤلاء بدو واولئك حضر . اذ لا يزال من التركمان في بلاد الاناضول وقلب آسية قبائل عظيمة ذات نجعة وارتياد لمراعي الماشية التي يتعيشون بها دون سواها . على ان الذي في بلاد الشام قد تحضروا وصاروا — قرويين وفلاحين ، لكنهم ما برحوا محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وهي تركية سقيمة دخلها كثير من الكلمات العربية العامية . وقد اختلفت الروايات في تاريخ مجيء هؤلاءِ الى بلاد الشام وسببه . واقرب الاقوال الى الصحة ان اول من جاءَ بهم هو السلطان سليم العثماني حينما اقدم على فتح الشام سنة ٩٢٢ هـ ثم سار على غراره اخلافه من الوزراء الذين تعاوروا الولاية في هذه الديار ، وظلوا يجرفون هذا السيل من حين الى آخر ، يأتي دافقاً ولا يلبث قرناً او اقل حتى يتضاءل بحكم اختلاف الاقليم وتوالي الاحن ،

ودام هذا الجرف حتى اوائل القرن الثالث عشر الهجري، قصد العثمانيون بذلك على ما يظهر تكثير سواد ابناء جلدتهم بين عرب الشام وتزيد نفوذ دولتهم بهؤلاء القوم الذين خلقوا للضرب والطعن

وتركمان الانحاء الشمالية « بين انطاكية واللاذقية » وان بقوا على فطرتهم وجهل ما عدا لغتهم لقرب عهدهم ببلاد الترك واعتصامهم بجبال وحراج لا ترام ، لكن الذين تديّروا منهم انحاء حماة وحمص وتلكلخ وحذور « شرقي طرابلس » والجولان « جنوبي دمشق » ذابوا في البيئة الشامية او كادوا ، لا يميزهم الغريب عن ابناء البلاد الاصلية الا اذا حدّج في هيئاتهم واصغى الى احاديثهم فيما بينهم ، يجدهم محتفظين بقاماتهم وسحنهم التورانية وبلغتهم الموصوفة آنفاً

وقيل ان منشأ تركمان شمالي اللاذقية من انحاء كماخ وارزنجان في شرقي الاناضول الشمالي ، ومنشأ تركمان وسط الشام وغربه وجنوبه من قبيلة افشار التركمانية الضاربة في قلب الاناضول بين سيواس وآذنة ، وان تركمان اللاذقية — متوزعون في ضياع وضييعات اكثرها في ناحية الباير وبعضها في ناحية البسيط واقلها في ناحية البهلولية . واشهر ضياعهم في الاولى كبلية وهي قاعدة الناحية ثم شمروران وشرن ودرويشان وغمام وكبرا وعيسى بينار وقره جاغز وقزل شاط وقولجق وقروجة ونصيبين وزويك . وفي الثانية سرايا وهي قاعدة الناحية وبيت عوان وفاقي حسن وعيسى بكلي وطورنجة وبوزاوغلان وكساجك وزغرين ومران وفي الثالثة صليّب وبرج اسلام وهما كبيرتان ومجموعهم في هذه النواحي الثلاث نحو خمسة عشر الفاً ، يغلب عليهم الجهل والغفل والبؤس ثم الانقياد إلى زعمائهم الملقبين بالاغوات ذوي السيطرة الاقطاعية المخلدة منذ العصور المتوسطة

هذا ومن عين الحرامية يتمكن المولع بالسياحة ان يصل بعد ساعة ونصف الى قرية الفاقي حسن التركمانية ، وفي قربها في قرية باغجغاز الارمنية دير كبير للآباء الفرنسيسكانيين ، وهؤلاء كزملائهم الذين في قرية كسب المذكورة آنفاً همهم ان يكثلكوا الارمن . ويمكنه أيضاً ان يصل بعدها خلال ساعة الى شاطىء البحر ويشاهد فيها رأس البسيط والاطلال الأثرية التي حوله وجون البسيط الذي قضى فيه اسطول ابراهيم باشا المصري فصل الشتاء عام ١٢٤٨ هـ

رجع إلى الطريق — بعد عين الحرامية تظل الطريق في صعود إلى ان تصل في الكيلو متر ٦٧ الى علو ٨٥٠ متراً وهو منتهى العلو عن سطح البحر ، وهنا منظر ممتد النهاية جميل للغاية يشبه ما في عين الحرامية . ثم تشرع الطريق بالانحدار السريع فتمر في الكيلو متر ٦٩ بثنية تكشف حراج الباير الشرقية الممتدة حتى الطريق المعبدة بين اللاذقية وجسر الثغر . وثمة جبل منفرد ومغشى بالحراج يشبه سرج الخيل ، علوه عن سطح البحر ٣١٢ متراً وفيه عين ثرة ذات ماء عذب بارد تدعى قسطل معاف وفي الكيلو متر ٧٠،٥ منظر جميل للغاية يمتد نحو الشرق والجنوب والغرب ويشرف على حراج الباير ووادي النهر الكبير وجبال النصيرية وسواحل اللاذقية . وفي

الكيلو متر ٧٤ قرية زنيزوف التركمانية ووادبها حيث العلو ١٦٠ متراً ، وفي الكيلو متر ٨٢ نهر قرب قرية بلوران حيث العلو ٧٠ متراً ، وفي الكيلو متر ٨٥ على يمين الطريق قرية قرجالية وثمة سفوح ذات صخور بيضاء وكثبان رملية نبتت فيها اشجار الصنوبر ، وفي الكيلومتر ٨٩ جسر حديث مبني بالاسمنت على نهر المنديل حيث العلو ١٧ متراً وحيث منتهى الحزون ومبدأ السهول . وعلى يسار الجسر لحب يذهب الى قرية زغرين فقرية سرايا قاعدة ناحية البسيط . وفي الكيلومتر ٩٠ تجتاز الطريق نشزاً ذا تربة كلسية على يمينه مشهد جميل نحو البحر . ثم من هنا تظل الطريق سائرة بين سفوح ناحية البهلولية في الشرق والساحل البحري في الغرب . وفي هذا الساحل قريتا برج اسلام وبرج صايب التركمانيتان الكبيرتان . وفي قربهما على البحر فرضة تدعى ميناء الفاسري فيها مرفأ اثري اسمه القديم Pasieria . وفي الكيلومتر ٩٧ مفرق الطرق اللاحبة الذاهبة الى قرى الشبطلية وبرج صايب في الغرب وجوزية في الشرق . ومن ثمَّ تسير الطريق على خط مستقيم في سهل افيح كثير التراب والعثير وتجتاز على التوالي اودية مياهها جافة في معظم ايام السنة منها نهر العرب الذي يفصل بين حدود القرى المتكلمة بالعربية عن المتكلمة بالتركية ، ووادي جهنم ونهر الشبيط

ومن هنا تزداد اشجار الزيتون وتظهر اكثر نموًّا والتفافاً ، ومثلها ايضاً حقول القطن المنتثرة في هذه الانحاء، يزرع القطن فيها عذياً دون ري وفي الكيلو متر ١٠٨ مفرق اللحب الذاهب الى مينة البيضاء والى رأس الشمرا الذي ظهرت قبل خمسة اعوام بين رسومه الطامسة عاديات هامة منها قطعة عاج من الصناعة الاقريطشية واوان مصرية من الرخام الابيض وخناجر ومدى من البرونز ودمى مصرية من البرونز ، وظهر ايضاً في تل مركوم مستودع اسلحة استخرجوا منهُ رماحاً وفؤوساً وسيوفاً والواحاً من الاجر المشوى فيها كتابات بعضها بالحروف البابلية وبعضها بحروف مجهولة يحاول علماء الآثار حلها ولما ينتهون ، وهي تعود للقرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد . وبعد الكيلو متر ١٠٨ تظهر مدينة اللاذقية عن بعد بما دُنها البيضاء وسقوفها الحمراء وفي الكيلومتر ١١١ تمر الطريق بين كروم الزيتون وبساتين البرتقال واسيجة الصبر « التين الشوكي » المحيطة بقرية دمسرخو النصيرية . وهنا لحب يذهب غرباً نحو رأس ابن هاني الذي حوله شبه جزيرة فيها اطلال دارسة كأسس وجدران ومدافن واساطين اعمدة ومدرج وهيكل وغير ذلك مما يعود على ما يقوله الاثريون الى بلدة كان اسمها ديوسپوليس Diospolis. وفي الكيلومتر ١١٣ تمر الطريق بين آثار مدافن قديمة ، وعلى يسارها تل فاروس الذي كان فيه في العصور المتوسطة دير عظيم اسمه دير الفاروس ، وفي الكيلومتر ١١٥ مدينة اللاذقية الجميلة التي لها ولما يعدها من البلدان والبقاع الساحلية والجبلية تاريخ واسع وحديث ماتع ربما عقدت لهما مقالات خاصة في فرصة اخرى

النور والاضاءة

بحث علمي عمليّ

للدكتور الياس صليبي

— ١ —

جاء في دائرة المعارف البريطانية ان النور هو التأثير الحسّي الذي نشعر بهِ عن طريق العين ولـكن ما هو النور وكيف يحدث وهل هو ذرات او امواج ؟ كلّ ذلك أمور تضاربت فيها الآراء وقد شرحها المقتطف في مقالة نفيسة ظهرت من بضع سنوات اليك بعض ما جاء فيها

كان العلماء فريقين في نظرهم الى النور الفريق الاوّل وزعيمهم نيوتن يقولون انهُ ذرات صغيرة تنطلق بسرعة فائقة من جسم منير فتؤثر في شبكيّة العين وعصبها تأثيراً يجعلها تبصرهُ والفريق الثاني وزعيمهم هو جنس يرون انهُ تموّجات أفقية يرسلها الجسم المنير في الاثير فتسير سيراً عموديًّا حتى اذا بلغت العين أثرت في شبكيتها تأثيراً يؤدي الى رؤيتهِ . وجاء بعد هذين الفريقين العالم الطبيعي الشهير كلارك مكسويل وقال ان امواج النور من نوع الامواج الكهربائية المغناطيسية فهي في ذلك تشبه تموّجات اشعة إكس والاشعة اللاسلكية.وجاء أخيراً الاستاذ كمطن وقال ان النور امواج او ذرات من القوّة تسير سيراً موجيًّا وان الـكهرب الاول المنطلق من جسم منير بسرعة عظيمة اذا أصاب لوحاً من البلاتين مثلاً تحوّلت قوّة حركتهِ الى فوتون اي الى ذرة من أشعة اكس وهذه تنطلق بسرعة النور فاذا أصابت كهرباً في لوح خشب او شيء آخر أخذ الـكهرب قوّتها وانطلق بسرعة الـكهرب الاول الذي اوجد الفوتون نفسه . وقد تمكّن العلماء بهذه النظرية من تعليل بعض المظاهر الطبيعية التي لم يكونوا يستطيعون تعليلها بواسطة النظريات السابقة . انتهى ما جاء في المقتطف

والنور نوعان طبيعي وصناعي

والشمس مصدر النور الطبيعي اي النهاري ونورها ابيض زاهٍ يفضل كثيراً كلّ الانوار الاخرى واذا اردنا ان نكوّن بالصناعة نوراً ابيض مشابهاً لنور الشمس يجب ان نحمي جسماً جامداً الى

درجة التوهج فقطعة الحديد المعرّضة لنار الكير تخرج اولاً اشعة حمراً يشتدّ احمرارها بعد قليل وتخرج في الوقت عينه أشعة برتقالية ثم تخرج بعد ذلك على التوالي أشعة صفراً ثم خضراً ثم زرقاً ثم بنفسجية وحينئذٍ يلوح مجموع هذه الاشعة للعين كنور ابيض شديد اللمعان . فشعاع النور الابيض المتوهّج اذاً ليس بسيطاً كما يخيَّل الى الناظر اليهِ ولكنهُ مركّب من عدد من الاشعة المختلفة الالوان والانحراف كما ظهر من العملية التركيبية التي تقدّم وصفها وكما يظهر من العملية التحليلية التالية

اذا اجتاز شعاع من النور منشوراً زجاجيًّا موضوعاً في فتحة تؤدي الى غرفة مظلمة ثم سقط على حاجز في هذه الغرفة تحلّل هذا الشعاع الى الاشعة الاصلية التي يتركب منها وظهر على الحاجز كشريط مستطيل مختلف الالوان الجزء الاقرب منهُ وهو الاحمر اقل هذه الاشعة انحرافاً والجزء الابعد وهو البنفسجي أكثرها انحرافاً . ومجموع الاشعة الصادرة من جسم نيّر يقال لها طيفه واول من حلّل نور الشمس وهو نيوتن وجد انهُ يتركب من الاشعة التالية وهي الاحمر فالبرتقالي فالاصفر فالاخضر فالازرق فالنيلي فالبنفسجي كما نراها في قوس قزح

ويحتوي شعاع الشمس علاوة على ما تقدّم على أشعة غير منظورة في طرفي طيفه اي تحت الاحمر وفوق البنفسجي

وتشتد حرارة أشعة الطيف كلما دنونا من الاحمر وتزداد بعد ما نتجاوزه اي ان اشدّ الاشعة حرارة هي أشعة ما تحت الاحمر ويسهل اثبات ذلك بمقياس حرارة حساس مدهون بالهباب

ولا ترتفع الحرارة في الطرف الآخر من الطيف حيث اشعة ما فوق البنفسجي التي يتمّ عليها تأثيرها الكيمائي . والفعل الكيمائي لاشعة الطيف على عكس حرارتها يزداد كلما دنونا من البنفسجي

فحرارة الضوء تصدر عن اقل اشعته انحرافاً وخصوصاً عن الاحمر وما تحته اما فعله الكيمائي فيصدر بالاخص عن الاشعة البنفسجية وما فوقها . بقي الاشعة المضيئة وهذه تشمل اشعة الطيف المنظورة كلها واشدها ضياء الاشعة الصفر والخضر

ويختلف طول امواج الاشعة باختلاف انواعها واقصر موجة من امواج أشعة الضوء لا يتجاوز طولها جزءًا من عشرة آلاف من المليمتر ويبلغ طول موجة ما فوق البنفسجي جزئين من عشرة آلاف من المليمتر اما امواج الاشعة التي تراها العين فيختلف طولها من اربعة اجزاء من عشرة آلاف من المليمتر في البنفسجي الى ما يقرب من سبعة اجزاء من عشرة آلاف في الأحمر ويبلغ طول موجة ما تحت الأحمر جزءًا من الف من المليمتر

ويختلف ايضاً عدد اهتزازات امواج الاشعة التي يصدرها النور فأشعة الحرارة او ما تحت الاحمر تبلغ اهتزازات تموجاتها من ١٧١ الى ٣٤٢ تريليونًا في الثانية والاشعة النيّرة التي تراها

العين تبلغ اهتزازاتها من ٣٤٢ الى ٦٨٤ تريليونا في الثانية والاشعّة الكيمائية او أشعّة ما فوق البنفسجي الغير المنظورة يبلغ عدد اهتزازاتها أكثر من ٦٨٤ تريليونا في الثانية وهذا النوع الاخير أشدّ الاشعّة ضرراً بالبصر وهو السبب في الرمد الكهربائي ورمد الكسوف وفقد البصر الناتج عن رؤية الاشياء الشديدة التألّق كالصواعق

وقد نشر شنز روسنو كهوزن ما تسبّبه أشعّة الضوء المختلفة من الضرر بالعين تبعاً لطول تموجاتها فالاشعّة التي يبلغ طول تموجاتها من ٠٫٠٠٠٧٦ من الملليمتر الى ٠٫٠٠٠٤ من الملليمتر تبلغ الشبكيّة وتبصرها العين

والاشعّة التي يبلغ طول تموّجاتها من ٠٫٠٠٠٤ من الملليمتر الى ٠٫٠٠٠٣٥ من الملليمتر تسبّب تألّق العدسيّة ولا تصل الى الشبكيّة الاّ اذا خلت العين من العدسيّة لعلّة ما (كما يحدث بعد عملية المائيّة البيضاء) وفي هذه الحالة اي عند وصول تلك الاشعّة الى الشبكيّة تصاب هذه الطبقة بأضرار مختلفة ويرى بعضهم ان تناقص بصر الذين عملت لهم عمليّة المائية البيضاء مسبّب عن هذا الامر

والاشعّة التي يبلغ طول تموجاتها من ٠٫٠٠٠٣٥ من الملليمتر الى ٠٫٠٠٠٣ من الملليمتر تمتصّها كلّها العدسيّة

واذا كانت تموّجات الاشعّة أقصر من ٠٫٠٠٠٣ من الملليمتر فانها لا تخترق القرنيّة وتحدث في العين عللاً خارجيّة

وانبعاث النور من الاجسام المضيئة ناتج عن ارتفاع حرارتها فمتى بلغت هذه الحرارة ٥٢٥ درجة بالمقياس المئوي بدأت الاشعة الحمر بالظهور ثم تتلوها الاشعّة الاخرى حتى البنفسجيّة بحسب ترتيبها وكلما ازدادت الحرارة ازداد انبعاث الاشعّة البنفسجيّة وما فوقها فيستنتج مما تقدّم ان ضوء الشمس يحتوي على مقدار عظيم من الاشعّة الكيمائية لأن حرارتها شديدة جدًّا . غير ان الجانب الاكبر من هذه الاشعّة تمتصّه طبقات الهواء المحيطة بالارض ولا سيما الطبقات السفلى الكثيفة . والدليل على ذلك ان الشمس حين الغروب عند ما لا تصل أشعّتها الينا الاّ بعد مرورها في طبقات الهواء الأفقيّة الكثيفة تفقد جانباً كبيراً من خواصها الكيمائية فلا تؤثر الاّ قليلاً في لوح التصوير الشمسي وتصبح حينئذٍ ذات لون ارجواني ناتج عن امتصاص الاشعّة الزرق والبنفسجية وما فوقها

فالاجسام النيّرة هي أوّلاً اجسام ذات حرارة مرتفعة وممّا يؤسف لهُ ان الجزء الأكبر من الطاقة يضيع سدًى في توليد تموّجات الحرارة وان الجزء الذي يولّد النور لا يربي على واحد في المائة من مجموع الطاقة لذلك يبذل المشتغلون بالاضاءة جهدهم في البحث عن وسيلة

تمكنهم من زيادة احماء الاجسام ليزداد النور الخارج منها. لكنَّ هناك امراً حرجاً وهو انصهار هذه الاجسام فكلّ معدن يصهر بحرارة منخفضة كالرصاص لا يصلح للاضاءة وعلى الضدّ من ذلك التنجستن الذي يصهر على ٣١٠٠ درجة من الحرارة فانهُ أصلح ما يكون لهذا الغرض(١)

***

﴿النور وتأثيرهُ في الاجسام والعين﴾ لأشعة النور المنظورة وغير المنظورة تأثير مباشر في اجسامنا وفي المحيط الذي نعيش فيهِ فالطقس والضغط الجوّي والرطوبة تتأثر بأشعة الشمس كثيراً او قليلاً والتعرّض لهذه الاشعة يؤثر ايضاً في نمو الجراثيم المختلفة وضعفها ويساعد على نمو النباتات التي تغتذي بها وعلى توالدها

ولكن لم يعرف الاَّ حديثاً ما لاشعة الضوء من الشأن العظيم في تركيب الفيتامينات وهي الموادالغذائية التي لا غنى لنا عنها فقد ظهر من ابحاث كثيرة لا محل لذكرها هنا ان عدداً كبيراً من المواد التي لا تأثير لها فيعلاج الكساح تصبح ذات قيمة علاجية حقيقية اذا عرّضت في ظروف معيّنة لاشعة ما فوق البنفسجي الصادرة من نور الشمس او من مصباح بخار الزئبق وهذه الاشعة تقتل الميكروبات كما يتضح من تعقيمها الماء وتكثر في الجبال حيث الهواء لطيف خالٍ من الغبار ولذلك انشأوا فيها ملاجيء المسلولين ومستشفياتهم . ويزعم الاطباء ان تلك الاشعة هي العامل الاكبر في تحسين حالة المرضى الذين يقصدون هذه الاماكن لانها تقوي فيهم عوامل التمثيل metabolism فيزداد التأكسد وتزداد الوظائف الجسدية نشاطاً وسرعة

وتدلنا العين على ما تحتاج اليهِ من النور فكل نقص او عيب فيهِ يؤثر في الشبكيّة ويتعب البصر

وتختلف مقدرة العيون على احتمال الضوء باختلاف مقدار المادّة الملوّنة التي فيها فمن كان ذا لون أسمر يتحمل اكثر من ذي اللون الاشقر ومن الاحسب(٢) albino لان كثرة المادة الملوّنة السوداء في عيني الاسمر تمتصّ من الضوء الذي يدخلهما ما يزيد عن الحاجة وللعادة ايضاً بعض التأثير فالرجل الذي يقدم من البلاد الشمالية الى بلاد استوائية حارّة تزعجهُ شدّة الضوء لا سيما في الايام الاولى والاحسر (القصير البصر) لا يتحمّل الضوء بقدرما يتحمّله طويل البصر لان البؤبؤ في عين الأحسر اوسع عادة منهُ في عين غيره فيجتازه مقدار أكبر من الضوء ثم لان الحسر الشديد يصحبه غالباً ضمور المشيميّة وزوال ما فيها من المادّة الملوّنة التي نوّهنا عن فائدتها في امتصاص الزائد من الضوء

وتتكيّف العين وفقاً لتغييرات الضوء ولا تتألم من هذه التغييرات الاَّ اذا توالت بسرعة

(١) على ان ما لا تستطيعه الصناعة تستطيعه الطبيعة ففي بعض انواع الحيوانات المضيئة يذهب ٩٩ جزءاً في المئة من القوة التي تصرفها في تكوين النور (٢) الاحسب : ذو بياض مشرب بحمرة

كبيرة فاذا انتقلت العين من محل مضاء إلى محل مظلم أمكنها بعد بضع دقائق ان تبصر قليلاً من غير مجهود سوى اتساع البؤبؤ إلى أن يبلغ قطر دائرته ثمانية ملليمترات ونصف الملليمتر بالاكثر وتحتمل العين كذلك بسهولة نور الظهر في أشهر الصيف ما لم تسقط هذه الأشعة عليها رأساً او تنعكس اليها من اشياء لمّاعة وينقبض البؤبؤ حينئذٍ إلى دائرة قطرها ملليمتر واحد وتسعة اعشار الملليمتر

***

﴿ خواص البصر ﴾ — حسبوا بالتدقيق مقدار الضوء اللازم لتبلغ خواص البصر منتهى قوّتها وأولى هذه الخواص حدّة البصر التي تميز بها تفاصيل ما نبصره وهي تزداد سريعاً بازدياد اضاءة الشيء المنظور حتى تبلغ الاضاءة خمسين لوكساً (١) ثم تصبح الزيادة بعد ذلك غير محسوسة او معدومة تماماً مهما بلغت قوّة الانارة فيخيَّل الينا حينئذٍ أن الاضاءة التي تبلغ خمسين او ستين لوكساً هي غاية ما نحتاج اليه على ان الحقيقة ليست كذلك فان الخاصة الثانية من خواص البصر وهي سرعة الرؤية تزداد سريعاً بازدياد النور الى ان تبلغ الانارة ما فوق المائة لوكس

والخاصة الثالثة من خواص البصر هي سرعة تكييف العين لرؤية أشياء مختلفة الحجم والأبعاد وهذه الخاصة تزداد أيضاً بسرعة الى ان تبلغ الاضاءة سبعين لوكساً ثم تتزايد ببطء الى ما فوق الثمانين لوكساً

***

﴿ عيار الضوء ﴾ لابدّ للمشتغلين بفن الاضاءة من معرفة ما تنفقهُ المصابيح المختلفة والمدّة التي تبقى فيها صالحة للعمل وقوة ضوئها ومن السهل قياس النفقة بعيارات الوزن والحجم المتريّة كالغرام واللتر او بالعيارات الكهربائية كالفولط والأمبير والواط. امّا مدّة العمل للمصابيح المختلفة كمصباح البترول او شبكة اور والمصباح الكهربائي المتوهج فلا يمكن تعيينها الاّ بالتقريب لانّ مصباح البترول يبقى صالحاً للعمل زمناً غير محدود وشبكة اور تطول مدّة عملها او تنقص تبعاً لنوعها والطوارىء التي تنتابها والمصباح الكهربائي المتوهج يضيء من الف ساعة الى مائتين والف ولكن قوته تتناقص في أثناء ذلك

أمّا قوة الضوء فلابدّ لها من عيار خاص وقد اختار أعضاء المؤتمر الدولي الذي انعقد في ٣ مايو سنة ١٨٨٤ عياراً للضوء سطحاً من البلاتين مساحته سنتيمتر مربّع شديد الحرارة

(١) اللوكس هو مقدار الضوء الساقط عمودياً من مصباح قوته شمعة على سطح يبعد عنه متراً ويطلق عليه تروك اسم « الشمعة متر »

والتوهُّج حين انتقاله من السيولة الى الجمودة وسمّوه «عيار ڤيول» ولكن يحول دون استخدام هذا العيار بعض الصعوبات ولهذا استعاضوا عنه بعيارات ثانوية كمصباح كارسل والشموع المختلفة وفي سنة ١٩٢٤ ضبط ايڤ «عيار ڤيول» بأن جعل انبوباً من البلاتين ذا شق مستطيل للمراقبة يتوهج بتيار كهربائي

اما مصباح كارسل الذي يتخذ عياراً فيجب ان يضاء بزيت الزيتون النقي وان يكون قطر لهبه ٢٣ ملليمتراً ونصف المليمتر وارتفاعه ٤٠ ملليمتراً وان يبلغ ما يحرق فيه من الزيت ٤٢ غراماً في الساعة

***

وتختلف الشموع المستعملة كعيارات للضوء باختلاف البلدان فالشمعة الانكليزية تصنع من شحم الحوت ويبلغ ارتفاعها ٤٥ ملليمتراً ويحترق من مادتها ٥٦ ر ٨ من الغرام في الساعة والشمعة الالمانية تصنع من البرافين وقطرها ٢٠ ملليمتراً وارتفاع لهبها ٥٠ ملليمتراً اما الشمعة الفرنسية العشرية فتصنع من الستيارين المستخرج من شحم الحيوانات ويجعل ارتفاع لهبها بحيث يحترق من مادتها سبعة غرامات في الساعة وتبلغ قوّة ضوئها جزءاً من عشرين من عيار ڤيول

وتقاس قوة المصباح عادة على موازاة سطح يقطع لهبه افقيًّا وعلى بعد متر واحد ولكن اذا قسنا قوة المصباح من جميع الجهات الافقية اي على مدار اللهب ظهر لنا ان هذه القوة ليست واحدة فيها كلها على انه يسهل علينا حينئذٍ ان نحسب متوسط القوة الافقية وهذا المتوسط لا يدلنا ايضاً على متوسط قوة المصباح الحقيقية لان نور هذا المصباح ينتشر في جهات اخرى غير الجهة الافقية يجب حسابها جميعها لاستخراج قوّة المصباح الكروية الحقيقية التي تختلف طبعاً عن القوتين السابقتين وهاك جدولاً يبين نسبة عيارات قوة الضوء بعضها الى بعض

—	عيار ڤيول	مصباح كارسل	الشمعة النجمية	الشمعة الانكليزية	الشمعة الالمانية	الشمعة العشرية
عيار ڤيول	١ر٠٠٠	٢ر٠٨٠	١٦ر١٠٠	١٨ر٥٠٠	١٦ر٤٠٠	٢٠ر٠٠٠
مصباح كارسل	٠ر٤٨١	١ر٠٠٠	٧ر٧٥٠	٨ر٩٤٠	٧ر٨٩٠	٩ر٦٢٠
الشمعة النجمية	٠ر٠٦٢	٠ر١٣٠	١ر٠٠٠	١ر١٥٠	١ر٠٢٠	١ر٢٤٠
الشمعة الانكليزية	١ر٠٥٤	٠ر١١٢	٠ر٨٧٠	١ر٠٠٠	٠ر٨٨٦	١ر٠٨٠
الشمعة الالمانية	٠ر٠٦١	٠ر١٢٧	٠ر٩٨٤	١ر١٣٠	١ر٠٠٠	١ر٢٢٠
الشمعة العشرية	٠ر٠٥٠	٠ر١٤٠	٠ر٨٠٥	٠ر٩٢٥	٠ر٨٠٢	١ر٠٠٠

سيّر الزمان

أركان السلام

هل يمكن أن تتوطد

ابراهيم باشا

البرنس سابونجي

أركان السلام

هل يمكن ان تتوطَّد ؟

جورج برنارد شو — انكليزي	« السلام رغبة . والحرب حقيقة » شبنغلر
اندره موروى — فرنسي	« العالم وطن الاوطان » ده مدرياغا
مسز روزفلت — اميركية	« المسيحية هي السبيل » انج ودمنه
الاسقف انج — انكليزي	« سلّحوا الجامعة » كينز
اوغو دانتزيو — ايطالي	« يعوزنا الاخلاص » غاندي
هفلوك اليس — انكليزي	« اوربا لا تتعلَّم الاَّ اذا منيت بنكبة اعظم هولاً من نكبة الحرب الكبرى » لن يو تانغ
ارنست دمنه — فرنسي اميركي	
اوزفالد شبنغلر — الماني	
السنيور ده مدرياغا — اسباني	
مهاتما غاندي — هندي	
لن يو تانغ — صيني	

— استفتاء عالمي لمجلة نامسه الانكليزية —

— ١ —

اوزفالد شبنغلر الفيلسوف الالماني

لا يسع الباحث ان يردّ على هذا السؤال—هل يمكن ان تتوطد اركان السلام العالمي — الاّ اذا كان ملمًّا بتاريخ العالم . ولكن الالمام بتاريخ العالم ، يعني ، معرفة احوال الانسان ، كيف كانت وكيف ينتظر ان تكون . فثمة فرق كبير ، بين رأيك في المستقبل وكيف يمكن ان يكون ، ورأيك في المستقبل وكيف تشتهيهِ ان يكون

السلام رغبة. والحرب حقيقة واقعة . ولكن التاريخ البشري، لم يحقق رغبات الانسان ومثلهُ العليا . فالحياة ، بين الناس والحيوان ، معركة . انها بين الناس معركة بين الافراد والطبقات والشعوب والدول ، وذلك متوقف على طبيعة الحرب وهل هي تجارية او اجتماعية او سياسية . هي معركة في سبيل القوة ، او الربح ، او العدل ، فاذا خابت الوسائل المختلفة التي يسلكها الانسان الى احد هذه الاغراض ، لجأ الى القوة

ومن دلائل الشؤم ان الشعوب البيض هي الشعوب التي تتحدث بالسلام الآن لا الشعوب الملوّنة . فاذا اقتصر هذا الحديث على افراد المفكرين والمثاليين ، فليس في ذلك ضرر ما . لان هذا كان شأنهم في جميع العصور السابقة . ولكن متى نزعت الامم الى السلام، كان ذلك دليلاً على الضعف والانحطاط . فالشعوب القوية التي لم تغلب عليها النعومة والسفسطة ، لا تميل هذا الميل ولا تنزع هذا المنزع . فالنزوع الى السلام ، تسليم للمستقبل ، لان النزعة السلمية المثالية ، تعني الاستقرار النهائي ، وهو حالة مناقضة لمعنى الحياة نفسهِ

ولا بدَّ من الحروب ما زال هناك ارتقاءٌ انساني ، لان النزعة السلمية معناها التسليم بادارة شؤون العالم ، للذين لا ينزعون الى السلام . ولا بدَّ ان يبقى السلام مثالاً اعلى ، والحرب حقيقة واقعة . فاذا عزمت الشعوب البيض ان لا تتولى بعد الآن زعامة الحضارة ، فالشعوب الملوّنة تفعل ذلك ، فيصبح زعماؤها حكام العالم

— ٢ —

ده مدرياغا مندوب اسبانيا في جامعه الامم

السلام العالمي الدائم ، كالسلام القومي الدائم ، لاهو متعذّر اصلاً ولا ممكن اصلاً ، اذا اريد بهِ فترات طويلة من الزمن ليس للعنف فيها شأن كبير في تقرير شؤون الناس والامم

ان بعض الامم الكبيرة ، تمتعت بسلام قومي خلال فترات طويلة من تاريخها. فالولايات المتحدة الاميركية تمتعت بهذا السلام من ايام لنكن. وليس ثمة اي حائل لا يمكن تخطيه ، يحول دون التطوّر الدولي ، نحو حالة من العلاقات بين طائفة من دول العالم، تشبه حالة العلاقات بين الولايات في جمهورية الولايات المتحدة الاميركية. والشروط اللازمة لتحقيق ذلك ، تنطوي عليها الفاظ السؤال نفسه

فالسلام، هو اتفاق بين ارادات متعدّدة. واذن فارادة الدول الستين اونحوها من دول العالم اليوم يجب ان تتفق لكي تفوز بالسلام . ولا يكفي ان تسلّم جميعها ، بقانون دولي واحد ، مع ان هذا التسليم ، امنية تحدى اليها الركائب

ان إتفاق لارادات يقتضي شيئاً اكثر من الاتفاق في اساليب السلوك . انهُ يقتضي اتفاقاً في الاغراض . ولكن كلّ امة من الامم تجعل اغراضها القومية ، هي الاغراض العليا التي تأتمُّ بها

فالسلام لا بدَّ ان يبقى متعذراً ، الى ان تتخلّى الامم عن هذه الاغراض الخاصة في سبيل الغرض الوحيد الجدير بتضافر الارادات القومية في سبيله — وهو تنظيم العالم تنظيماً معقولا يجعله مثوى جديراً بالانسان

ان الوطنية القومية مهّدت السبيل للسلام القومي ، في الامم . وليس هناك من سبيل الى السلام العالمي ، الاّ بتعزيز الوطنية العالمية . ولكن الوطنية العالمية ، لا تدرك باضعاف الوطنية القومية واخمادها ، بل بتطهيرها والتسامي بها

العالم هو وطن الاوطان . ومتى ادركنا هذا اصبح السلام العالمي مستطاعاً

— ٣ —

جون مينرد كينز الاقتصادي البريطاني الكبير

ان توطيد اركان السلام العالمي يقتضي امرين : الاول ان تتضافر جميع الامم التي ترغب رغبة اكيدة في المحافظة عليه . والثاني يجب ان يظهر تضافرها في مظهر قويّ يجعل خطر محاربتها خطراً حقيقيًّا لا يتعرض له الاّ احمق او مغامر

اما الاركان التي نهضت عليها جامعة الامم حتى الآن، فكانت تقوم على فرض خاطئ وهو ان جميع الامم ترغب في السلام والعدل على السواء . لذلك كان مرماها منذ نشأتها ان تضم في نطاقها جميع الامم ، لا الامم الراغبة رغبة حقيقية فيهما فقط . وقد كانت الامم حتى عهد قريب تتظاهر برغبتها في السلام . ولكن هناك امم الآن لا تكتم رغبتها في الحرب . وهذا يبعث على تطور جامعة الامم تطوراً

قد يجعلها في النهاية مشتملة على الامم الراغبة في السلام دون غيرها . وهذا التطور مما يرحَّب به ، وسوف يكون مصدراً للقوة لا باعثاً على الضعف

من العبث ان نبحث في نزع السلاح الآن . بل على الضد من ذلك يجب على جامعة الامم ان تكون اقوى مما هي من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، بل يجب ان تكون اقوى من الدول المعتدية او التي يحتمل ان تعتدي على غيرها ، اذا كان ذلك مستطاعاً . الاَّ ان هذا ، لسوء الحظ ، حلم بعيد التحقيق . لان جامعةً تشتمل على الامم الراغبة في السلام تبقى ضعيفة لا حول لها ولا طول ، اذا لم تضم الولايات المتحدة الاميركية

وقد قيل لنا ان هذا محال لان الولايات المتحدة الاميركية تخشى ان تشتبك في شؤون الدول الاخرى وان تربط مصيرها بمصير سائر العالم بل بمصير الحضارة

— ٤ —

مهاتما غاندي الزعيم الهندي العظيم

اذا انكرنا إمكان السلام الدائم ، فكأنَّنا نكر شعلة الالوهة في طبيعة الانسان . وقد اخفقت الوسائل والاساليب التي استعملت لتحقيق هذا السلام ، لان الذين سعوا اليهِ كان يعوزهم الاخلاص ، من دون ان يدركوا ذلك . فالسلام لا يمكن ان يحقق بتوافر بعض الاحوال اللازمة لتحقيقهِ فقط لانهُ كالتفاعل الكيمائي لا يتمُّ الاَّ اذا كانت جميع الاحوال اللازمة لهُ متوافرة . فاذا تخلَّى زعماء الامم الذين يسيطرون على آلات التدمير ، عن هذه الآلات وهم يدركون نتائج عملهم ، تحقق السلام العالمي الدائم . وهذا مستحيل ما لم تتخلَّ الدول الكبرى عن مشروعاتها الامبريالستية . وهذا بدوره مستحيل ، ما لم تمتنع الامم الكبرى عن الاعتقاد في المنافسة التي تقتل الروح ، بل عليها ان تستأصل الرغبة في زيادة حاجات الانسان، وما ينجم عن ذلك من زيادة مقتنياته الدنيوية

واني اعتقد ان اصل الشر، هو حاجتنا الى ايمان حيّ بالله . ومن مآسي الحياة ان الامم التي تدعي انها تؤمن برسالة السيّد المسيح وتدعوهُ رسول السلام ، لا تعرب عن شيء من ذلك الايمان في اعمالها

لقد تعلمت من حداثتي ، ثم حققت ذلك بالتجربة والاختبار ، بأن اخسَّ الناس يستطيع ان يتعود الفضائل الانسانية الرئيسية . وهذه القوة ، التي لا شكَّ فيها ، هي ما يميّز الانسان عن سائر مخلوقات الله . ولو ان دولة واحدة

من الدول الكبرى ، اقدمت على عمل الانكار العظيم ، لأُتيح لبعضنا ان يرى السلام مستتبًّا على الارض

— ٥ —

اندره موروى الكاتب الفرنسي المشهور

ليس ثمة شيء مستقرّ او كامل في حياة الانسان وشؤونه . فالمحاكم والسجون والعقوبات ، لم تستأصل شأفة الجرائم ، ولكنها جعلتها اقلّ مما كانت فصار في وسع المرء ان يعيش في سلام الى حدّ ما . الاّ ان الحرب الحديثة ، والاسلحة الفتّاكة التي تستعمل فيها ، سوف تصبح خطراً مخيفاً على الحضارة ، حتى ليجب على جميع الناس ان يبذلوا كلّ ما في وسعهم لتنفيذ القانون الدولي ، اذا شاءوا ان لا يقضى على النوع الانساني بالانقراض

ولو ان جامعة الامم ، فازت بتأييد كل التأييد من جميع الامم المتحضرة ، لكان في وسعها ان تصبح اداة هذا العدل الدولي . ولكن الجامعة لم يتح لها امل النجاح في فترة ما من حياتها . فتخلّف الولايات المتحدة الاميركية عن الاشتراك فيها ، حرمها من تأييد احدى القوات الكبرى في العالم . وانكلترا بعد ان اضعفتها مدى خمس عشرة سنة ، هبّت الى تأييدها وتعزيزها بنشاط عظيم ، في وقت ترى فيه فرنسا انهُ من المتعذر عليها ، ان تتحمس لها حماسة انكلترا الآن

لقد أدركنا بعد التجربة ، ان عهد الجامعة كان تعوزه الدقة . فأين نجد العلاج ؟ لا بدّ من اصلاح الجامعة اصلاحاً يمكن الولايات المتحدة الاميركية من الاشتراك فيها واذا تعذّر ذلك وجب انشاء اتحاد اوربي

واني لأخشى ، ان يكون الانسان ، ما يزال في حاجة الى عبر شديدة ، قبل ان يبلغ مستوى الحكمة التي تفرض على الامم قبول النظام الذي تفرضهُ محاكم العدل على الافراد

— ٦ —

الاسقف انج مفكر ديني وفلسفي انكليزي

لو اننا تذكرنا كلمات هربرت سبنسر بانهُ لا توجد كيمياء سياسية تمكننا من استخراج السلوك الذهبي من الغرائز الرصاصية (اشارة الى تعذّر تحويل الرصاص الى ذهب في علم الكيمياء) لوفرنا على انفسنا شيئاً كثيراً من خيبة الآمال من سنة ١٩١٨ الى الآن . ان انقاذ الافراد والامم يتمّ بحسن النية ، لا بأي وسيلة سياسية

ان الادلة التي يبسطها السر نورمن انجل وغيره ضدّ الحرب ، لا يمكن ان تدحض . فالحرب بين امتين متحضرتين خطأ وجريمة . والحرب الكبرى ،كانت حرباً اهلية ، بين امم تشترك في ثقافة واحدة ، وليس بينها فوارق لا يمكن تسويتها . فكانت نكبةً على جميع الامم التي خاضت غمارها . فعود الى حرب من قبيلها ، قد يزجّ اوربا في عصر من الظلمة كالعصر الذي اعترض ارتقاء الحضارة بين سنة ٥٠٠ م وسنة ١١٠٠ م

واسباب هذا الداء —لانا لا نستطيع ان نطلق عليهِ اسماً آخر— هي كما يلي:

١ — النزعة الفطرية في الانسان الى الخصام والكفاح . فقد انقضت على الانسان الوف من السنين وهو لاحم Carnivorous يسير على قدمين . فليس بالسهل القضاء على القرد والببر فيهِ

٢ — الخوف — والخوف في كثير من الاحيان لهُ ما يسوّغهُ

٣ — بقاء الرغبة القديمة في التوسع الجغرافي

اما بواعث الامل فهي كما يلي :

١— اتساع نطاق المعرفة باحوال البلدان الاخرى وثقافتها . فليس ثمة انكليزي ، زار فرنسا او المانيا او ايطاليا او اميركا ، يرغب في ان يؤذي سكان هذه البلدان ، ونرجو ان لا يجدنا زوّار انكلترا شعباً يستحقُّ ان يؤذى

٢ — جرت العادة في الغالب على ان يشهر الحرب ، من يخشى ان يخسر شيئاً . ولكن اذا نشبت حرب اخرى ، فلا ريب في ان من يملك شيئاً سوف يخسرهُ غالباً كان ام مغلوباً

٣ — الحرب بين الامم خطأٌ في فهمنا لتسلسل الحوادث . ويا ليتني استطيع ان اقنع نفسي بأن الحرب بين الامم لا تليها حرب طاحنة بين الطبقات

ولا ريب في ان الديانة المسيحية تملك علاجاً لكل هذا ، إلاَّ انهُ انقضت الفا سنة على معرفتنا الديانة المسيحية ولكننا لم نجرّب علاجها

— ٧ —

أوغو دانزيو رئيس العصبة الايطالية في اميركا

يصبح السلام العالمي في حيّز المستطاع ، متى ادركت الانسانية انها في رغبتها في نشر السلام والخير الاجتماعي العام ، حاولت ان تمنع النزاع المسلح بين الامم بمعالجتهِ من غير الناحية التي يجب ان تعالجهُ منها

ان خطط دعاة السلام ، ترمي في الغالب الى السيطرة على القوى العسكرية ، اعتقاداً منهم ان الشعوب الشاكية السلاح ، لا بدَّ لها من استعمال سلاحها عاجلاً او آجلاً ضدَّ جارها

ثم ان العلاقات السياسية الدولية ، قامت حتى الآن على قاعدة تعزيز قوة الامم الراغبة في السلام ، لكي تروع الامم التي تحسُّ ضرورة استعمال السلاح للفوز بما لا تفوز بهِ بالاساليب السلمية . اي ان هذه القاعدة تقرِّر مبدأً خطيراً وهو ان هناك امماً تشعر بحاجة ملحة الى الخروج على السلام حالة انهُ لم يبذل ايُّ سعيٍ لازالة تلك الحاجة

ان الحروب العسكرية ، قد صدر عليها الحكم الادبيُّ الدولي ولكن الحروب الاقتصادية — والتاريخ يعلمنا انها الباعث الرئيسي على العنف الدولي — هي ما تتحالف الامم في سبيله وتتنابذ . فاذا كان السلم الاقتصادي هو هدف دعاة السلام النظريين لم يكن من الضروري ان تتفق الامم على تحديد القوى الحربية ، لكل دولة من الدول ، لانك في الجماعة المستقرَّة المتمتعة برخاءِ العيش لا تحتاج الى تعيين عدد المسدَّسات التي يحق لكل فرد ان يحملها

— ٨ —

هفلوك اليس
الفيلسوف
والاجتماعي
الانكليزي

اني لا اشك مطلقاً في ان السلام العالمي الدائم مستطاع ، وانه يتحقق متى وجدت المشيئة التي ترغب فيه . فليس ثمة حرب بين الحيوانات القريبة من الانسان ، وليس هناك دليل على وجود الحرب في تاريخ الانسان البدائي

وقد تكون الحرب ، ناحية من نواحي التقدم الانساني ، كانت في الماضي مفيدة ، في تعزيز روح النظام الاجتماعي ، والتعاون ، ولكنها اليوم ، في رأي معظم الشعوب ، اصبحت ولا ضرورة لها ، بل اصبحت وهي مبعث ضرر عظيم

حتى الدولة المنتصرة في الحرب ، قلما تفوز بضمان السلامة ، التي في سبيلها خاضت معمعة الكفاح

ان تضافر الامم الكبرى ، على السعي لتوطيد السلام ، سواءٌ تمَّ ذلك السعي بواسطة جامعة الامم او بأية واسطة اخرى ، يكفي لاحلال التحكيم محل الحرب

واذن فالواجب يقضي علينا ، ان نوضح للناس ، بوسائل التعليم المختلفة ، ما تجلبهُ الحرب على الحضارة من الضرر، وان نبذل ما في وسعنا بصفة كوننا ابناء البلدان الدمقراطية من الضغط على حكوماتنا لالغاء الحرب

— ٩ —

الاب ارنست دمنه مؤلف فلسفي اميركي

أمن المعقول ان تتكلم عن السلام الدائم وهل يمكن ان توطد اركانهُ في هذه الايام القلقة المضطربة ؟ لا ريب عندي في ذلك . فليس يعمد الى التشاؤم بعد مراجعة المشكلات الدولية ، الاَّ من كان الانفعال في طبيعتهِ غالباً على العقل. والادلة التي يستندون اليها — اي تعذر تحويل الناس الى ملائكة ، والصعوبة في التوفيق بين البلدان والسكان ، وبواعث الطمع والغيرة التي لا يمكن استئصالها ، وطغيان الحكومات الدكتاتورية ، ولين الحكومات الدمقراطية — كانت ولا تزال حججهم في قديم الزمان وحديثهِ

فليستندوا اليها ما شاؤوا اذ ليس ثمة ريب ، في ان جميع الامم ، كانت تعتقد من خمس عشرة سنة ، في امكان توطيد السلام . وليس ثمة ريب ، في ان ملايين من الرجال والنساءِ — زهرة النـاس في معظم البـلدان — لا يزالون على هذا الاعتقاد

وكل باحث في تاريخ الفـكر ، يعلم ، ان المعتقـدات التي تسود طوائف كبيرة من الناس ، لا بدَّ من ان تتحقق في النهاية .وكلُّ ما علينا ،هو ان نزيد عدد هؤلاءِ المؤمنين بامكان السلام ، كما زاد عدد المؤمنين بالعلم ، وبالله

لم يأت عصر على العالم ، كان فيهِ الاعتقاد في عدم ضرورة الحرب ، اقوى مما هو الآن . وما نحتاج اليهِ ، انما هو الحكمة ، وضبط النفس ، والقدرة على الفهم ، التي يجب ان تصحب هذا الايمان

فماذا يحول دون هذه السجايا ؟

لماذا لا نبشّر بالمسيحية كما يجب ان تكون ، او كما هي حقيقة ؟ واذا بشّرنا بها ، فما يحول دون نجاحها في هذا الصدد ، كما نجحت في ما لا يقلُّ عن هـذه المشكلة عسراً وتعقيداً ؟

— ١٠ —

المستر فرنكلن روزفلت قرينة الرئيس روزفلت

ان السلام العالمي الدائم مستطاع . ولكنهُ لا يصبح محتملاً ، الاَّ اذا ادركت امم العالم ، بأن حفظ الذات يقتضي التنظيم في سبيل السلام لا في سبيل الحرب

لا يسعنا ان نتوقع عقد معاهدات راسخة على الدهر . فلا بدَّ من ان نجد اساساً ، يمكن ممثلي الامم من الاجتماع والبحث في هدوءٍ وسكون ، وجوه التحوُّل الطارئة على العالم ، والحاجات الجديدة الناشئة عنها

من الواضح ان الشعوب تتغير والاحوال الاقتصادية تختلف فاذا ادركنا ان الخير المطلق ، مفضَّل على الخير الوقتي الذي قد تجنيه دولة من الدول او فرد من الافراد ، أمكننا ان نلتقي ونبحث في المشكلات الناشئة ، وتسويتها ، تسوية معقولة

— ١١ —

ان يو تانغ مؤلف وفيلسوف صيني

ان السلام الدائم متعذر الآن في اوربا للاسباب التالية : —

١ — اننا نبيع ونشتري دوليين ونفكر ونشعر وطنيين

٢ — اننا مخلوقات نصفها عقل ونصفها شعور . وسير الشؤون الانسانية خاضع للشهوات الحيوانية من خوفٍ وحقد ورغبة في الثأر اكثر من خضوعهِ لاحكام العقل . وما زال ستالين وهتلر وموسوليني يحكمون اوربا فالراجح ان الحرب لا تزول

٣ — ان جميع المؤتمرات الدولية تمنى بالحبوط لان المندوبين يمثلون مصالح بلدانهم المختلفة ، وليس ثمة سياسي عالمي ، يمثل مصالح اوربا المشتركة

٤ — الفاشستية تعيش على امل الحرب ، ولا بدَّ من ان تفي بما تعد

ولا يصبح السلام الدائم ممكناً الاَّ : —

١ — متى قرأ جميع الاوربيين لاوتسو واخذوا بقسط من الحكمة والاستهتار Cynicism (ولا ينقذ العالم الاَّ المستهترون)

٢ — متى ساد الفساد والارتكاب الادبي ، واصبح الضباط يحسبون الفرار فضيلة عليا . فاوربا لا تتعلَّم الاَّ اذا منيت بنكبة اعظم جدًّا من نكبة الحرب الكبرى

٣ — متى اصبح للمفكرين نصيب اوفر من التأثير في سياسة الامم وانشئت رابطة إخاء الاوربيين الصالحين الذي يضعون العدل فوق الوطن

ابراهيم باشا[1]

تأليف القاضي بير كرابيتس

للقاضي كرابيتس يد على التاريخ المصري الحديث تذكر فتشكر . فقد نفحنا في سنوات قلائل بأربعة كتب وهي كتاب غوردون فكتاب اسماعيل فكتاب فتح السودان وهذا رابعها في تاريخ البطل المغوار والسياسي المحنك ابراهيم باشا

كانت الصورة الغالبة على الاذهان ان ابراهيم باشا على شهرته في فنون القيادة الحربية وانتصاراته الباهرة في ميادين القتال لم يكن إلاَّ سيفاً في يد أبيه العظيم محمد علي باشا . ولكن اذا أتممت مطالعة هذا الكتاب خرجت منهُ وقد ارتسمت في ذهنك صورة واضحة لشخصية فذة هي شخصية ابراهيم باشا التي جمعت ما قلما يجتمع في خلق فرد من الناس — براعةً في فنون الحرب واقداماً في ميادينها ودهاء وحنكةً في السياسة ومقدرة نادرة في التنظيم والادارة . وقد كان ابراهيم باشا في جميع ذلك صاحب رأي قويم اثبتت التجارب والحوادث صحته وسداده يبديه في غير وجل ولا تردد ولكنهُ كان اذا اختلف رأيهُ عن رأي ابيهِ يغلّب رأي الوالد حبًّا بهِ وبرًّا واذعاناً لهُ واحتراماً

وليست هذه الصورة الجديدة لابراهيم باشا من بنات الخيال الروائي بل هي نتيجة بحث وتنقيب في معظم ما ألف وما كتب عن تلك الحقبة من تاريخ الشرق الادنى من كتب طبعت ونشرت ومذكرات رسمية ورسائل أذيع بعضها في هذه الكتب وظلَّ البعض الآخر مطويًّا في سجلات الوزارات الاوربية او في محفوظات قصر عابدين

والقاضي كرابيتس مدين في الاطلاع على معظم ما لم ينشر من هذه الوثائق لسخاء جلالة الملك فؤاد وبُعد نظره . فقد اباح لهُ جلالته الاطلاع على سجلات عابدين وانفق من جيبه الملكي الخاص على نقل الوثائق المحفوظة في سجلات الوزارات الاوربية المختلفة . لذلك جعل المؤلف ديباجته شكراً خاصًّا رفعه الى مقام جلالة الملك فؤاد

من المسائل التي اختلف فيها الرأي في تاريخ ابراهيم باشا مسألة نسبه وقد ذهب غير واحد من الكتّاب الى ان ابراهيم لم يكن ابن محمد علي . ولكن القاضي كرابيتس اثبت في الفصل الاول من هذا الكتاب اثباتاً قاطعاً ان ابراهيم كان ابن محمد علي وهذا الاثبات مستنبط من فهم دقيق لاحوال ذلك العصر من ناحية وقائم على وثائق لا يتطرق اليها الشك من ناحية اخرى . وبعض

---

(١) Ibrahim of Egypt, by Pierre Crabitès (Routledge London)

هذه الوثائق من سجلات قصر عابدين التي لم تنشر بعد . فظهور بعضها هنا من الخدمات الكبيرة التي اداها المؤلف لفهم حقبة من التاريخ هي من اكثر حقب القرن التاسع عشر غموضاً وإبهاماً

ليس في وسعنا هنا ان نتتبع شخصية ابراهيم وقد اخذت تتفتح عن ازاهير العبقرية منذ ما قدم مصر وتولى فيها عمل الدفتر دار وهو عمل اداري كبير الشأن الى ان تولى قيادة الحملة المصرية في الجزيرة واخضاع الوهابيين وكيف تجلت حنكته السياسية ومقدرته الادارية في معاملة خصومه واتباعهم

ولكن الحقبة التالية من حياته كانت ذات شأن كبير في تاريخ الشرق الادنى واوربا معاً . ففي خلالها حدثت حرب الاستقلال اليونانية ومعركة نافارين البحرية . وقد وقف المؤلف نحو ربع كتابه عليها .. فقد عهد الى ابراهيم من قبل السلطان عن طريق والده محمد علي في ان يخضع الثوار في اليونان . وما كاد يشرف على تحقيق هذه المهمة حتى تألبت دول اوربا ببواعث سياسية ودبلوماسية مختلفة وتدخلت في الامر مؤيدة حق اليونان في الاستقلال . هذا التدخل افضى الى معركة نافارين بين اساطيل الدول الاوربية والاسطول المصري

ولعلّ الخدمة الكبرى التي اداها كرابيتس لفهم عصر ابراهيم باشا قائمة على توضيحه مقدمات معركة نافارين وحوادثها وبواعثها

فقد قرأ الوثائق الرسمية قراءة صبر وفهم وخرج منها برأي جديد يوضح الموضوع ويضعه في نصابه الطبيعي

***

اثبت القاضي كرابيتس ان محمد علي باشا وابراهيم باشا كانا يدركان قيمة الاسطول وفائدة السيطرة على مسالك البحار . وفي فصل آخر من فصول الكتاب نقل المؤلف قطعة من رسالة كتبها ابراهيم باشا وهو في الاناضول تبين ادراكه هذا وتوضحه فانه طلب وقتها ان تضم كيليكية والاناضول الى مصر لان مصر تحتاج الى خشب حراجها في بناء الاسطول

فرجل يدرك هذا الادراك قيمة القوة البحرية لا يعقل منهُ ان يعرض اسطوله للدمار نزقاً ، في معركة مع الاساطيل المجتمعة لدول اوربا البحرية . ثم ان الوثائق التي اعتمد عليها المؤلف وهي لممثلي دول اوربا في مصر تثبت ان محمد علي كان مستعداً ان يخسر بعض سفنهِ اذا تظاهرت الدول الاوربية بقواتها البحرية أمام الاسكندرية لكي يثبت للسلطان انهُ مستعد لنجدتهِ بأسطوله في المورة لولا الدول الاوربية التي حالت دون ذلك

يضاف إلى هذا انهُ لما دارت معركة نافارين كان ابراهيم باشا على البر في المورة يحاول ان يرد العصاة ومن يؤيدهم من متطوعة الافرنج . وتاريخ ابراهيم العسكري بجملته وتفصيله لا يحمل

احداً على الظن بأنهُ يثير معركة تعرض اسطوله للتدمير ثم لا يحضرها أو يديرها بنفسه

هذه الحقائق وغيرها تبين ان محمد علي وابراهيم ما كانا ليقدما على مناجزة العدو في ناڤارين تهجماً واذن فلا بدَّ من البحث عن سبب آخر لتفسير ما وقع

يرى القاضي كرابيتس ان السبب المعقول هو سوء تفاهم وقع بين ابراهيم باشا واميرال الاساطيل المتحدة . فالهدنة التي تمَّ الاتفاق عليها حسبها ابراهيم باشا شاملة لحركة الامداد التي تأتيه من الاسكندرية فقط كما حسب ان ما طلبه من الاميرال وهو الحد من عمل اللورد كوكراين الانكليزي في مساعدة الثوار اليونان كان من شروطه التي تم الاتفاق عليها . فلما هبط اللورد كوكراين على باتراس ارسل ابراهيم باشا بعض سفنه لمقاومته فحسب ذلك منهُ انهاكاً لكلمته وخرقاً لاتفاق الهدنة فكانت ناڤارين

بعد معركة ناڤارين حاول الفرنسويون اغراء ابراهيم باشا بمعاونتهم في اخضاع الجزائر وكان حينئذٍ منصرفاً الى تنظيم الشؤون الادارية والزراعية فدارت مفاوضات في هذا الصدد لم تلبث ان حبطت لان سوريا كانت كأنها تنادي

أما قصة غزوات ابرهيم باشا من جنوب سوريا الى ان وصل الى ابواب استانبول فأخَّاذة بما يتجلى فيها من صلابة المشيئة ومهارة في الفنون الحربية وادراك القواعد الاساسية التي تقوم عليها سياسة البلدان . وقد قال ملحق التيمس الخاص بالكتب في هذه الناحية من كتاب القاضي كرابيتس ان ما بسطهُ فيها من الناحية العسكرية جدير بعناية المؤرخ الحربي . ولكن الظفر الحربي تلاه التألب والتفرق والدس من الناحية السياسية بين دول اوربا وليس في هذا الحديث ما يشرّفها او يشرّف معظم رجالها الذين خاضوا هذا الميدان . ليست هذه العبارة من كلام القاضي كرابيتس وانما هي ما توصل اليهِ كاتب هذه السطور من قراءة فصول الكتاب الخاصة بهذه الوقائع وهي حافلة بالوثائق والمكاتبات الرسمية

***

هذه بعض ما امتاز بهِ كتاب « ابراهيم باشا » ولو ان الدفاع عن بعض نواحٍ من حياة ابراهيم باشا كان ارفق تناولاً لما ظنَّ بعض الكتَّاب ان القاضي كرابيتس يحاول ان « يبيّض » ابراهيم. ومما سرنا انهُ اشار غير مرة في اسانيده الى كتاب « الامبراطورية المصرية » الذي وضعهُ الدكتور محمد صبري بالثناء الجدير بهِ . ولو كان القاضي يعرف العربية لكان في الغالب رأى ما يستند اليهِ في كتاب الاستاذ عبد الرحمن بك الرافعي في اجزائهِ المختلفة وفي كتاب المرحوم سليمان بك ابو عز الدين وقد وقفه على « ابراهيم باشا في سوريا » على ما نذكر

البرنس سايونجي

صلة بين الاجداد والحفدة

لو كان رجال السياسة في اليابان قد تعوّدوا كتابة المذكرات اليومية ، لكان سياسيهم الاكبر ، البرنس كيموكي سايونجي ، اخرج للناس مجموعة فريدة في بابها ، بما تحتويه من ألوان الحياة ونواحي الاختبار الانساني . انهُ جمع في حياة رجل فردٍ عصر الاقطاع في اليابان وعصر التمدن الحديث

تقلد منصب رئيس الوزارة ثلاثاً ، ووقّع مع كلمنصو وولسن ولويد جورج معاهدة فرساي. نعم ان طائفة كبيرة من رجال السياسة المعاصرين اشتركوا في توقيع معاهدة فرساي ، ولكن سايونجي كان يستطيع ، وهو جالس معهم في ردهة المرايا في قصر فرساي ، ان يطوي بخياله نصف قرن من الزمان ، الى العهد الذي لبس فيهِ اللباس العسكري الملوّن الخاص بمقامهِ العالي ، وتقدم فرقة من جنود الاشراف ، لاخضاع القبائل اليابانية الثائرة على امبراطوره

كان فتح المعاقل واخضاع القبائل في سبيل امبراطوره ، مقدمة لحياة حافلة بألوان الخدمة العامة ، وضروب الثقافة العالية . كان ذلك العصر في اليابان عصر الشباب . اذ كانت المناصب العالية في الحكومة والجيش والحياة الاقتصادية حافلة بهم. وكان سايونجي متحلياً بجميع الصفات التي تدفع بالشاب الطموح الى طريق النجاح . كان مقرّباً من الدوائر التي تحيط بالامبراطور واليها يرجع الفضل في استنقاذ سلطتهِ من الضياع . وكان ذكيًّا متوقد الذكاء . وكان شريفاً تجري في عروقه أنقى الدماء . وكان دمقراطي الطبع ، محبباً في مقدرتهِ على مؤاخاة رجال القبائل ، ورجال السياسة على السواء . وكان يعرف ادب اليابان والصين الكلاسيكي ، كما يعرف الانكليز المثقفون شكسبير . في امكانهِ نظم مقطع من الشعر ، او رواية أبيات توافق المقام . وكان يؤيد جمعية الشعراء ، اذ كان الشعراء في اليابان المتطلعة الى التمدن الحديث ، لا يشغلون من المقام الاجتماعي المرتبة الاولى . ففي المآدب التي كان سايونجي يقيمها ، كان الشعراء ينفلتون من القيود الاجتماعية . ويروي الاميرال سايتو، رئيس الوزارة اليابانية السابق وأحد صرعى الفتنة الاخيرة ، ان الادباء عبُّوا من الخمر في احدى هذه المآدب كالحيتان

على أن سايونجي لم يشتهر اسمهُ في الغرب ، الاَّ في السنوات الاخيرة ، إذ أصبح سياسي اليابان الاكبر . ولقب « السياسي الاكبر » لا يسند فقط الى سياسي بلغ من العمر عتيًّا . بل

ان الامبراطور ، يمنح بعض الساسة والقواد عند التقاعد من خدمة مصالح الدولة لقب السياسي الاكبر Elder Statesman بمقتضى ارادة امبراطورية يؤمر فيها الرجل بالمضي في تقديم النصح للامبراطورية . وقد وردت الانباء الاخيرة بأن الامبراطور بعث يستشيره في الحوادث الاخيرة مع ان العسكريين حاولوا اغتيالهُ لانهُ من احرار النزعة

وقد عين سايونجي في المنصب لدى عودته من مؤتمر الصلح سنة ١٩٢٠ . كان الساسة الكبار الذي أخلصوا النصح للامبراطور ، قد مضوا في سبيل كل حي . وكانت الحكومة البرلمانية قد انشئت ، وسلطة رئيس الوزراء قد عظمت واتسع نطاقها . ولو لم يكن سايونجي ، سياسيًّا برلمانيًّا يعرف اساليب النظم البرلمانية ، ومرن العقل حر المبادىء ، لكان الاحتكاك والتصادم بين رئيس الوزراء ومستشار الامبراطور الاكبر امراً لا بدَّ منهُ . وكان الساسة الكبار من قبله غالباً ما يتوسطون بين الوزارة والجيش ، او يقولون في المأزق الكلمة الفاصلة فيما يتعلق بسياسة الحكومة ، ولكن سايونجي نفسه رأى لما أُنعم عليهِ باللقب الجديد ، ان هذه الاعمال من شأن الحكومة لا من شأن المستشار الامبراطوري

لذلك اصبح المنصب الجديد في أيامه ، عبارة عن كون « السياسي الكبير » مستشار الامبراطور الأعلى فيما يتعلق بتقلب الوزارات . وهذا عمل لا بدَّ منهُ . لان على عاتق الامبراطور تقع تبعة تعيين رئيس الوزراء ، وهو بحكم منصبه ، لا يستطيع أن يكون محيطاً بالدقائق والتفاصيل متصلاً بجميع نواحي الرأي العام والشعور القومي ، بل قد لا تكون لهُ الخبرة الوافية التي تمكنهُ من اختيار أصلح رجل للحال

فسايونجي ، هو عينا الامبراطور واذناه وارادته ، اذ تتطلب الحالة في اليابان تعيين وزارة جديدة . جميع زعماء الامة العاملين يهرعون الى داره . فالوزراء الذين يساورهم القلق على المستقبل يسرعون الى داره المطمئنة الساكنة ، لسبرغوره . ويتبعهم زعماء المعارضة . فاذا ذهب ماتسوكا الى لندن ، أو ايشي الى وشنطن ، أقبلا عليهِ قبل السفر ، ينتظران منهُ التعليمات الاخيرة

انهُ يجلس ساكناً كالجبل لا تهزه الرياح . ان شيخوخته قد حررته من نوازع الشهرة والثروة وشهوة السلطان ، فيصغي اليهم جميعاً

يصغي اليهم ، ولكن يقال انهُ قلما يقول شيئاً . انهُ يحتفظ بمشورته لسيده الامبراطوري والامبراطور مترفع فوق كل النزاعات

وقد وقع على عاتق سايونجي منذ تقلد منصب المستشار الاكبر للامبراطورية أن يشير على امبراطوره بتعيين اربعة عشر رئيساً مختلفاً للوزارة . من هؤلاءِ كان ثمانية زعماء حزبيين وستة من رجال السياسة غير المنتمين لحزب ما . وكان سايونجي في الغالب يميل الى تعيين زعيم حزبي اذا كان

الجو رائقاً والميدان خلواً من العقبات الكبيرة . والراجح انه كان يحاول أن يضع في ذلك تقليداً شبيهاً بالتقليد الانكليزي ، وهو الانتقال من وزارة الى وزارة ، انتقالاً سهلاً طبيعياً يكاد يكون من تلقاء ذاته انتقالاً من زعيم أكثرية أمس الى زعيم أكثرية اليوم

ان الحياة النيابية لا تزال في اليابان غير بالغة كمال النضج والرسوخ ، وقد يكون ثمة ميل الى تحويل الحكومة من شكلها النيابي، الى ما يعرف بحكومات « القوة » أي الدكتاتورية العسكرية. ولكن سايونجي قد أفسح المجال للحكم البرلماني ، حتى يقيم الحجة بانهُ صالح للبقاء . انهُ يؤمن بهِ.
وسايونجي الآن في السادسة والثمانين من عمره ، انفق العشرين السنة الاولى في بلاط تيوتو ، فاذا هو في نهايتها يتقلد الرمح ويمتطي الجواد ، ويحارب في سبيل الامبراطور ، ثم قضى عشر سنوات في فرنسا يتثقف فعشر سنوات من اللهو والمرح كموظف شاب . ثم عشرين سنة في اعلى المناصب الادارية والسياسية في البلاد ، وها هو اليوم وقد مضى عليه ١٥ سنة ، في حياة هادئة صافية يستعمل في سبيل امبراطوره وبلاده الحكمة التي استقطرها من عبر الحياة

ولد سنة ١٨٤٩ وكان اصغر ابناء بيت « طوكودايجي » وهو من أنبل اسر الاشراف في البلاط الامبراطوري واتفق ان بيت سايونجي النبيل ، وهو من مقام بيت «طوكودايجي» كان في حاجة الى وريث حينئذ ، فاتخذ الفتى كيموكي ، موضوع كلامنا ، وريثاً بمقتضى العرف الياباني والشريعة اليابانية . ويرتد تاريخ الاسرة ، التي اصبح الفتى وريثها وزعيمها بعدئذٍ الى اواخر القرن الثامن الميلادي

ورث من اسلافه مرح الطبع وحب الجمال ، وترعرع في وسط يتغذى بهاتين الناحيتين من حياة الانسان ولو عاش في العصر الذهبي الياباني لكان من صميم ابنائه ، كان يستطيع ان ينظم قصيدة ، او يسرق خطاه عند الفجر وردنه على وجهه ، من مخدع غانية من غواني البلاط

عين أميناً للامبراطور وهو في السادسة . وهو تعيين اسمي ولكن هذا التعيين كان صلته بدوائر البلاط الداخلية ، اذ كانت الحياة الجديدة تدب في عروق اليابان ، وقد أخذ راخيها الناشيء عن الطمأنينة وحب الجمال والطبيعة يستبدل به نشاط عجيب فيه كل حوافز الحياة العصرية. فتاريخه انما هو جامع لادوار تاريخ اليابان الحديثة !

وبعد ما حارب في سبيل الامبراطور في حداثته وأبلى قطع له معاش سنوي قيمته قيمة ١٥٠٠ كيس من الرز . ولما حاولوا أن يقيموه حاكماً على احدى مقاطعات الريف ، رفض ، وفي سنة ١٨٧١ سافر الى فرنسا على اثر حرب السبعين ، وفي طريقه عرج عن وشنغطن عاصمة الولايات المتحدة ، وقابل الرئيس غرانت . ويؤخذ من رسالة بعث بها الى احد اصدقائه انه دهش « لديكولته » النساء في البيت الابيض وحرية الاختلاط بين الجنسين وها هو ذا قد

عاش حتى هذا العصر وسمع بأذنيه نواح بعض الكتاب على الفتاة العصرية

عاش في باريس معيشة بوهيمية، واشترك مع احد اصدقاء تيوفيل جوتييه في وضع درامة مثلت في الاوديون، ولكنه رفض ان يأخذ حصته من الربح المالي الذي عادت به عليهما . وسأله ذات يوم معلم القانون — وكان اكولاس القانوني المشهور — قال : «لقد طال مكثك في باريس أليس من الضروري ان ترجع الى بلادك وتقوم بنصيبك من الحياة العامة » فردّ البرنس الشاب : « ان من يرغب في ان يكون سياسيًّا في بلادي ، لا يستطيع ان يصرح بما يضمر ، عليه ان يكون مرائياً ، ويكذب احياناً » فرد عليه الفرنسي : هنيئاً لكم اذا كان رجال السياسة عندكم لا يكذبون إلاَّ أحياناً »

ولما عاد سايونجي الى اليابان ، في الثالثة والثلاثين من عمره كان غمبتا الخطيب الراديكالي الفرنسي مثله بين الرجال وكان كلنصو طالب الطب ، الراديكالي كذلك صديقه . فلما كانت مسألة الساعة في اليابان مسألة منح الدستور او عدم منحه ، انشأ سايونجي جريدة جعل اسمها (الأنباء الحرة) وجعل عنوان افتتاحيته الاولى (الحرية الادبية والحرية السياسية)

ولكن رجال الحكومة الجديدة كانوا يرغبون في خدمات سايونجي كواحد منهم لا كناقد لاعمالهم. فأقنعوا الامبراطور بأن يصدر امره إلى سايونجي ليمتنع عن العمل بالصحافة فامتثل للامر وتخلى عن صحيفته ، وقبل المنصب الذي عرض عليه ، وما زال يتقلب في المناصب، إلى أن بلغ منصب الوزارة . فقد شغل منصب وزير المعارف مرتين ، وأسبغ على فلسفة التعليم في الوزارة ، ثوب الحرية ، فأدى لبلاده خدمات جلّى . ومن جملة المناصب التي شغلها منصب سفير لبلاده في فينا وبرلين ومنصب رئيس للوزارة ثلاث مرات

وقبل ان يعين « سياسيًّا أكبر » مكن اليابان من تأليف أول وزارة حزبية فيها سعياً وراء إقامة الحياة النيابية على أساس حزبي . وكان رئيس الحزب الذي تقلد الحكم، خارجاً عن دوائر النبلاء والبيروقراطية . فكان في عمله جرأة عظيمة مثل جرأة الزعيم الاكبر المغفور له سعد زغلول باشا إذ عين نجيب افندي الغرابلي وزيراً وكان آخر ما قام بهِ لأمتهِ من الخدمات، أن عين بعد حوادث الاغتيال التي وقعت سنة ١٩٢٣ الاخيرة ، وزارة قومية ، لكي تسير بالامة في العاصفة الثائرة الى بر الامان . وليس ثمة أي تناقض بين العملين . فهو يرمي الى تنشئة الحياة النيابية الحزبية تنشئة قوية ، ولكنهُ يعمد الى التآلف في الايام العصيبة فقط

هذا الرجل العجيب يعيش في الحاضر ، لانهُ اذنا الامبراطور وعيناه وارادته . ولكنهُ ، لا ريب ، يرتد في بعض اللحظات ، الى ايام الحداثة ، ايام الرمح والجواد والعلم المرفوع . انهُ يضم في حياته يابان القديمة ويابان الحديثة !

حديقة المقتطف

سعدي

الشاعر الفارسي

لبهية فرج

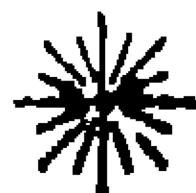

سعدي

الشاعر الفارسي

كان للصلة الادبية التي توثقت عراها بين العربية والفارسية في ظل الحرية والتسامح الادبي شأن كبيرٌ في ما ادركتاهُ من سعة ونماء في المادة والشكل والغاية . فالكتابة عن السعدي الشاعر الفارسي الشيرازي تبعث في النفس نواحي من الذكرى والتأمل وتثير الحنين الى عصر النور في حياة الادب العربي والفارسي جميعاً ، بل ان في هذه الكتابة شيئاً من السلوى للذين يحيون ابداً ساخرين هازئين بمظاهر العيش الناعم المترف ، بل لعلّ في حياة السعديّ ما تستقرُّ بهِ انفاس تتصعد من صدور محترقة لكثير من الادباء تنبيء عن شكاية القلوب من هذا العيش المشرّد الذي يخالونهُ رماداً تخبو تحت ذراتهِ جذوة ذكائهم وينطفيء بهِ مصباح نبوغهم . فقد عاش السعديُّ كما عاشوا ، ولكنهُ ظفر من هذا العيش بالشهرة التي لم يتمتع بها غير نفر يسير من شعراءِ الشرق وكتّابهِ النابغين

وقد اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في تاريخ ميلاد السعدي وتاريخ وفاته ولكنّ كثيراً منهم يرى انهُ ولد بشيراز سنة ١١٧٥ وتوفي سنة ١٢٩١ م

وكانت شيراز في ذلك العهد من منازه الدنيا التي تفتن الشعراء والادباء وكانت رياضها وعيونها وانهارها مصدر الهامهم ووحي خيالهم وقد استهوت بجمالها فيمن استهوت شاعرنا السعدي فافاض عليها من آيات ثنائهِ واعجابهِ ما امتلأت بهِ صفحات ديوانه (الكليات) ومؤلفاته الاخرى . في ذلك يقول ما ترجمتهُ :

ما اجمل بياض الصبح الذي اراه مشرقاً على سر الله شيراز . سأرى مرة اخرى تلك الجنّة ، جنّة الارض التي تجود بالأثمار المباركة . لا بالقحط والظلم

وربي لا تألف الظلمات هذا الوطن الذي استقرَّ عليهِ عرش سليمان العظيم

***

نشأ السعدي يتيماً يتجرَّع مرارة اليتم ويحس آلامه وقد لازمهُ هذا الاحساس بعد ان استكمل شبابه وألحَّ عليهِ فقال قصيدته الرائعة التي يسترحم فيها القلوب

ويستعطفها على اليتامى الذين لم يستشعروا حلاوة العيش في ظل الأبوة الرحيمة استهلَّ هذه القصيدة بما ترجمتهُ :

ارحم اليتيم الذي مات ابوه ، أنفض التراب عن ملابسهِ ، فانك لتعلم انهُ لاحياة للشجرة بعد ان تتقطع اصولها

ثم قال : من يخفف عن اليتيم احزانه اذا فاضت دموعه ، من يسرّي عنهُ اذا اهتاجت نفسه ، آه ! اجتهد ألاَّ يبكي لان عرش الرحمن يهتز لتنهدات اليتيم المحزنة المؤثرة . واختتمها بقوله :

أنا اشارك اليتيم في احزانه لأني قد ذقت في طفولتي يأس اليتيم

مات ابوه وهو طفل فعاش في كنف السلطان سعد بن زنكي سلطان فارس ايام طفولته وشطراً كبيراً من أيام شبابه

ولم ينقل الينا من ترجم السعدي من المؤرخين كيف كان يعيش في ظل هذا السلطان وماكان نصيبه من رفه الحياة وبؤسها . وكل ما وصل الينا انهُ عاش في رعايتهِ زمناً ثم فارقهُ ليستكمل حياته العلمية على شيوخ بغداد الذين كان لهم اكبر أثر في ثقـافته وأدبه

والمفهوم مما ذكره المؤرخون ان دراسات السعدي كانت في حياة سعد بن زنكي وان هذا السلطان لم يمت حتى بلغ السعدي ثماني وثلاثين سنة وهو عمر طويل مكن له أن يشبع نهمه من علوم الدين وقواعده واصوله ومن مصطلحات الفنون وادواتها واساليبها ومكن له ايضاً أن يملأ قلبه بمعرفة بأحوال الصوفية ومذاهبهم ودراساتهم الروحية العالية فقد اتصل في بغداد بكثير من شيوخ العلم ثم انقطع أخيراً إلى شيخين جليلين من اعيان العلماء هما الامام شهاب الدين السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢ هـ وكان واحد دهره في الحديث والتفسير والتصوف ، والامام ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ شيخ الوعاظ والعلماء والمصنفين . وقد وقع البستاني هنا في خطإٍ تاريخي واضح لأنهُ عدَّ من شيوخ السعدي الذين تلقى عليهم علم الباطن الشيخ عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الكيلانية المشهورة في العراق والممالك الشرقية الاسلامية — وذلك غير صحيح لأن الكيلاني توفي سنة ٥٦١ هـ اي قبل ميلاد السعدي بعشرين سنة تقريباً

في وسع الباحث في حياة السعدي ان يدع جانباً حديث المؤرخين عنهُ بعد عهد المدرسة ويترك للسعدي نفسه الحديث عن هذه الحياة المليئة بالعبر والحوادث الجسام. فهو يصوّر لك اصدق تصوير في كتبه ثورة نفسه على النظام الحضري وعلى حياة الاستقرار التي اغرت سكان المدن بالركون الى النعمة والاخلاد الى العيش الرافه اللين ويريك كيف جاب اقطار الارض ورحل في ثياب الدراويش ثلاثين عاماً الى ممالك الاسلام جميعها وكيف كان يتحرّق بنار الشمس خلف القوافل الميمّمة شطر بيت الله الحرام وقد حج اليهِ اربع عشرة مرة يردّد التسابيح ويتغنى بأغاني الشوق ويرتل قصائد العشق الصوفي في الذات الربانية والحضرة المحمدية الكريمة ويتوجد ويتشوّق على النحو الذي تراه في قصيدته التي يقول فيها

تعذّر صمت الواجدين فصاحوا ومن صاح وجداً ما عليهِ جناحُ
اسروا حديث العشق ما امكن التقى وإن غاب الشوق الشديد فناحوا
سرى طيف من يجلو بطلعتهِ الدجى وسائر ليل المبتلين صباحُ
اصبح اشتياقاً كلما ذكر الحمى وغاية وجد المستهام صياحُ

ويريك ايضاً كيف اسره الصليبيون والقوا بهِ في سجن نابلس يعمل في بناء الحصون ويتصبب عرقه من حمل الصخور وكيف افتداه من هذا الأسر تاجر حلبي وزوّجهُ ابنته فكانت هذه الزوجة على جمالها وثروتها مجلبة احزانه ومثار آلامهِ وكيف رحل الى الهند ووقف هناك يتفرس في صنم الوثنيين في أحد المعابد فرآهُ الحارس فقتله السعدي خشية ان يخبر عنهُ قومه فيقتلونه

ثم كيف حنّ بعد هذه الغربة الطويلة الى شيراز فعاد اليها وقد قارب السبعين وكيف كانت هذه الرحلات سماد عبقريته وماءها ومصدر خصبها ونمائها. وهنا يريك كتابه العظيم وديوان اشعاره الجامع «الكليات» كيف بدأ بهذه العودة عهد الاثمار — كيف بدأ الروض المزهر ينفح بالعطر والعقل المخصب يجود بالحكمة والقلب المؤمن يفيض بالعبرة والقلم البليغ يرسل السحر الحلال — كيف بدأ بهذه العودة يدوّن آثاره الادبية واشعاره واقاصيصه فأنشأ كتبه الاربعة الكلستان والبستان ونِدامه ودواوين اشعاره

وتدلنا قصيدته العظيمة التي وصف بها نكبة بغداد وبكى بها مجد العرب وبيت الخلافة انهُ قد رحل مرة اخرى الى هذه المدينة وما جاورها كواسط وعبادان حين سقطت في ايدي التتار وشاهد طاولها وخرائبها بعد ان شاهدها جنة الدنيا وتاج المدائن . ويبدو لنا ان هذه الرحلة لم تكن طويلة وان هموم الشاعر واحزانه على هذا الملك الساقط لم تحبب اليهِ البقاء فيها فهو يستهل هذه القصيدة بقوله :

حبست بجفني المدامع لا تجري ... فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها ... تمنيت لو كانت تمر على قبري
لأن هلاك النفس عند اولي النهى ... احب لهُ من عيش منقبض الصدر

ثم يقول :

أيا ناصحي بالصبر دعني وزفرتي ... اموضعُ صبرٍ والكُبُود على الجمر
وقفت (بعبادان) ارقب دجلة ... كمثل دمٍ قانٍ يسيل الى البحر
وفائض دمعي في مصيبة (واسط) ... يزيد على مدّ البحيرة والجزر
فاين بنو العباس مفتخر الورى ... ذوو الخلق المرضى والغرر الزهر
غدا سمراً بين الانام حديثهم ... وذا سمر يدمي المدامع كالسمر
جرت عبراتي فوق خدي كآبة ... فأنشأت هذا في قضية ما يجري
سطرت ولولا غض عيني من البكا ... ترقرق دمعي حسرة فمحا سطري
أحدّث أخباراً تضيق بها صدري ... وأحمل اوقاراً ينوء بها ظهري
ألا أن عصري فيهِ عيش مكدر ... فليت عشيّ الموت بادر في عصري

وهو في هذه القصيدة يملي مواجع قلبه واحساساته الأليمة على مصير الخلافة والاسلام ويجزع من المنحدر السحيق الذي يهوى اليهِ تاريخ الجماعة الاسلامية بحضاراتها وعلومها وعزتها وبمجدها السامي العظيم وتكاد هذه القصيدة تكون هي الوحيدة في الشعر العربي التي صوّرت تصويراً رائعاً هذه النازلة الكبرى التي نزلت بالمسلمين وذهبت بعظمة سلطانهم ومجد خلافتهم

وأدب السعدي يتمتع بمميزات الادب الفارسي جميعها من العناية بالتشبيهات والاستعارات والجمال اللفظي والخيال المليء بأبدع صور الجمال الطبيعي والغزل الصوفي والتأثر إلى حدٍّ ما بالثقافة الاسلامية ولكنه يمتاز عن أدب نظرائه من الشعراء المعاصرين بانه استطاع على الرغم من ولوعه بروح التصوف والآداب الدينية وعيش الدراويش ان يقسم شعره ونثره بين الحياتين : الروحية والمادية ويمنح كلاًّ منهما من ذلك نصيبه الكامل فقد وفق أتم توفيق الى أن يرضي الفقراء والأغنياء جميعاً . وهو هو الذي جعل أدبهُ أسير وأشهر من أدب غيره من شعراء فارس جميعهم

وكتابات السعدي تدل على انهُ قد تأثر إلى أبعد حد بأستاذه ابن الجوزي فهو يجري في الكلستان والبستان مجرى هذا الشيخ في كتبه الاخبارية كأخبار الاذكياء والمجانين ونوادر الملوك وغيرها وكذلك تبعهُ في كتبه الوعظية متابعة بيّنة . وذلك يدلنا على ان حظ السعدي من علوم الجدل لم يكن وافراً وأن دراسته كانت تهذيبية عملية تتصل اتصالاً وثيقاً بالحياة ومشكلاتها وتعنى في معالجتها بأسلوب الارشاد والقصص الذي تسلكه الشرائع كثيراً في الدعوة الى الاصلاح

ولم يترك السعدي غرضاً من اغراض الشعر لم يقل فيه . فقد مدح ورثى ووصف واشتاق وتغزّل ولكن حظ الهجاء من شعره رغم تادره وفكاهته وقسوة لسانه كان قليلاً . اما غزله وهواظهر هذه الاغراض في شعره فانه وان لم يبلغ في نظر النقاد ما بلغت غزليات حافظ التي تعتبر في القمة من غزل الآداب العالمية وعلى الرغم من ان معانيه عامة لا ابتكار فيها الاّ نادراً، على الرغم من ذلك كله فقد تمتع بحظ وافر من الروحانية التي تجعله محبوباً مستطاباً الى النفس وهو يسوق هذه المعاني مساقاً وجدانيًّا يستهوي ويعجب . أفلا تراه يبث السحر في قوله :

قد اذعتم روائح المسك طيباً وبهرتم محاسن الورد نشرا
فنسيم النعيم خيث حللتم حلّ بالواردين روح وبشرى
مقل علمت ببابل . . هارو ت على ان تعلّم الناس سحرا
جمرات الخدود أحرقنَ قلبي وتبقين في الجوانح جمرا
برزوا والربا تظل تنادي ما لهذا النسيم يحمل عطرا

ابداً لا افيق من سكر عيشي ان سقتني من المراشف خمرا

وفي قوله من قصيدته الثانية التي تشبه كلَّ الشبه في روحها ونسجها تائية ابن الفارض المشهورة :

ألم ترني في روضة الحب كلما ذوت—مطرت سحب العيون فبلت
أما كان قتل المسلمين محرما لحى الله سمر الحي كيف استحلت
وها نفس السعدي اذكى تحية تبلغهم ريح الصبا حيث حلت

وفي قوله من قصيدة اخرى :

حدائق روضات النعيم وطيبها تضيق على نفس يجور حبيبها
فيا ليتَ شعري اي ارض ترحلوا وبيني وبين الحي بيد أجوبها
ذكرت ليالي الوصل واشتاق باطني فيا حبذا تلك الليالي وطيبها

موضوع السعدي طويل اكتفي منه بهذه اللمحة واختم القول فيه بذكر ابيات من قصيدته العاشرة التي يتحدث فيها حديث السكارى بخمر العشق الرباني :

يا صاحبي يوم الوصال منادماً كنْ لي ليالي بعدهنَّ سميرا
هل بت يا نفس الربيع بجنة أم جئت من بلد العراق بشيرا
عجبي بأني لست شارب مسكر وأظل من سكر الهوى مخمورا
صرفاً محا عقلي وردَّ قراءتي شعراً وصيَّر مسجدي ماخورا
ظمأ بقلبي لا يزال يسيغهُ رشف الزلال ولو شربت بحورا
قطع المهامه واحتمال مشقة لرضى الأحبة لا اظن كثيرا
حسو المرارة في كؤوس ملامة حلو اذا كان الحبيب مديرا

وهو في هذا الهوى الالهي يذهب مذهب التصوف في الانصراف بنفوسهم الى الذات الالهية يعشقونها وحدها ويقطعون من قلوبهم كل امل بلذائذ هذا الحب وآثاره كما رووا ذلك عن السيدة رابعة العدوية . ويظهر هذا في شعر السعدي في قوله :

يا من به السعدي غاب عن الورى ارفق بمن اضحى اليك فقيرا
صلني ودع نِعَم النعيم لاهله لا اشتهي الاَّ اليك مصيرا
فلعلَّ ان تبيض عيني بالبكا ارتد يوماً ألتقيك بصيرا

مصر بهية فرج

باب المراسلة والمناظرة

ترجمة فرامين مصر

بقلم سماحة حايم نحوم افندي الحاخام الاكبر في القاهرة

وقعت بيدي للمطالعة مجموعة الفرامين الامبراطورية (السلطانية) العثمانية الموجهة الى ولاة مصر وخديويها من سنة ١٠٠٦ هـ الى سنة ١٣٢٢ هـ (١٥٩٧ — ١٩٠٤ م) وهي تحوي الترجمة — دون النصوص — من التركية الى الفرنسية (Receuil des Firmans Impériaux Ottomans ... Le Caire, 1934) بقلم سماحة حايم نحوم افندي الحاخام الاكبر في القاهرة والعضو في مجلس الشيوخ لمملكة مصر والعضو في مجمع اللغة العربية الملكي بمصر. فانهُ قام بهذا العبء الثقيل والعمل الشاق المستلزم رسوخاً في اللغتين وعلماً غزيراً ومعلومات واسعة فأدّى الخدمة التي ندب لها وهي خدمة قلما يتمكن الذي ينزل مضمارها من الاجادة فيها مثله . ولكن اذ لا كمال لأعمال المرء فليس بالغريب ان نعثر في هذا السفر القيّم على ما يستوجب الملاحظة في ترجمة نصوص الأصل وتفسير كلها الغريبة وشروحها فيما ألحق بهِ وقد نظرت فيهِ غير متأثر كل صفحاته فصادفت بعض الهفوات لذلك جئت استأذن المترجم الجليل بايراد ما بدا لي مع اضافة زيادات اعتقدها تروقه وغيره

الصفحة	العدد	
٢٢	٨٣	قال: « حماص شربتي » وضبطها hammas sherbeti وصحيحها حمّاض (بالضاد المنقوطة) كما وردت في المعاجم العربية والتركية . والحماض هو ما يسمى بالفرنسية oseille وبالتركية « قوزى قولاغى » (أذن الحَمَل) وراجع عنهُ وعن مفعول شرابه معجم لاروس الجديد المصوّر وتذكرة داود وغيرهما
٣٤	١١٦	هل لحضرته ان يعيد النظر في قراءة « السيد عمر محصار السعاق » فان الذي يبين لي انهُ مغلوط فيها

الصفحة	العدد	
٦٥	٢٠٥	قال : « عمر زيد صلاحه Omar Zeid Salaha » فحسب « زيد صلاحه » علماً من اعلام الرجال او شهرةً او لقباً . وكرر ذلك في الصفحة ٦٨ العدد ٢١٧ في كلامهِ على الشيخ محمد ووجه الغلط ظاهر لا يحتاج الى بيان وايضاح
٦٨	٢١٤	قال في كلامه على «شمعتين» deux cierges de miel (شمع عسل) blanc فقوله : « de miel » غير صحيح من وجهين اولهما كلمة cierge خاصة بالشمعة التي مادتها شمع العسل لا سواه وهي مشتقة من كلمة cire وهو هذا الشمع لا غيره . وثاني الوجهين اضافة mie الى cierge وهي ترجمة حرفية لا تقبلها اللغة الفرنسية . ولو قال cierge de cire لهان الامر نوعاً وان لا يصح ذلك
٣٤٥	...	آربه لق . خصّها بمال يعطى مسانهة لرؤساء الانكشارية او للعلماء مع انها كانت تعطى لغير هؤلاءِ نقداً او بتخصيص ايراد (وراجع معلمة الاسلام Encyclopédie de l'Islam) (١ : ٤٦٥) ولي شواهـد على ما قلته يطول سردها
٣٤٦	...	باليمز . قال : ومعناها الحرفي الذي يأكل العسل وهو مدفع . . . » ولو عرّفنا بأصل الكلمة لأحسن فقد افادنا تاريخ بغداد بالفرنسية لمؤلفه هوار (Huart) (الص ١٢١ ح) نقلاً عن ملحق المعاجم التركية لباربيه دومينار (Barbier de Meynard) انها « palla e mezzo » وهي تعني « قنبرة ونصف» اما ش . سامي في معجمه التركي فانهُ صوّر الكلمة هكذا : « باليه مزى » وقال انها اسم الموجد الايطالي لهذا المدفع . وجاء بعده ديران كلكيان في معجمه التركي الفرنسي فكتبها كسابقه وبازائها بحروف افرنجية « balié -mezi » وقال انها من الايطالية « balliamezza » ولعل الصحيح ما قاله دومينار
٣٤٦	...	بيت المال . قال : « خزينة الدولة قديماً . وفي التنظيمات الحديثة الصندوق الذي تحفظ فيهِ اموال الورثة المجهولين والغائبين » . قلت : وهو نقل على ما يبين لي من معجم ش . سامي . ومعناه الاول بقي جارياً بعد التنظيمات . ومن الادلة على ذلك ما ورد في المادة الثانية والثالثة من قانون الاراضي الصادر في سنة ١٢٧٤ هـ (٨ / ١٨٥٧ م) وفي الارادة السنية المؤرخة في ٢٢

الصفحة العدد

محرم سنة ١٣٠٠ الموافق ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٢٩٨ (١٨٨٢م) الصادرة بشأن مرور الزمان في الدعاوي التي تحدث بين خزينة الدولة والاهلين . (راجع ذيل المجلد الثالث من الدستور الص ١٠١ السطر ٢) . وكذلك هو قديم بمعناه الثاني فاننا نجد ذلك في « قانونامهٔ آل عثمان » التي امر بجمعها السلطان سليمان القانوني المتوفي في سنة ٩٧٤ هـ — ١٥٦٦ م) . وقد طبعت في الاستانة في سنة ١٣٢٩ . وهذا تعريب ما فيها (الص ٢١) : «يجب اعلام الناس الذين يأخذون (يلتزمون يضمنون) مقاطعة « بيت المال» و « مال الغائب » و« مال المفقود » انه حين وقوع « بيت المال » يسجل ذلك في دفتر القاضي ... » والقرينة هي التي تهدي القارىء الى المعنى المقصود

٣٤٩ ٢١٤ كمرك.حسب احداثه في سنة ١١٢١ هـ (١٧٠٩ م) وتكلم عن النسبة المئوية التي كانت تستوفى وقد لخص ذلك — على ما بان لي — عن تاريخ احمد راسم (١ : ٤٦٧ الفائدة ١٣٧) . قلت ان احداث الكمرك لم يكن في تلك السنة بل هو قديم . وابدأ بما هو ابعد من هذا التاريخ حتى انتهي الى اقصى ما وصلت اليه . فلقد وجدت للكمرك ذكراً في الكتاب التركي المسماة «قايتولا سيونلر» لجار اسكندر وعلي رشاد المطبوع في الاستانة سنة ١٣٣٠ (١٩١١ م) في « قايتولا سيون » تاريخه سنة ١٠٨٤ هـ « ١٦٧٣ م » (الص ١٢٣ المادة ٨ والص ١٢٨ المادة ٤٥) . وهناك كلام على النسبة المئوية التي تستوفى . وفيه في « قايتولا سيون» آخر تاريخه سنة ١٠٠٥هـ « ١٥٩٧ م » (الص ٩٣ المادة ١٦) كلام ايضاً على الكمرك . وذكره البعيد جداً هو الذي جاء في هذا الكتاب عينه (الص ٤٩ وما بعدها) في المعاهدة المعقودة بين حكومة مصر في زمن سلطنة المماليك وبين قنصل فرنسة في الاسكندرية التي ايدها السلطان سليمان القانوني بتاريخ ٦ محرم سنة ٩٣٥ (٢١ ايلول ١٥٢٨).فللكمرك ذكر بعيد يتقدم سنة ١١٢١ بنحو قرنين

٣٥٣ ... متصرف . قال : معناه الحرفي propriétaire قلت وهذه الكلمة تعني المالك بينما التصرف شيء والملك شيء آخر كما هو معلوم . ويقابل المتصرف possesseur (وراجع شرح قانون الاراضي للمحامي نجيب شيحا (بالفرنسية) المطبوع في القاهرة في سنة ١٩٠٦ وترجمة قانون الاراضي

الصفحة	العدد	
		وغيره إلى الإنكليزية بقلم ستانلي فيشر Stanley Fisher المطبوع في اوكسفورد سنة ١٩١٩
٣٥٣	٢١٤	محراب . قال : « موضع في الجامع في جنوبه الشرقي يقف قبالته الامام في الصلاة » : قلت والصحيح في تعيين موضعه هو ان يكون في صدر المسجد قبالة الكعبة بحيث اذا استقبله الرجل كان اتجاهه اليها لذلك يكون هذا الصدر في الجهة الشرقية من المسجد او الغربية أو الشمالية او الجنوبية بحسب الموقع الجغرافي الذي يكون فيه مع الميل الى اليمين او اليسار حسب ذلك الموقع الجغرافي . وهكذ تجد محراب مسجد في جنوب الهند متجهاً نحو الشمال الغربي وعكس ذلك في بلاد الانكليز فأنه يتجه الى الجنوب الشرقي وقس عليه البواقي . وما قاله حضرته ينطبق على البلاد الواقعة في الشمال الغربي لمكة من ذلك مصر
٣٥٣	...	متسلم . قال substitut de mutéssarif اي وكيل المتصرف او نائبه او القائم مقامه . والصحيح هو وكيل الوالي او نائبه الذي يعينه الوالي نفسه او الذي تنصبه الحكومة وهو ايضاً الحاكم الاداري لمدينة من بعض المدن المربوطة بأيالة وكل ذلك قبل التنظيمات
٣٥٤	...	اوجاق . خصها بـ régiment (وهو آلاي كما يسمى عند الأتراك) الانكشارية . والصحيح انها لا تخص « آلاياً » من الجنود ولا صنفاً من صنوفهم . انما تطلق على كل صنف من العساكر القديمة (وراجع عثمانلي تشكيلات وقيافت عسكرية سي لمحمود شوكت باشا) (١ الص ١) ومعجم ش . سامي وديران كلكيان)
٣٥٥	...	قال « علوفة من اليونانية » قلت ولا مشاحة أنها عربية
٣٥٦	...	سالیانه . قال . « الولاية المفروض عليها ضريبة سنوية » . قلت «ساليانه» هي الضريبة نفسها اما الولاية بل الايالة المكلفة دفع هذه الضريبة . فيقال لها : « ساليانه لي » اي ذات ساليانه (وراجع تاريخ احمد راسم ١ : ٤٣١ والمعاجم)

وبالاخير ارجو من سماحة المترجم الجهبذ العفو ان صدرت مني جرأة في غير محلها او وقعت في سهو فان الكمال لله وحده بغداد يعقوب سركيس

باب الأخبار العلمية

الافكار تقتل

مبارزة تمدّها قوى النفس والمشيئة

المبارزة قديمة ولكن أغرب ضروبها وأعجبها مبارزة تجري في ولاية كاليفورنيا الاميركية ولا عدة لها الاّ قوة المشيئة وقدرة الخصم على مغالبة خصمه بالسيطرة على ارادته

وقد يستغرب القارئ هذا القول فيظن انهُ وهو وارد من كاليفورنيا مما يستعمل في دور الصور المتحركة لاخراج الافلام المضحكة. ولكننا نؤكد له انهُ منقول عن مجلة علمية مشهورة تدعى « رسالة الانباء العلمية »

فالنزاع في هذا الضرب من المبارزة يدور بين العقول فلا تنطلق المسدسات ولا تلمع السيوف . وما على المتبارزين الاّ ان يواجه احدهما الآخر فتدور المعركة بين قوتيهما النفسية والعقلية الى ان يخور اضعفهما فيقع مغمى الى الارض وقد يقع مشلولاً او قد يقع ميتاً — نعم ميتاً ايها القارئ الكريم وقاك الله

أفلا تصدق أيها القارئ ان الافكار تقتل ؟

فقد زار عاصمة وشنطن من عهد قريب الزعيم ديشي وهو من الهنود الحمر ورئيس قبيلة شن في كاليفورنيا وحدث بما وقع له في مثل هذه المبارزات ومثل لسامعيه بيديه ورأسه كيف تطاق قوى النفس على قوى النفس كأنها قبضة دمبسي تطلق على ذقن خصمه في حلقة الملاكمة

وكان بين سامعي الزعيم ديشي الدكتور جون هرنغتن وهو من اكبر علماء الاثنولوجيا الاميركية (اي طبائع الاجناس وتقاليدهم) فكان كلما تحدث الزعيم ومثل ينكس العالم رأسه تأميناً على مايقول . والهنود الحمر قلما يسمحون للبيض في حضور مثل هذه المعارك النفسية ولكن الدكتور هرنغتن قضى سنين بين رجال هذه القبيلة ونسائها رغبة منهُ في دراسة تقاليدهم الآخذة في الزوال وقد حضر بعض هذه المبارزات وسمع روايات عن مبارزات اخرى هي جزء من تاريخ الهنود الحمر

وقد توصل الدكتور هرنغتن بعد دراسة هذه الناحية من حياة الهنود الحمر الى القول بانهم يفوقون المتصوفين الشرقيين في الهند في عجائب قوة النفس . اما رأيهُ في بيض اميركا من هذا القبيل فهو انهم اطفال اذا قيسوا بالهنود الحمر من حيث القوى العقلية والنفسية

فالهنود الحمر يعلقون شأناً عظيماً على انماء قواهم النفسية ويدعون انهم يفوقون دراويش

الهند في فهمهم لاسرار التنويم المغنطيسي حتى لقد بلغت بهم الدعوى انهم يستطيعون ان يقتلوا خصماً لهم على بعد مائة ميل

ويقول الدكتور هرنغتن ان هذه المبارزات النفسية تقع في اعيادهم العامة فهي اشبه ما يكون بمصارعة الثيران في اعياد اسبانيا العامة. وسكان القرى يتطلعون الى هذه الاعياد ويتوقون الى مشاهدة هذا الضرب من المبارزة

*

الطب وجهاز كهربائي جديد

منذ ما ذاعت النظرية الجديدة في بناء المادة الكهربائي ، والعلماء يبحثون عن طريقة تمكنهم من صنع مقذوفات قوية تفوق طاقتها طاقة الدقائق المنطلقة من الراديوم لكي يسددوها الى الذرات المختلفة بغية تهشيمها ومعرفة كيف تتركب في صميمها ومم تتركب

وكان الاستاذ لورنس احد علماء جامعة كاليفورنيا اول من صنع جهازاً من هذا القبيل يسرع بواسطته انطلاق الدقائق المعروفة بالنترونات حتى اصبحت تفوق في طاقتها طاقة مقذوفات الراديوم

وكان يعاونهُ شاب يدعى لفنغستون ذهب الى كاليفورنيا للتخصص على يديه في هذا النوع من البحث فلما عاد الى جامعته الاصلية وهي جامعة كورنل صنع جهازاً اكبر من جهاز استاذه واقوى واستطاع ان يقذف بهِ دقائق من المادة بطاقة مليوني فولط

ولا بد ان يكون لهذا الجهاز تأثير كبير في ترقية المباحث التي تدور حول تركيب الذرة

ولكن ما نريد ان نوجه اليهِ النظر ان علماء جامعة كورنل لا ينوون ان يحصروا استعمال هذا الجهاز في تهشيم الذرة بل سوف يجربونهُ او بالحري سوف يجربون فعل مقذوفاته في السرطان للمقابلة بينها وبين مقذوفات الراديوم من هذا القبيل

بل ان الناحية البيولوجية من هذا البحث لن تنحصر في السرطان بل سوف تمتد الى معرفة تأثير هذه المقذوفات القوية في النباتات بوجه عام والاحياء الدنيا نباتاً او حيواناً كانت بوجه خاص. فمن المكتشفات الحديثة في علم الحياة ان الاشعة السينية اي اشعة اكس تؤثر في تلك الاجزاء من الخلية التي تستقر فيها عوامل الوراثة. وهو مكتشف خطير كل الخطورة لان التحوُّلات الفجائية التي يقوم عليها تطور الاحياء كانت حتى هذا الاكتشاف من فعل الطبيعة لا يزيدها ولا ينقصها بردٌ او حرٌّ او رطوبة او ضغط. فلما وجهت الاشعة السينية الى نوع خاص من الذباب ظهرت فيهِ تحولات فجائية كثيرة — من تأثير هذه الاشعة. واذن فعمل التطور خاضع لقوة في متناول الانسان. فاذا استطاع الانسان ان يسيطر عليها ويوجهها كان في امكانه ان يوجه التطور الى حد ما كما يشاء

وغرض علماء البيولوجيا من توجيه مقذوفات الجهاز الكهربائي الجديد الى الاحياء معرفة تأثيرها في الاجزاء الخاصة بالوراثة وهل في مكنتها ان تحدث تحولات فجائية فيها

امواج العقل الكهربائية

اسفرت دراسة النبضات الكهربائية التي يولدها عمل الدماغ عن حقائق جديدة منها ان فعل العقل كفعل القلب مستمر ولكن فعل العقل يختلف عن فعل القلب في ان سرعته وقوته تختلفان في حالي اليقظة والنوم وباختلاف الاعمال العقلية نفسها

وثبت كذلك « ان داء الصراع » ليس الاّ نوعاً من عاصفة كهربائية تعصف بالدماغ فتؤثر في احد مراكزه التي تقبض العضلات قبضاً عنيفاً فتحدث الصرع

وأهم الدوائر العلمية التي اشتغل علماؤها بهذا البحث هي جامعة هارفرد وجامعة برون الاميركية ومعامل البحث العلمي التي تعرف بمعامل لوميس وجامعة برنستون

والامل معقود على ان يفضي هذا النوع من البحث الى كشف كثير من الاسرار التي تحيط بالافعال العقلية والعصبية

*

التخدير بسم الكوبرا

المورفين سيف ذو حدين . فهو نعمة من ناحية لانهُ يخفف وطأة الألم بالتخدير وهو لعنة من ناحية اخرى لانهُ يستعبد من يستعمله . لذلك عني مجلس البحث القومي في اميركا بالبحث عن طريقة تمكن الانسان من جني فائدة المورفين دون لعنته او من وجود مادة اخرى تحل محله تفيد ولا تضر

اما في الناحية الاولى فيرى الدكتور سمول Small ان هناك شعاعاً ضئيلاً من الرجاء في تحويل المورفين الى المادة المرغوب فيها بإزالة جزيء من جزيئاته . وقد حاول ذلك وكانت النتيجة ان المورفين الذي تولد عنده كان فعله المخدر اقوى من فعل المورفين العادي عشرة أضعاف . ولكنهُ لسوء الحظ لم يفقد خاصته الاخرى وهي انشاء عادة في من يستعمله تقسره على طلبه . ولكن البحث في هذه الناحية فسيح الميدان ولا يعلم ما قد تسفر عنه التجربة في الغد

اما في الناحية الأُخرى اي في ناحية البحث عن مادة غير المورفين تحل محله فقد اذاع الدكتور دافيد ماخت مدير احد معاهد البحث الصيدلي في اميركا امام الجمعية الفلسفية الاميركية ان سم الكوبرا يؤثر في قشرة الدماغ (الكورتكس) فيخدرها فاذا اعطيت مصاباً بالسرطان جرعة او حقنة من هذا السم ضعف احساسه بالالم . ففعل السم مشابه من هذه الناحية لفعل المورفين . ولكنه يختلف عنه في انه لا يولد في من يستعمله عادة الادمان

وهذا يذكرنا بما كان يفعله الاقدمون . فقد كانوا يستعملون سم الحيات في معالجة الجذام والسرطان ولعلّ خطأهم كان في حسبانهم فقد الشعور بالالم شفاء . وقد استعمل سم الحية ذات الاجراس في معالجة الصرع

والظاهر ان بحث الدكتور ماخت قائم على مباحث أجريت في فرنسا واساسها استعمال سم الكوبرا في تخفيف ألم المصابين بنوامٍ خبيثة

الالماس الصناعي

في سنة ١٨٩٦ صنع الكيماوي الفرنسي هنري مواسان دقائق مكرسكوبية من الالماس باستعمال الحرارة العالية والضغط الشديد على الكربون ولكن الماساته كانت صغيرة جداً لا تصلح للامتحان . فسلم علماء الكيمياء على ما قرأنا في كتبها ايام الدراسة ان صنع الالماس مستطاع ولكن نفقته اعظم من قيمة الالماس الذي يصنع

***

وقد قرأنا الآن ان عالماً اميركيًّا يدعى هرشي وهو استاذ في قسم الكيمياء بجامعة كانساس صنع الماساً بطريقة مواسان كل الماسة بحجم كعب الدبوس الصغير وهو تقدم كبير الشأن

يأخذ هرشي بوتقة ويملؤها ببرادة الحديد وبعض كربون السكر ويضعها في فرن كهربائي ترتفع حرارته حتى تبلغ ٣٠٠٠ درجة مئوية (سنتغراد) فينصهر الحديد ويصبح كتلة مائعة بيضاء لشدة حرارتها ثم يأخذ البوتقة وداخلها هذه الكتلة المصهورة ويغطسها في ماء بارد فيتقلص الحديد وفي تقلصه يولد ضغطاً يعدل عشرة اطنان على البوصة المربعة الواحدة

هذا الحديد الذي أُحمي وبرد يضم في مكان ما او في غير مكان واحد من داخله بعض بلورات الكربون . فهل هي الماس ؟ وكيف السبيل الى ازالة الحديد من دون الاضرار بالالماس اذا كان هناك الماس داخلها

يأخذ العالم هرشي قليلاً من الحامض النتريك والحامض الايدروكلوريك ويمزجهما فيتولد من مزيجهما ما يعرف باسم « ماء الملوك » وهو السائل الذي يذيب الذهب ويضع الكتلة الحديدية وتبقى البلورات الكربونية وهي الماس حقيقي بحسب شهادة الدكتور سستا في المجلة الفلسفية الاميركية

***

ويرى الدكتور هرشي ان الصعاب التي تحول دون صنع الالماس ليست الاَّ صعاباً فنية فالمبدأ والاسلوب قد امتحنا وثبتا على الامتحان في خلال الاربعين السنة الاخيرة

*

اعادة الذاكرة بالتنويم

رصيف مغطى بالجمد . . . رجل زلّ قدمه فيصطدم قذاله بالارض . . فيفقد ذاكرته ... فيبقى ثلاث سنوات كذلك . . . فيعالج بالتنويم فتعود ذاكرته الى سابق عهدها

هذه هي الخطوات الرئيسية في قصة عجيبة رويت امام المجمع الاميركي لتقدم العلوم في اجتماعه الاخير

وقد استوقفت هذه القصة عناية العلماء لانها تصف اصابة جسمانية غير مألوفة من هذا القبيل امكن علاجها علاجاً عقليًّا او نفسيًّا

والغريب في فقد الذاكرة في هذه الحادثة ان الرجل ظلَّ يتذكر ما حدث له قبل وقوعه ولكنه عجز عن تذكر اي شيء بعده

بنوك الدم

لا تعجب ايها القارىء من هذا العنوان . فقد عودنا ارتقاء المباحث العلمية ان لا يدهشنا ما يحسب من الخوارق عادة او على الاقل من الامور غير المألوفة. ولا يخفى ان الانسان يحتاج في بعض العمليات او بعدها الى دم من رجل قوي البنية صحيح الجسم يصلح دمه للامتزاج بدم العليل من دون أن يقع الالتباد في كرياته الحمر

وقد اطلعنا الآن على خلاصة بحث للدكتور فشر رئيس قسم الفسيولوجيا في جامعة الينوي والدكتور دايفس مدير المدرسة الطبية فيها ان المباحث الحديثة التي قاما وأعوانهما بها في هذه الجامعة اسفرت عن اساليب تمكنهما من اخذ الدم من اي انسان كان وحفظه سليماً نقيًّا صالحاً لان يُحقَن بهِ من يحتاج اليهِ ويصلح لهُ عند ما يشاء الطبيب المعالج

فالمرأة الحامل في آخر شهور الحمل مثلاً تكون قد خزنت في دمها مقداراً كبيراً من عناصر الغذاء اللازمة لها . فتستطيع في هذه الفترة ان تطلب ان يؤخذ من دمها مقدار معين ويحفظ في « بنك الدم » حتى اذا جاء وقت الولادة وأحست بالضعف امكن طبيبها حينئذٍ ان يأخذ ذلك الدم المحفوظ ويحقنها بهِ فيقويها

وقد اسفرت تجارب الدكتور دايفس مدير المدرسة الطبية عن طريقة لاستخراج الدم من الذين قتلوا في حوادث صدام او عوارض فيحفظ دمهم ويستعمل عند الحاجة اليهِ فيحقن بهِ من يصلح لهُ

«النترينو» او المحايد الصغير

الذرة في علم الطبيعة هي اصغر جزء تتمثل فيهِ « شخصية » العنصر اي صفاته وخواصه . والذرة في علم الطبيعة الحديث مؤلفة من جزءين النواة والجو الكهربائي حولها اي الفضاء الذي توجد فيهِ الكهارب. والنواة كانت الى قبل سنوات مركبة في رأي العلماء من كهارب (الكترونات) وبروتونات . ثم اكتشفت طائفة من العلماء وعلى رأسها الاستاذ شدوك الانكليزي ان في النواة دقيقة اخرى اطلقوا عليها اسم (النوترون) وأثبت شدوك وجودها بالبرهان التجريبي . وقد ترجمنا النترون بلفظ «المحايد» لان هذا معناه

ثم اخذ علماء الطبيعة النظرية يكتبون ويقولون بوجوب وجود دقيقة اخرى دعوها «النوترينو» اي النوترون الصغير اي المحايد الصغير

ووجود هذه الدقيقة ضروري لتفسير بعض الظاهرات في نظائر العناصر . فاذا وجد لبعض العناصر نظائر مجهولة يقتضي وجود هذه الدقيقة النظرية وجودها فهذا برهان عملي غير مباشر على وجود « النوترينو » . وقد جاء بهذا البرهان الآن الاستاذ باينبردج احد علماء جامعة كمبردج

*

زيت الزيتون وتزييت السيارات

صرح الاستاذ باستيه احد علماء المعهد الزراعي بالجزائر ان زيت الزيتون يصلح لتزييت السيارات في البلدان الاستوائية ولكن يجب ان تستخرج الحوامض منهُ بعد عصره من الزيتون لكي لا تأكل المعدن الذي تصنع منهُ الاجزاء المزيتة

استعمال طاقة الشمس

الطاقة التي تطلقها الشمس في الفضاء بل ما يقع على سطح الارض منها عظيم جدًّا لا تقاس به الطاقة التي تولدها المصانع والمعامل في جميع انحاء العالم . ومصادر الطاقة اللازمة للصناعة والنقل سواء في ذلك الفحم او البترول مشكلة تهم جميع الناس على السواء لانه اذا نفد الفحم والبترول لا نعرف سبيلاً عمليًّا الى توليد الطاقة الاَّ من مساقط المياه . وهذه وحدها لاتكفي علاوة على انها لاتصلح الاَّ لمنشآت مثبتة على سطح الارض الاَّ اذا امكن اختراع بطاريات خازنة قوية خفيفة لتستعمل في الطائرات في الجو والسفن في البحار

لذلك عني علماء كثيرون باستخراج الطاقة او توليدها من مد البحار وجزرها ومن الفرق بين حرارة مياه البحار عند السطح وفي الاعماق ومن حرارة الشمس الساقطة على سطح الارض حرة مباحة لمن يشاء او بالحري لمن يعرف كيف يخزنها ويستعملها

وقد قرأنا الآن ان الدكتور أَبُت سكرتير المعهد السمثصوني الاميركي اتقن جهازاً لالتقاط طاقة الشمس تبلغ كفاءته ١٥ في المائة اي ان هذا الجهاز يستطيع ان يخزن ١٥ في المائة من طاقة الشمس الواقعة عليه

وهو مؤلف من مرايا مقعرة تقعيراً خاصًّا مصنوعة من خليط خاص من معدن الالومنيوم فتبقى لامعة ولا تتكدر

هذه المرايا تجمع الاشعة الواقعة عليها على سائل اسود غير شفاف فيمتص الحرارة فترتفع حرارته الى ٣٥٠ فارنهيت (اي نحو ١٧٦ درجة مئوية) ومن حرارته تستمد الطاقة لتحريك مولد للكهربائية

وليست هذه الطريقة بالجديدة في تاريخ البحث عن اسلوب لخزن حرارة الشمس واستعمالها فقد سبقت تجارب كثيرة في كاليفورنيا واريزونا ومصر وروسيا ولكن الجهاز الذي صنعه الدكتور ابت اكثرها اتقاناً وأشدها فعلاً

ولا يخفى ان جهازاً يعتمد في توليد الطاقة على شروق الشمس وغروبها وظهورها او احتجابها وراء الغيوم لا يستطيع ان يولدها توليداً مستمرًّا ولكن الدكتور أَبُت اثبت انه يمكن استعمال هذا الجهاز في ساعات شروق الشمس وظهورها فتخزن الطاقة المولدة في بطاريات خازنة كبيرة او تستعمل في رفع الماء الى خزانات كبيرة ثم يستعمل سقوطها من الخزانات لتوليد الطاقة الكهربائية

*

عملية الطلق في الولادة

ثبت من بحث الهرمونين المتصلين بالحياة الجنسية في النساء ان احدها يفعل فعل الكباس في البندقية عندما تحين الولادة فيؤثر في الجهاز العصبي وهذا يؤثر بدوره في العضلات فتبدأ عملية الطلق وهي العملية التي تنتاب المرأة في خلالها الآلام المرة وبانقباض العضلات وارتخائها يقذف الجنين الى الخارج في الولادات السوية

هرمونات النبات

قد يجيء يوم في المستقبل القريب تستطيع فيه ان تذهب الى الصيدلي فتشتري منه عقاراً تذيبه في الماء الذي تروي به نباتك او تمزجه بالتربة حول جذوعه وجذوره فينمو النبات نمواً عجيباً لا عهد لك به من قبل

هذه هي النتيجة التي اعلنها باحثان اميركيان بعدما قاما بمباحث عظيمة الشأن في ما سمياه « هرمونات النبات » ففازا بجائزة الف ريال من المجمع الاميركي لتقدم العلوم في اجتماعهِ الاخير في دسمبر الماضي

والهرمون كلمة تطلق على المفرزات الداخلية التي تفرزها الغدد الصم في جسم الحيوان . ففي جسم الانسان مثلاً طائفة من الغدد التي لا قنوات لها ولذلك دعيت بالغدد الصم . ولكن لها مفرزات تفرزها رأساً الى الدم الذي يجري في الانابيب الشعرية داخلها

وهذه الهرمونات فعالة شديدة الفعل حتى اذا افرز منها مقادير يسيرة جداً . ومن اشهرها مفرزات الغدد الدرقية والكلوية والنخمية والبنكرياس (الحلوة) وغيرها

وقد وجد هذان الباحثان الاميركيان الدكتور هتشكوك والدكتور زمرمان ان هناك مواد تؤثر في نمو النبات تأثيراً عظيماً ولو استعملت منها مقادير صغيرة جداً . ولكن هذه المواد لا تصنع جميعها في غدد في جسم النبات بل في معمل الكيماوي فاذا اضيفت الى الماء الذي يروى به النبات او الى التربة التي يستمد منها بعض الغذاء او مزجت بدهن او زيت واستعملت كما يستعمل المرهم اثرت فيه تأثيراً عظيماً

فأطلاق اسم «هرمونات» عليها ليس الاَّ على سبيل الاستعارة من ميدان الفسيولوجية الحيوانية او على سبيل تسمية الكل باسم البعض

وقد وجد من هذه المواد خمس عشرة مادة تفعل هذا الفعل فجرب بها هتشكوك وزمرمان التجارب في معاهد نباتية مختلفة بأميركا ومن هذه المواد ما يجعل الجذور تنمو على الجذوع او حتى على الاوراق أحياناً واجزاء الازهار

وقد تستغرب ايها القارىء اذا قلنا لك — نقلاً عن رسالة العلم الاسبوعية — ان المادة الاولى التي استعملت في هذا السبيل هي غاز اكسيد الكربون الاول فنشأ عن استعماله نمو جذور في أماكن من جسم النبات لا عهد لها بالجذور مطلقاً. ثم مضى الباحثان في تجاربهما فكشفا موادَّ اخرى منها ما يصنع بالتركيب الصناعي كالحامض الخليك المستخرج من النفتالين ومنها ما يستخرج من الجذور او الازهار والثمار التي قاربت النضج اي ان هناك مواد تفعل هذا الفعل طبيعية وصناعية او عضوية وغير عضوية

*

نمل عجيب

عثر الدكتور ڤيلر احد اساتذة جامعة هارفرد الاميركية على عمارة من النمل العجيب في جزيرة ترنيداد . ووجه العجب في هذه العمارة انها مؤلفة من ٣٣٠ نملة كل منها نصفها ذكر والنصف الآخر انثى

تآليف المستشرقين

بقلم الدكتور بشر فارس

يوسف شخت — في الفقه الاسلامي — ١٤٥ ص — ٢٢ × ١٥
Joseph Schacht — G. Bergsraesser's Grundzuege des islamischen Rechts — Verlag von Walter de Gruyter & Co. Berlin 1935

من مخلفات المستشرق الكبير ج . برجشترسر مجموعة محاضرات في الفقه الاسلامي وقد رتبها تلميذه الاستاذ شخت مدرس اللغات السامية في الجامعة المصرية ودونها تدويناً صالحاً. وهذه المحاضرات تعرض بسائط الفقه الاسلامي في وضوح واختصار . ولها مقدمة طريفة نفيسة تبحث في جلالة شأن هذا الفقه وتدل على تأثيره الشديد في نواحي الحياة العقلية في البلدان الاسلامية على نحو تأثير القانون الروماني في ذهنية الرومان . وفي المقدمة تمييز بين الفقه الاسلامي وقانون الكنيسة ثم بينهُ وبين الشريعة الموسوية . وخلاصة هذا التمييز ان الاسلام يختلف عن المسيحية بانهُ لم يكن قط « كنيسة » بالمعنى المتواضع عليه اي هيئة دينية خلفها قوة منظمة ، ثم انهُ يختلف عن اليهودية بأنهُ ليس قانوناً خاصًّا بجماعة من الناس خارجاً على قانون الدولة المالكة

ويتلو هذه المقدمة بحث في تاريخ التشريع الاسلامي وعرض مسئلة المذاهب عرضاً مقبولاً . وفي الخاتمة مناقشة تدور حول قيمة الفقه الاسلامي وخاصيته . ثمَّ للكتاب جدول للاصطلاحات الفقهية باللغة العربية منقولة الى حروف لاتينية ثم جدول للاصطلاحات الفنية باللغة الالمانية

هذا وقد اثبت مقدم الكتاب وناشره طائفة من المصادر اللاحقة بالفقه الاسلامي (ص٦و٧) ، ولكنهُ حين اشار الى قانون عرب البادية لم يذكر الاَّ القليل من المراجع فما فاته « خمسة اعوام في شرقي الاردن » لبولس سلمان (حريصا ١٩٢٩) و « تاريخ سينا القديم والحديث » لنعوم شقير (مصر ١٩١٦) و Jaussen et Savignac "Coutumes des Fuqara" باريس ١٩٢٠ و "Etude Sociologique sur la famille musulmane contemporaine en Syrie" لكاظم الدغستاني (باريس ١٩٣٢)

الفن الاسلامي في مصر

للدكتور زكي محمد حسن — ١٣٣ ص و٣٧ لوحة — ٤٣ × ٢٧

ان الدكتور زكي محمد حسن من نخبة الفتيان المصريين الذين شخصوا الى اوربة يطلبون العلم الرفيع فعادوا منها ناجحين ثم شغلوا في مصر مناصب عالية كانت العلماء من الفرنجة قابضة .

عليها . وقد صرف الدكتور زكي حسن عنايته الى تاريخ الاسلام ولاسيما فنه . فكان موضوع رسالته ، في جامعة باريس (١٩٣٣) « الطولونيون ، بحث في مصر الاسلامية في خاتمة القرن التاسع » ٣٣١ ص و ١٦ لوحة ، ٢٦ × ٢١ Les Tulunides—Etude de l'Egypte musulmane à la fin du IXe Siècle (Editions Geuthner Paris) وقد بسط في هذه الرسالة الوقائع التاريخية لهذا العهد ثم فحص عن احوال الدولة من ادارة ونظام وعن نواحي الحياة المختلفة من دين وادب وخلق وتجارة وصناعة وفن . وقد وقعت الرسالة موقعاً لطيفاً في اندية الاستشراق في اوربة (راجع مثلاً O. L. Z. Aug, Sept. 1935)

ومما ينشرح له الصدر ان الدكتور زكي محمد حسن اصبح الامين العلمي لدار الآثار العربية عندنا وانشأ يدرس التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية . واليوم اخرج هذا العالم الشاب كتاباً جميل الطبع حسن الشكل في الفن الاسلامي في مصر بل في الفن الاسلامي الاول فيها. واذ كان هذا الفن قد ضاعت معالمه او كادت فانما تناول البحث الفن الطولوني خاصة

والكتاب مقسم تقسيماً لطيفاً ففيه مقدمة تاريخية ثم عرض الفن الاسلامي في سامرّا ثم بسط مناحي الفن الطولوني من عمارة دينية وحربية ومدنية وزخرفة المباني ومنسوجات وحفر على الخشب وخزف وتصوير . ويلي البحث جدولان احدهما للمراجع والآخر لاسماء الاعلام الجارية في الكتاب . واما زينة الكتاب فعدد وفير من اللوحات مأخوذة بالفوتوغوافية تبرز للعين خصائص فن سامرّا والعهد الطولوني

والذي يستخلص من هذا الكتاب النفيس أن « الفن الطولوني يكاد يكون قد اخذ كل اصوله عن الفن العراقي الذي نشأ في سامرّا عاصمة الخلافة العباسية » (ص ٢١) وازدهر فيها وكان هذا الفن الاخير يرجع كثيراً او قليلاً الى الفن الفارسي والتركي (ص١١٩). غير ان الفن الاسلامي في مصر ما ابطأ على ايدي الطولونيين أن ينحو نحواً آخر استقلّ بهِ عن مأخذه الاول (ص ١١٩)

ومن محاسن الكتاب ان المؤلف يسرد جميع آراء العلماء عند عرض مسئلة دقيقة، ويساعده على ذلك معرفته الانجليزية والفرنسية والالمانية . غير ان القارىء ربما بدا لهُ ان المؤلف يفرط في التواري خلف اولئك العلماء أو التشبث بأهداب هذا او ذاك. انظر مثلاً ركونه الى «مؤرخي الفن الاسلامي » لتفنيد رأي واحد من العلماء ، من دون تعليل (ص ١١٠) . ومن المراجع التي لم يستند اليها كتاب عنوانه Mussulman Painting by E. Blochet. London 1929 (راجع مقتطف مارس ١٩٣٥) هذا وهل لنا ان نسأل المؤلف لم لم يرتب المصادر العربية على حروف المعجم كما صنع عند اثبات المصادر الافرنجية ؟

بقي أن اسلوب المؤلف يعوزه ما نقول لهُ التشويق . والحق ان للكتب العلمية ان تكون

بعيدة عن مطارح العبارة الرشيقة الطريفة الاَّ ان هنالك تراكيب لايخف محملها على الاذن العربية منها « وقد لعب دوراً كبيراً في الحوادث » (ص ١١) و « مكائد » (ص ١٣) و « . . . من الصعوبة بمكان يذكر » (ص ٣٥) و « تأثير . . . على الفن الطولوني » (ص ٦٨) . ثم ان المؤلف يكثر من استعمال التعبير الواحد ومن ذلك استعماله « ومهما يكن من شيء » استعمالاً يصدم السمع لتواتره

***

اويجين متفوخ — في نص عربي قديم — ٤ ص — ٢٥ × ١٧

E. Mittwoch – Eine arabische Bauinschrift aus dem Jahre 136 H.
in "Orientalia" 1935, S. 235–238

ان الاستاذ اويجين متفوخ من المتبحرين في اللغات السامية وقد تخرج عليهِ في جامعة برلين طائفة من طلاب العربية والسريانية والحبشية فيهم نفر من المصريين اذكر منهم الصديق العالم الشاب السيِّد مراد كامل . وقد اتفق لي ان سمعت على الاستاذ متفوخ مرتين ايام كنت اقيم ببرلين فوقعت طريقته في التعليم من نفسي ألطف موقع

وللاستاذ متفوخ تآليف ضخمة نشرها في السنين الماضية ، ثم لهُ هـذا البحث الصغير . ومداره ضبط نص عربي قديم يرجع الى سنة ١٣٦ للهجرة . وقد عثر السيد محمد صلاح الدين النجار (من القاهرة) على هذا النص في صنعاء منقوشاً في حجر . وفضل الاستاذ متفوخ انهُ حلَّ مشكلات هذا النص ورد عباراته الى ما يشاكلها في القرآن وتاريخ الطبري وغيرها

***

ميشال فغالي — قصص وأساطير وعادات شعبية لبنانية —

١٩٦ ص بالفرنسية و ٨٥ ص بالعربية — ٢٥ × ١٨

Michel Feghali—Contes, Légendes, Coutumes populaires du Liban
et de Syrie — Editions Adrien — Maisonneuve, Paris 1935

ان المنسنيور ميشال فغالي ممن يصرف همه الى البحث في لغة العامة بحثاً علميًّا دقيقاً . ومن آثاره الماضية « لهجة كفر عبيدة » (١٩١٩) و « نحو اللهجات العربية في لبنان » (١٩٢٨) و « نصوص لبنانية بالعربية الشرقية » (١٩٣٣) . والغرض البعيد من هذه المؤلفات تدريب طلاب العربية في فرنسة على فهم اللغة العامية اللبنانية

والحق ان المشتغلين بلهجاتنا العامية عدلوا الى لهجات المغرب ومصر والعراق وغيرها مهملين لبنان الاَّ شيئاً . فانبرى المنسنيور ميشال فغالي لهُ وهو من ابنائه والكتاب يعرض نواحي الكتابة

اللبنانية باللغة العامية ففيه آثار الحياة الدينية والاجتماعية والعقلية والزراعية والتجارية وطائفة من الحكايات والاقاصيص . وكل هذه النصوص ادرجها المؤلف بالعربية ثم نقلها الى حروف لا تينية وترجمها الى الفرنسية وعلق عليها ارادة شرح الغوامض والدقائق الخاصة بلبنان

هذا واني وان كنت ممن لا يميل الى قراءة اللغة العامية لأعترف بأن نصوص هذا المصنف تشف عن عادات اهل لبنان وتدل على ذهنيتهم وأنها تثبت نشوء الادب العامي ولا سيما الروايات والاغاني

***

هنري بيرس — كتاب الامامة والسياسة.

ودخول الشعراء على عمر بن عبد العزيز عن ابن قتيبة — ١٧ ص — ٢٥ × ١٦

H. Pérès— Le Kitab al-Imâma wa's—Siyâsa... Extrait de la Revue Tunisienne 3e et 4e Trimestre 1934, p. 318—335.

مما لا يخفى على المشتغلين بالمشرقيات ان « كتاب الامامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة ليس له . وقد اقام الادلة على هذا مستشرقان توفاهما الله دوزي Dozy ودخُـوي De Goeje وانك تجد ادلة دوزي مبذولة لقراء العربية على يد الاستاذ احمد زكي العدوي في كلامه على مؤلفات ابن قتيبة في الجزء الرابع من كتاب عيون الاخبار المطبوع في مصر سنة ١٩٢٥ الى ١٩٣٠ . وأما أدلة دِخُـوي فتصيبها في مجلة ايطالية Rivista degli Studi orientali ، السنة الاولى، المجلد الاول، الجزء الثالث . كل هذا يعرفه صاحب هذه الرسالة وانما أراد أن يزيد في تلك الأدلة فسلك في سبيل هذا سبيلاً قويماً ذلك انهُ عارض قصة دخول الشعراء على عمر بن عبد العزيز من كتاب الامامة والسياسة بالقصة نفسها من كتاب الشعر والشعراء للمؤلف نفسه فنقل الروايتين الى اللغة الفرنسية نقلاً حسناً واستخلص من ذلك (ص ٣٢٩) :

(١) ان اسلوب كتاب الامامة والسياسة انما هو اسلوب الأساطير في حين اسلوب الشعر والشعراء اسلوب الاخبار (وهنا لا نسلم التسليم كله بأن صاحب « كتاب الامامة والسياسة » عمد في تلك القصة الى اسلوب الاساطير (٢) ان الرواة مختلفين — (٣) ان حجاب الخليفة مختلفون —(٤) ان الشعراء المأذون لهم في الدخول على الخليفة مختلفون

ثم ختم المؤلف رسالته اللطيفة (ص ٣٣٥) بقوله ان صاحب كتاب الامامة والسياسة اول من ساق خبر دخول جرير وغيره من الشعراء على الخليفة عمر بن عبد العزيز على النحو الذي ساقهُ وان تاريخ ذلك الكتاب يصعد الى مختتم القرن الثالث او مستهل القرن الرابع

ب . ف

محمد

تأليف توفيق الحكيم

ان الموضوع الذي اختاره المؤلف موضوع طريف حقًّا والطرافة فيهِ آتية من ناحيتين : الأولى ان حياة محمد لم تكتب في قصة تمثيلية قبل الآن ، فالاقدام على ذلك شيءٌ جديد . والثانية ان حياة نبي العرب احيط بها من جميع نواحيها ودونت كل دقائقها واكثر وقائعها وقيدت جميع الاحاديث التي تتعلق بها على وجه التقريب،فلم يترك المتقدمون من كتاب السير مادة واحدة يمكن ان يشعر المؤرخ حيالها بأنهُ في حاجة الى تفكير او مقارنة لاستخلاص حقيقة جديدة تخفى على الناس فيها . واذن يكونْ أمام رجل الفن الذي يريد ان يضع قصة يتناول فيها حياة النبي احد أمرين : فإما ان يقص الحوادث مستخلصة من كتب السير كما وصلتنا فيرتبها في قالب قصصي كما فعل الاستاذ الحكيم ، وإما ان يبحث عن ناحية من نواحي البطولة جديدة في حياته بحيث تكون قد طويت في تضاعيف الحوادث والاحاديث التي وصلتنا عنهُ فيجلوها في ثوب جديد وصورة جديدة . اما الاستاذ الحكيم فلم ينتح المذهب الثاني وإنما انتحى المذهب الأول ، فقص الحوادث كما وقعت ونقل الاقوال كما قيلت بلسان اهل العربية الفصيح ، ولم يزد من عنده على الاحاديث من شيء الاَّ وظهر كالرقعة الدخيلة في الثوب القديم ، فأنقص ذلك بعض الشيء من قوة السبك الأسلوبي في بعض مواضع القصة . وكل ما هو جديد في ما كتب الاستاذ الحكيم ، انما هو الصور التي صور بها الاشخاص في بعض الحوادث كجعل هذا يقطب جبينه وذاك يجلس القرفصاء وغيرها يشير بيده . على ان هذا ايضاً يمكن استخلاص الكثير منهُ من كتب السِّير التي احاطت بوقائع ذلك العصر احاطةً شاملة

على هذا نجد أن ما في هذه القصة من فن انما هو فن الحوادث كما وقعت ، وكل ما فيها من بلاغة انما هي بلاغة الاقوال كما قيلت ، وعندي انهُ ليس في هذه القصة من جديد الاَّ فكرة ان يسوق الكاتب بعض حوادث كتب السير مساق قصة تمثيلية وهي فكرة جميلة

كذلك يلاحظ الناقد أن الاستاذ المؤلف لم يسق الحوادث التاريخية مرتبة كما وقعت تماماً . وهذا امر ان جاز في وضع قصة خيالية عن اشخاص غير تاريخيين ، فانهُ لا يجوز اطلاقاً ولا هو مما يسمح بهِ الفن في رجال عرفهم التاريخ ادق معرفة واحاط بأشخاصهم كل احاطة ودونت حوادث حياتهم أدَقَّ تدوين

على أننا اذا تجوزنا وقلنا بان للمؤلف ان يقدم في رواية بعض الحوادث وان يُؤخّر في رواية البعض ، فاننا لم نعرف ما هي الحاجة الفنية التي حملتهُ على ذلك ، ولم نتبين وجه الحكمة التي ساقتهُ

اليه . فان هذا لم يظهر بعض الحوادث مسبوكة في قالب اشد روعة مما حدثت بترتيبها التاريخي ولم يزد من سبكها الاصيل شيئاً . بل ان الناقد ليشعر بان الحكمة كانت في جانب سوق الحوادث مرتبة كما وقعت تماماً ، ما دام الكاتب لم يفتنّ فنّاً جديداً ، وإنما اكتفى بان يتخذ من فن الحوادث التاريخية مادة قصصية

يظهرك على ان الكاتب استعان بفن الحوادث ، انك تشعر في بعض المواضع بانقطاع فنيّ في سلسلة الحوادث ، لنظير ما يحدث في الحياة العادية تماماً . فقد تنتقل من المواقع الحامية وصليل السيوف وتطاحن الابطال فجاءة الى حديث عائشة وصفوان اي الى حديث الإفك ، فاذا انتهى منه خرج الى حديث آخر لا علاقة له بسابقه ولا بسابق سابقه ولا بلاحقه. وامثال ذلك في سياق القصة كثير

*

وعندي انه كان من المستطاع ان يقع المؤلف على مادة تمكنه من ان يجلو بطولة النبي العربي في صورة جديدة ، لو انه رجع الى كتب الاحاديث واطلع على تفسيرها وأحاط بدقائق العلاقات التي تصل حوادث السيرة بالاحاديث . غير ان هذه المهمة على ما ارى شاقة تحتاج الى كثير من الوقت والتعب . ولكنها خطة من الواجب ان ينتحيها كل كاتب يقدر ما للنبي العربي العظيم من قدسية واحترام. غير انا نقول مع الاسف الشديد ان نزعة الآداب الحديثة تفضل آثاراً فنية خلصت قدر المستطاع من موازنات الحكيم وثقافة الفنان

كذلك اجد ان في الرواية نقصاً من ناحية الفن المسرحي بجانب ما فيها من نقص في الفن القصصي . فكيف يمكن اخراج فصل واحد مؤلف من ستة وثلاثين منظراً متعاقبة على مسرح واحد؟ انما علم ذلك عند المشتغلين بالتخريج ولعلهم يستطيعون ان يذللوا مثال هذه العقبات بادماج بعض المناظر في بعض . على اني ارى ان ذلك متعذر في مثل هذه القصة

اسماعيل مظهر

مجلة الشباب الاسبوعية

ليس الاستاذ محمود عزمي في حاجة الى التعريف ، وهو صحافيٌّ يعد من طليعة الصحافيين الشرقيين براعة وعلماً ونشاطاً . ولكن انتقالهُ من ميدان الصحافة اليومية الى ميدان الصحافة الاسبوعية كسب عظيم ، لهذا الضرب من الصحف في الشرق . فقد كنا في حاجة الى مجلة اسبوعية ، تنقل الينا طرفاً من السياسة والتاريخ والادب والفن والعلم في كل اسبوع ، وهذا على ما يظهر لنا غرض « الشباب » . فالمقالات السياسية والاقتصادية فيها لا تنافس الصحف اليومية

في سرد الاخبار ، ولكنها تدبر حوادث الاسبوع وتعلق عليها ، تعليقاً قد لايتسع مجالهُ للصحف اليومية . وهذا في الواقع هو عمل الصحيفة الاسبوعية التي من هذا الطراز . فقد تقرأ صحف لندن اليومية ، ولكنك مع ذلك ، اذا كنت من المثقفين تحتاج الى مطالعة السبكتاتور والنيوستيتسمان الاسبوعيتين . فطالعة المقطم او الاهرام او البلاغ او الجهاد لا تغني عن مطالعة الشباب. والمقالات العلمية والفنية تمتاز من ناحية بصلتها بحادث يقع في مصر او في بلد آخر من بلدان العالم او باكتشاف يكتشف فتفسرهُ وتبين مقامه، وبالتبسيط الذي ترغب فيه العامة وترضاه الخاصة . فمجلة الشباب من اي النواحي اتيتها ، اداة فعَّالة من ادوات الثقافة العامة العالية ، التي تحتاج اليها هذه البلاد ، في تنشئة شبانها وشاباتها . فعسى ان تجد من تأييدهم واقبالهم ما يضمن لها تحقيق هذا الغرض

الموسيقى

مجلة الموسيقى لسان حال المعهد الملكي للموسيقى العربية يرأس تحريرها الدكتور «محمود احمد الحفني» وهي مبوبة تبويباً فنيًّا . حاوية موضوعات نفيسة في الصور الموسيقية المنوعة . واتصالها بالأدب والفن . ولقد عرضت للغناء واثره في تاريخ الأدب . والأدب الموسيقي . ومبادىء الموسيقى النظرية . والتربية الموسيقية . والموشحات . ويشترك في تحرير موادها المختلفة طائفة من اعلام المثقفين والمفكرين امثال الاساتذة الأجلاء محمد زكي علي وحسن نبيه المصري وصفر علي وعلي الجارم وابراهيم رمزي

والمجلة تحوي ايضاً دروساً عملية في النوتة الموسيقية بأقلام مفتش الموسيقى بوزارة المعارف وهذه الدروس وان كانت بدائية الاَّ انها تهيء للمبتدئين طرق التقدم في هذا الفن لسهولتها وروعتها

والدراسات الموسيقية من بواعث تقدم الفن في النهضة الأدبية الحديثة. ولن ترقى الموسيقى بتاتاً في عصور الركود الذهني . فالموسيقى لغة الحرية ولسان الفن

واساس الجمال في الموسيقى مبلغ الاثر الذي تتركه في الاحساس النفسي لأن الفنون لا تتصل الاَّ بالروح . وفن الموسيقى يقوم على قوة التركيب في موضوع الألحان والأيقاع وقوة المعنى . وينتهي الأثر الموسيقي الى ان يثير في النفس عوامل التفكير والشعور والأنسجام

***

فالمجلة لها مكانتها الموضوعية والفنية وحاجة الهواة والطلبة اليها لا تنكر. فنرجو لها التقدم المطرد بقيادة الاستاذ « الحفني » الذي تثقف ارفع ثقافة موسيقية في برلين

مكتبة القراءة والثقافة للجيب

تصنيف الدكتور فريد رفاعي

من الكتب ما لا تكاد تلمحهُ حتى تخاله يقول لك « ها أنذا » ومنها ما لا يمكن ان تلتفت اليه الاَّ اذا قيل لك « ها هوذا ». . . والكتب في هذا تشبه الناس ومن الناس ملايين يجيئون ويذهبون ولا يؤبه لهم جاءوا او راحوا . . . ولكن ناساً قليلين جدًّا همُ الذين يفرضون شخصياتهم على الحياة فرضاً . اولئك هم السادة من الزعماء والقادة المفكرين . ومتى ظهر كتاب او رجل من هذا الصنف حَرِيٌّ بعلماء الاجتماع أن يستعدوا لاستقبال بعض الظواهر المبثوثة في اثناء تلك المظاهر فليس ظهور هذا الكتاب او ذاك الرجل إلاَّ بشير تطور اجتماعي وفكري

ومنذ اعوام ظهر الرجل ثم ظهر الكتاب . أما الرجل فكان الدكتور احمد فريد رفاعي . وأما الكتاب فكان عصر المأمون ..

فتسابق الناس والصحف وتنافسوا في الترحيب بهِ وعدَّه بعضهم وقتئذٍ كتاب العام ومع ذلك فقد ظهر انهم كانوا مقصرين لانهُ ليس كتاب عام وانما كان كتاب الجيل

ولكن الدكتور فريد لا تشبع نهمته ولا يكفيه ان يتقدم الى موضعه من الخلود بشهادة عصر واحد ولو كان هو عصر المأمون اعظم عصور العربية حضارةً وثقافةً وتفكيراً وكأنهُ يقول للمعجبين بهِ اذا أدهشكم حشد عصر واحد في كتاب فسوف اريكم كيف احشد العصور كلها في كتاب اصغر حجماً وأخف حملاً

وهكذا شرع مؤلف عصر المأمون في حشد عصور الادب العربي جميعاً ولكن في أي صورة؟ في صورة مكتبة صغيرة توضع في الجيب

اي والله لقد عمد الدكتور احمد فريد رفاعي الى الأدب العربي كله في جميع عصوره ونخلهُ وغربلهُ ثم غربلهُ ونخلهُ ثم بعثهُ للناس خالصاً سائغاً في صورٍ تستهوي الاعين وتصبي الافئدة وقد دعاها مكتبة القراءة والثقافة للجيب

ولكن لماذا ألف الدكتور هذه المكتبة ؟ قال في المقدمة :

ان اللغة العربية على ما فيها من نفائس وثروات وروائع وامهات وفنون وعيون وغرر ودرر وطرف ومُلح وكنوز وافادات ومواعظ وثقافات ما زالت العناية بالقراءة فيها بعد في ابانها وشد ما تحتاج تواليفها بعثاً وتجديداً وبناءً وتسنيداً وتشذيباً وتهذيباً فلم تفارق بعد امها ولم تُوجه كغيرها من اللغات توجيهاً يتفق والزمن والبيئة . فآثار شيوخ الأدب وأئمة الثقافة من السلف الصالح منسية في كنها وبينما يعنى الغربيون بتعدد ابواب القراءات واصدار متباين الطبعات واسعاف القارئين بمختلف الثقافات فاننا لم نقدر بعد اوقات الحياة التي تقطعنا بشتى واجباتها ومتتابع أعبائها

ولم نلبس مع كل زمان بردته . . وكم تساءل المفكرون عن حكمة الاحجام دون امتاع الشباب بما دلت تجاريب الغرب على اصابته المحجة : من احيائهم تراث كتّابهم النابهين وادبائهم النابغين وشعرائهم الساحرين في طبعات بحجم الجيب يدرسها الطالب ليصيب منها علماً جديداً ويقوّم بها لساناً حديداً وذهناً رشيداً ولماذا لا نعنى ببث روح القراءة في الجميع ولماذا لا نحاول رفع مستوى القراءة وقد انحطت الى ما هو تافه رخيص من قصص الغرام وأحابيل الاجرام ومفاجاءآت البوليسيات والاسفاف بالبذاءات وسياسة قتل الوقت سدًى في غير نفع ولا افادة والوقت علم الله من ذهب...». هكذا كشف المؤلف الدكتور في المقدمة عن السبب في اقدامهِ على تأليف هذا الكتاب وأظن أنهُ لا يوجد أديب عربي واحد يطلع على هذا البرنامج الاَّ ويرفع صوته قائلاً أحسنتَ أحسنتَ يا دكتور

بالأمس كان كتاب عصر المأمون فتحاً جديداً لفن جديد هو فن التأليف في الادب واليوم ها هي مكتبة الجيب فتح جديد لفن جديد ايضاً هو فن القراءة . وقد كنا نعجز عن تهنئة الرجل على نبوغهِ في فن واحد فكيف نقدر على تهنئته وقد نبغ في فنين. الحق ان الدكتور فريد رفاعي قد اثبت في هذا المؤلف الحديث انهُ احد جهابذة الاصلاح في عصره كما اثبت من قبل انهُ أحد ائمة الادب العصريين

***

البدائع — للدكتور زكي مبارك

جزآن — ٤٢٢ ص — ٢٤×١٦ — (المكتبة المحمودية التجارية) ١٩٣٥

ان الدكتور زكي مبارك ممن يمتد نفس الفصحى على ايديهم في هذا الزمان فسواء نثر او نظم اتحفك بانشاء تصيبه في بطون الكتب التي كاد الناس ينصرفون عنها عفا الله عنهم. الاَّ ان الدكتور مباركاً عرف كيف يخفف وقع قلمه فرد عبارته سهلة واضحة بعيدة عن مطارح الاغراب قريبة من نواحي الاسلوب الحديث . هذا وكان ملازمة الدكتور مبارك لطائفة من كتب الادب العربي ارهفت صفحتين من صفحات قلمهِ ارهافاً عجيباً : صفحة التهزل ثم صفحة اللذع . وكان للثانية الغلبة

واما الرجل فألمع صفاته صراحته ، وما أعرف شيئاً يرهق القلم واللسان مثل الصراحة

وبعد فهذه الطبعة الثانية لكتاب البدائع وهو مجموعة مقالات فيها من كل شيء طرف : ادب وسياسة وتاريخ وتأثر . والظريف ان المؤلف اثبت قطعاً لعهود مختلفة بحيث انك تقرأ زكي مبارك الازهري ثم السياسي ثم الطالب ثم الصحافي ثم الدكتور ثم الاستاذ . وهذه المقالات على بساطة موضوعاتها في الغالب (فقد كانت تعد للصحف السيَّارة مثل «الافكار» قديماً و«البلاغ» حديثاً) لتلذ القارىء من حيث انها تنطوي على سيرة كاتب ذي شأن وتاريخ جيل من المصريين

بشر فارس

رحلتي الى الحجاز

بقلم محيي الدين رضا — صفحاته ١٦٠ — ثمنه ٥ قروش

كتب الرحلات لذيذة بطبيعتها ومشوقة لان اصحابها يكتبونها عادة اثر حافز نفسي قوي يدفعهم الى كتابتها. وهذه الرحلة ضمّت المباحث التي كتبها السيد محيي الدين رضا على أثر حجّه وقد رمى فيها الى اظهار فضائل الحج الصحية والدينية. فالحج ركنٌ لا يتمُّ إسلام المرءِ الاَّ باداثهِ اذا كان قادراً. وقد حقق في ما كتبهُ ان ابا بكر رضي الله عنهُ حجَّ في شهر مارس من عام ٦٣١ م اي السنة العاشرة الهجرية وان الرسول عليهِ السلام حج في مارس من عام ٦٣٢ م اي الحادية عشرة الهجرية ودعا المسلمين الى التأسي بالخليفة الاول والنبي الكريم بان يحجوا فلبَّى دعوتهُ كثيرون وكان من الذّ ما سمعهُ في خلال حجّهِ قول بعض الحجّاج له في منى انهم حجّوا تلبيةً لدعوتهِ

وقد توسع في تحبيب الحج الى الناس واظهار فوائدهِ الصحية من استنشاق هواءِ البحار وهواءِ الصحاري وكلاهما منعش وجالب للقوة والعافية، وقد نالهُ منهما قسط وافر. وسطّر على القرطاس ما اتيح لهُ مشاهدتهُ في الحجاز فوصف داخل الكعبة المشرفة وغار حراء ومسجد الرسول عليهِ السلام ومزارات المدينة ومنى وعرفات وطرق المواصلات والقصر الملكي ومقابلات الملك واساليب المقابلات ووقع الاعتداءِ على جلالة الملك وحالة الملك نفسه على اثر الاعتداءِ ونفسية الحجاج. وتحدث مع رئيس كشافة العراق عن طريق الحج البرّي بين العراق والحجاز ومع السيد عبود شلاش صاحب شركة السيارات التي أعدت تلك الرحلة ونقل كلَّ ذلك الى القراء. ودفع عن الوهابيين تهمة عدم حبهم للصلاة على النبي صلى الله عليهِ وسلّم بنقل اقوال عالم نجد الكبير الشيخ ابن بليهد وملك الوهابيين وامير المدينة كما نقل تلك الكلمة الجريئة التي قالها امير المدينة للمستر فلبي يتهمهُ بان اسلامهُ على دخل ويقول له ارجع الى دينك بعد ما قضيت مأربك من تصنعك بالاسلام وجواب المستر فلبي وتحريه بعد ذلك تأدية الفروض الدينية ولاسيما الصلاة في اوقاتها. ووصف كذلك رجال الدولة السعودية وما اشتهر بهِ كلٌّ منهم واشار الى المقصرين اشارات كانت على خفائها افعل من وخز الابر ونوّه بعمل مصر الخيري في الحجاز ولاسيما تبرع الوزارة النسيمية لاهل المدينة والاثر الطيب الذي خلفتهُ الدعوة التي قام بها الاستاذ محمد توفيق دياب للتبرع للحجاز وما جمعهُ بنك مصر لهذا الغرض الشريف وآراء اهل المدينة في ذلك واقوالهم الصريحة التي كان لها صدى استحسان في مصر

كل ذلك كتب فيهِ السيد محيي الدين مفصلاً ومجملاً فجاء كتابهُ من أمتع الرحلات الاسلامية وأنفعها وحلاه بصور للملك والامراء ورجال الدولة السعودية، جزاه الله عن الاسلام خير الجزاء

فهرس الجزء الثالث من المجلد الثامن والثمانين

صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

مـ

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة المانية (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الاراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٨ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ما في السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله، للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في امريكا (الاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب المصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات للاطفال، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

مـ

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ازابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا، جزآن «
١٦ « الساحر المظلم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٥ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)

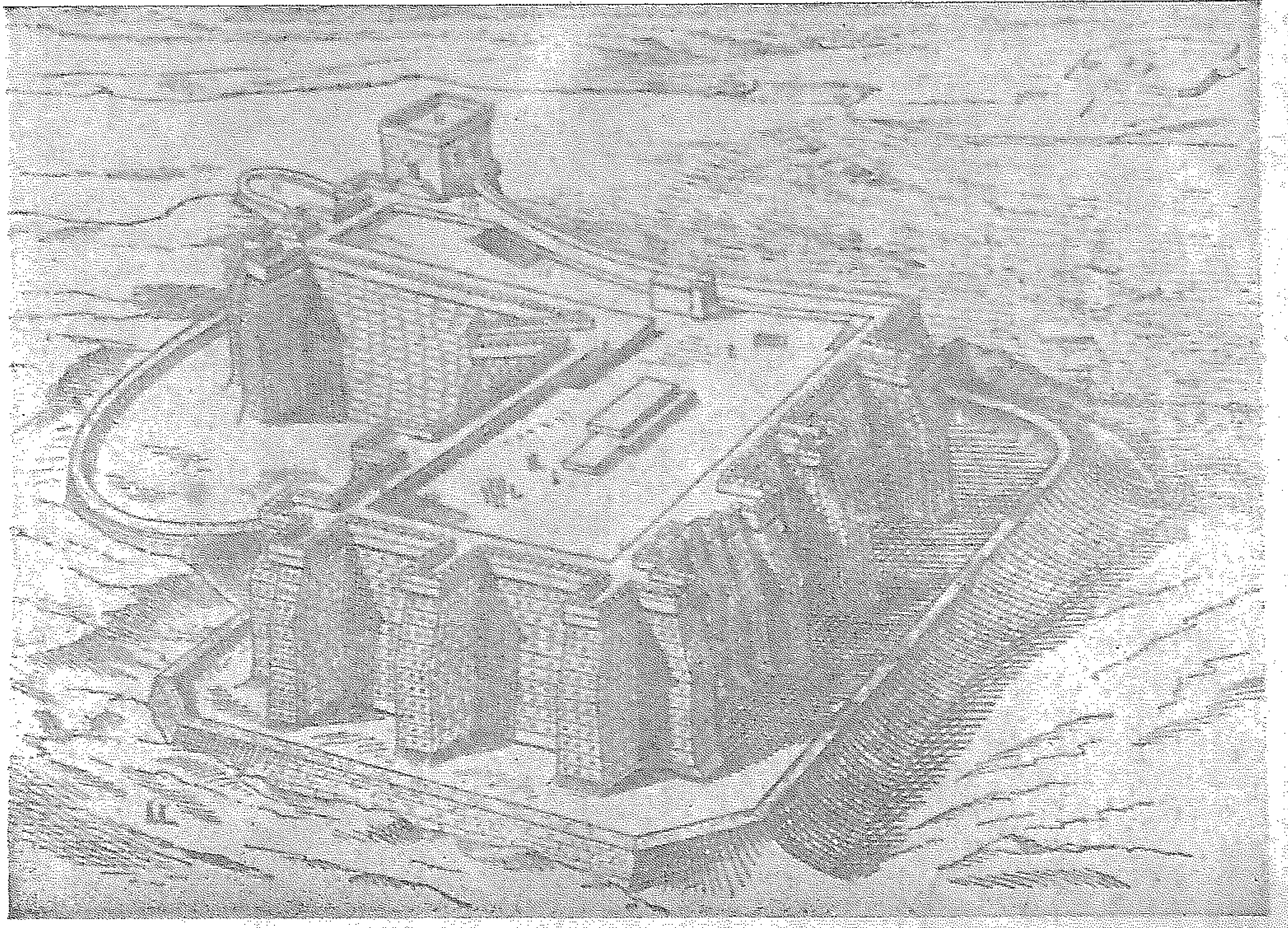

صورة تمثل قلعتي سمنه وقمه بعد الترميم جنوب وادي حلفا مأخوذة عن برّد وشيبيه

(مصر والسودان في التاريخ)

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثامن والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٦ — ٩ محرم سنة ١٣٥٥

آلات تتذكر وتنسى

دراسة الحياة العقلية بتجارب آلية

من بضع سنوات كتب الفيلسوف البريطاني برود Bread عبارة ظنَّ انهُ يستطيع ان ينسف بها دعوى اصحابِ الفاسفة الآلية فقال : « لو قال رجلٌ عن اخيهِ او هرتهِ هو ذا آلة بارعة لحسبناهُ اما رجلاً احمق او عالماً فسيولوجيًّا » ! ولو ان الاستاذ برود حاول ان يفرغ حكمهُ هذا الآن ، في عبارة اخرى ، لأضاف الكيماويَّ الحيوي والسيكولوجيَّ الى طبقة الحمقى والفسيولوجيين

اي اننا نجد الآن طائفة كبيرة من علماء الفسيولوجيا والكيمياءِ الحيوية والسيكولوجيا ، يؤمنون بالمذهب الآلي في تفسير الحياة والعقل

فالكيماوي الحيوي يسلّم بداءةً بان النظام الآلي قاعدة اساسية في الطبيعة . قد تكون هذه القاعدة من اوهام العقل ولكنها على كل حال وهمٌ مفيد لا يستغني عنهُ الكيماوي . فالاملاح والاحماض والقلويات تتفاعل كأنَّ هذا الوهم حقيقة . افلا يجوز ان تسري هذه القاعدة على الاملاح والاحماض والقلويّات الحية في اجسام النبات والحيوان ؟ إن أفعال الاجسام الحية تشمل اعمالاً من قبيل التنفس والهضم والتأثر والنموّ واخلاف النسل . وهي افعال استطاع العلماء ان يبنوا آلات تقوم بها مقلّدة افعال الجسم الحيّ . الاَّ إن الافعال البيولوجية تشمل كذلك افعالاً اخرى كالتفكير وهي مما لا يمكن في الظاهر ان يسلك في نظام واحد مع التنفس والهضم . فهل الظاهرات العقلية خاضعة لهذه القاعدة او خارجة عنها ؟

في الردّ على هذا السؤال نسوق للقارىء كلمة للعالم الاحيائي الانكليزي جوزف نيدهام Needham الاستاذ في جامعة كمبردج . قال : كنت ارتاب قبلا في ان البحوث الكيميائية الحيوية والكيميائية النفسية ، تستطيع ان تسفر عن رأي ما ، في ظاهرة ليست من ظاهرات الطبيعة والكيمياء . إلاّ انني ارى الآن غير ذلك . ولأضرب على ذلك مثلاً غريباً بما قد يستطيعهُ بعض العلماء في المستقبل ، من القطع بان نقصاً في سلفاتيد الفصفور وزيادة في فعل التأكسد في ناحية معينة من قشرة الدماغ ، يصحبان دائماً العبقرية في الشعر !

غير ان جماعة علماء النفس اقلُّ اجماعاً على هذا القول من جماعة الكيماويين الحيويين ، في اساليب دراستهم للظاهرات العقلية ، وفي تفسيرهم ايَّاها . ولكن الصبغة الغالبة عليهم صبغة آلية — بحسب قول الكاتب العلمي جورج غراي في مقال له في مجلة هاربرز الاميركية وهي معتمد هذا الفصل — . فمدرسة التحليل النفساني تسلّم بوجود نظام آليّ ذاتي ، تحركهُ رغبات وبواعث كامنة في العقل الباطن ، وتحفزهُ الى التفكير الواعي . فهم لا ينكرون حقيقة العقل ، ولكن العناصر التعقلية فيه ، خاضعة في رأيهم لقوّات غير تعقُّلية فليس في تفكير الانسان من اثر حرية الارادة ، إلاّ النزر اليسير

اما مدرسة السلوكيين فتصدف كلية عن دراسة الافكار والاحلام والرغبات والعقلين الواعي والباطن — وهي جميعاً المادة التي يعتمد عليها اصحاب التحليل النفساني — لان مثلهم الأعلى هو دراسة الظاهرات التي يمكن مشاهدتها ، والافكار والاحلام والرغبات ليست مما يشاهد . فهمّهم ان يعرفوا كيف يسلك الانسان ، وكيف يستجيب عمليًّا لحوافز مختلفة في احوالٍ مختلفة. اي انهم يحصرون بحثهم ودراستهم في سلوكهِ . ومن هنا أُطلق عليهم اسم « السلوكيين » . فهم يقولون ، اننا عند ما نضغط زرًّا في مصعدٍ كهربائيٍّ ، ويقف المصعد عند الدور الذي يعيّنهُ الزرُّ ، لا يسعنا ان نقول ان المصعد يفكر في الموضوع ، وانما هو يقف ، لان الجهاز مركب تركيباً خاصًّا بحيث اذا ضغطت الزرَّ الثالث وقف المصعد عند الدور الثالث . وكذلك الانسان ، يقول السلوكيون . فالاصوات المختلفة التي يسمعها ، والروائح التي يشمها ، والالوان والمشاهد التي يراها ، هي بمثابة الازرار في المصعد الكهربائي ، واستجابتهُ لها ليست الاّ استجابة آلية مثل استجابة المصعد لضغط الزرّ

الاّ ان هناك فرقاً بين الاستجابتين . فاستجابة المصعد لضغط الزرّ لا تتغيَّر . اضغط على الزرّ الرابع يقف دائماً عند الدور الرابع ، الاّ اذا كان هناك خلل في جهازهِ . فليس للمصعد اختيار في الاستجابة . حالة ان الاختيار ميدان واسع امام الانسان. لوّح براية حمراء امام انسانٍ ، فإما ان يقف متريثاً عالماً ان الراية الحمراء اشارة خطرٍ داهم ، وإما ان يهرول ليعانق صاحبها ، لانهُ

شيوعيٌ وهذه الراية دلالة على الرابطة الوثيقة بينهما ، وإما ان يهجم على حاملها لانهُ رأسماليٌّ محافظ ويرى في الشيوعية خطراً على الحضارة

فهل يستطيع السلوكيون ان يبنوا آلة ، لا يكتفون باستجابتها للون الاحمر ، على نحوٍ معيَّن ، بل في وسعها ان تختار اي ان تفرق بين معاني اللون الاحمر المختلفة ؟

يقول السلوكيون ان ذلك في وسعهم . فاذا سألتهم أتستطيعون حقيقةً ان تصنعوا آلة ذات عقلٍ آليّ ، تنفعل بالخوف من الخطر ، وتشعر بالولاء للرفيق الشيوعي ، او بشهوة ابادتهِ ، الى آخر ما قد تعنيه الراية الحمراء في نظر انسانٍ عاقل ، ردُّوا عليك سمّ الآلة ما تشاء ، وانما نحن ندعوها جهازاً يسلك وفقاً لنواميس الفعل العكسي المحوَّل ؟

***

ما هو الفعل العكسي المحوَّل ؟

عرف مبدؤهُ من ايام افلاطون ، ولكن تطبيقهُ في علم النفس الحديث ، يرتدُّ الى مباحث العلاّمة الروسي ايڤان باڤلوف — المتوفى حديثاً وقد تجاوز الثمانين من العمر

نشأ باڤلوف فسيولوجيًّا ، فعني في اواخر القرن الماضي ، بدراسة ما يحدث في جسم الكلب عند ما يقدَّم لهُ الطعام . فوجد ان رؤية قطعة من اللحم ، تسبب افراز العصارات المعدية . واستنبط باڤلوف حينئذٍ وسائل بارعة ، لقياس سرعة هذا الافراز ومقادير العصارات التي تفرز. ثم خطرت لهُ طريقة اسهل تناولاً من الاتصال بداخل المعدة لدراسة المفرزات ، وذلك بدراسة اللعاب الذي يسيل في فم الكلب عند ما يرى اللحم

التجارب التي قام بها باڤلوف على هذا الاساس كثيرة ومنوَّعة شغلت نحو ربع قرن من الزمان وليس يتسع المجال لبسطها هنا . وانما قاعدتها تقديم الطعام الى الكلب فيسيل اللعاب في فمهِ . ثم يقدَّم الطعام الى الكلب مقروناً بقرع جرسٍ فيسيل اللعاب لرؤية الطعام . ويعاد تقديم الطعام مقروناً بقرع الجرس مراراً ، ثم يتوقف المجرّب عن تقديم الطعام ويكتفي بقرع الجرس ، فيسيل لعاب الكلب لقرع الجرس كأنهُ رأى الطعام . فاذا قرع الجرس مراراً بعد ذلك سال اللعاب . الاَّ ان كيان الكلب يفطن بعد قليل ، الى ان الغرض من سيل اللعاب هضم الطعام ، وقرع الجرس وحدهُ لا يقدّم للكلب طعاماً ، فيكفُّ عن إفراز اللعاب عند قرع الجرس . فاذا أُعيد تقديم الطعام مقروناً بقرع الجرس بعد ذلك مراراً ، رسخت في جهاز الكلب العصبي ، عادة افراز اللعاب عند ما يسمع قرع الجرس

هذه هي القاعدة في التجربة

فتقديم الطعام الى الكلب الجائع ، « حافز اصيل » وسيل اللعاب في الفم « فعلٌ عكسيٌّ

اصيل » يثيره هذا الحافز . اما قرع الجرس عند تقديم الطعام فحافز محوّل Conditioned وسيل اللعاب عند قرع الجرس وحده فعل عكسي محوّل Conditioned reflex والحوافز المحولة ، اما مثيرة واما قامعة ، والدماغ هو المركز الذي تنقل اليهِ جميع هذه الحوافز المثيرة والقامعة التي تطرق حسّنا

يقول احد الكتّاب انه يجيد الكتابة عند ما يكون مرتدياً صدرة عليها رسوم مربّعة وليس هذا القول من شذوذ الطبع الفني المتطرِّف في رأي السلوكيين ، وانما حدث لهذا الرجل ان اقترن لبس صدرة هذا وصفها ، في جهازه العصبي ، بالاحوال المؤاتية لاجادة الكتابة . ومن هذا القبيل ما يحدث لكاتب هذه السطور . فانه عند ما يشرع في كتابة مقالٍ ، فقلما يستطيع ان يمضي فيهِ ، اذا اضطرَّ الى شطب كلمة في عنوانهِ او في سطوره الاولى . ويروي احد الروائيين ان رجلاً تعلم الرقص في حجرة كان في احد جوانبها صندوق قديم . وكان بعد ذلك لا يجيد الرقص الاّ في بهو فيهِ صندوق شبيه بذلك الصندوق القديم . ولا ريب في ان كثيراً مما يتصف بهِ الناس من الشذوذ يمكن تفسيره هذا التفسير السلوكي الآليّ

على ان السلوكيين يتمادون في رأيهم ، ويقولون ان تأليف بيتوفن للسمفونية التاسعة ، واكتشاف لفريه وادمز للسيار نبتون ، انما هي اعمال من قبيل سيل اللعاب في فم الكلب نوعاً ، وان اختلفت عنها كمّاً وقدراً . واذا كانت الافعال العكسية آليّة ، بحسب نظر السلوكيين فليس ما يمنع ان تكون افعال الانسان العقلية وانفعالاتهِ المعقدة ، آلية في اساسها كذلك

يقول الدكتور هل : كل شيء يتوقف على انتظام المادة . فطريقة انتظامها في جسم ما ، تحدد فعلها او سلوكها . فاذا انتظمت في شكل معين ، كانت عقاباً تطير ، واذا انتظمت في شكلٍ آخر كانت طائرة تحلّق . فقد كان الناس في العهود الماضية يقرنون مقدرة الطيران بخواص بعض الاجسام الحية . ولو أن فلسفة نشأت على هذا الاساس وجعلت احدى قواعدها ، ان القدرة على الطيران مرتبطة بالحياة ، لكان موقف اصحابها الآن ، شبيهاً بموقف الحيويين Vitalists الذي ينكرون التفكير على جسم الاّ اذا كان حيًّا . فليوناردو ده ڤنشي شك في ان القدرة على الطيران مرتبطة بالجسم الحي ، وكذلك الاخوان ريط وغيرهم . والنتيجة اننا نملك الآن طائرات تطير من دون ان يكون فيها انسان يديرها ويسيّرها . وبعضنا الآن يرتاب في ان التفكير مرتبط بالجسم الحي . وتأييداً لقولنا نستطيع ان نعرض لمن يشك في قولنا ، آلات « تبدو فيها مبادىء الفعل العكسي المحول »

***

كان الدكتور كلارك هَل Hull استاذ علم النفس في جامعة ييل الاميركية يجتمع بطائفة من مقدمي طلاّب ذلك العلم في المساء ، ويناقشهم في موضوعات سيكولوجية متشعبة وكان

قد اختصَّ الفعل العكسي المحول ببحث مسهب . وفي ذات ليلة ، اذ اشرف البحث على الختام اتجه الاستاذ هل الى الطلاب وقال، اذا كانت النظرية الآلية صحيحة ، فيجب ان يكون في الوسع صنع مثال آليّ يبيّنها . ففي مثل هذه الليلة من الاسبوع القادم، انتظر من كلّ منكم مثالاً آليًّا، تبدو فيهِ ظاهر الفعل العكسي المحوّل

وكان في كلامهِ هذا يحاول ان يحملهم على التفكير في الموضوع تفكيراً حسيًّا ، ولم يكن يتوقع منهم امثلة آليَّة ، تتجلَّى فيها هذه الظاهرة النفسية الفسيولوجية

فلما اجتمع الفصل في الاسبوع التالي عرض ثلاثة من الطلاّب ثلاثة امثلة آليَّة تلبية لطلب الاستاذ ، كان مثالان منها غير وافيين بالغرض . ولكن المثال الثالث كان بارعاً البراعة كلّها . وكان صاحبهُ كيماويًّا فسيولوجيًّا ، قد حضر فصل علم النفس اجابة لحثّ زوجهِ

كان هذا المهندس يدعى بارشتين Baerstein وكانت طائفة من الباحثين قد اشارت اشارات غامضة ، او حاولت محاولات خائبة في هذا الصدد ، ونشرت نبذ عنها في المجلاّت السيكولوجية ولكن بارشتين لم يكن سيكولوجيًّا ، والراجح انهُ لم يطلّع على شيءٍ مما كتب في هذا الصدد . ولما كانت آلتهُ ، الاولى في سلسلة من الآلات التي نشأت عن اقتراح عارض للاستاذ هل فيصحّ ان تحسب علماً على طريق البحث السيكولوجي الذي من هذا القبيل

انظر الى الشكل الاول. فالمفتاحان الكهربائيان يقابلان الحافزين. والمصباح يقابل الاستجابة. المفتاح (ا) هو الحافز الاصيل ويقابل عرض الطعام على الكلب. اطبقهُ يضيء المصباح اي يسيل اللعاب في فم الكلب اي ان الحافز الاصيل يُثير الاستجابة . فالمفتاح متصل بالمصباح

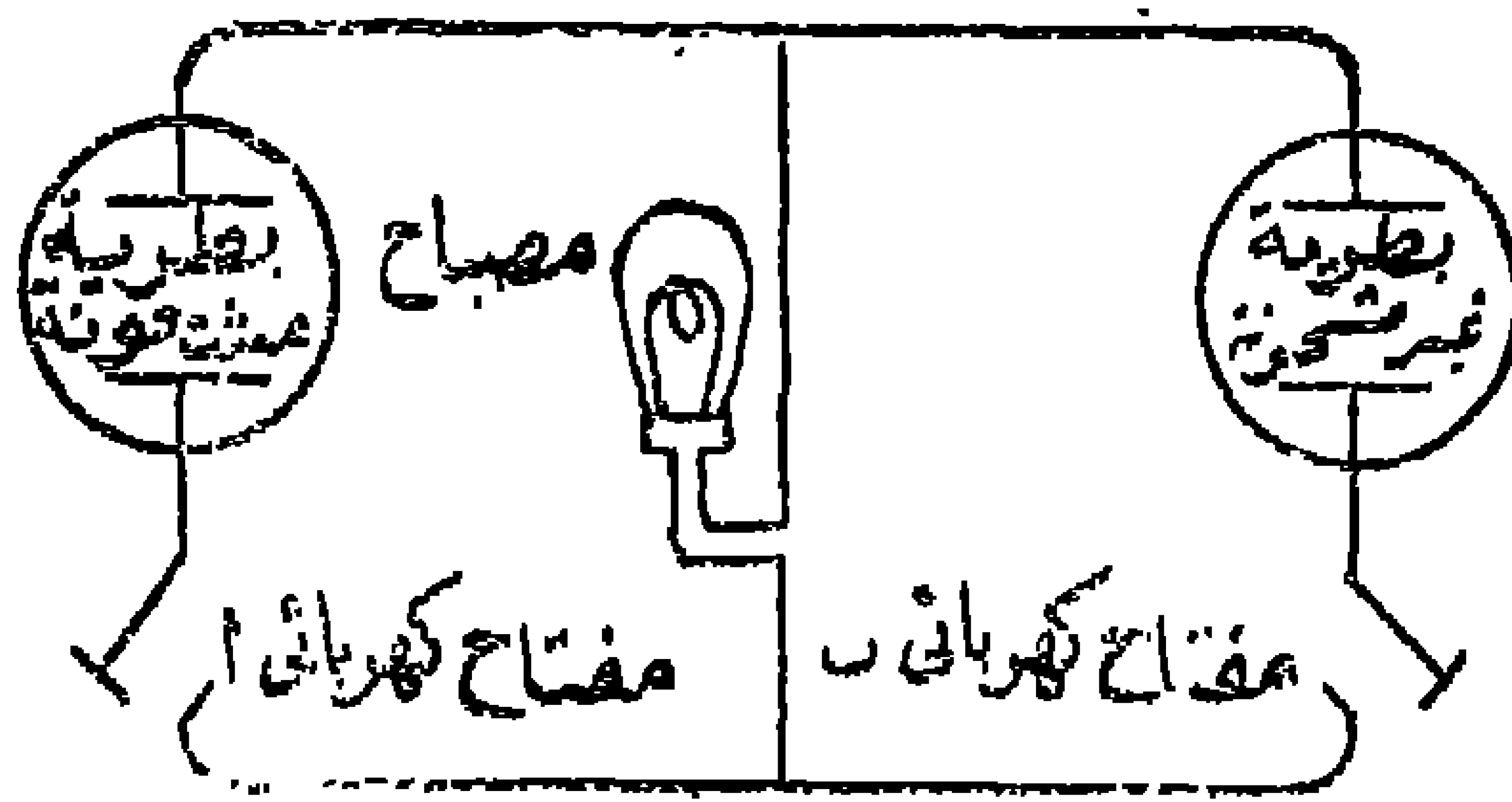

(الشكل الاول)

بواسطة بطارية مشحونة . ولكن اذا اقفلت المفتاح (ب) لم ينر المصباح ، لان البطارية بينهُ وبين المصباح ، مفرغة من الكهربائية فلا صلة بين المفتاح (ب) والمصباح. فكأنك تقرع جرساً على مقربة من كلب ، فلا يثيرهُ القرع الى افراز اللعاب

ولكن اقفل المفتاحين (ا)و(ب) في وقت واحد (اي اقرن تقديم الطعام الى الكلب بقرع الجرس) ينِر المصباح . افعل ذلك مراراً . ثم اقفل المفتاح(ب) ينر المصباح . اقفله مراراً ينر المصباح في كل مرّة . وهذا يقابل قرع الجرس وحدهُ امام الكلب ، بعد قرعهِ مع تقديم الطعام ، فيفرز الكلب لعاباً مع انهُ لا يرى طعاماً . ولكن اذا مضيت في اقفال المفتاح (ب) مراراً عديدة بعد

ذلك ، نشأ عن ذلك ان المصباح بعد قليل يتوقف عن الاضاءة استجابة للحافز . وهذا يقابل توقف فم الكلب عن افراز اللعاب بعد قرع الجرس مراراً من دون تقديم الطعام . فالفعل العكسي المحوَّل ، في حالي الكلب والمثال الآلي، يصاب بما يدعوه بافلوف « تلاش تجريبي » . ولكن اذا عدتَ فاقفلت المفتاحين معاً مراراً كثيرة، ثم اهملت المفتاح (ا) واقفلت المفتاح (ب)، وجدت ان استجابة المصباح للمفتاح تبقى استجابة متصلة ، فكأن الاستجابة للحافز قد اصبحت عادة راسخة. وهذا يقابل رسوخ عادة افراز اللعاب في فم الكلب استجابة لقرع الجرس

فكيف يفسر عملُ هذه الآلة ؟

عند ما تقفل المفتاح الكهربائي (ا) يصبح النصف الايسر من الجهاز دورة كهربائية مقفلة فيسري تيار البطرية المشحونة فيها فينير المصباح بجري التيار في سلكه

كذلك عند ما تقفل المفتاح الكهربائي (ب) يصبح النصف الايمن من الجهاز دورة كهربائية مقفلة . ولكن البطرية في هذا الجانب غير مشحونة بالكهربائية ، وعلى ذلك فلا يجري تيار كهربائي في سلك المصباح فلا ينير

فاذا اقفل المفتاحان (ا) و(ب) في وقت واحد سرى التيار الكهربائي من البطرية المشحونة الى اسلاك المصباح فينير ، والى البطرية غير المشحونة بالكهربائية كذلك فتشحن . وبعد ذلك اذا اقفل المفتاح الكهربائي (ب) وحدهُ ، سرى تيار من البطرية اليمنى — وقد شحنت قليلاً — الى المصباح فينيرهُ . ولكن هذه البطرية لا تلبث ان تفرغ ، وهذا يفسّر عدم اضاءة المصباح ، بعد اقفال المفتاح (ب) مراراً متوالية اذ يحدث ما دعاهُ بافلوف «التلاشي التجريبي ». فاذا تركت البطرية اليمنى فترةً وشأنها حدث فيها تفاعل كيميائي ، يولّد تياراً ضعيفاً، حتى اذا حدث واقفلتَ المفتاح (ب) انار المصباح نوراً ضئيلاً وهذا مثالٌ آليٌّ للتذكر

او انظر الى الشكل الثاني . هذا الرسم يمثل الجهاز الذي اقيم في الجانب الايمن من المثال المتقدم بدلاً من البطرية المفرغة والمفتاح (ب) . فانت ترى الى يمين الرسم سلكين ممتدين الى المصباح ولكنهما غير متصلين . فاذا اقفلت المفتاح (ب) ، لم يسرِ تيار الى المصباح لان الدورة لا تقفل . ولكن اذا اقفل المفتاحان معاً ، سرى التيار من الجانب الايسر من الجهاز، الى ملف الحرارة وهو مرسوم هنا الى جانب انبوب فيه نقط سود

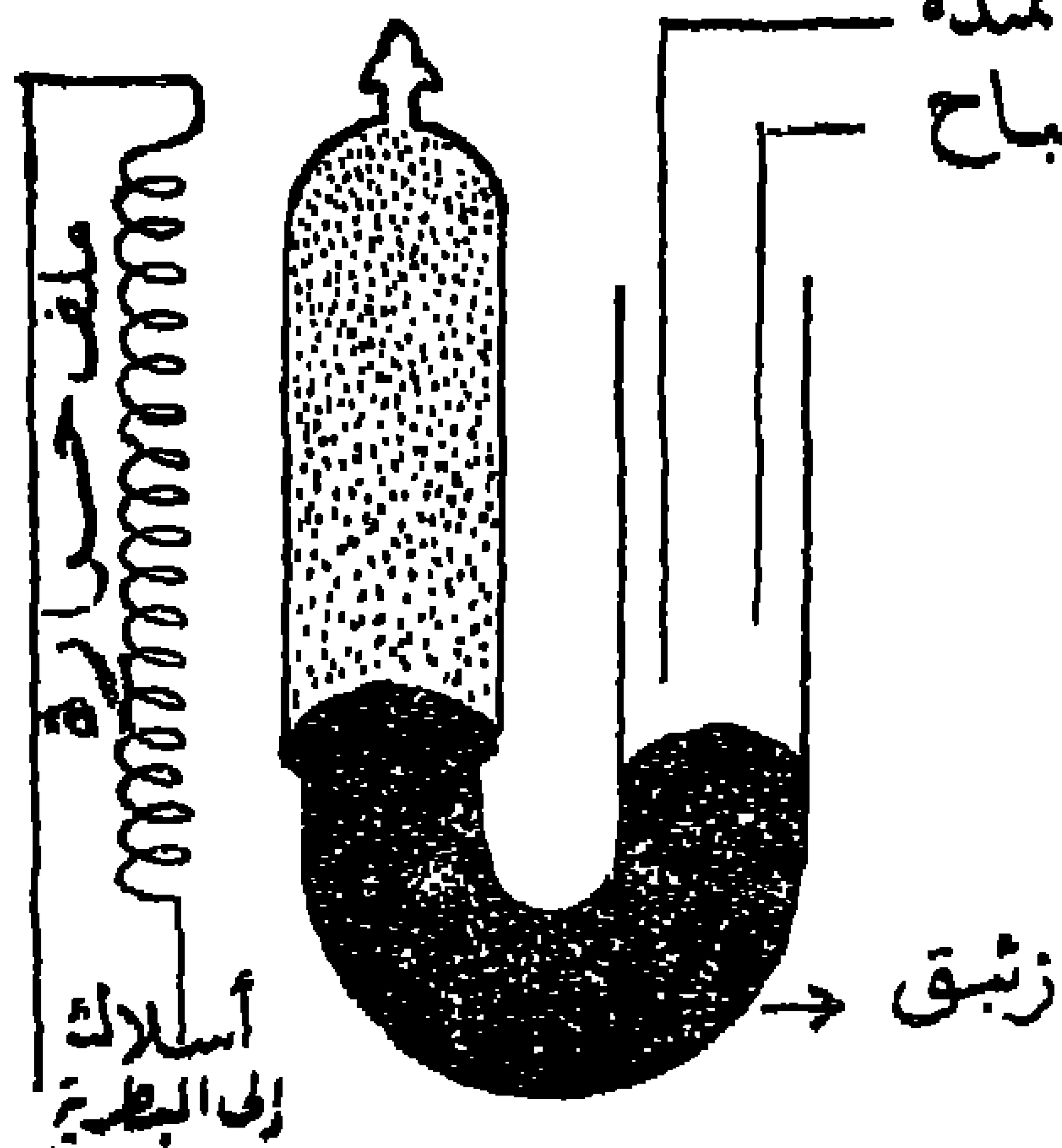

(الشكل الثاني)

تمثل مادة الطولوين. الاَّ انهُ في الواقع ملتفٌّ حول الانبوب . فاذا سرى التيار من الجانب الايسر من الجهاز في هذا الملف ارتفعت حرارتهُ فتحمى مادة الطولوين في الانبوب فتتمدد فتضغط على الزئبق فيرتفع سطحهُ في الجانب المقابل من الانبوب فيتصل السلكان احدهما بالآخر بواسطة الزئبق المرتفع فينير المصباح . ويبقى في امكان المفتاح (ب) ان ينير المصباح ، ما زال الطولوين حامياً وسطح الزئبق مرتفعاً . ثم اذا برد الطولوين وارتدَّ سطح الزئبق الى مستواهُ العادي انفصلت الدورة الكهربائية واصبح من المتعذر على المفتاح (ب) ان ينير المصباح اذا ضغطت عليه

هذان الجهازان مع اختلافهما هما اساس لكل الاجهزة الاخرى التي صنعت من هذا القبيل

وفي السنة ١٩٣٤ نشر الدكتور هَلْ رسالة في المجلات السيكولوجية المختصة ، بين فيها كيف تتعلم الحيوانات بالتجربة ، وهي ما يدعى بالانكليزية طريقة التجربة والخطإ . فاطلع عليها طالب في جامعة ميامي باوهايو ، يدعى السن Ellson فسعى الى صنع جهاز يمثل النظرية التي تنطوي عليها الرسالة تمثيلاً ميكانيكيًّا . فانهُ اخذ ثلاث مغناطيسات كهربية electromagnets ووضعها في شكل دائري ، وعلق فوقها قضيباً من الحديد يبعد بعداً متساوياً عنها جميعاً . وكانت قوة المغناطيسات مختلفة ، فقوة الواحدة كانت ١٠٠ وحدة والثانية ٧٠ وحدة والثالثة ٣٠ وحدة وكانت قوة كلٍّ منها مرتبطة ارتباطاً دقيقاً بعدد لفات السلك الكهربائي الذي حولها . وصنع الطالب « السن » سلسلة من المفاتيح الكهربائية تمكنهُ من زيادة قوة المغناطيسات او نقصها

ولنفرض الآن انك تريد ان تعلم القضيب الحديدي ، ان ينجذب الى اضعف هذه المغناطيسات الذي قوتهُ ٣٠ وحدة فقط ، فماذا تفعل؟ من الطبيعي ان القضيب ينجذب الى المغناطيس الاقوى (الذي قوتهُ ١٠٠ وحدة) ولكن انجذابهُ الى هذا المغناطيس ليس غرضك لذلك تنظم سلسلة المفاتيح الكهربائية تنظيماً خاصًّا حتى اذا اقترب القضيب من المغناطيس الاقوى تنقص قوة هذا المغناطيس ثلاثين وحدة ، فيتجاذب المغناطيسان الاول والثاني ، هذا القضيب الى ان يتغلب الثاني فيجذب القضيب اليهِ ، ولكن ما يكاد يتصل القضيب بالمغناطيس الثاني حتى تنقص قوتهُ المغناطيسية ثلاثين وحدة فيجذب القضيب الى المغناطيس الثالث

وعند ما يتصل القضيب بالمغناطيس الثالث ، يقف عنده ، لان هذا هو الغرض الذي وضع لهُ ، فيجزى المغناطيس بزيادة قوتهِ المغناطيسية . ولا يخفى أن قوة المغناطيسين الاولين نقصت وقوة المغناطيس الثالث زادت . ولكن المغناطيس الاول لايزال أقوى المغناطيسات الثلاثة

فاذ أعدت التجربة ، وجدت تنقل القضيب من المغناطيس الاول الى الثاني إلى الثالث ، اسرع مما كان في التجربة الاولى، فكأنهُ بدأ يتعلم الطريق . وفي خلال التجربة الاولى يزيد ما ينقص من قوة المغناطيسين الاولين وتزيد قوة المغناطيس الثالث . وبعد ما تجرب التجربة

خمس مرَّات ، يصبح المغناطيس الثالث اقوى المغناطيسات الثلاثة وعندها يسير القضيب توًّا اليها فكأنهُ اتقن معرفة الطريق التي تعلَّمها بالتجربة

وهناك جهاز آخر مصنوع من عيون كهربائيه (او بطريات كهرنورية) تتأثر باللونين الاحمر والاخضر وادوات كهربائية اخرى . وقد وضع المستنبط هذا الجهاز في صندوق يشبه رأس الانسان واقامهُ على عجلات تسير على قضبان ، فيستمدُّ الجهاز طاقتهُ من طريق هذه القضبان

اقرع الجرس فيتجاهل الجهاز قرعك اوامسك الجزر والاسبانخ امامهُ فلا يستجيب . ولكن جرَّ هذا الجهاز على القضبان عبر الغرفة عشر مرَّات ثم اقرع الجرس ، فترى الجهاز وقد سار على القضبان من تلقاءِ نفسهِ . او امسك بالاسبانخ امام عيونهِ الكهربائية وفي الوقت نفسهِ شُدَّ اذني الرأس . فبعد ان تفعل ذلك عشر مرَّات ، يهزُّ الجهاز رأسهُ من تلقاءِ نفسهِ عند مجرَّد رؤية الاسبانخ . واذا لوَّحت بالجزر امامهُ ، وربَّتَّ على قفا الرأس في الوقت نفسهِ عشر مرَّات هزَّ الجهاز رأسهُ عند رؤية الجزر من دون ان تربّت على قفا الرأس . والجهاز يفعل الفعل نفسهُ اذا ابدلت الاسبانخ بلوحة خضراء والجزر بلوحة برتقالية ، لان اللون هو العامل الفعَّال في هذه التجربة

***

قد يقول القارىء ان جميع هذه الاجهزة على ما فيها من براعة وابداع لا تخرج عن كونها اجهزة آلية ، كهربائية او ميكانيكية ، تتحرَّك بازرار تضغط ، وبطريات تملأ وتفرغ ، ومغناطيسات تزيد قوتها وتنقص . ان هذا ليس تفكيراً او شعوراً بالمعنى الذي يتجليان فيهِ في الاجسام الحية وعلى رأسها الانسان

فيردُّ عليك الدكتور هَل قائلاً : اننا لسنا بواهمين ولا خادعين . فهذه الاجهزة وسائل لامتحان منطق نظريتنا لا غير ، وان كانت لا تمتحن صحة النظرية إطلاقاً . نعم ان تنور المصباح في الجهازين اللذين وصفناهما هنا ، ليس شبيهاً كل الشبه بافراز اللعاب في فم الكلب ، ولكن الصلة بين الحافز والاستجابة في الكلب من قبيل الحافز والاستجابة في الجهاز الكهربائي

فيردُّ الحيويون بلسان هولدين يحسن بنا ان نزن الانسان ونحلل نسجه وأفعال جسمهِ ولكن ذلك لا يمكننا من ادراك كنه الصفات التي يتصف بها سلوكه الشعوري او الواعي فاعتراضه عليها من قبيل اعتراض القارىء ، اي ان سلوك هذه الآلات ليس شعوريًّا . فيردُّ الآليّون ، بان غرضهم ان يبينوا ان نفس الشعور او الوعي ، ليس الاَّ سلسلة معقدة من الافعال العكسية المحوَّلة

الشموع والشموس

لامين الريحاني

صوتان يتصاعدان من اعماق النفس المحجبة ، صوتٌ يسأل دائماً : وما الفائدة لك وللناس من كل ما تعلم ؟ وصوتٌ مؤنب يقول : وما علمك كلهُ اذا قيس بما تجهل من العلوم ؟ انه لكنور الشمعة بالقياس الى نور الشمس

صوتان ، صوت يزهدني في العلم ، وصوت يستزيدني منهُ .ولطالما أصختُ الى الصوت الثاني ، فاصبحتْ شمعتي شموعاً ، تنير القريب من مسالك الفكر والخيال ، فانظر اليها بعينٍ قريرةٍ وانا اقول : زدني اللهمَّ نورا

وبعد ذلك ، بعد سكرةٍ من سكرات النور ، اسمع الصوت الاول ، صوت التساؤل والريبة ، فاتصامُ واصلّي

— اهدني ، اللهمَّ ، السبيل القويم الى مطلع الشموس والاقمار . اجعل النور قبلتي الدائمة ، ومنيتي القصوى ، ومحجتي المقدسة . ان أظلم الشرق فامحُ اسم الشرق من قلبي ، وان أظلم الغرب فانزع اسم الغرب من دنياي . نأياً ، اللهمَّ ، عن اقطارٍ هوتْ كواكبها ، وأفلتْ شموسها . لا تجعلني ، ربي ، قيد ظلماتٍ مصابيحها كبريق الحباحب في الادغال ، او كوميض الفصفور ليلاً في البحار . نوراً ، اللهمَّ ، وان في الصحاري المقفرة . نوراً وان في اقاليم السود والصفر من الشعوب . نوراً وان في اقطاب الجليد المهلكة . نوراً وان كان في النور فنائي ابدي

ولا اكاد انتهي من صلاتي حتى اسمع الصوت الاول يقول ويردد القول سائلاً : وما الفائدة لك وللناس من كل ما تعلم ؟ ما الفائدة من النور الذي تزداد في ازدياده مناطق اللانهاية المظلمة ؟ أفلا يُفضّل عليهِ نور الشمعة القريبة منك ، وهو يريك ظلك وقد تعاظم ، ويريك الظلمة وقد بدت شفافةً ، ضئيلةً ، محدودة ؟ اجل ، انك في نور الشمعة كبير الظل ، عظيم القدر . انك سيد المخلوقات جميعاً . وانك لذلك قريب من الرب المفروض عليك ، ربّ أُمك وابيك ، ربّ اجدادك ، ربّ الرسل والانبياء ، وقد رُوي انهُ قال باللغة العبرية : انا الرب الهك ، لا آلـه لك غيري. وباللغة العربية : وانا ربكم فاتقون

صوت يزهدني في العلم، ويزيّن لي السكينة والقناعة، والورع والطاعة، ثم يقول: هو ذا جزاء الاكتفاء، فاكتفِ. وهل اكتفي بنور شمعة من العلم والايمان؟

شمعةٌ من الايمان، وتعظيم للانسان، وتحقير للزمان، وتسخير للاكوان! وبعد ذلك ماذا؟ أمن اجلي انا أُنشئت الكائنات؟ أليُنير الكوخ البشري، هذه الارض، خلق الله الكواكب والنجوم، والشموس والاقمار؟ ان ذلك لجميل، وان الله في كرمه لعظيم

وانا مع ذلك انشد النور، واجترئ فأتدلّل عليهِ تعالى. انك، ربي، كريم جدًّا، فزدني من كرمك الذي لا حدَّ لهُ. أَنِرْ لي الشمس القصوى، شمس قلبك ليراها قلبي. فقد ملت النظر الى شمس الانسان، والى قمرهِ ونجومه. أَنِرْ لي شمس روحك، لتراها روحي. فقد كَلَّ البصر من الانوار التي تتكسر اشعتُها بين سحُب الشك واليقين، وقد سئمت النظر والتبصُّر في كتب الايمان والكفر، وليس في حروفها وكلماتها ما ينير الجادة اليك. نوراً من لدنك ينيرها. فقد أضعتُ كتاب إيماني عفواً، يارب قد نبذت ذلك الكتاب المسجَّل فيهِ إيماني الاول وكفري الاول فهل هناك ما هو اقرب منهُ اليك؟ أَنِر لي السُّبُلَ لابحث عنهُ. أَدنِني في الاقل من نور شمسك الخاصة، شمسِ قلبك، بيتِ قصيدك

أَفلا يجوز أن أخاطب الله بمثل هذا الخطاب، وهو الذي خلق من أجلي الشمس والقمر؟ خلقهما من أجلي؟! اذا كان هذا الوهم ينبوع ايماني الاول، أَفيُستغرَب ما كان من كفرٍ بعد ذلك؟

وما الفرق ياترى بين ذلك الكفر الاول، وذلك الايمان؟ ما الفرق بين شمعتين ينير نور الواحدة منهما غير المنطقة الاولى الصغيرة من مناطق الظلمة؟

شمعة بيضاء مذهبة العنق، أنارتها لاول مرة أُمي، ووضعتها بين يدي، وشمعة صفراء أشعلها من اجلي بهلق من بهالقة الفكر في الغرب، فرميت بتلك المذهبة العنق ومشيت حيناً من الدهر في نور هذه الصفراء، بل في نور الصفراء الاصفر، وقد ذهَّب حواشي الظلمات أمامي، فاراني فيها النفس كأنها منعكسة في مرآة مكبِّرة، فعراني من الجذل والعجب ما عرا آدونيس يوم رأى وجهه لاول مرة منعكساً في الماء. هي نفسي، وقد تجسمت وتجملت امامي، فكيف لا اتهلل بها، هاتفاً لها، ومكبراً اياها

وقد تهللت ، وقد اكبرت . ثم سمعت الصوت الاول ، صوت الريبة والتساآل يقول : وماذا يفيدك الاعجاب بنفسك ؟ وماذا ينفع جمالها الخيالي ؟ هل تطيعك هذه النفس اذا ما امرت ؟ وهل هي تستطيع ان تعمل بما انت آمرها ؟

أنِرْ لي شمسك الخاصة ، يارب الشموس ، لأبحث عن نفسي التي أضعتها مساء امس

هذه الضراعة جميلة ، وان فيها خيراً ونعمة . فهل يمكنك ان تقول للنفس الغريرة : أشعلي لي كوكباً من كواكب الحقيقة لأبحث عن آلهي الذي اضعته الليلة البارحة ؟

اقول لا ، وأقول نعم . ومما لا شك فيه اني ابتغي النور في الحالين . على اني في حاجة الى النور الاسنى ، الى النور الابهى ، الى النور الخالد الازلي . وان كنت قد اطفأت شمعتي البيضاء والصفراء ، وغسلت يدي مما تساقط عليهما من ذوبهما ، فذلك لاني اصبحت ولا ارضى بالنور الذي يريني الكون في صورة مادية ، كأنه خلق من اجل نفسه ، كما اني لا ارضى بالنور الذي يرينيه في صورة دينية محدودة كأنه خلق من اجلي

ولكن صوت التساآل والريبة يقول : انك جزء من الكون الذي تصف ، فاكتفِ . اما النور الاسنى ، فانهُ يريك الكون الاكبر. وفي الكون الاكبر تصغر ، ثم تصغر ، فتضيع ، وقد تضمحلّ . فهل هذا هو النور الذي تنشد ؟ هل هذا هو العلم الذي تطلب الزيادة منهُ ؟

اجيب نعم . هو النور الذي يهديني الى ذرى الفكر ، فأرى منها ما لا اراه وانا في الاغوار احمل شمعة مذهبة العنق ، او شمعة عسلية . اجيب نعم . هو العلم الذي يرفعني الى ذُرى الفكر واليقين ، فاسمع ما لا اسمعهُ وانا في ضجة من العبادات عبادات الدنيا وعبادات الآخرة ، عبادات النفس والجسد ، وعبادات الاولياء والقديسين

اني في تلك الذرى جزء من الفكر الخالد الازلي ، وعند الفكر الازلي الخالد تنتهي العبادات كلها . اني في تلك الذرى زهرة من ازهار الحب الدائم العميم ، وفي الحب العميم الدائم تتلاشى العصبيات الدينية والقومية كلها . اني في تلك الذرى بذرة من بذور الخير الانساني الاكبر ، وفي الخير الانساني الاكبر تضمحل الضغائن ، وتزول الخصومات ، في مشارق الارض ومغاربها ، وبين الامم جمعاء

مصر والسودان
في التاريخ

للدكتور حسن كمال

اصل المصريين والسودانيين

كثرت المكاتبات والمخاطبات هذه الايام عن السودان وصلته بمصر وضرورته لها وحقها فيه . فاخذت مصر تنادى بوجوب احتفاظها بالسودان . لانه مشرف على مياه النيل ولان موقعه الجغرافي والحربي مهم . ولان خيراته كثيرة . ولان الصلة الدموية بين اهالي القطرين عظيمة متينة

والغريب ان معظم الباحثين في هذا الموضوع يثبتون بياناتهم بحوادث تاريخية او تجارية او زراعية مما يرجع تاريخه الى القرن التاسع عشر بعد الميلاد . وخصوصاً سنة ١٨٨٢ ايام ثورة المهدي لما كان المرحوم عبد القادر باشا حلمي حاكماً على السودان . لكن علاقة المصريين بتلك البلاد المترامية الاطراف ترجع الى اقدم العصور التاريخية المعروفة اي الى ابعد من سنة ٣٤٠٠ ق . م . نعم ان الحوادث الاستعمارية الاخيرة هي اقرب الى الذهن . واكثر تداولاً في المناقشات . الا ان ذلك لا يمنعنا من ان نسرد تاريخ علاقتنا بهذا القطر الشقيق تلك العلاقة التي امتدت الى اكثر من خمسين قرناً من وقتنا هذا

ان علاقتنا بالسودان لم تك لاجل الحصول على الذهب وجمع الارقاء كما يدعي بعضهم بل كانت من اجل صلة الرحم والوحدة التجارية والسياسية . قال ديودورس الصقلي : ان الاثيوبيين يقولون ان مصر مستعمرة من مستعمراتنا وان طين بلادها غرين من بلادنا ساقه النيل اليها وان بين عاداتنا وعادات المصريين مشابهة ظاهرة جلية فضلاً عن المطابقة بين القوانين الرابطة لنا ولهم وعن تشابه الزي في ملابس ملوك البلدين خصوصاً وان كلينا يتخذ الصل زينة فوق التيجان . قال نافيل هذه الرواية المؤيدة لمجيء المصريين من اثيوبيا كافية

بمفردها لاثبات ان اصل المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية . لان في الرواية اشارةً الى ان اولئك الفاتحين بعد ما هاجروا من وطنهم نزلوا على شاطىء البحر الاحمر في اتيوبيا في الاراضي المصرية واقاموا فيها زمناً قبل زحفهم على وادي النيل . فلما دخلوه واظهروا فيه مبادىء الحضارة انتحل الاتيوبيون وجهاً لدعواهم قائلين انها مأخوذة عنهم . وهذا بخلاف الواقع

فلما حلَّ قدماء المصريين بالقطر المصري ، اسسوا فيه المدنية والحضارة . فارتقى بذلك درجةً رفيعةً بين الامم وسادها حتى صار مضرباً للامثال . ولم ينسَ المصريون في وقتٍ من الاوقات بلاد السودان التي كانت طريق مجيئهم الى مصر من بلاد العرب الجنوبية والتي اصبحت معمورةً باقوام من نسلهم الاصلي المتحد بهم في القوانين والعادات واللغة والدين

وقد اثبتَ المرحومُ كمال باشا ان اصل اللغة المصرية القديمة والعربية واحدٌ وان الاختلاف الظاهر بين هاتين اللغتين ليس الاَّ نتيجةَ اسقاطٍ لبعض كلماتٍ في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل والعكس بالعكس . زد على ذلك ما يعتري الالفاظ من القلب والابدال . وما يعتريها من التحريف بمعاملة الاجانب على مرّ الدهور

فاذا كان هذا شأن السكان الاقدمين للقطرين المصري والسوداني . فلا غرابة اذا وجدنا على اقدم الآثار المعروفة ما يشير الى التعامل بين هذين القطرين — ذلك التعامل الذي كان يأخذ احياناً شكل منازعاتٍ وحروبٍ ثم لا يلبث ان يرجع الحال الى اصله فيتحد القطران في المعيشة والمعاملة وتسودهما السكينة ويدرأ كلاهما الخطر المهدد للآخر

تاريخ السودان القديم — المرحلة الاولى — الضمّ

اثبتت لنا الحفائر الفنية الحديثة التي قام بها علماء الآثار بالسودان ان بلاد النوبة كانت مأهولة قبل عام ٣٤٠٠ ق . م . بنفس العنصر الذي ينتمي اليه سكان مصر القديمة . وعلى ذلك فان مدنية اهالي هذين القطرين واخلاقهم لا بد وان تكون واحدة وهذا يتمشّى تماماً مع ما ألمعنا اليه سابقاً . وحوالي ٣٤٠٠ ق . م . اتحدت مملكة الوجه القبلي بمملكة الوجه البحري وتكونت منهما مملكة واحدة تحت ادارة مينا . ومنذ ذلك العصر اخذت المدنية والحضارة في القطر المصري تتقدم تقدماً سريعاً جداً حتى بلغت ذروتها في عهد الاهرام حين حافظت مدنية السودان على مستواها الاصلي الوضيع كما يستدل على ذلك من مقابر السودانيين وقتئذٍ وفيها يتجسم الفقر بأجلى مظاهره . ومن ثمَّ بدأت السيادة على وادي النيل تتجمع تدريجاً في ايدي المصريين واصبح السودان تابعاً لمصر يأتمر بأوامرها وينتهي بنواهيها . وصار السودان يدفع الجزية السنوية لمصر في شكل ابنوس وعاج وجلد الفهد والصمغ والراتنج الخ

واقدم رواية تاريخية وردت عن اخضاع المصريين للسودان مدوّنة في حجر (پالرمو)

فقد جاء فيهِ ان الملك (سنفرو) غزا بلاد النوبة حوالي ٢٩٠٠ ق . م . وأسر سبعة آلاف اسير عدا الاغنام والعجول

وفي عهد الاسرة السادسة (٢٦٠٠ ق . م .) اشترك السودانيون (النوبيون) في خدمة الجيش المصري وبدأ امراء جزيرة الفيل يوفدون وفوداً تجارية الى صميم السودان . وفي اواخر الالف الثالثة قبل الميلاد اعترى اهالي النوبة السفلى تغيير عظيم ففي ذلك الوقت زحفت اهالي السودان الاعلى واحتلت الاقليم الواقع بين الشلالين الاول والثاني وطبعت ذلك الاقليم بطابعها المعاشي والاخلاقي وانشأت فيهِ مدنية نوبية خاصة بلغت ذروتها في عهد الامبراطورية الوسطى (٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق .م .) فبدأ النزاع يكبر والمشاحنة تتعاظم بين القطر المصري واهالي ذلك الاقليم . فأخذ الفراعنة منذ العائلة الحادية عشرة (٢١٠٠ — ٢٠٠٠ ق . م .) يحاولون اخضاع النوبة وفتح الطريق الى السودان . ولكن ذلك لم يتم الاَّ في عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق . م .) لما جعلت سمنة (جنوب وادي حلفا) حدّ مصر الجنوبي . وفي ذلك العهد كان السودان في قبضة المصريين وكان الجيش المصري حافظاً للنظام بهِ فشاد القلاع والحصون على جزر النيل وضفافه وبدأ المصريون يستخرجون الذهب بكثرة . وتسهيلاً للمواصلات بين القطرين الشقيقين شقّ المصريون طريقاً للسفن بين صخور الشلال الاول ايام الاسرة السادسة (٢٦٠٠ ق . م .) تحت اشراف المهندس المصري (اونا) ثم اعيد ذلك ايام الاسرة الثانية عشرة وبذلك تجنب المصريون مشقة الانتقال من سفن الى اخرى في جهة الشلال في تلك العصور السحيقة . والعجيب ان هذه القناة التي حفرها اجدادنا من آلاف السنين زالت آثارها واهمل امرها اهمالاً شائناً حتى قال الاستاذ بتري « انهُ لم يفكر احدٌ من المصريين للآن في عمل مثل هذا الطريق المائي الذي كان يبلغ عرضه ايام الفراعنة اربعاً وثلاثين قدماً وعمقه اربعاً وعشرين قدماً تسير فيه السفن المصرية مهما كبر حجمها . واصبح المصريون الحاليون يكتفون بشريط حديدي لنقل بضائع القطر من احد طرفي الشلال الى الآخر »

وجرت العادة ان القوات المصرية حيثما وجدت كانت تشيد معابد كبيرة ومراكز ينبعث منها النفوذ المصري الى سكان تلك الجهة — وهذه عين سياسة اوربا معنا من حيث تشييد المدارس والكليات في انحاء القطر . واقتضت الارادة الفرعونية ان يكون قائد الحامية ورؤساؤها وكهنة المعبد وخدمته وكتابه وعماله كلهم مصريين . وهؤلاء كانوا يبثون بين الاهالي السودانيين عاداتهم واخلاقهم وكان اهل السودان ينظرون الى المصري نظرة ممتازة لانهم كانوا يرونه متفوقاً عليهم في النظام والادارة والكتابة وسبل الدفاع والتفاني في تنفيذ اوامر فرعون واطاعة ارادته

اما القلاع التي شادها المصريون فكانت شمال ابي سمبل لصيانة الطريق الموصل الى وادي

علا كي شرق السودان حيث يستخرج الذهب وايضاً في جهة وادي حلفا المعروفة قدماً باسم (بيهن) لصيانة حدود مصر الجنوبية. ولما تبوأ الملك سنورسي الثالث ويقال له ايضاً سيزوستريس (احد ملوك الاسرة الثانية عشرة) الحكم شاد قلعة جهة (سمنة) الواقعة على بعد اربعين ميلاً جنوب وادي حلفا جاعلاً ذلك الموضع حدّ مصر الجنوبي ونصب هناك لوحاً اثرياً حظر فيه مرور السودانيين شمالاً براً اوبحراً واستثنى من ذلك التجار ورسل الحكومة القائمين بأعمال رسمية وكان ذلك في السنة الثامنة من حكمه. وفي السنة السادسة عشرة من حكم هذا الملك نصب جلالته لوحين كبيرين حجريين احدهما في جهة (سمنة) والآخر في جهة جزيرة الملك وصف فيهما معاملته لاهالي السودان وطرق حربهم

ولم نعرف للآن منطقة السودان التي كانت تحت سيطرة ملوك الاسرة الثانية عشرة بالضبط وكان الاستاذ ماسپرو يظن ان النفوذ المصري كان ممتداً الى جنوب نهر عطبرة. وعليه ففرعون مصر كان ملكاً على جزيرة مروة من قديم الزمن. ولا يبعد ان يكون (سنورسي الثالث) قد اتبع سياسة آبائه واجداده في تلك الجهات وكان الذهب يُجلب من سنار بقوافل الى جزيرة مروة ومنها في الصحراء الى نبتة حيث يوضع في السفن وينقل الى القطر المصري في النيل

وكانت قلاع مصر جهة (نبتة) تتسلم من قبائل السودانيين جزيتهم التي كانوا يدفعونها سنوياً للبيت المالك ثم ترسلها الى القطر المصري تحت اشراف رؤساء وضباط مصريين. اما التجارة بين القطرين وقتئذٍ فكانت مزدهرة كما ان المصنوعات المصرية كانت تتدفق على الاقطار السودانية بكثرة

ولما غزا الهيكسوس مصر اضمحلت ادارة القطر المصري في السودان. وضعفت سلطته عليه وامتنع هذا عن دفع الجزية لمصر. ولا تزال معلوماتنا عن تلك العصور قليلة جداً

وفي عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق. م.) امتدت السلطة المصرية الى قلب السودان. فوصلت حدود مصر الى النهر الازرق. ويلخص ذلك في انه لما طرد احمس الاول الهيكسوس من مصر الى آسيا وجه همه الى السودان. فقاتل قبائله التي كانت تعطل التجارة وتعبث بالامن. وأجبرها على دفع الجزية. ولما تبوأ امنحوتب الاول (١٥٥٠ ق. م) عرش مصر غزا السودان ووصلت جيوشه الى جنوب الخرطوم. وكانت تعرف قدماً بأرض المواشي. كما ورد ذلك على لوحة حجرية يقال انها وجدت في جهة مروة. ومن ثم اقتنع المصريون بما للسودان من المقام والشأن من حيث تجارته وذهبه. فلم يستحسنوا ان تكون تجارته بأيدي حكام اقاليمه العديدين. وعليه اصدر جلالة الملك امنحوتب الاول امره بتعيين حاكم عام لذلك القطر. ولقّبه بحاكم الاراضي الجنوبية. وقلد ابنه تحوتمس الاول ذلك المنصب ثم لقبه بأمير (كوش) — وكوش هو الاقليم الواقع جنوب وادي حلفا. وقد اطلق عليه اليونانيون والرومانيون اسم (اثيوبيا) خطأً. وورد لفظ (كوش) بالكتاب المقدس. اما مسكن هذا الامير فكان في

النوبة . الاَّ انه كان يأْتي احياناً الى مصر تاركاً نائبه يقوم بعمله اثناء غيابه

ثم قسمت الاراضي الواقعة بين الشلال الاول والنيل الازرق الى عدة مديريات . لكل منها حاكم معين من قبل الملك ومسؤول امام امير كوش عن حوادث اقليمه وهكذا ادخل المصريون نظام وطنهم الاداري والسياسي في السودان بعد ما اعتبروه اقليماً من مملكتهم الاصلية

ولما تبوأ تحوتمس الاول عرش مصر سنة ١٥٤٠ ق. م. غزا بعض اقاليم السودان وانتصر عليهم انتصاراً مبيناً. وقد عثر على نقوش هيروغليفية جهة الشلال الثالث تتلخص في ان تحوتمس الاول اجتاز الصحارى واخترق الجبال فوصل الى بلاد وصفها بأنها لم تطأها اقدام اسلافه ولم ترها اعينهم

ولم نهتد حتى الآن الى هل شنَّ تحوتمس الثالث (١٥٠١—١٤٤٨ ق . م .) الغارة على بلاد السودان ام لا . لكن الثابت ان الحصون والقلاع والمعابد التي شيدت في عهد ذلك الملك فاقت كثيراً في العدد والضخامة ما شيده غيره من الفراعنة . واذا كان النفوذ المصري ممتدًّا حقيقة في السودان الى الجهات التي ذكرها تحوتمس الثالث على احد صروح طيبة فلا يبعد ان يكون ذلك النفوذ قد بلغ اقصى حدوده ايامه . فقد ذكر نحو مائة وأربعين واثنين اسماً لاماكن بالسودان كانت كلها تحت السيطرة المصرية . ودلت الآثار على ان بلاد الصومال ، كانت تدفع جزية كبيرة الى تحوتمس الثالث في السنة العاشرة من حكمه لما انفرد بحكم مصر . ويظهر ان اهالي السودان اقتنعوا وقتئذٍ بأنهُ خيرٌ لهم ان يرسلوا جزيتهم طائعين غير مترددين الى فراعنة مصر بدلاً من المراوغة والمماطلة ، التي تثير غضب الفراعنة فيرسلوا جيوشهم على السودانيين عقاباً لهم على هذا التقصير . فكانت العلاقات بين القطرين الشقيقين وقتئذٍ على غاية ما يرام . كما ثبت ذلك من النقوش والرسوم البارزة على جدران معبد صغير لتحوتمس الثالث في جهة (سمنة) . ويشاهد في هذه الرسوم المعبود (دد أون) احد معبودات السودان القديمة محتضناً تحوتمس الثالث ورافعاً ذراعيه فوق تاجه الملكي . وبالقرب منهما كاهن يخاطب المعبود (دد أون) قائلاً « لقد تبوأ ابنك تحوتمس الثالث عرشك وورث سدتك وجعل نفسه ملك الملوك في هذه الارض . فلن يتغير حكمه ابداً . فساعد روحه . واجعل هوله في قلوب قبائل السودان واقليم (منتيو) — الواقع جنوب الخرطوم الحديثة — » . ولا يخفى ان هذه النقوش والرسوم الدينية ذات تأثير معنوي عظيم في نفوس السودانيين ، لانهم لما عرفوا ان معبودهم (دد اون) سمح لملك مصر ان يحكم بلادهم على هذا النحو ، لم يجدوا امامهم وسيلة يتذرعون بها للانفصال عن القطر المصري فحذوا حذو معبودهم ، نحو فرعون مصر — ويعتبر هذا العمل من الحركات السياسية الفذة في تاريخ الامم . وفي عهد امنحوتب (امنوفيس) الثاني (١٤٤٨ — ١٤٢٠ ق. م.) وصلت سلطة فرعون مصر الى النيل الازرق ، وشاد امنحوتب المذكور معبداً له بالجهة المعروفة

بقايا معبد طرهاقة

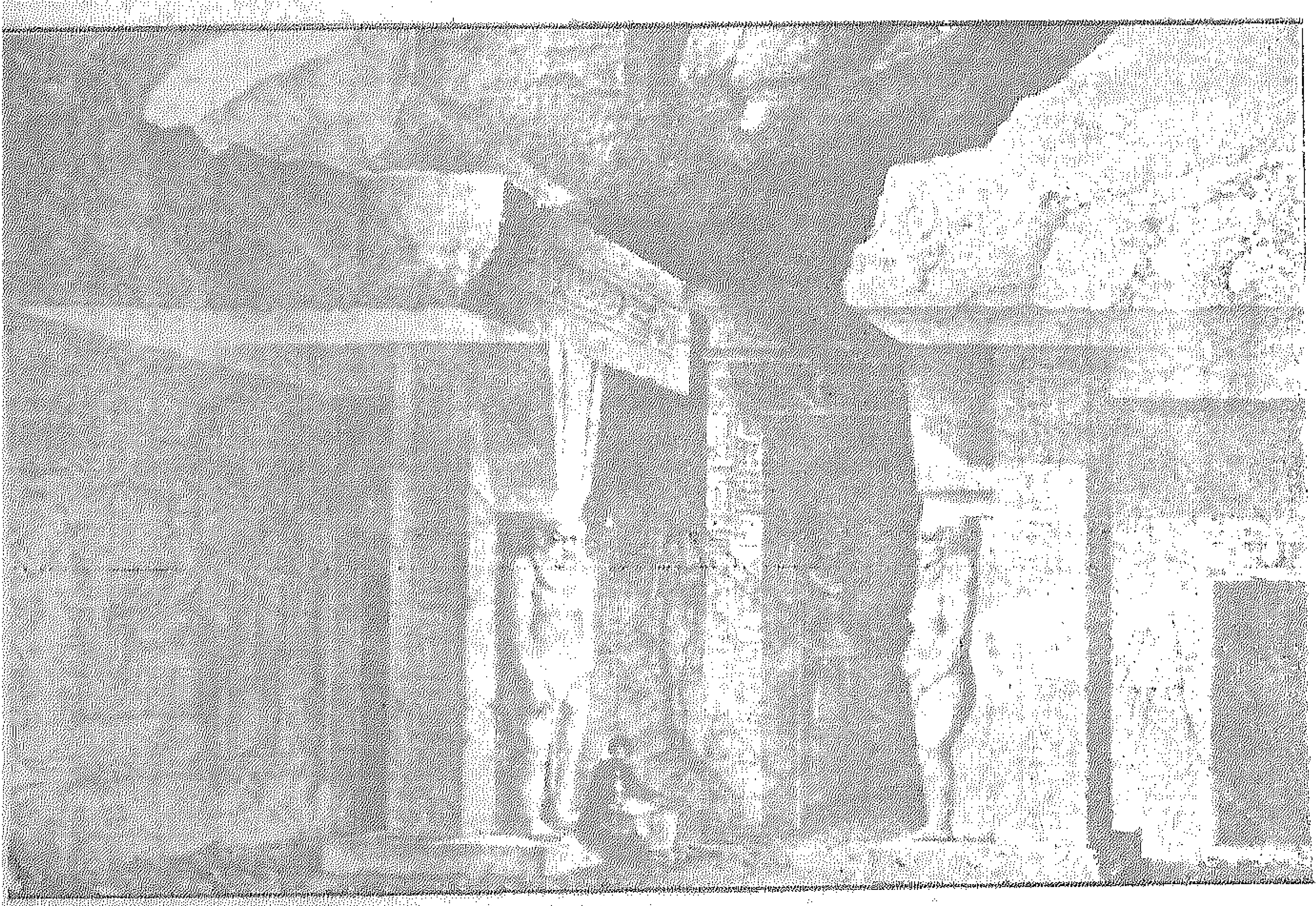

مدخل معبد طرهاقة (تيفونيوم) مدينة نبتة عند الشلال الرابع في السودان

(مصر والسودان في التاريخ)

الآن باسم وادي (باع النجا) حيث وجد تمثالان له في تلك الجهة . وكانت عاصمة السودان وقتئذٍ مدينة (نبتة) بالقرب من الشلال الرابع

وتغلغل النفوذ المصري في السودان وقتئذٍ حتى تمصر السودان تماماً ، فأصبح الخط الهيروغليفي الخط الرسمي واللغة المصرية القديمة لغة البلاد الحكومية . وشيدت معابد بالسودان لا تقل عظمة ولا روعة عن معابد طيبة إلا يسيراً . وعبد القوم في هذه المعابد معبودات المصريين ومعبود السودان (دد أون) السابق الذكر كما عبدوا ايضاً ملوك مصر مثل سنورسى (سيزستريس) الثالث وغيره

ويرجع السبب في نجاح السياسة المصرية في السودان في تلك العصور الى ذكاء الحكام الذين كانوا يعينون بمرسوم ملكي ويلقبون (بامراء كوش) وكفاءتهم . وجرت العادة انهُ اذا شقت بعض القبائل عصا الطاعة على فرعون مصر ، يرسل هذا على جناح السرعة قوة حربية كبيرة تخضع الثائرين ثم ترجع الى مصر (بسلام) على حدّ قولهم . لذلك كان مركز حاكم السودان يتطلب حنكة وخبرة سياسية ليهدىء روع السودانيين بعد ذلك العقاب وليجعل نفورهم من النفوذ المصري ضمن حدود ضيقة . ومن اوائل حكام السودان الذين كانوا يعينون بمرسوم ملكي الامير (سن) ابن تحوتمس الثالث ثم الامير (نحى) ثم الامير (اوسرست) و(مري مس) و (هوى) وغيرهم . الى هنا انتهت المرحلة الاولى التي تتلخص في ضم السودان الى مصر كجزء منها لا يتجزأ يأتمر باوامرها وينتهي بنواهيها . ثم تبدأ المرحلة الثانية

المرحلة الثانية : الاستثمار

تبدأ هذه المرحلة — وهي مرحلة الاستثمار — في اوائل حكم الاسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق . م .) لما بدأ سيتي الاول يوجه همته الى استخراج الذهب من المناجم الواقعة في الصحراء الشرقية فحصّن القلاع واصلح الطرق الموصلة الى تلك المناجم . اما الطريق القديم الواصل الى هذه المناجم والذي كان يمتد من (ردسية) جنوب ادفو الى البحر الاحمر فكان غير صالح للسير فيه لعدم وجود مياه وآبار . ويبلغ طول هذا الطريق مائة وسبعين ميلاً لذلك اصلحهُ (سيتي الاول). وحفر الآبار اللازمة واول بئر حفرت كانت على بعد ستة وثلاثين ميلاً من النيل . وكانت غزيرة المياه فشاد (سيتي) جوارها معبداً وتحولت هذه البقعة تدريجاً بواسطة العمال الى مدينة صغيرة . ويستدل من نقوش قرية الردسية ان (سيتي الاول) فتح هذا الطريق القديم الى مناجم الذهب وحفر مناجم اخرى بجانب القديمة منها ونظم سير القوافل بين البحر الاحمر والنيل .

قال رمسيس الثاني (١٢٩٢ - ١٢٢٥ ق . م .)[1] على لوحة حجر قُبَّان انهُ حارب

(١) Prisse d'avennes, Monumets plate XXI

السودانيين وهجم عليهم كالثور القوي فسحقهم بقدميهِ كالثور الهائج مخترقاً مدينة (نبتة) التي كانت تسمى وقتئذٍ (كارى) . وانهُ فكّر في استخراج الذهب من جهة (اكيتا) فنجح نجاحاً عظيماً الاّ انه وجد صعوبات جمة في نقل ذلك المعدن النفيس الى النيل لان الطريق كان طويلاً شحيح المياه حتى ان وفيات عمال تلك المناجم بلغت النصف بسبب العطش . زد على ذلك الخسارة التي كانت تلحق الحيوانات وغيرها . نعم انهم كانوا يستعملون القرب الجلدية لحفظ المياه الاّ ان مقدارها لم يكن كافياً لارواء ظمأ جميع العمال في ذهابهم الى المناجم ومكوثهم بها ورجوعهم الى نهر النيل . لذلك جمع رمسيس الثاني كبار دولته ومنهم امير كوش او حاكم السودان ليبحثوا عن طريق لجلب الذهب من مناجم (اكيتا) . فقرّ الرأي على البحث عن المياه في تلك الجهة فتمكن من العثور على بئر غزيرة المياه في طريق اكيتا لا يزيد عمقها على عشرين قدماً

وطريق (اكيتا) يبدأ من الدكة ومن ثمَّ الى وادي علاكي . ويلاحظ ان هذه المناجم بدأ العمل فيها ايام الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠—١٧٩٠ ق . م .) ثم اهملت حتى الاسرة السابعة عشرة (١٦٠٠ — ١٥٥٥ ق . م .) . واعيد العمل فيها ايام البطالسة والدولة العربية . وذلك حتى القرن الثاني عشر بعد الميلاد ويجد السائح الآن في جهة وادي علاكي ادوات الحفر التي كان يستعملها العمال هناك لاستخراج الذهب وكان كثيراً في تلك الجهات

ولما تولى رمسيس الثالث الحكم (١١٩٨ — ١١٧٦ ق . م .) جعل همّه تشجيع التجارة مع السودان فأبدل القوافل التي كانت ترسل الى السودان لجلب المرّ والبلسم والحجارة الكريمة وغيرها بسفن خصوصية لشحن تلك الخيرات عن طريق البحر الاحمر . ولم يعرف بالضبط المكان الذي كانت ترسو فيهِ السفن على شاطىء الصومال . لكننا نعلم ان ميناء بالقرب من القصير هو الذي كانت تلك السفن ترسو فيهِ آتية من الصومال مشحونة بخيراته . وكان يرد على مينا القصير ايضاً معدن النحاس الذي كان يستخرج من جهة وادي المغارة وصربوت الخادم بشبه جزيرة طورسيناء وذلك في سفن خاصة ايضاً . كل هذه الواردات كانت تنقل من القصير الى قفط على ظهور الحيوانات مخترقة في سيرها وادي الحمامات وتشحن البضائع من قفط في سفن نيلية الى منف ومدن اخرى كبيرة والى بعض البلاد الجنوبية

وقد احدث هذا الطريق التجاري الجديد تأثيراً كبيراً في علاقة السودان بالقطر المصري فبعد ما كان اهالي القطرين يتعاملون بعضهم مع بعض شخصيًّا اصبحت السفن واسطة التعامل بين القطرين لذلك اضطرَّ المصريون ان يشيدوا القلاع والحصون بالسودان محافظة على نفوذهم وتجارتهم فيهِ

ولا جدال في أن مشروع رمسيس الثالث المذكور أتى بفوائد تجارية عظيمة . فالسرقة في البحر الاحمر وطريق وادي الحمامات كادت تكون معدومة . زد على ذلك ان البضائع كانت

تنقل في زمن أقصر من المعتاد سابقاً وبقيمة اقلّ وتصل وهي في حلة احسن . ثم ان موت العمال والحيوانات وانهاك القوى كل ذلك اصبح في خبر كان . لكن يلاحظ ان هذا المشروع أضرّ بالنفوذ المصري في السودان كثيراً وخصوصاً ان رمسيس الثالث كان يعتقد ان التجارة اكثر فائدة من الحرب . فقد قال ما معناه : —

« كان رجال جيشي من مشاة وفرسان يسكنون المدن في عهدي نائمين على ظهورهم بلا حرب في السودان وفي آسيا فكانت اسلحة الحرب موضوعة في حقائبها بالمنازل وكان الرجال يأكلون اللحوم الكثيرة ويتعاطون المشروبات الوافية . ويعيشون مع زوجاتهم في راحة وسرور فلا يخافون تقلبات الزمن لان الفرح كان شاملاً قلوبهم وبالغاً منهم الدرجة القصوى (قرطاس هريس رقم ١ لوحة ٧٨ س ١٠ و ١١ و ١٢)

ولا بدّ ان مالية الدولة المصرية كانت ايام رمسيس الثاني والثالث عظيمة جدًّا . وان مقدار الذهب الذي دخل القطر المصري كبيراً جدًّا . فقد وصف ديودورس الصقلي مقبرة يغلب انها لرمسيس الثاني او الثالث قال انهُ شاهد فيها لوحة حجرية وقد رسم عليها الملك يقدم للمعبودات المقادير العظيمة من الذهب والفضة التي كانت تستخرج من المناجم سنويًّا وتقدر بثمانين مليوناً من الجنيهات الذهبية الحالية . وهذا الذهب كما لا يخفى كان وارداً من بلاد الحبشة واقليم النيل الازرق ومناجم وادي علاكي

ومنذ ذلك فقدماء المصريين هم أول قوم عرف فضل التجارة والتعامل بين الامم وهم اول من مهد لذلك بابتكار الطرق التجارية السهلة والمعاملات الدبلوماسية والوسائل الحربية وهم اول من عرف فصل الذهب وبذلوا غاية جهدهم في استخراجهِ مهما بعدت مناجمه عنهم صورةٌ مطابقة لطرق استعمار اوربا لافريقيا في العهد الحاضر

ومنذ حكم الاسرة العشرينية (١٢٠٠ — ١٠٩٠ ق . م) بدأ النفوذ المصري يضمحل وظهرت على حكام اقاليم السودان اعراض القوة والرغبة في الاستقلال والانفصال من القطر المصري وهكذا ندخل في المرحلة الثالثة من تاريخ السودان القديم

المرحلة الثالثة : تفوق السودان

في القرن العاشر ق . م . بدأت دلائل الافلاس تظهر على خزينة (آمون رع) بطيبة فعسر على كهنة ذلك المعبود ان يقوموا بالاحتفالات والشعائر المتبعة واضطروا الى ان يبحثوا عن المال . ويرجع هذا الافلاس الى عدم شهر الحروب في آسيا والسودان — وقد كانت تعود بالغنائم الكبيرة على المعابد المصرية — والى عدم دفع تلك البلاد الجزية للخزانة المصرية . فاضطرّ رمسيس التاسع (حوالي ١٠٠٠ ق . م) ان يزيد في الضرائب

على المصريين لجمع المال اللازم. بعد ذلك اعلن الوجه البحري استقلاله عن الوجه القبلي وأخذت الحال في الوجه القبلي تتغير من سيء الى أسوأ حتى سنة ٩٦٠ ق . م لما تولى الملك شيشنق الاول عرش مصر ، وشيشنق هذا هو اول ملوك الاسرة الثانية والعشرينية ،وهو المذكور في التوراة باسم شيشاق وهو ابن الرئيس اللوبي (بيواوا) توصل الى الملك عن طريق والدته المصرية العريقة النسب وتوفى شيشنق وتولى الملك بعده ابنه اوسوركون الاول ، وهذا ارسل ابنه (أوبت)حاكماً على السودان، وجعل مركزه مدينة طيبة ، فبدأ هذا الحاكم في عمل التصليحات والترميمات ، لكنه وجد نفسه عاجزاً عن منع سرقة المقابر الملكية ، فصمم على جمع جثث الملوك السابقين في مكان واحد امين بالدير البحري ، حيث بقيت الجثث محفوظة سبعة وعشرين قرناً ، الى ان اكتشفها المرحومان احمد كمال باشا واميل بروكش وذلك في يوم الاربعاء ٦ يولية سنة ١٨٧٩ ميلادية

وجرت العادة ان الكهنة كانت تذهب الى المقابر الملكية لتقيم الصلوات وتقدم القرابين صباحاً ومساء ، فلما نقلت الجثث الملكية على الطريقة المذكورة اصبح معظم كهنة طيبة عاطلين فاتضح للقوم عجز هؤلاء الكهنة عن المحافظة على منزلتهم وكرامتهم ؛ وبدأ الاهالي يملون عبادة (امون رع) ويعكفون على (ازوريس) فبدأ معبد هذا الاخير بالبلينا يعلو شأناً ويرتفع مقاماً وذلك بمساعدة (اوبت)

ثم ايقن كهنة (امون رع) ان ايام مجدهم انقرضت وان لا مناص لهم من الهجرة الى محل أوفق لهم من طيبة . فلما رأوا الوجه البحري مقفلاً في وجوههم عمدوا الى الجنوب فوجدوه مفتوحاً امامهم ورأوا ايضاً معبودهم (امون رع) يعبد هناك ورأوا مصريين كثيرين عائشين بالسودان وعلى الاخص بين الشلال الاول ونبتة عاصمة السودان القريبة من الشلال الرابع ومدينة نبتة كانت مركزاً عظيماً لعبادة (امون رع) وهي واقعة في اقليم دنقلة الذي اشتهر من قديم الزمان بخصب التربة وبكونه محطة للقوافل التي كانت تسير بين مصر والسودان

فبناء عليه قرر كهنة (امون رع) في طيبة الهجرة الى نبته . فجمعوا موميات أجدادهم ودفنوها في محل مخصوص كما فعل (اوبت) بالموميات الملكية . بعد ذلك بدأوا يهجرون طيبة متجهين نحو نبته . ومؤملين أن يقابلوا هناك بالمساعدة اللازمة والاكرام اللائق بهم

ولما وصل كهنة أمون بلاد النوبة بدأوا يرقبون سير الحوادث في القطر المصري . ويشتغلون في نبته طيّ الخفاء . ويتحينون الفرص لحمل ملك السودان على غزو مصر ووضع حدّ لذلك النزاع القائم بين حكام اقاليمها العديدين . وكان كهنة (امون رع) على الدوام اليد المحركة لادارة شؤون القطر المصري بالسودان من سنة ١٦٠٠ — سنة ١٠٥٠ ق . م . ايام الفراعنة العظام . فلما هاجر هؤلاء الكهنة الى السودان تذرَّعوا بنفوذهم الديني ليؤثروا في

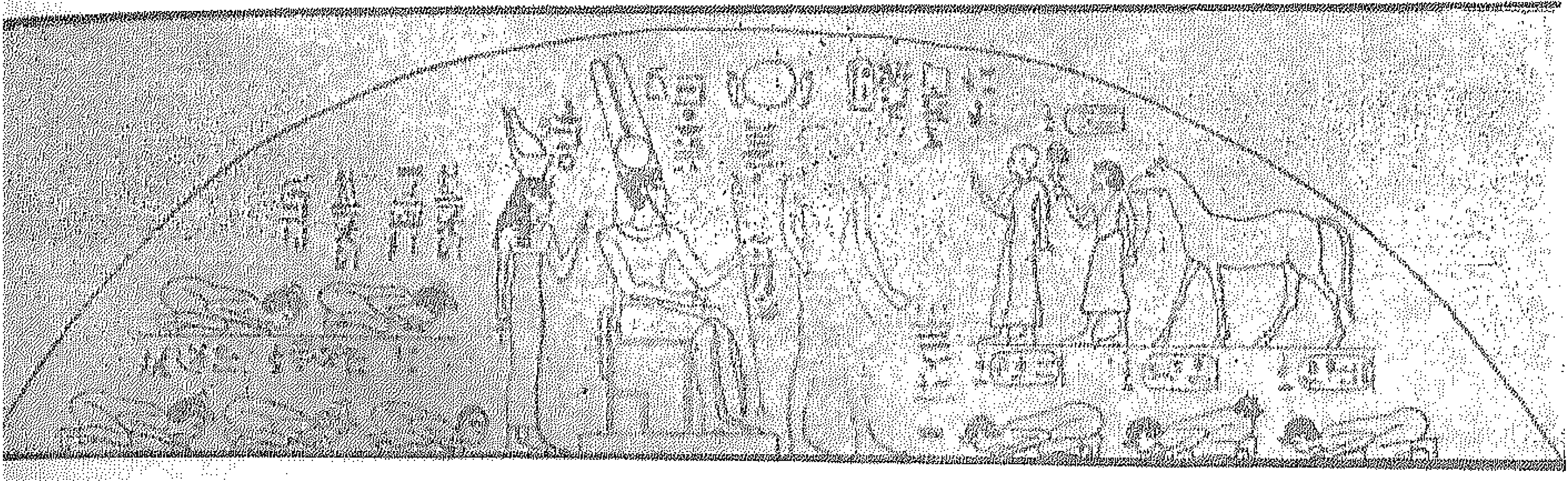

قمة حجر اثري للملك بيعنخي السوداني وقد رسم عليه الملك وهو يتقبل خضوع تسعة امراء مصريين ولوبيين في حضرة المعبود (امون) والمعبود (موت)
وقد عثر على هذا الحجر ضابط سوداني مجهول الاسم

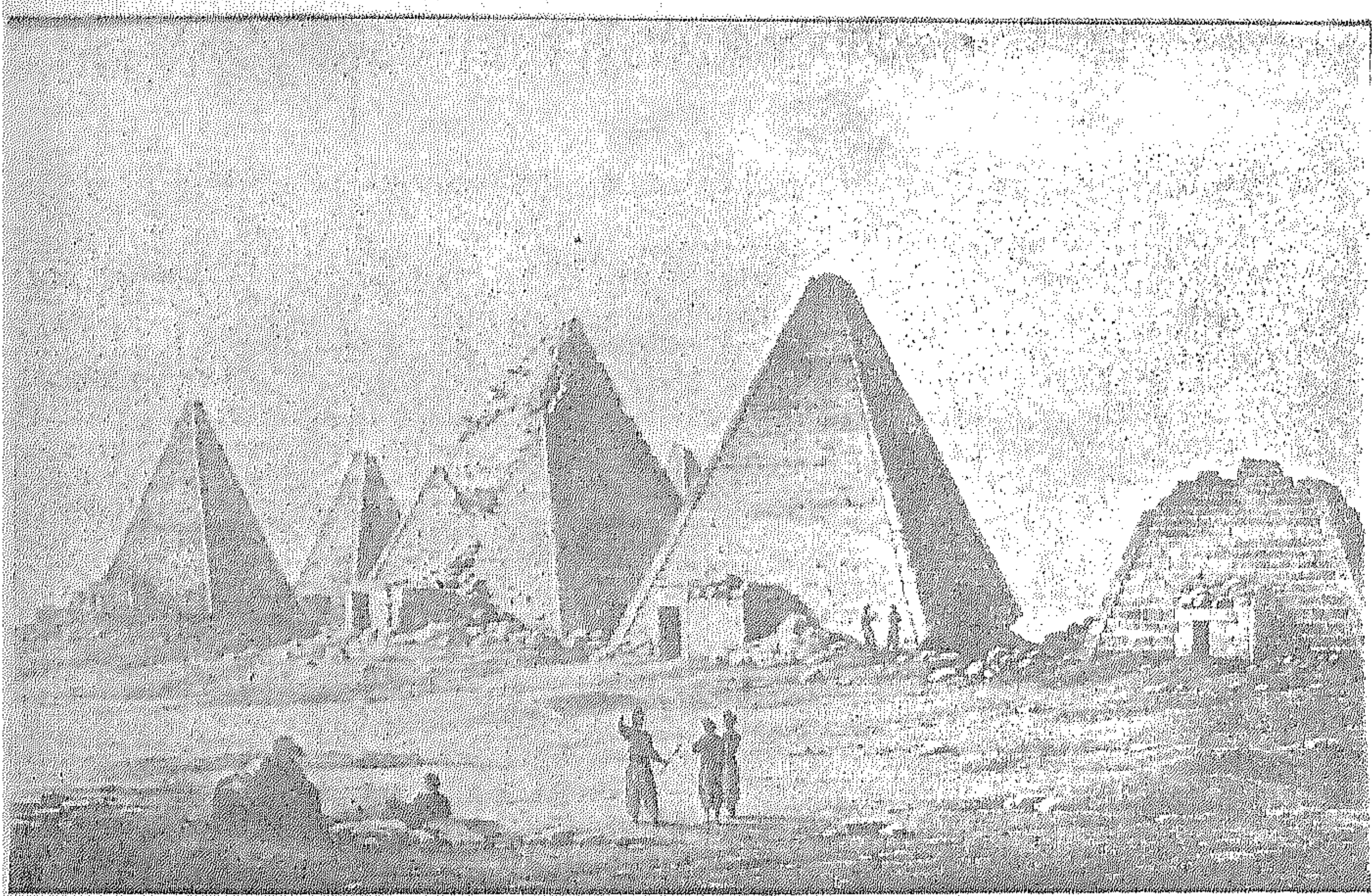

اهرام جبل برقل (نبتة) في السودان كما كانت سنة ١٨٢١ م

(مصر والسودان في التاريخ)

ملوك السودان وتكون لهم الكلمة العليا في ادارة شؤونه . فجعلوا يقنعون حكام السودان بان ادارة (امون) هي الادارة العليا . وانه هو المعبود الوحيد الذي يعيّن الملوك ويدير البلاد بأوامر يصدرها إلى كهنته . وان في امكانه ان يجعل ملك السودان سيد القطر المصري وسائر العالم . فنجح مشروعهم حيث وجد بالسودان ارضاً خصبة . تنبت فيها بسرعة بذور حيلهم ودهائهم

وأول ملك سوداني ادعى السلطة على مصر هو (كاشتا) . وقد ورد اسمه مكتوباً في خانات ملكية . وملقباً بلقب « سلطان » و « ملك الوجه القبلي » و « سيد القطرين » . ولفظ كاشتا يدلّ على انه نوبي وليس مصري . وكان هذا الملك متزوجاً بملكة تدعى (باتما) رزقت منه بولدين أحدهما (بيعنخي) والآخر (شاباكا) . ولم نعلم عن تاريخ (كاشتا) شيئاً إلا أن له نفوذاً على الوجه القبلي . وانه أدار شؤون طيبة بمقدرة وكفاءة . وذلك في أوائل القرن الثامن قبل الميلاد . ثم توفي وحكم بعده بيعنخي في (نبته) من سنة ٧٥٠ ق . م . إلى سنة ٧٤٠ ق . م . وغزا القطر المصري . واظهر من البسالة والرأفة بالمصريين ما يستحق الاعجاب . ووجدت أعمال هذا الملك مدونة على أثر عظيم بالسودان مع آثار أخرى خطيرة الشأن . استدل منها على كيفية اخضاع اقاليم الوجه البحري والقبلي بجيش (بيعنخي) واسطوله . وبعد ما طهّر (بيعنخي) مصر من عصاتها : رجع إلى وطنه واستقرّ في مدينة (نبته) . ونقل اليها تخت الملك بعد ما كان في طيبة ومنف . وصارت مصر ولاية سودانية . ثم توفي وورثه أخوه (شاباكا) أول ملوك الاسرة الخامسة والعشرين وذلك سنة ٧١٢ ق : م .

ولم تدم السلطة السودانية في مصر اكثر من مائة سنة لأنهُ في سنة ٦٤٥ ق . م . انكمشت الدولة النوبية في وطنها الاصلي . وصار حدّها الشمالي (كونوسو) وهي مجموعة جزر صغيرة في النيل واقعة شمالي جزيرة (فيلة) . وهذه اسمها بالعربية (بيلاق) . واصلهُ بالقبطية (بيلاخ) أي الركن . وبالمصرية القديمة (بيلاق) ايضاً .

والباحث في تاريخ المملكة السودانية يرى أنها ارتفعت واستقلت ثم ضمت اليها القطر المصري وطمحت الى التدخل في شؤون الدول الاجنبية . فأرادت استعمار آسيا . وظهرت في ذلك الحين المملكة الآشورية القوية . فاكتسحت المملكة السودانية اكتساحاً . وصدمتها صدمة كانت القاضية على كيانها وهيبتها . قال المؤرخون ان كل مشروع قام به ملوك السودان للدفاع عن وادي النيل ضد آشور حبط حبوطاً تامًّا لضعف السودانيين وجهلهم بالسياسة ويستثنى من ذلك دفاع طهراقه لأنه تمكن من صد آشور مرة عن حدود مصر . وحفظ كيان مملكته زمناً يسيراً . إلاّ أنه اضطرّ في آخر الأمر ان يولي ظهره جيش آشور جبناً وضعفاً . وقصارى القول أن مقاومة السودانيين للاشوريين بمصر كانت ضعيفة ضعفاً لا يقابل بسلطة الفراعنة الاقدمين .

الذين كانوا مثال الشجاعة والشرف وحب الوطن وفي سنة ٥٩٠ ق . م . حاول بساتيك الثاني أن يغزو أعالي السودان . وفي عام ٥٢٥ حاول قمبيز ان يخضع السودان أيضاً لكنه لم يفلح . من ذلك الوقت دخل تاريخ السودان في طور الاضمحلال واكتنفه النموض . وانتقلت عاصمته من نبته (جوار الشلال الرابع) الى (مروة) شمال الشلال السادس والخرطوم . وذلك حوالي عام ٣٠٠ ق . م . وبدأت الحضارة المصرية في السودان تضمحل . وتدرَّج الخط الهيرغليفي الى الخط المروي الذي بدأ استعماله كخط البلاد الرسمي في مبدأ العهد المسيحي

وفي عهد اليونان (البطالسة) والرومان كان حد مصر الجنوبي جوار (قرته) مركز الدر . وذلك عند مدينة قديمة اسمها (أوفدوينا) او (أوفدونيا) . بالقرب من معبد المحرقة . و (أوفدوينا) هذه كانت تعرف قدماً باسم (Hieraskaminos) وتعني الجميزة المقدسة . لكن حدث بعض الاحيان ان ذلك الحد نقل جنوباً الى أبريم . وابريم هذه كانت تعرف قدماً عند الرومان باسم (Prims) . وهي مركز حربي عظيم . وتذكرون حضراتكم ان السلطان سليم الاول وضع حراساً من أهل البوسنة هناك . وذلك في القرن السادس عشر . وان المماليك الذين هربوا عام ١٨١٢ التجأوا اليها . لكن ابرهيم باشا هجم على القلاع هناك فأبادها وذلك في نفس السنة

وفي عام ٣٥٠ ب. م. غزا السودان ملوك الحبشة ، وكانت عاصمتهم وقتئذٍ (اكسوم) وأنهوا بذلك مملكة مروة. ودخلت المسيحية جزيرة فيلة في القرن الرابع بعد الميلاد ثم تفشت في النوبة حيث شيدت الكنائس. وفي سنة ٦٤٠ وقعت مصر واعالي نهر النيل في قبضة العرب. ووصل عمرو بن العاص الى دنقلة وفرض عليها الجزية. وفي عام ١١٧٣ م . استولى (شمس الدولة) اخو (صلاح الدين) على قلعة ابريم. وفي ذلك الوقت اكتسح الاسلام المسيحية . وفي عام ١٨٢١ غزا اسماعيل باشا السودان مندوباً عن والده المغفور لهُ محمد علي باشا وتعرفون حضراتكم ان اسماعيل باشا قتل غدراً عام ١٨٢٢ في جهة (شندي) بالسودان

الخاتمة : نتائج عامة

والآن وقد شرحت تاريخ السودان القديم وعلاقته بالقطر المصري منذ الزمن السابق للملك مينا الى اوائل القرن التاسع عشر يجدر بنا ان نستنتج مما قيل بعض الحقائق والمعلومات . لان التاريخ يعيد نفسه ولان ما يجري الآن بخصوص السودان ما هو الأ تكرار لما حدث منذ آلاف السنين

معلوم ان المصريين والسودانيين من اصل واحد استوطنوا وادي النيل بعد ما هاجروا بلاد العرب الى الصومال . ومعلوم ان خصال هؤلاء القوم وطبائعهم واحدة . لأن ذلك أمر موروث يمتاز به عنصرهم عن سائر العناصر . فهم بطبيعتهم جنس مسالم قليل الجشع والطمع . كثير الاحترام للعقائد الدينية . أليف . سريع العفو . عزيز النفس . بهذه السجايا والطباع اشتهر

بين الأمم على توالي الاجيال . ومعلوم أيضا أن وادي النيل من حيث موقعه الجغرافي أشبه شيء بواحة كبيرة في وسط صحاري واسعة منعزلة . فهو محدود شمالاً بالبحر الابيض المتوسط وشرقاً وغرباً وجنوباً بصحاري

وهذه العزلة تأثير كبير على مدنية وادي النيل وحضارته . لان المدنية في نظر بعض الفلاسفة نتيجة المعيشة في الاودية حيث تكثر الزراعة والفلاحة وحيث يحتاج الانسان الى تفكير لابتكار طرق الزراعة وتظيم الري وتشييد المساكن وهذه الشروط لتوافرها أشد توافر في وادي النيل أنتجت نتاجاً حسناً . واظهرت للعالم من الحضارة والارتقاء ماأدهش العقول وحيّر الالباب

وقد أثبت المرحوم احمد كمال باشا في معجمه الضخم إن أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد . وأن الاختلاف الظاهر في هاتين اللغتين ليس إلاً نتيجة لاسقاط لبعض كلمات في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل والعكس بالعكس ، زد على ذلك ما يعتري الكلمات من قلب وابدال ، وما يصيبها من تغير بمعاملة الاجانب على مرّ الدهور

وهكذا اظهر لنا التاريخ ان مصر والسودان امتان مكملتان ومتممتان الواحدة للاخرى ، فما ينقص من احدهما تكمله الاخرى ، وما تعجز عنه واحدة تقوم به الثانية ، ولولا ذلك التضامن لما ظهرت مدنية ولا حضارة بوادي النيل ، فعلاقة السودان بمصر اشبه شيء بعلاقة بلاد (وليس) أو (الغال) بانكلترا . فكما ان حاكم السودان كان ولي عهد المملكة المصرية كذلك ولي عهد انكلترا لا يزال يلقب بأمير بلاد (وليس)

ولا أدل على تمصّر السودان من اسمه المصري القديم . فان المصريين سموه قدماً (نوب) وحرّف القوم هذا اللفظ بعد ذلك الى (نوبه) أو (نوبيا) . و (نوب) بالمصرية يعني (الذهب) فبلاد النوبة تعني بلاد الذهب أو بلاد الكنوز كما يسميها أهاليها الحاضرون

ووردت على لوحة حجرية وجدت بالكرنك من عهد تحوتمس الثالث (١٥٠١ — ١٤٤٧ ق.م) مدحة نثرية وشعرية مقالة على لسان (امون) معبود طيبة في حق تحوتمس المذكور تعتبر اجمل انموذج للآداب المصرية . جاء في ذيلها ما تعريبه : —

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب متوحشي النوبة . وليكن الجميع حتى اقوام (شات) تحت تصرف يدك مستعدين لمددك فقد اريتهم جلالتك كما ينظر الاخ الى اخويه فيحنوان عليه وتجتمع اياديهم اليك ليشدوا عضدك » . ان تشبيه القطرين المصري والسوداني بشقيقين يحنو كل منهما على الآخر ويتآزران في شد عضد فرعون مصر بعبارة لا تقبل الشك ولا الجدل لهو دليل قاطع على ان القطرين الشقيقين كانا من اقدم العصور كما هما الآن قطرين مكملين ومتممين الواحد للآخر

من اليواقيت الثمينة

الى ادوات المطبخ

الالومنيوم : عيده الذهبي ومستقبله

قصة عنصر الالومنيوم من أغرب القصص في تاريخ الكيمياء الصناعية . فهو عنصر مبذول في الارض ، يبلغ جزءاً من ثلاثة عشر جزءاً من مادتها . انه اكثر من الحديد والنحاس ، بل لا يفوقه الا الاكسجين والسلكون من هذا القبيل . وهو عنصر نجده في الياقوت الاحمر والازرق وغيرهما من الحجارة الكريمة . كما تجده في الصلصال الذي تطؤه بقدمك . ثم هو في حالته الفلزية متصف بصفات قلما تجتمع في فلزّ : خفة في الوزن ، ومقاومة للتأكل ، وقدرة على ايصال الكهربائية والحرارة ، علاوة على سهولة تناوله في الصناعة وجمال مظهره وبريق سطحه وبراءته من ان يكون ذا خواص سامّة

هذا العنصر العجيب بخواصه ، الكثير في مادة الارض ، كان ينتظر ان يعرف الناس السبيل اليه من اقدم العصور، كما عرفوا السبيل الى الحديد والنحاس . ولكنهُ لم يكشف الا في اوائل القرن الماضي ، ولم تستنبط طريقة عملية تجارية لتحضيره رخيصاً الا في ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٦ — اي من خمسين سنة

كان الرومان يدعون بعض الاملاح باسم « الومن » Alumen والمرجَّح الآن عند مؤرخي الكيمياء ان هذه الاملاح كانت مزيجاً من كبريتات (سلفات) الحديد والالومنيوم ، وكانت توجد في المناطق البركانية على البحر المتوسط ، فتستعمل في الطب والصباغة . فلما كان القرن الثامن عشر تبين لبعض الباحثين انهُ في المستطاع استخراج املاح من هذا القبيل من بعض انواع الصلصال بمعالجته بالحامض الكبريتيك . فدعيت المادة الاساسية في الصلصال التي نشأ منها هذا الملح ألومين Alumine في فرنسا فتحوّل اللفظ الى الومنا Alumina في انكلترا . اما الالمان فأبقوا على لفظ تونرد Thonerde الى يومنا هذا . ومع ان السر همفري دايفي اخفق في استفراد العنصر الا انهُ اقترح تسميتهُ باسم الومنوم Aluminum وهو الاسم الشائع في اميركا الا انهُ يعرف رسميًّا في علم الكيمياء باسم الومنيوم Aluminium اي بزيادة حرف (i) على مقطعه الاخير

المرجح الآن ان العالم الدنماركي اورستد كان اول من استفرد الالومنيوم وذلك في سنة ١٨٢٥ وتلاه وهلر الكيماوي الالماني ، وتقول دائرة المعارف البريطانية ، انه من المؤكد ان وهلر استفرد الالومنيوم سنة ١٨٢٧ في مسحوق رمادي ثم في حبيبات فلزّية . ومن علماء اوربا اصحاب الاثر العظيم في دراسة الالومنيوم الكيماوي الفرنسي كلير دفيل . ومن غرائب الاقدار في الناس ، انه لما طارت شهرة وهلر في اربعة اقطار المعمورة ، بعد تحضيره اول مركب عضوي ، بالتركيب الكيميائي الصناعي ، هرع اليه طلاّب الكيمياء من مختلف البلدان ، وكان بينهم طالب اميركي يدعى جوت Jewett فلما عاد جوت الى اميركا استاذاً للكيمياء في كلية اوبرلين كان لا يني عن التحدث الى تلاميذه في خواص عنصر جديد كشف في اوربا مبيناً الثروة الطائلة التي تنهال على من يستنبط اسلوباً عمليًّا رخيص النفقة لاستخراج هذا العنصر من املاحه . واذ كان يقول هذا القول في احد الايام غمز احد الطلاّب رفيقه وقال : «سوف يكون تحضير الالومنيوم بغيتي في الحياة » . كان هذا الطالب تشارلز مارتن هول . وفي ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٦ — اي من خمسين سنة — هرول الفتى هول وهو في الثانية والعشرين من العمر الى استاذه ، بحبة من فلزّ الالومنيوم المحضر بطريقة كهربائية رخيصة كان قد استنبطها فكان ذلك العمل مستهل عصر الالومنيوم في الصناعة ، وجنى هول من عمله ثروة كبيرة ،(١) وهب منها في وصيته مايوني جنيه للمعاهد الاميركية في الشرق الادنى . وكذلك ربط سلك العلم بين وهلر الالماني وطلاّب العلم في الشرق الادنى عن طريق جوت وهول الاميركيين !

كان مقدار ما يستخرج من فلزّ الالومنيوم قبل سنة ١٨٨٩ — وهي السنة التي بدأ فيها هول تحضيره بطريقته الكهربائية — لا يزيد على ٢٢٥ الف رطل فأصبح ما يستخرج منه في السنة نحو ٦٠٠ مليون رطل وكان سعره في الثلث الاول من القرن التاسع عشر — بعيد ما استحضره وهلر ، يبلغ ٣٢ جنيهاً للرطل الواحد ، فهبط بعيد منتصف القرن الى اكثر من خمسة جنيهات قليلاً للرطل وهو الآن اربعة قروش للرطل

ويقال ان نبوليون الثالث قدم الطعام لممتازي المدعوين الى مأدبة أدبها ، في اطباق من الالومنيوم ، اما المدعوون الباقون فقدم لهم الطعام في اطباق من الذهب ! بل يروون عن سائح اميركي في باريس ذهب الى صائغ يريد ان يبتاع نظارات للاوبرا فعرض عليه الصائغ نظارتين ،

(١) سجل هول اكتشافه في ٩ يوليو سنة ١٨٨٦ ولكن هرولت Heroult الفرنسي كان قد استنبط طريقة كطريقة هول وسجلها في دار تسجيل المخترعات بباريس في ٢٣ مايو سنة ١٨٨٦

احداها مصنوعة من البلاتين والثانية من الالومنيوم وكان ثمنهما واحداً ، فاختار الاميركي النظارة المصنوعة من الالومنيوم

انحصرت فائدة الالومنيوم الصناعية في المدة التي انقضت بين اكتشاف الطريقة الكهربائية لتحضيره وسنة ١٩٢٠ في استعمال ثلاثة من اخلاطهِ فقط ولكن العلماء صنعوا منهُ في المدة الواقعة بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٥ عشراتٍ من الاخلاط تتصف بخواص عجيبة ، في متانتها وتحمل الضغط ، ومقاومة التأكل ، والعزل من الحرارة والبرد وغيرها

يقسَّى الالومنيوم الآن بخلطهِ بعناصر مختلفة كالنحاس او المغنزيوم او المنغنيس او السلكون او النيكل.واحياناً يستعمل القصدير او التيتانيوم او الكروم.ويكفي ان تضيف مقداراً يسيراً جدًّا من احد هذه العناصر الى الالومنيوم لكي تغيّر بعض خواصّهِ ، فميدان الابداع في استنباط اخلاط الالومنيوم المتصفة بخواص جديدة ، ميدان واسع جدًّا

***

من المشكلات التي تهمُّ المشتغلين بالفلزّات ، مشكلة التأكل . وتأكل الفلزات يفضي كلَّ سنة الى تدمير ما قيمتهُ مئات الالوف من الجنيهات . الاَّ ان الالومنيوم اصلح من جميع الفلزات التي عرفت حتى الآن من هذا القبيل . فعلى سطحهِ تتكون طبقة رقيقة من اكسيد الالومنيوم تمنع امتداد فعل التأكسد الى ما تحتها . وقد كشف الباحثون عن طريقة كهربائية لتكوين هذه الطبقة بالصناعة فتزيد مناعة الفلزّ على مقاواة انياب الدهر

ولا ريب في ان صناعة النقل سوف تكون في مقدمة الصناعات التي ستستفيد من التقدم في استعمال اخلاط الالومنيوم . فهذه الاخلاط تستعمل الآن في صناعة قطارات السكك الحديد ، ومركبات الترام والسيارات ، وسيّارات النقل والطائرات والبلونات والسفن . ان صانعي هذه المركبات جميعاً يطلبون فيها اربعة اغراض عامة هي السرعة وامانة النقل والراحة والاقتصاد . واخلاط الالومنيوم المشهورة بمتانتها وخفة وزنها تحقق هذه الاغراض جميعاً . فقد صنعت شركة « يونيون پاسفيك » الاميركية قطاراً مشيقاً stream-lined اجتاز القارة الاميركية من الشاطئ الى الشاطئ في ٥٦ ساعة و ٥٥ دقيقة فأحرز قصب السبق في سرعة اجتيازها وكان ما انفقهُ من الوقود في هذه الرحلة اقلَّ جدًّا مما تنفقهُ القطارات عادة

ثم ان الطائرات تصنع في الغالب من اخلاط الالومنيوم — اجنحة ومحركاً ومقدماً . ولا بدَّ ان يساير التقدم في إبتكار اخلاط جديدة من الالومنيوم ، التقدُّم في ارتقاءِ فن الطيران ، وليس ببعيد ان تبتدع اخلاط جديدة قبل بضع سنوات ، تمكّن المهندسين من صنع طائرات تستطيع

ان تطير في الطبقة الطخرورية بسرعة الف ميل في الساعة فتقطع المسافة بين نيويورك ولندن في نحو ثلاث ساعات

ولا يخفى ان استعمال الالومنيوم واخلاطهُ في بناءِ السفن يوفّر عليها جانباً كبيراً من الوزن الذي يمكن استعمالهُ في زيادة حمولتها من الركّاب والامتعة والمتاجر . ولنضرب للقارىء مثلين فقط على ذلك . فغرف التبريد كانت تعزل دائماً بالفلّين او بالمغنيزيا . والقدم المكعبة من الفلّين وزنها في المتوسط عشرة ارطال . ومن المغنيزيا ١٨ رطلاً . اما القدم المكعبة من رقائق الالومنيوم التي تصلح للعزل صلاح الفل والمغنيزيا لهُ فلا تزيد على ثلاث اوقيات للقدم المكعبة

والمثل الآخر ، هو ان الدهان المصنوع من الالومنيوم اخف جدًّا من الدهان الذي يدخل الرصاص فيهِ او غيره من العناصر . فقد دهن احد الطرادات بدهان مصنوع من الالومنيوم فكان وزن ما استعمل من دهان الالومنيوم اخف من اي دهان آخر بمقدار ١٠٠ الف رطل

اما في السيارات فقد قال احد المهندسين : «السيارة والالومنيوم صنوان» . وقد كان من الطبيعي ان يغتنم صانعو السيارات ، ما يتصف بهِ الالومنيوم من المتانة مع خفة الوزن لاستعمالهِ في بنائها فصنعوا في ١٩٠٢ اجساماً للسيارات من الالومنيوم ، وكذلك اجزاء مختلفة من المحرّكات . ولكن المنافسة في اسعار المواد اللازمة لصناعة السيارات حالت دون التوسع في استعمالهِ الاّ ان الاقبال عليهِ في العهد الاخير قد زاد زيادة مطّردة مع ان استعماله محصور في الغالب في اذرع المحرّك ورؤوس الاسطوانات . وقد يسفر المستقبل عن الحاجة الى سيارة خفيفة توفيراً لجانبٍ من النفقة في تسييرها . ويظن ان الحاجة الى الاقتصاد قد تجعل استعمال محركات ديزل في السيارات امراً محتوماً . ولما كانت هذه المحركات اكبر حجماً من المحركات المستعملة الآن ، فالراجح ان يعمد الى صنعها من الالومنيوم واخلاطهِ توفيراً لجانب من الوزن

***

ويرى بعض المهندسين المعاريين ان الاتجاه في اميركا واوربا الى تشييد الصروح الشاهقة يقتضي استعمال جوائز وعوارض من اخلاط الالومنيوم في طبقات الصروح العليا . ثم ان الالومنيوم استعمل اولاً في صناعة ادوات المطبخ الاّ ان ارتقاء صناعة حفظ الاطعمة قد وجّه نظر اصحابها الى صنع علبها من هذا الفلزّ العجيب لرونقهِ وبراءتهِ من التفاعل مع الاطعمة المحفوظة وتوليد سمومٍ فيها

ومن عجيب ما يستعمل لهُ الالومنيوم في الجراحة لصنع اضلاعٍ ودواغص Knee-cap تحلّ محل ضلع مكسورةٍ اوداغصة مهشمة ، وفي الطباعة لصنع الحبر ، وفي الموسيقى لصنع الكمان

رياضيات المصريين

القدماء وأثرها في تقدم العلم والعمران

للاستاذ لويس كاربنسكي [1]

لقد سبق لي ان القيت عدة محاضرات في اميركا في تاريخ الرياضيات عند قدماء المصريين وانهُ لما يزيد في سروري ان تتاح لي الفرصة للبحث في هذا الموضوع امام جمهور مثقف كهذا الجمهور الكريم في مدينة القاهرة — مركز الثقافة المصرية الحديثة . واود في هذه المحاضرة ان اوجّه النظر الى شيئين جديرين بالاعتناء : اولهما ان جهود الانسان الفكرية وغير الفكرية تتجه كلها الى غاية واحدة هي المساهمة في خدمة المدنية ورفع مستواها : وثانيهما ان الاشتغال بالعلوم الرياضية والفضل في تقدمها كانا (ولا يزالان) مشاعاً لم ينحصرا في امة من الامم او شعب من الشعوب

يميل علماء التاريخ الى نفي وجود اية علاقة او اتصال بين جهود المصريين والبابليين في الرياضيات من جهة وبين نتاج اليونان العجيب في الهندسة وبحوث ارخميدس في الميكانيكا والايدرستاتيكا وبحوث ابولونيوس في المخروطات من جهة اخرى ، وها نحن اولاء نرى اثراً من هذا في مجلة (ايسيس Isis) التي تبحث في تاريخ العلم . فلقد طلعت علينا بمقال يُفهم منهُ ان معرفة المصريين للهندسة بسيطة جداً لم ترتفع عن الهندسة التي يُنتجها الاطفال او المتوحشون وان هذه المعرفة لم يتصل بها علماء اليونان ولم تنتقل اليهم . والذي اراه انهُ لا يضير هؤلاء ولا ينقص من قدر مجهوداتهم الفكرية اذا اخذوا عن غيرهم او اعتمدوا على ما تركه المصريون والبابليون من المآثر في ميدان العلوم ، وانا نرى لهم اعترافات صريحة واضحة بالاخذ والاعتماد في كتاباتهم ومؤلفاتهم ، اضف الى ذلك ان هذا الاخذ وذاك الاعتماد هما عاملان طبيعيان ولازمان لسير العمران وتقدم المدنية ورفع مستوى التفكير البشري

لقد دلت التحريات الحديثة والمكتشفات الجديدة على ان اقدم الآثار الرياضية التي نعرفها

---

(١) ألقى الاستاذ لويس كاربنسكي — استاذ الرياضيات في جامعة مشيغن — المحاضرة التالية في نادي العلم في الكلية الاميركية بالقاهرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣٣ . وقد خصنا يومها بنصها فتغلغل بين اوراقنا الى ان عثرنا عليه من اسابيع فتكرم بنقله الكاتب الرياضي المجيد قدري حافظ طوقان

قد وصلت الينا من بابل ومصر وانها انتقلت الى اليونان فاخذوها وزادوا عليها ، ومن هنا نشأ الاتصال بين جهود علماء بابل ومصر واليونان في الرياضيات . وارجو ان لا يتبادر الى الذهن ان هذه الآثار وما القته من ضوء جديد على معلوماتنا في هذه البحوث هي التي دفعتني الى القول بوجود اتصال او ارتباط بين رياضيات الامم ، وبان اليونان اعتمدوا في بحوثهم على مآثر من سبقهم. فلقد ابنت منذ عشرين سنة (اي في سنة ١٩١٥) ما دلت عليه هذه التحريات الحديثة التي سبق ذكرها فاشرت في ترجمتي لكتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة عن النسخة اللاتينية لروبرت شيستر الى ان المصريين عرفوا النظرية المعروفة باسم نظرية فيثاغورس والى انهم استعملوا هذه النظرية في انشاء المثلثات القائمة الزاوية . وقد قال بهذا ايضاً كانتور (العالم الشهير في تاريخ الرياضيات)

لقد اشرت الى كل هذا بينما الاستاذ اريك بيت T. Eric Peet يقول في كتابه عن مخطوطة (احمس) المنسوخة على ورق البردي ان ليس في هذه (المخطوطة) ما يدل على ان المصريين عرفوا نظرية فيثاغورس . وعلى كل حال فهناك شيئان يدلان على صحة ما ذهبنا اليه من معرفتهم لهذه النظرية : الاول وجود مثلثات قائمة الزاوية بالمعنى الهندسي الدقيق في اشكال الاهرامات : الثاني وجود المسألة الآتية في مخطوطة قديمة (منسوخة على ورق البردي من كاهون Kahun)

اقسم مربعاً مساحتهُ ١٠٠ إلاَّ مربعاً (وحدة قياس كان يستعملها المصريون القدماء) بحيث يكون ضلع احدها يساوي ¾ ضلع الآخر

وقد كان الحل المتبع على هذه الكيفية : $٦^2 + ٨^2 = ١٠^2$

او العلاقة $٣^2 + ٤^2 = ٥^2$

اي العلاقة التي تبين خواص المثلث القائم الزاوية الذي اضلاعه ٣ ، ٤ ، ٥ — وعلى هذا الاساس لا اعتقد ان احداً من المؤرخين يستطيع ان ينكر او ينفي معرفة المصريين لنظرية فيثاغورس . وليس المهم هنا معرفتهم لها ، بل سبقهم اليونان في معرفتها بزمن طويل . ولدينا الآن من الآثار ما يدل على ان البابليين عرفوا هذه النظرية في زمن يرجع عهده الى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد . وهم لم يعرفوها فقط بل استعملوها في حساب اطوال الاوتار في الدائرة . وقد ثبت ايضاً انهم تطرقوا الى المبادىء الاولية في علم المثلثات . ومن الغريب ان نجد في مقال مجلة ايسيس الذي نوهنا بهِ ان المصريين لم يعرفوا شيئاً عن المثلث المختلف الاضلاع . وهذا خلاف الواقع ، فقد دلت الحقائق التي لا سبيل الى دحضها على انهم عرفوا المثلثات واشباه المنحرف وانهُ كان لديهم معرفة بالاهرامات الناقصة وبقانون حجومها وبنصف الكرة وكيفية ايجاد مساحة سطحها [١]

---

(١) استعمل المصريون القاعدة التالية لايجاد مساحة الدائرة وقد وردت في مخطوطة (احمس) : لايجاد مساحة الدائرة اضرب سطح المركب المنشأ على نصف القطر في العدد $\left(\frac{١٦}{٩}\right)^2$ وهذه القاعدة تقرب من القاعدة التي نستعملها اليوم والفرق هو في قيمة ط ، فقد حسب (احمس) ط = ٣ر١٦٠٥ بينما هي ٣ر١٤١٦ (المترجم)

ومسائل اخرى دقيقة تتعلق بالمستطيلات وخواصها. وها هي ذي اهراماتهم وهيا كلها ومسلاتها وآثار علمائها الرياضية — دلائل على صحة ما قلنا وذكرناه

انهُ لمن الاجحاف حقاً ان يُنظر الى جهود المصريين في الرياضيات كجهود امة ابتدائية غير متحضرة ليس فيها ما يدل على تقدم فكري او ارتقاء عقلي على حين يقوم امامنا شواهد كثيرة تنطق بفضلهم ونبوغهم. فهذه اهراماتهم ومبانيهم وما فيها من هندسة بالغة، وهذه مهارتهم في صناعة الحلي وفي ابتكار الالعاب العقلية وبراعتهم في صناعة النحت واثر ذلك في صناعة اليونان. وهذه انظمتهم في النقد وفي الاوزان والقياسات --- كل هـذه تؤيد القول بأن المصريين قد ضربوا بسهم وافر في الحضارة وقطعوا شوطاً بعيداً في التقدم والرقي، وهناك آثار اخرى غير هذه في مصر وبابل تدل على ارتقاء الفكر وسعة العلم عند سكان هذه البلاد وان في هذا كله ما يدحض الرأي القائل بأن ليس في مآثرهم ما يدل على تقدم او ارتقاء فضلاً عن ان الاعتبارات النفسية التي تسري على الامم الابتدائية لا تسري على مصر القديمة من حيث التفكير وتقدم اسباب العمران. لقد وصل المصريون حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد الى درجة عالية في الرياضيات من الناحية التحليلية وكان الفضل في وصولهم الى هذه الدرجة يرجع الى كهنتهم الذين كانوا يجدون في دراسة الرياضيات والبحث في موضوعاتها لذةً ومتعة. ويزعم البعض ان اهتمام المصريين بالرياضيات لم يقتصر الاَّ على الناحية العملية وانهم لم يبلغوا مبلغاً عظيماً في النظري منها. وقد اشار هيرودتس الى ذلك فقال ان الحاجة هي التي دعت المصريين الى استنباط طرق لمعرفة مساحات الاراضي (١) التي كان يغمرها النيل بفيضانه السنوي وان ذلك قادهم الى الاعتناء بالنواحي العملية التي تتعلق بالهندسة. ولكن من دراسة بعض الآثار المصرية التي وصلت الينا عن طريق المخطوطات الرياضية تبين خطأ هذا الزعم، وهي توضح بجلاء ان الاهتمام لم يقتصر على الناحية العملية فحسب بل تعداه الى النظري منها. فلقد دلت هذه الآثار على ان المصريين استعملوا معادلات الدرجة الاولى ذات المجهول الواحد (٢). وقد استعملوا في حلها طرقاً ذات خطوات متسلسلة صحيحة. ونجد في هذه الآثار مسائل هندسية تؤدي الى معادلات آنية من الدرجة الثانية كما نجد فيها انواعاً من الأعمال الرياضية تدل على انهم كانوا يعرفون المتواليات العددية والهندسية وكيفية ايجاد مجموع عدة حدود من كل منها وايجاد الوسط العددي بين كميتين معلومتين وفيها ايضاً قوانين لايجاد مساحات وحجوم بعض الاجسام الهندسية. وعلى العموم فان هذه البحوث

(١) اشتهر المصريون في علم المساحة العملي فتمكنوا من مد الخطوط المستقيمة الى مسافات شاسعة وتمكنوا ايضاً من تعيين السطوح المستوية تعييناً فيه كل الدقة ويدل على مهارة بلغت الذروة، وذلك لمعرفة الارتفاع والانحدار. ويقول سمث في كتابه تاريخ الرياضيات في ص ٤٣ من الجزء الاول ان مقدار الخطأ في تعيين جوانب الهرم الكبير نحو ٦٣ و. من البوصة وان الخطأ في تعيين الزوايا لا يزيد على ١٢ ثانية او $\frac{١}{٢٧٠٠٠}$ من الزاوية القائمة —(٢) كان المصريون يرمزون الى المجهول في المعادلة برمز يدل على كلمة كوم Hcap] المترجم]

تدل على تقدم مثير للدهش والاعجاب بالرياضيات عند المصريين وعلى ارتقاء تفكيرهم الرياضي ومقدرتهم على التحليل . ومما لا شكَّ فيهِ ان المصريين قطعوا شوطاً بعيداً في الرياضيات واستطاعوا بعد ان ارتقت وتقدمت ان يستعملوها في النواحي العملية فبلغوا في فن البناء والعمارة درجة لم يبلغها غيرهم. ونظرة إلى اهراماتهم ومبانيهم وقبورهم ومسلاتهم تؤيد رأينا وتشهد على صدق ما قلناه . وقد استعملوا الحساب في حلول مسائل حيوية تتعلق بمعيشتهم الداخلية كاطعام الطيور وعمل الجعة والخبز وتكاليف صنع الحلي وامور اخرى تهمهم اقتصاديًّا ، وقد تحاشى علماء اليونان هذه الناحية — ناحية استعمال الرياضيات في الشؤون العملية الى هذه الدرجة — لأنهم كانوا يرون في الرياضيات قداسة تحول دون استعمالها في امور دنيوية مادية

واشتهر المصريون بطرقهم المشوقة في تقريب الرياضيات من اذهان الاطفال وذلك بربطها بأشياء محسوسة وبألعاب مختلفة من شأنها ان تحبب الأطفال اليها (في الرياضيات) وتزيد في شوقهم ورغبتهم وقد اثنى افلاطون على هذه الطرق وامتدح تلك الاساليب واثرها في تسهيل تعليم العلوم العقلية للاطفال ، وانا في هذا الوقت اوصي بها وباستعمالها وأهيب بالمعلمين ان يحذو حذو المصريين في هذه الناحية فيستعملوا هذه الطرق ويطبقوها في تدريس الحساب الابتدائي حتى يجعلوا منهُ درساً شيقاً فيهِ لذة

اسمحوا لي ان اقول شيئاً بخصوص الرياضيات واثرها في تقدم العلم والحضارة . ان العلوم الرياضية هي نتاج أناس مفكرين وهي ثمرة من ثمار الاعمال الذهنية لا الاعمال الجسدية وقد نشأت ونمت حينما حاول الانسان ان يتفهم العدد والشكل ، الزمان والمكان ويقف على العلاقات الموجودة بين هذه كلها . ولم يتقدم علم الرياضة العملي بل ولم يستطع الانسان ان يستفيد منهُ الاَّ على اساس العلم النظري . لقد عرف الاقدمون (واعني اليونان) شيئاً عن قطوع المخروطات على انواعها من شكل اهليلجي الى قطع مكافىء الى قطع زائد ودرسوا بعض خواصها وبحثوا في خصائصها . ولم يكن الدافع لهذا الدرس والبحث سوى رغبتهم في معرفة منحنيات اخرى (غير الدائرة) التي تتكوّن من تقاطع المخروط الدائرة بمستوٍ وكانت هذه القطوع او المنحنيات موضع اهتمام علماء اليونان امثال مينا كيموس Menaechmus واريستوس Aristaeus واقليدس وارخميدس وابولونيوس . ولهذا الاخير فضل كبير على تقدمها واتمام بحوثها . ثم اتى كبلر Kepler واخذ فكرة الشكل الاهليلجي وخواصه واثبت ان مدار الارض اهليلجي الشكل وان الشمس في احد بؤرتي هذا الشكل . لقد اخذ كبلر فكرة الشكل الاهليلجي وتعرف عليهِ بوساطة علماء العرب الرياضيين الذين أخذوا ما تركه من سبقهم من الامم في العلوم والفنون وبعثوا مآثر اليونان . لقد أخذوا ماخلفتهُ الهند من جبر وحساب ومثلثات وأضافوه الى ما خلّفه علماء اليونان من هندسة وميكانيكيات وفلك . فالى العرب يرجع الفضل في بعث مآثر اليونان وتعريف اوربا عليها . وعلى كل حال فان المقصد من دراسة الرياضيات سواء أكان المشتغلون

فيها علماء مصر أو بابل أو اليونان أو الهند أو العرب أو أوربا — أقول ان المقصد نبيل فيه سمو اذ لم تكن فكرة المنافع والاستغلال المادي هي العامل الرئيسي والاول من دراستها والتعمق فيها

لقد دلت البحوث الاخيرة التي قام بها صديقي الدكتور اوتو نوجيبور Dr. Otto Neugebauer of Gottingen في تاريخ الرياضيات على ان هناك اكتشافات وموضوعات جديدة لم تكن منسوبة إلى البابليين ولم يعرف انها من نتاجهم ثم ثبت انها لهم وانها من مآثرهم ان هذه المكتشفات وتلك الموضوعات ما يجعلنا نشير بضرورة اعادة دراسة تاريخ تقدم الرياضيات عند اليونان. لقد عرف البابليون شيئاً من معادلات الدرجة الثانية وطرق حلها والذي اراه ان هذا قد يدل على ان هناك حقائق اخرى مهمة تتعلق بالحضارة البابلية من حيث مآثرها في العلوم الرياضية غفل عنها الباحثون وسها عنها المنقبون. ولعلَّ اقدم اثر رياضي وصل الينا هو من بابل عن طريق لوحات خزفية(١) محفوظة في باريس يُستدل منها على ان البابليين عرفوا المعادلة التكعيبية الآتية: $س^٣ + س^٢ = ٢٥٢$ ويقول الدكتور نوكيبور ان في هذه اللوحات ما يفهم منهُ ان قوانين ايجاد مجموع مربعات الاعداد ومكعباتها كانت معروفة لدى علماء بابل الامر الذي نسب الى امم اتت من بعدهم. هذا عدا معرفتهم لنظرية فيثاغورس واستعمالها في علم المثلثات التي تتعلق بحساب اطوال الاوتار في الدائرة ونجد ان بطلميوس ــ احد مشاهير الجغرافيين والرياضيين القدماء ــ اشار الى تقدم الفلك عند البابليين فاتى على ذكر عالمين من علمائهم اشتهرا ببحوثهما فيه. والآن ارغب في اعطاء فكرة عن بعض المسائل التي استعملها البابليون وقد ادت حلولها الى معادلات من الدرجة الثانية من هذه المسائل:

ما طول كل ضلع من اضلاع مستطيل اذا كان مجموع مساحته والفرق بين ضلعيه يساوي ١٨٣، ومجموع الضلعين يساوي ٢٧ ؟؟ والوضع الجبري لهذه المسألة هو:

$$س ص + س - ص = ١٨٣$$

$$س + ص = ٢٧$$

ومن هاتين المعادلتين ينتج ان: $٢٩ س - س^٢ = ٢١٠$

او: $س^٢ + ٢١٠ = ٢٩ س$

اي ان $س = ١٤ ، ١٥$

$، ص = ١٣ ، ١٢$ وقد ذكر علماء بابل هذه الحلول

ونجد ايضاً في تلك الالواح مسائل اخرى تتطلب ايجاد وابعاد المستطيل اذا عرفت بعض علاقات بين اضلاعه. ففي بعض هذه المسائل يطلب ايجاد اطوال اضلاع مستطيلات اذا علم مجموع $\frac{١}{٣}$ احد الاضلاع و $\frac{١}{٤}$ الآخر وعلم ايضاً اشياء اخرى تتعلق بهذه الاضلاع

(١) عثر على هذه الالواح في خرائب بابل وكانت تصنع من الخزف وتطبخ في النار. اما حجمها فقد لا يزيد عن حجم راحة اليد « المترجم »

ان هذه الاعمال الرياضية بالاضافة الى الاعمال التي وضعها قدماء المصريين فيما يتعلق بتقسيم مربع الى مربعين بحيث تكون النسبة بين ضلعيهما تساوي كمية معلومة ، ثم المسائل والاعمال التي في هندسة اقليدس — كل هذه تكوّن سلسلة متصلة الحلقات في تقدم الرياضيات

وعلى ذكر هندسة اقليدس نقول ان فيها اعمالاً تنص على انهُ يمكن ايجاد طول كل ضلع من اضلاع مستطيل اذا عرفت مساحته ومجموع ضلعيه وتوضع هذه المسألة جبريّاً على الصورة الآتية :

$$س\ ص = ب^{٢}$$

$$س + ص = حـ$$

وكذلك يمكنك معرفة اطوال اضلاع مستطيل اذا عرفت مساحته وفرق ضلعيه :

$$س\ ص = ب^{٢}$$

$$س - ص = هـ$$

وهنا قد يتبادر الى الذهن السؤال الآتي : لماذا لم يستعمل اقليدس الاعمال الرياضية التي استعملها البابليون ؟ والجواب عن هذا ان علماء اليونان لم يستسيغوا جمع المساحات الى الاطوال على الرغم من مخالفة هيرو وديوفنطس لهذه القاعدة فقد استعملا طريقة جمع المساحات الى الاطوال ، فنجد ان هيرو قد جمع مساحة الدائرة الى محيطها ومن هنا يظهر الاتصال بين حضارة بابل وحضارة اليونان واضحاً جليّاً

وعلى كل حال فقد يكون من المفيد ان نشير الى ان بحوث الجبر نشأت عن اصل هندسي وهذا يتجلى لنا في الاعمال الرياضية التي وضعها العلماء في بابل ومصر واليونان ، وهذه كلها تمهد لنا الطرق التي تمكننا من عرض الموضوعات الرياضية والانتفاع من هذا العرض في مدارسنا الثانوية

ان الرياضيات الحديثة تبدأ بهندسة ديكارت التحليلية التي ظهرت عام ١٦٣٧ وقد تبعتها فروع الرياضيات بسرعة فنشأ علم التكامل والتفاضل وما فيه من تطبيقات على مئات من المسائل العملية التي كان لها اثر كبير في رفع مستوى المدنية . ويرجع الاساس في هذا كله الى المبادىء والاعمال الرياضية التي وضعها علماء اليونان والى الطرق المبتكرة التي اتبعها علماء الهند . وقد اخذ العرب هذه المبادىء وتلك الاعمال والطرق ودرسوها واصلحوا بعضها ثم زادوا عليها زيادات هامة تدل على نضج في افكارهم وخصب في عقولهم . وبعد ذلك اصبح التراث العربي حافزاً لعلماء ايطاليا وفرنسا واسبانيا ثم لبقية بلاد اوربا الى دراسة الرياضيات والاهتمام بها . واخيراً أتى فيتا Vieta ووضع مبدأ استعمال الرموز في الجبر وقد وجد فيه ديكارت ما ساعده على التقدم ببحوثه في الهندسة خطوات واسعة فاصلة مهدت السبيل الى تقدم العلوم الرياضية وارتقائها تقدماً وارتقاء نشأ عنهما علم الطبيعة الحديث وقامت عليهما مدنيتنا الحالية

بين الوحي والجنون

شخصية مسز كران المزدوجة

لجاك اندراوس

« تلك هي اماثر الوحي بل قل ذلك هو الالهام بعينه والاّ فكيف يتمكّن شخص عادي لم تتعدَّ درجة تحصيله المدرسة الابتدائية من اخراج قطع فنية خالدة . . . . »

« تلك هي دلائل الجنون او قل ذلك هو الهذيان بعينه ، بل كيف يمكن ان يستثنى من قائمة المجانين شخص يتكلم بما لا يفهم وينطق وهو غائب الحس والشعور . . . . . »

ولـكن لا . مهلاً ورويداً فكلا الرأيين متطرف وفي كلاهما مغالاة وبين هذين الطرفين — بين الوحي والجنون — سنلتمس الحل الملائم لشخصية مسز كران العجيبة . . . .

***

قد تتنازع العواطف احياناً في شخص ما وتثور مزبدة حانقة بعضها على بعض فاذا تعذّر على ذلك الشخص التوفيق بين تلك العواطف الجائشة بالتي هي احسن ، كان لا بدَّ لهُ من ان يصاب باضطرابات داخلية نفسانية شديدة تفقده توازنه العقلي ، وعندها لا بدَّ من احد امرين : إمَّا أن تُكبت تلك العواطف الجامحة وتظل قوة خفية فعالة في تسيير دفة حياته العاطفية . وإمَّا ان تصبح كل طائفة من هذه العواطف المتخاصمة محوراً تدور حولهُ شخصية جديدة منفصلة نوعاً ما عن الشخصية الاساسية . وهذا ما يُسميه علماء السيكولوجيا بالشخصية المزدوجة — مدار بحثنا الآن . . . .

لو وجّهنا أشعة الفكر الثاقب الى شاشة العقل الواعي وتفحصنا ما يحدث هناك بين الآونة والاخرى لرأينا أنَّ مجرى العقل الطبيعي يشبه التغير الدائم في الصور السينماتوغرافية ، كما ان التغير الفجائي الناتج عن قطع الفلم واستبداله بآخر يشبه تماماً ما يحدث في مجرى الشخصية المزدوجة من انتقال سريع بين الشخصيتين ، الاساسية والمحدثة . فاذا فحصنا ما يجري في العقل الواعي عند ما يغرق الفرد في التفكير في عملٍ حسابي مثلاً ، رأينا ان العقل الواعي عندها يتألف من

مجموعة الطرق العقلية المختلفة التي تؤدي الى حلّ تلك المسألة . ولكنّ تلك الصورة تمر بعد برهة وجيزة اذ ينسحب العمل الحسابي من ميدان العقل الواعي ليفسح مجالاً للتفكير مثلاً في الحفلة التي ستقام في اليوم المقبل — ولذا نرى أنّ العمل الحسابي والحفلة على الرغم مما هما عليه من التفاوت وعدم القرابة قد انشئت بينهما صلة مكّنت العقل الواعي من عبور تلك الهوة السحيقة بين الاثنين كيما يتمم العقل مجراه الطبيعي الدائم التغير ، والمتماسك الاجزاء

ولكنّ هذا الوصف قد لا ينطبق دائماً على مجرى العقل الطبيعي كما أنهُ لا يصدق أبداً على ذوي الشخصيات المزدوجة حيث نجد المستر هيد Hyde مثلاً والدكتور جاكيل Jekyll يتنازعان السيادة والسيطرة على مقدرات الشخصية . ولكن يجب أن لا ننسى قط أنّ هذه الانقسامات مهما ظهرت غريبة ومعقدة لأول وهلة فهي ليست سوى نوع مجسم لما يحدث في شخصية كل فرد عادي . لنفرض مثلاً أنك تعزف على البيانو قطعة موسيقية . فان كنت بارعاً في العزف يمكنك وانت تعزف أن تلاحق سلسلة من الافكار المستقلة — ففي حالة كهذه لا نرى في العقل مجرى افكار متتابع بل قسمين مستقلين الواحد عن الآخر ، وهذا بلا ريب نوع من الشخصية المزدوجة يختلف عن ذلك بكونه انقساماً موقتاً وجزئيًّا تحت ادارة الشخص ومشيئته

من مدة وجيزة ظهرت على مسرح الوجود شخصية غريبة الأطوار عجيبة المزاج أقلّ ما يقال فيها انها من (فلتات) الطبيعة . تلك هي مسز كران (١) Mrs. Curran صاحبة القصة المحزنة Sorry Tale وتلكا Telka وغيرها من القطع الادبية الخالدة والتي قالت عن أحد مؤلفاتها مجلة الصن النيويوركية The New York Sun « هي قصة وايم الحق لو نسبت الى جورج اليوت لما خجلت قط في انتسابها اليها » . كما أن مجلة التيمز النيويوركية The New York Times قد كتبت عن القصة المحزنة ما يلي : « لو دققت في هــذه القصة مليًّا وتفحصتها جيداً لا بدَّ لك عند الفراغ منها من الاقرار بأن كاتبها استاذ متضلع من فنه » ثم إسمع ما يقولهُ عن الرواية المذكورة المستر ريدي Reedy محرر الميرور Mirror والنقادة المفكر : — « في الحقيقة ان هذه القصة هي اعظم قطعة أدبية قرأتها — ومن دون تردد أقر بأنها من عجائب العالم الادبي » . ومن الغريب أن تحصيل مسز كران لم يتعد المدرسة الابتدائية وليس لها اي اختبار بالكتابة كما ان مطالعتها ضيقة النطاق جدًّا . فهي لم تفكر قط في ان تكون مؤلفة او كاتبة ولكن مطمحها الوحيد كان اجادة الغناء . فلقد كان صوتها رخيماً فاعتنت كل الاعتناء بتهذيبه وتدريبه الى ان انبثقت شخصيتها الثانية التي

(١) لقد اعتمد واضع هذا المقال على مباحث برنارد هارت Bernard Hart وتشارلز كوري Charles Cory في هذه الناحية ومن أراد زيادة الايضاح عن حياة مسز كران فليراجع Readings in General Psychology-Robinson & Robinson او Psychological Review العدد السادس والعشرين لسنة ١٩١٩

دعتها «بايشنس وورث» Patience Worth (P. W.) . وقد كان ولا يزال لظهور هذه الشخصية الغريبة سرٌّ مجهول لا يدرك كنهه احد حتى ولا مسز كران نفسها ولكنه من الخطأ الفادح أن نستنتج أن مسز كران ليست سوى امرأة حمقاء بلهاء فهي على الضد من ذلك على جانب كبير من الذكاء والفطنة . على انك لو قابلتها وحادثتها لما وجدتَ نفسك في حضرة ذلك الفيلسوف المفكر والعبقري الفنان الذي كتب « القصة المحزنة » وغيرها من الآثار الادبية الخالدة

***

تظهر مسز كران قبل الكتابة بمظهر لا يدل ابداً على ما يتمخض فيها من فن أدبي رائع وبغتة تبتدىء بالكتابة وتسير فيها بسرعة فائقة جدًّا حتى انها كتبت مرة وهي في أصعب مواقفها القصصية ما ينيف عن خمسة آلاف كلمة في سهرة واحدة . ثم ان في قالبها الادبي صفة فنية خاصة فهي تعكس حياة الامم الغابرة واخلاقهم بدقة ولباقة تدهش القارىء فيخيل اليهِ أن المؤلف واسع الاطلاع متضلع من التاريخ القديم مع ان درجة تحصيلها كما قلت سابقاً لم تتعدَّ المدرسة الابتدائية. فملحمتها الكبرى تلكا Telka التي لم تطبع لحد الآن ترتكز على وصف الحياة الانكليزية القديمة في أوائل القرن الثامن عشر ولكنها كتبت بلغة لا تستطيع تمييزها عن لغة ذلك العصر مع انهُ قد بطل استعمالها اليوم . فلا يمكننا أمام هذه الحقيقة إلا أن ندهش لكيفية كتابة ملحمة شعرية في القرن العشرين بلغة مهجورة كهذه ، وبقلم كاتب معاصر . كما أننا لا بد لنا بعد درسنا هذه الشخصية الغريبة من ان نقف مكتوفي الايدي امام مقدرتها الخارقة فهي مثلاً تستطيع عند ما يطلب منها أن تستعيد ايَّ مقطع من قصصها بعد كتابتهِ بزمن طويل . او أنها بعد أن تنتهي من قصة ما تبتدىء رأساً في كتابة قصة أخرى قد تنتقل بها الوف السنين وملايين الاميال

وهكذا نجد في P. W. الشخصية الجديدة تفوقاً على الشخصية الاساسية وهذا يعني ان الاعتقاد السائد عند البعض في ان العقل الباطن Subconscious مكمن الافكار الوضيعة والمنحطة يجب ان يعدَّل وأن يفسر على اساس الانقسام العقلي . فان لم يكن الانقسام متساوياً وكان الشطر الاكبر بجانب الشخصية الجديدة كما حدث لمسز كران أفضى ذلك الى خلق شخصية ثانية تمتاز كثيراً عن الشخصية الاساسية لا بل قد تصل الى درجة العبقرية والعكس بالعكس

نعم . . . إننا نقر بعبقرية P. W. ونبوغها ونرى أن هذه الحادثة توضح جليًّا ما يقدر ان يصل اليه العقل اذا ما تحرر من قيود الحياة الاجتماعية . كما اننا لا ننكر أن هذا الانقسام في شخصية مسز كران قد كان بركة وخيراً إذ أنه خلق فيها شخصية جديدة مستقلة كلَّ الاستقلال

عن الشخصية الاساسية ولذا فقد اصبحت تلك الشخصية الثانية في عزلة تامة عما يحدث في محيطها . او بكلمة اخرى — قد ادّى انقسام الشخصية الى التخصص ، فقد اسند الى مسز كران كل ما يؤول الى تحقيق رغبات الجسم ومقتضيات الحياة الاجتماعية بينما تفرغت P. W بكليتها بعد ان تحررت من عقال الحس للاعمال العقلية فقط فهي تعيش في طمأنينة وهناءة وتتغذى من عالم التصور والخيال لا تصل اليها ضوضاء الحياة ولا تؤثر فيها مصائب الدهر — او قل هي جدول هادىء يترقرق من اعالي ذروة جبل العبقرية سائراً في مجرى معين فتتوحد القوة حتى اذا ما وصل الى اسفل ادار بقوته الجبارة محرك العقل وهذا بدوره يحوّل تلك القوى الكامنة الى آراء صائبة وأفكار عمرانية جليلة وقطع ادبية خالدة . . .

ولكنّ على العقل الواعي ان يقسم انتباهه بين عالم الخيال وعالم الحس او بين الشخصية القديمة والشخصية المحدثة ، وانه لمن الصعب جدّاً في بعض الاحايين فصل عالم الحس عن عالم الخيال ولذا نجد ان اللحظات التفكيرية التي ترتفع فيها P. W. الى سماء الخلود قصيرة المدى اذا ما قيست بشخصيتها الاصلية مصحوبة بقوى هائلة لتمنع جنود الحس من اقتحام معالم الخيال . . .وعلى اجنحة ذلك الخيال الخصب تستطيع P. W. ان تنتقل بافكارها فوق قيود الزمان والمكان . . . .

ولا بدّ للقارىء اللبيب عند الانتهاء من قراءة هذه الكلمة الوجيزة من ان يتساءل ، كيف تستطيع امرأة كهذه ان تقدم على كتابة آثار ادبية كتلك ؟ أكان ذلك الهاماً ، أم ان ذلك ضرب من الجنون ؟؟

***

إن علماء السيكولوجيا لم يتمكنوا حتى الآن من حلّ هذه المعضلة بحسب الطرق العلمية البحتة ولذا علينا ان نؤجل الحكم الى ان تدرس تلك الشخصية العجيبة على ضوء التمحيص والاختبار العلميين . وانهُ والحق يقال ليصعب جدّاً على المتعمق في العلوم الطبيعية بعد ان أُطبع بطابع النزعة العلمية القائلة بأن لكل نتيجة سبباً والتي تدين بدين التجارب المبنية على اسس علمية ثابتة ، أقول انهُ لمن الصعب عليه ان يعتقد بان للالهام دُخلاً في المسألة — كما انهُ ليستبعد كثيراً من ان يكون ذلك ضرباً من الجنون عند ما نرى بان الشخصيتين متزنتان لاخلل فيهما ولا اعوجاج

واما من أين اتت هذه المعلومات الشائقة وكيف تجمعت ولماذا اختارت تلك الطريق دون الطرق الاخرى للظهور ، كل هذه اسئلة جديرة بالنظر وهي مما لا يستطيع علماء اليوم الاجابة عنهُ فها نحن بانتظار حلٍّ علمي لهذه الشخصية العجيبة نحن بانتظاره

« حلقة السيكولوجيا — الجامعة الاميركية — بيروت »

نفسية دكتاتور

من احاديث اميل لدفيج مع

السنيور موسوليني

قال لدفيج : ... « والجوع . . أهذبك الجوع ؟ » فنظر إليّ موسوليني وعيناه السوداوان تلمعان وأطبق فكيه القويين كأنهُ يستعيد ذكريات حداثته ، وكأنهُ باستعادته إياها يعيشها ثانية وقال بصوت مختنق : « الجوع مهذب عظيم ، يكاد يساوي السجن . كانت أمي تجني نحو جنيهين من عملها معلمة في احدى المدارس . وكان ابي يجني مايدرهُ عليه عمله كحداد وكنا نعيش في غرفتين ، وكنا في النادر نأكل اللحم ، وكانت لنا آمال ومنازعات ومناقشات عنيفة، فلما رمي والدي في غياهب السجون لمساعيه الاشتراكية نفد صبري. واحببت أن أخرج الى العالم لأمارس الحياة وأتمرس بها. فنبذت عملي كمعلم ، وتركت والدي في السجن لاني كنت عاجزاً عن إخراجه منهُ وذهبت الى سويسرا لا أملك فلساً لأعمل فيها كعامل بسيط. وكانت آلام والديّ لا تغيب عني — ذلك اني تصرفت في المدرسة تصرفاً لا يسرهما، ونشأت ثوريّ النزعة . فلم يبق أمامي الاَّ أن أصير اشتراكيًّا متطرفاً، بل بالحري شيوعيًّا. وكنت احمل معي مدالية عليها صورة ماركس حاسباً انها رقية»

قال لدفيج — وماذا تقول اليوم اذا وقع بصرك على تلك الصورة

— أقول ان صاحبها كان ذا بصر نقاد نفاذ فيهِ شرارة من النبوة . وكنت في ذلك الوقت في سويسرا ، اعمل في معمل شوكولاتا او صبيًّا لبنَّاء احمل لهُ الطوب الى الدور الثاني من البناء ١٢٠ مرة في اليوم . ومع ذلك كنت أحسُّ احساساً مبهماً ان كل هذا انما هو دور مرانة يعدني للمستقبل

قال لدفيج — حتى في السجن

— وبوجه خاص في السجن . هناك يتعلم الانسان الاناة والصبر. على متن السفينة وفي السجن لا بد للمسافر وللسجين من الصبر . وقد سجنت احدى عشرة مرة في اربعة بلدان . سجنت في برن (عاصمة سويسرا) ولوزان وجنيف (وهما من مدن سويسرا) وتريست (مدينة في النمسا حتى نهاية الحرب الكبرى) وفي بعضها سجنت غير مرة واحدة وكنت في كل مرة اتمتع بقسط من الراحة ولو كنت حرًّا لما استطعت ذلك لان كسب العيش كان يضطرني الى الكدح . ولذلك فأنا لست احمل ضغينة ضد هذه المدن

قال لدفج : وعندئذٍ انتقلنا الى البحث في الصحافة فسألتهُ هل تعلمت كثيراً من ممارسة الصحافة ؟

قال موسوليني : « تعلمت كثيراً » — قالها وفي عينيه بريق ، وفي صوته حرارة وحياة كانهُ يتذكر أيام هناء وغبطة — ان الصحيفة في نظري كانت السلاح والعلمَ . وقد دعوتها مرة ولدي الأحب . فقال لدفج — واذا كنت تحسب الصحافة مدرسة طيبة فلماذا تلجمها ؟

قال موسوليني : ان الاحوال اليوم غير ما كانت عليهِ قبل الحرب . ان الصحف اليوم تخدم المصالح ، دون الافكار — او على الاقل أكثرها يفعل ذلك . فاذا كانت كذلك فكيف يمكن أن تكون ميدان مرانة في أدب النفس للذين ينشئونها

قال لدفج — واذا كنت أنت وقراؤك أصبتم فائدة كبيرة من كتابة صحيفتك ومطالعتها ، أفلا تظن ان المراقبة تقضي على البقية الباقية من الفائدة التي تجنى من النقد النزيه

قال موسوليني — هذا وهم : وبحث على مكتبهِ فأخذ جريدة وقال هذه جريدة نقدت بالامس نقداً لاذعاً أحد القوانين التي استصدرتها ، من قال ان النقد ممنوع ؟ ثم ان حرية الصحافة ستار لكبار اصحاب الصناعة والمتمولين والبنوك الذين يدفعون للصحف مالاً فتكتب ما يريدونهُ هم

وعدنا الى التحدث عن نبوليون . فقلت على الرغم من حديثنا السابق لم أفهم منك ، هل تعتبر نبوليون مثالاً يحتذى ، أو تحذيراً يوجه الى الناس . فجلس مستغرقاً في كرسيه ، وعلت وجههُ كدرة وتكلم بصوت خافت فقال انني احسبه تحذيراً يوجه الى الناس . انني لم اتخذ نبوليون قط مثالاً احتذيه . ان عمله يختلف كل الاختلاف عن عملي . هو ختم ثورة ، وأنا بدأت ثورة

قال لدفج — وما أتى عليهِ . ان الاساتذة يقولون ان انكلترا سبب سقوطه

فقال موسوليني — هذا من لغو الكلام . سبب سقوطه التناقض في خلقه . وهو سبب سقوطهم جميعاً . التاج . تأسيس أسرة ملكية . لما بدأت الامبراطورية النابوليونية بدأ الانحلال

لدفج — هل في التاريخ رجل اغتصب السيادة وكان محبوباً ؟

موسوليني — لعلَّ يوليوس قيصر هو ذلك الرجل . ان اغتيال قيصر كان نكبة على الانسانية فهو الرجل الفرد في التاريخ الذي جمع في نفسهِ ارادة الجندي وعبقرية الحكيم . كان في قرارة نفسهِ فيلسوفاً ذا نظر شامل . لا ريب في انهُ كان طموحاً تستهويه الشهرة ، ولكن طموحه لم يفتح هوَّة بينهُ وبين الانسانية

لدفج — اذن من المحتمل أن يكون الدكتاتور محبوباً . فأجابهُ موسوليني قد يكون ذلك اذا كانت الجماهير ترهبه في الوقت عينه . الجمهور يحب الاقوياء . الجمهور امرأة . . . . !

لدفج — كيف تفرق بين الثورة التي لها مسوّغ والثورة التي لا مسوغ لها

موسوليني — كل رجل يجب أن يدرك المغزى الادبي للحركة القائم بها ويفرق بين الاثنين

لدفج — ولو بحثت في حركتك الثورية في شوارع ميلان سنة ١٩١٣ أتذكر ما كنت فعلت

موسوليني — حينئذٍ ؟ الجمهورية ! لدفج — فكيف توفق بين أفكارك القديمة — النزعة الى الجمهورية — ونزعتك الوطنية الآن ؟ موسوليني — ألا يستطيع الجمهوري أن يكون شديد الوطنية كالملكي ، أو أشد وطنية ، ان لنا على ذلك أمثلة كثيرة

لدفج — في الثورة الالمانية كان موظفو الحكومة من النظام القديم أقوى شكيمة وأرجح رأياً من زعماء النظام الجديد ، فخدعوهم . ومع ذلك كيف يبدأ الانسان في انشاء الحكومة . أيبدؤها كما يشرع في نقش تمثال . او كما يبني بيتاً في حرجة فيقطع الاشجار أولاً ليفسح المجال لبناء البيت ؟

موسوليني — تشبيه ظريف — وهنا بدت الحماسة في عينيه وعضلات وجهه — معظم القائمين بالثورات يبدأون بحكومة ثورية ونظام ثوري مائة في المائة . ثم تفتر حماستهم ويضعف نشاطهم فيتقهقرون رويداً رويداً في بعض المسائل الى ان تختلط آراؤهم ومذاهبهم فيها بآراء رجال العهد القديم ومذاهبهم . فقال لدفج — وهذا ما تمَّ في المانيا الجمهورية

موسوليني — أما نحن فعكسنا الامر . بدأت بحكومة لها برنامج نصف ثوري . واعضاء نصفهم من رجالي ونصفهم من رجال العهد القديم . ولماذا فعلت ذلك ؟ لان التاريخ علمني ان شجاعة معظم الثوار تنفد في المعركة الاولى . لذلك بدأت بحكومة ائتلافية وبعد ستة أشهر تخليت فيها عن ممثلي الحزب الكاثوليكي . اما في البلدان الاخرى فترى الحكومات الجديدة ، التي تتسلم المقاليد بعد انقلاب ما ، تبدأ صارمة ثم تلين . اما نحن فاشتدت صرامتنا مع مضي الزمن علينا ، فلم نطلب من الاساتذة ان يقسموا باعترافهم بالفاشيستية الاَّ من عهد قريب . اما الروسيون فكان في إمكانهم ان يتبعوا خطة اخرى . وجدوا الميدان خالياً فنظفوه من كل ما فيه — او انهم قطعوا اشجار الحرجة قبلما بدأوا في بناءِ البيت على قولك

لدفج — هل اتيت الى هذا القصر وفي نيتك ان تجلس وراء هذا المكتب عشر سنوات او اكثر ؟ فقال موسوليني — اتيت إلى هنا لأبقى ما استطعت الى البقاء سبيلاً

وقال موسوليني في ذات يوم : الحرية ! وما زلت تعود الى موضوع الحرية أُعيد عليك أن الفرد لا تعوزه الحرية في دولتنا . فهو أشد حرية من رجل منعزل لان الدولة تحميه

لدفج — كتبت في سنة ١٩١٩ كلمات بليغة عن الاحتفاظ بمآثر الحضارة الغربية — وجعلت في المقدمة حرية الفرد ، وهي الروح التي لا تعيش بالخبز وحده

موسوليني — لقد حاولنا ان نحقق من هذا كل ما نستطيع تحقيقه

لدفج — وثمة طريقة تمكنك من اقناع العالم بمحاولتك هذه ، اذا كنت انت ، وقد حكمت أربع سنوات في وجه كل معارضة ومثلبة توجه اليك ، تعمد الآن ، وقد مضت ثماني سنوات أخرى ، الى اطلاق حرية الصحافة والرأي فأجاب موسوليني — أستطيع أن أفعل ذلك . ولكنهُ لا يجدي نفعاً ، انهُ لا يحسن الحال . ان النزاع اليوم يجب ان يوجه الى العوامل المادية في حياتنا

الاسمدة الكيمائية

الصناعية

لابراهيم حلمي مطر
استاذ بالكيمياء الصناعية من جامعة منشستر

لما كانت بلادنا زراعية فان معالجة موضوع الاسمدة اللازمة لها يجب ان يكون في رأس القائمة الخاصة بالمواد الصناعية الوطنية . ولكي لا يتشعب الموضوع نرى ان نقسمهُ قسمين رئيسين :—

١ — القسم الاول : للكلام من الوجهة النظرية

٢ — القسم الثاني : لمعالجة الموضوع من الوجهة الصناعية

البحث النظري

بينما كان الاستاذ روذرفورد Rutherford استاذ علم النبات بجامعة ادنبره يجري تجاربه على تنفس الحيوانات سنة ١٧٧٢ اكتشف غازاً لا يسع الحيوانات أن تعيش فيهِ ولذلك سماه بالغاز السام (Mephitic Air) — ولو كان يدري ما سوف يكون من وراء هذا الاكتشاف والاستفادة منهُ في صناعة الاسمدة التي نأكل منتجاتها لما وجد أفضل من تسميتهِ بالهواء المغذي او بالبلسم

ثم جاء لافوازييه شيخ الكماويين الفرنسيين فسماه بالازوت — غير ان الانكليز قد اختاروا لهُ اسم النتروجين لوجوده في مادة النيتر Nitre التي تكثر في بلاد الشيلي في المنطقة المحصورة مابين جبال الانديز والساحل الغربي ويعرفها الكماويون باسم نترات الصودا

ويحسن بنا الآن ان نقول كلمة في ذرة النتروجين على ضوء النظريات الحديثة في تركيب الذرة :—

من الامور التي يعرفها المبتدئون في دراسة الكيمياء ان الوزن الذري للنتروجين atomic weight هو ١٤ والعدد الذري atomic number هو ٧ فاذا اتبعنا آراء الاستاذين لويس ولانجموير الحديثة في بناء الذرة واردنا تصور ذرة النتروجين لجاز لنا ان نتصورها بعد تكبيرها التكبير الكافي كبندقة موضوعة داخل غلاف كروي بحجم بطيخة كبيرة جدًّا (يافاوي مثلاً) — هذه

البندقة هي نواة الذرة وتحتوي بحسب نظرية لويس ولانجمور في حالة النتروجين على اربعة عشر بروتوناً كهربائيتها موجبة وهو وزنها الذري . كما انها تحتوي في داخل هذه البندقة على سبعة الكترونات حيث ان عددها الذري سبعة . هذه الالكترونات عبارة عن وحدات كهرباء سالبة. وعلى ذلك فالباقي وعدده سبع وحدات سالبة يتوزع على غلافين كرويين خارج البندقة احدهما عليه وحدتان سالبتان والخمسة الباقية موزعة على غلاف البطيخة الخارجي . ويقول لويس ولانجمور انهُ ما دام في الغلاف الخارجي خمسة الكترونات فالذرة تكون اما خماسية التكافؤ بفقدان هذه الخمسة او ثلاثيته بأخذ ثلاثة الكترونات من الخارج ليصير عدد الالكترونات على الغلاف الخارجي ثمانية . ولذلك تعرف بالنظرية الثمانيَّة بتشديد الياء Octet Theory . ومن جملة اعتبارات اخرى لامجال لشرحها وجد أن علاقة ذرتين من النتروجين إحداها بالاخرى اشد من علاقة ذرة النتروجين بذرة مادة اخرى . ولذا فان النتروجين معدود ضمن المواد الخاملة Inert التي لا تميل الى الاتحاد بغيرها من العناصر بسهولة . واذا تمَّ هذا الاتحاد بعنصر آخر مثل الكلور فان المركب الناتج يكون مركباً غير ثابت ويتفكك لاقل لمسة او هزة بسيطة . ولم تكن الحادثة المحزنة التي حصلت للاستاذ ديولنج عند تحضيره احد مركبات النتروجين والكلور (ثالث كلورور النتروجين) NCl 3 ففقد بها هذا العلاَّمة عينه وأصبعين من اصابعه الاَّ نتيجة انفجار هذا المركب عندما اهتز الاناء الذي كان يحضره فيه فانفصلت ذرة النتروجين واتحدت بأخواتها كما انفصلت ذرة الكلور ايضاً لتتحد ببعض اخواتها فتولدت طاقة عظيمة احدثت الانفجار. ولهذه الاسباب ما كان للكيماويين منفردين ان يتمكنوا من صناعة مركبات كثيرة من النتروجين من دون الاستعانة بمؤثرات خارجية طبيعية كاستعمال الحرارة الشديدة المتولدة من تيار كهربائي شديد الجهد في شكل قوس او استعمال ضغط كبير على الغازات عند تفاعلها بعضها مع بعض

لهذا كان من المحتم لحل معضلة مركبات النتروجين ان يتآزر الكيماوي والمهندس وهذا هو ما حصل فعلاً في بلاد السويد كما سيجيء الكلام

الوجهة الصناعية

تتركب معظم النباتات على وجه الاجمال من اربعة عناصر مهمة وهي الكربون والاوكسجين والايدروجين والنتروجين مع مقادير يسيرة من عناصر اخرى . وتختلف نسبة هذه العناصر بعضها الى بعض باختلاف نوع النبات . ومن المعلوم ان النبات يمتص بعض هذه العناصر من الهواء . فمثلاً يمتص النبات عنصر الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الذي في الجو بواسطة مسام صغيرة في أوراقه وتلك المسام هي للنبات كالجهاز التنفسي للانسان والحيوان . كما ان النبات يمتص بعض

العناصر الاخرى من الارض بواسطة انابيب شعرية متصلة بجذوره . وبتوالي امتصاص النبات لعنصر معلوم من الارض ينفد هذا العنصر . ولذلك كان من الضروري ان نعوض الارض ما يمتصهُ منها النبات وهذا التعويض انما يأتي باضافة الاسمدة الكيمائية المحتوية على العناصر اللازمة لغذاء النبات . واهم تلك العناصر هو النتروجين . ولذا تقاس جودة الاسمدة بمقدار ما تحتويهِ من هذا العنصر بشكل صالح لامتصاص النبات — ويمكن تقسيم الاسمدة الكيماوية النتروجينية الى ثلاثة أقسام

اولاً — الاسمدة النتراتية وهي التي يستفاد في صناعتها بأزوت الهواء واتحاده بالاكسجين بواسطة القوس الكهربائي

ثانياً — الاسمدة النشادرية وهذه ايضاً تستفيد من ازوت الهواء باتحاده بالايدروجين بالطريقة التي سنشرحها فيما بعد

ثالثاً — الاسمدة السياناميدية وهذه ايضاً تستفيد من ازوت الهواء بمروره على كابور الكلسيوم بشروط خاصة

فلنشرح كل طريقة من الطرق الثلاث المذكورة ونقابلها بعضها ببعض ونختار أحسنها بالنسبة لاحوالنا في هذه البلاد

***

في سنة ١٨٩٨ وقف السير وليم كروكس خطيباً في مجمع تقدم العلوم البريطاني المنعقد حينذاك في برستول والقى من كلمات الرعب والذعر على سامعيهِ الشيء الكثير وقال إن العالم مهدَّد بمجاعة لن تبقي ولن تذر وسبب تلك المجاعة لا محالة هو نفاد الاسمدة الطبيعية . ثم ختم خطابه التاريخي قائلاً انهُ ليس هناك من مخرج الاَّ على يد الكيماويين . وناشد المجتمعين ان لا يقصروا لحظة واحدة في اجراء تجارب لاستنباط طريقة لعمل سماد كيمائي رخيص ليقوم مقام سماد الشيلي عند ما ينفد . وقد قدَّر لهذا النفاد سنين لا تزيد على المائة وهي ليست بالكثيرة في عمر الامم

الاسمدة النتراتية

واننا اذ نتعرض الآن للكلام على هذه الطريقة لا بدَّ ان نحني رءوسنا اعجاباً للسير هنري كافندش Cavendish واضع أساسها الحقيقي . فقد وجد في سنة ١٧٨١ وهو يجري تجاربه المشهورة على تركيب الماء من عنصريه المعلومين بواسطة الفرقعة بالشرار الكهربائي ، انهُ يحصل دائماً على مقدار قليل من الحامض النتريك . ولقد اكتشف السير هنري بعد ذلك انهُ اذا خلط الهواء بمقدار قليل من الاكسجين ثم استمرَّ على فرقعة الشرار واضاف الى الناتج محلول الصودا فانهُ يحصل

على نترات الصودا المعروفة وهي المادة التي يتكوَّن منها سماد الشيلي . وكل هذه المباحث النفيسة مدونة في مجموعة الجمعية الملكية الفلسفية Royal Philosophical Society المجلد ٧٥ (سنة ١٧٨٥).

بعد ذلك بذلت محاولات كثيرة للانتفاع بهذا الاكتشاف العلمي الخطير حتى أتى كبير علماء الانجليز وأقصد بهِ اللورد رالي في سنة ١٨٩٧ ونشر تلك المقالة التاريخية في مجموعة الجمعية الكيمائية تحت عنوان: «ملاحظات على اكسدة غاز النتروجين" "Observations on the Oxidation of Nitrogen"

ولقد كانت هذه التجارب في مبدأ أمرها خاصة بفعل غاز الارجون الذي اكتشفهُ اللورد رالي مع السير وليم رمزي . بعد ذلك كان لابد لرجال الصناعة من الاستفادة بهذا الاكتشاف. ولما كان منبت الاكتشاف المذكور على يد عالم انجليزي وفي بلاد الانجليز فقد كان من الطبيعي ان ننتظر ان تكون اول محاولة جدية لصناعة الاسمدة النتراتية من رجلين انكليزيين وهما المستر مكدوجال والمستر هولمز وذلك في سنة ١٨٩٩ ولكنهما اخفقا من الوجهة التجارية وان كان يكفيهما من الفخر انهما اول من خطا نحو استعمال هذا الاكتشاف والاستفادة بهِ

بعد ذلك تحدثت الدوائر العلمية والصناعية وتبودلت الآراء في أسباب اخفاق المشروع الانكليزي الاول — وكان من حسن الحظ أن تآزر على اعادة الكرة لانجاز هذا المشروع عالمان سويديان أحدهما مهندس وهو الدكتور صمويل أيد (Samuel Eyde) والآخر كيماوي طبيعي وهو الاستاذ كرستيان بركلاند (Chiristian Birkeland) الاستاذ بجامعة كرستيانا . تآزر اذن علم الكيمياء مع علم الهندسة فكان النجاح حليف المشروع وأسس هذان العالمان اول شركة جدية لعمل أسمدة نتراتية يرجع في النتروجين المستعمل بها الى الجو . وذلك في بلدة Notodden عند بحيرة تنسو Tunsjo في بلاد السويد . ولقد كان اكبر مساهم في تلك الشركة من الفرنسيين وما لبث الالمان ممثلين في شركتهم الكيمائية الشهيرة "Badische anilin und Soda Fabrik" ان قاموا ببناء مصانع أخرى في بلاد النرويج حيث مساقط المياه وتوليد الكهرباء الرخيصة وقد نظموا العمل تنظيماً دقيقاً جدًّا فشطروا المصنع الى شطرين أولهما خاص بتوليد الطاقة الكهربائية وذلك برأس مال قدرهُ تسعمائة الف جنيه والآخر للاستفادة بتلك الطاقة من الوجهة الكيمائية وذلك برأس مال قدره مليون جنيه . ونحن مطمئنون الى ان نقطة هامة كهذه لم تفت رجالنا المسئولين عن الاستفادة بكهربة الخزان . اما الطريقة العملية في صناعة الاسمدة فتتلخص في المعادلات الكيمائية البسيطة التي يعرفها كل مبتدىء في الكيمياء وهي : —

اولاً — أزوث + اكسجين ← اكسيد ازوتيك

ثانياً — اكسيد ازوتيك + اكسجين ← فوق اكسيد ازوتيك

ثالثاً — فوق اكسيد ازوتيك + ماء ← حامض ازوتيك + اكسيد أزوتيك

والمعادلة الاولى هي معادلة عكسية وناتج الاكسيد الازوتيك يتكوّن مقدار قليل منهُ عند درجة منخفضة من الحرارة ويزداد هذا المقدار بازدياد درجة الحرارة التي تجري عليها العملية وذلك الى حدٍّ ما لانهُ لو ارتفعت الحرارة ارتفاعاً زائداً لتفكك غاز الاكسيد الازوتيك (dissociates). وبعد تجارب عديدة وجد ان درجة (٣٠٠٠) سنتغراد هي الدرجة الملائمة على شرط ان يبرَّد الغاز الناتج الى ٨٠٠ درجة بسرعة — وأهم الطرق المعروفة في عالم الصناعة وأرسخها هي طريقة بركلاند وأيد وتتلخص في استعمال قطبين من النحاس Copper electrodes لتوليد القوس الكهربائي ذي الحرارة المرتفعة مستمدًّا قوته الكهربائية من آلات مولدة للكهرباء تدار بواسطة قوة انحدار المياه وباللغة العلمية من دينامو يديرهُ تربين . أما اختيار نوع التربين المناسب وتصميمه فيختلف باختلاف الاحوال الخاصة . وهذا من اختصاص المهندس الكهربائي فلا نتعرض لهُ الآن

ولا بدَّ من عمل الترتيب اللازم لكي تجري مياه في داخل هذين القطبين وذلك لاجل التبريد . اما قطر اللهب المتولد فيبلغ احياناً نحو ثلاثة أمتار ويسمع لهُ سعير شديد عند توليده

وأما داخل الفرن الكهربائي فمبلط بآجر خاص لمقاومة الحرارة الشديدة ومنهُ يدخل الهواء ليخترق اللهب الكهربائي . ويكون دخول الهواء بواسطة مراوح طاردة تدفعه من أسفل الفرن إلى أعلاه . وفي حائط الفرن قناة أو فتحة لخروج غاز الاكسيد الازوتيك وحرارتهُ ٨٠٠—١٠٠٠ درجة مئوية ومن ثمَّ يمكن الانتفاع بحرارتهِ هذه في المراجل البخارية Steam Boilers وبعد ذلك يمر في انابيب من الالومنيوم تبردها مياه جارية حولها ثم إلى اسطوانات حديدية رأسية مبطنة بآجر خاص لمقاومة الاحماض حيث يتأكسد هذا الاكسيد الازوتيك فيتحوَّل الى ثاني الاوكسيد ثمَّ يخرج إلى ابراج الامتصاص Absorption Towers وهي عبارة عن ابراج قائمة من الحجارة تبلغ من الارتفاع نحو عشرين متراً في المتوسط وقطرها نحو ستة أمتار وتحتوي على حصى وفخار مكسور ينسكب من فوقه ومن خلاله الماء يقابله في انسكابهِ غازات ثاني اوكسيد النتروجين بطريقة عكسية وبالاتحاد بهِ نحصل على الحامض النتريك وهو المادة الثمينة في صناعة الاسمدة . وبالطبع ان الحامض الذي نحصل عليهِ اولاً هو حامض خفيف . ولاجل تركيزه نجعله يقابل غازات ثاني اكسيد الازوت ثانياً من أبراج امتصاص اخرى لكي نفوز بحامض اشدّ تركيزاً درجة بعد اخرى ويتم ذلك بالاكثار من عدد الابراج وفقاً لدرجة التركيز المطلوبة . وأما رفع هذا الحامض إلى أعلى البرج لجعله ينسكب ثانياً فيتمّ بواسطة طلمبات من الالومنيوم لا يؤثر فيها هذا الحامض . وبعد الحصول على حامض قوة تركيزه نحو الستين في المائة يجمع في أحواض من الجرانيت ويعادَل بالجير (كربونات الكلسيوم) ثم بعد التبخير نحصل على املاح نترات الجير وهذه بعد طحنها توضع في براميل من الحديد

لتصديرها إلى البلدان الزراعية التي تشتري منها كل عام بالآلاف المؤلفة من الجنيهات . ومن تلك البلدان مصر بل هي من اهم العملاء

ولقد أدخل المهندسون كثيراً من التحسينات على تلك الافران الكهربائية يطول بنا المجال اذا شرحناها بالتفصيل وانما لا يمكن ان نمر سراعاً بذلك من دون ان ننوه بالمجهود العظيم الذي بذله الدكتور شينهر G. Schönherr والهر هسبرجر Hessberger من رجال شركة Badische حيث قد استغنوا عن استعمال المغنطيس الكهربائي المثبت بين قطبي الفرن وعوضاً عن قرص اللهب فانهم يولدون قوساً كهربائياً في داخل اسطوانة من الحديد حيث يمر الهواء وحيث تكون الاسطوانة احد القطبين

وحمولة الفرن الكهربائي الواحد تختلف من الف الى ثلاثة آلاف كيلو وات

الاسمدة النشادرية

لننتقل الآن الى النوع الثاني من الاسمدة التي ننتفع بأزوت الجو في تركيبها بشكل نشادر

والنشادر كما هو معلوم عبارة عن ذرة من النتروجين متحدة مع ثلاث ذرات من الايدروجين ولكن كيف السبيل الى هذا الاتحاد في المصنع بأقل ما يمكن من النفقة حتى يمكننا ان ننتج سماداً رخيصاً ؟ — هذا هو السؤال الذي شغل افكار رجال الكيمياء الصناعية وقتاً طويلاً . وقد كان المجلي فيه المرحوم الاستاذ فرتز هابر فتوصل هذا العلامة بمثابرة منقطعة النظير وبتعضيد من شركة الباديشه الى حل هذه المعضلة حلاً تاماً مرضياً نال عليه اعجاب العالم اجمع. ان دقائق تلك الصناعة (اي صناعة النشادر) هي سر من الاسرار التجارية . وكل ما يمكن ان نقوله الآن هو ان خليطاً مكوناً من مقدار من الازوت وثلاثة امثاله من الايدروجين يمر ان تحت ضغط مائة وخمسين جوًّا في أنبوب محتوٍ على المادة المنشطة Catalyst محفوظة حرارتها على درجة خمسمائة سنتغراد بواسطة ملف كهربائي Electric Coil وبجمع النشادر الذي يتكوّن تمر الغازات في ماسورة مغمورة بالهواء السائل حيث يتكاثف النشادر ويتحول الى سائل

اما المادة المنشطة او المساعدة للعملية والتي تمر عليها الغازات وقت التفاعل فقد وجدت بعد اختبارات كثيرة انها معدن الاوسميوم Osmium ولكن غلاء هذا العنصر حمل الباحثين على الاستعاضة عنه بمعدن الحديد المضاف اليه ١. ٪ اوكسيد البوتاسيوم و ١. ٪ اوكسيد الالومنيوم . اما النتروجين اللازم في هذه العملية فنحصل عليه بتحويل الهواء الى سائل (وهذه العملية صارت من أسهل العمليات الآن) ثم نفصل النتروجين من الاوكسجين معتمدين على ان لكل منهما درجة تبخر خاصة . وعلى ذلك فمصنع النشادر هذا يلزم ان يكون بجواره مصنع آخر لأسالة الهواء وليلاحظ عند تكوين النشادر بحسب المعادلة ازوت حجم + ايدروجين ثلاثة أحجام ← نشادر حجمين

ومن هذه المعادلة نرى ان حجم الغاز الناتج نصف حجم الغازات المستعملة ولذلك اذا طبقنا قاعدة لاشتليه فان العملية تتم مع استعمال الضغط . وبعد تجارب عديدة جداً للحصول على أوفق ضغط لاتمام هذه العملية — وجد الاستاذ هابر انهُ تسعمائة ضغط جوي . ثم بعد ذلك نمر الغازات التي لم تتحد مرة وثانية وثالثة على المادة المساعدة لكي نحصل على اكبر قدر من المركب الجديد . اما الايدروجين المستعمل فيمكن الحصول عليهِ بسهولة من الغاز المائي الذي يتولد من مرور بخار الماء على فحم الكوك المتوهج ثم يمرّ (اي الغاز المائي) على اكسيد الحديد المحفوظ على درجة ٥٠٠ سنتجراد فنحصل على الايدروجين بعد ذلك

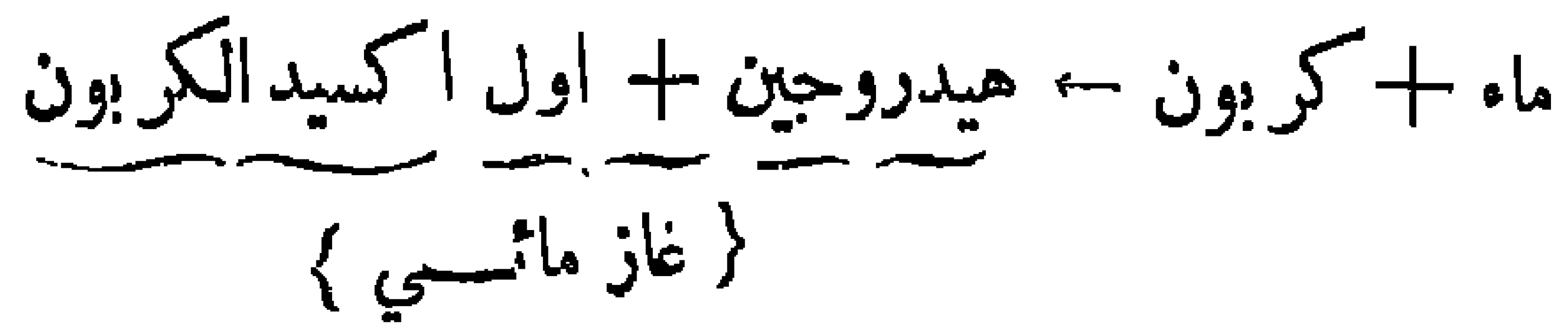

ماء + كربون ← هيدروجين + اول اكسيد الكربون
{ غاز مائـــي }

وبعد ذلك يتفاعل اول اكسيد الكربون مع بخار الماء (خصوصاً في وجود اكسيد الحديد الذي يكون فقط كمنشط للعملية (Catalyst) — فيختزل الماء الى ايدروجين ويتأكسد اول اكسيد الكربون الى ثاني اكسيد)

وليلاحظ ان المعادلة الاولى تعطي ٥٠ ٪ ايدروجين و ٤٠ ٪ اول اكسيد الكربون . اما في ايطاليا فانهم يحصلون على الايدروجين الخاص بصناعة النشادر من الحلّ الكهربائي للماء Electrolysis غير ان هذه الطريقة كبيرة النفقة حيث يلزم مائة واربعون كيلو وات ساعـــة K. Watt. Hour من الكهرباء لكل الف قدم مكعبة من الايدروجين— ويوجد بجوار شلالات نياغرا بامريكا شركة لعمل الصودا الكاوية واستخراجُ الكلور من الماء المالح ومن المعلوم ان حلّ هذا الماء ينتج ايدروجيناً كمحلول ثانوي Bye-product وقد استفادت بهِ شركة Mathieson Alkali لتحويله الى نشادر بالاستفادة من ازوت الهواء — وقد كان لهذه الاستفادة اثر كبير في تخفيض نفقات هذه الشركة ونجاحها نجاحاً كبيراً أثر في رفع قيمة اسهمها

بعد صنع مركّب النشادر بهذه الطريقة يمكن امتصاصهُ بالحامض الكبريتيك لتحويله الى سلفات النشادر أو بحسب الطريقة الحديثة لمعالجتهُ بواسطة سلفات الكلسيوم وهو الجبس المعتاد وثاني اوكسيد الكربون للحصول على سلفات النشادر وكربونات الكلسيوم وهذا يوفر علينا كثيراً من نفقات الحامض الكبريتيك . كما انه يمكن تحويل النشادر الى الحامض النتريك بأكسدتهِ بواسطة بدفعهِ فوق شبكة من البلاتين المرفوع لدرجة حرارة تقرب من ٨٠٠ درجة .

ومن الحامض النتريك يمكن عمل سماد النترات باضافة محلول الصودا او الجير للحصول على نترات الصودا او نترات الجير وقد سبق الكلام عليه في الطريقة السابقة

الاسمدة السياناميدية

الطريقة الثالثة للاستفادة بازوت الجو هي طريقة عمل سيانا ميد الجير Ca C N2 وذلك بجعل الازوت الجوي يتحد بكاربور الكلسيوم Ca Carbide عند ما تكون درجة الحرارة الف مئوية

كاربور الكلسيوم + ازوت ← سيانا ميد الجير

ومن الوجهة النظرية ان مقدار النسبة المئوية من الازوت في سيناميد الجير يلزم ان تكون ٣٥ ٪ ولكننا نجد انها لا تزيد عن العشرين في المائة عمليًّا . ويسمونه في التجارة باسم نترولم Nitrolim . وفائدة هذا النترولم هو تحلله في الارض بفعل ماء الري والرطوبة الى كربونات الجير والنشادر . وهذا التحلل يجري ببطء في جوف الارض

ويمكن تقسيم صناعة السياناميد الى قسمين او خطوتين . فالخطوة الاولى هي صناعة كاربور الجير والثانية تحويل هذا الكاربور الى سياناميد . وتتم الخطوة الاولى بخلط الجير والفحم الانتراسيت او فحم الكوك معاً في الفرن الكهربائي . وقد ذكر البعض اننا لا يمكننا انشاء هذه الصناعة بمصر لان الفحم يعوزنا ولكنني ارى اننا لو انجزنا مشروع توليد الكهرباء من الخزان لامداد الافران الكهربائية بالحرارة اللازمة فان عدم وجود الفحم بمصر لا يكون له تأثير كبير . وعندنا شاهد على ذلك المصانع السويدية . فانها لا تستورد الفحم اللازم لصناعة الكاربور من الخارج فحسب ولكنها تستورد أيضاً الجير اللازم ونحن والحمد لله عندنا الجير متيسر جدًّا. ولذلك فاني أرى أن هذه الطريقة محقق نجاحها بمصر أيضاً . ولا بد من الاشارة هنا إلى ضرورة اختيار أتقى أنواع الجير ووجوب تحليلها تحليلاً كيماويًّا قبل استعمالها للتأكد من خلوها من مادة المغنسيوم والالومنا أما الفحم الذي يستعمل فيجب أن لا يكون رماده أكثر من ٥ ٪ من وزنه

ويلزم لكل طن من الكابور ١٫٧٥ طن حجر جير و٠٫٢٥ طن فحم . وأما الطاقة اللازمة لصنع كل طن من الكابور فتقرب من نصف كيلوواتسنة على فرض أن سنة الادارة هي ٨٤٠٠ ساعة . وأما نفقات المصنع اللازم لكابور الكلسيوم فيمكن تقديرها بنحو ٢٫٥ — ٣٫٥ جنيه لكل طن في السنة— وأما نفقات المباني فيمكن تقديرها بخمسة وثلاثين إلى خمسين في المائة من مجموع النفقات

لننتقل الآن الى الخطوة الثانية وهي تحويل الكابور إلى سياناميد وهذه تتلخص في الاستفادة بأزوت الهواء ووقعه فوق الكابور الموضوع في فرن درجة حرارته غير عالية لجعل التفاعل يأخذ مجراه فقط . وباقي الحرارة يتولد من التفاعل الكيماوي نفسه لان المعادلة التي بها يتولد السياناميد من الكابور معادلة Exothermal أي تولد الحرارة بنفسها وليلاحظ انهُ باضافة مواد غريبة الى الفحم مثل الفلورسبار يمكن أن يأخذ التفاعل مجراه على درجات حرارة منخفضة وهذا يوفر في نفقات الوقود

أيها نختار في مصر

إلى هنا قد تكلمنا عن الطرق الثلاث الرئيسية التي يمكن بواسطتها أن نستفيد من أزوت الهواء الجوي بتثبيته في صناعة الاسمدة والشيء الوحيد الذي نبغي بيانه هو أن نبدي رأياً في اي الطرق تكون انجح من غيرها في بلادنا المصرية وخصوصاً بعد عمل مشروع توليد الكهرباء من خزان اسوان

اظن مما تقدم يظهر لنا جلياً ان طريقة السيناميد والنشادر تفضل كثيراً على الطريقة التي ذكرناها اولاً اي طريقة القوس الكهربائي . واذا كان لنا ان نفضل إحدى الطريقتين الاولين فاني شخصياً افضل طريقة النشادر وذلك لما تم في هذه الطريقة من التحسين على يد الاستاذ هابر — وحتى في بلاد النرويج حيث استعملت طريقة القوس الكهربائي لمدة ٢٠ سنة قد بدأوا يفضلون عليها طريقة النشادر . وكل المصانع الحديثة هناك وفي المانيا تستعمل هذه الطريقة ايضاً . ولقد باعت السويد من منذ سنين قلائل روسيا بعض مصانع السيناميد واستبدلت بها مصانع للنشادر . كما أن هذه الطريقة تستعمل الآن بنجاح باهر في اليابان وايطاليا ولنا في الدولتين الاخيرتين قدوة حسنة فاولاهما شرقية والاخرى بلاد زراعية لا تختلف عنا كثيراً فنأمل أن يكون لنا منهما مثال نحتذيه بعد اتمام مشروع الخزان أو مشروع القطارة الذي أوقف العمل فيه بمزيد الاسف لاسباب لا ندريها . وانتا نتهز هذه الفرصة فنبدي رجاءنا للحكومة أن لا تضن على هذا المشروع بالمال متى سمحت الاحوال الاقتصادية بذلك لثقتنا بالفوائد التي تنشأ من وراء انجازه والتي ربما فاقت في نظري كمهندس قبل ان أكون كيماوياً مشروع الخزان خصوصاً واذا اعتبرنا ان الماء الذي يكون في مشروع القطارة بجوار المصانع هو ماء مالح ، و بكلمة أخرى يحتوي على أملاح كلورور الصوديوم

وكلنا يعلم ما لهذا الملح من الشأن في الصناعات الكيمائية المختلفة . وليس خبر تأليف الشركة الانجليزية لاستغلال البحر الميت في فلسطين الملآن بالاملاح عنا ببعيد—هذا كله فضلاً عن ان القوة المأخوذة من مشروع القطارة (والتي تقدر بحساب سعادة حسين بك سري وكيل الاشغال بمائة ألف حصان) هي قوة مستمرة طوال مدة السنة . وفضلاً عن انهُ يوجد بجوار مشروع القطارة مناجم غنية بالجبس (اي بسلفات الكلسيوم) وقد أثبتت المباحث الحديثة امكان الاستفادة بهذه المادة عند تحويل الازوت الجوي الى نشادر ومن ثمَّ الى سلفات النشادر من دون نفقات اضافية لشراء الحامض الكبريتيك . لذلك أختم هذه الكلمة آملاً ان نرى جميعاً في القريب العاجل أحد مشروعي الكهرباء وقد تحقق حتى تجد البلاد حاجتها من هذه الاسمدة ويتوفر عليها ما تتكبدهُ كل عام من باهظ النفقات

ماذا تريد

لالياس قنصل

ماذا تريدُ من الحياةِ وكلّها   نعمٌ تبيح — متى اردتَ — وصالَها
ارسلت دمعك بالشكاةِ فحجّبتْ   عن ناظريك رواءها وجمالَها
انت الذي ترجو من الاحداثِ ان   ترمي مسدّدة اليك نبالَها
فاذا اشاحتْ عن رجاك بوجهها   ونأتْ حقيقتُها ، دعوتَ خيالَها
تعرى الخمائلُ في الخريف من البها   وتشلّ امواج الشتا اوصالَها
وتصدّ عنها انفسٌ ونواظر   كانت تمجّد في الربيع ظلالَها
لكنها تسمو عن الشكوى ، ولا   تقضي الليالي وهي تندب حالَها
هدّمْ حدوداً حول نفسك أحكمتْ   وابعثْ طلاقتها وحلّ عقالَها
ان الوجودَ لها اذا نشرتْ على   ارجائهِ بيد السخا آمالَها
اي المنى تعصاك وهي جميعها   من نبع نفسك تستقي اوشالَها
فدع التجهّم خالقَ اليأسِ الذي   يبري الخطوب معدداً اشكالَها
واجعلْ حياتك بالتبسّم جنةً   ترعى ملائكةُ الرجاء جلالَها

عاصمة الارجنتين

عصور الركود

وعصور التغير في حياة الامم

لعبد الرحمن شكري

تظل الامم راكدة في عصور من عصور حياتها ولها في عهد ركودها فضائل ونقائص، ثم يجيء عصر التغير وقد يكون تغيراً يسبق نهضةً ولكنه عصر اضطراب على اي حال، ويكون مصحوباً بتفكك القيود الفكرية والخلقية والادبية لدخول مقاييس فكرية وخلقية جديدة ناشئة من اجتباء آراء جديدة، وتكون الامة في تلك الحالة اشبه بالماء الذي أثار إعصارٌ ما في قاعهِ من اوشاب فيبدو الماء عكراً

وكذلك الامة تبدو حياتها الخلقية والادبيـة معتكرة في عصر التغير، وأخوف ما يخاف هذا الاعتكار على امة اذا لم يكن قد دخلها اثنـاء عصر ركودها وقبل عصر التغير ، عنـاصر جديدة مقوية لم تأخذ منها طباع وُهن نفوس العناصر القديمة ، كل مأخذ. فيخشى في هذه الحالة ان تصير نهضتها نهضة مفتعلة محدودة وقد تكون فيها مظـاهر جليلة فلا يمنع ذلك من اندثارها، كما حدث لنهضة الاسرة السادسة والعشرين في تاريخ مصر القديم وكما حدث لنهضة (نيوهلنزم) في اواخر عهد الحضارة الاغريقية ومثل نهضة الدولة البيزنطية في اواخر العهد الروماني الاغريقي

اما اذا كانت الامة قد دخلتها عناصر جديدة قوية فان ما يصيبها من الاعتكار بالاضطراب لايخاف منه كل الخوف، بل يكون مصيره الاستقرار. ومثل ذلك الامم الاوربية في عصر نهضة احياء العلوم فان ما دخل غرب اوربا من الآراء الجديدة اوجد انقلاباً واضطراباً كبيراً في حياتها الفكرية والخلقية والفنية . ولكن امم غرب اوربا كانت قد اعيد تكوينها بسبب العناصر التوتونية التي دخلتها ولم تكن تلك العناصر قد اوهنتها طباع الوهن الفكري والخلقي التي انتابت

الدولة الرومانية في اواخر ايامها ومن اجل ذلك امكنها ان تصمد لذلك الاضطراب الخلقي والفكري حتى استقرَّ

ولكن هب ان هذا الاضطراب قد حدث قبل دخول التوتون او هب انه جاء متأخراً بعد ان ضعفت العناصر التوتونية وتشبعت بطبائع الوهن الخلقي والنفسي الذي انتاب الرومان في آخر حياتهم، ماذا كان يكون أثر الاضطراب الخلقي ؟ انه كان يكون عاملاً على الفناء لا نذيراً بالرقي . انهُ كان يكون اشبه بالنبيذ يعطى للشيخ الهرم وهو يحتضر كي يقويه ويطيل حياته فلا يزيده الاَّ آلاماً واحتضاراً . لان الامة اذا تقلبت عليها العصور وهي مختلة النظم تمكنت منها عوامل الضعف النفسي وانهكتها حتى تكره النظر الى نفسها في مرآة العقل وتصير مثل الرجل من العامة الذي يفضل ان ينتظر القضاء على ان يتعاطى الدواء

***

ولعلَّ القارىء قد وجد بين العامة من يسيء الظن بالطب والاطباء ومن يرى الصحة والشفاء في تجاهل الداء . فاذا اضفت الى هذا الضعف النفسي الذي يكون من تَركةَ التاريخ والذي شرحناه في مقال سابق ، اقول اذا اضفت اليه ما يحدث من الاضطراب الخلقي الناشيء من عصر تغيُّرٍ يجتبى فيه آراء جديدة وحياة جديدة وتتفكك فيه الروادع الخلقية القديمة كانت الفوضى الخلقية اعظم . فاذا اضفت الى هذين العاملين عاملاً ثالثاً وهو تقليل الضغط وازدياد الحرية وما يأتي مع الحرية الجديدة عادة من شطط في الخلق والفكر كان الاضطراب الخلقي اهول . فاذا اضفت الى هذه العوامل الثلاثة عاملاً رابعاً وهو ازدحام السكان والتقاتل على المعاش بسببه وما ينشأ عن استحارّ القتال من استباحة الرذائل والشرور كانت الفوضى الخلقية أتم وأحط لاجتماع هذه الاسباب الاربعة

ولا تستطاع مداواة تلك الفوضى الخلقية الاَّ بعد تقصي الداء والنظر في اعراضه ورغبة المريض في الطب . اما اذا اختبأ المريض تحت لحافهِ وقال انه معافى فانه لا يستطيع ان يصرف المحسوسات بانكارها

وقد تكون مداواة هذه الحالة غير مستطاعة لتمكن صفات الاثرة والتخاذل والتعادي وغيرها من مخلفات التاريخ في النفوس الضعيفة ، ولان هذه العيوب النفسية تظهر بمظهر القوة كما اوضحنا في مقالة تَركةَ التاريخ . وانها كما ذكرنا قوة ولدتها سنة الاستعاضة في الطبيعة تلك السنة التي تجعل من كيد الاضعف ومكره واحتياله وكذبه قوة كما قوّت الثعلب بهذه الصفات

وكثيراً ما يكون تقدم النهضة الفكرية والفنية في هذه الاوساط اشبه بتقدم المرء في حارات

القاهرة القديمة المسدودة التي لا منفذ لها . ولعلّ اكبر عوامل الخيبة هو عدم المبالاة بتلك الحال وقد تنعدم المبالاة في الامور الفكرية والفنية كما تنعدم المبالاة عند مشاهدي حوادث الإجرام من قتل او سرقة او قذف او وشاية في امثال هذه الاوساط التي يتهرب الناس فيها من المبالاة او يعينون الجاني حتى يصير هو المبجل المعظم المهيب المقصود بالمدح المنعوت بالفضائل فتنقلب الاوضاع وتعم الفوضى الخلقية ويصبح المجال مجال الاحتيال والخداع والرياء وتتغلب هذه الصفات على النفوس وتأخذ منها كل مأخذ حتى تصير كالجدار الذي يسد الحارة التي لا منفذ لها فتعوق تقدم كل نهضة فكرية او فنية

ويلتجيء الناس في هذه الاوساط الى الرياء اما لضرورة كسب الرزق ومجاراة البيئة واما لاخفاء عجزهم عن اصلاح تلك المأساة الخلقية ولظنهم ان اخفاءها يقلل من اثرها في حياة الافراد والامم . والتهرب من مواجهة الحقائق انما هو تهرب من وسائل العلاج وهو كهروب السجين الذي الف السجن ممن يريد اطلاق سراحه . وهؤلاء المتهربون جميعاً يكيدون لانفسهم ويجنون على ذريتهم لان هذا الاضطراب الخلقي وهذا الانقلاب في الاوضاع سواء أكان قائماً في عصر الركود او ناشئاً بسبب عصر تغير، او انهُ كان في عصر ركود ثم زاده عصر التغير حدة، او انهُ زاد حدَّة على حدَّة بسبب اجتماع العوامل الاربعة التي ذكرناها — اذا ترك ولم يعالج كان داء عضالاً اقل آثاره انهُ يجعل حياة الناس أشبه بالحارة المسدودة تعوق تقدم النهضة الفكرية والفنية الا الى مسافة محدودة واعظم شروره انهُ يكون كالجراثيم التي تعمل خفية في جسم المريض الذي اريد اخفاءه صيانة لهُ

ومن الحكمة ان لا تترك عوامل الانحلال يعتز بها لظهورها بمظهر القوة حتى تصير الحال الى ما وصفنا في حياة الناس قديماً وحديثاً

وقد يختلط الاضطراب الخلقي وانقلاب مقاييسه اذا كان من مخلفات عصور التأخر واذا كان في عصر تغير ولكن التاريخ يميز بينهما فترى في اواخر عهد الدولة الرومانية مثل هذا الانقلاب في المقاييس وترى انقلاباً في المقاييس في عهد نهضة إحياء العلوم ولكن شتان بين الظاهرتين وشتان بين العهد الروماني الاخير وبين عصر النهضة فقد كان في العهد الاول مجانة فكرية وخلقية وصفة سطحية في مظاهر الفنون والفكر

اما في عصر نهضة إحياء العلوم فكان الاضطراب الخلقي ناشئاً من تفكك عرى روادع الكنيسة وذهاب ما سنته من التقشف فكان شبيهاً برد الفعل عندما انتشرت دراسة الآداب الاغريقية القديمة وأطلعت لاهل غرب اوربا مظاهر الجمال الفكري والنفسي في المعقولات

والفنون وكل حرية يصحبها شيء من الشطط وهذا الشطط كان فيضاناً للفكر والنفس والقوة الحيوية طغى على شاطيء نهر الحياة

وكان الرومان في اواخر عهدهم قد تبدلت أوضاع نفوسهم لاسباب منها فساد النظم الاجتماعية وما كان لهُ من أثر في النفوس وكان الاضطراب الخلقي وانقلاب اوضاعه دليلاً على نضوب حيويتهم اما في عصر النهضة، فان امم غرب اوربا كانت قد دخلتها قبل ذلك عناصر جديدة نشطة لم تصادف من الحوادث الاجتماعية ما يقتل حيويتها واستفادت هذه العناصر من حضارة الرومان ثم جاء عصر النهضة وجاءت معهُ حرية يصحبها شطط فكان هذا الشطط أبعد ظاهرة عما كان عليه الرومان في اواخر عهدهم

على ان الآثام التي كانت في عهد نهضة الإحياء كان اكثرها محصوراً في طبقة خاصة من المترفين والامراء ولا أحسب ان آثام الاشراف في قلاعهم في العصور الوسطى كانت اهون من آثام عهد الاحياء

***

وقد كان عصر نهضة الاحياء عصر ايمان بالحياة وبمطالب الحياة من فكر وبحث وكشف وفنون واصلاح. فاذا وجدت في امة اضطراباً خلقياً واردت ان تعرف الى اي مدى يرجع هذا الاضطراب الى تغير يسبق نهوضاً والى اي مدى هو من مخلفات عصر التأخر فانظر هل تجد الى جانب الاضطراب الخلقي ايماناً بمطالب الحياة من فكر وبحث وأدب وكشف وفنون وهل اهتمام القوم بهذه المطالب اهتمام إجلال متين وشعور عظيم أم انهُ انشغال بها واهتمام بها مصحوب بالصفة السطحية في الفكر والشعور ووراء هذا الاهتمام الظاهر السطحي عدم مبالاة بالحق في كل مظهر من مظاهره النفسية والادبية والفكرية والفنية ووراءه ايضاً الصفات التي تعوق تقدم النهضة فيها مما قد ذكرنا في مقالة «ركدة التاريخ» وهي صفات توجد في كل عصر وانما العبرة بغلبتها. وبقدر تمكنها من النفوس تكون العوائق التي تعوق الحياة الفكرية والنفسية في العلوم والفنون حتى لقد تصير تلك الحياة اشبه بالحارة المسدودة التي لا منفذ لها تسلكها الى مدى معين ولكن لا تنفذ منها ولا بدَّ ان ترجع القهقرى فيها. وتكون تلك الصفات اذا اخذت على النفوس كل مأخذ أشبه بذلك الجدار الذي يسد الطريق وقد يغر المرء ما يجده من مظاهر الحركة والجلبة في تلك الحارة التي لا منفذ لها كما يغره مظاهر الانشغال بالامور الفكرية والفنية في الاوساط التي تشتد فيها الصفات التي شرحت في مقالة « ركدة التاريخ »

— ٩ —

الخَوْخ

معروف شجره وثمره . قال ابو حنيفة الدينوري الخوخ لفة شامية وقال ابن دريد عرب الشام يسمون الخوخ (دُرَّاقِن) وقد تشدد الراء وهو المشهور على الالسنة وهو معرّب سرياني او روميّ او فارسي نقله الجواليقي في معرّبه وأورده جونسون في معجمه . ويقال لهُ بالفارسية (شَفْتَالُو) أو (شفتالود) أو (شفتالوج)

شجرتهُ متوسطة الحجم متساقطة الورق اجزاؤها الخضراوية خضراء اللون داكنة ملساء ورقتها كالحذاء مستطيلة صغيرة منشارية الحافة . أزهارها حمراء وردية عديمة الاعناق تنبثق قبل الأوراق او معها من براعم حرشفية على فروع السنة الماضية . اما ثمرتها وهي الخوخة المعروفة فمن الثمار الزيتونية (ذات نواة فيها بذرة) وذات زغب او ملساء ولها غلاف سميك غض عصاري شديد الحلاوة وهو ما يؤكل منها والنواة توجد غائرة في الغلاف وعلى سطحها شقوق غير منتظمة وبداخلها البذرة ذات فلقتين كبيرتين للواحدة منهما وجه منبسط والآخر محدَّب

اسمهُ العلمي (Prunus persica, Benth. & Hook. fil.) (پرونوس پرسيقا) او (Amygdalus persica, L.) (اميغدالوس پرسيقا) او (Persica vulgaris, Mill.) (پرسيقا ولغاريس) وفصيلته الوردية (Rosaceae) (روزاسية) وبالانجليزية (The Peach-tree) وبالفرنسية (Pêcher)

موطنهُ بلاد الصين وكان يزرع بها في القرن العاشر قبل المسيح عليه السلام ثم انتقل منها الى جنوب اوربا في اوائل القرن الاول من الميلاد ويزرع الآن عادة في الهند وافغانستان وغرب آسيا واوربا ومصر. وينمو برّيًّا في جبال هيمالايا . وأهميته الانتفاع بثماره في الغذاء وأهل

الهند يستعملون القلف من شجره طارداً للديدان كما يستعملون خشب الشجر الذي تقادم عليه الزمن ولم يعد يحمل شيئاً من الثمر في المباني وغيرها

المَنْجُو

معروف في العامية المصرية وهو مأخوذ عن الافرنجية أما في الفارسية فيسمى (نغزك) أو أنْبَه) وهذا الأخير معرَّبهُ (أَنْبَج)

الشجرة منهُ كبيرة دائمة الاخضرار ملساء ترتفع الى ٦٠ قدماً أو ٧٠ في شمال الهند جذعها مستقيم قد يبلغ طول محيطه ١٥ قدماً . أوراقها خضراء داكنة في ملمس الجلد طول الواحدة منها ٦ بوصات الى ١٢ كثيرة في اطراف الفروع مستطيلة الشكل كالحذاء كاملة الحافة او متموّجتها غالباً عنقها منتفخ القاعدة . نورتها من النوع العنقودي كبيرة قائمة مزغّبة قليلاً . زهراتها صفراء فائحة قوية الرائحة . في النورة الواحدة زهرات تذكير واخرى خنثى . أما الثمرة فيتراوح طولها بين ٢ و٦ بوصات صفراء عند النضج عادة ذات نواة ليفية منبسطة على نوع ما

اسمهُ العلمي (Mangifera indica, L.) (مانجيفيرا إنديكا) وفصيلته البُطْمية او البَلاذرية (أَنَكَارْدِيَاسية Anacardiaceae) وبالانجليزية (The Mango-tree) وبالفرنسية (Manguier)

أصل موطنه جزيرة سيلان وانتقل منها الى الهند والآن ينمو بريًّا في غابات بورما وجبال هيمالايا ويسمى النوع البرّي منه (Mangifera sylvatica, Roxb.) (مانجيفيرا سيلڤاتيقا) وبالانجليزية (Wild Mango) وقد انتشر في بلاد أخرى كثيرة كجزائر ملايا والارخبيل الهندي وجاوى والبرازيل وأمريقة الاستوائية ومصر والسودان

وثمر المنجو غذاء مهم لعدد كبير من اهالي الهند وأنواعه الجيدة هي المطعمة وتكون طرية عصارية لذيذة الطعم عطرية الرائحة تؤكل طازجة او تربّب عند نضجها والفجة منها تخلل او تجفف للصباغة او تقطع شرائح وتجفف ويتجر بها. وفي جاوى يحصل منها على نشا. والهنود يغلون البذور ويأكلونها في ايام القحط ويداوون بها بعض امراض الرحم وقلف الشجر وورقهُ قابضان يتطبّب بهما ويحصل منهما على صبغة صفراء تستعمل نادراً . وقد يحصل على صمغ قرمزي اللون من جروح قلف الشجر . ويستعمل الخشب وقوداً لاحراق الموتى أو في نجارة الابواب والشبابيك وبعض القوارب ويستاك بذنيبات الاوراق

التَّنْضُب

معروف بهذا الاسم في مصر والسودان للأعراب ويقال لهُ في مصر ايضاً (الحَقْبَق) وفي بلدان أخرى (السُّدَّاد)

يكون شجيرة او شجرة صغيرة شائكة يندر ان ترتفع الى ٢٠ قدماً جذعها قائم يتراوح طول محيطه بين ٤ اقدام و ٥ وفي النادر بين ٧ و ٨ وهي عديدة الاغصان عديمة الاوراق على وجه عام فلا تشاهد اوراقها الاَّ على الاغصان الصغيرة فقط بسبب سقوط الاوراق الكبيرة باكراً وهذه الاوراق ملساء بلا أعناق الواحدة منها في صورة الخرز طولها ٤½ ملّيمتراً واحياناً تكون ملعقية الشكل طولها ١٢½ ملّيمتراً . واذينات اوراقها عبارة عن اشواك سمراء وأزهارها حمراء تضرب الى السمرة او قرمزية مجتمعة في نورة مشطية وثمرتها كرية الشكل او بيضية في حجم الكرزة الصغيرة حمراء عند النضج تسميها عرب السودان (الحَنْبَج)

اسمهُ العلمي (Capparis decidua Pax.) (ڤپاريس دسيدوا)

أو (ڤپاريس افيلا = (Capparis aphylla, Roth. = Sodada decidua, Forsk.) سودادادسيدوا) وفصيلته الكبرية (Capparidaceae) (كپاريداسية)

وهو ينمو في الهند وبلاد العرب ومصر والنوبة والسودان وغيرها وخشبه مرّ الطعم يستعمل في الهند والسند في نجارة السقوف وفي صنع الزوارق ومعاصر الزيت والآلات الزراعية وكوقود لاحراق اللَّبِن (الطوب) في القماين وتؤكل البراعم الزهرية بعد وضعها في الخل وتطبخ الثمار الفجّة كما يصنع من الثمار الناضجة والفجة نوع من المخلّل باضافة الملح والفلفل للتصدير

اما في السودان فعلاوة على اكل اهله للثمار فانهم يستعملون النبات في علاج بعض امراض الجلد والمفاصل

الكَبَر

او (اللَّصَف) محركة لغة في (الأصَف) الواحدة لَصَفة معروف بهذا في مصر والسودان ويسميه أهل العراق (الكَبَر) . أما ثمره فالعرب تسميه (الشَّفَلَّح) وفارسيته (الشَّفَلَّج) وذلك اذا انشق وتفتح كالبرعومة ويعرف في مصر أيضاً (بشوك الحمار) و (ورد الجبل)

يكون شجيرة قصيرة متفرعة شائكة تنفرش او تتسلق اجزاؤها الصغيرة مغطاة بشعر أملس يضرب الى البياض أو الخضرة لا يلبث حتى يسقط . أذينات اوراقها صغيرة شائكة مقوّسة او مستقيمة . أوراقها بيضية الشكل عريضة او شبه مستديرة لحمية على نوع ما مغطاة بغشاء شمعي أبيض ملساء ذات أعناق . أزهارها بيضاء كبيرة جميلة المنظر عرض الواحدة منها ٢ ½ سنتيمتراً الى ٧ ½ توجد فرادى في آباط الاوراق او تضمها سنابل جانبية غير مكتظة وفي كل زهرة ٤ سبلات (أوراق الكأس) الثنتان الخارجيتان منها اكبر حجماً من الداخليتين و ٤ بتلات

(أوراق التويج) كبيرة بيضاء وأسدية (وحدات عضو التذكير) عديدة خيوطها طويلة واشيراتها أرجوانية اللون . ثمرتها بيضية الشكل مستطيلة طولها ٢ ١/٢ سنتيمتراً او اكثر ولها عنق متين يتقوّس الى أسفل عند النضج وتنفتح الى ثلاثة مصاريع او اربعة حمراء اللون قانية من الداخل

اسمهُ العلمي (Capparis spinosa, L.) (قپاريس اسپينوزا)

أو (Capparis obovata or Capparis aegyptiaca, Lam.) (قپاريس اوبوواتا أو قپاريس ايجيبتياكا) وفصيلتهُ الكبريَّة او اللصفيَّة (Capparidaceae) (قپاريداسية) وبالانجليزية (Common Caper-Tree; The Caper-Bush) وبالفرنسية (Caprier epineux)

وقد جاء في بعض المراجع ان اسم (Capparis) (قپاريس) المشتق من (كَپَر) (Kapar) اسم النبات العربيّ كما وان اليونانيين اشتقوا منهُ أيضاً اسم (Kapparis) وهو يكثر في جنوب اوربا وشمال إفريقية وغرب آسيا وجنوبها وشمال استراليا والهند والسودان ومصر يمو على الصخور والطلول بخاصة ويزرع في الحدائق لجمال أزهاره وأغصانه الخضراء الطويلة كما يزرع لبراعمه الزهرية (Caper buds) في جزيرة صقلية وفي البساتين بضواحي مدينة طولون بجنوب فرنسا بين شجر التين والزيتون ويربى في ضواحي باريس على الجدران المنخفضة فاذا جاء الشتاء رُقّدت أغصانه وغطيت بالتراب لوقايتها من الصقيع

والكبر مرغوب فيهِ في انحاء اوربا للحصول على الكبر الاوربي (Capers of Europe) المعروف في التجارة كما وان المعز والاغنام تحب أكل أوراقه وثماره الناضجة . وفي ايطاليا تملّح الثمار الفِجّة الصغيرة والبراعم الزهرية من الكبر وتحفظ في الخل فان كليهما يكون عادةً لذّاعاً كاوياً قبل ذلك . وفي جزائر بحر الروم وبالقرب من مدينة طولون تجنى البراعم الزهرية مباشرةً قبل بدءِ تفتحها وانتفاشها في كل يوم مدى ستة شهور ذلك لان هذا النبات بعدئذٍ يأخذ في الإزهار فلا ينتفع ببراعمه في صنع تلك المخلّلات وطريقة ذلك هي ان توضع البراعم في براميل بمجرد جنيها ويضاف اليها ملح وخل بحيث يغمرها وكلما زيدت البراعم في البراميل زيد مقدار الخل وعند انتهاء فصل جني الكبر يفرّغ ما في البراميل ثم تفرز البراعم حسب حجمها ولونها وأحسنها ما كان صغير الحجم شديد الخضرة ثم توضع البراعم بعدئذٍ في براميل صغيرة او زجاجات مع خل طازج للاتجار فيها وبذلك تبقى صالحة للاستعمال في الاكل خمس سنين او ست والعنصر الكيمائي الموجود فيها يسمى (Rutin) (روتين)

ويوجد نوع آخر من الكبر اسمه العلمي (Capparis galeata, Fres.) (قپاريس جالياتا) وهو كثير الشبه بالسابق ينمو في وسط إفريقية وبلاد العرب وغرب الهند والسودان ومصر ومنافعه كالسابق

مقتل فيلبس

لاسماعيل مظهر

— ١ —

«المشهد حجرة الملكة أولمبياس، زوج الملك فيلبس المقدوني، بمدينة ايجه . الحجرة مطله على حديقة القصر، والوقت ليلا، والقمر مرسل اشعته من خلال الاشجار الملتفة، والسكون شامل كل الارجاء ، اللهم الا حفيف الاشجار، اذ تفيئها نسمات تهب من ناحية البحر »

الملكة أولمبياس ، وابنها الاسكندر في خريف سنة ٣٣٦ ق . م .

أولمبياس — أأنت شجاع يا بنيّ ؟
الاسكندر — إلاّ عليك يا أماه

. . . . كيف أراك اليوم صامتة واجمة ، وفي عينيك دمعة حائرة . ليت شعري أتلك دمعة الحزَن ، أم دمعة الألم ، أم دمعة القسوة والانتقام ؟ أدمعة الشهوة الى الدماء هي ، أم دمعة الفرح بنبإٍ عن أبي وغزوات جيشه في في ميدان الشرق ؟

. . . . لماذا انت صامتة كتمثال ڤينوس ؟ إنما هو صمت ينم على تعابير لم أعهدها من قبل . ان ما يمتزج بهِ دمعك من معاني الغضب ، يذهب بكل الأنوار المنبعثة من قلبك

. . . . تكلمي يا أماه . بوحي بنجواك لابنك . . . وليّ عهد مقدونيا ووارث فيلبس العظيم . . . . ابنك الملك غير المتوّج اليوم ، والذي سيكون يوماً من الايام سيد هذه البلاد . . . . وسيد إفريقية السوداء . . . . وممالك فارس . . . . . وآسيا جميعاً

أولمبياس — نبأ يذهب بآمالك ويبدد أحلامك . نبأ أخشى أن تفتر أزاءه همتك وتخونك شجاعتك
الاسكندر — أي نبإ يا أماه ذلك النبأ العظيم ؟ أظهر المُذَنَّبُ في شرقي الأفق ينذر بخراب هذه الديار ، أم مات القائد «فرمنيون» ساعد أبي الأيمن ؟ أمات « هفسطيون » زميلي ، أم قضي على بطلميوس بن لاجوس ، أقرب شباب مقدونيا من قلبي وأنزهم من نفسي ؟

. . . . إن صمتك أليم يا أماه ! ان هدوءك وحزنك وغضبك .... وظهور جماع ما فيك من صفات فذة في الصورة التي تلابس ملامحك في هذه اللحظة ، يكاد يذهب بعقلي !

. . . . تكلمي ! . . . قولي أخيراً — هل قتل « فِرْذِقَّاس » في المعركة الاخيرة ؟ بل خبريني أقتل أبي ؟

أولمبياس — أبوك ! . . . . . أتذكر أباك وتخشى عليه الموت ؟ بل اخشَ الموت أن يكون من نصيبك ؟ واخشَ الطرد والحرمان . واخشَ ان تصبح أفّاقاً ، تطوي الاقطار مرتزقاً ، إما بسيفك إن كنت من سلالة الملوك ، وإمّا بماء وجهك ان كنت من سلالة الصعاليك والدهماء

........انك يا بنيَّ ما تزال صغير السن ، قليل الخبرة بالحياة . ولكن........

الاسكندر — ولكن ماذا يا أمّاه . . . . . ولكن قولي احرمني ابي من وراثة عرشه ؟ ألم تخبريني أني ابن « زفس — أمون » ؟ وأني سوف املك مشرق الشمس ومغربها !

اولمبياس — (مغضبة) ألم أنهكَ من قبل ان تكتم هذا السر وان تقبل أبوّة فيلبس ، حتى يحين الوقت الذي تعلن فيه ابوّة الآلهة ؟

. . . . . يا لك من احمق

الاسكندر — لئن كان ابي قد حرمني ..... فلا تَنسَيْ ان « نقطانيذو » قريب ، وأن سحره رهيب شديد

أولمبياس — ان فيلبس اذا لم يكن قد حرمك من وراثة عرشه ، فانه يكاد يفعل

الاسكندر — اوهام تغذيك بها اوفاسطيا ، وأضاليل ينقلها اليك ذلك العبد الافريقي !

اولمبياس — اتذكر الاوهام والاضاليل ايها الفتى ، وأبوك يتهمني بالخيانة ، توطئة لطردي من قصره الملكي ، ليتزوج من كليوبطرا

الاسكندر — كليوبطرا ! ابنة أخ أطالوس ! . . . . ولكن اي جديد في هذا ! لقد

تزوج ابي من نساء كثيرات قبل اليوم . فهل يبيع وارث عرشه من اجل امرأة جديدة يتزوجها ؟

اولمبياس — أغاب عنك ان أباك رجل متردد كثير الشك ، قليل الثبات على عقيدة ؟ فهو لا يبيع الاسكندر من اجل امرأة ، وانما يبيعه من أجل ولد جديد يرزقه من زوجة جديدة تفضل امك جمالاً وشباباً وفتنة ! نعم ..... انه يضحي بك من أجل ولد يرزقه من كليوبطرا الفاتنة ...... ولد من صلبه ، لا ولد يهبهُ لهُ « زفس — آمون » . وأنت تعرف فوق ذلك ، ومن حوادث وقعت بين جدران هذا القصر الملكي أن أطالوس ....

الاسكندر — لئيم غادر

اولمبياس — وشيء آخر فوق انهُ لئيم ، وفوق انه غادر

الاسكندر — وأنه يرغب في ان يكون عظيماً في هذه الديار ، وان يقصي عن ابي خلصاءه ! فرمنيون وفرذقاس و ....

اولمبياس — لقد قربت ان تفهم الحقيقة .... فزد الى هذا شيئاً آخر

الاسكندر — أيطمع في ان يكون قائدَ مقدونيا الاعظم ؟

اولمبياس — وشيء فوق هذا .....

الاسكندر — أيتطلع ان يرسله أبي على رأس الجيش المعد لغزو بلاد فارس ...... وقد يساعده الحظ ، فينشيء قيصرية شرقية تنابذ مقدونيا ؟ .....

اولمبياس — وشيء آخر فوق هذا !

الاسكندر — شيء آخر ...... لم يبق إذن الاّ عرش مقدونيا نفسه

اولمبياس — ذلك هو مطمعه ...... تلك هي امنيته ...... ذاك هو امله ومناه . فحياتك عقبة في سبيله ، وأصدقاؤك هفسطيون وبطلميوس وسليوقوس وأنطيغونس اعداؤه . وهو اشد لدادة لصديقك النبيل فوزانياس ، زهرة شباب مقدونيا وأنبل نبلائها ، منه الى الاوّلين

هذا هو النبأ الذي استودعك سرّه . فكن شجاعاً يا بنيَّ ، وتلقَّ الحوادث قوي القلب ثابت الجنان

الاسكندر — كما عهدتني يأماه .... ولكن هدوء نفسك ، وسكون جأشك ، يجعلاني أشك في صحة هذا السر الذي تفضين به إليَّ . ولولا دموعك ، اذن لكنت الى الشك فيه اقرب مني الى اليقين به

وأخذ يمشي في القاعة ذهاباً وجيئة ، ويده اليمنى على مقبض خنجره ، وقد تدلت جدائل شعره الأسود على عنقه الفضي الجميل

. . . . — اذن فعرشي وتراث آبائي في خطر . . . . . ذلك القائد أطالوس يتطلع إلى عرش أبي . كلاَّ . ان مقدونيا لن يحكمها الاَّ الاسكندر وحده . أمَّا أطالوس فلن يصل الى غرضه بمفاتن امرأة يقدمها لابي ذبيحة لاغراضه وضحية لمراميه . . . . يالك من أب . . . . . ترمي الأم بالخيانة إرضاء لشهواتك المستعرة ، وتلقي الابن بين انياب المطامع الدنيوية ، وانت غارق في بحر من الأوهام التي يحيك شبكتها من حولك رجال انت لهم آمن ، وبهم واثق ثقة الغفلة والضعف

وكانت أمه أولمبياس ترمقه معجبة بتؤدته ورصانته التي لم تكن الاَّ ظاهرة تختفي وراءها النار المتأججة في صدره ، والثورة العنيفة التي تكمن في أعصابه

الاسكندر — الى الملتقى يا أماه

اولمبياس — في حراسة زفس . . . . وبارادة الالهَ المريخ

الاسكندر — سيكون لي ملك الدنيا

في حديقة القصر الملكي — الاسكندر وفوزنياس

الاسكندر — لقد طاش سهمك يا فوزنياس . لم أعهد فيك من قبل ان تخور عزيمتك فيرعش القوس في يدك ويضل السهم مرماه

فوزنياس — هذا شذوذ لا يقاس عليهِ . ألم يخبرنا ارسطوطاليس أن القياس يكون مع الكثرة لا مع الشذوذ ؟

الاسكندر — صَه . . . . دعنا الآن من ذكر ارسطوطاليس . انما نحن في موقف لا يجب ان ننبه فيهِ العقل والمنطق . انما نريد ان نوقظ الارادة ونحرك الشهوات

صوّب يافوزنياس مرة اخرى . صوّب نحو القلب وارم السهم بيد ثابتة . كن شجاعاً ولا تخشَ أن يصيب سهمك قلب الملك انما هي ثيابه المعلقة على جذع الشجرة

فوزنياس — ربك يا مولاي خبرني ؟ ما الذي حملك على ان تأتي بثياب جلالة الملك وتجعلها من فوق الشجرة هدفاً لسهامنا هذا الصباح ؟ إني لأرى ان في ذلك جرأة على حرمة جلالته ليس من حقك ان تنتهكها ، وان تدعو شاباً مثلي الى مشاركتك في هذا الانتهاك الوبيل

ليت شعري ما يكون مصيرنا لو ان جلالة الملك يعلم بعبثنا هذا ؟ أني اشك في انهُ يغفر لنا هذه الزلة ؟ أما مصيري فالنفي — وأما مصيرك . . . .

الاسكندر — فالحرمان والطرد

فوزنياس — يا للآلهة . . . . الحرمان . . . . . الطرد ! أيحرم وريث عرش مقدونيا من وراثة عرش أبيه العظيم تلفاء عبث ، هو من عبث الشباب اهون ضروب العبث ؟

الاسكندر — أرم السهم أيها النبيل . . . . صوّب بتؤدة ، فان السهم يجب أن يخترق القلب . يجب أن يخترق الصميم ، وان يسيل الدم كفارة عن ذنوب الحياة

قف هنا — قدم رجلك اليسرى قليلاً ، وأحن ركبة رجلك اليمنى وثبتها في الارض ، واقبض على القوس بيدك اليسرى واستوثق ، وشد الوتر بقوة وصلابة بيدك اليمنى ، وصوّب . . . .

***

. . . . ولم يكد الاسكندر يتم كلامه حتى خرج السهم من قوس فوزنياس يئز أزيزاً ، وأهوى نحو الصدر فاخترق الثياب وغاب في جذع الشجرة إلى دون النصاب

والتفت فوزنياس إلى الاسكندر ليرى أثر ذلك في نفسه فألفاه مطرقاً غارقاً في تيه من الافكار ، وقد اعتمد على القوس الذي بيده خشية أن يسقط ، والقى جعبة السهام ناحية

***

فوزنياس — ما انتابك يامولاي ؟ أتشكو ألماً — أبك من سوء

الاسكندر — كلاّ أيها السيد — كلاّ ايها الصديق النبيل .... إنما شعرت بأن السهم اخترق قلبي عليّ بثياب أبي . . . . عجل يافوزنياس واتبعني

في ردهة القصر الكبرى

فوزنياس — ما هذه الاحاجي يامولاي؟ ماالذي يحملك على أن تجعل ثياب الملك غرضاً لسهامي وحدي ؟ انك لم تصوّب اليها مرة واحدة . . . . . . ثم أمرتني بأن اصوّب نحوها فأخطأت مرة وأصبت أخرى . . . . ثم امرت بأن أحضر الثياب وأتبعك . . . . إلى هنا . الى ردهة القصر الكبرى

بحق زيوس يامولاي لا تستسلم للغضب ، ولا تجعل عقلك نهباً للشهوات....

أبمثل هذا الاحتقار تُـرْمى ثياب الملك فيلبس . . . . ثم يركلها وريث العرش بقدمه . ان في ذلك لدلالة على أن عواصف القدر تتجمع في جو مقدونيا

الاسكندر — عواصف هوجاء يا فوزنياس . بل ثورات وأعاصير . كيف لا وعرش مقدونيـا يرجف تحت قدمي أطـالـوس

فوزنياس — أطالوس . . . . ! وأين سهامي ، وأين خنجري وساعدي . يا لهُ من لئيم . أطالوس الماكر الغبي يتطلع إلى عرش مقدونيا

لا يا مولاي . لاتذهب مع الحدس إلى هذه النهاية . إن أطالوس أضعف من أن يتطلع إلى العرش . إن قلبه لينهد فـرَقاً ، ويتبدد مِزَقاً ، إن هو فكر في هذا الامر . ناهيك بأن يقدم على العمل له

لا ياMولاي . لو أنك ذكرت فَرْمِنيُون أو فِرْذِقّـاس ، إذن لـكنا إلى تصديق النبـأ أميل . فان فرمنيون فيهِ قلب ، وفرذقّـاس فيهِ عقل . والانسان في هذه الدنيا إما بقلبه وإما بعقله . وأطالوس ليس فيهِ إلاّ النفاق . وهو من صفات الحمقى والجهلاء

الاسكندر — إن الحمق والسفه ، إن استعانا بالمرأة تختلب لب رجل واهي الارادة متقلب الاهواء مرِج النفس حائر الروح ، زَوَّدا أطالوس بسلاح مرهف رهيب . وكما أن في حقبتك سهاماً،وفي يدك خنجراً،فان في يد إطالوس كليوبطرا ابنة أخيه

فوزنياس — كدت أدرك الحقيقة يا مولاي . إذن نخذ حذرك . إني أعظك أن تكون من الغافلين . . . . . كليوبطرا تحل محل اولمبياس ، وولد منها يحل محل الاسكندر بعد ان تمَـزّق الاسكندر خناجر أطالوس وشيعته . لا وحق زفس . فان دمي ثمن: إما لعرش فيلبس ، وامّـا لعرش الاسكندر

الاسكندر — سرعان ما نسيت يا فوزنياس . ما أضعف ذاكرتك

فوزنياس — لم أنْـس من شيء يا مولاي . لم أنسَ ان سيف أطالوس محدود باتر ، وان يده قوية باطشة عند ارادة الشر ، وان اعوانه اشد منهُ بطشاً وأنـفـدَ منهُ صبراً في انتظار الغنيمة . لم انسَ يا مولاي ان حقد أطالوس وطمعهُ وجشعهُ وتطلعهُ الى عرش ابيك ، كلها عوامل تورى في صدره نيران الحقد والغضب ،فتجعل سلاحهُ اشد فتكاً ، وأرهف بتراً

الاسكندر— كلاّ لقد نسيت ان « نقطانيبو » آخر ملوك الفراعنة الذي طرده الفرس من بلاده واكبر السحرة في تلك البلاد العجيبة المحوطة بالاسرار ، هو الذي وهبني بسحره

لأمي أولمبياس ، وكانت قد شكت اليه ان آلهة الاغريق الذين يحيكون شبكة هذا الوهم الدنيوي ، قد نبذوها في صحراء العقم المجدبة . فوعدها بان يزورها « زفس — آمون » منسلخاً في صورة افعوان فيهبني لها ويهبني في الوقت نفسه ملك الارض . فلما حملت بي شق على أبي ان تكون أمي قد حملت بي بغياً ، فتجلى له «زفس—آمون» بالصورة التي تجلى بها لامي، وقص عليه قصتها وقصتي

فلستُ يا فوزنياس كما تعلم سليل ملوك الارض ، وانما انا سليل آلهة السماء سليل اولئك الذين ينزلون جبل أولمبوس الأعلى ويشرفون بسلطانهم الأبدي على تقدير ما يقع في هذا العالم من أحداث . فلا خناجر أطالوس وشيعته ولا حقد كايوبطرا وفتنتها ، ولا تردد فيلبس بمغنٍ عنهم شيئاً . فان أبي الأبدي يرمقني بعين لا تنام ، والقدر يهيء لي سبيل السيادة على هذه الدنيا ولسوف اضرب فيها حتى ابلغ مجمع البحرين ، او مطلع الشمس

فاذهب يا سليل نبلاء مقدونيا وفخر شبابها ، ولتكن يدك قوية ثابتة ، وسلاحك باتراً مرهفاً ، واغمد خنجرك ، اما في صدر اطالوس ، واما في صدر فيلبس . وايهما اخذت فدمه لك حلال

أنا هبة نقطانيبو وروح «زفس ـ آمون» آمرك بأن تنفذ وعليك ان تصدع بالامر

فوزنياس — (راكعاً أمام الاسكندر) سمعاً وطاعةً يابن السماء

الاسكندر — هيء نفسك للساعة الرهيبة واشحذ خنجرك ، وحُدّ من غرب سيفك ، وتزود من مخايل المجد التي تنتظرك تحت لوائي على ضفاف النيل ، ومن فوق هضاب آسيا ، بشجاعة تسدد خطواتك وتثبت فؤادك

وكما اني آمرك بأن تقتل بضربة تهتز لها أوتار القلوب ، سأهيء لك سبيل النجاة من شيعة أطالوس ، ومن سيف فِرْذِقّاس ، وخنجر فرمنيون ، واترابهم قواد جيش أبي

سأضفي عليك الحماية التي استمدها من أبي الأبدي . فهيء نفسك ، وانتظر الامر الاخير

فوزنياس — إني في غير حاجة لان أتهيأ يا مولاي فلست في ساعة اشجع مني في اخرى ولا اخلاصي لك بأثبت في آونة منهُ في غيرها . فانما لك الامر وعليَّ الطاعة

الاسكندر — إنما تهيأ للمجد والرفعة وخلود الذكر في سبيل مقدونيا

فوزنياس — لبيك . لبيك . يا سليل آلهة اولمبوس

[لها تتمة]

النور والاضاءة

٢ — عيار الضوء

للدكتور الياس صليبي

﴿ عيار الضوء الكروي او اللومن Lumen ﴾ ظهر مما تقدم ان متوسط قوة الضوء الصادر من مصباح الى الجهات المختلفة لا ينطبق على ما يصدره هذا المصباح الى كل جهة على حدة لانه لا يحدث ان يشعّ المصباح مقداراً واحداً من الضوء الى جميع الجهات وهذا الاختلاف يحول بيننا وبين معرفة مجموع الاشعاع مع ما لمعرفته من الشأن في الاضاءة . ولكن لنفرض اننا صنعنا مصباحاً قوته شمعة واحدة ويشعّ قدراً واحداً من الضوء الى جميع الجهات ووضعناه في مركز كرة محورها متر واحد فكل نقطة من هذه الكرة يصلها نور قوته شمعة واذا فتحنا في سطح هذه الكرة نافذة مساحتها متر مربع صدر منها قدر من مجموع الاشعاع الضوئي يمكننا ان نعتبرهُ عيار الاشعاع الكروي ويعرف باللومن وقد نتساءل حينئذٍ كم هو مجموع الاشعاع الضوئي الصادر من هذا المصباح.والجواب أنهُ ١٢ر٥٦ من اللومن لان مساحة سطح الكرة التي محورها متر واحد هو ١٢ متراً مربعاً و $\frac{٥٦}{١٠٠}$ من المتر المربع

***

﴿عيار الاضاءة او اللوكس Lux ﴾ لايظهر لعيارات قوة الضوء ولا لعيار الضوء الكروي فائدة عملية قاطعة لان الغاية من المصباح ليست ان يضيء بنوره كل النواحي وانما الغاية ان يضيء لنا مساحة معينة على مكتبنا مثلاً او على شيء تنظر اليه وبعبارة ثانية على جزء صغير من سطح الكرة التي يسقط عليها نوره هذا من حيث عيارات قوة الضوء . اما من حيث عيار الضوء الكروي فلا يحدث ابداً أن يكون السطح المنار جزءًا من كرة يسقط على المتر المربع منهُ ١٠ أو ١٠٠ «لومن» بل هو غالباً سطح مستوٍ تنيره اشعة منحرفة او هو شيء مختلف السماكة لا يمكن ان تنار كل اجزائه بنفس القوة فليس للومن اذاً فائدة عملية في هذه الاحوال لان ما يهمنا

معرفته هو كما تقدم قدر النور النافع الذي يضيء سطحاً معيناً ولذلك كان لا بدّ لنا من استنباط عيار يفي بهذ الغرض وهذا العيار هو اللوكس

لنضع سطحاً مستوياً على مسافة متر من مصباح قوته شمعة عشرية فالنور الذي يصل إلى هذا السطح لا تكون قوتهُ شمعة كاملة الاَّ في نقطة واحدة وهي التي تسقط عليها اشعّة المصباح سقوطاً عموديّاً فقدر الضوء الذي ينير هذه النقطة هو اللوكس

ولا يمكننا بغير جهاز خاص أن ندرك ما يمثله اللوكس الاَّ بصعوبة ذلك لأن تأثيره في العين يختلف باختلاف لون السطح المنار ولمعانه فانك اذا أنرت سطحين احدهما كمِد والآخر لامع بمصباح واحد ظهر الاول أقلّ اضاءة لامتصاصه جانباً من النور الذي يسقط عليهِ

على ان اللوكس هو عيار الاضاءة العملي ولهُ مقياس خاص يعرف باللوكسيمتر سنصفهُ فيما يلي. وهذا المقياس يدل على عدد اللوكسات التي تضيء شيئاً معيناً ويرينا كيف تتغير الاضاءة وفقاً لقوة المصباح والمسافة التي بينهُ وبين الشيء المنار. فاننا اذا نظرنا الى شكل ١ وجدنا مصباحاً قوّتهُ شمعة (م) ينير بقوة لوكس سطحاً في نقطة (ا) مساحتهُ متر مربّع وبعده عن المصباح متر واحد. ولـكن اذا ابعدنا هذا السطح الى مترين يصبح في نقطة (ب) وتصير قوّة انارتهِ ربع ما كانت في نقطة (ا) لان مجموع الاشعة التي كانت تسقط كلها عليهِ في نقطة (ا) تنتشر في نقطة (ب) على مسطح مساحته ٤ امتار مربّعة واذا أبعدنا السطح الى ٣ أمتار اي الى نقطة (ج) وجدنا ان الاشعة المذكورة تنتشر هناك على ٩ امتار مربّعة وان قوّة انارة السطح تصبح تسع ما كانت في نقطة (ا) وهكذا نصل الى قاعدة طبيعية يجب ان نحسب لها حساباً كلما اردنا ان نضيء مكاناً وهي ان قوّة الاضاءة تنقص كمربّع المسافة

***

﴿ مقياس الضوء او الفوتومتر Photomètre ﴾ تُقاس قوّة الضوء لمعرفة ما تبلغهُ من عدد الشموع بمقياس خاص يعرف بالفوتومتر صنعت منهُ انواع عديدة بعضها دقيقٌ جداً كفوتومتر بلوندل. وكان المشتغلون بفن الاضاءة يكتفون أولاً بتعيين قوّة النور المنبعث أفقيّاً من نقطة واحدة من المصباح ثم صاروا يحسبون متوسط القوّة المنبعثة أفقيّاً من نقط عديدة منهُ ثم بدأوا زيادة في التدقيق يعيّنون المتوسط العمودي ايضاً وهم الآن يقيسون قوّة المصباح بتعيين قوّة اشعاعه في نقط محصورة عموديّاً وأفقيّاً وذلك بأن يرسموا على ورقة نصف دائرة فيها أشعّة يبعد كلٌّ منها عن الآخر ١٠ او ١٥ درجة ويقيّدوا على كلّ من هذه الاشعّة القوّة التي أظهرها قياس الضوء في اتجاهه ثم يُمَدُّ بين جميع النقط خطٌّ منحنٍ هو رسم لقوّة الضوء في سطح مخصوص

وبواسطة هذه الخطوط يعيّن صانعو المصابيح قوّتها ويدرسون التحسينات التي تدخلها عليها الاجهزة التي تغيّر اتجاه النور كعاكساته وناشراته réflecteurs et diffiseurs

***

﴿مقياس الاضاءة او اللوكسمتر Luxmètre﴾ اخترع بلوندل عدا مقياس الضوء المذكور آنفاً مقياساً يعرف بهِ مجموع الاشعاع الضوئي الصادر عن المصباح يسمّى «لومنمتر» ومقياساً آخر لمعرفة عدد اللوكسات التي تسقط على سطح منار يعرف باللوكسمتر وكل هذه المقاييس دقيقة جداً وقد صنعت شركة المصابيح الفرنسية لوكسمتراً سهل الاستعمال يمكن حمله بسهولة . واليك وصفه كما تراهُ في شكل ٢

علبة صغيرة طولها اكثر من عرضها تقفل من الاعلى بلوح من زجاج تغطّيه طبقتان من الورق الاولى كثيفة وفيها صف من الثقوب المستديرة والثانية شفافة . وفي داخل العلبة مصباح متوهّج تشعله بطّارية من بطاريات الجيب ويوضع هذا المصباح في الطرف الايمن فينير الثقوب المجاورة لهُ بشدّة وينير الثقوب التي الى اليسار بضعف تدريجي فاذا وضعنا هذا المقياس على مكتب ينيره مصباح معلّق في السقف مثلاً اصطدم مقدار الضوء الذي يسقط من هذا المصباح على ثقوب المقياس بمقدار الضوء الذي يصدر عن المصباح الموضوع في داخل العلبة فينتج عن ذلك ان الثقوب التي الى اليسار اي التي يصلها أقلّ قدرٍ من الضوءِ تغدو مظلمة بينما تبقى الثقوب التي الى اليمين مضاءة ونشاهد حينئذٍ درجات من الاضاءة تمتدّ من المظلم الى المنار مارّة بين هذين الطرفين بجميع درجات الاضاءة ولكن أحد الثقوب يصله مقدار واحد من الضوء من الاعلى والاسفل اي من المصباحين فهذا الثقب يختلط بشفوف لوح الزجاج ويدل على عدد اللوكسات التي تسقط من المصباح المعلّق على المكتب

اما لوكسمتر بلوندل الذي ذكرتهُ آنفاً فقد اخرجتهُ شركة هلوفان وهو دقيق جداً وخفيف يسهل نقله ويعيّن بالضبط قوّة الاضاءة في كل نقطة داخل الابنية او في الخلاء ومقدار النور الساقط على شيء معين سواءٌ اكان النور ابيض او ملوناً وسواءٌ اكان ضعيفاً لا تزيد قوّته على جزء من مائة من الشمعة الواحدة او باهراً لا تنقص قوتهُ عن عشرة آلاف شمعة ولا عيب فيهِ سوى ارتفاع ثمنه . وتحسن الاستعانة باللوكسيمتر في المدرسة لمعرفة مقدار الاضاءة في الحجرات المختلفة وفي كل ناحية من هذه الحجرات بالتدقيق لتخصيص كل حجرة للغرض الذي يتفق مع مقدار انارتها ثم لتعليق الالواح الخشبية ووضع مكاتب التلامذة في أشدّ الاماكن انارة داخل هذه الحجرات

هيلفيتيوس وكنت

وأثرهما في فن التربية

حسن كامل

﴿ هيلفيتيوس (١٧١٥—١٧٧١) ﴾ . وضع هيلفيتيوس كتاباً ضخماً عنوانهُ « الانسان وتربيته وملكاته الفكرية » . وقد قضى خمسة عشر عاماً في كتابته ولم يظهر هذا الكتاب الاَّ بعد موته في عام ١٧٧٢ . والحقيقة ان المؤلف لم يتناول بالبحث مسائل التربية الاَّ في الفصلين الأول والأخير من هذا الكتاب . اما باقي الكتاب فهو دراسة لمبادىء فلسفية كالمساواة الفكرية بين الناس وتأثير القوانين في سعادة الشعوب وما الى ذلك من الشؤون الفلسفية

﴿ اثر التربية ﴾ . يقول هيلفيتيوس « ان أثر التربية كبيرفي تكوين الافراد بل هي سبب كل ما يوجد من فروق بين عقول بعضهم وعقول البعض الآخر . وان عقل الطفل كفاءة فارغة بل شيء غير محدود ليس لهُ استعداد خاص . وان التأثيرات المحسوسة هي التي تكوّن الذكاء وعلى ذلك فأهم الاشياء هو ما نكتسبه بواسطة الحواس التي هي في الواقع انفع ما في الانسان». ويقول ايضاً «ان التأثيرات المحسوسة هي جوهر الطبيعة الانسانية» . ولما كانت هذه التأثيرات تختلف باختلاف الظروف فان هيلفيتيوس يستنتج ان تكوين العقول والاخلاق متوقف على الصدفة ويعتقد انهُ من المستطاع ان نكون رجالاً نابغين او على الاقل ذوي مواهب خارقة . وانهُ لتحقيق هذا الغرض يكفي ان نلاحظ بدقة الوسائل التي تستخدمها الصدفة لاخراج الرجال العظماء . فاذا عرفنا هذه الوسائل لم يبقَ علينا الاَّ ان نستخدمها لنصل إلى النتيجة نفسها . ويؤكد هيلفيتيوس ان غرابة هذا الرأي لا تتعارض بتاتاً مع صحته . ويضيف الى ذلك قوله «ان النبوغ ثمرة من ثمرات الصدفة» وروسو كغيره من الرجال المعروفين كثيري العدد ليس الاَّ تحفة من تحف الصدفة

﴿ ديدرو يفند هذه الآراء ﴾ . وقد فند ديدرو آراء هيلفيتيوس فأعاد الى طبيعة الانسان وميوله التي تولد معهُ مالها من تأثير في تكوين الخلق . فالواقع انهُ على الرغم من كل ما يقال عن اثر التربية فهي لا تستطيع ان تخلق الميل خلقاً او تحل محل الطبيعة . وغاية الامر — كما يقول احد علماء

التربية -- هي ان التربية الحسنة ترفع مستوى التفكير بينما تهبط بهِ التربية السيئة فيختنق ويضل

ومهما يكن من أمر فان هيلفيتيوس لم يجد من يؤيد رأيهِ الذي يغمره الخطأ من كل نواحيه . ذلك الرأي القائل بأن ارضاء الاحساس الجثماني هو اساس كل تربية فكرية او خلقية

﴿ كَنْتْ (١٧٢٤ — ١٨٠٤) ﴾ . — كان لكنت اكبر الأثر في اتساع نطاق الفلسفة وإن من حسن طالع التربية أن هذا المفكر الكبير خصص جانباً من وقته لبحث مسائلها. ولقد ساعدتهُ احوال كثيرة على الاهتمام بالتربية فقد كان شديد الاعجاب بروسو فقرأ كتابه «أميل» بعناية تامة وشغف كبير ثم إن تربيته الدينية في كلية فردريك أوحت اليه بآراء خاصة عن هذا النوع من التربية كما انهُ اكتسب تجربة كبيرة من اضطلاعهِ بتربية ابناء بعض الاسر . واخيراً فقد كانت دراسته العميقة الطبيعية الانسانية والفلسفية الخلقية العالية عاملاً من عوامل تهيئته لبحث مسائل التربية

وقد كان كَنْتْ استاذاً في جامعة كونجسبرج وكان ميله لمسائل التربية ظاهراً . فكتب فيها بحوثاً جمعها أحد زملائه في كتاب عنوانهُ «رسالة في علم التربية» وهو الكتاب الذي سنتحدث عنه

﴿ فكرتهُ السامية في التربية ﴾ يرى كَنْتْ أن أهم الفنون وأكثرها صعوبة هو فن تربية الرجال وإن هذا الفن هو السبيل الوحيد لاصلاح الانسانية . فيقول « من الخير أن اعتقد ان الطبيعة تساعد على ان يسير الانسان في سبيل التقدم والتحسن اللذين يليقان بهِ . ولأجل ان نعرف مبلغ اثر التربية في الطبيعة الانسانية يجب ان نكل امر تربية الرجال إلى إنسان خارق في ذكائهِ وطبيعتهِ . ويقول ايضاً : لأجل ان تحقق التربية غرضها الاسمي يجب ان تتحرر من قيود الاساليب والتقاليد التي تحيط بها. كما ينبغي ان يكون الغرض من تربية الاطفال ان نساعدهم على النجاح لا في المجتمع الانساني الحالي ولكن في مجتمع انساني مستقبل اكثر سمواً من المجتمع الحالي

﴿ تفاؤل نفساني ﴾ يقترب كَنْتْ من روسو في اعتقاده في طهر الانسان الفطري وان طبيعة ميوله الطبيعية طيبة كاملة. فهو يقول إن مصلح الاخلاق يعمل طوع امر الطبيعة كالطبيب سواء بسواء ويقول ايضاً : يجب ان يقتصر عمل من يتعرض لاصلاح الاخلاق على استبعاد المؤثرات الخارجية السيئة . واني لاثق ان من اسهل الامور على الطبيعة ان تجد لنفسها الطريق السوي

ولهذا السبب كان كَنْتْ لا يمل الاكبار من شأن الخدمات التي اداها روسو لعلم التربية بتوجيهِ نظر المربين الى ضرورة الثقة بالطبيعة الانسانية التي « طالما اغتابها المغتابون » . ولكن هذا لا يعني ان هذا الفيلسوف الالماني الكبير اكتفى بتكرار ما قالهُ روسو قبله بل انهُ صحح كثيراً من اخطائهِ فكتب يقول : « لا يكون الانسان عند ولادتهِ طيباً ولا خبيثاً » وكتب ايضاً : « ليس الانسان كائناً كريم الخلق بطبعهِ . وهو لا يصبح كذلك الاّ اذا ارتفع بعقله الى مستوى فكرة احترام الواجب والقانون ». وهذا يعني ان الطفل كائن في حالة التكوين يتوقف فساده او صلاحه

على نوع التربية التي يتلقاها . اما ميول الطفل الاصلية فلا يمكن تحديدها . فاذا ظهرت عنده رذيلة من الرذائل فذلك لا يرجع الى ميل خاص في طبيعتهِ ولكن الى خطاء وقع في توجيه هذه الطبيعة او على الاصح الى اننا لم نخضع طبيعة الطفل لما كان يجب ان تخضع له من قواعد خاصة

﴿ احترام حرية الطفل ﴾ وقد كان من نتائج تفاؤل كنت النفساني انهُ اوحى اليهِ — كما اوحى لروسو قبله — بفكرة التربية السلبية التي تقوم على احترام حرية الطفل . فكتب يقول يجب ان تكون التربية الاولى سلبية بمعنى انهُ ينبغي علينا ان نتخذ في تربية الاطفال الوسائل الطبيعية وان نقتصر على ان نتجنب هدم ما لها من آثار . ومن الخير الاّ نكثر من استخدام الوسائل المختلفة في تربية الطفل . بل الافضل ان نتركه يتعلَّم من تلقاء نفسه . فكثيراً ما تكون المؤثرات السيئة الباطلة هي مصدر ضعف الانسان ولا يكون للجهل دخل في هذا الضعف

وكان كَنْت شديد الاحترام لحرية الطفل يتألم اذا سمع ان أباً من الآباء يريد كَبْت ابنهِ ويقول انهُ ليس من المصلحة أن نبالغ في مقاومة ارادة الطفل وانهُ ليس ثمة ما يضير الطفل اكثر من استثارته وتحقيره . ولكن الفيلسوف الالماني بالغ في دفاعه عن الحرية الانسانية واستقلال الارادة فهو يخشى تسلط العادات الى حد انهُ ينصح بألاَّ تكون للاطفال عادة خاصة من العادات وفي هذا — كما يقول احد علماء التربية — « الغاء للتربية بأسرها لانها تقوم على اكتساب مجموعة من العادات الطيبة »

﴿ الحكايات المحَرَّمَة ﴾ وبين كَنْت وروسو شبه كبير ايضاً فيما يتعلق بالتربية الفكرية أو تربية المواهب التي يسميها كَنت « التثقيف الجثماني للنفس » وهو ما يقابل عنده التثقيف الخلقي او تربية الارادة . فهو يحرم على الاطفال قراءة القصص والحكايات الخرافية وذلك لانهُ يعتقد ان خيالهم واسع ليس في حاجة الى النمو عن طريق الخرافات . واكثر المربين لا يرون رأي كَنْت فهم يعتقدون ان الخرافات الخيالية النافعة توسع الخيال وتوجهه التوجيه الخلقي الصحيح كما انها تكسبه جمالاً بما فيها من ظرف خاص بها . وقد كان روسو ينتقد انتقاداً شديداً خرافات لافونتين ولكنهُ كان يعتقد مع ذلك ان للتعليم الرمزي فائدة خلقية كبيرة

﴿تثقيف المواهب﴾ — وكَنْت يتميز عن غيره من المربين باهتمامه بتثقيف المواهب اكثر من اهتمامه بالعمل على الاكثار من المعلومات. وقد درس القوى الفكرية المختلفة وتعتبر آراؤه فيها مجموعة ممتعة من النظريات النفسانية التي تساعد المرّبين على القيام بمهمتهم الدقيقة

﴿ تثقيف ملكة الفهم عند الطفل ﴾ ويعتقد كَنْت أن الطريقة السلبية هي اصلح الطرق . ويعني بذلك أننا في تعليمنا للطفل يجب ان نطالبه بأن يجد بنفسه الأمثلة التي تنطبق على قاعدة خاصة أو على العكس ينبغي أن نطالبه بأن يجد من تلقاء نفسه القاعدة التي تنطبق على

أمثلة خاصة — وهو يعتقد اننا اذا اردنا انماء ملكات الطفل الفكرية فان احسن الوسائل هي ان نترك الطفل يعمل بنفسه لان العمل اقصر الطرق المؤدية الى فهم الامور ولان من الثابت ان الاشياء التي نتعلمها من تلقاء انفسنا هي انفع الاشياء لنا

﴿ العقوبات المختلفة ﴾ — يقسّم كَنْت العقوبات الى عقوبات جثمانية وعقوبات معنوية . ويفضل هذا النوع الثاني من العقوبات الذي يتلخص في اذلال التلميذ ومقابلته ببرود « ليثور بذلك ميله لأن يُستَحسن ويُحَب » . ورأيه ان تطبق العقوبات الجثمانية بحذر لئلاَّ ينتج عنها عند الطفل استعداد للذلة والاستكانة . ثم هو يقسّم العقوبات تقسيماً آخر فهو يميز بين العقوبات الطبيعية والعقوبات المفتعلة ويفضل الاولى على الثانية « لانها النتيجة الطبيعية لخطاء الطفل . فعسر الهضم مثلاً هو عقاب طبيعي للاسراف في الاكل . وان من ميزات العقوبة الطبيعية انها تدوم مدى الحياة » وهذا هو الواقع في كثير من الاحيان . ولكَنْت تقسيم ثالث ، فهو يفرق بين العقوبات السلبية والعقوبات الايجابية . وينصح باستخدام الاولى اذا كان خطأ الطفل بسيطاً . اما اذا كان جسيماً يدل على ميل شرير عند الطفل فالعقوبات الايجابية في رأيه اصلح

وينصح كَنْت المدرس بألاَّ يظهر في اي حالة من الحالات بأنهُ يكن ضغينة لتلميذه ويقول في ذلك « إن العقوبات التي يوقعها المدرس والشرر يتطاير من عينيه تخطيء الهدف ولا تحقق الغرض منها »

﴿ التربية الدينية ﴾ — يرى كَنْت انهُ ينبغي ان نهيء الطفل منذ نعومة اظفاره لفهم الآراء الدينية الصحيحة وذلك خيفة ان يتأثر بما ينسبه الجهلة للدين من الخرافات السخيفة ويقول في هذا الصدد ان من سعة التفكير ونبله ان نفهم ضرورة التربية الدينية . ولعلَّ خير وسيلة لتقريب فكرة وجود اله لفهم الطفل هي ان نوجد له اوجه شبه بينهُ وبين رب العائلة »

ويريد كَنْت ان نبدأ بافهام الطفل واجبهُ ثم نفهمهُ بعد ذلك ان هناك الهاً اي انهُ يريد اولاً أن نزرع في نفس الطفل مباديء الاخلاق ثم نفسر له بعد ذلك مباديء الدين . ويعتقد ان الدين يصبح خرافة لا اكثر ولا اقل ان لم يسبقهُ فهم مباديء الاخلاق

﴿ تعاليم الدين الخلقية ﴾ — ويقول كَنْت في ما لتعليم الاخلاق الكريمة من الشأن : « ينقص مدارسنا شيء كان من شأنهِ ان يساعد على بذر بذور الاخلاق الكريمة في نفوس الاطفال ألا وهو تعاليم الدين الخلقية » . وكان كَنْت قد بدأ فعلاً في وضع كتاب عنوانهُ « تعاليم الدين الخلقية » ولكنهُ لم يتمهُ . وهو يعتقد انهُ يجب تخصيص ساعة من الدراسة اليومية لافهام التلاميذ « حقوق الانسان اي ظل قوة الله على الارض »

ويرى ان من طبيعة التعاليم الدينية المتعلقة بالاخلاق : « انها تحل الخوف من الضمير محل الخوف من الله والناس . والاعتزاز بالنفس محل السير وراء آراء الآخرين . والقيمة الحقيقية للاعمال محل القيمة الظاهرة للالفاظ . والتقوى الهادئة الضاحكة محلَّ التعبد المظلم الحزين »

السلّ

بحث جامع حديث

للدكتور فيليب الشرباني

في كل مجتمع وخصوصاً اذا كان مجتمع سيدات لا بدّ من ذكر الاقارب والاصدقاء والسؤال عن الصحة ومن تزوّج ومن وُلد لهُ مولود ومن فارق هذه الحياة . واذا قيل ان فلاناً مريض وقد مضت عليهِ مدة الآن وهو طريح الفراش يشكو هزالاً وسُعالاً قال كلٌّ من الحاضرين في نفسهِ : « مسكينٌ هذا الانسان انهُ لن يعيش كثيراً فهو مُصاب بمرض السلّ » . هذا القول خطأٌ وهو يضطرني الى ان ابيّن ان نسبة السلّ الى كل مرض صدري يصحبهُ سُعال اعتقادٌ فاسد . اذ ليس كل من يشكو السُعال مصاباً بسُلّ وليس كل من يشكو السلّ يصاب بالسعال

السلُّ وميكروبهُ

ان السلّ مرضٌ قائم بذاتهِ اي انهُ يختلف كثيراً عن باقي الامراض الصدرية والتي يمكنها ان تسبّب سعالاً ايضاً . ومع ان هذا المرض قديم في تاريخ البشر وقد وصفهُ لنا الطبيب اليوناني ابوقراط الشهير الاَّ أن درسه التحليلي لم يبدأ قبل القرن السابع عشر ومعرفتنا العلمية عنهُ لم تبدأ الاَّ في القرن التاسع عشر سنة ١٨٨٢ عند ما اكتشف الاستاذ الالماني روبرت كوخ في برلين ميكروب هذا المرض فوضع لنا الحجر الاساسي لهذا العلم الجديد . ثم بواسطة بحوثهِ النفيسة في سبب السلّ فتح لنا باب هذا الصرح الجديد على مصراعيهِ للدرس والتنقيب . فمعرفتنا الحقيقية عن مرض السلّ لم تبدأ الاَّ منذ خمسين عاماً تقريباً اي انهُ منذ وقت قصير . ولذلك ترى العلماء لا يزالون في حاجةٍ الى موالاة البحث لتوسيع نطاق معرفتهم لوقاية الاصحّاء ولشفاء المصابين

ينشأ السلّ عن جرثومة شكلها كأنبوبة تظهر على شريحة (المجهر) ثابتة لا تتحرّك وبشكل محدود قليلاً امّا وحدها واما مزدوجة واما ثلاثية واما مجتمعة معاً بكثرة

واذا قيست على شريحة المجهر (الميكروسكوب) وُجد انها لا تبلغ طولاً اكثر من ٢—٤ من الالف من اجزاء المليمتر وعرضاً لا اكثر من عشرين الى خمسة اعشار من جزء من الف من اجزاء .

المليمتر ومعنى ذلك انها صغيرة جداً . هذه الجرثومة او هذه الانبوبة او هذا الميكروب الذي سمي في الافرنجية «باشيلس كوخ» او Bacille de Koch في الفرنسية او Koch's Bacillus في الانكليزية وفي الالمانية نسبة الى مكتشفها الطبيب المشهور روبرت كوخ ، يمكنها من دون اي غذاء كان او اية واسطة للتكاثر ان تعيش في الظلام او ما جفّ من البصاق مدة تسعة او عشرة اشهر ! ولكنها تموت بعد ثلاثة ايام بمجرّد تعريضها لحرارة الشمس . تموت في الماء المغلى او البخار بعد دقيقة واحدة في حرارة درجتها ٨٥ سنتغراد وبعد دقيقتين في حرارة ٧٨ وبعد ثلاث دقائق في حرارة ٧٣ وبعد خمس دقائق في حرارة ٧٠ وبعد ١٥ دقيقة في حرارة ٦٥ سنتغراد . تموت ايضاً بعد ساعتين اذا وضعت في محلول السليماني قوّتهُ ٥ ./· وفي ٢٤ ساعة في محلول حامض الفينيك بقوة ٥ في المائة ايضاً . ولربما تراءى لغير الاطباء او الصيدليين او المساعدين لهؤلاء ان هذه التفاصيل لا شأن كبير لها ولكن اذا وقفنا مكتوفي الايدي امام امتعة اشخاص تلوّثوا بهذا الميكروب او اصبحنا حائرين في تعقيم اللبن الذي نتعاطاه نحن او نعطيه غذاء لاطفالنا تبيّن لنا الامر بعكس ذلك فندرك اذ ذاك ما لهذه التفاصيل من الشأن الخطير

أين يكون الميكروب

أين نجد ميكروب السل او باشيلس كوخ ؟ يوجد هذا الميكروب بالطبع في رئات المصابين بهِ من الناس وفي اجزاء اخرى من اجسادهم كالجلد او العظام ولذلك تحتّم علينا عزل من اصيبوا بهِ في محلات منفردة وبعيدة عن المساكن كالمصحّات او المستشفيات . وقد تسألونني هل رئات البشر وجلودهم وعظامهم هي وحدها مأوى هذا الميكروب أو سكنهُ ؟ فأجيب كلاَّ ! بل هو منتشر انتشاراً عظيماً في مختلف الكائنات الحية . نجده في الكلاب والقطاط والخنازير والدجاج والاسماك والسلاحف والثعابين وفي البقر ايضاً . يشكو الانسان المرض فيذهب الى الطبيب فيشخّص له الداء ويصف الدواء فيأخذ المريض الاحتياطات اللازمة لعلاجهِ ولمنع تسرّب العدوى الى الآخرين حواليهِ . اما الكلاب او القطاط مثلاً فكيف يمكنها ان تشكو مرضاً باطنيًّا كهذا يحلّ بها الاَّ بعد ان يكون قد استفحل الامر واصبحت الاعراض واضحة وبعد ان يكون الكلب او القطّ قد عاش في البيت نفسهِ مع صاحبهِ او صاحبتهِ مدة طويلة وربما نام فوق السرير ليلاً واكثر من لطع الايادي او الخدود او الفم لكن كثيراً ما ادّى بهِ المرض الى السعال قبل أن ينتبه اهل البيت لحالتهِ ولضرورة ابعاده عنهم بعد ان تكون العدوى قد انتقلت منهُ الى سكان البيت . اسوق هذا الى المغرمين بهذه الحيوانات الذين لا يفكرون بالخطر المحيق بهم فلا يحتاطون لهُ . اما الخطر من الخنازير ومن الدجاج ومن الاسماك التي نأكلها فواضح . يجب اذاً تعقيمها جيداً قبل اكلها وهذا ما يحدث عادة في اثناء تحضير الطعام . اما وجود الميكروب في البقر

وفي لبنها فموضوع يجب البحث فيه على حدة لانهُ على جانب عظيم من خطر الشأن . أشرب اللبن ونأكل ما يشتقّ منهُ كالزبدة والجبنة وغيرها فما الذي يحلّ بنا وباولادنا اطفالاً وكباراً اذا كان هذا الغذاء ملوثاً بجراثيم مرض التدرّن ؟ هنا ايضاً يمكننا تطبيق ماسردتهُ عن التعقيم وهنا ايضاً يجب ان نقف دقيقة لنفكّر في ما يجب على مصلحة الصحة فيما يخصّ التفتيش على البقر وعلى اللحوم وعلى اللبن الذي يُباع للناس في البلاد

قلتُ مختصراً ان هذا المرض ينتاب رئات البشر وجلودهم وعظامهم أمَّا الآن فأريد ان أزيد بانهُ يمكن لهذا الميكروب التسرُّب الى كل جزء من الجسد فيهاجم الغدد ويحدث فيها درناً (ولذلك سمّي مرض التدرُّن) واغشية المخ والعيون والآذان والحنجرة (المعروف بسلّ الحنجرة) والمجاري البولية والاعضاء التناسلية والكبد والطحال والامعاء والغدّة الدرقية وغدّة ما فوق الكلى كما انهُ يصيب القلب نفسه حتى وغدّة البنكرياس وحينئذٍ يسبّب مرض بول سكري عضالاً

انتشار الميكروب

ربما تقولون لي ان كل هذا الشرح حسَن انما لم تفدنا للآن عن طريقة انتشار هذا الميكروب من المريض الى السَّليم فأقول : اولاً : يحمل المريض بالرئة ميكروب السلّ ويقذف بهِ في بصاقهِ الى الخارج اذ يسعل لأن السعال كما تعلمون يُحدث قذفاً بأجزاء صغيرة من البصاق لا تراها العين تحمل ضمنها «باشيلوس كوخ» اي « ميكروب السل » فيستنشقها السَّليم الذي على مقربة من المريض فتزرع المرض في جسمهِ ايضاً . كذلك يجب ان نمكث دائماً بعيدين عن المصاب بالسُّل الرئوي مسافة متر على الأقلّ اذا ما أردنا التحدث اليهِ . اما مرض سل الجلد او العظام فنجد الميكروب في اكثر الأحيان ضمن القروح التي يشكو المصاب منها فتتسرَّب العدوى منهم الى الصحيح عن طريق اللمس أو الاحتكاك

ثانياً — يمكن للعدوى ان تنتقل الى السَّليم باستعمالهِ اثاثاً او ادوات للطعام تلوَّثت بالجراثيم ولم تُعقَّم او باستنشاقهِ بصاقاً جافاً يحمل الميكروب ويتطاير في الهواء . وكثيراً ما رأيتُ المكانس تعمل في رابعة النهار في الشوارع وعلى الأرصفة فترسل الغبار الى انوف الجالسين في القهوات فتنشر العدوى كذلك على ايدي كنَّاسي شوارع القاهرة . البصاق في الشوارع وعلى الأرصفة كثيرٌ في الشرق . وقد ألفنا رؤية الناس تبصق يميناً وشمالاً وهو يُعدّ في اوربا او في الولايات المتحدة غير مألوف بل يحسب محرّماً ولكن يُنظر اليهِ هنا كأنهُ امرٌ طبيعي وما ذلك الاَّ لكثرة وجود ذريرات غبار في الهواء في البلاد الحارَّة اكثر منها في الباردة فتعلق بحلاق الفرد وانفهِ فيضطر الى اخراجها بسعالهِ او بعطاسهِ وبدلاً من استعمالهِ منديلهُ ربما استعمل اصابعهُ او بصق في الشارع او على الرصيف ! اذهبوا الى محطة القاهرة ولاحظوا قيام القطار وكيف تبكي الوالدة على فراق ولدها

والحبيبة على فراق الحبيب وكيف ان الواحدة تأخذ منديلها والجماهير تحيط بها وتهزّه وتلوّح بهِ وتنثر كل الميكروبات التي جمعتها فيهِ من حلقها ومن انفها على رؤوس المحيطين بها وانوفهم وهي لا تدري ما تفعل . لله من جهل البشر حتى في القرن العشرين !

ثالثاً — ذكرتُ آنفاً ان النوع البقري من «باشيلس كوخ» ينتقل الينا بواسطة اللبن فنجد هذا النوع من المرض خصوصاً في أمعاء الاطفال وفي غطاء هذه الامعاء الذي نسمّيه «البريطون»

درجات المرض

يسألني المرضى : هل يمكن شفاء المصاب اذا بلغ الدرجة الثانية او الثالثة ؟ فأسأل أنا محدّثي عن فهمه للدرجة الاولى او الثانية او الثالثة من داء السل فيجيب بأن الدرجة الثالثة هي عندما يبصق المريض دماً ! وهذه الدرجة هي اكثر الدرجات خطراً ! وهذا غلطٌ فادح فأن درجات السلّ لا تتوقف على أعراض بصق الدم أو عدمهِ بل تقاس بتطوّرات الانسجة من طريّة الى ناشفة. وارجو ان ينعم القارىء نظرهُ في هذا القول: درجات السلّ تقاس بتطوّرات أنساج الرئة من طريّة الى «ناشفة». ففي اوّل الدرجة الاولى تكون الأنساج طريّة ونسمّيها في الفرنسية Infiltration اي درجة تسرّب المرض . اما الدرجة الثانية فهي دور امتداد المرض الى الأنساج المجاورة ونسمّيها في الفرنسية generalisation وفي هذه الدرجة تكون الأنساج طريّة ايضاً اما الدرجة الثالثة فهي درجة النشف أي ان الأنساج المصابة تصبح صلبة ناشفة جيريّة ونسمّيها في الفرنسية Etat de Calcification اي فيها جير Calcium اي درجة التكلّس فتوقف حركة الميكروب الذي ينخرها وتمنعه من افراز سمومه في الدورة اللمفاويّة والدورة الدمويّة التي توصلها الى كلّ اطراف الجسد . فمن كلامي هذا يظهر لكم بأن الدرجة الثالثة اي درجة النشف هي الأفضل والأسلم لكونها توقف حركة الميكروب . قيسوا كلامي هذا بالرأي الشائع تروا ان الناس تفهم الدرجات على ضدّ ما هي تماماً

اعود الى مسألة بصق الدم بكثرة وهذا ما تخشاه العامة كثيراً فأقول : لينظر كلُّ قارىء الى جرح اصابه في اي محلّ في جسمهِ أو الى عمليَّة في البطن عُملت لهُ فيرى خطاً ابيض عند التئام الجرح. هذا الخط يمثل نوعاً من الأنساج الضعيفة التي لا يجري فيها الدم . وكما يلتئم الجرح في الجلد يلتئم ايضاً الجرح في الرئة . اذا حدث حادث للرئة من جراء دخول ميكروبٍ خبيثٍ اليها واوجد فيها التهاباً وبذر سمومه فيها واوجد جروحاً وقروحاً في انساجها ثم انقرض هذا الميكروب فاندفعت هذه الأنساج نحو الشفاء واقتربت حفاف الجروح الواحدة من الاخرى والتصقت بعضها ببعض، فبفضل ذلك اللحام بعينه قُدّر للرئة ايضاً الشفاء على هذه الطريقة نفسها . لنفرض ان لدينا كرة من المطاط (اي الكاوتش) في جنب من جوانبها لحام ونفخنا هذه

الكرة نفخاً شديداً فأننا نعرّض هذه الكرة للتمزق في نقطة اللحام وهذا ما يحدث ايضاً عند ما يبصق الانسان دماً من رئته . اوقد يمزّق لحام الرئة من جراء التعب من الركض او السباحة اوغيرذلك من الاسباب المجهدة. وبمزق بعض الشرايين بجوار اللحام. وان خروج الدم منها الى انابيب الهواء ثم الى الفم لايعتبر كاشارة او كعلامة او كبرهان على شدّة المرض . فلا تقل اذا سمعت أن فلاناً قد بصق دماً انهُ في آخر درجة من درجات المرض وانهُ مشرف على الهلاك لان ذلك خطأ في الغالب . ان بصق الدم يحدث عادة في الدرجة الثانية او الثالثة من تطوّر انساج الرئة انما ليس دائماً في الدرجة الخطرة جدًّا كما تفهمها العوام

ربما لا يسر كلامي هذا جميع القراء لان الناس عموماً تحب خزن المعتقدات في ذاكرتها بطريقة واضحة فلا بدّ من ان يقوم احدهم ويعترض مستفهماً في اي دور اذاً من ادوار المرض وأي متى يمكننا ان نعتبر المرض ثقيلاً على من اصيب به ومسبباً للخطر على حياته ؟ فأقول :

المرض وقوة الدفاع

ان الميكروبات تحيط بنا من كل ناحية نأكلها ونستنشقها ونعيش بينها وهي تعيش فينا منتظرة الانقضاض علينا لتبيدنا . فما الذي يمنعنا من ذلك ؟ قوة دفاعنا ! مقدرتنا الطبيعية على ايقاف ضررها . وهذا ما نسميه المناعة . ما نقوله عن باقي الميكروبات نطبقه ايضاً على ميكروب التدرن او باشيلس كوخ . فالمناعة في مرض التدرن لها شأن كبير كذلك ولما كان هذا الميكروب على ما يظهر قد برز في شمال الكرة الارضية الباردة نرى سكّان البلاد الشمالية اكثر قوة على احتمال وطأته . ففي وسع سكان شمالي اوربا الاصليين ان يحملوا هذا الميكروب ضمن رئاتهم كل حياتهم وان يصلوا الى الشيخوخة . اما سكان البلاد الحارة والذين لم يتكاثر بينهم هذا المرض مدة عشرات آلاف السنين كما حدث بين سكان الشمال فيبيدهم هذا الميكروب في وقت قصير . نرى السكان في جنوب اميركا من الهنود بجوار مضيق «ماجلاّن» (اي في طرف اميركا الجنوبية) اذا ما اصيبوا بالسل توفي الافراد المصابون بعد ستة اسابيع من ظهور اعراض المرض . كما اننا نرى ايضاً في جزيرة العرب ان المتوطنين الاصليين في داخلية البلاد يموتون بسرعة من مرض السل اكثر من المتوطنين الاصليين في شواطىء الجزيرة والذين بالطبع قد اختلطوا مدى القرون السابقة بالسفر والاتجار مع من مرّ بهم وسكن عندهم من الاجانب الاوربيين . فالمناعة اذاً في السل كما هي الحال في باقي الامراض تقينا شر الميكروبات التي تقطن فينا وتتغذى من لحمنا ودمنا . ويساعد المناعة على الدفاع عنا حسن صحتنا عموماً . لذلك يتحتم على كل فرد منا اتباع القوانين الصحية وعدم اضعاف قوة الدفاع باجهاد الجسد وتحميله اكثر من طاقته

سؤال : هل يمكننا ايجاد مناعة في اجسادنا ضد مرض السل «عمليًّا» كما نفعل في مرض الجدري

والدفتيريا والحمى التيفوئيدية والكوليرا الخ ، اما بالتلقيح واما بحقن المصل الواقي ؟ هذا باب موضوع اختلف فيه العلماء . قام الاستاذ « كالمت » الذي توفي اخيراً رحمه الله وأوجد لقاحاً دعاه B. C. G يُعطى للاطفال عن طريق الفم قبل اليوم العاشر من حياتهم او للاولاد بعد سنّ سنة واحدة حقناً بالجلد واعتمدهذا اللقاح المستخرج من الميكروب البقري بعد مائتين وثلاث واربعين تجربة . والغرض منه هو ايجاد رد فعل في جسم الطفل او الصغير من الاولاد بواسطة ميكروب ضعيف لا يتغلب على قوة الجسم فيوجد في الطفل استعداداً لمحاربة الميكروب الشديد في المستقبل لو دخل رئته فيوقف المرض عن التوغل في جسده . هذا رأي المرحوم كالمت ولكنهُ ليس برأي جميع الباحثين

فقد وجدتُ الاستاذ كلاينشميتْ الاختصاصي في الامراض الصدرية في الاطفال في كولون في المانيا ينتقد هذا الاعتقاد . ووجدتُ كذلك الاساتذة برنارد ودليل في باريس يجارون كالميت ايضاً . انما وجدتُ آخرين في باريس ينتقدونهُ ومنهم الاختصاصي الشهير اوجان ميجر Eugene Maigr وينفون إمكان ايجاد مناعة ضد مرض التدرن فيقول : ان ادخال اي ميكروب ضعيف من ميكروبات السل في جسم الانسان لمقابلة الميكروب القوي يجعل الجسم عرضة للانكسار امام الميكروب القوي بدلاً من الانتصار عليه . انقسم الاخصائيون بين هذين المعتقدين ونرى التجارب والاحصاءات قائمة في فرنسا والمانيا والنمسا وهنغاريا وغيرها من البلدان الاوربية لترينا ولتبرهن لنا في المستقبل هل تلقيح الاطفال بميكروب السل المخفف يفيد الافراد ام يضرهم في كبرهم

بعد هذه البيانات يستطيع القارىء ان يستنتج الجواب عن السؤال الذي ذكرته آنفاً اي في اي دور من ادوار المرض واي متى يمكننا ان نعتبر المرض ثميلاً على من اصيب به وخطراً على حياته ؟ اذاً اجاوب فأقول يتوقف ذلك على قوة الهجوم وقوة الدفاع . يمكن ان يكون المريض معرضاً للخطر حتى في الدرجة الاولى او الثانية اي في درجة امتداد المرض في الرئة اذا كان هجوم الميكروبات في الجسم قويًّا ومناعة المريض ضعيفة ، فلا يمكننا اذاً ان نقيس الخطر المحيق بالمريض بمقياس الدرجات الثلاث

المرض والعمر

هل تختلف الاصابات قوة وتأثيراً باختلاف الاعمار ؟ فأقول :

اقسم الاصابات بالقياس الى قوتها ثلاثة اقسام . الاولى الاصابات الحادّة . الثانية الاصابات الخفية الحية . الثالثة الاصابات الخفية الساكنة . اعني « بالحادّة » الاصابات الشديدة التي تظهر فيها كل اعراض المرض . « وبالخفية الحية » الاصابات التي لا تظهر فيها اعراض

المرض كثيراً انما تبقى الميكروبات عاملة فيها. و «بالخفية الساكنة» الاصابات التي لا تظهر فيها اعراض وتصبح الميكروبات ساكنة فيها، وعلى ذلك نجد اعظم عدد من الاصابات «الحادّة» بين سني الثامنة عشر والثلاثين من العمر، وأعظم عدد من الاصابات « الخفية الحية » بين سني الثامنة عشر والثلاثين من العمر، وأعظم عدد من الاصابات « الخفية الساكنة » في السبعين من العمر اي ان كل ما تقدم الانسان في السن قلت مقدرة الاصابة على اهلاكه ويجد الانسان نفسه اكثر تعرضاً للخطر من هذا الداء بين الثامنة عشر والثلاثين سنة من العمر

ما هي الحالات غير الصحية التي تعرضنا بنوع خاص للانكسار امام ميكروب مرض السل؟ الجواب : الخسارة المستمرة في الوزن وفقر الدم والاصابة المتوالية بالزكام . يجب ان لا يسكت كل من يصاب بهذه الاعراض بل يجب عليه مداواة نفسه الى ان يصبح الوزن كافياً ويزول فقر الدم والاستعداد للزكام . وثمة حالات بها حمى مع سعال وزكام تدعى عادة نزلة شعبية بسيطة أو Grippe وما هي حقيقة الا بداية هذا المرض المشؤوم

ما هي اعراض المرض؟ الخسارة في الوزن مع حمى وسعال وعرق عند الصباح وعدم قابلية للاكل . امام هذه الاعراض يجب ان نقرر الكشف عن انفسنا كشفاً عمومياً كاملاً واذا كان المريض كبيراً نحلل بصاقه ايضاً وربما اخذنا صورة رئتيه بالاشعة . اما في الاطفال الذين لا يبصقون فنأخذ مفرزات معدهم ونحللها ، لان الطفل الذي لا يبصق يبلع البصاق والميكروب المتأتي من الرئتين معهُ

منع العدوى

قام طبيب في بلاد فرنسا اسمه Grancher وقال : بدلاً من ان نعالج المرض في الكبار فلنمنع امتداد العدوى الى الاطفال وبهذه الطريقة نقلل عدد المسلولين في البلاد . وأول ما فعله كان بأنه جعل والدتين مسلولتين تقبلان الافتراق عن طفليهما فأخذ الصغيرين الى فلاحين في قرية قريبة وهناك نشئا قويين سالمين الى سن العشرين في حين ان طفلين غيرهما بقيا مع والدتين مريضتين رزحا تحت ثقل اعراض المرض واعتلت صحتهما كلّ الاعتلال . تشجع هذا الطبيب وابتدأ يذيع نتائج عمله في البلاد كلها فصار له اتباع عديدون من الاطباء نسجوا على منواله والآن نجد في كل مستشفى في فرنسا وفي كل معهد طبي قسماً مخصصاً « لعمل جرانشه » تديره ممرضة تزور البيوت التي يأتي منها مرضى السل الى المستشفى وتقتفي اثر كل مصاب وتخرجه من وسطه كي لا ينشر العدوى الى السالمين وتأخذ الاطفال من الوالدات المصابات وترسلهم الى القرى لينموا في الهواء الطلق بين الفلاحين . وبهذه الطريقة لا تتسرب العدوى ولا يتكاثر عدد المصابين . المال ضروري بالطبع لهذا المشروع وهم يجمعونه في كل حفلاتهم

وبواسطة طوابع مخصوصة والحكومة تساعد ايضاً . فأي متى يا تُرى يصبح لنا لجان في القطر المصري تقوم بأعمال كهذه . اين سيداتنا المثقفات ؟ واذا قلت إنه يموت في القطر المصري نحو الـ ١٥ الف نسمة كل سنة بمرض السل كما هو مدون بتعداد الوفيات ادركتم أن اعمالاً كهذه ضرورية جداً

هل السلّ وراثي ؟ اجيب فأقول : اعتادت الناس ان تخاف وخصوصاً في الزواج من شخص توفّي في عائلته او عائلتها احدٌ بهذا المرض ظنّاً انّهُ اذا ظهر المرض في أحد الافراد كانت العائلة كلها مقضيّاً عليها ! هذا غلطٌ عظيمٌ وفادحٌ . السلُّ « عدوى » وليس وراثة ! هذه هي القاعدة ! ولما كان لكلّ قاعدة حالة شاذّة فالوراثة هنا هي الشذوذ . فاذا حملت امرأة مريضة بالسل بحالة « حادّة » كما ذكرتُ آنفاً وكانت الاعراض فيها شديدة وكان الميكروب يجول في دمها فقد يصل الميكروب الى الجنين وهي حامل عن طريق الدورة الدموية في المشيمة اما في غير هذه الحالة ينتقل السلُّ دائماً من المريض الى السليم فقط عن طريق العدوى

ما هو تأثير المناخ في ميكروب السلّ وهو ضمن جسم الانسان ؟ لا تأثير للمناخ فيهِ بتاتاً . اذاً لو سكن المريض بالسلّ السهول أوسكن الجبال في البلاد الباردة اوفي البلاد الحارة لتطوّر الميكروب نفس التطوُّر في كل مكان واذا وجد تحسين في تقلباتهِ فيعود هذا الفضل الى العوامل التي تؤثّر فيهِ عليهِ عن طريق دفاع الجسم عن نفسهِ بواسطة حسن الصحة العمومية او المناعة الطبيعية وليس عن طريق تأثير المناخ في الميكروب رأساً !

وثمة الآن اخصائيون لا اعتبار عندهم لفائدة المصحّات على الجبال العالية ويجاهرون بأن العلاج المنظّم في بلادٍ معتدلة المناخ لا تعلو عن سطح البحر يأتي بنفس الفائدة التي تحصل عليها في مصحات سويسرا او لبنان مثلاً . وعملاً بهذا الرأي وجدت اخصائيين المانياً في برلين يعالجون مرضاهم في مصحّات منظّمة في ضواحي المدينة بدلاً من ارسالهم الى الجبال العالية . ووجدتُ النتيجة حسنة : لا الجبال تصلح لجميع المرضى ولا السهول . فبعض المرضى يشكو من ضعف القلب او من ضعف الاعصاب فتتعذر عليهم سكنى الجبال والمصحات العالية . وبالعالية اعني المصحّات التي يفوق ارتفاعها ١٢٠٠ متر عن سطح البحر وبالمصحّات المعتدلة التي تعلو من ٦٠٠ الى ٩٠٠ متر عن سطح البحر وما دون الـ ٦٠٠ متر فهي المواقع التي يمكن لاصحاب الاعصاب المضطربة او لضعاف القلب السكنى فيها

أما رأيي الخصوصي في علاج المصابين بشدة بهذا المرض فهو ارسالهم الى مصحّات توافق بموقعها العلوّ الذي يمكن للمريض احتماله فتتحسّن صحتهُ العمومية ويعالج ايضاً علميّاً فتزداد قوة الدفاع فيهِ اذ انهُ يربح من الجهتين . اما المصابون باصابات خفيفةٍ فيمكن علاجهم بكل راحة في بيوتهم اينما كانوا من دون ان يتحملوا تعب الاسفار والنفقات الباهظة ويمكن شفاؤهم هكذا ايضاً .

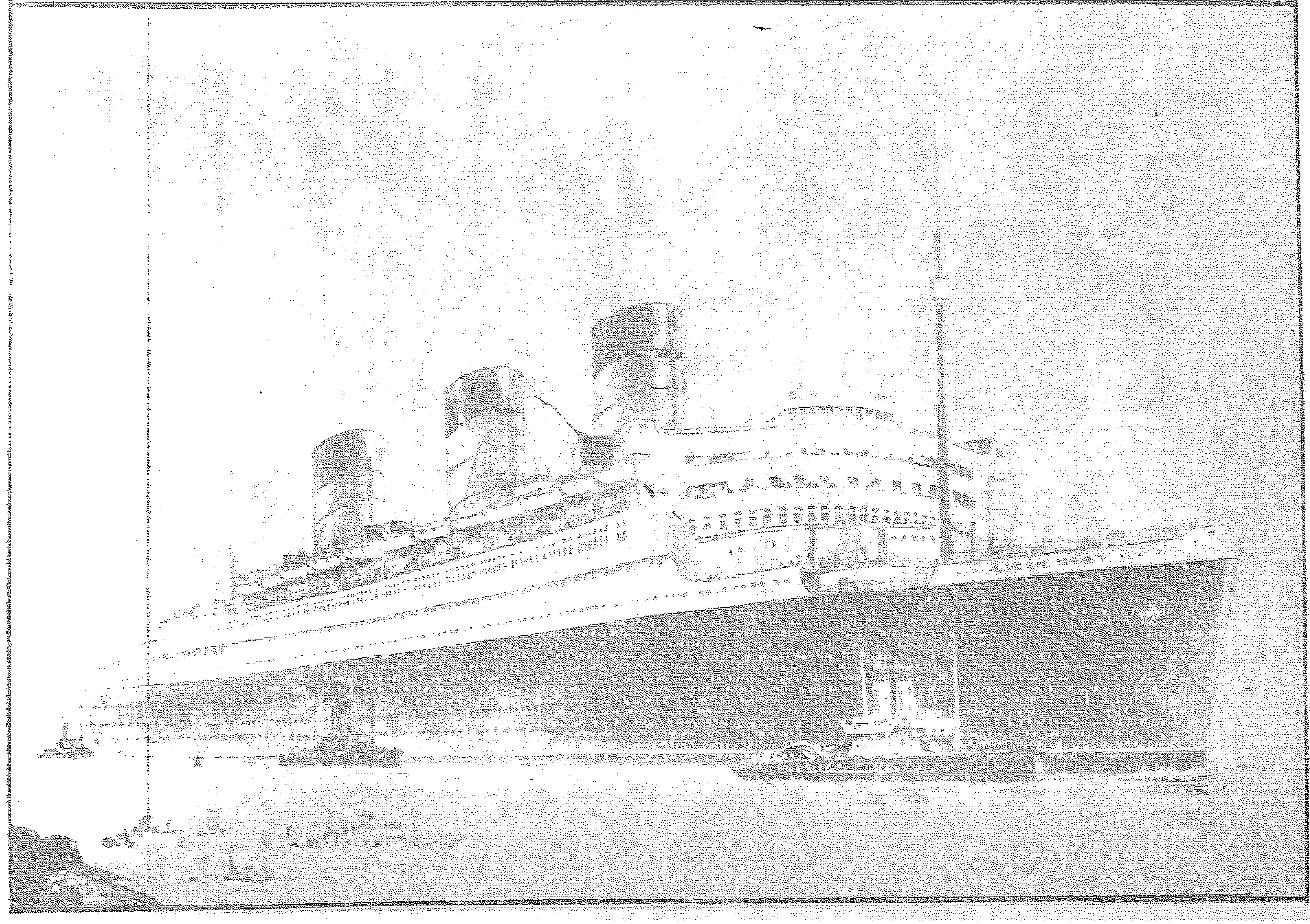

السفينة البريطانية الفخمة « الملكة ماري »

الباخرة كوين ماري

تتأهب لدخول الحلبة البحرية

بقلم عوض جندي

جاء في احدث الانباء من اوربا أن الباخرة (كوين ماري) سيدة بواخر العالم العتيدة ، سترحل رحلتها الاولى الى اميركا يوم ٢٥ مارس ١٩٣٦ فرأينا أن نصفها كما وصفنا من قبل نديدتها « نورمندي » الفرنسية اكبر البواخر العصرية فنقول : —

تُعدُّ هذه الايام أياماً عصيبة في مصنع السفانة لجون برون ، بمدينة كايدبنك (وهي مدينة اسكتلندية على نهر كليد تبعد خمسة اميال ونصف ميل عن مدينة جلاسجو ، مشهورة بالسفانة) حيث يوجد جيش لجِبٌ من الصناع البريطانيين القائمين باعداد الزخارف الختامية للباخرة كوين ماري التي ترجو انكلترا ان تسترد بها سؤددها في سرعة الملاحة التي اغتصبتها منها الباخرة الفرنسية نورمندي (وقد وصفناها في جزء ابريل من مقتطف سنة ١٩٣٤) . ولمصنع جون برون المشار اليه آنفاً تقاليد عظيمة في السفانة، يصبو دائماً الى التمسك بها وتحقيقها اذ انهُ في سنة ١٩٠٧ انزل الى البحر من تلك الجهة عينها ، الباخرة لوزيتانيا ، ثم ألحقها باختها موريتانيا ، بعد بضعة اشهر . وقد كانت الاخيرة من بدائع السفانة ، من يوم انزالها في البحر ، الى يوم تحطيمها وبيع أثاثها في اواخر السنة الماضية

ومتى انخرطت كوين ماري في سلك الملاحة ، في التاريخ المتقدم ذكره ، كانت خيرَ خلفٍ لزميلتها. ومما يذكر في هذا الصدد ، أن شركة كونارد لين صاحبتها ، وكذا مدينة كليدبنك حيث مصنعها، كانتا دائماً حائزتين لقصب السبق في خلال خمسين سنة من تاريخ السفانة . وطالما افتخر البريطانيون بكونهم لا يسامَون في السفانة . ولذلك لم يدخروا وسعاً في اتقان باخرتهم كوين ماري ، وجعلها لاتجارى، محافظة على تلك السمعة الطيبة، حتى صارت باخرة أنيقة مدهشة كالساعة في ضبط آلاتها، واستعدادها ، متوخين ايضاً جعل كل أداة من أدواتها ، انكليزية ، حتى الآلات البخارية . وقد

كان ميسوراً لموريتانيا أن تشتغل سنين اخرى ، محافظة على سرعتها الفائقة لولا اعتزالها الملاحة وتحطيمها كما أسلفنا القول

وكوين ماري مجهزة بتربينات[1] من طراز بارسونز Parsons single reduction geared turbines تزوّد بالبخار من مراحل شديدة الضغط ، ذات أنابيب مائية water tube boiler ويقل طول الباخرة كوين ماري عن منافستها ، الباخرة نورمندي الفرنسية ، ١١ قدماً . ولكن الخبيرين يتوقعون أن تربينات بارسونز السالفة الذكر ، ستولد قوة دافعة تتراوح بين ٢٥٠٠٠٠ حصان و ٤٠٠٠٠٠ حصان ، اكثر مما تولدها في نورمندي تربيناتها الكهربائية التي تقدر بمائة وستين الف حصان . والرفاسات الاربعة التي تدفع (كوين ماري) اكبر ما سبك من نوعها وركّب في أية باخرة حتى اليوم . وهي مصنوعة من البرونز المنغنيزي . وثقل الرفاس الواحد منها خمسون طنّا تقريباً ،وذلك قبل صقله ، فاذا صقل وتمّ تركيبهُ ، صار ثقله ٣٥ طنّا . ثم ان جؤجؤ الباخرة نورمندي يكاد يكون بصلي الشكل ، وظهرها مُغطّى اتقاء الامواج عند هياج البحر ، وكوثلها منحدر ، وهذا مما يظهرها مستديرة الشكل ، غريبته

الا أن الشكل الخارجي لكوين ماري وهو الشكل المساير للتيار Streamlined او المشيق يضارع شكل موريتانيا وغيرها من سفن تلك الشركة البريطانية المشهورة . واعظم الفروق بين كوين ماري ومناظرتها نورمندي ، هو شكل المداخن ، اذ هي في نورمندي قصيرة ، قوية ، غليظة اما في كوين ماري فشامخة . وتشغل الآلات الكبرى في كوين ماري حيزاً رحباً بحيث يمكن ان يسع باخرة من البواخر السريعة . وللتربينات كوين ماري ٢٥٧٠٠٠ ريشة تمّ اختبارها وتركيبها بالايدي. وكذلك مراكز التروس مركبة تركيباً محكماً بحيث لا يزيد بعد بعضها عن بعض اكثر من $\frac{1\frac{1}{2}}{1000}$ من البوصة . ويتولد البخار فيها من ٢٧ مرجلاً تملأ خمس غرف . وتحتوي تلك المراجل على ١٦٠٠٠٠ انبوب مستقل . وتدير الرفاسات الاربعة ، اربع مجموعات من التربينات . وبدن كوين ماري مرسوم رسماً يجعله يلج لجّا شديداً يسهل لها ادراك السرعة التي تبغيها. ومهندسو كليد بنك موقنون انهُ قبل دخول كوين ماري مضمار السباق ، تكون نورمندي مناظرتها ، قد استطاعت

(١) اي تقليل الدورات التي تدورها في الدقيقة من غير تدخل تروس وسطى بين الدافع والآلة المدفوعة ومثال ذلك الآلة البخارية التي تتصل بالدينامو اتصالاً مباشراً بالسير . اما مراجل الانابيب المائية — فهي منسقة على طريقة جعل المياه في الانابيب بدلاً من جعلها خارجها . ومزايا ذلك الشكل في المراجل كون المياه تقسم فيه الى اعمدة جمة صغيرة الاقطار ويحاط كل منها بسطح مسخن من جميع نواحيه ليتولد فيها البخار توليداً عاجلاً جداً ، وتكون دورتها ايجابية اذ تتحكم فيها مجموعة الانابيب

قطع ٣٢½ من الاميال في الساعة. ولذلك قد اتخذوا الوسائل الفعالة التي تمكن كوين ماري من الفوز على نورمندي فجعلوا الآلات المحركة لكوين ماري تستطيع تسييرها بسرعة ٣٢ ميلاً ، سيراً عادياً بغير تعجيل . والمعروف ان الباخرة الضخمة اذا ما عُجِّل مسيرها ، قطعت ميلين او ثلاثة أميال زيادة على سرعتها المألوفة . والدليل على ذلك ان موريتانيا ، وكانت سرعتها المعتادة ٢٧ ميلاً ونصف ميل في الساعة ، تسنَّى لها زيادة سرعتها ، الى ٣٢ ميلاً في اربع ساعات ، وذلك في احدى رحلاتها في بحار الهند الغربية ، قبيل اعتزالها الملاحة بأيام . ويتوقع العليمون بأن المناظرة بين كوين ماري و نورمندي ستكون منقطعة النظير في تاريخ الملاحة بأسره . لاننا اذا اعتبرنا القوة بيت القصيد ، فاقت كوين ماري ندها لان لديها من القوة المدخرة مقدار عظيم تنتفع بهِ عندما تمس حاجتها اليهِ ، وتستغني عنهُ حينما تشاء . ورفاساتها اكبر واثقل من رفاسات نورمندي . وسيكون التنافس بين الفرنسيين والبريطانيين لا مثيل لهُ في قطع المحيط الاطلنطي البالغ عرضه ٣٠٠٠ ميل وسيخصص كل فريق منهما مبلغاً طائلاً من المال ليفوز على زميله في ذلك النضال . ولا يخفى على القراء ان قوة الاحصنة التي يقتضيها دفع الباخرة الضخمة في المياه يختلف باختلاف مكعب سرعتها فان ضوعفت السرعة ، وجبت مضاعفة قوة الاحصنة غير مرة . وعلى هذا الاساس تحتاج كوين ماري الى ٢٣./٠ زيادة في قوتها لكي تسير بسرعة ٣٠ ميلاً بدلاً من ٢٨ ميلاً في الساعة . لان زيادة السرعة ٧./٠ يتطلب زيادة ٢٣./٠ في القوة . ولقد رسمت كوين ماري على نمط يجعلها صالحة للملاحة مرة كل اسبوع بحيث تتناوب العمل مع اختها المنتظرة ، وهو العمل الذي تؤديه الآن ثلاث بواخر كبرى . وهذه هي مزية السرعة المفيدة . وكانت موريتانيا تقطع المسافة في ١١٥ ساعة. فاذا تسنى لكوين ماري قطع المحيط قطعاً منتظماً في ١٠٠ ساعة ، اصبحت منافسة ناجحة جديرة بالاحترام لان الجمهور يقبل على اسرع البواخر توفيراً للوقت. فان احتدمت المباراة في سبيل ادراك النصر وعقد لواؤه لكوين ماري فستجعل بعدئذٍ سرعتها ثلاثين ميلاً اراحة لركابها . ومع ذلك فيجب الاَّ تنسى ان التسابق البحري بين الشركات يتطلب باهظ النفقات وان ارباب البواخر رجال تجاريون فان ربحوا ، زادوا السرعة والاَّ فلا

وستكون سرعة كوين ماري وأختها المزمع انشاؤها قريباً ، متساوية في جميع فصول السنة ، مهما تقلبت الاحوال الجوية

وتشحن كوين ماري بركابها وتفرغ منهم في ١٢ ساعة من مغادرتها لحوضها . وطولها ١٠١٨ قدماً وعرضها ١١٨ قدماً وارتفاعها من قاعدتها إلى ذروتها ١٣٥ قدماً وجؤجؤها وذنبها منحدران ولها ثلاث مداخن مدرجة تساعد اطلاق الغازات. وبدنها مزدوج التركيب ويحتوي على الوقود والمياه . وهو مقسم إلى ١٦٠ قسماً تحت الحواجز . « الاقسام ذات الابواب التي لا تخترقها

المياه ، وان اخترقت قسماً منها لا تستطيع النفوذ مما يليه » وهذه من أسباب متانة تركيبها الفائق وعامل من أقوى عوامل سلامتها من الاخطار . وفي كل مخدع من مخادع كوين ماري الخاصة بالركاب ، حمام ومرشّة (دش) وحوض للغسل وتليفون ومدفأة أوتوماتيكية لتنظيم درجة الحرارة ومروحة كهربائية . وفي مخادع الدرجة الاولى أنابيب للمياه الساخنة والباردة والعذبة والملحة . وتقوم بتوزيع المياه فيها أربعة أجهزة خاصة . وفي كوين ماري أروقة عامة وغرف للاستراحة وشرفات رحبة وملاعب وحياض للسباحة ورداه للاستقبال، وحمامات تركية وساحات للالعاب الرياضية ، وملعب للتنيس ومراقص . وفيها مسرح للسينما وحوانيت لبيع حاجات الركاب وفروع للبنوك ومكتب للسياحة ومطبعة وتليفون عالمي وعدة مستشفيات وحظائر للسيارات. وفيها أيضاً ٢١ مصعدة لنقل الركاب وأمتعتهم بين طبقاتها الاثنتي عشرة . وحمولتها ٧٣٠٠٠ طن على حين ان حمولة نورمندي ٧٩٠٠٠ الفاً

وكل زورق من زوارقها الخاصة بالنجاة من الغرق ، مجهز بمحركات ديزل سريعة ، سهلة المنال والانزال إلى البحر ، بحيث يتاح لرجل واحد ادلاء الزورق مشحوناً بالركاب في بضع ثوان .

وفيها أجهزة كهربائية لرفع المراسي والاثقال تقدر قوة سحبها باربعمائة طن بحيث يتسنى لها جر تلك الباخرة الضخمة إلى مرفئها بسلام في نصف الزمن الذي يلزم لأية باخرة من البواخر الكبرى . ولدى ضباطها البحريين في سلوقيتها Bridge عدة مخترعات باهرة تساعدهم على الاضطلاع بأعمالهم العظيمة وتسهل لهم الاستطلاع قدام الباخرة وخلفها وفوقها وتحتها ويمنة ويسرة. ويستدلون على شكل قعر البحر وتكوينه بمسبار كهربائي يسبر الاغوار بالصدى سبراً أوتوماتيكياً. وجهاز التنبيه فيها ذو صوت يتردد صداه في مسافة تتفاوت بين عشرة أميال وخمسين ميلاً ، ونغماته لا تخدش آذان سامعيه بل تشجيهم كأنها ألحان موسيقية . ولسكانها (دفتها) البالغ ثقله ١٤٠ طناً بابان متصلان بطريق يسع عدة رجال يدورون حوله . وقد بلغت نفقات صنع كوين ماري مليوني جنيه . وعدد الصناع الذين اشتركوا في رسمها وصنعها ٢٥٠٠٠٠ عامل . واستنفد صنعها ٣٥٠٠٠ طن من الفولاذ وأديمها مفروش بطنافس تبلغ مساحتها عشرة أميال مربعة . ومسبارها الكهربائي يسبر أعماق المحيطات ويوضح ذلك بقلم جرافيت يرسم رسماً أفقياً على خريطة تظهر نهاراً . أما في الليل فيقوم المسبار بالسبر مرة كل ثلاث ثوان ويدل على ذلك نور كهربائي أحمر يسطع على ميناء . مقدراً العمق بالاقدام في كل حالة. ويتولد التيار الكهربائي الذي يدير المسبار من المولد الكهربائي في الباخرة نفسها «عن مجلة الميكانيكا العامة»

الاستاذ برستد

James Henry Breasted

١٨٦٥—١٩٣٥

لفؤاد عينتابى

اذا عدّ المؤرخون الاعلام في هذا العصر ، الذين قاموا بخدمات جلى للعلم والتاريخ ودرسوا الشرق وآثاره ومدنياته دراسات وافية جامعة وأناروا بمكتشفاتهم ومباحثهم ومؤلفاتهم مجاهل الاسفار الماضية والقرون الغابرة كان في طليعتهم المؤرخ الاميركي « جيمز هنري برستد » James Henry Breasted الذي ذاعت شهرته في اندية العلم وجامعات العالم في الشرق والغرب — فقدكان العالم الثقة والمرجع المستمد في المباحث الاثرية ولا سيما ما كان له صلة بمصر والشرق الادنى

ولد برستد في مدينة (روكفور) في مقاطعة الينوي بأميركا في السابع والعشرين من شهر اغسطس ١٨٦٥. وبعد ان تخرّج من جامعة North-Western في السنة ١٨٨٨ درس في مدرسة اللاهوت العليا في مدينة شيكاغو ومن ثمّ والى دراسته في جامعة (ييل) حيث نال منها عام ١٨٩٢ رتبة استاذ علوم وبعد سنتين حاز درجة دكتور في الفلسفة من جامعة (برلين) . وكان من صغره يميل للشرق وتاريخه وآثاره . ولم تأت سنة ١٨٩٤ حتى عُيّنَ مساعداً في تدريس علم الآثار المصرية في جامعة (شيكاغو) وظلَّ يرتقي سلم الرقي والنجاح الى ان وصل في السنة ١٩٠٥ الى رتبة استاذ في الآثار المصرية والتاريخ الشرقي في جامعة شيكاغو وبقي في هذا المنصب الرفيع الى عام ١٩٢٥ . ثم عين مديراً لدار الآثار الشرقية فيها . وبعد ذلك ترأس بعثة اثرية وتولى ادارتها في مصر والسودان سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٧ . وعين في سنة ١٩١٥ رئيساً لقسم اللغات الشرقية وفي ١٩١٩ مديراً للمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو

وكانت المجامع الملكية في المانيا قد عهدت اليه في السنة ١٩٠٠ ان يقوم برحلة علمية الى متاحف أوربا للبحث فيها عن الكتابات المصرية واستنساخها وجمعها لتأليف معجم مصري يبحث

في الكتابات والنقوش والآثار المصرية التي يعثر عليها في المتاحف المذكورة

وفي عام ١٩١٩ اشرف على تأسيس وتنظيم المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو على قواعد العلم الحديث وذلك بالاموال التي وهبها لهذا العمل المجيد المثري الاميركي المشهور (جون روكفلر) الابن ، وكان هذا المعهدُ الاولَ من نوعه وغايته البحث عن بقايا الانسان القديم وتطور حياته ودراسة تاريخ المدنية والحضارات الاولى . واول عمل بدأ بهِ (برستد) انهُ قام بادارة هذا المعهد بهمة ونشاط فجاء الى الشرق في عام ١٩١٩ — ١٩٢٠ على رأس بعثة أثرية تفرَّعت الى خمس بعثات ، وامتدت اعمالها من البحر الاسود الى مصر العليا . وكان لهذه البعثات الاثرية مراكز — في آسيا الصغرى (للبعثة المعنيَّة بالتنقيب عن آثار الحثيين) — وفي فلسطين (لحفريات ارمجدون) — وفي الاقصر (للآثار المصرية وفك الرموز الهيروغليفية) . وكان (برستد) في الوقت ذاته المحرر المسؤول لنشرات المعهد الشرقي . وبنتيجة اعماله وجهوده عهد اليه المستر (روكفلر) الابن في عام ١٩٢٥ في مفاوضة الحكومة المصرية لمنحها عشرة ملايين دولار تخصص لتأسيس متحف شرقي ومعهد أثري في القاهرة للبحث في الآثار المصرية والتنقيب . غير ان الحكومة المصرية لم تسلّم بجميع قواعد المشروع فلم يسع روكفلر إلاَّ أن يوقف إعطاء هذا المبلغ الجسيم

وفي السنة ١٩٢٧ وجَّه (برستد) نظر المستر روكفلر إلى حاجة فلسطين الى متحف أثري يضم شتات ما يكشف من الآثار المهمة في فلسطين فخوَّلهُ هذا أن يفاوض الحكومة الفلسطينية لمنحها مليوني دولار لانشاء متحف أثري في القدس . فأجابت الحكومة الفلسطينية طلبه وقبلت هذه المنحة بطيبة خاطر . وانشاء المتحف المذكور دلالة واضحة على ما يبذله أغنياء الغرب في مساعدة العلم وتقدير رجاله واتعابهم الكثيرة في خدمة الانسانية والمدنية

وكان (برستد) قد عُيّنَ في السنة ١٩١٩ رئيساً للجمعية الاميركية الشرقية . وفي عام ١٩٢٧ رئيساً لجمعية التاريخ الاميركية . ولكنه ترك التعليم منذ ١٩٢٥ للتفرغ لأعمال البعثات الاثرية في الشرق الادنى . ومن أعمالهِ الباهرة الحفريات التي أجريت بمعرفتهِ لاكتشاف آثار مدينة (أرمجدون) في فلسطين . وقام بالقاء سلسلة محاضرات تاريخية أثرية ، معتمداً على ما اكتشفهُ من الآثار الثمينة والكنوز الدفينة ، وظلَّ يشرف على أعمال الحفريات ويقوم بأعمال البحث والتنقيب الى أن وافاه الاجل المحتوم في اليوم الثاني من دسمبر (كانون الاول) ١٩٣٥

ومن مؤلفاتهِ المشهورة — (آثار مصر القديمة) ١٩٠٥ — ١٩٠٧ — و (تاريخ مصر) ١٩٠٦ — و (تاريخ قدماء المصريين وتطور أفكارهم وآرائهم الدينية) ١٩١٢ — (العصور القديمة) ١٩١٥ وقد ترجم إلى اللغة العربية الاستاذ داود قربان من اساتذة الجامعة الاميركية في بيروت

و (تاريخ أوربا — العصور القديمة والوسطى) بمساعدة روبنسون — و (أصول المدنية) و(فجر الضمير) وغير ذلك من المؤلفات النفيسة

***

كان برستد من علماء الآثار الذين يذهبون الى ان مصر مهد الحضارة ومنشأ التمدن والعمران في العالم القديم . يعتمد في ذلك على ما اكتشف من الآثار المهمة الرائعة في مصر في الاعوام الاخيرة . فهو يرى ان للطبيعة والعوامل الجغرافية اكبر شأن في تسهيل السبل للانسان في العصر الحجري المتأخر لسكنى وادي النيل . وذلك ان مصر قبل عشرة آلاف سنة تقريباً كانت آهلة بالحيوانات والنباتات المختلفة . ولما كان الانسان في اول امره صياداً فهو يفتش عن المراعي الخصبة التي تكثر فيها الحيوانات . ثم ان اقليم مصر معتدل الحرارة يساعد على السكنى والانسان في مصر آمن على حياته فهو في حرز منيع يعيش في بقعة خصبة غزيرة المياه كثيرة الحيوانات تحيط بها الصحاري من جهة ومن جهة ثانية البحر الابيض المتوسط

ويرى (برستد) « ان الصيادين من سكان افريقيا الشمالية في العصر الحجري قد اجتذبتهم حيوانات الصيد الموجودة بكثرة على ضفاف النيل الخصبة فكانت سبباً في استيطانهم مصر » . وقد وجد (برستد) صور قواربهم التي كانت تمخر النيل مرسومة على الصخور في صحراء بلاد النوبة وراء (ابو سمبل) . ويرى « ان وجود الحيوانات بكثرة في وادي النيل من الاسباب المهمة التي ساعدت الانسان في العصر الحجري على سكنى مصر وعلى بزوغ الحضارة المصرية الرائعة منها . وبينما كانت مصر تتمتع بجوها المعتدل الملائم للحياة المدنية والتوطن غمرت اوربا موجة من البرد والصقيع فأخرت سيرها في التقدم والتحضر . آنئذٍ كان سكان مصر في العصر الحجري قد دجنوا اكثر الحيوانات المعروفة الآن وعرفوا الحبوب التي استعملها الانسان منذ القدم فزرعوها . وهذا مما سهل للصيادين في وادي النيل التوطن والاقامة حيث هم » . وهكذا يثبت لنا (برستد) « ان المصريين هم من اقدم الشعوب التي تحضرت اذ هيئوا لانفسهم سبل المعيشة الدائمة بتدجينهم الحيوانات وبسيطرتهم على قوى الطبيعة واستخراجهم المعادن واستعمالها واتخاذهم لاول مرة الكتابة الصورية . كل هذا جعلهم في طليعة الامم بعد ان تسلموا قيادتها بحذقهم ومهارتهم في الطرق التي سلكوها الى الحضارة والمدنية بينما كان بقية العالم يرسفون في بربرية العصر الحجري »

وهو القائل ايضاً — « ان ظهور المدنية على ضفاف النيل لا يعتمد على ضخامة الابنية المصرية وفخامتها بل لانها ظهرت آنئذٍ لاول مرة في التاريخ »

« ان من يعرف قصة الصيادين الذين عاشوا في وادي النيل في زمن ما قبل التاريخ وانتقالهم

الى حياة اجتماعية منظمة — فصاروا امراء وحكاماً ومهندسين وصناعاً وبنائين وانهم الذين بنوا تلك البنايات العظيمة وخلّفوا الآثار المدهشة في وادي النيل — في زمن كانت فيه اوربا باجمعها تعيش في همجية العصر الحجري حيث لم يكن ثمة من يعلّم الاقوامَ مدنية القدماء — إنَّ من يعلم هذا يعرف كيف ظهرت المدنية في العالم لاول مرة في التاريخ وكيف « نشأت الحضارة في زاوية الجنوب الشرقي من البحر المتوسط . . . . »

ويقول في مكان آخر —

«وكما ان المدنية الاوربية انتقلت من اوربا عبر المحيط الاطلنطي الى متوحشي العالم الغربي (اميركا) كذلك اجتازت الحضارة الشرقية البحر المتوسط الى برابرة اوربا ».ويرى (برستد) «ان الملاحة المصرية في البحر الاحمر قديماً كانت ذات اثر مهم في وسائل السفر في المحيط الهندي وفي جزائر الهند الشرقية كما انها اثرت في صناعة بناء السفن في البحر المتوسط » (١)

ولا بد لنا في هذا الصدد من ذكر عبارة (الهلال الخصب) التي وضعها (برستد) للدلالة على البلاد التي تمتد في شكل نصف دائرة غير منتظمة من الخليج الفارسي وتصعد شمالاً الى بلاد بابل وآشور وتعطف الى جنوب الاناضول وشمال سوريا ثم تتجه الى الشاطئ السوري وتنحدر الى فلسطين جنوباً وخليج العقبة . والهلال الخصب هو المنطقة الغنية التي كانت موضع نزاع بين الساميين سكان البوادي وغير الساميين من سكان الجبال . فكان الهلال الخصب الذراعين اللتين تصدان هجرات الساميين المتعددة عن التقدم والنفوذ وتقف سدًّا مانعاً امام الموجات السامية المتدفقة .ففي الالف الثالثة قبل السيد المسيح تدفق العرب الساميون بالهجرة من صحارى الجزيرة العربية آتين الى ضفاف الفرات والدجلة وقد بيَّن لنا برستد في كتابه (التاريخ القديم) (٢) العوامل التي اثرت في ديانة البدو الساميين الذين نزحوا من الجزيرة العربية الى البلاد المجاورة فقال:—

« الصحراء موطن البدوي . ووحدتها الشاملة وعزلتها المنقطعة قد جبلت نفس البدوي على الوقار فيتراءى له ان انحاء الجزيرة العربية مسكونة باشباح مفزعة ومخلوقات غير مرئية موجودة في كل صخرة وشجرة . بل في كل جبل وينبوع ماء . فالبدوي يعتقد ان هذه المخلوقات غير المرئية هي آلهته التي يعبدها وانهُ يتقرب اليها اذا نطق بصلوات وادعية ساحرة . . . . . وللبدوي شعور بالعدالة والحق وان عليهِ واجبات نحو اهله وعشيرته تفرضها عليه الآلهة . ولقد صارت فيما بعد هذه الاحساسات والشعور مُثُلاً عُلْيا جعلت الساميين معلمي الديانات للعالم المتمدن »

حلب

(١) Journal of Egyptian Archaeology vol. IV

(٢) Ancient Times : A History of the Early World

حديقة المقتطف

أغنية القطيع

من رمزيات سينويل

الرجاء بالله

للشاعر الفرنسي الفرد دي موسه

ڤينوس والنحلة

لنقولا الرسّ

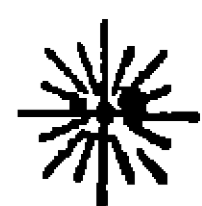

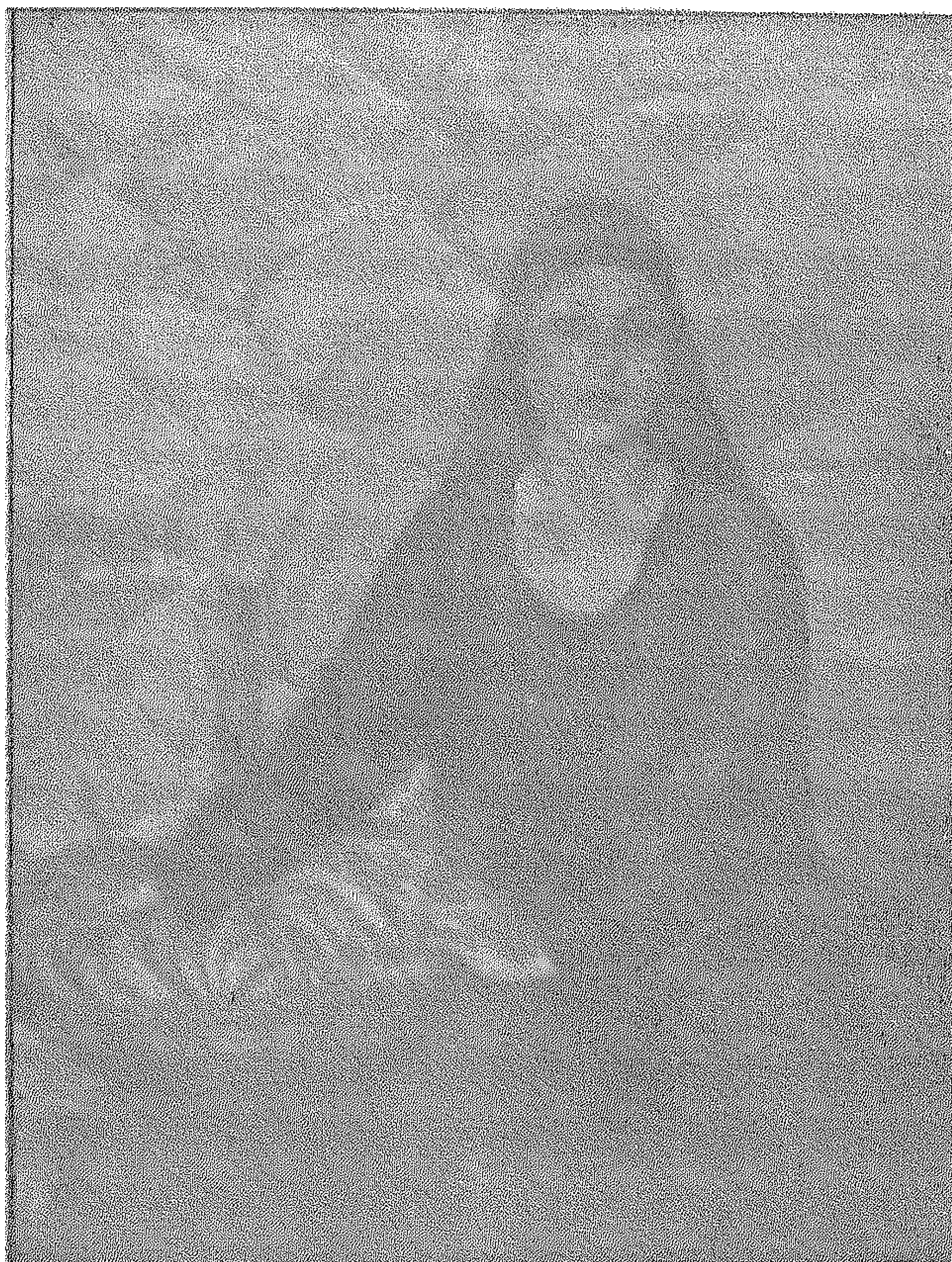

« فلاحة »

من تصوير لبيب تادرس

أُغنية القطيع

من رمزيات سيتويل

من خلال حظائرنا التي شيدها الجبروت ، رحنا نرقب احزان هذا العالم في صمت ورباطة جأش

لقد عرفنا الدم المهراق، ورأينا شؤبوبه وكيف ينبثق في غير ما تنهدة او حشرجة

ورأينا ذرارينا وكيف تعلف ويرجي سمنها للخنجر المصلت في يد الناحر

في عيوننا الصافية ترقد كل خفايا الأبدية وتتوارى اسرار الفراغ أو العدم

وإذ يترقرق في اسماعنا ثغاء الزعيم نخطر في مرح ورشاقة مجاوبين ثغاءه . فان أجفل رأيتنا في اثره كموجة متدافعة من الجنون حتى يقعد به العثار وإذ ذاك تتطلع إلى زعيم جديد نسير تحت إمرته

صاح خروف متلكىء في آخر القطيع « ولماذا تروعنا هذه المجزرة الممجدة فننكص على اعقابنا ! ؟ »

ولكن اسراب القطيع راحت تثغو في غضب وكأنها تقول « ألا تذكر كيف ذهبنا بأقدام خالية من القذر ورجعنا بأدمغة فارغة ؟ ! » إن نبل الصنيع يقتضينا الفرار ما استطعنا اليه سبيلاً »

« اننا نحمي بذلك خرافاً لن تجود بمثلها البطون »

فاذا ما أباح قطيع دمه فان المعز ستذكر لنا هذا القول المأثور ؟ »

. . . . . لحظة ثم هوى الراعي علينا بعصاه صارخاً مؤنباً « الى الوراء الى حظائركم ايها الحمقى »

[نقلها علي محمود طه]

الرجاء بالله

للشاعر الفرنسي الفرد دي موسه

يعرف هذا الشاعر بأنه شاعر الحب والعذاب ، لأن حياته جاءت صفحة مشوشة طافحة ألماً وغراماً ، وكيف لا يشتهر بهذا النعت صاحب « الليالي » التي ملأ الاسى ألحانها . والليالي هي التي خلقت من « موسه » عبقرياً يحس الالم ويحلله ، ويناضله ويتقبله والالم عنده خير معلم للناس ولعل « موسه » هو ألين شاعر خرجته المدرسة الابداعية في فرنسا يطغى عليه الاحساس العنيف والتعبير المؤثر . ولكن « لموسه » نواحي اخرى انطلق فيها من ذاته الضيقة وألمه النفسي ، الى عالم الذات الواسعة التي لا تحيط بها حدود ، والى آلام كل نفس تشعر وتفكر في هذا الوجود ، يعالج مسألة الله والايمان والجحود . وجدير «بموسه» ان يغلب قلبه على فكره وعاطفته على منطقه فينظر الى « ما وراء الطبيعه » بقلبه ، ويفهم الله بقلبه . ومقطوعته هذه هي صلاة فيها شك وايمان ، وثورة واستسلام . يرفعها شاعر شاك متألم الى الله

« خ . ه »

« قرأت كثيراً . . . وفتشت كثيراً ... انما الدمع والشعر منحوتان من معدن الحي » « موسه »

ما ظل قلبي الضعيف مفعماً بنشوة الصبا

لا ينصرف عن اوهامه

فلأستسلم الى الحكمة القديمة ، التي جعلت من «ابيقور» القنوع نصف اله !

أريد ان احيا وان احب ،

وان اماثل غيري من الناس ،

وان أتحرى عن قليل من الفرح دون ان أعبأ به

وان اصنع ما يصنعون ، وأكون كما يكونون

وان انظر الى السماء بعين هادئة آمنة

***

اراني لا أقدر ! فهذه اللانهاية — على الرغم مني — تعذبني !

ما سرّحت روحي فيها الاّ عراها ما عراها من خشية ومن رجاء
ومهما قيل عنها ، فان عقلي يضطرب اذ يراها ولا يفهمها
فما هو هذا الوجود وماذا جئنا نصنع فيهِ ، اذا كان لا يغمر ارواحنا سلام الاّ اذا حجبنا عنا السماء !
ولكننا اذا مررنا في سبلنا شاخصين الى الارض هائمين كالقطعان ، جاحدين كل شيء ، فهل تكون السعادة رفيقة لنا ؟
لا ! وهل معنى ذلك الاّ ان ينسلخ الانسان من انسانيته ويعمل على اذلال نفسهِ؟
انها الصدف ألقت بي في الوجود
وما انا الاّ ابن امرأة — سواء كنت شقيًّا او سعيداً
وليس باستطاعتي ان افر من البشرية

***

ما أصنع اذاً ؟
والمذهب الوثني يقول لي :
تلذذ في حياتك ومت ، فالآلهة لا تحلم الاّ بالرقاد
والمذهب المسيحي يقول لي :
تأمل ! فالسماء ترقب دائماً ، وأنت لا تقدر ان تموت
وقفت حائراً متردداً بين هذين المذهبين
وشئت ان اخترق بنفسي طريقاً أبهى وأقوم
فاجابني صوت عميق « لا تفتش عبثاً ! »
فليس امام السماء الاّ الكفر والايمان
فكّرت ، فوجدت النفوس الحائرة تتقاذف بين المذهبين
ووجدت المتجردين جاحدين ، لو تسرب اليهم الشك يوماً واحداً لصرف عن اعينهم الكرى
لأرضَ اذاً بتدبير القدر !
وما دامت المادة تبعث في قلبي رغبة مفعمة بالرهبة
فها انا أنحني خاشعاً ، اريد ان اؤمن وان يكون لي رجاء

ماذا أحول غداً وماذا يراد مني ؟

***

ها انا بين يدي آسه لاتبعث الآلام المجتمعة ما يبعثهُ ذكره من رهبة وخشية
ها انا وحيداً شريداً ، شقيًّا ضعيفاً
ترقبني عين ناظر لايغادرني ولا يغفل عني

***

ان تحت قدمي هوة عميقة ، اذا هويتُ فيها ، فان التكفير عن ساعة واحدة يستوجب العذاب السرمدي
ان حاكمي هو جلاد يخدع ضحيته ،
وكل الاشياء — عندي — نصبت لتكون اشراكاً ، ولا يتبدّل منها إلاّ اسماؤها
فالحب هو خطيئة والسعادة جريمة
وخليقة سبعة أيام ما وجدت الاّ للفتنة والاغواء .
ونفسي اصبحت لاتحمل شيئاً من الطبيعة الانسانية ،
فلا فضيلة عندي ولا ضمير .
أرتقب الثواب وأجتنب الأتعاب
دليلي الخوف وحده وغايتي الموت

***

يقال لى : ان هنالك النعيم السرمدي يرتقب أصحابهُ المصطفين لهُ .
فاين هؤلاء الذين منحهم القدر هذا النعيم ؟
أإذا كان وعدكم مكذوباً فهل تردون عليّ حياتي ؟
وإذا كان عهدكم صادقاً فهل تفتحون لي أبواب السماء ؟
أواه ! ان هذا البلد الطيب الذي أنبأ بهِ أنبياؤكم وأولياؤكم لن يكون — إذا صحّ وجوده — الاّ قفراً يباباً ...
لانكم تريدون لهذا البلد ابراراً اطهاراً ، لايكادون يبلغون النعيم الاّ بعد العذاب الاليم
اني إنسان ! لا انحط عن إنسانيتي ، ولا أتوغل في تجاربي .
أين المقر ؟

اذا لم تقبل نفسي على وعود الكهان فهل أقبل على المتجردين أسألهم ؟

***

واذا كان قلبي السأم من حلم ينتابهُ ، يفزع إلى الحقيقة ليروي غلته ، فاني لأجد في اللذات الباطلة التي ألوذ بها ، أجد مرارة مضنية تكاد تذيقني حتفي.

وفي الايام التي يكفر فيها العقل ، وينفي كل شيء لينقذ نفسه من الشك .

وفي الايام التي تملك يدي فيها كل شيء في الحياة

أراني لا أزال أتمنى . . .

أعطني القدرة والعافية والغنى ، والحب ذاته

وقل لعشتروت الشقراء تبرز إلى لقائي من الجزائر الزرقاء

وهب اني اصبحت ادرك اسرار الأرض وعناصر الخصب فيها .

واتصرف بالمادة الحية كما أشاء ،

وأخلق لنفسي جمالاً ليس لهُ مثيل .

وجلست بحف بي «هوراس ولوقريطيوس وابيقور» وهم ينعتونني بالرجل السعيد.

ومن حولي عشاق الطبيعة القديمة يرتلون أغاني الآلهة .

سأقول لهؤلاء جميعاً :

مهما أوتينا القدرة ، فاني اراني أتألم .

اتيتم متأخرين والوجود على هرم .

ان رجاءً واسعاً غمر الارض ،

وباعثاً عميقاً يجذب عيوننا — على الرغم منا — الى السماء

***

ماذا يبقى لي اذاً ؟

عقلي الثائر يجرب عبثاً أن يؤمن ، وقلبي أن يشك .

المسيحي ينذرني، ومايقوله الجاحد ـ على الرغم من حواسي ـ لا أستطيع أن أتقبله.

يراني رجال الدين زنديقاً ويجدني المتجردون مغفلاً .

فالى أي مطاف أجنح؟ واي صوت أنيس يغري هذا الفؤاد الذي جرحه الشك

قيل : هنالك فلاسفة تشرح لنا كل شيء ، وتقودنا الى سبل الحياة

غير معتمدة على وحي منزل ، هي بين التجرد والايمان .
اني أُسلم بذلك !
فأين اصحاب المذاهب الذين يدركون الحقيقة بغير إيمان ؟
وابن هؤلاء السفسطائيون المخدوعون الذين لا يؤمنون الاَّ بانفسهم ؟
ما هي مذاهبهم وما هي تعاليمهم ؟
أوجد لي أحدهم مذهباً يضم عنصرين متضادين خالدين . تدور بينهما المعركة سجالاً (١)
وأوجد آخر في اقصى السماء — الهاً لا يضر ولا ينفع — لا يحتاج الى معابد ومساجد .
رأيت افلاطون (٢) يحلم وارسطو (٣) يفكر .
سمعتُ وهللتُ وواصلت مسيري .
وجدت الهاً جائراً يعيش في ظلال الجائرين .
واليوم يحدثوننا عن آلـه « جمهوري »
فيثاغوراس (٤) وليبنتز (٥) يُحولان وجودي
وديكارت (٦) يقذف بي وسط الزوابع .
وموتاني (٧) يبحث فلا يصل الى معرفة نفسه
وپاسكال ينهزم مرتعشاً من رؤاه .
وپيرّو (٨) يتركي اعمى ، وزينون (٩) يغادرني فاقد الحس .
وڤولتير همه ان يحطم كل ما يجده منتصباً
وسپينوزا (١٠) الذي أعيتهُ معالجة المحال في بحثه عن الله اعتقد انهُ وجد الله في كل مكان

---

(١) يشير الى المذهب القائل بوجود الهين يسيطران على الوجود . اله الشر واله الخير (هرمز واهرمان) (٢) يشير الى المثل الاعلى عند افلاطون (٣) يشير الى عمل اريسطو بالمذهب الواقعي (٤) يشير الى ارتحال النفس من الجسد (٥) يشير الى مذهب الجوهر الفرد الذي هو اصل الاشياء (٦) يشير الى مذهب الزوابع القائمة بمذهب الجاذبية (٧) يشير الى كلمة «ماذا اعرف؟» (٨) فيلسوف يوناني جعل من الشك مذهباً (٩) فيلسوف المدرسة الرواقية (١٠) فيلسوف هولاندي واضع مذهب الحلول ان الله هو في جميع الكائنات

ولوك [١] السفسطائي يقول . ان الانسان آلة.
وفي النهاية رأينا فيلسوفاً [٢] يهوي من الضباب،مهدماً لما بقي من العمارة الفلسفية .
يعلن ان السماء خاوية ، وان ليس — هنالك — الاَّ العدم

***

هذه هي انقاض العلم الانساني !
وهذه هي الكلمة الاخيرة التي بقيت لنا بعد عمل خمسين قرناً.
آه ايها المساكين الذين شرحتم كل شيء بأساليبكم المختلفة !
ان العروج الى السماء يجعلكم مفتقرين الى اجنحة . . .
انتم تملكون الرغبة ، ولكن ينقصكم الايمان
انني ارثي لكم لأن كبركم هو ابن الروح المكاومة
انتم تحسون بالمرارة التي يطفح بها قلبي وتدركون الفكرة الاليمة التي تترك الانسان يرتعش امام اللانهاية .
والآن لنصلّ جميعاً . . .
انني منصرف الى مضاجعكم التي تضم رفاتكم وترابكم ، أضرع حولها وأُصلي لكم
فتعالوا ايها المعلمون الوثنيون ويا رجال العلم ، ونصارى العهد الغابر ومفكري اليوم وآمنوا معي بأن الصلاة هي صراخ الرجاء
لنرفعها الى الله لكي يحيينا عنها .
انهُ عادل صالح يغفر ذنوبكم.
قد تألمتم كثيراً ، وشقيتم كثيراً ، فكل شيء يمحى !
والسماء اذا كانت خاوية فان نهين بدعائنا احداً
واذا كان ثمة من يسمع ومن يرى فليأخذنا برحمته
ولينشر علينا بساط مغفرته .

[نقلها خليل هنداوي]

(١) فيلسوف انجليزي ذهب مذهباً بعيداً في المادة (٢) يشير الى الفيلسوف الالماني كانت

أسطورة جديدة

فينوس والنملة

(تعجز العين البشرية عن رؤية الكون بأكمله ،
فتعجز عن رؤية ما فيه من تناسق وجمال)

دخلت فينوس الغابة الالهية المقدّسة عند الفجر لتستحمّ . فضفرت غدائرها حول رأسها شبه اكليل وغمست جسمها الورديّ العجيب في حوضٍ بلوريٍّ مملوء عطراً من ورود الجنان

ولما فرغت من عملها خرجت من الحوض واستلقت على بُسُط الاعشاب السندسية وغرقت في سباتٍ عميق

ومرّ بها إلهٌ صغير يحمل الى سيده الجبّار جوبيتر قهوة الصباح فبهرته ودلّهته، وصرفته عن عمله

فقضى برهةً يتأمّل ذلك الهيكل القدسيّ الفخم غير آبهٍ لما ينتظره من شديد العقاب

في اثناء ذلك كانت نملة صغيرة تدبّ على الوجه الالهيّ الصبيح فتصعد الانف، ثم تهبط منه ،وتدخل الاذن ، فتتيه في منعطفاتها ، ثم تخرج منها ساخطة مغضبة ،لان الآلهة تخلق مثل هذه الخليقة الشوهاء التي لا تناسق فيها ولا جمال !

[لنقولا الدر]

سير الزمان

خواطر حول أزمة الدين

هل بين مبادىء الثقافتين الفرنسية والالمانية تناقض ؟

الدين والدور ولوكارنو

خواطر حول أزمة الرين

هل بين مبادىء الثقافتين الفرنسية والالمانية تناقض ؟

اتجهت انظار العالم ، بعد فوز الهرهتلر ، وتسلمه مقاليد الامور في المانيا وتوحيد ولاياتها وتنظيم جيشها وتسليحه وانكارها لمعاهدة لوكارنو باحتلالها منطقة الرين ، الى ما يكون من أثر ذلك في العلاقات بين المانيا وفرنسا . فقد قرأنا في الاسبوعين الاخيرين ملخص الخطب التي قيلت على جانبي الرين ، وتابعنا النزاع الذي دار في مؤتمر دول لوكارنو وفي اجتماع مجلس الامم في لندن، وكل من يهمهُ الامر يسأل نفسه ويسأل غيره هل النتيجة المنتظرة سلم او حرب ؟

ان الحالة الراهنة ، بين الامتين ، التي نشأت على أثر توقيع معاهدات الصلح ، وحاولت فرنسا ان تحافظ عليها ، بكل قوتها ، قد تصدى لها الآن من يتحداها بخروج المانيا في جامعة الامم ومؤتمر نزع السلاح وانتزاعها المساواة التي وعدت بها ونقضها للمواد العسكرية التي نصت عليها معاهدة ڤرساي وانكارها معاهدة لوكارنو على اثر ابرام ميثاق الدفاع بين فرنسا والسوڤيت . ولا يمكن ان يقال ان الحالة في الخمس العشرة السنة ، التي تلت معاهدة فرساي ، كانت حالة سلام . لان السلام ، اذا كان شيئاً ، فهو الرضا والقناعة ، او على الاقل هو تسليم بالحالة كما هي . وليس من ينكر ، انهُ لا الرضا ولا القناعة ولا التسليم ، كانت السمة التي اتسمت بها الحالة السياسية بين المانيا وفرنسا ، في العهد الحديث ، او من جانب المانيا على الاقل

فعلى ضفتي الرين تنابذ دائم ، بين القوتين وريبة متبادلة . فالمانيا لم تسلم قط بخذلانها . ولا رضيت عن ثمن الخذلان . انها لم تسلم قط بشروط الصلح ، لانها لم تقبل الاساس الذي بنيت عليه هذه الشروط — وهو الاعتراف بالتبعة في اثارة الحرب الكبرى . انها لم تسلم بأن خذلانها الحربي هو خذلان الثقافة الالمانية ، المتفوقة في نظرها على كل الثقافات

ثم ان فرنسا لم تحسن وضع اساس السلم هي وحليفاتها . فخانتها حكمة القوي في ساعة النصر ، وأخذت بثأرها من خذلان ١٨٧٠ ، معيدة في ١٩١٩ نفس الاخطاء التي ارتكبتها المانيا قبل خمسين سنة . خانتها الثقة في قوتها ، فحاولت ان تملك اكثر مما تستطيع . لم تكتف ببنود المعاهدة ولا بجامعة الامم ، ضماناً لها . فسعت الى الحصول على معاهدة مثلثة مع انكلترا واميركا ، لضمان الحالة التي نشأت عن معاهدات الصلح . فلما لم تنجح في هذا المسعى تحالفت مع بولونيا وبلدان الاتحاد الصغير كأنما لم تتعلم دروس التاريخ وعبره ، وهي القاضية ، بان الصداقة مع الجار ، أفضل من الصداقة مع جار الجار والعداوة مع الجار : إذ لا بد ان يشعر المتوسط من الثلاثة بشيء كثير من القلق ، وهو يرى جاريه عن جانبيه متفقين عليه

أدرك بريان هذا الخطر، وموضع الضعف في هذا المنطق الفرنسي، لانهُ كان اقوى خيالاً وأنفذ بصيرة من معظم مواطنيه، فحاول ان يصلح من اخطاء فرساي، بالتقريب بين فرنسا والمانيا في معاهدات لوكارنو. ومع ذلك لم يفز بريان بكل ما يتمنى. ان ذكريات الجوع في المانيا، وتبديدالثروة، واحتلال الرور، وفداحة التعويضات، واحاطة المانيا بحلفاء فرنسا، والتردُّدفي التسليم لالمانيا بكل ما كان العقل يقضي بالتسليم بهِ، وعدم الاعتراف لها اعترافاً رسميًّا بمساواتها للدول الكبرى في التسليح، كل هذه العوامل هدمت روح الثقة والتعاون بين الامتين على ضفتي الرين، التي حاول بريان ان يخلقها

فخاب كل مسعى، للتقريب بين الثقافتين— ثقافة المانيا وثقافة فرنسا — وحمل أصحاب كل منهما على النظر الى الاخرى نظرة احترام وصداقة. خاب كل مسعى من هذا القبيل، لعزم الظافر واصراره على الاحتفاظ بالتفوق والسيطرة اللتين فاز بهما سنة ١٩١٨، للمرة الاولى في خلال قرن من الزمان

وقد وجد الآن، من يتحدى، الذين يحاولون الاحتفاظ بهذه السيطرة — أي ان روح النازي تتحدى الحالة التي انشأتها معاهدات الصلح بين فرنسا والمانيا. ففي المانيا جيل جديد، لم يعرف مرارة الخذلان ولا يسلم بنتائجه. فهو يتحدى بصوت عال، يصحبه نفخ الابواق وقرع الطبول العسكرية، حق ثقافة أخرى أو حضارة غريبة، في السيطرة على السلالة التوتونية

***

إن محب السلام قد يتألم لظهور النزعة الالمانية الجديدة بهذا المظهر المتحدي. وقد يدافع عن حرمة المعاهدات، ويأسف للاسلوب الذي يجري عليهِ الريخ الثالث في تحقيق اغراضه. ولكن لا سبيل الى الفرار من مواجهة الحقائق. فبزعامة هذا الرجل الزعيم، نشأت أمة المانية جديدة، فيها اخطاء المانيا القديمة أو على الاقل مظاهر أخطائها، وفيها اخطاء جديدة، وروح هذه الامة المخلوقة خلقاً جديداً تتحدى النظام الراهن

فأوروبا تواجه الآن، ماكان أوفر العوامل سبباً في نشوب حروبها — نريد مفاخرة أمة من الامم بثقافتها مفاخرة ندعوها قومية. فليس ثمة فرنسي لا يؤمن بتفوق الثقافة الفرنسية على ثقافة الشعوب التوتونية. واذا كان ايمانه لا يتخذ شكلاً من التحدي الحربي فلانه يشعر ان هذا التفوق معترَف بهِ. وليس ثمة نازي الماني، لا يشترك مع الفيلسوف الالماني فيخت في القول بأن الشعوب الالمانية، هم كهنة الثقافة، وحملة المصابيح الى سائر الامم

كانت المانيا قبل الحرب تسعى الى السيطرة العالمية، وكانت تطلب السيطرة لنشر الثقافة الالمانية أو التوتونية في أرجاء العالم، وانما كان يحدوها شيء من المرارة، لان مقام الثقافة الالمانية لم

يكن معترفاً بهِ ، فأرادت الحصول على هـذا الاعتراف بحد السيف وهذا هو الباعث على ظهور الالمان بمظهر المتغطرس قبل سنة ١٩١٤ وقد دعوا هذا النوع من الـكفاح « الـكفاح الثقافي » Kulturkampf

ثم جاء الخذلان في الحرب . ولو انهُ كان خذلاناً حربيًّا،لسلم بهِ الالمان . ولـكن الطريقة التي أساء بها المنتصرون استعمال هذا الخذلان الحربي ، احفظ قلوب الالمان ، وجعل المانيا اليوم كما كانت سنة ١٩١٤ ، ولعلَّ روحها اليوم أشد مرارة من روحها سنة ١٩١٤ . فألمانيا النازية في نظر الفرنسيين ، ليست الاَّ نسخة من المانيا سنة ١٩١٤ ، ان المانيا اليوم ، بما ذاقته من ضروب المحن والحرمان ومرارة الاستعباد الدولي كالاسد الثائر يحاول ان يحطم قضبان القفص الذي يحويه

ولو ان فرنسا عرفت ، كيف تحتفظ باحترام عدوتها المغلوبة ، لامكن تفادي معظم ما وقع ومعظم ما ينتظر أن يقع ، ولا يبعد ان المانيا كانت حينئذٍ اتخذت من فرنسا الموقف الذي اتخذته فرنسا من انكلترا في المائة السنة الاخيرة أو تزيد — وهو موقف احترام واحتمال متبادل . وفي علاقة بريطانيا بفرنسا عبرة من عبر التاريخ ، لا ندري كيف يهملها رجال السياسة . ففي خلال الف سنة قبل القرن التاسع عشر او حتى مستهله ، كانت فرنسا وبريطانيا أشد الامم عداوة . فلم ينقض قرن واحد لم تنشب بينهما حرب ، او لم تخوضا حرباً في الصفين المتقابلين ، وظن أن هذه العداوة سوف تكون دائمة بينهما،ولـكن،مضت الآن ١٢٢ سنة على معركة واترلو،والسلام مخيم على العلاقات بين الامتين . فلا يخطر ببال انكليزي من ناحية ، ولا ببال فرنسي من ناحية اخرى ان حرباً بين الامتين ممكنة أو محتملة ، لانهما قد تعلمتا ان تعيشا معاً ، فكل منهما تحترم الاخرى واوضاعها وتقدر ثقافتها من دون ان يمر في خاطرها ظل من الرغبة في السيطرة عليها وإخضاعها . ذلك ان بريطانيا لم تسيء استعمال النصر الذي نالتهُ في واترلو على نابليون ، فلم تترك لفرنسا عذراً تتوسل بهِ إلى تغيير الحالة التي نشأت عن الانكسار في تلك المعركة . ثم ان رجالها حكموا العقول في الروابط الجغرافية والاقتصادية التي تقتضي منهما التعاون بدلاً من التنابذ

***

في اللغات الفرنجية مثل يقول« لا تبك على اللبن المدلوق» وليس غرضنا هنا ابداء الاسف فقط على ما وقع حتى الآن،وانما غرضنا ان نبين لمن يريد ، منشأ الحالة كما هي اليوم من ناحيتها الروحية . ومن أشق الامور على الـكاتب ، تعيين اللوم ، أو توزيعه ، ولـكن لا ريب في ان بريطانيا وأمريكا تحملان نصيباً من التبعة في خلق هذه الحالة لانهما لم تريا الخطر ، الناشىء من ترك فرنسا والمانيا وجهاً لوجه وكل منهما متمسكة بكبريائها الثقافية . كان لا بدَّ من ان تتولى امة من الامم الزعامة في الدفاع عن مبدأ جديد في الشؤون الدولية — هذا المبدأ هو أن ثروة

العالم الروحية تتبدد اذا بلغ النزاع بين نوعين من الحضارة او اساوبين من الثقافة ، درجة الغليان والحرب، وانها — اي الثروة الروحية — تنمو وتزداد، بالتعاون الحر ، القائم على الاحترام والتقدير

هذا المبدأ كان يجب ان يكون مبدأ جمعية الامم في جنيف . ولكنهُ لم يكن مبدأها إلاَّ في عالم الوهم والنظر. فجنيف في نظر فريق من الامم الاوربية، ليست إلاَّ سبيلاً للاحتفاظ بالسيطرة التي منحتهُ إياها معاهدات السلام . وفي نظر فريق آخر هي السبيل الى التحرر من قيود هذه المعاهدات . فأخفقت جنيف في تحقيق كلتا النظريتين . وأصبح منبر جمعية الامم ككل المنابر الدمقراطية مجالا للمساومة على المبادىء ، وميداناً للانتصارات الكلامية السخيفة واضحى التقدم في معالجة شؤون العالم تقدماً بطيئاً جداً ، يفقده البطء كل قيمة وكل اثر طيب

فبدلاً من ان تصبح دار جمعية الامم ، ملتقى لممثلي الحضارات والثقافات المختلفة يجتمعون فيها على صعيد واحد من الرغبة في بث روح التعاون والتسامح ، أصبحت ميدانا للمنافسة بين العناصر المختلفة، فاتسعت الهوة التي تفصل بين الحضارات والثقافات والفلسفات التي تقدسها الامم المختلفة ، وتسير بهديها ، فالنية من البدء كانت متجهة الى جني الفائدة الخاصة اكثر من اتجاهها الى التفاهم ، والى الاحتفاظ بالماضي بدلاً من السير في سبل جديدة الى الأمام

قد يشذ عن ذلك بريان وشترزمان وهريو ومكدونلد ، ولكن الروح الغالبة هي الروح التي تقدم ذكرها . وهذه الروح وجدت الآن من يتصدى لها ويتحداها في شخص هتلر وجنوده والمانيا الجديدة التي خلقها

في النزاع المحتدم بين الثقافتين — الذي المعنا اليه في مقالنا هذا — يظهر احياناً رجال من اقطاب الفرنسيين ينفذون ببصيرتهم الى سر النزاع ويحاولون ازالته . فبريان قال بعد اجتماعات لوكارنو التي اقتربت فيها المانيا من فرنسا اقتراب تفاهم حقيقي — « لقد تكلمنا لغة اوربية وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها ». وكذلك قال لمستشار الماني — : « أنت الماني وأنا فرنسي . وعلى ذلك فلا بد من اختلافنا . ولكنني استطيع ان اكون فرنسيًّا وأوربيًّا محبًّا لصالح اوربا في آن واحد . وأنت تستطيع ان تكون المانيًّا وأوربيًّا محبًّا لصالح اوربا في آن واحد . ولا يصعب على اوربيين يحبان صالح اوربا أن يتفقا »

وممن طبع على غرار بريان المسيو هريو . فقد قال في خطبة في سبتمبر سنة ١٩٣٢ : «لا بد ان يكون في حيز المستطاع وضع عهد لضمان السلامة تشترك فيه كل الأمم الاوربية ويضمن لالمانيا الطمأنينة الدائمة »

***

ولعلَّ قول هريو هذا هو ابعد ما قدمه الفرنسيون لالمانيا ، من ناحية السياسة العملية .

ولكنه لا يكفي المانيا . فألمانيا لا تطلب الطمأنينة فقط ، لان الطمأنينة قد تكون هدف امة مستقرة على نظام وعقيدة . ولكن الطمأنينة لا مكان لها في فلسفة دينامية كالفلسفة الالمانية . وقد أشار الى ذلك المسيو ده جوفنل في كتابه « السلام الفرنسي » اذ قال « كل خطة سياسية بين فرنسا وألمانيا لا تنظر بعين العناية الى الفرق الكبير بين « المنطق الفرنسي » و « الدينامية الالمانية » لا بدَّ ان تمنى بالخيبة عاجلاً او آجلاً

وفي هذا التفريق سر النزاع . ففرنسا لم تفهم قط « الدينامية الالمانية » . لانها كانت دائماً تخافها وتخشاها ، مع انه ليس من المعقول ، ان يظن احدٌ ان انخذال المانيا في سنة ١٩١٨ وانشاء الجمهورية الالمانية ، يمكن ان يتخذ دليلاً على تخلي المانيا عن فلسفتها الراسخة في تاريخها

قال اديب المانيا العظيم جوته : « في البدء كانت « الكلمة » . انني لا استطيع ان اعين قدر الكلمة او معناها . في البدء كان الذكاء . هل ابدع الذكاء كل شيء ؟ بل يجب ان نقول في البدء كانت القوة ؟ كلاّ بل اقول بثقة ، في البدء كان العمل » . فهتلر يقدس « العمل » . أما في فرنسا فيتتابع زعماء الاحزاب واقطاب السياسة وجميعهم يقدسون الذكاء والمنطق في الغالب . وهذا هو الفرق الاساسي بين نفسية الشعبين ، الفرق الذي ينشيء ريبة احدهما بالآخر . وقد يدفعهما ثانية الى الالتجاء الى الحجة الاخيرة — حجة القوة والسلاح

***

ولعلَّ الخطر اعظم مما نتصوره في هذا العصر عصر الجمهور — سواء كان هذا الجمهور جنود النازي في المانيا ومن ورائهِ الشعب الالماني تسيّرهُ وزارة الدكتور جوبلز ، أو الرأي العام الفرنسي الذي تسيطر عليهِ الصحف الفرنسية وتستهويهِ . وليس ثمة ما يقنعنا الآن بأن الدمقراطيات أقل استعداداً للحرب من « الملكيات » و « الارستقراطيات »

بل ان « الملكية » في المانيا القيصرية كانت ضمانة ضد التهور النفسي الذي يندفع اليهِ الشعب . فكان زعماؤها أكثر وقوفاً على حقائق الحال مما يمكن أن يتاح لجمهور يحصى بالملايين . وكانوا أشد اهتماماً بأعمالهم وفزعاً على مقامهم ، لذلك كانوا أقل اندفاعاً الى المغامرات الخطرة ، من الجماهير التي قد تشب عن الطوق ، ويصبح من المتعذر كبح جماحها

ولكن المانيا دولة مندمجة الآن ، لا جمهورية هي ولا ملكية ، وقد انقلب الشعب الالماني انقلاباً تامًّا بعد ما وضعت الحرب اوزارها . فالعناصر المتئدة المعتدلة التي تقلدت زمام الامور في بدء جمهورية ڤيمار ، قد فقدت ما لها من السلطان وتنحّت عن الزعامة لأتباع « فلسفة العمل » وهو مبدأ الفلسفة الدينامية الالمانية ، وليس المركبة التي تدفعها قوة النازي « فرملة » يمكن

استعمالها لتخفيف السير ودرء الخطر عند الاضطرار . فقد اكتسحت كل الفواصل بين الولايات الالمانية وأنشأتها على المثال الالماني الاعلى : وحدة متماسكة

وهذا كله أهم من الاتحاد الجمركي بين المانيا والنمسا الذي قاومته فرنسا حتى خنقتهُ في المهد

***

نظرنا حتى الآن الى مسألة السلم والحرب بين فرنسا والمانيا من ناحية النزاع بين السلالتين والاختلاف بين روحي ثقافتهما. ولا ريب في ان الفرنسي، إذ يلقي بنظره الى ضفة الرين الاخرى ويرى هذه القومية الجامحة المجتاحة ، يعذر اذا داخلته الريب في ماقد يسفر عنهُ المستقبل . ولكن الفرنسي يجب ان يعترف بأنهُ أخفق في محاولته السيطرة على الروح الالمانية ، سواء بالقوة حاول ذلك أو بالدبلوماسية . وكل ما فعله هو ومن يحمل معهُ تبعة هذا العمل ، تقوية الروح الالمانية المطالبة بالمساواة

ولكن ثمة سببٌ آخر للحرب ، شديد الخطر وهو لاتصاله بتفاقم الازمة الاقتصادية قريب من الوتر الحساس في الشعوب المهتاجة المحتاجة أشد القرب ، فقد خلقت دول جديدة في أوربا بمقتضى معاهدات الصلح ، يبلغ طول حدودها نحو خمسة آلاف ميل. ولو ان هذه الحدود كانت حدوداً جغرافية أو عنصرية فقط، لكان الامر هيناً ولكن ما كادت هذه الحدود ترسم على الورق حتى اصبحت حدوداً اقتصادية فأضيف الى النزاع العنصري النزاع الاقتصادي ، فشرعت في الحال كل دولة جديدة تحاول ان تكتفي ذاتها بذاتها من الوجهة الاقتصادية ، فرفعت الحواجز لتمنع بضائع جاراتها من ان تنفذ اليها ، فمنعت كذلك الافكار والاذهان من التبادل والتفاهم . فصحَّ المثل القائل « زاد الطين بلة »

وهذا العمل ، في نظر المانيا — البلاد الصناعية التي تعيش ببيع مصنوعاتها — كان باعثاً على خرابها الاقتصادي وخاصة بعد نزع مستعمراتها منها وقد اشار الى ذلك كاتب الماني كبير فقال . « لو عزز روح الاشتراك والتعاون من الناحية الاقتصادية لقضى على بذرة البغض قبل ان تنبت ، وقتل فكرة الحرب في مهدها ». فلما حاولت المانيا ان تنفك قليلاً من هذا القيد ، بانشاء الاتحاد الجمركي مع النمسا ، تصدَّت لها فرنسا ومنعتها

***

فماذا تستطيعه فرنسا في هذه الحال ؟ لا بدَّ لها من ان تنظر الى عاملين خطيرين : فثمة اولاً احزاب اليسار من متطرفين واشتراكيين . وهي الاحزاب التي تؤيد الحكومة الحالية وتمثل في الغالب الرأي السائد لاكثرية الشعب الفرنسي . ولكن احزاب اليسار لم تستطع حتى

الآن ان تحقق خططها السياسية في فرنسا . نعم ان بين زعمائها رجالاً واسعي الثقافة كرام المبادىء احرار الفكر يستطيعون ان يخطبوا خطباً بليغة في «نزع السلاح الادبي » و « التعاون الدولي » ولـكنهم في الغالب لا يستطيعون ان يتحرروا في شؤون السياسة الخارجية من القواعد التقليدية . حتى بريان نفسه ،على عظمته في هذا الميدان ، لم يتحرر في عهده كل التحرر منهـا . اما هريو فأبدى فهماً عميقاً للحال وجرأة عظيمـة في مؤتمر لوزان الذي الغيت فيه التعويضات ، لـكن حكومة المستر هوفر خذلته ، لانها بعد ما اشارت بما تم في لوزان ، لم ترض ان تخفض ديون الحرب ، لقاء الغاء التعويضات . ولذلك تنتظر النتائج التي تسفر عنها الانتخابات الفرنسية العامة في مايو القادم بفارغ صبر

***

على ان للمسألة ناحية اخرى . فنحن اذ نأخذ على فرنسا تشدُّدها في المحافظة على المعاهدات القائمة ، وامتعاضها من ملاينة انكلترا لالمانيا ، ونحملها جانباً كبيراً من تبعة الخيبة في انصاف المانيا والتعاون معها بعدم انصافها ، ننسى شيئين :

ننسى اولاً ان الانكليزيَّ — حتى السنة الاخيرة — والاميركيَّ ، لا يدركان معنى تنظيم السلامة او ضمانها كما يفهمها الفرنسي . فانكلترا جزيرة او جزر يحيط بها الاسطول . واميركا بلاد شاسعة واقعة بين محيطين . ولو كانت المكسيك بلاداً يقطنها مائة مليون ياباني ، لفهم الاميركي معنى ضمان السلامة على نحو ما يفهمهُ الفرنسي . والسياسة ترجع في الغالب الى الحقائق الجغرافية والتاريخية فعبارتا ضمان السلامة « وتنظيم السلام » كما تردان في خطب الفرنسيين ليست بالعبارتين الجوفاوين

ثم اننا ننسى كل ما سلمت بهِ فرنسا من اقتراح البروتوكول المشهور سنة ١٩٢٤ الى الاتفاق على خروج الجنود المحتلة للمنطقة الثالثة من بلاد الرين خمس سنوات قبل الميعاد المضروب في المعاهدات، الى قبولها الموراتوريوم الخاص بديون الحرب سنة ١٩٣١ بعد اعتراض شكلي ، الى تسليمها في مؤتمر لوزان سنة ١٩٣٢ بالغاء التعويضات الالمانية ، عدا مبلغاً صغيراً لا يزيد على ١٥٠ مليوناً من الجنيهات

فهذه كلها اعمال تُسطرى ، ولـكن فهم الفرنسي لمعنى ضمان السلامة كان يحول دون التسليم بجميع هذه الامور تسليماً سمتهُ السخاء والعطف ، بل كان تسليمهُ في الغالب ينتزع انتزاعاً منهُ حتى افضى تبرم الالمان بذلك الى نشاط الحركة الوطنية الاشتراكية واستفحالها فاصبح الخطر الذي يتصوره الفرنسي شبحاً ماثلاً امامهُ

الرين والرور ولوكارنو

بلاد الرين

بلاد الرين اسمٌ يطلق على جانب من المانيا ليس بحد ذاته وحدة سياسية او تاريخية ، وهو يشمل قسماً من ولاية هسي ناسو البروسية ، واجزاء من دولة هسي الحرة ، واحدى امارات باڤاريا (Palatinate) ودولة بادن الحرة . وهي بلاد واقعة على جانبي نهر الرين مساحتها ٢٥٥٤٧ ميلاً مربعا وسكانها نحو سبعة ملايين وربع مليون وهذا عدا مقاطعة السار التي تبلغ مساحتها ١٩١٠ اميال مربعة وسكانها ٧٧٠ الفاً وقد اعيدت الى المانيا بعد الاستفتاء الذي عقد فيها باشراف جامعة الامم في اوائل سنة ١٩٣٥

ضمت بلاد الرين القديمة ، وهي خليط من امارات زمنية وكنسية ، الى فرنسا سنة ١٨٠١ في معاهدة لونيڤيل Lunéville واعيد معظمها الى بروسيا في مؤتمر فينا في ١٠ فبراير سنة ١٨١٥. الاّ ان السياسة الفرنسية ، اتجهت عند ختام الحرب الكبرى، الى فصل الجانب الواقع على ضفة نهر الرين اليسرى من بلاد الرين هذه (بما فيه مقاطعة الالزاس عن) المانيا، ولو تمّ هذا الفصل لخسرت المانيا ٨ في المائة من مساحة بلادها ، و١١ في المائة من عدد سكانها و ١٢ في المائة من مصادر الفحم فيها و٨٠ في المائة من مصادر الحديد فيها ، وذلك رغبة في ضمان سلامة فرنسا . وبعد مساومة طالت تمّ الاتفاق على ابقاء بلاد الرين الواقعة على ضفة نهر الرين اليسرى ، تابعة لالمانيا ، على ان يحتلها جنود الحلفاء في ثلاث مناطق فتخلى المنطقة الشمالية بعد انقضاء خمس سنوات على احتلالها وتخلى المتوسطة بعد انقضاء عشر سنوات على احتلالها ، وتخلى المنطقة الجنوبية بعد انقضاء خمس عشر سنة على احتلالها ، اذا نفّذت المانيا شروط الصلح المفروضة عليها . وتم الاتفاق كذلك على تجريد بلاد الرين الواقعة على ضفة نهر الرين اليسرى ومنطقة عرضها ٥٠ كيلو متراً مما يقع منها على الضفة اليمنى ، من السلاح ، وكان الغرض من هذا الاحتلال والتجريد من السلاح ، ضمان تنفيذ مواد معاهدة ڤرساي وضمان سلامة فرنسا من الاعتداء العسكري عليها

فانشئت بعد ذلك لجنة دولية مؤلفة من ممثلي فرنسا وانكلترا والبلجيك والولايات المتحدة الاميركية ، ومنحت الحق ان تصدر مراسيم لحماية قوات الحلفاء ، ولكن لم يصرح لها بالتدخل في ادارة البلاد الالمانية

وكانت فرنسا قد سلّمت بابقاء بلاد الرين ، وبوجهٍ خاص ما كان منها على ضفة نهر الرين اليسرى ، المانيةً على ان يعقد لها محالفة او ميثاق لضمان سلامتها مع انكلترا والولايات المتحدة

الاميركية فلما رفضت الولايات المتحدة الاميركية الاشتراك في هذا الميثاق امتنعت انكلترا عن تحمل تبعته وحدها

وكأن الفرنسيين كانوا يتوقعون كلَّ هذا فسعوا الى تشجيع المطالبين بانفصال بلاد الرين عن الجمهورية الالمانية ، وانشاء حكومة مستقلّة استقلالاً ذاتيًّا فيها فأيد العسكريون الفرنسيون رجلا يدعى الدكتور هارتنز في سعيه الى انشاء جمهورية في بلاد الرين . ولكن هذه الحركة منيت بالاخفاق من بدئها لان قائد الجيوش الاميركية في منطقة الرين رفض ان يشترك في تأييدها (٢٢ مايو ١٩١٩) ولكن لما القت الحكومة الالمانية القبض على الدكتور هارتنز في منطقة غير داخلة في البلاد المحتلّة (٢٤ يوليو ١٩٢٠)طلب المندوب السامي الفرنسي تسليمهُ الى ادارة المنطقة المحتلّة واطلاق سراحهِ

احتلال الرور

الرور نهر الماني يصبُّ في الناحية اليمنى من نهر الرين ، ويمرُّ قبل وصوله الى الرين في منطقة صناعية غنية بالمناجم . هذه هي المنطقة التي اشتهرت بعد الحرب الكبرى باحتلال الفرنسيين لها ، في سنة ١٩٢٣ لما كان المسيو بوانكاره رئيساً للوزارة

كان احتلال الحلفاء للبلاد الالمانية الواقعة الى يسار ضفة الرين اليسرى ، يشتمل على الطرف الغربي من جسر الرين عند مدينة كولون، فكأن هذا الاحتلال كان يمسُّ منطقة الرور نفسها. ولكن الفرنسيين لم يكونوا راضين عن هذه الحالة من الناحية العسكرية لان هذه المقاطعة كانت قلب الصناعة الالمانية في الحديد والصلب . ففي شهر مارس سنة ١٩٢١ مدَّ الفرنسيون رواق احتلالهم على مدن دويزبرغ وروهرور ودوسلدورف في منطقة تبلغ مساحتها ٥٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها نحو ٧٠٠ الف نسمة ، عقوبةً لالمانيا لانها رفضت مقترحات باريس الخاصة بالتعويضات . ثم وسع نطاق هذا الاحتلال في سنتي ١٩٣٣ و ١٩٣٤ حتى شمل منطقة الرور كلّها تقريباً

كانت مصانع الحديد والصلب في اللورين قبل الحرب ملكاً لرجال الصناعة في الرور او مندمجة في مصانعهم . فركاز الحديد في اللورين — وهو غير جيد — كان يستعمل جانبٌ كبير منهُ في مصانع الرور . يقابل هذا ان فحم الكوك المستخرج من مناجم الرور كان يستعمل جانب منهُ في صهر ركاز الحديد في مصانع اللورين. وعلاوة على هذا كانت مصنوعات اللورين الحديدية تباع في الغالب في جنوب المانيا الغربي

فلما وضعت الحرب اوزارها واعيدت مقاطعتا الالزاس واللورين الى فرنسا ، وانفصلت دوقية لوكسمبرج عن الاتحاد الجمركي الالماني ، خسرت المانيا نحو ٨٠ في المائة من مصادر

الحديد التي كانت لها . واصبحت فرنسا في الوقت نفسهِ في مقدمة دول اوربا في انتاج ركاز الحديد . يضاف الى هذا انها سيطرت على مصانع الحديد في اللورين وقد كانت مجهّزة باحدث الآلات واتقنها وضمّت اليها ضمّاً مؤقتاً مناجم السار رغبة منها في الغالب ، في الفوز بفحم الكوك منها لمصانعها . ولكن لما كان فحم السار غير صالح لذلك ، نصَّ في معاهدات الصلح ، على وجوب تسليم فرنسا وحلفائها مقادير معينة من الفحم والكوك باسعار معيّنة

الاَّ ان الحالة الاقتصادية في الرور لم تكن على ما يرام من ناحية فرنسا . فحكومة المانيا امدّت اصحاب المناجم والمصانع هناك باعانات مالية مكّنتهم من انشاء مصانع جديدة على احدث طراز ، تستطيع ان تعتمد في عملها على ركاز الحديد المستورد من السويد او اسبانيا . يقابل هذا ان ركاز الحديد في اللورين ، وهو غير جيد ، كان يجب ان يصهر وينقى اما في اللورين واما في الرور . والصهر في اللورين كان متوقفاً على ايراد منتظم من كوك الرور . وتصدير ما يصنع من هذا الحديد كان متوقفاً على الاسواق الالمانية ، وفي صدد هذه الاسواق نصّت المعاهدة ، على ان صادرات اللورين تبقى معفاة من الضرائب الجمركية مدة خمس سنوات فقط في حدود ما كانت تصدرهُ اللورين الى المانيا قبل الحرب . واذن يتبيّن للقارىء ان المسيطرين على فحم الرور كانوا كذلك مسيطرين على حديد اللورين وصناعتهِ فيها

فلما عقد مؤتمر سپا سنة ١٩٢٠ كانت المانيا قد تأخرت عن توريد جانب مما يطلب منها من فحم الرور، فبعث اليها الحلفاء بانذار نهائي مهددين باحتلال الرور اذا لم تقبلهُ . فسلّمت الحكومة الالمانية بما ليس منهُ بدٌّ . ومن ثمة اخذ الفرنسيون يستعملون التهديد باحتلال الرور سلاحاً في النزاع القائم حول مشكلة التعويضات . فلما رفضت الحكومة الالمانية مقترحات مؤتمر باريس (٢٩ يناير ١٩٢١) احتل الفرنسيون دوسلدورف وروهرور ودوزبرج وظلوا محتلّيها حتى بعد ما قبلت المانيا بلاغ لندن النهائي في ٥ مايو ١٩٢١

وفي ٢٦ دسمبر سنة ١٩٢٢ اعلنت لجنة التعويضات بوحي او ضغط من قبل فرنسا ان المانيا قد قصّرت في توريد ٢٠ الف متر مكعب من قدَد الخشب و١٣٠ الف عمود تلغراف وثمنها كلّها لايزيد على بضعة ملايين من الماركات . وبعدها بايام اعلن تقصير آخر من ناحية المانيا . فقرّرت لجنة التعويضات — على الرغم من معارضة انكلترا — ان هذا التقصير كان مقصوداً ، وفي ملحق معاهدة فرساي ما يخوّل الحلفاءَ في مثل هذه الحالة ، ان يتخذوا الاجراءات التي تقتضيها الحالة . فقرّرت حكومتا فرنسا وبلجيكا ان تبعثا بلجنة من المهندسين الى الرور للسيطرة على اعمال نقابة الفحم وضمان توريد المقادير المتفق عليها من الفحم . وصحب هذه اللجنة الفنية قوة عسكرية، من دون ان يكون الغرض احتلالاً عسكريًّا

فلما دخلت جنود فرنسا وبلجيكا الرور في ١١ يناير سنة ١٩٢٣ كانت نقابة الفحم قد نقلت مقرّها واوراقها الى همبرج. واحتجّت الحكومة الالمانية احتجاجاً رسميًّا في ١٢ يناير سنة ١٩٢٣ وتوقف توريد الفحم والكوك الى فرنسا وبلجيكا ، ووقف دفع التعويضات ، وامر موظفو الحكومة ورجال السكك الحديدية في الرور ان يمتنعوا عن اطاعة الاوامر الصادرة من الدول المحتلّة ، فحاول الفرنسيّون ان يديروا البلاد في وجه مقاطعة عنيفة، فخسروا هم في ذلك وخسر الالمان في تعزيز هذه المقاطعة . بل ان النزاع في الرور لمقاومة فرنسا فيه ضعضع حالة المانيا المالية في سنة ١٩٢٣ وافضى الى انهيار المارك

وذهبت جميع المقترحات التي اقترحتها المانيا وانكلترا حلاً للمشكلة ، ادراج الرياح ، حتى تألفت وزارة جديدة في المانيا برآسة شترزمن فألغيت المقاومة السلبية في الرور في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٢٤ ولكن الحكومة الفرنسية ظلّت رافضة ان تفاوض بل مضت في تأييدها للحركة الانفصالية على ضفة نهر الرين اليسرى

ولكن في نوفمبر بدأت مفاوضات اقتصادية مالية بين البيوتات الصناعية الكبيرة في المانيا وفرنسا ، افضت الى شيء من الاتفاق فتمهّد بذلك السبيل ، الى الاتفاق بفضل ما بذلته الحكومتان الاميركية والانكليزية من السعي في فرنسا . فأنشأت لجنة التعويضات لجنة خاصة برآسة الجنرال دوز الاميركي لتقدير مال التعويض الذي تدفعهُ المانيا للحلفاء وطريقة توفيته ، فلما عرض مشروع دوز وتمّ الاتفاق عليه مبدئيًّا بدأت الجنود الفرنسية والبلجيكية تخلي منطقة الرور فتمّ اخلاؤها في ٢٥ اغسطس سنة ١٩٢٥ وقبل مشروع دوز رسميًّا في ٣٠ اغسطس من السنة نفسها

ميثاق لوكارنو

كلُّ هذا مهّد السبيل لعقد ميثاق لوكارنو

وميثاق لوكارنو هو في الواقع سلسلة من الاتفاقات للتحكيم والمحافظة على السلام تعهّدت فيها المانيا وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا ، بضمان السلام في غرب اوربا ضماناً متبادلاً ، وتعهّدت فيها المانيا كذلك بأن تعمد الى التحكيم في فض اي خلاف ينشأ بينها وبين فرنسا او بلجيكا او بولونيا او تشكوسلوفاكيا

هذا بوجهٍ عام ، ولكن المعاهدات التي عقدت في لوكارنو ووقعت في ١٦ اكتوبر سنة ١٩٢٥ تشتمل على (اولاً) معاهدة ضمان متبادل بين المانيا وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا وايطاليا (ثانياً) — معاهدتي تحكيم بين المانيا وفرنسا ، والمانيا وبلجيكا ، ومعاهدتي تحكيم آخرين بين المانيا وبولونيا والمانيا وتشكوسلوفاكيا

و (ثالثاً) مذكرة مشتركة من الحلفاء ابلغت الى المانيا وفيها تفسير للمادة السادسة عشرة من عهد جامعة الامم

و (رابعاً) معاهدتي ضمان بين فرنسا من ناحية وكلٍّ من بولونيا وتشكوسلوفاكيا من الناحية الاخرى

***

وقد اشترك في امضاء هذه الاتفاقات بالحروف الاولى من اسمائهم ، كل من المستر اوستن تشمبرلين عن بريطانيا ، والدكتور لوثر والهر شتريزمان عن المانيا ، والمسيو اميل ڤاندرڤلد عن بلجيكا ، والمسيو ارستيد بريان عن فرنسا ، والسنيور موسوليني عن ايطاليا ، والكونت سكرزنسكي عن بولونيا، والدكتور بنش عن تشكوسلوفاكيا . والى القارىء طرفاً من نصوص معاهدة الضمان المتبادل وهي المعاهدة التي نقضتها المانيا ، باحتلالها منطقة الرين : معتذرة بعقد ميثاق الدفاع بين روسيا وفرنسا :

تنص المادة الثالثة من معاهدة لوكارنو على ان المانيا وبلجيكا والمانيا وفرنسا تتعهد بأن تسوي بالاساليب السلمية وبالوسائل المنصوص عليها في هذه المعاهدة جميع المسائل كائنة ما كانت التي تنشأ بينها والتي تتعذر تسويتها بالاساليب الدبلوماسية العادية

فكل مسألة يختلف فيها من حيث حقوق الدول المتعاقدة يجب ان تعرض ليصدر فيها حكم قضائي والدول المتعاقدة تتعرض للرضوخ بهذا الحكم

وجميع المسائل الاخرى يجب ان تعرض للجنة مسالمة او مصالحة . فاذا لم يقبل الفريقان مقترحات هذه اللجنة تعرض المسألة على مجلس جامعة الامم فينظر فيها وفقاً للمادة الخامسة عشرة من عهد الجامعة

وتنص المادة الرابعة على انهُ اذا ادعت احدى الدول المتعاقدة ان المادة الثانية من هذه المعاهدة او ان المادة ٤٢ او المادة ٤٣ من معاهدة فرساي قد انتهكت او في سبيل الانتهاك فعندئذٍ يعرض الامر على مجلس جامعة الامم

ومتى اقر مجلس الجامعة ان هذا الانتهاك واقع يبلغ قراره الى الدول الموقعة معاهدة لوكارنو المتعهدة كل على حدة بأن تساعد الدولة او الدول التي وُجّه هذا الانتهاك اليها

وتنص المادة الخامسة على انهُ اذا رفضت إحدى الدول المتعاقدة ان تعرض موضوع خلاف للتسوية السلمية او ان تذعن لقرار التحكيم او للحكم القضائي وتنتهك المادة الثانية من معاهدة لوكارنو او المادة ٤٢ او المادة ٤٣ من معاهدة فرساي فعندئذٍ تطبَّق نصوص المادة الرابعة التي تقدم بعضها

بابُ المُراسَلةِ والمُناظَرةِ

الاصطلاحات

التي اقرها مجمع اللغة العربية في دورته الثانية

للدكتور امين باشا المعلوف

لما صدر الجزء الاول من مجلة مجمع اللغة الملكي نشرت نقداً له في مقطم مارس سنة ١٩٣٥ ولم ابغ بذلك مجرد النقد بل خدمة اللغة العربية . وكان في ما ذكرتهُ الالفاظ الآتية : —

علم الحياة وقلت الصواب علم الاحياء وذلك نقلاً عن معجم الحيوان في تعريف هذه الكلمة وهو ما يأتي : البيولوجية او علم الاحياء واصلها ونشوءها وابنيتها ووظائفها وانتشارها ومايصحبها من ظواهر النمو والانسال والكلمة منحوتة من لفظين يونانيين معناهما حياة وعلم اي علم الحياة على ان استاذنا الدكتور صرّوف لم يقل الاّ علم الاحياء لانهُ يراد بهذا العلم علم الاحياء لا علم الحياة . انتهى ، على انني رأيت بعد ذلك في المقتطف انهُ قال أيضاً علم الحياة

ثم ذكرت الفاظاً اخذتها على المجمع الموقر او على احدى لجانه منها العالِم الحيوي فقلت الاحيائي ومنها الاخراج فقلت الابراز . وكثر اللغط في مقالتي هذه وظنّ البعض ان احد اعضاء المجمع باح لي بسرّ الجلسات . واقول الآن ان العبارة الاولى اي علم الاحياء هي لي لا لغيري لاني مؤلف كتاب معجم الحيوان وان كثيراً من الالفاظ التي نقدتها واردة في معجم مخطوط كتبتهُ في بغداد لسبع سنوات مضت او اكثر والكتابة قديمة فمن شاء فليشرف الى منزلي في رقم ١٠٢ من شارع الجامع في مصر الجديدة فأطلعهُ عليهِ وانا في المنزل في كل يوم من الساعة ١٢ الظهر وما بعده الى ما شاء الله ما عدا يوم الاحد

قلت ان اللجنة اصلحت معظم الالفاظ التي كتبتها واقتبست غيرها وكان يجب ذكر هذا الاقتباس ولكنهُ امر يستوجب شجاعة ادبية كبيرة وهي بالاسف ليست عند كثيرين من الناس. والآن سابدأ بالنقد مع ذكر صفحات الجزء الثاني من مجلة المجمع وان نقدي مكتوبٌ باخلاص عظيم فارجو من اللجنة اعادة النظر فيه فان كنت مصيباً فاني اكون قد قمت بعمل للجنة وان كنت مخطئاً فلست أول من اخطأ

ص ١٣٢و١٤٢ المركّبات الزلالية فقلت فيها الآحية وهي فصيحة ولا ارى غباراً عليها. وقد جاء في حاشية للجنة هو الآح ويسمى زلال البيض وقد استعمل لفظ الزلال على التشبيه بالماء لصفائه.

قلت فلماذا لا نقول الآح وقد قالتها اللجنة وقالها كثير من الكتاب وقالها معهد الطب العربي في دمشق

ص ١٤٤ الفزيولوجي اقول الصواب فسيولوجي فالكلمة يونانية الاصل فيجب ان يعرب هذا الحرف بالسين لا بالزاي كما عربوا فيلسوف وموسيقى وموسيقى وما اشبه

ص ١٣٢ حيٌّ مجهري وسيأتي ذكر المجهر

ص ١٣٣ المئبر . وهي لا بأس بها واحسن منها الجُش والكُش ذكرهما ابن سيده في المخصص في باب النخل وهما شائعتان في العراق فالكلمة الانكليزية معناها مجموع اعضاء التذكير لا اعضاء التذكير وحدها كما ان مجموع اعضاء التأنيث اسمهُ الوزيم بالعربية والكلمتان بالانكليزية والعربية هما : جُش او كُش Androecium ووزيم Gynoecium لذلك يجب وضع الكلمة التالية مكان المتأبّر كما سمتهُ اللجنة Pistil فالوزيم عن مستدرك التاج. قال: الوزيم الطلع يشق ليلقح ثم يشد بخوصة نقلهُ الجوهري فالجش والوزيم كلمتان جاءتا عفواً للجنة فارجو اضافتهما الى الزباب الآتي ذكره

ص ١٣٤ التمثل وهذه قلت فيها يجب ان تكون التمثل والتمثيل وهي ترجمة لكلمة Assimilation فهذه الكلمة وامثالها التي على هذه الصورة هي مصدر للازم والمتعدي فيجب ان تترجم بالتمثل والتمثيل . فلنبحث في المعجمات الاخرى لنجد ما تقولهُ. ففي النجاري بك تمثيل الاسبخة في النباتات او تمرية النباتات بالاسبخة. وفي القاموس العصري لالياس انطون الياس تمثيل الطعام . هضم . مشاكلة مشابهة . تشبّه . تمثيل . وفي معجم خير الله تمثيل . وفي معجم شرف تمثيل الغذاء اي تحويله الى انسجة حية. وفي معجم تركي اسمه لغات طب. تمثيل. تمثيل بالامتصاص. فهذه وكثير غيرها تصوغ المصدر من المتعدي وانا لا انكر جوازه من اللازم لذلك قلت يجب ان يكون من اللازم والمتعدي معاً

ص١٣٥ الاحياء الدنيا وكانت الدنيئة في الجزء الاول والاحيائي وكانت الحيوي في الجزء الاول كذلك العالم الاحيائي وكانت العالم الحيوي

ص ١٣٦ علم الاحياء وكان علم الحياة وقد تقدم ذكرهُ

ص ١٣٧ قالت اللجنة الاسماك والزواحف والطيور. وأقول الصواب الزحافات وهذا نقلاً عن الاب انستاس احد اعضاء مجمع اللغة الملكي في نقده معجم الحيوان المقتطف ٨٢ : ١١٨ اي يناير سنة ١٩٣٣ قال ما يأتي: ذكرت هازجة وهوازج نقلاً عن الدكتور بوست وهذا لا يجوز لغويّاً لان الهازجة اسم فاعل واسم الفاعل والفاعلة يدل على ذي فعل مضى فقولك هذا رجل قاتل يدل على احد امرين اما انهُ قد قتل في الماضي او انهُ يقتل عن قريب وكذلك قولك الشارف فالشارف من الناس الذي سيصير شريفاً عن قريب اما اذا كان ذا شرف اليوم. وبعد فيقال شريف اي يفرغ صوغه في قالب المبالغة وفعيل من صيغ المبالغة ولذلك لا يجوز ان يقال هازجة بل هزاجة والجمع هزاجات

الم تر انهم لم يسموا طائراً او طائرن وإسماها مشكوك في اصلها والاَّ فاغلبها موزون اوزان مبالغة كفُعل وفَعال وفَعَّال وفُعل وفعَّلة وفعيل الى اشباهها . قلت واذا كان الاب انستاس مصيباً وانا اراه كذلك فلا يقال الاَّ الزحافات لذلك قالوا الجراد الزحاف وفي محيط المحيط للبستاني الزحَّاف الكثير الزحف ومنهُ الجراد الزحَّاف الذي يمشي على الارض ويقابله الطيَّار والزحافة مؤنث الزحاف والطائفة الزحافة من الحيوانات هي التي تدب زحفاً كالسلحفاة ونحوها انتهى قول محيط المحيط وقد يكون قول البستاني الجراد الزحَّاف من كلام العامة ولكنني جئت بهِ شاهداً على قولهم زحَّاف في صيغة المبالغة لذلك أرى انهُ لايجوز قولنا زواحف بل زحافات وهذا شاهد آخر على قولنا الطائفة الزحَّافة فالبستاني كتب من خمسين سنة وكانوا يترجمون كلمة Class بطائفة وهو الصواب في ترجمتها كما فعلت في معجم الحيوان فاننا اذا ترجمنا هذه الالفاظ على طريقة الفوضى فاننا لا نستمر على شيء وتبقى امورنا فوضى فانهُ لايجوز تبديل قول من سبقنا الاَّ اذا كان في قوله مخطئاً وانا لا أرى سبيلاً الى تغيير هذه الكلمة الانكليزية واستبدال غيرها بها فالكلمة الانكليزية هي طائفة وطبقة بالعربية وقد قالوا الصف وانما الصف تكاد تكون عامية بهذا المعنى وقد استعملوها في بيروت للسنة الدراسية الواحدة وهو الصنف عند الترك والفرقة في مصر

ص ١٣٨ القيض . جدار الخلية . القيض من الالفاظ التي اخذتها على اللجنة في السنة الماضية وكانت القيض او حائط الخلية فقبلت اللجنة جدار الخلية والقيض واظنها تحسن صنعاً لو حذفت القيض وابقت جدار الخلية دون غيرها فالقيض لا يقبلها عقل ابداً

ص ١٤٠ قالت اللجنة الاحياء المجهرية وسيأتي ذكر المجهرية

ص ١٤٤ العمل الفزيولوجي وقد تقدم أن الصواب الفسيولوجي

ص ١٤٦ و ١٤٧ الغدد الصم وهو الصواب وكانت في العام الماضي الغدد الصمّا

ص ١٤٧ اللنف وكانت اللمف قبلاً فاصلحتها اللجنة ولكن عادت وأخطأت في هذه الكلمة في جهة لا اذكرها وقالت اللمف

ص ١٤٨ الطيور والزواحف والصواب الزحافات كما تقدم

ص ١٤٨ والثدييات البيوض والصواب اللبونة وقد اخذت اللبونة عن الدكتور زلزل في كتابه تنوير الاذهان قال في صفحة ٢٠ من كتابهِ المذكور ما يأتي : — اما أسماء الفصائل والرتب وغيرها مما اصطلح علماء الافرنج على وصفها مركبة تركيباً مزجيًّا فقد انتقيت لها اسماء عربية تفي بالدلالة على المعنى المقصود فوضعت اللبونة للدلالة على رتبة الحيوانات الولود التي تغذو صغارها بلبنها وهي التي سماها المترجمون بذوات الثدي تسمية لا توافق الوضع اللغوي العربي

لان العرب خصُّوا الثدي بالمرأة والخف بالناقة والضرع بالشاة والبقرة والطبي بالكلبة. ولا يخفى ان اطلاق لبونة عليها اصح لانهُ يعمها. وقد شاع استعمال هذه اللفظة بعد ان ذكرتها في مقالات نشرتها بمجلاتنا العلمية، انتهى. فهل نبقى على كلمة ثديية فنقول ثدي الكلبة مثلاً او نقول لبونة لانها تشمل جميع الحيوانات التي تغذو صغارها بلبنها وهل نبقى تحت انتداب الفرنجة حتى في لغتنا

ص ١٤٩ الابراز وهذه كانت الاخراج في السنة الماضية فشملها التصحيح

ص ١٤٩ البيئة الخارجية فقلت كان ينبغي ذكر واضعها وهو الشيخ ابراهيم اليازجي وقد ذكر البيئة وغيرها في الصفحة ٧١٠ من المجلد الثاني من الضياء هي وغيرها كالمجلة فهذه من وضعه ايضاً وقلت ان اكرام العلماء واجب ولا سيما بعد وفاتهم ففي القاموس البيئة النزول والمنزل والحالة يقال هو في بيئة سوء اي حالة سوء وانهُ لحسن البيئة. وقد وردت هذه الكلمة غير مرة في مجلة المجمع بلا ذكر واضعها

ص ١٥٠ و ١٨٥ المواد الدُّهنية والصواب الشحمية او الألية. قال في تاج العروس الشحم معروف قال ابن سيده هو جوهر السمن والجمع شحوم والشحمة بالهاء. القطعة منهُ. وفي الحديث لعن الله... حرّمت عليهم الشحوم فباعوها واكلوا اثمانها الشحم المحرّم عليهم هو شحم الكلى والكرش والامعاء واما شحم الظهور فلا. انتهى ما اريد نقله فالشحم ليس الشحم المعروف عند العامة بالشحم فهذا شحم الامعاء فقط. اما الشحم في اللغة فهو اللحم الابيض كما يستدل من الحديث الشريف وهو كذلك في المعجم التركي وفي بعض المعجمات العربية الاَّ انها قالت دهن ايضاً. اما في المعجم التركي المسمى لغات طب فهو الشحم فقط

والألية في القاموس العجيزة او ما ركب العجز من شحم ولحم والعامة تسمي العجز الية

اما الدهن فلم يرد في كتب اللغة انهُ هذا اللحم الابيض المعروف عند عامة المصريين بالدُّهن وعند عامة اهل الشام بالدِّهن. قال في تاج العروس: الدهن بالفتح ويضم والضم عن ابي زيد نقله الجوهري قدر ما يبل الارض من المطر. وفي محيط المحيط للبستاني الدَّهن مصدر وقدر ما يبل الارض من المطر ويضم ج دهان. والدهن ما يقتل بهِ السباع. ومن الحيوان اللحم الابيض كلحم ألية الضأن ونحوه الواحدة دِهنة مولدة وهو يريد بالمولدة انها عامية كما هو شأنه في كثير من الالفاظ الى ان قال اي البستاني والدهن عند الاطباء ما فيهِ دهن من الشجر كالصنوبر او من الثمر كاللوز ونحوه. الدُّهنة الطائفة من الدهن ويقال هو طيب الدهنة اي طيب الرائحة. يريد البستاني هنا ان الدهن عند الاطباء هو ما يسمى عند عامة اهل الشام بالزيت. وفي العراق الدهن ما فيهِ دهن من الشجر كالصنوبر او الثمر كاللوز ونحوه اي كما يقول الاطباء فيقولون هناك دهن الصنوبر ودهن اللوز

وصفوة القول ان الدهن عند اهل العراق والبادية هو السمن ومن الشجر والثمر ما فيه دهن والدّهن ايضاً بكسر اوله عند عامة اهل الشام هو اللحم الابيض كلحم الالية والدُّهن بالضم عند عامة اهل مصر كالدهن بالكسر عند عامة اهل الشام ، اما الدُّهن بالضم فلم ترد في كتب اللغة بهذا المعنى في ما اعلم وغاية ما هناك انهُ ورد الدِّهن وهذه عامية شامية واما الدُّهن بالضم فعامية مصرية وصوابها الشحم كما جاء في الحديث الشريف وان شئت فقل الالية. اما الشحم المعروف عند العامة بالشحم فهو بالعربية شحم الامعاء كما ورد في تاج العروس فالشحم نوعان شحم الالية وشحم الامعاء فكله شحم بالعربية فهل نتبع قول العامة من العراقيين او قولهم من اهل مصر والشام فالدُّهن لم ترد في كتب اللغة بمعنى اللحم الابيض في ما اعلم

بقي عليَّ ان اقول ان الشحم وارد في التوراة في نسخة الآباء اليسوعيين وفي النسخة الاميركية وهو في كليهما اللحم الابيض اين كان وقد ورد في النسختين ذكر الآلية وهي اللحم الابيض في عجز الشاة اي الشحم . وورد ذكر الدهن وهو فيهما الدهن عند الأطباء . وورد ذكر الزيت وهو دهن الزيتون فقط . ولا يخفى ان التوراة مترجمة بدقة متناهية وعناية شديدة فتجد ان ما ورد فيها يوافق ما جاء في كتب اللغة ويوافق استعمال العراق

هذا وقد لقيت بالامس استاذنا معروف الرصافي الاديب العراقي الكبير فقلت ما الدهن في العراق قال هو السمن ثم انهُ ورد ذكره في القرآن الكريم بمعنى دهن الزيتون اي الزيت والآية هي : «وشجرةً تخرُجُ من طُورِ سَيناءَ تنبُتُ بالدُّهن وصِبغٍ للآكلين» فالدهن هنا معناه دُهن الزيتون اي الزيت . قلت ما ورد في القرآن الكريم هو فصل الخطاب في الدهن فالدهن ليس معناه اللحم الابيض كما ارادت اللجنة الموقرة فالافضل حذف هذه الكلمة والاستعاضة عنها بالشحم كما تقدم فان ارادت اللجنة اللحم الابيض في الالية فيقال الالية وان ارادت شحم الامعاء فيقال شحم الامعاء والله اعلم

ص ١٥١ احياء مجهرية وسيأتي ذكرها

ص ١٥٦ قالت اللجنة مرتبة من الثدييات تشمل عدداً كبيراً من ذوات الاربع الصغيرة الحجوم كالخلد والزباب والقنفذ واكثرها يغتذي بالحشرات واظن اللجنة تريد ان تقول طائفة من اللبونة تشمل عدداً كبيراً من الدويّبات كالخلد والزباب والقنفذ وفي الحاشية الزباب كسحاب فار عظيم اصمّ احمر الشعر او بلا شعر (قاموس) . قلت ولم يخبرنا صاحب القاموس ان هذه الدويبة من الحشريات وكنت اود لو قالت اللجنة عمن اخذت الزباب وهل كثير عليها ان تذكر معجم الحيوان . وقد ورد الزباب في الصفحة ٧٥ و ٢٢٥ و ٢٢٦ ولم يذكره احد غيري لا قبلي ولا بعدي الاّ اللجنة الموقرة وهذا ما رأيت ان اذكره الآن وعسى ان اتم البحث في الجزء التالي

باب الأخبار العلمية

حشك نوى الذرّات

ان نوى الذرّات مؤلفة من مادة كثيفة جدًّا ، حتى لو كانت المادة في قبضة انسان محشوكة حشك المادة في نواة الذرّة لكان وزن القبضة مليون طن . هذا هو التشبيهُ الذي قرّب بهِ الاستاذ نيلز بور العالم الطبيعي الدنماركي حالة المادة في نوى الذرّات الى الافهام .

وانحشاك المادة في الذرات على النحو المتقدم يحير العلماء لانَّ النواميس التي تخضع لها النوى، غير النواميس التي تخضع لها الذرّات او المادة في حالتها السوية بوجهٍ عام

وليست نوى الذرَّات ، بالمكان الوحيد في الكون الذي تنحشك فيهِ المادة هذا الانحشاك . بل يؤخذ من الارصاد التي عملت لرفيق الشعرى ، ان مادة هذا الكوكب منحشكة كذلك . فقد ثبت للعلماءِ ان كتلتهُ من رتبة كتلة الشمس . ولكن حجمهُ اقلُّ من حجمها ، بل ان قطرهُ لا يزيد على جزءٍ من ١٩ جزءًا من قطر الشمس ، اي ان كرتهُ صغيرة جدًّا وهي قريبة من كرة سيّار متوسط في حجمهِ بين الارض واورانوس . ونحن نعلم انهُ اذا شئنا ان نضع مادة من مقام مادة الشمس في كرة لا تفوق الارض او اورانوس حجماً وجب ان نحشك هذه المادة في هذا الفراغ ، حشكاً شديداً . والواقع ان كثافة المادة في كرة رفيق الشعرى تبلغ ٦٠ الف ضعف كثافة الماء ، اي ان كلَّ بوصة مكعبة منهُ تزن طنًّا

ومع ذلك نرى ان كثافة المادة في نواة الذرّة اعظم من كثافتها في رفيق الشعرى

اما في حالة رفيق الشعرى فالتفسير المقبول الآن هو ان ذرات المادة في الاوساط التي بلغت حرارتها درجة عالية جدًّا ، تتجرد الكهارب عن النوى ثم تحشك معاً بفعل الضغط الناشيء عن كتلة النجم ، فتصبح مادة شديدة الكثافة شدّة لا عهد لنا بمثلها على سطح الارض، الاَّ في نوى الذرّات

*

الشعير النابت والبول السكري

يخرج من الجيفة عسلاً ! هذا ما ورد في التوراة . ولكنَّ عالمين فرنسيين من اساتذة كلية الطب في باريس — الدكتور دونار Douard والدكتور لابيه Labbé — استخرجا من الشعير النابت مادة شبيهة بالانسولين ، قد لا تقتصر فائدتها على معالجة البول السكري بل

قد تفيد ايضاً في زيادة وزن الهزال

وقد دعيت هذه المادة « انسولينويد » — اي الشبيه بالانسولين — وتعرف اختصاراً بالحروف التالية I. G. B.

فعند ما اكتشف الانسولين، اتجهت انظار بعض الباحثين الى النبات وهل يحتوي على خلايا تفرز كخلايا الغدة الحلوة — البنكرياس — مادة تتصف بخواص الانسولين واقلّ خطراً منهُ في الاستعمال.

وكان في مقدمة من اتجه الى بحث هذا الموضوع الاستاذ كولب احد علماءِ جامعة ماكغيل فاكتشف تورْاً (هرموناً . والتورْ في اللغة الرسول وهو معنى هرمون وهي تفضَّل على كلمة رسول لامكان تخصيصها وقد اقترح استعمالها الدكتور محمد شرف بك في محاضرتهِ الاخيرة في المجمع المصري للثقافة العلمية) هاضمًا للسكر وجرَّب غيرهُ من الباحثين فعل مواد مستخلَصة من نباتات مختلفة

وقد جرِّبت مادة « الانسولينويد » التي استخرجها الطبيبان دونار ولابّـه في الحيوانات والناس، على ايديهما، وعلى ايدي زملاء لهما كذلك في مستشفى سان لويس بباريس، فثبت ان استعمالها في حالة البول السكري يفيد في تخفيف مقدار السكّر الذي في الدم، ويخفف الاعراض الاخرى . ثم ان استعمالها منهُ فائدة اكيدة في زيادة وزن الهزال

ولكن لا بدَّ من البحث والتجربة للتثبت من دوام تأثيرها على وجهٍ علميّ، ويحذّر الدكتور لابّـه من استعمالها الاَّ بارشاد طبيب

*

تحضير الالومنيوم بالكهربائية

معدن الالومنيوم من أنفع المعادن وألزمها للحضارة . تصنع منهُ ادوات المطبخ ولا غنى عنهُ او عن اخلاطهِ في صناعة الطائرات والبلونات وطائفة كبيرة من الآلات الحديثة . ولكن صعوبة تحضيرهِ في العقد الثامن من القرن الماضي جعلتهُ ثميناً كالپلاتين فكان ثمن الرطل منهُ يقدَّر بالجنيهات لا بالقروش . ويروى عن اميركي كان في باريس سنة ١٨٧٩ واراد ان يشتري نظارات للاوپرا فعرض عليهِ صائغ نظارات مصنوعة من الالومنيوم واخرى من الپلاتين وكان السعر واحداً لكلتيهما فاختار الاميركي النظارة المصنوعة من الالومنيوم . ولكن الشاب الاميركي تشارلز مارتن هول استنبط طريقة كيمائية كهربائية لتحضير الالومنيوم في ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٦ اي من خمسين سنة وكان حينئذٍ في الثانية والعشرين من عمرهِ، فهبط سعر الرطل منهُ هبوطاً عظيماً حتى بلغ اربعة قروش وأصبحنا نشتري ادوات المطبخ المصنوعة منهُ الآن ببضعة قروش

ومما يهمنا ذكرهُ في هذا الصدد ان المستر هول ترك في وصيتهِ مبلغ مليوني جنيه من ثروتهِ لتوزَّع على المعاهد الاميركية في الشرق الادنى

تعميم مبدإ عدم التثبت

القى العلامة الاستاذ نيلز بور الدنماركي محاضرة علمية في معهد ور بورغ بلندن ، قال فيها. ان مبدأ عدم التثبت الذي وضع في علم الطبيعة الحديث له ما يقابله في علمي الاحياء والنفس

ومبدأ عدم التثبت في علم الطبيعة الحديث يعني انه من المتعذر على العالم ، الباحث في الدقائق الذرية sub-atomic ان يعيّن مكان دقيقة ذرية وسرعتها في آن واحد. فاذا عرف المكان تعذر عليه تعيين السرعة ، واذا عرف السرعة تعذر عليه تعيين المكان . وقد كان من تأثير هذه القاعدة انها هدمت ثقة العلماء بالجبرية Determinism في علم الطبيعة

وقد وجه الاستاذ بور النظر الى ان في علم الاحياء ما يقابل هذا . فقد قيل انه اذا عرف العالم الاحيائي كل ما يمكن ان يعرفه عن ذرات خلية ما ، استطاع ان يعرف كل شيء عن الخلية نفسها . ولكن الاستاذ بور قال : ان العالم لا يستطيع ان يتبين جميع الحقائق الخاصة بذرات خلية ما من دون تمزيق الخلية فيهدم بذلك الكيان الحي الذي يريد ان يفهمه. فليس في وسع العامل ان يحلل الحياة من دون ان يهدم الحياة

وما يقال في علم الاحياء يقال في علم النفس. فالتحليل في علم النفس اكثر تعقيداً منه في علم الطبيعة . والاحوال النفسية التي تبغي ان تحللها ، تتغير بالبحث والتحليل . فالصورة الذهنية ، تتغير اذا وجهت نظراً خاصًّا الى جزء من اجزائها دون سائر الاجزاء

والفروق الاصلية بين السلالات ، تزيد من فعل هذا المبدأ في علم النفس . فاذا حاول دنماركي او انكليزي ، ان يقترب جهده من الصور الذهنية التي تقوم في اذهان الصينيين او اليابانيين بغية تحليلها ، صار اقرب الى الصينيين واليابانيين منه الى الدنماركيين او الانكليز ، فتتغير الحالة تغيُّراً اساسيًّا بطبيعة البحث نفسه

*

فعل الغدة الصنوبرية

في داخل الجمجمة غدة صغيرة تعرف بالغدة الصنوبرية ، وقد وصفها العالم الفرنسوي ديكارت بقوله انها « مقر الروح »

لهذه الغدة تأثيران متناقضان . الاول انها تعيق النمو . والثاني انها تستعجل الافعال الحيوية في الجسم

فقد اخذت طائفة من علماء معهد البحث الطبي بمدينة فيلادلفيا الاميركية خلاصة هذه الغدة وحقنوها في خمسة اجيال متعاقبة من الجرذان ، فظهر ان حجم جرذان الجيل الرابع كان نصف حجم جرذان في سنها ولدت من جرذان لم تحقن بهذه الخلاصة . ولكن افعال جسمها الحيوية في الوقت نفسه فيها ، كانت اسرع من الافعال الحيوية في نديداتها. فالاسنان كانت تشق اللثة فيها وتبرز بين اليومين الثالث والخامس بعد الولادة بدلاً من اليومين الثامن والعاشر وعيونها كانت تنفتح في اليوم الخامس بدلاً من ان تنفتح في اليوم الخامس عشر

مدينة على الجمد

قال الاميرال برد: عندما وصلنا الى «اميركا الصغيرة» (مقر بعثة بردالاولى الذي طار منهُ وحلق فوق القطب الجنوبي في الرحلة الاولى) في ١٧ يناير سنة ١٩٣٤ — كان السكون مخيماً عليها وكان سطح الثلج المترا كم فوقها مستوياً كالخشب المصقول

وبعد ما حفرنا ثقباً في احد الانفاق التي انشأناها في رحلتنا الاولى دخلنا «دار الادارة» وكانت على عمق اربع عشرة قدماً تحت سطح الجمد . فاشعلتُ عود ثقاب ورأيت على ضوئه إناء فيه بنزين

من الاغراق ان ادعي ان المكان كان لا يزال كما تركناه قبل اربع سنوات . فالسقف كان قد تهدَّل تحت ثقل الثلج المترا كم فوقه. وكان على الجدران غشاء جليدي من تقلص رطوبة الهواء عليها وتجمدها. وكانت الامتعة مبعثرة في الدار هنا وهناك فخجلت اذ تبين لي حال هذه الدار عندما غادرناها ولكنني اغتبطت اننا عدنا وان العودة تقتضي منا عملاً غير يسير لتنظيف الدار وترتيبها واعدادها للسكنى

واذ نحن واقفون قرع جرس التلفون . ولست امزح اذ اقول ان الجرس قرع فعلاً فدهشنا وذعرنا قليلاً . فسمرنا في اماكننا ثانية كأنها دهر . ثم رنت قهقهة يترسون من غرفة مجاورة . فانهُ وجد عدة التلفون فضغط على جرسها. ثم انتقل الى حيث يوجد على الجدار مفتاح المصابيح الكهربائية فأداره فأنارت المصابيح . نعم كان الضوء غير لامع ولكن تألق المصابيح حقيقة لا يمارى فيها

ووجدنا على الموقد آنية الطعام وفيها طعام تجمد بالبرد . وكان الفحم قرب الموقد فأخذنا قدراً منهُ واشعلنا النار وسخنا الطعام المتجمد وأكلناه فاذا هو شهي كما كان سنة ١٩٣٠ وبعد بحث قليل وجدنا لحم الفقم والحوت في النفق الخاص بالاطعمة فاذا هو محفوظ حفظاً تاماً لم يتطرق اليهِ اي فساد

فأقبلنا بعد ذلك على ترميم «اميركا الصغيرة» وتشييد ما تهدم منها وخصوصاً في ذلك البرد الشديد والعواصف الثلجية المكتسحة . كانت هذه المدينة او البلدة من اعجب بلدان العالم . انشئت على رقعة فسيحة من الثلج ولكنها تستطيع ان تفاخر بضوء كهربائي وطاقة كهربائية ومحطة للاذاعة اللاسلكية واخرى للطيران فيها اربع طائرات واربع جرارات وورش ومحطة للظواهر الجوية مجهزة اتم تجهيز باحدث الادوات العلمية ومعمل للبحث العلمي وعلماء يستطيعون البحث في ٢٢ فرعاً من فروع العلم الحديث ومرصد للشهب ومسرح للصور المتحركة وعلماء ورواد وطيارون ومهندسون عددهم جميعاً ٥٦ رجلاً هم اكبر بعثة قضت فصل الشتاء بكامله في المنطقة المتجمدة الجنوبية

واذ كانت معدات البعثة ومؤونتها تفرغ من السفينة في خليج الحيتان اذاعت البعثة اذاعتها اللاسلكية الاولى . وقفت اراقب اعداد

المعدات لهذه الاذاعة فتذكرت الكابتن سكوت وبعض رجاله قبل اثنتين وعشرين سنة وكيف لقوا حتفهم جوعاً وهم يبعدون عن مقرهم ١٦٠ ميلاً حيث رفاقهم ينتظرون عودتهم بفارغ الصبر والانتقال متعذر بين الفريقين. وها نحن نستمع لمحادثة جمهور كبير من سكان الولايات المتحدة الاميركية على بعد عشرة آلاف من الاميال!

*

الاشعة الكونية والتطور

من نحو ست سنوات كتب عالم انكليزي يدعى دكسن رسالة الى مجلة نايتشر العلمية المشهورة اقترح فيها رأياً جديداً مؤداه ان الاشعة الكونية قد تكون عاملاً من عوامل التطور

وفي اجتماع حديث عقدته الجمعية الينوسية الانكليزية بلندن ألقى الدكتور هنشو توماس محاضرة بسط فيها الرأي الذي اقترحه دكسن بعد بحث وتحقيق داما ست سنوات

فعندنا في المقام الاول مباحث تجريبية لا شكَّ فيها قام بها نفر من العلماء في اماكن مختلفة وبها ثبت ان اشعة اكس تؤثر في عوامل الوراثة في الخلية تأثيراً لا عهد للانسان بمثله من قبل. وهذا التأثير يحدث في صاحب هذه العوامل تحولات فجائية أي صفات وخواص جديدة تورث وهذه التحولات هي عماد التطور على ما نعلم

وقد ثبت من مباحث اخرى ان اشعة غمَّا المنطلقة من الراديوم تفعل نفس هذا الفعل

اما الاشعة الكونية فما هي؟ لم يقطع العلماء فيها برأي حتى الآن. ولكنها على كل حال أفعل وأشد اختراقاً للاجسام من أشعة اكس واشعة غمَّا عشرات بل مئات الاضعاف. فانها تخترق ما سمكه بضع اقدام من الرصاص او مئات من الاقدام من الماء. فقد ظهر اثرها في جهاز غطس الى عمق ٧٥٠ قدماً في بحيرة صافية الماء نقيته

ثم انهُ من المقرر ان قوتها تزداد بالارتفاع عن سطح الارض وقد اثبت العالم الوراثي الروسي فافيلوف ان التغاير في اصناف النبات اكثر ما يكون في النجود وعلى قمم الجبال

*

وزن الكون ووزن الارض

قرأنا في جريدة «كرستيان سينس مونيتور» بقلم كاتب علمي مقالاً في هذا الموضوع اليك ملخصه:

اذا كان وزن الارض ....٦٥٩٢٠ من الاطنان فماذا يكون وزن الكون؟

يقول الاستاذ هاس العالم النمسوي المشهور ان وزن الكون يجب ان يكون عشرين كندسيليوناً من الغرامات أي ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠

وقد عرض الاستاذ هاس هذا الرقم والعمليات الرياضية التي عملها للتوصل اليه على الجمعية الطبيعية الاميركية ومن اقواله فيها انها بنيت على حسابات نظرية لادخل فيها للنظرية النسبية "

الجو والحالة النفسية والصحية

هل خطر لك ان تسأل نفسك لماذا تحس في بعض الايام بأنك نشيط طموح مغتبط لانك حي ثم لماذا تحس في أيام اخرى بتعب وفتور وتراخ وثبوط في الهمة ؟ أيمكن ان يسند ذلك الى حالة الجو ؟ أيمكن ان نلوم الهواء ؟

عرف العلماء من عهد بعيد ان كل قدم مكعبة من الهواء الذي نتنفسهُ تحتوي على دقائق مكهربة — وتعرف باسم ايونات او شوارد — بعضها مكهرب كهربائية موجبة وبعضها مكهرب كهربائية سالبة وهذه الدقائق محمولة في الغبار وقطيرات الماء وما اشبه

ولكننا ما نزال في مفتتح عهد جديد في فهم ما لهذه الدقائق المكهربة من التأثير في الشؤون الحيوية لانهُ لم يتمكن العلماء الاً من عهد قريب من السيطرة على حالة الجو الكهربائية سيطرة خاضعة لقواعد التجربة العلمية الدقيقة

***

فالايونات يمكن توليدها في الهواء باطلاق شرارات كهربائية فيهِ او اشعة اكس او مقذوفات الراديوم . حتى شعلة من النار في موقد تؤيّن الهواء الى حد ما اي تولد فيهِ هذه الدقائق المكهربة أي الايونات

ثم هناك اجهزة خاصة تمكن العلماء من ان يخرجوا من قدر معين من الهواء في معمل البحث الدقائق المكهربة الموجبة او الدقائق المكهربة السالبة ثم يدرس تأثير الباقي

على هذا النمط وجد الاستاذ دسور في جامعة فرنكفورت ان المرضى الذين يتعرضون للدقائق المكهربة الموجبة يشعرون بالتعب والاعياء والدوار والصداع . فلما ازيلت الدقائق المكهربة الموجبة من الهواء الذي يتنفسونه وتعرضوا للدقائق المكهربة السالبة زال الصداع وحلّ محله شعور الانشراح والنشاط

وقد جرت التجارب في ضغط الدم وتأثرها بحالة الهواء من حيث وجود الدقائق الموجبة او الدقائق السالبة فيهِ فظهر ان وجود الاولى يزيد ضغط الدم فينشأ عن ذلك انزعاج عام وان وجود الثانية يخفف ضغط الدم ويحدث شعور الراحة والطمأنينة . بل هناك ما هو اعجب مما تقدم ذلك ان استنشاق مقادير من الدقائق المكهربة السالبة مدى اسابيع افضى الى تحسين الحال في ثمانين في المئة من اصابات ضغط الدم

ولا ريب انك ايها القارىء قد سمعت المصابين بالروماتزم يتحدثون بما يشعرون بهِ من تقلب حالة الجو قبل حدوثهِ . فهل لهذا الشعور وهو اشبه ما يكون بالتنبؤ بالطقس اساس علمي ؟

لقد اثبت الاستاذ دسور ان الناس المعرضين للروماتزم زادت آلامهم وتضخمت مفاصلهم وارتفعت حرارتهم قليلاً عند استنشاقهم هواءً كثرت فيهِ الدقائق المكهربة (الايونات). ومعروف عند علماء احوال الجو ان العاصفة قبل حدوثها يسبقها هبوط في ضغط الهواء وكذلك يصعد الى سطح الارض هواء كان

محفوظاً بين دقائق التراب . وقد ثبت ان الهواء الذي يكون بين دقائق التراب تكثر فيه الدقائق المكهربة الموجبة . ولعل وجود هذه الايونات يزيد آلام المصابين بالروماتزم قبل انفجار العاصفة

ثم ان الهواء يحتوي على ايونات كبيرة وايونات صغيرة وقد اكتشف الباحثون في معهد كارنيجي بوشنطن ان الايونات الكبيرة تكثر بعد الغروب والايونات الصغيرة تكثر قبل الشروق. ولعل هذا الفرق بين الليل والنهار اهم من الفرق في الرطوبة بينهما . بل لعلنا نجد في هذا الفرق تفسيراً لتأثيرها الفسيولوجي في جسم الانسان

*

تخدير خيل السباق

لا تألو الامة الاميركية جهداً في مكافحة تخدير خيل السباق في بلادها وذلك لانه تكشف لمندوبي الحكومات الاميركية المتحدة في خلال سنة ١٩٣٤ الذين شهدوا وهم متخفون سباق الخيل في اشهر حلباتها في غضون فصل السباق حيث تبين لهم ان اكثر من ٣٠٠ حصان كانت مخدرة . وما ادراكما تخدير تلك الجياد — انه من اشنع الفظائع التي يقترفها من لا خلاق لهم بل انه مما يستعصي على الذهن تصوره اذ يجذب لسان الحصان ويفرك بالمادة المخدرة جافة . ثم يذر الهروين على قاعدة اللسان . وثبت ان حشيشة الدينار تجعل الحصان يركض ركضاً فائقاً حتى يصرع في الميدان

ومن الوسائل الشيطانية التي يتوسلون بها الى تلك البغية تجريع الجواد قبل ولوجه مضمار السبق بنصف ساعة جرعة مركبة من الكافيين السائل ممزوجاً بالهيروين والاستركنين وزهر الكشاتبين او الديجيتالا ونحوها من العقاقير المنبهة . او يحقن الحصان في عنقه تحت الجلد بمحقنة محتوية على الهيروين فيسري مباشرة في مجرى دمائه

فلم يسع ولاة الامور هناك إزاء ذلك الغش الفاضح والظلم الصارخ والقسوة الغشوم على ذلك الحيوان الاعجم الامين الاَّ ان ألفوا لجنة لمكافحة ذلك الداء العياء قوامها فوج من البياطرة والكيماويين من كل ولاية من الولايات المشهورة بسباق الخيول وذلك برياسة المستر هـ. ج . انسلنجر رئيس مكتب المخدرات العام في واشنطون حيث اقروا تأليف دائرة عامة في وزارة المالية تقوم ببحث ودراسة الوسائل الواجب اتخاذها لتوحيد جهود لجان السباق في الولايات المختلفة الخاصة باستكشاف حوادث التخدير ومنعها واتخذت الوسائل لضم الولايات التي لا تنفذ الوسائل المقاومة للتخدير تنفيذاً تامّاً تحت لواء الدائرة

وفي اثناء تلك الجلسة عرضت تجربة امتحان اللعاب . وهي الطريقة المستعملة في اوربا لمنع تخدير الخيول . ولذلك يحشى فم الجواد بحشية من الشاش مشبعة بالماء المقطر فيمضغها الحصان فيسيل لعابه ويفيض فيجمع في وعاء ثم يؤخذ لعاب غيره من فم الحصان ايضاً بتجفيفه بقطعة من الشاش الجاف وحينئذ

يقوم كيماوي بفحص اللعاب فيكشف فيه الاستركنين والهيروين والديجيتال وغيرها من العقاقير . وفي هذه الحالة يمنع ذلك الحصان من دخول ميدان السباق

وقد استعملت معظم الولايات التي تبيح السباق طريقة فحص لعاب الخيل لكشف التخدير قبل الترخيص لها بدخول حلبة السباق وهذا يحتم بأنه قبل إقامة السباق في هاتيك الولايات تفحص الخيول قبل قبولها في الميدان وأمر ولاة الامور في كليفورنيا بحجز خيول السباق في حظيرة ساعة قبل بدء السباق . ولذلك يقول المستر انسلنجر « انه اذا اتبع ذلك النظام في بلاد الولايات المتحدة بأسرها ضؤل ضرر تخدير خيول السباق لان تأثير التخدير في هذه الحالة يزول قبل دخول السباق او على الاقل يتاح لنا معرفة هل الحصان مخدر او سليم من التخدير »

والغرض من تخدير خيول السباق جعلها تفوز في الميدان على الاقران . ولحقنة الكوكايين او الهيروين تحت الجلد تأثير منبه في لحم الحصان مثل تأثير المشروبات الروحية العنيفة في الانسان اذ يشعر بالابتهاج والقوة والطموح الى العدو

ومما لا شك فيه ان لادمان التخدير تأثيراً مضعفاً في جسم الحصان ولذلك يعطى الخيل دائماً الاستركنين مع الهيروين اذ الاستركنين ينبه القلب والعضلات تنبيهاً قويًّا . والكوكايين والمورفين لا يلجأ اليهما كثيراً مخدرو الخيول اذ غايتهم تهييج الحصان اما كثيراً وأما قليلاً والهيروين ألطف من غيره من المخدرات اذ يحدث الفخامة الوهمية التي تقتضيها المسابقات العظيمة

وحينما يكون الحصان بليداً لا ينشطه الاّ الهيروين اذ يشجعه ويقويه على اقتحام الحلبة دون استفزاز صناعي

ومتى خدرت الخيول مدة طويلة اصبحت مدمنة للمخدرات كالانسان فلا تستطيع العدو الاّ اذا جرعت الجرعة المخدرة قبل الاقدام على السباق وتستعمل لذلك مادة هيدرات الكلورال وهذه تمزج باللبن ويسقاها الحصان فتجعله ثملاً . وأفظع الطرق لتخدير الخيول بهذه الطريقة وضع اسفنجة في خياشيم الحصان وقد ثبت ان تخدير الافراس وخيول الطلوقة يضعفها فلا تستطيع نتج نتاج جيد الصحة

عوض جندي

*

حفظ الفاكهة بتشميعها

تستعمل اميركا الآن طريقة هينة لحفظ الاثمار والخضراوات الناضجة نضجاً طبيعيًّا بحرارة الشمس وذلك بتشميعها بطبقة رقيقة من شمع عسل النحل . وبلغ من فائدة هذه الوسيلة أن جلّ اصحاب السفن التي تنقل الفاكهة قد استغنوا عن تثليجها بثلاجات السفن اذ ثبت للباحثين ان تنفس الفاكهة والخضراوات من قشورها يمهد السبيل لعصيات العفن فتدب فيها وانهُ متى شمعت الخضراوات عند جنيها من تربتها والثمار

عند قطفها من اغصانها بطبقة رقيقة من الشمع لا يتخللها الهواء امكن منع التعفن لان الشمع يحول دون الفصع « الفعص عند العامة » وهو اقوى الاسباب لتعفن التفاح وبالتشميع يعيش التفاح ثلاثة امثال المدة التي كان يقضيها في الاسواق بعد استخراجه من مثالج البواخر ويظل البرتقال والليمون الهندي طازجين ستة اشهر بدلاً من ستة الاسابيع وهي المدة التي كانت تقدر لهُ محفوظاً على رفوف حوانيت باعته

ويعيش الليمون بهذه الوقاية من ٨ اشهر الى سنة كاملة ويتسنى جني الطماطم الكاملة النضج (بدلاً من الطماطم الخضراء) فتظل غضة الزمن الذي كانت تعيشه خضراء حتى تستوي. ويشمع كذلك البطيخ والخيار والبطاطس والكمثرى حتى البيض فتعيش جيدة حقبة مديدة اما الخضراوات ذات الاوراق والبذور والمشمش والخوخ الشامي فلم تنفع فيها هذه الطريقة ولكن هذا لم يفت في ساعد الباحثين عن مواصلة التجارب .

ويقدر ارباب البواخر النقالة صناديق الفاكهة والخضراوات التي ستشمع في الولايات المتحدة خلال السنة الحالية بخمسة وعشرين مايوناً من الصناديق . وان ثلاثة ارباع المحصولات السنوية المصدرة الى الخارج تمَّ تشميعها قبل نقلها وان الخمسين مليوناً من الريالات التي كانت تخسرها الولايات المتحدة من تعفن الفاكهة عند نقلها كل سنة سيربحها المصدرون بواسطة اختراع التشميع

عوض جندي

الحرب بالاذاعة اللاسلكية

جاء في جريدة « الاكسبرس بوراني » التي تصدر في فرسوفيا عاصمة بولونيا ان الروس ينوون ان يشهروا الحرب على العالم من طريق الاثير . ففي انباء موسكو ان سوفيت الراديو قد أتم مؤتمره السنوي من اسابيع وانهُ قرر انشاء عشرين محطة قوية للاذاعة اللاسلكية تختلف قواتها من مائة كيلو وط الى ٢٥٠ كيلووط وانهُ ينتظر ان يذاع من هذه المحطات باثنتين وعشرين لغة احاديث وخطب واذاعات شيوعية او فنية وادبية مطبوعة بالطابع الشيوعي . وينتظر ان تكون خمس عشرة محطة منها في روسيا الاوربية وخمس محطات في سيبيريا

*

اكل جرثومة السل

اذاعت رسالة العلم الاسبوعية ان الدكتور وليم ستينكن Steenken وهو بكتريولوجي شاب في معهد ترودو للبحث في السل اكتشف بكتريوفاجاً (اي عاملاً يأكل المكروبات) لباشلس السل . والبحث جارٍ الآن لمعرفة فعل هذا البكتيريوفاج في علاج السل . وقد يكون القول بأنه فعَّال قبل اوانه . ولكن هناك ما يدل على انه قد يكون العلاج المنتظر للسل الذي طال البحث عنه

لم يجرب بكتيريوفاج ستينكن بعد في اصابات بشرية ولكن استعماله في حوادث الحيوان تدل على فائدته وينتظر ان يجرب قريباً في اناس مصابين بالسل لمعرفة تأثيره فيهم

مكتبة المقتطف

الحيرة

المدينة والمملكة العربية

• تأليف يوسف رزق الله غنيمة — مطبعة دنكاور الحديثة — والثمن ١٥٠ فلساً اى ١٥٠ مليما

بيني وبين يوسف بك غنيمة وزير المالية السابق في العراق معرفة قديمة وصداقة فقد كنت اعرفهُ من مقالاته النفيسة في المقتطف ثم سافرت الى بغداد واقمت فيها فتمكنت هناك الصداقة بيننا ولكنني سأبين ما لهُ في هذا الكتاب وما عليهِ في ما يأتي وآتي بالادلة على ذلك

اولاً تعريب الاعلام فانهُ عربها تعريب عالم خبير مما يدل على انهُ قرأ هذه الاسماء في مظانها فقال اردوان ولم يقل ارتابانوس وقال وتاش ولم يقل فيتاكسا وقال الاشغانيين ولم يقل البارثيين او الفرثيين وقال بلاش الثالث الملك الاشغاني ولم يقل يولجسيس وقال طيسفون ولم يقل كتيزفون وقال يوستنيوس ويوستنيانوس وتريانوس ولم يقل جوستن وجوستنيانوس وتراجان او طراجان اي انهُ عرب هذه الاسماء بالياء لا بالجيم وامثلة ذلك كثيرة

ثم ذكر نزوح العرب الى العراق وقال كان يسكنهُ الشمريون والاكديون فذكر الشمريين بالشين المعجمة لا بالسين نقلاً عن اليونانية واللغات الاخرى التي اخذت عن اليونانية. وقال ان الاكديين ساميون وهم والعرب والآثوريون والعبريون من اصل واحد. وقال انهُ لا يعلم التاريخ الذي دخل فيهِ العرب الى العراق على ان اول هجرة لهم ذكرها التاريخ كانت نحو سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد فانشأوا هناك مملكة خرج منها حمورابي الشارع البابلي العظيم ثم اندثر الشمريون وبقي الاكديون الساميون ولم تنقطع هجرة العرب الى العراق بعد ذلك منها الهجرة التي حدثت بعد سيل العرم في اليمن نحو سنة ١٠٢ بعد المسيح فنزل مالك بن فهم بقبائله بين الحيرة والانبار فأسس هناك سلالة التنوخيين فصارت الحيرة عاصمة لهم في عهد جذيمة الابرش.

وقد شرح معنى الحيرة وقال انها ارمية النجار وهي المعسكر والدير والحصن وقال ان الحيرة والحير العربي من اصل واحد اذ ان المضرب والمعسكر والحمى الفاظ يدل اصلها على معنىً واحد ثم قال « وبدأ خراب الحيرة منذ انشأ المسلمون الكوفة سنة ١٧ هجرية ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الذي ذكرناهُ »

وعقد فصلاً في سكان الحيرة فقال انهم كانوا من العنصر العربي السائد هناك فكان ثلثهم من تنوخ وهم اصحاب المظال وبيوت الشعر وكان الثلث الثاني العباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها والثلث الثالث الاحلاف. وقال عن سبب تسمية العباديين بذلك انهم لما قاتلهم سابور الاكبر

اتخذوا شعاراً لهم يا آل عباد الله فسموا العباد او ان خمسة منهم وفدوا على كسرى وكانت اسماؤهم تبتدي بكلمة عبد فقال لهم كسرى انتم عباد كلكم فسموا العباد واشتهر العباديون بنصرانيتهم ومعرفة القراءة والكتابة . ومدحهم طخيم الطخماء الاسدي في ابيات قال فيها

واني وان كانوا نصارى احبهم ويرتاح قلبي نحوهم ويتوق

ثم عقد فصلاً آخر في قصور الحيرة وهو من احسن فصول الكتاب فذكر الخورنق فقال السدير وسنداد والعذيب والصنبر والقصر الابيض وقصر الفرس وقصر الزوراء وقصر العدسين وقصر ابي الخصيب وقصر مقاتل والقصور الحمر ودومة الحيرة ووصف هذه القصور وذكر ما ورد فيها من الشعر وقال في الخورنق « ومما يزيد هذا الجوسق بهاء وروعة موقعه الطبيعي الفتان فكان يشرف على النجف وما يليه من البساتين والنخل والجنات والانهار وكان البحر تجاهه وفيه الملاحون والغواصون والحوت وخلفه البر وفيه الضب والظبي ويقابل الفرات فيدور عليه على عاقول كالخندق ولهذا افتتن المؤرخون والشعراء بهذا القصر وهاموا بالاشادة بذكره »...

ثم ذكر اديان اهل الحيرة فقال كان اختلاف اديان الحيريين كاختلاف اجناسهم . فكان بينهم من يدين بدين جاهلية العرب منهم جذيمة الابرش التنوخي ومنهم من كان يعبد العزّى وهي الزهرة ومنهم من كان يعبد القمر ثم فشت بينهم المانوية ثم المزدكية ولكن النصرانية كان الدين السائد بينهم وذكر اخبار تنصر ملوكهم واخبار اساقفتهم وبطاركتهم وجميع ذلك بعبارة تأخذ بمجامع القلوب.

ثم عقد فصلاً وصف فيه ديارات الحيرة وبيعها منها دير هند الكبرى وهي هند بنت الحارث بن عمرو ابن حجر آكل المرار الكندي عمة امرىء القيس الشاعر المشهور ودير هند الصغرى بنت النعمان ابن المنذر المعروفة بالحُرَقة بقيت فيه حتى ماتت . وروى قصتها مع خالد بن الوليد وقولها في ذلك

صان لي ذمتي واكرم وجهي انما يكرم الكريمَ الكريمُ

وقال ان هرون الرشيد زار ديرها ورأى قبرها وقبر ابيها

ثم فصل في اكتشاف آثار نصرانية في الحيرة وفصل آخر في العلم في الحيرة وفي مدارسها وفصل آخر في لغاتها وآخر في الشعر العربي في الحيرة وقال من شعراءها عَدِيّ بن زيد العبادي فقد نظم القصائد الحسان اشهرها داليتهُ وهي من مجمهرات العرب ضمنها اجود الحكم ومطلعها

أتعرف رسم الدار من ام معبدِ نعم ورماك الشوق قبل التجلدِ

وقال ولامرىء القيس صلات سياسية بالحيرة وقربى من ملوكها وذكر حجر آكل المرار ملك كندة وقتله وقول امرىء القيس

ألا يا عين بكّي لي شنينا وبكّي لي الملوك الذاهبينا
ملوكاً من بني حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا

فلو في يوم معركة اصيبوا ولكن في ديار بني مرينا
فلم تُغسل جماجمهم بغسل ولكن في الدماء مرمّلينا
تظل الطير عاكفة عليهم وتنزع الحواجب والعيونا

ثم اورد حكاية المنخّل اليشكري والمتجردة امرأة النعمان وقصة النابغة الذبياني والمتجردة واعتذاره للنعمان في قصيدته المشهورة وغير ذلك من اخبار الشعراء وهو فصل من الفصول الشائقة جداً. ثم فصل في الامثال العربية والحيرة وآخر في الصناعات في الحيرة

وفصل في الحياة الاجتماعية وآخر في الحرب وآخر في المرأة ثم فصل في مآكل الحيريين وشرب الخمر في الحيرة والقيافة والخرافات وآخر الكل فصل في التنوخيين في العراق ثم سلالة آل لخم ويقال لملوكهم آل نصر والمناذرة وآل عمرو بن عديّ وآل المحرّق الى ان ذكر فتح الحيرة ودخول المسلمين. ثم اورد جدولاً فيه السنة التي حكم فيها ملوك الحيرة. والكتاب كله ملآن بالاسانيد العديدة فان المؤلف لم يذكر امراً الا واسنده الى قائله فان كتاباً بلا اسناد لا قيمة له او فائدتهُ قليلة جداً. ولا يسعني قبل الختام الا ان انقد امراً واحداً فقط وهو ان طبع الكتاب سقيم على ما ألفناه في هذه البلاد وفي الشام وكان يمكن اجتناب الخطإ المطبعي بعناية قليلة

فنشكر للصديق يوسف بك غنيمة تحفته هذه ونحث كل اديب على مطالعة هذا الكتاب لانهُ ينطوي على اقدم ما عرف من اخبار الادب العربي

مصر الجديدة امين المعلوف

تاريخ غزوات العرب

للامير شكيب ارسلان — ٣٠٧ ص — من قطع المقتطف

كان الامير شكيب ارسلان صاحب الايادي البيض على القضية العربية قد نوى السفر الى اسبانية لتفقد آثار العرب هنالك شغفاً بمفاخر آبائه. فنزل من جنيف الى باريس ومنها قصد الى اسبانية، ولكنه قبل ان ينزل اليها عرج على جنوب فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط. فذكر في اثناء ذلك ان العرب اقامت بهذه الاقطار فجعل حديثه الاول عليها مؤجلاً الكلام على اسبانيا نفسها الى حديث آخر

ولما كان الامير الكريم يريد ان يلم اشتات غارات العرب على تلك الاقطار ونزولهم بها رجع الى مؤلفات مكينة بين اوربية وعربية وأهم كتاب استند اليه هو كتاب المستشرق الفرنسي رينو والكتاب يتناول النظر في فتوحات العرب في فرنسا وسڤواى وبيموت من اعمال ايطاليا وسويسرا ابان القرن الثامن والتاسع والعاشر للمسيح. وقد ساق الامير الاديب حوادث هذه الفتوحات المتعددة على سبيل الرحلة باسطاً الحوادث التاريخية في رشاقة ودراية واستطرد الى الكلام على المسكوكات والملابس والاسماء العربية التي في البلاد. فجاء الكتاب لطيفاً سهلاً جامعاً لفوائد عدة

ميناء البصرة

Port of Basrah Published under the authority of the Port of Basrah Directorate. Compiled by Cecil Byford, A. M. Inst. T.

اهدى الينا الكولونل وارد مدير ميناء البصرة والملاحة فيه كتاباً هو من خير ما رأيناه في فن الطباعة الانكليزية وهو مزين برسوم وخرائط كثيرة اولها صورة فتى وسيم الطلعة بيّن الفتاء والفتوَّة وهو غازي الاول ملك العراق . ومن صور الكتاب صورة العشار وصورة مكاتب ادارة الميناء وصورة الارصفة والجرّافات وصور بعض سفن الميناء وصورة حفائر بابل وبرج السندباد البحري وهو من آثار المدينة القديمة وجميع ذلك من اجمل ما صنعت الايدي

وفي الكتاب تاريخ البصرة وقد جاء فيهِ انها مصرت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب في مكان بعيد عن الشاطئ ولعله المربد . والبصرة واقعة على شط العرب . قلت والشط كلمة فصيحة يراد بها النهر واهل العراق يقولون شط دجلة وشط الفرات اي نهر دجلة ونهر الفرات ولا يكادون يقولون غيرها . وجاء في الكتاب ان اول ما بُني من البصرة مكان يبعد عنها ثمانون ميلاً وهو في مكان يقال له في هذه الايام الزبير وفيهِ مرقد الزبير بن العوّام . فصارت البصرة على ما رواه الطبري مرفأً للسفن تأتيها من الصين وغيرها

واشتهرت البصرة في زمن هرون الرشيد وخلفائه الى ان دبّ الفساد في اواخر ايام العباسيين . وعلى توالي الزمن انفصلت البصرة عن خليج فارس وصارت في مكانها الحالي

واستولى الترك عليها في القرن الخامس عشر وكانت في اواخر القرن التاسع عشر مرفأً للسفن ومركزاً لتجارة العراق . ومدينة البصرة الحالية على شط العرب اي مجمع البحرين دجلة والفرات وهي على خور يقال لهُ العشار وهناك ابنية التجار العرب والاجانب

اما سكان البصرة فخمسة وثمانون الفاً من العرب بينهم عدد قليل من الاجانب ولم يكن فيها قبل الحرب من الابنية الاَّ بناء المكس وكان السدّ الذي في مدخل شط العرب عائقاً للسفن الكبيرة ولم يسلك هناك الاَّ المواعين التي لا تحتاج في مرورها الاَّ الى قليل من الماء

ثم جاء في الكتاب ادارة ميناء البصرة وقوانينهُ وقال انهُ تابع لوزارة المالية العراقية ولا يخفى ان ميناء البصرة خلاف مدينة البصرة . ولا يؤخذ على الكتاب سوى اسم او اسمين على الطريقة الانكليزية ولعلها من آثار الاحتلال البريطاني منها المعقل وقد كتبت Margil وفي ما سوى ذلك فالاعلام مضبوطة ولعله لا يدور على ألسنة الانكليز كتابة هذه الاعلام العربية

فنحن نشكر للكولونل وارد هديته هذه التي هي تحفة من التحف ونشكر للمستر سسل بيفورد جامع الكتاب تأليفه لهُ فالكتاب آية من آيات الفن

امين المعلوف

نفسية الرسول العربي

للبيب الرياشي ١١٠ ص — من قطع المقتطف — مطبعة الكشاف ، بيروت

هذا هو عنوان الكتاب بأكمله : « فلسفة الدين الاسلامي ، نفسية الرسول العربي محمد بن عبدالله ، السوبرمن الأول العالمي ».فانك ترى مقدار طرافة الكتاب، ومجمله ان الرسول العربي هو اعظم واسمى النبي ، الصلة بين العالم العلوي والعالم السفلي ، البشر المتأله ، جرياً على مذهب الفيلسوف الالماني نيتشه

ان كلام الاستاذ الرياشي يعرض لأمية الرسول وقوته على التشريع ،ولخلجات نفسه ،ولطموحه وامانيه ، ولجرأته ولعدله ولحلمه . ان كلام الاستاذ الرياشي تعليق على آيات قرآنية او احاديث نبوية أو تذييل لما جرى للنبي . وانما هذا التذييل وذلك التعليق يجريان مجرى الوعظ او التنبيه فالعبارة حارة والالفاظ قوية واساليب البلاغة من نداء واغراء وتحذير وتدليل وتمثيل متلاحقة متداركة ، لولا ركاكة الحين بعد الحين

ولا شك ان المؤلف قرأ كثيراً مما يلحق بالادب الاسلامي المحض ، فعرف كيف يستثمر السيرة النبوية وخصائص الشريعة الاسلامية . ومما يؤسف عليه انهُ يتفق له ان يعثر باذيال قلمه. مثال ذلك قوله (ص ٣٦) « ان القوم لفي جهالة في شرائعهم الدينية ... ، في وأدهم الاحياء (كذا) من الفتيات، في قتلهم الفتيان خشية الفقر » . والوجه ان الوأد في القرآن انما يخص الجارية الحية . وان لفظة الفتيات انما كانت في عهد النبوة تطلق على الامة منها « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء » او على الشابة وهو اقل وروداً . وان الفتيان لا تصلح في ذلك الموضع من كلام المؤلف ، بل الصواب «...في قتلهم الاولاد» كما ورد في القرآن «ولا تقتلوا اولادكم من املاق » ، « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق »

ومما ينبغي ذكره بعد هذا ان مؤلف هذا الكتاب الطريف مسيحي من لبنان ،فاعتبر كيف اصبح اهل الشرق العربي على سماحة نفس لا تعدلها سماحة وابشر بتفاهم بين المسلمين والنصارى يأخذ بأيديهم الى الرقي والفلاح . وهل قرأت قبل هذا اليوم لمسيحي مثل هذا القول :

« حقاً . . . يا محمد بن عبد الله انك الشاعر الاعظم

« حقاً انك السوبرمن الاول العالمي

« رسول الثقافة والعلم ، ورسول الهداية والتضحية

« رسول الفلسفة الجديدة

« ورسول الانسانية الجديدة . . . . . » ب .

الشوقيّات — الجزء الثالث

٢٠٠ ص ٤ من قطع المقتطف ٤ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

ان شعر احمد شوقي لا يمكن اهماله فجاء هذا الجزء من الشوقيات المشتمل على المراثي في أوانهِ . وميزة هذا الشعر انهُ الصيغة المثلى لاختتام الشعر الكلاسيكي العربي في هذا الزمان . وألمع صفاته الموسيقى التي تضطرب في نواحيه . ثم ان احمد شوقي كان اماماً في اختيار اللفظ من ناحية وارسال الفكرة الناصعة في عبارة مقتضبة من ناحية اخرى على ورود المعنى الواحد ولاسيا في الحكم في مواضع كثيرة

ولعلَّ اجمل قصيدة رثاء لهُ قصيدته في سعد زغلول فمطلعها من أبرع ما سطرهُ شاعر :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها
وانحنى الشرق عليها فبكاها
ليتني في الركب لما أفلت
يوشع همت فنادى فثناها

ولكنك تصيب في شعر شوقي ما تصيب في دواوين المتقدمين وان كانوا فحولاً ، ذلك ان بجنب البيت المتين بيتاً مستضعفاً او بيتاً محشواً ومهما يكن من شيء فان شوقي لن يموت بشيئين. اما الأول فقدرته على الصياغة الاخاذة واما الثاني فمعالجته قضايا زمنه واثباته تراجم اهل عصره فسواء من ناحية الشعر او من ناحية التاريخ تجد احمد شوقي الشاعر الذي يخلف من بعده ما يذكر لهُ ابداً

هذا والذي عني باخراج هذا الجزء الثالث هو الاستاذ محمود ابو الوفا. ومما يشهد لهُ انهُ اخرج الديوان في عشرين يوماً (انظر خاتمة الديوان «ايضاح لا بد منهُ») وهذا مما يؤسف عليهِ ذلك ان شعر شوقي يقتضي جهداً لا تكفيه ايام معدودات. ومما يؤخذ ايضاً على هذا الديوان سقوط مراثٍ لشوقي منهُ، وقد أُلِّفت المقالات في ذلك في مصر هذا الشهر غير انهُ لا بدَّ من التنويه بعمل الاستاذ ابي الوفا الذي استطاع ان يبذل شعراً غير سهل في مدة غاية في القصر

١ — الحب والدسيسة

لفردريك شيلر — ترجمة الدكتور حسن صادق — ١٦٨ صفحه — مطبعة الاعتماد بمصر

توفر الدكتور حسن صادق من سنوات على امداد الادب العربي بثروة عظيمة من خير ثمار الآداب الغربية فنقل طائفة من اروع القصص والروايات امثال « أدولف » لبنجامان كونستان ، و « سالوما » لاوسكار وايلد ، و « الاستاذ كلينوف » لكارن رامسون وغيرها وها هو يقدم في هذا العام بعد « ادولف » رواية «الحب والدسيسة» للشاعر الالماني فردريك شيلر وقد ذيّلها بقصة « بلياس ومليزاند » للفيلسوف والشاعر البلجيكي موريس ماترلنك

وأسلوب الدكتور صادق هو الاسلوب الذي يجب ان يحتذى في نقل الخالد من ادب الغرب فهو نقيٌّ خالص العبارة رصين البناء جزل اللفظ . ومن مبلغ حرص المعرّب على لغته عدم سماحه للفظ الاجنبي ان يحتلّ مكاناً من قصصه فهو يجهد نفسه في وضع ألفاظ لما يمكن الاستغناء عنه من الالفاظ الاعجمية

و « الحب والدسيسة » هي الرواية التي نرى من خلال فصولها صراع الغاية والوسيلة على مسرح الحياة . فالام في سبيل المظاهر والافتتان بها — ككل امرأة — تعمى عن التفكير في نهاية ابنتها امام المال والجاه فهي تغضي عن علاقة تتولد بين ابنتها ونبيل ابوه رئيس الوزارة. اما الوالد فهو امام الكرامة يشعر بالالم يحز في نفسه عند ما يرى المال يسعى لاقتناص ابنته راغماً ، ويرى ان استجداءه خير من اشباع نفسه بمال تحصل عليه ابنته ثمناً لروحها وراحتها. ونرينا في ناحية اخرى صراعاً بين الشباب والشيوخ ، بين النبيل الشاب وأبيه الشيخ رئيس الوزارة ، بين الحب والسياسة ونرى الفرق بينهما في قول الشاب لابيه : « ان آرائي في العظمة والسعادة لاتتفق وآراءك فيهما . انك لا تجد السعادة الاّ في الخراب . الحسد والخوف واللعنة هي المرايا الحزينة التي تتأمل عظمة الرجل القوي نفسها فيها وعلى شفتها ابتسامة الرياء . ان الدموع والتوسلات واليأس هي الزخرف المخيف الذي يرتفع فيه هؤلاء الذين يسمونهم الناس عظماء ، الزخرف الذي يغادرونه الى الابدية مترنحين امام عرش الله ! اما مثلي الاعلى في السعادة فانه مستكن في نفسي في تواضع كثير » . فلعل عمل الدكتور صادق يكون انموذجاً لنقل هذه البدائع وحافزاً للكثيرين من ادبائنا على الزيادة من هذه الثروة

٢ — وحيد او قلب الفنان

تأليف حسين عفيف — ١٩١ صفحة من القطع الصغير — مطبعة حجازي

منذ عامين قدمتُ لقراء المقتطف كتاب « مناجاة » الذي الّفه الاستاذ حسين عفيف المحامي بأسلوب نثري شعري رائع ، واليوم يتحفنا بروايته « وحيد » التي كتبها بنفس هذا

الاسلوب حتى ليكاد يحتفظ بالموسيقى في فقرات كلامه ، وقد صور فيها فناناً يهيم في رياض الحب متنقلاً من زهرة مزهرة عابثاً بهذه ساخراً من تلك . وبين هذا العبث وهذه السخرية تتحطم قلوب وتتلاشى احلام . وقد عرض المؤلف في تضاعيف روايته آراءه في الحب والجمال والغيرة والسعادة والالم . وللاستاذ عفيف رأي في الحب لا ينزل عنه وهو ان في استطاعة القلب البشري ان يجمع في آن واحد اكثر من حب ، فهو يحدثنا بلسان اشخاص الرواية قائلاً :

وحيد — .... ان الله ما خلق الزهر متعدد الوانه لنقنع منه بحب واحدة ، وانما لنحبه جميعه فيتضاعف فينا الاحساس بالحب بقدر ما فيه من ألوان

حمدي — أجل ان حب الواحد يظلُّ يغرّد على الفؤاد وحده ، وأما حب الجماعة فتتألف منه في القلب موسيقى بأسرها

راشد — واذا تعدد النغم تجاوبت اصداؤه وتضاعفت حلاوة وقعه

وحيد — لاشك ان في الاقتصار على حب واحدة حدًّا لكمال الحب ان يتناهى وان الله ما خلق الجمال ولم يدع له نهاية الاّ لكي لا يدع للحب في قلوبنا نهاية

ونحن اذا سلمنا مع المؤلف بذلك انتهينا من روايته الى الاعتقاد بأن القلب الذي لا يقتصر على حب واحد في وقت واحد لا يفوز في النهاية بحب ، وتنتهي به الحال الى الوحدة والألم

اما خاتمة الرواية فكنت اتمنى لو أن صديقي خفف من حوادث الموت فيها حتى لا ينقلب المسرح اذا مُثّلت — وهي جديرة بذلك — الى مقابر لا مقبرة واحدة فحسب ، على أني أقدم له تهنئتي الحارة لنجاحه في هذه الرواية أسلوباً وتصويراً وعاطفة

٣ — الاوتار المتقطعة

قصيدة ذات عشر أناشيد محلاة برسوم فنية — تأليف رياض معلوف — المطبعة العصرية بمصر

الدوحة المعلوفية وارفة الظلال امتدت اغصانها فأظلت العلم والأدب واخرجت كل ضاهل في فنه ، وليس فينا من يجهل الفريق امين باشا المعلوف ودأبه على البحث العلمي واخراجه في مدى ثلاثة أعوام معجمين قيمين ، أو يجهل رجل التاريخ الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف صاحب مجلة الآثار وانقطاعه لبحوثه وتدقيقاته حتى اعتلى مكانته اللائقة في المجامع العلمية في الشام ومصر

وللاستاذ عيسى من اولاده ثلاثة شغفوا بالادب هم فوزي وشفيق ورياض . أما اولهم فقد فارق الحياة بعد أن أودعها قصيدتهُ الخالدة « بساط الريح » ، وأما الثاني فشاعر برّز في ميدانه له ديباجة عالية مشرقة طالعها الادباء فيما قرأوا له ، وقصيدته « عبقر » من عيون الشعر العربي الخالد ، وأما الثالث فهو الزهرة المتفتحة حديثاً على رياض الشعر وفي مطالع شعره إشراق لنبوغ منتظر وتوجُّهٌ لمَثَلٍ عليا في الشعر وسيكونّ مع أخويه عقداً رائعاً يزين جيد الشعر العربي في

عصره الحديث. وقد أصدر هذا الشاعر وهو لم يتخطَّ السادسة عشرة من عمره ديوانه الاوتار المتقطعة في عشرة أناشيد يبدأها بالوتر الملهم فالوتر النائح فالوتر الدامع وينتهي بالوتر المقطوع وفيهِ يقول:

لم يعد بين يديَّا وترٌ إلاَّ تقطَّعْ
ليتني لم أسمع الشدو بعمري
من وترْ
ليتني كنت غبيًّا ليتني ما كنت أسمعْ
لا أرى شيئاً من الدنيا وأدري
ما الخبرْ

إيه ربي ! خلقت عيني لدمعي وفؤادي عبدَ الشقا والعذابِ
وخلقت الممات مثل خريفٍ يفقد العمر في ربيع الشبابِ
ان نفسي في كفّ عمري سراج زيته الدمع من نجيعي المذابِ
شح دمعي فأخفق النور فيهِ كاحتضار الضياء عند الغيابِ
ان حملت الرباب حتى أغني فخضاب الدما على الاخشابِ
أو رشفت الكؤوس تترى لأسلو فدموعي تشع طيّ الشرابِ
رغم دهري ورغم تقطيع اوتا ري سأشدو ورغم حطم الربابِ

٤ — عمدة الاديب « أمرؤ القيس »

دراسة بقلم الاستاذ سليم الجندي — ٢٢٣ صفحة من القطع المتوسط — اخرجها مكتب النشر العربي بدمشق

يوالي مكتب النشر العربي بدمشق اصدار سلسلة من الكتب القيّمة في الادب والعلم والدين والاجتماع. ومن يطلع على ما اخرجه هذا المكتب من الآثار لا يتردد في شكر القائمين بهِ على جهودهم المباركة. وقد أصدروا سلسلة أدبية بعنوان « عمدة الأديب » صدر الجزء الاول منها خاصًّا بامرىء القيس، وهو دراسة طيبة لهذا الشاعر العربي الاول قام بها الاستاذ سليم الجندي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق محللاً فيها شعره وأولياته وأسلوبه وأغراضه وما يستنتج منهُ من الاحوال الاجتماعية في عصره ثم عرض لأخلاق امرىء القيس ودينه وما أخذه الشعراء عنهُ ثم تكلم عن معلقته وسبب نظمها واغراضها، كل ذلك في دقة بحث واستنتاج وقد ختمها بقوله : « وقد رأينا ان نجتزىء الآن بهذا القدر على ان نعود إن شاء الله تعالى الى إتمام القول فيما يتعلق بهذا الشاعر الفذ وفي شرح البقية الباقية من شعره حتى يتبين الجاهلون لقدره أن امرأ القيس عماد يقوم عليهِ الأدب العربي في الماضي والحاضر وان لهُ فضلاً على الأدب لا ينكره الاَّ جاهل أو مكابر »

وإنا لننتظر من الاستاذ الفاضل بره بوعده شاكرين جهده داعين لهُ ولمكتب النشر العربي التوفيق في هذه المهمة الكريمة التي حملوا عبئها واضطلعوا بهِ

حسن كامل الصيرفي

فهرس الجزء الرابع من المجلد الثامن والثمانين

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها «ادارة المطبعة العصرية» بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

ص

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الأدب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « « «
١٠ الآراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٨ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ما في السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في امريكا (للاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح « « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الأدب العصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « « «
٥ « « ثالث « « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (الاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

ص

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن ايضا) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « قائد المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المدبر (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (الاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزءا (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ، ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « المبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروضة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الفلاحان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٥ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثامن والثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٦ — ١٠ صفر سنة ١٣٥٥

بعد ستين سنة

ذكريات في عهد الصبا

لاحد منشئي المقتطف

مضى على المقتطف ستون سنة كاملة . ولذلك يلقبونهُ بشيخ المجلات العربية واعني بذلك انهُ اقدمها عهداً ولا ادعي انهُ شيخها علماً . ولكن قراءهُ لم يعتادوا ان يقرأوا فيهِ منذ انشائهِ الاَّ ما يقتطفهُ لهم من ثمر ناضج وينقلهُ اليهم من رأي خمير ويطلعهم عليهِ من خلاصات ابحاث العلماء ونتائج تجارب الخبيرين وعجائب اكتشافات المكتشفين وغرائب اختراعات المخترعين ونحو ذلك مما قلَّ ان يؤْثر عن الشبان ويغلب ان يختص بالكهول والشيوخ . فلا غرابة اذا كان قراء المقتطف لم يتصوروا منشئيهِ (وخصوصاً اذا لم يكونوا يعرفونهما) الاَّ شيوخاً منذ بدء انشائهِ كما صارا اخيراً وكما لايزال احدهما (كاتب هذه السطور) الى هذا العهد . ومن الشواهد على ذلك انهُ في سنة ١٨٧٦ كان المغفور لهُ رياض باشا وزيراً للمعارف المصرية في عهد المغفور لهُ الخديوي اسمعيل باشا فلما اصدرنا المقتطف في بيروت تلك السنة واطلع دولتهُ عليهِ انزلهُ منزلة رفيعة في اعتبارهِ وجرت بيننا وبينهُ مراسلة حفظناها لهُ بالشكر والثناء على الفضل الى هذا اليوم. وفي سنة ١٨٨٠ زرنا كلانا مصر وكان دولتهُ رئيساً للنظار حينئذٍ . وأتينا ديوان الوزارة للتسليم على دولتهِ . ودفعنا بطاقة الزيارة لمن يناط بهِ أمرها فلم يحفل بها كثيراً لانهُ رآنا شابين مجهولين عندهُ . ولكن اتفق انهُ كان بجانبهِ احد موظفي الداخلية المرحوم اسكندر بك زلزل وكان قد سمع عنا من بعض اقاربهِ فأدخل بطاقتينا الى دولتهِ . ولما اطلع عليهما وقرأ اسمينا فيهما نهض عن كرسيهِ

ووقف امام باب غرفته لاستقبال زائريهِ فوجدنا في وجههِ فأعرض عنا حاسباً اننا نقتحم الباب وسأل قائلاً اين حضرات منشئي المقتطف فأشاروا الينا ولا نزال حتى هذه الساعة نتصوَّر ما عراه من الدهشة والاستغراب وتبسم كما تبسمنا حينما أيقن ان ذينك الشيخين منشئي المقتطف هما الشابان الخجِلان الواقفان امامهُ وهذا الذي رأيناهُ من رياض باشا وصرَّح لنا بهِ رأينا وسمعنا امثالهُ من آخرين على توالي الايام

ولهذا اقترح عليَّ الاستاذ فؤاد صرُّوف رئيس تحرير المقتطف اليوم أن أورد طرفاً مما أذكرهُ عن المقتطف ومنشئيهِ في اوائل عهدهِ عسى ان يكون في ذلك فائدة للاحداث في بدءِ نزولهم الى ميدان الجهاد وخوضهم معترك الحياة

أنشئت المدرسة السورية الكلية المعروفة اليوم بجامعة بيروت الاميركية سنة ١٨٦٦ وكان اخي وشريكي المرحوم يعقوب صرُّوف من تلامذة اول فرقة نالت شهادتها وتخرَّجت منها سنة ١٨٧٠ وقضى ثلاث سنوات مشتغلاً بالتعليم في مدارس تعد التلامذة لها ثم عينتهُ الكلية معلماً ومساعداً لاستاذ الطبيعيات والكيمياء فيها سنة ١٨٧٤

ودخلت انا تلك الكلية في خريف سنة ١٨٧٠ ونلت شهادتها وتخرَّجت منها في خريف ١٨٧٤ . فقضينا كلانا سنة ١٨٧٤ وهو معلم وانا تلميذ في فرقة المنتهين ولما نلت الشهادة عينتني الكلية معلماً للرياضيات ومساعداً لاستاذ علم الهيئة ومدير مرصدها الفلكي والمتيورولوجي — العلامة الشهير المرحوم الدكتور كرنيليوس ڤانديك من اعظم اركان النهضة العلمية والادبية في سورية ان لم أقل في سائر الاقطار الشرقية — وابتدأت الصداقة بيننا منذ تلك السنة واشتدت على توالي الايام حتى لم تقوَ عليها صروف الدهر ولا حلَّ وثاقها حلول المنايا

وكنا في ساعات فراغنا كثيراً ما نجتمع معاً فيفضي احدنا الى الآخر بما سمع وما رأى وعلَّم وتعلم في يومهِ فاذا نحن كلانا معجبان اعجاباً عظيماً باجتهاد اساتذتنا وخصوصاً الاميركيين منهم: يأتي احدهم من بلادهِ وهو يجهل لغتنا وعاداتنا واخلاقنا فيكبُّ على تعلم لغتنا وحفظ كل ما يتصل بعلمهِ من عاداتنا وما يلحظهُ ويختبرهُ من اخلاقنا ويحرص على كل دقيقة من وقتهِ فلا يقضيها الاَّ في قضاءِ واجبٍ او عملٍ نافعٍ بحيث لا يطول عليهِ الزمن قبلما يتعلم لغتنا ويدرس علومها وآدابها ويقرأ كتبها ويعرف الشيء الكثير عن بلادنا واخلاق اهلها وعاداتهم ويصبح قادراً على التأليف فيها والترجمة من لغتهِ اليها . وأدَّى بنا هذا الاعجاب بهم الى الغيرة منهم والرغبة في ان نحذو حذوهم ونحرص على وقتنا حرصهم وننظم معيشتنا على نمط تنظيمهم لمعيشتهم فجعلنا نقضي ثلث اليوم في الراحة والنوم ونخص ساعات معدودة بتناول الطعام والرياضة البدنية وما بقي نقضيهِ في الاستعداد لواجباتنا التعليمية والدرس والتحصيل لزيادة معارفنا العلمية ولقضاءِ

حاجاتنا الخصوصية بحيث يستغرق ذلك من ١٢ الى ١٤ ساعة يوميًّا . وعقدنا النية على ان نحافظ على وقتنا هذا بكل جهدنا فوجدنا ذلك صعباً في بادىء الامر ولكنهُ سهل وازداد سهولة على تمادي الايام حتى كنا اذا خالفناهُ نشعر بنوع من الاسف والالم كمن يأتي امراً ادًّا . ثم جعلنا نطالع ما يتصل بالكلية من الجرائد والمجلات العلمية الاجنبيّة على اختلاف انواعها واشتدت رغبتنا في مطالعتها بعد ما ذقنا لذة ما فيها من كل بحث طريف واكتشاف جديد واختراع غريب حتى صرنا نسابق الآخرين الى اختطافها حين وصولها لقراءتها قبل ان يفتقدها سوانا . فكان تأثير ذلك فينا ان ولّد فينا الرغبة في اذاعة ما تعيه صدورنا واشتدَّ شوقنا الى الانتظام في سلك الكتّاب والمؤلفين من قومنا واشراك غيرنا معنا من ابناء وطننا في الاستفادة مما كنا نحن نستفيد منهُ وهذا ما حدا بنا الى العزم على انشاء جريدة علمية صناعية شبيهة من وجوهٍ مختلفة بالجرائد الافرنجية التي كانت تصل الينا لتكون صلة بين علوم الشرق والغرب وتنقل الى اخواننا اهل الشرق ما يجدُّ علمهُ عند اهل الغرب

وتردَّدنا مدة في بادىء الامر عن اخراج هذه الفكرة من القوة الى الفعل لاعتبارات لا يزال بعضها وجيهاً الى يومنا هذا ، فان مطلبنا الأَول من انشاء هذه الجريدة كان شرح العلوم وبسطها لتأديتها الى افهام العامة وعدم الاقتصار على الخاصّة الذين هم في غنى عنها . والعامة كانت في تلك الايام تنفر من العلوم الطبيعية خصوصاً إما لانها لا تعلم مبادئها فلا تفهمها وإما لاعتقادها انها تخالف الاديان وتناقض ما في الكتب المنزلة فتنفرُ منها . والخاصة ايضاً كانت معارفها في ذلك الزمان لا تتجاوز غالباً العلوم البسيطة وكان اكثرها يرى ان تعلّم العلوم العالية لا يعين على كسب الرزق فيضر ولا ينفع والاولى الاعراض عنها وتعلم الحرف التي يعيش الانسان باحترافها . ولذلك كنا نخشى اننا اذا انشأنا جريدة علمية كالتي نفكر فيها يعرض الجمهور عنها فنعود عنها خائبين لعدم استغنائنا عن مساعدة الجمهور لنا في حمل عبئها ونحن في مقتبل العمر وراتبنا ضئيل لا يكفي لسد حاجتنا والبذل فوق طاقتنا . ثم اننا كنا نخشى ان الخاصة ايضاً لا يؤازروننا لان اكثرهم كانوا من طلاّب اللغة العربية والمتأدبين بآدابها والرافعين لوائها كالمرحومين الشيخ احمد فارس والشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير والشيخ ابراهيم الأَحدب وامثالهم من علماء الشام وغيرها . وكانوا هم واتباعهم قلما يقدرون لغير اللغة العربية قدراً ولا لعلم غير علوم اهلها وادبائها مقاماً واذا قلت لهم ان زيداً اكتشف كذا وعمراً صنّف كذا من علماء عصرنا ازدروا قولك واجابوك على الفور

« ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم »

وكذلك الباقون من المتعلمين والمتأدبين بعلوم لغات اخرى وآدابها من يونانية ولاتينية وفقهية

ولاهوتية الخ . يرون ما يشبه رأيهم . ولم يكن للعلوم الحديثة وخصوصاً الطبيعية نصيب الاَّ في المدارس حيث ينحصر تعليمها في طلبتها وفي جماعة شعارهم « كم ترك الاول للآخر»

ثم ان جمهور الخاصة والعامة كان معتاداً قراءة جرائد الاخبار والسياسة وبعض الجرائد الدينية والرسائل الادبية ولا يكاد يهمهُ غيرها

وزد على ذلك كله ان الحكومة العثمانية لا ترخص بصدور جريدة في بلادها الاَّ بشق النفس والتوسل بأقوى الوسائط وأنفذها ولم يكن لنا سبيل حينئذٍ الى شيء من ذلك

***

فهذه العقبات حالت دون الوصول الى غايتنا مدةً . ولكننا كنا كلما سنحت فرصة ملائمة ولاحت بارقة امل يشتد الشوق بنا الى تحقيق رغبتنا وخصوصاً بعد ما كاشفنا اساتذتنا واصدقاءنا برغبتنا وشددوا عزائمنا ولذلك اعتمدنا في اواخر سنة ١٨٧٥ على ان نصدر في اول الامر جريدة شهرية قليلة الصفحات رخيصة قيمة الاشتراك ونعرضها على الجمهور على سبيل التجربة لمعرفة مقدار اقباله عليها—أقول نصدر«جريدة» ولا اقول«مجلة»لان الكتَّاب لم يكونوا قد اصطلحوا على كلمة « مجلة » للتمييز بينها وبين الجريدة في ذلك الحين

وسمينا الجريدة المقتطف ثم استعنَّا باستاذنا المرحوم الدكتور كرنيليوس فانديك للحصول على الرخصة من الحكومة لانهُ كان من اعظم المشددين لعزائمنا والمرغبين لنا في اصدارها لخدمة وطننا. فقد كان لهُ منن على احد صاحبي كتاب آثار الادهار اخي المرحوم خليل افندي الخوري مدير معارف سورية حينئذٍ لكثرة ما كان يمدهُ بما يحتاج اليه من المعرفة والمشورة في تأليف كتابهِ فسعى لنا معهُ سعياً موفقاً وحصلنا على الرخصة بعد الانتظار شهوراً مع ان غيرنا لم يكن يحصل عليها الاَّ بعد الانتظار اعواماً في كثير من الاحيان وأصدرنا العدد الاول على سبيل المثال وحاولنا ان نرضي بهِ جمهور القائلين بفضل المتقدمين وجماعة المعترفين بعلم المتأخرين المتمثلين بقول الشاعر

واني وان كنت الأخير زمانهُ لآتٍ بما لم تستطعهُ الاوائل

وضمناهُ مقالة في علماء الهيئة عند العرب كالخليفة المأمون وثابت بن قرة والبتاني والخوكندي والادريسي وذكرنا فيها طرفاً من علمهم ومكتشفاتهم وأردفناها بمقالة اخرى « في اللغة الحميرية والقلم المسند » ذكرنا فيها طرفاً مما اكتشفهُ الباحثون والمنقبون من الانكليز والفرنسويين من خرائب المدن الحميرية وآثارهم المكتوبة بالخط المسند بعد الذي ذكرهُ مؤرخو العرب من اخبار بلاد حمير وأسماء ملوكها ودونوهُ في كتبهم كحمزة الاصفهاني وأبي الفدا وابن خلدون والنويري والهمداني . وصدَّرناهُ بالمقدمة التالية التي يستدل القارىء منها على بعض ما كانت الاحوال تقتضيه في تلك الايام

الدكتور يعقوب صرّوف في كهولته
(١٨٥٢ — ١٩٢٧)

«لا ريب أن كل من يقف على هذا المثال يسرّه العمل الذي باشرناه خدمة للوطن وإجابة لطلب كثيرين من محبي التقدم ونشر الفوائد ولم نستشر فيه أحداً من ذوي الرأي الصائب الاّ حثنا عليه وأبان لنا شدة احتياج الوطن إلى ما يتسهل به الوصول إلى العلم والصناعة كهذا العمل وأمثاله . ولما رأينا مناسبة الاحوال لنا ووجوب ذلك علينا بمقتضى حق الوطن عزمنا مباشرته على ما بنا من القصور مستعينين به تعالى ونلنا الرخصة السامية فيه من جانب نظارة المعارف الجليلة بهمة الفاضل عزتلو خليل افندي الخوري الذي اشتهرت غيرته على مصالح الوطن وقد أصبحنا مديونين لاساتيذ المدرسة الكلية السورية بالمساعدات التي وعدونا بها . ولنا الأمل الوطيد ان هذه الجريدة تقع عند الجمهور موقع القبول وترغّب الطلاّب في إحراز العلم وإتقان الصناعة واحياء رميمها وترميم باليها لشدة افتقارنا اليهما كليهما . على ان كثيرين يزعمون انا قد بلغنا من العلم غاية ما يحتاج اليه وان الاحرى بنا ان نقتصر على طلب الصناعة وذلك غير سديد . أمَا ترى ان الصناعة مؤسَّسة على العلم وانها انما تُتقَن بتهذيب العقل والذوق وان الصانع الحاذق هو العالم بأصول صناعته وحقائقها وهذه لا تُعرَف جيداً الاّ بدرس ما تأسَّست عليه من المبادىء العلمية . وكفانا برهاناً على ذلك ان الافرنج وغيرهم من الذين أتقنوا الصنائع يجتهدون في تعليم الافراد غاية الاجتهاد وبعضهم يوجبهُ شرعاً فالاحرى بنا ان نقصد العلوم من حيث تؤدّي الى الصناعة جادّين في تلك غير مهملين هذه ولا حاجة بعد الى الاطالة في ذلك فكل مَن وقف على مبادىء العلوم يرى لزوم معرفتها للصانع ولو اجمالاً

«ولعلّ هذا المثال يدلّ على طريقة بحثنا في المواضيع غير انها تكون في ما بعد اكثر استيفاء كما هو مذكور في محله وربما كانت أسهل فهماً لأنّا سنقرّر المبادىء ثم نبني عليها وقد التزمنا هنا ان نفرض كثيراً من مبادىء العلم والصناعة معروفاً فبنينا عليه لضيق المقام وسنسلك تارةً مسلك التعليم وأخرى مسلك الشرح ونوجز تارةً ونسهب أخرى حسب الاقتضاء . ولما كانت مواضيعنا لا تتدخل في المباحث الدينية ولا السياسية الاّ من باب العلم فكل ما يرد الينا خارجاً عن هذا الباب غير مقبول. وأما الكتابات العلمية والصناعية فندرجها تحت اسم منشئها واذا تيسَّر نفوذ هذه الجريدة أقمنا لها مكاتبين مخصوصين وكبَّرنا حجمها وقصَّرنا مدة صدورها وبالله التوفيق

« وقد رأينا على ما تعلَّمنا علماً واختباراً ان نذكر بعض ما يجب مراعاته في درس المباحث العلمية والصناعية لتتمّ به فائدة المطالعة على أقرب طريق وان كان ذلك اعادة للعالم ففيه افادة للطالب

«اولاً — العلم يوصف باللذة ولكن لذته لا يُشعَر بها الاّ بعد ان يُذاق جيداً كما ان طعم الطعام لا يُعرَف الاّ بعد ما يحلّله اللعاب وتشعر به الاعصاب فربُ علمٍ يسكر به العالم لذة يجده الخالي الذهن منهُ عديم اللذة . فاذا طالعت موضوعاً في علم من العلوم ولم تجد من القيمة

في نفسك ما يجده في نفس غيرك فاعكف عليه فقلما تجده قليل الاعتبار وكلما ازددت فيه تعمقاً ازددت لذةً وكما انهُ لا بدَّ دون الشهد من ابر النحل هكذا لا بدَّ دون العلم من الكد وتشغيل الدماغ لترويض العقل

«ثانياً — اكثر ما يُدرج في المقتطف يقتضي لهُ امعان نظر فاذا قرأتهُ قراءة قصة لم تستفيد منهُ شيئاً واذا أمعنت النظر في بعضهِ وأهملت البعض الآخر من موضوع واحد استفدت فائدةً ناقصةً وربما استفدتها فاسدة لتوقُّف صحتها على ما أهملت . فتروَّ في ما تقرأ ولا تنتهِ من جملة حتى تكون قد ادركتها جيداً وتمعَّن طويلاً فالقليل مع فهمٍ خيرٌ من كثيرٍ بلا فهم. ولا تعتمد على الذاكرة فقط فان الحفظ غيباً بقطع النظر عن المعنى لا يفيد الاَّ نادراً والمعتمد على الذاكرة فقط اول مقصرٍ في ميدان العقول وبت الاحكام . واذا مللتَ من موضوع او كلَّ عضب الدماغ فاتركهُ ريثما تستريح ثم عُد اليهِ وهكذا حتى يتضح لك فيسهل عليك حفظهُ حينئذٍ وقلما يخشى عليهِ من آفة النسيان وذلك وان تعسَّر اولاً يهون اخيراً

« ثالثاً — اذا استوعبت موضوعاً فأطل المذاكرة فيهِ ليرسخ في ذهنك قال الشاعر :

وأطل في العلم مذاكرةً فحياة العلم مذاكرته

«واجهد في ان تقرن العلم بالعمل فذلك من أفضل ما يثبت العلم في عقلك ويؤيد صحتهُ ويجني ثمرتهُ . وحيثما عُلِّم وعُمِل زادت الفائدة اضعافاً . وسيأتي عليك ذكر كثير من الآلات البخسة الاثمان على عظم فائدتها وشدة لزومها فلا تبخل على نفسك ووطنك بها وستقف على ذكر حوادث لا تحصى واقعة تحت الحسّ لا تكلفك الاَّ الملاحظة والتأمل أفما يجب ان تفضّل ملاحظتها على الاحاديث الفارغة وقضاءِ الحياة سدًى . وقد وجدوا بالاستقراءِ ان العلوم الرياضية تقوّي العقل وتدرّبهُ على الانجاه بكل قواهُ نحو امرٍ ما والانحصار في موضوع فلا يتشتت والعلوم الطبيعية توسّعهُ : ترقيهِ وتلذّ لهُ لسموّها وطلاوة مباحثها والعلوم العقلية تعصمهُ مراعاتها عن ارتكاب الخطاءِ في فهم القضايا والعلوم اللغوية عن ارتكاب الخطاءِ في تأدية المراد الى غير ذلك من الفوائد التي لا تحصى ولا يغفل عنها . هذا وانَّا مقرُّون بعجزنا عن القيام بحق هذا المشروع ولنا الامل ان الواقف على كتاباتنا يسبل ذيل المعذرة على ما يرى فيها من الخلل فان العفو من شيم الكرام وسبحان من تفرَّد بالكمال »

***

وانتظرنا شهراً بلغ سرورنا فيهِ مبلغاً عظيماً لاننا وجدنا ان مثالنا وقع موقع القبول عند الجمهور فأقبلوا عليهِ اقبالاً فاق انتظارنا فتوكلنا على الله في اصدار مجلتنا وحسبنا المثال العدد

الاول وصدوره في شهر ايار (مايو) سنة ١٨٧٦ وأخذ الله بيدنا فاستمر صدورها الى سنتها الستين فهي أقدم مجلة عربية حية حيث تقرأ اللغة العربية في الاقطار الشرقية والغربية

وجعلنا دأبنا تحري الابحاث التي لا تخلو من طلاوة وفائدة لهواة القديم والحديث وللراغبين في الصناعة وتجربة ما يجدُّ منها وكذلك الشذرات والنبذ السهلة الفهم تتخلل الابحاث العويصة حتى اذا ملَّ القارىء هذه ارتاح الى قراءة تلك وأقبل بعض اساتذتنا وأصدقائنا من طلاب العلم على مساعدتنا فنشرنا فصولاً للدكتور فانديك في تاريخ اطباء الشرق عموماً والعرب خصوصاً أعجبت محبي القديم كثيراً كما أعجبهم وأعجب محبي الحديث ايضاً النظام الشمسي والفرق بين علم المتقدمين بهِ وعلم المتأخرين وكذلك مقالة عن القمر حوت مجمل علمنا بهِ حتى اليوم من قديم وحديث . وأعجب الوالدات بما يكتبهُ اصدقاؤنا الاطباء عن الاعتناء بصحة الاطفال وما يكتبهُ السيدات المثقفات في تدبير المنزل الى غير ذلك مما لم يكن يطلع الجمهور عليهِ في الصحف الشائعة حينئذٍ الاَّ نادراً . وجعل القراء يسألوننا عما أُشكل عليهم فهمهُ او ما يريدون علمهُ فأفرغنا جهدنا في اجابة طلبهم لعلمنا ان ذلك يزيد اجتذابهم الى قراءة مجلتنا مع علمنا انهُ يحملنا مشقة زائدة كما ثبت لنا بالاختبار ايضاً فكم من جواب على مسألة واحدة كان يستغرق وقتاً طويلاً ويضطرنا الى مراجعة كتب كثيرة ولكننا لم نستثقل ذلك لانهُ يزيدنا علماً ومعرفة كما يجيب طلب السائلين . وقد أدَّى بنا ذلك على تمادي الايام الى الغوص على درر العلم والمعرفة في بحر مكتبة الكلية الواسعة . وأقول ولا ابالغ انهُ بعد مرور الاعوام لم يكد يفوتنا كتاب من كتبها العديدة التي نفهم لغاتها على اختلاف علومها وأبحاثها الاَّ اطلعنا عليهِ واغترفنا كثيراً او قليلاً مما فيهِ اجابةً لما يسألنا السائلون عنهُ

على ان سهر الايام والليالي على التنقيب في الكتب القديمة والحديثة واجهاد الدماغ في حل المسائل العويصة او تحرير المقالات الدقيقة كان أشهى الينا وأسهل علينا من مراجعة حسابات بعض المشتركين او مكاتبة الوكلاء لحضهم على زيادة المشتركين او تحصيل قيمة الاشتراك من المماطلين ونحو ذلك من اشغال المجلة المالية والمطبعية مما تعافهُ نفسنا ويمجهُ ذوقنا . فلذلك رأينا ان نتخلص مما لا ذوق لنا فيهِ وننقطع الى ما تصبو نفسنا اليهِ فاتفقنا مع صديق الصبا اخي المرحوم شاهين بك مكاريوس الذي كان بارعاً بالامور المطبعية وادارة اشغال الجريدة المالية وعيناهُ مديراً لاشغال المقتطف ثم تحوَّلت العلاقة بيننا على توالي الايام واختلاف احوال الزمان والمكان الى شبه شركة عائلية اصحابها « صرُّوف ونمر ومكاريوس » اسماؤنا نحن الثلثة

قلت « اختلاف احوال الزمان والمكان » لأن مجلتنا وان كانت جعلت ديدنها تحامي الابحاث الدينية والسياسية حذراً من مغباتها لم تسلم مع ذلك من محن خيف في اوائل نشأتها ان

تزعزع أساسها وتهدم بنيانها لو لم يقيض لها القدر ما ذاد عن حوضها ووطد اركانها — والذي يراجع سني المقتطف يجد فيها ذكراً واشارات الى كثير من هذه المحن ولكني اقتصر على ذكر ثلاث منها لضيق المقام — احداها في الشهر السادس من بدء صدور المقتطف وسببها جواب عن سؤال عن دوران الارض في مقالة ختمناها بقولنا « ولعلّ المطالع لا ينتقد علينا اذا قلنا ان الذين يعترضون على دوران الارض إما ان يعترضوا تعصباً زاعمين انهُ يخالف ما في الكتب المنزلة وهو وهمٌ محض او يعترضوا ابتغاء الشهرة كما فعل « كاسر مزراب العين » . وهو مثل عند عامة سورية يضرب لمن يبغي الشهرة بعملٍ ما يضر الناس . والاشارة فيهِ الى كاتبٍ نشر « امالي فلكية » كثيرة الاغلاط العلمية . فهاج كلامنا هذا قطباً من اقطاب الطوائف المسيحية وهو نائب بطريرك الطائفة الارثوذكسية وكان من أبلغ خطبائها ومن اكبر علمائها المعدودين في زمانهِ ولهُ منزلة سامية لجلالة قدرهِ ولكلامهِ نفوذ عظيم . فأرسل الينا مقالة حمل فيها على المقتطف حملة منكرة بحجة انهُ يعلّم الناس تعليماً مخالفاً لما في الكتب المنزلة بادعائهِ ان الارض تتحرك والشمس ثابتة . فندمت ندامة الكسعي على كتابتي تلك العبارة في ختام المقالة التي كنت انا كاتبها وخفت ان يقضى بسببها على المقتطف كما قضي على العلامة غليليو لقولهِ ان الشمس ثابتة والارض متحركة وحاولت ردَّ تلك الحملة بالحسنى فلم أفلح واضطررنا الى نشر المقالة في المقتطف لاصرار صاحبها على نشرها . وبينما نحن نحسب لتأثيرها حساباً كبيراً إثر نشرها أتانا الغوث من مصر القاهرة على غير انتظار . فقد كان المغفور لهُ رياض باشا وزيراً للمعارف المصرية حينئذٍ في عهد المغفور لهُ الخديوي اسمعيل باشا كما تقدم عليهِ الكلام فلما اطلع على المقتطف ارسل الينا يقول ان رأي ثبوت الارض الذي يراهُ حضرة المأمور البطريركي مغلوط وفاسدٌ ديناً وعلماً . وشفع ذلك برسالة مطبوعة بقلم العالم الكبير المرحوم عبد الله بك فكري وكيل نظارة المعارف حينئذٍ عنوانها « مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية » اثباتاً لموافقة علم الهيئة الحديث ودوران الارض لدين المسلمين فنشرنا منها شيئاً كثيراً وكان لها وقع عظيم عند الجمهور وبذلك خرج المقتطف من هذه المعمعة فائزاً وزاد القراء عليهِ اقبالاً

والمحنة الثانية سببها جواب المقتطف عن سؤال عن السحر بان السحر باطل غير صحيح وهو من شعوذات المشعوذين وخداع المخادعين . وكانت جريدة البشير وهي لسان حال الآباء اليسوعيين في بيروت تتعقب المقتطف لتأخذه بجريرة كل عبارة يمكن ان تؤولها بما ينفر القارىء منهُ او يوغر صدرهُ عليهِ وذلك لاسباب يظهر انها زالت الآن والحمد لله فلا نحييها بالعودة الى ذكرها . فما قرأت جوابنا على السحر حتى تناولت المقتطف باللوم والتعنيف وقامت تحذّر القراء من قراءتهِ بحجة انهُ مخالف للدين وخصوصاً دين المسلمين . ولكن انبرى لها المرحوم

الدكتور فارس نمر

الامام الشيخ يوسف الاسير خطَّأها ودفع افتراءها على المقتطف وكانت النتيجة خروج المقتطف من هذه المحنة ايضاً فائزاً غانماً وزادت مكانتهُ في اعتبار القراء عموماً . وعلى توالي الايام زاد اقبال العلماء والكتَّاب على المقتطف واتسع انتشارهُ في الاقطار العربية جميعاً وكثرت علاقاتهُ بأهل العلم والادب والفضل بحيث لم يكد يفوتنا التعارف او التراسل مع كثيرين من مشاهيرهم المشارقة او المغاربة سواءٌ كانوا في بلاد العرب او حيثما تقرأ اللغة العربية في ايران والهند الى اواسط آسيا . وازدادت المواد التي ترد على المقتطف في كل شهر حتى لم يعد فيهِ متسع لقسم عظيم منها وخصوصاً لما كثرت المناظرة بين العلماء الرياضيين في سورية ومصر وفي طليعة هؤلاء الاخيرين السريَّان المرحومان شفيق بك منصور وادريس بك راغب . فرأينا حينئذٍ ان الوقت قد حان لتكبير المقتطف انجازاً لوعدنا في بدءِ صدورهِ فزدنا عدد صفحاتهِ وجعلناها ٦٤ صفحة شهريًّا بدلاً من ٢٤ وذلك من اول سنتهِ السادسة. وانشأنا مع فريق من علماء سورية واطبائها المجمع العلمي الشرقي وجعلنا المقتطف لسان حالهِ لنشر محاضرات اعضائهِ ومقالاتهم فيهِ. واتسع الميدان لاقلام الباحثين والكتَّاب حتى عمَّ الابحاث التي كانت تهيج خواطر العالم في تلك الايام بانتشار آراء دارون ورفاقهِ العلماءِ في النشوء والارتقاء . وكثر الاخذ والعطاء حينئذٍ بين الكتاب والباحثين على صفحات المقتطف. وحدث لسوءِ الحظ في السنة الثامنة من سني المقتطف اضطراب في دوائر العلم التي نشأ وترعرع فيها ودارت الحوادث دورتها وامتدت ايدي الكائدين لهُ على غير ذنب ولا جريرة منهُ سوى انتشاره والاقبال عليهِ الى نصب الشراك لهُ مما نمسك الكلام عنهُ لانتقال الجميع الى رحمة ربهم غفر الله لنا ولهم . وكانت عاقبة هذه المحنة ان المقتطف زايل مهد العلم الذي ربي فيهِ وهجر بيروت الى الكنانة في سنتهِ التاسعة اي سنة ١٨٨٥ . وهو من ذلك الحين الى ان اتمَّ الستين متفيئ ظلال مصر رائع في نعيم وادي النيل يدعو لملكهِ وحكومتهِ بالعز والتأييد ولاهليهِ اهليهِ واخوانهِ اخوانهِ بالعيش الرغيد والمستقبل السعيد

بقي عليَّ ان اقول كلمة لجلاء موقفي من المقتطف بعد صدور المقطم . فبعد الهجرة الى مصر فتحنا مطبعة كاملة العدة لطبعهِ وطبع ما يأتينا من الخارج لنستعين بهِ على سدّ نفقاتنا ونفقاتهِ. وكانت عواقب الحوادث العرابية قد اوقعت مصر في ازمة مالية ظلت تئن من عسرها اعواماً . فلم يرد على المطبعة مطبوعات يسد الربح منها الحاجة او تكفي لادارة المطبعة فأنشأ المرحوم شاهين بك مكاريوس اللطائف وكنا نحرر لها الفصول التاريخية والمواضيع السهلة الطلية رجاء ان تروج بين العامة وتساعد على ادارة المطبعة فلم يأتِ ذلك بالفائدة المرومة . ولذلك خطر لبعضنا ان نصدر جريدة اسبوعية تنشر الاخبار المحلية ومقتطفات سياسية عمومية فعارضتُ في ذلك كراهة الاشتغال بغير العلم وتخوفاً من عواقب الدخول في مآزق السياسة حتى اشتدت

الحاجة الى تدبير عمل كاف للمطبعة . وجعلنا نفكر إما في اصدار جريدة اسبوعية او المهاجرة الى الولايات المتحدة الاميركية كما كان قد خطر لنا قبل الهجرة الى الديار المصرية . ولكن تغلَّب رأي شريكيَّ رحمهما الله على رأيي وأزمعنا اصدار جريدة اخبارية اسبوعية تكفي مع المقتطف لادارة حركة المطبعة وتثمير رأس المال الذي انفق عليها . وبينما نحن نستعد لذلك شاء القدر ان يتصدَّى لنا من استخفَّ بعزَّة نفسنا واستفزَّنا الى استبدال الجريدة الاسبوعية بجريدة يومية رغماً عنا . وسبحان من قسم الحظوظ فقد قسم لي أن أحمل أعباء هذه الجريدة اليومية وأفقد راحتي ولذتي وما تميل اليهِ فطرتي من الاشتغال بالعلم وتحرير المقتطف رجاء ان يكون دخل الجريدة اليومية عوناً لنا على إدامة المقتطف وانقطاع زميلي الى تحريره عن كل عمل سواه .
ولا أتعرض هنا لذكر شيء مما لقيت من جراء الاشتغال بالسياسة وخوض معاركها على مبدإ الاشتغال بالعلم في قول الصدق والانتصار للحق لا يثنيني عنهُ ارهاب بوعيد ولا وعود بمال ورتب ونياشين وما قاسيتُ من المتاعب التي كثيراً ما غادرتني اقضي الليالي وأنا اتقلب على فراش الهموم والغموم من تعاقب الاضطهاد تلو الاضطهاد بسبب الدسائس التي تحاك لنا في الظلام وان اكتم خبرها في اعماق صدري مخافة ان يدري بها شريكاي فيضطربا فلا يستطيع احدهما متابعة الدرس والمطالعة وتحرير المقتطف بما يقتضي لذلك من راحة البال وصفاء الذهن ولا يستطيع شريكي الآخر القيام بأشغال المطبعة والجريدة والمجلة بما يقتضي من الامن والاطمئنان . واذا قلقا قلقي واضطربا اضطرابي بارت الاشغال وساءت حال العمل والعمال ولذلك بلغ مني أني كنت اتلقى اخبار الحكم عليَّ بالاعدام من الناقمين عليَّ بسبب سياسة المقطم وانا صامت حتى ألفت الصبر على المكايد ولم أعد أعبأ بتلك الاحكام بعد ما تكررت عليَّ ثلاثاً بالاعدام وهي لا تزال محفوظة بين اوراقي ايقرأها من تقع اليهِ بعدي ويترحم على مصدريها كما اترحم انا عليهم اليوم بعد ما بلغت من العمر عتيًّا ولم يبق احدٌ منهم حيًّا فبعضهم مات حتف انفهِ وبعضهم مات غيلةً او بانفاذ حكم الاعدام فيهِ . وعما قليل سنجتمع امام الديان العادل جميعاً فلست بواجدٍ عليهم بل اسأل الغفران لي ولهم لاني كنت احسبهم ظالمين فأطعن في ظلمهم وكانوا يحسبونني جانياً مذنباً فيحكمون عليَّ حسب اعتقادهم . وما دمت في قيد الحياة فأرجو من فضل ربي ان يمنَّ عليَّ بالصحة طول ما بقي لي ، والتحرُّر من اغلال الاشغال التي لا ازال مكبلاً بها طوعاً لمقتضى الحال لاستأنف دروسي حيث تركتها واعود الى التحرير في المقتطف في اواخر عمري اجتناءً للذة التي كنت اتمتع بها في اوائل امري

هذه بعض الخواطر والذكريات التي استخرجتها الذاكرة من دفائن ستين عاماً من اعوام التجربة والاختبار أوردتها عسى أن يجد فيها احداث هذا العصر شيئاً يساعدهم في مستقبل ايامهم واسأل الله الخير لي ولهم

فارس نمر

الامير مصطفى الشهابي

محمد علي علوبه باشا

تحية وزير المعارف المصرية

معالي محمد علي علوبة باشا

ان مجلة المقتطف هي المجلة الشرقية الوحيدة التي رافقت الشرق في نهضته العلمية والثقافية والأدبية ، وارتفعت مع ارتقائه ، وكان لها أثر عظيم في نشر العلوم والمعارف على طريقة علمية صحيحة سهلة المأخذ . وان القاء نظرة على ما وصلت اليه المجلة في الوقت الحاضر ، ومقابلتها بما كانت عليه في الزمن القديم ، تنبئنا بالفرق بين حالة الشرق العلمية في يوم انشائها وحالته في الوقت الحاضر

واني ككل شرقي عربي اعترف بالفضل العظيم لهذه المجلة ، وما أسدتهُ للعالم العربي من خدمات جمة . كما قامت بتضحيات في سبيل نشر هذه الثقافة التي جعلتها في متناول كل يد . فقد اختارت موضوعاتها من خلاصة الافكار العلمية ، وبسطتها احسن تبسيط ، وصار الشرقي يقرؤها ، وكأنهُ يقرأ أحسن مجلة غربية وشرقية في نوع العلوم والمعارف والادب . وان الثقة التي حازتها هذه المجلة في قلوب الشرقيين يندر ان تدانيها ثقة أخرى بفضل العناية التي يقوم بها قلم التحرير في دقة وتحرٍّ للصحة والسهولة . وان من الجحود ان تنكر ما لهذه المجلة من فضل على نهضة الشرق

وبمناسبة مرور ستين عاماً على تأسيس المقتطف أبعث لهُ بالتهنئة بصفتي الشرقية والمصرية والعربية ، وبصفتي وزيراً للمعارف المصرية ، وأرجو لها دوام الارتقاء والنجاح

تحية وزير المعارف السورية

معالي الامير مصطفى الشهابي

من بعض الأدلة على تأثير المقتطف في النهضة الفكرية في الشرق العربي تلك الحادثة التي أسردها على القارىء في الكلمات الآتية :

كنت قبيل الحرب الكبرى تلميذاً في مدرسة غرينيون الزراعية العليا في فرنسة وكان في جملة التلامذة نفرٌ من المصريين ومن الشاميين . ففي ذات يوم فوجئنا بزيارة الزعيم الشامي الكبير صديقنا الدكتور شهبندر فجعلنا نطوف به في مخابر المدرسة وحقولها وحدائقها ورياضها وسقائف آلاتها وحظائر حيواناتها . وكنا نسمي بعض الاشياء التي نريه إياها باسماء فرنسية لاننا كنا نجهل ألفاظها العربية ، فكان الدكتور يلفت أنظارنا برفق الى وجوب تحري ألفاظ عربية لتلك المسميات ، ومما قالهُ لنا ان في أبحاث المقتطف الزراعية جملة صالحة من المصطلحات العربية تفيد مراجعتها كل تلميذ زراعي وكل كاتب في العلوم الزراعية . فصرت منذ ذلك الحين أراجع الابحاث المذكورة في مجلدات المقتطف وأستخرج منها تلك المصطلحات حتى اجتمع لديَّ منها زبدة أغرتني بمتابعة هذه الدروس اللغوية فتابعتها الى ان وضعت منذ سنتين « معجم الألفاظ العربية للمعاني الزراعية »

***

هذا مثال صغير ذكرت فيه تأثير المقتطف في لغتي العلمية في مقتبل العمر. ولاشك ان من تأثروا بهذا العامل في انحاء البلاد العربية عدد كبير . والذين يتذوَّقون سلاسة اللغة العلمية في مجلدات المقتطف ويميزون غث هذه اللغة من سمينها يدركون ان

الدكتور يعقوب صرّوف رحمهُ الله كان ممن لا يشق لهم غبار في مضمار الانشاء العلمي وانهُ كان يُعدُّ في حياتهِ اكبر كاتب عربي في الموضوعات العلمية ولذلك عددنا المقتطف مدرسة جيدة للانشاء العلمي وللمصطلحات العلمية

***

اما العلوم نفسها فالمقتطف مدرسة لها اي مدرسة ، وأما تقدم العلوم العصرية فللمقتطف فيهِ جولات طالما استفاد منها الذين ألمّوا بمجمل العلوم الحديثة وخطة المقتطف لا ترمي الى نشر الموضوعات العلمية المسهبة التي انما تكتب للاخصائيين ، بل خطتهُ بسط العلوم الحديثة مجملة وتقريبها من مدارك المستنيرين من ابناء لغة الضاد. ولهذا رأينا للمقتطف تلامذة في انحاء البلاد العربية كافة ، ومن هؤلاء التلامذة كتاب وشعراء وصحافيون وتجار وزراع انكبوا على تلاوة المقتطف فكان لهم مدرسة غذّت عقولهم ووسعت مداركهم وهذبت اخلاقهم وصقلت اقلامهم فعدوا من عناصر الامة المتعلمين المثقفين . ومن هؤلاء ايضاً نفر انقطعوا عن المدارس لاسباب شتى وعكفوا على تلاوة المقتطف والتثقف بموضوعاته دون غيرها فكفتهم مؤونة الدراسة او بعضها

***

وربما ظنَّ بعضهم ان خريجي المدارس العليا لا يجدون في المقتطف مادة يستفيدون منها . والحقيقة ان هؤلاء ايضاً بل هؤلاء خاصةً هم في حاجة الى مقالات المقتطف لان موضوعات تلك المقالات كثيراً ما تختلف عن التي درسوها في المدرسة. فالمدرسة العليا تعلم تلميذها نوعاً واحداً من انواع العلوم في الاعم ، اما المقتطف ففيهِ انواع عديدة من العلوم والآداب والفلسفات المختلفة مما يحتاج اليهِ طالب الثقافة في جميع اطوار حياتهِ . ولهذا السبب وجدنا خريجي المدارس العليا في طليعة قراء المقتطف

من ذكريات العيد الذهبي

المقتطف والحركة الفكرية

للدكتور محمد حسين هيكل بك

سيداتي وسادتي — اقف هذا الموقف كصحفي . وأنا سعيد بذلك غاية السعادة . مغتبط به اكبر الغبطة . فالصحافة مهمة سامية تقوم بها . وهذه المهمة تزداد سمواً كلما تجردت من مطامع المادة لانها تصبح تضحية للحياة في سبيل خير الجماعة . واغتبطت بأن اقف هذا الموقف لان حياتي الصحفية التي تمتد في الحقيقة الى ماضٍ غير قريب كان لها اتصال بمجلة المقتطف التي نحتفل اليوم بعيدها الخمسيني . وكانت في هذا الاتصال تعبر عن بعض خواطر في شأن الحركة الفكرية . لهذا كان طبيعيًّا ان احدّثكم في هذا الحفل عن اثر المقتطف في حركة الشرق الفكرية والاجتماعية وأن أقصر حديثي على الحركة الفكرية والاجتماعية

***

سيداتي وسادتي — ارجوكم ان تعودوا ببصائر اذهانكم الى خمسين سنة مضت . الى ذلك اليوم الذي بدأت فيه مجلة المقتطف حياتها . وان تذكروا ماكان من حياة الفكر في الشرق سنة ١٨٧٥ . وماكان من حياة الفكر في الغرب سنة ١٨٧٥ . وما كان بين الغرب والشرق يومئذٍ من صلات سياسية وغير سياسية . وارجوكم ان تتقدموا مع السنين قليلاً قليلاً وان تروا غزو الغرب للشرق في مختلف ميادين الحياة . في العلم . والادب . والصناعة . والتجارة . وفي كل ميدان آخر وان تصوّروا لانفسكم ما وجب القيام به من الجهود لجعل الاتصال بين الغرب والشرق في اثناء هذه الغزوات غير قاسٍ . هنالك تقدّرون ما كان للذين جاهدوا في منع الاصطدام بين القوتين الانسانيتين من فضل . وهنالك تذكرون بالخير من كان لهم في نشر افكارها وفي تهذيبها وفي صقلها وفي تمحيصها ودفع الزائف منها . ثم هنالك ترون قدر المجهود الذي ينفقهُ صاحبهُ في غير جلبة ولا ضوضاء حين يجلس الى مكتبهِ وحيداً محاطاً بالمئات والالوف من اكبر الرؤوس التي قامت على تفكيراتها عمارة العالم وحضارتهُ . يناجي اصحاب هذه الرؤوس ويتفاهم واياهم من طريق كتبهم . ثم يبرز آراءهم ورأيهُ في آرائهم لمعاصريهِ ممن يقرأُون لغتهُ

في سنة ١٨٧٥ كانت امم الشرق العربي ما تزال بعيدة بعض البعد عن غزو الحضارة الاوربية

اياها غزواً شاملاً . وكان الاتصال بين الشرق والغرب ما يزال مقتصراً على بعض الصلات السياسية والفردية . لكن عيون اوربا كانت يومئذ مفتوحة واسعة محدقة الى هذا الشرق العربي تريد ان تحقق فيهِ اغراضاً لها وغايات . وكانت مصر من بين امم الشرق العربي تتهافت على الغرب تهافتاً ما نظن ساستها كانوا يقدرون مدى آثاره . ففي سنة ١٨٧٥ تقرر انشاء المحاكم المختلطة في مصر وفي سنة ١٨٧٥ اشترت انكلترا اسهم قناة السويس من الخديو اسماعيل باشا وكذلك في سنة ١٨٧٥ كانت روسيا تتحرَّش بتركيا تحرشاً انتهى الى الحرب الروسية التركية . وكانت افريقا الشمالية كلها مطمح انظار فرنسا . وكان من شأن هذه الاتجاهات السياسية ان خلفت نوعاً من الصلة بين اوربا والشرق ظلَّ ينمو ويتزايد وما زال ينمو ويتزايد الى وقتنا الحاضر

وفي سنة ١٨٧٥ كانت اوربا تموج بحركة فكرية قوية غاية القوة . فكانت النظريات العلمية والفلسفية القديمة قد اخذت تتهدم وتنهار امام الفلسفة الواقعية التي مكَّن لها اوجست كونت في فرنسا وقام بنشرها جون ستوارت ميل وهربرت سبنسر في انكلترا . وكانت نظريات لامارك وداروين وغيرهما ذات شأن يذكر عند كثير من اصحاب هذه الفلسفة الواقعية . وكانت هذه النظريات وما ترتب عليها من حركة في العلم شديدة وما كان من اثر هذه الحركة من نشاط في الاختراع ترد الى الشرق عن طريق بعض الغربيين الذين اقاموا فيهِ زماناً طويلاً ، وعن طريق بعض الشرقيين الذين تعلموا في المدارس الاوربية ونشأت افكارهم نشأة غربية

كان محتوماً مع هذا الاتصال المتزايد بين الشرق والغرب ، ومع هذه الحركة العلمية والفكرية والادبية الشديدة في الغرب ، ان تقابلها في الشرق حركة علمية وفكرية وادبية جديدة ، ولما كانت تطورات كلٍّ من ناحيتي الانسانية قد اختلفت قبل ذلك جد الاختلاف عن تطورات الناحية الاخرى فقد كان الاصطدام محتوماً . لكنما كان يهوّن من هذا الاصطدام ان يقوم جماعة بالتقريب بين الافكار التي يظن لاول وهلة ان لا سبيل الى التقريب بينها ، وان ينشر جماعة من دفائن علم الشرق وتفكيراتهِ ما ييسر الاعتقاد بامكان التفاهم او بامكان التنافس بينهُ وبين الغرب تفاهماً يقرب بينهما او تنافساً يسوي بينهما ، وهذا المجهود لا يقوم بهِ فرد وحده بل هو في حاجة الى تعاون عدد كبير من الافراد وكلما كان تعاونهم وثيقاً كانت نتائجهُ مؤكدة وامكن خلق الجو الصالح للاحتكاك الفكري الذي يكفل ثبات هذه النتيجة والتعاون لا يتأتى الاَّ اذا كان للمتعاونين مركز يلتقون عندهُ يصدرون عنهُ ويردون اليهِ

من اول المراكز التي التقت عندها القوى التي حاولت نشر الفكر في الشرق العربي مجلة المقتطف ، وبحسبك ان تطلع على الأعداد الأولى منها لتقتنع تمام الاقتناع ان الغاية التي توخاها صاحباها من ايجادها انما هي نشر أحدث الافكار والمعلومات على اصولها ومصادرها . وربما

كانت الوسيلة لذلك في تلك الاعداد الاولى تعتمد على النقل والترجمة للمعلومات العلمية اكثر من اعتمادها على الانشاء والبحث . لكن للمقتطف في ذلك من العذر ان التفكير الغربي لم يكن معروفاً يومئذٍ في مصر والشرق الا من طبقة قليلة محصورة جداً ، فوسيلة نشره انما تكون بنقل المعلومات التي يعتمد عليها والتي أدت ملاحظها وترتيبها الى هذه العلوم الغربية التي ترى اليوم كما ان هذه العلوم ذاتها لم تكن في اوربا كما هي اليوم فان نصف القرن الذي مضى كان مملوءاً بالنشاط العلمي الى حد كبير

وظلّ المقتطف كمجلة يتقدم كلما تقدمت واياه السنون . فبدأت فيهِ حركة الانشاء والبحث بعد سنوات قليلة وازدادت الاقلام التي تحرره تنوعاً وكثر الكاتبون فيه . ولما كانت الحركة الفكرية قد بدأت تأخذ بكثير مما في الغرب من معارف فقد نهضت حركة فكرية شرقية تحيي القديم من الادب والتفكير العربي وتعمل لبيان ان العرب في الماضي لم يكونوا اقل من الغربيين اليوم شأناً وان ادبهم كان في كثير من الاحيانِ ارقى من الآداب الغربية . وكما كانت مجلة المقتطف هي الميدان الاول الذي التقى عنده الكتّاب لنشر المعلومات والآراء والافكار الغربية كذلك كان احد الميادين لنهضة التفكير والادب العربي وان لم يخص بهذه اختصاصه بتلك . وانك لتقرأ فيهِ كثيراً من شعر العرب ومن الادب العربي كما تقرأ كثيراً من شعر المعاصرين ونثرهم

وظلت حركة معارضة التفكير والأدب العربي الحديث بالتفكير والأدب العربي القديم زمناً . ثم نشأت فكرة تراها ماثلة على صفحات المقتطف ايضاً . هذه الفكرة هي كيفية التوفيق في نفس اهل الشرق العربية بين ثمرات الحضارة العربية القديمة وبين الحضارة الاوربية الحديثة . من هنا نشأ تفكير جديد يرجع الى اوائل او آخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ومن هنا بدأت الفكرة الاجتماعية الحديثة تشغل اذهان الكثيرين . فحدثت حركة المرحوم قاسم أمين عن تحرير المرأة ، وقام الاستاذ الشيخ محمد عبده للتوفيق بين نظريات العلم وقواعد الدين . وتناولت الصحف هذه وما اليها من المباحث الاجتماعية والفلسفية بالبحث والتمحيص . وكان للمقتطف في هذا الميدان حظٌّ كبير . فكانت الرسائل والمباحث التي لا تتسع لها الصحف اليومية تنشر فيهِ . وهذه الرسائل ممتعة عادة لانها تجمع بين التفصيل والايجاز . وكمجلة حرة كان المقتطف ينشر على صفحاتهِ الآراء المختلفة المتضاربة بأمل الوصول الى الحقيقة من طريق البحث . وفي ذلك الجهاد قضى خمسين سنة نحتفي اليوم بها . ولعل هذا الجهاد العلمي والفكري هو خير ما يفخر بهِ اصحاب المقتطف من أعمال حياتهم . ولعلَّ الدكتور صرّوف الذي انقطع للمقتطف منذ سنوات كثيرة يقضي نهاره واياماه عملاً للعلم ونشره وللمعارف واذاعتها — يشعر وهو في سنهِ ومكانتهِ بما اداهُ من خدمة للفكر والاجتماع في الشرق العربي بعجلتهِ …

فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى

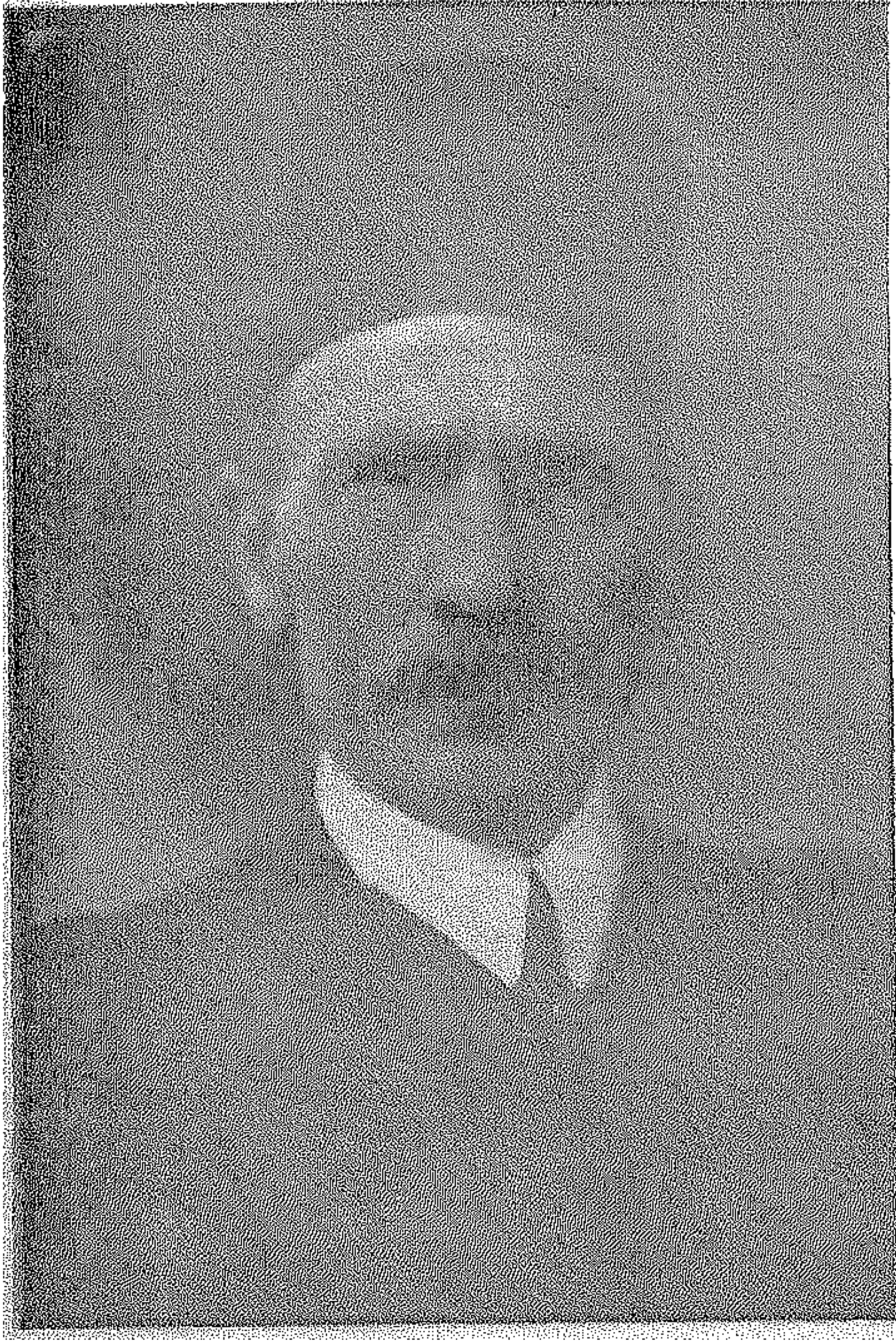

احمد لطفى السيد باشا

محمد العشماوى بك

أمين سامى باشا

تطور التعليم في مصر

في خلال الستين عاماً الاخيرة

لمحمد العشماوي بك

وكيل وزارة المعارف

تطوّرت الحياة المصرية في كل نواحيها لا سيما الناحية التعليمية تطوراً خطيراً خلال الستين عاماً الاخيرة ولا يستدل على هذا التطور بالارقام الناطقة للعيان وحدها وانما يلحظ في التقدم الفكري وارتفاع مستوى الحياة العامة في البلاد لا سيما في العهد الاخير عهد جلالة الملك — الذي شمل بعطفه ورعايته جهود البلاد عامة والتعليمية والفكرية منها خاصة

١ — التعليم الاولي

ولعلّ اهم ما يلحظ في هذه النهضة التعليمية انتقال التعليم من الخاصة الى العامة ومن العواصم الى القرى السحيقة في انحاء البلاد حتى لقد بلغ عدد المكاتب في انحاء القطر ٤٧٠٠ مكتب سنة ١٨٧٥ . غير ان هذا النوع من التعليم كان ينقصهُ التنظيم والتوجيه ومن ثم انشيء بديوان المدارس ادارة خاصة للمكاتب الاهلية وعين المرحوم عبد الله فكري بك وكيلاً لهذه الادارة في مارس سنة ١٨٧١ . ولكن تنظيم التعليم القروي لم يتخذ مع هذا وجهة مقررة الاّ حينما شكلت لجنة عامة لبحث نظام التعليم بأكمله في مصر سنة ١٨٨٠ فوضعت خطة لتنظيم التعليم الابتدائي والقروي تنظيماً شاملاً

بيد ان التقلقل المالي والسياسي الذي اصاب البلاد في ذلك الحين لم يسمح بتنفيذ هذه الخطة الكاملة بدليل انه الى سنة ١٩١٢ لم ينشأ اكثر من ١٣٢ مدرسة اولية منها ٨٩ مدرسة سلمتها وزارة الاوقاف الى المعارف لادارتها مقابل اعانة سنوية تبلغ ٤٠٠٠ جنيه ولا يمكن ان يقال ان التعليم الاولي نهض نهضته الحاضرة الاّ بعد صدور قرار اللجنة المشكلة لنشر التعليم الاولي سنة ١٩١٩ فمن ذلك الحين افتتحت المدارس الاولية تدريجاً في انحاء القطر حتى بلغت في الوقت الحاضر ما لا يقل عن ٤٤٨١ مدرسة يتعلم فيها حوالي ٨٥٠٧٧٨ طفلاً مبادىء الدين والقرآن والكتابة والقراءة والحساب والرسم ومشاهد الطبيعة والصحة والجغرافيا .

وتنظيماً لهذه الحركة صدر في ١٩ يونيه سنة ١٩٣٣ قانون لتنظيم التعليم الاولي فجعلت مدة الدراسة خمس سنوات من السابعة الى الثانية عشرة وقسم اليوم المدرسي الى قسمين للبنين والبنات مع تبسيط منهج الدراسة وتعديله تعديلاً يسمح للطفل بالاتصال ببيئته الزراعية او الصناعية . وكذلك نظمت العلاقة بين وزارة المعارف ومجالس المديريات في ادارة هذه المدارس بمقتضى القانون رقم ٢٤ الصادر في سنة ١٩٣٤ . ولكي تعطى لفريق التلاميذ الممتازين في هذه المدارس فرصة التزود بقسط اعلى من التعليم انشىء الى جانب المدارس الاولية عدد من المدارس الاولية الراقية للبنين والبنات فضلاً عن المدارس الزراعية والصناعية الاولية . وأعد للتدريس في هذه المدارس جميعاً فريق من المدرسين والمدرسات الذين اتموا دراستهم في معاهد خاصة لهذا الغرض وهي مدارس المعلمين والمعلمات المنتشرة في انحاء القطر

٢ — التعليم الابتدائي

ليس هذا النوع من التعليم حديثاً في مصر بل يرجع عهده الى عصر محمد علي الذي أنشأ حوالي ٥٠ مدرسة ابتدائية في انحاء القطر لسد حاجة البلاد عامة . ولما تولى الخديو اسماعيل باشا الحكم في مصر أعاد فتح اكثر المدارس التي اغلقت في عهد عباس وسعيد واطردت الزيادة في عدد هذه المدارس الاميرية حتى بلغت سنة ١٨٨٢ نحو ٢٧ مدرسة وفي سنة ١٩٢١ — ٣٤ مدرسة وفي الوقت الحاضر ٥٧ مدرسة اميرية . وبينما كان عدد التلاميذ في هذه المدارس في سنة ١٨٨٩ نحو ٢٨٢٢ تلميذاً ارتفع العدد في سنة ١٩٢١ الى ١١٣٨٢ وفي الوقت الحاضر الى ١٥٤٢٠ هذا عدا مدارس البنات الاميرية التي تبلغ في الوقت الحاضر ١٩ مدرسة بها ٢٦٠٤ تلميذات

وقد كانت مدة الدراسة في هذه المدارس دائماً اربع سنوات وكان مقرر التعليم في بادىء الامر يشمل الدين واللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والرسم والصحة والترجمة واللغة الاوربية ودروس الاشياء والخطوط . وكانت اللغة الفرنسية هي اللغة الاجنبية السائدة في هذه المدارس الى ان حلت محلها اللغة الانجليزية تدريجاً حتى الغيت الاقسام الفرنسية سنة ١٩٠٣ اما باقي مواد التعليم فكانت تدرس باللغة العربية الى ان قرر علي باشا مبارك سنة ١٨٨٧ تدريسها باللغة الانجليزية وبقيت هذه اللغة وسيلة التعليم الى ان تقرر اعادة اللغة العربية سنة ١٩١٦ ثم تناول الاصلاح مواد الدراسة سنة ١٩٢٥ فأدخل الكثير من المواد الحديثة التي تعاون على تثقيف الطلاب وتهذيبهم كالاشغال اليدوية ومبادىء العلوم الخ . واتبع هذا النظام في مدارس البنين والبنات على السواء اذا استثنينا ان البنات يدرسن اشغال الابرة وبعض المواد النسوية

ويسير على هذا النظام عدد وافر من المدارس غير الاميرية وتبلغ ٧٣ مدرسة تابعة لمجالس

المديريات وبها نحو ١١١٢٠ تلميذاً و١٢ مدرسة للبنات وبها ٢٤٣٧ تلميذة فضلاً عن المدارس الحرة التي خضعت جميعاً لرقابة وزارة المعارف بمقتضى قانون التعليم الحر الذي صدر عام ١٩٣٤ لتنظيم العمل والدراسة في هذه المدارس . وقد بلغت بعد التصفية الاخيرة ٢٩٠ مدرسة ابتدائية للبنين و١٣٠ مدرسة للبنات وبها حوالي ٢١٠٠٠ تلميذ وتلميذة

ويتقدم تلاميذ المدارس الابتدائية وتلميذاتها في الوقت الحاضر في سنتهم النهائية لامتحان اتمام الدراسة الابتدائية الذي حل منذ سنة ١٩١٦ محل امتحان شهادة الدراسة الابتدائية . وكان هذا الامتحان قد تقرر منذ سنة ١٨٩١ ليؤهل الطلاب لدخول المدارس التجهيزية والتوظف في الوظائف الصغرى بدوائر الحكومة في حين ان الامتحان الحالي تقتصر اهميتهُ على الانتظام في التعليم الثانوي

ولعلَّ تقدم المدارس الابتدائية في الوقت الحاضر يرجع الى اعداد الاطفال للدخول في هذه المدارس بانشاء ما سمي « رياض الاطفال » وهي مدارس تقبل الاطفال من سن الخامسة الى الثامنة وتعنى اكبر العناية بتنمية قوة الملاحظة وحب الاستطلاع وتعرف خبايا العالم المجهول للناشئين والاعتماد في التعليم خاصة على الالعاب والموسيقى والاشغال ويتولى التدريس فيها مدرسات لهنَّ مؤهلات خاصة وبالقطر الآن ٢١ مدرسة من هذا النوع بها نحو ٢٠٠٠ طفل هذا فضلاً عن ١١ مدرسة تديرها مجالس المديريات وبها نحو ١٠٠٠ طفل

٣ — التعليم الثانوي

كان التعليم الثانوي في عهد محمد علي الكبير مقتصراً على المدرسة التجهيزية بابي زعبل ثم نقلت هذه المدرسة في عهد الخديوي اسماعيل الى درب الجماميز وسميت باسم المدرسة التجهيزية ثم المدرسة الخديوية وانشئت مدرسة اخرى بالاسكندرية وهي مدرسة رأس التين الحالية ثم ازداد عدد المدارس تدريجاً حتى بلغت ٦ مدارس ثانوية اميرية سنة ١٩١٧ يتعلم بها نحو ٢٤٤٢ تلميذاً واطردت الزيادة حتى بلغ عدد المدارس الاميرية في الوقت الحاضر ٢٧ مدرسة ثانوية بها نحو ١٤٦٤٦ تلميذاً و٦ مدارس ثانوية للبنات وبها نحو ١٣٠٩ تلميذات هذا عدا المدارس الحرة التي بلغ عددها في سنة ١٩١٧ — ٢٦ مدرسة ثانوية للبنين بها نحو ٤٥٧٠ تلميذاً ثم اخذت في الزيادة تبعاً لحاجة الاهلين واقبالهم على هذا النوع من التعليم حتى اصبحت الآن ٨٥ مدرسة للبنين و١٢ مدرسة للبنات يبلغ عدد تلاميذها وتلميذاتها نحو ١٢٠٠٠ تلميذ وتلميذة

وكانت مدة الدراسة الى سنة ١٨٩٢ خمس سنوات وتشمل اكثر مواد الثقافة العامة المعروفة في المرحلة الاولى للتعليم الثانوي في الوقت الحاضر. وفي سنة ١٩٠٩ قصر التعليم الثانوي على اربع

سنوات منها سنتان لمواد الثقافة العامة والسنتان التاليتان للتعمق في المواد العلمية او الادبية مع حذف بعض المواد الرئيسية كالتاريخ الطبيعي . وجعلت اللغة الانجليزية مادة اساسية والفرنسية لغة اضافية ابتداء من السنة الثالثة وتدريس اكثر المواد باللغة الانجليزية طبقاً للسياسة التي وضعتها الوزارة منذ سنة ١٨٨٧

غير ان خطة الاصلاح التي بدأت منذ سنة ١٩١٦ ادت الى اعادة التعليم باللغة العربية في هذه المدارس تدريجاً .وفي سنة ١٩٢٥ اعيدت مدة الدراسة الى خمس سنوات كما اعيدت مواد الثقافة التي حرمت منها المدارس عهداً طويلاً وهي مواد التاريخ الطبيعي والتربية الوطنية وعلم النفس فضلاً عن تعديل خطة الدراسة ومناهجها تعديلاً يطابق روح العصر . وفي العام الماضي عدل نظام التعليم الثانوي تعديلاً جوهريًّا في اكثر من موضع واحد — خطط الدراسة ومناهجها وامتحاناتها وانظمتها قصداً الى تحرير المدرسين والتلاميذ من ربقة الكتب والامتحانات والاتجاه الى تكوين الاذهان وتربية الاخلاق والاجسام تربية مثمرة . كذلك عُدّل التعليم الثانوي للبنات تعديلاً يطابق روح العصر والاختبار فالى العام الماضي كانت التلميذات يدرسن المواد المقررة للتلاميذ مع تعديلات طفيفة تتعلق بتدريس المواد النسوية لمن رغب من الطالبات. ولهذا وضع منهج خاص لمدارس البنات الثانوية تدرس التلميذات بمقتضاه مواد الثقافة العامة في خمس سنوات بدلاً من اربع وان يعنى في هذه المرحلة بمواد الثقافة النسوية عناية تامة . وفي السنة التوجيهية وهي السنة الاخيرة للدراسة الثانوية تتجه التلميذات الى التعليم الموصل للتعليم العالي او ينصرفن الى اتمام مواد الثقافة النسوية

٤ — التعليم العالي والجامعي

افتتحت اكثر مدارس التعليم العالي في مصر في النصف الاول من القرن الماضي ثم اصابها الضعف والانحلال تبعاً لحالة الضعف السياسي التي اصابت البلاد في منتصف القرن ، ولم تستقر حياتها الجديدة الاَّ منذ عهد الخديو اسماعيل الذي استأنف تقاليد جده الكبير فأعاد منذ سنة ١٨٦٧ فتح مدارس الطب والطب البيطري والهندسة والزراعة وأضاف اليها مدرسة الحقوق . وكانت هذه المدارس جميعاً تستمد طلابها غالباً من المدارس التجهيزية ، وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات ، وكانت لغة التعليم السائدة هي اللغة الفرنسية ثم اعقبتها اللغة الانجليزية تدريجاً حتى الغيت الاقسام الفرنسية . ومنذ سنة ١٩١٦ جعلت الدراسة في كافة المدارس العليا اربع سنوات بدلاً من ثلاث واخذت اللغة العربية تتخذ مكانها في التدريس واطردت العناية بالمعامل والمكاتب واساليب التدريس والبحث كما عني بارسال البعثات العلمية العديدة لتزويد هذه المدارس بطائفة صالحة من الاساتذة الممتازين

على ان التعليم العالي في مصر لم يقتصر على المدارس المتقدمة بل يشمل معهدين آخرين لهما ميزة خاصة في انهما كانا عماد التعليم الثانوي وبالتالي التعليم العالي وهما دار العلوم ومدرسة المعلمين العليا. وقد انشىء المعهد الاول عام ١٨٧٢ لتخريج طائفة من المعلمين الصالحين لتدريس اللغة العربية ثم تدعَّم الاساس الذي أقيم عليه هذا المعهد بانشاء مدرسة تجهيزية خاصة لاعداد الطلاب للقبول في القسم العالي في سنة ١٩٢٠ ثم الغيت هذه المدرسة اخيراً اكتفاء بخريجي الاقسام الثانوية في الجامعة الازهرية. اما اعداد المدرسين اللازمين للمواد الاخرى فقد عهد الى مدرسة النورمال التي انشئت سنة ١٨٨٠ وكان التعليم فيها بالفرنسية شأن باقي المدارس العليا الاخرى ثم نقلت الى قصر النزهة سنة ١٨٨٨ وسميت باسم المعلمين التوفيقية ثم الى الخديوية وسميت بالمعلمين الخديوية فالمعلمين السلطانية ثم اخيراً المعلمين العليا وبقيت تؤدي للتعليم والبلاد الخدمات الى ان انشىء معهد التربية الحالي للبنين

كذلك انشىء قسم خاص بالمدرسة السنية عام ١٩٠٠ لتخريج معلمات للمدارس الابتدائية ومدارس المعلمات وقد ارتفع مستوى الدخول فيها تدريجاً تبعاً لارتفاع مستوى التعليم العام فمن شهادة ابتدائية الى امتحان دخول الى اشتراط الشهادة الثانوية وجعلت مدة الدراسة ثلاث سنوات ثم ارتفعت الى اربع وبقي هذا المعهد قائماً الى ان حل محلها معهد التربية الحالي للبنات

ومنذ سنة ١٩٢٥ سار التعليم العالي خطوات سريعة. ففي ذلك العام انشئت الجامعة لتباعد بين التعليم العالي والمصالح المادية الضيقة وتوجد جوًّا جديداً من الثقافة والبحث العلمي في البلاد وقد شملت الجامعة بادىء الامر كليات الآداب والعلوم والحقوق والطب ثم اتسعت دائرتها منذ العام الماضي حتى شملت اكثر المدارس العالية الاخرى: الهندسة والزراعة والتجارة حتى يتضامن التعليم العالي بأكمله في تحقيق الاغراض المنشودة في جو من الحرية والاستقلال. وقد بلغ عدد طلاب الجامعة في العام الماضي ٦٥٣٥ طالباً بينهم ٢٠٧ طالبات وهي ظاهرة جديدة في اتجاه التعليم في مصر تستحق الرعاية والالتفات

٥ — التعليم المتوسط

لعلَّ أهم مظاهر الاصلاح الحديث في التعليم انشاء حلقة جديدة متوسطة بين التعليمين الابتدائي والثانوي وهي حلقة يقصد بها تخفيف الضغط على التعليم الثانوي والعالي من جهة وسد حاجة البلاد من طبقة متوسطة من المتعلمين من جهة اخرى ولهذا الغرض انشىء في سنة ١٩٠٧ ادارة خاصة بهذا النوع من التعليم وفي كنفها تقدم التعليم الصناعي والزراعي والتجاري ولا تزال هذه الادارة تحت اسم آخر توالي عنايتها بهذه المدارس

فبينما كان عدد المدارس الصناعية في سنة ١٩١٠ لا يزيد عن خمس مدارس اذا به يرتفع

سنة ١٩١٧ الى ١٨ مدرسة وفي سنة ١٩٣٥ الى ٢٨ مدرسة بها ما لا يقل عن ١١٧٧٨ تلميذاً يزاولون مختلف الصناعات التي تلائم حاجة البلاد . فالى جانب اقسام الصناعات القديمة انشئت في السنوات الاخيرة أقسام خاصة بالكهرباء والتلغراف اللاسلكي وهندسة السيارات والهندسة الصحية واشغال الزخرفة وصقل الجرانيت وبناء المراكب والهندسة البحرية وصناعة الزجاج الخ

ولكي يمكن تشجيع خريجي هذه المدارس للعمل في الصناعات التي تخصصوا فيها اعتمدت الحكومة مبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه لمساعدة هؤلاء الخريجين في مواصلة العمل في صناعاتهم فضلاً عن انشاء عدة مصانع حكومية للجلود وتصليح الساعات لافساح مجال العمل لطلاب هذه المدارس . ولا شكَّ ان انشاء وزارة خاصة بالصناعة والتجارة في العام الماضي سيعاون كثيراً على تقدم هذه المدارس ونجاحها

كذلك انشئت مدارس خاصة بالتعليم الزراعي المتوسط والغرض منها تخريج مزارعين قادرين على مباشرة مزارعهم الخاصة او العمل في مزارع الآخرين ويبلغ عدد هذه المدارس اربعاً : ثلاثاً في الوجه البحري ومدرسة في الوجه القبلي تضم عدداً من التلاميذ لا يقل عن ١٥٠٤ طالباً في حين ان عدد الطلاب لم يرتفع في سنة ١٩١٧ عن ٢٠٠ طالب

اما التعليم التجاري فقد اتسع تدريجاً بنسبة المدارس الاخرى . ففي سنة ١٩١٧ كان التعليم التجاري المتوسط مقتصراً على مدرسة واحدة في القاهرة بها ٢٢٩ طالباً ثم ازداد عددها الآن الى خمس مدارس بها ٢٠٠٠ طالب والغرض من هذه المدارس هو تدريب طبقة من الشبان على الاعمال الكتابية والحسابية في المحال التجارية والمصارف او في المزارع والمصالح الحكومية . ويتصل بهذا النوع من المدارس الاقسام الليلية التجارية التي انشئت لتزويد الشبان والشابات على السواء بالفرصة الملائمة لتوسيع معلوماتهم وتنمية مداركهم وكسب قوتهم في الاعمال التجارية والحسابية

٦ — الفنون الجميلة

كان من الطبيعي ان تتمشى مع نهضة البلاد العلمية والادبية نهضة فنية . فأنشئت مدرسة الفنون الجميلة سنة ١٩١٧ ثم تأسست مدرسة الفنون الجميلة العليا سنة ١٩٢٥ واستصدر مرسوم بتأليف لجنة استشارية للفنون لزيادة العناية بها وللرجوع لرأي الفنيين فيها . وتحقيقاً للأمنية التي طالما انتظرتها مصر الحديثة وهي النهوض بالموسيقى العربية المتيدة انشىء معهد الموسيقى العربية وانشئت به مدرسة للموسيقى تعينها وزارة المعارف ماليًّا وتشرف عليها فنيًّا وإداريًّا . كما عني بجعل الموسيقى جزءا هامًّا من ثقافة الشعب وعلماً يدرس بالمدارس المصرية إلى جانب العلوم الاخرى. فأدخل التعليم الموسيقي في رياض الاطفال والمدارس الاولية الالزامية والمدارس الابتدائية . وفي

العزم اليسير تدريجياً في تعميم مادة الموسيقى في مختلف درجات التعليم ونواحيه كلما توافر عدد من يمكن ان يسند اليهم تدريس الموسيقى من خريجي البعثات الموسيقية المصرية وخريجي المعهد الملكي للموسيقى العربية

واتجهت العناية أيضاً إلى الفنون الاخرى فأقامت الحكومة المصرية أكاديمية الفنون الجميلة بروما حيث يجد الطلبة المصريون الموفدون للتخصص في الفنون الجميلة مكاناً صالحاً للعمل والاسترشاد الفني . كما انشىء متحف للفن الحديث جمعت فيه طائفة من الآثار الفنية القيمة لكبار الفنيين في العصر الحديث من مصريين واوربيين ومصنع لصب القوالب بقصد إخراج نماذج للقطع الاثرية والفنية وتيسير اقتنائها . هذا فضلاً عن إيفاد البعوث للنحت والتصوير والموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة الى المعاهد الفنية الكبرى في ايطاليا وفرنسا وإقامة معارض للفنون الجميلة والاشراف على تنظيم المعارض التي تقيمها الجمعيات والافراد وتشجيعها بالاعانات وبشراء كثير من معروضاتها

كما وجهت العناية الى المسرح العربي فزوّد بالمال أولاً ثم انشئت فرقة قومية خاصة لرفع شأنه ولتشجيع الترجمة والتأليف للمسرح واستقدمت فرق اجنبية ممتازة في كل عام لاحياء موسم تمثيلي غنائي في دار الاوبرا الملكية بقصد اذاعة الثقافة المسرحية الاوروبية

٧ — دار الكتب المصرية

انشئت في عهد المغفور له الخديو اسماعيل واتسعت أعمالها تدريجاً اتساعاً ينم على مبلغ النهضة الفكرية في البلاد واتجاه الذوق العام الى الاستزادة من الثقافة والاطلاع والاحصاء التالي يبين وجه المقابلة

	سنة ١٩١٧	سنة ١٩٣٣
جملة الرصيد	٨٨٢١٥	٢٣٨١٧٧
الكتب الواردة في السنة	١٩٥٢	٩٩٣٣
عدد المترددين على قاعة المطالعة		٩٣١٦٦
عدد زائري المعرض	٧٤٥٤	١٧١٨٥
المطلعون على خرائط المساحة		١٤٥٩
عدد المستعيرين في الخارج	٦٠٦	٦١٦٢
عدد المجلدات المعارة بقاعة المطالعة . . .	٧١٨٦٩	٢١٢٣٣٣
عدد المجلدات المعارة بالخارج	١١٢٩٧	٣٧٥٢٧
عدد المجلدات المطبوعة للبيع	٢٥	١٣٠

ويضاف إلى هذا كله مكتبات خاصة أهديت الى المكتبة العامة مثل مكتبة المرحوم طلعت بك وتشمل ٣٠٠٠٠ مجلد ومكتبة المرحوم تيمور باشا وبها ٢٠٠٠٠ مجلد ومكتبة المرحوم حليم باشا وبها ٢٥٠ مجلد ومكتبة قوله وبها ٣٠٠٠ مجلد ومكتبة خليل اغا ومكتبة الفلكي وتحوي كل منها الف مجلد .

والى جانب دار الكتب انشئت حديثاً مكتبة الجامعة المصرية وهي ذات شأن كبير اذ يبلغ عدد مجلداتها نحو ١٥٠٠٠٠ مجلد وعني جلالة الملك عناية كبرى بتزويدها بآلاف المجلدات من الكتب القيمة فكان لجلالته الفضل الاكبر في نمائها كما كان له الفضل الاسبق في تكوينها اول نشأتها عند ما كان أميراً يحوط الجامعة الوطيدة برعايته ويوقف عليها جهوده ووقته. فأهدى اليها جلالته مكتبة الامير ابراهيم حلمي التي آلت الى جلالته بطريق الميراث وهي تشمل نحو ٢٠٠٠٠ مجلد . كما اهديت اليه في عهد جلالته وبرعايته مكتبات قيمة اخرى كمكتبة سمو الامير كمال الدين حسين التي تحوي ٧٢٠٠ مجلد ومكتبة طلعت بك وبها ١٥٠٠٠ مجلد . هذا فضلاً عما اضيف اليها بطريقة الشراء كمكتبة سيبولد وتشمل ١٠٠٠٠ مجلد

٨ — الرياضة البدنية

كان من أثر العناية في تعليم النشء تعليماً يتفق وأساليب التربية الحديثة ان جعل التعليم البدني والالعاب الرياضية اجبارياً في جميع المدارس ووضعت لذلك المناهج المناسبة لسن التلاميذ وادخلت أوقات دراستها في برنامج الدراسة اليومي اسوة بالمواد الاخرى حتى أصبح التعليم البدني متغلغلاً في جميع مدارس القطر المختلفة للبنين والبنات

وكذلك وجهت عناية كبرى الى حركة الكشافة والمرشدات . وتفضل جلالة الملك فأذن بتنصيب ولي عهده المحبوب حضرة صاحب السمو أمير الصعيد كشافاً أعظم يوم ٢٩ ابريل سنة ١٩٣٣ في حفل رياضي كبير مما كان له أكبر الأثر في تنشيط هذه الحركة حتى اصبح في القطر المصري الآن ما يقرب من ٢٢٥ فرقة بها نحو ٦٥٠٠ كشاف جميعهم من التلاميذ. ومن المرشدات نحو ٤٠٠٠ مرشدة في أكثر من ١٤٠ فرقة. وقد صدر مرسوم ملكي بتأليف جمعية أهلية مصرية للكشافة كما صدر قانون بحماية شاراتها ومسمياتها ومميزاتها

وستعمل الحكومة على توسيع نطاق تعليم التربية البدنية بانشاء ميادين للالعاب الرياضية لتلاميذ المدارس وانشاء مدرسة لتخريج معلمي التربية البدنية وانشاء حمامات للسباحة وهذا فضلاً عن اعانة الاندية والجمعيات والاتحادات الرياضية المختلفة في انحاء البلاد

وتمشياً مع النهضة الرياضية الحديثة وأخذاً بأسبابها عمدت الحكومة على ارسال البعوث

الرياضية من الطلاب والطالبات الى اوروبا لدراسة الاساليب المختلفة والمستحدثة في التربية البدنية والاشتراك في المؤتمرات الدولية والمسابقات الاولومبية

٩ — الجمعيات العلمية والادبية والفنية

كان من أثر نهضة البلاد أن ترعرعت فيها هيئات وتكونت جمعيات تعنى بشئون العلم والآداب والفنون، فنها الجمعية الجغرافية الملكية التي تعنى بتشجيع البحوث الجغرافية في مصر ونشرها والجمعية الملكية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع . والجمعية الملكية للحشرات . والجمعية الطبية المصرية. والجمعية الرمدية المصرية . والمجمع العلمي المصري. والجمعية الملكية لعلم اوراق البردي. والمجمع المصري للثقافة العلمية . ورابطة الادب العربي . والمعهد الملكي للموسيقى العربية . ومعهد الصحراء . وجمعية محبي الفنون الجميلة . ومجمع اللغة العربية الملكي الذي تألف من خيرة اللغويين المقيمين في مصر وفي البلاد العربية الشرقية ومن كبار المستشرقين الاجانب ذوي الشهرة في العلوم العربية

هذا فضلاً عن مساهمة الحكومة المصرية في منح اعانات سنوية للهيئات العلمية الدولية مثل معهد التعاون الدولي الفكري بباريس . ومعهد التربية الدولي بسويسرا . واللجنة الدولية للعلوم التاريخية والمكتب الدولي للتعليم الفني . واشتراكها في اعمال هذه الهيئات جميعاً وفيما تعقده الهيئات الدولية العلمية سنويًّا من المؤتمرات في أنحاء العالم

١٠ — مصلحة الآثار

خطت أعمال الآثار المصرية الى الآن خطوات واسعة وأتت بنتائج استثارت اعجاب العالم فقد تمَّ استكشاف مقبرة توت عنخ آمون ونقل ما فيها من حلى عجيبة وأثاث وتماثيل الى جناح أعدَّ لها في المتحف المصري ونسق أبدع تنسيق . كما استكشف في جهة البداري بقايا حضارة يرجع عهدها الى ما قبل التاريخ . وعثر على مقبرة الملكة هتفرس أم الملك كيوبس ووضع ما وجد فيها من حلى ثمينة ذهبية في مكان خاص بالمتحف المصري . ولاول مرة في هذا العهد الزاهر يتولى المصريون استكشاف آثار أجدادهم فلقد قام اساتذة الجامعة المصرية بأعمال الحفر في عهود تاريخية مختلفة فكشف الاستاذ سليم حسن بك عن مقابر هامة يرجع تاريخها الى الامبراطورية القديمة بها كنوز من التماثيل الجميلة . ويواصل الاستاذ سامي جبره أعمال التنقيب عن مقابر يونانية — رومانية محلى بعضها بنقوش بديعة على أروع اسلوب « كلاسيكي » قديم . كما يقوم الاستاذ محمد حمزه بالكشف عن معبد ذي مقام تاريخي كبير بأسيوط . والاستاذ مصطفى عامر عن حفائر المعادي التي كشفت الكثير عن الانسان ومدنيته قبل التاريخ

الآثار القبطية — الآثار القبطية ذات مكانة تاريخية كبرى لانها تعتبر حلقة الاتصال بين الفنون المصرية في العصرين الفرعوني واليوناني والروماني من جهة والعصر الاسلامي من جهة اخرى . وقد انشيء لها سنة ١٩١٠ متحف خاص يشمل مخلفات الاديرة والكنائس العديدة التي اقيمت بين القرنين الرابع والسابع للميلاد . وزيدت عليه اقسام عدة كقسم للاحجار وقسم للمعادن وقسم للاقمشة وقاعة للصور ومكتبة كبيرة . وفي عام ١٩٣١ صدر مرسوم ملكي بالحاق المتحف القبطي باملاك الدولة فتضاعفت موجودات باقي الاقسام وتوسع نطاقه ونظمت اقسامه تنظيماً يسمح بتتبع ما فيها من الآثار

***

الآثار العربية — العناية بالآثار العربية حديثة العهد . اذ ان الفن الاسلامي لم يثر اهتمام العالم الاَّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ويرجع الفضل في ايجاد متحف للآثار العربية الى سمو الخديو اسماعيل . وقد تمَّ انشاء هذا المتحف فعلاً ووضعت المجموعات الاولى منهُ في مسجد « الحاكم » ثم شكلت لجنة لحفظ الآثار العربية قامت باعمال باهرة في سبيل انقاذ المساجد العديدة والمنازل الاثرية من التلف . وفي عام ١٩٠٣ شيد بناء خاص بالمتحف العربي تعرض فيه مجموعاته الثمينة وقد اتسع نطاق هذا المتحف اتساعاً كبيراً فقد كان عدد قطعه المعروضة في عام١٩٢٥ نحو ٧٠٠٠ قطعة فأصبح عددها اليوم ١٢٠٠٠ قطعة من الرخام والاحجار والاواني والخشب المطعم والنحاس والفسيفساء والاقمشة والسجاجيد والخطوط العربية ومصابيح الزجاج المشغولة بالميناء وهو يزداد شأناً بما يمنحهُ المصريون وعلى رأسهم الاسرة المالكة من هبات اثرية كالهبة الجليلة القدر التي تفضل جلالة الملك باهدائها اخيراً اليه

١١ — البعثات

أرسلت البعثات الى اوربا منذ عهد محمد علي الكبير ولكن نهضة البلاد استلزمت الاكثار من ايفاد البعثات الى اوربا لتهيئة العدد الكافي من الاخصائيين في مختلف مرافق الدولة حتى اصبح عددهم في سنة ١٩٢٨ (٥٤٤) عضواً

ولهذا وضع نظام ثابت للبعثات فتألفت اللجنة الوزارية الاستشارية لبعثات الحكومة من اعضاء يمثلون مختلف الوزارات تحت رآسة وزير المعارف ولتقرير ما تراه بشأن كل منها من حيث وجوبها والبلاد الواجب الايفاد اليها والدراسة التي تتبع واختيار طلبة البعثة والشروط الواجب توفرها فيهم . فزيد التدقيق في اختيار البعثات وقصرها على ما يراد به استكمال دراسة

علمية او عملية خاصة .او حذق صناعة مما لا يتوافر في مصر وبهذا اصبح عدد اعضاء البعثات اليوم ٢٣١ عضواً . على ان بعثات الجامعة المصرية ما زالت مطردة الزيادة لامداد كلياتها بالاساتذة الحاصلين على اعلى الشهادات في الفروع المتخصصين فيها

وقد قبلت الحكومة الفرنسية — السماح للطلبة المصريين الحاصلين على الدكتوراه في الحقوق بان يدخلوا مسابقة «الاجريجاسيون» لنيل لقب «اجريجيه» في القانون كما ان بعض الجامعات في انجلترا مثل جامعة كمبردج وجامعة ادنبره تعترف بدرجات الجامعة المصرية مما كان له اكبر الفضل في تمكين اعضاء بعثة الجامعة من التحضير للدرجات العليا في وقت قصير مما انتج احسن الاثر في تقوية الرابطة واحكام الصلة مع تلك الجامعات

١٢ — الجامع الازهر والمعاهد الدينية

للجامع الازهر مكانة سامية بين جامعات الشرق حيث يؤمه الطلاب من جميع البلاد الاسلامية ويتزود بالعلم فيه آلاف عديدة من ابناء البلاد المصرية

وكان لهذه المكانة أثرها في تنظيم هذا الجامع والمعاهد الدينية الملحقة به فأصبحت تدرس فيه العلوم الحديثة بجانب علوم الدين واللغة وانشئت فيه كليات للدراسة العالية وأقسام للتخصص فيها

كما انشئت بالازهر وملحقاته ابنية فخمة على احدث طراز في الجامعات تهيء للدراسة في مراحلها المختلفة وأبنية اخرى لسكنى الطلاب وللادارة وللمحاضرات وللمكتبة ومستشفى للطلاب

وقد صدرت القوانين المنظمة للازهر والكليات والمعاهد الملحقة فأدخلت بذلك تعديلات واسعة النطاق في قانونه شملت الاقسام الابتدائية والثانوية والعالية وأقسام التخصص . وأساس هذه التعديلات الرغبة الاكيدة في رفع مستوى التعليم في الازهر وجعله — بجانب كونه اعظم جامعة دينية اسلامية — يتمشى مع روح العصر الحاضر بما يوفر عند الطلاب مجال البحث والاستنباط ويعينهم على تفهم اسرار الاحكام الشرعية ويعدهم ليكونوا رجالاً يستطيعون الاضطلاع بالعبء الكبير الملقى على عواتقهم في خدمة اللغة والدين والقضاء . وكان لهذه العناية الكبرى بالازهر ومرافقه اثرها في رفع ميزانيته في العهد الاخير من سبعين الفاً من الجنيهات الى مائتين وستين الفاً

ويبلغ عدد طلبة الازهر والمعاهد الدينية حوالي عشرة آلاف وعدد طلبة التخصص من العلماء ٣٠١ وعدد المدرسين ٦٢٠ . ومن بين طلبة الازهر حوالي سبعمائة من الغرباء الوافدين من جاوة والهند والصين والافغان والتركستان والاناضول والشام وبلاد العرب والصومال وجنوب افريقيا وأميركا

تطور حياتنا العقلية

لأحمد لطفي السيد باشا
مدير الجامعة المصرية ووزير المعارف سابقاً

س ١ — ما هي اهم مظاهر الخلاف بين الحياة العقلية لهذا الجيل الذي تشرفون على تنشئته وبين الجيل الذي عشتم فيه كطلاب يتلقون العلم ؟

س ٢ — ما هو الفرق في الدراسات العلمية بين الاساليب الجامعية الحاضرة ، وبين اسلوب الجامعة الاهلية التي ورثتها هذه الجامعة ؟

س ٣ — ما هي الطريقة المثالية التي تقترحون أن تكون عليها الصلة بين حياتنا العلمية وبين الحكومة

ج ١ - الجيل الذي عشنا فيه كانت الفكرة العامة عند الطلبة وعند أولياء أمورهم هي الفكرة التي حدت بالحكومة وقتئذ إلى إنشاء درجات مختلفة للتعليم ، وهي إعداد موظفين يقومون بادارة الماكينة الكبرى للحكومة سواء أكان ذلك في مدارس الحقوق أم الهندسة أم الطب الخ الخ

ولم يكن يخلو من هذه الفكرة بعض الخلو إلاّ الجامع الأزهر فلقد شهدت فيه طلبة يقضون عمرهم في تعلم العلم للعلم وتبركاً به ، وحسبة له ، وزلفى إلى الله تعالى . وإن كانت فكرة اتخاذ العلم طريقة لجلب الرزق لم تكن غريبة عن أذهان بعض طلبة الازهر . لكن ذلك كان على قلة لا على كثرة

هذا هو الفرق الاساسي بين فكرة التعليم في ذلك الجيل وبين الفكرة فيه الآن وهي الفكرة القائمة على ان يكون الغرض منه التعليم لا الاداة للاستخدام في الحكومة بل تكوين جيل جديد له من التربية الاصلاحية والمكانة العلمية ما يسمح له بالمزاحمة بنجاح في الحياة العملية غير ان أفكار الناس — كما تعرف — لا تتغير من النقيض إلى النقيض في زمن محدود ، بل الفكرة القديمة لا تزال تعترك في الجيل الحاضر مع الفكرة الجديدة ولا يزال أولياء أمور الطلبة

يشون مع الاسف في نفوس أبنائهم أنهم إنما يعلمونهم ليعدوهم للحكومة ولكن من اولياء الطالبة من يعلم ابنهُ ليحسن التكوين ويتم عليهِ ملكاته ، وينمي مواهبهُ . وعلى ما أرى أن هذه الفكرة هي القائمة الآن في نفس الحكومات المتتالية التي تلي أمر مصر في هذا الجيل اذ ينفقون على العلم بسخاء ، مع ان الحكومات تكاد تستوفي ما يلزمها من المتعلمين

هذا هو الخلاف على نحو عام ، ولكن الانحاء الخاصة المتعلقة بخطط التعليم وبرامجهِ فانها تخالف بعض الشيء الخطط والبرامج القديمة تبعاً لتغاير الفكرتين الاساسيتين اللتين تسودان التعليم في الجيلين

ج ٢ — الجامعة القديمة الاهلية لم تكن الاَّ محاولة لايجاد جامعة بالمعنى الخاص ، ولذلك ليس بين الاسلوبين في التعليم فرق جوهري

ج ٣ — الواقع ان لي مذهباً خاصًّا في هذا المعنى يرجع الى ما درجت عليهِ من اعتناق مذهب سياسي خاص هو مذهب « اللبراليزم » اي مذهب اهل السماح ان شئت وحسن اعتقادي في هذا المذهب الذي يقوي حرية الفرد ، ويكره ان تتسلط عليهِ الجماعة الاَّ عند الضرورة القصوى للاجتماع ، ويحدُّ حرية الحكومة لا في التشريع فحسب بل في المداخلة في الاعمال العامة هذا المذهب قد يقتضي مثاله الأعلى أن تقتصر الحكومة على مرافق ثلاثة من مرافق البلاد :

١ — الدفاع عن البلاد في الخارج بالجيش

٢ — والقيام على الامن العام بالبوليس

٣ — واقامة العدل بين الناس بالقضاء

وما عدا ذلك من مرافق الدولة كالتعليم العام ، والصحة العامة والاشغال « العمومية » كل ذلك ينبغي ان يكون من عمل الافراد والشركات والجمعيات الحرة . وكنت اعتبر ولا ازال اعتبر ان تدخل الحكومة فيهِ سببه الضرورة اي عدم وجود من يقوم بهِ. ولكن مع الاسف ارى أن مذهبنا هذا قد انهار في جميع انحاء العالم رأساً على عقب وطاف بالعالم طائف من الاشتراكية بأنواعها المختلفة يجعل الحكومة تضع أنفسها في كل شيء حتى في داخل البيوت ، ولا سبيل الى الوقوف في هذا التيار الجارف . فاذا سمعتني اقول باستقلال الجامعة ، واذا سمعت الحكومة تقول باستقلال معهد فاروق ، فذلك ليس الاَّ استقلالاً نسبيًّا ما دامت الضرورة من ناحية ، « والمودة » العالمية من ناحية اخرى تعطي الحكومة حق التدخل في كل شيء

فالصلة المثالية التي تسأل عنها صعبة التحديد ما دامت الحكومة هي التي تنفق من خزانة الدولة على التعليم العام ، وما دامت الافكار العالمية متجهة ذلك الاتجاه الذي ذكرت

تطوُّر التعليم
في الازهر

لفضيلة الاستاذ الاكبر
محمد مصطفى المراغي

١ — شعر المهيمنون على التعليم في الازهر منذ وضع القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ بأن الازهر أخذ يضيع أهم خصائصه ومميزات تعليمه ولم تخل تقارير لجان الامتحان ولا تقارير المفتشين في سنة من السنوات من الشكوى من اعتماد التلاميذ على الاستظهار ومن ضعف ملكاتهم العلمية وقد توالت على هذا القانون تعديلات آخرها التعديل الذي ادخل عليه بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ وهو أظهر تعديل طرأ عليه ففي هذا القانون قسم التعليم العالي الى ثلاث كليات واحدة لعلوم اصول الدين وثانية لعلوم الشريعة وثالثة لعلوم اللغة العربية ووجد تخصص سمي تخصص المادة وآخر سمي تخصص المهنة. وقدكان الغرض من هذا تفرغ كل طائفة من التلاميذ في التعليم العالي والتخصص لطائفة من المواد الكثيرة التي كانت تدرس مجتمعة حتى يتيسر اتقان الدرس والفهم واتقان التحصيل ، ومع هذا ظلت الشكوى قائمة وظهر ان الداء الذي يجب ان يحسم ويستأصل هو ضعف التلاميذ في القسم الثانوي بسبب كثرة المواد وبسبب طول المناهج في بعض المواد التي لايحتاج الطالب في الازهر الى طول المنهاج فيها فهذه الكثرة وهذا الطول لم يدعا وقتاً لهضم الدروس وتمثلها ولم يدعا وقتاً لطول التفكير والبحث والجدل وتنمية ملكات العلوم والاستنباط

٢ — وقد يعيننا على تصوير الحقيقة في هذا الموضوع وعلى الحكم بأن القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ كان ضرره اكبر من نفعه ان نرجع الى الماضي قليلاً ونستطلع ما كان عليه الازهر فقبل القانون الصادر بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٣١٤ (اول يوليو سنة ١٨٩٦) كانت العلوم التي تدرس في الازهر ويمتحن الطلبة فيها لنيل شهادة العالمية هي : — الاصول — الفقه — التوحيد — الحديث — التفسير — النحو — الصرف — المعاني — البيان — البديع — المنطق

وكان الطلبة يقضون في تحصيلها مدداً طويلة أقلها خمس عشرة سنة ولا حدَّ لاكثرها ومع أنها كانت تدرس في كتب سقيمة من المختصرات التي لا تفهم إلاَّ بشروح وحواشي والتي تحتاج

الى جهد شاق في حل ألفاظها وبيان وجه دلالتها وتصحيح وجوه هذه الدلالة فان الطلبة كانوا يقدرون على الاستقلال بدراسة الكتب ويقدرون على فهمها وكانت تنمو فيهم ملكات البحث والجدل ، نعم أنهم على الجملة كانوا بعيدين عن الاساليب العربية في الكتابة والخطابة بعيدين عن تذوق أسرارها غير متصلين بأسرار الدين اتصالاً وثيقاً فإن دراسة الفقه كانت دراسة جافة ودراسة التفسير والحديث كانت دراسة ضعيفة ودراسة علوم البلاغة كانت قاصرة على كتب غمرتها الفلسفة وبعدت في أساليبها عن الاساليب العربية ، وأكثر من هذا أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن المعارف الضرورية التي لا يسع أحداً جهلها في هذا العصر مثل الجغرافيا والتاريخ ومبادىء الهندسة والحساب ومبادىء الطبيعة والكيمياء

والازهر كما هو معلوم قبلة أنظار المسلمين في العالم يفد اليه الناس من مشارق الأرض ومغاربها واسمهُ يدوي في الآفاق والحكومة في حاجة اليه لأنهُ الينبوع الذي يؤخذ منهُ القضاة والمفتون

٣ — كل هذا كان سبباً في حرص الغيورين من رجال الأمة ورجال الحكومة على تلمس وجوه الاصلاح ولم يكن من الميسور أن يكون إصلاح الأزهر سهلاً لاعتبارات تقليدية تاريخية ولم يكن من الجائز أن يسلك في إصلاحه ما يسلك في تنظيم المدارس المدنية ، بل كان يجب أن يتناوله الاصلاح برفق وأن يكون باضافة القدر الضروري من المعارف وباصلاح طريقة التعليم وباختيار الكتب وبتوجيه هذه القوى الجبَّارة الى جوهر العلم وأسرار الدين وأسرار العربية

وهذا الذي أشرت اليه هو الذي لاحظهُ واضعو قانون سنة ١٨٩٦ فضمنوه من وجوه الاصلاح ما رأوه كفيلاً بأنهاض الازهر وكان من حسن الحظ إذ ذاك أن الذي قام على تنفيذ هذا القانون مجلس إدارة يضم طائفة من العلماء خلصت نيتهم وتوافرت لديهم وسائل التنفيذ وهم المشايخ حسونه النواوي. محمد عبده. سليم البشري. عبد الكريم سلمان. سليمان العبد. أسبغ الله عليهم واسع رحمته ورضوانه

أضاف هذا القانون مواد جديدة هي الأخلاق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض والقافية وجعل التاريخ الاسلامي والانشاء ومتن اللغة ومبادىء الهندسة وتقويم البلدان مواد يفضل محصلها غيره ويقدم عليه ، وفك التقيد بكتب دون اخرى وحرَّم قراءة الحواشي في السنوات الاربع الأولى وحرَّم التقارير التي على الحواشي وجعل من اختصاص مجلس الادارة أن يعدل في مواد التعليم طبقاً لما يراه من المصلحة

سار الأزهر على هذا النظام عشر سنوات سيراً متئداً متزناً لم تطغ فيه المواد الجديدة على المواد القديمة لأنها أخذت بمقدار يناسب حال الأزهر ونشطت دراسة العلوم الدينية والعربية بما كان يعطى للطلاب من المكافآت السنوية وبما كان ينتشر فيهم من أفكار المرحوم الشيخ محمد عبده في دروسه ومجتمعاته وانفرط عقد النظام بخروج الشيخ عبده من مجلس الادارة ثم بوفاته سنة ١٩٠٥ رضي الله عنهُ

٤ — جدت بعد ذلك أحداث وفتن وعولت الحكومة على إنشاء مدرسة للقضاء فصدر بها قانون في سنة ١٩٠٧ وشعر الأزهريون بأن الحكومة أصبحت في غنى عنهم لأن لها مدرسة لتخريج معلمي العربية في مدارسها ومعاهدها ومدرسة لتخريج القضاء وخاف القائمون على الأزهر من تملص شأنه ومن عدم إقبال الناس عليه حيث لم يبق بعد ذلك للعلماء الاَّ وظائف الإمامة والخطابة في المساجد ولم يبق طلاب العلوم الدينية على عهدهم الاول يطلبون العلم للعلم وابتغاء رضوان الله بل جدت فيهم نزعات التمتع بالحياة الدنيا وأصبحوا لا يقنعون بالرزق القليل الذي كان يجري عليهم من ريع الاوقاف المحبسة ففكروا وفكر الناس معهم في إعادة تنظيم الازهر على مثال مدرسة القضاء ومدرسة دار العلوم بل على مثال يوجد للدراسة مواد أكثر ومناهج أطول وانتهى الامر بهم الى وضع القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ وكثر الاقبال على الازهر ووجدت معاهد أخرى في عواصم المديريات وبعض المحافظات جرت على نهجه وسرت عليها نظمه حتى صار عدد الطلاب في سنة ١٩١٧ أكثر من عشرين ألفاً

٥ — كثر عدد الطلاب وكثرت المعاهد وتنافست في نتائج الامتحان وكل معهد يحاول ان يسبق غيره من المعاهد لا في اتقان الدراسة ولكن في إعداد الناجحين ولم يكن من الميسور أن يكون كل المعلمين لهذه الاعداد الكثيرة وعلى هذه النظم الجديدة من الكفاية بحيث تكون النتائج مرضية واضطرَّ الطلاب ليفوزوا بالنجاح في الامتحان التحريري الى ان يعتمدوا على الحفظ والاستظهار واستهانت المعاهد بالامتحان الشفوي فتغيرت المعالم في الازهر وفقد الطلاب أهم مميزاتهم وخصائصهم التي أسلفناها صدر البحث

٦ — ونحن إذ نحاول اصلاح الازهر نريد ان نوجد طالباً يفهم مسائل العلوم فهماً صحيحاً ويفهم أغراضها وصلتها بأدلتها وصلتها بعضها ببعض ويستطيع التطبيق على الجزئيات ويستطيع الاستنباط والتدليل ويستطيع فهم الكتب القديمة التي ألفت في العصور المختلفة في جميع الفنون الاسلامية

واني على بغضي لا كثر الكتب التي ألفت في العصور المتأخرة أكره من الطلاب أن يعجزوا عن فهمها لان فيها خيراً كثيراً ودقائق لا يصح الجهل بها لذلك أحب ان يستطيع الطلاب فهمها ويقدروا على حلها . نعم اني لا أحب أن تدرس العلوم على هذه الكتب بل أحب ان توجد كتب في جميع الفنون حديثة على أسلوب عربي صحيح مناسب لأذواق الاجيال الحاضرة تهذب فيها المسائل على أحسن ما وصل اليه التحقيق العلمي ، وأن تحيا الكتب القديمة الجيدة في الاسلوب والوضع فهذا الميراث العظيم يجب ان يؤخذ كله سلسلة متصلة الحلقات

هذا الذي نحاوله بالتجديد يجب على ما أرى أن يضعه الناس أمامهم وأن يجدُّوا للوصول اليه وهو غاية يذل في جانبها كل جهد ويرخص في سبيلها كل ما يبذل للوصول اليها

٧ — ولقد كان أسلافنا أشد الناس عناية بالعلم فلم يمض الزمن القليل حتى أخذوا علم اليونان وأدب الفرس وحكمة الهند واستعانوا بذلك كله في تفسير القرآن وفي وضع علم الكلام على الاسس التي نراها في مثل المواقف والمقاصد واستعانوا به في تنظيم مسائل العلوم جميعها فلم يخل علم من اثر للفلسفة والمنطق ولقد كانت لهم محاولات جديرة بالاعجاب في التوفيق بين الدين ونظريات الفلسفة وقد أخذ العلم يسير في هذا العصر سيرة جديدة وتغيرت نظريات الفلسفة وجدت نظريات أخرى وكان من شأن ذلك كله ان توجه حملة على الاديان جملة وعلى الاسلام خاصة وصار من الواجب الحتم على العلماء المسلمين أن يحيطوا علماً بكل ما يوجه الى الاديان عامة والى الاسلام خاصة من مطاعن وان يردوا تلك المطاعن ويذودوا عن عقيدتهم بأدلة ناصعة وأسلوب مقنع ممتع ليبلغوا المتعلمين تعليماً مدنيًّا في حظيرة الاسلام وليضموا اليه افراداً وشعوباً من الامم التي لها قدم راسخ في العلم

وهذا لا يتم لهم على ما ينبغي الا بالاتصال بغيرهم اتصالاً علميًّا وبتعرف اللغات الحية التي يكثر فيها الانتاج العلمي والتي يتناول بها العلماء مسائل الاسلام ومسائل اللغة العربية لذلك وجب أن يكون لاهل الازهر نصيب من هذه اللغات وأن تدرس تلك اللغات لأهله ، وهناك فائدة أخرى لتعلم اللغات وهي انها تساعد على معرفة طريقة وضع الكتب وعلى معرفة الاسلوب الحديث في التأليف والتفكير وطريقة عرض المسائل على انظار المتعلمين

٨ — قلنا في الفقرة (٢) ان ضرر القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ أكبر من نفعه والان نقول انهُ لم يخل من الفائدة لأن تعلم التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادىء الطبيعة والكيمياء قرَّب تلاميذ الازهر من تلاميذ المعاهد الاخرى وغير عقليتهم ووسع أفقهم وجعلهم ينظرون الى غيرهم نظرة غير النظرة الاولى أيام كان الازهري لا يرى أحداً أهلاً للعلم غيره ولا يرى احداً يصح ان يطلق عليه لقب عالم غيره ، وادخال المطالعة والمحفوظات والانشاء أوجد من اهل الازهر عدداً كبيراً من الكتاب والشعراء ومكن لهم من القدرة على الخطابة والوعظ ، نعم ان الرقي العام في المجتمع المصري وفي الصحافة وفي الكتب المؤلفة حديثاً وكثرة المطبوعات القديمة القيمة له احسن الاثر فيما نراه من اثر لصلاحهم لكن مما لا شبهة فيه ان الدراسة لها الفضل الاكبر

٩ — ولا ندّعي أن اصلاح القانون وتنفيذ هذا المشروع يحقق الاغراض التي نرمي اليها ويوجد الطالب الازهري الذي نبتغيه بل أن الذي يحقق هذه الاغراض الرغبة الصادقة في التعلم والعزيمة القوية على احتمال الجهد والصبر لقطع مراحل التعليم في هدوء وطمأنينة والايمان بأن العلم عزيز يقتنى وحلية للنفس ومتعة للعقل وجمال لمن يتصف به . والحرص على الافادة والتعليم والايمان بأن ذلك فرض للعلم واجب لله ولرسوله وللمؤمنين والشعور بلذة الانفاق من العلم وأن الانفاق منهُ يزيد في الثروة ويشبع نهم النفس التواقة الى الغنى وأن هذه الثروة خيرٌ مما هو مخزون في خزائن الاغنياء

التعليم الجامعي

للدكتور طه حسين

اخص ما يعنيني من ألوان التطور التي مست التعليم منذ أعان الاستقلال السياسي لون واحد هو مضي التعليم في السبيل الجامعية . وأريد بهذه السبيل شيئين : احدهما يتصل بالتعليم نفسه والآخر يتصل بالمعلم

وظاهر جداً ان انشاء الجامعة قد احدث في حياتنا التعليمية حدثاً عظيماً ظهرت بوادر آثاره ولكنها ستظهر قوية واضحة بعد زمن ما . وهذا الحدث هو فرض حرية الرأي على المثقفين المصريين . فقد أدخلت مناهج البحث الحر عن حقائق العلم والادب لاول مرة في التاريخ المصري الحديث وانتجت هذه المناهج ما لم يكن بد من انتاجه من الاضطراب ، فتعرضت الجامعة لكثير من المقاومة الشعبية والحكومية ، ولكنها انتهت آخر الامر الى شيء من الفوز ان لم يكن واضحاً كل الوضوح فهو محقق وسيزداد مع الزمن

***

وليس من شك في ان الرأي العام المصري قد اقتنع الآن بان الرأي العلمي والادبي يجب ان يستمتع بحظ عظيم جداً من الحرية والذين يقاومون هذه الحرية الى الآن انما يقاومونها على استحياء وفي شيء من الحيطة والتحفظ . فمن الممكن الآن ان يقال ان المناهج الجامعية قد فازت بالاستئثار بالعقل المصري ولا بد من الانتظار لنرى نتائج هذا الفوز . فلم تكن المرحلة الاولى من حياة الجامعة الا مرحلة صراع ودفاع قد انتصرت فيهما من غير شك

اما من جهة المعلم ، فليس اثر الجامعة أقل خطراً . فقد ألغيت مدرسة المعلمين ، وقامت

الجامعة مقامها في اعداد المعلم وتثقيفه الثقافة العلمية والادبية ومعنى هذا ان التعليم الحر الطلق القائم على البحث الدقيق قد قام مقام التعليم المقيد الجامد المحصور بين دفتي البرامج الخاضع للتفتيش، وسلطان المفتشين . وقد لا تظهر آثار هذا التطور الآن لان الذين اخرجتهم الجامعة لم يصلوا بعد الى مناصب التعليم . ولا ينتظر ان يصلوا اليها قبل زمن يقصر او يطول

ولكن هذه الآثار ستظهر جلية من غير شك يوم يتاح للجامعيين ان ينهضوا بمهمة التعليم في المدارس الثانوية. وستكون هذه الآثار خيراً كلها. وسيكون اظهرها ان المعلم الحر سينشىء تلميذاً حراً . وان العقل الطلق سيهيء عقولاً طلقة

وواضح ان الفكرة الجامعية تلقى من هذه الناحية مقاومة كالتي لقيتها من الناحية الاخرى ولكن هذه المقاومة التي يشقى بها الجامعيون مقاومة ماكرة خفية يدبرها اصحابها فيحسنون التدبير دفاعاً عن انفسهم ليست لها ماكان للمقاومة الاولى من الصراحة والتصور لطبيعة الاشياء

فالجامعيون الآن يُصدّون عن التعليم لا لان التعليم ليس في حاجة اليهم بل لأنهم جامعيون يشفق منهم ممثلو النظام القديم على انفسهم ومكاناتهم وهذا الشقاء المؤقت الذي يحتمله الجامعيون هو مظهر واضح لقوتهم الحقيقية ، واي قوة اقوى من ان تكون مخوفاً تتقى ، ويدبر لك الكيد

وهناك مقاومة اخرى شديدة الخطر على الجامعيين ، وهي تأتي من خضوع معهد التربية للنظام البيرقراطي العتيق في وزارة المعارف ، فقد انشيء هذا المعهد بعد الغاء مدرسة المعلمين ليكون ملائماً للحياة الجامعية الجديدة ولكن الخطأ الاول كان في اتباع هذا المعهد لوزارة المعارف لا للجامعة . ذلك ان القديم لا ينشيء جديداً ، وان القيود لا تنشيء حرية ، فلم يكن بد من ان يتأثر معهد التربية في نظمه وتعليمه بكل ما في وزارة المعارف من عيب

ومن حيث إن الجامعيين يقضون في هذا المعهد سنتين ، فهم معرضون فيه لبعض الشيء ولكن طبيعتهم الجامعية إلى الآن قد خرجت من هذه المحنة ظافرة ، محتفظة بجامعيتها

وانا واثق بأن التطور الذي ضمَّ الهندسة والزراعة والتجارة إلى الجامعة سينتهي حتماً بضم معهد التربية ايضاً الى الجامعة ويومئذ يتم النصر للفكرة الجامعية في التعليم ، وفي اعداد المعلمين والزمن وحده كفيل — ولكنهُ كفيل بالتحقيق لا بالظن — ان يمكن للجامعيين فيسيطروا على التعليم الثانوي . ويومئذ تستطيع مصر ان تنتظر من التعليم الجديد الخير كل الخير

البحث العلمي

في مصر

للدكتور على مصطفى مشرّفة

استاذ الرياضة التطبيقية بكلية العلوم

ليس البحث العلمي غريباً عن ديارنا فهي مهده الذي نشأ فيهِ وترعرع وهي بيته الذي آواه في عصور متعددة . واليوم يعود العلم إلينا بعد غيبة طويلة فما أخلقنا بأن نعنى بأمره ونرعاه . وما اجدره بأن يستقر بيننا ويطيب لهُ المقام . ففي مصر اليوم نفر غير قليل من المشتغلين بالعلوم يلذ لهم البحث والاستقصاء ومنهم من يوفق إلى الكشف عما خفي من المسائل العلمية والاضافة الى المعرفة البشرية كما يفعل اقرانهم من علماء الامم المتحضرة . الاَّ اني لا أخفى على القارىء أنني غير مرتاح الى حال هؤلاء العلماء والقادة المفكرين غير مطمئن على مصير الجهود التي يبذلونها . ذلك ان هذه الجهود قد أتت في الواقع ونفس الامر نتيجةً لبعض ظروف استثنائية في تاريخنا المعاصر كان من شأنها أن حملت بعض الافراد على مغالبة النظم الموضوعة والتغلب عليها . ولكي يفهم القارىء كيفية ذلك سأرجع بهِ الى قبيل الحرب العظمى منذ نحو خمس وعشرين سنة . ففي ذلك الوقت كانت وزارة المعارف ترسل بعوثها الى خارج القطر وتحرّم على اعضاء هذه البعوث أن ينتظموا في الجامعات أو ان يدرسوا لنيل الدرجات الجامعية . ثم حدث أن ثارت نفس أحد هؤلاء الطلاب على هذا الحرمان فعارض مشيئة الوزارة وخرج على طاعتها ودخل الامتحان الجامعي ونال الدرجة فعاد الى مصر واضطهد ايما اضطهاد الاَّ أن خطوته الجريئة كانت خطوة لا مرجع فيها فاضطرت وزارة المعارف اضطراراً الى ان تسمح لسائر اعضاء البعثات بالحصول على الدرجة الجامعية التي حصل هو عليها ولكنها أصرت وتشبثت بأن لا يتعدى أحد هذه الدرجة مهما تكن مقدرته ومهما يكن استعداده ثم حدث أن ثار عضو آخر من اعضاء البعثات على هذا التقييد

فحدَّثته نفسه أن يتعدى مرحلة الدرس والامتحان الى مرحلة البحث والابتكار فقُيِّض لهُ النجاح على الرغم من الوزارة وعلى الرغم من تعنتها. وجاراه في ذلك نفرٌ قليل ممن طمحت نفوسهم الى ان يكونوا علماء باحثين . هؤلاء النفر القليل ومن على شاكلتهم هم القائمون بالبحث العلمي في مصر اليوم وهم الذين قلت عنهم إن ظروفاً استثنائية حملتهم على مغالبة النظم الموضوعة والتغلب عليها . فالمسألة كما يرى القارىء لم تخرج عن حد بعض مغامرات ناجحة ، وبعض جهود فردية صادف ان لاقت نجاحاً . صحيح انهُ بانشاء الجامعة المصرية قد وجدت بيئة صالحة بعض الشيء لنمو هذه المجهودات وتقدمها الا اننا نكون خادعين لانفسنا اذا تصورنا ان النظم والوسائل الحالية كفيلة بازدهار البحث العلمي في مصر او بتقويته . بل انني كثيراً ما اشعر بأن ما حدث ربما كان مجرد حركة وقتية مآلها الزوال السريع في جيل او جيلين . وتاريخنا الحديث مفعم بمثل هذه النهضات القصيرة الآجال كبارقة الامل لا تلبث ان تزول بل ان مثل هذه النهضة الزائلة هي بالضبط ما حدث اثر البعوث العلمية التي بعثها ساكن الجنان محمد علي باشا إلى اوربا منذ اربعة أجيـال

ذلك انهُ لـكي تنمو هذه المجهودات وتزدهر يجب ان توضع لها النظم الـكفيلة بحسن رعايتها وان تكوَّن لها اسس ثابتة تقوم عليها .فالبحث العلمي كـكل مجهود آخر في المجتمع الحديث لا يمكن ان يترك امره للصدفة او للجهود الفردية المتشعبة . والى القـارىء بعض الوسائل التي لا مفر من اتخاذها اذا شئنا أن نقوم بقسطنا من البحث العلمي بين الامم المتحضرة : —

(اولاً) انشاء مجمع لتقدم العلوم يضم الباحثين والمبتكرين في مختلف العلوم

(ثانياً) انشاء مجلس اعلى للبحوث العلمية تكون مهمته تشجيع البحث العلمي ورصد الاموال عليه وربط فروعه المتعددة وتوجيه البحوث التطبيقية والفنية للمصلحة القومية وللمصلحة العامة

(ثالثاً) العمل على ايجاد صلات علمية بين مصر والبلاد الاخرى عن طريق الهيئات الدولية القائمة وانشاء لجنة دائمة لهذا الغرض .

هذه امور ثلاثة اساسها تقدير البحث العلمي والعلماء الباحثين تقديراً صحيحاً فاما وجد هذا التقدير وتبعه التنظيم الذي أشرت اليه فصارت شجرة البحث العلمي شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء او بقي الحال على ما هو عليه الآن وإذن فقد اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار

المدارس في ربع قرن

من سنة ١٨٧٥ — ١٩٠٠

لامين سامي باشا

طرحنا على صاحب السعادة امين سامي باشا سؤالنا عن تطور التعليم في مصر ، واخترنا ان ننشر هذا البحث والاحصاء المرفق به لسعادته عن التعليم في فترة ربع القرن السابق على القرن العشرين اي من سنة ١٨٧٥ الى سنة ١٩٠٠ . ولاشك ان امين سامي باشا يعد من أئمة الباحثين في هذه الموضوعات بل يعد مؤلفه « التعليم في مصر » والبحوث الشتى التي اجراها في هذا الموضوع المرجع الاول عن شؤون التعليم حتى سني الحرب الماضية

في عهد الخديوي توفيق

في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ تولى الخديوي توفيق أمر البلاد ، وفي ٢١ سبتمبر من هذه السنة عين المرحوم رياض باشا رئيساً لمجلس الوزراء وبقي المرحوم علي باشا ابرهيم ناظراً للمعارف

وفي شهر مايو سنة ١٨٨٠ قدم تقريراً لرآسة مجلس النظار طالب فيه باصلاح التعليم لاسباب منها «ان المصالح الاميرية التي لم يمكنها ان تحصل على توظيف اشخاص بلغوا درجة اكمال التعليم تضطر ان توظف في اكثر الاحوال بعض تلامذة في خدامات ليسوا اهلاً لها ، ولا وصلوا الى درجة الاستعداد اللازم . ولا يمكن ان يجبر هذا الخلل إلاّ باتساع دائرة التعليم الابتدائي والمتوسط واعطاء الشهادات الدراسية التي لم يصرح للمدارس باعطائها للتلاميذ الى وقتنا هذا »

وقد أقرّ مجلس النظار مذكرة ناظر المعارف ؛ وما اشتملت عليه من مقترحات ورفع خطاباً للخديوي يلتمس فيه تشكيل قومسيون (لجنة) للنظر في رسم الخطة المثلى للتعليم وتألف القومسيون فعلاً في نهاية ذلك العام واعدّ تقريراً صدّره بالرأي الآتي:

« بعد ان فحص احصاء التعليم السابق درجه عن سنة ١٨٧٥ بمشروعنا هذا وقارنهُ بسكان القطر الوطنيين وقتها البالغ عددهم ٥٢٥١٠٦٢٨٧ نفساً قال ان هذا يدل على نقص كلي في التعليم الابتدائي الحالي ذي الدرجة المنحطة ، والتعليم بالكتاتيب فانهُ ناقص من جهة ، ولا قيمة

له من جهة اخرى» وتتلخص اقتراحاته في زيادة عدد المدارس واعداد المدرسين وفي ٢٨ مارس سنة ١٨٨١ صدر الامر العالي بتشكيل المجلس العالي للتعليم، واختص بالاشراف على جميع مسائل التعليم

وفي ختام سنة ١٨٨٥ قدمت نظارة المعارف لاول مرة تقريراً للخديوي ضمنته تفاصيل الاصلاحات التي اجريت في تلك النظارة خلال تلك السنة

واهم تلك الاصلاحات انها وضعت بروجرامات للتعليم الابتدائي والثانوي وأرسلت للمدارس الابتدائية والثانوية للسير على مقتضاها على سبيل التجربة وطلبت من مدرسيها ابداء ملحوظاتهم عليها. وراعت في وضع تلك البروجرامات ما حصل من التقدم في امور التعليم في اوربا في هذه الايام

واسفت لانه لم يتيسر لها ادخال التعديلات في بروجرامات التعليم العالي لأن كل مدرسة من مدارسه انشئت لغرض مخصوص . . . . . فلذلك وضعت بروجرامات تلك المدارس ونظاماتها تحت البحث والنظر وستعرض بعد اتمامها على اولي خبرة يفحصونها فحصاً دقيقاً لتقيل هذا التعليم من عثراته وتنشله من وهدته، وتجعله في الحالة المرغوب فيها حتى تنتج هذه المدارس كل الفوائد التي يتيسر لها انتاجها مع مراعاة الاحوال الخصوصية لهذه البلاد

وقد تمّ في السنة التالية هذا الاصلاح بانشاء قومسيون جديد بالاتفاق مع نظارة الاشغال فسنّ قانوناً وبروجراماً لمدرسة المهندسخانة . وفي ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٦ صدر قرار نظارة المعارف بناء على ما قرره مجلس النظار بالتصديق على قانون لمدرسة الحقوق تقضي المادة التاسعة عشرة منه «باعطاء دبلومات رسمية من الحكومة المصرية للممتحنين بها وان تنشر اسماء الناجحين في الجريدة الرسمية » وهو اول قانون قضى باعطاء دبلومات للممتحنين بتلك المدرسة

وقد ورد بتقرير امتحان تلامذة مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٥، وسنة ١٨٨٦ المكتبية الفقرة الآتية «وعلى ذلك فلا يطول بنا الزمن حتى نرى من تلامذة هذه المدرسة من يعادل اعظم تلامذة مدارس اوربا»

وفي ٢٤ ابريل سنة ١٨٨٦ صودق على بروجرام مدرسة المعلمين التي سميت فيما بعد بمدرسة المعلمين التوفيقية. وفيها رتبت لاول مرة درجات موظفي نظارة المعارف ومدرسيها وجعل اول مبدأ لاقل درجة للمدرسين ٤ جنيهات في الشهر وأعلى درجة ٢٥ جنيهاً واقل درجة للضباط ٥½ جنيهات وأعلى درجة ٨½ جنيهات في الشهر، واقل درجة للنظار ٨ جنيهات في الشهر وأعلى درجة ٥٢ جنيهاً في الشهر . وفي ٨ فبراير من سنة ١٨٨٧ بناء على ما قرره مجلس النظار صدر قرار باعتماد قانون مدرسة الفنون والصنائع. وفي هذه السنة نفسها نظمت الدراسة الثانوية وتقرر اعطاء شهادة لها وكان من نتيجة هذا التنظيم ان قبلت المدارس الاجنبية وغيرها بالتدريج اتباع خطة التعليم الثانوي بمدارس الحكومة او خطة تقرب من خطتها

وكانت الشهادة الثانوية حتى سنة ١٩٠٦ عامة ثم قسمت المواد الى قسمين . ادبي وعلمي

وفيما يلي بيان بعدد الحاصلين على الشهادة منذ وجدت حتى الحرب العالمية ومنهُ يتضح مدى التطور الذي لحق بهذا النوع من التعليم

السنة	الشهادة العامة	السنة	الشهادة العامة
١٨٨٧	٤٢	١٩٠٢	١٣١
١٨٨٨	٥٥	١٩٠٣	١٢٥
١٨٨٩	٥٩	١٩٠٤	١٣٦
١٨٩٠	١١٥	١٩٠٥	٧٧
١٨٩١	٢٨		
١٨٩٢	٣٦		
١٨٩٣	٤٢		
١٨٩٤	٣٢		
١٨٩٥	٥٤		
١٨٩٦	٤٢		
١٨٩٧	٦٧		
١٨٩٨	٩٨		
١٨٩٩	٧٥		
١٩٠٠	٦٨		
١٩٠١	٨٢		

السنة	شهادة القسم الادبي	شهادة القسم العلمي
١٩٠٦	٢٥٧	١٠٩
١٩٠٧	١٦٦	٥٤
١٩٠٨	١٢٨	١٠٥
١٩٠٩	٢٢٨	١٠١
١٩١٠	٢٧١	١٤٨
١٩١١	٢٦٣	١٨٢
١٩١٢	١٩٥	١٧١
١٩١٣	٣٠٧	٣٠٥
١٩١٤	٢٤٠	٣٠٧

وزاد الاهتمام بمدرسة دار العلوم ، واعدت في سنة ١٨٨٨ لتخريج طلاب يصلحون لوظائف القضاء والافتاء والنيابة بالمحاكم الشرعية . وأُلحق بهذه المدرسة قسم لتخريج مدرسين أعظم كفاءة واغزر مادة من مؤدبي المكاتب الصغيرة ومن هذه السنة — اي سنة ١٨٨٨ — تقرر تدريس التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية بلغات اجنبية « لتقوية التلاميذ في هذه اللغات » . والغيت فيها مدرسة العميان والخرس . وفي سنتي ١٨٨٩ و ١٨٩٠ انشئت مدارس ابتدائية جديدة ومدرسة صناعية بالمنصورة كما فتحت اول مدرسة زراعية وهي خصوصية بها قسمان داخلي وخارجي ، واعطي لها ٣٠٠ فدان من اراضي الجيزة لتدريب التلاميذ فيها على الاعمال الزراعية . وكذلك حول قلم الترجمة الى مدرسة معلمين على منهج مدرسة المعلمين التوفيقية لتخريج مدرسين يعلمون اللغة الانكليزية

وفي ١٥ فبراير سنة ١٨٩٠ قدم المرحوم علي باشا مبارك مذكرة لتنظيم الكتاتيب بالطريقة الآتية

أولاً — وجود مكتب ابتدائي من الدرجة الثالثة في البلد الذي لا يزيد سكانهُ عن ١٠٠٠

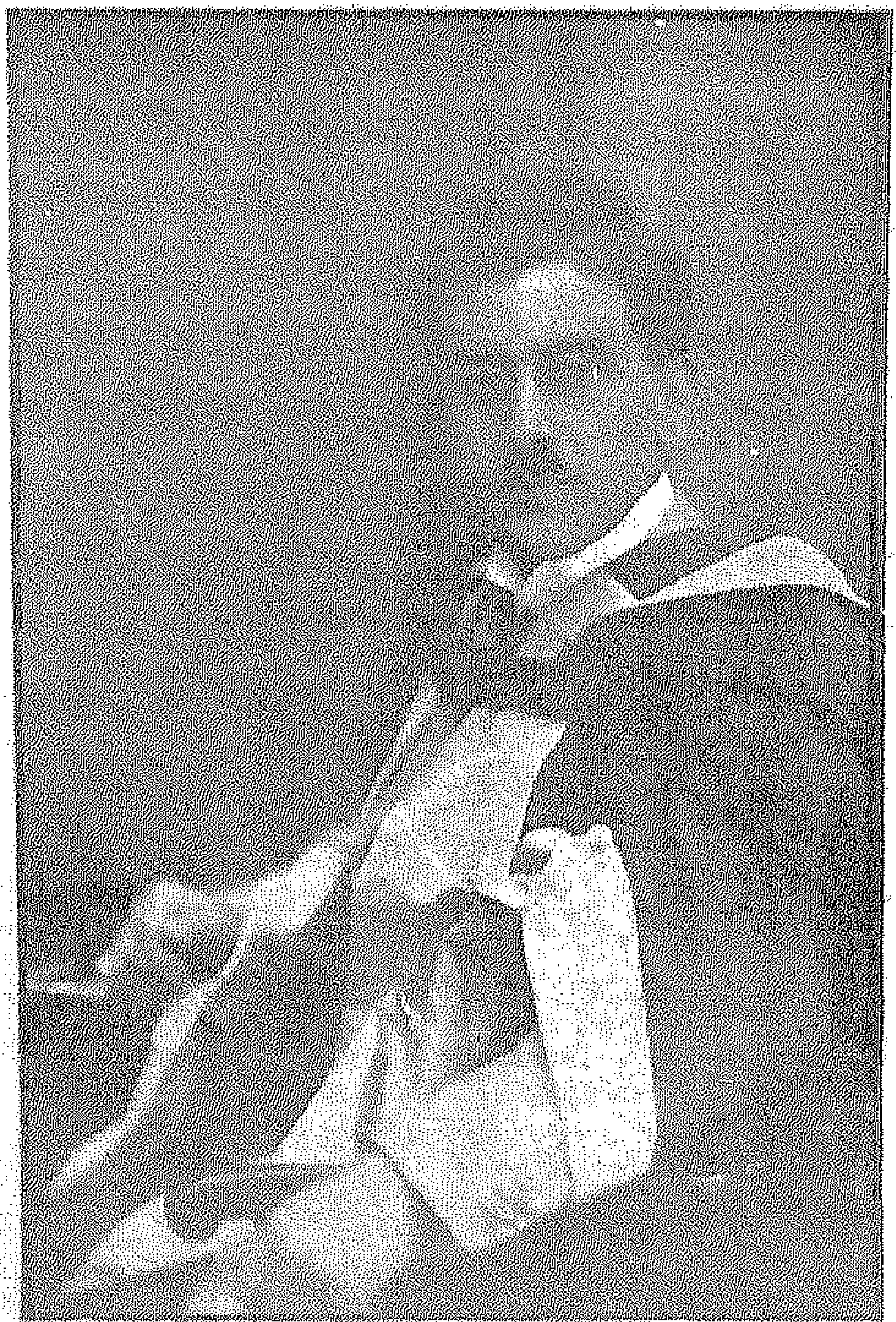

الدكتور علي مصطفى مشرفة

الدكتور طه حسين بك

أمين سعيد

اسماعيل مظهر

نفس ومكتب من الدرجة الثانية في البلد الذي سكانهُ يربون عن ١٠٠٠ نفس إلى ٥٠٠٠ نفس ومكتب من الدرجة الاولى في البلد الذي سكانهُ فوق ذلك

ثانياً — إنشاء ٥٠٠ مكتب في مدة عشر سنوات تصل نفقاتها بعد اتمامها إلى ١٥٠٠٠ جنيه سنويًّا

ثالثاً — إشراف مجالس المديريات على هذه الكتاتيب وإعانة الحكومة لها لصرف رواتب المعلمين وقد تمت الموافقة على هذه المقترحات ونص على عدم جواز افتتاح مكاتب للتعليم إلا بترخيص يصدر من وزارة المعارف . وفي سنة ١٨٨١ ألغي مجلس التعليم العالي تأليف لجنة علمية استشارية في نظارة المعارف . وفي هذه السنة صدرت لائحة شهادة الدراسة الابتدائية

في عهد الخديوي عباس الثاني

صعد الخديوي عباس باشا حلمي الثاني على أريكة الملك في ٨ يناير ١٨٩٢ وقد كثرت زياراته للمدارس وعنايتهُ بإيفاد البعوث العلمية . وأمر بإعادة تشكيل مجلس المعارف الاعلى في ٩ مارس ١٨٩٦

وجاء في تقرير اللورد كرومر الصادر في سنة ١٨٩٦ عن حوادث سنة ١٨٩٥ ما ترجمتهُ

« وفي اثناء العام الماضي حصل إصلاح مهم في قسم المعلمين المعروف بدار العلوم الذي غايته ان يرشح طالبيه لأن يكونوا معلمين بلغة هي لغة امتهم ولسان قومهم . وكان ذلك الاصلاح من وجهتيه الادارية والدراسية . فقد جمعتهُ مع اكبر المدارس الابتدائية بالقاهرة واكثرها نجاحاً (الناصرية) وحدة إدارية فأحيلت نظارتهُ على من هو اقدر النظار الوطنيين التابعين لنظارة المعارف حظاً من المهارة والمقدرة » . وانشئت في سنة ١٨٩٦ مدرسة الشرطة (البوليس) والادارة

وفي سنة ١٨٩٧ ادخلت في منهج التعليم الابتدائي دراسة الديانة والتهذيب والتربية

وفي هذه السنة وكلت الحكومة إلى ناظر مدرسة الناصرية (امين باشا سامي) بعمل احصاء رسمي دقيق للكتاتيب فكانت النتيجة ما يأتي :

عدد الكتاتيب	عدد المعلمين	عدد التلاميذ
٩٦٤٧	١٤٥٨٣	١٨٠ ٥٤٧

وكانت النسبة المئوية للمتعلمين بالكتاتيب المذكورة بموجب هذا الاحصاء من بالغي سن التعليم ما يأتي

	ذكور	اناث
المحافظات	٢٥ ٪	٢ ٪
الوجه البحري	٣٧ ٪	٥٧ ر٠ ٪
الوجه القبلي	٢١ ٪	٣٢ ر٠ ٪

ومما يستحق الذكر هنا ان المستر دجلس دنلوب تعين مفتشاً بنظارة المعارف وتبع ذلك تعيينهُ سكرتيراً عمومياً للادارة في ٨ مارس سنة ١٨٩٧ . وفي سنة ١٩٠٠ انشئ قسم المعلمات بالمدرسة السنية

لذكرى يعقوب صروف احياء
لماض مفعم بأسمى الذكريات

العلم والاجتماع

رسالة المقتطف وأثره

لاسماعيل مظهر

أوقف الدكتور يعقوب صرّوف حياتهُ على خدمة العلم، متخذاً من المقتطف، التي تكمل بهذا العدد سنيها الستين، ميداناً لجولاته الواسعة ونظراته الثاقبة وجهوده المتواصلة. وإنما يدل على انهُ اوقف حياته على العلم ذلك الصبر الطويل والايمان الثابت بما سوف يكون للعلم من شأن في الشرق العربي، في زمان كان كل ما حوله ظلام دامس، وجهل مخيم، وغفلة ضاربة بجرانها على كل نواحي الشرق، عند ما ارسل من المقتطف اول شعاع من اشعة النور اخترق تلك الظلمات، وكان ذلك منذ ستين سنة خلون، حتى فارق هذه الحياة، وهو مؤمن بقداسة الرسالة التي يؤديها لاهل جيله والاجيال المقبلة، إيمانه بها منذ ان بدأ العمل لها

ويكفي ان تلقي نظرة على الحالات التي قامت في الشرق في اواخر القرن التاسع عشر، لترى ان الدولة العثمانية، رجل اوربا المريض، كانت على فراش الموت تنزع الروح نزعاً اليماً طويلاً، ودولات اوربا من حولها كأنهنَّ نسوراً ينبشنَ جثة هامدة، فتقتطع منها الهبرة بعد الهبرة، وتلتقم منها الجزلة بعد الجزلة، والعالم العربي في سبات لاهٍ عن كل ما هو قائم من حوله من شؤون الدنيا، والجاسوسية تنخر في عظامه، وسوء الحكم يحلل من اوصاله، ويضرب في اصوله، ضرب جبار قوي الاصلاب

قال كاتب تركي: «لقد عوّدنا ان نلقن باننا عبيد الملك، ظل الله من فوق الارض، وانا له ملك ومتاع. وهذا يتضمن ضرورة الاعتقاد بانهُ ليس عندنا من شيء يمكن ان يقاوم خليفة الله المتربع من فوق عرش الارض، وانهُ لن يكون نظام اجتماعي أثبت اصولاً من نظامنا، ولا حياة دنيوية أسعد ولا أمتع من حياتنا. بينما كانت الحقائق الملموسة توحي الينا كل حين بان في انحاء مملكتنا فقراً وجوعاً، وان جزءاً بعد جزء من اطراف عاهليتنا يؤخذ عنوة ورغماً منا، نهباً واغتصاباً. وكانت لنا حكومة هي أضعف من احط الحكومات الاوربية، مترديه في حمأة الرشوة، مفككة الاوصال، مضطربة الاحوال، بعيدة عن حكم الشرائع والآداب»

في ظل هذه الحكومة نشأ يعقوب صرُّوف فآمن بالعلم في بيئة كفرت به ، وآمن بالانسانية في محيط انكرها ، وآمن بالعقل في ظل نظام لم يقم الا على الشهوات ، بل على أخس الشهوات . وكان من الطبيعي ان لا يجتمع الايمان بشيء والكفر به في وسط واحد ، فاعتزلهم وهبط مصر ، فحمتهُ بحرياتها واوسعت المجال لكفاياته العليا ، فأفرغ في سبيلها كل ما أودعتهُ الطبيعة من قوة الروح وسلامة العقل وقويم الخلق ، وخلف لها من بعده تراثاً تتوارثهُ الاجيال ثم الاجيال .

وفي ذلك الوقت قصر العلم في انحاء العاهلية العثمانية على ما كان يلقى بين جدران المساجد والتكايا من ضروب البدع التي دخلت الدين الاسلامي الحنيف ، وعكف الفقهاء وطلاب العلم على درس فروع من الفقه الاسلامي ما نزل بها كتاب ولا جرت بها سنة ولا سلم بها عقل . كأن يدور الحوار بين الفقهاء مثلاً في ان بقرة ولدت عجلاً يتكلم وحفظ القرآن ، أيجوز أن يصلي بالناس جماعة يوم العيد ؟ وهل يصح ذبحه وأكل لحمه بعد ان يؤدي بهم هذا الفرض إماماً ؟

وفي جو هذه الظلمات التي تساقطت على العالم الشرقي كسفاً شديدة السواد ، اخذ المقتطف يبشر للناس بمذهب النشوء والارتقاء ويأخذ بضلع من الملحمة القائمة من حول نظرية النشوء ونظرية الخلق المستقل ، وينقل آراء دارون وهكسلي ويناقش في آراء سنت جورج ميفارت مقاومهما العنيد وخصمهما اللدود ، وينتصر لنظرية النشوء والقول بان الانسان منحدر من صورة من البشريات احط من صورته التي تلابسهُ الآن ، والناس يرمونهُ بالكفر ويقولون بأن المقتطف انما يدعو الى القول بان الانسان اصله قرد ، على الضد مما تقضي به حقائق العلم ونظريات التطور نفسها ، ويشتد اللجاج بين الكتاب ويشمر السيد جمال الدين الافغاني عن ساعده ويمضي مبشراً بمذاهب خرقاء في العلم الطبيعي ويناقش في اشياء لا علم له بحقائقها ولا اتصال لثقافته بها ، ثم ينجلي الغبار الذي يثيره عن أن رأس البرغوث اذا نظر من خلال مجهر ظهر كأنهُ رأس فيل ، فهل يدل ذلك على ان الفيل اصله برغوث تضخم وانتفخ ، ثم تدرج في التضخم والانتفاخ حتى صار فيلاً !!

بمثل هذه الثقافة ، وبهذا القدر من الاستنارة ، كانت تناقش حقائق العلوم الحديثة التي يبشر بها المقتطف لاهل الجيل الماضي . وما كان للذين يميلون هذا الميل في مناقشات تدور حول نظريات حديثة ، قبلها الكثيرون من اهل اوربا بتحفظ شديد ، ان يكونوا يوماً من الايام عوناً على تحرير الافكار أو محاربة البدع أو صرف الناس الى متجهات جديدة تنقلهم من العقلية القديمة التي ورثوها عن قرون الظلامية القديمة Obscurantism بما فيها من تصوفية مريضة أو كلامية تقوم على الفروض الذهنية ، أو يعملوا يوماً على تقويم الخلق الانساني بما تقتضيه الانقلابات الفكرية والتصويرية التي خلقها العلم الحديث ، أو يدركوا ان لهذه العلوم اثراً في بحث حالات الاجتماع وتأثر الجماعات بمختلف ما في الطبيعة من مؤثرات

وكانت جماعات الشرق النائم في ذلك الحين ، قد انحلت روابطها الاجتماعية انحلالاً عظيماً ، ظهر أثره في خضوع هذه الامم لضروب الاستبداد الشديد والمظالم العتية التي انزلت بها اقسى ما يروي التاريخ من كوارث وملمات . واحاطت بها امم اوربا احاطة السوار بالمعصم ، تبث فيها دعايات مختلفات ، مكن لها ذلك الانحلال الاجتماعي ان تجد البيئة الصالحة للنماء والتمكن من طبائع اهل الشرق ، حتى لقد زين لاهل الرأي منا ، ان تلك الزخارف التي وصلتنا عن أوربا انما هي طريق الرقي والسداد ، وسبيل القوة والاستقلال ، في حين انها كانت العامل الذي قطع ما بيننا وبين ماضينا وحل آخر عقدة كانت تربطنا بثقافاتنا القديمة واخلاقنا القومية ، بعد أن عملت فيها يد الجمود ما عملت ، وبعد ان غشيها من غفلة الحكومات ما غشيها

وقد يتبادر الى البعض ان مظاهر الرقي الذي يبدو في افق كثير من امم الشرق في هذا العصر انما يرجع الى الدعايات السياسية او الى الصيحات التي قام بها بعض اصحاب الوطنية الملتهبة على ما لهم فيها من فضل ، وما خلفوا فيها من أثر . ذلك بأن الدعايات السياسية في الامم المستضعفة لن تجد لها سبيلاً الى القلوب أو العقول ما لم يقم في الانفس والاذهان حالة تحفز الجماعات الى العمل لاسترداد ما فقدت والاستمتاع بما يستمتع به غيرها من الناس ، فان حياة الامم وقياسها من حيث الرقي أو الفساد ، انما يكون دائماً بقدر تصوراتها . واذن تكون مظاهر الحياة اشباحاً معكوسة في الخارج من مجمل ما يقوم في الذهنية الجماعية من تصورات . وعلى قدر هذه التصورات يكون الحافز الذي يحفزها الى العمل . ولا شك في ان التصورات تقوم على العلم بما هي الحياة، وكيف يجب ان تكون ؟ وعلى قدر العلم بالشيء تكون ماهية التصور الذي يقوم في الاذهان

وما كان لنا ان ننسى أن تصوراتنا القديمة قامت على اشياء بعدت عن العلم الطبيعي وعن علاقة الاحياء بالبيئة التي ينشأون متأثرين بعواملها . ولقد ظل الشرق العربي قروناً طوالاً يقيم تصوراته على ما تضمنت الكتب القديمة من نظريات وفروض ، بعدت عن الطبيعة ، بعد الطبيعة عن ان تكون على قدر تلك العقول التي وضعت تلك الكتب . فظلت شعوب الشرق واقفة والدنيا من حولها تدور ، وانطوت في داخل تلك الصدفة التي أحكم اغلاقها تصورات الذين اقفلوا في وجه هذه الامم باب الاجتهاد ، فأوصدوا على العقول ابواباً فولاذية ، اتخذوا من مشاعر الجماهير وتصورات الجماهير وسيلة لايصادها ، فنزلوا بالعلم وبالدين وبالاخلاق وبكل ما سمى وجل من معاني الحياة ، الى مستوى ما تسبح فيها احلام الجماهير واهل الجهل والغفلة من اصحاب النفوذ والامراء والملوك ، ابتغاء تحقيق مآرب دنيا ، واستجابة لنفسية مريضة سقيمة ، سوّدوها على كل فضيلة ، وضحوا لها بكل معاني البر والتقوى

ولقد تناصرت على شعوب الشرق كل القوى التي كان من الواجب ان تأخذ بيدها : ملوكها

وامراؤها وحكوماتها والمسيطرون على الثقافة فيها . لهذا ترى ان قوة الدفع الى الهاوية كانت اعظم من ان تستقوى عليها شعوب مضللة مستعبدة اسلمت بأمور دنياها الى المستبدين ، وبأمور أخراها الى من لم يفكروا يوماً في ان يوحوا الى تلك الشعوب بأن لها ماضياً ، وان لها من العلم والادب والقوة تراثاً ، هو في الحياة سنادتها وعاصمها الذي ليس لها من عاصم سواه . ولقد ظلت هذه الشعوب القرون تلو القرون مستنيمة لحكم المستبدين راضية بأن تنهب وتستغل ، قانعة من الحياة بكسرات من الخبز ووشل من الماء . فأي حافز ذاك الذي حفزها الى النظر في الحياة هذه النظرة الجديدة ، ووجهها هذا التوجيه الانساني ، وجعلها تنظر الى الحياة نظر الموقن بأن لها فيها حقّـاً وان من حقها ان تفكر وان تكون حرة في تفكيرها وفي ان تختار من الحياة الوجه الذي يرضيها ؟ اي عصا سحرية ضربت تلك الشعوب تلك الضربة التي ايقظتها ونبهتها من سبات القرون المتطاولة ؟ لا شك في انها عصا العلم . فان العلم حر مطلق من القيود ، لا يؤمن الاّ بعد شك ، فاذا آمن كان ايمانهُ راسخاً وطيداً . هذا خلق العلم . وهذا هو الخلق الذي يغرسهُ الايمان الثابت بكل ما ينزل من العقل منزلة الاحترام والتقديس

ولقد كان من أثر ذلك ان شعوب الشرق قد نشطت الى العمل الجدي في سبيل تنظيم العلاقة التي تقوم بين الحكومة والمحكومين على اساس العقل والمصلحة العامة ، وأخذت تقاوم النفوذ الفردي مقاومة ظلت في كل الحالات رهناً على الظروف . فظهرت حيناً في ثوب حركات اصلاحية ، وحيناً آخر في صورة ثورات اتجهت نحو تقرير حقوق مدنية وسياسية حرمتها الشعوب ازماناً طويلة . ومن شأن العلم ان ينظم العقل وينظم الشهوات وينظم المطامع . ذلك بأن العلم يقوم على حقيقة اساسية هي تنظيم الصلات القائمة بين الحقائق تنظيماً يحدد لكل حقيقة منها موضعها الخاص الذي تشغله في نظام الاشياء . وعلى الجملة اخذ المصلحون القائمون على هداية هذه الشعوب ينظمون من الشؤون الاجتماعية والسياسية على مقتضى ما يقوم في عقولهم من تصور العلم وتنظيمه للعقل تنظيماً لا تضارب بين حقائقه ولا طغيان لناحية منه على اخرى . فظهر ذلك معكوساً في كل ما عملوا وسيظهر في المستقبل لابساً ثوباً جديداً من المرونة التي يمتاز بها الاسلوب العلمي ، على قدر ما سوف يكون للايمان بالعلم وأساليبه من اثر في حياة الجماعات

على اننا لا نقصد بذلك ان العلم اصبح المسيطر الاول على حالاتنا الاجتماعية ، او ان كل المصلحين الذين قاموا في الشرق ومنهم اجتماعيون وسياسيون ، قد تفقهوا بفقه العلم الصحيح ، او ان الشعوب انفسها قد ركز يقينها بالعلم على قاعدة عامة رشيدة . وانما جل ما نقولهُ ان انتشار الاسلوب العلمي في التفكير والادب ونشر الحقائق الثابتة التي توحي بها طبيعة الاشياء ، قد حوّل الفكرة في حق الشعوب من الحياة ، وزاد الضغط على الحكومات المستبدة ، فجعلها تشعر

بأن من الضروري ان تكيف موقفها ازاء المحكومين تكييفاً يتفق والاتجاه الجديد الذي اتجهت فيه العقول ، وجرت فيه الميول والعواطف ، اتقاء الارتجاج الاجتماعي والثورات الفجائية

ولسوف تجد مؤرخ المستقبل ، اذا اراد ان يقف على الاسباب التي هيأت الظروف لظهور هذه المتجهات الحديثة ، انه امام مشاكل اجتماعية عميقة ، لا بدّ له من الاكباب على درسها من طريق العلم . على انهُ سوف يجد في علوم الاحياء وعلاقتها بالمسائل الاجتماعية مرشده الامين الذي ينير له سبيل البحث في الحركات السياسية والاجتماعية التي قامت في خلال نصف قرن كامل ، ساغ جزءًا من القرن التاسع عشر، وجزءًا من القرن العشرين . ولسوف يرى ان تعليل الكثير من مظاهر التطور الاجتماعي التي حدثت في مدى هذه الفترة ، مستطاع من سبيل واحد ، هو الاكباب على درس المبادىء التي قررها العلم في عقلية الجماعات وفي علم النفس التحليلي والاجتماعي

على ان الشرق ان اراد ان يخطو الى الامام خطوات واسعة في سبيل الارتقاء الحقيقي وان يضرب في معارج التطور الثابت نحو حالات اسعد وأفضل ، فان من واجبه ان يجعل السياسة تابعة للعلم الاجتماعي ، القائم على حقائق العلم الطبيعي . فان السياسة في الشرق قد قامت الى الآن على نظريات بعيدة عن الاسترشاد بهدى العلم ، ومضت تتخبط في دياجير مظلمة من التقديرات والاعتبارات التي تقوم على غير اساس وطيد الدعائم من حقائق العلم . وكل سياسة لا تقدر العلاقة القائمة بين المتجهات التي تلوح في افق الحياة الاجتماعية وحقائق الطبيعة المخفية من ورائها، انما هي سياسة مرتجلة غير ثابتة ، سياسة لا تؤمن معها العثرات ، ولا تسلم من الكبو والشطط

فلا بدّ اذن من ان نربط بين السياسة وبين العلم ، وان نحكم الصلة بين السياسة وبين منهج اجتماعي نتخذه اماماً تأتمّ به السياسة في الاصلاح المدني . غير ان الطريق الذي مضت فيه اكثر امم الشرق حتى الآن ، لم يدل بعد على ان هذه الحقيقة قد اتخذت مكانتها اللائقة بها من عقول السياسيين والمصلحين . ودليلنا على هذا أن سياسة اكثر حكومات الشرق قد فقدت صفة اولية تجعل تنفيذ هذا المطلب ممكناً، وتلك هي صفة الاستمرار . ومن أصعب الاشياء ان يكون للعلم أثر في بيئة تتقلب بها الاهواء . وتتقلب فيها دورات الحظ بين ساعة واخرى . وفقدان صفة الاستمرار في سياسة أكثر الحكومات الشرقية هو السبب الاول فيما يقوم اليوم من مظاهر الانحلال الاجتماعي والتوثب الذي نستشعره جائلاً في الاماني والاحلام التي تساور انفس الشباب . ذلك بأن الاستمرار انما هو اتباع طريق مرسوم للاصلاح الاجتماعي يرمي الى غاية معلومة . فاذا فقدت السياسة هذه الصفة ، فقدت اعظم سنادة تمكنها من تخليف الآثار التي يستطاع من طريقها خلق حالات ثابتة ونظامات مستقرة ترضي مطامع شعوب استحدث الاسلوب العلمي في عقلياتها

طابعاً جديداً ، ووسمها بسمة لا عهد لماضيها بها ، وجعلها تنشد في الحياة غايات سامية ومثلاً عليا

وقد يتبادر الى ذهن اولئك الذين أخذهم اليأس من إصلاح أمم الشرق أن ما نتكلم فيهِ لا يخرج عن نظريات قد يكون في تطبيقها ما يدل على انها أحلام بعيدة التحقيق . والحق انها تكون أحلاماً بعيدة التحقيق ، إذا نحن لم نؤمن بأنها طريق الخلاص الذي لا طريق سواه . فان الجماعات الانسانية باعتبارها كائنات حية من ناحية ، وباعتبارها كائنات ذات نظام اجتماعي من ناحية اخرى ، قد تصدق عليها حقائق علوم الاحياء مطبقة عليها تطبيقاً خاصًّا ، كما تصدق على بقية الاحياء الاخرى .ولا اخال ان مفكراً متزن التقدير ينكر ان اتخاذ اسباب العلم وسيلة للاصلاح الاجتماعي ، هو السبيل التي تؤدي بأمم الشرق إلى وضع قواعد ثابتة تنتحيها في التدرج نحو مثلها العليا

على ان من الواجب ان نعي ان لكل جماعه من الجماعات فطرة خاصة وبيئة بعينها ، وان لها مزاجاً عامًّا هو نتاج الوراثة الطبيعية والعادات . اما إذا كانت حقائق العلم الطبيعي قد تصدق على كل الاحيـاء من حيث القواعد والاسس والنواميس ، فإن درس الحالات التي تقوم في كل امة من الامم من ناحية هـذا العلم ، يجب ان تعتبر فيها الفطرة والبيئة والمزاج ، حتى يستخلص المصلحون اقوم طرق التطبيق وينتزعوا من حالة كل شعب ما هو في احتياج اليهِ من ضروب الاصلاح ، ويلمسوا الحاجات الاولية التي يمكن ان تتخذ فيها حقائق بعينها من حقائق العلم سبيلاً الى معرفة ماهياتها . وهذا ما جرت اكثر امم الشرق على عكس ما يوحى الينا بهِ . فقد مضت هذه الامم تسترشد باوربا ، وتتخذ من حالات اوربا قياساً تقيس عليهِ حالات الشرق ، من غير ان تعير الطبع الشرقي والمزاج الشرقي والبيئة الشرقية أدنى التفات . ومن اعجب الاشياء اننا مضينا ننقل عن أوربا ثمار تطبيقها لحقائق العلم في نواحٍ يجب علينا ان نراعي فيها مزاجنا الخاص وبيئتنا الخاصة ، وعزفنا عن ان ننقل عنها تجاريبها في مسائل تصدق على كل البيئات وفي كل الاحوال . ومثلنا على ذلك اننا نقلنا مثلاً شرائع بعينها عن اوربا لا علاقة لها بطبعنا ولا حاجة لبيئتنا بها ؟ وكذلك نقلنا عن أوربا طرقاً خاصة في التعليم من غير ان نراعي فيها مقدار ملاءمتها لفطرتنا او ثقافتنا التقليدية

ان ما مضيت فيهِ من اوجه البحث في هذه العجالة القصيرة فيهِ بشير ونذير . اما البشير فاننا بدأنا نتجه في تحليل حالاتنا الاجتماعية ودرسها اتجاهاً علميًّا . واما النذير ففي اننا لم نضع بعض مناهج إصلاحية ، قائمة على العلم ، لها صفة الاستمرار والبقاء . والمحصل ان الاصلاح الاجتماعي في امم الشرق ، ينبغي ان يعهد بهِ الى علماء اتصلوا بعلوم الاحياء وعلوم الاجتماع ، تلك العلوم التي كان للمقتطف الفضل الاول في توجيه العقول اليها ، وبث مبادئها في قلوب المفكرين

الاتجاهات السياسية

خلال ٦٠ سنة في الشرق العربي

لامين سعيد
مؤلف « الثورة العربية الكبرى »

يراد بالشرق العربي جميع البلدان التي ينطق اهلها بالضاد ، ويتخاطبون باللغة العربية ، ويتثقفون ثقافة عربية ، ويدرسون ادب العرب ، وتاريخ العرب

وتمتد بلاد العرب هذه من خليج فارس فديار بكر شرقاً حتى الاطلانطي غرباً ومن جبال طوروس شمالاً حتى اواسط افريقية غرباً وتضم الاقطار الآتية : عمان (مسقط) ،البحرين، نجد، الكويت ، العراق ، الشام بحدودها الطبيعية (اي سورية الداخلية ولبنان وبلاد العلويين وجبل الدروز وفلسطين وشرق الاردن وكيليكية) والحجاز واليمن،ومصروالسودان، وبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الاقصى ولا يقل سكانها عن سبعين مليوناً من النفوس

ولا يخفى أن اللغة العربية هي التي وحدت بين هذه الاقطار وربطتها بعضها ببعض فقبل الفتح العربي الاسلامي كان ابناؤها يتخاطبون بلغات شتى منها : الاغريقية والسريانية والقبطية والفارسية والبربرية والارامية والعبرية فزاحمتها اللغة العربيةوما زالت بها حتى حلت محلها وصارت اللغة الرسمية لهذه الاقطاركلها ولغة العلم والتعليم والثقافة والادب ، واللغة من افضل الروابط واقواها ومن اعظم الصلات وأمتنها في جميع العصور والادوار

نعود بعد هذا التعميم فندرس حالة هذه الاقطار السياسية عند صدورالمقتطف في سنة ١٨٧٦ ونماشي الحركتين السياسية والقومية في تحولها ونصف الادوار الخمسة التي مرّتا بها وهي :

١ — من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٨٢
٢ — من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩٠٨
٣ — من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٨
٤ — من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٥
٥ — هوالدور الحالي

١ — الدور الاول سنة ١٨٧٦ — ١٨٨٢

كان في البلاد العربية عند صدور المقتطف ثلاث حكومات تسيطر عليها :

ا — الحكومة التركية ب — الحكومة الفرنسية ج — الحكومة المغربية

ا — الحكومة التركية

فكانت الحكومة التركية تسيطر على الاقطار العربية الممتدة من خليج فارس حتى حدود الجزائر وهذه اسماؤها : تونس وطرابلس الغرب وبرقة ومصر والسودان والحجاز واليمن والشام ونجد والعراق. وكان بين هذه الاقطار اربعة تتمتع باستقلال داخلي واسع النطاق في داخل الامبراطورية العثمانية وهي : ١ — مصر وسودانها ٢ — تونس ٣ — الحجاز ٤ — جبل لبنان

فكانت في مصر حكومة علوية ثابتة راسخة الدعائم يتوارث عرشها سلائل محمد علي — وكان يجلس على عرشها يومئذٍ الخديوي اسماعيل باشا وكان نفوذ الباب العالي ضعيفاً جداً في القاهرة فالسلطة كلها بيد صاحب العرش. وكانت في تونس ايضاً حكومة مستقلة استقلالاً داخلياً برآسة «البايات» من ابناء حسين بن علي الكريتي ولا يزال هؤلاء يتوارثون عرش تلك البلاد وكان يجلس على عرش تونس يومئذٍ محمد الصادق. وكان جبل لبنان مستقل استقلالاً ادارياً تحت سيادة الباب العالي وبضمانة الدول الخمس طبقاً لبروتوكول سنة ١٨٦٠. وكان شريف مكة في الحجاز ايضاً يتمتع باستقلال داخلي محدود النطاق وكانت حالة متصرف جبل لبنان او اميره تختلف عن حالة هؤلاء الثلاثة فكان يبدل في كل خمس سنوات مرة وكانوا يشترطون فيه الارمنية فلا يجوز ان يقلد هذا المنصب غير واحد من ابناء « بان »

ب — الحكومة الفرنسية

وكانت فرنسا تسيطر على الجزائر. والجزائر هو اول قطر عربي سقط في براثن الاستعمار الاوربي فقد أغار عليه الفرنسيون في سنة ١٨٢٧ فقاوم ابناؤه مدة ٢٠ سنة ثم استسلموا بعد ما تقطعت بهم الاسباب وتغلبت عليهم القوى المادية وقام المراكشيون يطاردونهم ويخرجونهم من بلادهم خوفاً عليها ان يغزوها الفرنسيون ويتذرعوا بوجود اللاجئين منهم للاستيلاء عليها وهو ما وقع بعد ذلك

ج — المغرب الاقصى

وكان المغرب الاقصى هو القطر العربي الوحيد المستقل في ذلك العهد فلا سلطان لاجنبي عليه

الاتجاهات القومية

وكانت هنالك ثلاثة اتجاهات قومية في هذه المرحلة :

الاتجاه القومي لمصر : الاتجاه القومي لسورية : الاتجاه القومي لتونس

فقد كان الخديوي اسماعيل يسعى في ذلك العهد لانشاء امبراطورية مصرية — افريقية تضم السودان وجانباً من الحبشة وبعض المناطق الاستوائية فقد ارسل الحملات العديدة الى تلك الاقطار النائية للاستيلاء عليها ونشر النفوذ المصري في ربوعها وبذل كثيراً من الجهود في هذا السبيل

ولا يخفى ان محمد علي باشا الكبير جد الخديوي اسماعيل باشا عمل لانشاء امبراطورية عربية تضم البلدان التي يتكلم اهلها اللغة العربية وحارب الترك وهزمهم في جميع المعارك التي نازلهم فيها ، ولما قارب مشروعه الختام وكاد يؤتي أكله وقف الانكليز في طريقه واعادوه الى مصر وحصروه في منطقتها الضيقة (سنة ١٨٣١—١٨٤٠) ووجه اسماعيل باشا وجهه في خلال هذه المرحلة شطر افريقية سعياً وراء تكوين «امبراطورية سوداء» بدلاً من امبراطورية جده «السمراء» فلا تعارضهُ اوربا ولا تقف في وجههِ وادرك نجاحاً لا يستهان بهِ

وكذلك كان في مصر اتجاه لانشاء حكم برلماني على مثال النظام البرلماني في اوربا والى الخديوي اسماعيل باشا يعود الفضل في ادخال هذا النظام الى الشرق العربي فقد أنشأ في سنة ١٨٦٦ اي بعد انقضاء ثلاث سنوات على تبوئه الاريكة الخديوية مجلساً سماه «مجلس شورى النواب» ومنحه اختصاصات ضيقة وحدد عدد اعضائه بخمسة وسبعين وجعل تعيين رئيسه ووكيله من حق الخديوي ، وجعل مدة النيابة ثلاث سنوات

واجتمع هذا المجلس للمرة الاولى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ اي منذ سبعين سنة برآسة اسماعيل راغب باشا فافتتحهُ الخديوي ، وظلّ يجتمع في دورات منظمة حتى شهر اغسطس سنة ١٨٧٨ ففيهِ وافق الخديوي على الاخذ بمبدأ «المسؤلية الوزارية» وتوسيع نطاق الحكم الدستوري واصدر بهذه المناسبة مرسوماً بشكل كتاب وجههُ الى رئيس وزرائهِ نوبار باشا قال فيهِ:

« اؤكد لك اني عقدت العزم على التوفيق بين القواعد الادارية في مصر والمبادىء التي تقوم عليها الادارات في اوربا

« واريد ان تحل مكان السلطة الشخصية التي هي مبدأ حكومة مصر الحالي سلطة اخرى تتولى ادارة الشؤون العامة وتجد نقطة توازنها في مجلس الوزراء . وعلى ذلك اريد من الآن فصاعداً ان اقوم بشؤون الحكم مع مجلس وزرائي وبواسطته فكل اعضاء الوزارة يجب ان يكونوا متضامنين معاً وان يبتّوا في الامور بأغلبية الاصوات بينهم». ثم خطت الحكومة الخديوية الخطوة الثالثة في سبيل ادخال النظام الدستوري فوضع شريف باشا في ٢ يونيو ١٨٧٩ دستوراً جديداً على احدث المبادىء العصرية ولكنهُ لم ينفذ بسبب تغيير الخديوي . وتعطلت الحياة الدستورية بمصر في اوائل عهد الخديوي توفيق ثم اعيدت في سنة ١٨٨١ فاجتمع مجلس النواب الجديد يوم ٢٦ دسمبر من تلك السنة . وعطل الدستور وعطلت الحياة النيابية بعد الاحتلال البريطاني في شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ ولم يعد البرلمان الى الاجتماع الاّ في سنة ١٩٢٤ . وجملة القول ان الاتجاهات القومية في مصر خلال هذه المرحلة اي في خلال عهد اسماعيل كانت متجهة الى انشاء نظام برلماني مصري ثابت والى فصل مصر عن تركيا وانشاء حكومة مصرية مستقلة

في السلطنة العثمانية

وكانت في السلطنة العثمانية يومئذ حركة اصلاحية تمخضت في سنة ١٨٧٦ عن نظام برلماني فصدر اول دستور تركي مستمد من المبادىء الدستورية الاوربية الحديثة وجرت الانتخابات لاول برلمان فاجتمع فعلاً في دورة واحدة ثم أجله السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٨ ولم يعد الى الاجتماع الا في سنة ١٩٠٨

وكانت الحركة القومية ضعيفة جداً في بلاد العرب الاخرى وكان للفكرة الدينية او فكرة الجامعة الاسلامية المقام الاول وكان السلطان عبد الحميد يؤثر هذه الفكرة ويؤيدها لمحاربة الفكرة القومية على انه لم يخل الامر — من افراد في بيروت ودمشق — فكروا في الاستقلال العربي وفي انشاء دولة عربية ، وقد وزعت في خلال ذلك منشورات سرية في بيروت بالدعوة الى ايقاظ العرب ، وكان للمرحوم مدحت باشا مؤسس النظام الدستوري في تركيا وخالع الملكين (عبد العزيز ومراد) كما كان يلقب نفسه يد في اذكاء هذه الحركة مدة وجوده والياً على سورية

في تونس

وكان في تونس ايضاً ما في مصر من ميل للاصلاح واخذ بالانظمة الاوربية الحديثة فقد زار الباي احمد باشا فرنسا سنة ١٨٤٦ بدعوة الملك لويس فيليب فبهرته محاسنها وأعجب بما رآه من عمران ورقي ، فشرع في اصلاح الجيش والاسطول بعد رجوعه وادخل كثيراً من الاصلاحات مما احتاج الى مال كثير فمد يده الى فرنسا فعقد معها قروضاً مالية كانت سبب نكبة تونس ، كما كانت هذه القروض سبب نكبة مصر ايضاً. وفي يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٧ أصدر الباي محمد قانون عهد الامان (الدستور التونسي) وانشئ المجلس الكبير (البرلمان التونسي) وكان يتألف من ٦٠ عضواً وكان محدود الاختصاص . ولم يكن لتونس اتجاه قومي في هذه الفترة وكان همّ ولاتها موجه الى التخلص من السيادة التركية وانشاء دولة تونسية مستقلة على نمط الدول الاوربية الحديثة ، وخانها الحظ فسقطت سنة ١٨٨١ في قبضة الاستعمار الفرنسوي

٢ — الدور الثاني سنة ١٨٨١ — ١٩٠٨

ربما كان هذا الدور من أشأم الادوار التي مرت بالاقطار العربية في التاريخ الحديث فقد بدأ بدخول الفرنسيين الى تونس (١٢ مايو سنة ١٨٨١) وتجريدهم حكومة الباي من كل سلطان ، وباشتداد النزاع بين الخديوي توفيق باشا والعرابيين وهو النزاع الذي انتهى بدخول الجيش البريطاني القاهرة يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ثم بدخوله الى السودان في سنة ١٨٩٩

ومدّ الانكليز يدهم في خلال هذا الدور الى امارات خليج فارس العربية فسيطروا عليها وادخلوها في دائرة نفوذهم السياسي

وكانت حالة العرب السياسية في البلاد التي ظلت خاضعة للدولة العثمانية غير حسنة بالاجمال ،

وقد حارب السلطان عبد الحميد الفكرة القومية حرب عوان غير مباشرة بتأييده فكرة الجامعة الاسلامية كما قلنا فأدرك من هذه الناحية نجاحاً لا يستهان به فصرف افكار كثير من رجال العرب عن الفكرة القومية وكانت لا تزال في دور التكوين وجاء بكثير من رؤسائهم وزعمائهم فأنزلهم على ضفات البوسفور بجواره واغدق عليهم الرتب والاموال وعودهم حياة الرفاه والترف حتى لا يفكروا في الخروج عليه او محاربة دولته ، كما ارسل رسله الى العالمين العربي والاسلامي يبثون لهُ دعاية واسعة النطاق ويظهرونه بمظهر المسلم المخلص لدينه العامل لاعلاء شأنه . على ان الامر لم يخلُ من ظهور حركات قومية ولا سيما في مصر تدعو الى التخلص من الترك وانشاء دولة عربية مستقلة ظل تأثيرها محدوداً . ويمكن القول ان هذا الدور كان مقدمة للدور الآتي وهو دور العمل والنشاط. وقد ابتدأ في سنة ١٩٠٨ باعلان الدستور العثماني وبظهور الحركة القومية العربية في مظهر جديد

٣ — الدور الثالث — ١٩٠٨ — ١٩١٨

يعد هذا الدور من اعظم الادوار التي مرَّ بها الشرق العربي في تحوله السياسي والقومي فقد كان جم المفاجآت كثير الاحداث . وينقسم هذا الدور الى قسمين : الاول : ويمتد من اعلان الدستور العثماني في تركيا يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ حتى اعلان الحرب العظمى في شهر اغسطس سنة ١٩١٤ والثاني : من اعلان الحرب حتى ختامها في شهر نوفمبر ١٩١٨

لقد كان اعلان الدستور في تركيا سنة ١٩٠٨ وانهيار الحكم الحميدي الاستبدادي وانطلاق حرية الاقلام والالسنة فاتحة تحول في حياة العرب السياسية الذين ظلوا حتى ذلك العهد خاضعين للسلطنة العثمانية مباشرة وهم ابناء الشام والعراق والحجاز واليمن وطرابلس الغرب وبرقة فقد عمتهم روح جديدة هي روح القومية فكثر الداعون الى احياء المجد العربي والى بعث الدولة العربية كما كثر انشاء الجمعيات السياسية في الاستانة وفي دمشق وبغداد والقاهرة للمطالبة بانصاف العرب ورد حقوقهم السياسية اليهم باعتبارهم اكثر الشعوب التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية عدداً

ولقد كان للاتحاديين سادة تركيا في ذلك العهد يد في اذكاء الروح القومي وفي التعجيل بالنهضة العربية فقد نشطوا في خلال تلك الفترة لتعزيز شأن القومية التركية واعلائها بين أبناء قومهم ولمحاربة الروح العربية وتتريك العرب وغيرهم من العناصر الاخرى التي كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية مما أهاب بهذه العناصر الى جمع شملها وتوحيد كلمتها لمقاومتهم والوقوف في وجههم حفظاً لكيانها ووجودها . وكانت الاتجاهات القوميـة في هذا الدور ترمي الى انشاء امبراطورية عربية تضم الاقطار التي ظلت خاضعة لتركيا وهي : الشام والعراق واليمن والحجاز اي ان المنطقة التي كان دعاة الحركة القومية يعملون في داخلها خلال هذا الدور ما كانت تتعدى الاقطار الخاضعة للمملكة العثمانية

ووثب الطليان في خلال هذه الفترة فاستولوا على طرابلس الغرب وبرقة (سبتمبر سنة ١٩١١)

وبسط الفرنسيون حمايتهم على المغرب الاقصى (معاهدة فاس ٣١ مارس سنة ١٩١٢) فأضيف اسم هذه الاقطار الثلاثة الى قائمة الاقطار العربية الخاضعة للاستعمار الاجنبي فصارت تسعة وهي :

١ — الجزائر ٢ — تونس ٣ — مصر ٤ — السودان ٥ — طرابلس الغرب ٦ — برقة ٧ — المغرب الاقصى ٨ — جنوب اليمن (١) ٩ — امارات خليج فارس العربية

ولم يك للاجانب حتى سنة ١٨٣٠ اي حتى الاغارة الفرنسية على الجزائر اي سلطان او نفوذ في قطر عربي فسقوط هذه الاقطار التسعة في قبضتهم الواحد بعد الآخر ازعج أبناء الاقطار الاخرى التي ظلت في دائرة الامبراطورية العثمانية وبعثهم على مضاعفة الجهود وراء تحرير بلدانهم فلا يصيبها ما أصاب شقيقاتها . والواقع ان دعاة الاستعمار الاوربي واقطابه سعوا سعياً حثيثاً في الفترة التي تقدمت الحرب العظمى لاقتطاع كل ما يمكن اقتطاعهُ من اراضي الدولة العثمانية مستغلين فرصة ضعفها وانحطاطها وانهماك رجالها في المنافسات الحزبية

وأعلنت الحرب العظمى والنضال الداخلي على اشده بين العرب العثمانيين والاتحاديين الترك فاغتنم هؤلاء فرصتها للتخلص من رجال الحركة القومية العربية ودعاتها فقبضوا عليهم واعدموا اكثرهم شنقاً في الساحات العامة في بيروت ودمشق والقدس ونفوا كثيرين من ابناء هذه الاقطار وكانت الخطة التي وضعوها للقضاء على الفكرة العربية تقوم على اجلاء العائلات العربية الكبرى من سورية وفلسطين والعراق وارسالها الى اقاصي الاناضول واحلال الارمن الذين اخرجوهم من ارضهم وديارهم محلهم . ولا يخامرنا شك في انهُ لو ختمت تلك الحروب الضروس بفوز الترك وحلفائهم الالمان لضعف شأن الحركة العربية ولما ارتفع للعرب ذكر ولعوملوا في بلادهم معاملة الارقاء ، ولمنعوا من التكلم بلغتهم ، ومن تعلمها ومن قراءة تاريخهم ودراسة سير رجالهم وعظمائهم ولحملوا على دراسة سير رجال الترك . ومن كان في شك من ذلك فلينظر الى حالة العرب في كيليكية (ادنه) فقد ضيقت عليهم الحكومة الكمالية المسالك ومنعتهم من التكلم بلغتهم ودراسة تاريخهم توصلاً الى تتريك هذا القطر العربي الذي هو جزء لا ينفصل عن الوطن العربي العام ولا بد للعرب في المستقبل من المطالبة بهِ والسعي لاسترداده ورفع الحيف النازل بسكانهِ وابنائهِ فهم يعاملون معاملة لا تتفق مع المبادىء التي وضعتها جامعة الامم لحماية الاقليات الجنسية والدينية في جميع البلدان

الثورة العربية

واعلنت في خلال هذا الدور الثورة العربية ويراد بها تلك التي اضرمها الحسين بن علي على الترك

(١) وضع الانكليز يدهم تدريجاً على المقاطعات الواقعة في جنوبي اليمن وهي لحج وحضرموت وعسير بين سنه ١٨٣٩ وسنة ١٩١٥

في سنة ١٩١٦ بالاتفاق مع بعض رجال سورية والعراق الذين ايدوه ووالوه تخلصاً من جور الاتحاديين الذين ظلموهم وآذوهم وسعياً وراء انشاء امبراطورية عربية تضم الحجاز والشام والعراق . واليك حدودها كما رسمها مؤسسها في كتابه يوم ١٤ يوليو ١٩١٥ الى السر هنري مكماهون نائب ملك بريطانيا في مصر « استقلال البلاد العربية من مرسين ، اذنه (كيليكية) حتى الخليج الفارسي شمالاً ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ، ومن البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى سينا غرباً»

فهذا التحديد للدولة العربية التي نهض الحسين بن علي بمؤازرة رجال العرب في الشام والعراق لانشائها يخرج من دائرتها الاقطار العربية الخاضعة للاستعمار الاوربي ويجعلها قاصرة على البلدان التي كانت حتى ذلك العهد تابعة لتركيا . بما في ذلك نجد واليمن وعسير وجنوبي اليمن وكانت تتمتع باستقلال داخلي واسع النطاق في العهد العثماني ، اما جنوب اليمن وقد اراد الملك الحسين ادماجه في الدولة العربية فكان مشمولاً بالحماية البريطانية . وابى الانكليز الموافقة على الحدود كما جاءت في كتابه وردّ عليه السر هنري مكماهون يوم ٢٠ اغسطس سنة ١٩١٥ يقول : « اما ما يتعلق بقضية الحدود فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل — والوقت قصير والحرب قائمة — سابقاً لاوانه وخاصة لان تركيا لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الاراضي التي اشرتم اليها في مشروعكم احتلالاً تامًّا » . فكتب اليه الحسين يوم ٩ سبتمبر ملحًّا في البت في قضية الحدود « لان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد تتمكن من ارضائه او مفاوضته بعد الحرب ، بل هي مطالب شعب يعتقد ان حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد » وقال نائب الملك يوم ٢٤ اكتوبر سنة ١٩١٥ في رده « وقد ادركت من كتابكم الاخير انكم تعلقون اهمية كبرى على قضية الحدود وانكم تعدونها من المسائل الحيوية ، فأرسلت مضمون كتابكم الى الحكومة البريطانية وانه ليسرني ان ارسل اليكم البيانات التالية التي اثق كل الثقة بأنها ستفوز برضائكم »

« ان مرسين واسكندرونه وبعض الاقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن ان يقال عنها انها عربية محضة . فيجب ان تستثنى من الحدود التي ذكرتموها ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على اساس هذه التعديلات على ان لا تنقض شيئاً من اتفاقنا مع الزعماء العرب . اما الاراضي التي تستطيع انكلترا العمل فيها بملء الحرية ودون ان توقع ضرراً بحليفتها فرنسا فان لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة ان اعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم

١ — ان انكلترا مستعدة على اساس تلك التعديلات ان تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة ٢ — تحمي بريطانيا الاراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوحدتها ٣ — تقدم بريطانيا للعرب — عند الحاجة — كل مساعدة او نصيحة

تلزم وتعاونهم في انشاء افضل شكل من اشكال الحكومات في مختلف البلدان العربية . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان العرب يوافقون على الاقتصار على استشارة ومعونة بريطانيا وحدها ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون اليهم في تنظيم دوائر مملكتهم من التبعة الانكليزية

« أما ما يتعلق بولايتي البصرة وبغداد فان العرب يعرفون ان مركز انكلترا ومصالحها فيهما تتطلب شكلاً ادارياً خاصاً ، ومراقبة خاصة للمحافظة على تلك الانحاء من الاعتداءات الخارجية وتأمين راحة واطمئنان السكان وتوطيد مصالحنا المشتركة »

وهكذا اخرج الانكليز من نطاق الحدود التي رسمها الحسين ولاية الموصل ولبنان الكبير كما اخرجوا ولايتي البصرة وبغداد واستثنوا الاقطار العربية الخاضعة لزعماء العرب وراد بها عسير واليمن ونجد فلم يبق سوى الحجاز وفلسطين وسورية الداخلية

٤ — دور السياسة الاقليمية : ١٩١٨ — ١٩٢٥

وضعت الحرب اوزارها يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨ وانتهت بانتصار الحلفاء وهم الذين انضمَّ اليهم العرب وقاتلوا في صفوفهم من دون ان يحقق لزعماء الحركة العربية ما كانوا يطمعون بنيله فقد وضع الانكليز في نهايتها يدهم على العراق وعلى فلسطين وشرق الاردن باسم الانتداب ووضع الفرنسيون يدهم ايضاً على سورية ولبنان وأضافوهما الى الاقطار العربية الاخرى التي يسيطرون عليها. والبلاد العربية التي ظلت في خارج منطقة الاحتلال الاجنبي هي: ١ — الحجاز ٢ — نجد ٣ — اليمن. ومعنى هذا ان جميع الاقطار العربية (ما عدا جزيرة العرب الاصلية) كانت في هذه الفترة خاضعة للاستعمار الاوربي . وضعف شأن الحركة القومية في اوائل هذا الدور وفترت همة بعض رجالها فانتعشت فكرة السياسة الاقليمية وراجت ومعناها انصراف كل قطر من الاقطار العربية الى العناية بشؤونه الخاصة من دون ان يكون لهُ ارتباط او اتصال مباشر بالاقطار الاخرى

وأثرت مبادىء الحرب في نفوس ابناء الاقطار العربية الخاضعة للاستعمار الاجنبي وفعلت مفعولها فتحرك بعضها يطالب بحقوقه . فكانت في مصر ثورة (سنة ١٩١٩) وفي العراق ثورة (سنة ١٩٢٠) وفي تونس ثورة (سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠) وفي سورية ثورة (سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٧) وفي المغرب الاقصى ثورة (سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦) وفي فلسطين ثورة (سنة ١٩٢٩)

وكذلك وقعت في داخل جزيرة العرب احداث خطيرة غيرت وبدلت من وضعها السياسي فقد استولى ابن سعود في خلال هذه الفترة على امارة آل الرشيد في حايل (سنة ١٩٢٠) وعلى الحجاز سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦ وعلى امارة الادارسة سنة ١٩٣٣ فتكوَّنت في داخل الجزيرة

دولتان لا ثالث لهما : دولة الجنوب وهي دولة اليمن ويشمل نفوذها اليمن وتهامة (ما عدا النواحي التسع المشمولة بالنفوذ البريطاني) ودولة الشمال وهي الدولة السعودية وتضم الحجاز ونجد وعسير وتهامة وادركت القضية العربية في آخر هذا الدور نجاحاً لا يستهان به فتمّ فيه :

١ — تحرير العراق من الانتداب ودخوله جامعة الامم سنة ١٩٣٢ — ٢ — نشأة الدولة السعودية الكبرى ٣ — عدول الوطنيين السوريين عن السياسة الاقليمية واعلانهم الرجوع الى السياسة القومية سياسة الوحدة العربية (٩ يناير سنة ١٩٣٦)

٥ — دور الوحدة او الدور الحالي

يبدىء هذا الدور بعقد ميثاق التحالف بين العراق والمملكة السعودية في بغداد يوم ٢ ابريل سنة ١٩٣٦ وهو الميثاق الذي يصح ان يسمى قاعدة الوحدة العربية فقد جاء في المادة السادسة منهُ « يجوز لاية دولة عربية مستقلة ان تطلب الانضمام الى هذه المعاهدة ايضاً » وبظهور اتجاهات جديدة في بعض الاوساط المصرية لتأييد فكرة الجامعة العربية وانضمام مصر اليها وباتساع نطاق التعاون الثقافي بين مصر والشام والعراق والحجاز واليمن اتساعاً يستوقف النظر ويدل على تحول في الاتجاه القومي وعلى ان فكرة الوحدة العربية تقدمت تقدماً محسوساً في بلاد العرب الشرقية وهي مصر والشام والعراق والحجاز واليمن اما في بلاد العرب الغربية اي في شمالي افريقية وهي برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الاقصى فلا يزال انتشارها محدوداً لبعد الشقة وصعوبة المواصلات ولان السلطات الحاكمة هنالك تحاربها وتعرقل انشاء اتصال مباشر بين ابناء تلك البلاد وبين اخوانهم من عرب هذه البلدان

وخلاصة القول ان في كل قطر من أقطار العرب المستقل منها وغير المستقل اتجاهين :

الاول — لتحريره من كل نفوذ اجنبي اذا كان خاضعاً لهُ والفوز بالاستقلال

والثاني — لتعزيز فكرة الوحدة العربية وتأييدها ونشرها لتسهيل انضمامه الى الاقطار العربية الاخرى التي استقلت وقد وضعت حكومة العراق والبلاد السعودية قاعدة هذا الاتحاد بميثاقهما الاخير واعلنتا كما تقدم انه مفتوح امام كل دولة عربية مستقلة

كيف ينشأ الاتحاد

اما طريقة انشاء الاتحاد العربي ونظمه والاساليب التي تتبع لتحرير الاقطار العربية الاخرى التي لا تزال خاضعة للاجانب فقد وفيناها حقها في كتابنا الجديد « الدولة العربية المتحدة » وقد صدر الجزء الاول منه في هذا الشهر واسمه « تاريخ الاستعمار البريطاني في بلاد العرب » فليرجع اليه من شاء زيادة ايضاح وبيان

مواكب الاعلام

مختارات مما نشره المقتطف في خلال الستين السنة الماضية

---

١ — اطباء الشرق

للدكتور كرنيليوس فانديك

٢ — الهرم والشعرى

لمحمود باشا الفلكي

٣ — النباتات المصرية الطبية

للدكتور حسن باشا محمود

٤ — الباب والبابية

للسير ميرزا فضل الله الايراني

٥ — التربية والحجاب

لقاسم امين

٦ — شرف العمل

لمحمد كرد علي

٧ — فلسفة الاحلام

للفيلسوف برغسن

٨ — موعظة شهر الورود

للآنسة ميّ

٩ — النهضة الشرقية الحديثة

الشيخ مصطفى عبد الرازق — سامي الجريديني المحامي

عباس محمود العقاد — الدكتور بيارد ضودج — امين الريحاني

١٠ — الثورة المقبلة

للورد سنودن

ستون سنة

ستون سنةً ، سارت في خلالها الحضارة سيراً حثيثاً الى الامام . ففي الافكار تنبهٌ ، وفي الآراء تعديل ، وفي الآداب ثورة ، وفي المعتقدات انقلاب ، وفي نظم الحكم تحوُّل ، وفي امور المعيشة ارتقاء لا يضاهيه ارتقاء في كل ما سبق من عهود التاريخ ، وفي جميع فروع العلم وابواب البحث ، اكبابٌ على كشف المجهول واستقصاء الاسباب الاولى ، والعلماء في كل قطر ، منبثون في كل صقع ، مكبّون على كل موضوع ، يبحثون ويمتحنون ويكشفون ويستنبطون لا يعرفون الى الهزيمة سبيلاً ، ولا يقعد بهم عن تحقيق اغراضهم مشقّة او مرض او موت ، وموكب العلم سائر الى الامام وفي كثير من الاحيان على اشلاء مبدعيه ، ورفات نظرياتهم وآرائهم

هذا والطبيعة لا تزال كما كانت ، اليها تحدى الركائب ، وعلى النفوذ الى مكامن اسرارها تعلّق أبعد الغايات . كواكب وسيارات ، واقمار ومذنبات وسدم ، ترصع الفضاء ، وصخور تتدحرج على سطح الغبراء تاركة آثارها في سهولها وجبالها ، وانهار تحتفر مجاريها في التراب ، وحيوانات تبقي هياكلها في طبقات الثرى ، وانبتة تكتب قبرياتها في اطباق الفحم ، ورجال يقلبون الغامر عامراً والعامر جنة تجري من تحتها الانهار . فالهواء يدوي بالاصوات ، والجوُّ حافل بالاشارات ، والاجتماع كرة تتقاذفها قوى الدفع والجمع ، والارض كالرقعة دوّن فيها تاريخ الاحياء وغير الاحياء ، والرقعة في ظرف مختوم ، والعلم يرنو الى فض الظرف واعلان محتوياته واسراره

من اكثر العلوم النظرية دقة وغموضاً الى اكثرها انطباقاً على الاعمال وابعدها اثراً في معايش الناس ، من ادق المعادلات الرياضية الى اعوص الآراء الجديدة في شكل الكون وبناء المادة ، الى احدث المكتشفات والمستنبطات في الزراعة والصناعة والمواصلات والمخاطبات والوقاية والعلاج ، الى اشهر المذاهب في الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس — كل ذلك اصاب من التقدّم والتحوُّل في الستين السنة الماضية ، مما يجعلها من اعظم العصور مقاماً في تاريخ الانسان على وجه الارض

وقد كان المقتطف في كل ذلك رسولاً اميناً بين حضارة الشرق وحضارة الغرب ، في ميدانه الرحب التقت اقلام العلماء والادباء والفلاسفة ، من ابناء الحضارتين ، والمقتطف واقف للحضارة بالمرصاد ، يقتطف من العلم كلّ طارف وكلّ تليد ، ويتبيّن من الاجتماع والادب كلّ اتجاه ، ويزفُّ نبأهُ اجمالاً او تفصيلاً الى ابناء الشرق العربيّ ، في غرة كل شهر ، في ثوب ، آيتهُ البساطة والسلامة ، وغرضهُ الفائدة الخاصة والخدمة العامة

قلّب صفحات مجلداته الثمانية والثمانين ، تتوالى امامك مواكب الاعلام ، في مركبات فاخرة ، من العلم الراسخ والفكر المتوقد والخيال الذهبيّ والخلق الكريم هنا تجد ، اعلام الفلسفة من افلاطون

وارسطوطاليس الى الكندي والفارابي وابن سينا ، الى كانت وكونت وسپنسر ونيتشه ووليم جيمز وهنري برغسون. واعلام العلوم الطبيعية والفلكية ، من طاليس وارسترخس وبطلميوس ، الى ابن الهيثم وابن حيان والبتاني الى غليليو ونيوتن وهوجنس ولاڤوازييه ومندليف وكوري ، الى ميكاصن وملكن واينشتين . واعلام العلوم الطبية ، من ابقراط وجالينوس الى الغافقي والرازي والزهراوي وابن البيطار ، الى هارڤي وجنر ، الى باستور واستر وكوخ وبهرنغ ورس وبانتنغ . واعلام الأحيائيين والمواليديين من طبقة كوڤيه ولينيوس وداروِن ورسل ومندل وهكسلي ومورغن . واعلام المخترعين من وط وستيفنصن،الى مورس وبل ، الى اديصن وماركوني ودهفرست وبيرد . واعلام الروّاد ، من روّاد المصريين القدماء الى روّاد العرب في القرون الوسطى ، الى ڤاسكو دي غاما ، وكولمبوس ومجلان وسكوت وپيري وشكلتون وامندصن وحسنين وبرد. واعلام السياسة والحرب والادب والشعر والعمل والمال، الى ارباب العلم والفكر والخيال في الشرق العربي — كرنيليوس ڤانديك ، وشبلي الشميل، وسليم الموصلي ، ويوحنا ورتبات ، وبشاره زلزل ، وحسن باشا محمود، ومحمود باشا الفلكي ، وشفيق منصور ، وقاسم امين ، وجبر ضومط ، وفرح انطون ، ومحمد كرد علي ، وجميل صدقي الزهاوي ، وامين المعلوف ، وشوقي ، وحافظ ، وولي الدين ، وخليل مطران،ومصطفى صادق الرافعي،ومحمد عبد الحميد،وطه حسين، وايليا ابوماضي ، ومحمد شاهين باشا ، وحسين سرّي باشا ، والامير مصطفى الشهابي ، وامين الريحاني، وعباس محمود العقاد ، وأنيس المقدسي ، واسماعيل مظهر ، والآنسة مي . . .

جميع هؤلاء ، وعشرات بل مئات غيرهم من الاعلام الذين لا تتسع لمجرّد ذكرهم صفحات برمتها من المقتطف اذاع المقتطف آثارهم او سيرهم او حقائق الموضوعات التي اشتغلوا بها والمذاهب التي ذهبوا اليها او خطرات نفوسهم الحسّاسة وأخيلتهم المذهّبة . فكيف يسع الباحث ان يختار فصولاً تعدّ على اصابع اليدين ، من ثمانية وثمانين مجلداً، تربي صفحاتها على خمسين الف صفحة او ستين الفاً ، وتضمّ في نطاقها بحوثاً ونبذاً في جميع فروع المعارف القديمة والحديثة ؟

ان العدل متعذّر بطبيعته ولكن ما لا يدرك على الوجه الاوفى لا يسعنا اهماله كلّ الاهمال بوجهٍ من الوجوه . فالفصول التي تتوالى في القسم التالي من هذا العدد التذكاري ، لم نراعِ في اختيارها صفة خاصة ، وانما كنا نفتح المجلد من المقتطف اتفاقاً ، ونقلب صفحاته ، فنعثر بمقال يستوقف النظر ، بما لصاحبه من مقام ، او بما في بحثه من طرافة او حكمة ، او بما يدلّ عليه من المراحل في تطور موضوع من الموضوعات وارتقائه

وقد يعجب القارىء اننا لم ننشر في هذا العدد مقالاً من المقالات العلمية التي كان منشئاه يكتبانها فيه ، مع ان المقتطف مجلة علمية ، قبل ان تكون مختصة بالادب وما الى الادب من ألوان

الكتابة ، ولكن الحائل دون ذلك ، ان نصف ما نشر في المقتطف او اكثر من النصف كتبهُ منشئاه او من تولى مساعدتهما في تحريره ، فكيف يستطاع اختيار فصل او فصلين من ثلاثين الف صفحة ؟ يضاف الى هذا ان الموضوعات العلمية ، التي نشرت في النصف الاول من حياته اقرب الى بسط المبادىء والاصول لترسيخها في اذهان قرائه ، فإعادتها الآن وقد ذاعت بواسطة معاهد التعليم والمجلات الثقافية قلما يفيد . ثم ان سرعة التقدم العلمي في ما انقضى من هذا القرن كان سريعاً ، يبعث على الدهشة في سرعته ، فما كتب في بناء المادة سنة ١٩٢٠ لا يستقيم منهُ الآن الاّ جانب يسير ، وان مقالات المقتطف العلمية جمع بعضها في كتب على حدة اشهرها « بسائط علم الفلك » و « العلم والعمران » و « فصول في التاريخ الطبيعي » و « الروّاد » و «معجم الحيوان» و « فتوحات العلم الحديث »

بسط المقتطف في خلال حياته نظرية التطور العضوي من جميع نواحيها ولاقى في سبيل ذلك عنتاً عظيماً كما يبيّن الدكتور نمر في مقالته التي صدّرنا بها هذا الجزء التذكاري . وحارب السحر والشعوذة ، وحذّر من التمادي في الاستسلام لاقوال المدّعين مناجاة الارواح وتصويرها ، ووصف المذاهب الطبيعية الجديدة في علمي الطبيعة والكيمياء ، من ناحيتيها النظرية والعملية ، وكلف بالمباحث الفلكية وتقدّمها ، ولم يغفل الآثار وطرائفها ومعانيها التاريخية ، والتفت الى نواحي الارتقاء الاجتماعي ، وشرح المذاهب المختلفة في علم النفس على القواعد التي رسمها فرويد ومكدوغال وكوهلر وبافلوف والسلوكيون في اميركا ، ووضع في جميع هذه العلوم الفاظاً ومصطلحات عربية ذاع معظمها وصار مألوفاً ، وأيّد نهضة المرأة الشرقية بالدفاع عن حقوقها واشرا كها في تحرير المقتطف ونشر ما يلزم لها في حياتها العامة والخاصة ، وكان لا يدع موت علمٍ من الاعلام ، او الاحتفال بذكر علم من الاعلام ، ان يمر من دون ان يبسط سيرتهُ او يلخصها ، سواء في ذلك العالم والطبيب والمؤرخ والاديب والشاعر . فالذين ينعون عليه انهُ لا يعنى الاّ بالعلم ، ينسون الغرض الرئيسي الذي انشىء لهُ ، ويغفلون ما جاء في مجلداته من مئات الصفحات بل من الوفها ، عن المتنبي وأبي تمام والبحتري وامرىء القيس وأبي العلاء وشكسبير وملتن وشلي وتنسن وبيرون وكبلنغ وهاردي وغالزورذي وبرنارد شو وفيكتور هوغو وجوته وبيير لوتي واناتول فرانس وغيرهم وما نقل من آثارهم ، وما نشره من فصول في الاحتضارات والقبريات ومنزلة الشعر في التاريخ ومرامي الشعر العالية ، علاوة على ما اثبتهُ من مختار الشعر لكبار شعراء العربية في عهده

فالفصول التالية في هذا الجزء التذكاري ليست الاّ فصيلة مختارة من مواكب العلم والادب والتاريخ كما توالت في صفحات المقتطف من ستين سنة الى يومنا هذا

اطباء الشرق

للدكتور كرنيليوس فانديك

ليس ثمة تاريخ أسقم من تاريخ اطبّاء العرب فيقتضي جمع ما يذكر منهُ من مؤلفات كثيرة بعضها يناقض بعضاً احياناً والكل ممزوج بحكايات وخرافات لا اصل لها وكثيراً ما يعسر تمييز فاسدها من صحيحها . ومن المؤلفات التي منها جمعت ما اقوله في هذا الموضوع تاريخ الدول لابي الفرج الملطي وكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان وتاريخ المسلمين لابي الفدا الحموي وكتاب المكتبة الشرقية للقس السمعاني الماروني وكتاب تهذيب الاسماء لابي زكريا يحيى النووي وكتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة وكتاب طبقات الشافعية لابن شهبة

كان العرب قبل الاسلام محصورين في شبه جزيرة العرب وحسب ما بقي من تواريخهم لم يقم بينهم عالمٌ شهير طبيباً كان او غير طبيب وانما كثرت فيهم الشعراء . واطباؤهم اخذوا ما اخذوهُ من الطب عن السريان والفرس والهنود ولذلك نذكر بعض الذين اخذ عنهم اطباء العرب قبل الاسلام اي قبل القرن السابع بعد المسيح

(١) قطقه الهندي . كان من مشاهير حكماء الهند وفلاسفتهم . حكى ابو معشر جعفر بن محمد ابن عمر البلخي في كتاب الالوف ان قطقه كان من اشهر علماء الهند في معرفة علم الهيئة وعلم الطب. ومن مصنّفاتهِ كتاب اسرار المواليد وكتاب الاقتران الاعلى والاسفل للسيارات وكتاب قوانين الطب وكتاب دوران الافلاك وكتاب منازل القمر

(٢) سندشهل الهندي. حكيم عالم في الهيئة والطب . وذكر في الكتب العربية عدة اشخاص من مشهوري الهنود حكماء في الطب وعلم الهيئة منهم باكور ورجاء وصفا وداهر وانكر وزنكل وشهر واندي وجادي وتُرجم كثير من مصنفاتهم الى العربية . وذكر الرازي في الحاوي هنديًّا اسمهُ شركة ترجمت مصنفاتهُ الى الفارسية ومن الفارسية الى العربية عن يد عبدالله بن علي وكتاب سُسْرُود ترجم من الفارسية الى العربية بمساعي يحيى بن خالد البرمكي وكتاب نداتا ذكر فيهِ اربعمائة مرض واربعة امراض وكتب أُخر هندية تُرجمت الى العربية مثل كتاب علل النساء وكتاب السكّر وكتاب الحيّات السامّة

(٣) ابو قابيل الهندي . كتب كتاباً سمّاهُ كتاب الامراض والعلل

(٤) شاناك الهندي . حكيم في علم الهيئة والطب كتب في السموم وتُرجم كتابهُ هذا الى الفارسية ثم الى العربية عن يد العباس بن سعيد الجوهري لاجل الخليفة المأمون وشرحهُ يحيى بن البطريق الآتي ذكرهُ. وكتب كتاباً في الطب البيطري وكتاباً في علم الهيئة

(٥) جودَل. طبيب هندي شهير من كتبهِ كتاب في المواليد تُرجم الى العربية

(٦) ثيودورس . طبيب مسيحي من نيسابور نال حظًّا عند الملك سابور ذي الاكتاف فبنى هذا الملك كنيسة في نيسابور اجابةً لطلب ثيودورس . وعاش ثيودورس بين سنة ٣٠٩ و ٣٨٠ للمسيح . والَّف كتاباً في اليونانية سمّي قواعد الطب العمومية وفي السرياني كناشا

(٧) برزويه بن ازدهر فارسي من مرو الشاهجان . تعلّم الطب في فارس ثم توجه الى الهند بأمر الملك انوشروان بن قباذ بن فيروز الذي ملك سنة ٥٣١ و٥٧٩ وأتى من هناك بكتاب الحكاية الشهيرة التي صنفها بذپاي لملك من ملوك الهند وتُرجمت الى الفارسية ثم الى العربية عن يد ابن المقفع وهي المعروفة بحكاية كليلة ودمنة

(٨) سرجيوس او سرجيس بن الياس الراقي من رأس عين مسيحي يعقوبي عاش في عصر الملك يوستنيانوس وترجم عدة كتب من اليونانية الى السريانية وبعد حين ترجمت الى العربية في عصر الخلفاء بني العباس

(٩) هارون او اهرون القس الاسكندري الف كتاباً في الطب في السريانية كان في عصر هيراكليوس وترجم كتابهُ الى العربية

(١٠) عبد الملك بن ابجر الكناني . طبيب عربي مسيحي ومعلم الطب في الاسكندرية . أسلم في ايام عبد العزيز بن مروان والي مصر سنة ٧٠ للهجرة اي ٦٨٩ للمسيح

(١١) اما يوحنا او يحيى المعروف عند السريان بكراماطيقوس اي النحوي فكان اسكندريًّا مسيحيًّا يعقوبيًّا . دخل الى عمرو بن العاص وقد عرف موضعهُ من العلوم فأكرمهُ عمرو وسمع من اقوالهِ الفلسفية وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمهُ وكان لا يفارقهُ

كان الدكتور كرنيليوس فانديك رحمة الله عليه قطباً من أقطاب النهضة العلمية في الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد تعلم العربية وأجادها والف فيها في الفلك والكيمياء والمثلثات والنبات والباثولوجيا والعروض ووضع سلسلة النقش في الحجر في تبسيط العلوم. وكان استاذاً في جامعة بيروت الاميركية (الكلية السورية الانجيلية) ومديراً لمرصدها الفلكي وكان له على «المقتطف» اعظم الفضل فانه شجع منشئيه واشترك معهما في وضع خطته وهذه مقتطفات من فصل مسهب نشره في مجلده الاول

(١٨١٨ — ١٨٩٥)

اما الاطباء الذين انتهت الينا اسماؤهم بين العرب بعد الاسلام فتقسم اعصارهم الى ست مدّات الاولى من السنة الاولى للهجرة الى سنة ١٥٠ والثانية من ١٥٠ الى ٣٠٠ والثالثة من ٣٠٠ الى ٤٠٠ والرابعة من ٤٠٠ الى ٦٠٠ والخامسة من ٦٠٠ الى ٧٥٠ والسادسة من ٧٥٠ الى ١٠٠٠ وفي مدة الالف السنة هذه نجد ذكر ٣٠٠ من الاطباء المشهورين الذين لغتهم العربية وان لم يكونوا جميعاً عرباً في الاصل ومثلهم من الذين دون الطبقة الاولى ولا يسعنا المقام غير ذكر اشهر المشهورين فنقول

المدة الاولى من السنة الاولى للهجرة الى سنة ١٥٠ اي من ٦٢٢ للمسيح الى ٧٦٧

ان الخلفاء والامراء الاولين اخذوا اطباءهم من المسيحيين واليهود وفي تلك المدة لم يقم بين العرب طبيب شهير واول من ذكر من اطباء العرب الحرث بن كلدة الثقفي طبيب العرب اصله من ثقيف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس واخذ الطب عن اهل جنديسابور وغيرها في الجاهلية وطبب في ارض فارس وحصّل مالاً ثم ان نفسهُ اشتاقت الى بلاده فرجع الى الطائف ومن اقواله من سرّهُ البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء وليخفف الرداء وليقلَّ من غشيان النساء يريد بخفة الرداء ألاّ يكون عليه دين . قيل مات في سنة ١٣ للهجرة (٦٣٤ م) من سمّ سُقِيهُ قبل ذلك بسنة

(١٣) لضر بن الحرث بن علقة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي كان من الجاهلية وأُخذ اسيراً يوم بدر فقتل

(١٤) ابو حفص يزيد مولى مروان بن الحكم طبيب يهودي في اليمامة اسلم في خلافة عثمان ابن عفان سنة ٣٠ للهجرة (٦٥٠ م)

(١٥) ماسرجويه الطبيب البصري سرياني اللغة يهودي المذهب تولّى ترجمة مؤلف القس اهرون المشار اليه الى العربية من السريانية في خلافة مروان. حدَّث ايوب بن الحكم قال كنت جالساً عند ماسرجويه اذ اتاهُ رجل من الخوز فقال اني بُليت بداء لم يُبلَ احد بمثله فسألهُ عن دائه فقال أُصبح فبصري مظلم عليَّ وانا اصاب بمثل لحس الكلاب في معدتي فلا تزال هذه حالي الى ان أُطعم شيئاً فاذا أُطعمت سكن ما اجد الى وقت انتصاف النهار ثم يعاودني ما كنت فيه فاذا عاودت الاكل سكن ما بي الى وقت صلاة العتمة ثم عاودني فلا اجد لهُ دواء الاّ معاودة الاكل فقال ماسرجويه على دائك هذا غضب الله فانهُ اساء لنفسه الإختيار حين اقترن بك ولوددت ان هذا الداء تحوَّل اليَّ والى صبياني فكنت اعوّضك ما ترك بك مثل نصف ما املك فقال لهُ الخوزي ما افهم عنك قال ماسرجويه هذه صحة لا تستحقها اسأل الله نقلها عنك الى من هو احقُّ بها منك

(١٦) ثيوذوكس وثيودون طبيبان رومانيان في خدمة الحجاج بن يوسف الثقفي حاكم البصرة في خلافة عبد الملك بن مروان لاولهما عدة تلامذة وكتب في الطب وكان من تلاميذه الفرات بن شحناثا في زمن المنصور

(١٧) ابو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية الاموي اخذ الكيميا والطب عن راهب رومي اسمهُ موريانوس توفي سنة ٨٥ للهجرة (٧٠٤ م)

(١٨) اصطفانوس اول المترجمين لخالد بن يزيد ترجم عدة مصنفات من الرومية الى العربية

(١٩) احمد ابن ابرهيم طبيب الخليفة يزيد بن عبد الملك في نحو سنة ١٠٠ للهجرة (٧١٨م) استخلص من كتب بقراط كتاباً سمَّاهُ اصول الطب ورسالةً في النبات المستعمل في الطب

(٢٠) ابو بكر محمد بن سيرين البصري كان ابوهُ نحاساً من حرجرايا جاء الى عين التمر في بعض المصالح فاخذه خالد بن الوليد اسيراً مع ٤٠ فتى آخرين فاشتراه انس بن مالك ثم فدى نفسهُ بعشرين الف درهم وتزوَّج بصوفيا مولاة ابي بكر فولدت محمداً الذي نحن في صددهِ في سنة ٣٣ للهجرة (٦٥٣ م) واشتهر في معرفة الحديث وتعبير الاحلام وصار كاتباً لانس بن مالك لما تولى البصرة. قيل ولد له ثلاثون ولداً من امرأة واحدة وغلب عليهِ الديَّن فأُلقي في الحبس. وقبل وفاة انس بن مالك اوصى ان لا يغسلهُ احد ولا يقرأ عليهِ الصلاة الاَّ ابن سيرين فاتي بهِ من السجن ولما كمَّل الفرض عاد اليهِ بدون ان يرى اهل بيتهِ. توفي في ١١٠ للهجرة (٧٢٨ م) والَّف كتاباً في تعبير الاحلام كثير الذكر بين الذين اتوا بعدهُ

(٢١) ابن ابي زاحف الَّف في النبات في نحو ١٢٥ للهجرة (٧٤٢ م)

(٢٢) عبدالله المقفَّع فارسي مجوسي اصلاً اسلم على يد عيسى بن علي عم ابي العباس والمنصور من بني العباس. الَّف كتاباً في الامراض وشرحاً على ارسطوطاليس ترجم من الفارسية الى العربية. قُتل بامر صفيان والي البصرة

(٢٣) ابو قريش عيسى الصيدلاني في بغداد في عصر الخليفة المهدي لم يُذكَر هذا من جملة الاطباء لانهُ كان ماهراً بالصناعة وانما يذكر لظرافة خبره قيل كان هذا الرجل صيدلانيًّا ضعيف الحال جدًّا فشكت الخيزران حظيَّة المهدي وكانت من مولدات المدينة وتقدَّمت الى جاريتها بان تخرج القارورة الى طبيب غريب لا يعرفها وكان ابو قريش بالقرب من القصر الذي للمهدي فلما وقع نظر الجارية عليهِ ارتهُ القارورة فقال لها لمن هذا الماء فقالت لامرأة ضعيفة فقال بل لملكة جايلة عظيمة الشأن وهي حبلى بملك. وكان هذا القول منهُ على سبيل الرزق. فانصرفت الجارية من عنده واخبرت الخيزران بما سمعت منهُ ففرحت بذلك فرحاً شديداً وقالت ينبغي ان تضعي علامةً على دكانهِ حتى اذا صحَّ قولهُ اتخذناه طبيباً لنا وبعد مدة ظهر الحبل وفرح بهِ المهدي فرحاً شديداً فانفذت الخيزران الى ابي قريش خلعتين فاخرتين وثلاثمائة دينار وقالت استعن بهذه على امرك فان صحَّ ما قلتهُ استصحبناك فعجب ابو قريش من ذلك وقال هذا من عند الله جلَّ وعزَّ لاني ما قلتهُ للجارية الاَّ وقد كان هاجساً من غير اصل. ولما ولدت الخيزران موسى الهادي سرَّ المهدي سروراً عظيماً وحدثتهُ الخيزران الحديث فاستدعى ابا قريش وخاطبهُ فلم

يجد عنده علماً بالصناعة الا شيئاً يسيراً من امر الصيدلة الا انه اخذه طبيباً لما جرى منه واستصحبه واكرمه الاكرام التام وحظي عنده

(٢٤) ابو عبدالله جعفر بن محمد بن علي الصادق السادس من الائمة المستورين العلويين الف في الهيئة والكيمياء والرمل وتوفي في المدينة سنة ١٤٨ للهجرة (٧٦٥م)

(٢٥) ابو موسى جابر بن حيان بن عبدالله الصوفي الطرسوسي مولداً الكوفي مسكناً من تلامذة جعفر الصادق . اشتهر في الكيمياء وجمع خمسمائة رسالة من رسائل جعفر في ١٠٠٠ صفحة طبع مؤلفه في ستراسبورج سنة ١٥٣٠ وايضاً ١٦٢٥ وطبع كتاب اصول الكيمياء لجابر وابن سينا في مدينة باسل سنة ١٥٧٢ وكتاب له في الهيئة في نورومبرج سنة ١٥٣٤

***

في المدة الثانية بقي علم الطب مع الاجانب ولم يشتهر به عربي اصلي وفيها اجتهد الخلفاء في ترجمة كتب اليونان والسريان والفرس الى العربية ومن اشهر المترجمين حنين كما سيأتي

(٢٦) اما اشهر اطباء اوائل هذه المدة فمنهم عائلة بختيشوع اولهم جيورجيوس بن بختيشوع الجنديسابوري . قيل مرض الخليفة المنصور وكلما عالجه الاطباء زاد مرضاً فاخبر عن جيورجيوس هذا بانه من افضل الاطباء فكتب الى العامل بجنديسابور فانفذه بعد ما اكرمه فخرج ووصى ابنه بختيشوع بالبيمارستان واستصحب معه تلميذه عيسى بن شهلاثا . ولما وصل الى بغداد امر المنصور باحضاره فلما وصل الى الحضرة دعا له بالفارسية والعربية . فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره وامره بالجلوس فسأله عن اشياء اجابه عنها بسكون واخبره بمرضه فقال له جيورجيوس اذاً ادبرك بمشيئة الله وعونه فامر له للوقت بخلعة جليلة وانزله في اجمل موضع من دوره واكرمه كما يكرم اخص الاهل . ولم يزل جيورجيوس يطببه حتى برئ من مرضه ففرح به الخليفة فرحاً شديداً وقال له يوماً من يخدمك هنا قال تلميذي فقال له سمعت انه ليس لك امرأة فقال لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها وانصرف من الحضرة ومضى الى الكنيسة . فامر المنصور خادمه سالماً ان يحمل من الجواري الروميات الحسان ثلاثاً الى جيورجيوس مع ثلاثة آلاف دينار ففعل ذلك فلما انصرف جيورجيوس الى منزله عرفه عيسى بن شهلاثا تلميذه بما جرى واراه الجواري فانكر امرهن وقال لعيسى يا تلميذ الشيطان لم ادخلت هؤلاء الى منزلي أأردت ان تنجسني . امضِ وردهن على اصحابهن فمضى الى دار الخليفة وردهن على الخادم فلما اتصل الخبر الى الخليفة احضره وقال له لم رددت الجواري قال لا يجوز لنا معشر النصارى ان نتزوج باكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها فحسن موقع هذا من الخليفة وزاد موضعه عنده . وفي سنة ١٥٢ مرض جيورجيوس واستأذن بالانصراف الى بلده فعرض عليه المنصور الاسلام قال يا حكيم اتق الله واسلم وانا اضمن

لك الجنة فقال جيورجيوس قد رضيت حيث آبائي في الجنة او في النار فضحك المنصور من قوله فانصرف الى بلده وترك تلميذه عيسى بن شهلاثا عند الخليفة المنصور فاتخذهُ طبيباً . اما هو فأخذ بأذية الناس الى ان اطّلع المنصور على امره فنفاهُ . وفي ذلك الوقت كان من اصحاب المنصور نوبخت المنجم الفارسي وكان خبيراً بعلم الهيئة فلما كبر وضعف قال لهُ المنصور احضر ولدك ليقوم مقامك فأحضر ولده ابا سهل . قال ابو سهل فلما دخلت على المنصور ومثلت بين يديهِ قيل لي تسمَّ لامير المؤمنين فقلت اسمي خرشاذ ماه وطيماذاه ما باذار خسير وايهشاد فقال لي المنصور اكل ما ذكرت هو اسمك قلت نعم فتبسم ثم قال اختر مني احدى خلتين اما ان اقتصر بك من كل ما ذكرت على طيماذ واما ان اجعل لك كنية تقوم مقام الاسم وهي ابو سهل قلت قد رضيت بالكنية فبقيت كنيتهُ وبطل اسمهُ

(٢٧) وبعد وفاة جيورجيوس المذكور قام ابنهُ بختيشوع وصار طبيب هرون الرشيد. وبعدهُ

(٢٨) جبرائيل بن بختيشوع ثم

(٢٩) جاورجيوس بن بختيشوع اخو المذكور ثم

(٣٠) بختيشوع بن يحيي . وبقيت هذه العائلة عند الخلفاء والامراء الى سنة ٤٥٠ هـ الموافقة لسنة ١٠٥٨ م اي مدة ثلاثمائة سنة ولهم مصنفات كثيرة في الطب لا يسعنا المقام ذكرها وكتب واحد منهم انحيل السجع. ومن مترجمي هذه المدة حجاج بن مطر ترجم المجسطي لبطليموس وترجم اقليدس وبعض مصنفات ارسطوطاليس وعبد المسيح بن نعيمة والبطريق في عصر المنصور وابو زكريا يحيى بن البطريق . وفي هذه المدة اشتهر بعض الاطباء من الهنود والفرس واليهود والنصارى عند الخلفاء ولا يسعنا تفصيل ذكرهم . منهم منقة وصالح بن بهلة وعبدوس بن زيد وموسى بن اسرائيل الكوفي وعائلة الطيفوري وزين الطبري اليهودي وابو يوسف يعقوب بن اسحق بن السباح الكندي المسيحي وقسطا بن لوقا وابو زكريا يحيي بن ماسويه وابو زيد حنين بن اسحق بن سليمان بن ايوب العبادي الشهير بالترجمة الذي ولد سنة ١٩٤ للهجرة الموافقة لسنة ٨٠٩ للمسيح . وكانت حرَّان يومئذٍ قرية للصابئين وقام من الصابئين عدة اطباء مشهورين منهم ثابت بن قرَّة الذي قيل فيهِ

هل للعليل سوى ابن قرة شافِ ... بعد الاله وهل لهُ من كافِ
أحيي لنا رسمَ الفلاسفةِ الذي ... أَوْدَى وأوضحَ رسمَ طبٍّ عافِ
فكأنهُ عيسى بنُ مريمَ منطقاً ... يهبُ الحياةَ بأيسرِ الاوصافِ
مثلت لهُ قارورتي فرأى بها ... ما اكتنَّ بين جوانبي وشغافي
يبدو لهُ الداءُ الخفيُّ كما بدا ... للعين رضراضُ الغديرِ الصافي

(المقتطف: كل هذا مهَّد لازدهار الطب العربي الذي بلغ ذروتهُ على ايدي الرازي وابن سينا والزهراوي وذكر هؤلاءِ الثلاثة وحدهم وتأثيرهم في نشوءِ الطب الحديث في اوربا يقتضي سفراً كبيراً)

من احدى وخمسين

سنة في المقتطف

هرم الجيزة والشعرى

لمحمود باشا الفلكي

ناظر المعارف المصرية سنة ١٨٨٥

بين الشعرى والهرم

قرَّرنا في فصل سابق ان وجوه اهرام الجيزة جميعها مائلة ميلاً واحداً على الافق وان مقدار هذا الميل نحو ٥٢ درجة ونصف . وان جميع ما في الساحة الهرمية من اهرام وهيا كل وبراب متجه نحو الجهات الاربع الشمال والجنوب والشرق والغرب . فكلٌّ من هذين الامرين اعني اتحاد المقابر والمعابد في الجهة بحسب الوضع واتحاد وجوه المقابر الهرمية في الميل لا يتأتى وقوعهُ بموجب الصدفة والاتفاق بل لا بدّ ان يكون ذلك عن قصد وغرض دينيّ كان معلوماً عند قدماء المصريين . ألا ترى ان المتأخرين من الامم يجعلون مقابرهم في اوضاع منسوبة الى بيت المقدس اوغيره بحسب دياناتهم وان اللحد عندنا معشر المسلمين يحفر عموديًّا على جهة الخط الواصل منهُ الى مكة المعظمة بحيث يكون الملحود عند وضعه فيه على جنبه الايمن متجهاً بوجهه نحو الكعبة المشرَّفة . هذا والغرض الذي اراد قدماء المصريين ربط مقابرهم الهرمية به ونسبتها في الموضع والجهة اليه لا يصحّ ان يكون مقرّهُ على سطح الارض كمكة المشرَّفة وبيت المقدس وغيرهما . فان ربطهُ بميل اسطحة وجوه الاهرام وهو زاوية ارتفاعهُ فوق الافق يثبت ان وضعهُ في السماء في مقرّ احد معبوداتهم من الكواكب

ثم ان السلف من قدماء مصر لم يكونوا يعبدون في الحقيقة غير الهٍ واحدٍ وهو الذات العلية المتصفة بالقدم والبقاء وجميع اوصاف الكمالات . وكانوا يسمونهُ أمُّون را ويتصوَّرونهُ على كيفيات واشكال مختلفة يتخيلون تجليهُ لهم بها على حسب الازمنة . وكانوا يصدرون عنهُ وزراء روحانية او ملائكة تتعدَّد بتعدد مظاهر قدرته جلّ وعلا وقالوا ما نعبدهم الاَّ ليقرّبونا الى الله زلفى . وكانت النجوم عندهم مقرًّا لهذه المخلوقات بل هي عقولها فكان لكلٍّ منها كوكب يستدل به عليه وهو روحهُ وعقله . وارواح الخلق عندهم قديمة لا تفنى والدار الآخرة عندهم دار جزاء

فكانوا يعتقدون ان هناك ملكاً حكماً يحاسب ارواحهم ويزن اعمالهم ويقضي عليهم إما بنعيم دائم او بتعب ومشقة وتعذيب لا نهاية لهُ . وقد كان المصريون يعظمون بعض الحيوانات وربما عبدوها لمشاكلتها بعض الروحانيات . فانهم كانوا ينظرون العجل مثلاً كأنهُ التمثال الحي لثور السماء والكلب الارضي كأنهُ تمثال حيٌّ للكلب السماوي وهو الشعرى

واكابر هذه الروحانيات كانت تدعى بالآلهة وكانت عند الاقدمين موكلة بتدبير احوال اهل الارض . والواحد منها يتشكل عندهم باشكال مختلفة يظهر فيها بين الناس حيناً بعد حين كما تشهد بهِ الآثار القديمة الموجودة الى الآن . والكلب السماوي وهو الشعرى هو الموكّل بحساب الارواح بعد الموت ويتشكَّل اذ ذاك بصورة رجل رأسهُ رأس كلب فان هذه الصورة الفظيعة تشاهد منقوشة على جنازة فيها الميت موضوعاً على سرير حولهُ الآنية الاربعة الكلبيَّة المعظمة عندهم . وملك الموت والحساب وهو على الصورة المذكورة مادٌّ يديهِ على الميت وآخذٌ بزمامهِ وكأن لسان حالهِ يقول ان المتوفَّى صار في قبضتهِ وتحت سلطانهِ فلا يقرب اليهِ احد . ثم ان الكلب السماوي المذكور او الشعرى يتشكل بشكل ابن آوى عند القضاء على المذنبين بالعذاب الدائم كما يشاهد في نقوش الآثار المصرية وقد يشاهد هرمَس الاكبر ايضاً في شكل رجل رأسهُ رأس كلب وقابض بيدهِ على لوح كاتب ويُرَى في موضع آخر آخذاً في كتابة وزن الارواح . ومعلوم ان هرمَس هو الكلب انوبيس او عطارد المصريين . ويؤخذ من هذا كلهِ ان الصورة التي رأسها رأس كلب وابن آوى وهرمس والكلب انوبيس وعطارد المصريين كلها مظاهر واشكال للكلب السماوي الذي عقلهُ كوكب الشعرى . وان هذا الكلب هو الموكل بأمر الموتى عند قدماء اهل بلادنا . هذا وكان اسم الشعرى عند قدماء المصريين ست ومعناهُ الكوكب والكلب . ويرى منقوشاً على الآثار القديمة ان ست هو السادس او السابع من العائلة الاولى اللاهوتيَّة التي حكمت مصر في اول الزمان . وكثيراً ما ترى الاشارة الدالة على اسم الشعرى مجتمعة وملحقة بالعلامة الدالة على إسيس وهي من اكبر الالهات الاناث المشهورات عند المصريين

ثم ان مدن مصر وقراها كانت منقسمة بين آلهتهم فكانت كل مدينة تحت كنف واحدٍ منهم حتى الآثار واشكالها الهندسيَّة فانها كانت منتمية الى بعض الآلهة وعندي ان الاهرام والصوَر الهرميَّة كانت تخص الشعرى على ما تبيَّن لي من الادلة التالية

الاول : لما كانت الاهرام مقابر كانت ولا بدَّ في كنف متولي امور الموتى وهو الكلب السماوي او الشعرى على ما رأيت فانهُ هو الذي تخافهُ النفس وتهابهُ وتتملَّق اليهِ طمعاً في نعيم الآخرة وفراراً من عذابها

الثاني : انهُ يشاهد في بعض المغارات والمدافن المصرية القديمة اهرام صغيرة موضوعة حول الموتى وتسمَّى بالاهرام النذرية وقد صوّر على احد اسطحتها الكلب السماوي او الشعرى بشكل

رجل رأسهُ رأس كلب . وقد نقش على اسطحتها ادعية واستغاثات يستغيث بها الميت من هذا الاله الفظيع وفي ذلك دلالة واضحة على اختصاص الاهرام بالشعرى وانتسابها اليها

الثالث : ان الصوَر الهرميَّة تشاهد ضمن الرموز الثلثة التي جعلت علماً للشعرى في الآثار القديمة . فان الشعرى تعيَّن عند المصريين بهذه العلامة △ ☆ وهي مثلث او وجه الهرم وهلال وكوكب وذلك يدل على ان الصورة الهرمية من خصائص الشعرى

الرابع : انهُ كان في قسم الفيّوم بناءٌ جسيم يسمَّى مدينة ليارى وهو مشهور في الآثار المصرية . وليارى اسم ملك من ملوك العائلة الثانية عشرة من الثلاثين عائلة التي حكمت مصر من ابتداءِ زمن مينا باني مدينة منف الى زمن الاسكندر الكبير على ما قرَّرهُ منيتو كبير قسوس مصر في زمن البطالسة خلفاءِ الاسكندر . وكان محلهُ في مكان بركة اللاهون وهو عبارة عن اثني عشر ايواناً كباراً متلاصقة ستة من ابوابها الاصليَّة متجهة نحو الشمال والستة الاخرى نحو الجنوب وفيها فسحات وطرق كثيرة جدًّا وتشتمل على ثلثة آلاف غرفة مركبة من طبقتين طبقة تحت الارض وأُخرى فوقها . وكان في الزاوية التي ينتهي بها البناء هرَم ارتفاعهُ نحو ثمانين متراً . وقد شاهد هذا البناء هيرودوتوس اليوناني قبل الهجرة بأكثر من الف سنة ووصفهُ في تاريخهِ ورآهُ استرابون ايضاً قبل الهجرة بنحو ستمائة سنة . وكان يقال ان هذا البناء اعظم واجمل بناء في الدنيا ولم يكن احد يدخل اليهِ الاَّ مخفوراً بخفرائهِ خوفاً من ان يتيه فيهِ او يخفى عليهِ باب الخروج منهُ وكان ملوك مصر يعقدون فيهِ مجالسهم المهمة ويجمعون اليهِ كبراء مملكتهم للمشورة اذ كان لكل قسم او مديريَّة من البلاد ايوان مخصوص فيهِ

ثم ان دوپوى احد متأخري الفرنج كان يرى ان مدينة ليارى هذه هي في وضعها وتشكيل محلاَّتها وجهاتها عبارة عن منطقة فلك البروج مشكَّلة على الارض بجميع تقاسيمها من بروج او بيوت شمالية وجنوبية ومن صيف وشتاء وايام طوال وقصار وغير ذلك وان الهرَم فيها علم للشمس . ويحتج بذلك على ان الهرَم يختص بالشمس دون سواها موافقاً لرأي اپلين احد قدماء اليونان وهو ان اشكال المسلاَّت والاهرام تشبه لهب النار واشعة الشمس فلا بدَّ من كونها مختصة بالشمس . لكننا نقول انهُ اذا صح ان مدينة ليارى كانت في وضعها لتمثيل منطقة فلك البروج لزم ان يكون الهرم فيها رمزاً الى الشعرى لا الى الشمس لان مدار الشعرى كان منتهى المنطقة وحدَّها من الجهة الجنوبية قبل الهجرة بنحو اربعة او خمسة آلاف سنة . فكانت بمثابة خفير يمنع الشمس من ان تتعدَّى حدود طريقها وتنزل الى الجهة الجنوبية جهة الخراب والدمار والهلاك في زعم قدماء المصريين . وعليهِ تكون نسبة ذلك الكوكب الى منطقة البروج في السماء بالنظر الى الوضع كنسبة هرَم مدينة ليارى الى المدينة نفسها بالنظر الى الوضع ايضاً . اعني ان

الهرم هنا رمز الى الخفير الذي يخفر الشمس لكيلا تتعدى حد طريقها وتخرج من منطقتها وعليه فيكون رمزاً الى الشعرى

الخامس : ان ما ورد في الاخبار وفي كتب اهل الاسلام عن نسبة الهرم الى هرمس الاكبر يدل على انهُ كانت هناك رابطة بين الهرم والشعرى . لان هرمس هو عطارد المصريين وهو الكلب انوبيس او الكلب السماوي او الشعرى على ما تقدم

وبالجملة ان الكلب السماوي او الشعرى كان من اهم آلهة المصريين القدماء وطالما تلاعبت به عقولهم فجعلوهُ رئيساً في خلق الدنيا و بداءة سنتهم الالهية وهي الدور الكلبي واستدلوا على زمن فيضان النيل من شروقهِ في الاحتراق وعلى ابتداء فصل الربيع من غروبهِ في الاحتراق وعدُّوهُ سلطان الكواكب وخفير الشمس يحفظها من التعدي الى جهة الجنوب جهة الدمار والخراب كما سبق عليهِ الكلام الى غير ذلك مما لا محل له الآن . ثم ان اطناب المتقدمين والمتأخرين من المنجمين وغيرهم في وصف الشعرى واعلاء شأنها يغني عن اطالة الشرح . والادلة الخمسة التي اوردناها يؤيّد بعضها بعضاً وتنفي كل ريب من ان الاهرام كانت تنسب الى الشعرى وتخصَّص بها عند المصريين القدماء وذلك ما اردنا بيانهُ

فاذ قد تحققنا وجود رابطة معنوية بين الاهرام والكلب السماوي فلا بدَّ ان يكون عدم اختلاف الميل في وجوه جميع اهرام الجيزة دلالة حسيَّة على تلك الرابطة وان يكون جعل هذا الميل اثنتين وخمسين درجة ونصف درجة عن قصد اعني ان تكون الاهرام من حيث وضعها وجهتها في نسبة معيَّنة الى موضع كوكب الشعرى في السماء وقت تشييد تلك الاهرام . وحقيقة هذه النسبة وسرّها لا يدركان الاَّ بعد التأمل في بعض الاصول التنجيميَّة . ولا يجوز احتقار هذه الامور في ما نحن بصددهِ لان علم التنجيم اصل علم الفلك وعليهِ كان جل عقائد المتقدمين من المصريين وغيرهم . فانهم كانوا يعتقدون ان الكواكب تؤثر في احوال العالم السفلي وان تأثيرها يزداد كلما قرب ان يكون وقوع اشعتها عموديًّا على الشيء الذي تؤثر فيهِ حتى يبلغ تأثيرها اعظمهُ عند وقوع اشعتها عموديةً على ما تؤثر فيهِ

فاذا أنعمت النظر في ذلك وفي كون الاهرام مقابر وفي كون امر الموتى من حساب وغيرهِ مفوَّض في زعمهم الى الكلب السماوي او الشعرى ثبت عندك عقلاً ان ميل وجوه اهرام الجيزة لم يكن فيها كلها اثنتين وخمسين درجة ونصف درجة الاَّ لقصد وهذا القصد هو وقوع اشعة الشعرى عمودية على وجوه الاهرام المقابلة لها لان قوة سلطان الشعرى على تلك الاهرام او لان قوَّة تأثيرها في المدفونين فيها لا تبلغ اشدّها في زعمهم الاَّ عند وقوع اشعتها عمودية عليهم كما قدمنا

وعلى ذلك يتحوَّل معنا البحث عن تاريخ بناء اهرام منف الى مسألة هندسيَّة فلكية وهي

معرفة الوقت الذي كانت اشعّة الشعرى تقع فيهِ عمودية على السطح المواجه للشعرى من سطوح الاهرام اعني على السطح الجنوبي منها لانهُ هو الذي يواجه مدار الشعرى اليومي واما بقية السطوح فلا يصيبها شيءٌ من اشعة الكوكب المذكورة . ولكن الاشعة لا تقع عمودية كما ذكرنا الاّ عند صيرورة الكوكب في كبد السماء حيث يتكبّد ويلزم ان تكون نقطة تكبُّدهِ قطباً للدائرة الحاصلة من تقاطع مستوى الوجه الجنوبي للاهرام بالمقعَّر السماوي . ومن ثمَّ تردُ المسألة الى البحث عن الزمان الذي فيهِ كانت نقطة تكبد الشعرى في قطب الدائرة الحاصلة من تقاطع مستوى الوجه الجنوبي للاهرام بالمقعَّر السماوي . ونقطة تكبد الشعرى لا تكون في قطب الدائرة المذكورة الاّ اذا كان ميل الشعرى — وهو بعدها عن دائرة المعدّل — يساوي اثنتين وعشرين درجة ونصف درجة. اي الفرق بين ميل وجه الهرم الجنوبي على الافق وهو ٥٢° و ٣٠َ وبين عرض البلد وهو ٣٠° . وبذلك تتحوّل المسألة الى صورة سهلة وهي البحث عن التاريخ الذي فيهِ كان ميل كوكب الشعرى يساوي ٢٢° و ٣٠َ . فيكون التاريخ المستخرج بهذا البحث تاريخ الزمان الذي بنيت فيهِ الاهرام

***

ميل الشعرى وتاريخ الهرم

يلزم لحل هذه المسألة حساب موقع الشعرى او ميلها فقط في زمانين بينهما مدةٌ ما كألف سنة مثلاً ثم ينظر فيما اذا كان الميل المعيّن وهو ٢٢° و ٣٠َ محصوراً بين الميلين الناتجين من الحساب فان كان محصوراً بينهما يعرف التاريخ المطلوب بتعديل ما بين السطرين او بمجرّد تناسب هندسيّ وان لم يكن محصوراً يحسب الميل في زمن ثالث بحيث ينحصر الميل المعيّن بين اثنين من هذه الميول الثلاثة . فيستخرج التاريخ المطلوب من عمليّة تعديل ما بين السطرين

وقد اخترت لذلك سنتي ٢٢٥٠ و ٣٢٥٠ قبل الميلاد ومعلوم ان تاريخ الميلاد متقدم على تاريخ الهجرة النبوية بستمائة واثنتين وعشرين سنة شمسيّة . ثم حسبت كوكب الشعرى في هذين التاريخين فوجدت ان

مطالعهُ المستقيمة كانت في التاريخ الاول اي سنة ٢٢٥٠ ٥٤° ٥١َ ٢٥ً
وميلهُ كان ٢١° ٢٩َ ١٠ً جنوباً
ومطالعهُ المستقيمة كانت في التاريخ الثاني اي سنة ٣٢٥٠ ق . م ٤٤° ٤٢َ ٠٣ً
وميلهُ كان ٢٥° ٢٣َ ٢١ً جنوباً

ولم اعتبر في هذا الحساب غير الحركة الحاصلة عن تقهقر الاعتدالين. ولكن بمقابلة الارصاد الجديدة بعضها ببعض وبارصاد بطلميوس يتضح ان لكوكب الشعرى حركةً أُخرى خاصةً

بواسطتها يأخذ الكوكب في القرب من دائرة المعدل مع التناقص في الكمية تدريجاً بمعنى ان مقدار تلك الحركة من جهة الميل يزداد على حسب التقهقر في الزمان الغابر فانهُ الآن ١٫١٦ من الثانية في السنة كما يعلم من مقابلة الارصاد الجديدة بعضها ببعض وكان قبل ثماني مائة سنة ١٫٦٢ من الثانية في السنة على ما يستخرج من مقابلة الارصاد الجديدة بارصاد بطليموس التي تاريخها متقدم عن وقتنا هذا نحو ١٦٠٠ سنة وعلى هذا يكون وقت الحركتين ٠٫٤٦ من الثانية في مدة ٨٠٠ سنة. وعلى فرض ان تغيُّر تلك الحركة جرى منتظماً على المقدار المتقدم آنفاً يستنتج بالحساب ان مقدارها كان نحو ٣٫٠٢ الثانية قبل عصرنا بخمسة آلاف او ستة آلاف سنة فتكون الحركة المتوسطة في هذه المدة نحو ٢٫٠٢ الثانية . ولقصر مدة الارصاد الجديدة ولعدم وجود ما يعوَّل عليهِ من الارصاد القديمة ولو بعيدة في العهد من زمن بناء الاهرام يضطرُّ الى الاعتماد على المقدار المتوسط وهو ثانيتان وعشر الثانية للتغير السنوي في ميل كوكب الشعرى اذ لا سبيل لمعرفتهِ بوجه اضبط من ذلك . على ان الخطاء الذي يحتمل صدورهُ عن فرض هذا المقدار المتوسط لا يزيد عن مدة قرنين من الزمان وهي قصيرة بالنظر الى بعد عهد تلك المباني

هذا وبما اننا اتخذنا سنة ١٧٥٠ بعد الميلاد اصلاً ومبدأً في حساب مقدار تقهقر الاعتدالين وبناءً عليهِ حسبنا ميلي كوكب الشعرى لسنتي ٢٢٥٠ و ٣٢٥٠ قبل الميلاد كما تقدم وكان ما بين هذين التاريخين والتاريخ الاصلي اربعة آلاف للاوَّل وخمسة آلاف سنة للثاني لزم تكرار التغيُّر السنوي المتوسط اعني ثانيتين وعشري الثانية اربعة آلاف مرة وخمسة آلاف مرة . والناتجان — وهما درجتان وست وعشرون دقيقة واربعون ثانية ثم ثلث درجات وثلث دقائق وعشرون ثانية — يطرحان من ميلي الكوكب السابقين فيخرج من ذلك ١٩ درجة و١٢ دقيقة ثم ٢٢ درجة و٢٠ دقيقة وهما الميلان الحقيقيان لميل كوكب الشعرى في سنتي ٢٢٥٠ و ٣٢٥٠ قبل الميلاد باعتبار تقهقر الاعتدالين والحركة الخاصة بالكوكب معاً . ويُعلم من بعد هذا ان التاريخ المطلوب متقدم بسنين قليلة عن سنة ٣٢٥٠ قبل الميلاد لان مقدار الميل في تلك السنة ٢٢ درجة و٢٠ دقيقة كما رأيت . وهذا لا يختلف عن الميل المفروض الذي يراد معرفة تاريخهِ الاَّ بمقدار عشر دقائق . فلك اذاً أن تقول نسبة ثلث درجات وثماني دقائق (وهو فرق ميلي الكوكب في سنتي ٢٢٥٠ و٣٢٥٠ قبل الميلاد) الى الف سنة (وهو فرق التاريخين) كنسبة عشر دقائق الى المجهول . ومنهُ يستخرج مقدار المجهول ثلاثاً وخمسين سنة تضاف الى ٣٢٥٠ سنة فيحدث ٣٣٠٣ سنين قبل الميلاد وهو التاريخ الذي كان فيهِ ميل كوكب الشعرى مساوياً اثنتين وعشرين درجة ونصف وذلك تاريخ بناء اهرام الجيزة واذا اضفت الى ذلك التاريخ ٦٢٢ سنة وجدت ٣٩٢٥ سنة وهو تاريخ بناء الاهرام في سنين شمسية قبل الهجرة النبوية

ثم ان هذا التاريخ لا يخلو من خطإٍ يسيرٍ ملازم لهُ بالطبع . لان خطأً بعض الدقائق في تعيين ميل وجوه الهرَم او بعض انحراف طفيف في اصل وضعهِ وبنائهِ مع الخطإِ الذي يحصل عن عدم اصابة المقدار الحقيقي للحركة الخاصة بكوكب الشعرى يحدث في تاريخ بناءِ الاهرام خطأً من مائة الى مائتي سنة . لكن هذ الخطأ يسير جدًّا بالنسبة الى قدم عهد الاهرام الذي يبلغ ٣٢٥٠ سنة قبل الهجرة كما استخرجناهُ فلذلك لا يعبأ بهِ والتاريخ الذي استخرجناهُ مطابق لما كان عليهِ جمهور المتقدمين من مؤرخي المسلمين ولما جرى عليهِ متأخرو الفرنج ممَّن اشتغل بالآثار المصرية . فان ابن عبد الحكم والمسعودي والقضاعي والمقريزي وغيرهم من المؤرخين يرون على ما استخرجتهُ من كلامهم ان الطوفان كان في القرن الثامن والثلاثين قبل الهجرة وان الاهرام بنيت قبل الطوفان بثلثمائة او اربعمائة سنة . وابن يونس الفلكي وغيره من المنجمين يجعلون الطوفان في سنة ٣٧١٨ قبل الهجرة . وعلى كلٍّ فيكون زمن بناءِ الاهرام عندهم قريباً من ٤١٠٠ سنة قبل الهجرة وذلك لا يختلف عما وجدتهُ بحساب الشعرى الاَّ بنحو مائتي سنة

واما من جهة علماء الافرنج وخصوصاً من اشتغل منهم بالآثار المصرية فانهم استخرجوا تاريخ بناء الاهرام بطرق متعددة وفقوا بينها بتنقيحات سليمة ومباحث دقيقة ووصلوا الى ناتج مطابق لما تقدم.فان بَنْسِن استخرج من بقايا كتاب منيتو ومن ايراتوستين والقراطيس الأثرية المصرية المحفوظة في مدينة تورين بايطاليا ومن الواح قدماء ملوك مصر وغيرها من الآثار الاثرية ان ما بين رِمِينا او منيس باني مدينة منف وبين زمن اسكندر ذي القرنين ٣٥٥٥ سنة شمسية وان مدة حكم العيال الاربع الاولى الملكية ٥٧٠ سنة اعني ان انتهاء العائلة الرابعة كان سنة ٢٩٨٥ قبل الاسكندر او سنة ٣٣١٠ قبل الميلاد . ولما كان بانيا الهرمين الكبيرين من اهرام الجيزة هما خيوبس وشفرن من ملوك العائلة الرابعة بالاجماع وكانت هذه العائلة قد حكمت ١٥٠ سنة فتكون الاهرام المذكورة قد بُنِيَت في القرن الثالث والثلاثين قبل الميلاد اعني نحو ثلثة آلاف وتسع مئة سنة قبل الهجرة وهو مطابق لما حسبتهُ عن موقع كوكب الشعرى . واذا راجعنا ما كتبهُ العالم بروغش في كتابهِ الشهير في الانتيكات والآثار المصرية وجدنا ان هذا العالم يرى ان باني مدينة منف متقدم عن الميلاد ٤٤٥٥ سنة وان انقراض العائلة الرابعة كان سنة ٣٤٠٢ قبل الميلاد وان الاهرام بنيت نحو ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد اعني سنة ٤١٠٠ قبل الهجرة . وذلك لا يختلف عن حسابي الاَّ بنحو مائتي سنة. ففي هذا الاتفاق تأكيد لصحة ما رآهُ مؤرخو العرب والفرنج ودليل قوي على صحة ما استنبطتهُ من الروابط والمناسبات بين الاشكال الهرميّة والشعرى العبور وعلى ان الاهرام بنيت حقيقة نحو اربعة آلاف سنة قبل الهجرة لغرضٍ ديني تعبدي ملائم لعبادة الكواكب

من خمسين سنة

في المقتطف

النباتات المصرية

واستعمالها طبًّا

للدكتور حسن باشا محمود

النبات جسمٌ عضويٌّ ينبت ويغتذي ويتنفس وينمو ويتناسل ويموت. وهو يوجد في كل جانب من الارض مهما كانت درجة حرارتهِ بشرط ان يكون قابلاً للزراعة مرويًّا بما يكفيهِ من الماء العذب. قال تعالى «وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً». ومن النبات ما يعيش في الماء ويعرف بالنبات المائي. ويوجد في كل جانب من الارض نباتات تنفع في معالجة الامراض التي تظهر فيها

نبات الخلة

الخلّة نبت كثير الوجود في القطر المصري يشاهد في فصل الربيع منتشراً في حقول الحنطة والحمص والبرسيم والفول وغيرها وينبت فيها لاختلاط بزرهِ بالبذار (التقاوي) فيزرع وينمو معها او لوقوع بزرهِ في الارض قبل زرع الحبوب المذكورة. والخلّة نبت سنوي من الفصيلة الخيميَّة يعيش في الربيع ويجف في الصيف جذرهُ مغزليٌّ مزين بألياف ذات اقدام شعريَّة وساقهُ ترتفع نحو متر عن الارض وهي اسطوانية مجوَّفة تحتوي نخاعاً ابيض. ويتفرَّع بالازدواج والفروع تحمل اوراقاً خيطية خضراء متوالية مركبة. وازهارهُ بيضاء خيمية الشكل وهي مركبة ومزينة من قواعدها بوريقاتٍ خضراء ورائحتها عطرية طيبة. وثمرهُ جاف صلب. وهذا النبت ينبت في جنوب فرنسا وقد اظهر الكيماوي ملوس الخوجه بمدرسة الاجزاجية بمونبيليه انهُ اذا حرق مئة جزء من الخلة حصل منها ٩٦١ الجرام من الرماد. وقد حلل الرماد المذكور فوجد فيهِ ما يأتي

٣٫٨٦٠	كلورور وكبريتات وفصفات وكربونات البوتاسا والصودا مع اثر من كلورور وكبريتات الجير والمانيزيا
٤٫٧١٩	من فصفات الكلس والمانيزيا واكسيد الحديد والمنجنيز
٠٫٥٢١	من السلس والفحم
٩٫١٠٠	المجتمع

وفي هـذا النبات مادة راتنجية ومادة دهنية ايضاً عدا عمَّا ذكر وقدا كتشف فيهِ حضرة الكيماوي ابراهيم افندي مصطفى الخوجه بمدرسة الاجزاجية بمصر اصلاً فعَّالاً سمَّاهُ الخلّين يشبه الاجسام الثلاثية العناصر ولا يتحد مع الحوامض فيكوّن املاحاً وهو ابيض اللون ذو بلورات ابرية حريرية مرُّ الطعم جدًّا يذوب في الماءِ السخن اكثر مما يذوب في البارد وفي الكؤُول

وقد استحضرهُ مكتشفهُ على هذه الكيفية. اخذ مخلوطاً من اجزاء متساوية من مسحوق ثمر الخلة والجير المدود بالماءِ ثم جففهُ وصبَّ عليهِ الكؤول وبخر المخلوط وجففهُ. ثم مزج المتحصل بالايثر وصعَّده وصبَّ عليهِ الماء الغالي ورشحهُ سخناً وتركهُ حتى برد فتكوَّنت فيهِ بلورات اذابها في الحامض الخليك السخن. ثم ترك المذوَّب حتى برد ورشحهُ فوجد فيهِ بلوراتٍ أذابها في الماءِ الغالي وترك مذوَّبها فتكوَّنت فيهِ بلورات هي الخلّين الذي نحن بصدده

وقد ظهر من التجارب التي جرَّبها بالخلين على الحيوانات انهُ يؤثر فيها تأثير السموم المخدرة فيحدث فيها قيئاً وشللاً في اطرافها الخلفية وبطوءًا في حركات تنفسها وضربات قلبها

وقد اجرينا التجارب على هرٍّ فأعطيناه خلاصة الخلة وحقنًا كلباً بثلاثة دسيجرامات من محلولها وارنباً بدسيجرامين منهُ فلم نشاهد في واحد منها قيئاً ولا شللاً في الاطراف ولكن الارنب مات بعد اربع عشرة ساعة من حقنه فشرحناه فوجدنا مخهُ ونخاعهُ محتقنين ومعدتهُ وامعاءه منتفخة بما فيها من الغازات الكثيرة. والقلب محتوياً على دم مائع. ولم نستطع اعادة التجارب على الحيوانات العجماء لقلة المقدار الذي تيسر لنا من الخلين وسنعيدها ان شاء الله عند الحصول على ما يكفي منهُ. ولكننا جرَّبنا الخلة نفسها في البشر مراراً عديدة فكان منها نتائج جيدة نافعة جديرة بالتفات القراء اليها ولذلك نفصلها في ما يلي

> كان الدكتور حسن باشا محمود ، رحمة الله عليه ، من نوابغ المصريين الذين تلقوا علوم الطب في اوربا في النصف الثاني من القرن الماضي وقد تولى ادارة مصالح الصحة العمومية ورآسة مجلس الصحة البحرية والمدرسة الطبية وكان عضواً في الجمعية الطبية في مونبليه وله في المقتطف مقالات علمية نفيسة نقتطف منها ما يلي :
> (١٨٤٧—١٩٠٦)

منافع الخلة في معالجة الامراض

لما كانت الخلة غير مذكورة بين الادوية في المادة الطبية الحالية فقد بذلنا الجهد في تجربتها لمعالجة الامراض فنجحت تجاربنا حتى صارت خليقة بالاعتبار وافيةً بالفائدة كافية لجعل الخلة عقاراً من العقاقير المستعملة الآن. فلا يخفى ان الخلة قديمة الاستعمال عند بعض المصريين لتسليك الاسنان وهي في غاية المناسبة

لذلك لسببين الاول انها تنظف الاسنان من بقايا الاطعمة والثاني انها مقوية للثة ومزيلة للاملاح التي ترسب على الاسنان وتضرُّ بها وذلك لوجود مواد ملحية ومادة مرة ومادة بلسمية في الخلة. وقد نجح استعمالها معنا في معالجة الامراض التالية على الوجوه الآتية

اولاً . اوراق الخلة — استعملناها ضماداً في الاورام الالتهابية للجلد والنسيج الخلوي تحتهُ كالدمامل والجمرات الحميدة والفلغموني المحدود والتهاب الكفة وقد نجحت ايضاً في القوبة الحادَّة والمزمنة

ثانياً . مغليُّ بزر الخلة — استعملناهُ مضمضة قابضة ومقوّية في امراض الفم واللثة فأفاد فيها

ثالثاً . بزر الخلَّة المدقوق — مزجناه بزيتٍ طيب او بالشيرج فكان دهاناً نافعاً في الالتهابات المفصلية وبعد الدهن بهِ يغطَّى المفصل بالقطن او بالصوف

رابعاً . مغليُّ بزر الخلة ايضاً — وجدناهُ طارداً لبعض الديدان المعويَّة ومضادًّا للحميَّات الخفيفة المتقطّعة

خامساً . وقد نجح معنا مغليُّ بزر الخلَّة مراراً في معالجة الرمل البولي الكثير الحدوث في مصر سواءٌ كان لتسكين الآلام الشديدة المصاحبة لهذا الداءِ او لازالة النوبة او لمنع تكرارها وكيفية الاستعمال هي ان يؤخذ درهمٌ من البزر ويغلى في اربع اواقٍ ماءٌ ويصفَّى المغلي ويسقى ماؤهُ للمريض على ثلاث مرات الثلث صباحاً على الريق والثلث بعد الظهر والثلث قبل النوم مدة ثلاثة ايام متوالية ويتمنطق المريض بمنطقة من صوف ويحتمي عن اللحوم في اثناءِ تلك المدة . وقد استعملتُ خلاصة الخلَّة في شخص فنجحت وذلك اني اعطيتهُ اياها حبوباً في كل حبة سنتيجرام واحد من الخلاصة وكان المريض يأخذ من ثلاث حبوب الى خمسٍ في الاربع والعشرين ساعة

وقد تحققتُ من بعض المرضى الذين هم عرضة للرمل البولي انهم باستعمال مغليّ بزر الخلَّة ثلاثة ايامٍ في الشهر على الكيفية المتقدّمة لم تعاودهم نوبة الرمل ولم يصبهم المغص الكلوي المميّز لهذا المرض وقد مضى عليهم الآن ثلاث سنين او اربع وهم سالمون منهُ مع انهم كانوا قبل استعمال الخلَّة يصابون بالنوبة مرةً في كل سنةٍ تقريباً . وقد استعملتُ مغلي بزر الخلَّة في معالجة البول اللبني فنجحت ايضاً . ولا بدَّ من اقتصار المريض على اللبن غذاءً والانقطاع عن غيره من الاغذية على كل حال

اما تأثير الخلَّة في الرمل البولي والحصى الكلوية فيفسَّر بأمرين اولهما ان الخلَّة تمنع تكوُّن الرمل بما فيها من الاملاح والآخر انها تسكّن الالم الشديد الذي يحدث في مجاري البول في الكليتين والحالبين بما فيها من الخلين الذي هو جوهر مسكّن كالجواهر المخدّرة كما ثبت بالتجارب وبسبب وجود المادَّة الراتنجية في الخلَّة يلطف تهيُّج مجاري البول في هذا المرض . هذا وسنذكر نفع الخلَّة في معالجة امراض اخرى متى تأكَّدنا نجاحها وبالله التوفيق

الليمون الحامض (المالح)

الليمون شجرة من الفصيلة الليمونية كثير الوجود في القطر المصري وغيره واوصافهُ معروفة عند الجميع فلا داعي لذكرها والمستعمل منهُ طبًّا الاوراق والازهار والاثمار. فالاوراق تستعمل نقاعتها في الحمامات العطرية فتنبه المجموع الوعائي للجلد وتقوي البنية في الامراض الضعفية والانيميا . والازهار يستخرج منها بالتقطير مع الماء ماء عطر يسمى ماء الزهر وهو كثير الاستعمال شرباً في حال اضطراب القناة الهضمية والدوار . ويدخل في الجرعات المنبهة وفي بعض الاشربة . والثمر يستخرج من قشره زيت طيَّار طارد للديدان ويصنع من بزره لعوق لطرد الديدان ايضاً . ويستخرج من لبهِ عصارة حامضة وهي عصارة الليمون وفيها كلامنا الآن

تستخرج هذه العصارة بعصر الليمون باليد او بآلة مخصوصة وفي كل مائة جزء من العصارة ١٫٧٧ من الحامض الليمونيك و ٠٫٧٢ من اصل مر وصمغ وحامض ماليك و٩٧٫٥١ ماء

وهي حامضة بسبب الحامض الليمونيك الذي فيها وهذا الحامض ثلاثي القاعدة ويستحضر من العصارة بطريقة سهلة وهي ان تترك العصارة مدة ثم ترشح وتمزج بالكلس (الجير)وتسخن فيتحد الحامض الليمونيك بالكلس ويتكون منهما ملح غير قابل الذوبان فيجمع ويغسل بالماء السخن ويعالج بالحامض الكبريتيك فيتكوَّن كبريتات الكلس الذي لا يذوب فيرسب ويرشح فيستخلص منهُ الحامض الليمونيك ثم يتصعد على نار حتى يتكوَّن على سطحهِ طبقة بلورية ويُترك حتى يبرد بالتدريج فيتبلور كلهُ . وعند ما يراد استعمالهُ يذاب الجزء منهُ في نحو خمسين جزءا من الماء ويستعمل كالعصارة او يزاد مقدارهُ عن ذلك بحسب قول الطبيب

ويمكن حفظ عصارة الليمون سنةً من الزمان وذلك بمعالجتها على هذه الصورة . يجمع الليمون الناضج بعد ان يشرب ماء النيل ويترك ٤٨ ساعة ثم يغسل ويقطع ويعصر في اناء من الخزف وتترك العصارة فيهِ ١٢ ساعة لتروق فتصفَّى وتوضع في قنانٍ مسدودة وتترك ثلاثة ايام ثم تصفى ثانية وتوضع في قنانٍ حتى تملأَها تماماً وتُسد القناني بسدادات محكمة تصل الى العصارة وتترك كذلك فتبقى صحيحة سنةً من الزمان . ويعصر الليمون مقشراً او غير مقشر . وعصارة الليمون غير المقشر انفع في امراض القناة الهضمية. ويمكن تركيز هذه العصارة بتصعيدها على نار هادئة فيقل جرمها ويسهل نقلها . وحذار من وضع العصارة في آنية نحاسية لانهُ يتكوَّن منها ملح نحاسي سام

تستعمل عصارة الليمون صرفاً او ممزوجةً بالماء او بالالكئول او بادخالها في الاقراص او الاشربة . من ذلك الليمونات (ليموناده) المستعملة للتبريد والترطيب وتقوية المعدة على الهضم وقطع الاسهال واذا استُعملت لقطع الاسهال تمزج بمدقوق البن او نقاعة الشاي

وتستعمل في الحميات المتقطعة والنوشة والحمى المعدية واذا وضع مقدار من العصارة في

فنجان قهوة وشربها المحموم قبل النوم عرق عرقاً غزيراً وانخفضت الحمى او زالت . وتستعمل ايضاً في الهيضة مسكنة ومزيلة للقيء وفي معالجة داء الحفر فتشرب وتدهن بها اللثة . وفي معالجة الحدار اي داء المفاصل . واذا قطع الليمون وسخن قليلاً ووضعت قطعهُ على مكان بهِ الم عصبي أزالهُ فهو كثير الاستعمال في الصداع وفي التيك المؤلم . وقد اثبتت لنا التجارب نفع هذه العصارة في الذبحة الحلقية الغشائية (اي الدفثيريا) والجلطية وفي الرمد الصديدي والحبوبي الحاد والنزلي وفي القوباء الجافة . وارشدنا الى استعمالها في الذبحة الحلقية والرمد الصديدي المصري والرمد الحبوبي الحاد كونها قابضة ومضادة للعفونة وكاوية كيَّاً خفيفاً للسطح المخاطي المنسلخ

لا يخفى ان الذبحة الحلقية على انواع واشدها خطراً الغشائية والجلطية وقد استعملنا عصارة الليمون في الذبحات البسيطة وفي هذين النوعين ايضاً فعالجنا بها سبعة اطفال سنهم بين ثلاث سنوات وسبع . ثلاث منهم كانوا مصابين بالذبحة الحلقية الغشائية واربعة بالذبحة الجلطية فكنا نغمس فرشة بعصارة الليمون ونمس بها الحلق اربع مرَّات في اليوم مرّة كل ثلاث ساعات ثم نغرغر الطفل كل نصف ساعة بغرغرة من الماء وعصارة الليمون البلدي ومن لم يستطع التغرغر منهم اعطيناه اقراص كلورات البوتاسا قرصاً كل ساعة ووضعنا لبعضهم لبخاً ملينة من الظاهر وللبعض قطعاً من الليمون المسخن فشفوا كلهم بعد ان عولجوا نحو اسبوع

واما الرمد الصديدي المصري والرمد الحبوبي الحاد الشديد الخطر والعدوى الكثير الحدوث في القطر المصري فعالجنا كثيرين من المصابين بهما كباراً وصغاراً في مستشفى الحمزاوي فشفوا جميعاً

وطريقة العلاج هي ان تقلب الاجفان وتنظف بالقطن الجديد النظيف وتمس الملتحمة الجفنية والعينية مرة او مرتين كل اربع وعشرين ساعة بفرشة مغموسة في عصارة الليمون الجديدة المصفاة ثم تغسل العين بماء ممزوج بعصارة الليمون (كوبة ماء وعصارة ليمونة واحدة) كل ساعة بعد تنظيف الاجفان من الصديد بقطن نظيف . وقد قضت الحال احياناً لارسال علق على الصدغين او اعطاء ملين بحسب شدة المرض والاحتقان الملتحمي. هذا ما اكتشفناه حتى الآن وقد اكتشفنا فوائد اخرى لهذه العصارة سنذكرها عند ما نتأكد نتائجها افادةً للعموم

الحلبة

الحلبة كثيرة الوجود في الديار المصرية ولم تذكر بين النباتات الطبية المستعملة في اوربا ولكن اطباء العرب استعملوها وذكروها في كتبهم . وهي نبات حشيشي سنوي من ذوات الفلقتين ذو جذر مغزلي دقيق وساق اخضر حشيشي عقدي مجوَّف الباطن مستدير في طرفهِ السفلي ومربع في العلوي ويتفرَّع من كل عقدة من الساق ذنب غمدي فيهِ ورقة مركبة من ثلاث وريقات قلبية الوسطى منها اكبر من الجانبيتين . ويخرج احياناً من ابط بعض الاوراق اوراق

ثانية اقل حجماً من الاولى . والازهار فراشية انتهائية بيضاء كأسها اسطوانية خضراء ذات خمسة فصوص سهمية مسننة مغطاة بوبر . والتويج ابيض مؤلف من ورقة عليا كبيرة منقسمة الى فصلين ومن وريقتين سفليتين صغيرتين عليهما وبر اخضر . والبيض كثير المساكن والثمر قرني له مصراعان ومساكن عديدة وفي كل مسكن بزرة مصفرة وفي هذه البزور مادة غروية ملينة ومادة مرة ومادة نشوية واملاح . وكلما جف النبات زادت المادة المرة

استعمال الحلبة غذاء — تؤكل الحلبة خضراء في ايام الشتاء والذي يؤكل منها الاوراق والازهار والجزء العلوي من الساق . والاهالي يأكلونها مع الخبز كما يأكلون الفجل والجرجير وتتبل بالملح والفلفل والزيت والخل سلطة ويمكن طبخها كغيرها من الخضر وطعمها حينئذٍ كطعم الخبّازى المطبوخة . اما بزرها فكثير الاستعمال في القطر المصري طعاماً فيضاف دقيقهُ الى دقيق الذرة ويصنع منهما الخبز الجيد

استعمال الحلبة علاجاً — تصنع من الحلبة الخضراء ضمادات ملينة مصرفة لبعض الاورام واذا أُفرط في اكلها أحدثت ليناً وإدراراً خفيفاً في البول . دعيتُ مرة لمعالجة شخص مصاب بالحدار المفصلي المزمن فاستعملت له الادوية الخاصة بالحدار فلم يشف وكانت الاغذية الحيوانية تتعبهُ فوصفت له الحلبة مع الخبز ومنعتهُ عن اخذ الادوية . فأحدثت له الحلبة ليناً وادراراً في البول وزالت آلام مفاصله وصار قادراً على المشي ولم يمض عليه زمن طويل حتى نقه فأشرت عليه بالذهاب الى الارياف لتغيير الهواء . وامتحنت ذلك في مريض آخر فنجحت ثم دعيت لمعالجة امرأة مصابة بالتهاب في مفصل الركبة اليمنى فامرتها باستعمال لبخة من الحلبة الخضراء وبأكل الحلبة نفسها فاستفادت من ذلك كثيراً . وبزور الحلبة الجافة كثيرة الاستعمال والمنافع فان غلايتها المصفاة تنفع غسولاً في الارماد وشربها يصفي الصوت ويسكن السعال في النزلات الشعبية ويدر البول ويقوي المعدة . وتستعمل في الدوسنطاريا شرباً وحقناً ومطبوخها بالعسل مع التمر والتين نافع في امراض الصدر ومع الخل نافع في الاسهال . ودهن الورد مع الحلبة يقوي الشعر ويزيل النخالية (الهبرية) ويصنع من دقيقها لبخة مثل اللبخة المصنوعة من بزر الكتان . وغلايتها المحلاة بالعسل تستعمل شرباً للنساء وقت النفاس فتكون غذاء مقوياً وتساعد الرحم على قذف ما فيها من المواد الدموية والمصلية . والقوابل في القطر المصري يصنعنَ من بزرها سدادة يضعنها في المهبل امام عنق الرحم ويبقينها فيه ٢٤ ساعة لاجل امتصاص ما في الرحم عند ضعفها لانهنَّ لايستعملن الحقن . ويستعملنَ غلاية الحلبة غسولاً للنساء وقت النفاس . والمبلطون يدهنون بها البلاط الجديد بعد فرشه . ويظهر من ذلك كله ان الحلبة كثيرة المنافع وتستحق ان تذكر بين النباتات المستعملة طبيًّا ولاسيما في القطر المصري لكثرة وجودها فيه وبخس ثمنها

الباب والبابية

من اربعين سنة
في المقتطف

للسيد ميرزا فضل الله الايراني

لا يخفى ان المؤسس للبابيَّة رجلان شهيران من اهل الشرق وهما الباب وبهاء الله . أما الباب فهو شاب شريف من اهل شيراز عاصمة فارس اسمهُ ميرزا علي محمد ولد في غرة محرم سنة ١٢٣٥ هجرية من عائلة معروفة بالسادة الحسينية من اهل التجارة . وتوفي والده ميرزا محمد رضا قبل فطامه وربي هو في حجر خاله الحاج مير سيد علي التاجر الشيرازي . وكان من طفولتهِ مواظباً على العبادات مداوماً على الصلوات فلما ترعرع وشب اشتهر بالتقوى والورع وكان جميل الوجه كثير الوقار ظاهر المهابة بادي النجابة . واشتغل بالتجارة مع خاله المذكور في مدينة بوشهر وشيراز . وسافر قبل اظهار دعوته الى العراق لزيارة مشاهد الأئمة كما هو معهود من الشيعة ومكث في العراق اقل من خمسة اشهر وهناك كان اول اشتهار اسمهِ بين الجمهور

فلما رجع إلى شيراز وبلغ سنهُ الخامسة والعشرين ادعى انهُ الباب (١) وذلك في الخامس من جمادى الاولى سنة ١٢٦٠ هجرية وأول من صدقهُ وآمن بهِ ملاَّ حسين الشهير الملقب عند البابية بباب الباب وهو من أهل بُشرُويه من بلاد خراسان . وهكذا تتابع عليهِ حتى بلغ عددهم ١٨ نفساً فسماهم بحروف حي (٢) وأمرهم بالتوجه إلى بلاد ايران والعراق وتبشير العلماء بظهوره ودعوتهم الى اتباعهِ وحثهم على كتمان اسمهِ حتى يعلنهُ هو بنفسهِ في وقتهِ

وتفنن المفسرون لاسم الباب كلٌّ على ما توهمهُ رجماً بالغيب كما يستفاد مما ذكرتهُ الجرائد المصرية حديثاً . فبعضهم فسره بباب العلم وبعضهم بباب السماء وبعضهم بباب الحقيقة ولكن المستفاد من كتبهِ « انهُ هو القائم المبشر بقرب نزول المنقذ المجيد ودخول العالم في دور جديد » ولهذا اشتهر اتباعه بالبابية وذاع صيتهم بهذا اللقب في الممالك الاسلامية

ولما أتى موسم الحج توجه الى مكة وبعد فراغه من اعمال الحج اعان دعوته في المجمع الكبير فاشتهر اسمهُ وذاعت دعوتهُ وعلا صيته ورجع الى ايران ونزل في مدينة بوشهر على

(١) الباب عند الشيعة نائب المهدي المنتظر (٢) لان عددها بالابجدية ١٨

خليج العجم فقبض عليهِ والي فارس حسين خان الملقب بنظام الدولة وبقي محبوساً في مدينة شيراز عدة شهور حتى حدث في بلاد فارس وباء شديد ففرَّ اكثر الاهالي وغفلوا عن حراسته فرجع الى بيته وسافر الى اصفهان ونزل في بيت امام الجمعة مير سيد محمد الملقب بسلطان العلماء . وكان والي اصفهان اذ ذاك الامير الشهير معتمد الدولة منوجهر خان فانجذب من حسن بيانه ومال اليهِ واعتقد بهِ وكتب الباب كتابه الموسوم بالنبوة الخاصة في خصائص سيدنا رسول الله صلى الله عليهِ وعلى آله وسلم بطلب منهُ . وكتب ايضاً كتابه الموسوم بتفسير سورة الكوثر بطلب سلطان العلماء

وكان الباب يرتجل في خطبهِ ورسائله حتى قيل انه كان يكتب في اربع ساعات الف سطر بالعربية او الفارسية على غاية من جودة الخط وحسن الاسلوب . ووقع بينهُ وبين العلماء مناظرات اكثرها مدون في الكتب التاريخية فأدهشهم بقوة قريحتهِ وسرعة قلمهِ وحسن بيانهِ . فحدث بين العلماء اختلاف كبير في امره وهيجان شديد منهم من صدقهُ وآمن بهِ مثل محمد تقي المدرس الهروي وحبيب الله العلوي ومنهم من حكم بجنونهِ مثل مير سيد محمد واتباعه . والاكثرون افتوا بتكفيره ووجوب قتله مثل محمد مهدي الكلباسي وأضرابه . فنقله الوالي من بيت سلطان العلماء الى بيته وأخفاه وأظهر انه ارسله الى طهران بأمر المرحوم محمد شاه . فبقي مختفياً في بيت منوجهر خان حتى توفي وتولى ابن اخيه ميرزا كركين خان على اصفهان فأرسل الباب بأمر المرحوم محمد شاه الى طهران فلما صار على نحو مرحلة من طهران ارسلوه الى آذربايجان وبقي محبوساً في جهريق وماكو وهما قلعتان من قلاع آذربايجان حتى توفي المرحوم محمد شاه وجلس على تخت ايران جلالة ناصر الدين شاه . وفي اثناء ذلك اشتدت الخصومة بين اتباع الباب وعلماء ايران وولاة البلاد فقاموا يداً واحدة على البابيين واتفقوا على لزوم ابادتهم فاشتبكت الحرب بينهم في بلاد مازندران وزنجان وتبريز

وخلاصة هذه الوقائع ان ملاَّ حُسين المذكور آنفاً سار مع اصحابهِ من خراسان قاصدين كربلا من بلاد العراق ولحق بهم الحاج ميرزا محمد علي المازندراني الملقب عند البابية بالقدوس وملاَّ محمد صادق الخراساني الملقب عند الشيعة بالمقدس وهما من العلماء المشهورين فعقدوا اعلاماً سوداً ورحلوا فلما وردوا الى ساري عاصمة مازندران حكم ملاَّ سعيد اكبر علماء البلد بوجوب محاربة البابيين وابادتهم . فالتجأوا الى مقبرة الشيخ الطبرسي احد العلماء المشهورين وحصنوها وقاموا للمدافعة .وكان عدد البابيين ٣١٣ نفساً وحصل بينهم مناوشات كان الفوز فيها للبابيين . فصدر الامر من الدولة لعباسقلي خان السردار اللاريجاني بمحاربة البابيين فحاصرهم هو ومهديقلي ميرزا والي مازندران بالمدافع والجنود المنظمة فأوقع بهم البابيون وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فتتابعت عليهم العساكر والمدافع وامتد الحصار وقتل في اثنائها رئيسهم ملاَّ حسين واشتد عليهم الجوع

واخيراً أمنهم الوالي والسردار وخرجوا وسلموا اسلحتهم فاحاطت بهم العساكر وقتلوهم بالرصاص جميعاً الاَّ رئيسهم الملقب بالقدوس وبعض خواصه فأرسلوا الى مدينة ساري وقتلهم ملاَّ سعيد كبير العلماء باتفاق الطلبة واحرق جثثهم

وكذلك في مدينة زنجان اشتد الخصام بين البابية وعلماء الشيعة وكان زعيم البابيين الحاج ملاًّ محمد علي الزنجاني احد العلماء المشهورين وكان الوالي امير اسلان خان الملقب بمجد الدولة خال ناصر الدين شاه. فعمل الوالي باغراء علماء الشيعة على إبادة البابية واشتبك القتال بينهم واشتد الامر على الوالي فارسل إلى طهران فأرسلت لهُ العساكر والمدافع حتى قتل زعيم البابيين وفني رجالهُ عن آخرهم وارسلت بقية منهم الى طهران فقتلوا هناك. وفي مدينة تبريز من مدن فارس اشتبكت الحرب بين الحزبين وكان رئيس البابيين العالم الشهير السيد يحيي الدارابي ابن السيد جعفر الكشفي صاحب المصنفات كسنارق وتحفة الملوك وغيرها. فآل الامر الى قتل السيد يحيي واصحابهِ بعد تأمينهم

فلما توفي المرحوم محمد شاه سنة ١٨٤٨ ميلادية وجلس على التخت جلالة ناصر الدين شاه في العاشر من سبتمبر من تلك السنة كانت ايران اذ ذاك مصدر القلاقل والفتن بسبب سوء تصرف اتراك الايروان المستولين على المناصب في صدارة حاجي ميرزا أقاسي وأعلن والي خراسان محمد حسن خان الملقب بسالار العصيان على الدولة وادعى الملك وعقد صلحاً مع امراء أفغان وبخارى وتركمان وازدادت هذه القلاقل بظهور البابية وما وقع بسببهم من المحاربات الدموية. فعزم ميرزا تقي خان الصدر الاعظم على قتل الباب وظن انه يتمكن من ابادة البابية بقتل رئيسهم فأصدر أمراً بقتله إلى حشمة الدولة حمزه ميرزا والي تبريز وهو عم جلالة ناصر الدين شاه فأبى هذا وقال «ساء ظني وخاب أملي فاني كنت آملاً من دولة ايران تأمرني بمحاربة دولة من الدول الكبيرة وما ظننت أبداً أنها ستأمرني بقتل أحد أتقياء اولاد الرسول الذي ما فات منهُ نافلة من النوافل الدينية ولا أدب من الآداب العالية الانسانية» فامر الصدر الاعظم أخاه ميرزا حسن خان رئيس عساكر اذربايجان بقتل الباب فعلق في ميدان مدينة تبريز وقتل بالرصاص في ٢٨ شعبان سنة ١٢٦٦ هجرية. فلما قتل الباب زاد اشتهار تعاليمهِ وكذلك زاد اضطهاد اتباعهِ. واشتهر من بعض رؤسائهم دعاوي مختلفة من قبيل النبوة والوصاية والولاية والمرآتية وامثالها فاختلفت آراؤهم وتشتتت اهواؤهم وسفط كثير منهم في الضلالات وانهمك بعضهم في المنكرات والموبقات وزاد الطين بلة ان اطلق شاب اسمهُ محمد صادق التبريزي رصاصة على جلالة ناصر الدين شاه سنة ١٨٩٦ ميلادية حينما خرج جلالتهُ للصيد من قصره في قرية نياوران وهي على ساعتين من طهران فاشتد الامر في طهران وسائر البلاد على البابيين فقبضوا على المتهم والبريء والمطيع والعاصي وقتلوا كثيرين منهم باشد انواع القتل وافظعها

ومن جملة من قتل في هذه الحادثة المرأة الشهيرة قرة العين وهي بنت حاجي ملاً صالح اكبر علماء قزوين . وكانت اعجوبة عصرها في العلم والفصاحة وحسن البيان وطلاقة اللسان وكانت منتمية الى الشيخية مكبة على مطالعة الكتب الكلامية. فلما ظهر الباب وانتشرت رسائله اعتنقت مذهبه وصارت من أعظم انصاره وكانت اذ ذاك في مدينة كربلا فناظرت علماها فأفحمتهم بقوة فصاحتها وغزارة علمها .فحدث هيجان عظيم بين علماء العراق فاضطرت ان تمضي الى بغداد ونزلت مع بعض خواصها وحاشيتها في بيت ابن الالوسي الشهير مفتي بغداد (وهو مصنف كتاب تفسير روح المعاني المطبوع في بولاق)ومكثت في بيته نحواً من شهرين وناظرت علماء بغداد فعرضوا حالها على الاستانة فرجعت الى ايران بأمر السلطان المرحوم عبد المجيد خان فلما بلغت ايران ناظرت علماء كرمانشاه وهمذان ووردت الى قزوين وسكنت في بيت والدها حتى قتل عمها في قزوين فمضت الى طهران ونزلت في بيت الشارع الشهير بهاء الدين .فقبض عليها بعد مدة وبقيت محبوسة في طهران حتى حدثت حادثة سنة ١٨٩٦ ميلادية كما ذكرنا آنفاً فقتلت خنقاً والقيت جثتها في بئر الجنينة المعروفة بباغ ايلخاني

وقال ابن الالوسي « القرتية اصحاب امرأة اسمها هند وكنيتها ام سلمة ولقبها قرة العين لقبها بذلك السيد كاظم الرشتي في مراسلاته لها وهي ممن قلدت الباب بعد موت الرشتي ثم خالفته في عدة اشياء منها التكاليف فقيل انها كانت تقول برفع التكاليف بالكلية وأنا لم احس بشيء من ذلك مع أنها بقيت في بيتي نحو شهرين وكم من بحث جرى بيني وبينها ورفعت فيه التقية وقد رأيت فيها من الفضل والكمال ما لم اره في كثير من الرجال وهي ذات عقل واستكانة ومزيد حياء وصيانة وقد ذكرنا ما جرى بيننا من المباحثات في غير هذا المقام واذا وقفت عليه تبين ان ليس في فضلها كلام » الى آخر قوله . وقد خلف الباب رسائل كثيرة وكتباً مدونة بالفارسية والعربية منها ماذكرناه ومنها الرسالة العدلية في الفرائض الاسلامية ومنها تفسير سورة البقرة واحسن القصص وكتاب اسماء كل شيء ومنها البيان الفارسي . واورد عليه اعداؤه ان كلامهُ خارج عن الفصاحة وفيه ما يخالف القواعد النحوية . وقيل انه لما انتقدوا عليه هذا الانتقاد اجاب بأن الكلمات كانت مقيدة فلما ظهر أطلقها من القيد ...ولكني رأيت في كتاب البيان انهُ أجاب عن هذا الايراد اولاً بأنهُ ما قرأ النحو والصرف وما تعلم في المدارس وما ادعى انهُ من اهل العلم بل انهُ شاب فارسي امي مأمور من ربهِ ملهم بمعارفه . وثانياً بأن منكري القرآن انتقدوا على رسول الله عليهِ السلام بامثال هذه الانتقادات واستشهد ببعض الآيات القرآنية التي انتقدوا عليها بأن فيها ما هو مخالف للقواعد النحوية والاصول اللغوية . والحق يقال ان كتب الباب وبهاء الله ورسائل فرعهِ الكريم عباس ليست مما ينتقد عليها بأمثال ذلك

وللباب حسابات دقيقة ليس هنا مقام تفصيلها مثلاً عبر عن العدد ١٩ بالواحد تطبيقاً على حساب الابجدية وبحاصل ضربه في نفسه بعدد كل شيء وبنى على هذا العدد تواريخ ايامه وطبقات اصحابهِ وابواب كتبهِ والسنن والآداب المنسوبة الى طريقتهِ . ولهُ احكام صعبة صارمة قلما يمكن ان يعمل بها نقحها وأصلحها بهاء الله كما سنبينهُ . واما بهاء الله واسمهُ ميرزا حسين علي فولد في ٢ محرم سنة ١٢٣٣ هجرية ووالده ميرزاعباس الملقب بزرك النوري كان من كبار وزراء دولة فتح علي شاه والعائلة النورية من العائلات الشهيرة في بلاد ايران

فلما قام الباب واشتهر ذكره صدقهُ بهاء الله فاشتد بهِ ازرالبابيين وعلت كلمتهم وكثرت جماعتهم وانتشرت تعاليمهم في طهران ومازندران وكان بينهُ وبين الباب مراسلات سرية كان الواسطة فيها ميرزا عبد الكريم القزويني كاتب ألواح الباب . فلما حدثت حادثة سنة ١٨٩٦ م كما ذكرنا قبض على بهاء الله وسجن نحو اربعة اشهر وحوكم بمحضر جمع من الوزراء وكان سفير روسيا يدافع عنهُ فلما ثبتت براءتهُ من تهمة الاتفاق مع الخارجين على الشاه امر الشاه بالافراج عنهُ وابعاده الى العراق فخرج من طهران مصحوباً ببعض عساكر ايران تراقبهُ بعض فرسان سفارة الروس حفظاً لهُ من الاغتيال في الطريق حتى ورد بغداد سنة ١٨٩٧ م

ولما اقام في بغداد اشتد ازر البابيين بهِ وطابت مناهلهم بوروده فانهُ كان على جانب عظيم من الوقار والمهابة والدعة . فأخذ في تهذيب ما فسد من اخلاقهم واصلاح ما انحرف من اعمالهم وأجمع كلمتهم وأشهر دعوتهم فطار صيتهُ وانتشرت رسائله . وطالت اقامتهُ في العراق نحو ١٢ سنة حتى ظهرت حزازات وضغائن في صدور بعض الايرانيين المقيمين في العراق واشتعلت بين الحزبين نار العداوة والشقاق . فآل الامر الى ارسال بهاء الله الى الاستانة بأمر السلطان عبد العزيز خان . وبعد ما مكث فيها نحو اربعة اشهر أمر بالمسير الى مدينة ادرنه من بلاد روملي فتوجه اليها وأقام فيها نحو خمس سنين وجدَّ في نشر تعاليم البابيين حتى تكررت العداوة وتكررت الشكاية فصدر الامر بنفيه الى عكاء من بلاد الشام فتوجه اليها مع اهل بيته وخدامه

ولم ينثنِ عزمهُ عن تقديم تباعهِ وتهذيب اخلاقهم مع ما لحقهُ من الاضطهاد فسنَّ لهم سنناً عادلة وقرط آذانهم بمواعظ حسنة فوشح رسائله التي زادت عن الالف عدة بأحسن المواعظ والنصائح وزينها بأجمل الامثال والشواهد . ففرض عليهم تربية الاطفال ذكوراً واناثاً بالعلم والادب والاهتمام بتعميم المعارف وتوسيع نطاقها حتى قيل انهُ ادخل المعلمين في طبقات الورثة وكذلك فرض عليهم الاشتغال بالصناعة والتجارة ونهاهم عن الكسل والبطالة وأمرهم بحب الخلق على اختلاف مذاهبهم وأديانهم وعلمهم ان الاديان شرعت للمحبة والوفاق فلا يجعلنها سبباً للعداوة والافتراق . وحثهم على اطاعة الملوك والرضوخ للقوانين الدولية ومنعهم من الدخول

في الامور السياسية وصرَّح في كتبهِ بأن سلطة الملوك سلطة سماوية ومنحة الهية . ولذا منعهم عن التكلم بالسوء في حق الملوك والامراء . وفرَّق بين المعاملات والعبادات فأرجع حكم العبادات الى الكتاب وحكم المعاملات الى المجالس العدلية ونهى عن تأويل الكتاب . وكذلك منعهم عن اللعن والسب والشتم والغيبة والافتراء والقتل والزنا وعن كل ما يخالف الانسانية ويحدث القلق والاضطراب في الهيئة الاجتماعية حتى منعهم عن حمل الاسلحة الاَّ باذن الدولة ومنعهم عن المتعة والتسري وأمرهم بالاكتفاء بزوجة واحدة وان لا يتجاوز اثنتين البتة وصعب عليهم الطلاق وعندهم الصوم والصلاة والحج والزكاة على حسب ما فصل لهم في الكتب الدينية فنجح في بث تعاليمه وتحسين اخلاق شعبه الى ان توفي في ١٦ ايار سنة ١٨٩٢ م موافقاً لثاني ذي القعدة سنة ١٣٠٩ هـ

وأول من دوَّن وقائع البابية هو ميرزا تقي المستوفي الكاشاني الملقب بلسان الملك مصنف كتاب ناسخ التواريخ فانه ذكر في تاريخه المخصوص بالقاجارية واقعة ظهور الباب وحوادثها موافقاً لما اشتهر عنها عند اعداء البابيين فنسبهم الى الفساد والالحاد وذكر عنهم اموراً تنفر منها القلوب وتشمئز منها النفوس . لانهُ في ايام اضطهاد البابيين اجتهد المعاندون لهم في بث المفتريات عليهم ورموهم بالاباحة وفساد الاخلاق فما ابقوا قبيحاً الاَّ نسبوه اليهم ولا رذيلة الاَّ وصفوهم بها فأشكل امرهم على الاوربيين فقام جماعة من اهل الفضل والانصاف منهم لكشف عقائد البابية ومعرفة عاداتها . منهم العالم الفاضل مستر برون معلم اللغات الشرقية في كمبردج . سافر الى ايران سنة ١٣٠٥ هجرية وعاشر البابيين وأخذ شيئاً من كتبهم وسافر من ايران الى الشام ودخل عكاء ولقي بهاء الله فرجع الى اوربا ونشر ما رآه في المجلات العلمية . وكذلك الاستاذ البارون رزن احد الاساتذة في مدارس بطرسبرج ترجم بعض رسائل بهاء الله ونشرها في بلاد روسيا وسائر اوربا . ومنهم الكابتن الكسندر تومانسكي احد الضباط سافر الى مدينة عشق آباد ومنها الى ايران وعاشر البابيين وعرف عاداتهم وأخلاقهم وشرع في تأليف تاريخهم . وكذلك قام بعض افاضل الشرقيين لتدوين وقائعهم منهم ميرزا محمد حسين الهمداني صاحب كتاب التاريخ الجديد . وهذا سافر مع جلالة ناصر الدين شاه في سفره الاول الى أوربا وعند عودته اتى الاستانة وعرف شيئاً عن الطريقة البابية . فلما رجع الى ايران صنف تاريخه المذكور وترجم الى الفرنسوية والانكليزية في اوربا . ومنهم المؤرخ السائح ابو الفضل محمد ابن محمد رضا الجرفادقاني نزيل بخارى مصنف كتاب فصل الخطاب . وأما لسان الملك المذكور صاحب التاريخ الكبير ناسخ التواريخ فقد عدَّل لهجتهُ نوعاً في هذا الكتاب عند ذكر حوادث البابيَّة وما كتبهُ عن وقائع البابيَّة في اصل ناسخ التواريخ اقرب الى الحقيقة مما كتبهُ في المجلد المخصوص بالقاجارية . وستكشف الايام من غرائب وقائع البابيَّة ما سترتهُ الاغراض السياسيَّة

من خمس وثلاثين
سنة في المقتطف

التربية والحجاب

لقاسم امين

لو لم يكن في الحجاب عيب الاَّ انهُ منافٍ للحرية الانسانية وانهُ صار بالمرأة الى حيث يستحيل عليها ان تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فجعلها في حكم القاصر لا تستطيع ان تباشر عملاً ما بنفسها مع ان الشرع يعترف لها في تدبير شؤونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل وجعلها سجينة مع ان القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل — لو لم يكن في الحجاب الاَّ هذا العيب لكفى وحده في مقتهِ وفي ان ينفر منهُ كل طبع غرز فيه الميل الى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الاعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو انهُ يحول بين المرأة واستكمال تربيتها

اذا تقرَّر ان تربية المرأة من الضرورات التي لا يمكن أن يستغنى عنها فما هي التربية التي تناسبها ؟ هل يناسبها تربية كتربية الرجل او تخص بتربية اخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب اولا بدَّ فيها من ابطاله ؟ وهل يعمل فيها على قواعد تؤخذ من العلوم الغربية الحديثة او يُرجَع فيها الى اصول المدنية الاسلامية القديمة ؟

***

ففي المسألة الاولى — لا نجد من الصواب ان تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل . اما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة الى الصحة كالرجل فيجب ان تتعوَّد الرياضة كما تفعل النساء الغربيات اللواتي يشاركنَ اقاربهنَّ الرجال في اغلب الرياضات البدنية . ويلزم ان تعتاد ذلك من اول نشأتها وتستمرّ عليهِ من غير انقطاع والاَّ ضعفت صحتها وصارت عرضة للامراض . ذلك لان النواميس الطبيعية تقضي بضرورة التوازن بين ما يكسبهُ الجسم وما يفقدهُ بحيث لو اختلَّ هذا التوازن فسدت الصحة واختلَّ نظامها . والامراض التي تصيب الانسان بسبب اهمالهِ

استعمال قواه الجسمية ليست بأقل عدداً ولا بأخف ضرراً من الامراض التي تصيب من ينفق قوتهُ ولا يعوض بالتغذية ما فقد منها . ثم ان ما تعاسيه المرأة من الآلام والمشقات حين الولادة في مرة واحدة ربما يزيد على ما يعانيه الرجل من المتاعب طول حياته ولا يحتملهُ من النساء الاَّ قويات المزاج صحيحات الاجسام كنساء القرى المتعوّدات العمل البدني المتمتعات بالهواء النقي . أما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء فلا قدرة لهنَّ على احتمال هذه المشقات ولذلك فان اكثرهنَّ يعشنَ عليلات بعد الولادة الاولى وكثيراً ما يهلكنَ فيها فقد بلغ عدد من يموت منهنَّ في النفاس اكثر من ثلاثين في الالف

وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من المرض والموت كذلك يلزم العناية بصحتها حرصاً على صحة اولادها ووقايتهم من العلل . لان ما يعرض على مزاج الام وما يكون فيهِ من الاستعداد للمرض ينتقل بالوراثة الى الاولاد

واما من جهة التربية الادبية فلأَن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها الى المحافظة على آداب النوع فسلمتها زمام الاخلاق وائتمنتها عليها . فهي التي تضع النفوس وهي ساذجة لا شكل لها فتصوغها في اشكال الاخلاق وتنشر تلك الاخلاق بين اولادها فينقلونها الى من يتصل بهم فتصبح اخلاقاً للامة بعد ان كانت اخلاقاً للعائلة كما كانت اخلاقاً للعائلة بعد ان كانت اخلاقاً للأم . هذا يدلنا على ان المرأة الصالحة هي أنفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هي أضرّ عليهِ من الرجل الفاسد . ولعلَّ هذا هو السبب في ما وقر في نفوس الناس في كل زمان من أن الرذيلة الواحدة اذا تدنست بها المرأة حطت من قدرها اكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها وان الفضيلة تعلي من شأن المرأة ما لا تعليهِ من شأن الرجل

***

بقي علينا الكلام على القسم الاخير من التربية وهو التربية العقلية . هذه التربية هي عبارة عن تعلم العلوم والفنون والغاية التي ترمي اليها هي ان يعرف الانسان ما في الكون من الموجودات حتى اذا عرف ذلك على حقيقتهِ امكنهُ ان يوجه اعمالهُ الى ما يعود عليهِ بالنفع ويتمتع بلذة المعرفة فيعيش سعيداً

ولا تتحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعلمها القراءة والكتابة واللغات الاجنبية بل تحتاج ايضاً الى تعلم اصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكي تعرف القوانين الصحيحة التي ترجع اليها حركات الكائنات واحوال الانسان كما انها تحتاج الى تعلم مبادىء قانون الصحة ووظائف الاعضاء حتى يمكنها ان تقوم بتربية اولادها

والمهم في هذه التربية هو تشويق عقل المرأة الى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد . حتى اذا انتهت مدة تعليمها في المدارس استمرّ شوقها الى الحق فتتحرك دائماً اليهِ وتعتبر بهِ . وأضف الى ذلك انهُ ينبغي على البنت ان تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت

ولا بدّ هنا من توجيه النظر الى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل في نفسها الى الفنون الجميلة . واني على يقين من ان اغلب القراء لا يستحسنون ان تتعلم البنات الموسيقى والرسم لان منهم من يرى ان لا فائدة في الاشتغال بهذه الفنون ومنهم من يعدها من الملاهي التي تنافي الحشمة والوقار . وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون في بلادنا الى حدٍ يأسف عليهِ كل من عرف ما لها من الفائدة في ترقية احوال الامم

هذه هي التربية التي نود ان تكون للبنات وقد بيّناها اجمالاً لان المقام لا يسمح ببيانها تفصيلاً . هذه هي التربية الكاملة التي تيسر للمرأة الجمع بين واجباتها المختلفة المتعددة فتعدها لأن تكون انساناً يكسب عيشهُ بنفسهِ وزوجة قادرة على ان تحصل لعائلتها اسباب الراحة والهناء وأمّاً صالحة لتربية اولادها

متى انتهت تربية البنت باتخاذ ما يلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسمية وملكاتها العقلية تكون قد بلغت الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من عمرها فما الذي ينبغي ان تكون عليهِ بعد ذلك؟ وكيف تعيش ؟ أتحجَّب في بيتها وتُمنع عن مخالطة الرجال ام تطلق لها الحرية في ذلك ؟ هذا هو موضوع البحث في المسألة الثانية والثالثة وسنتكلم عليهما معاً لما بينهما من الارتباط

***

رأى المنتقدون على تحرير المرأة اننا تطرفنا في مسألة الحجاب واننا اشرنا برفعهِ تقليداً للعادات الغربية وزعموا ان الحجاب لا يوجب انحطاط المرأة ولا يترتب عليهِ ضرر لها ولذلك ذهبوا الى وجوب استبقائهِ والمحافظة عليهِ وقالوا ان الذي حطّ بالمرأة عن منزلتها انما هو عدم التربية فلو ربّيت تربية حسنة لامكنها وهي في الحجاب ان تقوم بواجباتها احسن قيام

على اننا بعد ان دققنا النظر في جميع ما قيل او كُتب في هذا الشأن لا نزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيهِ الاّ وثوقاً بصحة ما ذهبنا اليهِ

ولا نرى سبباً للخلاف بيننا وبين مناظرينا الاّ الاختلاف في فهم معنى التربية فهم يرون ان التربية هي التعلُّم وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير في المدرسة سنين محدودة تكون نهاية عملهِ فيها الحصول على الشهادة الدراسية وانهُ متى نال هذه الورقة السميكة التي سماها بعض ظرفاء الفرنسيين (جلد حمار) عُدَّ بالغاً في العلم والادب حد النهاية . ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد ان التربية

لا تقوم بالمكث في المدرسة والحصول على الشهادة وانما كل ما يستفيده الصبي من ذلك في ايام التحصيل الأولى هو الاستعداد لتكميل عقله وخلقه

ذلك لان الصبي في السنة الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من عمره لا يعرف من العلم الاّ نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها في جمل مختصرة . ومهما كانت هذه القضايا علمية او ادبية فلا قيمة لها الاّ بظهورها في العمل وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التي تحدد دائرة تطبيقها والحد الذي يفصلها عن غيرها وتبين الاحوال التي تدخل فيها او تخرج عنها وجهات نفعها وضرها . وهذه التطبيقات هي الواسطة الوحيدة في فهم القواعد على حقيقتها فاذا انعدمت لا تكون هذه القواعد الاّ ألفاظاً وخيالات

وكذلك الحال في الآداب والاخلاق . اذ لا شيء على الانسان اسهل من ان يعلم مقدار الفائدة في ضبط شهواته وقهره نفسهُ ولكن لا شيء أصعب في العمل من ان يأتي ذلك بالفعل . لان قهر الانسان لهواهُ وجعلهُ تحت سلطان العقل يستدعي قوة عظيمة في الارادة . ولا توجد هذه القوة في الارادة باقامة الحوائل المادية بينهُ وبين النقائص ولا بمجرد حشو ذهنه بالقواعد الادبية وانما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث وتعوُّد مغالبتها والتغلب عليها

فمزاولة الاعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الامور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب كل هذه الاشياء هي منابع للعلم والآداب الصحيحة . بها ترتقي النفوس الكريمة حتى تبلغ أعلى الدرجات وامامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط الى اسفل الدركات

والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفيس لأن المرأة التي تعيش مسجونة في بيتها ولا تبصر العالم الاّ من نوافذ الجدران او من بين استار العربة ولا تمشي الاّ وهي كما قال الامير علي القاضي « ملتفة بكفن » لا يمكن ان تكون انساناً حيًّا شاعراً خبيراً بأحوال الناس قادراً على ان يعيش بينهم

***

ولا يكفي لاخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التي يشكو الكل منها ان تمكث بضع سنين في المدرسة ثم تنتقل منها الى بيت تحجب فيه بقية عمرها بل يلزم ان تستمرّ في الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة . يلزم ان نضع يدنا في يدها ونسير معها في الارض ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعة ودقائق الفنون وآثار الزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر . يلزم ان تقاسمنا افكارنا وآمالنا وافراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا فتستفيد مما يعرض فيها من الاخلاق والافكار والمباحث وتفيدنا بحملنا على رعاية الحشمة والتأدب في القول

شرف العمل

شرقي يحث على العمل الحر

لمحمد كرد علي
وزير المعارف السورية سابقا
ورئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

من المشروعات المفيدة في هذه الديار ما قامت به جمعية « العروة الوثقى » في الاسكندرية من تأسيس مدرسة صناعية نسبتها الى « محمد علي » رأس الاسرة الخديوية . وقد دبت الايام ودرجت الشهور وما برحت الهمم متقاصرة والمبالغ التي جمعت لا تسد عوز النصف مما ينبغي لهذا المشروع الجليل

لا اشير الى نتيجة هذا العمل على فرض حصوله اذ ليس المقام مقام نبوات والمستقبل يكشف القناع عن وجه الحقيقة وغاية ما ينبغي ان يقال في هذا الباب ان اهل هذه البلاد والمسلمون منهم خاصة لكثرة سوادهم احق الناس بالتوفر على مذاهب المعاش الثلاثة من زراعة وصناعة وتجارة والزهد في الامارة او الاستخدام لانها ليست بمذهب طبيعي للمعاش

مضت قرون على قومنا حسبوا الخير برمته محصوراً فيهم وان فضل الله لم يؤته ولن يؤتيه سواهم وان عندهم كل شيء وان حسن اليقين والتسليم للاقدار يغنيانهم عن تعرف كل جديد . اغتروا ويا لضيعة الآمال بظواهر الحال ذاهبين الى ان الاغيار مهما بلغوا من درجات الرقي بفضل عقولهم لا يدركون شأو سلف هذه الامة في كل منحى من مناحي الحياة فاكتفوا من ثم بعلالات هي بالاطفال أليق منها بالرجال وبالامم المائتة اشد علاقة منها بالامم الحية

ولما انسال تيار الغرب على الشرق واستصفى معظمه واستبيح حمى البقية او كاد اصبح القوم يشعرون بأن تلك الدعاوي الطويلة العريضة على فرض صحتها لا طول فيها ولا طائل تحتها وان قد انقضى دور التغذي بالاقوال اذ هي لا تغني غناء الافعال بحال من الاحوال

بلغ اهل بعض البلاد هذا المبلغ من الفكر بعد ايقانهم بأن من خرق الرأي ثقة المحكوم

عليهم بحكامهم في كل شأن من شؤون الحياة لا سيما وقد اثبتت التجارب ان اغلبهم زعماء شهوات لا زعماء نهضات وأمراء جبايات لا امراء زراعات وصناعات

نعم ان ما قام من الحضارة في بعض ادوار الممالك الاسلامية كان بحسنات ملوك وامراء اوجدوا بعلمهم وعدلهم العالم والعامل فانقلب الامر الى ضده لما قضي عليهم حتى قيل « الدول اسواق يحمل اليها ما يروج فيها » ولكن من قال اننا لم نكن في كل ايامنا اهل اتكال مجسم ولم يسجل بأن كل ما اتت به الشريعة من الحث على السعي والتعلم لم تأخذ منهُ النفوس الاّ جهد طاقتها ومبلغ حاجتها

***

حاذَرَ الاسلام من عواقب الكسل فحضَّ على العمل ولم يأمر بالزهادة على النحل والذي عرفهُ المتأخرون المعطلون وجاء حاثًّا على الاخذ من خيريْ الدارين غير آمر بالخروج عن سنن الكائنات ولولا قواعد سنت لصلاح العمران ما وجدت في المسلمين من يقوم على زرع ارض او اجادة صناعة وتجارة لكثرة ما دسهُ المشعوذون من الزهديات المثبطات والخرافات المضنيات بل ولولا الحاجة الطبيعية الدافعة في بعض اقطار المشرق ما رأيت من يفكر في استخراج البُرّ من سنابله او يحسن عمارة المساكن او يعرف نسج الثياب

ولذا ترى اكثر الفقهاء صبغوا القواعد العمرانية بصبغة دينية فقالوا ان الفلاحة والنساجة والبناية فرض على الكفاية . وقام بعد السلف خلف وهموا الدخول في غمار العاملين مزرياً بصاحبه ان كان له ما يكفيه من حطام الدنيا . وقد اجمع علماء الاجتماع والدين ان كل عمل جسديًّا كان او عقليًّا لا يثلم شرف الآخذ نفسه به . وان كل ما ساغ ربحهُ وجوّزه قانون لا يعد الاشتغال به عُرّة في وجوه الاحساب ولا مضيعة للاستعداد والكفاءات ولا متلفة للقرائح والعقول . قال عليٌّ كرّم الله وجههُ اني لأرى الرجل فيعجبني فأقول ألهُ صنعة فان قالوا لا سقط من عيني

سرٌّ هذا الخراب العظيم الذي تصاب به البيوتات في مصر والشام احتقار الاجداد والآباء للصناعات والزراعات والتجارات واكتفاؤهم من تربية ابنائهم بأن يغرسوا في عقولهم حب الاحتفاظ بثرواتهم والاعتماد عليها وان احسن ما يعملونهُ بعد وفاة والديهم الجري على آثارهم . وقد رأينا كثيرين جزعوا من تبديد مخلفاتهم من بعدهم فأوقفوها ولكن ابناءهم وورثتهم نقضوا ما ابرمهُ اولئك المورّثون وتصرفوا فيها بما شاءوا

ولو علم الآباء والاغنياء منهم خاصة أن خير ذخر يبقونهُ لاولادهم بث الملكات الصحيحة

فيهم وان الثروة هي العمل وان الارض لا توجد الثروة ما لم تبذل العناية في استثمارها واستنباتها وان الثروة ليست عبارة عن نقود ولا امتلاك عقارات وقرى للقنوا ابناءهم ما يرتفعون بهِ عن الدنيئة اذا تجرَّدوا يوماً عما يملكونهُ

هذه الثروات الطائلة التي تضمحل كل يوم وتسمع من انبائها عجباً كانت بمأمن من غوائل التبديد لو عرف وارثوها قدر العمل وقيمة المال وطرق اكتسابهِ . وتدارك اهل الغرب سر هذه القاعدة فرأينا مئات من بيوتاتهم في المانيا وانكلترا وفرنسا وغيرها من الممالك دامت لها النعمة عدة قرون وبطون على حين لم تدم نعمة بيت في بلادنا الاَّ ثلاثة اجيال في الغالب

***

ماذا اصاب سكان غربي آسيا وشمالي قارة افريقية حتى زهدوا في الصنائع وغالى كبراؤهم في احتقارها فمحقت الاَّ بقايا تدل على القديم دلالة الاثر على مؤثّره . وليت شعري هل اضمحلت بأسباب خارجية أم داخلية وجدت في جوّ البلاد من ظلم حكومة واشتطاط قانون وديانة نابذ أهلها من لم يفولوا بقولهم وتمكن خرافات في النفوس حتى وصلت الى البلادة . ام عرت اهل البلاد امور طبيعية ربت فيهم الخمول وعششت الجبر المحض في قلوبهم فطفئت جذوة العمل من رؤوسهم . وسكان الاقطار الحارة على رأي العمرانيين تضعف قواهم العقلية والجسدية وتغلب عليهم الخفة والطيش فيطربون للجزئيات ويتأثرون بها ولا يبكون للكليات ولا يحزنون عليها وكلما درّت اخلاف الطبيعة وأمرعت اكناف الغبراء بخيرات الخضراء وأصبح الرزق ميسوراً اخصب السكان فاستحوذت البطالة على النفوس

فاذا كان هذا هو الداعي لفقدان الصناعات وانحلال الاجسام بحيث بعدت عن العمل فلم لم يُصب سكان الشمال الغربي من آسيا وان شئت فقل الشمال الشرقي بما أُصبنا بهِ منذ قرون وبلادهم ليست دون بلادنا بحرارتها متشابهة بطبائع اقاليمها وأهلها . وها اننا نرى الفرس وهم اخواننا في الانحطاط لم يزالوا متوفرين على الصناعات شأنهم في القديم وامتازوا بها على مجاوريهم امتياز الانكليز على جميع امم الغرب بميلهم الى الصناعات قديماً وحديثاً مما دعا الى تقدمهم اشواطاً الى الامام فصاروا كالطلائع من جيش المشارقة وغيرهم كالقواعد والمخلفين

ويبلغنا لهذا العهد عن اهل الطبقة العالية في ايران وبخارى والافغان انهم يقضون الساعات في عمل ما من نجارة وحدادة وحياكة ورسم وخط ونقش وحفر وغيرها يتلهون بها ويعودون بالمرانة عليها عضلاتهم وان لم يتوقع اكثرهم منها نفعاً ماديًّا شأن اغنياء الغرب لعهدنا فانهُ لا بدّ لكل واحد منهم ان يختص بصناعة تفيد مجتمعهُ وتسليهِ في وحدتهِ وتروّض جسمهُ وترفع قدره

عن نسبة البطالة اليه « وغبار العمل خيرٌ من زعفران العطالة » . ولعلّ الفرس ورثوا حب الصناعات فتسلسلت فيهم لانهم من اصل آريٍّ يجتمعون والسكسونيين في جرثومة واحدة كما يقول الباحثون في اصول الشعوب

ألاَ وان الصناعات ليست كما يعتقدها في بلادنا من أُشربت قلوبهم مقت العمل وربوا في مهاد الاتكال والكسل . فقد مارسها كبار رجال الخليقة وما تقززوا منها وهم ينزعون الى اسمى المطالب وينشدون اشرف الغايات . فقد كان نوح نجاراً وموسى راعياً ومحمد تاجراً وصحابهُ كانوا يتاجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم وكان ابو بكر الصديق وعثمان بن عفان بزّازين وعمرو بن العاص جزازاً وسعد بن ابي وقاص يبري النبال وابو حنيفة النعمان خزازاً يبيع الخز وابو مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية كان على غناهُ يجلب المواشي الى الكوفة والثعالبي صاحب اليتيمة كان فرّاءً يخيط جلود الثعالب والحريري صاحب المقامات كان يعمل الحرير ويبيعهُ وابن حوقل الجغرافي كان تاجراً وياقوت الحموي الجغرافي اشتغل بالمتاجر وابو بكر القفال الفقيه المروزي كان ابتداء اشتغاله بالعلم على كبر السن بعد ما افنى شبيبتهُ في عمل الاقفال وابو منصور الجواليقي احد الائمة في فنون الادب نسب الى الجواليق وبيعها وابو اسحق الزجاج النحوي كان زجاجاً . وهكذا لو تقصيت سير المشارقة من قبل تجد في علمائهم وامرائهم الفلاح والنسّاج والحائك والفرّاء والخياط والصفار والقصار والمعمار والحجار والعطار والبيطار والدهان والسمان

***

ومثلهم كثير في المغاربة (١) فقد كان من الصنّاع طاليس رأس الحكماء السبعة وصولون المؤسس الثاني لاثينا وكان افلاطون الحكيم زيّاتاً يطوف بلاد مصر وسبينوزا الفيلسوف اليهودي عاش بصقل زجاجات المناظر ولينيوس النباتي تعلّم وهو يعمل في السكافة وشكسبير رأس شعراء الانكليز كان يدير الملاعب وداود ريكردو واضع الاقتصاد السياسي كان تاجراً وبيلي الفلكي كان سمساراً ويوحنا ستورت ميل الفيلسوف فاحصاً في شركة الهند الشرقية. وتعلّم فرغوسن الهيئة وهو مرتدٍ بجلود الغنم على رؤوس التلال، وملر درس طبقات الارض وهو يعمل في المقالع . وكثيرون من الاحياء يتجرون ويحترفون فان رئيس جمهورية سويسرا يتاجر بالاقمشة واللورد روزبري كبير وزراء انكلترا له تجارة واسعة ببيع اللبن واللورد لوندندري ببيع الفحم واللورد هارنجتون ببيع الثمار والبقول

(١) راجع كتاب سر النجاح لمعربه منشىء المقتطف ففيه الغنية من اخبارهم

لاجرم ان النهوض بالشرق متعذر ما لم يسعَ اليهِ كبراؤهُ ومتى فكرت الطبقة العالية فيما انتهت اليهِ حال البلاد بحسن حال الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا ومتى قام في الامة أُناس مثل كمال بك وهدايت باشا وغيرهما من الرجال العاملين يُرجى للشرق بعض الرجاء ان يلحق بشقيقهِ الغرب . واليك مثالاً من حال هذين الرجلين في العلم والعمل

***

كمال بك رأس النهضة العثمانية الاخيرة وقائد عصابتها واكبر كاتب وشاعر تركي عرف معنى الوطن والوطنية . ومن جملة ما عملهُ في احدى نفياتهِ الى جزيرة رودس ان تقرَّب من بعض معلمي الكتاتيب وطفق يصلح لهم طرق التدريس ويبث الغيرة في قلوبهم وقلوب تلامذتهم من تربية الملكات تربية صحيحة وتلقين العلم النافع ولم تمضِ سنوات حتى تخرَّج بفضلهِ نحو ثلثمائة طالب قاموا بدعوتهِ واهتدوا بهديهِ

وكان من امر هدايت باشا انهُ مرَّ بحلب على ما روى فاضل حكيم ذاهباً الى البصرة والياً عليها فلما كان يطوف ازقة الشهباء بصر فاعلاً يخمر الطين على طريقة صعبة لا يحسن بها فوقف قائلاً للفاعل ما هكذا يعمل الطين واشار عليهِ بأسلوب أسهل وأحسن فلم يفهمهُ فما كان من المشير المشار اليهِ الاَّ ان خلع حذاءهُ وسراويلهُ وراح من ساعتهِ يغوص في الطين الى نصفهِ ليعلّم العامل كيف يجبل التراب . وصارت القاعدة التي علمهُ اياها مطردة الاستعمال عند كل طيانة حلب الى هذا اليوم

فبمثل هذين الرجلين تحيا العلوم والصنائع وترتقي البلاد في شؤونها المادية والمعنوية ومن لنا بأمثالهم يؤسسون في كل مدينة وبلدة من بلدان المشرق مدرسة او معملاً للصناعة والزراعة والتجارة . وبعيد علينا محاكاة سابقينا دفعةً واحدةً فللكون سنن لا يتعداها وللارتقاء مدارج لا مناص من الصعود عليها ينبغي لنا ان نهض بأنفسنا لا بحكامنا ونتشبه بالناجحين ما ساعدت المكنة ونبدأ بالجزئيات لنصل منها الى الكليات

والعالم ميدان جهاد لا تنفع فيهِ الاَّ الحكمة العملية ولا يسبق الاَّ من توافرت لديهم ادوات الكفاح ونفثت في نفوسهم روح العلم . وكنوز السعادة مرصودة لاهل الجلادة والنجادة وسرُّ النجاح مكتوم في بطون الليالي لا يفشى الاَّ لمن تسعهُ صدورهم . وعلى نسبة رجال الامة العاملين يحسن حالها في العالمين . فطوبى لمن بورك لهُ بساعات حياتهِ فأنفقها في جلب المنافع ودرء المضار وعرف ان الوقت نقد عزيز والعمر ركاز إبريز فضنَّ بهما وسعى في ايقاظ شرقنا من رقدتهِ المزمنة وإنعاشهِ من صرعتهِ المحزنة

من عشرين سنة
في المقتطف

فلسفة الأحلام

للفيلسوف هنري برغسن

ان الموضوع الذي اريد الكلام عليه الآن كثير التعقيد يتناول مسائل مختلفة مما هو في حد الغموض والاشكال بعضها سيكولوجي (نفسي) وبعضها فسيولوجي وبعضها مما وراء الطبيعة ولا يمكن استيفاء الكلام عليها الا في ساعات كثيرة ولذلك اغض الطرف عن كل ما لا تمس الحاجة الى ذكره واقتصر على ما قلَّ ودلَّ

يمكن تحديد الحلم بأنهُ ادراك اشياء لا وجود لها في الخارج فاني ارى في حلمي رجالاً وأشعر اني كلمتهم وسمعت كلامهم ولم يكن امامي رجال ولا انا تكلمت . وأشعر كأني رأيت اشياء حقيقية وأشخاصاً معلومين لكني لا ارى اثراً لتلك الاشياء وأولئك الاشخاص حينما استيقظ فكيف حدث ذلك

ولكن الم يكن هناك شيء اي ألا يكون حول النائم شيء مادي يؤثر في مشاعره وقت الحلم اي في عينيهِ وأذنيهِ وسائر اعضاء جسمهِ

اغمض عينيك وتأمل فيما يتراءى لك وأنت مغمضهما . قد تقول انك لا ترى شيئاً . ولكن كرر اغماض عينيك وتأمل كأنك تتبين شيئاً تراهُ فتتصوَّر انك ترى اشياء كثيرة ترى اولا فضاء اسود ثم قد ترى في هذا الفضاء نقطاً منيرة تجيء وتذهب وتعلو وتهبط رويداً رويداً وكثيراً ما ترى بقعاً مختلفة الالوان وقد تكون ألوانها قاتمة وقد تكون لامعة وهي تتسع ثم تضيق دواليك ويتغير شكلها ولونها سريعاً او بطيئاً وتدور على محاورها بسرعة تبهر النظر . وقد بحث علماء النفس والفسيولوجيا في سبب هذه البقع وتغير ألوانها وعللوها بما يصيب شبكية العين من تغير دورة الدم فيها او من ضغط الجفنين على الحدقة وتأثير ذلك في عصب البصر . ومهما يكن سببها فهي اساس الاحلام كلها فهي اسبابها الداخلية ويضاف اليها اسباب خارجية

وهي ماقد يؤثر في عيني النائم من صور المرئيات لان العين تميز بين النور والظلمة ولو كانت مطبقة الجفنين وقد تميز بين نور ونور . وفعل النور بالعينين ولو كانتا مطبقتين يؤثر في كثير من الاحلام فاذا أُدخل مصباح الى غرفة بغتة وكان النائم فيها غير مستغرق في نومهِ فقد يحلم انهُ رأى ناراً شبت في منزل فأحرقتهُ

مثال ذلك أن رجلاً اسمه ليون حلم ان تياترو الاسكندرية احترق وسطع نور النار حوله ثم انتقل هو فجأة الى البركة التي في قلب المنشية فدارت النار على السلسلة التي حولها ثم انتقل الى باريس في زمن المعرض واذا النار شابة فيهِ فاضطرَّ ان يشترك في معمعة كبيرة واستيقظ حينئذٍ وفتح عينيهِ فرأى ان الممرضة دخلت غرفتهُ وبيدها مصباح ليلي وقع نوره على وجههِ بغتة

وحدث مثل ذلك لرجل آخر كان مريضاً فانهُ حلم انهُ عاد الى البحرية التي كان فيها قبل مرضهِ وذهب الى طولون ولوريه والقرم والقسطنطينيـة ورأى البرق وسمع الرعد واشترك في معركة بحرية ورأى لمعان النار من افواه المدافع فاستيقظ مذعوراً واذا هو يرى الممرضة دخلت غرفته وبيدها مصباح ليلي وقع نوره على وجههِ . ونور المصباح الذي دخلت بهِ الممرضة سبَّب الحلم الاول والثاني حالما وقع على العين اي انهُ نبه الحالم الى صور محفوظة في ذاكرته

واذا كان النور مستطيراً مستمرًّا كنور القمر كان تأثيره في النائم غير تأثير النور الساطع الذي يقع بغتة فانهُ يحلم حينئذٍ انهُ يرى فتاة جميلة المنظر او نحو ذلك من الاحلام التي تروقهُ

***

وكما يؤثر النور في عيني النائم تؤثر الاصوات الخارجية في اذنيهِ عدا ما فيهما من المؤثرات الداخلية كالطنين والدوي والصفير ونحو ذلك مما قد نشعر بهِ ونحن مستيقظون وقد لا نشعر ولكننا نشعر بهِ حتماً ونحن نيام . فاذا تشقق الاثاث من شدة الحر او وقع المطر او هبت الريح او قصف الرعد اثرت كل هذه الاصوات في اذني الحالم فحوَّلها الى حديث او غناء او صراخ او ما اشبه . لكن الاصوات لا تؤثر في احلامنا كالالوان لان اكثر الاحلام نظري لا سمعي فكثيراً ما يحلم النائم انهُ تكلم مع شخص وتحادثا محادثة طويلة ثم يشعر انهُ لم يتكلم بل كان عاجزاً عن النطق وان محدثهُ لم يتكلم ايضاً بصوت مسموع بل كان التخاطب بينهما بالافكار ويكون ذلك اذا لم تسمع الاذن صوتاً لان الانسان لا يقدر ان يستنبط شيئاً من لا شيء

اما اللمس فمؤثراتهُ كثيرة اكثر من مؤثرات السمع ويمكن ان نتكلم ساعات عما يحلم به الانسان من تأثير اللمس فيه وهو نائم لان هذا التأثير يمتزج بالصور التي ترد الى الذهن عن طريق البصر فينوّعها وينسقها تنسيقاً مناسباً له فكثيراً ما يشعر النائم بخفة غطائهِ فيحسب انهُ

لابس ثياباً رقيقة لا تدفئهُ او انهُ عارٍ او حافٍ. واذا كان يحلم حينئذٍ انهُ في احد الشوارع شعر ان الناس ينظرون اليهِ غير مستغربين ولو استغرب هو ظهوره امامهم على تلك الصورة. وهذا النوع من الحلم يحلم بهِ كل احد . ومن الاحلام التي يحلم بها الجميع الطيران في الهواء او في الخلاء واذا حلم الانسان هذا الحلم مرة تكرر حلمهُ بهِ مراراً ويقول في نفسهِ ان طيراني في المرة الاولى كان وهماً واما الآن فهو حقيقة لا ريب فيها. ولكنهُ اذا استيقظ حينئذٍ لم يتعذر عليهِ تحليل هذا الحلم اذا انعم نظرهُ وذلك انهُ يكون محمولاً على فراشهِ وقدماهُ غير ماستي الارض فهذا الشعور بانهُ محمول على غير قدميهِ يجعلهُ يعتقد انهُ طائر واذا كان نائماً على احد جانبيهِ حلم انهُ طائر على ذلك الجانب

***

ومن اهم تأثيرات اللمس ما يشعر بهِ النائم من حركات اعضائهِ الباطنة ولاسيما امعائهِ فان هذه الاعضاء تتحرك على الدوام في النوم كما في اليقظة اما في اليقظة فقلما نشعر بحركاتها لانشغالنا عنها باعمالنا المختلفة وليس الامر كذلك ونحن نيام فالمعرَّضون لالتهاب الحنجرة واللوزتين يحلمون ان قد ضيّق خناقهم حتى كادوا يختنقون ومتى استيقظوا وزال الحلم زال هذا الشعور ايضاً ولكن لا تمضي ساعات كثيرة حتى يصابوا بالالتهاب حقيقة اي انهم يشعرون بهِ وهم نيام قبلما يشتد حتى يشعروا بهِ وهم مستيقظون . وقد ذُكرتْ امراض وآفات كثيرة حلم بها البعض وهم نيام قبل اصابتهم بها فعلاً بحسب الظاهر ولذلك رأى بعض الفلاسفة مثل شوبنهور ان في داخل الوجدان صدى ما يقع من الاضطراب في المجموع العصبي السمباثوي وقال غيرهُ مثل شرنر ان كل عضو من اعضاء الجسم يسبّب حلماً خاصًّا بهِ . والّف بعض الاطباء مثل ارتيغيوس كتباً قالوا فيها انهُ يمكن الاستدلال بالاحلام على نوع المرض . واخيراً ابان المسيو تسيه كيف ان الاحلام المختلفة تدل على الآفات التي تصيب اعضاء الجسم المختلفة كاعضاء الهضم واعضاء التنفس واعضاء الدورة الدموية

وزبدة القول اننا ونحن نيام لا تنقطع مشاعرنا عن التأثر بالمؤثرات الخارجية بل تبقى تتأثر في النوم كما تتأثر في اليقظة . ولو لم يكن فعلها محكماً في النوم كما في اليقظة وان المؤثرات التي تؤثر فينا في اليقظة ولا نشعر بها لانشغالنا بغيرها يبقى تأثيرها فينا فنشعر بهِ ونحن نيام اذ تنقطع لانفسنا . فمجال شعورنا لا يضيق ونحن نيام بل يتّسع ولو في بعض الجهات . نعم انهُ يضعف في شدتهِ ولكنهُ يتسع في نطاقهِ فيأتينا بتأثيرات كثيرة مشوشة وهذه التأثيرات هي الخيوط التي تنسج منها احلامنا ولو كانت غير كافية وحدها لنسج الاحلام لغموضها وعدم وضوحها فاذا شعر

النائم بشيءٍ من النور والظلمة فقد يتصوَّرها كتاباً ابيض الورق اسود الحبر او بيتاً ابيض الجدران اسود الشبابيك او نحو ذلك من الصور التي فيها ابيض واسود . والذاكرة تحكم بأن ما يراهُ النائم هو هذا الشيء او ذاك . فاذا كان الانسان نائماً نوماً عميقاً فذاكرتهُ التي تنسج احلامهُ من الامور المحفوظة في ذاكرتهِ تنتبه بالتأثيرات الخارجية والداخلية التي تحدث لهُ حينئذٍ فيتولَّد الحلم من مجموعها وقد تكون هذه المحفوظات اموراً قديمة لا يتذكرها الانسان وهو مستيقظ فتستخرجها الذاكرة من اعماق نفسهِ وهو نائم . والغالب انها اشياء وقع نظرهُ عليها واصوات دخلت اذنيهِ وهو غير منتبه . او تكون من بعض محفوظات الذاكرة التي نسي اكثرها وبقيت فضلاتها في مخادع الدماغ فتلتقطها الذاكرة حينئذٍ وتمزج بعضها ببعض على غير نظام. وتخلطها بالتأثيرات التي تقع على مشاعر النائم ممَّا حولهُ

***

واني اعتقد ان كل سيرتنا الماضية محفوظة بتفاصيلها في نفوسنا لم يفقد منها شيء . كل ما شعرنا بهِ وادركناهُ وافتكرنا بهِ واردناهُ من اول ما ابتدأ شعورنا . كل ذلك محفوظ في مخادع النفس ولكنهُ غير ظاهر للعيان فهو يتوق الى الظهور ولكنهُ لا يجد اليهِ سبيلاً من تلقاءِ نفسهِ ولا نحن مهتمون بأمرهِ او متفرّغون لهُ لان لدينا مشاغل اخرى تشغلنا عنهُ . ولكن اذا اتَّفق ان انقطعنا عن اشغالنا اي عمَّا يتسلط على ذاكراتنا ونمنا تخلصت هذه المحفوظات من قيودها وخرجت من مخادعها وبادرت كلها يزحم بعضها بعضاً لتحضر امام الذهن في وقت واحد فيتعذر عليها ذلك لكثرتها ولا يصعب علينا ان نعرف ايها يتمكن من الحضور . فالمستيقظ يتذكر الامور التي لها علاقة بما حولهُ من المرئيات والمسموعات والملموسات وحينما ينام يحدث مثل ذلك اي انهُ يتذكر ما يلائم المؤثرات التي تؤثر فيهِ حينئذٍ ظاهراً وباطناً كالاشعة التي تتلألأ امام عينيهِ ولو كانتا مغمضتين والاصوات التي تقرع اذنيهِ ومن مجموع هذه وتلك يحدث الحلم اي ممَّا شعر بهِ المرء وهو نائم ومن الصور المرسومة في ذهنهِ من شعورهِ السابق . ثم ان الشعور الحاضر لا يكون واضحاً جليًّا فتختار لهُ الذاكرة الثوب الذي يلائمهُ وتلبسهُ اياهُ

فالحلم مثل كل المدركات في تولُّدهِ وتكشُّفهِ . فاننا اذا نظرنا الى جسم من الاجسام فما نراهُ منهُ قليل في جنب الصورة العقلية التي تريناايها الذاكرة فالذي يقرأ هذه الصفحة لا يرى كل كلمة من كلماتها وكل حرف من حروفها ولو اراد ان يتبيَّن كل كلمة فيها وكل حرف لقضى في ذلك ساعات كثيرة والحقيقة ان الذي يحسن القراءة لا يرى من الكلمة الاَّ بعض حروفها وقد لا يرى من العبارة الاَّ بعض كلماتها او ما يكفي للاستدلال على البقية وفهم المعنى . وهذه

البقية لا يراها ولكنهُ يتصوَّر انهُ رآها [1] وقد ثبت هذا بتجارب كثيرة من ذلك تجارب غولدشيدر وملَّر فانهما كتبا بعض العبارات المألوفة واخطآ في كتابتها عمداً فأبدلا بعض حروفها وحذفا بعضاً وعُرضت هذه العبارات في غرفة قليلة النور امام رجل ثم انيرت بالنور الكهربائي برهة قصيرة جدًّا لا تكفي القارىء للمرور بنظره على اكثر من ربع الحروف ومع ذلك سهل عليهِ ان يقرأ تلك العبارات من غير خطإ . ولما سئل عن الحروف التي رآها حقيقة ذكر بعض الحروف المكتوبة وبعض الحروف المحذوفة ايضاً حاسباً انهُ رآها بعيني رأسهِ والحقيقة انهُ رآها بعيني عقلهِ ولذلك يرى القارىء صحيحاً بعض الحروف المرسومة خطأً . ويفسَّر ذلك بان الحروف التي وقعت صورتها على عينيهِ ايقظت في ذهنهِ صور هذه الكلمات كما كان يقرأها قبلاً اي جعلته يتذكر صورها الصحيحة . فالذي يدركهُ القارىء حينئذٍ هو ما يتذكرهُ لا ما يراهُ . وعليهِ فالقراءة السريعة نوع من معرفة الغيب لان ما يراهُ القارىء حينئذٍ هو جزءٌ صغير ممَّا يدركهُ واكثر ما يدركهُ كان مخزوناً في دماغهِ [2]

فالانسان وهو مستيقظ يفعل دواماً ما يفعلهُ وهو نائم اي انهُ يدرك صورة ناقصة لما يشعر بهِ وهذه الصورة تنبه الصورة الكاملة التي في ذاكرتهِ وهذه الصورة الكاملة تكون كامنة في ذلك الوقت فتوقظها الصورة الناقصة وتنبّه الذهن لها

والظاهر ان محفوظات الذاكرة تترتب وتتنسَّق بحسب اجناسها وانواعها حينما يحدث ما يستدعيها . ويؤيد ذلك تجارب اجراها منستربرج قبل غولدشيدر ومُلَّر وهو انهُ كان يكتب كلمة غير مألوفة كتابة صحيحة ويعرضها لعيني الرائي مدة قصيرة جدًّا لا تكفي لرؤيتها جيداً ويقيم واحداً الى جانب الرائي يهمس في اذنهِ كلمة اخرى لا مشابهة بين معناها ومعنى الكلمة المكتوبة فيقول الرائي انهُ رأى كلمة تشبه الكلمة المكتوبة في صورتها والكلمة التي سمعها في معناها (وهنا ذكر برغسن الكلمات التي كتبها الممتحن وهي المانية وهي بمثابة لو كانت الكلمة المكتوبة مفتون والكلمة التي سمعها شجر فانهُ يقرأ زيتون كانهُ رأى الواو والنون وسمع كلمة شجر فتنبهت في ذهنهِ اسم شجرة مختومة بالواو والنون . وكذلك اذا كانت الكلمة المكتوبة فستق وهمس واحد في اذنهِ كلمة مدينة فانهُ يقرأها دمشق وهلمّ جرًّا)

(١) « المقتطف » ويصدق هذا بنوع خاص في قراءة الخط فان بعض الكتبة لا يكتبون من الكلمة الا بعض حروفها ومع ذلك يقرأها بسهولة من اعتاد قراءتها وقد يترك الكاتب ومرتب حروف الطبع بعض الكلمات وبعض الحروف خطأً فلا ينتبه القارىء لهذا النقص بل يقرأها كانها موجودة لان ذاكرته تحضرها امام ذهنه

(٢) (المقتطف) ويتضح ذلك من ان المبتدىء بالقراءة يضطر ان يرى كل كلمة وكل حرف ولكن متى خزنت صور الحروف والكلمات في ذهنه وتعلقت بمعانيها صار يقرأ « كرجاً » ويكتفي برؤية شكل الكلمة المألوف او رسم العبارة

وهذا هو تعليل ما ندركه وما نحلم بهِ فانهُ يكون في الحالين من مؤثرات حقيقية تؤثر في المشاعر ويكون فيها امور مخزونة في مخادع الذاكرة تنتهز الفرصة عند ما تفعل هذه المؤثرات فتظهر من مخادعها وتمتزج بها

ولكن ما هو الفرق بين الحلم والادراك في اليقظة او ما هو النوم من حيث فعل العقل ان كان العقل يعمل في النوم كما في اليقظة على ما تقدّم ولماذا نسمي فعله في اليقظة ادراكاً وفي النوم حلماً اي ما هي خواص النوم العقلية

الآراء كثيرة في هذا الشأن فقد قال البعض ان الانسان يتجرّد عن العالم الخارجي وهو نائم ويبطل شعوره بهِ. ولكننا ابنّا في ما تقدم ان المشاعر تشعر في النوم ولو لم تؤدّ الى الذهن صورة واضحة لما تشعر بهِ . وقال غيرهم ان النوم يوقف فعل القوى العليا من قوى العقل كأن مراكزها تصاب بنوع من الشلل الوقتي . ولا اظن ان هذا القول رهين الصحة . نعم اننا لا نستدل الاستدلال المنطقي غالباً ونحن نيام ولكننا لا نكون عاجزين عنهُ حينئذٍ فقد نستدل ونحن نحلم ونقيم اقيسة منطقية صحيحة محكمة بل انجاسر واقول ان الذي يحلم يفرط في الاستدلال واقامة الاقيسة المنطقية فيكثر شططهُ ولو اكتفى بالمشاهدة والمراقبة لجاءت احلامهُ قليلة الاضغاث والسخافات لكنهُ يحاول تعليل كل ما يشعر بهِ فيجمع بين المتناقضات ويرتكب الشطط . وهذا لا ينفي ان قوى العقل العليا تكون ضعيفة على نوع ما وقت النوم ولذلك تضعف قوة الاستدلال المنطقية ويصير منطق النائم صورة فقط . وعليهِ فلا المشاعر تتوقف عن عملها وقت الحلم ولا قوة الاستدلال

هذا من حيث الآراء ولكننا لا نعرف حقيقة الاحلام فعلاً ما لم نبحث فيها بانفسنا . ولا يستطيع الانسان ان يبحث في كيفية الحلم وهو نائم يحلم ولكنهُ قد يستطيع ان ينتبه حينئذٍ الى كيفية تدرُّجهِ من النوم الى اليقظة اذا عقد نيتهُ على ذلك . واسمحوا لي ان اذكر لكم كيف امتحنت أنا ذلك في نفسي . حلمت اني كنت اتكلم في موضوع سياسي امام جماعة من رجال السياسة فسمعت لغطاً زاد شدةً رويداً رويداً حتى صار صياحاً وضجة كبيرة واذا انا بقائل يقول (اخرج اخرج) وحينئذٍ استيقظت فسمعت كلباً ينبح فكان على الذات التي استيقظت حينئذٍ ان تقبض على الذات الحالمة وتقول لها لقد سمعت كلباً ينبح فظننته غوغاء تضجُّ فلا ادعك تذهبين ما لم تخبريني ماذا كنتِ تفعلين حتى ارتكبتِ هذا الخطأ . فتجيبها الذات الحالمة اني كنت بطّالة لا افعل شيئاً وهذا وجه الفرق بيني وبينكِ فانك انتِ اذا سمعت كلباً ينبح لا تعلمين ان الصوت نباح وصاحبهُ كاب من غير روية بل لا تصلين الى الحكم بان الصوت نباح والنابح كلب الاّ بعد جهد جهيد ولو بدا ذلك منكِ من غير ان تنتبهي لهُ بحسب الظاهر لانك تعودين الى معلوماتك

السابقة وما خزنته فيها في ذاكرتك وتجمعينها وتوجهينها الى هذا الصوت وتقابلين بينهُ وبينها حتى تري واحداً منها ينطبق عليه تمام الانطباق واذا اخطأت في هذه المقابلة والمطابقة اقل خطإ فلا يكون الاستدلال صحيحاً بل نوع من الحلم وهذا التطبيق بين الصوت المسموع ومحفوظات الذاكرة لا يتم الاَّ بجهد كما يفعل الخياط الذي يجرّب سترة خاطها على بدن من خيطت لهُ فانهُ يوسعها من جهة ويزمّها من اخرى حتى تنطبق عليه تماماً . ولذلك فأنت تبذلين جهداً كبيراً كلّ لحظة لادراك ما تشعرين بهِ . وحياتك في اليقظة حياة جهاد وعناء حتى في ساعات العطلة ولا تكتفين بالشعور والتطبيق بل تُغضين عن امور كثيرة تقع تحت حسك فلا تنتبهين لها ولا تنتبهين الاَّ الى ما تختارين . لـكن هذه الامور تدخل ذهنك عن طريق المشاعر اردت او لم تريدي وتخزن في مخادع الذاكرة وتظهر وانت نائمة فما دمت مستيقظة فأنت تختارين ممّا في ذاكرتك ما يناسب الحالة التي تكونين فيها وهذا الاختيار المتواصل هو ما نسميه بالذوق السليم وهو جهاد مستمر ولـكنك لا تشعرين بثقل وطأته عليك كما لا يشعر المرء بثقل الهواء الذي يضغط على بدنه ولـكنهُ يتعبك حتماً . ولا يفعل الذوق السليم فعلهُ الاَّ بتعب ومشقة . هذا واكرر ما قلتهُ لك وهو اني اختلف عنك في اني لا افعل شيئاً . فالجهد الذي تعانينهُ انت لا اعانيه انا لاني لا اهتم بشيء وما النوم الاَّ الابتعاد عن الهموم. اي ان نوم الانسان يكون على قدر انصرافه عن الاهتمام بامور الدنيا . فالوالدة التي تنام الى جانب سرير طفلها لا تسمع هزيم الرعد ولـكنها تسمع تنهد الطفل لانها تكون نائمة عن الاول ومستيقظة للثاني وما دام المرء يهتم بشيء فهو غير نائم عنهُ

وقد تسألينني ماذا افعل حينما احلم فأخبرك ماذا تفعلين انت وانت يقظى . انك تأخذينني انا الذات الحالمة — الذات الحاوية لماضي تاريخك تأخذينني وتضغطين عليَّ حتى ادخل في الدائرة الضيقة التي تخطّينها حولك . هذه هي اليقظة او حياة المستيقظ الطبيعية حياة الجهاد والارادة والعزم . اما الحلم فهو الحالة التي تقفين فيها حينما تهملين امرك وتفقدين قوة توجيه نفسك الى امر واحد اي حينما تبطلين استعمال ارادتك . والامر الذي يستدعي الايضاح هو الطريقة البديعة التي تجرين عليها في توجيه كل ما فيك من القوى الى الشيء الذي يهمك وذلك في لحظة واحدة من غير تمهّل . الاَّ ان ايضاح هذه الطريقة من متعلقات الفلسفة العقلية

***

هذا ما تقولهُ الذات الحالمة للذات المستيقظة . ولو زدنا في استنطاقها لزادت شرحاً واسهاباً . وخلاصة الفروق الجوهرية بين الحلم واليقظة أن القوى العقلية التي تشتغل في اليقظة تشتغل في الحلم أيضاً ولـكنها تكون حرة في الحلم ومقيدة في اليقظة . فالحلم يشمل الافعال العقلية

كلها ما عدا القيد والاهتمام . والحالم يدرك ويتذكر ويستدل ولكنهُ لا يقيس ولا يطبق ولا يدقق في القياس والتطبيق لان هذا التدقيق يقتضي جهداً عنيفاً . فحسبان النباح ضجة استنتاج بسيط لا يقتضي عناء ولكن الحكم بأنهُ نباح كلب لا يكون إلاَّ بعد إعمال الفكر وإعمال الفكر هو الذي ينقص الحالم وبهِ يمتاز عن المستيقظ

وبهذا الفرق الجوهري نفهم مزايا الاحلام أي مميزاتها فيفهم مثلاً لماذا تكون غير منسجمة وقلما يلاحظ فيها امتداد الزمن او توالي الحوادث بحسب اهميتها

فعدم الانسجام سهل التعليل لان الحلم لا يقتضي الانطباق التام بين ما يشعر بهِ الحالم وما يتذكره بل كثيراً ما يطبق الحالم امراً على أمر مخالف له أو يطبق اموراً متخالفة يأتي بها من ذاكرتهِ على أمر واحد يشعر بهِ. مثال ذلك أن ترى عيناه نقطاً بيضاً في بقعة خضراء فيتصورها مرجاً أخضر فيهِ أزهار بيض او طاولة البلياردو وعليها كرات العاج أو نحو ذلك مما يجتمع فيهِ الاخضر والابيض ويكون محفوظاً في ذاكرتهِ . وتتسارع هذه الصورة من الذاكرة وكل منها يحاول ان يلصق بالتأثير الذي دخل ذهنهُ فقد تتوالى عليهِ الواحدة بعد الأخرى فيرى أولاً مرجاً ثم طاولة بلياردو وقد يظهران دفعة واحدة حتى لا يرى فاصلاً في الزمن بين الصورة الاولى والثانية فتكون الصورة مرجاً وطاولة بلياردو في آن واحد وعلى هذا النمط يحدث كثير من الاحلام الغريبة التي ينتقل فيها الشيء إلى غيره حالاً وإذ يرى العقل ذلك يحاول إيضاحهُ فيزيدهُ غموضاً

ولهذا السبب عينهِ ينتفي الزمان من كثير من الاحلام فيرى الحالم في ثوانٍ قليلة حوادث لو تذكرها في يقظتهِ لقضى في تذكرها يوماً كاملاً لانهُ وهو في اليقظة يعيش مع غيره من الناس فيرى ما يجري لهُ متتابعاً بحسب اتصالهِ بهم كأن معاشرتهُ لغيره بمثابة ترس ساعة له اسنان كثيرة تنقسم بها حركة زنبلكها إلى ساعات ودقائق بدلاً من تركه ينحل في وقت واحد . وهذا الترس المسنن لا وجود له في الحلم فلا محل فيهِ للتحكيم والتدقيق وما يقتضيانهِ من الجهد والعناء ولذلك لا يضطر الحالم ان يطبق ما في نفسهِ على ما هو خارج عنهُ

***

بقي ان نعلل كيف أن همود العقل يجعل الحالم يقدم بعض صور الذاكرة على البعض الآخر مع أنها تنطبق كلها على الحالة التي يكون فيها على حدٍّ سوى

من الآراء المشاعة اننا نحلم في الليل بما كان يشغل افكارنا في النهار خاصة . وهذا يصدق احياناً ولكن ان كانت الافكار التي نفكر فيها في النهار تبقى معنا ونحن نيام فذلك دليل على اننا

لا نكون نائمين النوم الحقيقي المريح بل النوم الذي نستيقظ منهُ متعبين كأننا لم ننم

اما الاحلام التي نحلمها في النوم العادي المريح فتكون غالباً مقترنة بالافكار التي خطرت لنا خطوراً وبالمواضيع التي مرت بنا ولم نمعن النظر فيها . وإذا حلمنا بما حدث لنا في يومنا فالغالب ان يكون بالطفيف منهُ لا بالمهم فاذا كنت في شارع منتظراً مركبة اركب فيها ولما دنت مني اجفلت عن غير قصد ولغير داع خوفاً من ان تصدمني مركبة اخرى فقد احلم تلك الليلة ان مركبة صدمتني ومرّ عجلها عليّ ولكنني لا احلم بالمركبة اذا صدمتني فعلاً . واذا سهرت على مريض مشرف على الموت وخطر ببالي انهُ قد يشفى ولو كان الرجاء من شفائهِ مقطوعاً ثم نمت فقد أحلم انهُ شفي . والحلم بالشفاء اكثر وقوعاً من الحلم بالموت ولوكان المريض على حافة القبر ومن المحقق ان الامور التي يراها الانسان في حلمهِ هي في الغالب الامور التي تمر في بالهِ وقت اليقظة مروراً لا التي يمعن نظره فيها ويتعلق قلبهُ عليها . ولا غرابة في ذلك لان الذات التي تحلم هي الذات التي لا تهتم ولا تعنى والصور التي تجمعها من الذاكرة هي الصور التي تدخل الذاكرة من غير تعب ولا عناء

***

أما إذا كان النوم عميقاً جدًّا فيحتمل أن تكون أحلامه غير ذلك ولكن هذه الاحلام تنسى عادة ولا يتذكرها المرء بعد ما يستيقظ وإذا تذكر شيئاً منها شعر كأنهُ آت من مكان سحيق وزمان بعيد دلالة على انهُ تذكر في حلمهِ اموراً مرت عليهِ في صباه ولما استيقظ حاول ان يسترد بهجة الصبا فقالت لهُ هيهات

فالى أحلام هذا النوم العميق يجب أن يتجه بحث علماء النفس لكي يكتشفوا كيف تتجلى محفوظات الذاكرة بعدأن يكون صاحبها قد نسيها ولكي يعلموا الامور التي تدخل في دائرة المباحث النفسية . ولا أجسر أن أبدي رأياً في هذا الموضوع ولكنني لا أحجم عن الاعجاب بالغيرة والهمة اللتين يعمل بهما أعضاء جمعية المباحث النفسية فان كان التلبثي تؤثر في أحلامنا فمن المحتمل أن يكون أشد تأثيرها فينا ونحن نائمون هذا النوم ولكنني أكرر ما قلتهُ سابقاً وهو أني لا أستطيع أن أبدي رأياً في هذا الموضوع . وها قد سرت معكم على قدر استطاعتي فأقف عند عتبة المجهولات وستكون أهم أعمال علماء النفس في هذا القرن البحث في أعمق أسرار الوجدان أو فيما نسميهِ بالوجدان الباطن ولا شبهة عندي أن الباحثين سيكتشفون فيهِ مكتشفات عجيبة لا تقل اهميتها عن اهمية ما اكتشف مدة القرون الماضية كلها في العلوم الطبيعية هذا ما ارجوهُ واتمناهُ واجعله مسك الختام

موعظة شهر الورود

للآنسة « مي »

من خمس عشرة سنة في المقتطف

دنا المساء فهزني طرب الربيع ورغبت في الخروج والتجوال لاشارك الطبيعة في افراحها كأني حسبت جدران البيت تقطع الصلة بيني وبينها ، وتشعرني بأن السكون حرمني من مشاركة موجوداته الهاتفات بأريج ايار بين الغصون وبزينة الارض العروس

خرجت وليس لي وجهة معينة اطلب بداهة احياء قلما اخترقتها . فسرت في شارع قصير على مقربة من شارعنا كأن نفسي المتيقظة لبت داعي الاخضرين المحيطين بهاتيك المنازل : اخضر يبسط على ارض الحديقة طنفسة مخملية ، وأخضر يتعالى ظليلاً فيعكس طيف افنانه على وجه الجدران الشاهقات

سرت متمهلة انتقل من رصيف الى رصيف ، والشمس آخذة في التحدر وقد انكسرت حدتها ولطف نورها حتى بدت الاشعة حزينة بما مازجها من معاني الفراق . وما كان اندر المركبات والسيارات في ذلك المنعرج ، والمارّون يتبادلون نظرة كأنهم لقلتهم يقولون « أرأيت ؟ لا احد الاّ أنا ! »

اتيت على آخر الشارع فنفذت منهُ الى شارع رحب طويل هو شارع ماريت باشا المؤدي الى دار الآثار المصرية . فخطوتُ مترددة بين العودة من حيث أتيت ومتابعة المسير الى الامام . واذا بناقوس يدق على مقربة مني ولرنينه ازاء الغروب دويٌّ متوسل حنّان . فالتفتُّ الى جهته فوجدتني امام كنيسة صغيرة رأيتها مراراً ولم ادخلها مرة

وقفت اتأمل واجهة الكنيسة وأدير نظري في الحديقة التي تتقدمها وكانت تجتازها بعض السيدات . فلما توارينا وراء باب الكنيسة تبادر اليّ انهُ يُحتفل بصلاة الشهر المريميّ في هذه

الساعة من كل يوم على طول الشهر ، لان ايار (مايو) مكرّس للعذراء . ولم يعد يدهشني الآن ان أرى فتاة تسير بخطوات عصفور في ثوب ازرق كزرقة الاحلام وتتوارى هي ايضاً وراء باب الكنيسة لاجد مني شوقاً الى مشهد الهياكل وتوقاً الى رائحة البخور . اضحكوا ما شئتم ، انتم الزاعمون ان الثوب المليح دعاني ، وان زيهُ البسيط وتخريمهُ الدقيق كان له مع المرأة مني احاديث

اما الكنيسة فكانت مملوءة بالمصلين ولم يخل في مقاعدها الاّ مكان واحد جثوت عنده قرب الكاهن الراكع امام المذبح يتلو المسبحة باللاتينية فيرد عليه الجمهور بلهجة الخاشع المتهيب

لا اعرف شيئاً اجمل وأسمى من الصلاة في اي دين من الاديان ، لانها رفع النفس الى اعلى درجات الارتقاء ومحاولة الدنو من روح الحياة الكبرى . هي مناجاة العابد للمعبود ، هي شكر المخلوق للخالق واستعطافهُ لاستنزال عطاياه . وما اعذب هذا الاعتقاد ان في السماء هناك وراء جميع القوى والعجائب الكونية الهاً قديراً لا يقضى دونهُ امر ، لديه النعم يفيضها على الحاجة البشرية ، وعزة يتلاشى حيالها ضعف الانسان ، وجودٌ يعمُّ البرايا فتموج وتتنوع وتنبض بالحياة والقوة والتحول . الاّ اني لا استحسن الصلاة الآلية المستطردة على وتيرة واحدة دون ان يشترك فيها العقل والقلب ، — الصلاة المتعاقبة ألفاظها بين الشفاه والاصابع تعد منها ارقاماً معينة — لانها ابعث الى التنويم المغناطيسي منها الى الايقاظ الروحي". قد يكون هذا التأثير من تفنن الشيطان في التجربة والخداع . قاتله الله ! لقد وسوس في صدري حتى شتت أفكاري وحملني على احصاء الحاضرين . وكانت النتيجة اني جزمت بأن النساء اسبق الى دخول السماء نسبة الى عددهنّ في الكنيسة ، اذ لم يكن بين مائتي امرأة الاّ رجلان وخمسة ارباع . أما الرجلان فرجلان ، وأما الخمسة الارباع فصبيان صغار خمسة جاءوا مع امهاتهم . وكم كنت ظالمة في الاحصاء والحكم ذلك اني عند الخروج وجدت جمهور الرجال في مدخل الكنيسة يقفون هناك مراعاة للسيدات وتكرماً منهم لهنّ بالمقاعد

وظلّ الخنّاس الوسواس يجربني فحسّن لي تفحص المعبد فتفحصت جدرانهُ وما قام عليها من صور وتماثيل ، وهندستهُ وما ميزها من نقوش ورموز ، وهياكلهُ وما تناسق عليها من صلبان وطاقات ازهار — تلك الازهار ذات الانحناء السريّ تتخللها شموع كأن لهيبها تذكارات لاذعة في شفق الغيبوبة والنسيان

لكل شيء في العالم نهاية . صمتت الاصوات فمشى الكاهن الى الدرابزون امام المذبح الكبير وبدأ موعظتهُ الايطالية . وكان يقول اشياء عادية بصوت المثبت واشارتهُ مرتبكة كاشارات التلاميذ في حفلة توزيع الجوائز . ولكن لم يلبث ان ارتفع صوتهُ وركزت هيئتهُ واتسعت اشاراتهُ ولمعت عيناه وهو يقول :

« الى مريم ربة هذا الشهر الجميل يجب ان تلتجىء النساءُ جميعاً . فالامهات يتعلمنَ منها التجمل بالصفات التي احاطت بها ابنها يسوع : وهي الحنان والحصافة والمحبة الصادقة التي لا زهو فيها ولا تهور . لقد كانت ، وما زالت ، وستبقى ابداً اسمى مثال للامومة القدسية ، تسير الامهات وراءها مستوحيات اساليب التربية والتهذيب

« اليها يلتجىء اليتامى الذين لا امّ لهم فيجدون في حضنها الراحة والعطف والمساعدة . اليها تلتجىء العذارى لانها ابهى مظهر للطهر والحشمة والوداعة

« اسمعن يا اخواتي يا نساء القاهرة ! اليكنّ أوجه هذه الكلمات فأقبلنها لانها خلاصة اعتقادي ، تعلمنَ الحشمة من مريم انتنّ بنات اليوم الناسيات . ما وقار المرأة واحترام الناس لها الاّ نتيجة حشمتها وعفتها . ! قد تكنّ عفيفات طاهرات في قلوبكنَ ولكن كيف يصدّقكنّ الرائي ويحسنَ الظنّ بكنّ وانتنّ تسرنَ في الشوارع بهذه الازياء الحديثة التي تعري منكنّ العنق والنحر والذراعين ، هذه الازياء الشريرة بأقمشتها الشفافة ، الشريرة بقصرها وضيقها ، التي تعدم لابستها كل هيبة وجلال

« أللحب تتزينَ ؟ أللحب تهنَّ في هذا التهتك ؟ ألا فاعلمنَ اذاً ان حب الرجل لا يكتسب بالتهتك بل بالتكتم . الرجل محارب من طبعهِ يهوى الفتوحات ويستميت في الاخضاع بينما هو يعرض عن كل ما لا يكلفهُ ألماً وكدّاً . فلماذا يسعى اليكنّ وانتنّ تخطرنَ في كل مكان ؟

« ام انتنّ تتزينَّ للجمال ؟ ولكن هل الجمال في الزينة والاناقة وملاحة الوجه وتناسب الاعضاء ؟ كلاّ ! كم من امرأة تُحسب آية تناسب وملاحة وهي مع ذلك غير جميلة اذا سرّ امروءٌ بمشاهدتها مرة او مرات فهو لا يتمنى مجالستها ويملّ كلامها وسخافتها بعد ان يعرفها قليلاً اذ يرى ان احسن ما فيها هو هذا الشيء الخارجي الذي لا يكفي لامتلاك القلوب واكتساب الارواح

«ألا فاعلمنَ ان النساء اللاتي كنّ ذوات أثر في اعاظم الرجال وذوات سلطة وشوكة

حزنَ جمالاً اعظم من هذا الجمال الخسيس وأبقى . لقد كان لهنَّ جمال النفس الذي تزيده الايام رونقاً بينا هي تحكُّ القشرة هنا وهناك وتوسعها كل ساعة ذبولاً واتلافاً . كان لهنَّ جمال العقل وجمال القلب ، وجمال حسن التصرف ، وجمال اللطف الصحيح ، وجمال المحبة الطاهرة العميقة المستخفة بالمظاهر التي لا يغرها جمال الشباب وجمال الاناقة وجمال الازياء

« أتعلمنَ ما هو الشباب والجمال ؟ هما حديقة تملأ الازهار النضرة والعطور المنعشة ، يقف امامها المارُّون معجبين . وما هو الا يوم وليلة فتمرّ العاصفة صارعة اشجارها ، مبددة ازهارها مبيدة عطورها ، وتغادرها خالية الا من اكوام التراب والاغصان المكسرة . هذا ما تسمونهُ جمال الشباب اي جمال القشور . اما الجمال الآخر فهو جمال الجوهر . الآلام تطهره ، والمصائب تجلوه ، والعواطف تفعمهُ قوة ونبلاً . هو الجمال الذي يبقى نامياً مدى الحياة . هو مسعد العائلة ، هو مساعد الزوج ، هو مهذب الاطفال ، هو السلام والخير والبركة . ولتحفظه المرأة ... اسمعنَ ايتها السيدات . . . لتحفظ المرأة ذلك الجمال . عليها ان تكون وردة تحيط بها الاشواك . . . . »

انتهت الموعظة . فعزف الارغن الشجيّ وابتدأ الزياح فاشترك الجميع في الترتيل وتصاعدت الشعائر نحو الله ملحنة انغاماً ومحترقة امام هيكله بخوراً

وعند خروجي من الكنيسة كان الظلام يغمر المدينة ومضيئو المصابيح يجرون في الشارع حاملين المشاعل . فوقف احدهم يتفرج على السيدات وهو يفترّ عن اسنانه البيضاء ، ويثني على كل مارة الثناء المعتاد قائلاً بلهجته المصرية النعشة « انت يا واد يا حلو ! انت ياللي زي الباشا ! انت يا واد يا حلاوة »

هذه هي موعظة شهر الورود : على المرأة ان تكون وردة تحيط بها الاشواك . وما «اشواك» الوردة النسائية غير التكتم والحشمة والطهارة كما قال ذلك القس . فان عجبتم اليوم لهذا الكم الطويل الذي يتعثر قلمي بأذياله فاعلموا ان سببهُ موعظة شهر الورود . وان اعرضت عن ذلك الثوب الشفاف الساحر واستبدلتهُ بهذا الشبيه بثوب ابينا الواعظ لكثافته فما سببه الا موعظة شهر الورود . وان غادرتكم الآن ، فما ذلك الا لأني اريد ان اسمع موعظة شهر الورود مرة اخرى

— مايو سنة ١٩٢١ —

من عشر سنوات

في المقتطف

النهضة الشرقية الحديثة

وأظهر مظاهرها

مختارات من استفتاء المقتطف

تم سنة ١٩٢٦ — ونشر سنة ١٩٢٧

تزحزح الشرق عن جموده

للشيخ مصطفى عبد الرازق

أظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة في الشرق الادنى هي النهضة الفكرية التي تزحزح الشرق عن جموده والتي هي اساس لكل نهوض

بدت مظاهر الجمود العلمي في الشرق ، حين عدا على الشرق الجمود ، من وجهين :

احدها — صبغ العلوم كلها بصبغة واحدة ، والذهاب بغاياتها جميعاً الى وجهة دينية ، ليست هي الغاية التي تتجه اليها العلوم بطبيعتها

فعلم العروض الغرض منهُ ان تعلم ان القرآن الكريم ليس بشعر

وعلم الحساب تعرف بهِ تقسيم المواريث على النظام الشرعي

وعلوم الهيأة والفلك تهتدي بها الى القبلة ومواقيت الصلاة

والفلسفة يراد بتعلمها الرد على ما تتضمنهُ من آراء مخالفة للدين

والامر على هذا المنوال في سائر العلوم

ولاشك ان توجيه العلوم في هذا الاتجاه ضيق دائرتها وانحرف بها عن مذاهبها ، ووقفها عن التقدم ، ووسمها في قواعدها وشواهدها واغراضها بسمة خاصة هي سمة الدين التي لا تحتمل كل ما تحتمل حرية البحث العلمي من فروض وتجارب وشكوك

والوجه الثاني — تغلب الاسلوب الديني على اساليب النظر المنطقي في جميع مناحي البحث ، وهو متصل بالوجه الاول

الدين يعتمد على نصوص مقدسة مصدرها الوحي الالهي ، وكل جهد التفكير الانساني فيها هو تفهمها وتأويلها ، والتماس حكم ومؤيدات من جانب العقل لما جاءت به

اما البحث العلمي فهو يتناول الاشياء والحوادث والمعقولات ، يحلل مركباتها ، ويؤلف بسائطها ويستقريء جزئياتها ، ويصل بين عللها ومعلولاتها

هما اسلوبان متباينان ، قد لا يستغني الانسان عنهما ، لكن لا يجوز له الخلط فيهما

على ان انحطاط الشرق ، وتقاصر الهمم فيه ، وارتباك العقول ، وفقدان روح الحرية والاستقلال ، كل اولئك خلط بين الاسلوبين بل محا احدهما ، واصبحت العلوم ديناً تحترم نصوص المؤلفين السابقين فيه كما تحترم الكتب المنزلة ، ولم يبق للاحقين الا ان يتدارسوا ما كتب الاولون ، ويخدموه بشرح او حاشية او تقرير

وهكذا جمد العقل وجمد العلم وجمد الدين

***

ثم جاءت النهضة العلمية الحديثة في الشرق ، تفصل بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية ، وتخلص اساليب البحث العلمي من الاسلوب الديني

نشأت هذه النهضة في مصر باتصالها بالمعارف الغربية ، فقد جاء مع (بونابرت) علماء كانت آثارهم بزوراً لم تذهب كلها بداداً

وارسل محمد علي الكبير الى اوربا بعثات علمية اختارها من الازهر . فذهبت متينة باخلاقها الدينية وتعليمها الازهري ، وعادت أشد متانة واوفر كفاية بما كسبت من معارف جديدة ، وبما عرفت كيف تفصل بين وجهة النظر الديني ووجهة النظر العلمي

اخذوا يضعون في ضروب من العلم مختلفة مؤلفات ليست متوناً ولا شروحاً ولا حواشي ولا تقارير ، وليست على ذوق الدينيين وما ألفوا من أساليب وأخذوا يعرّبون خير ما عند الفرنجة من كتب في الفنون التي درسوها . واليهم يرجع الفضل في النهضة العلمية الحديثة

وقد وصل اثرهم الى المعاهد الدينية نفسها ، التي نشأوا فيها نشأتهم الاولى ، فتنبه اهل تلك المعاهد الى صنوف من العرفان لم يعرفوها ، واساليب من التفكير والبحث والبيان لم يألفوها

واذا كان ذلك مما أثار كفاحاً بين الجمود الذي لا يريد تغييراً والنهوض الذي يريد ان يحل العلم من عقاله ، ان يجعل للدين سبيله خالصة ، فهو قد أنبت بين الدينيين انفسهم فكرة اصلاحية . وأنهض من بينهم مصلحين يعملون على تقرير حرية العقل واعتبارها مما جاء به الدين

وكانت خدمة هؤلاء المصلحين للدين والعلم خدمة جليلة بما أيدوا حرية العقل من وجه ديني

وبما حسموا اسباب عداوة بين الدين والعلم كان رجالٌ يثيرونها في نفوس الجماهير حرباً مدمرة
خدم هؤلاء المصلحون دينهم ، اذ ردّوهُ الى ينابيعهِ الصافية ، وجرّدوهُ من التشويه والسخف ، وأبرزوهُ كما أنزلهُ الله من السماء نقيًّا حرًّا سمحاً كريماً
وخدم هؤلاء المصلحون النهضة العلمية في مهدها ، وصانوها من طغيان الجاهدين ، وردّوا عنها كيد الكائدين
ولقد كان الامام محمد عبده يهتف في الناس بكل ما أُوتي من قوة الايمان وقوة العقل ، ان ليس من الدين ان يرمى بالكفر اهل النظر العقلي وان زلوا ، فانما هم يطيعون الله في تحريك عقولهم « ويتفكرون في خلق السموات والارض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك »
اما الذين جاؤوا بعد الشيخ محمد عبده يقذفون كل مفكر بالكفر ، فأولئك في ايمانهم ضعف وفي عقولهم

***

ومن العوامل التي لها في نشر الحركة العلمية في الشرق أثر معاهد العلم التي انشأها الاجانب
ولئن كان في كثير منها منازع مؤذية ، فقد تضاءل كل اثر لها غير صالح الى جانب أثرها العلمي ، فان العلم يأبى بطبعهِ الا ان يكون مثمراً ثمرة خير
ومن قبل ما قال الغزالي : « طلبنا العلم لغير الله فأبى الاّ يكون لله »

***

وقد نشأت الصحافة مع نشأة النهضة العلمية . فكانت مظهرها قوة وضعفاً وتأثرت بها وأثرت فيها
لكن الصحافة كثيراً ما تراعي هوى الجمهرة من قرائها ، وكثيراً ما يكون هوى العلم غير ما تهوى الجماهير
بيد ان مجلات علمية نشأت في مهد علمي وحملت لواء العلم ، قد ادت للعلم احسن خدمة بتيسيرها مباحثهُ العويصة ، ومثابرتها على بث التفكير العلمي ، والمبادىء العلمية وقد كانت ولا تزال ، مدارس صالحة لطوائف من المتعلمين لا يتهيأُ لها ان تساير حركة الرقي الفكري في العالم الاّ من سبيلها

***

واذا ذكرت النهضة العلمية في الشرق الادنى وذكر انصارها فالمقتطف جدير بان يحمل راية السبق في هذا الميدان
خمسون عاماً من اعوام الجهاد في خدمة العلم وحرية الفكر في الشرق يُنظمها الدهر فوق جبين شيخ المجلات ، إكليل مجد وفخار

طلائع التفكير الحر

لسامي الجريديني المحامي

في التاريخ نهضات كثيرة منها ما كان سياسيًّا نقل السلطة من يدٍ الى اخرى ومنها ما كان اجتماعيًّا قضى على نظم موروثة وتقاليد معبدة ومنها ما كان ادبيًّا غيَّر نظام التفكير وفكَّ العقل من قيوده

فهل عندنا في الشرق مثل هذه النهضات ؟ او بالاولى مثل هذه الثورات ؟

ولماذا نقول النهضة في « الشرق ». اني لا احبّ هذا التعميم — فما هو الشرق ؟ ومن هم الشرقيون ؟

ولماذا نسير وراء هذا التقسيم القديم الاعمى فنفصل العالم الى شرق وغرب

قف امام خارطة العالم واجعل اعلاها شمالاً واسفلها جنوباً ويمينها شرقاً ويسارها غرباً ترَ مصر مع افريقيا في الجنوب لا في الشرق . بل انت ترى اوربا نفسها شرقاً اذا قيست بأميركا

ألأنهُ خطر لقدماء الاغريق ان يقسموا العالم الى شرق وغرب يجب ان نسير نحن وراء هذه القسمة

انها ليست على شيء من حقيقة الجغرافية

وهل يصح ان نكون نحن شرقيين مثل اليابانيين والصينيين وبُعْدنا عنهم جنساً ودماً وديناً بعد ما بين السماء والارض . وهل يصح ان يكونوا اقرب الينا منا الى اليونان والبلغار والتليان وبيننا وبين هؤلاءِ ربط عديدة لا تجدها بين الصين ومصر مثلاً

او نقصد الى القول بأن النهضة في مصر ترمي الى انهاض الحجاز والعراق وفلسطين وسوريا وتركيا وما الى هذه البلدان التي تجمعنا بها جامعة قديمة

الحقيقة اننا لا نجرؤ على القول بالقومية بعد . اننا لا نجسر ان نقول ثورة مصرية او ثورة سورية او ثورة تركية فنعمم ونقول شرقية كأننا لم نعتد بعد التفكير تفكيراً قوميًّا لحداثة عهدنا بمثل هذا التفكير . اللهمَّ الاَّ الاتراك فقد ساروا على غير ما نسير نحن عليهِ ولعلهم شدوا الرحال في سيرهم شدًّا سريعاً قد لا يكون ممدوح العاقبة لبعد ما بين الغرض الذي يرمون اليهِ وتاريخ

عنصرهم المعروف . ولكنهم في نظري الشعب الشرقي الوحيد السائر الى غاية محدودة على طريق محدودة — لذلك يصح لنا بحقٍ ان نقول « نهضة تركية » فانها ثورة سياسية واجتماعية تهيأ لها ما يتهيأ لكل الثورات — زعيم يقود رامياً الى غرض وسير حثيث الى هذا الغرض وجهاد مع اجنبي أثار فيهم روح القومية باستفزاز عواطفهم وهكذا سبيل الشعوب في تكوين قوميتها . دع عنك ما على هذه النهضة من انتقاد ليس هنا محل البحث فيهِ

اما في ما سوى ذلك فأين النهضات في « الشرق » اذا سلمنا جدلاً بهذا التقسيم الذي يفصل العالم الى شرق وغرب

نحن من الذين يعتقدون ان الحضارة الغربية خير الحضارات التي يتعين علينا اقتباسها كما اننا من الذين ينظرون الى الامر الواقع فيرون انها هي الحضارة السائدة العالم ونحن من الذين يعتقدون ان طريق نجاتنا في مسالمة هذه الحضارة وتكييف حضارتنا عليها تكييفاً لا يناقضها بل يماشيها

ذلك ان التاريخ يقص علينا قصص اصطدام الشرق بالغرب منذ العصور الاولى حتى الساعة فما قص الاَّ حديث اصطدام كانت نهايتهُ انهزام الشرق امام الغرب — فالعاقل من اعتبر وعرف ان يتلمس طريقاً غير طريقٍ جربهُ فقادهُ الى مواطن الخطر

ونحن من الذين يعتقدون انهُ لا بقاء لنا في معترك الحياة الدولية الاَّ اذا كوَّنّا قوميات شرقية مستقلة مثل القوميات الغربية . فكما انك لا تطمع في تكوين شركة تجارية او جمعية ادبية الاَّ اذا عثرت على « شخصيات » مستقلة هي افراد الرجال كذلك لن نكون اهلاً لدخول المجتمع المتمدن ان لم تكن لنا شخصية صحيحة وهي القومية بما تعنيهِ هذه القومية من معانٍ وما تفرضهُ من تبعات وحقوق

فليست الحضارة الغربية لباساً يرتدى او لغة يرطن بها بل هي اساس عميق للحرية : حرية الفكر والقول والعمل ، وبناء شامخ للنظام : النظام القائم على هذه الحرية

فهل عملنا على اقتباس هذه المدنية ؟

اني على الرغم مما بي من التشاؤم عند ما ادرس تاريخنا القديم وعند ما انظر الى حاضرنا ، اني على الرغم من ذلك اظن اننا وقد احتككنا مكرهين بالغرب -قد بدأنا نثور ثورة فكرية لا بأس بها فالتفكير الحرّ اساس كل نهضة سياسية كانت ام اجتماعية . ولا تسل عما يؤدي اليهِ هذا

التفكير . لا . دعهُ يسير . فهو يقاوم ويُقاوم وتصطدم حريتهُ بحريات اخرى وهكذا الى ان يتمّ النصر للفكر الصحيح

فما لا شكّ فيهِ ان جرثومة التفكير الحرّ بدأت في مصر وفي سوريا منذ نيّف وخمسين عاماً — بداءة بكتّابٍ فكروا تفكيراً حرًّا صدم ما في الجماهير من عقيدة موروثة فوقفوا في سبيلها ولكن الفكرة نمت فجاءت بقوم قاوموا استبداد الحكام في عز جبروتهم الطاغي ووقفوا في وجه رجال الدين ينعون عليهم جهلهم فما زالت حتى زحزحت ما كان لنفوذهم من مقام

على ان التفكير الحرّ في مصر وسوريا لم تتح لهُ عوامل سياسية تساعدهُ

فقد كان اختلاف الحكام في اوربا وتضارب مطامعهم السياسية مما جعل بعضهم ينصر لوثر في إصلاحهِ وبعضهم يشجع الهوجنوت وبعضهم يحمي ڤولتير وهكذا وجد المفكرون الاحرار الفقراء من يأخذ بأيديهم على غير قصد فساروا يحملون شعلة فكرهم الى ان حرقوا الهشيم القديم

اما عندنا فقد اتفق فيما مضى الجمهور مع حكامهِ المستبدين فكانوا يقاومون كل تفكير حرٍّ اينما ظهر

ولكنهُ على الرغم من هذا ظلّ حيًّا وها قد بدت طلائعهُ تظهر ظهوراً لم نعهدهُ من قبل فهل يتمّ لهُ النصر او يظل محصوراً في دائرة ضيقة كما كان في الماضي فلا ينمو ولا يعيش ؟ لا اعلم

ان تاريخ اضطهاد التفكير الحرّ لتاريخ مجيد . ومجدهُ تاج يلبسهُ كل هؤلاء الذين اضطهدوا وعذبوا وحوكموا وسجنوا في سبيل تفكيرهم

وها قد ذهب الآمرون بالتعذيب والناهون عن الحرية ولم تبق الاّ ذكرى الابطال — أبطال المفكرين تفكيراً حرًّا

فان نحن اجتزنا العقبة وعبرنا السبيل كما عبرهُ اسلافنا المفكرون الاحرار غير مبالين بما نلاقيهِ من اضطهاد او عقاب فاننا نكون حقًّا قد وضعنا الاساس المتين ونكون قد مهّدنا الى نهضة اجتماعية وسياسية تأتي بأسرع مما نظن فنتبوأُ مكاننا في مجتمع الحضارة الصحيح

فالحرية أساس كل بناء في حضارة جديرة بأن تعيش . فاذا قام شعب بنهضة سياسية لا تكون الحرية اساساً فيها فلن تكون تلك النهضة الاّ قلقاً غايتهُ التخلص من نير الى نير ونقلاً للحكم من يد الى يد اخرى — وهذا ما نعوذ بالله منهُ

حرية الآداب

لعباس محمود العقاد

ما هي النهضة ؟ هي الخروج من حالة الجمود إلى حالة الحركة ، او هي الانتقال من المحاكاة والتقييد إلى عهد الاستقلال والحرية . فاذا أردنا أن نقوّم نهضة بقيمتها الصحيحة فنبحث عن دلائل الحرية فيها فثمَّ النهضة وثمَّ يكون أظهر مظاهرها

بيد أني أقسم الحرية إلى نوعين : نوع أسميهِ الحرية المادية وأعني بهِ الحرية الاضطرارية أي الحرية التي لا نكون أحراراً في طلبها بل نعمد اليها مكرهين مدفوعين بحكم الأحوال القاهرة وبواعث المعيشة، وتلك حرية ناقصة مبتورة لانها حرية من لا حرية لهُ في الاختيار فاذا تبدلت أحوال المعيشة فضاقت بنا عاداتنا وعقائدنا في أحوالنا الجديدة فبرمنا بها ونفضناها عنا فتلك حركة مباركة وحرية طيبة ولكنها على هذا حرية تعلوها حريات ومنزلة لا تغبط الامم على الوقوف لديها وليس يصعب عليك أن ترى مثيلاً لها في الحيوان يضيق بهِ الحبس فينطلق منهُ أو يثقل عليهِ القيد فيعالج كسره أو في الجماد يتقدم لانه لا يستطيع أن يقف مكانهُ أو يتحرك لانه محمول على الحركة

ونوع آخر هو الحرية الروحية او هو الحرية التي لا تدفعك اليها الضرورات المألوفة والمطالب السوقية وانما يدفعك اليها اتساع افق النفس وسمو معاني الحياة والطموح الى غايات من الرفعة والجمال يشتاقها الانسان الكامل وهو موفور الجسد مكفي المؤنة . فهذه الحرية هي الحرية النفيسة الغالية وهي مقياس النهضات الشريفة وفضيلة الانسان على سائر المخلوقات ، وهي الحرية التي تترجم عنها الآداب والفنون والفلسفة الروحية وما اليها من التعبيرات «الجميلة» عن اشواق الحياة

ولقد سألتموني: «ما هي أظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة وأبقى آثارها ؟ » فرأيي اذن ان اظهر مظاهر نهضتنا وابقى آثارها هو «حرية الآداب» او هو حركة التجديد في الشعر والكتابة والفن لانها الحركة التي لا تتقيد بمحاكاة قديم ولا بمحاكاة حديث، ولانها ترجمان تلك الحرية التي نحن احرار في طلبها بقدر ما يكون الانسان حرًّا في هذا الوجود ، وليست بترجمان حرية نحن مدفوعون اليها بدوافع الاضطرار الكثيف والمطالب التي يشبهنا فيها الحيوان وقد يوجد لها مثيل في الجماد

على ان هذه الظاهرة — بعد — ضعيفة الاثر قليلة المحصول ، فاذا هي بلغت أشدها وأوفت على تمامها فهنالك تبحث في الشرق عن جميع ظواهر النهضات التي عرفتها الامم فلا يعوزك منها دليل، بل هنالك لا يعوزك حتى الدلائل على النهضة «المعيشية» التي تعوزنا الآن لاننا نمشي مع البواعث الوقتية مسخرين خطوة بعد خطوة ولا ننبعث الى الحرية بشوق في النفس وحب للجمال . فالحقيقة اننا اليوم لا نضارع غيرنا في الاختراع والابتكار ومجاراة حاجات المعيشة لاسباب خلاصتها انهم يفهمون الجمال ونحن لا نفهم الجمال ، لا انهم خلقوا بمعدات وأعضاء ونحن خلقنا بغير معدات وأعضاء

انهيار التقاليد القديمة

للدكتور بايرد ضدج
رئيس جامعة بيروت الاميركية

منذ بضع سنوات لقيت عالماً عربياً من علماء الهيئة ، اقتبس معارفهُ من كتّاب القرون الوسطى وبنى على كتاباتهم آراءه في حلقات زحل وأقمار المشتري وعدد النجوم الثوابت والفوهات البركانية التي تبدو على وجه القمر ، وكانت هذه الآراء مبنية على مقام الكتّاب الذين فاهوا بها ومقام تلاميذهم الذين تناقلوها على مرّ العصور ، ولم يكن للمرقب والبحث العلمي نصيب ما في تكوينها

وفي أحد الايام زارنا في جامعة بيروت الاميركية فذهبت معهُ في المساء إلى مرصد الجامعة وفيهِ مرقب قطر بلورتهِ ١٢ بوصة، فشاهد بأم عينهِ بواسطة هذا المرقب، أقمار المشتري ومجاميع النجوم التي كشفت حديثاً وأثبتت وجود عوالم في الفضاء اللانهائي لم تكن معروفة قبلاً وشاهد أيضاً الفوهات البركانية التي على وجه القمر وغير ذلك من غرائب الافلاك

فأنشأ يخبرني حينئذٍ كيف انقضت عليهِ سنون والفلسفة رائده في درس هذه الظاهرات الطبيعية ووصف مقدار سروره لانهُ أتيحت لهُ فرصة ليرى حقيقتها بعينهِ . ففي لحظة واحدة انتقل مركز السلطة الفكرية لديهِ من كتّاب القرون الوسطى إلى ما كشفتهُ آلة علمية حديثة

وعرفت رجلاً آخر من لبنان تلقى العلوم اللاهوتية في حداثتهِ وجعل ما جاء في الكتب الدينية أساساً لمعتقده وإيمانهِ . وكان راسخ الاعتقاد بيوم الدينونة، وبوجود «سماء» و«جهنم» وكان لشدة إيمانهِ يتدفق حين الوعظ بآيات الكتاب حتى أصبح في مدنهِ علماً يدعو الناس إلى الهداية والخلاص . ولكنهُ اختلط بكثيرين من رجال العصر وشبانهِ فأخذت تتطرق اليهِ شكوك وريب تعذب نفسهُ المطمئنة . أخذ يرتاب في محتويات الكتب الدينية كلما ازداد تعمقاً في درسها ، وأخذ يبحث عن الحقيقة في مكان آخر. ولما فقد ثقتهُ في صحة الوحي تزعزع إيمانهُ وبردت همتهُ وضعفت قوتهُ عن دعوة الناس وردهم إلى التوبة والخلاص وحاول أن يجد أساساً جديداً لايمانهِ فلم يفلح ولبث يتسكع في الظلام

***

فعندي أن أظهر مظهر في النهضة الشرقية الحديثة هو أن الناس أخذوا يفقدون ما لهم من

الثقة في تقاليد آبائهم كقاعدة لمعتقداتهم الدينية والادبية ودليل لسلوكهم وانهم اخذوا يبحثون عن اساس آخر لهذه المعتقدات

لما اندلعت ألسنة اللهيب في أزمير قبيل استيلاء الاتراك عليها سنة ١٩٢٢ هرب كثير من سكانها إلى الميناء. وقفوا هناك على الحد بين البر والبحر يشاهدون بيوتهم وكل ما فيها من عزيز لديهم تنالهُ يد الفناء، ورأوا النيران تلتهم كل شيء حتى لقد كانوا في خطر منها على الثياب التي يرتدونها فدفعهم اليأس إلى الماء يسبحون الى المراكب التي في المرفأ او خارجهُ لعلهم يصلون الى مركب يغيثهم. ولكن المراكب والسفن كانت مزدحمة باللاجئين اليها، فغالبوا الأمواج حيناً حتى وهنت قواهم وابتلعتهم اللجج

هكذا يرى كثيرون من الناس أن التقاليد والمعتقدات القديمة التي قدَّسها آباؤهم وجروا عليها تنهار إلى الحضيض انهياراً سريعاً يهددهم بهدم معتقدهم الشخصي. فيندفعون مدبرين عنها يبحثون عن أساس جديد لمعتقد جديد فيتلمس كثيرون منهم في الظلام ثم يهبطون الى هوَّة الشك أو يغرقون في لجة «المادية»

***

وهذا المظهر من مظاهر النهضة في الشرق لا يقتصر على مذهب دون مذهب أو على جنس دون آخر. أن الثوار في روسيا نقضوا الكنيسة والعائلة وغيرهما من أركان الحياة الدينية والاجتماعية. والبوذيين في الصين أخلوا معابدهم من التماثيل لكي ينشئوا فيها مدارس علمية حديثة. ومنذ بضعة أسابيع كنت في تركيا فشاهدت فيها بعيني، القيود القديمة التي كانت تقيد بها المرأة، والاحترام لرؤساء الدين، والايمان بالوحي الالهي — شاهدت كل ذلك ينهار أمام المذاهب العلمية الجديدة وحرية الحياة الاوربية

وفي البلدان العربية نعرف كثيرين من الرجال والنساء الذين لا يهتمون باحترام التقاليد والعادات والاعياد التي أحبها آباؤهم وجروا عليها. كذلك نجد جهلاً معيباً بأقوال الكتب الدينية واعراضاً عن الصلوات العامة وفي الوقت نفسه نرى ازدياداً في تعاطي المسكرات وانتشار الآفات الاجتماعية. وميلاً الى احلال المسرات والملاهي محل التقاليد القديمة المحترمة. وزاد في نشر ذلك وقوع الحرب وتجييش الجيوش وانتشارها في مختلف البلدان

ففي الحين الذي نرى فيهِ افراد الجيل الجديد يدبرون عن معتقدات آبائهم القديمة نراهم ايضاً يقبلون على الفلسفة القديمة القائلة «لنأكل ولنشرب لأننا غداً نموت»

مضى على مصر والعراق وفلسطين وتركيا نحو خمسين سنة، أي منذ ما انشيء المقتطف وهي

تقطع شوطاً من أشواط العمران يقع بين عهدي الفدنية (الاقطاع) والدمقراطية . اي انقلاب تمَّ في هذه السنين ! ها سكك الحديد والسيارات والطائرات والتلغراف والتلفون، تطوي الابعاد الشاسعة حتى كادت تمحوها . وها مذهب النشوء الجديد أخذ العلم يقيمهُ مقام القول القديم بالخلق المستقل . لقد أثبت باستور أن الامراض تنشأ عن أحياء صغيرة هي الميكروبات . وأصبح الزمن يقاس بسني النور ، والتاريخ بالعصور الجولوجية المتطاولة . وصُدِم الاعتقاد بامكان حدوث العجائب صدمة عنيفة ، وصار الكون آلة تتألف من جواهر وأيونات ، تربطها معاً نواميس طبيعية كشفها البحث والامتحان . في كل هذا يبحث الشبان والشابات عن معبود آبائهم وفي الغالب لا يجدونهُ . يقولون اذا كانت الارض كرة فأين جهنم ، واذا كان الفضاء غير محدود فأين السماء

وقد فازت النساء في كثير من البلدان المجاورة للبلدان الشرقية بحق الانتخاب ، وعليهِ ترى اخواتهنَّ في الشرق يطالبنَ التحرر من القيود التي قيدنَ بها ، القيود المبنية على تمييز بين الرجال والنساء . اضف الى ذلك ان الامم التي تجري على العادات الاوربية في معيشتها اخذت تنتشر في الارض ولها من جيوشها وسائل منظمة لنيل المطامع البشرية

***

ما اعظم التجارب التي يتعرض لها الشبان والشابات في الشرق . انهم معرضون لفقد ما لهم من الثقة في عادات آبائهم وتقاليد اجدادهم وللجري على العادات الغربية غير عارفين هل هذه العادات نتائج الارتفاع الحقيقي او هي سراب يلمع ويخفي وراءه المعايب

ما من جيل في التاريخ واجه طائفة من المشكلات كالمشكلات التي يواجهها ابناء الجيل الحاضر ، وما من جماعة من الفتيان والفتيات وجدت امامها ما يثنيها عن الايمان الصحيح كفتيان الشرق وفتياتهُ في هذا العصر . وسواء تمكن المتقدمون في السن من قبول الآراء الجديدة والجري عليها او لم يتمكنوا : فانهم لا شك يستطيعون ان يعطفوا على الشبان الذين تمزقهم هذه الشكوك المؤلمة . وسواء اردنا او لم نرد ، لا نقدر ان نقف سدًّا في سبيل تيار ما يسمى مدنية وما يحمله معهُ من آراء جديدة في العلم والاجتماع

وعليهِ ارى ان اظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة هو هذا الميل الى هدم التقاليد القديمة كأساس للمعتقد والسلوك . وعملنا هو ان نساعد النشء الجديد ليجد اساساً لمعتقدات تعصمهم من احتقار الدين وتقودهم الى الاحتفاظ بأعلى مستوى ادبي حتى يعيشوا لتحقيق الغايات الروحية الرفيعة

في قلوب النوابغ

لامين الريحاني

ان أظهر هذه المظاهر ما يراهُ كل الناس ، كالملابس الافرنجية ، والاسواق المرصفة والارتال الكهربائية ، والسيارات ، والابنية التي لا شرقية تُعرف ولا غربية — انها كلها من مظاهر التطور ، وقد تعد من مظاهر النهضة . ومما لا مرية فيهِ اننا غيرنا عاداتنا في الملابس والاسفار ، وصرنا نفضل الجادة المرصفة على الرمل والغبار ، والكهرباء على الحمار . ولا فرق مختارين كنا في ذلك او مرغمين

هو التيار الاوربي والناس امامهُ كالرمال في طريق السيل . فاننا وان لذت لنا قراءة الاخبار واستماعها عن اجدادنا منذ خمسين سنة فلا يلذ لنا ، ولا نستطيع الاَّ بوثبة نصفها عقل ونصفها جنون ، ان نعود الى ما كانوا يلبسون ويمتطون ، ويبنون ويفرشون . على اني اذا تصورت الشيخ ناصيف اليازجي مثلاً والدكتور يعقوب صرُّوف — الشيخ ناصيف في عمامتهِ وانبازهِ ، جالساً على «طراحتهِ» يدخن غليونهُ الطويل وهو يكتب ، والدكتور يعقوب في بزتهِ الافرنجية ، مكشوف الرأس ولا غليون حتى ولا سبحة بيدهِ — تستوقفني الصورة الاولى وان كان قلبي وعقلي يتجهان حبًّا واحتراماً الى الثانية . نعم ان المسألة ذوقية لا اجتماعية

ولكني اسأل القارىء ان يتصوَّر مؤسس مصر الحديثة ، محمد علي الكبير ، بعمامتهِ البيضاء الوافرة ، او في طربوشهِ المغربي ، وهو متربع في ديوانهِ ، او ممتطٍ صهوة حصانهِ ، ثم يتصور احد حكام هذا الشرق الادنى اليوم الذين يقيدون انفسهم بأربع اذرع من الجوخ الانكليزي او الافرنسي ، ويجلسون في السيارة وهم يدخنون السيكارة — يتصور الصورتين ويسأل نفسهُ ايتهما ادعى الى الوقار والاعجاب . أية الصورتين أفخم وأجمل وأجل ؟ هذا في الظاهر ، في القيافة . ولا أُثير في قلب القارىء الاشجان فأسألهُ ان يقابل بين مؤسس اكبر النهضات الشرقية العربية الحديثة ، صاحب الطربوش والسروال وبين حكام هذا الزمان الدستوريين

ليست أظهر المظاهر اذن من اركان النهضة الشرقية ، ولا هي برهان على النهضة الثابتة التي فيها رقي حقيقي ومعنوي

وما هي يا ترى هذه النهضة ؟ النهضة في القاموس الطاقة والقوة ، او هي الطاقة على النهوض

مما نحن فيهِ الى شيء أرفع منهُ . ولكن روح الزمان اكسب اللفظة معنىً آخر او ظلاً من المعنى جديداً . اني افهم بالنهضة الثورة على القديم الذي امسى عقيماً ، والقديم الذي صار بالياً ، والقديم الذي كان منذ البدءِ فاسداً ، ان كان في الاحكام ، او في العقائد ، او في الآداب ، او في العلوم

ولهذه الثورة مظاهر يراها كل الناس فهي اذن اظهرها ، ولكنها ليست بأهمها . ولها مظاهر لا يراها الاَّ فريق من الناس ، وقد لا يراها غير الخاصة من ذوي الالباب ، وهي في نظري اهمها

اما تلك التي يراها كل انسان ويشارك اليوم فيها ، فيخسر او يكسب في سبيلها ، انما هي هذه الاحكام الدستورية التي حلت محل الحكم التركي القديم . ولكنها في مظاهرها مدعاة لغير الاحترام فلو عاد الوالي الذي كان يحكم بغداد منذ خمسين سنة ، ورأى الملك فيصلاً يلعب « التنس » واصدقاءه الانكليز ، لهزَّ رأسهُ مبتسماً وهو ينسل ، كي لا يخجل صاحب الجلالة ، بين النخيل

ولو عاد الخديوي اسماعيل ورأى هذا البرلمان المصري الباهر وهؤلاءِ الافاضل المكبلين بالثوب الافرنجي الرسمي — اسود على ابيض — وبينهم لطخ من العمائم لرفض ان يجلس على العرش المعد لهُ قائلاً — ايها السادة المسوَّدون اني افضل ان اكون واحداً منكم على ان اتقيد بارادتكم كلها

ولو تجسد ثانية احد ولاة الشام وشاهد ما حلَّ بدمشق في السنة الاخيرة لرفع يديهِ الى السماء شاكراً شاكياً معاً . وما هي مظالمنا يا ربي اذا قيست بأعمال المتمدنين ؟

ولو أُتيح للامير بشير الكبير ان يزور اليوم سراي بيت الدين فيرى من على هذه الجمهورية اللبنانية لضرب الارض بغليونهِ ، وعاد دامع العين الى قبرهِ

حكومات جمهورية ديمقراطية ! واحكام برلمانية انتدابية ! هي اظهر مظاهر النهضة الشرقية العربية اليوم ، واقلها اهمية ، اذ لا رقي فيها سياسيًّا او اخلاقيًّا ، ولا قوة حقيقية او معنوية . فهل تظنها في هذا الشكل الصناعي — وقل المدرسي التمريني — تدوم طويلاً . لا ورب القوة ! فاما ان يقوم عليها حاكم من اهل البلاد — حاكم بأمرهِ وسيفهِ — مثل مصطفى كمال او ابن سعود ، واما ان ينهض الشعب بأسرهِ على اولئك الذين يرومون استعمار الشرق الادنى بواسطتها فيصبون على دورها البنزين ويوكّلون بها النار

وأية مهزلة ، بل أية مأساة اشد من هذه التي يشترك فيها الوطني المزيّف ، والاجنبي المضيّف ؟ هل تريدون حكومة دستورية ، وملكاً مقيداً ، وبرلماناً ؟ هاكم ما تريدون . وكلهم

مقيدون ، الملك والبرلمان والدستور . كلهم مقيدون من اجلكم ايها الشرقيون

هي ذي هبة السياسة الاوربية الحرة للشرق الطالب الحرية والاستقلال . هي ذي التعلة التي يعللون بها اليوم هذا الشرق القديم الجديد

ان هناك مظهراً آخر يستحق فعل التفضيل وهو المدارس . نعم ان تعدُّد المدارس في مصر وسورية ، وفي العراق ايضاً ، من اظهر مظاهر النهضة الشرقية التي تبدو للعيان فيراها كل انسان وليست هي بأهم من الدستور والبرلمان . ليست هي عنواناً — عنواناً في الاقل — للتهذيب الاخلاقي القومي ، والتهذيب العلمي العالي

والسبب في ذلك هو ان اكثر هذه المدارس لا تزال مقيدة اما ببرنامج ديني واما ببرنامج اجنبي . او ان اكثرها لا يزال يديرها رجال الدين الوطنيين منهم والاجانب . وهناك عدد ليس بقليل من المدارس الاجنبية التي لا يرى مديروها في تاريخ العالم كله ما هو اهم واعظم واجد من تاريخ بلادهم . — شرلمان وركاردوس قلب الاسد ، وبطرس الاكبر هم هم ابطال التاريخ . بل ابطال العالم : — قل لي يا ولد كم كان عدد ابناء شرلمان ؟ وأيهم كان يفضل شرب الجعة على شرب النبيذ ؟ — وقل لي ما اسم البطل الغوثي الذي كسر الاناء الروماني ؟ فرتاجودسك . — حمار . اسمهُ فرسنجاتوريكس . انهُ والله لعلم جيل . ولا اظن احداً من طلبة هذه المدارس يعرف اسم طارق بن زياد !

ليست الاحكام البرلمانية اذن ، ولا تعدد المدارس بأهم مظاهر النهضة الشرقية . وان كانت من اظهرها . ولعمري ان مدرسة مثل مدرسة المعلم بطرس في زمانهِ لاصلح وانفع من هذه التي يتخرج الشبان فيها متفرنجين،لا يعرفون لغتهم،ولا تاريخ بلادهم،وقلما يحترمون غير الاجنبي

ان مظاهر النهضة الشرقية التي لا تستحق افعل التفضيل بالمعنى الذي افصحت عنهُ ، ولكنها من الاهمية في اعلى مكان ، انما هي المظاهر العلمية،والادبية ، والاصلاحية التي تشتعل مصابيحها على الدوام في قلوب افراد من الناس ، في قلوب نوابغ الامة.هي المصابيح ، مصابيح العلم والادب والشعر والفنون ، ترسل اشعتها الفضية والذهبية الى قلب المجتمع الانساني ، الى مصدر الحياة فيهِ فتنير تدريجاً اظلم طبقاتهِ ، واقصى زواياهُ الدامسة

أجل ان كتاباً واحداً او مقالاً واحداً اوفكراً واحداً فيهِ حقيقة جديدة مفيدة للناس، ترسلهُ

حراً في الناس لأشد فعلاً وأثبت نفعاً وأعم خيراً من كل ما تجيء به الحكومات والمدارس المقيدة

عفواً ايها القارىء . قد تسرعت ، فاستثنيت ، فقلت « المقيدة » ! وما الحكومات على انواعها غير قيود للناس، وآلات لجمع الضرائب ، واقامة الحروب. أجل . وما فضل الحكومات، مقيدة كانت ام مطلقة ، في تاريخ الامم ، او بالحري في تاريخ الرقي والعمران ؟ هل سمعت في زمانك او قرأت ان حكومة من حكومات العالم اكتشفت اكتشافاً ، او اخترعت اختراعاً ، او اقدمت على اصلاح اجتماعي او سياسي من تلقاء نفسها ؟ أخشى ان تخرجني الحكومات عن الموضوع اذا سألت سؤالاً آخر

أعود اذن الى النهضة الشرقية العربية فأقول ان الفضل الاكبر فيها هو للعالم الذي يخدم العلم من اجل الحقيقة اولاً وآخراً ، وللاديب الذي يرفع ادبهُ على ثلاثة اركان هي الذوق السليم ، والقصد القويم ، والخلق الكريم ، وللمصلح الذي يفادي بكل ما هو عزيز لديهِ ، حتى بحياتهِ ،في سبيل عقيدة يتيقن ان فيها الخير كل الخير للناس . وان اجمل ما في هذه النهضة . وأثبت ما فيها ، هو النفر من العلماء والادباء ، والمصلحين الذين لا يتقيدون بغير الحقيقة ، والفن ، والضمير . ولاشك انعددهم آخذ في الازدياد .ولاشك ان من يقرأونهم ، ويقبلون عليهم، ويتناقلون اقوالهم وافكارهم ، يُعَدون بالالوف اليوم وقدكانوا منذ خمسين سنة يعدون بالمئات

ومن نتائج هذا الازدياد في عدد الذين يقبلون على الادب الجديد ، ويطالعون الكتب العلمية والاصلاحية ، هو اننا اصبحنا اكثر علماً واكثر احتراماً للعلم من اجدادنا ، واكثر حرية كتابةً وقولاً ، واكثر تساهلاً في المعتقدات ، وأشد ميلاً الى التآلف والتضامن في سبيل الوطن

اقول اكثر تساهلاً على الرغم من ضجة في مصر أحدثها كتاب في النقد الادبي لاديب من المجددين وكتاب في الاصلاح الديني لعالم من العلماء المصلحين . فلو ظهر هذان الكتابان منذ اربعين سنة لكان السجن او الاغتيال جزاء الشيخ عبد الرازق والاستاذ طه حسين

الى الامام ؟

اننا لفي تقدم . وان الفضل الاكبر في ذلك عائد الى مجلتي المقتطف والهلال ، والى اولئك الادباء المجددين والمصلحين الصادقين الذين ينبذون القديم — القديم العقيم، والقديم البالي، والقديم الذي كان منذ البدء فاسداً — ينبذونهُ ويقولون ، بلغة المعري ابي العلاء ، عليهِ بهلة المتباهلين

الثورة المقبلة

للورد سنودن

وزير مالية بريطانيا في وزارة العمال

من سبع سنوات
في المقتطف

هل يزيد رغد العيش ورخاء الناس بازدياد المكتشفات العلمية وتكاثر المستنبطات العجيبة واتقان الوسائل الصناعية على اختلافها؟ ان نظرة عجلى الى دور الصناعة تكفي لان تقنع الناظر بان السيطرة على قوى الطبيعة واستخدامها في الآلات يخفف من عبء العمل الشاق عن كاهل الانسان، وترفع مستوى معيشته. فاذا ذهب احد المفكرين مرتاباً في فائدة هذه المكتشفات والمستنبطات متسائلاً فيما بينهُ وبين نفسهِ «هل يستفيد العمران شيئاً ما من المكتشفات والمستنبطات التي ينتظر تحقيقها في قرن من الزمان» حسبهُ الناس متعنتاً ليس له مسوغ فيما يذهب اليهِ. ومن الاقوال المأثورة عن الفيلسوف جون ستيورت مل قولهُ «اني ارتاب في ان الآلات الصناعية قد خففت عبء العمل اليومي عن كاهل عامل واحد». فاذا حذفنا ما في هذه العبارة من المبالغة المقصودة وجدنا فيهِ نصيباً كبيراً من الحقيقة

لقد زادت قوة الانتاج في كثير من الصناعات نحو خمسمائة ضعف في ١٥٠ سنة بادخال الآلات البخارية والكهربائية الى المعامل. فاذا حسبنا ان مائة عامل كانوا يستطيعون من مائة وخمسين سنة ان يصنعوا مقدار كذا من صنف ما في اسبوع اصبحوا الآن يستطيعون ان يصنعوا خمسمائة ضعف ذلك المقدار في الوقت عينهِ لكن بمساعدة الآلات. ومع ذلك لا نرى نقصاً في ساعات العمل يوازي هذا التقدم في سرعة الانتاج ولا زيادة في اجور العمال تتفق معهُ. على ان الانصاف يقضي علينا بأن نقول ان الثورة الصناعية زادت الثروة العالمية فمهدت السبيل لسكان

> ان قيمة هذا المقال تعلو في عيني القارىء اذا عرف أن واضعه كتبه في اواخر سنة ١٩٢٨ حينما كانت الازمة الاقتصادية العالمية في مستهلها او عند ما قال علماء الاقتصاد ورجال المال والاعمال ان انهيار الاسواق المالية حينئذ ليس الا اضطراباً وقتياً لا يلبث ان يزول. وقد كان هذا المقال خاصاً بالمقتطف

الارض المتزايدين عاماً بعد عام ان يعيشوا في مستوى من الرخاء اعلى من مستوى اسلافهم . واظهر الصفات التي يتصف بها تقدم علمي ميكانيكي كالتقدم الذي شهدناهُ منذ اواسط القرن الماضي صفتان : الاولى — تجمع الثروة في ايدي افراد قلائل من سكان البلدان الصناعية . والثانية — زيادة المشتغلين باعمال غير منتجة . لذلك يتعذر على اصحاب الصناعات ان يمنحوا العمال المنتجين ما يستحقونهُ من الاجور . ولا ريب في ان التقدم العلمي والصناعي افاد فائدة غير مباشرة جماعات السكان الذين لم يشتركوا في تحقيقهِ كعمالٍ . واشهر هذه الفوائد ارتقاء طرق المواصلات ورخصها وتعدد وسائل اللهو والمطالعة والتهذيب ورخص السيارات واتقان المخاطبات اللاسلكية وما اليها

والسبب في ان التقدم العلمي والصناعي لا يظهر له اثر في رخاء الجمهور وهناءتهِ هو ان بلدان الارض لم تنتظم بعدُ انتظاماً يمكنها من استهلاك كل ما تقذف بهِ المصانع الى الاسواق . لذلك تكون النتيجة الاولى التي تنجم عن استنباط وسيلة ميكانيكية جديدة لترقية الصناعة ان يستغنى عن عدد من العمال لان اصحاب الصناعة اذا احتفظوا بجميع العمال واستخدموهم في ادارة الآلات الجديدة زاد ما تنتجهُ المعامل عن حاجة الاسواق اليهِ . لذلك يعمد اصحاب الصناعات الى الاستغناء عن بعض عمالهم لكي يحفظوا ما ينتجونهُ ضمن نطاق محدود لئلا يكثّر المعروض وتهبط الاسعار

فماذا ينتظر ان يحدث اذا استمرَّ التقدم العلمي والصناعي سائراً سيراً حثيثاً الى الامام من غير ان يصحبهُ تقدم في مقدرة البلدان على استهلاك الانتاج الزائد الذي تمهد لهُ الوسائل الصناعية الجديدة سبيل الزيادة والسرعة ؟ ان مقدرة البلدان على استهلاك البضائع المختلفة يتوقف على مقدرة الطبقة المعروفة بطبقة العمال على الشراء . فاذا لم تزد مقدرتهم على الشراء لم يتسع نطاق الاسواق المختلفة لاستهلاك ما تنتجهُ المصانع وصرنا حينئذٍ نخشى ثورة صناعية اخرى .

وكل الدلائل تدلُّ على اننا قريبون جدًّا من انقلاب خطير الشأن في وسائل الصناعة العلمية . اذ يظهر لي اننا على عتبة عصر جديد تستعمل فيهِ العلوم الكيمائية في الصناعة فتحدث ثورة اعظم اثراً وأبعد مدى من الثورة الصناعية التي احدثها استنباط الآلة البخارية . وكيف اجلنا الطرف نجد ان العلوم مطردة التقدم لان كل اكتشاف جديد يحفز العلماء الى البحث والاستقصاء ويفضي الى مكتشفات كثيرة . وقد يكون في امكان الكيماويين ان يزيدوا خصب الارض في مدى قرن واحد زيادة تجعل الناس في غنى عن اربعة اخماس الاراضي المزروعة الآن . فيقضى على كثير من المواد الخام المستعملة الآن في الصناعة وتحلُّ محلها مواد مركبة تركيباً كيمائيًّا . ان تقدماً في هذه الناحية من نواحي العمران يقلب رأساً على عقب توزيع العمل بين الناس وتعود الزراعة لا تحسب الركن الاساسي في ثروة الامم

تجيء الثورات احياناً فجأة كما جاءت الثورة الصناعية منذ ١٥٠ سنة وفي بعض الاحيان تأتي ببطء

كأنها تنتظر تضافر العوامل التي تمهد لها السبيل . فهل في العمران الحاضر عوامل تهيأ وتتضافر لاحداث ثورة ما ؟

انظر الى المستنبطات التي حققت في الخمسين السنة الاخيرة . التلفون — المصباح الكهربائي المولدات والمحركات الكهربائية — الاتوموبيل — المخاطبات اللاسلكية على اختلافها — السفن التي تحرق البترول — الحرير الصناعي — الآلات التي تبيع كالاحياء — هذه هي بعض المستنبطات التي قذف بها العلماء والمستنبطون والصناع الى ميادين الحياة اليومية

وقد اتقنت الوسائل الميكانيكية المختلفة اتقاناً جعلها كأنها مستنبطات جديدة . فقد نشر اتحاد العمال في اميركا نشرة اقتصادية يؤخذ منها ان مقدرة العامل على الانتاج زادت من اول القرن العشرين الى الآن خمسين في المائة وان هذه الزيادة سببها اتقان الوسائل الصناعية الميكانيكية

ومما يؤسف له وقد يكون له اثر شديد الخطر في العمران ان كثيراً من البلدان زادت قوة معاملها ومصانعها زيادة كبيرة لا تسوغها حالة الاسواق العالمية ولذلك ترى ان جانباً كبيراً من هذه المعامل واقف عن العمل لا يبدي حراكاً . ففي ١٧ سنة (١٩٠٧ — ١٩٢٤) زادت القوة المستعملة في مناجم بريطانيا ومعاملها من ٨ ملايين حصان الى ١٥ مليوناً ولكن ما تنتجهُ هذه المناجم والمعامل لم يزد قط . وهذا يعود بنا الى ما قدمنا الكلام عليه وهو اذا لم تنتظم بلدان العالم انتظاماً يمكنها من استهلاك ما تنتجهُ المعامل التي تكثر ويزداد انتاجها كل سنة باتقان اساليب العلم ووسائل الصناعة لم يجد هذا التقدم العلمي الصناعي نفعاً ما

فالنتيجة العامة التي نصل اليها بعد البحث المتقدم هي هذه : ان التقدم العلمي والصناعي سريع لا تستطيع بلدان الارض ان تجاريهُ بزيادة مقدرتها على الاستهلاك والتكيف على ما تقتضيه الاحوال الصناعيه الجديدة . وانهُ اذا استمر كذلك وقف كثير من المصانع عن العمل ووقعت لا محالة ازمة خطيرة جدًّا بزيادة العمال العاطلين . ولو كان في الامكان لكان يحسن بنا ان نقف عقداً أو عقدين من الزمان عن الاكتشاف والاستنباط لنعنى في أثناءِ ذلك بتنظيم ما أتممناه حتى الآن ومحاولة الوصول إلى نقطة التوازن بين الانتاج والاستهلاك . بذلك فقط نتمكن من توزيع المنافع التي تنجم عن ارتقاء العلم وزيادة سيطرتهِ على أساليب الصناعة . وما لم نفعل ذلك بطريقة من الطرق لا بد أن نفيق يوماً فنرى الصناعة في ركود وجماهير العمال العاطلين في فقر مدقع . فاذا حصل ذلك صعب على نظام العالم المالي تحمل هذا العبءِ ان لم يتعذر عليهِ ذلك وحينئذٍ ينحني تحتهُ وينهار . ما أغرب النتيجة التي وصلنا اليها — كلما زادت مقدرتنا على الانتاج زادت المصاعب في الاستفادة منها وتوزيع المنتج على جميع طبقات الناس توزيعاً عادلاً

لقد صدق قول الشاعر « مجيء المعرفة سريع ولكن مجيء الحكمة بطيء »

ذكريات دار المقتطف

— ١ —

للامير شكيب أرسلان

كنت ارى في اخلاق الطيب الذكر يعقوب صرّوف من السجاحة والسماحة والنزاهة والعلو عن سفساف الامور والتزام معاليها ما لا اجدهُ الاّ في النادر الاندر من البشر ولا شك انهُ اذا كان اعلى افق من الناس متصلاً باقرب افق من الملائكة فيكون فقيدنا طيب الذكر في الفوج الاول من الآدميين الفارطين الى ذلك الافق العالي

***

كنت في الخامسة عشر من العمر عند ما وقع نظري على الدكتور صرّوف لاول مرة في حياتي وذلك في ادارة احدى جرائد بيروت وكان صاحب تلك الجريدة وهو اليوم في عالم البقاء يسأل الدكتور عن لفظة « ميناء » ومأخذها ومعناها فأخذ الدكتور يفسر لهُ هذه الكلمة ويذكر لهُ اشتقاقها ومواضع استعمالها وتاريخها من الكلام العربي فدهشت مما سمعت وعرفت مع حداثة سني يومئذٍ مزية العالم على الجاهل او المتعالم وقلت في نفسي : انظر الى هذا الرجل كيف سرد عن لفظة واحدة بسيطة جوابها يقع في كلمة واحدة عبارةً طويلة لا تجد فيها مع طولها حشواً ولا حرفاً زائداً ولا ناقصاً . إن مثل هذا العالم هو الذي ينبغي ان تشد اليه الرحال . وزاد اعجابي بما سمعت من العلم وما شهدت من اللطف والتواضع وانكار الذات وعدم الصنعة في كيفية الالقاء الذي سمعتهُ

ولم تساعدني الاقدار ان اشاهد الفقيد بعد ذلك الاّ سنة ١٨٩٠ حينما قدمت الى مصر اول مرة وكنت في سن العشرين فدعاني اصحاب المقتطف الى الغداء عندهم وتذاكرنا في مواضيع كثيرة ولا يزال لتلك الزيارة اثرٌ منطبع في اعماق نفسي . ثم اتيحت لي مجالسة الفقيد مرة اخرى وكنت من قبل ذلك اكتب بعض المقالات الى المقتطف وكان المرحوم يستحث همتي في مواصلة

الكتابة العلمية وقال لي مرة من ذاق لذة العلم يجد الكتابة في السياسة إسفافاً لا تطيب بهِ نفسهُ ولكنهُ كان كسائر العقلاء يرى انهُ لا بدَّ من بعض الامور في هذه الحياة ولو أتاها الانسان مكرهاً

***

وكانت المكاتبة قلما تنقطع بيني وبين الاستاذ وأنا في بعض الاحايين أراسل المقتطف ولي فيهِ مقالات وجمل كان تواضع المرحوم يحملهُ لاعلى نشرها فحسب بل على استزادتي من امثالها . وكانت المحبة بيننا بلغت من المخالصة انهُ كان يستشيرني في امور تتعلق بمنهج المقتطف والمواضيع التي ينبغي ان يتوخاها ومرة ارادني على ان اكتب بصورة مستمرة وان اجد للمقتطف مراسلين يصح الاعتماد على علمهم وبلاغتهم فجاوبتهُ بأني افضل ان اكون في الكتابة حرًّا غير مقيد بزمن ولا عدد وان لا اتقاضى على ذلك شيئاً ولكنني استجدت لهُ اقلام فضلاء مشهورين راسلوا المقتطف بعد ذلك سنين طوالاً وكان منهم الاستاذ الشرتوني طيب الله ثراهُ والاستاذ كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي الذي كنت انا الواسطة في مراسلتهِ للمقتطف وكانت هذه المجلة من منابر رقيهِ ومظاهر نبوغهِ . ومن هؤلاءِ المرحوم محمد ابو عز الدين رئيس محكمة استئناف الجزاء في لبنان الذي لولا منصبهُ القضائي لأمتع قراء المقتطف بأكثر جدًّا مما اتيح لهُ

***

ولما جئت مصر للمرة الثانية وذهبت منها الى طرابلس الغرب وذلك منذ خمس وعشرين سنة اسعدني الحظ ايضاً بملاقاة الفقيد رحمهُ الله . وهذه آخر مرة تلاقينا بها لان الشواغل حالت دون كثرة الاجتماع وكنا من اهل بلاد لا تزال من حرب الى حرب فكانت السياسة الممقوتة تحول بيننا وبين من نهوى لقاءهم من جلة العلماء الذين الساعة من عشرتهم تزن الايام الطوال من عشرة سواهم . ثم جاءت الحرب العامة فانقطعت المواصلات كلها وبقينا لا يعلم الواحد عن الآخر شيئاً الاَّ من افواه القادمين حتى اصيب المرحوم بفقد احد اخوتهِ فأرسلت اليهِ بكتاب تعزية وجاوبني عليهِ واستؤنفت بعد ذلك المراسلة بيني وبينهُ عوداً على بدء. واني انقل الى القراء بعض اسطر من جوابه لان روحهُ الطاهرة تتجلى في جميع كتاباتهِ وكلام المرء مرآة كماله قال :

« تناولت صباح امس كتاب التعزية الذي تكرمتم عليَّ بهِ فزادني اعجاباً بفضلكم وافتخاراً بصداقتكم وايقاناً بحبكم ولقد اراني موت اخي ما لا استحقه من كثرة الاصدقاء والمحبين على تقصيري مع الجميع كما انهُ انذرني بقرب الاجل وانا شديد الشوق اليهِ لعلي ادرك شيئاً من الكثير الذي اجهله »

فلينظر القارىء ما بلغ من هذا الرجل حب العلم حتى اصبح يتوقع الموت بلذة المنتظر من وراء هذه الحياة حياة اخرى اوسع علماً واصح حكماً

ثم انهُ يقول : « من غريب الاتفاق اني قرأت ما كتبتموه في مجلة المجمع عن كتاب « مي » في المساواة قبيل وصول كتاب التعزية بساعات قليلة . والمساواة مقالات نشرت اولاً تباعاً في المقتطف ثم جمعت وطبعت كتاباً على حدة فراقني جدًّا وصفكم لهُ وارجح انها لم تترجم شيئاً ترجمة لانها تتكلم معي في كل المواضيع الادبية والفلسفية كما تكتب فانها قوية الذاكرة الى حد يفوق التصور وقد قرأت كثيراً من الكتب في اللغات التي تحسنها الفرنسية والانكليزية والايطالية حتى لقد تستشهد في كلامها معي بأبيات من شكسبير أو بيرون كما تستشهد بالمتنبي والمعري وحفظت ايضاً كثيراً من قصائد شوقي ومطران وحافظ واظنها تصوغ معانيها في ذهنها بالفرنسية او الانكليزية قبلما تعبر عنها بألفاظها العربية والظاهر ان الذي طبع الكتاب عن مقالات المقتطف غير فيها بعض الالفاظ فصرها ولقد اصبتم وأحسنتم بوصفكم للكتاب وكاتبته وانصفتموها »

***

ولما ترجمت كتاب « اناطول فرنس في مباذله » أحببت ان اطلع عليهِ المرحوم الاستاذ واعرض عليهِ نشره في المقتطف اذا شاء . فاستحسن الفكرة اولاً واشار إليَّ بارسال الكتاب حتى ينشرهُ في عدة اعداد من المقتطف ثم يجمعهُ كتاباً على حدة . وكنت قد رأيت فيما نقلهُ « جان جاك بروسون » عن اناطول فرانس كثيراً من الرفث والمجون مما حذفت منهُ شيئاً ولطفت شيئاً ولذت في اشياء منهُ بالمعاريض وظننت ذلك كافياً في تجريد الكتاب مما ينبو عنهُ نظر الادب وتحمر لهُ وجنة الخفر . واذا بالاستاذ يقول لي :

« الى ان اطلعت على ما بعثتم بهِ اليَّ من « المباذل » كنت احسب الرجل شيخاً جليلاً كبعض الذين عرفتهم في حياتي كفانديك والبستاني واليازجي (يريد استاذه الدكتور فانديك الشهير والمعلم بطرس البستاني والشيخ ناصيف اليازجي) لكن المباذل صورته لي كاحمد فارس الشدياق كما عرفتهُ في « الساق على الساق » ثم رأيتهُ بعد ذلك في مصر . ولا ارى ان كاتب سر أناطول فرانس أحسن في بعض ما نشرهُ عن استاذه وقد اوصينا ان نذكر حسنات موتانا . فهل من حسن الذوق في هذا العصر ما كتبهُ عن (الهيجان والغلمة) وما رواه عن (الصبابات الاولى) و(العنانة والعجز) . لو كنا في عصر صاحب الاغاني لالتمسنا بآداب العصر عذراً لهُ

« أما عصرنا هذا لاسيما بين المصريين والسوريين من قراء المقتطف فانتم اول من يقول انهُ لا محل فيهِ لهذا التبذل والمجون ولو كان لي معرفة بالسكرتير لكتبت اليهِ ألومهُ على ذكر هجر استاذه وبجره . قد يتغير العصر ويتغير نظر الناس في هذه الامور ويصيرون ينظرون الى تحريمها كما تنظر الى تحريم قطاع الطريق من اليونان وأكل الجبن في الصوم الكبير ولكن لا بد للمرء من ان يلبس لكل حالة لبوسها . ولولا اعتقادي أن رأيكم في هذه الامور مثل رأيي وانكم كنتم تتململون كلما وصلتم الى بجرة من هذه البجر وتودون أن لا يكون الرجل كذلك أو ان لا تذكر عنهُ تلك الهنة لما صارحتكم برأيي . وعليهِ فانا معيد اليكم الكراس مع هذا البريد راجياً قبول عذري ومسامحتي ان كنت ذكرت شيئاً يشف عن ظهوري فيهِ مظهر المعلم لمن أعده في المنزلة العليا بين المتأدبين بأدب النفس وأطال الله بقاءكم »

***

فوالله لقد قرأت هذا الكتاب والعرق ينحدر على وجهي من شدّة ما خجلت من رجل كنت اوفر لهُ من الحرمة ما لا اوفره لغيره . ولم ألبث ان كتبت اليهِ بانهُ قد كان في الكتاب من الطامات الكبرى في هذا الموضوع ما لا يلبس عليهِ رداء كما يقال ولقد حذفت منها ما ظننتهُ كافياً ولكنني خشيت اذا استقصيت الحذف من غضب هؤلاء الشبان الذين يسمون انفسهم « بالمجددين » والذين قد يسخطون عليّ ويرمونني بقوارص أنا في غنى عنها . على ان ملاحظتك كلها هي في محلها وما كان ينبغي لمثلي ان يتساهل من هذه العُجَر والبجر في شيء . ثم اردت ان امازحهُ فقلت « وأما ما قلتهُ عن تأدبي بأدب النفس فلقد كان ذلك ولكن فيما يظهر إقامتنا باوربة منذ نحو عشر سنوات قد زعزعت أركان هذا التأدب حتى صرنا نترجم مثل هذه الروايات »

ثم اعدت النظر على الكتاب فحذفت منهُ كل ما لحظت انهُ يقع من خاطر الاستاذ صرّوف وأمثاله الكملاء موقعاً غير مقبول . ووقعت من اجل ذلك كما حسبت في ألسنة اولئك الشبان الذين نشروا في تخطئتي من جراء هذا الامر اكثر من مقالة . حتى قيل لي ان بعضهم عمد الى المواضع التي طويتها وأراد ان يترجمها ويسد بها بزعمه ذلك الخلل الذي ادخلتهُ انا على الكتاب ولكنه كان يهمني ان يرضى صرّوف ولا ينتقدني ولو انتقدني بعد ذلك مئات وألوف

قيل ان السيد الجرجاني تناظر مع السعد التفتازاني بمجلس غاص وكان السيد شاباً حديث العهد وكان السعد شيخ العلماء في وقتهِ فانتهى المجلس بأن السعد اقرَّ للسيد وان السيد فلج على السعد امام ذلك الجمهور . فساء ذلك تلاميذ السعد ولما انصرف الناس قالوا لاستاذهم . ما كان ينبغي لك ان تسلّم لرجل هو في سن احد تلاميذك . فأجابهم وماذا اصنع اذا كان معهُ الحق . فقالوا له : قد كان يمكنك ان تقول له كيت وكيت في الجواب . فقال لهم ولكنه يكون مماحكة ولا يكون من العلم في شيء . فقالوا له : لكن الناس قد علموا الآن ان السيد اعلم منك . فقال لهم : احب اليَّ ان يعلمني الناس جاهلاً وان يعلمني السيد وحده عالماً

فأنا كنت أوثر ان يكون الاستاذ صرّوف راضياً ولو تعرضت لسخط جمهور لا من الشباب فحسب بل من الكهول ايضاً

***

ولقد ترجم احد البلغاء من اصحابي تأليفاً فانتقده المقتطف في عبارات معلومة . فلم يمضِ على ذلك ايام حتى قرأت في احدى الجرائد جملة شديدة في الرد على المقتطف تحت امضاء مبهم فعلمت انهُ قد يكون الرد من قلم مترجم ذلك الكتاب او احد اصحابهِ فأسرعت بالكتابة الى صديقي هذا اعذلهُ على هذا الرد ان كان بقلمهِ او بعلمهِ ولم اكتف بذلك حتى نشرت في (كوكب الشرق) جملة ابين فيها فضل المقتطف واصحابهِ ورأيي الخاص في العلاّمة الدكتور صرّوف . وبعد ايام جاءني الكتاب الذي يلي بعد الترجمة ...

« وقال لي بعضهم الآن ان في كوكب الشرق كلمة من الامير عني وأتاني بالكوكب فاذا انا بتاج وصولجان وطيلسان . والصائغ والمفضل والمتفضل محب كريم لا يرى الاَّ الحسنات ويعظمها الحب في عينيهِ ولست اجد كلاماً يفي بشكركم »

ولما كان في الرد الذي تناول صاحبه به الدكتور صرّوف اشارة الى كونهِ نصير زويمر . وهو خبر ناشيء عن وهم ككثير من الاخبار التي تعلق بالاذهان ولا صحة لها فقد اوضحت في دفاعي عن الدكتور الخطأ الواقع في هذا الظن . وقد اضحك الدكتور ما قيل عنهُ فكتب في جملة ما ذكره :

« اما زويمر فهو يعدني اكبر خصم له ومرادي ان اطلعهُ على ما كتبتم لاقوي حجتي عليهِ »

لم يذكر لي في هذا الكتاب وهو مؤرخ في ٣١ يوليو سنة ١٩٢٥ انهُ صدر مقتطف اغسطس وقد كتب فيهِ عن رواية آخر بني سراج وقال لي هكذا :

« وطلبت منكم ان تعدلوا عما قلتموه في الصفحة ٣٩٦ فان اوربة سائرة مختارة او غير مختارة الى ابتلاع مرافق الشرق ومتى زالت مرافقهُ من يد ابنائه أمسوا عبيداً فصيره الى الخراب ان لم يتفق رجاله ويغضوا عن كثير مما يفرق بينهم ولا سيما النعرة الدينية ويؤوبوا الى القول المأثور «الدين عند الله المعاملة». وعسى ان تتمكنوا من هبوط مصر في الشتاء القادم فنواصل البحث في موضوع لا تسعهُ الاوراق واكرر الشكر الجزيل للامير الكريم »

فكنت في الحقيقة اعلل النفس بآمال لقاء هذا الصديق الكبير طاهر القلب وكبير العقل وواسع العلم . وطالما تخيلت ويا للاسف المجالس اللطيفة التي كنت سأحظى بها منهُ ولكن الاجل قضى على هذا الامل وكم من حسرة تنزل مع الانسان في التراب . ولما جاءني نعي المرحوم كان اول ما انطق لساني بهِ قول اليازجي الكبير

قد كنت انتظر البشرى برؤيتهِ فجاءني غير ما قد كنت انتظر

ولبثت اكرر هذا البيت ولا ازال اكرره كأنهُ يشفي بعض ما في صدري . ثم لينظر الانسان الى ما كان عليهِ هذا الفقيد من حب الخير ونقاء الوجدان فقد كنت كتبت لهُ فيما كتبت من الاعتذار عن الرد الذي نشره بعضهم عليهِ بسبب انتقاده للكتاب المترجم فقلت لهُ ان المترجم قد يخسر بانتقاد رجل عظيم مثله ليس خسارة ادبية فقط بل خسارة مالية . فكتب اليَّ في مكتوب آخر بتاريخ ٣١ اغسطس سنة ١٩٢٥ يقول لي :

« وأؤكد لكم اني لما قرأت قولكم أن المترجم قد يخسر بانتقادي خسارة مالية تحول غيظي منهُ الى غيظي من نفسي ولا ادري الآن كيف اكفر عما مضى»

ولم يلبث ان نشر في المقتطف قطعة طويلة من الترجمة حتى لا يظن القراء انهُ يغمط فضلها بمجرد انتقاد بعض عبارات . نعم قد كان في حب الخير والبعد عن الشر امة وحده وكنت قد ذكرت لهُ تصرف الدول التي تزعم انها حاميات الحق والعدل فيما تكشف بهِ من مواعيدها للعرب وما اظهرت من الجشع والطمع بسلب حقوقهم واحتلال بلدانها بعد الحرب الكبرى فأجابني أجزل الله ثوابه عن ذلك بما يأتي قال :

« اما رجال السياسة الذين اشرتم اليهم فقد رأيت منهم بعد الحرب ما صغرهم في عيني وجعلهم احقر من ان ادافع عنهم من اكبرهم الى اصغرهم . ابقاني الله واياكم داخل سياج العلم . واطال الله بقاءكم ».

ولست اكبر هذه العبارة على صحة وجدان الفقيد ولكنني اذكرها في جملة حسناته الكثيرة

— ٢ —

للفريق امين باشا المعلوف

عرفت الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر وأنا غلام لم يطر شاربي وكنت قادماً من زحلة مع والديّ فدخلت المدرسة الكلية السورية الانجيلية وهي الآن الجامعة الاميركية وكان معي في المدرسة الياس صالح وابراهيم القيم ونجيب صبرا وغيرهم ممن غابت عني اسماؤهم لطول العهد. ثم انضم الينا غيرهم منهم جورج فيليبيدس وبقي معي في المدرسة الياس صالح فنلنا شهادة بكلوريوس في العلوم معاً ولكن انتظم غيرهم في القسم العلمي منهم نجيب الصليبي على ان الياس صالح بقي معي من الاول الى الآخر

وكان من اساتذتنا الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر لكنهما كانا يعلمان العلوم العالية كالفلك والكيمياء والطبيعيات والصرف والنحو فلم نتلمذ عليهما على ان الدكتور صروف علمنا القراءة في كتابه سر النجاح لاننا كنا صغاراً لم تتطاول نفوسنا الى اكثر من ذلك. والذي اذكره عنهُ انهُ كان هادئاً رزيناً يتمشى امامنا ذهاباً واياباً وهو يفكر ولكننا كنا اشقياء وكان احد التلامذة يضع امامهُ عيدان الكبريت فاذا مشى عليها خرج منها صوت وأظن الذي كان يضعها ابراهيم القيم لانهُ كان اشقانا ولكن الدكتور صروف كان لا يغضب وانما يهز رأسه فقط ولا يقول شيئاً

ثم ترك الدكتور صروف والدكتور نمر المدرسة وانتقلا الى مصر وانتقل معهما صديقهما شاهين بك مكاريوس وداوما هناك على انشاء المقتطف ثم انشأا معاً جريدة المقطم ومعهما شاهين بك فانفرد شاهين بك بالادارة والدكتور صروف بالمقتطف والدكتور نمر بالمقطم على ما هو معلوم . على ان الشريكين الآخرين كانا يعملان معاً على إنجاح الجريدتين فكان المقتطف والمقطم صنوين لا يفترقان وأظنهما يبقيان كذلك الى ما شاء الله

وأكملت دروسي العلمية كما تقدم ودخلت مدرسة الطب فأتممت دروسها وانتقلت الى مصر ودخلت الجيش المصري وخدمت فيه زمناً ولكنني كنت نزوعاً الى العلم فاشتغلت مع الدكتور صروف في تحرير المقتطف ولكنني كنت لا ادري شيئاً من قواعد العربية ولا ازال قاصراً فيها على ان الدكتور صروف كان يميل اليّ فعلمني ما لم أتعلمهُ في المدرسة وتمكنت الصداقة بيننا لانهُ كان على خُلُق كريم. ثم سافرت الى العراق وكانت المكاتبة مستمرة بيننا الى ان توفاه الله. واني لا ازال حتى الآن اميل الى المقتطف وآله فهم عندي مثل آل بدر

ولا بدَّ لي هنا من ذكر بعض النوادر عن الدكتور صروف وقد استفدت منهُ شيئاً كثيراً من العلم وليتني اخذت شيئاً من خلقه الكريم فقد كان الرجل الكامل هذا اذا كان في الدنيا كمال فانهُ كان اقرب الناس الى ذلك . ومن نوادره اني جئت من دمشق هرباً من الفرنسيين فدخلت يوماً عليه وأنا مفلس كالعادة فقلت له لي في ادارة المقطم اجرة برقية دفعتها الى اسعد داغر مكاتبكم في دمشق قال كم المبلغ قلت لا اذكر وأظنهُ خمسة جنيهات ففتح درجاً امامه وكتب تحويلاً بخمسة جنيهات ووقعهُ صرُّوف ونمر ومكاريوس ودفعهُ اليَّ وهو اشد خفراً من عذراء وقد كان رحمه الله شديد الحياء الى آخر عمره

وكان الدكتور شميّل معهما في المدرسة وكان كثير التردد الى ادارة المقتطف فقد كان المقطم والمقتطف كعبة يقصدها كل من اتى مصر من اهل الشام ولا يكاد يأتي احدهم الاَّ ويزور المقطم ليرى الدكاترة ويسلم عليهم. وكان الدكتور شميل اذا نادى الدكتور صروف يقول يا صروف واذا نادى الدكتور نمر يقول يا فارس اي انهُ كان يناديهما كما كان يناديهما ايام التلمذة في المدرسة . وكان رحمه الله ضعيفاً في مسألة الاعمار . وكانت تشتد المناقشة بينه وبين الدكتور نمر احياناً وأذكر مرة انه قال للدكتور نمر يوماً « انا شو بيجيبني ليك » قال له الدكتور نمر نحن من عمر واحد . نحن عمرنا ستون سنة . واذكر اني قلت مرة للدكتور شميل ألستَ طبيباً من اربعين سنة قال « يعني انت ابن امبارح » وهوى عليَّ بهراوته . رحمهُ الله وجعل الجنة مأواه وأطال في عمر الدكتور نمر

مصر الجديدة امين المعلوف

***

— ٣ —

لنجيب شاهين

ولد المقتطف في بيروت سنة ١٨٧٦ على يدي المولّدين النطاسيين يعقوب صرُّوف وفارس نمر ثم انتقلا به الى هذه العاصمة وهو في التاسعة من سنهِ اي سنة ١٨٨٥ . فلما صدر المقطم سنة ١٨٨٨ استقلَّ يعقوب صروف بتربيتهِ وحده تقريباً واستقلَّ فارس نمر بتربية المقطم وحده تقريباً ثم جاءتهما الدكتوراه الفلسفية سنة ١٨٩٠ من جامعة نيويورك .فعرفا منذ تلك السنة بالدكتور صرُّوف والدكتور نمر

ودعي كاتب السطور في اوائل هذا القرن الى التحرير في هذا تارةً وفي ذاك طوراً . وكانت ادارتهما في حارة فايد التي توصل ما بين شارع عبد العزيز وشارع عابدين فكنت أرى في

الادارة رهط العلماء والادباء والاكابر الذين كانوا يترددون اليها واحداً فواحداً في ساعات مختلفة من النهار — أراهم من بعيد ولا أمدُّ اليهم يداً لمصافحة لاني كنت اصغر منهم في كل شيء وكنت أشعر كل شعور بوجودهم وهم لا يشعرون بي ولا يعلمون عني شيئاً

وسأبدأ الكلام بالمتقدم منهم على قدر ما تساعدني الذاكرة وعلى قدر ما يسمح بهِ المقام

***

كان ابراهيم بك المويلحي الملقب الكبير يومئذٍ في ذروة شهرتهِ الادبية كاديب منفرد على اثر اصدار كتابه « ما هنالك » . والاشارة بهنالك الى الاستانة « العلية » كما كانت تسمى حينئذٍ في خلافة السلطان عبد الحميد الثاني . وقد خرج كتابهُ آية في البلاغة العربية بعدوقوف المويلحي الصغير عليهِ — اي المرحوم محمد بك المويلحي نجل ابراهيم بك — وتهذيبه حتى كان كتاب « اليوم » في ذلك الزمان . كان المويلحي الكبير دائم الترداد الى ادارة المقطم في صبيحة كل يوم ما عدا ايام الاحد ليستعلم عن صحة السلطان عبد الحميد الذي وقف كتاب « ما هنالك » على ذم ظالميهِ . وكنا نحن المحررين نعلم بقدومهِ من عصا كان يحملها ويضرب بها الأرض ضرباً منتظماً ثانية فثانية يسمع صداه في ارجاء الادارة والمطبعة

ثم يجيء بعده او متأخراً عنهُ المويلحي الصغير لابساً ردنجوتهُ كأنهُ في التشريفة الكبرى وكانت الردنجوت لبسهُ الدائم لا يستبدل بها غيرها . وقد توفي محمد بك منذ بضع سنين فقط . رحمهما الله

وكان السيد توفيق البكري من أسرة البكري الحسيبة النسيبة والناثر المسجع وصاحب المقامات المعروفة باسم صهاريج اللؤلؤ من اصدق اصدقاء المقطم لا يكاد يوم يمر من غير ان يزورها فيهِ وهما يبالغان في اكرامهِ حتى اصيب بما نغّص اصحابهُ عليه فبات لا يزور ولا يزار وبقي ذلك حاله الى يوم مماته

وكان يزور الادارة آناً بعد آن الشيخ السادات من أشهر الاسر المصرية الشريفة وكان قصير القامة بدين الجسم احمر الوجه كبير العمامة يتكلم بغمغمة بلدية فاذا وقف بباب الادارة سأل عن صاحبيه بصوت ضخم ولهجة غير مفهومة فهرعا لاستقباله الى الباب ومشيا حوليهِ يبالغان في اكرامهِ وكان رقيق الحديث جم الأدب تعرف من نظرة اليهِ انهُ سليل قوم اكارم وابن آباء أماجد

توفي الدكتور شميل في اوائل سنة ١٩١٨ واشتهر في الشام ومصر بأنهُ اول من انتحل مذهب داروين عقيدة لهُ في الشرق الادنى : درس الطب في بيروت وكان معاصراً في شبابه لصاحبي المقتطف ايام كانوا جميعاً طلاباً في جامعة بيروت الاميركية . وكتب كثيراً

وألف وخطب في تأييد مذهب داروين . وكان يزور ادارة المقتطف يستفسر عن « الحلقة المفقودة » وهل وجدت لا زيادة في الايمان بل للاطمئنان اذ لم يكن في حاجة الى البرهان على أن القرد هو جدّ الانسان ! !

وممن كنت أرى في الادارة اسكندر شاهين صاحب جريدة « الرأي العام » الاسبوعية وسليم سركيس صاحب مجلة « المشير » ثم مجلة « سركيس » وكان الاول ابن عم شاهين مكاريوس احد اصحاب الشركة . وصاهر الثاني الاستاذ كريم ثابت نجل خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم الآن . وكانا كلاهما يحسنان الانكليزية كتابة احسانهما للعربية

وكان صاحب الصاعقة وتلميذ المويلحي الكبير يكثر من زيارة شاهين بك فتعرفت بهِ حينئذٍ وتمكنت الالفة بيننا . ولما خرجت من المقطم الى « الجريدة » كنت كثيراً ما اجتمع بهِ اذا انتظمت الحلقة في القهوة المناوحة لدار الكتب وكان مركز الدائرة حافظ ابراهيم يتكلم وهو ينفخ في نارجيلتهِ ونحن نسمع فلا يترك مجالاً لقائل

كان حافظ قليل التردد الى الادارة الاَّ اذا اراد نشر قصيدة من قصائده في المقتطف او المقطم . وكان صاحباها كثيري الطرب بحديثهِ . وكان المقطم اول الصحف التي نشرت لهُ مقطوعات كان يبعث بها وهو سائر مع حملة دنقلة لفتح السودان فتنشر بامضاءِ « احد ارباب السيف والقلم » ثم عرف واشتهر ان ذلك العلم هو حافظ ابراهيم وكان يوزباشيًّا . ولم أرَ شوقي مرة في ادارة المقطم في عهد سمو الخديوي عباس لاسباب سياسية . ولكن الدكتور صرّوف كان يقدر شعرهُ كما يقدرهُ كل اديب يعرف معنى الادب

زارني الاستاذ العقاد يوماً في ادارة المقتطف بعد عودي من « الجريدة » اليهِ وطلب مني ان اقدمهُ الى الدكتور صرّوف في شأن من الشؤون فامتثلت حالاً وقلت للدكتور ان الاستاذ العقاد يريد مقابلتك فابتسم تلك الابتسامة البريئة المأثورة عنهُ وذكر استياءهُ من الحملة على شوقي ولكن قال ان هذه الحملة على استهجانهِ اياها يجب ألاَّ تحول دون مقابلتهِ لاديب مثله . ثم قابلهُ فلقي العقاد كل لطف منهُ . والظاهر ان هذه المقابلة بين الدكتور صرّوف والاستاذ العقاد لم تكن الاولى فان الاستاذ العقاد ذكر في تأبينهِ للدكتور صرّوف انهُ قابله لما كانت دار المقتطف على مقربة من شارع عبد العزيز وانهُ اطلع اولاً في حداثتهِ على اسم المعري في المقتطف ولذلك نشر فيهِ بحثهُ في المقابلة بين المعري وداروين وشوبنهور

وزاملت في المقطم المرحوم اسعد خليل داغر اللغوي المعروف والشيخ يوسف الخازن صاحب الاخبار المصرية سابقاً والارز في بيروت حالاً والاديب اللغوي رشيد عطيه من اشهر الصحافيين في الارجنتين الآن . والمرحومين سامي قصيري واسحق صرّوف

لست اعلم عن شركة اختلط اصحابها على الغرباء عن الادارة كما اختلط اصحاب المقطم عليهم فقد سمعت الذين يطلبون مقابلة الدكتور صرُّوف نمر او نمر بك، مكاريوس . وهذه الاسماء اسماء ثلاثة لا واحد ولا اثنين

ولا اعرف مجلة او جريدة لابست صاحبها كما لابس المقتطف الدكتور صرُّوف او المقطم الدكتور نمر (ليسمح لنا النحويون بعدم التنوين الآن) حتى ان الذي كان يقرأ المقتطف في عهد الدكتور صرُّوف كان كأنهُ يرى الدكتور امامهُ ويصيب في وصفهِ اذا طاب ذلك منهُ . وكان هذا شأن المقطم ايضاً

وكان الدكتور صرُّوف يعنى بتشديد الراءِ كتابةً وطبعاً في اسمهِ لما سمع الرطانات الكثيرة ومع ذلك فقد حزن وابتسم لما علم ان الشيخ الدمرداش قدم لمقابلته وسأل عن الدكتور صروف بفتح الصاد وضم الراءِ بتخفيف !

واخواننا المصريون يصرُّون على التلفظ بأسماءِ بعض السوريين كما يستحسنون هم لا كما تلفظ اسماؤهم مع انك اذا أخطأت في حركة اسم مصري قامت القيامة عليك . فبالامس كان احدهم يترحّم على الشيخ العدوي بفتح ففتح فلم يفهمهُ احد او فهمهُ ومكر وسأل من هذا فقيل لهُ العدوي بكسر العين وكان هذا السوري قد عرف المرحوم وقيل لهُ انهُ من بني عدي بفتح العين فاراد ان يستعمل قواعد النسبة الصرفية في اصلاح اسم قديم لفظ بهِ بكسر العين منذ عهد بعيد فطاش سهمهُ

***

ولا تزال ادارة المقتطف كما كانت من قبل سوق عكاظ او مباءة لجيل جديد من الادباء لا يعرف الجيل القديم . واذا وقف بهم احد من بقايا الجيل القديم انكروه كانهُ سامريّ ! او خيل اليهِ انهم كذلك فعلوا فان لم يصدق تخيلهُ فان سوء الظن من حسن الفطن

ومن هؤلاءِ كاتب هذه السطور والفريق امين المعلوف ومصطفى صادق الرافعي واسماعيل مظهر واقل منهم عتقاً واكثر جدة محمود الدمياطي وعبد الرحمن شكري . ولولا خوفي ان يتهموني بتكبير اسنانهم وتصغير سني لمدحتهم بما مدح بهِ الفرزدق آباءهُ وهو يفارع جريراً حيث قال

اولئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

وكما كان المرحوم الدكتور صرُّوف نقطة الدائرة في حلقة ادباءِ عهده وعلمائهم فكذلك محرر المقتطف الآن هو نقطة دائرة الجيل الجديد ممن جعل ادارة المقتطف مجمعاً له ، ان كان دون مجمع جرير والفرزدق والاخطل في الشعر فهو فوقهُ في العلم الحديث . والفضل في ذلك لثلاثة عشر قرناً تفصلنا عنهم . والاَّ فأين نحن منهم

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الثامن والثمانين

صفحة

مطبوعات جامعة بيروت الاميركية

دائرة الابحاث الاجتماعية

{ مراجع ما نشر بعد الحرب العظمى عن بلدان الانتداب في الشرق الادنى } لغاية ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٩ ثمانية اجزاء اثنان منها يتضمنان بيان ما نشر في الكتب والنشرات الدورية باللغة العربية والستة الباقية تتضمن ما نشر في اللغات الاجنبية

ثمن كلّ من الجزءين العربيين مجلداً بورق ٤٠ غ . م . مجلداً بقماش ٥٥ غ.م.

{ النظام النقدي والصرافي في سوريا } للاستاذ سعيد حماده استاذ الاقتصاد العملي في الجامعة . يصف جهاز النظام النقدي والصرافي وكيفية سيره مع تقدير حسناته وسيئاته في القيام بوظائفه الاقتصادية في البلاد واقتراح اصلاح عامّ على ضوء النظريات الاقتصادية الحديثة والحوادث الواقعة

صدر بالانكليزية والعربية . ثمن كل من الطبعتين : بورق ٤٠ غ.م. بقماش ٥٥ غ.م.

{ النظام الاقتصادي في سوريا } يبحث بحثاً عامًّا شاملاً في الاركان التي يقوم عليها كيان سوريا الاقتصادي بما فيه سكان البلاد ومرافقها الطبيعية وزراعتها وصناعتها وتجارتها وانظمتها المالية . اشترك في تأليفه عدد من اساتذة الجامعة مع محرّره الاستاذ سعيد حمادة استاذ الاقتصاد العملي

صدر بالانكليزية في فبراير : ثمنهُ مجلداً بورق ٦٠ غ . م . بقماش ٧٥ غ . م .

وستصدر قريباً طبعة عربية منهُ

{ مؤهلات الاستقلال } للاستاذ ولتر هومن رتشر استاذ العلوم السياسية في الجامعة يتضمن بحثاً دقيقاً في مؤهلات الشعوب للحكم الذاتي

صدر بالانكليزية وثمنهُ مجلداً بورق ٤٠ غ .م. بقماش ٥٥ غ . م .

وستصدر قريباً طبعة عربية منهُ

تطلب هذه الكتب من الجامعة الاميركية . بيروت . لبنان او من

Oxford University Press

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

مـ

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانيه)
٧٠ » » » » (طبعة ثالثة)
٧٠ » » عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ » المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ » » عربي انكليزي فقط
١٥ » » انكليزي عربي فقط
٧٠ » سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ » » » انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ » » » » » وبالعكس
١٠ التحفة المصريه لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان » » »
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسه » »
١٠ الاراء والمعتقدات » »
١٠ اصول الحقوق الدستوريه » »
٨ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات » » »
٨ نظرية التطور وأصل الانسان » »
٢٠ اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في امريكا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠ جريمه سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (الاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠ قبض الريح » » » » »)
٨ لمحات وروايع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديده (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ، اول (صور بالالوان)
٥ » » ثان » » »
٥ » » ثالث » » »
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (الاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

مـ

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (» الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحه للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم » » »
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) » »
١٥ اسرار الحياة الزوجية » »
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات » »
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث »
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس » » » »
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصه كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ » فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ » الانتقام العذب (اسعد خليل داغر)
٥ » فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ » باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ » غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ » روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ » ام روكامبول ، ٥ اجزاء »
٢٠ » باردليان ، ٣ اجزاء »
٢٠ » الملكة ايزابو ٤ اجزاء »
٢٠ » الاميرة فوستا ٢ جزآن »
٢٠ » عشاق فنيسيا ، جزآن »
١٦ » الساحر العظيم ٤ اجزاء »
١٦ » لابينان ، جزآن »
١٦ » الوصية الحمراء ، جزآن »
١٦ » بائعة الخبز »
١٢ » المبرج ، جزآن »
١٠ » فارس الملك »
١٠ » ضحايا الانتقام »
٨ » المرأة المفترسة »
٥ » المتنكرة الحسناء »
٥ » مروضة الاسود »
٥ » شهداء الاخلاص »
١٦ » دار المصائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ » فرنسوا الاول » »
١٠ » الجنون فنون » »
٨ » حورية » »
٨ » الملاك العاريه ان » »
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٥ النبي (» » »)
٥ آلهة الارض (» » »)